مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الحادي والأَرْبعُونَ

سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

المُجَلَّدُ الحادي والأَرْبعُونَ

سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْجُزْءُ الْعِشْرُونَ

سُورَةُ القَصَصِ

﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾

[القصص: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

امتثالُ موسى لأمر النّاصح الصّادق

لمّا نصح الرَّجلُ موسى عليه السلام بالخروج من المدينةِ على سبيل الاستعجال؛ امتثل موسى لأمر النّاصح؛ لِما لاحَ له من صدْقِهِ بأماراتٍ بيِّنةٍ واضحةٍ، فخرج، وقد أفلت من طالبيه فلم يجدوه، فوصف اللّه خروجه بقوله: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَجِّنِي﴾: (نجو) أصلان، يدلُّ أحدهما على كَشْطٍ وكَشْفٍ، والآخر على سِترٍ وإخفاء، والمقصود هنا الأوَّل، فنجا الإنسانُ ينجو نجاةً، ونَجاءً في السُّرعة، وهو معنى الذَّهاب والانكشاف من المكان، وناقَة ناجيةٌ ونَجاةٌ: سريعةٌ[2]، وكلُّ ما في القرآن من هذا التَّركيب، فهو بمعنى: الخلوص من خطر مُحدِق أو عذاب أو غرق أو كرب[3]، وهو بهذا المعنى في هذه الآية، فقد دعا موسى عليه السلام ربَّه أن يخلِّصه من كيد فرعون وجنده.

المَعْنى الإجْماليُّ:

خروج موسى من أرض فرعونَ سائلًا اللهَ التوفيق والعَوْن

يُخبر ربُّنا سبحانه أنَّ موسى عليه السلام خرج من مدينة فرعون خائفًا أن يقتل بالنَّفس التي وكزها، فقُتلت، وينتظر الطَّلب أن يدركَهُ، فيأخذه، فدعا اللّه أن ينقذه من القوم الظالمين[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ العطف بالفاء في ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا﴾:

عطفت الجملة في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 295.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(3) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 198، ونخبة مَن العلماء، التّفسير الميسر، ص: 387.

مبادرةُ موسى عليه السلام لامتثال نصيحة الرَّجل

ما قبلَها بحرف الفاء الدّال على التَّعقيب، وقد عطفت هذه الفاء على محذوف، تقديره: فعمل موسى بنصيحته، فخرج، فأشعرت هذه الفاء بمبادرة موسى عليه السلام إلى امتثال نصيحة الرجل[1].

دلالةُ التَّعبير بالماضي في ﴿فَخَرَجَ﴾:

تحقُّقُ خروج موسى عليه السلام من مدينة فرعون

أوثرَ التَّعبيرُ بصيغة الماضي في الفعل ﴿فَخَرَجَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق خروج موسى عليه السلام من مدينة فرعونَ بعد ما لاح له من أمارات صدق الرجلِ الناصح، فخرج منها فرارًا من فرعونَ وملئه، بدليل قوله: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ [الشعراء: 21].

نكتةُ التَّعبيرِ بشبهِ الجملة ﴿مِنۡهَا﴾:

انطلاقُ موسى من مدينة فرعون قاصدًا مدينة مدين

استعملَ النَّظمُ حرفَ الجرِّ (من) في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا﴾، ومعناه في هذا السّياق ابتداء الغاية، بمعنى: أنَّ موسى قد انطلق من مدينة فرعون، قاصدًا مدينة مدين، متوكِّلًا على اللّه في أن يهديه طريقها.

ويعودُ الضَّمير في شبه الجملة على المدينة المذكورة في الآيات السّابقة، بما اتَّصفت به من كونها مكانَ حصول حادثةِ قتْلِ القبطي، وكون مَلَئِها يأتمرون بموسى عليه السلام؛ ليقتلوه، فخرج منها موسى فرارًا بنفسه.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهَا﴾:

توقُّفُ حياةِ موسى وأمنه على الخروج من مدينة الخوف

تقدُّمُ الجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾؛ لنكتةِ الاهتمام بخروج موسى عليه السلام من مكان الخوف، وهي المدينة، وتوقُّف حياته ونجاته على الفرار من بطش فرعون وجنوده، كما أنَّ في تقديم الجار والمجرور إزالة للبس في فَهم المعنى، فالجارُّ والمجرور متعلِّقان بالفعل ﴿فَخَرَجَ﴾، ولو أُخِّر؛ لأَوْهَمَ تعلُّقهُ بالوصفين: ﴿خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ وهو غير مراد.

(1) درويش، إعراب القرآن: 7/ 297.

سرُّ تكرار الوصفين ﴿خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾:

اشتدادُ الخوفِ والترقُّب بعد ظهور حادثة القتل

تكرُّرُ وصف موسى عليه السلام بكونه: ﴿خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ في كلٍّ من قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾، ويظهر الاختلاف بينهما في اختلاف زمان الخوف والتَّرقُّب ودرجتهما في كلٍّ من الآيتين، ففي الآية الأولى كان الخوف بعد قتْلِ القبطيِّ وترقُّب علم النّاس بأمر المقتول، وأمّا في الآية الثانية؛ فالخوف والترقُّب أشدُّ بسبب ظهور أمرِ حادثة القتل، والتشاور على قتل موسى عليه السلام، وترقب لحاق الطلب به لأخذه.

دلالةُ الحال في قوله: ﴿خَآئِفٗا﴾:

تلبُّسُ الخروجِ من المدينة بالخوف

جاء لفظ ﴿خَآئِفٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا﴾ حالًا من فاعل ﴿فَخَرَجَ﴾، ولمّا كان الحالُ على معنى اقترانهِ بصاحبِه في وقت الحدث؛ أفاد أنَّ موسى عليه السلام كان خائفًا في وقت الخروج من المدينة، فخروجُهُ كان ملتبِسًا بخوفِه.

بلاغةُ حذفِ متعلّقِ ﴿خَآئِفٗا﴾:

خاف موسى على نفسِه من أن يُدركه الطَّلب

ورد الوصف ﴿خَآئِفٗا﴾ مطلقًا دون ذكر متعلّق متعلِّقٍ في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا﴾؛ لإفادة اتِّصافه بالخوف من غير نظر إلى أيِّ أمر آخر، وليدلَّ الإطلاق على إرادة العموم، فيحتمل توجيهات متعدِّدة، ولهذا ذكر المفسِّرون أقوالًا متباينة، فقيل: خائفًا أن يقتفوا أثره أو خائفًا على نفسِه من أن يُدركَ في الطَّلب[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الفعلية ﴿يَتَرَقَّبُ﴾:

تصويرُ حال موسى في النَّفس واستحضار مشهد خروجه

عُبِّرَ بالجملة الفعليَّة ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾، وهي في محلِّ نصبِ حالٌ أخرى من فاعل الخروج، وهو موسى عليه السلام[2]، والنُّكتةُ في مجيء هذه الحال جملةً فعليَّةً دلالةُ

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 59، والشّربيني، السّراج المنير: 3/ 90.
(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 128.

الفعل المضارع فيها على الاستمرار التجدُّدي؛ إضافةً إلى ما فيه من تصوير الحال واستحضار المشهد في النَّفس، بمعنى تجدُّد ترقُّب موسى وترصُّده للطلب وقتًا فوقتًا، ممّا يومئُ إلى أنَّه كان يكثر الالتفات بإدارة رقبته في الجهات ينظر، هل يتبعه أحد؟.

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

استنباطُ الفوائدِ والعِبر من قصَّة موسى عليه السلام

تُستنبَطُ من قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ كنايتان، **الأولى:** أنَّ خروج موسى عليه السلام من مدينة فرعون كان على وجه الفرارِ؛ لاقتران الخروج بالخوف والترقُّب، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ [الشعراء: 21].

والكناية الثانية: عن سرعة خروجِ موسى عليه السلام من المدينة دون تحضيرٍ لسفره، فخرج بلا زادٍ ولا هادٍ، فأفلتَ من القوم، فلم يجدْهُ أحدٌ منهم، وخرج بحكم فَزَعِهِ ومبادرته إلى الطريق المؤدّية إلى مدين، وهي مدينةُ قوم شعيب عليه السلام، وكان موسى لا يعرف تلك الطريق، ولم يصحب أحدًا، فركب مَجْهَلَتَهَا واثقًا باللّه تعالى ومتوكِّلًا عليه[1].

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي﴾:

اشتمالُ الترقُّب على سؤال النَّجاة من الربِّ

فُصِلَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿يَتَرَقَّبُۖ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنَزَّل الثّانية من الأولى منزلة نفسها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بدلَ اشتمالٍ من جملة ﴿يَتَرَقَّبُۖ﴾؛ لأنَّ ترقُّبه يشتمل على الدُّعاء إلى اللّه بأن ينجيه[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 282.
(2) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 96.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿نَجِّنِي﴾:

تخليصُ اللهِ سبحانه لعبدِهِ مِن بطْشِ فرعون وجنودِهِ

أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل (نجِّ)، في قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا الأصل يدلُّ على الذَّهاب والانكشاف من المكان في سرعة، والعرب تقول: ناقَةٌ ناجيةٌ ونَجاةٌ: سريعةٌ[1]، وكلُّ ما في القرآن من هذا التَّركيب فهو بمعنى الخلوصِ من خطر محدِق أو عذاب أو غرق أو كرب، نحو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: 64][2]، وهو بهذا المعنى في هذه الآية، فقد دعا موسى ﷺ ربَّه أن يُخلِّصه من بطش فرعون وجنوده، وقد أجاب اللّه دعاءه.

نكتةُ ذِكرِ القومِ في ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

رسوخُ الظُّلم في قوم فرعون وعدُّه من خصائِصهم

أتى النَّظمُ الكريم بلفظ (قوم) في قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مع صحَّة المعنى دونه، وذلك لنكتة بديعة، وهي الإشارةُ إلى أنَّ الوصفَ المذكورَ بعدَهُ، وهو الظُّلم كان من مقوِّمات قوميَّتهم؛ لأنَّه صار من خصائِصهم، بخلاف ما لو قيل: من الظّالمين، وشاهد ذلك قولُ العنبريِّ:

قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم *** طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا[3]

أي: قوم هذه سجيتهم[4].

فائدةُ التعريف بـ(أل) في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

دخولُ قومِ فرعون في الظّالمين عهدًا واستغراقًا

جاء لفظُ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ معرَّفًا بـ (أل)، في قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهي تحتمل العهدَ أو الاستغراق، فإن كانت للعهد؛ فالمقصودُ بالظّالمين فرعونُ وملَؤُهُ، ووصفهم بالظُّلم؛ لأنَّهم مشركون، وقد راموا قتله قصاصًا عن قتل خطأ، وذلك ظلمٌ؛ لأنَّ الخطأَ في القتل لا يقتضي الجزاء بالقتل في نظر العقلِ والشَّرع،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).

(2) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).

(3) لقُريط بن أُنيف من قبيلة بلعنبر، يُنظر: ديوان الحماسة، أبي تمام، ص: 20.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 297.

وإن كانت للاستغراق، فيدخل فيها كلُّ ظالم، ويدخل قومُ فرعونَ دخولًا أوَّليًّا[1].

نكتةُ التَّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

أصلُ الظُّلمِ وضعُ الشَّيءِ في غير موضعهِ المختصِّ به

أوثرَ التَّعبيرُ باسم الفاعل المجموع ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على رسوخهم في الظُّلم، وأصل الظُّلم: وضعُ الشيءِ في غير موضعه المختصِّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه[2]، ومعنى الظُّلم في هذه الآية الشِّرك، والظّالمون هم المشركون من أهل مصر[3]، وسُمّي الشِّرك ظلمًا؛ لأنَّه وضع العبادة في غير الخالق[4]، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان: 13].

العِبرةُ من قصَّة موسى مع القبطيِّ:

اللّه أعلمُ حيث يجعل رسالاته ويصطفي من يشاء من خلقه

محلُّ العِبرة من قصَّة موسى عليه السلام مع القبطي، وخروجه من المدينة من قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾، إلى هذه الآية: هو أنَّ اللّه يصطفي من يشاء من عباده، وأنَّه أعلمُ حيث يجعل رسالاتِهِ، وأنَّه إذا تعلَّقت إرادته بشيء؛ هيَّأ له أسبابه بقدرته، فأبرزه على أتقن تدبير، وأنَّ النّاظر البصيرَ في آثار ذلك التَّدبير يقتبس منها دلالةً على صدق الرَّسول في دعوته، وإنَّ أوضح تلك المظاهر هو مظهر استقامة السّيرة ومحبة الحقِّ، وأنَّ دليل عناية اللّه بمن اصطفاه لذلك هو نصره على أعدائه، ونجاته ممّا يُكاد له من المكائد، وفي ذلك كلِّه مثلٌ للمشركين لو نظروا في حال محمد ﷺ في ذاته وفي حالهم معه، ثم إنَّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ إيماءً إلى أنَّ رسوله ﷺ سيخرج من مكَّة وأنَّ اللّه منجيه من ظالميه[5].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 490، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 96.
(2) يُنظر: ابن سِيده، المحكم والمحيط الأعظم، والراغب، مفرداتُ ألفاظ القرآن: (ظلم).
(3) مقاتل بن سليمان، التّفسير: 03/ 340.
(4) يُنظر: الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/ 82.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 96.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّجاة والتَّخلُّص:

خصوص التخلُّص من تعقيد، وخصوص النجاة من أذًى

يتمثَّلُ الفرق بين لفظي (النَّجاة) و(التخلُّص) في كون التخلُّص لا يكون إلّا من تعقيد، وإن لم يكن أذًى، في حين أنَّ النجاة لا تكون إلّا من أذًى، ولا يقال لمن لا خوف عليه: نجا؛ لأنَّه لا يكون ناجيًا إلّا ممّا يُخاف[1].

كما يظهر الفرق جليًّا في ملحظ اشتقاق كلِّ لفظ، فأصل النَّجاة: الانكشافُ من المكان بسرعة[2]، في حين أنَّ أصل التخلُّص: تنقيةُ الشَّيء وتهذيبه، والصفاء من المكدِّرات[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 120.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [القصص: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الفعلُ بعد الدُّعاءِ، والتَّوكّلُ بعد الالتجاءِ

لمّا أخبرتِ الآيةُ السّابقة عن دعاءِ موسى ﵇ بطلب النَّجاةِ منَ القوم الظّالمين؛ ناسب أن يذكر فعلَه بعد الدُّعاءِ، وتوكُّلَه بعدَ الالتجاء، فأراد الحقُّ سبحانه أن يُعلِم باستجابته منه، مُخبرًا بجهة قَصْده زيادةً في الإفادة، فقال: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾، أي: فاستجاب اللّٰهُ دعاءَه، فنجّاه منهم، ووجَّهَهُ إلى مدينَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَجَّهَ﴾: أصلُ (وجه) يَدُلُّ عَلَى مُقابَلَةٍ لِشَيْءٍ؛ والوَجْهُ مُسْتَقْبِلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ وضَلَّ وِجْهَةَ أمرِه، أي: قَصْدَه، وخَلَّ عن جِهَتِه: يريد جِهَةَ الطّريق، وتَوَجَّهَ إليه: ذهب، والجِهَةُ والوِجهَةُ جميعًا: الموضعُ الذي تتوجَّه إليه وتقصِدُه[2]، والتَّوجُّه: الإقبالُ على الشَّيءِ، يُقال: توجّه وِجهةَ تلقاء، أي: ناحيةَ وجْهِه[3]. والمعنى هُنا: أقبل بوجهه قاصدًا تِلْقاءَ[4] مَدْيَن.

2) ﴿تِلۡقَآءَ﴾: أصلُ (لقي) يدُلُّ على توافي شَيئَين[5]، أي: تُجاهَ ونَحوَ، والتِّلْقاءُ: جِهةُ اللَّقاءِ والمُقابَلة[6]، والتِّلقاءُ مصدرٌ على وزن (التِّفعال) بكسر التّاء، وليس له نظيرٌ في كسر التّاء إلّا تِمثال،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 263.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لِسان العَرَب: (وجه).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 295.
(4) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 635، والخطيب الشِّربيني، السّراج المنير: 3/ 138.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لقي).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 331، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 166.

وتَلَقّاه والتَقاه والتَقَيْنا وتَلاقَيْنا والتَقَوْا وتَلاقَوْا بمعنًى، وجلس تِلقاء، أي: حِذاءَهُ. يُقال: داره تِلْقاء دارِ فلانٍ، إذا كانت مُحاذيَتَها(1).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تحقيقُ الأمنِ حِظْوةٌ مستطابةٌ ومَطلبٌ مستجادٌ

تُخبر الآيةُ عن فعل موسى ﷺ بعد التجائه إلى اللّٰه تعالى، في توجُّهِهِ إلى مَدْين، مُقْبِلًا بوجهه إليها؛ لِما فيها منَ الأمن وخروجِها من سلطان فرعونَ، تَضرَّعَ إلى اللّٰه أن يهديَه طريقَ الخير والنّجاة، قائِلًا: عسى ربّي أن يُرشِدَني إلى خيرِ طريقٍ، فلا أَضِلُّ عنها(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها:

تقديرُ المحذوفِ يُقصد به تقريبُ المَطويّ لا تعيينُه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ عَطفتْ الجملةَ على جُملة محذوفة تقديرُها: ولمّا خرج منَ المدينة هائمًا على وجهه، فهداه اللّٰهُ إلى الطَّريق الذي يؤدّي إلى أرض مَدينَ، فلمّا سلك هذا الطَّريقَ(3)، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهذا تقديرٌ افتراضيٌّ، يُقصَدُ منه تقريبُ المَطويِّ لا تعيينُه؛ فنَلحظ التَّرابطَ بَيْنَ الكلماتِ والمعاني، ومُناسبةَ الآياتِ بعضِها لبعض؛ لتبدوَ كنسيجٍ واحد دقيق، يُكَمِّل بعضُه بعضًا؛ وليدُلَّ على المعنى المُرادِ إيصالُه بأقربِ الطُّرق، وأبلغِ العبارات وأقصرِها.

دلالةُ التَّعبير بالماضي:

الدُّعاءُ الشَّرعيُّ هو المُقترِنُ بالعملِ المُحَقَّق

جاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿تَوَجَّهَ﴾ أي: لمّا جَعَلَ موسَى وجْهَهُ نَحْوَ مَدْيَنَ، ماضيًا إلَيْها، شاخِصًا عَنْ مَدينَةِ فِرْعَوْنَ، وخارجًا عَنْ سُلْطانِه(4)، قال: ربِّ اهدني إلى سواء السَّبيل، وأرشدني

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 97.
(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 578، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 388، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 388.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 20/ 97.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 202.

إلى الطّريق القويم، ونجّني من هؤلاء الظَّلمة[1]، وفي التَّعبير بالماضي دلالةٌ على أنَّ الدُّعاءَ يجبُ أن يقترنَ بالعملِ المُحقّق، لا بالمُتَوقّع.

دلالةُ تقييدِ الفعل بالظّرف:

لفظُ ﴿تِلۡقَآءَ﴾ على وزن (تِفعالٌ) من لقيتُ، وهو مصدرٌ اتُّسِعَ فيه؛ فاستُعمل ظرفًا، يُقال: جلس تِلقاءَه، أي: حِذاءَهُ ومُقابَلَتَه[2]؛ فهو بمعنى: اللِّقاء والمُقاربة، وشاع إطلاقُ هذا المصدر على جهته، فصار من ظروف المكان التي تُنصَبُ على الظَّرفيَّة، والتَّقديرُ: (لمّا توجَّهَ جِهةَ تلاقي مَدْيَن)، أي: جهةَ تلاقي بلادِ مدين[3]، وقد احتَجَّ من قال: إنَّه خرج وما قصد مَدين بقوله: ﴿تِلۡقَآءَ﴾، ولو كان قاصدًا الذَّهابَ إلى مدينَ لقال: (ولمّا توجه إلى مدين)؛ فلمّا لم يقل ذلك، بل قال: ﴿تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾، علمنا أنَّه لم يتوجَّه إلّا إلى ذلك الجانب، من غير أن يَعْلَم أنَّ ذلك الجانبَ إلى أين ينتهي؛ ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ بعد ذلك، وهذا كلامُ شاكٍّ لا عالم، والأقربُ أن يُقال: إنّه قصد الذَّهابَ إلى مدينَ، وما كان عالِمًا بالطَّريق[4]، فهو مُريدٌ لَمدينَ، غيرُ عالمٍ بالطَّريق.

علَّةُ فصلِ جملة الجواب:

فُصِلَت جملةُ: ﴿قَالَ عَسَىٰ﴾ عمّا قبلَها، والمقتَضي للفصل شِبهُ كمالِ الاتّصال، فهُنا سؤالٌ ينبثق منَ الجملة السّابقة: (ماذا قال موسى عندما توجَّه إلى مدين؟)؛ فتأتي هذه الجملة جوابًا لذلك.

فائدةُ استعمالِ أسلوبِ التَّرجّي:

﴿عَسَىٰ﴾ فعلٌ غيرُ مُتصَرِّف، معناه: المُقاربةُ على سبيل التَّرجّي والتَّوقُّعِ المقرونِ بالظَّنِّ الرّاجِح، فموسى عليه السلام في قَوله تعالى: ﴿قَالَ

المُتوكِّلُ يتَّجِهُ نحوَ المطلوبِ ولو لم يتحقَّق مِنَ التَّفاصيل الموصِلة

عند بَدءِ العمل يَحْسُن الالتجاءُ ويَجْمُلُ الدُّعاء

ظَنُّ العبدِ بربِّه يُنجّيه من مسالكِ الضَّياع

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 49.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 393.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 97.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 587.

﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ رَجَى ربَّه ﷺ أن يهديَه الطَّريقَ السَّويَّ حتَّى لا يَضِلَّ فيَهْلِكَ، واستجاب اللّه له، فهداه الطَّريقَ حتَّى وصل إلى بلاد مدينَ(1).

نُكْتَةُ استعمالِ عنوانِ الرُّبوبيَّة:

مقامُ الإنجاءِ الموصِلِ إلى السَّبيل المقصودِ يُناسبُه عُنوانُ الرُّبوبيَّة

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ اختيارَ عنوانِ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: الذي خلقني بقُدرته، وتولّاني برعايته وتربيته، أن يهديَني ويُرشدَني إلى أحسن الطُّرق التي تؤدّي بي إلى النَّجاة منَ القوم الظّالمين(2)، فلمّا كانت عنايةُ اللّهِ به أتمَّ؛ لِما له من عظيم المُراقبة، قال: ﴿رَبِّيٓ﴾ أي: المُحسنُ إليَّ بعظيم التَّربية في الأُمور المُهْلِكَة(3)، فاختيارُ عنوانِ الرُّبوبيَّةِ هو الأنسبُ في سياق طلبِ النَّجاة، والرّعاية الموصلةِ إلى تحقيق المطلوب.

غرضُ الإضافة في قوله: ﴿رَبِّيٓ﴾:

دخولُ العبدِ في كنَفِ ربِّه تشريفٌ ورعايةٌ وعناية

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّة إلى ياء المُتكلِّم في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ﴾؛ للتّشريف، وطلبِ الرّعايةِ والعنايةِ، فكأنَّه يقول: هو ربّي فيرعاني ويهديني؛ فإنّ دخولَ العبدِ في كنَفِ ربِّه تشريفٌ ورعايةٌ وعناية.

دلالةُ التَّعبير بالمُضارع ﴿يَهۡدِيَنِي﴾:

الدُّعاءُ الموفَّقُ يشملُ الحالَ والاستقبالَ

آثَرَ النّظمُ التّعبيرَ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ لأنَّه عليه السلام يريد الهداية في الحال والاستقبال، فهو يطلبُ تَجدُّدَها واستمرارَها، وقد هداه تعالى إلى الطّريق القويم والصِّراطِ المُستقيم في الدُّنيا والآخرة، فجعلَه هاديًا مَهْديًّا، وألهمَه اللّه هذه الدَّعوةَ التي في طَيِّها توفيقُه إلى الدّين الحقِّ(4).

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 491، والجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 4/ 64.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 391.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 264.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 20/ 97.

غرضُ الإضافة في ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾:

السّبيلُ الموصِلُ بأقصرِ الطُّرق هو الوسطُ غيرُ المعْوَجّ

أُضيف لفظُ ﴿سَوَآءَ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ في قوله: ﴿أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، من باب إضافةِ الصّفة إلى الموصوف، والمعنى: أن يهديَني السَّبيلَ السَّويَّ الذي لا زحمةَ فيه، ولم يكن موسى يعرفُ الطَّريقَ إليها[1]، وجاء التَّركيبُ على أسلوب الإضافةِ لا الوصفيَّة؛ لإبرازِ أنَّ المقصود هو صفةُ السَّواءِ الموصلةِ إلى الغاية على وجه الخصوص، لا عمومِ السّبيل.

نُكْتَةُ استعمالِ لفظِ ﴿سَوَآءَ﴾:

رجاءُ العبدِ من ربّه أن يهديَه الصّراطَ المستقيم الذي يُؤدّي إلى النّجاة

السَّواء: المستقيمُ النَّهجِ الذي لا التواءَ فيه، السّهلُ المُؤدّي إلى النَّجاة[2]، فسأل موسى ربَّه أن يهديَه أقْصدَ الطّريق، بحيثُ إنَّه لا يَضِلُّ، إذ لو سلكَ ما لا يوصِلُه إلى المقصود لَتاه[3]. وفيه توجيه إلى أن يكثر العبد الرّجاءَ والالتجاءَ لربِّه أن يهديَه الصّراطَ المستقيم الذي يُؤدّي إلى النّجاة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الطَّريقُ والسَّبيلُ والصِّراط:

الطَّريقُ ما يُسْلَكُ والسَّبيلُ أَسْهَلُهُ والصِّراطُ أَقْوَمُهُ

الطَّريقُ: هوَ كُلُّ ما يَطْرُقُهُ الطّارِقُ مِنَ النّاسِ؛ مُعْتادًا كانَ أَو غَيْرَ مُعْتادٍ[4]، قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾ [طه: 77].

وأَمّا السَّبيلُ: فهوَ الطَّريقُ السَّهْلُ؛ وأَغْلَبُ ما يَقَعُ في الخَيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِّ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأَنْعام: 55].

---

(1) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 7/ 154.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 391.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 296، والشّيخ علوان، الفواتح الإلَهيَّة: 2/ 79.
(4) الكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 513.

وأَمّا الصِّراطُ: فَهوَ السَّبيلُ الذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ولا التِواءَ.

فالفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقِ والسَّبيلِ: أَنَّ الطَّريقَ لا يَقْتَضي السُّهولَةَ واعْتيادَ السُّلوكِ[1]، أَمّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ فَهوَ السَّهْلُ المُعْتادُ.

والفَرْقُ بَيْنَ السَّبيلِ والصِّراطِ: أَنَّ الصِّراطَ لا اعْوِجاجَ فيهِ[2]، قالَ اللّٰه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: 161]، فالصِّراطُ أَخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تَعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[3]؛ وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْهما على الآخَرِ تَوَسُّعًا.

(1) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 298.
(2) الكَفَوِيُّ، الكُلِّيّات، ص: 513.
(3) المُناوِيُّ، التَّوقيفُ، ص: 215.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَن توجَّه إلى مقصودِه بلَغَهُ، ومن أخذ بالأسباب أوصَلَتْهُ

لمّا أخبرتِ الآيةُ السّابقة عن توجُّهِ موسى عليه السلام إلى أرض مدينَ مُتَوكِّلًا على الله تعالى، ناسبَ بيانُ النَّتيجة التي وصلَها عليه السلام، وهي بعدَ أن خرج من مصرَ وأصبح على مَقْرُبةٍ منَ المدينة وجدَ البِئْرَ التي يستقي منها أهلُها، وهُناك كانت جماعاتُ الرُّعاة تَرِدُ الماءَ وتستقي منه، وتسقي ماشيتَها[1]؛ فلمّا كان التَّقديرُ: (فوصل إلى المدينة)، بُني عليه قولُه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ أي: حضر موسى عليه الصلاة والسلام حضورَ مَن يَشْرَبُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرَدَ﴾: (ورد) أصلان أحدُهما: الموافاةُ إلى الشّيء، والثّاني: لونٌ منَ الألوان. والوِرْدُ: خِلافُ الصَّدَرِ. وورد بلغَ وأشرف؛ يُقال: ورَدَ القومُ الماءَ ورْدًا ووُرودًا، أي: أشرفوا عليه ووصلوا إليه، سواء دخلوه أم لم يدخلوه[3]؛ والورود بلوغُ الماء أوِ الشَّيءِ تدلّيًا أو تقدُّمًا إليه. والمَوارد: الطُّرقُ، وكذلك المياه المورودة والقُرى[4]. وأصلُ الورودِ: قَصْدُ الماءِ، ثُمَّ يُستعمل في غيره اتِّساعًا[5].

2) ﴿أُمَّةً﴾: (أمم) أصلٌ واحدٌ، يتفرّع منه أربعةُ أبواب، وهي:

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنّي للقرآن: 10/ 333.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 264.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العَرَب: (ورد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورد).
(5) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (ورد).

الأصلُ والمَرجِعُ والجماعةُ والدّين[1]، وكلّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ واحد: إمّا دينٌ واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكانٌ واحد، سواء كان ذلك الأمرُ الجامع تسخيرًا أم اختيارًا. وجمعُها: أُمَم[2]، وكلّ شيءٍ يَضُمُّ إليه سائرَ ما يليه فإنَّ العربَ تُسمّي ذلك الشَّيْءَ أُمًّا، ومِنْ ذَلِكَ أُمُّ الرَّأْسِ، وهوَ الدِّماغُ[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النّحل: 120] أَيْ: إمامًا يُهْتَدَى بِهِ، وهوَ سَبَبُ الاجتماعِ. والأصلُ: تضامُّ شيءٍ أو أشياءَ مُتجانسةٍ، كما تضمُّ تلك الجِلْدَةُ الرّقيقةُ مادّةَ المُخّ[4]. والمُراد بالأمَّة في هذه الآية: جماعةٌ كثيرة يجمعُهم أمرٌ واحد هو: سقيُهم للمواشي في مكان واحد وهو البِئر[5].

3) ﴿تَذُودَانِۖ﴾: (ذود) أصلان؛ أحدُهما: تنحيَةُ الشَّيء عنِ الشَّيء، والآخرُ: جماعةُ الإبل[6]. والذَّوْدُ: السَّوْقُ والطَّرد والدَّفع، يُقال: ذُدْتُه عن كذا، وذاده عنِ الشَّيءِ ذَوْدًا وذيادًا، ورجلٌ ذائدٌ، أي: حامي الحقيقةِ دفّاعٌ، وذُدتُ الإبل أذودها ذَوْدًا، إذا طردتَها وسُقتَها[7]. والمعنى هُنا: تمنعان وتدفعان أغنامَهما عنِ التَّفرّق أوِ الاختلاطِ بغَنَم الآخَرين.

4) ﴿خَطْبُكُمَاۖ﴾: (خطب) أصلٌ يدُلُّ على الكلامِ بينَ اثنين[8]، أي: أَمْرُكما وشأْنُكما[9]، والخَطبُ: الأمرُ يقعُ؛ وإنَّما سُمّيَ بذلك لِما يقعُ فيه مِنَ التَّخاطُبِ والمراجعة، والخطب أيضًا: الشَّأنُ والأمرُ: صَغُر أو عَظُم، والجمع: خُطوب. والمعنى في الآية: ما شأْنُكما وما مطلوبُكما مِنَ الذّياد[10].

5) ﴿يُصۡدِرَ﴾: (صدر) أصلان صحيحان؛ أحدُهما: يدُلّ على خِلافِ الوِرْد، والآخرُ: صَدْرِ الإنسان وغيره. وصدر عنِ الماء، وصدر عنِ البلاد: إذا كان وردَها ثمّ شَخَص عنها[11]. والصَّدَر: الِانْصِرافُ عَنِ الوِرْدِ وعَن كلِّ أَمر، يُقال: صَدَروا، وأصدَرْناهم. وطريقٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمم).
(3) الخليل، العين: (أمم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (أمم).
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 491.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذود).
(7) ابن منظور، لِسان العَرَب: (ذود).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خطب).
(9) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 332، وابن جرير، جامع البيان: 18/ 210.
(10) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 588، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 268.
(11) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 332، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدر).

صادر مَعْناهُ: أنّه يَصدُر بأَهْله عَنِ الماء، وطَريق وارِدٌ يَرِدُ بِهِم[1]. والمُراد في الآية: يَفْرُغوا مِنْ سَقْيِ مَواشيهِمْ وينصرفوا عنِ الماء، ويرجعوا عن سقْيِهم[2].

6) ﴿ٱلرِّعَآءُ﴾: (رعى) أصلٌ يدُلُّ على مُراقَبةٍ وحِفظٍ[3]. وجمع الرّاعي: رِعاءٌ ورُعاةٌ؛ وهو كلُّ من وليَ أمرَ الحيوان وغيرِه ولاحظه محسنًا إليه، وقام على حفظه ومُراقبته[4]. فالرَّعْيُ في الأصل: حفظُ الحيوان إمّا بغذائه الحافظِ لحياته، وإمّا بِذَبّ العدوّ عنه. يقال: رَعَيْتُهُ، أي: حفظتُه. وأَرْعَيْتُهُ: جعلتُ له ما يرْعَى. والرِّعْيُ: ما يرعاه، والمَرْعَى: موضعُ الرّعي[5].

المَعْنى الإجْماليّ:

عند بلوغِ المكانِ الجديدِ تبدأ أحداثٌ غيرُ متوقّعة

تُخبر الآيةُ الكريمة عن حدثِ وصول موسى ﵇ ماءَ مَدْيَنَ الذي يستقون منه، حيثُ وجَدَ على جانب البِئر جماعةً كثيرةً مِنَ النّاسِ يَسْقونَ مواشيَهم، ووجد في مكانٍ أسفلَ من مكانهم امرأتَينِ تَمنعانِ غَنَمَهما؛ لئلّا تختَلِطَ بأغنامِ النّاسِ، وتنتظران حتّى تَفرغ مواشي النّاس ثمّ تسقيان ماشيتَهما، فقال موسى للمرأتَين: ما شأنُكما لا تسقيان مع النّاس؟! قالَتا: عادتُنا أن نتأنّى فلا نَسقي غنَمَنا إلّا بعد أن يَصرِفَ الرُّعاةُ مواشيَهم؛ حَذرًا من مُخالطتهم، وأبونا شيخٌ طاعنُ السِّنِّ لا يستطيعُ سَقْيَ الغنَمِ بنَفْسِه فاضطُرِرنا لسَقي غنمِنا[6].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صدر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 210، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 589.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رعى)، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 327.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 269، ولجنة من العلماء، التَّفسير الوسيط، ص: 1755.
(5) الرّاغب، المفردات: (رعى).
(6) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 578، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 388، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 388.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها:

عطفُ خبرِ بلوغِ الغاية على خبر ابتداءِ الغاية

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ للعطف، حيثُ عَطَفَت خبرَ ورودِ موسى عليه السلام ماءَ مدينَ على خبر تَوجُّهِه تِلقاءَ مدينَ، فهي عطفت خبرًا متعلِّقًا بخبر: الخبرُ الأوّل يُبيِّن البداية، والآخَرُ يبيِّن بلوغَ الغاية، وما بينَ الخَبَرين مَطويٌّ ذِكْرُه، وليس المقصودُ منَ العطف إلّا ذِكْرَ الخبر بعدَ الخبر؛ لبيان تَسَلْسل الأحداثِ.

نُكْتَةُ استعمالِ (لمّا) ومعناها:

ما حدث لموسى عليه السلام في مدين مترتِّبٌ على الحَدَثِ الأوّل

حَرْفُ (لمّا) يدلُّ على توقيت وجودِ شيء بوجود غيره، ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ﴾ أي: عندما حلَّ موسى عليه السلام بأرض مدينَ وجد أمَّةً[1]. أي: بمجرّدِ ورودِ ماء مدينَ وجد على الماء مجموعةً منَ الرّعاء يَسقون مواشيَهم؛ فكان هذا أوّلَ حَدَثٍ يَعرض له عليه السلام من أحداثِ دخول هذه المدينة. وفيها إشارةٌ إلى أنَّ ما بعدَ هذا الحدثِ مترتِّبٌ عليه.

بلاغةُ استعمالِ لفظ الورود مادَّةً وصيغةً:

للوُرودِ الأوّلِ أثرٌ فيما بعدَه من أحداث

الورودُ يكون بمعنى الوصول إلى الشَّيء، وبمعنى الدُّخول فيه[2]. والمُراد بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ بلغَ الماءَ لا أنَّه دخلَ فيه؛ للإشارةِ إلى معنَيين وهما: معنى الحاجة إلى الماءِ بعد سفرٍ طويل، وأنَّ لهذا الماءِ وُرودًا مُتعاقبًا في الأيّام القادمة. فهذا هو الورود الأوّل وما بعدَه مبنيٌّ عليه. فلولاه لما عرف الشّيخَ الذي سيُزوجُهُ إحدى ابنتَيه. وجيءَ به ماضيًا لبيان تَحقُّق هذا البلوغِ وتأكُّدِه.

بلاغةُ المجاز المُرسَل:

قولُه تعالى: ﴿مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ مجازٌ مرسلٌ وهو من إطلاق الحال

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 98.

(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 296.

وإرادةِ المَحَلِّ[1]. فالماءُ مجازٌ عنِ المَحلِّ وهو البِئر هُنا لا غيرَ بقرينة الحاليَّة[2]؛ وهذا المجازُ أساسُه تداعي المعاني؛ إذ إنّ هذا المجازَ يسوغه التَّلازمُ الذِّهنيُّ: فالحالُّ والمَحلّ مُتلازمان ذِهنًا وزمانًا ومكانًا فالمُرادُ بالماءِ: موضعُ الماء؛ لأنَّ ماء القوم هو الذي تُعرَف به ديارُهم. وكانت القبائلُ تقطنُ عند المياه، وكانوا يُكنّون عن أرض القبيلة بماء بني فُلان، ويُناسِبُ الغريبَ إذا جاء ديارَ قوم أن يقصد الماء؛ لأنَّه مُجتمعُ النّاسِ، فهنالِكَ يتعرَّفُ لمن يُصاحبُه ويُضيفه[3]، فإطلاقُ الماءِ لإرادة توجيه الأنظار إلى أنَّه المقصود بورود النّاس إليه.

الماءُ مجمعُ النّاس ومقصودُ الإرادات

دلالةُ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء:

جاء استعمالُ حرفِ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً﴾؛ لبيانِ أنَّ المراد بالاستعلاء، هو الاستعلاءُ على مكانٍ قريب منه، وهو شَفير البِئر، وفي استعمال حرفِ الجَرّ إيجازٌ بديع، وتقويَةٌ للمعنى المجازيّ المُراد، وتقريرُه في الأذهان لِما فيه من دعوى الشَّيءِ بالبَيِّن والدّليل[4]، وتكمُن بلاغةُ هذا الحرف في بيان الاكتظاظ والتَّزاحم على البئر، فجميعُهم يقف على الماءِ ليسقيَ ماشيتَه.

تزاحمُ النّاس على الماءِ دليلُ كثرتِهم وقِلَّةِ المطلوبِ

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجُملة:

قُدِّمَ شِبهُ الجملة ﴿عَلَيۡهِ﴾ على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، فلم يقل: (وجد أمّةً عليه)؛ للاهتمام بالمُقدَّم، والتّشويقِ لمعرفة المُؤَخَّر.

الاهتمامُ بالمُقدَّم، والتّشويقُ لمعرفة المُؤخَّر

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿أُمَّةً﴾ وتنكيرها:

المُراد بالأُمَّة في الآية: جماعةٌ كثيرةُ العدد من أناس مُختلفي

تفخيمُ المشهد، وتعظيمُ صنيعِ الكليم

(1) الألوسيّ، روح المعاني: 20/ 59.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 491، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 289.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 98.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 491.

الأصناف؛ فهم أهلٌ لأن يَقْصُدوا ويُقصَدوا، فلذلك هم عالون غالبون على الماء[1]، ونَكَّر اللّفظَ؛ لأنَّ المقصود بيانُ الكثرةِ لا تعْيينُهم، وتفخيمُ المَشهد؛ توطئةً لإعذار المرأتين عنِ السَّقي، وتعظيمًا لصنيع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في السَّقي لهما في ظلِّ هذا المشهد.

فائدةُ تقييدِ المفعول به:

تعيينُ المُرادِ بالأُمَّة ودفعُ الاحتمالات

المُراد بالقيد ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ تعيينُ المقصود، وهو أنَّ هذه الأمَّةَ منَ النّاس لا مِن شيءٍ آخَر، فإنَّ لفظ الأُمّة يُطلَقُ ويَحتمِل معانيَ عديدةً، فجاء القيد لتعيين المُراد بالأمَّة، إذ تُطلَق على جماعة منَ الطُّيور والدَّوابّ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38][2]، فَبَيَّن نوعَهم بقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[3].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿يَسۡقُونَ﴾:

تجدُّدُ فعلِ السّقايةِ واستمرارُه منهم

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يَسۡقُونَ﴾؛ لتصوير سقايتِهم، أي: ذهابًا وإيّابًا للمُناوبة على ما هو المُعتادُ في السِّقاية[4]، وهو يَدُلُّ على تجدُّد هذا الفعل واستمرارِه منهم.

غرضُ حذفِ المفعول به:

توفُّرُ العنايةِ على إثباتِ الفعلِ للفاعلِ مع لَحْظ معنى العموم

حُذِفَ مفعولُ الفعلِ في قوله تعالى: ﴿يَسۡقُونَ﴾، والمقصودُ مواشيهم، ونُكْتَةُ الحذفِ: هي أَن تَتَوَفَّرَ العِنايةُ على إثبات الفعل لفاعله، ولا يَدخُلَها شَوبٌ؛ ويُمكنُ أَن يُقَدَّر المفعول كالآتي: (وَجدَ عليه أُمَّةً يَسقونَ أَغنامهم أو مواشيَهم)[5]، قال عبد القاهر الجُرجانيّ في تعليل هذا النّوعِ منَ الحذف: "ثُمَّ إنَّه لا يخفى على ذي بَصَرٍ أَنَّهُ ليس في ذلك كلِّه إلّا أن يُتْرَكَ ذِكرُهُ، ويُؤتى بالفعل مُطلَقًا، وما ذاكَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 264، والمغراويّ، التَّدبُّر والبيان: 25/ 262.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 491.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 264.
(4) ملّا علي القاري، أنوار القرآن، ص: 78.
(5) المُستغانميّ، تصريف القول، ص: 48.

إلّا أَنَّ الغرضَ في أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ كان مَن في تلك الحالِ سَقيٌّ، ومِنَ المَرأتين ذَودٌ، وأنّهما قالتا: لا يكونُ مِنَّا سَقيٌّ حتَّى يُصدِرَ الرِّعاءُ، وأنّه كان من موسى ﷺ من بعدِ ذلك سَقيٌّ؛ فأَمّا ما كانَ المَسقيُّ؟ أَغنمًا أم إبلًا أم غيرَ ذلك، فخارجٌ عنِ الغرض، وموهِمٌ خِلافَه"[1]؛ فحُذِفَ المفعولُ لأنَّه غيرُ مُراد، والمُرادُ الفعلُ[2]. ويرى السَّكّاكيُّ أَنَّ حَذَفَ المفعول من باب الاختصار[3]، أو لأنَّ الغرضَ لا يتعلَّق بمعرفة المَسْقيِّ، فيكونُ من تنزيل الفعل المُتعدّي منزلةَ اللّازم، وحُذِفَ المفعول أيضًا لتعميم ما شأنُه أن يُسقَى، وهو الماشية والنّاس[4].

معنى الواو ودلالتُها:

النَّظرُ الشّاملُ يستدعي المقارنةَ بينَ الأجزاء

أفادتِ الواو في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ﴾ عطفَ هذه الجملةِ على جملةِ ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، والمعنى: أنَّه وجد أمرَين؛ **الأوّل:** (وجدَ أُمّةً منَ النّاس يسقون)، **والآخرُ:** (وَجَد من دون أولئك امرأتين)، فأفادتِ الواوُ شمولَ نظرِ موسى ﷺ للمشهد بأكمله، فلم يَغفلْ عن بعض أجزائه، وبسبب هذا النَّظر الشّاملِ تحرّكتِ الأخلاق للسّؤال عن سبب ما عليه المرأتان، ففي هذه الواو رائحةُ المقارنة بين مشهدَين مُتباينَين في حَدَثٍ واحد.

بلاغةُ استعمالِ فعل ﴿وَجَدَ﴾ وتَكرارُه:

اتِّحادُ وُجدانِ الأجزاء يقوّي النَّظرَ الشّاملَ للمشهد

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ الفعل ﴿وَجَدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾، وتكرَّر الاستعمالُ دونَ أن يقول: (رأى) أو (شاهد)، ونحوَ ذلك؛ لبيان أنَّهم كالضّالّة المفقودةِ، وتكرارُ هذا

(1) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 161.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 401، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 175، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 8.
(3) السَّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 228، وقَدْ رَدَّ عليه صاحبُ بُغية الإيضاح بقوله: "والأَوْلى أَن يُجعَلَ لإثباتِ المعنى في نَفْسِه للشَّيء على الإطلاق"، ينظر: الصّعيديّ، بغية الإيضاح: 1/ 204.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 99.

الفعلِ لبيان اتّحاد الوجدان في وقتٍ واحد ومكانٍ متقارب، وأنَّه لم يكن هناك كبيرُ فرقٍ في الوقت بينَ الوُجدانَين، فهما وقعا في لحظةٍ واحدة، وهو ما يُؤيِّد استعمالَ الواوِ المُفيدةِ جمعَ المَشْهَدَين.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

ظرفيّةٌ لبيان أنَّ الوُجدان كان مُبتدِئًا من أدنى مكانٍ من مكانهم

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِمُ﴾ للظَّرفيَّة، والمعنى: ووجدَ امرأتين في جهة مُبتعدةٍ عن جهة السّاقين[1]، واستعمالُ ﴿مِن﴾ لبيان أنَّ الوُجدان كان مُبتدِئًا من أدنى مكان من مكانهم الآتي إلى الماء[2]، أو يكون بمعنى: من ورائهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بالدّون:

تصويرُ موضعِ المرأتين في صورة المكانِ المُنخفضِ عنِ النّاس

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِهِمُ﴾ أي: في مكان غيرِ المكان الذي حولَ الماء، وفي جانب مُباعِدٍ للأُمَّة منَ النّاس؛ لأنَّ حقيقة كلمةِ (دون) أنَّها وصفٌ للشَّيءِ الأسفلِ من غيره، وتتفرَّع من ذلك معانٍ مجازيَّةٌ مختلفةُ العلاقات، ومنها ما وقع في هذه الآية، فـ (دون) بمعنى جهةٍ يصل إليها المرءُ بعدَ المكان الذي فيه السّاقون؛ حيثُ شُبّه المكانُ الذي يبلغُ إليه الماشي بعد مكانٍ آخرَ بالمكان الأسفل منَ الآخر، من قَبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، كأنَّه ينزل إليه الماشي؛ لأنَّ المَشيَ يُشَبَّهُ بالصُّعود وبالهبوط باختلاف الاعتبار[3].

فائدةُ استعمالِ مفردة (امرأة):

المُروءةُ ومكارمُ الأخلاقِ تُنادي على الأشراف لخِدمةِ الأشراف

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ لفظ المرأة في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ﴾؛ فلم يقل: (فتاتين) أو (راعيتين)؛ لبيانِ أنَّ المرأتين تتحلّيان بمعالم الأُنوثة والحِشْمَة، وذلك لما جعلَ لهما سُبحانه منَ المروءة ومكارمِ الأخلاق، كما يعلمُه من أمعن النَّظر

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 99.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 264.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 99.

فيما يَذْكر عنهما من قوله تعالى: ﴿تَذُودَانِۖ﴾[1]، كأنّ على المُخاطَب أن يستحْضِر شرفَ موسى عليه السلام وغيرتَه في الانفعال لخدمتِهما، واستحضارِ دونيَّة الرِّعاء الذين أهملوا أمرَهما.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿تَذُودَانِۖ﴾:

تصويرُ صعوبةِ الـذَّودِ ومعاناةِ المرأتين فيه

معنى قولِه تعالى: ﴿تَذُودَانِۖ﴾ أي: تَطْرُدان، وحقيقةُ الذَّود: طَرْدُ الأنعام عنِ الماء[2]، يُقالُ: ذادَ فُلانٌ غَنَمَهُ وماشيتَه: إذا أَرادَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أن يَشِذّ ويذهب، فَرَدّهُ ومنعه، يَذودُها ذَوْدًا[3]؛ ولمّا كانتِ الغنمُ أكثرَ حاجةً للرّعاية والعنايةِ والسّياسةِ؛ لشِدَّة تفلُّتِها، وصعوبةِ ضبطِها؛ لأنَّ تَفَرُّقَها أكثرُ من تفرُّق الإبلِ والبقر، لإمكان ضبطِ الإبل والبقر بالرَّبْطِ دونَها في العادة المألوفة. وجيءَ بالفعل المُضارع ﴿تَذُودَانِۖ﴾ لبيان استمرار الذّيادِ وتَجدُّدِهِ حينًا فحينًا؛ ففيه تصويرُ صعوبةِ العمل ومعاناتِه.

غرضُ حذفِ المفعول:

الـحـذفُ يُـعيّن الدّلالةَ المقصودة ويَـنـفـي أوهـامَ الاحتمال

حُذِفَ مفعولُ الفعل ﴿تَذُودَانِۖ﴾، والمعنى: تذودان مواشيَهما؛ لأنَّه غيرُ مُرادٍ إظهارُ المفعولِ، فإنَّ رحمتَه عليه السلام لم تكن لكون المَذودِ غنمًا أو إبلًا، بل لمُطلق الذّياد[4]، فَرَحِمَهُما؛ لأنَّهما كانتا على الذّياد والرِّعاء على السَّقي، لا أنَّه رَحِمَهما لأنَّ مذودَهما غنمٌ، ومَسْقيَّهم إبلٌ[5]. فكونُ المَسْقيّ غَنمًا أم إبلًا أم غيرَ ذلك، فخارجٌ عنِ الغَرَض، وموْهِمٌ خِلافَه. وذاكَ أنَّه لو قيل: (وَجَدَ مِنْ دونِهمُ امرأتينِ تَذودانِ غنَمَهما)، جاز أن يكونَ لم يُنْكر الذَّودَ من حَيْثُ هو ذَوْدٌ، بل مِنْ حيثُ هو ذَوْدُ غَنمٍ، حتَّى لو كان مكانَ الغنمِ إبلٌ لم يُنكر الذَّودَ؛ فعُلِمَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 264.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 99.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 206.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 264.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 401.

من هذا أنَّ لحَذْفِه وتَرْكِ ذِكْرِه فائدةً جليلةً، وأَنَّ الغرَضَ لا يصِحُّ إلّا على تركه[1].

وقد يُقْصَد بالحذف إبهامُ المعنى؛ لتوضيحه بما أُريدَ بعدَ المحذوف، وبناءُ الكلامِ على الإيضاح بعدَ الإبهام منَ المزايا البلاغيَّة في صياغة العبارة، وأَمَسِّها بطبائع النَّفس، فقد فَطَرَ اللّهُ النّاسَ على التَّعلُّق بما يَجهلون ممّا يلوح لهم منه طرفٌ منَ العِلْم والانكشاف، أمّا ما لا يلوح منه هذا الطَّرفُ فإنَّ النّاس في غفلة عنه، والأسلوبُ المُختار هو الذي يهتدي إلى فطرة هذه النَّفس، ويأتيها من جهتها، وحينَئِذٍ يمتلك زِمامَها، وتُسلِسُ له قيادَها[2].

علّةُ فصلِ جملة ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾:

لمّا كان حالُ المرأتين الذّائدتين موجبًا للسُّؤال، كان كأنَّه قيل: فما قال لهُما؟ قيل: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾، أي: خبرُكُما ومطلوبُكُما[3]، فهي على الاستئناف البيانيّ، والاستئنافُ البيانيُّ يقتضي الفَصْلَ.

غرضُ الاستفهام ﴿مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾:

الاستفهامُ الظّاهرُ قد يتضمّن معانيَ ثانويّةً

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾؟ متَّجهٌ إلى المرأتين، وغرضُه معرفةُ سببِ الحالِ التي هما عليها، منَ الذّود والنَّأي عن موضع السَّقي، فهو على بابه، وفيه رائحةُ إنكارِ تلك الحال التي هما عليها، بسبب سقْيِ جماعةٍ كثيرة، وإهمالِ امرأتين ضعيفتَين تذودان.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿خَطۡبُكُمَاۖ﴾:

كونُ الأمرِ عظيمًا يوجب السُّؤالَ عنه معَ اعتبارِ الحاجة فيه

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الخطب في قوله تعالى: ﴿مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾؟ وهو كالتَّعبير بالشَّأن عنِ المَشؤون الذي يستحقُّ أن يقع فيه التَّخاطُبُ لِعظَمه، أي: في ذيادِكُما لأغنامِكُما عنِ السَّقي؛ فكان

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 161 - 162.

(2) أبو موسى، خصائص التَّراكيب دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني: 1/ 349.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 265.

السُّؤالُ بقدر حاجةِ الموقف لم يتعدَّه، وهذا منَ الأدب العظيمِ في مخاطبة الرُّجل للمرأة الأجنبيَّة، "والسُّؤال بالخطب إنَّما يكون في مُصابٍ أو مضطهدٍ أو مَن يُشْفَق عليه، أو يأتي بمنكرٍ منَ الأمر"[1]، وهو ما يعكس موقفَ الكليم ﵇، وما أصابَه عند رؤية المرأتين متنائيَتَين عنِ السَّقي بسبب استقواء الرّعاء، وإهمالِ ضعفِهما.

دلالةُ الاستئنافِ البيانيّ:

التَّلويحُ بطلب المساعدة لا يَضيعُ عند أصحاب النَّخوة

لمّا كان منَ المعلوم أنَّ سؤال موسى ﵇ عنِ العِلَّة التي أوجبت عدمَ سقْيِ المرأتين، ناسبَ معرفةُ الجوابِ، بعد سؤال ضمنيّ: فماذا قالتا؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَتَا﴾ أي: اعتذارًا عن حالهما ذلك؛ وتلويحًا باحتياجهما إلى المُساعدة[2]، أي: لا نسقي ماشيتَنا حتّى يُصْدِرِ الرّعاءُ، فنَسقي بعدَ سقْيِهم.

دلالةُ حذفِ مفعول ﴿لَا نَسۡقِي﴾:

عِلَّةُ ضجرِ المرأتين من عدم السَّقي، لا مِن عدمِ سَقْيِ غنمٍ أو إبلٍ

حُذِفَ فعلُ ﴿لَا نَسۡقِي﴾ أي: مواشيَنا، وحَذْفُه للعِلْم به[3]، ولِما سَبَقَ ذِكْرُه؛ لأنَّه غير مُراد، والمُراد الفعلُ، فإنَّ السِّقاية لا تكون إلّا للماشية، لكنَّ العبرةَ في نفي القدرة على ذلك، والانتهاءِ منَ العمل الشّاقِّ، الذي يزيده شقاءً منعُ الرّعاءِ لهما بسبب تكاثرِهم على الماء، ممّا اضطرّ المرأتين المحتشِمَتَين إلى النَّأي حتّى انتهاءِ الكثرة الكاثرةِ منَ السَّقي، فقولهما: ﴿لَا نَسۡقِي﴾ مع عدم تعيين المفعول دالٌّ على إبراز ضجرِهما من عدم السَّقي، لا من عدمِ سقيِ غنمٍ أو إبلٍ.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ ودلالتُها:

رُبَّ خبرٍ يحملُ في طيّاته استرحامًا واستعطافًا

﴿حَتَّىٰ﴾ حرفُ غايةٍ وجَرٍّ بمعنى (إلى أن)[4]؛ فلمّا سألَهما موسى: ﴿مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾؟ ولماذا تمنعانِ الغنمَ منَ السُّقيا؟ أجابتا: إنَّما

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 283، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 265.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 265.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 265.
(4) بهجت صالح، إعراب القرآن الكريم، ص: 425.

يُزاحِمُ على السُّقيا الرِّجالُ الأَشِدّاء، أمّا نحنُ فنساءٌ مُتحفِّظاتٌ ﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾، فمن عادتنا أن نَصْبِر حتَّى يسقيَ الرُّعاةُ أغنامَهم وينتهيَ الزِّحامُ، وليس من عادتنا مُزاحمةُ الرِّجالِ، بل نَمتنِعُ عنِ السَّقيِ إلى أن يَفْرغَ الماءُ لنا فَنَسقي[1]. فسقيُهما لا يكون إلّا بعد انتهاءِ الرّجال كُليًّا منَ السّقي، فبعدَها يبدأ سَقيُ المرأتين، وفيه إيماءٌ إلى الاستعطاف وإظهارِ الضّيق.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في ﴿يُصۡدِرَ﴾:

معاني القراءاتِ متكاملةٌ في بيان فِعْلِ الرُّعاة بمواشيهم معَ انصرافهم بأنفسهم

قرأ أبو عمرو وابنُ عامر وأبو جَعْفَرٍ ﴿يَصْدُرَ﴾ بفتح الياء من صَدَرَ، ضِدّ ورد، والمعنى: حتّى يرجعَ الرّعاةُ بأغنامهم، وقرأ الباقون: ﴿يُصۡدِرَ﴾ مِنْ أصدر بمعنى أرجع[2]، أي: حتَّى يُرْجِعوا مواشيَهم. فضَمُّ الدّالِ على إسناد الصَّدرِ إلى الرِّعاء، أي: حتَّى يَرْجِعوا عنِ الماء، أي: بمواشيهم؛ لأنَّ وصفَ الرِّعاءِ يقتضي أنَّ لهم مواشيَ، وهذا يقتضي أنَّ تلك عادتُهما كُلَّ يَومٍ سَقْيٍ[3]. فالحُجَّة لمن ضمَّ الياء: أنَّه جعلَهُ فِعْلًا هُم فاعلوه، يتعدّى إلى مفعول، معناه: حتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ مواشيَهم، والحُجَّةُ لمن فتح الياء: أنَّه جعله فِعْلًا لهم غيرَ مُتعدٍّ إلى غيرهم[4]، والمعنى في القراءتين واحدٌ، لكن أشارت قراءةُ الضَّمّ إلى كثرة مواشي الرّعاء، إذ فيها حذفُ المفعول.

الوظيفةُ البيانيّة لواو العطف:

فصاحةُ الكلامِ تُنبئُ عن حُسْنِ تربيةٍ وجمالِ أدبٍ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ عطفٌ على مُقدَّر، فكان تقديرُ الكلام: لا نَسْقي لأنّا منَ النِّساء، وكان المقامُ يقتضي لصِغر سِنِّهما أنَّ لهُما أبًا، وأنْ لا إخوةَ لهما، وإلّا لكَفَوْهما ذلك، وحتّى لا يطولَ الحديثُ اختصرتا الكلامَ، فعطفتا على هذا المُقدَّر قولَهما:

(1) ابن خالويه، تفسير القرآن الكريم: 20/ 3982.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 341.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 20/ 100.
(4) الفارسيّ، الحُجَّة في القراءات السَّبع، ص: 276.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[1]، وهذا منَ الفصاحة والنَّباهة، وهو دليلُ أخلاقٍ صادرةٍ عن تربيةٍ وأدب.

دلالةُ استعمالِ لفظِ الشّيخ:

الاعـتـذارُ لـلأبِ من دلائل البِرِّ

استعمل النَّظمُ الكريم لفظةَ الشَّيخِ لبيان سِنِّه، والشَّيخُ مَنِ استبانت فيهِ السِّنيُّ، وكان في العمر من خمسين أو إحدى وخمسين إلى آخِرِ عمره أو إلى الثَّمانين[2]؛ فذكرتا عُذْرَ أبيهما في التّخلُّف عن سَقي الغنم، وإرسالِهِ إيّاهما في ذلك دونَ تولّي ذلك بنفسه بأسلوب مختصرٍ مُؤدَّبٍ[3].

بلاغةُ الاحتراسِ في الوصف:

تـعـلـيـلُ عـدمِ الـقـدرة على السَّقي

جاء وصفُ ﴿شَيْخٌ﴾ بقوله: ﴿كَبِيرٌ﴾ أي: بلغ غايةَ الكِبَر، فيَعْجِزُ عنِ الخروج والسَّقيِ، فلفظةُ ﴿شَيْخٌ﴾ تدلُّ على كِبر سِنّه، ثمّ تأتي لفظة ﴿كَبِيرٌ﴾ لتُؤكِّد المعنى السّابقَ، وتُبيِّنَ أنَّه ليس مُجرّدَ شيخ، بل هو كبيرٌ في سِنِّه، وغيرُ مستطيعٍ للعمل والسَّقي، ففي الوصف معنى التَّعليل، ولو قيل: ﴿شَيْخٌ﴾ فقط، لدلَّت على كِبَر السِّنِّ معَ احتمالِ قُدرتِه على العمل، فهو احتراسٌ عن مَظِنَّة القُدرةِ على العمل، فإنَّ الشَّيخ قد يَسقي، لكنَّ وصْفَه بالكبير يدفعُ القدرةَ على ذلك، وهذا اعتذارٌ أيضًا عن كون أبيهما أرسلَهما لذلك لأنَّه ليس بمَحْظور، والنّاسُ مُختلفون في ذلك بحسب المُروءة، وعاداتُهم فيها متباينةٌ، وأحوالُ العربِ والبَدوِ تُباينُ أحوالَ العَجَم والحَضَرِ، لا سيما إذا دعت إلى ذلك ضرورةٌ، فَلِعَدمِ وُجدانِهما رَجُلًا يسقي لهما؛ لأنَّ الرَّجُل الوحيد لهما هو أبوهما، وهو شيخٌ كبيرٌ لا يستطيع ورودَ الماء؛ لضَعْفِه عنِ المُزاحمة[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 266.

(2) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (شيخ).

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 161.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 266، والمهائميّ، تفسير المهائميّ: 2/ 546، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 20/ 100.

بلاغةُ التَّعريض:

طلبُ الأعمالِ من أصحابِ الهِمَمِ العاليةِ ذَوقٌ مَشوبٌ بأدب

في قوله تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ تعريضٌ بالطّلب من موسى عليه السلام أن يسقيَ لهما، فقد أوصلتا رسالةً مفادها عدمُ القدرةِ على السِّقاية إلّا في حال انتهاءِ الرِّعاء، مع تعليل ذلك بعدمِ وجودِ مَن يسقي لهما منَ القرابة، فأبوهما شيخٌ طاعِنٌ في السِّنِّ قد أضعفَهُ الكِبَرُ وأعياهُ، فلا بُدّ لنا من ترك السُّقيا وإرجائِها إلى أن يقضيَ النّاسُ أوطارَهم منَ الماء، وبذلك طابقَ جوابُهما سؤالَه؛ لأنّه سألَهما عن عِلّة الذَّود، فقالتا ما قالتاه؛ تعريضًا للطَّلب من موسى أن يعينَهما على السَّقي، وقيل: إنَّما قالتا ذلك اعتذارًا إلى موسى في الخروج بغير مَحْرَم[1].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأُمّةُ والشّعب والجماعة:

الأمّةُ كلُّ جماعةٍ يجمعُهُم أمرٌ ما، والشّعبُ ما ارتبطَ بنسب، والجماعةُ مطلقُ الجمع

الأُمّةُ: كلُّ جماعة يجمعُهُم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38]، وقولُه ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [البقرة: 213] أي: صِنفًا واحدًا، وعلى طريقةٍ واحدةٍ في الضّلال والكفر، وقولُه ﷻ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزّخرف: 22] أي: على دينٍ مُجْتَمِعٍ[2].

أمّا الشّعْبُ: فهو القبيلةُ المُتشعّبةُ من حيٍّ واحدٍ، وجمعه: شُعوبٌ، والشّعوبُ أكبرُ منَ القبائل، وهو ما تشعَّبَ من قبائل العرب[3]، فهو يرتبطُ بالنَّسَب وتشعّبِ القبائل.

وأمّا الجَماعَةُ: فمجموعةٌ منَ النّاسِ، مأخوذةٌ من جَمَعَ، فهي لُطلَق الجَمْع.

(1) الزَّمخشريّ، الكَشّاف: 3/ 171، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 245.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمّ).
(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (شعب).

الوالِدُ والأَبُ:

الوالِدُ في اللُّغة: هو الأبُ المُباشِر الذي أنجب، فالوالدُ لا يُطلقُ إلّا على مَن أَوْلَدَكَ من غير واسطة[1]، لذلك حينما يقول ﷻ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: 14]، فتعلمُ أنَّ كلمة (والِدَيْكَ) هُنا هُما الأَبُ والأمُّ[2]، أي: الأبوان المُباشران.

الـوالِـدُ خـاصٌّ بـالأبِ المُباشِر، والأب أَعَـمُّ، فيشملُ الجَدَّ والعَمّ

أمّا الأبُ: فقد يكون الأبَ المُباشِرَ وقد يُطلق على العمِّ والجَدِّ[3]، قال تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، بل قد يُطلق على الجدِّ البعيد ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحجّ: 78][4]، فيُطلَق الأبُ على الجَدِّ وإن علا، فالوالدُ خاصٌّ، والأبُ عامٌّ؛ وهذا الاستعمالُ القرآنيّ مُرتبطٌ باتّساع الأصل اللُّغويّ لكلمة (أب) وشمولِها لكلِّ ما كان سببًا في وجود الشَّيءِ أو رعايتِه، أو إصلاحه، أو ظُهوره[5].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 566.
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ولد).
(3) الرّاغب، المفردات: (أبا)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (أبى).
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.
(5) الرّاغب، المفردات: (أبا).

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذِكْرِ المعرفةِ إلى آثارِها الفعليَّة

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة سؤالَ موسى عليه السلام للمرأتين، وحسنَ جوابِهما المُنبِئَ عن حاجتهما إلى الإعانة؛ ناسبَ ذكرَ موقفِه الفعليّ بعدَ معرفة تلك الحاجة، فهو انتقالٌ منَ الإخبار عنِ المعرفة، إلى الإخبار عن آثار المعرفة في العمل والسّلوك، وحُسنُ المناسباتِ يظهر في آثارها العمليّة، وتضاعيفِها السُّلوكيَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسَقَىٰ﴾: (سقى) أصلٌ يدلُّ على إشْرابِ الشَّيْءِ الماءَ وما أَشْبَهَهُ؛ يُقال: سَقَيْتُه بيَدي أَسْقيهِ سَقْيًا، وأَسْقَيْتُه، إذا جَعَلْتَ لَهُ سِقْيًا[1]، والسَّقْيُ والسُّقْيا: أن يعطيَه ما يُشْرَبُ، والسَّقْيُ: معروف، والاسم السُّقْيا، بالضّمِّ، وسَقاهُ اللّهُ الغيثَ وأَسْقاهُ، يقال: سَقَيْتُه لشَفَتِه، وأَسْقَيْتَه لماشيَتِه وأَرْضِه[2]. والمُراد بـ ﴿فَسَقَىٰ﴾ في الآية: أدلى بدَلْوه بين دِلاء الرّجال حتّى شربت ماشيتُهما[3].

2) ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾: (ولي) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ[4]. أي: قصد واتّجه، وأصل التَّولّي: لزومُ الشَّيء شيئًا آخر تبعًا له، مع نحوٍ منَ الاشتمال، والتَّولّي: التَّوجُّه إلى الشَّيء والانصرافُ إليه، يُقال: ولَّى وجهَه شطْر كذا وجَّهه إليه، والتَّولية: الإقبال[5]. والمعنى في الآية: أقبل واتّجه إلى الظِّلّ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (سقى).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سقى).
(3) الحجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/ 825.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولي).
(6) النَّسفيّ، التَّيسير في التَّفسير: 11/ 422.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إعانةُ الآخرين مقدّمةُ حصولِ الإعانة

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ فاعليّةَ رحمةِ موسى عليه السلام بالمرأتين وسقْيِه لهما أغنامَهما، ثُمَّ انصرافَه إلى الظِّلِّ ليستريحَ منَ الجَهْد، وهو يقول في ضراعة داعيًا بالتَّعريض بحاجته: ربِّ إنّي لِما أنزلت إليّ من خيرٍ مُحتاجٌ مفتقرٌ إلى ما تسوقه إليَّ مِن رزق[1]، وهو مع احتياجه إلى الإعانة أعان غيرَه، وهذه مقدّمةُ نزولِ الإعانة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ العطفِ بحرف الفاء:

السُّرعةُ والمُبادرة في فعل الخير دليلُ الشَّخصيّةِ الانفعاليّة

آثَرَ النّظمُ الكريم استعمالَ حرفِ الفاء في قَوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ دون غيره من أحرف العطف؛ ليَدُلَّ على سُرعة استجابة موسى عليه السلام، وعدمِ تَرَيُّثِه في السَّقي، فاقترانُ فِعلِ (سقى) بالفاءِ يُؤْذِنُ بأنَّه بادَرَ فسَقى لهنَّ، وذلك بفَورِ وُروده[2]، وهو دالٌّ على الشَّخصيَّة الانفعاليَّة الإيجابيَّة، والمبادِرةِ في فعل الخير.

دلالةُ التَّعبير بصيغةِ الماضي:

تَحقُّقُ وقوعِ فعلِ السَّقي، وتأكيدُ حُصولِه

دلَّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿فَسَقَىٰ﴾ على تَحقُّق طبيعةِ السَّقي من أقوياءَ مُتغلِّبين رُحماءَ بالضُّعفاء والمُحتاجين[3]، فإنَّ الرَّحمةَ بالخَلْق، وإحسانَ المَرءِ إلى مَن يَعرِفُ ومَن لا يعرِفُ مِن أخلاقِ الأنبياءِ، ومِنَ الإحسانِ إعانةُ العاجزِ الضَّعيف[4].

معنى اللّام ودلالتُها:

الفعلُ محضُ رأفةٍ بالمرأتين

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ للأَجْلِ، أي: سقى لأَجْلِهما، أي: لا يدفعُه لذلك إلّا هُما؛ رأفةً بهما، وغوثًا لهما، وذلك من قوَّة

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 579، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 388، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 388.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 8.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 272.

(4) السِّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 619.

مروءَتِه أنِ اقتحم ذلك العملَ الشّاقَّ على ما هو عليه منَ الإعياء عند الوصول[1].

دلالةُ استعمالِ حرفِ التّراخي:

الإيماءُ إلى أحداثٍ طويَ ذِكْرُها

جيءَ بحرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾؛ ليَدُلَّ على أحداث وقعت منذ أنِ اتَّجه إلى البئر، إلى أنِ انتهى منَ السِّقاية، فالسَّقيُ أخذ منه وقتًا وجُهدًا، والتَّولّي إلى الظّلّ جاء مُتراخيًا عن أعمال السَّقي[2]، فدَلَّ حَرْفُ ﴿ثُمَّ﴾ على تراخٍ زمنيٍّ بين عمله المبرور، وبينَ لجوئه إلى ظِلّ الشّجرة.

دلالةُ التَّعبير بمُفردة ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ مادّةً وصيغةً:

الإيـواءُ إلى الظِّلّ لطلبِ الاستراحةِ والدّعاء

دلَّ فعلُ ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ على انصرافِ موسى عليه السلام، جاعلًا ظهرَه يلي ما كان يلي وجهه؛ ليَقيلَ تحتَ الظِّلّ ويسترَهُ، مُقبلًا على الخالق مُتضرِّعًا إليه، والتَّولّي الرُّجوعُ على طريقِه، وذلك يُفيدُ أنَّه كان جالسًا من قبْلُ في ظِلٍّ فرجَع إليه، ويَظهَرُ أنَّ ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ مُرادِفُ (ولَّى)، ولكنَّ زيادةَ المَبْنى من شأْنِها أنْ تَقتضيَ زيادةَ المعنى، فيكون ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ أشَدَّ من (ولَّى)[3]؛ بدليل تعريف ﴿ٱلظِّلِّ﴾، فلم يقل: (إلى ظلٍ)، فالمعنى: وبعدَ مُدّة متراخيَة نسبيًّا، ابتعد عن مكان البئر، وأوى إلى ظلّ شجرة ذات ظلّ، ليست قريبةً منَ البئر، بدليل فعل ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾.

فائدةُ تقييدِ الفعل بِشِبه الجُملة:

تقييدُ الفعلِ ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ بِشِبه الجُملة ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ يومِئ إلى أنَّه سقى لهما في شمس وحَرٍّ، فإنَّ وجودَ الظلِّ يدلُّ على وجود الشَّمس، وطلبُه دليلُ وجودِ الحرِّ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 101.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 395.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 101، 102.

دلالةُ العطفِ بالفاء:

دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أنَّه أعقب تولّيَه إلى الظِّلِّ مُناجاتُه ربَّه، إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ فلمّا استراح من مَشَقَّة السَّقي لماشية المرأتين، والاقتحام بها في عدد الرِّعاء العديد، ووجد بَرْدَ الظِّلِّ؛ تَذَكَّر بهذه النِّعمة نِعَمًا سابقةً أسداها اللّهُ إليه؛ من نجاته منَ القتل، وإيتائه الحِكمةَ والعِلْم، وتخليصِه من تَبِعَة قتلِ القِبطيِّ، وإيصاله إلى أرضٍ معمورة بأُمَّة عظيمةٍ بعد أن قطع فيافيَ ومفازات؛ تَذَكَّر جميعَ ذلك وهو في نعمة بَرْد الظِّلِّ، والرّاحة منَ التَّعب، فجاء بجملة جامعةٍ للشُّكر على نِعَمٍ سلفت، والثَّناءِ على اللّه بأنَّه مُعطي الخيرِ والثَّناءِ والدُّعاء[1].

تَـذكُّـرُ الـنِّـعـمِ الـسّـابـقـة مـهـمازُ الـدُّعـاء والالتجاء

نُكْتَةُ النِّداءِ بالرُّبوبيَّة:

في قوله تعالى: ﴿رَبِّ﴾ نَظَرَ موسى عليه السلام منَ العُبودية إلى الرُّبوبية، وتكلَّم بلسان الافتقار، لِما ورد على سِرِّه منَ الأنوار[2]، وتَذكَّر سوابقَ التَّربيةِ والإحسانِ منَ الرَّبِّ الكريم، فينبغي تقديمُ الدُّعاءِ بِذِكْرِ الرَّبِّ؛ وهذا هو أكثرُ ما يُتقبَّل بِهِ الدّعاء؛ لأنَّ بالرُّبوبيَّة يكون الخَلْقُ والتَّقدير والإحسان للإنسان[3].

الـرُّبـوبـيّـةُ هي عـنـوانُ الإنـعـام والـتَّـربـيـة والإحسان

دلالةُ التَّوكيد في قوله: ﴿إِنِّي﴾:

لمّا كان حالُ موسى عليه السلام في عظيم صَبْرِه حالَ من لا يطلُب، أكَّد سؤالَه إعلامًا بشديد تَشوُّقِه لِما سأل، وزيادةً في التَّضرُّع والرِّقَّة، فقال: ﴿إِنِّي﴾[4]؛ فتأكيدُ الجُملة للاعتناء[5].

الإعـلام بشديد تشوُّقِه وزيـادةِ تضرّعِه وافتقارِه إلى الله تعالى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 102.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 258، والقنَّوجي، فتح البيان: 5/ 178.

(3) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 93.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 266.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 273.

من فِقه الدّعاء طلبُ الخير العامّ والإحسانِ العميم

فائدةُ استعمالِ الاسم الموصول:

أداة (ما) في قوله تعالى: ﴿لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ﴾ موصولةٌ كما يقتضيه فعلُ المُضيِّ في قوله: ﴿أَنزَلۡتَ﴾؛ لأنَّ الشَّيء الذي أُنْزِل فيما مضى وصار معروفًا غيرُ نكرة، فقولُه تعالى: ﴿لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ﴾ بمنزلة المُعَرَّف بلام الجنس لتُلائمَ قولَه: ﴿فَقِيرٌ﴾، أي: فقير لذلك النَّوع مِنَ الخير، أي: لأمثاله. فالمعنى: إنّي فقيرٌ مِنَ الدُّنيا؛ لأجل ما أنزلت إليَّ من خير الدّين، والغرضُ منه إظهارُ الشُّكر على ذلك[1]؛ وقد يكون المعنى في قوله: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ أي: إنّي لأيّ شيءٍ أنزلتَ إليّ قليلٍ أو كثير، غَثٍّ أو سمين، لَفَقيرٌ؛ فأداةُ (ما) تكون على هذا المعنى موصوفةً مُفيدةً للشُّيوع والعموم[2].

الاستعطافُ والاسترحام بتعميم حالةِ الافتقار؛ تحقيقًا لإنجاز الوعد بالرِّزق

دلالةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

جاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ﴾؛ تعميمًا لحالة الافتقار، وتحقيقًا لإنجاز الموعدِ بالرِّزق، فقال تعالى: ﴿أَنزَلۡتَ﴾[3]، وفائدةُ التّعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿أَنزَلۡتَ﴾ الاستِعطافُ والاسترحام، أي: ربِّ إنّي سائلٌ الآنَ ما كُنتُ أعْهَدُه في الأيّام الماضيةِ، ممّا أسُدُّ به جَوعَتي مِن قليلٍ أو كثيرٍ، غثٍّ أو سَمينٍ؛ لأنّي مُحتاجٌ إليه[4]، فالتَّعبيرُ بالماضي بَدَلَ المُضارع هُنا للاستعطاف، كالافتتاح بـ ﴿رَبِّ﴾[5]؛ فهو أسلوبٌ خبريٌّ خرج إلى معنًى بلاغيّ.

دلالةُ التَّعبير بمفردة الإنزال:

لَمّا كان الرِّزق الآتي إلى الإنسان مُسَبَّبًا عنِ القضاء الآتي عنِ العَليّ الكبير، عَبَّرَ بالإنزال في قوله تعالى: ﴿أَنزَلۡتَ﴾؛ إشعارًا برِفعة المُعطي[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 102.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 402، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 175، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 34.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 266، 267.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 402، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 175.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 273.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 267، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 102.

غرضُ تنكير ﴿خَيۡرٖ﴾:

الدّلالةُ على النَّوع والتَّعظيم والعموم والشّيوع

نُكِّر لفظُ ﴿خَيۡرٖ﴾ للنَّوعِ والتَّعظيم[1]، وللعموم والشّيوع، والمعنى: إنّي لأيِّ شيءٍ أنزلتَ إليَّ من خير قليل أو كثيرٍ، غَثٍّ أو سمين، لفقيرٌ[2]، فالخيرُ: ما فيه نفعٌ ومُلاءَمةٌ لمَن يتعلَّق هو به؛ فمنه خيرُ الدُّنيا، ومنه خيرُ الآخرة الذي قد يُرى في صورة مَشَقّةٍ؛ فإنَّ العِبرَة بالعواقب، وقد أراد موسى عليه السلام النَّوعَين، كما يَرمُز إلى ذلك التَّعبيرُ عن إيتائه الخيرَ بفعل ﴿أَنزَلۡتَ﴾، فأوَّلُ ذلك إيتاءُ الحِكمة والعِلم، ومنَ الخير إنجاؤه منَ القتل، وتربيتُه الكاملةُ في بَذخَة المُلْك وعِزَّته، وحِفظُهُ من أن تتسرّب إليه عقائدُ العائلة التي رُبّي فيها، فكان منتفعًا بمنافعها، مُجَنَّبًا رذائلَها وأضرارَها، ومنَ الخير أن جعل نَصرَ قومه على يده، وأن أنجاه منَ القتل الثّاني ظُلمًا، وأن هداه إلى منجًى منَ الأرض، ويَسَّرَ له التَّعرُّفَ ببيت نُبوّةٍ، وأن آواه إلى ظِلّ[3].

بلاغةُ تضمين ﴿فَقِيرٞ﴾ معنى سائل:

شِدَّةُ الافتقار دليلُ كمالِ العُبوديَّة

أكَّد النَّظمُ الكريم افتقارَ موسى عليه السلام بالإلصاق باللّام دون (إلى)، فقال: ﴿لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾، أي: لأيِّ شَيءٍ[4]؛ فعُدّي ﴿فَقِيرٞ﴾ باللّام؛ لأنَّه ضُمِّن معنى سائلٍ وطالب، ويحتملُ: إنّي فقيرٌ منَ الدُّنيا لأجل ما أنزلتَ إليَّ من خير الدّين، وهو النَّجاة منَ الظّالمين، وليس في الشَّكوى إلى الغنيّ المُطلَق نقصٌ[5]، وفي الآية وجهٌ آخرُ كأنَّه قال: ربِّ إنّي بسبب ما أنزلتَ إليَّ من خير الدّين صِرتُ فقيرًا في الدُّنيا؛ لأنَّه كان عند فرعونَ في مُلْك وثروة، فقال ذلك رضًى بهذا البدل، وفرَحًا به وشُكرًا له، وهذا التَّأويلُ أليقُ بحال موسى عليه السلام[6].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 402.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 589، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 175.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 102.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 266.
(5) الشِّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 140.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 589.

بلاغةُ الإيماءِ في جملة الفاصلة:

الجمعُ بينَ الثَّناء والدُّعاءِ من أدب الأنبياء

جاءت جملة ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ جامعةً للشُّكر والثَّناء والدُّعاء، بخطابٍ يُحيط به الأدبُ، ويُجلِّله الوقارُ، فهذه الفاصلةُ ثناءٌ على اللّه بما أَنزل إليه من خير تفضّلًا منه وإنعامًا، وألح بهذا الدُّعاء إلى فَقْرِه إلى ما سيُنزل اللّه إليه من خير، يترقَّبُ تواليَ حصولِه، ومنه تأمينُ طعامِه وسَكَنِه، وتزويجِه من زوجة صالحةٍ عفيفةٍ شريفةٍ، تُعِفُّه وتكونُ له سكنًا، ففاصلةُ الآية جاءت لتُصَوّر لنا صِدقَ موسى عليه السلام مع ربِّه، وذلك بخُلوص الدّعاء في أوقات الشِّدّة، واعترافِه بفَقْرِه له، واحتياجِه إلى فضله وإحسانِه[1].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الفقيرُ والمسكينُ:

تباينت أقوالُ العلماءِ في التّفريق بينَ الفقير والمسكين على أقوال

اختلفَ العُلماءُ في الفرق بينَ الفقير والمسكين على أقوال؛ فمنهم من قال: إنَّ الفقير أحسنُ حالًا منَ المِسكين، فالفقيرُ له بعضُ ما يَكفيه ويُقيمه، والمسكينُ الذي لا شيءَ له. وقال آخرون بالعكس، فجعلوا المسكينَ أحسنَ حالًا منَ الفقير، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف: 79] فأخبر أنَّ لهم سفينةً من سُفُن البحر، ورُبَّما ساوت جملةً منَ المال، وعَضَّدوه بما رويَ عنِ النَّبيّ ﷺ: أنَّه تَعوَّذ منَ الفقر[2]، ورويَ عنه أنَّه قال: «اللهمّ أحيني مسكينًا، وأَمتني مسكينًا»[3]، فلو كان المسكينُ أسوأَ حالًا منَ الفقير لَتناقضَ الخبران، إذ يستحيل أن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 102.

(2) وذلك في قوله ﷺ: «اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بك منَ الفقرِ، والقِلَّةِ والذِّلَّة». أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (1544)، وأحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم: (8053)، والحديث إسناده جيّد.

(3) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (2352)، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذّهبيّ، برقم: (7911).

يتعوَّذ منَ الفقر ثُمَّ يسألَ ما هو أسوأُ حالًا منه، وقدِ استجاب اللّه دُعاءَه وقبضَه وله مالٌ ممّا أفاء اللّهُ عليه، ولكن لم يكن معه تمامُ الكفاية، ولذلك رَهَن دِرْعَه. وقيل: إنَّ الفقير والمسكين سواءٌ، لا فرقَ بينهما في المعنى، وإنِ افترقا في الاسم[1]، وقَدْ يُطْلَقُ أَحَدُهُما في مَوْضِعِ الآخَرِ؛ إذا لَمْ يَجْتَمِعا[2].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/ 170، وابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص: 247.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 131.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من الدُّعاء إلى مقدِّمات الاستجابة

لّما ذكرتِ الآيةُ السّابقة التجاءَ موسى ﵇ إلى اللّه تعالى، ودعاءَه بأن يُنزِلَ عليه من واسع رحمته وجزيلِ عطائِه، ناسبَ الانتقالُ إلى ذكر استجابةِ اللّه تعالى له، بأن جاءَته مباشرةً إحداهما على استحياءٍ تدعوه لتلبية دعوةِ أبيها، فهو انتقالٌ منَ الدّعاء، إلى مقدّمات الاستجابة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾: (حيي) أصلٌ يدلُّ على الامتلاء بالغضاضة والطَّراءَة والحِسِّ المُرهَف المُتمثِّل في سُرعة التَّأثُّر[1]. والحياء: التَّوبةُ والحِشْمَة، وانقباضُ النَّفس عنِ القبائح وتركُها[2]، وقد حَيَيَ منه حَياءً، واسْتحيا واسْتَحَى، حذفوا الياء الأخيرة كراهيةَ التقاءِ الياءين، والأخيرتان تتعدّيان بحرف وبغير حرف، يقولون: اسْتِحياءً منك، واسْتَحْياك[3]. ومعنى ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾: على خجلٍ وتَحَشُّمٍ وعفافٍ، شأنَ النِّساءِ الفُضلَيات[4].

2) ﴿لِيَجۡزِيَكَ﴾: (جزي) قيامُ الشَّيءِ مَقامَ غيرِه ومُكافَأَتُه إيّاه[5]. والجزاء: المُكافأةُ على الشَّيء، جَزاءً به وعليه، وجازَه مُجازاة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حيي).
(2) الرّاغب، المفردات: (حيي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حيي).
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 10/ 395.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).

وجَزاء، وأصل الجزاء تحصيلُ شيء مقصود من تناول شيءٍ أو معالجتِه[1]، والجَزاءُ: ما فيه الكفايةُ منَ المُقابلة، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فَشَرٌّ[2]، فالجزاءُ يكون ثوابًا ويكون عقابًا[3]، والمُراد هنا: ليُكافِئَكَ على إحسانك لنا، ويعطيَكَ أجرَ سَقْيِك لغنمنا[4].

3) ﴿أَجْرَ﴾: (أجر) الأَجْرُ: الثَّوابُ وبدَلُ المنفعة، وقد أَجَرَه يَأجُره، إذا جَزاهُ وأَثابَهُ وأَعْطاهُ[5]؛ وأَصلُ الأجرِ الكراءُ على العَمل[6]، والأَجْرُ والأُجرة: ما يعود من ثواب العمل دنيويًّا كان أو أُخرويًّا، فهو جزاءُ العمل[7]، والمعنى: جزاءَ وعِوَضَ ما سقيتَ لنا[8].

4) ﴿وَقَصَّ﴾: (قصّ) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تتبُّع الشَّيء، من ذلك قولُهم: اقتَصَصتُ الأثرَ إذا تتبَّعتُه[9]، والقَصُّ تَتَبُّعُ الأَثَرِ، والقَصُّ فعلُ القاصّ إذا قصَّ القَصَصَ، وذلك لاتّباعِه خبرًا بعد خبر، وسَوقِه الكلامَ سَوقًا[10]، ويُقال: قَصَّ عليه القِصَّة رواها، وقَصَّ عليه الرُّؤيا: أخبرَهُ بها، وقَصَّ عليه الخبرَ قَصًّا وقصصًا: أعلمَهُ به وأوردَهُ على وجهه، والقاصُّ: من يأتي بالقِصَّة على وجهها، كأنَّه يتتبّع معانيَها وألفاظَها، والقِصَّةُ الخبرُ ذو الأمورِ المُتتالية[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُصَوِّرُ الآيةُ الكريمة حالَ مجيءِ إحدى المَرأتين، وقد أرسلها

هل جزاءُ الإحسانِ إلّا الإحسان

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جزى).
(2) الرّاغب، المفردات: (جزاء).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جزى).
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 50.
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: 10/ 25.
(6) ابْن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(7) الخليل، العيْن، والرّاغب، المفردات: (أجر).
(8) السَّمعانيّ، تفسير السَّمعانيّ: 3/ 218.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قص).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (قصص).
(11) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤَصَّل: (قصص).

أبوها بعدَ أن عَلِم بأمر موسى معهما، وهي تتَّجِهُ إلى موسى ﷺ والحياءُ يُحيط بها، فتطلبُ منه تلبيةَ دعوةِ أبيها؛ لإرادته أن يجزيَه أجرَ سقيه لهما، فمَضَى موسى ﷺ معها إلى أبيها، فلمّا جاء موسى أباها، وأخبره بأخباره، طمأنَهُ وأوصاه بعدم الخوف؛ لنَجاتِه منَ القوم الظّالمين؛ إذ لا سُلطانَ لهم بأرض مدينَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الفاء:

الفـاءُ مُـؤذِنـةٌ بالتَّعقيب بفرَج الـلـه الـقـريـب للقلب الضّارع الغريب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ﴾ عطفَتِ الجُملةَ على ما سبقها؛ لتُؤذنَ بتعجيل الفَرَج، بأنْ ألهَمَ اللّهُ تعالى أباهما أنْ يُرسل وراءَه وعلى الفور؛ ليُنزِلَه عندَه، ويُزوِّجَه ابنتَه، فذلك يَضمَن له أُنسًا في دار غُربة، ومأوًى وعشيرًا صالحًا، وتُؤذِنُ الفاءُ أيضًا بأنَّ الرَّجلَ الصّالحَ لم يَتريَّث في الإرسال وراءَه، فأرسل إحدى البِنتَين اللَّتَين سقى لهما، فجاءَتْه وهو لم يَزَل عن مكانه في الظِّلّ[2].

بلاغةُ الحَذفِ وطَيّ الجُمَل:

لـلـحَـذفِ رونـقٌ في دعـوة الفِكر ومناداةِ التّدبّر

في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ حذفٌ، والتَّقديرُ: (فذهبتا إلى أبيهما سريعَتين، وكانت عادتُهما الإبطاءَ في السّقي، فأخبرتاه بما كان من أمر سقي الرّجل لهما، فأمر إحداهما أن تدعوَه له، فجاءت إلى موسى)، فهذا من إيجاز الحذف، وهو حذفُ جُمَلٍ، وغرضُ ذلك: الاختصارُ لدلالة السّياق عليه، ومثلُ هذا الحذفِ يزيد النَّظمَ تأثيرًا وجمالًا[3]، ومن شأنه أن يوقظَ شعورَ المُتتبِّع لأحداث القِصَّة، حتّى يملأَ هذا الفراغَ كما يتصوَّرُه من

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 579، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 388، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 388.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 267، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 103.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 298، وابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 112، والقنوجيّ، فتح البيان: 5/ 179.

حديث ابنتي الرَّجلِ الصّالح إلى أبيهما عن هذا الغريب الذي سقى لهما، وعن حاله التي هو عليها، وعنِ القوّة التي شهدتاها منه، وعنِ المكان الذي أوى إليه. ثمّ ما كان من مداوَرةِ الرّأي حولَ الصّنيع الذي يصنعونَهُ مع هذا الغريبِ، وهل يبعثون إليه بطعام أو يدعونَهُ إلى البيت، ليرى الأبُ حقيقةَ ما سمع[1]. فمثلُ هذه التّصوّراتِ وغيرِها ممّا يَسْنَحُ في الخاطر، ولها موقعٌ في ذِهن المخاطَب، من شأنها دعوةُ المُتفكِّر إلى استحضار المشهد، ومناداةِ الحَدَث.

نُكْتَةُ الإضافةِ وعدمِ التّعيين:

الإبهامُ يُعيِّنُ المقصودَ بالاعتبارِ ويدفعُ ما سواه

أُضيف (إحدى) إلى الضّمير في قوله تعالى: ﴿إِحۡدَىٰهُمَا﴾، أي: إحدى المرأتين، دون التّعريف بها بأنَّها الصّغرى أوِ الكُبرى، فهذا ليس مقصودَ النَّظمِ والسّياق، إذِ المقصودُ بيانُ العبرةِ في كون إحدى المرأتين قد أتت موسى ﷺ، تدعوه للاستجابة لدعوة أبيها لإكرامه جزاءَ فعلِه، فالإبهامُ مقصودٌ، وغرضُ القرآنِ بيانُ إتيانِ إحدى المرأتين، لا تعيينُ اسمِها أو وصفِها.

سِرُّ التَّقييد بفعل ﴿تَمۡشِي﴾:

بيانُ المَجيء بأنَّه مَشيٌ يُحيط به الاستحياءُ

ذَكَرَ النَّظمُ الكريم جُملةَ ﴿تَمۡشِي﴾، مع إغناء قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ﴾ في ظاهر النَّظر عن ذِكر المشي، وذلك أنَّ المَجيء قد يكون مَشيًا، أو هرولةً، أو سعيًا، أو ركوبًا، فذِكْرُ المشي يُبيِّن حالةَ المَجيء، وليُبنى عليه قولُه تعالى: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾، فالاستحياءُ صفةُ المشي.

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمال حرفِ الاستعلاء:

تمكُّنُ الحياءِ في المرأة يجعلُها تمشي في الأخلاق لا على الأرض

حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ للاستعلاء المجازيّ؛ وذلك لتشبيه الحياءِ بمَرْكَبٍ لها، وهي مُتمكِّنةٌ منه، مالكةٌ لِزمامه، فعَبَّر بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾[2]؛ استعارةً

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 10/ 335.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 268.

للتّمكُّن منَ الوصف، والمعنى: أنَّها مُستحيِيَةٌ في مشيتها، أي: تمشي غيرَ مُتبخترةٍ ولا مُتثنّيَةٍ ولا مُظهِرَةٍ زينةً[1]، فهي ربيبةُ بيتِ النُّبوَّة التي تمشي مشيًا رفيقًا، قدِ انضمَّ بعضُها إلى بعض، فكأنَّها على مَطيّة استحياءٍ؛ خَجَلًا من أن تأتيَ وحْدَها، وتكلِّمَ رَجُلًا ليس من محارمها، إنّها لا تمشي على الأرض، ولكنّها تمشي على حياءٍ، تتعثَّرُ فيه قدماها، وتَقْصُر به خطاها، ويضطربُ له كيانُها[2].

دلالةُ التَّعبير بالمصدر المزيد:

شِــدّةُ الحياءِ يناسبُها التّعبيرُ بمصدرٍ مزيدٍ للمبالغة

جاء المصدر ﴿ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ المزيدُ بأحرف الزّيادة؛ لأنَّه أبلغُ في دلالته منَ المصدر العاديّ، فناسبت شِدَّةُ الحياء أن يُجاء لها بمصدرٍ مزيدٍ[3]، مُبالَغةً في الحياءِ، مثل الاستجابةِ.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾:

تعظيمُ الحياءِ الدّالِّ على شَرَفِ المرأة

نُكِّر لفظ ﴿ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ للتَّعظيم، أي: حياءٍ عظيمٍ موجودٍ منها؛ لأنَّها كُلِّفتِ الإتيانَ إلى رجل أجنبيٍّ تُكلِّمُه وتُماشيه[4]، وللتَّفخيم[5]؛ لأنَّ الحياء الذي هو عبارةٌ عنِ الحِشْمَة والانقباض عنِ القبائح أبرزُ طابع يُميِّزُ الفتياتِ العفيفاتِ وكرائمَ النّساء، ولا سيما إذا كان المخاطَب رجلًا وليس مَحْرَمًا من محارمهِنَّ، ممّا يَدُلُّ على شرف معدنِها[6].

بلاغةُ حذفِ الحال في الجُملة الكريمة:

إذا جَلَّل الحياءُ امرأةً أحاط بها، واستصحبَها في كلِّ الأحوال

قولُه تعالى: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوف، هو حالٌ من ضمير ﴿تَمۡشِي﴾ أي: جاءته تمشي كائنةً على استحياء؛ فمعناه أنَّها كانت

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 103.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 335.
(3) عبد العال مكرم، تطبيقات نحويَّة وبلاغيَّة، ص: 315.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 268.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 9، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 103.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 103.

على استحياء حالتَي المشي والمجيء معًا، لا عندَ المجيء فقط[1]، وهذا دليلُ كمالِ إيمانها، وشرفِ عُنصرِها؛ لأنَّها كانت تدعوه إلى ضيافتها، ولم تعلم أيُجيبُها أم لا؟ فأتَتْهُ مُستحيِيَةً[2].

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

ما ينقدح في الأذهانِ يحضر في البيان

جاءت جملة ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ﴾ مُستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، وهو جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ مَبنيٍّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ مَجيئِها إيّاهُ عليه السلام، كأنّه قيل: ماذا قالت له لمّا جاءَتْهُ؟[3]. وهذا من شِبه كمالِ الاتّصال، حيثُ تتشوَّفُ النَّفسُ إلى جواب هذا السُّؤال، وتتشوَّقُ إلى معرفته، فتأتي الجملةُ الأُخرى جوابًا عن هذا السُّؤال المُقدَّر، الذي يتشوّف إليه السّامعُ من أمرها ومعرفةِ سببِ مجيئِها[4].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسميَّة المؤكَّدة:

يُظهِر التَّوكيدُ الحالةَ النَّفسيّة للمُتكلّم بحسَبِ السّياق

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ مؤكَّدة، والمعنى: أنَّها على الاستحياء قالت هذا القولَ، وهو ما يعكس حياءَها، وكأنَّها تقول: لا شأنَ لي فإنَّ أمر الدَّعوة قد صدر عن أبي، فالتَّوكيدُ لتصوير الحالةِ النّفسيّة التي هي عليها، لا للإنكار أوِ التّشكيكِ، وإعلامٌ بما لأبيها منَ الرَّغبة إلى لقائه، ولإدخال المَسرَّة على المُخبِر له[5]، مع حِكاية ما في كَلامِها من تَحقيقِ الخبرِ اهتِمامًا به[6].

فائدةُ إسنادِ الدَّعوة إلى الأب:

المرأةُ العاقلةُ تلتزمُ أمرَ أبيها وتستند إلى حكمته

أُسنِد فعلُ الدّعوةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ﴾ إلى الأب، وعُلِّل بالجزاء لئَلّا يوهِمَ كلامُها ريبةً، وفيه منَ الدّلالة على كمال

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 9.
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 5/ 179.
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 168، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 9.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 268.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 268.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 104.

العقل والحياء والعِفَّة ما لا يخفى[1]؛ فَبيَّنَتِ الدّاعيَ والغرضَ منَ الدَّعوة؛ قيامًا منها بتبليغ رسالةِ أبيها كما هي، وتوضيحًا أنَّ الدّعوة صادرةٌ منه لا منها، ورفعًا لِكُلِّ شبهة أو ريبةٍ يمكن أن تُحمَل عليها[2]، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ الرَّجلَ الصّالح لم يكن له مُعينٌ سِواهما[3]؛ ولو كان في استطاعته أن يسعى إلى موسى لما بعثَ بابنته إليه، ولَجاء إليه بنفسه يدعوه إلى النّزول عنده، وهو الغريبُ الذي لا مأوَى له في هذا البلد[4].

نوعُ اللّام ودلالتُها:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَكَ﴾ للتّعليل، أي: ليعطيَكَ مكافأةً لك؛ لأنَّ المكافأة من شيَم الكِرام، وقَبولُها لا غضاضةَ فيه، فاللّام لبيان سببِ هذه الدَّعوة الكريمة[5].

نُكْتَةُ استعمالِ مُفردة الجزاء:

أكـرَمُ الإكـرام ما كان مدفوعَ الحرجِ، مرفوعَ الجُناح

استَعمل النّظمُ الكريم لفظَ الجزاءِ في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَكَ﴾، والجزاءُ يكونُ عن مقابِلٍ، وفعلُ موسى عليه السلام كان معروفًا محضًا، لم يَطلب عليه جزاءً، وذلك أنَّ ما صدر عن والد المَرأتين هو ردٌّ للجميل، واعترافٌ بالفضل، فنَزَّلَ رَدَّ الجميلِ منزلةَ الجزاءِ؛ لدَفْعِ الحَرَجِ، ورَفعِ الجُناح.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الأجر:

يُطلَق الأجرُ على رَدِّ الجميل والاعتراف بالإحسان

الأجر: التَّعويضُ على عملٍ نافع للمُعَوّض، ومنه سُمّيَ ثوابُ الطّاعات أجرًا، قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ [محمّد: 36]، وانتصب لفظُ ﴿أَجۡرَ﴾ على المفعول المطلق؛ لبيان نوع

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 59.
(2) المَغراويّ، التَّدبُّر والبيان: 25/ 265.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 590.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 336.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 268، والعثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 96.

الجزاء وأنَّه جزاءُ خير، وهو ردُّ الجميلِ، وليس هو من معنى إجارة الأجير؛ لأنّه لم يكن عن تقاولٍ ولا شرطٍ ولا عادة[1]، فالمُراد بالأجر هنا، ليس مجرّدَ الأجر المادّيّ، وإنّما هو جزاءُ إحسانٍ بإحسان، ولقاءُ معروفٍ بمعروف[2].

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها في ﴿مَا سَقَيۡتَ﴾:

(مـا) مصدريّةٌ فـالأجـرُ علـى السَّقي لا الماءِ

أداة ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ مصدريَّةٌ، ولا يجوز أن تكون موصولةً؛ لأنَّ ما يَستحِقّ عليه الأجرَ فِعْلُه لا ما سقاه، إذ هو الماءُ المُباح، فلا يصِحّ تقديرُ: (أجر الذي سقيتَ)؛ لأنَّها تريد من والدها أن يُعطيَه أجرَ سقْيِ الغنم، ولا تريد أن يعطيَه أجرَ الغنم أوِ الماءِ[3]، وأيضًا فإنَّ ما أُعطيَ في بَدَله لا يُسمَّى أجرًا بل ثمنًا؛ لأنَّه تبرُّع[4]، فيكون المعنى: ليجزيَكَ أجرَ سقيكَ، وهو الفعلُ الصّادرُ عن موسى عليه السلام في قوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

عِلَّةُ حذفِ المفعول:

تمامُ الشُّكرِ في حُسْـنِ تقديرِ أعمالِ الآخَرين

حُذِفَ مفعولُ فعلِ السَّقي في قوله تعالى: ﴿مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾، أي: ليُكافئَكَ على عملِكَ الذي سقيتَ لنا به ماشيَتَنا، فحُذف المفعولُ به (ماشيتنا) اختصارًا؛ لكونه معلومًا من سياق الآيات[5]، ولأنَّ الجزاء على السّقاية لا على كون السّقايةِ لغنمٍ أو إبلٍ، فإنَّ الاعتناءَ بفعل السّقاية، وهو الفعلُ الصّعب، والعملُ الشّاقُّ، وهو ما يعكس حالةَ الشّكرِ والمَدحِ لدى هذه العائلة الكريمة، لِما قام به موسى عليه السلام تجاهَها.

فائدةُ تقييدِ الفعلِ بشِبه الجُملة:

صنيعُ موسى عليه السلام رعايةٌ غيرُ مسبوقةٍ، وعنايةٌ غيرُ مشهودَةٍ

آثَرَ النّظمُ الكريم ذِكْرَ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 104.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 10/ 336.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 273، والعثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 97.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 497.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 268.

سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ بخلاف المفعول فقد حُذِف؛ وذلك لإظهار الشُّعورِ بالامتنان، فإنَّ مدارَ الأمر عند المرأتين هو في كونه سقى لهما في ذلك الظَّرف الصَّعب، لا في كونه سقى الماشية، وهذا الصّنيعُ هو ما جعلَهُما تشعران بالرّعاية غيرِ المسبوقة، وبالعنايةِ غيرِ المشهودةِ في قومهما، وهو كذلك خطابٌ مقنعٌ لقَبول الدَّعوة، فإنَّ إشعارَ الكريم بالامتنان أدْعَى للاستجابة.

نوعُ الفاء ودلالتُها في ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾:

طيُّ الأحداثِ من مزايا قَصَصِ القرآن

دلَّتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ على سُرعة المَجيء، أي: فأسرع في الإجابة لِما بينَهما منَ المُلاءمة[1]، ففيها تعقيبُ المجيءِ بعدَ إخبارِها بدعوة أبيها له، وطَلَبِ القُدوم عنده، وهي معطوفةٌ على جملة مطويَّة، أي: فأجابَها بعد سماع دعوةِ أبيها، وتَحرّكَ تجاهَهُ.

دلالةُ العطفِ بالواو في ﴿وَقَصَّ﴾:

المقصودُ هو الإخبارُ بالحَدَث، لا سُرعةُ الإخبار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ عطَفَتْ فعلَ القَصِّ على فعل المَجيء؛ لبيانِ حاجة موسى عليه السلام بأن يتحدَّث بما جرى له مع ثِقةٍ، وأتى بالواو لا بالفاء؛ لأنَّ المقصود بيانُ الإخبارِ بالحَدَث، لا بيانُ سُرعةِ الإخبار، فقد جاء وقَصَّ القَصَص على الشّيخ الكبير، ولمّا كانتِ العوائدُ أن يُفاتَحَ الضَّيفُ بالسُّؤال عن حاله وسببِ مَقْدِمه، حَسُنَ عطفُ ذِكْرِ قَصِّ موسى عليه السلام قِصَّةَ خُروجه ومَجيئه على الرَّجل الصّالح، وذلك يقتضي أنَّ والدَ البِنْتَيْن سألَه عن سبب قدومه، والقَصَصُ الخبرُ، ﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ﴾ أخبره بأمره والسَّببِ الذي أخرجه من أرضه[2].

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على المفعول:

أعظمُ مجالسِ الدُّنيا محادثةُ ثِقَةٍ بعدَ طولِ تعب

قُدّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 268.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 244، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 104.

المفعول؛ اهتمامًا بالمُقدَّم، وتشويقًا إلى المُؤَخَّر، فإنَّ المقصود بيانُ حاجةِ المُتكلِّم إلى ثِقةٍ، وقد رأى في الشّيخ والدِ المرأتين ما يدعوه للكلام، وإخراجِ مكنونِ النَّفس، فإنَّ ذلك ممّا يُريح النّفسَ، ويُخفِّفُ من ثِقَل الشُّعور بالتَّعب، فاجتمع له بعد ذلك السَّفرِ الطّويلِ أمران؛ التّكلّمُ لإخراج مَكنون النّفس، وأن يكون الكلامُ متّجِهًا إلى ثِقَةٍ.

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡقَصَصَ﴾:

الإشـارةُ إلى قصص ما حدثَ له، أوِ القصصِ التي ذُكرت سابقًا

جاءت لفظةُ ﴿ٱلۡقَصَصَ﴾ مُعرّفةً، والتَّعريف إمّا أن يكون عوضًا عنِ المُضاف إليه، أي: قصص ما حدثَ له، أو للعَهْد الصَّريح[1]، وهو الذِّكري، أي: القَصَصَ التي ذُكِرَت آنِفًا[2].

غرضُ النَّهي ودلالتُه في ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾:

من مقاصد النَّهي دفعُ الخوفِ وإنزالُ الطّمأنينةِ

خاطبَ الشّيخُ الكبيرُ موسى عليه السلام بجُملة إنشائيَّة طلبيّة بقوله: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾، وهي نهيٌ لموسى عليه السلام عنِ الخوف؛ وذلك ليَطْمَئِنَّ قلبُه ويزيلَ عن نفسه الخوفَ؛ لأنَّه أصبح في مأمن من أن ينالَه حُكمُ فرعونَ؛ لأنَّ بلاد مدينَ تابعةٌ لمُلك الكَنعانيّين، وهم أهلُ بأسٍ ونَجْدَة، ومعنى نهيِه عنِ الخوف: نهيُه عن ظَنٍّ أن تنالَه يَدُ فرعونَ[3].

غرضُ تقديمِ النَّهي على الإخبار:

التّخليَةُ مُقدَّمةٌ على التّحليَة

في قَوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَدَّم ذِكْرَ النَّهي عنِ الخوف؛ لأنَّه وعدٌ بالأمان، على البِشارةِ وهي الإخبار بالنَّجاة، فهي من تقديم التّخليَة على التَّحليَة.

بلاغةُ التَّذييل بالتَّعليل:

نفسُ الخائفِ تحتاجُ إلى خطابِ الطُّمأنينةِ والإقناعِ

جُملةُ: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُعلِّلةٌ للنَّهي عنِ الخوف[4]،

(1) العهد الصَّريح: هو أن يتقدَّم ذِكْر المعَّرف صراحة، كقولنا: جاء رجل، فأكرمت الرّجل. يُنظر: القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 32.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 104.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 104.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 105.

فهذا القولُ منَ الشَّيخ الكبير لموسى ﵇، صادفَ مكانَه، وطابقَ مقتضاه، فقد كان موسى ﵇ أحوجَ ما يكون في ذلك الوقت إلى نعمة الأمان والاطمئنان، بعد أن خرجَ من مصر خائفًا يترقَّبُ[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿ٱلْقَوْمِ﴾:

أعظمُ النّاسِ ظُلْمًا القائمون عليه الرّاسخون فيه

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقل: (نجوتَ منَ الظّالمين)؛ وذلك لبيان أنَّهم قاموا واجتمعوا وتعاونوا على الظُّلم، فقيامُهم في الحياة مُرتكزٌ على الظُّلْم، ومجمعُ قوّتِهم دائرٌ حولَ الظُّلم، فهم قومٌ ظالمون في أعمالهم وأفعالهم وقيامِهم واجتماعهم.

نُكْتَةُ الجمعِ دونَ الإفراد في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الوعدُ بالنَّجاة مِنَ الظّالمين أرسخُ من قَصْره على واحد

آثَرَ النَّظمُ الكريم على لسان الشّيخ الكبير وصفَ قوم فرعون، لا الاكتفاءَ بذِكْره، فقال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقُلْ: (نجوتَ مِنَ الظّالم)، وهذا يَدُلُّ على أنَّ جنودَ الظّالم ظَلَمَةٌ، فالطّاعةُ فيما فيه ظُلْمٌ مُحَرّمةٌ، وهي طاعةٌ لَمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ[2]، ولبيان شُيوعِ الأمان، فإنَّ النَّجاة مِنَ الجميع أعمُّ وأشملُ، وهو وعدٌ مَليءٌ بالبشارة، مُكتَملُ الأركان في دفع المخاوفِ والوساوسِ.

توجيهُ تخصيصِ الظُّلم بالذِّكر:

أعظمُ معاناةٍ واجهها موسى ﵇ هي الظُّلمُ والبَغي

خَصَّ النَّظمُ الكريم الظُّلمَ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، دون صفة الفسق أوِ الكفر ونحوِ ذلك؛ لأنَّ أعظم ما عاناه موسى ﵇ من قومه هو ظلمُهم له، فوَصَفَ الشّيخُ الكبير لهم بالظّالمين؛ تصديقٌ لما أخبرَه به موسى من رَوْمِهِمْ قتلَهُ قصاصًا عن قتل خطأ، وما سبق ذلك من خبر عداوتِهم لبني إسرائيل[3].

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 395.
(2) العثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 104.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 105.

بلاغةُ مطابقةِ ألفاظِ الوعدِ لألفاظِ السُّؤال:

مِن لطيف ما جاء في استجابة الدُّعاء مطابقةُ الوَعْدِ للسُّؤال؛ فموسى عليه السلام قد دعا ربَّه عندَما خَرَجَ خائفًا يترقَّب فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص: 21]، فجاءت البِشارةُ والتّطمينُ من الشّيخ الكبير بقوله: ﴿لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فقَولُه: ﴿لَا تَخَفْۖ﴾ إجابةٌ لِقَولِه: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: 21]، وقولُه: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إجابةٌ لِقَولِه: ﴿نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص: 21]، وهكذا تكونُ إجابةُ اللّهِ تعالى للمُضطَرِّ مُطابِقةً تمامًا لسُؤاله؛ إذْ لا سُلطانَ لفِرعَونَ على مَدْيَنَ[1].

تطابُقُ البشارة مع دعاءِ موسى بطلب النَّجاة عند خُروجه من مصر

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأَجْرُ والثَّواب:

الأَجْرُ: هوَ جَزاءُ العَمَلِ الذي يَكونُ فيه عَقْدٌ أَوْ ما يَجْري مَجْراهُ، والشّاهِدُ أنَّكَ تَقولُ: ما أعْمَلُ حَتّى آخُذَ أَجْري، ولا تَقولُ: ثَوابي.

أمّا الثَّوابُ: فَقَدِ اشْتُهِرَ في الجَزاءِ على الحَسَناتِ[2]، والأَجْرُ يُقالُ في هذا المَعْنى، ويُقالُ فيما مَعْناهُ المُعاوَضَةُ بِالانْتِفاعِ[3].

الأَجْرُ في المعاوَضة، ويغلبُ الثَّوابُ في الحسنات

الخَوْفُ والخَشْيَة:

الخَوْفُ: انْفِعالٌ في النَّفْسِ يَحْدُثُ عِنْدَ تَوَقُّعِ حُلولِ مَكْروهٍ، أَوْ فَواتِ مَحْبوبٍ[4] عَنْ أمارَةٍ مَظْنونَةٍ، أو مَعْلومَةٍ[5]، وفي التَّنْزيلِ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: 19].

وأمّا الخَشْيَةُ: فخَوْفٌ يَشوبُهُ تَعْظيمُ المَخْشيِّ، مَعَ المَعْرِفَةِ بِهِ[6].

الخوفُ توقُّعُ حلولِ مكروهٍ أو فواتِ محبوب، والخشيةُ خوفٌ يشوبُهُ تعظيمُ المخشيّ مع معرفته

(1) العثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 100.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 17.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (أجر).
(4) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 101، والأحمد نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: 2/ 66.
(5) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(6) السّيوطيّ، معجم مقاليد العلوم، ص: 204، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 155.

كما أنَّ الخَوْفَ يتَعَلَّقُ في الغالِبِ بالمَكْروهِ نَفْسِه، أمّا الخَشْيَةُ فتتَعَلَّق بِمَنْزِلةِ المَكْروه[1]، ولِهَذا جاءَ التَّفْريقُ بَيْنَهُما بِحَسَبِ هذا المَعْنى في قَوْلِه تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرَّعْد: 21]، فالخَشْيَةُ تكونُ مِنْ عِظَمِ المُخْتَشَى، وإنْ كانَ الخاشي قَوِيًّا، والخَوْفُ يَكونُ مِنْ ضَعْفِ الخائِفِ، وإنْ كانَ المَخوفُ أمْرًا يَسيرًا، ولِذا ورَدَتِ الخَشْيَةُ غالِبًا في حَقِّ اللّه تَعالَى نَحْوَ: ﴿مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: 74]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطِر: 28][2]، وعلَيْهِ تَكونُ الخَشْيَةُ أخَصَّ مِنَ الخَوْفِ، فَهيَ خَوْفٌ مَقْرونٌ بِمَعْرِفَةٍ وتَعْظيمٍ[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.

(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 364.

(3) ابن قيّم الجوزيّة، مدارج السّالكين: 1/ 508.

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص: 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ النَّجاةِ يحصلُ تأمينُ المأوَى والرِّزق

لمّا أخبرتِ الآيةُ السّابقة ببشارة الرّجل الصّالح، وحصلتِ الطُّمأنينةُ في نفس موسى عليه السلام، ناسبَ ذِكْرَ إيماءِ إحدى الابنتين في خطاب أبيها بأن يستأجرَه، ليَحْصُلَ بعدَ البِشارة تأمينُ المَأْوى والرِّزق.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾: (قوي) أصلٌ يدلُّ عَلَى شِدَّةٍ وخِلافِ ضَعْفٍ[1]، والقوَّةُ تستعمل تارةً في معنى القُدرة، نحو قولِه تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]، وتارةً للتّهيُّؤ الموجود في الشّيء، نحو أن يقال: النّوى بِالقوَّةِ نخلٌ، أي: متهيِّأ ومُتَرشِّحٌ أن يكون منه ذلك، ويستعمل ذلك في البدن تارةً، وفي القلب أخرى، وفي المُعاوِن من خارج تارةً، وفي القُدرة الإلَهيّة تارةً[2]، والمعنى هُنا: القادِرُ شديدُ القوَّة[3].

2) ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾: أصلُ (أمن) منَ الأمانةِ الَّتي هيَ ضِدُّ الخيانَةِ[4]، والأَمْنُ: نقيضُ الخوفِ، والأمانةُ: وثاقَةٌ في الباطن؛ كالنّاقة الوثيقة الخَلْقِ، والأمينُ: الحافظُ، وقد أَمُنَ أمانَةً، ورجلٌ أمين وأُمّانٌ، أي: لَهُ دَينٌ مأمونٌ به ثِقَة، فالأمينُ هو المُؤْتَمَنُ[5]. وأمانتُه عليه السلام تشمل المحافظة والعِفَّةَ والاستقامة وعدمَ الخيانةِ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).
(2) الرّاغب، المفردات: (قوي).
(3) الشّيخ علوان، الفواتح الإلهيّة: 2/ 80.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(5) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(6) شحاته، تفسير القرآن الكريم: 20/ 3985.

المَعنى الإجْماليُّ:

تُخبر الآيةُ الكريمة بما قالته إحدى البنتين لأبيها: يا أبتِ اتَّخِذْه أجيرًا لرَعي الغنمِ والقيام على شأنها، فإنَّ خير مَن تستأجِرُهُ للرّعي القَويُّ على حفظِ ماشيتِكَ، الأمينُ الذي لا تخاف خيانتَه فيما تأمَنُه عليه، فبالقوَّة يُؤدّي ما كُلِّف به، وبالأمانة يحفظُ ما ائتُمن عليه(1).

أبرزُ صفاتِ العامل النّاجِح القوّةُ والأمانة

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئناف البيانيّ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ جُملةٌ مستأنَفَةٌ، فلمّا آوى الرَّجلُ الصّالحُ موسى عليه السلام، وأعطاه الطُّمأنينة، وكان من كفاية موسى عليه السلام وديانتِه ما يُرَغِّبُ في عِشْرَته؛ تشوَّقتِ النَّفسُ إلى حالهما حينَئِذٍ، فكأنّ سائلًا سأل: ماذا كان بعد هذا التَّأمين لهذا الرَّجل القَويّ الأمين؟ فقال مُستأنِفًا لذلك: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾(2)، فإنَّ النَّفس تتشوّفُ إلى معرفة بقيَّة أحداث القصَّة، لاسيما بذِكْر مَجيءِ المرأة على استحياء، المسبوقِ بذِكْر دعاءِ موسى عليه السلام.

طبيعةُ النَّفسِ متشوّفةٌ إلى معرفة متعلّقاتِ الأحداث المَذكورة

بلاغةُ الإيماءِ في أسلوب نداء البعيد:

استعمل النَّظمُ الكريم أداةَ النّداء للبعيد في ذكر نِداء المرأة أباها في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾، وفي النِّداء بأداة البُعد استصغارٌ لنفسِها وجلالةِ أبيها(3)؛ فهي توقِّر أباها، كما أنَّ هذا النّداء هو توطِئَةٌ لطَلبها ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾، كما يحمل في طيّاته إشارةً لِما في نفس هذه المرأة، وكأنَّها تُنادي من مكان بعيدٍ طالبةً من أبيها ما يَفْقَهُهُ عنها دونَ تصريح. وغرضُها من هذا النِّداء توقيرُ أبيها.

في النّفوس حاجاتٌ تستبين في دقائق النَّظم

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 578، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيسَّر، ص: 388، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 388.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 269.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 269.

غرضُ أسلوبِ الأمر:

التماسُ الإعانةِ وتحقيقُ الطُّمأنينةِ الدّائمةِ

لمّا نادَتِ البنتُ أباها بِنداء البعيد طالبةً منه استئجارَ موسى عليه السلام بقولها: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾، فإنّ هذا الأمر ليس على معناه الحقيقيّ، فهو ليس طَلبًا للفعل على وجه الاستعلاء؛ لأنَّ البنتَ لا تأمُر أباها، ولكنّه أمرُ التماسٍ واقتراح، فإنَّ لهذا الاقتراحِ فوائدَ يظهرُ بعضُها من مثل إنهاءِ مشكلةِ السّقايةِ، وما يُشابِهُها من متاعبَ تابعةٍ للأعمال التي يُحسنها الرّجال، وفوائدَ تستَكِنُّ في النّفوس، تُفْقَهُ إيماءً وإشارةً.

عِلَّةُ توكيدِ جملة التَّعليل:

إظهارُ الرّغبة في الخير والاغتباطِ به

عَلَّلتِ ابنةُ الرَّجلِ الصّالح قولَها، فقالت مُؤكِّدةً، إظهارًا لرغبتها في الخير واغتباطِها به: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ﴾[1]، والتَّأكيدُ ليس لإثبات مُنْكَرٍ، أو دَفْعِ شُبهة، بل هو تأكيدٌ نفسيٌّ يعكسُ قناعتَها ورغبتَها في استئجاره، فهو لبيان حِرْصِها عليه، وتمسُّكِها به.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿خَيۡرَ﴾:

الخيريّةُ أُمُّ الكمالِ المبنيِّ عليها غيرُها

آثَرَ النَّظمُ الكريم اختيارَ مفردة ﴿خَيۡرَ﴾ للمُبالغة في الاهتمام بأمر الخَيريَّة؛ لأنَّها أمُّ الكمالِ المَبني عليها غيرُها[2]، ولبيان أنَّ أولويّةَ الاستئجارِ هي خيرٌ مَحْضٌ يُرجَى منه الخيرُ.

بلاغةُ التَّقديم والتَّأخير في المتساويَين تعريفًا:

يُلحَظُ في التَّقديم العنايةُ بجملةِ التَّعليل

يُلحَظُ أنَّ النّظمَ الكريم جعل المُسنَدَ إليه ﴿خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ﴾ اسمًا لأداة ﴿إِنَّ﴾، وجعل ﴿ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ مُسندًا خبرًا لها، مع صِحّة جعل ﴿ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ هو المسندُ إليه؛ فإنَّهما متساويان في المعرفة من حيثُ إنَّ المُراد بالتّعريف في الموصول المضافُ إليه ﴿خَيۡرَ﴾، وفي المُعَرّف باللّام هنا العمومُ في كليهما، فأوثِرَ بالتّقديم في جُزأي الجملةِ ما هو أهمُّ وأولى بالعناية، وهو خيرُ أجيرٍ؛ لأنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 269.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 274.

الجملة سيقت مساقَ التَّعليل لجملة ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾، فَوَصْفُ الأجيرِ أهمُّ في مقام تعليلها، ونفسُ السّامعِ أشدُّ ترقُّبًا لحالِه[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:

تعميمُ الحُكمِ على كلِّ مستأجَرٍ لعمل

جاء التَّعبيرُ باسم الموصول في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ﴾؛ إرادةً للتَّعميم الذي هو أجمل وأليقُ في مدح النِّساء للرِّجال منَ المدح الخاصّ، وأبقى للتَّحشُّم والتَّصوُّن، ولا سيما بعد أن فهمتِ البنتُ غرضَ أبيها، وهو تزويجُها منه[2]، وليكون هذا الحُكم عامًّا في كلِّ مستأجَرٍ لعملٍ ما، فإنَّ القوّة والأمانة هما خيرُ صفاتِ الأجير.

دلالةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

المُجَرَّبُ المعروف أرسخُ في القَبولِ

جاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي ﴿ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ﴾ والمعنى على الاستقبال؛ للدّلالة على أنَّه أمرٌ قد جُرِّب وعُرِفَ[3]؛ فقد عَرفَتْ ابنةُ الرّجل الصّالح قوّةَ موسى عليه السلام ممّا شاهدت من سرعة السّقاية، المُعبَّرِ عنها باستعمال الفاء التَّعقيبية ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾، وأمانتَه ممّا شاهدت من تولّيه إلى الظِّلّ بعد السِّقاية لهما[4]، وعدمِ محادثتِهما بشيء زائد عنِ المقدار.

نُكْتَةُ تعريفِ ﴿ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ وبلاغتُه:

الوصفُ للجِنس مُرادٌ بِهِ العموم

التَّعريف باللّام في ﴿ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ للجنس لا للعهد، مُرادٌ بِهِ العمومُ، فيكون موسى عليه السلام مُندرجًا تحتَه، كأنَّها قالت: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾؛ فإنَّه حقيقٌ بالاستئجار؛ لأنّه قويٌّ أمين، وكُلُّ مَنْ هذا شأنُه فهو لائقٌ بالاستئجار حقيقٌ به، فهو أبلغُ من أن يُقال: استأجره فإنَّه هو القويُّ الأمينُ[5].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 106.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 172، وابن المُنيّر، الانتصاف: 3/ 172.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 175، والمظهريّ، تفسير المظهريّ: 7/ 158.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 560.

(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 499، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 21/ 152.

نُكْتَةُ اقترانِ صفتَيِ القوّة والأمانة:

تمامُ المقصود لا يكون إلّا باقتران الأمانة بالقوَّة

جاء وصفُ ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ مقترنًا بصفة ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾، و﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ من حيثُ الإعرابُ موصوفٌ وهو خبرُ ﴿إِنَّ﴾، إلّا أنَّه صفةٌ من حيث المعنى، وجاء وصفُه بالقويّ لِما تحلَّى به من قوّة السَّقي، وبالأمين لِما فيه منَ الحياء والعِفَّة؛ لأنَّه إذا اجتمعتِ الأمانةُ والكفايَةُ في القائم بأمرٍ، فقد تَمَّ المقصودُ وتحقّق المُراد[1]، ومن جمع في سلوكه وخُلُقه بينَ القوّة والأمانة، كان أهلًا لكلِّ خير، ومحلًّا لثِقةِ النّاس به على أموالهم وأعراضهم[2].

نُكْتَةُ تقديمِ القوّة على الأمانة:

تقديمُ الأصل - وهو القوّة - على مُتمِّمه؛ وهي الأمانة

ناسبَ تقديمَ ذِكْرِ القوّة على الأمانة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾؛ لأنَّ المقامَ يتطلّبُ القوَّة؛ لأنَّ الفعل لا يتمُّ إلّا بها، ولذا جاء قولها: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾، فبالقوّة يكون الفعلُ، وبالأمانة يكون تمامُ الفعل، فغيرُ القويِّ لا يفعل، وغيرُ الأمين لا يُتمّمُ الفعلَ، وقد لا يفعلُه أصلًا، فالقوّة تُعين الإنسانَ على أداء العمل، وتشمل الخبرةَ والمعرفة[3]، فقُدِّم الأصلُ على متمِّمه.

بلاغةُ الجُمَلِ الجامعة:

اجتماعُ فنِّ الإيجاز والمذهبِ الكلاميّ، وتقديمُ الأهَمّ والمثَل والعموم

قولُه تعالى: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ كلامٌ جرى مجرى العموم، وهو يَصلُح أن يكون كالمَثَل السّائر، والحِكمةِ البالغة، وقد حوى الإيجازَ، والمَثَلَ، والتَّعميم، والإبهامَ، والمذهبَ الكلاميّ، وتقديمَ الأهمّ، وهذا التَّذييلُ منَ الكلام الجامع المانع الحكيم الذي لا يُزاد عليه؛ لأنَّه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان في القائم بالأمر، والمُتعهّدِ للشُّؤون، وهما الكفايةُ والأمانة، فقد فرغ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 298، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 269.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 396.
(3) العثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 105، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 20/ 3985.

البالُ وتَمَّ المُرادُ، وأصبح هذا القولُ مثلًا سيّارًا يتداولُه النّاسُ على مَرِّ العصور، وقدِ استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقُه سياقُ المَثَل، والحِكمة أن تقول: استأجره لقوَّته وأمانته[1]. ومجيءُ هذا العموم عقبَ الحديث عن شخص معيّن، يُؤْذِنُ بأنَّ المُتحَدَّثَ عنه ممّن يشملُه ذلك العموم، فكان ذلك مصادِفًا المَحَزَّ منَ البلاغة، إذ صار إثباتُ الأمانة والقوّة لهذا المُتَحَدَّثِ عنه إثباتًا للحُكم بدليل؛ فتقدير معنى الكلام: استأجره فهو قويٌّ أمينٌ، وإن خيرَ مَن استأجَرَ مستأجِرٌ القَويُّ الأمينُ، وبذلك استوفت غايةَ مقتضى الحالِ، فكانت بالغةً حَدَّ الإعجاز[2].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 403.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 106.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خطابُ العقلِ المُؤيَّدُ بالفطرة يلقى قبولًا عندَ الحكماء

لمّا أخبرتِ الآيةُ السّابقة عمّا ذكرته المرأةُ لأبيها من حال موسى عليه السلام، ناسبَ بيانَ موقفِ الأبِ من استئجاره؛ لجَمْعِه صفاتِ الكمال والتّمام، فقال: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِجَجٖۖ﴾: سنين، والحِجَج جمع حِجَّة، وهي السَّنَة[2]، مشتقَّةٌ مِن اسم الحَجّ، وأصلُ (حج) يدُلُّ على قَصدٍ، وسُمّيت السَّنَة حِجَّة لأنَّ الحَجّ يقع كلَّ سنة، وموسمُ الحَجّ يقع في آخر شهرٍ منَ السَّنَة العربيّة، فالحَجُّ في السَّنَةِ لا يَكونُ إلّا مَرَّةً واحِدَةً[3]. فمعنى الحِجَج السّنواتُ.

2) ﴿أَشُقَّ﴾: أُكَلِّفَ وأُشَدِّد، يُقال: شَقَّ عليه الأمرُ مَشقَّةً، أي: صَعُبَ واشتَّد، وشَقَقتُ عليه أيضًا، وأصل (شَقَّ) يدلُّ على انصداع في الشَّيءِ، يُقال: أصاب فلانًا شَقٌّ ومَشقَّةٌ، وذلك الأمرُ الشَّديد، كأنَّه من شِدَّته يشقّ الإنسانَ شَقًّا، والمَشقَّة التَّعبُ البدنيُّ المُستدعي لأقصى الطّاقة[4]. ومعنى ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾: لا أُكلِّفُك أعمالًا شاقّة تصعُب عليك في هذه المُدَّة[5].

---

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 3/ 376، والطَّبراني، التّفسير الكبير: 5/ 62.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حجج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حج)، وابن منظور، لسان العرب: (حجج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شق)، والمصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 6/ 94.
(5) خواجة الأنصاريّ، كشف الاسرار: 7/ 295.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ملاقاةُ الإحسانِ بإحسانٍ منهجُ الصّالحين وطريقُ الموفّقين

تُبيِّن الآيةُ الكريمة موقفَ الأبِ الحكيم من مشورة ابنته عليه، فخاطب موسى عليه السلام عارضًا عليه تزويجَه إحدى البِنتين، مقابلَ أن يكون أجيرًا عنده في رعي الماشية ثمانيَ سنين، فإن أكمل المُدّة عشرَ سنين فإحسانٌ زائد، دون أن يَشُقَّ عليه بتكاليفَ لا يُطيقُها، وبأطولِ الأجلين، ووعده بأن يكون - إن شاء الله - منَ الصّالحين، الذين يوفون بالعُقود، ولا ينقضون العُهود[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

المحاوراتُ القرآنيَّةُ قائمةٌ على افتراض السُّؤال الباحث عنِ الجواب

جاء قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾ مفصولًا عمّا قبله، وهو استئنافٌ بيانيٌّ وقع جوابًا لسؤالٍ مُقدَّرٍ، فموجِبُ الفصل شِبْهُ كمالِ الاتّصال، كأنَّ سائلًا سأل: ماذا كان جوابُ الأبِ؟ فتتشوَّفُ النَّفسُ إلى سماع الإجابة، وتتشوَّقُ إليها، فتأتي هذه الجُملة ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾ إجابةً عنِ السُّؤال المُتَوَقَّع[2].

غرضُ التّوكيد:

إظهارُ الرّغبة في تحقيق المأمول من سُنَن الخطابِ المقبول

في تأكيد جُملة ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ إظهارٌ لمزيد رغبةِ الأبِ فيما تضمَّنته الجُملةُ من تزويج ابنتِه لسيِّدنا موسى عليه السلام[3]؛ لأنَّ الغريب قلَّ ما يُرغَبُ فيه أوَّلَ ما يَقْدِمُ أتَمَّ الرَّغبة لا سيما منَ الرُّؤساءِ[4]، فكان تأكيدُ الرّغبة من فصاحة الكلام، وقوَّةِ الخِطاب، فهي رغبةٌ حقيقيَّةٌ لا مَجرَّد سانحِ فكرٍ، وهو ما جعل الجوابَ سريعًا غيرَ متراخٍ.

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 579، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 388، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 388.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 276، ونُخبة من العلماء، التَّفسير الوسيط، ص: 1760.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 276.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 270.

غرضُ الحذف ووظيفتُه:

سُنَّةُ الفصحاءِ النُّطقُ بالألفاظ الوجيزة والتّراكيبِ المختزَلة

في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ﴾ إيجازُ حذفٍ، تقديره: (قال الشَّيخُ الكبير لموسى ﷺ مُستجيبًا لاقتراح ابنته: يا موسى إنّي أُريد أن أُزَوِّجَكَ إحدى ابنتي هاتين)، وحَذَفَه هُنا للعِلْم به[1]، وهذا الحذفُ هو عمودُ البلاغة؛ وذِكْرُه تطويلٌ لا داعيَ له، وقد جرت سُنَّةُ الفصحاءِ أن ينطقوا بالألفاظ الوجيزة، والجمل المُختزَلة في الأمور الجسيمة، دونَ تطويلٍ أو إطناب؛ ليكونَ وقعُها ركيزةَ الأذهان، فتلقى قَبولًا في العقل، ورواجًا في الذّهن.

فائدةُ التَّعبير بـ ﴿أَنْ﴾ المصدريّة والفعلِ المضارع:

أقوى أسبابِ ثباتِ النّكاح ما كان عن تجربةٍ وفِراسة

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿أَنْ﴾ المصدريّةِ والفعلِ المضارع في قوله تعالى: ﴿أَنْ أُنكِحَكَ﴾، دون أن يُقال: (إني أُريد إنكاحك)؛ وذلك أنَّ التَّعبير بـ﴿أَنْ﴾ المصدريّة هو الأليقُ بمقام البلاغة، فأفاد حرفُ المصدريّة التّوكيدَ، وأفاد الفعلُ المضارع إرادةَ الحالِ والاستقبال؛ ففيه إتاحةُ التَّفكيرِ في عرض النّكاح، بخلاف لو قال: (إنكاحك) لفُهم أنَّ فيه شبهةَ الجَبْر والاضطرار، لِما فيه من طرح الأمر في الحال، وأن يكون الجواب في الاستقبال.

بَراعةُ إبهامِ المفعولِ الثّاني:

مُراعاةُ إرادةِ موسى واختيارِه للزّوجة

الملاحَظُ في السّياق أنَّه ذكَر المرأةَ بإبهام، من مثل قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾، وقولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾، وقولِه تعالى: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾، فلم يُعيِّن المقصودَ بوصفٍ، كالكبرى أوِ الصّغرى، أوِ اسم، بل اكتفى بالإبهام؛ وذلك لانتفاء الفائدة من التَّعيين، وعدم تحقيق غرضٍ للمُخاطَب، فإنَّ الإبهام الأوّل والثّاني هو إخبارُ الحَقِّ ﷻ عمّا جرى، لكنّ الإبهامَ الثّالثَ وهو قوله تعالى: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ له فائدةٌ، وهي أنَّ الأبَ الحكيمَ لم يُرِد أن

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 397.

يُخْرِج موسى ﵇ بإحداهما، بل ترك الاختيارَ لصاحب القرارِ، ولذلك أشارَ إليهما إشارةَ الواثق.

فائدةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ صفةً للابنَتَين:

نظمُ القرآنِ هو الأقربُ لفهم الواقع التّاريخيّ، والأدقُّ في معرفة التّفاصيل

جاء التَّعبيرُ القرآني بليغًا في اختيار صفة ﴿ٱبۡنَتَيَّ﴾ اسمَ إشارةٍ وهي ﴿هَٰتَيۡنِ﴾؛ ذلك أنَّ الأبَ قد جمع موسى ﵇ معَ البِنتَين اللّتَين كانتا في ماء مدينَ، وعرض عليه نكاحَ إحداهما في مجلسٍ واحد، فالإشارةُ على حقيقتها، وهذا ما يقتضيه ظاهرُ النَّظم ولا مانعَ منه، وقد احتُمِل أنَّ الإشارة لِما استقرَّ في ذهنه ﵇، باعتبار قُرْبِ عهدِه بالسّقي لهما[1]، وهو مبنيٌّ على روايات بأنَّ الحاضرة إحداهُنَّ، وهو ما لا دليلَ عليه، والأصلُ تقديمُ الحقيقةِ على المجاز ما لم يمنع مانعٌ منه، وجملةُ الرّواياتِ المَرويَّةِ في نكاحه ﵇ لا تصِحّ، وللجمع بينها وبين ما جاء في النّظم يتوجَّبُ التّوجيهُ على المَجاز، والتَّأويلُ غيرُ المُستساغ، فكان النَّظرُ في النَّظم هو الأولى اعتناءً، والأرجى وصولًا إلى المعنى المقصود.

دلالةُ استعمالِ الفعل ﴿تَأۡجُرَنِي﴾ مادَّةً وصيغةً:

تكثيرُ المعاني المُحتمِلَة وتنويعُها في اللّفظ الواحد

قوله تعالى: ﴿تَأۡجُرَنِي﴾ يحتمل أن يكون المعنى: أن تأجُرَ نفسَك منّي، أو تكون لي أجيرًا، أو تُثيبَني، من: أجَرَك اللّه[2]؛ فعلى المعنى الأوَّل: تأجُرَني نفسَكَ مُدَّةَ ثماني حِجَج، والأجرُ هاهنا هو الصَّداق. وعلى المعنى الثّاني: أن تكون أجيرًا لي، يُقال: أجَرتُ الغُلامَ فهو مَأجور، وآجَرْتُه فهو موجَر، وآجَرته فهو مُؤاجَر، على وزن فاعلتُه، وكلُّه بمعنًى واحد. وعلى المعنى الثّالث: أن تُثيبَني من تزويجي إيّاك رعيَ ماشيتي ثمانيَ حِجَج، من قولهم: آجَرَكَ اللّه، أي: أثابَكَ[3].

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 12/ 160، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 270، والآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 67.
(2) الشِّهاب، حاشية الشّهاب الخفاجيّ على البيضاويّ: 7/ 293.
(3) خواجة الأنصاريّ، كشف الاسرار: 7/ 295.

ففي التَّعبير بهذا اللَّفظ تكثيرٌ وتنويعٌ في المعاني المُحتمِلَة منَ اللَّفظ الواحد، وبه يظهر تمامُ الإعجاز في خلاصة الإيجاز.

بلاغةُ المجازِ بالحَذْف:

في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ يعني: عملَ ثماني حِجَج، فأسقط المضاف وهو العمل، واقتصر على المُدَّة؛ لأنَّه مفهوم منهما، والعمل رَعْيُ الغنم[1].

نُكْتَةُ استعمالِ لفظِ ﴿حِجَجٖۖ﴾:

اختيارُ الألفاظِ يكشفُ الاستعمالَ التّاريخيّ لها

آثَرَ النَّظمُ الكريم اختيارَ لفظِ ﴿حِجَجٖۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾، وهو جمعُ حِجّة، والمُراد بها السَّنَةُ، والتَّعبير بلفظ الحِجَج لِلَمْحِ معنى القَصْد في أصلها اللُّغَويِّ، ففيه بيانُ الشّائعِ في تسميَةِ السَّنَةِ بالحِجَّة في ذلك الوقت، وهذا منَ الفائدة التّاريخيّة، وفيها لطيفةٌ: وهي أنَّ هذا منَ التَّفاؤل بأن تكون زوجتُه طَيّبةً ومُتابِعَةً لأمر اللّه، بما يوَسِّعُ بَركتَها عليه في رِزْقِه، ويَدْفعُ عنه نِقَمَهُ، ويفيضُ عليه من نِعَمِه، فهي أهلٌ أن تُقْصَدَ بالزَّواج[2].

نُكْتَةُ استخدام (إن) ودخولِ الفاء عليها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾ عاطفةٌ الجملةَ على السّابقة، وأتى بأداة (إن) دون (إذا) لاكتمال الاختيار في مدّة الإجارة.

معنى حرفِ (من) ودلالةُ دخوله على ﴿عِندِكَۖ﴾:

ابتداءُ الفضل بالتَّطوُّع كائنٌ من موسى عليه السلام

قوله تعالى: ﴿فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ أي: إتمامُه من عندكَ لا من عندي، فلا أُلْزِمُكَهُ ولا أُحَتِّمُه عليك، ولكنّكَ إن فعلتَه فهو منكَ تفضُّلٌ وتَبَرُّعٌ، وإلّا فلا عليك[3]. فجعلَ ذلك إلى موسى عليه السلام تَفَضُّلًا منه أنِ اختارَه،

(1) الماورديّ، النُّكت والعيون: 4/ 248.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 271.

(3) الزَّمخشريّ، الكَشّاف: 3/ 405.

ووَكَلَهُ إلى ما تكون عليه حالُه في مُنتهى الحِجَج الثّمانِ من رغبة في الزّيادة أوِ التّوقّف، وحرفُ (من) للابتداء، و(عند) مستعمَلَةٌ في الذّات والنّفس مجازًا، والمجرورُ خبرُ مبتدأ محذوف، والتّقدير: (فإتمامُ العَشْرِ مِن نفسِكَ)، أي: لا مِنّي، يعني: أنّ الإتمامَ ليس داخلًا في العُقدَة التي هي منَ الجانبين، فكان مفهومُ الظّرفِ معتبرًا هنا[1].

غرضُ العطفِ وبلاغتُه:

حُسْن العَرْض الذي عَرَضَهُ الشَّيخ على موسى عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ بيانٌ لحُسْن العَرْضِ الذي عَرَضَهُ الشَّيخ على موسى؛ أي: وما أريد أن أشُقّ عليكَ أو أتعِبَكَ في أمر منَ الأمور، خلالَ استئجاري لك[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤَوَّل:

التّأكيدُ على أنّ نفيَ المشقّة كائنٌ في الحال والمآل

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ أوثِرَ استعمالُ ﴿أَنۡ﴾ المصدريّةِ والفعلِ المضارع ﴿أَشُقَّ﴾ دون المصدر الصَّريح، لتأكيد إرادتِه، ولبيان أنَّ نفيَ المشقّةِ كائنٌ في الحال والمآل.

بلاغةُ المجازِ المُرسَل:

رَحِم الله امرأً سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى

معنى قوله تعالى: ﴿أَشُقَّ﴾: أكون شاقًّا عليك، أي: مُكلِّفَكَ مَشقَّةً، والمَشَقَّةُ: العُسر والتَّعب والصُّعوبة في العمل، والأصل أن يوصَف بالشّاقّ العملُ المُتعِبُ، فإسنادُ ﴿أَشُقَّ﴾ إلى ذاته إسنادٌ مجازيٌّ بطريق المجاز المُرسَل، الذي علاقتُه السَّببيَّةُ؛ لأنّه سببُ المَشقَّة، أي: ما أُريد أن أشترطَ عليك ما فيه مَشقَّتُك[3].

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿أَشُقَّ﴾:

الرّحمةُ مَحْضِنُ الأعمال المقبولة، ومَجْمَعُ الصّنائعِ المرجوّة

اشتقاقُ المَشقّةِ مِنَ الشَّقِّ، وهو فَصْلُ الشَّيء إلى شِقَّين؛ فإنَّ ما

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 109.

(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 398.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 109.

يَصْعُب عليكَ يَشِقُّ عليكَ رأيُكَ في أمره؛ لتَردُّدِه في تَحمُّلِه وعَدمِه[1]، فإنَّ معنى شَقَّ عليه الأمر، مُترجِّحٌ بين اليأسِ والرَّجاء، وفيه إيماءٌ إلى أولئك المُعاسِرين الذين يُكلِّفون عُمّالَهم أعمالًا تَربو على طَوْقِهم، وتتجاوزُ حُدودَ قُدرتِهم المعهودةِ، وعلى هذا دَرَجَتِ الشَّرائعُ في حُسْنِ المُعاملةِ، والأخذِ بالأسهل[2].

دلالةُ حرفِ السّين الدّاخل على المُضارع:

تمحيصُ وقوعِ الفعلِ في المُستقبل

دخلتِ السّينُ على الفعل في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾، أي: في المُستقبل؛ لأنَّ السّين تُمَحِّضُ المُضارعَ إلى المستقبل، وهي تُفيد تحقيقَ وقوعِ الفعل[3]؛ حتّى يُدْخِلَ الطُّمأنينةَ على قلبه، ويأنسَ بوعده، ويُرَغِّبَه في ذلك.

فائدةُ الجُملة الاعتراضيّة:

تفويضُ أمرِ الخير إلى توفيق الله تعالى

جاء الاستثناءُ في الجملة المعترِضة في قول الرَّجلِ الصّالح: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ للتَّبرُّك به وتفويض أمره إلى توفيقه تعالى[4]، والمُراد بالاشتراط بمشية اللّه فيما وعدَ منَ الصَّلاح أيضًا الاتّكالُ على توفيقه فيه ومعونتِه، وعدمُ الاتّكال على نفسه، لا التّردُّدُ في الوعد[5]، وفيه إسنادُ الفضلِ إلى اللّه تعالى، فبِهِ يكون التَّوفيقُ للصّلاح، فما بالعبد من نِعْمَةٍ فمِن اللّه تعالى.

بلاغةُ العدولِ عنِ الإفراد إلى الجمع:

الكنايةُ عن الصّلاح بالحفظ للعهد والأمانة

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ دون أن يقول: (صالحًا)، فإنَّ التَّعريفَ في الصّالحين يشملُ جنسَهم، وإخبارُ المُتكلِّم عن نفسه بأنَّه منَ الصّالحين يُفيد أنّه واحدٌ منَ الفئة التي تُعْرَف

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 276.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 405، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 310.
(3) العثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 114.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 276.
(5) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 7/ 159.

عند النّاس بفِئَة الصّالحين، أي: وليكونَ من زُمرة الرّاسخين في الصَّلاح، الحافظينَ للعَهْد والأمانة، فيُفيدُ أنَّه صالحٌ إفادةً بطريقة تُشْبِهُ طريقةَ الاستدلال، فهو من قبيل الكناية، التي هي إثباتُ الشَّيء بإثبات مَلزومه، وهي أبلغُ منَ التَّصريح، فإنَّ قولَ القائلِ: فلانٌ منَ العلماء أبلغُ من قوله: فلانٌ عالِمٌ؛ لأنَّه يشهد له بكونه معدودًا في زُمرتهم.

فائدةُ تقييد الفعلِ بشِبه الجُملَة:

الصّالحون أبعدُ النّاسِ عن تزكية النّفس ومدحِها

جاء تقييدُ الفعل ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ بقيد ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهو يريد الصّالحين منَ النّاس في حُسن المعاملةِ ولينِ الجانب، فقَصَد بذلك تعريفَ خُلُقِه لصاحبِه، وليس هذا من تزكيَة النَّفس المنهيِّ عنه؛ لأنَّ المنهيَّ عنه ما قَصَدَ به قائلُه الفَخْرَ والتَّمدُّحَ، فأمّا ما كان لغَرضٍ في الدّين أوِ المعاملة فذلكَ حاصلٌ لداعٍ حَسَنٍ، كما قال يوسف: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55][(1)]، ولو أراد المَدْحَ لأثبت الصَّلاح في الماضي، فقال: (إنّي منَ الصّالحين)، لكنَّه عبَّر عنه بالفعل المُفيد للاستقبال.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النِّكاحُ والزَّواجُ:

النِّـكـاحُ هو عقد الـزَّواجِ، ويُـسـتـعـارُ لِـلـجـمـاعِ، والزَّواج يدُلُّ على مُطْلَقِ الاقترانِ

النِّكاح: هو عقد الزَّواج[(2)]، ومنه: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: 49]، أي: عقدتُم عليهنَّ، ثمَّ استُعيرَ للجماعِ[(3)]، أمّا كلمة الزَّواج فتدُلُّ على مطلق الاقتران، فكلُّ ما قُرِنَ بشيءٍ فهو زوجٌ، وهما زوجان[(4)]؛ فهو أشمل وأعَمُّ من حيثُ اللُّغةُ؛ فيُقال: تزوَّج بامرأةٍ، أي: أصبَحت زوجةً له، ومنْهُ قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 109.
(2) ابن فارِس، مقاييسُ اللُّغة: (نكح).
(3) الأزهريُّ، تهذيبُ اللُّغة: (حكن).
(4) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 152.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: 37]، وتُطلَقُ على المُزاوجة والاقْتِرانِ بين أمْرَيْنِ كقوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ [ص: 58]، أي: ألوانٌ وأنْواعٌ منَ العذاب[1]، فبَينَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ، فالنِّكاحُ مَخْصوصٌ بالعَقْد الذي يكون بينَ الرَّجل والمرأة، والزَّواجُ عامٌّ.

(1) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (زوج).

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾ [القصص: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من العَرْض إلى الجَواب

لمّا بيّنتِ الآيةُ السّابقة ما اقترحه الرّجلُ الصّالح على موسى عليه السلام، ناسبَ الانتقالُ إلى بيان موقفِه عليه السلام من ذلك العَرْض، فهو انتقالٌ من اقتراحٍ إلى جوابٍ عنه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾: (أجل) أصْلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه[1]، والأجَلُ المُدَّة المضروبةُ للشَّيء، وغايةُ الوقتِ المحدَّدةُ، يُقال: دَيْنُه مُؤَجَّلٌ، وقد أجَّلْتُه: جَعلْتُ له أجَلًا[2]، ويُقال للمُدَّة المضروبة لحياة الإنسان أجَلًا، فيُقال: دَنا أجَلُه؛ عبارةٌ عن دُنوِّ الموت[3]. والمعنى هُنا: غايةُ أحدِ الوَقتين وفَّيتُكَه بأداء الخِدمة فيه[4].

2) ﴿عُدۡوَٰنَ﴾: أصْل (عدو) يَدُلُّ عَلَى تَجاوُزٍ في الشَّيْءِ، وتَقَدُّمٍ لِما يَنْبَغي أنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ، والعُدْوانُ: الظُّلْمُ الصُّراحُ[5]، والعُدوان: الظُّلْم، يُقال: عَدا عليه عَدْوًا وعَداءً وعُدوًّا وعُدْوانًا، وتَعَدَّى واعْتَدَى، كُلُّه: ظَلَمه؛ وعَدا بنو فلانٍ على بني فلان، أي: ظَلَموهم[6]، والاعتداءُ: مجاوزةُ الحدّ، ومنه قيل: (عدا فلانٌ طورَه)، و(لا تَعْدُ طورَك)، ثمّ استُعيرَ الاعتداءُ في الظُّلم، من حيثُ إنّه تجاوُزُ الحدِّ الّذي حَدَّه

(1) ابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (أجل).
(2) الرّاغِب، المُفْردات: (أجل).
(3) الزَّبيديّ، تاجُ العَروس، وجبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: (أجل).
(4) الجاويّ، مراح لبيد: 2/ 194.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عدو).

العقلُ أوِ الشَّرْعُ، والذي منعَ تجاوُزَ ذلك ابتداءً، فقد أباحَ لمِن اعتدى عليه جزاءً[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعاهدٌ وتعاقدٌ وبيانٌ للشّروط

تُبيِّن الآيةُ الكريمة جوابَ موسى ﵇ للرّجل الصّالح، في كون ذلك الذي عاهدتَني عليه قائمًا بيني وبينَك، فأيُّ الأمَدين منَ المُدَّتَين أقضيها في العمل ثمانيَ سنوات، أو عشرَ سنوات، أكونُ قد وفَّيْتُ بما عَلَيَّ، فلا تُطالِبْني بزيادةٍ، واللّٰهُ وكيلٌ على ما تعاقدنا عليه، رقيبٌ عليه، شاهدٌ على ما نقول[2]، لا أنا أخرجُ عَمّا شرطتَ عليّ، ولا أنتَ تخرجُ عَمّا شرطتَ على نفسِكَ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئناف البيانيّ:

في الأجوبةِ فوائدُ الحِكمة ومقاصِدُ الأُلْفَة

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، وقد فُصِلَت هذه الجملةُ عَمّا قبلَها؛ وذلك لكونها حكايةً لجواب موسى عن كلام الرَّجل الصّالح؛ على جهة التَّقدير والتَّوثُّق في أنَّ الشَّرط إنَّما وقع في ثماني حِجَج[4]؛ فكأنّ سائلًا سأل: فما كان جوابُ موسى لمّا شارطَهُ والدُ البِنْتَين، وطلبَ منه الإجارةَ؟ فجاء الجوابُ دالًّا على قَبول موسى لما أوجبَه الرَّجلُ، وبه تَمَّ التَّعاقدُ على النِّكاح وعلى الإجارة، فجُملة ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ حكايةٌ لجواب موسى عن كلام الرَّجل الصّالح[5].

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهانيّ: 1/ 408.

(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 578، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 388، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 388.

(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 21/ 155.

(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 300، وياقوت، إعراب القرآن، ص: 3481.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 109.

غرضُ استعمالِ اسمِ الإشارة:

استُعمِل اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ إلى ما وقعتِ المُشارطةُ عليه بينهما، أي: ذلك الذي تعاهدْنا عليه قائمٌ بيننا، لا أَخْرُج عمّا شَرَطتَهُ عليّ، ولا تخرجُ عمّا شرطتَه لي عليكَ[1]، فالإشارةُ مرجعُها إلى ما تعاقدا عليه[2]، واستُعمِل اسمُ الإشارةِ للبَعيد؛ لمكانة العهود والمواثيق، وأنّها في منزلةٍ عاليَة، ودرجةٍ ساميَة.

المواثيقُ غليظةٌ، فمكانتُها عاليَةٌ، ودَرجتُها ساميَة

بلاغةُ المجاز العقليّ:

معنى قوله تعالى: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ أي: كائنٌ بَيننا على حُكم النَّصَفة والعَدْل والسَّواء على ما ألزمتَني به لازمًا، وما أشرتَ إلى التَّفضّل به إحسانًا، وعليكَ ما ألزمتَ به نفسكَ فرضًا وفضلًا[3]، ولمّا كان البينُ في الأصل منَ الظُّروف المكانيَّة، فإنَّه مُستعارٌ هنا للمَحلّ المعنويّ، فيكون: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ مجازًا عقليًّا في معنى الثُّبوت واللُّزوم والارتباط، أي: كلٌّ فيما هو مِن عمله[4].

الميثاقُ بينَ اثنين نَصَفةٌ وعدلٌ في الحقوق والواجبات

غرضُ الإطناب:

قولُه تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾ ورد الإطنابُ؛ والغرضُ منه تبْيينُ الجُملة السّابقة وتفسيرُها، حيثُ بَيَّن وفَسَّر ذلك بقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ أي: أيّ أجلٍ مِنهما؛ الثَّماني أو العَشر[5].

دلالةُ ذِكْر (ما) في ﴿أَيَّمَا﴾:

ذُكِرَت (ما) بعد (أي) في قوله تعالى: ﴿أَيَّمَا﴾ للتَّأكيد؛ فهي مُؤكِّدَةٌ لإبهام (أي) في شيوعها، والمعنى: أيَّ الأجلين أطولُهما أو

تأكيدُ إبهام (أي) في شيوعها وعمومها

(1) الرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 5/ 530.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/ 339، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 398.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 271.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 109.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 272.

أقصرُهما؛ ليَصيرَ الموصولُ شبيهًا بأسماء الشَّرط؛ لأنَّ تأكيدَ (ما) في اسم الموصول منَ الإبهام، يُكْسِبُه عمومًا فيُشبِه الشَّرطَ؛ فلذلك جُعِلَ له جوابٌ كجواب الشَّرط[1].

بلاغةُ ذِكْرِ ﴿ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ بالتَّساوي:

الاحترازُ أصلٌ في العُقودِ الشَّرعيَّة

قولُه: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ أبلَغُ في إثباتِ الخيَرةِ، وتَساوي الأجَلَينِ في القضاءِ، مِن أنْ يُقالَ: (إنْ قضَيْتُ الأقصَرَ فلا عُدوانَ علَيَّ)[2]، فعَلَّقَ العُدوانَ بهما جميعًا؛ لأنَّه إن طولب بالزّيادة على العشر كان عدوانًا بلا شَكٍّ، فكذلك إن طولِبَ بالزّيادة على الثّمان، فجمَعَهُما ليَجْعلَ الأقلَّ كالأتمِّ في الوفاء[3]، فأراد بذلك تقريرَ أمرِ الخيارِ، وأنَّه ثابتٌ مُستقِرٌّ، وأنَّ الأجَلَين على السَّواء، إمّا هذا وإمّا هذا، من غير تفاوُتٍ بينهما في القضاء، وأمّا التَّتمَّةُ فهي موكولةٌ إلى رأيي؛ إن شِئْتُ أتيتُ بها، وإلّا لم أُجبَر عليها[4].

وعن سَعيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قالَ: سَألَني يَهوديٌّ مِنْ أَهْلِ الحيرَةِ: أيَّ الأَجَلَيْنِ قَضى موسَى؟ قُلْتُ: لا أَدْري، حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى حَبْرِ العَرَبِ فَأَسْأَلَهُ، فَقَدِمْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبّاسٍ، فَقالَ: (قَضَى أَكْثَرَهُما وأَطْيَبَهُما، إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ إذا قالَ فَعَلَ)[5].

دلالةُ استعمالِ (لا) النّافية للجنس:

العُدوانُ مُنتفٍ جملةً وتفصيلًا عند اختيارِ أحدِ الاحتمالَين

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ (لا) النّافيةِ للجنس في قوله تعالى: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾، وهذا النّفيُ تصريحٌ بالمُراد، وتقريرٌ لأمر الخيار، أي: لا عُدوانَ كائنٌ عليَّ بطلب الزّيادة على ما قضيتُه منَ الأجلَين.

(1) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 7/ 159، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 399، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 109.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 176، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 10.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 261.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 398.
(5) البخاري، صحيح البخاري: (رقم: 2684).

وتعميمُ انتفاءِ العُدوان بكِلا الأجَلَين بصَدَد المُشارطةِ مع تَحَقُّق عدم العُدوان في أطولهما رأسًا للقَصْد إلى التَّسوية بينهما في الانتفاء[1].

براعةُ استعمالِ لفظِ العُدوانِ مع شِبه الجُملة:

دَفْــعُ مَـظِـنَّـةِ الــعُــدوان عـنِ الــطّــرفــين في الحالتين

العُدوان: الاعتداء على الحقِّ، ومعنى قولِه تعالى: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾: فلا تعتدي عليّ؛ فنفى جنسَ العُدوانِ الذي منه عُدوانُ مُستَأْجِره[2]؛ لأنَّ العُدوانَ لا يختصُّ بطَلبِ الزّيادة فقط، بل بِكُلِّ ما يُتَصوّر أنّه يُنافي مُطلقَ العقدِ، وأشار بنفي صيغةِ المُبالغةِ إلى أنَّه لا يُؤاخذُ لِسَعَةِ صَدره وطهارةِ أخلاقه بمُطْلَق العُدوان[3]، أو يكون المعنى: فلا أكونُ مُعتديًا بترك الزّيادة عليه، أي: لا حرجَ عليّ إذا أنا أخذتُ بالثَّماني سنوات، ولم آخُذ بالعشر، ومن ثَمَّ فلا يكون عليّ عدوانٌ منك، كقول القائل: لا إِثْمَ عَليَّ[4].

إيثارُ التَّعبير بالاسم الجليل:

التَّعبيرُ بالاسم الجليل في مقام العقود، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ أي: المَلِك الأعظم[5]؛ تربيَةٌ للمهابة، وتأكيدٌ على ما يتضمَّنُه الكلامُ منَ المُشارطة.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجملة على المُسنَد:

زيـادةُ الاهتمام بالعهد والميثاق، واستشهادُ اللهِ على أقوالهما

قَدَّم النَّظمُ الكريم الجارَّ والمجرور ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ على المُسند الاسمي ﴿وَكِيلٞ﴾، والتّقديمُ في مثل هذا يُفيدُ الحَصْرَ؛ لزيادة الاهتمام بالعهد والميثاق الذي أخذاه على أنفسهما أمامَ اللّه، وللعناية به، وإلّا فلا شَكَّ أنّ اللّهَ وكيلٌ على كُلِّ شيء، فكأنّه يقول: لو لم يكنِ اللّهُ شاهدًا على شيء لكان شاهدًا على ما نقول منَ العقد

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 277.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 110.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 272.
(4) الشِّهاب، حاشية الشّهاب على البيضاويّ: 7/ 294، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 339.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 272.

الذي جرى بيننا، فموسى ووالدُ البِنتَين استشهدا على نفسيهما بشهادة اللّه؛ ليَلْزَمَ كلٌّ منهما ما تعاقدا عليه، حتَّى إذا أخَلَّ أحدُهما بشيءٍ كان اللّهُ مؤاخِذَهُ، وهذا من صفات المؤمنين الحقَّة، وهي الوفاءُ بالعَهْد[1].

دلالةُ صيغةِ المضارعة:

لـلاسـتـمـرار مـنَ المشارطة والمعاهدة

صيغةُ المضارِع في قوله تعالى: ﴿نَقُولُ﴾ إمّا لحكاية الحال الماضية، أي: على ما قلنا، أو للاستمرار منَ المشارطة والمعاهدة[2]، وهو الأظهر لِما أنَّ هذا القولَ مُستصحَبٌ في العقد.

بلاغةُ ختمِ الآيةِ بصِفَةِ ﴿وَكِيلٌ﴾:

النَّظمُ يختار أبلغَ الألفاظِ وأنسبَها في مقام الكلام

خُتِمَتِ الآيةُ الكريمة بلفظة ﴿وَكِيلٌ﴾ دونَ غيرها منَ الصّفات، من مثل: (شهيد)؛ لأنَّ أصل الوكيل: الذي وُكِّلَ إليه الأمرُ، وأراد هُنا أنَّه وُكِّلَ على الوفاء بما تعاقدا عليه، حتَّى إذا أخلَّ أحدُهما بشيء كان اللّه مؤاخِذَه[3]، والوكيلُ مَن وكّل باللّه وتَوَكّل عليه، أي: استسلم إليه وسلَّمَه الأمرَ، وسُمّي الوكيل لأنَّه يوَكَّلُ إليه الأمرُ[4]، وبذلك تكون أبلغَ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظُّلْمُ، والإثم، والعُدْوان:

الظُّلمُ مُجاوَزَةُ الحدِّ، والعدوان تَسَلُّطٌ بشِدَّةٍ، والإثم أعمُّ منَ العدوان

الظُّلم: مُجاوزةُ الحدودِ وتعدّيها بغير حَقٍّ بالكُلّيَّة، كأخذِ مالٍ بغير استحقاق لشيءٍ منه، وقتلِ نفسٍ لا يَحِلُّ قتلُها.

وأمّا العُدوان: فهو التَّسلُّط بِشدَّة، وهو أيضًا مُجاوزةٌ فيما أصلُه مُباحٌ، مثل أن يكون له على أحد حَقٌّ من مال أو دَم أو عِرْضٍ، فيستوفيَ أكثرَ منه، فهذا هو العُدوان، فيأخذُ ما له أخذُه وما ليس له

(1) العثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 131.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 503.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 110.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وكل).

أخذُه، ويكون بظُلْم غالبًا، وقد يكون بِحَقٍّ، إن كان من قَبيل المُجازاة[1]، قالَ تَعالَى: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البَقَرَةُ: 193].

والإِثْمُ: الجُرْمُ كائنًا ما كان، وهو أعَمُّ منَ العُدوان[2]، قال تَعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدَة: 62].

(1) ابن رجب، شرح حديث لبيك اللّهمّ لبيك، ص: 103، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 25.

(2) الرّاغب، المفردات: (عدا).

﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

ذكرُ ما فعلَهُ موسى عليه السلام، بعدَ زواجه وقضائِهِ الأجلَ

لمّا التزمَ موسى عليه السلام زوَّجهُ شُعيبٌ ابنتَهُ كما شرطَ، واستمرَّ عندَهُ حتَّى قضَى ما عليهِ، ثمَّ كانَ منهُ ما أخبرَ عنهُ سبحانه وتعالى بقولِهِ: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ الآيةَ[1]. ومفادها أنّ موسى رجع بأهله إلى مصر، وأبصر في طريقه من ناحية جبل الطّور نارًا، فعزم على الذّهاب إليها وحده، لعلّه يأتي منها بخبر، أو جذوة من النّار يستدفئون بها[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَجَلَ﴾: (أجل) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى خَمْسِ كَلِماتٍ مُتَبايِنَةٍ، لا يَكادُ يُمْكِنُ حَمْلُ واحِدَةٍ عَلَى واحِدَةٍ مِنْ جِهَةِ القياسِ، فَكُلُّ واحِدَةٍ أَصْلٌ في نَفْسِها[3]. فالأجَلُ: المُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ[4]، قالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر: 67]، ويقالُ: دَيْنُهُ مُؤَجَّلٌ، وقد أجَّلْتُهُ، أي: جعلتُ لهُ أجَلًا، ويقالُ للمُدَّةِ المضروبةِ لحياةِ الإنسانِ: أجَلٌ، فيقالُ: دَنا أجَلُهُ، أي: دَنا موتُه، وأصلُهُ: استيفاءُ الأجَلِ، أي: مُدَّةِ الحياةِ، والآجِلُ ضدُّ العاجِلِ[5]. ومعنى الأجلِ في الآيةِ: المدَّةُ المتَّفقُ عليها بينَ موسى وشعيبٍ عليهما السلام، وقد قضَى موسى أتمَّ الأجلينِ، وهو عشرُ حِجَجٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 276.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 579.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (أجل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أجل).

2) ﴿ءَانَسَ﴾: (أنس) أصلٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ، وكلُّ شيءٍ خالفَ طريقةَ التَّوحُّشِ، يقالُ: آنَسْتُ الشَّيءَ، أي: رأيتُهُ، وأنِسَ الإنسانُ بالشَّيءِ، إذا لم يستوحشْ منهُ[1]، والإنسُ: خلافُ الجنِّ، والإنسيُّ منسوبٌ إلى الإنسِ، يقالُ ذلكَ لِمَنْ كَثُرَ أُنْسُهُ، ولكلِّ ما يُؤْنَسُ بهِ، وجمعُ الإنسِ: أناسيُّ، قالَ ﷻ: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾ [الفرقان: 49]، وأمّا الإنسانُ فقيلَ: سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ خُلِقَ خِلْقَةً لا قِوامَ لهُ إلا بأُنْسِ بعضِهم ببعضٍ، ولهذا قيلَ: الإنسانُ مدنيٌّ بالطَّبعِ، ولا يمكنُهُ أنْ يقومَ بجميعِ أسبابِهِ، وقيلَ: سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ يأنسُ بكلِّ ما يألفُهُ، وقيلَ: أصلُهُ: إنْسيانٌ، سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ عَهِدَ اللّٰهُ إليهِ فنَسيَ[2]. والمرادُ بالإيناسِ في الآيةِ: الإبصارُ.

3) ﴿ٱلطُّورِ﴾: (طور) أصلٌ يدلُّ على امتدادٍ في شيءٍ مِنْ مكانٍ أو زمانٍ[3]، ولذلكَ يقالُ: عَدا طَوْرَهُ، أي: جازَ الحدَّ الّذي هو لَهُ مِنْ دارِهِ، ثمَّ استُعيرَ ذلكَ في كلِّ شيءٍ يتعدَّى، ويقالُ: فعلَ ذلكَ طَوْرًا بعدَ طَوْرٍ، كأنَّهُ فعلَهُ مدَّةً بعدَ مدَّةٍ[4]، والطّورُ: الجبل، وفي الرّوض الأُنُف: الطّور: كلّ جبل يُنبِت الشّجر، فإن لم يُنبِت شيئًا فليس بطور.. قال الفرّاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ [الطّور: 1 - 2]، هو الجبل الّذي بمَدْيَن، الّذي كلّم اللّه تعالى موسى عليه السلام عليه تكليمًا[5]، وقيلَ: هو اسمٌ لكلِّ جبلٍ، وقيلَ: اسمٌ لجبلٍ مخصوصٍ[6]، وطورُ سَيْناءَ: جبلٌ معروفٌ بالشّامِ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون: 20][7].

4) ﴿بِخَبَرٍ﴾: (خبر) أصل يدلُّ على العِلم، فالخُبْرُ: هو العلمُ بالشَّيءِ[8]، يقالُ: ما لي بِهِ خُبْرٌ، أي: عِلمٌ[9]، ويقالُ: أخبرتُ، أي: أعلمتُ بما حصلَ لي مِنَ الخَبَرِ[10]، واستخبرَهُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنس).
(2) الرّاغب، المفردات: (أنس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (طور).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: (طور).
(6) السّمين، عمدة الحفاظ: (طور).
(7) الرّاغب، المفردات: (سين)، والزّبيديّ، تاج العروس: (طور).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر).
(9) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خبر).
(10) الرّاغب، المفردات: (خبر).

سأَلَهُ عن الخَبَرِ، وطلبَ أنْ يُخبِرَهُ[1]، والخبيرُ في صفاتِهِ سبحانَهُ بمعنى العالم ببواطنِ الأمورِ وظواهرِها، وبما كانَ منها وما يكونُ، والعالِمُ بأخبارِ مخلوقاتِهِ[2]. والمرادُ بالخبرِ في الآيةِ: نبأُ المكانِ الَّذي تظهرُ منهُ النّارِ.

5) ﴿جَذْوَةٍ﴾: (جذو) أصلٌ يدلُّ على الانتصابِ، والجَذْوَةُ: القطعةُ مِنَ الحَطَبِ بعدَ التهابِ النّارِ فيها، وقيلَ: هي الجمرةُ الملتهبةُ، وقالَ مقاتل وقَتادَة: الجذوة العود الَّذي احْتَرَقَ بعضه، وجَمعها جُذًى، والجيم في جذوة مُثَلّثَة وهي لُغات وقراءات[3]، وقال القَسْطَلّانيّ: وقيل: الجذوة العود الغليظ سواء كان في رأسه نار، أو لم يكن، وليس المراد هنا إلّا ما في رأسه نار[4]، وقال ابن السّكيت: جذوة من النّار وجذى، هو العود الغليظ يؤخذ فيه نار[5]، قال مجاهد: جذوة من النّار، أي قطعة من الجَمر، وهي بلغة جميع العرب[6].

6) ﴿تَصْطَلُونَ﴾: (صلي) أصلٌ يدلُّ على النّارِ وما أشبهَها مِنَ الحُمَّى[7]، والصَّلْيُ: الإيقادُ بالنّارِ، يقالُ: صَليَ بالنّارِ، واصطلَى بها، وصَلَيْتُ الشّاةَ: شَوَيْتُها، فهي مَصْليَّةٌ[8]، قال الزّجّاج: جاء في التّفسير أنّهم كانوا في شتاء، فلذلك احتاج إلى الاصطلاء[9]، وبه قال ابن عبّاس[10]، والصَّلْيُ مصدر صَليَ النّارَ، وفي التَّنْزيل العَزيز ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾ [مريم: 70][11]. ومعنى ﴿تَصْطَلُونَ﴾ في الآيةِ: تستدفئونَ مِنَ البردِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لمّا وفَّى موسى صاحبَهُ الأجلَ الَّذي فارقَهُ عليهِ، عندَ إنكاحِهِ إيّاهُ ابنتَهُ، وهو العَشْرُ

---

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (خبر).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (خبر).
(3) بدر الدين العينيّ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري: 19/ 106.
(4) القسطلانيّ، إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاري: 5/ 375.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جذا).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: 37/ 335.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلي).
(8) الرّاغب، المفردات: (صلي).
(9) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (صلي).
(10) نشوان بن سعيد الحميريّ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (الاصطلاء).
(11) مجمع اللّغة العربيّة القاهريّ، المعجم الوسيط: (الصّلا).

طلب موسى عليه السلام ما يُعينُهُ في مسلك السَّفرِ من قبس أو خبر

الحِجَجِ، وسارَ بأهلِه، أبصرَ نارًا مِنْ جانبِ الطّورِ، قالَ لأهلِه: تمهَّلوا وانتظِروا؛ إنّي أبصرتُ نارًا، لعلّي آتيكم مِنَ النّارِ بخبرٍ أو بقِطْعةٍ غليظةٍ مِنَ الحَطَبِ، فيها النّارُ، لعلَّكم تستدفئونَ بها مِنْ بَرْدِ الشِّتاءِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَمَّا﴾:

بيان حال موسى في رحلة العودة مع أهله من مدين

الفاءُ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ فصيحةٌ، وهي تُفْصِحُ عن محذوفٍ تقديرُهُ: فعقدا العَقْدينِ، وباشرَ موسى عليه السلام ما التزمَ، فلمّا قضَى الأجلَ وأتمَّهُ، وسارَ بأهلِه آنَسَ مِنْ جانِبِ الطّورِ نارًا[2].

دلالة إعراب قولِه: ﴿فَلَمَّا﴾:

بيان أنّ الظرفيّة مفصحة عن المراد في السّياق

لفظ ﴿۞فَلَمَّا﴾، في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾، ظرفٌ بمعنى (حينَ)، مُتضمِّنٌ معنى الشَّرطِ، مُتعلِّقٌ بالجواب ﴿ءَانَسَ﴾، وهو منبئ عن الزّمن الّذي وقعت فيه هذه الأحداث، وربط بعضها ببعض، في اتّساق وتكامل، يضمّ السّابق إلى اللّاحق، ويحقّق الوحدة الموضوعيّة في كليّاتها وجزئيّاتها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿قَضَىٰ﴾:

مفاد تحقُّق قضاءِ الأجل، والوفاء بالالتزام

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي، في قولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ القضاءِ ووقوعِه، وأنَّهُ أمرٌ قد مضَى وانقضَى، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، وكذلكَ سائرُ الأفعالِ الماضيةِ في الآيةِ، وهو في الآية يشير إلى أنّ موسى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 568.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 276، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 11، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 280.

ﷺ، قد أتمّ المدّة الّتي اتّفق مع صهره عليها، بصورة تتناسب مع قدره كنبيٍّ من أولي العزم المميَّزين، ولذلك قال ابن عبّاس: "قضى أتمَّ الأجلَيْن وأكمَلَهما وأوفاهما، وهو عشر سنين".

نكتة إظهارِ الفاعلِ ﴿مُوسَى﴾:

التَّنبيهُ على انتقالِ الحديثِ عن موسى ﷺ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فلمّا قضَى الأجلَ)؛ لتقدُّم ذكرِ موسى ﷺ قبلَ ذلكَ، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى الإظهارِ، في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾؛ للإيذانِ بانتقالِ الحديثِ إلى موسى ﷺ بخصوصِه، بعدَ المُقاوَلةِ السّابقةِ بينَهُ وبينَ صاحبِهِ في مَدْيَنَ.

دلالةُ (أل)، في قولِه: ﴿ٱلۡأَجَلَ﴾:

التَّعريفُ للعهدِ، مسهمٌ في الإبانةِ عن المراد

تعريفُ ﴿ٱلۡأَجَلَ﴾ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ للعهدِ، والمرادُ: أتمُّ الأجلينِ وأوفاهما وأكملُهما، وهو عَشْرُ حِجَجٍ[1]، كما ورد في الرّوايات، ولا شكّ أنّ الأجل، إنّما هو مضمون العقد الّذي تعاهد عليه الطّرفان، بصورة مسبقة، والتزما به حتّى النّهاية.

معنى الواوِ في جملة: ﴿وَسَارَ﴾:

ربط المعنى بين الجمل في سياقها المتّصل، هو سرّ الوصل فيها

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ عاطفةٌ لـ (سارَ) على ﴿قَضَىٰ﴾، وهي تفيدُ أنَّ السَّيرَ لم يتحقَّقْ عَقيبَ الإتمامِ، بل بعدَهُ بمُدَّةٍ[2]، ولذلكَ لم تَرِد (سارَ) جوابًا لـ (لمّا)[3]، وسار فعل من مبادرة موسى ﷺ، سار بأهله من مدين باتّجاه مصر، لزيارة أهله خفية من فرعون، فسلك بهم في ليلة مطيرة حالكة الظّلام، شديدة البرد، فنزل منزلًا[4]، وسط الجوّ البارد، والظّلام الدّامس، وهو

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 234، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 640، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 277.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 505.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 277.
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3163.

مسؤول عن نفسه، وعن زوجته الحامل، فعبّر السّياق بفعل السّير، لأنّه مقتضى الحال، في اللّيالي الثّقال، بخطير الفعال، الواقعة يقينا لا يَعْتَوِرُه ريب، ولا يخالطه شكّ، ولا يُدرك كُنْهَه إلّا من يتدبّر النّصّ، ويؤمن بحماية اللّه لعباده، في كلّ سير يقع، وفي كلّ درب يقطع.

دروب النّبيئين وأهليهم، محفوفة بالمعاناة والعوائق

معنى الباءِ في شبه الجملة: ﴿بِأَهْلِهِۦٓ﴾:

باءُ ﴿بِأَهْلِهِۦٓ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ للتّعديةِ، ويلزمُ منهُ سَيْرُهُ عليه السلام أيضًا؛ لِما أنَّ في الباءِ هنا معنى الاستصحابِ، إذا قلتَ: ذهبتُ بزيدٍ يكونُ معناهُ: أذهبتُ زيدًا، وذهبتُ أيضًا، بخلافِ أذهبتُ زيدًا؛ فإنَّهُ لا يقتضي ذهابَ المُتكلِّم، وكذا ﴿وَسَارَ﴾. ويحتملُ أنْ تكونَ الباءُ للملابسةِ، أي: سارَ عليه السلام ملتبسًا بأهلِهِ[1].

الأهلُ كنايةٌ عن امرأتِهِ وآل بيته الأقربين

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿بِأَهْلِهِۦٓ﴾:

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ الأهلَ هنا كنايةٌ عن امرأتِهِ[2]، وقيلَ: كانَ معَهُ امرأتُهُ وولدُها وخادمُها. وقيلَ غيرُ ذلكَ، قال الرّازيّ: "وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ ليس فيه دلالة على أنّه خرج منفردًا معها، وقوله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ فيه دلالة على الجمع"[3].

الإيناسُ أبلغُ دلالةً وأدقّ تعبيرًا مِنَ الإبصارِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالإيناسِ دونَ الإبصارِ:

﴿ءَانَسَ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ﴾، معناهُ: أبصرَ إبصارًا بيِّنًا لا شُبْهَةَ فيهِ، ومنهُ إنسانُ العينِ؛ لأنَّهُ يُتبيَّنُ بهِ الشَّيءُ[4]، ولذا اختيرَ هنا ﴿ءَانَسَ﴾ على (أبصرَ)[5]. ومثلُ ذلكَ يقالُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 505.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 71.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 592.
(4) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 53.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 506.

دلالة حرف الجرّ ﴿مِن﴾:

أهميّة حرف المعنى في دقّة الدّلالة ووضوحها

قوله تعالى: ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾ حالٌ مِنْ قولِهِ: ﴿نَارٗاۖ﴾، أي: ثابتةً في جانبِ الطّورِ، وعليهِ فـ ﴿مِن﴾ بمعنى (في). أو مُتعلِّقٌ بحالٍ خاصَّةٍ، أي: لامعةً مِنْ جانبِ الطّورِ، وعليهِ فـ ﴿مِن﴾ للابتداءِ[1].

المرادُ بقولِهِ: ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾:

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾، معناهُ: أبصرَ مِنَ الجهةِ الَّتي تَلي الطّورَ[2]. وليسَ المرادُ بِهِ بعضَ الجبلِ، كما هو المتبادرُ[3].

سرّ تقديمِ ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ على ﴿نَارٗاۖ﴾:

بيانُ أنّ التّقديم، عنايةٌ بالمُقدَّم، وتشويقٌ للمُؤخَّرِ

قُدِّمَ ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ على ﴿نَارٗاۖ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّم، وهو كونُ الإيناسِ مِنْ جانبِ الطّورِ، وهو الجبلُ المباركُ رفيعُ الشّأنِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو النّارُ الَّتي وقعَ عليها الإيناسُ، وتطلَّعَتْ إليها نفسُ موسى عليه السلام؛ لحاجتِهِ إليها.

نكتةُ تنكيرِ لفظ: ﴿نَارٗاۖ﴾:

تنكيرُ ﴿نَارٗاۖ﴾ في قولِهِ جل جلاله: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾؛ للإفرادِ، والمعنى: آنسَ مِنْ جانبِ الطّورِ فردًا غيرَ مُعيَّنٍ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالنّارِ.

علّةُ فصلِ جملة ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ﴾:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، مبينٌ عن المراد في المقال

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجبِ للفصلِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ جوابًا عن سؤالٍ

(1) اطفيش، تفسير اطفيش: 7/ 377.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 176، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 12.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 71.

نشأ مِنَ الكلامِ السّابقِ، كأنَّهُ قيلَ: ماذا فعلَ عندَما أبصرَ النّارَ مِنْ جانبِ الطّورِ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾[1].

نكتةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ المُضمَرِ:

ذكرُ الأهلِ باسمٍ يوجِبُ النَّفعَ لهُم جبلّةً في الإنسان

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (قالَ لهُم امكُثوا)؛ لتقدُّمِ ذكرِ الأهلِ، في قولِه تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ، فقيلَ: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾؛ ليذكُرَهم باسمٍ يوجِبُ النَّفعَ لهُم، وهو كونُهم أهلًا له يسعَى فيما ينفعُهم مِنْ نارٍ ودلالةٍ على طريقٍ، ولأنَّهُ في جوابِ سؤالٍ، كأنَّهُ قيلَ: فماذا فعلَ أو قالَ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾[2]، فحسَّنَ الإظهارَ كونُ الكلامِ جوابَ سؤالٍ مُقدَّرٍ.

غرضُ تقديمِ ﴿لِأَهۡلِهِ﴾ على مَقولِ القولِ:

ملمحُ العنايةِ بالمُقدَّمِ، ومراعاةِ حُسْنِ انتظامِ الكلامِ

قُدِّمَ ﴿لِأَهۡلِهِ﴾ على مَقولِ القولِ، في قولِه ﷻ: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّمِ، وهو كونُ القولِ للأهلِ الَّذينَ كانَ يحرصُ موسى عليه السلام، على نفعِهم وصلاحِ شؤونِهم، ولأنَّ في مَقولِ القولِ طولًا، فربَّما يُخِلُّ تقديمُهُ بحُسْنِ انتظامِ الكلامِ، وبملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

دلالةُ الأمرِ في قولِه: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾:

الأمرُ للوجوبِ من السّياقِ المبينِ عن المطلوبِ

الظّاهرُ أنَّ الأمرَ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ هنا. وفي أمرِ موسى عليه السلام أهلَهُ بذلكَ مزيدُ حرصٍ منهُ عليه السلام عليهم وعلى ما فيهِ نفعُهم ومصلحتُهم.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ جمعِ الذُّكورِ:

للتَّعبيرِ بالجمعِ نُكَتٌ مُتعدِّدةٌ في السّياقِ

قولِه: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾، وفيه اختُلِفَ في علَّةِ التَّعبيرِ، بصيغةِ جمعِ الذُّكورِ، من قولِه تعالى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾: فقيلَ: لم يكنْ معَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 277.

(2) اطفيّش، تفسير اطفيّش: 7/ 377.

موسى عليه السلام غيرُ امرأتِهِ، وقد كنَى اللهُ عنها بالأهلِ، فتبعَ ذلكَ ورودُ الخطابِ على لفظِ الجمعِ؛ فإنَّ الأهلَ يقعُ على الجمعِ[1]. وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ الخطابُ للمرأةِ وولدِها والخادمِ الَّذي معَها[2].

وقيلَ: قد يُخاطَبُ الواحدُ بلفظِ الجماعةِ تفخيمًا[3]. وقيلَ: لَمّا كانَ النِّساءُ أعظمَ ما ينبغي سَتْرُهُ أُطلِقَ عليها ضميرُ الذُّكورِ، فقيلَ: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾[4]. وقيلَ: كانَ معَهُ عليه السلام امرأتُهُ وخادمٌ، ويُخاطَبُ الاثنانِ بصيغةِ الجمعِ، وعلى قولٍ آخرَ كانَ معَهُ ولدانِ لهُ، وُلِدا لهُ زمانَ إقامتِهِ عندَ شُعيبٍ عليه السلام[5].

موقعُ جملةِ ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ ممّا قبلَها:

بيان أنّ الجملة استئنافٌ تعليليٌّ، للأمرِ بالمكثِ

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ استئنافٌ في معنى التَّعليلِ للأمرِ[6]، أي: امكُثوا؛ لأنّي آنستُ نارًا. وقيلَ: هذا دليلٌ على أنَّها ليسَتْ نارًا مادّيَّةً يوقِدُها بشرٌ، وإلّا لاستوَى أهلُهُ معَهُ في رؤيتِها، فهذا أمرٌ خاصٌّ بهِ[7].

نكتةُ التَّوكيدِ في ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾:

تحقيقُ الإيناسِ لتوطينِ الأنفُسِ على وجودِ ما يؤنس

تأكَّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾؛ لأنَّهُ لمّا وُجِدَ منهُ الإيناسُ، فكانَ مقطوعًا مُتيقَّنًا - حقَّقَهُ لهُم؛ ليوطِّنَ أنفُسَهم[8]، وذلكَ بإدخالِ (إنَّ)، والجملةِ الاسميَّةِ، وتقديمِ المسندِ إليهِ على الخبرِ الفعليِّ[9]. وقيلَ: التَّأكيدُ لاستبعادِ أنْ يكونَ في ذلكِ المكانِ القَفْرِ وفي ذلكِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 349، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 277.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 280.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 277، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 280.
(7) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10912.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 53، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 24.
(9) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 320.

الوقتِ الشَّديدِ البَرْدِ نارٌ[1]. وقيلَ: التَّأكيدُ لقصدِ الاهتمام بالخبرِ بشارةً لأهلِه؛ إذ كانوا في الظُّلمةِ[2]. وقيلَ: التَّأكيدُ؛ لأنَّ زوجَهُ تردَّدَتْ في ظُهورِ نارٍ؛ لأنَّها لم تَرَها[3].

سرّ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ:

إفـــادةُ ملمح التّكـرار تقـوّي حكـم إيـنـاسِ النّارِ

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾؛ لإفادةِ تقوّي حكم إيناسِ النّارِ.

بيانُ ذلكَ: أنَّ في قولِه: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ نسبةَ الإيناسِ إليه، وفي ﴿ءَانَسۡتُ﴾ ضميرٌ راجعٌ إليه، فيفيدُ إسنادَ الإيناسِ إليهِ مرَّةً أخرى، كأنَّهُ قيلَ: إنّي آنستُ نارًا، إنّي آنستُ نارًا.

الغرضُ مِنْ تنكيرِ لفظ: ﴿نَارٗا﴾:

تنكيرُ ﴿نَارٗا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾؛ للإفرادِ، والمعنى: إنّي أبصرتُ إبصارًا بيِّنًا لا شُبْهَةَ فيهِ، فردًا مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالنّارِ.

علَّةُ فصلِ ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ عمّا قبلَهُ:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ مفيدٌ في إبراز بيان السّياق

فُصِلَ قولُه سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجبِ للفصلِ؛ فهو استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ نشأ مِنَ الكلامِ السّابقِ، كأنَّهُ لمّا قالَ لأهلِه: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾، قيلَ لهُ: فماذا تعملُ؟ فقالَ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ التَّرجّي ﴿لَّعَلِّيٓ﴾:

الإتيانُ بالخبرِ أو الجَذْوةِ، مُترقَّبٌ مُتوقَّعٌ

في قولِه: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾، أنّه لمّا كانَ الإتيانُ بالخبرِ أو الجَذْوةِ مُترقَّبًا مُتوقَّعًا - بنَى الأمرَ على الرَّجاءِ والطَّمَعِ، وقالَ:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 277.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 194.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 225.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 278.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، ولم يقطعْ فيقولَ: (إنّي آتيكم)؛ لئلّا يَعِدَ ما ليسَ بمُستيقِنٍ الوفاءَ بِه[1]. وقيلَ: عُبِّرَ بالتَّرجّي؛ لأنَّهُ أليَقُ بالتَّواضعِ الَّذي هو مقصودُ السّورةِ[2].

دلالةُ المضارعِ ﴿ءَاتِيكُم﴾:

الـدَّلالـةُ على الاستقبالِ منبئة عن المعنى المراد

عَبَّرَ البيانُ القرآني بصيغةِ المضارعِ، في قوله ﷻ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ بالخبرِ أو الجَذْوةِ أمرٌ مرجوٌّ حصولُهُ في المستقبلِ، وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على الاستقبالِ.

نكتة تقديمِ ﴿مِّنۡهَا﴾ على ﴿بِخَبَرٍ﴾:

بـيـان العـنـايـة بالمُقدَّمِ، ورعاية حُسْنِ النَّظمِ

قُدِّمَ ﴿مِّنۡهَا﴾ على ﴿بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّم، وهو كونُ الإتيانِ مِنَ النّارِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّر، وهو الخبرُ أو الجَذْوةُ، ولأنَّ في قولِه: ﴿بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، نوعَ طولٍ، فربَّما يُخِلُّ تقديمُهُ بتجاوبِ أطرافِ الكلامِ.

معنى (مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنۡهَا﴾:

(مِنْ) في قولِ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ للابتداءِ، أي: مِنْ عندِها[3]، أو مِنْ أهلِها، على حذفِ مضافٍ، أو مِنَ النّارِ؛ إذ هي جهةٌ يُؤتَى منها وإليها[4].

نكتةُ تنكيرِ قولِه: ﴿بِخَبَرٍ﴾:

التَّنكيرُ للإفرادِ، مُفْضٍ إلى تبريز المعنى المراد

تنكيرُ ﴿بِخَبَرٍ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ للإفرادِ، أي: لعلّي آتيكم منها بفردٍ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالخبرِ، ومفادُ ذلك، أنّه خرج بأهلِه ومالِه في فصلِ الشّتاءِ.. فسار

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 53، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 278.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 278.

(4) اطفيّش، تفسير اطفيّش: 7/ 377.

في البريّة لا يعرف طرقها،.. وقيل: أضلّ الطّريق يومًا حتّى أدركه اللّيل، فأخذ امرأتَهُ الطَّلْقُ، فقدَحَ زَنْدَه فأصْلَدَ، فنظر فإذا نار تلوح من بعد، ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾، أي بخبر الطّريق، بأن أجد عندها من يخبرني به[1].

دلالة الحرف ﴿أَوۡ﴾ في: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ﴾:

بيان أثر حرف المعنى في توجيه السّياق

الظّاهرُ أنَّ ﴿أَوۡ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ لمنعِ الخُلوِّ دون جمعٍ[2]، وقيلَ: ﴿أَوۡ﴾ للتَّخييرِ؛ لأنَّ إتيانَهُ بالجَذْوةِ أمرٌ مُحقَّقٌ، فهو إمّا أنْ يأخذَ الجَذْوةَ لا غيرُ، وإمّا أنْ يزيدَ فيجدَ صاحبَ النّارِ قاصدًا الطَّريقَ مِثْلَهُ فيصحبَهُ[3].

سرُّ الإتيانِ بـ ﴿أَوۡ﴾ في قولِهِ: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ﴾:

التَّنبيهُ على أنّ قوَّةَ الرَّجاءِ من صميم عقيدة الأنبياء

جاء في قولِ الحقِّ تبارك شأنُهُ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، قولُه ﴿أَوۡ﴾ دونَ الواوِ؛ لأنَّ موسى عليه السلام بنَى الرَّجاءَ على أنَّهُ إنْ لم يَظْفَرْ بحاجتيهِ جميعًا لم يَعْدَمْ واحدةً منهما؛ ثقةً بعادةِ اللّهِ ﷻ، أنَّهُ لا يكادُ يجمعُ بينَ حِرْمانينِ على عبدِهِ، وقد ظَفِرَ موسى عليه السلام، حينَ أتَى هذهِ النّارِ، بعِزِّ الدُّنيا وعِزِّ الآخرةِ[4].

سرُّ تنكيرِ ﴿جَذۡوَةٖ﴾ في السّياق:

التَّنكيرُ للإفرادِ من صميم البيان المستفاد

تنكيرُ ﴿جَذۡوَةٖ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ للإفرادِ، أي: أو بفردٍ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالجَذْوةِ. وجذوة عطف على خبر، وهي مثلّثة الجيم: الشّعلة من النّار، والقطعة من الحطب، وجَمْعُها جُذًا[5]، وتنكيرها تعميم؛ لأنّ موسى لحظتها، لم يكن يعرف كُنْهَ الجذوة ولا مداها، فكان التّنكير أليق بالمقام المتصوَّر هنا.

(1) الألوسيّ، روح المعاني: 10/ 280 (بتصرّف).
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 319.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 195.
(4) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 349.
(5) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 318.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾:

ورود الحرف بمعاني شتّى، منبئ بتنوّع دلالته في السّياق

الجَذْوةُ في قولِه سبحانَهُ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ هي العودُ الغليظُ، قيلَ: مُطلَقًا، وقيلَ: المُشتعِلُ، فإنْ كانَ الأوَّلَ فوصفُ الجَذْوةِ بأنَّها مِنَ النّارِ وصفٌ مُخصِّصٌ، وإنْ كانَ الثّاني فهو وصفٌ كاشفٌ، و﴿مِّنَ﴾ على الأوَّلِ بيانيَّةٌ، وعلى الثّاني تبعيضيَّةٌ[1]. وقيلَ: الجَذْوةُ نفسُ تلكَ الجمرةِ الغليظةِ في طرفِ العودِ بلا لَهَبٍ، وعليه فـ ﴿مِّنَ﴾ للابتداءِ[2].

دلالةُ التَّعريفِ في قولِه: ﴿ٱلنَّارِ﴾:

التَّعريفُ للجنسِ أو للعهدِ، كلاهما مفيد في الإبانة

إنْ كانَ المرادُ بالجَذْوةِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، العودَ الغليظَ ولو بلا نارٍ - فتسميتُهُ نارًا مبالغةٌ؛ لأنَّ حقيقتَها ذلكَ الجسمُ المُلتهِبُ، و﴿مِّنَ﴾ للبيانِ، وتعريفُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ للجنسِ. وإنْ كانَ المرادُ بها نفسَ تلكَ الجمرةِ الغليظةِ في طَرَفِ العودِ بلا لَهَبٍ فـ ﴿مِّنَ﴾ للابتداءِ، والتَّعريفُ للعهدِ[3].

دلالة إعراب ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾:

جملةُ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ استئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ[4]، والاستئنافُ بيانٌ لعلَّةِ الإتيانِ بجَذْوةٍ مِنَ النّارِ.

نكتةُ التَّرجّي في قولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾:

الاصطلاءُ مُترقَّبٌ مُتوقَّعٌ، من السّياق المدرج

لمّا كانَ الاصطلاءُ مُترقَّبًا مُتوقَّعًا - بنَى الأمرَ فيهِ على الرَّجاءِ والطَّمَعِ، وقالَ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾، ولم يقطعْ فيقولَ: (إنَّكم تصطلونَ)؛ لأنَّهُ قد يَعْرِضُ ما يمنعُ مِنَ الاصطلاءِ. وفي قولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ دلالةٌ على البَرْدِ، وأنَّ الوقتَ كانَ شتاءً[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 111.
(2) اطفيش، تفسير اطفيش: 7/ 377.
(3) اطفيّش، تفسير اطفيّش: 7/ 377.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 278.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 593.

والمعنى أنّ موسى عليه السلام، قال لأهله: امكثوا في مكانكم، حتّى رجعتي إليكم، فإنّي لمحت نارًا، لعلّي آتيكم منها بخبر مفيد في بيان الطّريق، أو أقتطع لكم منها جذوة من الجمر، تستدفئون بها من البرد[1].

سرُّ المضارعِ في قولِهِ: ﴿تَصۡطَلُونَ﴾:

كلّ مرجوّ في الأزمة، هو لطف من الله ونعمة

عبَّرَ البيان القرآنيّ بصيغةِ المضارعِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾؛ لأنَّ الاصطلاءَ أمرٌ مرجوٌّ حصولُهُ في المستقبلِ، وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على الاستقبالِ، وما ذكره موسى كان ضروريًّا لحالة البرد وضلال الطّريق الّتي كانوا يعانون منها، في ذلك السّفر المرهق، حيث الصّحراء الممتدّة، والمناخ الشّتويّ البارد، ومعاناة موسى وأهله آنئذٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ في قولِهِ: ﴿تَصۡطَلُونَ﴾:

الاصطلاءُ محاولةُ الصَّلْيِ، وهو رنوٌّ للاستدفاء

الاصطلاءُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾، افتعالٌ مِنَ الصَّلْيِ، وهو الشَّيُّ بالنّارِ. وقد دلَّتْ صيغةُ الافتعالِ على أنَّهُ محاولةُ الصَّلْيِ، فصارَ بمعنى التَّدفُّؤِ بوَهَجِ النّارِ[2].

التّشابه اللّفظيّ بين هذه الآية، وآيتي طه والنّمل:

التّعبير عن المشهد الواحد بعبارات متنوّعة، زيادة تفصيل وبيان

تشابهَتْ هذهِ الآيةُ مَعَ قولِهِ تعالى: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ [طه: 10]، وقولِهِ: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧﴾ [النّمل: 7].

ومِنْ وجوهِ **الاختلافِ**: أنَّهُ قالَ في النَّملِ: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ [النمل: 7]، وقالَ هنا وفي طهَ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾، وهما بحسَبِ الظّاهرِ كالمتدافعينِ؛ لأنَّ أحدَهما تَرَجٍّ، والآخرَ تيقُّنٌ.

---

(1) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 24/ 593.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 225.

والجوابُ: أنَّهُ قد يقولُ الرّاجي إذا قويَ رجاؤُهُ: سأفعلُ كذا، معَ تجويزِهِ الخَيبةَ[1]، أي: أنَّ العِدَةَ هنا مبنيَّةٌ على الظَّنِّ أيضًا وإنْ جاءَتْ بلفظِ القَطْعِ[2]. **ومنها**: سقوطُ قولِ موسى عليه السلام لأهلِهِ: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ في آيةِ النَّملِ. **والجوابُ**: أنَّهُ قد يكونُ ممّا قالَهُ عليه السلام نُطْقًا باللُّغةِ الَّتي كلَّمَهم بها، وقد يكونُ ممّا فهمَهُ عنهُ أهلُهُ بإشارةٍ أو قرينةِ حالٍ، فيكونُ قد أمرَهم بذلكَ على كلِّ حالٍ إمّا بنُطْقٍ أو غيرِهِ، فمرَّةً حُكيَ معنى نُطْقِهِ أو مرادِهِ بما قد فهِمَ عنهُ أهلُهُ الأمرَ، ومرَّةً اكتُفيَ بما بعدَ هذا الأمرِ.

ومنها: تقديمُ ذكرِ القَبَسِ في سورةِ طه على الخبرِ، وتأخيرُهُ في سورتَيِ النَّملِ والقصصِ.

والجوابُ: أنَّ القصَّةَ محكيَّةٌ على معناها[3]. يضافُ إلى ذلكَ مراعاةُ فواصلِ الآيِ.

ومنها: أنَّهُ قالَ في سورةِ القصصِ: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وقالَ في النَّملِ: ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ [النمل: 7]، وقالَ في طه: ﴿بِقَبَسٍ﴾ [طه: 10]. **والجوابُ**: أنَّ الجَذْوةَ مِنَ النّارِ خشبةٌ في رأسِها قَبَسٌ لها شهابٌ، فهي في السّورِ الثَّلاثِ عبارةٌ عن مُعبَّرٍ واحدٍ[4]. **ومنها**: الإفصاحُ في سورتَيِ النَّملِ والقصصِ بسببِ الحاجةِ إلى النّارِ، وهو الاصطلاءُ، ولم يقعْ ذلكَ في سورةِ طه.

والجوابُ: أنَّ ذلكَ إخبارٌ بزيادةٍ لا يعارضُها شيءٌ ممّا في سورةِ طه[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأهلُ والآلُ:

(الآلُ) مقلوبٌ مِنَ (الأهلِ)، ويُصغَّرُ على (أُهَيْلٍ)، وفُرِّقَ بينَهما: بأنَّ (الآلَ) مخصوصٌ بالإضافةِ إلى الأعلامِ النّاطقينَ، ولا يُضافُ إلى النَّكراتِ، ولا إلى الأزمنةِ والأمكنةِ، يقالُ: آلُ فلانٍ، ولا يقالُ: آلُ رجلٍ، ولا آلُ زمانِ كذا أو موضعِ كذا، ويُضافُ إلى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 349.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 343.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 331.
(4) الكرمانيّ، البرهان، ص: 173.
(5) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 331.

الأهـلُ أعـمُّ مِنَ الآلِ، مِنْ حيثُ الإضافةُ

الأشرفِ الأفضلِ، فيقالُ مثلًا: آلُ اللّهِ، وآلُ السُّلطانِ، ولا يقالُ: آلُ الخيّاطِ. والأهلُ يُضافُ إلى الكلِّ، يقالُ: أهلُ اللّهِ، وأهلُ الخيّاطِ، كما يقالُ: أهلُ زمنِ كذا، وأهلُ بلدِ كذا[1]. ويُطلَقُ الآلُ أيضًا على الأتباعِ والموالينَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46][2].

الإيناسُ والإبصارُ:

الإيـنـاسُ هـو الإبـصـارُ البيّنُ، وهـو أعـمُّ مِـنَ الإبصارِ

هناك فَرقٌ بينَ الإيناسِ والإبصارِ: بأنَّ الإيناسَ هو الإبصارُ البيِّنُ الَّذي لا شُبْهةَ فيهِ[3].

وقيلَ: أصلُ الإيناسِ الإحساسُ والشُّعورُ بأمرٍ خفيٍّ، فيكونُ أعمَّ مِنَ الإبصارِ[4]؛ لأنَّهُ يكونُ في المرئيّاتِ وفي الأصواتِ[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (أل)، والنزهيّ، الفروق اللغوية، ص: 29.
(2) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 9.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 53، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 16.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 280.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 225.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكرُ ما حصلَ بعدَ إتيانِ موسى عليه السلام النّارَ، ومناجاة العزيز الجبّار

بعدَما أخبرَ سبحانه وتعالى عن رؤيةِ موسى عليه السلام النّارَ، ورجائِهِ أنْ يحصلَ منها على خبرٍ أو جَذْوةٍ - أخبرَ عمّا حصلَ بعدَ إتيانِهِ إيّاها، ونودي من جانب الوادي، فوقف موسى باهتًا متحيّرًا في الأمر، فأوحى اللّه إليه أنّه هو اللّه ربّ العالمين، وأنّه خصّه بالتّكليم، دون سائر المرسلين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُودِيَ﴾: (ندي) يَدُلُّ عَلَى تَجَمُّعٍ(1). النِّداءُ: رفعُ الصَّوتِ وظُهورُهُ بطلبِ الإقبالِ، ويُطلَقُ كثيرًا على الكلامِ الَّذي فيهِ طلبُ إقبالِ الذّاتِ لعملٍ، أو إقبالِ الذِّهنِ لوَعْيِ كلامٍ، ولذلكَ سُمّيَتِ الحروفُ الَّتي يُفتتَحُ بها طلبُ الإقبالِ حروفَ النِّداءِ. ويُطلَقُ على الدُّعاءِ بطلبِ حاجةٍ وإنْ لم يكنْ فيهِ نداءٌ، وقد يقالُ النِّداءُ للصَّوتِ المُجرَّدِ، وهو المقصودُ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾ [البقرة: 171]، أي: لا يَعرِفُ إلّا الصَّوتَ المُجرَّدَ، دونَ المعنى الذي يقتضيهِ تركيبُ الكلامِ. وقد يقالُ للمُركَّبِ الَّذي يُفهَمُ منهُ المعنى، كقولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشّعراء: 10]، وقولِهِ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣﴾ [مريم: 3](2). وأصلُ النِّداءِ مِنَ النَّدى، أي: الرُّطوبة، يقالُ: صوتٌ نَديٌّ رَفيعٌ، واستعارةُ النِّداءِ للصَّوتِ مِنْ حيثُ إنَّ مَنْ كَثُرَ رُطوبةُ فَمِهِ حَسُنَ كلامُهُ، ولهذا يوصَفُ الفصيحُ بكثرةِ الرّيقِ(3).

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ندي).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (ندي).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ندي).

2) ﴿شَٰطِيِ﴾: (شطأ) أصلٌ يدلُّ على الجانبِ، ومِنْ ذلكَ: شاطئُ الوادي، وهو جانبُهُ[1]، ويقال: شاطىء النّهر: طرفه، وشاطىء البحر: ساحله، وفي الصّحاح: شاطىء الوادي: شطّه وجانبه، وتقول: شاطىء الأودية، ولا يجمع، كذا قاله بعضهم، والصّحيح أنَّ جَمْعَهُ: شَواطِئُ سماعًا وقياسًا[2]، ويقالُ: شاطأتُ فلانًا، أي: ماشيتُهُ في شاطئِ الوادي[3]، وشاطئُ البحرِ: ساحلُهُ[4]. والمرادُ بقولِهِ تعالى في هذهِ الآيةِ: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، من عُدْوَتِه وجانِبِه الأيمن، أي مِن على يمين موسى[5]، وهو الشّاطئ الغربيّ من طور سيناء[6].

3) ﴿ٱلْوَادِ﴾: (ودي) الوادي: اسمُ فاعلٍ مِنْ ودَى يَدي ودْيًا، أي: سالَ، فهو وادٍ، ثمَّ أُطلِقَ على المكانِ الَّذي يجتمعُ فيهِ الماءُ ويسيلُ[7]، ومنهُ سُمّيَ ما بينَ الجبلينِ واديًا، وجمعُهُ: أوديةٌ، نحوُ: نادٍ وأنديةٍ[8]، والوادي: كلّ منفرج بين جبال وآكام، يكون منفذًا للسّيل فهو الوادي[9]، وقد يجمع الوادي على وديان، بالضّمّ؛ وتصغير الوادي وديّ.. ويستعمل الوادي بمعنى الأرض، ومنه قولهم: (لا تضلّ بوادي غيرك)، نقله الزّمخشري في الكشاف[10]. والمرادُ في هذهِ الآيةِ: أنّ موسى قصد النّار الّتي أبصرها عن بُعْد، فنودي من جانب الوادي، ممّا يلي جبل الطّور عن يمينه، من ناحية الغرب[11].

4) ﴿ٱلْبُقْعَةِ﴾: (بقع) أصلٌ يدلُّ على مخالفةِ الألوانِ بعضِها بعضًا[12]، ومِنْ ذلكَ: الغُرابُ الأبقعُ، وهو الأسودُ الَّذي في صَدرِهِ بياضٌ، والبُقْعةُ: قِطْعةٌ مِنَ الأرضِ على غيرِ هيئةِ الَّتي إلى جنبِها[13]، والأبقعُ مِنَ الخيلِ: الَّذي يكونُ في جسدِهِ بُقَعٌ مُتفرِّقةٌ مخالفةٌ للونِهِ، والبَقْعاءُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شطأ).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: (شطأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (شطأ).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (شطأ).
(5) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: (شطأ).
(6) ينظر: الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 342.
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ودي).
(8) الرّاغب، المفردات: (ودي).
(9) الكفويّ، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: (الوادي).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: (ودي).
(11) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3164.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بقع).
(13) الخليل، العين: (بقع).

مِنَ الأرَضينَ: الَّتي يُصيبُ بعضَها المطرُ، ولا يُصيبُ بعضَها الآخرَ[1].

5) ﴿ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾: (برك) أصلٌ يدلُّ على ثباتِ الشَّيءِ[2]، يقالُ: بَرَكَ البعيرُ، أي: ألقَى بَرْكَهُ، واعتُبِرَ منهُ معنى اللُّزوم، فقيلَ: ابتركوا في الحربِ، أي: ثبتوا ولازموا موضعَ الحربِ، ومنهُ: بِرْكَةُ الماءِ؛ لثبوتِ الماءِ فيها، والبَرَكةُ: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، قالَ : ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 96]، وسُمّيَ بذلكَ لثبوتِ الخيرِ فيهِ ثبوتَ الماءِ في البِرْكةِ، والمُبارَكُ: ما فيهِ ذلكَ الخيرُ[3].

6) ﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾: (شجر) أصلانِ متداخلانِ، يَقْرُبُ بعضُهما مِنْ بعضٍ، ولا يخلو معناهما مِنْ تداخلِ الشَّيءِ بعضِهِ في بعضٍ، ومِنْ عُلوٍّ في شيءٍ وارتفاعٍ[4]، فالشَّجَرُ مِنَ النَّباتِ: ما لَهُ ساقٌ[5]، وهو لا يخلو مِن ارتفاعٍ وتداخلِ أغصانٍ، ويقالُ: شَجَرَ بينَ القومِ الأمرُ، إذا اختلفَ، أو اختلفوا وتشاجروا فيهِ، وسُمّيَتِ المُشاجَرةُ بذلكَ؛ لتداخلِ كلامِهم بعضِهِ في بعضٍ، ويقالُ: اشتجَروا، أي: تنازعوا[6]، والشّجرة ما كان على ساق، من نبات الأرض، وأرض شَجيرة وشجراء، بوزن صحراء، أي كثيرة الأشجار، ووادٍ شَجيرٌ، ولا يقال: وادٍ أشْجَرُ[7]، وذكروا أنّ الشّجرة المذكورة في الآية من شجر العوسج[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تشريفُ اللهِ سبحانَهُ موسى بالنِّداءِ الإلهيّ، والكلامِ العلويّ

فلمّا أتَى موسى النّارَ الَّتي أبصرَها مِنْ جانبِ الطّورِ - ناداهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بقع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (برك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شجر).
(5) الجوهري، الصّحاح: (شجر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شجر).
(7) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (شجر).
(8) ونقل السّيوطيّ "عن عبد الله بن مَسْعُود ، قالَ: ذكرت لي الشَّجَرَة الَّتِي أَوَى إِلَيْهَا مُوسَى فسرت إِلَيْهَا يومي وليلتي، حَتَّى صبّحتها، فَإِذا هِيَ سَمُرَة خضراء ترفّ، فَصليّت على النَّبِي ، فأهوى إِلَيها بَعِيري، وَهُوَ جائِع فَأخذ مِنْها ملْء فِيهِ، فلاكه فَلم يسْتَطع أَن يسعه فلفظه فَصليت على النَّبِي وسلمت ثمَّ انصرفت". ينظر: جلال الدّين السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 6/ 412.

ربُّهُ سبحانَهُ مِنْ جانبِ الوادي الأيمنِ في البُقْعةِ المباركةِ مِنْ ناحيةِ الشَّجرةِ: يا موسى إنّي أنا اللّهُ ربُّكَ وربُّ العالمينَ جميعًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَلَمَّآ﴾:

دلالـة المحذوف والمـذكـور على غـرض المشـهد المسوق

الفاءُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ فصيحةٌ تُفْصِحُ عن محذوفٍ مُقدَّرٍ، أي: فصلَ موسى عن أهلِهِ وأتاها[2]، وفي ذلك ملمح للمرحلة الجديدة، الّتي بدأت معها الأحداث، تتحرّك في مماشاة رائعة للواقع، في سيرورة متّئدة، لتسير فيها المشاهد إلى غايتها، فيسير موسى عليه السلام، عائدًا إلى مصر، ويأنس إلى نار على جبل الطّور، حيث يتلقّى وحي اللّه مشافهة، وهو ما عبّر عنه اللّه تعالى بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144].

دلالة إعراب قولِهِ: ﴿فَلَمَّآ﴾:

تلميح إلـى أنّ الـسّـيـاق، ذو اتّصال بالظّرفيّة الزّمانيّة

﴿فَلَمَّآ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ﴾، ظرفٌ بمعنى (حينَ)، مُتضمِّنٌ معنى الشَّرطِ، مُتعلِّقٌ بالجوابِ ﴿نُودِيَ﴾، وقد أشار السّياق إلى أنّ المناداة الّتي سمعها موسى، من شاطئ الوادي الأيمن، في البقعة المباركة، كانت في حين وجوده هناك، وتلك لحظة فارقة في تمثّلات المشهد، تصوّر لنا تلاحق الأحداث، ذات الأهميّة والحساسيّة البالغة.

دلالةُ الماضي: ﴿أَتَىٰهَا نُودِيَ﴾:

الـدَّلالـةُ على تحقُّقِ الإتيانِ، ووقوعِ النِّداءِ

عبَّرَ البيان بصيغةِ الماضي، في قولِهِ تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإتيانِ والنِّداءِ ووقوعِهما، كما هو شأنُ الأفعالِ الَّتي تَرِدُ في سياقِ حكايةِ القصصِ والأخبارِ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 572، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 54.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 507.

مرجعُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿أَتَىٰهَا﴾:

الضَّميرُ راجعٌ إلى النّارِ الّتي لمحها، فهَدَتْه إلى مراد الله منه

ضميرُ المفعولِ في قولِه ﷻ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ﴾، راجعٌ إلى النّارِ، أي: فلمّا أتَى موسى عليه السلام النّارَ الَّتي آنسَها[1]، وقد كان مأتاه إلى النّار، تنفيذًا لقوله وهو يخبر أهله بوجهته، في قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾

بلاغةُ المجازِ في قولِه: ﴿أَتَىٰهَا﴾:

في قولِه جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ﴾ مجازٌ عقليٌّ، وذلكَ أنَّ أصلَ الكلامِ: فلمّا أتَى مكانًا قريبًا مِنَ النّارِ الَّتي أبصرَها، فهو مجازٌ في الإيقاعِ[2]، وإيقاعُ الإتيانِ على النّارِ، من بليغ البيان في الاعتبار.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿نُودِيَ﴾:

التَّنبيهُ على كونِ الفاعلِ معروفًا، ولا يستطيع هذه المعجزة غيره

لمّا كانَ آخرُ الكلامِ دالًّا دلالةً واضحةً على أنَّ المُنادي هو اللّهُ ﷻ - بُنيَ للمفعولِ قولُهُ تعالى: ﴿نُودِيَ﴾[3]، أي: مِنْ قِبَلِ اللّهِ تعالى، وفي ذلكَ تفخيمٌ لشأنِ الفاعلِ ببيانِ أنَّ هذا الفعلَ لا يتأتَّى إلّا منهُ، فلا يذهبُ الذِّهنُ إلى غيرِه.

معنى (مِنْ) في الآية:

حرف الجرّ في الحالين، لابتداءِ الغايةِ

(مِنْ) الأولى والثّانيةُ في قولِ الباري جلَّ وعزَّ: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، لابتداءِ الغايةِ، أي: أتاهُ النِّداءُ مِنْ شاطئِ الوادي مِنْ قِبَلِ الشَّجرةِ[4]. وقيلَ: يجوزُ أنْ تتعلَّقَ (مِنْ)، بمحذوفٍ وقعَ حالًا مِنْ ضميرِ موسى عليه السلام المستترُ في ﴿نُودِيَ﴾، أي: نوديَ قريبًا مِنْ شاطىءِ الوادي. ويجوزُ على الحاليَّةِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 282.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 507.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 278.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 408، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 301.

أنْ تكونَ (مِنْ) بمعنى (في)، كما في قولِهِ ﷻ: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: 40]، أي: نوديَ كائنًا في شاطئِ الوادي(1).

نكتة الإضافةِ في: ﴿شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ﴾:

الإضافةُ بمعنى اللّامِ، مفيدة في سياق الكلام

إضافةُ ﴿شَٰطِيِٕ﴾ إلى ﴿ٱلۡوَادِ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ بمعنى اللّام، أي: نوديَ مِنْ شاطئٍ للوادي، وهي تفيدُ التَّخصيصَ؛ لأنَّ لفظَ ﴿شَٰطِيِٕ﴾ عامٌّ، وتخصيصُهُ بالإضافةِ.

دلالة إعراب لفظ ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾:

(الأيْمَنِ) صفةٌ، مبينة عن الدّلالة، باليمن والتّيامن

قيلَ: يحتملُ ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أنْ يكونَ مِنَ اليُمْنِ، صفةً للوادي أو للشّاطئِ(2). ويحتملُ أنْ يكونَ المُعادِلَ لليسارِ، فلا يوصَفُ بهِ الشّاطئُ إلّا بالإضافةِ إلى موسى عليه السلام(3)، أي: وجاءَ النِّداءُ عن يمينِ موسى في مَسيرِهِ(4)، أو بعكسِ ذلكَ(5). وقيلَ: إنْ حُمِلَ الأيمنُ على أنَّهُ ضدُّ الأيسرِ، فالشّاطئُ أيمنُ، باعتبارِ أنَّهُ واقعٌ على يمينِ المُستقبِلِ القِبْلَةَ، على طريقةِ العربِ مِنْ جعلِ القِبْلَةِ هي الجهةَ الأصليَّةَ لضبطِ الواقعِ، وهم ينعتونَ الجهاتِ باليمينِ واليسارِ، يريدونَ هذا المعنى، وعلى ذلكَ جرَى اصطلاحُ المسلمينَ في تحديدِ المواقعِ الجغرافيَّةِ، ومواقعِ الأرضينَ، فيكونُ الأيمنُ يعني الغربيَّ للجبلِ، أي: جهةَ مغربِ الشَّمسِ مِنَ الطّورِ.

وأمّا جعلُهُ بمعنى الأيمنِ لموسى عليه السلام فلا يستقيمُ معَ قولِهِ: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ [طه: 80]؛ فإنَّهُ لم يَجْرِ ذكرٌ لموسى عليه السلام هناكَ.

وإنْ حُمِلَ على أنَّهُ تفضيلٌ مِنَ اليُمْنِ - وهو البركةُ - فهو

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 72، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 282.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 287.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 287.
(4) مفاتيح الغيب: 24/ 593، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 282.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 301.

كوصفِهِ بالمُقدَّسِ، في قولِهِ: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦﴾ [النّازعات: 16][1].

معنى ﴿فِي﴾ في شبه الجملة ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ﴾:

الدّلالة على الظّرفيّةِ المكانيّةِ، مفصحٌ عن البقعة المقصودة

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ للظّرفيّةِ المكانيّةِ. والبقعة المباركة أي المطهّرة، لأنّ اللّه خصّها بأن كلّم موسى ﵇ فيها، والمكان يأخذ أهميّته وقداسته، من الفعل الّذي يحصل فيه، ولا أجلّ في أحداث البشريّة، من كلام اللّه تعالى لأخصّ عباده، في أشرف الأماكن، بما ينزله عليهم من هدايات ورشاد ومنهج.

دلالة إعرابِ قولِهِ: ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ﴾:

احتمالُ الجارِّ والمجرورِ أوجهًا مِنَ الإعرابِ، مفيدٌ في الخطاب

يحتملُ ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، أَنْ يكونَ مُتَّصلًا بالشّاطئِ[2] على أنَّهُ صفةٌ لهُ، أي: مِنْ شاطئِ الوادي الكائنِ في البُقْعةِ المباركةِ، أو على أنَّهُ حالٌ منهُ، أي: كائنًا في البُقْعةِ[3]. ويحتملُ أَنْ يكونَ مُتعلِّقًا بـ ﴿نُودِيَ﴾[4].

سرُّ وصفِ ﴿ٱلۡبُقۡعَةِ﴾ بكونِها (مباركةً):

البركة حاصلة بكونِها موطنَ رسالةِ موسى ﵇

وُصِفَتِ البُقْعةُ في قولِهِ تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بكونِها مباركةً؛ لأنَّهُ حصلَ فيها ابتداءُ رسالةِ موسى ﵇، وتكليمُ اللّهِ تعالى إيّاهُ[5]، وفي ذلكَ خيرٌ عظيمٌ يفيضُ على المكانِ والزّمانِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 112.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 177.
(3) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 507.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 177، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 301.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 287، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 593.

دلالة إعراب قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾:

بيان أنّ الجارّ والمجرور بدلُ اشتمالٍ

﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ - بدلُ اشتمالٍ مِنْ قولِه: ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ﴾ بإعادةِ الجارِّ؛ لأنَّ الشَّجرةَ كانَتْ نابتةً على الشّاطئِ[1]. وجوّزَ تعلُّقُهُ بـ ﴿ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾ على أنَّ ابتداءَ بركتِها مِنَ الشَّجرةِ[2]. ورُدَّ بأنَّهُ خلافُ ما ثبتَ مِنْ أنَّ بركتَها لكونِها مَبْعَثَ الأنبياءِ عليهم السلام[3]. وجوِّزَ أنْ تكونَ ﴿مِنَ﴾ للتَّعليلِ، كما في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ [نوح: 25]، مُتعلِّقةً بـ ﴿ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾، أي: البُقْعةِ المباركةِ لأجلِ الشَّجرةِ[4]. ولا يخفَى بُعْدُهُ.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾:

الشّجرة المذكورة مخصّصة، بدخولها في إطار هذا السّياق

تعريفُ ﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ تعريفُ الجنسِ، وعُدِلَ عن التَّنكيرِ؛ للإشارةِ إلى أنَّها شجرةٌ مقصودةٌ. وليسَ التَّعريفُ للعهدِ؛ لأنَّهُ لم يتقدَّمْ ذكرُ الشَّجرةِ[5].

معنى ﴿أَن﴾ في قولِهِ: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾:

الأداة التّفسيريّة مسهمة في البيان الفصيح

الظّاهرُ أنَّ ﴿أَن﴾ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ مُفسِّرةٌ[6] لقولِهِ: ﴿نُودِىَ﴾؛ لأنَّ فيهِ معنى القولِ دونَ حروفِهِ، أي: نوديَ بهذا الكلامِ. وجوِّزَ أنْ تكونَ مُخفَّفةً مِنَ الثَّقيلةِ، والأصلُ: بأنَّهُ، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ، وجملةُ النِّداءِ مُفسِّرةٌ لهُ[7]. وفيهِ بُعْدٌ[8].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 408، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 8/ 670.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 72.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 508.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 282.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 113.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 287.
(7) الخفاجيّ، عناية القاضيّ: 7/ 72.
(8) السّمين، الدّر المصون: 8/ 670.

الغرضُ مِنَ النِّداءِ في قولِهِ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾:

التَّنبيهُ على أهمّيَّةِ الكلامِ الآتي بعدَ النِّداءِ

جاء أسلوبُ النِّداءِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وجيءَ معَهُ بأداةِ نداءِ البعيدِ (يا)؛ لِما يُفيدُهُ هذا الأسلوبُ مِنْ إيقاظِ المُنادَى وتنبيهِهِ؛ ليتهيَّأ لتلقّي ما يُتلَى عليهِ مِنَ الكلامِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ تكليفِ موسى عليه السلام وإرسالِهِ، فهو مقامٌ يستدعي منهُ كمالَ الحُضورِ.

توجيهُ كسرِ همزةِ (إنَّ) في الآيةِ:

كسرُ همزةِ (إنَّ) في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، على إضمارِ القولِ، أو على تضمينِ النِّداءِ في ﴿نُودِيَ﴾: معناهُ[1].

نكتةُ توكيدِ قولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

دفعُ الشَّكِّ في كونِ المُتكلِّمِ هو اللهَ تعالى

تأكّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يحتقرُ نفسَهُ، لِأنْ يُؤَهِّلَهُ اللّهُ سبحانَهُ العظيمُ للكلامِ، لا سيَّما والأمرُ في أوَّلِهِ، فقالَ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، فيكونُ في ذلكَ التَّأكيدِ دفعُ الشَّكِّ، في كونِ المُتكلِّمِ هو اللّهَ تعالى.

سرُّ الإخبارِ بقولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾:

إحداثُ رباطةِ جَأْشٍ لموسى عليه السلام، تهيئًا للمناجاةِ

تقديمُ قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، بينَ يدَيْ ما سيُلْقَى إلى موسى عليه السلام مِنَ الأمرِ؛ لإحداثِ رباطةِ جَأْشِهِ؛ ليعلمَ أنَّهُ خُلِعَتْ عليهِ النُّبوَّةُ، إذ أُلقيَ إليهِ الوَحْيُ، ويعلمَ أنَّهُ سيتعرَّضُ إلى أذىً وتألُّبٍ عليهِ، وذلكَ كنايةٌ عن كونِهِ سيصيرُ رسولًا، وأنَّ اللّهَ يُؤَيِّدُهُ وينصرُهُ على كلِّ قويٍّ، وليعلمَ أنَّ ما شاهدَ مِنَ النّارِ وما تلقّاهُ مِنَ الوَحْيِ وما سيشاهدُهُ مِنْ قَلْبِ العصا حيَّةً ليسَ بعجيبٍ في جانبِ حكمةِ اللّهِ تعالى[3].

(1) السّمين، الدّر المصون: 8/ 670.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 279.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 227، 20/ 112.

بلاغةُ القصرِ في: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾:

قصرُ الألُوهيَّةِ عليهِ ﷻ، من كمال الاستحقاق

في تعريفِ طرفَي الإسنادِ، وتوسيطِ ضميرِ الفصلِ ﴿أَنَا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قصرٌ للألُوهيَّةِ عليهِ جلَّ شأنُهُ، ونفيٌ لألُوهيَّةِ غيرِهِ سبحانَهُ[1]، والمعنى: إنّي أنا لا غيري المُستحِقُّ للألُوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ. وفي ذلكَ إشارةٌ إلى الرَّدِّ على فرعونَ اللَّعينِ الَّذي يزعمُ أنَّهُ ربٌّ.

غرضُ التَّعبيرِ بضميرِ الفصلِ ﴿أَنَا﴾:

إفادةُ التَّوكيدِ وتقويةُ الأسلوب، من فصيح البيان

جاء ضميرُ الفصلِ ﴿أَنَا﴾، في قولِ الباري تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لتأكيدِ المسندِ إليه، وتقويةِ القصرِ المستفادِ، مِنْ تعريفِ اسمِ (إنَّ) وخبرِها، وفي قوله هذا الّذي سمعه موسى ﵇، تأكيد من اللّه أنّه اللّه في وحدانيّة وجوده، وأنّه ربّ العالمين، في كمال ربوبيّة إنعامه، "وهذه أعلى منازل الأنبياء أن يسمعوا كلام اللّه من غير رسول مبلغ.. وصار بهذا الكلام من أصفياء اللّه من رسله لأنّه لا يصير رسولًا إلا بعد أمره بالرّسالة، والأمر بها إنّما كان بعد هذا الكلام"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

ملاءمةُ لفظِ الجلالةِ الشّريف، لمقام بيانِ التَّوحيدِ المنيف

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ، في قولِ اللّهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لملاءمةِ هذا اللَّفظِ لمقامِ بيانِ وحدانيَّتِهِ جلَّ شأنُهُ؛ لما يدلُّ عليهِ مِنْ صفاتِ الكمالِ والجمالِ والجلالِ الَّتي بها تُستحَقُّ الألُوهيَّةُ، والمعنى: إنّي أنا اللّهُ، أي: المُستجمِعُ للأسماءِ الحُسنى، والصِّفاتِ العُلَى، البالغُ مِنَ العظمةِ ما تَقْصُرُ عنهُ الأوهامُ والأفهامُ[3].

سرُّ إردافِ اسمِ الجلالةِ بوصفِ ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

في إردافِ اسمِ الجلالةِ بوصفِ ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في قولِهِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 283.
(2) ينظر: الماورديّ، النكت والعيون: 4/ 251.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 133، 14/ 279.

تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، معنى التَّعليلِ للتَّنزيهِ عن شؤونِ المُحدَثاتِ؛ لأنَّهُ ربُّ العالمينَ، فلا يُشبِهُ شأنُهُ تعالى شؤونَهم[1]. وفيهِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ سببَ تفرُّدِهِ ﷻ بالأُلوهيَّةِ واستحقاقِ العبادةِ كونُهُ ربًّا للعالمينَ، فلا يقومُ شأنُهم دونَ تدبيرِهِ وأمرِهِ، ورعايتِهِ جلَّ وعزَّ.

التّعليلُ لتنزيهِ اللهِ، عن مشابهةِ شأنه شؤونَ المُحدَثاتِ

بيان التّشابه اللّفظيّ بين هذه الآية، وآيتي طه والنّمل:

تشابهَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، معَ قولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: 12]، وقولِهِ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾ [النّمل: 9]. وهذهِ الجملُ وإنِ اختلفَتْ لفظًا فهي متطابقةٌ في المقصودِ[2]، وهو إثباتُ التَّوحيدِ[3]. وقيلَ: حُكيَ في كلِّ سورةٍ بعضُ ما اشتملَ عليهِ ذلكَ النِّداءُ[4]. ومِنْ وجوهِ الاختلافِ أيضًا: قولُهُ هنا: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقولُهُ في آيةِ النَّملِ: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾ [النمل: 9]، وهذا يقتضي أنَّ الأوصافَ الثَّلاثةَ قيلَتْ لهُ حينئذٍ[5].

اختلاف المباني لا يمنع من تضافر المعاني، لإبراز كمال الله ونعمائه

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإتيانُ والمجيءُ:

الفرّق بينَ المجيءِ والإتيانِ مِنْ وجوهٍ:

أحدُها: الإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، ومنهُ قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أتيٌّ، وأتاويٌّ[6]، والمجيءُ أعمُّ[7]. **والثّاني:** الإتيانُ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا

المجيءُ أقوى في الدَّلالةِ مِنَ الإتيانِ، وبينَهما عُمومٌ وخُصوصٌ مِنْ وجهٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 227.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 177.
(3) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 507.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 302.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 112.
(6) الرّاغب، المفردات: (أتي).
(7) الرّاغب، المفردات: (جاء).

بالحصولِ[1]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المجيءِ أقوى مِنْ دلالةِ (أتَى)[2]، وعلى هذا يكونُ الإتيانُ أعمَّ مِنَ المجيءِ مِنْ هذهِ النّاحيةِ.

والثّالثُ: ذكرَ اللّهُ (جاءَ) في موضعِ الأعيانِ في الماضي، و(أتَى) في موضعِ المعاني والأزمانِ، ومن ذلكَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: 72]؛ لأنَّ الصّواعَ عينٌ، وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ﴾ [البقرة: 89]؛ لأنَّهُ عينٌ، وقولُهُ: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ [الفجر: 23]؛ لأنَّها عينٌ. وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [الأعراف: 34] فلأنَّ الأجلَ كالمُشاهَدِ، ولهذا يقالُ: حَضَرَهُ الموتُ.

وقالَ تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣﴾ [الحجر: 63]، أي: بالعذابِ؛ لأنَّهُ مرئيٌّ يشاهدونَهُ، وقالَ: ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤﴾ [الحجر: 64]، حيثُ لم يكنِ الحقُّ مرئيًّا.

فإنْ قيلَ: قد قالَ تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ [يونس: 24]، وقالَ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ [هود: 58]، فجعلَ الأمرَ آتيًا وجائيًا - فالجوابُ: أنَّ هذا يُؤَيِّدُ ما ذُكِرَ؛ فإنَّهم لمّا كانوا ممَّنْ يَرَى الأشياءَ قالَ: ﴿جَآءَ﴾ [هود: 58]، أي: عيانًا، ولمّا كانَ الزَّرعُ لا يُبصِرُ ولا يَرَى قالَ: ﴿أَتَىٰهَا﴾[3].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(2) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 50.

(3) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 81.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأمـرُ بإلقاءِ العصا مع التّثبيت والأمان بعدَ التّذكير بربوبيّة المنعم المنّان

بعدَما نادَى اللّهُ ﷻ موسى ﵇، وأخبرَهُ بوحدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ - أمرَهُ بإلقاءِ العصا؛ ليُريَهُ الآيةَ الأولى[1]، وقد جرّب معجزة العصا لأوّل مرّة، ففزع منها، بعد تحوّلها إلى أفعى، واهتزازها كأنّها جانّ، فولّى الأدبار، لائذًا بالفرار، فنادته عظمة اللّه تعالى، أن ينبذ الخوف، ويوقن بأنّه من الآمنين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَلْقِ﴾: (لقي) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُها يَدُلُّ عَلَى عِوَجٍ، والآخَرُ عَلَى تَوافي شَيْئَيْنِ، والآخَرُ عَلَى طَرْحِ شَيْءٍ[2]. والإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيءِ حيثُ تَلْقاهُ، أي: تراهُ، ثمَّ صارَ اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[3]، قالَ سبحانَهُ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الأعراف: 115]، ويقالُ: ألقيتُ إليكَ قولًا وسلامًا وكلامًا ومودَّةً، قالَ تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1]، وقالَ: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [النّحل: 86]، وقالَ: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ [النّحل: 87][4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]، قيل: معناه (لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى الهلاك)، وقال الأخفش: الباء زائدة: أي (لا تلقوا أيديكم إلى الهلاك)[5]، وألقى الشّيء طرحه على الأرض،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 287، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 54.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (لقي).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لقي).
(5) نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (الإلقاء).

ومعنى قوله تعالى ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ﴾ [آل عمران: 44]، ما كانت الأمم تفعله، من المساهمة بالسّهام عند الاختلاف[1].

2) ﴿تَهْتَزُّ﴾: (هزز) أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ في شيءٍ وحركةٍ[2]، فالهَزُّ: التَّحريكُ الشَّديدُ، يقالُ: هَزَزْتُ الرُّمحَ فاهتزَّ، وقالَ ﷻ: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: 25]، ويقالُ: اهتزَّ النَّباتُ، إذا تحرَّكَ لنَضارتِه، قالَ تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحجّ: 5]، ويقالُ: اهتزَّ الكوكبُ في انقضاضِه[3]. ومعنى الاهتزازِ في الآيةِ: التَّحرُّكُ والاضطرابُ، وقال اللّيث في قول الله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، الجانّ: حيّة بيضاء، وقال الزَّجّاج: المعنى أنّ العصا صارت تتحرّك، كما يتحرّك الجانّ حركة خفيفة، قال: وكانت في صورة ثعبان، وهو العظيم من الحيّات. ونحو ذلك، قال أبو العبّاس. قال: شبّهها في عِظَمِها بالثّعبان، وفي خفّتها بالجانّ[4].

3) ﴿مُدْبِرًا﴾: (دبر) أصلٌ يدلُّ على آخِرِ الشَّيءِ وخَلْفِه[5]، ومِنْ ذلكَ: دُبُرُ الشَّيءِ، وهو خلافُ القُبُلِ، وكُنيَ بهما عن العُضْوينِ المخصوصين، قالَ تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: 50]، أي: قُدّامَهم وخَلْفَهم، وقالَ: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: 40]، أي: أواخرَ الصَّلواتِ، ودَبَرَ فلانٌ القومَ: صارَ خَلْفَهم، وأدبرَ: أعرضَ وولَّى دُبُرَهُ[6]، والتَّدابُرُ: المصارمةُ والهجرانُ، وهو أنْ يولّيَ الرَّجلُ صاحبَهُ دُبُرَهُ، ويُعرِضَ عنهُ بوجهِه[7]، ويقال: لا يَعْرِفُ الأمرَ مُقْبِلًا ولا مُدْبِرًا، والمعنى في الآية: لم يتبع إدباره إقبالًا والتفاتًا[8].

4) ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: (عقب) أصلٌ يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإتيانِه بعدَ غيرِه، يقالُ: جاءَ في عَقِبِ الشَّهرِ، أي: في آخِرِه، وعَقَبَه، إذا تلاهُ[9]، وتعقَّبْتُ ما صنعَ فلانٌ، أي: تتبَّعْتُه[10]، وقولُهُ

(1) المُطَرِّزيّ، المغرب في ترتيب المعرب: (لقي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هزز).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (هزز).
(4) ينظر: الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جنّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبر).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دبر).
(7) الخليل، العين: (دبر).
(8) الزمخشريّ، الفائق في غريب الحديث والأثر: (دبر).
(9) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(10) الزّمخشري، أساس البلاغة: (عقب).

تعالى: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾، أي: لم يلتفتْ وراءَهُ، والعُقْبُ والعُقْبَى يختصّانِ بالثَّوابِ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾ [الكهف: 44]، وقالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾ [الرّعد: 22]، وإطلاقُ العاقبةِ يختصُّ بالثّوابِ، نحوُ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قد تُستعمَلُ في العقوبةِ، نحوُ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10][1].

5) ﴿أَقۡبِلۡ﴾: (قبل) أصلٌ يدلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ، فالقُبُلُ مِنْ كلِّ شيءٍ: خلافُ دُبُرِه، وقبائلُ الرَّأسِ: شُعَبُهُ، وسُمّيَتْ بذلكَ؛ لإقبالِ كلِّ واحدةٍ منها على الأخرى[2]، والإقبالُ: التَّوجُّهُ نحوَ القُبُلِ، كالاستقبالِ، والمقابلةُ والتَّقابلُ: أنْ يُقبِلَ بعضُهم على بعضٍ، إمّا بالذّاتِ، وإمّا بالعنايةِ والتّوفُّرِ والمودَّةِ، قالَ ﷻ: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ [الواقعة: 16][3].

6) ﴿ٱلۡأٓمِنِينَ﴾: (أَمَنَ) أصلانِ مُتَقارِبانِ: أَحَدُهُما الأمانةُ الَّتي هيَ ضدُّ الخيانَةِ، ومَعناها سُكونُ القَلبِ، والآخَرُ التَّصديقُ[4]. أصلُ الأَمْنِ: طمأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخوفِ، ويرد تارةً اسمًا للحالةِ الَّتي يكونُ عليها الإنسانُ في الأمنِ، كقولِه ﷻ: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾ [البقرة: 125]، وتارةً اسمًا لما يُؤتَمَنُ عليهِ الإنسانُ، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال: 27]، أي: ما ائتُمِنْتُم عليهِ، و(آمَنَ) يقالُ على وجهينِ: أحدُهما مُتعدٍّ بنفسِه، يقالُ: آمَنْتُهُ، أي: جعلتُ لهُ الأمْنَ، والثّاني غيرُ مُتعدٍّ، ومعناهُ: صارَ ذا أمْنٍ[5].

المَعنى الإجماليُّ:

إظهارُ معجزةِ العصا لموسى عليه السلام، وطمأنته بالأمانِ من الخوف

ثمَّ أُمِرَ موسى عليه السلام بإلقاءِ عصاهُ، فألقاها، فصارَتْ حيَّةً تسعَى،

(1) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) الرّاغب، المفردات: (قبل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).

فلمّا رآها تتحرَّكُ وتضطربُ كأنَّها جانٌّ، ولَّى هاربًا منها، ولم يرجعْ على عَقِبِه، فنوديَ: يا موسى أقبِلْ إليَّ، ولا تَخَفْ مِنَ الَّذي تهربُ منهُ؛ إنَّكَ مِنَ الآمنينَ مِنْ أنْ يَضُرَّكَ، إنّما هو عصاكَ، جعَلْناها آيةً لكَ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواوِ في قولِه: ﴿وَأَنْ أَلْقِ﴾:

العطف وسيلة لـربـط المعـنى بـين الـجمل في السّياق

الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۚ﴾ عاطفةٌ، وهو معطوفٌ على قولِه: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾[2]؛ لأنَّهُ إنشاءٌ أيضًا[3]، فيكونُ داخلًا أيضًا في حيِّزِ النِّداءِ، أي: ونوديَ أنْ ألقِ عصاكَ[4]، قال أبو السّعود: "﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۚ﴾ عطفٌ على ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾، وكلاهما مفسّرٌ لنودَي"[5].

دلالة (أنْ) في جملة: ﴿وَأَنْ أَلْقِ﴾:

بيان تنوّع معاني (أنْ) الإعرابيّة، منبئ بأهميّتها في السّياق

الظّاهرُ أنَّ (أنْ) في قولِه تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۚ﴾ تفسيريَّةٌ لـ ﴿نُودِيَ﴾[6].

وقيلَ: مُخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلةِ[7]، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ المحذوفُ. وجوِّزَ كونُها هنا مصدريَّةً[8].

دلالةُ الأمرِ في قولِه: ﴿أَلْقِ﴾:

قيمة فعل الأمر أنّـه مكـرّس للـدّلالة على الوجوبِ

الأمرُ في قولِ اللّهِ جلَّتْ حكمتُهُ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۚ﴾ للوجوبِ، لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ هنا، وقد أمرَ اللّهُ سبحانَهُ موسى ﷺ بذلكَ؛ ليُريَهُ آيةً في هذهِ العصا. وهناك من أشار إلى أنّه، كان من الممكن أنْ تنقلبَ العصا الجافّة إلى شجرة خضراء من جنس العصا،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 574.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 283.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 508.
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 641.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 12.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 302، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 508.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 302، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 508.
(8) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 508.

وتكون أيضًا معجزة، أمّا أنْ تتحول إلى جنس آخر، وتتعدّى النّباتيّة إلى الحيوانيّة والحيوانيّة المتحرّكة المخيفة، فهذا شيء عجيب غير مألوف"[1]، وعليه فإنّ معجزة الفعل ﴿أَلْقِ﴾، لا تتأتّى إلّا إذا كان الآمر هو اللّه تعالى، الّذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، وهو ما حصل فعلًا.

سرُّ الإضافةِ في قولِه: ﴿عَصَاكَ﴾:

تعيينُ العصا الّتي ستكونُ مُعجِزةً، من دقّة التّقدير الإلهيّ

المرادُ بـ﴿عَصَاكَ﴾ في قولِه جلّ ثناؤُهُ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾: عصاكَ الّتي في يدِك، كما قرَّرَهُ على ذلكَ في قولِه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾ [طه: 17 - 18]، والمعنى: أمّا هذهِ عصاكَ الّتي تعرفُها فألْقِها[2]، وفي ذلكَ تعيينٌ للعصا الّتي ستكونُ مُعجِزةً مِنْ مُعجِزاتِه عليه السلام.

دلالة الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاءُ فصيحةٌ، مفصحة عن دلالة الجملة المتوخّاة

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فصيحةٌ، تُفْصِحُ عن جملٍ محذوفةٍ؛ تعويلًا على دلالةِ الحالِ عليها، وإشعارًا بغايةِ سرعةِ تحقُّقِ مدلولاتِها، أي: فألقاها فصارَتْ حيَّةً فاهتزَّتْ[3].

نكتة إعراب قولِه: ﴿فَلَمَّا﴾:

الظّرف الدّالّ على الحينَ، مبينٌ عن الدّلالة المتوخّاة

لفظ ﴿فَلَمَّا﴾ في قولِه جلّ شأنُهُ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، ظرفٌ بمعنى (حينَ)، مُتضمّنٌ معنى الشَّرطِ، مُتعلِّقٌ بالجوابِ، وهو قولُهُ جلّ ذكرُهُ: ﴿وَلَّىٰ﴾.

نكتةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿رَءَاهَا﴾:

التّنبيهُ على تحقُّقِ الرُّؤيةِ ووقوعِها، مفيد في البيان

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾؛

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 10915.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 235.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 12، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 283.

للدَّلالةِ على تحقُّقِ الرُّؤيةِ ووقوعِها، كما هو شأنُ الأفعالِ الَّتي تَرِدُ في حكايةِ القصصِ والأخبارِ الماضيةِ.

وكذلكَ القولُ في فعلِ ﴿وَلَّىٰ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَهۡتَزُّ﴾:

حكايةُ الحالِ الماضيةِ، من بليغ العبارة المؤدية

جاء البيانُ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري تبارك شأنُه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ، وتصويرِها وكأنَّها تقعُ الآنَ، وإنَّما حُكِيَتْ هذهِ الحالُ؛ لِما فيها مِنَ الغرابةِ وخَرْقِ العادةِ؛ إذ لم تَجْرِ العادةُ بأنْ تنقلبَ العصا إلى حيَّةٍ، وتتحرَّكَ وتضطربَ اضطرابًا شديدًا.

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾:

بيان أنّ الجملة الحاليَّة، مبينة عمّا يشبه اهتزاز الجنّ

جملةُ ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿تَهۡتَزُّ﴾، وفائدةُ هذهِ الحالِ تقييدُ الاهتزازِ بكونِهِ كاهتزازِ الجانِّ.

بلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ: ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾:

التشبيه في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ مرسل مجمل، حذف فيه وجه الشبه، فصار مجملًا، وشبهت بها؛ لما ظهر لها من سرعة الحركة والقوة، والخِفَّة، لا في هيئتِها وجُثَّتِها[1].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿جَآنّٞ﴾:

التَّنكيرُ للإفرادِ، موضح للمراد

تنكيرُ ﴿جَآنّٞ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ للإفرادِ، والمعنى: كأنَّها فردٌ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالجانِّ، وهو يحمل خصائصه، ويقدّم لنا الصّورة التّشبيهيّة المدرجة في هذا السّياق، ببيان مشرق واضح المدلول والغاية.

دلالةُ إعرابِ لفظِ ﴿مُدۡبِرٗا﴾:

النَّصبُ على الحاليَّةِ، إبراز للمشهد المقدّم

الإدبارُ: التَّوجُّهُ إلى جهةِ الخلفِ، وهو مُلازِمٌ للتَّولّي، فقولُهُ:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 283، والمراغي، تفسير المراغي: 16/ 103.

﴿مُدۡبِرٗا﴾ حالٌ لازمةٌ لفعلِ ﴿وَلَّىٰ﴾[1]، وهي مبينة عن حالة الفزع والخوف الّتي اعترت موسى عليه السلام، حين رأى العصا، في لمح بالبصر، تنقلب إلى حيّة عظيمة، وتهتزّ كأنّها جانّ، في صورة مرعبة، غير مألوفة لديه من قبل، وقيلَ: ﴿مُدۡبِرٗا﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ لشدَّةِ هروبِهِ خوفًا[2].

دلالة الواوِ في جملة ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾:

العطف وصل للجمل، وربط للمعاني المتلاحقة

الواوُ في قولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾، لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾، فتفيدُ أنَّ ما ترتَّبَ على رؤيةِ العصا تهتزُّ كأنَّها جانٌّ، هو التَّوليةُ مُدبرًا وعدمُ التَّعقيبِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

الإشارةُ إلى استمرارِ انتفاءِ التَّعقيبِ، من البيان المفيد

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ، في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ التَّعقيبِ، قبلَ توجيهِ الأمرِ لهُ بالإقبالِ؛ لأنَّ صيغةَ المضارعِ تفيدُ الاستمرارَ، فإذا دخلَ عليها النَّفيُ، أفادتِ استمرارَ الانتفاءِ. ويحتملُ أنْ يكونَ التَّعبيرُ بها لاستحضارِ صورةِ عدمِ تعقيبِهِ، ولذلكَ لم يُقَلْ: (وما عقَّبَ).

بلاغةُ الكنايةِ في جملة ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾:

بيان التّولي مدبرًا، على التَّصميمِ على الهربِ والإسراعِ فيه

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾، نجد أنّ ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾، بمعنى: خوفًا منها، ومعنى قولِه: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾: لم يرجعْ، ولم يلتفتْ إلى جهتِها، وذلكَ كنايةٌ عن شدَّةِ التَّصميم على الهربِ والإسراعِ فيهِ خوفًا مِنَ الإدراكِ في الطَّلبِ[3]. والحاصلُ أنَّ المعنى: ولَّى تولّيًا قويًّا لا تردُّدَ فيه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 228.
(2) اطفيّش، تفسير اطفيّش: 7/ 379.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 280.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 228.

الجملةُ مَقولُ قولٍ وقعَ استئنافًا بيانيًّا

دلالة موقع جملةِ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ممّا قبلَها:

قولُهُ تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ﴾ مَقولُ قولٍ محذوفٍ، أي: (قلْنا لهُ: يا موسى أقبِلْ...) إلخ[1]، هذا القولُ مستأنفٌ استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِنَ الكلامِ السّابقِ؛ لأنَّهُ لمّا أُخبِرَ عن موسى عليه السلام، أنَّهُ ولَّى مُدْبِرًا ولم يُعقِّبْ - تشوَّفَتِ النَّفسُ إلى معرفةِ ما قيلَ لهُ عندَ هذهِ الحالةِ، فأجيبَ بأنَّهُ قيلَ لهُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ﴾[2].

التَّنبيهُ على أهمّيَّةِ الكلامِ الآتي بعدَ النِّداءِ

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بالنِّداءِ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾:

جيءَ بأسلوبِ النِّداءِ في قولِ الحقِّ جل جلاله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ﴾، وجيءَ معَهُ بأداةِ نداءِ البعيدِ (يا)؛ لِما يُفيدُهُ هذا الأسلوبُ مِنْ إيقاظِ المُنادَى وتنبيهِهِ؛ ليتهيَّأَ لتلقّي ما يُتلَى عليهِ مِنَ الكلامِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ إزالةِ الرَّوْعِ، وبثِّ الطُّمأنينةِ في قلبِ موسى عليه السلام، فهو مقامٌ يستدعي منهُ كمالَ التَّيقُّظِ؛ للابتعادِ عن موجِباتِ الخوفِ.

بيانُ أنّ دلالةَ الأمرِ على الوجوبِ، مبيِّنٌ عنِ المعنى المطلوبِ

دلالةُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿أَقۡبِلۡ﴾:

الأمرُ في قولِ الحقِّ سبحانه وتعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ﴾ لوجوبِ الإقبالِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ هنا، بل مقامُ إزالةِ الرَّوْعِ وبثِّ الطُّمأنينةِ يستدعيهِ.

تأكيدُ طلبِ الإقبالِ، على أخذِ التّكليفِ بالبلاغِ، بعزمٍ وثباتٍ

نكتة العطفِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾:

قولُهُ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَقۡبِلۡ﴾ تصريحٌ بمضمونِ قولِهِ: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾؛ لأنَّهُ لمّا أدبرَ خوفًا مِنَ الحيَّةِ كانَ النَّهيُ عنِ الخوفِ دالًّا على معنى طلبِ إقبالِهِ[3]، فيفيدُ مجموعُ قولِهِ: ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ﴾ تأكيدَ طلبِ الإقبالِ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّثبيتِ وإزالةِ الخوفِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 228.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 135.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 113.

دلالةُ النَّهي في قولِه: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾:

النَّهيُ عن الخوفِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾ مُستعمَلٌ في النَّهيِ عن استمرارِ الخوفِ؛ لأنَّ خوفَهُ قد حصلَ، والخوفُ الحاصلُ لموسى عليه السلام خوفُ رُعْبٍ مِن انقلابِ العصا حيَّةً، وليسَ خوفَ ذنبٍ[1]. وقيلَ: معنى ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾: ولا تكنْ على حالٍ يُؤدّي إلى الخوفِ[2].

النَّهيُ عن استمرارِ الخوفِ، للشّروعِ في مباشرة التّكليف بالبلاغ

موقعُ جملةِ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ ممّا قبلَها:

جملةُ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، استئنافٌ لتعليلِ ما يتضمَّنُهُ النَّهيُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾، أي: الخوفُ مِنَ المخاوفِ غيرُ لائقٍ بكَ؛ لأنَّكَ مِنْ جملةِ الآمنينَ المعهودينَ بالأمنِ والأمانِ[3].

الاستئنافُ التّعليليُّ مفيدٌ، في البيانِ عن المراد

علَّةُ توكيدِ قولِه: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ لأنَّ الآدميَّ مجبولٌ على الخوفِ وإنِ اعتقدَ صحَّةَ الخبرِ[4]، ولأنَّ هذهِ الجملةَ تأكيدٌ لمُفادِ ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾، وفيها زيادةُ تحقيقِ أمْنِ موسى عليه السلام[5]. فقيل له: يا موسى أقبل على النّداء، الّذي ورد إليك من ربّك، وعُد إلى مكانك الّذي جاءتك فيه المعجزة، ولا تخف دَرَكًا ولا تخش أذًى، إنّك في عداد الآمنين النّاجين، من كلّ مكروه، محتمل، وذلك وعد اللّه لكلّ مبلّغ من الرّسل، يصطدم بالواقع المرير، من العراقيل والعقابيل، ممّا هو معروف مألوف.

تحقيقُ الأمانِ، من وعد الله لأصفيائه في صراعهم مع الباطل

دلالة ﴿مِنَ﴾ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ للتَّبعيضِ، والمعنى: إنَّكَ بعضُ الآمنينَ، ومِنْ جملتِهم. أي: يا موسى

بيان أنّ موسى من الصّفوة المحميّة من الله تعالى

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 228.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 509.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 509.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 280.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 113.

أقبل نحو المكان دون توجُّس ولا تهيُّب، ولا تَخَفْ ممّا رأيته، من ضخامة الحيّة، لأنّها مسخّرة لك بأمر اللّه، ولن يلحقك منها أذى، لأنك من الآمنين عندنا، وقد اصطفيناك لحمل رسالتنا(1).

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأٓمِنِينَ﴾:

الـرّسـل مـحـفـوفـون بـالـحـفـظ، مناطون بالأمان

تعريفُ ﴿ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ للجنسِ، والمعنى: إنَّكَ مُنخرِطٌ في سِلْكِ جنسِ الآمنينَ، فأنتَ مِنْ جملتِهم. ويحتملُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للعهدِ، ويرادَ بالآمنينَ الرُّسُلُ، كما دلَّ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠﴾ [النّمل: 10]، والمعنى: إنَّكَ مِنْ جملةِ الرُّسُلِ الآمنينَ المعهودينَ بالأمنِ والأمانِ(2).

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡأٓمِنِينَ﴾:

التَّـنـبـيـهُ على رسـوخِـهـم في الأمْنِ، دليل على حفظ الله لهم

عبَّرَ البيانُ القرآنيّ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ - لكونِها تفيدُ الثَّباتَ والاستقرارَ - مِنْ رُسوخِهم في الأمنِ، وعَراقتِهم فيهِ(3)، وأنَّهُ صارَ وصفًا مُلازِمًا لهُم، لا ينفكّونَ عنهُ، ولا ينتقلونَ منهُ إلى غيرِهِ، كما هو شأنُ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ عبارة ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾:

التَّعبيرُ بما هو أشـدُّ وآكـدُ في تحقيقِ الأمْـنِ، مبين عن المراد

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، أشدُّ في تحقيقِ الأمنِ مِنْ أنْ يقالَ: (إنَّكَ آمِنٌ)؛ لأنَّهُ يفيدُ جعلَهُ مِنْ جملةِ الآمنينَ(4)، خصوصًا إنْ قيلَ: المرادُ بالآمنينَ: الرُّسُلُ. يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، مراعاةَ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

(1) محمّد سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 10/ 403.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 509.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 280.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 113، واطفيّش، تفسير اطفيّش: 7/ 379.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ دونَ الفعليَّةِ:

دلالةُ الاسميَّةِ على الثَّباتِ والاستقرارِ، مناسب لمدلول السّياق

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾، ولم يُقلْ مثلًا: (فسوفَ أُؤَمِّنُكَ)؛ لدلالةِ الاسميَّةِ على أنَّ الأمْنَ قضيَّةٌ يجبُ أنْ تصاحبَهُ، في كلِّ تحرُّكاتِهِ في دعوتِهِ، وهي قضيَّةٌ مُستمِرَّةٌ مُلازِمةٌ لهُ؛ لأنَّهُ في معيَّةِ اللّهِ، ومَنْ كانَ في معيَّةِ اللّهِ لا يخافُ[1]. يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في التَّعبيرِ بقولِه: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾، مراعاةَ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

التّشابهُ اللّفظيُّ بين آية القصص، وآية سورة النّمل:

التّفنّن في عرض القصّة للتّشويق، وإيضاح بعض الخبايا

تشابهَتْ هذهِ الآيةُ معَ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدْبِرٗا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ١٠﴾ [النّمل: 10].

ومِنْ وجوهِ الاختلافِ بينَهما: أنَّهُ قيلَ هنا: ﴿وَأَنْ أَلْقِ﴾، وقيلَ هناكَ: ﴿وَأَلْقِ﴾ [النمل: 10]، وتلكَ المخالفةُ تفنُّنٌ في تكريرِ القصَّةِ؛ لتجدُّدِ نشاطِ السّامعِ لها[2]. **ومنها:** زيادةُ ﴿أَقْبِلْ﴾ هنا، وهي تصريحٌ بمضمونِ قولِهِ في سورةِ النَّملِ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ [النمل: 10]؛ لأنَّهُ لمّا أدبرَ خوفًا مِنَ الحيَّةِ كانَ النَّهيُ عن الخوفِ دالًّا على معنى طلبِ إقبالِه، فكانَ الكلامُ هناكَ إيجازًا، وكانَ هنا مساواةً؛ تفنُّنًا في حكايةِ القصَّةِ. **ومنها**: زيادةُ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ هنا، ولم يُحْكَ في سورةِ النَّملِ، وهو تأكيدٌ لمُفادِ ﴿وَلَا تَخَفْ﴾، وفيهِ زيادةُ تحقيقِ أمْنِ موسى عليه السلام[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّولّي والإعراضُ:

التَّولّي قد يكونُ بالجسمِ، وقد يكونُ بتركِ الإصغاءِ والائتمارِ،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 10916.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 112.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 112.

التَّولّي يكون بالصّدود وترك الائتمار، والإعراض يكون بالوجه أوالقلب

قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: 20][1]. والإعراضُ يكونُ أيضًا بتركِ الإصغاءِ ونحوِهِ، ويكونُ بالجسمِ، وإذا قيلَ: أَعْرَضَ عنّي فمعناهُ: ولّى مُبْدِيًا عَرْضَهُ[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(2) الرّاغب، المفردات: (عرض).

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾ [القصص: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من معجزة العصا، إلى معجزة بياض اليد، وضمّ الجناح من الرّهب

بعدَما أمرَ اللّهُ ﷻ موسى عليه السلام بإلقاءِ العصا، أمرَهُ بإدخالِ يدِهِ في جَيْبِهِ؛ ليُريَهُ آيةً أخرى؛ زيادةً في طمأنينتِهِ، فقالَ: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ الآيةَ[1]، لتخرج شديدة البياض، من غير عيب ولا مرض، واضمم يدك إلى جانبك في ثبات واطمئنان فيزول ذلك، فالمعجزتان وهما العصا واليد، من اللّه تعالى، تواجه بهما فرعونَ وقومَهُ، حينما يقابلون رسالتك بالتّكذيب[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡلُكۡ﴾: (سلك) أصلٌ يدلُّ على نُفوذِ شيءٍ في شيءٍ[3]، فالسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريقِ، يقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ، وسَلَكْتُ كذا في طريقِهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ [نوح: 20]، وقالَ: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢﴾ [المدثر: 42]، وقالَ: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [المؤمنون: 27][4].

2) ﴿جَيۡبِكَ﴾: (جيب) يقالُ: جُبْتُ القميصَ، أي: قَوَّرْتُ جَيْبَهُ، وجيَّبْتُهُ: جعلتُ لهُ جَيْبًا، ويجوزُ أنْ يكونَ أصلُهُ واويًّا، مِنَ الجَوْبِ، وهوخَرْقُ الشَّيءِ[5]، والجَيْبُ مِنَ القميصِ: طَوْقُهُ[6]، وهو

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 287، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 280.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 287، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 280.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سلك).
(4) الرّاغب، المفردات: (سلك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جيب).
(6) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جيب).

المرادُ في الآيةِ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ [النّور: 31][1]، وفي الصّحاح في حديث ابن مسعود: أنّ موسى، على نبيّنا وعليه السلام، لمّا أتى فرعون أتاه وعليه زرمانقة، يعني جبّة صوف، قال أبو عبيد: أراها عبرانيّة[2]، ومعنى ﴿فِي جَيۡبِكَ﴾، أي في مِدْرَعَتِكَ، وهي ثوب من صوف، يُلبس بدل القميص، ولا يكون له كمٌّ، بل ينتهي كمّه عند المرفقين[3].

3) ﴿بَيۡضَآءَ﴾: البياضُ في الألوانِ: ضدُّ السَّوادِ، يقالُ: ابيضَّ يبيضُّ ابيضاضًا وبَياضًا، فهو مُبيضٌّ وأبيضُ، قالَ سبحانه وتعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ﴾ [آل عمران: 106 - 107]، ولمّا كانَ البياضُ أفضلَ لونٍ عندَهم عُبِّرَ بهِ عن الفضلِ والكرمِ، حتَّى قيلَ لِمَنْ لم يتدنَّسْ بعيبٍ: هو أبيضُ اللَّونِ[4]. ومعنى بيضاء في الآية: أي مشرقة مضيئة لها شعاع كشعاع الشّمس[5].

4) ﴿وَٱضۡمُمۡ﴾: (ضمم) أصلٌ يدلُّ على ملاءمةٍ بينَ شيئَينِ[6]، وجمعٍ بينَهما، كما في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾، والإضمامةُ: جماعةٌ مِنَ النّاسِ أو مِنَ الكتبِ أو الرَّيحانِ أو نحوِ ذلكَ، وأسدٌ ضَمْضَمٌ وضَماضمٌ: يضمُّ الشَّيءَ إلى نفسِه[7].

5) ﴿جَنَاحَكَ﴾: (جنح) أصلٌ يدلُّ على المَيْلِ والعُدوانِ، يقالُ: جَنَحَ إلى كذا، أي: مالَ إليه، والجُناحُ: الإثمُ، سُمّيَ بذلكَ؛ لمَيْلِه عن طريقِ الحقِّ، والجوانحُ: الأضلاعُ؛ لأنَّها مائلةٌ، وسُمّيَ الجناحانِ جناحينِ؛ لمَيْلِهما في الشِّقَّينِ[8]، وسُمّيَ جانبا الشَّيءِ جناحيه، فقيلَ: جناحا السَّفينةِ، وجناحا العسكرِ، وجناحا الوادي، وجناحا الإنسانِ لجانبيهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾[9]، معنى جناحك هنا العَضُد، ويقال: اليد كلّه جناح،

---

(1) الزّبيدي، تاج العروس: (جيب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (زرق).
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 403.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بيض).
(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 403.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضمم).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضمم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنح).
(9) الرّاغب، المفردات: (جنح).

وقال في قوله جلّ وعزّ: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، أي ألِنْ لهما جانِبَك[1]، وجناحا الرّجل عضداه ويداه[2]..

6) ﴿ٱلرَّهۡبِۖ﴾ (رهب) أصلٌ يدلُّ على خوفٍ[3]، ومِنْ ذلكَ: الرَّهْبةُ والرَّهْبُ، وهما مَخافةٌ معَ تحرُّزٍ واضطرابٍ، قالَ تعالى: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ﴾ [الحشر: 13]، وقالَ: ﴿جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾، والتَّرهُّبُ: التَّعبُّدُ، وهو استعمالُ الرَّهْبةِ، والرَّهْبانيَّةُ: غُلوٌّ في تحمُّلِ التَّعبُّدِ مِنْ فَرْطِ الرَّهْبةِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: 27][4]، والرّهباء: اسم من الرّهب، تقول: (الرّهباء من الله، والرّغباء إليه)، و(النّعماء منه). وتقول: (رَهَبوتٌ خيرٌ لَكَ مِنْ رَحَموتٍ)، أي: أن تُرْهَبَ خيرٌ من أن تُرْحَمَ[5]، ومعنى الرّهب في الآية أنّه يقول له: "سكِّن روعك، واخفض عليك جنبيك، وذلك أنّه كان يرتعد خوفًا"[6].

7) ﴿بُرۡهَـٰنَانِ﴾: (بره) يقالُ: بَرِهَ يَبْرَهُ: إذا ابْيَضَّ، ورجلٌ أَبْرَهُ، وامرأةٌ بَرْهاءُ، وقومٌ بُرْهٌ، أي: بيضٌ، وسُمّيَ الدَّليل القاطعُ بالبُرْهانِ؛ لظُهورِهِ وسُطوعِهِ، ولذلكَ وصفوهُ بالسّاطعِ والنَّيِّرِ في قولِهم: بُرْهانٌ ساطعٌ نيِّرٌ[7]. والمرادُ بالبرهانينِ في الآيةِ: الدَّليلانِ القاطعانِ، وهما اليدُ والعصا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكر معجزة اليد بعد معجزة العصا، على أنّهما برهانان لفرعون وملئه

أدخِلْ يدَكَ في جَيْبِ قميصِكَ تَخْرُجْ بيضاءَ مِنْ غيرِ بَرَصٍ أو نحوِهِ، واضمُمْ إليكَ يدَكَ مِنَ الخوفِ الَّذي قد نالَكَ مِنْ معاينتِكَ، ما عاينتَ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (جنح).
(2) الأزهريّ، الزّاهر في غريب ألفاظ الشّافعيّ: (جنح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهب).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (رهب).
(5) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (رهب).
(6) الواحديّ، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص: 818.
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بره).

مِنْ هَوْلِ الحيَّةِ، فهذانِ اللَّذانِ أريتُكُما يا موسى، مِنْ تحوُّلِ العصا حيَّةً، وتحوُّلِ يدِكَ وهي سمراءُ بيضاءَ تلمعُ مِنْ غيرِ بَرَصٍ ونحوِه - آيتانِ وحُجَّتانِ إلى فرعونَ وأشرافِ قومِهِ؛ حُجَّةً عليهم، ودلالةً على حقيقةِ نُبوَّتِكَ يا موسى؛ إنَّ فرعونَ وملأَهُ كانوا قومًا كافرينَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ﴾ ممّا قبلَها:

علَّلَ اللّهُ ﷻ متفضّلًا قولَهُ: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ﴾ بقولِه: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، وعقَّبَهُ بقولِه: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾؛ ليعضدَ التَّعليلَ[2].

دلالةُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿ٱسۡلُكۡ﴾:

الأمرُ للوجوبِ، وكلّ أمرِ الله حكمة وإعجاز

الأمرُ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ للوجوبِ، لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ هنا، بل مقامُ إزالةِ الخوفِ وإظهارِ المعجزةِ يستدعيه. وفعل ﴿ٱسۡلُكۡ﴾ معناه (أَدْخِلْ)، فقد أمره اللّه بأن يُدْخِل يده في جَيْبِه، وهو فتح الجُبَّة من حيث يخرج رأس الإنسان، وروي أنّ كمّ الجبّة كان في غاية الضّيق، فلم يكن له جيب تدخل يده إلّا في جيبه[3].

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿ٱسۡلُكۡ﴾:

الإشـارةُ إلى الاستقامةِ والخِفَّةِ، في إدخالِ اليدِ في الجناح

قولُهُ ﷻ: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ معناهُ: أدخِلْها[4]، وعُبِّرَ بالسَّلْكِ؛ لأنَّهُ يتضمَّنُ الاستقامةَ مَعَ الخِفَّةِ والرَّشاقةِ[5]، وتعبيره بسلوك يده في جَيْبِه، كيما تَخْرُجَ بَيْضاءَ مضيئة منيرة، محيّرة للعقول، مفرّقة للأبصار، من كمال إشراقها وإضاءتها، مع أنّها مِنْ غَيْرِ سوءٍ[6].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 574.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 48.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 287.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 287، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 12.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 280.
(6) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 2/ 81.

غرضُ الإضافةِ في لفظ: ﴿يَدَكَ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ المعجزةَ، في عُضوٍ مِنْ جسدِهِ الشّريف

أُضيفَتِ اليدُ إلى كافِ الخطابِ، الرّاجعةِ إلى موسى عليه السلام، في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾، للتَّنبيهِ على أنَّ معجزةَ موسى عليه السلام، في عُضْوٍ مِنْ أعضائِهِ، وليسَتْ في أمرٍ خارجٍ عنهُ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ إزالةِ الخوفِ، وتهيئةِ موسى عليه السلام، لتبليغِ ما كُلِّفَ بِهِ مِنَ الأمرِ العظيمِ.

معنى ﴿فِي﴾ في قولِهِ: ﴿فِي جَيۡبِكَ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾، للظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، وهو يفيدُ أنَّ الجَيْبَ هو ظرفُ اليدِ المأمورِ بإدخالِها.

علَّةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿جَيۡبِكَ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ مكانَ إدخالِ اليدِ، هو جَيْبُ ثوبِهِ المحدّد

أُضيفَ الجَيْبُ إلى كافِ الخطابِ، الرّاجعةِ إلى موسى عليه السلام، في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾، للتَّنبيهِ على أنَّ مكانَ إدخالِ اليدِ، في جزءٍ مِنْ أجزاءِ ثَوْبِهِ، وهو جَيْبُهُ، وليسَ في موضعٍ خارجٍ عنهُ، فلا مشقَّةَ عليهِ في ذلكَ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ، لمقامِ إزالةِ الخوفِ، وتهيئةِ موسى عليه السلام، لتبليغِ ما كُلِّفَ بِهِ مِنَ الرِّسالةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَخۡرُجۡ﴾:

دلالةُ المضارعِ على الاستقبالِ، مفيدٌ في بيانِ المعنى المراد

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ، في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾؛ لأنَّ حصولَ خروجِ اليدِ بيضاءَ مِنْ غيرِ سوءٍ، أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبةِ لزمنِ الأمرِ بإدخالِها في الجَيْبِ. ومِنْ دِقَّةِ التَّعبيرِ القرآنيِّ أنَّهُ لم يقلْ: (وأخرِجْها) بصيغةِ الأمرِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ العمليَّةَ عمليَّةٌ آليَّةٌ منضبطةٌ بدقَّةٍ، فبمجرَّدِ أنْ يُدْخِلَها تخرجُ بيضاءَ، فكأنَّ إرادتَهُ على جوارحِهِ، كانَتْ في الإدخالِ فقطْ[1].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 10918.

سرُّ التَّقييدِ بالحالِ، في قولِهِ: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾:

التَّنبيهُ على محلِّ المعجزة، ومناط الإدهاش فيها

قُيِّدَ خروجُ اليدِ بكونِها بيضاءَ، في قولِهِ تعالى: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾؛ لأنَّهُ ليسَ المرادُ مُطلَقَ الخروجِ، بل المرادُ خروجُها بيضاءَ، وفي ذلك تنبيهٌ على محلِّ المعجزةِ؛ لأنَّ البياضَ لا بدَّ أنْ يكونَ عجيبًا في موسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ؛ لأنَّهُ كانَ أسمرَ اللَّونِ[1]، والمعنى: تخرجْ بيضاءَ بياضًا عظيمًا، يكونُ لهُ شأنٌ خارقٌ للعاداتِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾:

الكناية والاحتراس ملمحان بلاغيان مهمّان في هذا السّياق

قولُهُ تعالى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ معناهُ: مِنْ غيرِ عَيْبٍ مِنْ بَرَصٍ أو نحوِهِ[3]، فيكونُ نفيُ السّوءِ كنايةً عن نفيِ البَرَصِ ونحوِهِ. وفي الكلامِ أيضًا احتراسٌ وتكميلٌ[4]؛ لدفعِ توهُّمِ أنْ يكونَ سببُ هذا البياضِ الشَّديدِ، هو البَرَصَ أو غيرَهُ مِنَ الآفاتِ[5].

بلاغةُ الاحتباكِ في: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ﴾:

الحذف في الكلامِ، مفيد لاستجلاء المعنى وبيانه

في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾، إيجازٌ بالحذفِ، وذلكَ أنَّ التَّقديرَ: أدخِلْ على الاستقامةِ مَعَ الخِفَّةِ والرَّشاقةِ، يدَكَ في جَيْبِكِ، وأخرِجْها تَخْرُجْ بيضاءَ مِنْ غيرِ سوءٍ، فخرجَتْ ولها شُعاعٌ كضوءِ الشَّمسِ، فالآيةُ مِنَ الاحتباكِ[6].

دلالة موقع ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ﴾ ممّا قبلَها:

إعطاءُ موسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ معجزةً أخرى، دعم لرسالته وهديه

ذكرَ الزّمخشريُّ في بيانِ سرِّ عطفِ جملةِ ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾، على ما قبلَها، أنَّ موسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ، لمّا قلبَ اللّهُ العصا حيَّةً، فَزِعَ واضطربَ، فاتَّقاها بيدِهِ كما يفعلُ الخائفُ مِنَ الشَّيءِ، فقيلَ لهُ:

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 10918.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 281.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 287، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 177.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 510.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 137، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 10918.
(6) البقاعيّ: نظم الدّرر: 14/ 280، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 510.

إنَّ اتقاءَكَ بيدِكَ مَنْقصةٌ عندَ الأعداءِ، فإذا ألقيتَها وانقلبَتْ حيَّةً، فأدخِلْ يدَكَ تحتَ عَضُدِكَ مكانَ اتِّقائِكَ بها، ثمَّ أخرِجْها بيضاءَ؛ ليحصلَ الأمرانِ: اجتنابُ ما هو مَنْقَصةٌ، وإظهارُ معجزةٍ أخرى[1].

يعني: أنَّ موسى عليه السلام خافَ خوفًا شديدًا، فلمّا أرادَ اللّٰهُ أنْ يُزيلَ خوفَهُ، وينهاهُ عمّا صدرَ عنهُ مِنَ الاتّقاءِ باليدِ، ويمنحَهُ بدلَهُ معجزةً أخرى، قالَ أوَّلًا: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾؛ إزالةً للخوفِ، وقالَ ثانيًا: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾؛ امتنانًا عليهِ بهبةٍ أخرى؛ مزيدًا لانشراحِ صَدْرِهِ، وقالَ ثالثًا: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾؛ تعليمًا لهُ مكانَ اتِّقائِهِ بها.

وفي الحقيقةِ قولُهُ: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ﴾، وقولُهُ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾، أمرٌ واحدٌ؛ لأنَّ معناهُ: اجعَلْ يدَكَ اليُمنى تحتَ عَضُدِكَ اليُسرى؛ لأنَّ الجناحَ عبارةٌ عن اليدِ، لكنْ صيَّرَهما شيئَينِ؛ ليُعلِّقَ بكلٍّ غرضًا، وذلكَ أنَّ الغرضَ في أحدِهما خروجُ اليدِ بيضاءَ، وفي الثّاني إخفاءُ الرَّهْبِ[2]. وهذا الكلامُ مبنيٌّ على أنَّ المرادَ بالجناحِ اليدُ.

دلالةُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿وَٱضۡمُمۡ﴾:

الأمرُ في قولِ الحقِّ سبحانه وتعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ في صيغةِ الأمرِ، ولا صارفَ عنهُ هنا، بل مقامُ التَّكليفِ يقتضيهِ.

نكتةُ تقديمِ ﴿إِلَيۡكَ﴾ على ﴿جَنَاحَكَ﴾:

قُدِّمَ ﴿إِلَيۡكَ﴾ على ﴿جَنَاحَكَ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّمِ، وهو كونُ الضَّمِّ إليهِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو كونُ المضمومِ جناحَهُ.

علّةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿جَنَاحَكَ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ وسيلةَ دفعِ الخوفِ، جزءٌ منهُ

أُضيفَ الجناحُ إلى كافِ الخطابِ الرّاجعِ إلى موسى عليه السلام في قولِ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 408.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 48.

اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ما يتَّقي بهِ الخوفَ مِنَ الأفعى هو جزءٌ مِنْ بدنِهِ، وفي ذلكَ تيسيرٌ عليهِ، وزيادةُ طمأنينةٍ، وإظهارُ آيةٍ أخرى لهُ.

وهذا الكلامُ مبنيٌّ على أنَّ المرادَ بالجناحِ اليدُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بضَمّ الجَناح:

احتمالُ التَّركيبِ لعدّة محامل بلاغيّة، دليل على سموّ بيانه

اختُلِفَ في بيانِ المرادِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾:

فقيلَ: هو على سبيلِ الحقيقةِ، والمرادُ بالجناحِ: اليدُ؛ لأنَّ يدَي الإنسانِ بمنزلةِ جناحَي الطّائرِ، وإذا أدخلَ يدَهُ اليُمنى تحتَ عَضُدِ يدِهِ اليُسرى فقد ضمَّ جناحَهُ إليهِ[1]، ومِنْ شأنِ الإنسانِ إذا فعلَ ذلكَ في أوقاتِ فَزَعِهِ أنْ يقوَى قلبُهُ[2].

وقيلَ: المرادُ بضمِّ جناحِهِ إليهِ: تجلُّدُهُ وضَبْطُهُ نفسَهُ عندَ انقلابِ العصا حيَّةً؛ حتى لا يضطربَ، وذلكَ استعارةٌ مِنْ فعلِ الطّائرِ؛ لأنَّهُ إذا خافَ نشرَ جناحيهِ وأرخاهما، وإلّا فجناحاهُ مضمومانِ إليهِ مُشمِّرانِ[3].

يعني: قولُهُ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾، كنايةٌ عن تجلُّدِهِ وضبطِهِ، وهو مأخوذٌ مِنْ فعلِ الطّائرِ عندَ الأمنِ بعدَ الخوفِ، فيكونُ بهذا الوجهِ مستعارًا على التَّمثيلِ.

والحاصلُ: أنَّهُ في الأصلِ مُستعارٌ، مِنْ فعلِ الطّائرِ عندَ هذهِ الحالةِ، ثمَّ كَثُرَ استعمالُهُ في التَّجلُّدِ وضبطِ النَّفْسِ، حتَّى صارَ مَثَلًا فيهِ وكنايةً عنهُ، فعلى هذا يكونُ تتميمًا لمعنى ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾[4].

وبناءً على هذا الوجهِ لا يكونُ المرادُ بالجناحِ اليدَ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 408.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 287.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 408.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 49.

نكتة وضعِ الظّاهرِ موضعَ المُضمَر:

قولُهُ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾، إنْ قيلَ: إنَّ المرادَ بالجناحِ اليدَ، فإظهارُ لفظِ الجناحِ مِنْ غيرِ إضمارٍ، تعظيمٌ للمقام، وتنبيهٌ على أنَّ عَوْدَها إلى حالِها الأوَّلِ آيةٌ مستقلَّةٌ، والتَّعبيرُ عنها بلفظِ الجناحِ، تنبيهٌ على الشُّكرِ بتعظيم نفعِها[1]. وقيلَ: العدولُ إلى الظّاهرِ في مقامِ المُضمَرِ؛ لكمالِ التَّقرُّرِ في الذِّهنِ[2].

التَّنبيهُ على أنَّ عَوْدَ اليدِ إلى حالِها الأوَّلِ، آيةٌ مستقلَّةٌ

دلالة إعراب قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾:

الظّاهرُ أنَّ قولَهُ: ﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِهِ: ﴿وَٱضۡمُمۡ﴾. وقيلَ: هو مُتعلِّقٌ بقولِهِ: ﴿وَلَّىٰ﴾. وقيلَ: هو مُتعلِّقٌ بقولِهِ: ﴿مُدۡبِرٗا﴾. وقيلَ: هو مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: تسكنُ مِنَ الرَّهْبِ[3].

بيان أنّ الظّاهر، تعلُّقُهُ بالفعل (واضْمُمْ)

معنى ﴿مِنَ﴾، في قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾:

قيلَ: ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ تعليليَّةٌ، ومعنى قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾: مِنْ أجلِ الرَّهْبِ، أي: إذا أصابَكَ الرَّهْبُ عندَ رؤيةِ الحيَّةِ فاضمُمْ إليكَ جناحَكَ، جُعِلَ الرَّهْبُ الَّذي كانَ يصيبُهُ سببًا وعلَّةً فيما أُمِرَ بِهِ مِنْ ضمِّ جناحِهِ إليهِ[4].

(مِنْ) تعليليَّةٌ أو بدليَّةٌ، وفي الحالين لها دلالة مبينة عن المراد

وقيلَ: قولُهُ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾، تمثيلٌ بحالِ الطّائرِ إذا سكنَ عن الطَّيرانِ، أو عن الدِّفاعِ، جُعِلَ كنايةً عن سكونِ اضطرابِ الخوفِ، وعلى هذا فـ ﴿مِنَ﴾ هنا للبدليَّةِ، أي: اسكُنْ سُكونَ الطّائرِ بدلًا مِنْ أنْ تطيرَ خوفًا[5].

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلرَّهۡبِۖ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلرَّهۡبِۖ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ

تنوّع غرض التَّعريف يَشي بالمعنى الطَّريف

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 281.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 510.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 285.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 408، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 177.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 114.

﴿ٱلرَّهۡبِ﴾ للجنسِ، والمرادُ: واضمُمْ إليكَ جناحَكَ مِنَ الجنسِ المُسمَّى بالرَّهْبِ، أي: الخوفِ. ويحتملُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للعهدِ، والمرادُ رَهْبٌ مخصوصٌ، وهو الَّذي أصابَهُ عندَ انقلابِ العصا حيَّةً.

بلاغةُ الإيجازِ في الآيةِ:

في الكلامِ حذفٌ يدلُّ عليهِ السّياقُ اللّاحقُ

قيلَ: قولُهُ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾، تمثيلٌ بحالِ الطّائرِ إذا سكنَ عن الطَّيرانِ، أو عن الدِّفاعِ، جُعِلَ كنايةً عن سكونِ اضطرابِ الخوفِ، وعلى هذا فـ ﴿مِنَ﴾ هنا للبدليَّةِ، أي: اسكُنْ سُكونَ الطّائرِ بدلًا مِنْ أنْ تطيرَ خوفًا، والمعنى: انكفِفْ عن التَّخوُّفِ مِنْ أمرِ الرِّسالةِ. وفي الكلامِ إيجازٌ، وهو ما دلَّ عليهِ قولُه بعدَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾، فقولُهُ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾، في معنى قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[1].

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَذَٰنِكَ﴾:

تغيّرُ المعنى في حرفِ المعنى، مفيد في التّأويلِ والفهمِ

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، للتَّفريعِ على قولِهِ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾[2]. وقيلَ: الفاءُ فصيحةٌ، أي: إذا تأمَّلتَ ذلكَ واستيقنتَ منهُ فذانِكَ برهانانِ مِنْ ربِّكَ[3].

مرجعُ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿فَذَٰنِكَ﴾:

نكتةُ الإشارةِ للعصا واليدِ، في السّياقِ المحكمِ

الإشارةُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى العصا واليدِ[4]. ليلفت نظره، ويرجعه إلى عقله ووعيه، فينتبه بعد خوفه وفزعه واضطرابه، إلى أهميّة الآيتين، في ميزان البلاغ والمحاجة، الّتي اضطلع بها الرّسول موسى، منذ لحظة التّكليف.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 114.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 115.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 321.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 177، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 115.

سرّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (ذانِكَ):

التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لتفخيمِ شأنِ المُشارِ إليهِ وتعظيمِهِ[1]. والبُرْهانانِ المشارِ إليهما بلفظ (ذانِكَ)، هما الحجّتان، قال في القاموس: البرهان بالضّمّ الحُجَّة، ومعناه أتى بالبرهان، أو جاء بالعجائب وغلب النّاس[2].

تفخيمُ شأنِ المُشارِ إليهِ، مفيدٌ في لفت الانتباه إليه

علَّةُ تذكيرِ اسمِ الإشارةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، إشارةٌ إلى العصا واليدِ، وهما مؤنَّثتانِ، ولكنْ ذُكِّرا لتذكيرِ الخبرِ، وهو ﴿بُرۡهَٰنَانِ﴾[3].

نكتةُ الكافِ في قولِهِ: ﴿فَذَٰنِكَ﴾:

كافُ ﴿فَذَٰنِكَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، تنبيهٌ على حالِ المُخاطَبِ، وهو موسى عليه السلام[4].

دلالة التَّعبيرِ بالمثنَّى، في قولِهِ: ﴿بُرۡهَٰنَانِ﴾:

جيءَ بلفظِ المثنَّى في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، ولم يُقلْ: (برهانٌ) معَ أنَّ العصا واليدَ في حكمِ برهانٍ واحدٍ؛ إشارةً إلى تعدُّدِ الحُجَّةِ وتنوُّعِها، بحيثُ لا يبقَى عذرٌ لَمَنْ يُكذِّبُ موسى عليه السلام.

الإشارةُ إلى إدراجِ السّياقِ، لأكثر من حُجَّةٍ واحدة

والمعنى: فذانِكَ حُجَّتانِ نيِّرتانِ على صِدْقِكَ في النُّبوَّةِ وصحَّةِ ما تدعوهُم إليهِ مِنَ التَّوحيدِ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالبرهانِ:

البرهانُ في الأصلِ: الحُجَّةُ القاطعةُ[6]، وقد عُبِّرَ بهِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لقطعِ الشُّبهةِ؛ لأنَّ البرهانَ

التّنبيهُ على قطعِ الحُجَّةِ للشُّبهةِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 512.
(2) المظهريّ، محمّد ثناء الله، التّفسير المظهريّ: 7/ 163.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 303، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 8/ 672.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 512.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 596.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 115.

شأنُهُ قطعُ الشُّبهةِ[1]. وقيلَ: لمّا كانَ بيانُ الحُجَّةِ شبيهًا بالبياضِ في الظُّهورِ، عُبِّرَ عنهُ بالبرهانِ المُنبئِ في الأصلِ عن البياضِ[2].

دلالة إعراب شبه الجملة: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، مُتعلِّقانِ بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾، أي: كائنانِ منهُ تعالى[3].

معنى ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

﴿مِن﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ للابتداءِ[4]. وفي تقييدِ البُرهانينِ بكونِهما مِنَ اللّهِ ﷻ تعظيمٌ لشأنِهما.

سرُّ الإضافةِ في قولِه: ﴿رَّبِّكَ﴾:

تعظيمُ شأنِ موسى عليه السلام، بإضافته إلى الرّبّ جل جلاله

في إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ضميرِ الخطابِ، الرّاجعِ إلى موسى عليه السلام، في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، تعظيمٌ لشأنِ موسى عليه السلام، ورفعٌ لقَدْرِه ومنزلتِه، أي: فذانكَ برهانانِ مِنَ المُحسنِ إليكَ، لا يَقْدِرُ على مِثلِهما غيرُهُ[5].

وفي هذهِ الإضافةِ أيضًا تعريضٌ بأنَّ البرهانَ مِنَ الرَّبِّ الحقِّ إلى فرعونَ الرَّبِّ الباطلِ[6].

إعرابُ قولِه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾:

الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقانِ بحالٍ مُقدَّرةٍ

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ مُتعلِّقانِ بحالٍ مُقدَّرةٍ، أي: مُرسَلًا بهما إلى فرعونَ وملئِه[7]، والعاملُ في هذهِ الحالِ ما في اسمِ الإشارةِ[8]. وقيلَ:

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 512.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 512.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 13، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 285.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 115.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 282.
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 10918.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 177، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 73.
(8) السّمين، الدّر المصون: 8/ 673.

التَّقديرُ: اذهبْ إلى فرعونَ وملئِهِ(1). وقيلَ: يجوزُ أَنْ يكونا مُتعلِّقين بصفةٍ محذوفةٍ لـ ﴿بُرۡهَٰنَانِ﴾، أي: واصلانِ إلى فرعونَ وملئِهِ(2).

معنى ﴿إِلَىٰ﴾:

﴿إِلَىٰ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ﴾ للانتهاءِ المجازيِّ، أي: حُجَّتانِ على أَنْ أرسلَ بهما إليهِم(3).

غرضُ الاستئنافِ في: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ﴾:

الاستئنافُ لتعليلِ الإرسالِ، مبين عن المرادِ من السِّياق

قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ استئنافٌ تعليليٌّ للإرسالِ الدّالِّ عليهِ قولُهُ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ﴾، وكونُهم محتاجينَ إلى الإرسالِ وتبيينِ السَّبيلِ بالهادي(4).

غرضُ التَّوكيدِ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ﴾:

تحقيقُ فِسْقِ فرعونَ وملئِهِ، لتعليلِ أسبابِ البلاغِ والدّعوةِ

أُكِّدَ قولُ الباري جلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾؛ لتحقيقِ فِسْقِ فرعونَ وملئِهِ، وبيانِ أنَّهُ أمرٌ ثابتٌ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ تعليلِ إرسالِ موسى وهارونَ عليهما السلام إليهِم. وقيلَ: أُكِّدَ الكلامُ؛ لأنَّ إقدامَ موسى عليه السلام على الرُّجوعِ إليهِم بعدَ غَيْبَتِهِ، فعلُ مَنْ يظنُّ أنَّهم رجعوا عن غَيِّهم، فنُبِّهَ بالتَّأكيدِ على أنَّهم لم يزالوا عليهِ، وفي التَّأكيدِ أيضًا إعلامٌ بمنِّهِ سبحانه وتعالى عليهِ، بالحمايةِ منهُم بهذهِ البراهينِ(5).

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي ﴿كَانُواْ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 73.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 512.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 115.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 177، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 513، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 115.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 282.

﴿فَٰسِقِينَ﴾؛ إشارةً إلى تمكُّنِ الكفرِ مِنْ نُفوسِ فرعونَ وملئِهِ، حتَّى صارَ كالجِبِلَّةِ والطَّبعِ فيهِم[1].

سرُّ الوصفِ بلفظِ ﴿قَوۡمًا﴾:

الإشـــارةُ إلى تميُّزِهم بوصفِ الفِسْقِ الذّميم

في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ إشارةٌ إلى تمكُّنِ الكفرِ مِنْ نُفوسِ فرعونَ وملئِهِ، حتَّى كانَ كالجِبِلَّةِ فيهم، ويُقوّي ذلكَ الوصفُ بلفظِ ﴿قَوۡمًا﴾، فهو يومِئُ إلى أنَّ ذلكَ الوصفَ سجيَّةٌ فيهم، ومِنْ مُكمِّلاتِ قوميَّتِهم؛ فإنَّ للقبائلِ والأُمَمِ خصائصَ تُميِّزُها وتشتهرُ بها[2].

نكتةُ الوصفِ بلفظِ ﴿فَٰسِقِينَ﴾:

التَّـنـبـيـهُ على تـجــاوزِهــم الـحـدَّ في الكفرِ والـطُّـغـيـانِ، مفيد في التّبيان

جيءَ بوصفِ الفِسْقِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى تجاوزِ فرعونَ وملئِهِ الحدَّ في الظُّلمِ والكفرِ والعُدوانِ، فكانوا أحِقّاءَ بأنْ يُرسَلَ موسى عليه السلام إليهِم بهاتينِ المعجزتينِ الباهرتينِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿فَٰسِقِينَ﴾:

الـدَّلالـةُ على رُسـوخِـهـم في الفِسْقِ، مبينة عــن أجــواء القصّة

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على رُسوخِ فرعونَ وملئِهِ في الفِسْقِ، وأنَّهم قد أُشْرِبوهُ في قلوبِهم، حتَّى مازَجَ دمَهم ولحمَهم، وصاروا مشهورينَ بهِ.

التّشابهُ اللَّفظيُّ بين آيةِ القصصِ وآيتي طه والنّملِ:

هناك اختلاف بـين الآيــات الـثّلاث، غايته الـتّـكـامـل بين مشاهد القصّة

تشابهَتْ هذهِ الآيةُ معَ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ١٢﴾ [النّمل: 12].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 282، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 115.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 89، 20/ 115.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 13، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 285.

ومِنْ وجوهِ الاختلافِ بينَهما: أنَّهُ قيلَ هنا: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ﴾، وقيلَ هناك: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ [النمل: 12]، وتلكَ المخالفةُ تفنُّنٌ في تكريرِ القصَّةِ؛ لتجديدِ نشاطِ السّامعِ لها[1]. وتشابهَتْ أيضًا معَ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ٢٢﴾ [طه: 22]. ومِنْ وجوهِ الاختلافِ بينَهما: أنَّهُ قد جُعِلَ الجناحُ - وهو اليدُ - في أحدِ الموضعينِ مضمومًا، وفي الآخرِ مضمومًا إليهِ. وسرُّ ذلكَ: أنَّ المرادَ بالجناحِ المضمومِ: هو اليدُ اليُمنى، والمرادَ بالمضمومِ إليهِ: اليدُ اليُسرى، وكلٌّ واحدةٍ مِنْ يُمنى اليدينِ ويُسْراهما جناحٌ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرَّهْبُ والخوفُ:

الرَّهْبُ خوفٌ معَ تحرُّزٍ

فُرِّقَ بينَ الرَّهْبِ والخوفِ: بأنَّ الرَّهْبَ مَخافةٌ معَ تحرُّزٍ[3]، فيكونُ أخصَّ مِنْ مُطلَقِ الخوفِ، والرّهبُ طول الخوف واستمراره، ومن ثمّ قيل للرّاهب راهب، لأنّه يديم الخوف.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 112.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 409.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 48.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣﴾ [القصص: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

طَلَبُ ما يُزيلُ الخوفَ، بعدَ العلمِ بتكليفه بالبلاغِ، لفرعون وملئه

لمّا قالَ سبحانَهُ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾، تضمَّنَ ذلكَ أنْ يذهبَ موسى بهذينِ البرهانينِ إلى فرعونَ وقومِهِ، فعندَ ذلكَ طلبَ مِنَ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ ما يُقوّي قلبَهُ، ويُزيلُ خوفَهُ، فقالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿قَتَلۡتُ﴾: (قتل) أصلٌ يدلُّ على إذلالٍ وإماتةٍ[2]، فالقتلُ: إزالةُ الرّوحِ عن الجسدِ كالموتِ، لكنْ إذا اعتُبِرَ بفعلِ المُتولّي لذلكَ يقالُ: قتلٌ، وإذا اعتُبِرَ بفَوْتِ الحياةِ يقالُ: موتٌ، قالَ ﷻ: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ﴾ [آل عمران: 144]، وعنهُ استُعيرَ على سبيلِ المبالغةِ: قتلتُ الخمرَ بالماءِ، إذا مزَجْتَهُ، وقتلتُ فلانًا، إذا ذلَّلْتَهُ، والمقاتلةُ: المحاربةُ وتحرّي القتلِ[3].

2) ﴿نَفۡسٗا﴾: النَّفسُ: ذاتُ الشّيءِ وجملتُهُ، قالَ تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: 185][4]، والمنافسةُ: مجاهدةُ النَّفسِ للتَّشبُّهِ بالأفاضلِ واللُّحوقِ بهم، قالَ تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: 26][5]، ومنَ المجازِ قولُهم: دَفَقَ نفسَهُ، أي: دمَهُ[6].

المَعنى الإجماليُّ:

خوفُ موسى عليه السلام مِن انتقام فرعونَ وملئه منه

قالَ موسى عليه السلام، لمّا علِمَ بإرسالِهِ إلى فرعونَ وملئِهِ: ربِّ إنّي قتلتُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 596، والشّوكاني، فتح القدير: 4/ 199.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قتل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (قتل).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (نفس).
(5) الرّاغب، المفردات: (نفس).
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نفس).

مِنْ قومِ فرعونَ نفسًا، وهو ذلكَ القِبْطيُّ، فأخافُ إنْ أتيتُهم ولم أُبِنْ عن نفسي بحُجَّةٍ أنْ يقتلوني إذا رأَوْني[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، مفيد في الإبانة عن المعنى

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ لأنَّ هذه الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِنَ الكلامِ السّابقِ، كأنَّهُ قيلَ: ما فعلَ بعدَ رؤيةِ هذهِ الخوارقِ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾، ومهَّدَ بذلكَ لطلبِ المُعينِ، وهو أخوهُ هارونُ عليه السلام[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالنِّداءِ ﴿رَبِّ﴾:

إظهارُ الاعتناءِ بحصولِ المرادِ، مهمّ في فهم الدّلالة

جيءَ بأسلوبِ النِّداءِ في قولِ اللّهِ تبارك وتعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛ لإظهارِ كمالِ اعتناءِ موسى عليه السلام بحصولِ مقصودِه، والمقامُ مقامُ تضرُّعٍ ودعاءٍ، فيناسبُهُ الإتيانُ بهذا الأسلوبِ المُنبئِ عن اهتمامِ الدّاعي بإجابةِ دعائِه.

بلاغةُ الإيجازِ في قولِهِ: ﴿رَبِّ﴾:

الإيجازُ بالحذفِ، مسلك للإفصاح عن المعنى بقوّة

في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وذلكَ بحذفِ أداةِ النِّداءِ وياءِ المُتكلِّمِ، والأصلُ: (يا ربّي)، وفي هذا الحذفِ مناسبةٌ لمقامِ القُرْبِ والمناجاةِ؛ لأنَّ فيهِ إشعارًا بقُرْبٍ معنويٍّ مُنزَّلٍ منزلةَ القُرْبِ الحسّيِّ، ولذلكَ حُذِفَ منهُ ما قد يوهِمُ البُعْدَ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿رَبِّ﴾:

مناسبةُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ لمقامِ التَّضرُّعِ

جيءَ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ، في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ مِنَ التَّربيةِ والإحسانِ،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 236، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 57.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 283.

وفي التَّعبيرِ بهِ مناسبةٌ لمقامِ التَّضرُّعِ والدُّعاءِ، وطلبِ الحاجاتِ، والمعنى: أيُّها المُحسِنُ إليَّ إنّي قتلتُ منهُم نفسًا[1].

نكتةُ تأكيدِ قولِهِ: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾:

المبالغةُ في تحقيقِ مضمونِ الكلامِ، مسلك للإبانةِ والإفهامِ

جيءَ بالتَّأكيدِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛ للمبالغةِ في تحقيقِ مضمونِهِ، وهو وقوعُ القتلِ مِنْ موسى عليه السلام[2]. وقيلَ: أُكِّدَ القتلُ معَ أنَّ اللّهَ أعلمُ بخفيّاتِ الأمورِ؛ اعتبارًا بالمعطوفِ، وهو خوفُ القتلِ[3]. وقيلَ: أُكِّدَ الكلامُ؛ لأنَّ إرسالَ اللّهِ سبحانَهُ لهُ فعلُ مَنْ لا يعتبرُ أنَّ لهُم عليهِ تِرَةً، فذكرَ ذلكَ ليعلمَ وجهَ عدمِ اعتبارِهِ[4]. وقيلَ: جرَى التَّأكيدُ على الغالبِ في استعمالِ أمثالِهِ مِنَ الأخبارِ الغريبةِ؛ ليتحقَّقَ السّامعُ وقوعَها، وإلّا فإنَّ اللّهَ قد علمَ ذلكَ[5].

غرضُ الإخبارِ بقولِهِ: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ﴾:

طلبُ حمايةِ اللهِ مِنَ الأعداءِ، مقدّمةٌ لطلبِ النّصرةِ عليهِم

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، معناهُ: إنّي قتلتُ منهُم قِبْطيًّا، فأخافُ أنْ يذكُروا قتلي لهُ فيقتلوني، فهذا كالاعتذارِ، وهو يعلمُ أنَّ رسالةَ اللّهِ لا يُتخلَّصُ منها بعُذْرٍ، ولكنَّهُ أرادَ أنْ يكونَ في أمنٍ إلهيٍّ مِنْ أعدائِهِ، فهذا تعريضٌ بالدُّعاءِ، ومُقدِّمةٌ لطلبِ التَّأييدِ والنُّصرةِ[6].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿قَتَلْتُ﴾:

التَّنبيهُ على تحقُّقِ القتلِ ووقوعِهِ، دون تعمّدِهِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ القتلِ ووقوعِهِ، وأنَّهُ أمرٌ ثبتَ ومضَى، فيُخبَرُ عنهُ كما يُخبَرُ عنِ الأخبارِ والأحداثِ الماضيةِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 238.
(2) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 14/ 513.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 269.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 283.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 115.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 115.

غرضُ تقديمِ المسنَدِ إليهِ على المسنَدِ:

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ، في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛ لإفادةِ تقوّي حكمِ القتلِ؛ بيانُ ذلكَ: أنَّ في قولِهِ: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ نسبةَ القتلِ إليهِ، وفي ﴿قَتَلْتُ﴾ ضميرٌ راجعٌ إليهِ، فيفيدُ إسنادَ القتلِ إليهِ مرَّةً أخرى، كأنَّهُ قيلَ: إنّي قتلتُ منهُم نفسًا، إنّي قتلتُ منهُم نفسًا.

إفادةُ تقوّي الحكمِ، مسلك للإبانة عن المراد

معنى (مِنْ) في قولِهِ: ﴿مِنْهُمْ﴾:

(مِنْ) في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ للتَّبعيضِ، فالمقتولُ هو بعضُ آلِ فرعونَ، وواحدٌ مِنْ جملتِهم. أي من آل فرعون، وفي ذلك تبرير للفعلة، فهو يؤكّد أنّه ما خرج منها خائفا يترقّب، إلّا مخافة العقاب، دون التفات للمعاذير والأسباب.

كون القتيل منهم، أدعى لأن يبادروه بانتقام مفضٍ إلى الهلاك

نكتةُ تقديمِ ﴿مِنْهُمْ﴾ على ﴿نَفْسًا﴾:

قُدِّمَ ﴿مِنْهُمْ﴾ على ﴿نَفْسًا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّمِ، وهو كونُ القتلِ قد وقعَ على بعضِ آلِ فرعونَ، وهو مَناطُ الخوفِ الَّذي كانَ يخامرُ موسى عليه السلام؛ لعلمِهِ بشدَّةِ بأسِ فرعونَ وقومِهِ وبَطْشِهم، وبسببِ ذلكَ طلبَ مِنَ اللهِ تعالى الأمانَ والتَّأييدَ.

العنايةُ بالمُقدَّمِ، دليل على أهميّته في المعنى

غرضُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿نَفْسًا﴾:

تنكيرُ ﴿نَفْسًا﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ نفسٌ مُعيَّنةٌ، وهو القِبْطيُّ الَّذي وكَزَهُ موسى عليه السلام فقضَى عليهِ[1].

معنى الفاءِ، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَأَخَافُ﴾:

الفاءُ في قولِهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ للتَّفريعِ، وهي تفيدُ تفرُّعَ خوفِ موسى عليه السلام، أنْ يقتلوهُ على قتلِهِ الرَّجلَ القِبْطيَّ مِنْ آلِ فرعونَ.

من طلب الأمن من الله، كان في حراسته وحماه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 304.

وهذا التَّفريعُ هو المقصودُ مِنْ كلامِ موسى ﵇؛ لأنَّه يريدُ الأمنَ مِنَ اللّهِ ﷻ، وإخبارُهُ بوقوعِ القتلِ منهُ، كانَ مُقدِّمةً وتمهيدًا لذلكَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿فَأَخَافُ﴾:

التَّنبيهُ على استمرارِ الخوفِ، تصوير لحال موسى على الحقيقة

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ خوفِ موسى ﵇، مِنْ فرعونَ وقومِه أنْ يقتلوهُ، بسببِ الرَّجلِ الَّذي قتلَهُ منهُم، وفي تعبيرِهِ بذلكَ، بيانٌ لمزيدِ حاجتِهِ إلى الأمنِ مِنَ اللّهِ تعالى، فالخوفُ ملازمٌ لهُ لا يفارقُهُ، وفي ذلكَ حرصٌ منهُ ﵇، على اتِّخاذِ ما يُحقِّقُ نجاحَ رسالتِهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمَصْدَرِ المؤَوَّلِ ﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾:

الدَّلالةُ على الاستقبالِ ومراعاةُ الفاصلةِ، مهمّة في السّياق

عَبَّرَ بالمَصْدَرِ المُؤَوَّلِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (فأخافُ القتلَ)؛ لأنَّ دخولَ ﴿أَن﴾ على المضارعِ يُعيِّنُهُ للاستقبالِ، فيُفيدُ أنَّ القتلَ المَخوفَ مُتوقَّعٌ في المستقبلِ، ولأنَّ في التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿يَقْتُلُونِ﴾ بيانَ صدورِ القتلِ منهُم بجعلِ الضَّميرِ الرّاجعِ إليهِم فاعلَ الفعلِ، فيكونُ تأكيدًا لموطنِ المَخافةِ، إضافةً لِما في ﴿يَقْتُلُونِ﴾ مِنْ مراعاةِ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخوفُ والخَشْيةُ:

الخوفُ توقُّعُ مكروهٍ، والخَشْيةُ خوفٌ يَشوبُهُ تعظيمٌ

فُرِّقَ بينَ الخوفِ والخَشْيةِ: بأنَّ الخوفَ توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ، ويضادُّ الخوفَ الأَمْنُ، ويُستعمَلُ في الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: 57]، وقالَ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾ [الأنعام: 81]، وقالَ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النّساء: 3]، وقالَ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ

﴿بَيْنِهِمَا﴾ [النّساء: 35][1]، ويُطلَقُ الخوفُ على أثَرِهِ؛ وهو السَّعيُ في مَرْضاةِ المَخوفِ منهُ، وامتثالِ أوامرِهِ؛ كقولِهِ جلَّ وتبارك: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: 175][2].

وأمّا الخَشْيةُ فهي خوفٌ يَشوبُهُ تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ عن علم بما يُخشَى منهُ، ولذلكَ خُصَّ بها العُلَماءُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، وقالَ تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: 80]، وقالَ: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: 33]، وقالَ: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾ [عبس: 8 - 9][3].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (خوف).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 409.

(3) الرّاغب، المفردات: (خشي).

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ [القصص: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

طلبُ المُعين، بعدَ ذكرِ الخوفِ مِنَ القتلِ المهين

بعدَما ذكرَ موسى عليه السلام خوفَهُ مِنْ فرعونَ وقومِهِ أنْ يقتلوهُ، طلبَ مِنْ ربِّهِ ما يزدادُ بهِ قوَّةً[1]، فقالَ: إنّ أخي هارونَ، أفْصَحُ مِنّي لِسانًا، وأوضحُ منّي بيانًا، وأقدَرُ منّي على المحاجة والخطابة، فأرْسِلْهُ مَعِيَ معينًا يدعم دعوتي، ويكون محلّ ثقتي، لأنّ أخشى ما أخشاه، أن يكذّبني فرعون وملؤه، بما جِئْتُهم به من هداية، وما أكرمني اللّه به من اصطفاء وتكليم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفْصَحُ﴾: (فصح) أصلٌ يدلُّ على خُلوصٍ في شيءٍ، ونَقاءٍ مِنَ الشَّوْبِ[2]، وأصلُهُ في اللَّبَنِ، يقالُ: فَصُحَ اللَّبَنُ وأفصحَ، فهو مُفصِحٌ وفصيحٌ، إذا تعرَّى مِنَ الرَّغْوةِ، ومنهُ استُعيرَ: فَصُحَ الرَّجلُ، أي: جادَتْ لُغَتُه، وأفصحَ: تكلَّمَ بالعربيَّةِ[3]، والفصاحةُ في قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾: خُلوصُ الكلامِ وبيانُهُ بحيثُ لا يلتبسُ على سامعِهِ[4]، وعن هذا استُعيرَ: أفصحَ الصُّبحُ، إذا بدا ضوؤُهُ[5]، وكونه طَلَبَ هارونَ مُعينًا، لأنّه أراده أن يتولّى التّعبير عنه، نظرًا لفصاحته[6].

2) ﴿لِسَانًا﴾: (لسن) أصلٌ يدلُّ على طولٍ لطيفٍ غيرِ بائنٍ، في

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 304، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 283.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فصح).
(3) الرّاغب، المفردات: (فصح).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (فصح).
(5) الرّاغب، المفردات: (فصح).
(6) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3168.

عُضْوٍ أو غيرِهِ، ومِنْ ذلكَ: اللِّسانُ[1]، وهو الجارحةُ وقوَّتُها، ويقالُ: لكلِّ قومٍ لِسانٌ ولِسْنٌ بكسرِ اللّامِ، أي: لغةٌ، قالَ ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: 97][2].

3) ﴿رِدۡءٗا﴾: (ردأ) الرِّدْءُ: الَّذي يتبعُ غيرَهُ مُعينًا له، قالَ ﷻ: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾، ويقالُ: أردأَهُ، والرَّديءُ كالرِّدْءِ، لكنْ غلبَ استعمالُهُ في المُتأخِّرِ المذمومِ، يقالُ: ردأ الشَّيءُ رَداءةً، فهو رَديءٌ[3]، وأردأْتُه أيضًا بمعنى: أعنْتُه. تقول: أردأته بنفسي، إذا كنتَ له رِدْءًا، وهو العون[4]، ويقال: رَدَأَ الشّيءَ بالشّيء: جعلَهُ له رِدْءًا. وأرداه: أعانه. وترادَأَ القومُ: تعاونوا. وأردأْتُه بنفسي إذا كنت له رِدْءًا، وهو العَوْن[5]. ومعنى اللّفظ (ردءا)، أي: ناصرًا ومعينًا.

4) ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾: (صدق) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَهُ، ومِنْ ذلكَ الصِّدقُ، وهو خلافُ الكذبِ، سُمّيَ بذلكَ؛ لقوَّتِهِ في نفسِهِ، ولأنَّ الكذبَ لا قوَّةَ لهُ، فهو باطلٌ[6]. ويُستعمَلُ التَّصديقُ في كلِّ ما فيهِ تحقيقٌ، يقالُ: صدَّقني فعلُهُ وكتابُهُ، قالَ ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ [البقرة: 89][7]. والمرادُ بالتَّصديقِ في الآيةِ: أنْ يُلخِّصَ هارونُ كلامَ موسى ﷺ، أو أنْ يقومَ بتأييدِهِ بالدَّليلِ والبرهانِ بحيثُ يُصدِّقُهُ الآخرونَ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

خوفُ موسى ﷺ مِنْ تكذيبِ فرعونَ وقومِهِ لهُ، لسابق قتله نفسًا

ثمَّ قالَ موسى ﷺ: وأخي هارونُ، هو أحسنُ بيانًا عمّا يريدُ أنْ يُبيِّنَهُ - وذلكَ أنَّ موسى ﷺ، كانَ في لسانِهِ لُثْغَةٌ - فأرسِلْهُ معي عَوْنًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لسن).
(2) الرّاغب، المفردات: (لسن).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ردأ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ردأ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ردأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صدق).

يُؤيِّدُني، ويُبيِّنُ لهُم عنّي ما أخاطبُهم بهِ؛ لأنّي أخافُ ألّا يُصدِّقوني على قولي لهُم: إنّي أُرسِلتُ إليكُم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَأَخِي﴾:

الواوُ عاطفةٌ أو حاليَّةٌ، وكلا المعنيين مهمّ في الدّلالة

تحتملُ الواوُ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، أنْ تكونَ للحالِ مِنْ ضميرِ موسى ﵇. وتحتملُ أنْ تكونَ عاطفةً على مَقولِ القولِ، والمعنى: أنَّهُ يخافُ أنْ يفوتَ مقصودُ الرِّسالةِ، إمّا بقتلِهِ، وإمّا لعدمِ بيانِهِ[2].

سرُّ الإضافةِ والتَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَأَخِي﴾:

التَّنبيهُ على شفقةِ أخيهِ عليهِ، مهمّ في البيان

ذكرَ موسى هارونَ ﵇، بوصفِ الأُخوَّةِ، وأضافَهُ إلى نفسِهِ، فقالَ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، ولم يقلْ: (وهارونُ أفصحُ منّي لسانًا)؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُعينَ الَّذي يطلبُهُ ينبغي أنْ يكونَ لهُ على موسى ﵇ شفقةٌ، وكانَ أخوهُ هارونُ أحقَّ النّاسِ بهذا الوصفِ[3]؛ لِما بينَهما مِنْ لُحمةِ النَّسَبِ والقرابةِ.

دلالة إعرابِ لفظِ ﴿هَٰرُونُ﴾:

احتمالُ عطفِ البيانِ والبدلِ، وكلاهما مهمّ في توجيه المعنى

﴿هَٰرُونُ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ إمّا عطفُ البيانِ، أو بدلٌ مِنْ ﴿وَأَخِي﴾ بدلَ الكلِّ[4]. وفي الحالينِ يشتملُ الكلامُ على أسلوبِ البيانِ، بعدَ الإبهامِ الَّذي يُقرِّرُ المعنى المرادَ، ويُبرِزُهُ في ثوبينِ مختلفينِ، وتظفرُ فيهِ النَّفسُ بالفائدةِ بعدَ التَّشوُّقِ لها.

سرُّ تعيينِ موسى أخاهُ هارونَ ﵉:

بيانُ امتيازِ هارون بالعلمِ والبيانِ، وفصاحةِ اللّسانِ

عيَّنَ موسى أخاهُ هارونَ ﵇، في قولِهِ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 577، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 236.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 283.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 283.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 513.

﴿مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾، ولم يسألْ مُؤيِّدًا ما؛ لعلمِهِ بأمانةِ هارونَ، وإخلاصِهِ للّٰهِ ولأخيه، وعلمِهِ بفصاحةِ لسانِه[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ دونَ الفعليَّةِ:

حكمة تقديم ذكرِ هارونَ عليه السلام في السّياق

سيقَ البيانُ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾، ولم يُقلْ: (فأرسِلْ معي أخي هارونَ ردءًا يُصدِّقُني فهو أفصحُ منّي لسانًا)؛ ليُتوصَّلَ بالجملةِ الاسميَّةِ إلى تقديمِ ذكرِ هارونَ عليه السلام؛ اهتمامًا بشأنِه[2]، ولأنَّ التَّعبيرَ بالاسميَّةِ يترتَّبُ عليه التَّمهيدُ والتَّعليلُ للطَّلبِ قبلَ ذكرِه، وذلكَ أنسبُ برجاءِ تحقُّقِ المقصودِ.

دلالة ضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ أَفۡصَحُ﴾:

زيـادةُ تعظيمِ هـارونَ عليه السلام، في سياق الكلام

لمّا كانَ غرضُ موسى عليه السلام تفخيمَ شأنِ أخيهِ هارونَ عليه السلام، وتعظيمَ شأنِ ما آتاهُ اللّٰه تعالى منَ الفصاحةِ، زادَ في تعظيمِهِ بالإتيانِ بضميرِ الفصلِ، فقالَ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾[3]؛ لما يفيدُهُ الضَّميرُ مِنْ تأكيدِ نسبةِ الأفصحيَّةِ لهارونَ عليه السلام.

دلالةُ أفعلِ التَّفضيلِ ﴿أَفۡصَحُ﴾:

الـدَّلالـةُ على أنَّ في موسى فصاحةً، ولكنّ أخاهُ أفصحُ منه

جيءَ بأفعلِ التَّفضيلِ في قولِ الحقِّ جل جلاله: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ في موسى عليه السلام فصاحةً، ولكنَّ فصاحةَ أخيهِ هارونَ عليه السلام أزيَدُ مِنْ فصاحتِه[4]؛ لأنَّهُ كانَ في لسانِهِ حُبْسَةٌ، إمّا في أصلِ الخِلْقةِ، وإمّا لأجلِ أنَّهُ وضعَ الجَمْرَةَ في فيه عندَما نتفَ لِحيةَ فرعونَ[5]. وهذا يُشعِرُ بأنَّ العُقْدَةَ الَّتي في لسانِهِ لم تَزُلْ بالكلِّيَّةِ، بل زالتِ العُقْدَةُ الَّتي تمنعُ الإفهامَ[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 116.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 283.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 283.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 304، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 286.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 596.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 513.

معنى (مِنْ) في قولِهِ: ﴿أَفۡصَحُ مِنِّي﴾:

(مِنْ) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ تفضيليَّةٌ[1]، وهي الَّتي تأتي بعدَ أفعلِ التَّفضيلِ، وتدخلُ على المُفضَّلِ عليهِ.

دلالة إعراب لفظ ﴿لِسَانٗا﴾:

﴿لِسَانٗا﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾، منصوبٌ على التَّمييزِ[2]، مبرزا للوصف بدقّة. أي: هو أفصحُ منّي مِنْ جهةِ اللِّسانِ[3].

علّةُ ذكرِ التَّمييزِ ﴿لِسَانٗا﴾:

جيءَ بالتَّمييزِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ معَ أنَّ الظَّاهرَ أنْ يُكتفى بقولِهِ: (هو أفصحُ منّي)؛ للتَّنصيصِ على محلِّ الأفصحيَّةِ في هارونَ عليه السلام، وهو اللِّسانُ، وللتَّنبيهِ على أنَّ موسى عليه السلام فصيحُ الجَنانِ، ولكنَّ فصاحةَ لسانِهِ أقلُّ مِنْ فصاحةِ لسانِ هارونَ عليه السلام، ولذلكَ أيضًا طلبَ حلَّ العُقْدةِ مِنْ لسانِهِ، فقالَ: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ [طه: 27 - 28].

التَّنصيصُ على محلِّ الأفصحيَّةِ، مفيد في البيان

دلالة الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ﴾:

الفاءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: فأرسِلْهُ معي مُعينًا يُصدِّقُني، بسببِ كونِهِ أفصحَ منّي لسانًا[4]. مبيِّنًا أهمية أن يُستعان بصاحب العبقريّة فيما برع فيه وتميّز.

يستعان بصاحب العبقريّة فيما برع فيه وتميّز

غرضُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ﴾:

الأمرُ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾، ليسَ على ظاهرِهِ، بل هو للدُّعاءِ والتَّضرُّعِ؛ لأنَّهُ مِنَ الأدنى إلى الأعلى. ويدلُّ على ذلكَ أيضًا سياقُ طلبِ موسى عليه السلام الحاجاتِ مِنْ ربِّهِ ﷻ.

الأمرُ للدُّعاءِ، لأنّه طلب من الأدنى إلى الأعلى

(1) اطفيّش، تفسير اطفيّش: 7/ 381.

(2) السّمين، الدّر المصون: 8/ 676.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 284.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 284.

معنى (مَعَ)، في قولِهِ: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ﴾:

(مَعَ) في قولِ اللّهِ تقدَّس ذكرُهُ: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾، للمعيَّةِ والمصاحبةِ، أي: فأرسِلْهُ مُصاحِبًا لي رِدْءًا يُصدِّقُني.

دلالة إعراب لفظ ﴿رِدۡءٗا﴾:

النَّصبُ على الحاليَّةِ، مفصح عن الحالة المرتجاة

﴿رِدۡءٗا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾، منصوبٌ على الحالِ[1].

ومِنْ بلاغةِ هذهِ الحالِ بيانُ اقترانِ إرسالِ موسى عليه السلام، بكونِ هارونَ عليه السلام مُعينًا لهُ، فيكونُ التَّأييدُ الإلهيُّ مُقترنًا بالرِّسالةِ. وفيهِ أيضًا تنبيهٌ على أنَّ موسى عليه السلام أصلٌ في النُّبوَّةِ والتَّشريعِ، وهارونُ تابعٌ لهُ فيهما[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿رِدۡءٗا﴾:

إطلاقُ الرِّدْءِ على المُعينِ مجازٌ أو نقلٌ

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾، أي: مُعينًا، وهو في الأصلِ اسمُ ما يُعانُ بهِ[3]، أُريدَ بهِ هنا المُعينُ مجازًا أو نقلًا، كالدِّفْءِ وهو ما يُتدفَّأُ بهِ مِنَ اللِّباسِ والغِطاءِ[4]. وقيلَ: الرِّدْءُ اسمٌ لِما يُعانُ بهِ، وهو فِعْلٌ بمعنى مفعولٍ، أُطلِقَ على المُعينِ الَّذي يتبعُ غيرَهُ مُعينًا لهُ، تسميةً للفاعلِ باسمِ ما يفعلُ بهِ[5].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في الآية:

ملمح إسناد التَّصديقِ إلى هارونَ عليه السلام

ليسَ الغرضُ بتصديقِ هارونَ عليه السلام، في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ - أنْ يقولَ لموسى عليه السلام: صدقتَ، أو يقولَ للنّاسِ: صدقَ موسى، وإنَّما الغرضُ أنْ يُلخِّصَ بلسانِهِ الحقَّ، ويَبْسُطَ القولَ فيهِ، ويجادلَ بهِ الكفّارَ، فذلكَ جارٍ مَجْرى التَّصديقِ المُفيدِ، كما يُصدَّقُ القولُ بالبرهانِ.

(1) السّمين، الدّر المصُون: 8/ 675.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 513.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 177.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 513.
(5) زاده، حاشية على البيضاوي: 6/ 449.

أو الغرضُ أنْ يصلَ كلامَهُ بالبيانِ؛ حتَّى يُصدِّقَهُ الَّذي يُخافُ تكذيبُهُ، فأُسنِدَ التَّصديقُ إلى هارونَ ﵇ لأنَّهُ السَّببُ فيهِ إسنادًا مجازيًّا(1). والمعنى على الوجهِ الأوَّلِ: يُلخِّصُ كلامي؛ فإنَّ الكلامَ المُلخَّصَ مُؤثِّرٌ، فكأنَّهُ يُصدِّقُهُ فيما ادَّعاهُ.

والمعنى على الثّاني: يُؤيِّدُ كلامي بالبرهانِ والبيانِ، فيُصدِّقُني قومي بسببِهِ. فالمُصدِّقُ على الأوَّلِ هارونُ ﵇، وعلى الثّاني القومُ، والأوَّلُ مِنْ إطلاقِ المُسبَّبِ على السَّببِ، والثّاني مِنَ الإسنادِ المجازيِّ، يعني: أنَّ التَّصديقَ حقيقةٌ في القومِ، وهم الَّذينَ يباشرونَهُ بأنفسِهم، فإسنادُ الفعلِ إليهم حقيقةٌ، وليسَ في هارونَ ﵇ تصديقٌ، ولكنْ لمّا كانَ السَّببَ في التَّصديقِ استُعيرَ الإسنادُ لهُ، ونحوُهُ: بنَى الأميرُ المدينةَ، والأميرُ إنَّما أمرَ بالبناءِ، فأُسنِدَ إلى الحاملِ كما أُسنِدَ إلى المباشرِ(2).

والفرقُ بينَ الوجهينِ: أنَّ التَّجوُّزَ في الوجهِ الأوَّلِ، إنَّما هو في الكلمةِ دونَ الإسنادِ؛ لأنَّ ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ فيهِ بمعنى: يُلخِّصُ كلامي، والمُلخِّصُ حقيقةً هو هارونُ ﵇، والتَّجوُّزُ في الوجهِ الثّاني في الإسنادِ دونَ الكلمةِ؛ لأنَّ التَّصديقَ حقيقةٌ في معناهُ، لكنَّ المُصدِّقَ حقيقةً ليسَ هارونَ ﵇، بل قومُهُ، فالإسنادُ في الأوَّلِ إسنادٌ حقيقيٌّ، والكلمةُ مجازٌ، وهو في الثّاني مجازيٌّ، والكلمةُ حقيقةٌ(3).

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾:

ثـراءُ المعنى باختلافِ القراءاتِ رفعًا وجزمًا

قرأ عاصمٌ وحمزةُ: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ برفعِ القافِ، وقرأ الباقونَ: ﴿يُصَدِّقْنِيٓ﴾ بالجزمِ(4). أمّا الرَّفعُ فعلى أنَّ ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ صفةٌ للرِّدْءِ(5)، وهي صفةٌ مادحةٌ، لا مُخصِّصةٌ ولا مُقيِّدةٌ(6). وقيلَ: يحتملُ أنْ يكونَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 409.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 53.
(3) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 514.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 341.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 578.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 514.

﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ حالًا مِنْ هاءِ ﴿فَأَرۡسِلۡهُ﴾، أو مِنَ الضَّميرِ في ﴿رِدۡءٗا﴾[1].
وقيلَ: يحتملُ أنْ يكونَ استئنافًا[2]، وهو استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّهُ قيلَ: لِمَ تُرسِلَهُ؟ فقيلَ في الجوابِ: يُصدِّقُني، أي: لأجلِ أنْ يُصدِّقَني[3]. وأمّا الجزمُ فعلى أنَّ ﴿يُصَدِّقۡنِيٓ﴾ جوابُ الأمرِ ﴿فَأَرۡسِلۡهُ﴾[4]، والمعنى: إنْ تُرسِلْهُ معي يُصدِّقْني[5].

دلالة التَّصريحِ والتّلويحِ، في وقاية موسى وبلاغه:

الحمايةُ مِنَ القتلِ لا طاقةَ لأحدٍ غيرِ اللهِ بها

خافَ موسى عليه السلام أنْ يَفوتَ مقصودُ الرِّسالةِ، إمّا بقتلِهِ، أو لعدمِ بيانِهِ، فاكتفى بالتَّلويحِ في الكفايةِ مِنَ الأوَّلِ، فقالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾؛ لأنَّهُ لا طاقةَ لأحدٍ غيرِ اللهِ بها، وصرَّحَ بما يكفي مِنَ الثّاني، فقالَ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، فكأنَّ التَّقديرَ: (إنّي أخافُ أنْ يقتلونِ فيفوتَ المقصودُ، ولا يحميني مِنْ ذلكَ إلّا أنتَ، وإنَّ لساني فيهِ عُقدةٌ، وأخي هارونُ هو أفصحُ منّي لسانًا...) إلخ[6].

علَّةُ فصلِ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ عمّا قبلَهُ:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، مفيد في الإبانة عن المعنى

فُصِلَ قولُهُ سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجبِ للفصلِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِنَ الكلامِ السّابقِ[7]، كأنَّهُ قيلَ: لمَ طلبَ التَّأييدَ بهارونَ؟ فقيلَ: قالَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 304، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 8/ 677، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 286.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 304، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 8/ 677، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 286.
(3) الطيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 53.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 578، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 13.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 53.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 283.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 284، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 116.

نكتةُ التَّأكيدِ، في قولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

أُكِّدَ قولُهُ عزَّ شأنُهُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ للاعتناءِ بتحقيقِ مضمونِ الكلامِ.

الاعتناءُ بتحقيقِ مضمونِ الكلامِ، مهمّ في السّياقِ

وقيلَ: أُكِّدَ لأجلِ أنَّ مَنْ كانَ رسولًا عن اللهِ لا يُظَنُّ بهِ أنْ يخافَ، ولأنَّ موسى ﵇، كانَ عالمًا بما عليهِ فرعونُ وقومُهُ، مِنَ القساوةِ والكِبْرِ والعنادِ[1].

نكتةُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليّ:

إفادةُ تقوّي الحكمِ، في خوفِ موسى من تكذيبه

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ، في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ لإفادةِ تقوّي حكمِ الخوفِ مِنَ التَّكذيبِ. وبيانُ ذلكَ: أنَّ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، نسبةَ الخوفِ إلى موسى ﵇، وفي ﴿أَخَافُ﴾ ضميرٌ راجعٌ إليهِ، فيفيدُ إسنادَ الخوفِ إليهِ مرَّةً أخرى، كأنَّهُ قيلَ: إنّي أخافُ أنْ يُكذِّبونِ، إنّي أخافُ أنْ يُكذِّبونِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿أَخَافُ﴾:

التَّنبيهُ على استمرارِ الخوفِ، لوجودِ دواعيهِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ خوفِ موسى ﵇ مِنْ فرعونَ وقومِهِ أنْ يُكذِّبوهُ، وفي تعبيرِهِ بذلكَ بيانٌ لمزيدِ حاجتِهِ إلى المُعينِ، فالخوفُ ملازمٌ لهُ لا يفارقُهُ، وفي ذلكَ حرصٌ منهُ ﵇، على اتِّخاذِ ما يُحقِّقُ نجاحَ رسالتِهِ.

سرُّ إيثارِ المصدرِ المُؤوَّلِ ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾:

بيانُ الدَّلالةِ على الاستقبالِ ومراعاةِ الفاصلةِ

سيقَ المصدرِ المُؤَوَّلِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (إنّي أخافُ تكذيبَهم)؛ لأنَّ دخولَ ﴿أَن﴾ على المضارعِ يُعيِّنُهُ للاستقبالِ، فيُفيدُ أنَّ التَّكذيبَ المَخوفَ مُتوقَّعٌ في المستقبلِ.

يضافُ إلى ذلكَ ما في التَّعبيرِ بـ ﴿يُكَذِّبُونِ﴾، مِنْ مراعاةِ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 284.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ و﴿يُكَذِّبُونِ﴾:

مقال موسى بين تصديق أخيه، وتكذيب قومه

في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ طباقٌ بديعٌ، وذلكَ بالجمعِ بينَ ﴿يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ و﴿يُكَذِّبُونِ﴾، وهو طباقُ إيجابٍ؛ بيَّن مقال موسى عليه السلام بين تصديق أخيه، وتكذيب قومه.

سرُّ التَّعليلِ بـ (إنَّ) هنا، وبالفاءِ في الآيةِ السّابقةِ:

إيثارُ موسى عليه السلام الدّينَ على حظِّ نفسِهِ

لمّا كانَ جُلُّ غرضِ موسى عليه السلام الدّينَ، وكانَ يُؤْثِرُهُ على حظِّ نفسِهِ - جاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ بـ (إنَّ) في هذا التَّعليلِ، وجاءَ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾؛ لأَنَّ التَّعليلَ في هذهِ الآيةِ تعليلٌ لتصديقِ القوم، كأنَّهُ قيلَ: (أرسِلْهُ معيَ رِدْءًا لأَنْ يُصدِّقَني قومي؛ لأنّي أخافُ أنْ يُكذِّبونِ)[1].

---

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 53.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾ [القصص: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكرُ الاستجابةِ وتأكيد النّصرة، بعدَ ذكرِ الطَّلبِ وتمحيض الدّعاء لله

بعدَما ذكرَ المَولَى ﷻ طلبَ موسى عليه السلام، ذكرَ الاستجابةَ لهُ، فقالَ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ الآيةَ[1]، ومفادها استجابة اللّه له، وقوله: "سنقوّيك بهارون، ونجعل لكما سلطانًا وتأييدًا بالمعجزات فلا يستطيعون الاعتداء عليكما، وأنّكما ومن اتّبعكما واهتدى بكما، الغالبون المنتصرون على هؤلاء الكافرين"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَنَشُدُّ﴾: (شدد) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[3]، فالشِّدَّةُ: الصَّلابةُ، والشِّدَّةُ: النَّجدةُ، وثباتُ القلبِ، والشِّدَّةُ: المجاعةُ، ويقالُ: رجلٌ شديدٌ، أي: شجاعٌ[4]، والشَّدُّ: العَقْدُ القويُّ، يقالُ: شَدَدْتُ الشَّيءَ، أي: قوَّيتُ عَقْدَهُ[5]، ويقالُ: شدَّ اللّهُ مُلْكَهُ، وشدَّدَهُ، أي: قوّاهُ[6]. والمرادُ بالشَّدِّ في الآيةِ: التَّقويةُ.

2) ﴿عَضُدَكَ﴾: (عضد) أصلٌ يدلُّ على عُضْوٍ مِنَ الأعضاءِ[7]، وهو ما بينَ المِرْفَقِ إلى الكَتِفِ، ويقالُ: عَضَدْتُهُ، أي: أصبتُ عَضُدَهُ، وعنهُ استُعيرَ: عَضَدْتُ الشَّجَرَ بالمِعْضَدِ، ويقالُ: عَضَدْتُهُ، أي: أخذتُ عَضُدَهُ وقوَّيتُهُ. ويُستعارُ العَضُدُ للمُعينِ كاليدِ، قالَ ﷻ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 304، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 285.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 580.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شدد).
(4) الخليل، العين: (شدد).
(5) الراغب، المفردات: (شدد).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (شدد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عضد).

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف: 51][1]، ومعنى العَضُدِ في الآيةِ: ما بينَ المِرْفَقِ إلى الكَتِفِ.

3) ﴿سُلْطَٰنًا﴾: (سلط) أصلٌ يدلُّ على القوَّةِ والقَهْرِ[2]، فالسَّلاطةُ: التَّمكُّنُ مِنَ القَهْرِ، ويقالُ: سلَّطتُه فتسلَّطَ، قالَ ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾ [النّساء: 90]، ومنهُ سُمّيَ السُّلطانُ، وسُمّيتِ الحُجَّةُ سلطانًا[3]، قال أبو بكر ابنُ الأنْباريّ: في السّلطان قولان: **أحدهما:** أن يكون سُمّي: سلطانًا، لتسَلُّطِه. **والقول الآخر:** أن يكون سمّي: سلطانًا، لأنّه حُجَّةٌ من حجج اللّه على خلقه، قالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ [غافر: 35][4]. والمرادُ بالسُّلطانِ في الآيةِ: الحُجَّةُ أو الغلَبَةُ.

4) ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾: (وصل) أصلٌ يدلُّ على ضمِّ شيءٍ إلى شيءٍ[5]، فالاتِّصالُ: اتِّحادُ الأشياءِ بعضِها ببعضٍ، كاتِّحادِ طرفَي الدّائرةِ، ويُستعمَلُ الوَصْلُ في الأعيانِ، وفي المعاني، يقالُ: وصلتُ فلانًا، وقالَ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: 27]، ويقالُ: فلانٌ مُتَّصِلٌ بفلانٍ، إذا كانَ بينَهما نَسَبٌ أو مصاهرةٌ[6]. والمرادُ بعدمِ الوصولِ في الآيةِ: عدمُ الإيذاءِ بسوءٍ كالقتلِ ونحوِهِ.

5) ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾: (غلب) أصلٌ يدلُّ على قوّةٍ وقهْرٍ وشدَّةٍ[7]، ومِنْ ذلكَ: الغلَبَةُ، أي: القَهْرُ، يقالُ: غلبتُهُ غَلْبًا وغلبَةً وغَلَبًا، فأنا غالبٌ، وغلبَ عليهِ كذا، أي: استولَى، قالَ تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: 106][8]، واستغلبَ عليهِ الضَّحكُ: اشتدَّ، وغلبَهُ على نفسِهِ، إذا أكرهَهُ[9].

(1) الرّاغب، المفردات: (عضد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(3) الخليل، العين: (سلط).
(4) أبو بكر ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس: 2/ 25، والراغب، المفردات: (سلط).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصل).
(6) الرّاغب، المفردات: (وصل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غلب).
(8) الرّاغب، المفردات: (غلب).
(9) الزّبيدي، تاج العروس: (غلب).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الغلَبةُ لموسى وهارون عليهما السلام وأتباعِهما، بنصر الله وسلطانه

قالَ اللّهُ تعالى لموسى عليه السلام: سنُقوّيك ونُعينُكَ بأخيكَ هارونَ الَّذي سألتَ لهُ أنْ يكونَ نبيًّا معكَ، ونجعلُ لكما غلَبةً وحُجَّةً، فلا يصلُ إليكما فرعونُ وقومُه بسوءٍ، أنتما ومنِ اتَّبعَكما الغالبونَ الظّاهرونَ على فرعونَ وقومِه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، مفيد في بيان السّياق

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ[2] بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ نشأ مِنَ الكلامِ السّابقِ، كأنَّهُ لمّا طلبَ موسى عليه السلام مِنْ ربِّه عز وجل أنْ يُؤيِّدَهُ بهارونَ عليه السلام - سألَ سائلٌ: بمَ أجابَهُ اللّهُ تعالى؟ فقيلَ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ الآيةَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿قَالَ﴾:

الدّلالةُ على تحقُّقِ القولِ ووقوعِهِ في القصّة

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ القولِ ووقوعِهِ، وأنَّهُ أمرٌ قد ثبتَ ومضَى، كما هو شأنُ الأفعالِ الّتي تُحكَى بها القصصُ والأحداثُ السّالفةُ.

معنى السّينِ في قولِهِ: ﴿سَنَشُدُّ﴾:

الظّاهرُ أنَّ السّينَ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ للتَّأكيدِ، مثلُ السّينِ في قولِكَ: سنكتبُ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿سَنَشُدُّ﴾:

الدّلالةُ على الاستقبالِ، إيحاءٌ بحسن المآل

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ للدّلالةِ على إنفاذِ هذا الأمرِ في المستقبلِ، وذلكَ لا يعني

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 578، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 236.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 285، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 515.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 515.

أنَّ استجابةَ الدُّعاءِ لم تتمَّ، بل المرادُ أنَّ ظُهورَ أثرِ الاستجابةِ، سيكونُ في المستقبلِ، كما هو شأنُ الملوكِ إذا وعدوا بشيءٍ عزموا عليهِ، أنْ يقولوا للموعودِ: سنفعلُ لكَ كذا وكذا.

سرُّ إسنادِ ﴿سَنَشُدُّ﴾ إلى نونِ العظَمةِ:

تفخيمُ شأنِ شدِّ عَضُدِهِ بأخيهِ عليهما السلام

أُسنِدَ فعلُ ﴿سَنَشُدُّ﴾، إلى نونِ العظَمةِ، في قولِ اللّهِ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ شدِّ عَضُدِ موسى بأخيهِ هارونَ وتفخيمِهِ؛ لأنَّ فعلَ العظيمِ عظيمٌ. وفي ذلكَ التَّعظيمِ مناسبةٌ لمقامِ استجابةِ الدُّعاءِ، وتقويةِ عزمِ موسى عليه السلام، بإعلامِهِ أنَّ مَنْ سيتولَّى تأييدَهُ بأخيهِ هو القويُّ العزيزُ جلَّ ثناؤُهُ.

ذكرُ العَضُدِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ: ﴿عَضُدَكَ﴾:

ذُكِرَ العَضُدُ دونَ غيرِهِ في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ لأنَّها قِوامُ اليدِ، وبشدَّتِها تشتدُّ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾:

احتمالُ التَّركيبِ للمجازِ والاستعارةِ والكنايةِ

يقالُ في دعاءِ الخيرِ: شدَّ اللّهُ عَضُدَكَ، ومعنى ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾: سنُقوّيكَ بهِ ونُعينُكَ، فإمّا أنْ يكونَ ذلكَ لأنَّ اليدَ تشتدُّ بشدَّةِ العَضُدِ، وجملةُ البدنِ تَقْوَى بشدَّةِ اليدِ على مزاولةِ الأمورِ[2]، فيكونُ مجازًا مُرسَلًا مِنْ بابِ إطلاقِ السَّببِ على المُسبَّبِ بمرتبتينِ؛ فإنَّ الأصلَ: سنُقوّيكَ بهِ، ثمَّ نُقوّي يدَكَ بهِ، ثمَّ سنشدُّ عَضُدَكَ بهِ[3]. وإمّا لأنَّ الرَّجلَ شُبِّهَ باليدِ في اشتدادِها باشتدادِ العَضُدِ، فجُعِلَ كأنَّهُ يدٌ مشتدَّةٌ بعَضُدٍ شديدةٍ[4]، فيكونُ استعارةً تمثيليَّةً؛ شُبِّهَ حالُ موسى بالتَّقوّي بأخيهِ بحالِ اليدِ المُتقوّيةِ بالعَضُدِ؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 410.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 410.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 55، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 73.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 410.

فجُعِلَ كأنَّه يدٌ مشتدَّةٌ بعَضُدٍ شديدةٍ[1]. وقيلَ: شدَّةُ العَضُدِ تستلزمُ تقويتَهُ، فيرادُ بهِ كنايةً؛ إذ اليدُ تشتدُّ بشدَّةِ العَضُدِ، ومجموعُ البدنِ يشتدُّ بشدَّةِ اليدِ؛ لأنَّ عامَّةَ صنائعِهِ بها، ومنها أكثرُ منافعِهِ[2]. وقيلَ: الشَّدُّ: الرَّبطُ، وشأنُ العاملِ بعُضْوٍ إذا أرادَ أنْ يعملَ بهِ عملًا مُتعبًا للعُضْوِ أنْ يربطَ عليهِ؛ لئلّا يتفكَّكَ أو يعتريَهُ كَسْرٌ، وقد جُعِلَ الأخُ هنا بمنزلةِ الرِّباطِ الَّذي يُشَدُّ بهِ، والمرادُ: أنَّهُ يُؤيِّدُهُ بفصاحتِهِ، فتعليقُهُ بالشَّدِّ مُلحَقٌ ببابِ المجازِ العقليِّ. وهذا كلُّهُ تمثيلٌ لحالِ إيضاحِ حُجَّتِهِ، بحالِ تقويةِ مَنْ يريدُ عملًا عظيمًا، أنْ يشدَّ على يدِهِ، وهو التَّأييدُ الَّذي شاعَ في معنى الإعانةِ والإمدادِ، وإلّا فالتَّأييدُ أيضًا مُشتقٌّ مِنَ اليدِ، فأصلُ معنى (أيَّدَ): جعلَ يدًا، فهو استعارةٌ لإيجادِ الإعانةِ[3].

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِأَخِيكَ﴾:

الاستعانة بالأخ النّصوح الكفء، قوّة وتمكين

الباءُ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ للاستعانة، أي سنقويكَ به، والمرء ضعيف بنفسه، قويّ بأخيه، وقوَّة الشَّخصِ بشدّة اليدِ، وقدرتها الإيجابيّة على مُزاولةِ الأمورِ، ولذلكَ يعبّرُ عنه باليدِ، ومعلوم أنّ شدَّتِها بشدَّة العضدِ[4].

سرُّ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿بِأَخِيكَ﴾:

التَّنبيهُ على تحقيقِ رجاءِ موسى عليه السلام

أُضيفَ الأخُ إلى كافِ الخطابِ، الرّاجعِ إلى موسى عليه السلام، في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ لأنَّ كونَهُ أخاهُ أقوى في المناصحةِ والتَّأييدِ والتَّقويةِ، وللتَّنبيهِ على تحقيقِ رجاءِ موسى عليه السلام، الَّذي سبقَ في قولِهِ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾؛ فهو قد مهَّدَ لطلبِ العَوْنِ بأخيهِ بقولِهِ: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 55، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 73.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 515.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 117.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 515.

﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، وأوتيَ سُؤْلَهُ، بقولِهِ تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، فاتَّفقتِ العبارتانِ في الوصفِ بالأُخوَّةِ.

معنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَنَجْعَلُ﴾:

للعطف أثر في وصل الجمل وتنسيقها

الواوُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ عاطفةٌ للفعلِ على ﴿سَنَشُدُّ﴾، فتُفيدُ أنَّ اللّهَ سبحانَهُ قد استجابَ رجاءَ موسى عليه السلام، وشدَّ عَضُدَهُ بأخيهِ، وزادَهُ على ما رجاهُ البِشارةَ والتَّطمينَ بقولِهِ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾[1]، فهما لن يذهبا مُجرَّدينِ إلى فرعونَ الجبّارِ، إنَّما يذهبانِ إليهِ مُزوَّدينِ بسلطانٍ لا يقفُ لهُ في الأرضِ سلطانٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَنَجْعَلُ﴾:

الدّلالةُ على الاستقبالِ، مفيدة في بيان المعنى المراد

وردَ البيانُ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾؛ للدَّلالةِ على إنفاذِ هذا الأمرِ في المستقبلِ عندَما يصلُ موسى وهارونُ عليهما السلام إلى فرعونَ وقومِهِ.

سرُّ إسنادِ ﴿وَنَجْعَلُ﴾ إلى نونِ العظَمةِ:

تفخيمُ شأنِ جعلِ السُّلطانِ لهما، نصرًا وتأييدًا

أُسنِدَ فعلُ ﴿وَنَجْعَلُ﴾ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ اللّهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾؛ لتعظيمِ شأنِ جعلِ السُّلطانِ لموسى وهارونَ عليهما السلام وتفخيمِهِ؛ لأنَّ فعلَ العظيمِ عظيمٌ. وفي هذا التَّعظيمِ مناسبةٌ لمقامِ استجابةِ الدُّعاءِ وتقويةِ عزمِ المُرسَلِينَ، بالإخبارِ بأنَّ مَنْ سيتولَّى تأييدَهما بالسُّلطانِ هو اللّهُ ربُّ العالمينَ.

معنى اللّامِ في شبه الجملة ﴿لَكُمَا﴾:

ما خصّ به موسى وهارون، كمال عناية لديه، وفيض كرامة عليه

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ للتَّمليكِ والاختصاصِ، وفيها إشارةٌ إلى كمالِ عنايةِ اللّهِ سبحانه وتعالى بموسى وهارونَ عليهما السلام، وكمالِ كرامتِهما عليهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 117.

غرضُ تقديم ﴿لَكُمَا﴾ على ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾:

العنايةُ بالمُقدَّم والتَّشويقُ إلى المُؤخَّرِ، كلاهما مفصح عن المراد

قُدِّمَ ﴿لَكُمَا﴾ على ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّم، وهو كونُ الجعلِ الَّذي تولّاهُ اللّهُ تعالى لهما، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو كونُ المجعولِ لهما سلطانًا.

غرضُ تنكيرِ لفظ: ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾:

تنكيرُ ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ للتَّعظيم، أي: سلطانًا عظيمَ الشَّأنِ، أي: مَهابةً في قلوبِ الأعداءِ ورُعْبًا منكما[1].

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾:

الفاءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ للتَّفريعِ، فُرِّعَ على قولِهِ: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ قولُهُ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾، أي: لا يؤذونَكما بسوءٍ، وهو القتلُ ونحوُهُ[2].

بلاغةُ المجازِ في قولِهِ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾:

الوصولُ مُستعمَلٌ مجازًا في الإصابةِ بسوءٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ معناهُ: فلا يُؤذونَكما بسوءٍ، وهو القتلُ ونحوُهُ، فالوصولُ مُستعمَلٌ مجازًا في الإصابةِ، والمرادُ: الإصابةُ بسوءٍ، بقرينةِ المقامِ[3].

نكتةُ المضارعِ المنفيِّ ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾:

الدَّلالةُ على استمرارِ انتفاءِ الوصولِ، من بليغ التّعبير عن المطلوب

وردَ البيانُ القرآنيّ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ، في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ الوصولِ إليهما؛ لأنَّ المضارعَ يفيدُ الاستمرارَ، وإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ. وفي التَّعبيرِ بذلكَ مناسبةٌ لمقامِ بثِّ الطُّمأنينةِ، في نفسِ موسى ﷺ؛ لأنَّ الكلامَ يفيدُ أنَّهُ لن يلحقَهما على الاستمرارِ ضَرَرٌ مِنْ قِبَلِ فرعونَ وقومِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 117.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 286، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 117.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 117.

معنى (إلى) في قولِهِ: ﴿إِلَيۡكُمَا﴾:

سوق ما يدلّ على انتهاء الغايةِ ملمح للتّعبير عن بعد الأذى واستحالته

(إلى) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ لانتهاءِ الغايةِ، فتفيدُ أنَّ الأذى المُعبَّرَ عنهُ بالوصولِ لا يجدُ طريقًا إلى موسى وهارونَ عليهما السلام، بسببِ ما جعلَهُ اللهُ لهما مِنَ السُّلطانِ والمَنَعةِ.

دلالة إعراب قولِهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾:

احتمالُ الجارِّ والمجرورِ أوجهًا، يوسّع المعاني في السّياق

إنّ جملة ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: اذهبا بآياتنا. أو بـ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾، أي: نُسلِّطكما بآياتنا. أو بـ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾، أي: (تمتنعونَ منهُم بآياتنا)، والباءُ للسَّببيَّةِ[1].

أو هو بيانٌ لـ ﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ لا صلةٌ؛ لامتناعِ تقدُّمِ الصِّلةِ على الموصولِ، كأنَّهُ قيلَ: (بِمَ نغلبُ؟) وأُجيبَ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾[2]، وتقديمُ المجرورِ على مُتعلَّقِهِ في هذا الوجهِ للاهتمامِ بعظَمةِ الآياتِ الَّتي سيُعطَيانِها[3]، ويجوزُ أنْ يكونَ قَسَمًا جوابُهُ قولُهُ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾، مُقدَّمًا عليهِ، والباءُ في ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ للقَسَمِ[4]. أو هو مِنْ لَغْوِ القَسَمِ[5]، وجوابُهُ محذوفٌ، أي: (وحقِّ آياتنا لَتَغْلِبُنَّ)[6].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجمعِ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾:

الإشارةُ إلى تعدُّدِ الآياتِ وتنوُّعِها

ورد البيانُ القرآنيّ بصيغةِ الجمعِ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى تعدُّدِ الآياتِ وتنوُّعِها، فهي تشملُ خوارقَ العاداتِ المُشاهَدة، كالآياتِ التِّسعِ، وتشملُ المعجزاتِ الخفيَّةَ، كصرفِ قومِ فرعونَ عنِ الإقدامِ على أذاهما مَعَ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 288.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 56.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 117.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 516.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 410.

(6) السّمين، الدّر المصون: 8/ 678، وينظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 410.

ما لديهم مِنَ القوّةِ وما هُم عليهِ مِنَ العداوةِ، بحيثُ لولا الصَّرْفةُ مِنَ اللهِ لأهلكوا موسى وأخاهُ عليهما السلام[1].

سرُّ إضافةِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تعظيمُ الآياتِ المنزلة، محض تعظيم لمن له الشّفاعة والمنزلة

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الضَّميرِ الدّالِّ على التَّعظيمِ في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الآياتِ وتفخيمِه؛ فآياتُ العظيمِ المنسوبةُ إليهِ عظيمةٌ[2]. وفي هذهِ الإضافةِ أيضًا مزيدُ تطمينٍ لموسى عليه السلام، ببيانِ أنَّ معَهُ آياتٍ مصدرُها إلهيٌّ.

غرضُ الإخبارِ بقولِهِ: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾:

في الإخبارِ بقولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ تبشيرٌ لموسى وهارونَ عليهما السلام، وتقويةٌ لقُلوبِهما[3].

دلالةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾:

في عطفِ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ على ﴿أَنتُمَا﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهُ سيكونُ لموسى وهارونَ عليهما السلام أتباعٌ يظفرونَ معَهما بالغلَبةِ.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ ﴿وَمَنِ﴾:

الإيماءُ إلى علَّةِ غلَبةِ الأتباعِ

عُبِّرَ باسمِ الموصولِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (وأتباعُكما)؛ للإشارةِ إلى علَّةِ انخراطِ الأتباعِ، في سِلْكِ الغلَبةِ، وهو اتِّباعُهما لموسى وهارونَ عليهما السلام، كأنَّهُ قيلَ: هم معَكم غالبونَ؛ لأنَّهم اتَّبعوكم.

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي ﴿ٱتَّبَعَكُمَا﴾:

الدَّلالةُ على تيقُّنِ تحقُّقِ الاتِّباعِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (أنتما ومنِ يتبعُكما الغالبونَ)؛ لأنَّ الاتِّباعَ أمرٌ يحصلُ في المستقبلِ بعدَ ذهابِ موسى وهارونَ عليهما السلام، إلى فرعونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 117.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 286.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 200.

وقومِهِ، لكنْ جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى تيقُّنِ تحقُّقِ الاتِّباعِ، ولذلكَ أخبرَ عنهُ الخطابُ القرآنيّ كما يُخبِرُ عن الأمورِ الماضيةِ الواقعةِ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ تثبيتِ فؤادِ موسى عليه السلام.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في قولِهِ: ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾:

الإشارةُ إلى رُسوخِهِم في الغلَبةِ، تأكيد لوعدِ اللهِ في النّصر والتّمكين

عبَّرَ الخطاب القرآنيّ بصيغةِ اسم الفاعلِ في قولِ الحقِّ جل جلاله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ - لكونها تفيدُ الثَّباتَ والاستقرارَ - مِنْ رُسوخِهم في الغلَبةِ، وعَراقتِهم فيها، وأنَّها صارَتْ وصفًا مُلازِمًا لهُم، لا ينفكّونَ عنهُ، ولا ينتقلونَ منهُ إلى غيرِهِ، كما هو شأنُ الصِّفاتِ الجِبِلّيَّةِ.

دلالةُ (أل) في قولِهِ: ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾:

التَّعريفُ للجنسِ تنبيهًا على كمالِهِم في الصِّفةِ

تعريفُ ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ للجنسِ، وتعريفُهُ للدَّلالةِ على كمالِهِم في صفةِ الغلَبةِ، وأنَّهم صاروا علَمًا فيها، وكأنَّ حقيقتَها انحصرَتْ فيهِم، والمعنى: إنْ كنتَ سمعتَ بصفةِ الغالبينَ، وتريدُ أنْ تعرفَ مَنْ هُم، وكيفَ يكونونَ، فهُم هؤلاءِ.

بلاغةُ الحصرِ في قولِهِ: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾:

الغالبونَ موسى وهارونُ وأتباعُهما لا غيرُهم

جاء الخطابُ القرآنيّ بطرفَي الإسنادِ ﴿أَنتُمَا﴾ و﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الغلَبةَ لموسى وهارونَ وأتباعِهما لا لفرعونَ وقومِهِ، والمعنى: أنتما ومنِ اتَّبعَكما مِنْ قومِكما وغيرِهم الغالبونَ لا غيرُكم[1].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 286، واطفّيش، تفسير اطفيّش: 7/ 382.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦﴾ [القصص: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين شدِّ أزرِ موسى بهارون، واتِّهامه بالسِّحر ومخالفةِ الآباء الأوَّلين

بعدَما أخبرَ ﷻ عمّا جَرَى مِنْ تكليمِ اللّٰهِ تعالى لموسى عليه السلام وشدِّ أزره بأخيه؛ أخبرَ سبحانه تعالى عمّا جَرَى بعدَ مجيءِ موسى وهارونَ عليهما السلام إلى فرعونَ وقومِهِ بآياتِ اللّٰه البيِّنات، فقوبِلَ بالإنكار والتَّكذيب، وزعمَ الكفرة الجاحدون أنَّ ما جاءا به سِحرٌ مفترًى، وأنَّه بدع من القول لم يعهدوه في آبائهم الأوَّلين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾: (بين) أصلٌ يدلُّ على بُعْدِ الشَّيءِ وانكشافِهِ، فبانَ الشَّيءُ، وأبانَ؛ إذا اتَّضحَ، وانكشفَ؛ والبيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ، عقليَّةً كانَتْ أم محسوسةً، والبيانُ: الكَشْفُ عنِ الشَّيءِ، وسُمّيَ ما يُشْرَحُ بِهِ المُجْمَلُ والمُبْهَمُ مِنَ الكلامِ بيانًا، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة: 19]، وتقولُ: بيَّنتُهُ، وأبَنْتُهُ؛ إذا جعلتَ لهُ بيانًا، نحو قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النّحل: 44][1]، فالبيِّنات في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾: هي التي تثبت صِدْقَ دعوى النُّبوَّة بأمور ظاهرة واضحة للجميع، والمرادُ بالآياتِ البيِّناتِ: خوارقُ العاداتِ الَّتي أظهرَها موسى عليه السلام، أي: جاءَهم بها آيةً بعدَ آيةٍ في مواقعَ مختلفةٍ[2].

2) ﴿سِحۡرٞ﴾: (سحر) أصلٌ يدلُّ على خِداعٍ وشِبْهِهِ[3]، ويأتي

(1) الرّاغب، المفردات: (بين).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).

السِّحْرُ على معانٍ: الأوَّلُ الخِداعُ وتخييلاتٌ لا حقيقةَ لها، نحو ما يفعلُهُ المُشعبِذُ بصرفِ الأبصارِ عمّا يفعلُهُ لخفَّةِ يدٍ، وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ [الأعراف: 116][1]، والثّاني: استجلابُ معاونةِ الشَّيطانِ بأعمالٍ يفعلونَها يتقرَّبونَ بها إليهِ[2]، كقولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢﴾ [الشّعراء: 221 - 222]، والثّالثُ: اسمٌ لفعلٍ يزعمونَ أنَّهُ مِنْ قوَّتِهِ يُغيِّرُ الصّوَرَ والطَّبائعَ، فيجعلُ الإنسانَ حمارًا، ولا حقيقةَ لذلكَ عندَ المُحقِّقينَ، والسِّحر الذي نُسِبَ زورًا إلى موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ من النَّوعِ الأوَّلِ[3].

3) ﴿مُّفۡتَرٗى﴾: (فري) أصلٌ يدلُّ على قطعِ الشَّيءِ[4]، فالفَرْيُ: قطعُ الجِلْدِ للخَرْزِ والإصلاحِ[5]، والافتراءُ: افتعالٌ مِنَ الفَرْيِ أو الإفراءِ، وهو أقبحُ الكذبِ، أو الكذبُ معَ التَّعمُّدِ[6]، يقالُ: فَرَى فلانٌ كذبًا؛ إذا خلقَهُ، وافتراهُ: اختلقَهُ[7]، وكلُّ ما في القرآن من لفظ الافتراء، فهو بمعنى اختلاق ما لا حقيقة له، قال تعالى على لسان قوم مريم: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]، فُسِّرَ الفَريُّ بالشَّيء العظيم المفترى، وبالمختلق المفتعل[8]، ووقعَ لفظ الافتراء في القرآن، والمرادُ بِهِ الشِّركُ والظُّلمُ بحسَبِ السّياقِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النّساء: 48][9]، والمُفترَى: المكذوبُ[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أبانت هذه الآية الكريمةُ أنَّه لمّا جاءَ موسى عليه السلام بالآيات البيِّنات والحجج الواضحات من ربِّه تعالى؛ تلقّاه فرعونُ وملَؤُه بالتَّكذيب والإنكار، زاعمين أنَّ ما جاء به إنَّما هو سحرٌ مفترًى مَدْسوسٌ، شأنُه شأنُ السِّحر الَّذي نبغ فيه السَّحرة الَّذين كانوا يؤيِّدون

(1) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(2) الخليل، العين: (سحر).
(3) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فري).
(5) الرّاغب، المفردات: (فري).
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (فري).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (فري).
(8) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرى).
(9) الرّاغب، المفردات: (فري).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.

تكذيبُ فرعونَ وقومِهِ بالحقِّ المرسل، وزعمُهم أنَّ البيِّناتِ سحر مفترًى

فرعونَ، وينتصرون له بما يخدعون النّاس به من تخييل وتزييف، معلِّلين إنكارَهم ذلك بأنَّ ما جاء به موسى ﵇ من آيات لم يكن آباؤهم الأوّلون يسمعون به، أو يعرفونه في غابر زمانِهم، ولذلك كان باطلًا بزعمهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في ﴿فَلَمَّا﴾:

مجيءُ موسى ﵇ بالآيات هداية وبلاغ

الفاءُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ فصيحةٌ، وهي تُفصِحُ عن جملةٍ محذوفةٍ، والتَّقديرُ: (فأتاهم موسى ﵇، كما أمرَ اللّهُ، وعاضدَهُ أخوهُ، كما أخبرَ اللّهُ، ودعَواهم إلى اللّهِ تعالى، وأظهرا ما أُمِرا بِهِ مِنَ الآياتِ، فلمّا جاءَهم موسى بآياتنا بينات؛ قالوا: ما هذا إلّا سحرٌ مفترًى)[2].

بلاغةُ الإيجازِ في الآيةِ الكريمة:

طيُّ كثيرٍ من الأحداث بينَ النِّداءِ والمجيءِ مفيدٌ في الإبانة عن المراد

طويَ ما بينَ نداءِ اللّهِ موسى ﵇ وبينَ حُضورِهِ عندَ فرعونَ المحكيِّ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ كثيرٌ مِنَ الأحداثِ، لعدمِ تعلُّقِ العِبرَةِ بِهِ[3]، وتدلُّ الفاءُ الفصيحةُ في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾ على هذا الحذفِ، ولا ريبَ أنَّ الأحداث المطويَّة بالإيجاز سوف تفتح أُفُقًا لاستكمال المشهد، وربطِ أجزائه المذكورة بأجزائه المستورة، وفي هذا قدحٌ للذِّهن، وإشراك للمتلقّي بنسج الفراغات المحذوفة حتّى تكتمل القصَّة، وتتَّضح الصّورة النِّهائيَّة للمشهد الكلّي.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿جَآءَهُم﴾:

مجيءُ موسى ﵇ بالآياتِ البيِّناتِ أمرٌ مُحقَّقٌ بلا افتئات

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في فعل المجيء من قولِهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم

(1) عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 346.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 292.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 118.

﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ مجيءِ موسى عليه السلام بالآياتِ ووقوعِه، وأنَّهُ أمرٌ قد مضَى، وانقضَى، فيُخبَرُ عنهُ بالماضي كما هو شأنُ الإخبارِ بالأحداثِ والقصصِ.

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿جَآءَهُم﴾:

فرعونُ وآلُهُ هم المقصودونَ بالآياتِ البيِّناتِ

ضميرُ المفعول لفعل المجيء من قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ راجعٌ لفرعونَ وقومِهِ، والمعنى: فلمّا جاءَ موسى عليه السلام فرعونَ وملأَهُ بآياتِنا بيِّناتٍ[1]؛ جحدوا بها، وكذَّبوه.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ المجيءِ دونَ الإتيانِ:

دلالةُ المجيءِ على حصولِ الفعلِ

عُبِّرَ بالمجيءِ دونَ الإتيانِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ، وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، وأمّا المجيءُ؛ فيقالُ اعتبارًا بالحصولِ[2]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المجيءِ، أقوى مِنْ دلالةِ (أتى)[3]، ويكونُ الإتيانُ أعمَّ مِنَ المجيءِ مِنْ هذهِ النّاحيةِ.

سرُّ تخصيصِ موسى بالذِّكرِ:

موسى عليه السلام هو الأصلُ في النُّبوَّةِ، وهارون معينٌ له

تخصيصُ موسى عليه السلام بالذِّكرِ، وإسنادُ المجيءِ بالآياتِ إليهِ وحدَهُ دونَ هارونَ عليه السلام، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾؛ لأنَّ موسى عليه السلام أصلٌ في التَّشريعِ، وهارونَ عليه السلام تابعٌ ومُؤَيِّدٌ لهُ[4]؛ ولأنَّ ظهورَ الآياتِ إنَّما هو في يدِ موسى عليه السلام[5].

معنى الباءِ في شبه الجملة ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

مجيءُ موسى عليه السلام كان بصحبة الآياتِ البيِّناتِ، مُتلبِّسًا بها

الباءُ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾؛ للمصاحبةِ لا للتَّعديةِ؛ إذ المرادُ مجيءُ موسى عليه السلام إلى فرعونَ وقومِهِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 292.
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 50.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 292، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 517.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 517، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 118.

مُتلبّسًا بالآياتِ، مُتمسِّكًا بها في إجراءِ أحكامِ الرِّسالةِ، وإكمالِ أمرِ الدَّعوةِ، لا مُجرَّدُ إيصالِها إليهم[1].

نكتةُ جمعِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

بيانُ أنَّ آياتِ موسى عليه السلام عديدةٌ ومُتنوِّعةٌ

جيءَ بصيغةِ جمعِ الآياتِ في قولِهِ تبارك شأنُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ للإشارةِ إلى تعدُّدِ الآياتِ وتنوُّعِها؛ إذ المرادُ بها: خوارقُ العاداتِ الَّتي أظهرَها موسى عليه السلام، أي: جاءَهم بها آيةً بعدَ آيةٍ في مواقعَ مختلفةٍ[2]، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بها الآياتِ التِّسعَ[3]، التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾ [الإسراء: 101]، وهي: العصا، واليد، والسِّنون، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدَّم، كما ورد عن ابن عبّاس[4].

ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بها: اليدَ والعصا، فإنَّهما وإنْ كانتا اثنتينِ، لكنَّ في كلٍّ منهما آياتٍ شتَّى، فإنَّ انقلابَ العصا حيوانًا آيةٌ، وكونَها ثُعْبانًا عظيمًا لا يُقادَرُ قَدْرُهُ آيةٌ أخرى، وسرعة حركتِهِ مَعَ عِظَمِ جُرْمِهِ آيةٌ أخرى، وكونُهُ مَعَ ذلكَ مُسخَّرًا لهُ عليه السلام - بحيثُ كانَ يُدخِلُ يدَهُ في فمِهِ؛ فلا يضرُّهُ - آيةٌ أخرى، ثمَّ انقلابها عصًا آيةٌ أخرى، وكذلكَ اليدُ: فإنَّ بياضَها في نفسِهِ آيةٌ، وشُعاعَها آيةٌ، ثمَّ رجوعَها إلى حالتِها الأولى آيةٌ أخرى[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالآياتِ:

تأييدُ موسى عليه السلام بالعلاماتِ نصرٌ وتمكين

عُبِّرَ عن خوارقِ العاداتِ الَّتي جاءَ بها موسى عليه السلام بالآياتِ في قولِ الحقِّ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ لِما يُشيرُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 516.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 124.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17.

إليهِ معناها اللُّغويُّ مِنْ كونِها علاماتٍ دالَّةً على صِدْقِ موسى عليه السلام فيما جاءَهم بهِ مِنْ ربِّه.

بلاغةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

آيــاتُ اللــه عظيمةٌ، لا يؤيِّد بها إلّا العليُّ العظيم

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الضَّميرِ الدّالِّ على التَّعظيم، في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الآياتِ وتفخيمِه، فآياتُ العظيمِ المنسوبةُ إليهِ عظيمةٌ، وفي هذهِ الإضافةِ أيضًا مزيدُ إقامةٍ للحُجَّةِ على فرعونَ وقومِه، ببيانِ أنَّ الآياتِ الَّتي جاءَهم بها موسى عليه السلام، وكذَّبوها، مصدرُها إلهيٌّ.

دلالةُ وصفِ الآياتِ بلفظ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾:

آياتُ موسى عليه السلام في غايةِ الوضوحِ والإبانةِ عن الحقِّ

وُصِفَتِ الآياتُ بكونِها بيِّناتٍ، في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ للمبالغةِ في إقامةِ الحُجَّةِ على فرعونَ وقومِه، لِما في هذا الوصفِ مِنَ الإشارةِ إلى وضوحِ الآياتِ في الدَّلالةِ على صِدْقِ موسى عليه السلام[1]، وأنَّهُ لا غُموضَ فيها ولا التباسَ، فلا عُذْرَ للمُعرِضينَ عنها.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في الفعل ﴿قَالُواْ﴾:

قولُهم الكاذبُ أكيدُ الحصولِ لأصالةِ الكفرِ في نفوسهم

جيءَ بفعلِ القولِ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ماضيًا للدَّلالةِ على تحقُّقِ القولِ ووقوعِه، وأنَّهُ أمرٌ قد مضَى، وانقضَى، فيُخبَرُ عنهُ بالماضي، كما هو شأنُ الإخبارِ بالأحداثِ والقصصِ، والمرادُ: أنَّهم قالوا عندَ كلِّ آيةٍ جاءَهم بها موسى عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[2].

مرجعُ الضَّميرِ في لفظ ﴿قَالُواْ﴾:

ضميرُ الفاعلِ لفعلِ القولِ من الآيةِ الكريمة: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ راجعٌ إلى فرعونَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 305، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.

بيانُ أنَّ فرعون وقومَهُ هم كانوا ينسبون لموسى الافتراء؛ كذبًا منهم وافتراء

وقومِهِ[1]، والمعنى: (قالَ فرعونُ وقومُهُ ما هذا إلّا سِحْرٌ مُفترًى، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين)، وقولُهم هذا مَحْضُ كذبٍ وافتراءٍ، فهُم أحقُّ مِنَ الآياتِ بوصفِ الافتراءِ؛ إذ إنَّ تواليَ البراهينِ، وسطوعَ الأدلَّة، لا تدع مجالًا لكاذب، ولا فرصةً لمكذِّبٍ، بل لا يكون مَن يعاند الأدلَّة القاطعة إلّا معاندًا جحودًا، أو أفّاكًا كنودًا.

دلالةُ القصرِ بالنَّفي والاستثناء ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا﴾:

نفيُ كونِ الآياتِ شيئًا غيرَ السِّحرِ، وهم موقنون بأنَّها عكس ذلك

﴿مَا﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ نافيةٌ، وهي مع أداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ تفيدُ القصر، بانتفاءِ كونِ الآياتِ شيئًا غيرَ السِّحرِ في زعمِهم، وهو قصرٌ لموصوف (ما جاءَهم بهِ موسى عليه السلام) على صفة (السِّحْر المُفترَى)، وفي هذا القصرِ مبالغةٌ منهُم، حيثُ يوهِمُ القصرُ أنَّهم لم يَجِدوا بعدَ البحثِ وصفًا لما جاءَهم بهِ موسى عليه السلام إلّا وصفَ السِّحْرِ المُفترَى، فهُم واجهوا إرسالَ موسى عليه السلام بالتَّجريح باللِّسان، وامتطوا أمواج البهت والكذب في نسبة الآيات إلى السِّحر؛ لأنَّهم يرون المعجزة كعصا موسى تكون على حالة، ثمَّ تنقلب إلى حالة أخرى، ثمَّ تعود سيرتَها الأولى، فقالوا: إنَّه سِحرٌ يفتعله موسى، ويفتريه على اللّه، وهم في ذلك يدلِّسون الحقَّ، ويفترون على اللّه الكذب[2].

علَّةُ إفرادِ اسمِ الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾:

بيانُ أنَّ المُشارَ إليهِ مدرَك بتأويلِ المذكورِ

المُشارُ إليهِ بـ﴿هَٰذَآ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ مُتعدِّدٌ، وهو الآياتُ البيِّناتُ الَّتي جاءَهم بها موسى عليه السلام، وقد أُشيرَ إليهِ باسم الإشارةِ المفردِ؛ لأنَّهُ بتأويلِ المذكورِ، والمعنى: (قالوا: ما المذكورُ مِنَ الآياتِ البيِّناتِ إلّا سِحْرٌ مُفْترًى)[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 292.
(2) محمّد مطنيّ، سورة القصص دراسة تحليليّة: 1/ 435.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 517.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ ﴿هَٰذَآ﴾:

يدلُّ استعمالُ اسمِ الإشارةِ للقريبِ في قولِ اللّهِ تبارك شأنُهُ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ على تحقيرِ فرعونَ وقومِهِ للمُشارِ إليهِ، وهو الآياتُ البيِّناتُ الَّتي جاءَهم بها موسى ﷺ، فَهُمْ قد جَمَعوا بينَ الإنكارِ والتَّكذيبِ، وبينَ الاستهزاءِ والتَّحقيرِ، كما هو دَيْدَنُ المُستكبِرينَ في كلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ المُكذِّبةِ.

الآياتُ البيِّناتُ غيرُ معتبرةٍ في ميزانِ فرعونَ وملَئِهِ

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿سِحۡرٞ﴾:

تنكيرُ لفظِ السِّحرِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ للإفرادِ، أي: ما هذا إلّا فردٌ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالسِّحْرِ، وقد كانَ فرعونُ وقومُهُ يقولونَ ذلكَ في حقِّ كلِّ آيةٍ مِنَ الآياتِ الَّتي جاءَهم بها موسى ﷺ، ويحتملُ التَّنكيرُ أنْ يكونَ لتهويلِ شأنِ هذا السِّحرِ في زعمِهم.

زيفُ مزاعمِ الجبابرةِ بأنَّ الآياتِ البيِّناتِ سِحرٌ مفترًى

نكتةُ اختيارِ مفردة السِّحر:

وصفَ فرعونُ وقومُهُ في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ الآياتِ البيِّناتِ الَّتي جاءَهم بها موسى ﷺ بكونِها سِحْرًا، لشُيوعِ السِّحْرِ وانتشارِهِ فيما بينَهم، ولمّا رَأوا في آياتِ موسى ﷺ ما فيهِ خَرْقٌ للعادةِ؛ نَسَبوهُ إلى السِّحرِ مكابرةً وعنادًا، وتضليلًا لعوامِّ النّاسِ؛ لأنَّهم يرونَ الشَّيءَ على حالةٍ، ثمَّ يرونَهُ على حالةٍ أخرى، ثمَّ يعودُ إلى الحالةِ الأولى، فزعموا أنَّهُ سِحْرٌ يفتعلُهُ موسى، ويفتريهِ على اللّهِ[1].

شُيوعُ السِّحْرِ في قومِ فرعونَ مناسِبٌ لنوعِ المعجزةِ القاهرةِ

نكتةُ وصفِ السِّحْرِ بالافتراءِ:

قولُ فرعونَ وملَئِهِ: ﴿سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾، معناهُ: سِحْرٌ ظاهرٌ افتراؤُهُ[2]، غيرُ خافٍ على أحدٍ[3]، فالافتراءُ هنا بمعنى الاختلاقِ،

شتّان بين زيفِ صنعةِ السِّحرِ البشريَّةِ، وسُموِّ المعجزاتِ الإلهيَّةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 305.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 4/ 178.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 57.

ويكونُ مرادُهم بالسِّحْرِ: السِّحْرَ المخصوصَ الَّذي اخترعَهُ، ولم يَنسُبْهُ إلى اللّهِ تعالى، فـ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ على هذا الوجهِ صفةٌ مُخصِّصةٌ مُقيِّدةٌ[1]، أو معناهُ: سِحْرٌ تتعلَّمُهُ أنتَ، ثمَّ تفتريهِ على اللّهِ[2]، على أنَّ الافتراء هو الكذب، فيكونُ المرادُ بهِ: السِّحْرَ المخصوصَ أيضًا معَ زيادةِ أمرٍ، وهو اختلاقُهُ ونسبتُهُ إلى اللّهِ تعالى، و﴿مُّفۡتَرٗى﴾ على هذا الوجهِ أيضًا صفةٌ مُخصِّصةٌ مُقيِّدةٌ[3]، أو معناهُ: موصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أنواعِ السِّحرِ، وليسَ بمعجزةٍ مِنْ عندِ اللّهِ[4]، فيكونُ المرادُ بهِ: مُطلَقَ السِّحْرِ، وعلى هذا الوجهِ يكونُ ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ صفةً مُؤكِّدةً[5].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿مُّفۡتَرٗى﴾:

افـتراءُ السِّحر أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ في زعمِ فرعونَ ومن والاه

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ للافتراء في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الافتراءَ الَّذي وُصِفَ بهِ السِّحْرُ أمرٌ ثابتٌ في زَعمِهم ومُستقِرٌّ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، ولا مَناصَ منهُ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ منهُم في إثباتِ حقيقةِ السِّحرِ للآياتِ البيِّناتِ، ومزيدُ مكابرةٍ وعنادٍ، وفَرْطُ وُثوقٍ بما هُم عليهِ مِنَ الضَّلالِ والتَّكذيبِ.

معنى واوِ ﴿وَمَا﴾:

جـمْعُ فـرعـونَ وقـومِـهِ بـينَ وصـفِ الـحـقِّ بالسِّحرِ، ونفيِ السَّماعِ بمثلِهِ سلَفًا

الواوُ في قولِهِ ﷻ حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على جملةِ مَقولِ القولِ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾، فتفيدُ التَّشريكَ بينَهما في كونِهما مِنْ مَقولِ قولِ فرعونَ وقومِهِ، وزعْمُ فرعون وملَئِهِ بأنَّ دعوة موسى ﷺ إلى الإيمان باللّه ربِّ العالمين - الَّذي له ملك السَّموات والأرضين - لم

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 518.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178.
(3) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 518، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411.
(5) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 518.

يسمعوها من قبلُ، لِما كانوا عليه في أرض مصر، واعتادوه، وألِفوه من عبادة الآلهة الكثيرة، من آدميّين وحيوانات وطيور وكواكب ونجوم ...، وهذا ما ملأ شعور فرعون بأنَّه الإلهُ المتفرِّد، فقال قولته الآثمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾[1].

معنى (ما):

نفيُ فرعونَ وقومِهِ السَّماعَ بمثل هذا في أجدادِهم

(ما) في قولِه ﷻ حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ نافيةٌ، أي: ما حُدِّثْنا بكونِ ذلكَ فيهم، وهم كاذبونَ في ذلكَ، فقد سَمِعوا، وعَلِموا بنحوِه، أو يريدونَ أنَّهم لم يسمعوا بمِثلِه في فظاعتِه، أو ما كانَ الكُهّانُ يُخبرونَ بظهورِ موسى ومجيئِه بما جاءَ بِه، ويحتملُ أنَّهم جعلوا انتفاءَ بُلوغِ مِثلِ هذهِ الدَّعوة إلى آبائِهم - حتَّى تصلَ إليهم بواسطةِ آبائِهم الأوَّلينَ - دليلًا على بطلانِها، وذلكَ آخرُ ملجأ يلجأُ إليهِ المحجوجُ المغلوبُ، حينَ لا يجدُ ما يدفعُ بِه الحقَّ بدليلٍ مقبولٍ، فيفزعُ إلى مِثلِ هذهِ التَّلفيقات[2]، فهو دليلٌ على أنَّهم حُجّوا، وبُهتوا، وما وجدوا ما يدفعونَ بِه ما جاءَهم مِنَ الآياتِ إلّا قولَهم: هذا سِحْرٌ وبِدْعةٌ لم يسمعوا بمِثلِها[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿سَمِعۡنَا﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ انتفاءِ السَّماعِ؛ لتسويغ الإنكار والاستغراب

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه جلَّ شأنُهُ حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ انتفاءِ السَّماعِ ووقوعِه، وكأنَّ نفيَ السَّماعِ مُستغرِقٌ لزمانِ آبائِهم الأوَّلينَ، وفي ذلكَ إشعارٌ بفَرْطِ تكذيبِهم وعنادِهم، ومزيدِ وُثوقِهم بانتفاءِ السَّماعِ.

معنى الباءِ ونكتةُ تعديةِ السَّماعِ بها:

لمّا كانَ السَّماعُ المنفيُّ في قولِه جلَّ ثناؤُهُ حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ليسَ سماعًا بآذانهم

(1) عبدالكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411.

لكلام في زمنِ آبائِهم، بل المرادُ: ما بلغَ إلينا وقوعُ مِثْلِ هذا في زمنِ آبائِنا؛ عُدّيَ فعلُ السَّماع بالباءِ لتضمينِهِ معنى الاتِّصالِ، والباءُ للإلصاقِ(1)، ويحتملُ أنْ تكونَ الباءُ في قولِهِ: ﴿بِهَٰذَا﴾ صِلَةً في المفعولِ بهِ، أي: ما سَمِعْنا هذا واقعًا في أيّامِ آبائِنا الأوَّلينَ(2).

نـفـيُ فـرعـونَ وملَئِهِ بُلوغَهم مِثلَ هذا في زمنِ آبائِهم

تعيينُ مَرجِعِ اسمِ الإشارةِ (هَذا):

الإشارةُ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ راجعةٌ إلى السِّحرِ(3)، أو إلى ادِّعاءِ النُّبوَّةِ(4)، ويحتملُ أنَّهم يَعنونَ عبادةَ اللّهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، أي: ما رأيْنا أحدًا مِنْ آبائِنا على هذا الدّينِ، ولم نرَ النّاسَ إلّا يُشرِكونَ معَ اللّهِ آلهةً أخرى(5)، ويجوزُ أنْ يكونَ قصدُهم نفيَ سماعِهم أنَّ للعالَمِ إلهًا يُرسِلُ الرُّسُلَ بالآياتِ(6).

الإشـــارةُ إلى السِّحرِ أو ادِّعاءِ النُّبوَّةِ أو ما جاء بـه مـوسى من الحقِّ

دلالةُ اسمِ الإشارةِ (هذا):

يدلُّ استعمالُ اسمِ الإشارةِ للقريبِ، في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ حكايةً عن فرعون وملَئِه: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، على تحقيرِهم للمُشارِ إليه، وهو ادِّعاءُ النُّبوَّة، فيكونونَ قد جَمَعوا بينَ الإنكارِ والتَّكذيبِ، وبينَ الاستهزاءِ والتَّحقيرِ، كما هو شأنُ المُستكبِرينَ في كلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ، المُتمرِّدينَ على الشَّرائعِ.

غـايـةُ الاحتقار أن يـضـاف إليه الاسـتـهـزاء بالمشار إليه

دلالةُ ﴿فِيٓ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ الواردُ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ، حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ للظَّرفيَّةِ

غرابةُ الزَّعمِ بأنَّ زمـانَ آبـائِـهـم الأوَّلــيـنَ كـانَ خاليًا من النُّبوَّةِ

---

(1) أطفيّش، تفسير أطفيّش: 7/ 383.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 287، وأطفيّش، تفسير أطفيّش: 7/ 383.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 13، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 13.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العَظيم: 6/ 237.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 522.

الزَّمانيَّةِ، والمعنى: وما سَمِعْنا بهذا في زمنِ آبائِنا الأوَّلين، فيفيدُ خُلوَّ زمنِ آبائِهم - في زعمهم - مِنْ سماعِ مِثْلِ ذلك.

نكتةُ إيجازِ ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا﴾:

نفيُ السَّماعِ بادّعاءِ النُّبوّةِ في زمنِ الآباءِ قناعةٌ مستغربة

لمّا كانَ حرفُ الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ الواردُ في قولِ الحقِّ تعالى شأنُه حكايةً عن فرعون وملَئِه: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ للظَّرفيَّةِ الزمانيَّةِ، وهو يقتضي زَمَنًا؛ تعيَّنَ أنْ يكونَ مدخولُه على تقديرِ مضافٍ؛ لأنَّ الآباءَ لا يَصلُحُ للظَّرفيَّةِ، أي: وما سَمِعْنا بهذا في مُدَّةِ آبائِنا الأوَّلينَ[1]، وهذا مِنْ إيجازِ الحذفِ.

بلاغةُ وصفِ الآباءِ بـ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

بيانُ فَرْطِ الغُلوِّ في التَّكذيبِ والعِنادِ

قولُ فرعونَ وقومِه: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، معناهُ: ما سَمِعْنا بهذا في آبائِنا الماضينَ، والمرادُ بهم: آباؤُهم الأبعدونَ، أي: أجدادُهم؛ إذ آباؤُهم الأقربونَ في حكمِهم، لكونِهم معاصرينَ أو قريبينَ لهُم[2]، وقد أشاروا بوصفِ آبائِهم بالأوَّلينَ إلى انتفاءِ ذلكَ منذُ زمانٍ طويلٍ[3]، ويحتملُ أنَّهم قالوا ذلكَ لفَرْطِ غُلوِّهم في التَّكذيبِ والعِنادِ، وانهماكِهم في الغَيِّ والفسادِ[4]، حيثُ جَعَلوا النَّفْيَ يمتدُّ إلى فترةٍ زمنيَّةٍ متطاولة، وإنْ لم تكنْ كذلكَ في الواقعِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 305، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 43.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 518.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 287.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 130.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾ [القصص: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بين تكذيب موسى واتِّـهـامـه بالسِّحر، وبين مجادلته لهم بالحقِّ والعقل

بعد أن تناول السّياق في الآية السّابقة مجيءَ موسى ﵇ إلى فرعون وملَئِه بآيات اللّه البيِّنات، وبيَّن تكذيبهم للوحي، وزعمهم أنَّه سحر مفترًى ما سمعوا مثله عن آبائهم الأوَّلين؛ استعرضت هذه الآية ردَّ موسى على تكذيبهم، ونقلت مضمونَ مُحاجته لهم، بأنَّ اللّه هو العليم بمن جاء بالهدى، وأُرسل بالبلاغ، ومن تكون له المكنة في الأرض، وتكون له العاقبة الفضلى في الآخرة؛ لأنَّ الظّالمين سوف يؤولون إلى سوء المصير، من البوار والتَّخسير.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾: (هدي) أصلٌ يدلُّ على التَّقدُّم للإرشادِ، يقالُ: هديتُه الطَّريقَ هدايةً، أي: تقدَّمتُه لأُرشِدَهُ[1]، والهدايةُ: دلالةٌ بلُطْفٍ[2]، والهدى: الرَّشاد والدَّلالة، يؤنَّث ويُذكَّر، ولفظ الهدى ألوانٌ، منها ما كان جبلَّةً وفطرة، كما قالَ تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: 50]، ومنها ما كان هداية على يد الرُّسل الكرام، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [السجدة: 24]، ومنها ما كان توفيقًا وإعانةً، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمّد: 17]، ومنها ما كان هدايةً في الآخرةِ إلى الجنَّة، كما في قوله تعالى: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾ [محمّد: 5 - 6][3]، والمرادُ بالهُدى في هذه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(2) السمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (هدي).
(3) الرّاغب، المفردات: (هدي).

الآيةِ: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ الوجهُ الثّاني، وهو الَّذي يكونُ دلالةً على ألسنةِ الأنبياءِ.

2) ﴿ٱلدَّارِۚ﴾: (دور) أصلٌ يدلُّ على إحاطةِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِنْ جوانبِهِ[1]، ومِنْ ذلكَ: الدّارُ، وهي المنزلُ اعتبارًا بدوَرانِها الَّذي لها بالحائطِ، وتُسمَّى البلدةُ دارًا، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحشر: 9]، أي: مَدينَة النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّها مَحلُّ أهلِ الإيمانِ[2]، والدُّنيا دار، ومنهُ قيلَ: الدّارُ الدُّنيا، والدّارُ الآخرةُ[3]، وتُطلَقُ الدّارُ على الجنَّةِ، كقولِهِ سبحانَهُ: ﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الأنعام: 127]، وعلى النّارِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾ [إبراهيم: 28][4]، وعاقبةُ الدّارِ في قولِهِ هنا: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ هي العاقبةُ المحمودةُ، فالمرادُ بالدّارِ: الدُّنيا، وعاقبتُها: أنْ يُختَمَ للعبدِ بالرَّحمةِ والرِّضوانِ[5].

3) ﴿يُفۡلِحُ﴾ (فلح) أصلٌ يدلُّ على الفَوْزِ والظَّفَرِ بالبُغْيةِ[6]، ومنه قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: 5]، وأصلُهُ مِنْ فَلَحْتُ الحديدَ، أي: شَقَقْتُهُ، ومنهُ الفَلّاحُ؛ لأنَّهُ يَشُقُّ الأرضَ[7]، والفَلاحُ نوعانِ: دُنيويٌّ وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ: الظَّفَرُ بالسَّعاداتِ الَّتي تَطيبُ بها الحياةُ، وهي البقاءُ والغِنى والعِزُّ، والأُخرويُّ أربعةُ أشياءَ: بقاءٌ بلا فَناءٍ، وغِنًى بلا فقرٍ، وعِزٌّ بلا ذُلٍّ، وعلمٌ بلا جهلٍ[8]، والمرادُ بقولِهِ هنا: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: لا يفوزونَ بالهدى في الدُّنيا، وحُسْنِ العاقبةِ في الآخرةِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

قالَ موسى مُجيبًا لفرعونَ وقومِهِ: ربِّي أعلمُ بالمُحِقِّ منّا مِنَ المُبطِلِ، ومَنِ الَّذي جاءَ بالرَّشادِ إلى سبيلِ الهدايةِ والحقِّ، ومَنِ الَّذي لهُ العاقبةُ المحمودةُ في الدّارِ الدُّنيا، حيث

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (دور).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (دور).
(3) الراغب، المفردات: (دور).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (دور).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (فلح).
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: (فلح).
(8) الرّاغب، المفردات: (فلح).

ثبات موسى عليه السلام على الحقّ، وحواره لأهل الكفر والطّغيان

يتحقَّق وعدُ اللّه لرسوله وللمؤمنين بالعزوة والتَّمكين، ويتحقَّق وعيده للكافرين بالهلاك والعذاب المهين، وآنئذٍ، فإنَّ العاقبة الحسنة للمؤمنين، والعاقبةَ السَّيِّئة على الظّالمين والمفسدين، وهو يعني بالظّالمين: فرعونَ وملأَهُ، الَّذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ قراءتَي الفصل والوصل في ﴿وَقَالَ﴾:

قولُ موسى ردٌّ على الغيِّ، وإخبارٌ بهدى الله الحيِّ

لما حكى اللّه تعالى قول فرعون وملَئِه: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أردفه بحكاية جواب موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾، وجاءت قراءةُ ابنِ كثيرٍ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ بغيرِ واوٍ، وقرأ الباقونَ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بالواوِ[1]، فأمّا وجهُ قراءةِ ابنِ كثيرٍ؛ فهو أنَّ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ، لأنَّ الموضعَ موضعُ سؤالٍ وبحثٍ عمّا أجابَهم بهِ موسى عليه السلام، عندَ تسميتِهم تلكَ الآياتِ البيِّناتِ سِحرًا مُفترًى[2]، فكأنَّهُ قيلَ: ما قالَ موسى في جوابِهم؟ فقيلَ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ الآيةَ[3]؛ ولذلكَ فُصِلَتِ الجملةُ عن سابقتِها[4]، كما هو شأنُ المُحاوَراتِ[5]، وأمّا وجهُ قراءةِ الجمهورِ؛ فهو أنَّ المرادَ حكايةُ القولينِ بلا نظرٍ إلى كونِ الثّاني جوابًا للأوَّلِ، فلا مانعَ مِنَ العطفِ، فالعطفُ في الحكايةِ الجامعةِ للقولينِ[6]؛ ليوازنَ النّاظرُ بينَ القولينِ، ويتبصَّرَ فسادَ أحدِهما وصحَّةَ الآخرِ، وبضدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ[7].

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 341، وهي في المصحف المكي دون واو.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178.
(3) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 519.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 74.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 519.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178.

نكتةُ إظهارِ الفاعل ﴿مُوسَىٰ﴾:

كان الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وقالَ ربّي أعلمُ) بإضمارِ فاعل القول؛ لتقدُّم ذكرِ موسى ﵇ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى الإظهارِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾؛ لزيادةِ التَّنصيصِ على كونِ موسى ﵇ هو المُظهِرَ للحقِّ، والمُجادِلَ عنهُ؛ وليقعَ في مقابلةِ المُبطِلِ المُجادِلِ عن الباطلِ، وهو فرعونُ المذكورُ في قولِهِ تعالى بعدَ هذهِ الآيةِ: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾.

موسى ﵇ هو القائمُ بإظهارِ الحقِّ، والبلاغِ بالصِّدق

دلالةُ لفظِ الرَّبِّ مضافًا إلى ضمير المتكلِّم:

عُبِّرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ عن اللهِ بوصفِ الرُّبوبيَّةِ، مضافًا إلى ضميرِ موسى ﵇؛ للتَّنصيصِ على أنَّ الَّذي يعلمُ الحقَّ هو الإلهُ الحقُّ، لا آلهتُهم المزعومةُ، والظّاهرُ أنَّ القِبْطَ لم يكنْ في لغتِهم اسمٌ على الرَّبِّ واجبِ الوجودِ، ولكنْ كانَ فيها أسماءُ آلهةٍ مزعومةٍ[1]، وأيضًا فإنَّ هذا الاسمَ الجليلَ يُنبئُ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ عن التَّربيةِ والإحسانِ، مع ما اقتضَتْه الإضافةُ إلى ياءِ التّكلُّم من خصوصِ العنايةِ واختصاصِ الرِّعايةِ، فـ﴿رَبِّيٓ﴾ هو المُحسِنُ إليَّ بما ترونَ مِنْ تصديقي في كلِّ ما ادَّعيتُهُ، ومنعِ هذا الظّالمِ المُستكبِرِ مِنَ الوصولِ إليَّ بسوءٍ[2].

لا يهدي للحقِّ إلّا الإلهُ الواحد المُستحِقُّ

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ التَّفضيلِ ﴿أَعۡلَمُ﴾:

جيءَ باسمِ التَّفضيلِ، في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ - مع أنَّهُ مسلوبُ المفاضلة - فـ﴿أَعۡلَمُ﴾ بمعنى: عليم؛ إذ لا علمَ به لغيرِهِ سبحانَهُ[3]؛ لأنَّ المقصودَ منهُ بيانُ شدَّةِ علمِهِ ﷻ، ويحتملُ أنْ

علمُ اللهِ تعالى لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، ولا يُحاطُ بكُنهِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 120.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 293.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 519.

يكونَ المعنى: (أعلمُ مِنْ كلِّ أحدٍ)[1]، فيكونُ في الكلامِ حذفُ (مِنْ) والمُفضَّلِ عليهِ، وذلكَ ضربٌ مِنَ الإيجازِ.

سرُّ اختيار صفة العلم ﴿أَعۡلَمُ﴾:

ما علمَهُ اللهُ لا يُخفيهِ إنكارُ مُنكِرٍ، ولا يَطمِسه جحود جاحد

عُبِّرَ بصفةِ العِلم دونَ غيرِها من صفات اللّه، في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾؛ لأنَّه جوابٌ لِنفيهم سماعَ ادِّعاءِ النُّبوَّةِ والدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، وقولِهم: ما رأيْنا أحدًا مِنْ آبائِنا على هذا الدِّينِ، ولم نرَ النّاسَ إلّا يُشرِكونَ معَ اللّهِ آلهةً أخرى، فأفحَمَهم موسى عليه السلام بما أجابَهم بهِ[2]، ووقعَ علمُ اللّهِ تعالى في مقابلةِ جهلِهم المزعوم، وأفادَ الكلامُ أنَّ الّذي لا تَخفَى عليهِ خافيةٌ، لا ينفعُ عندَهُ إنكارُ المُنكِرينَ.

دلالةُ الموصولِ (مَنْ):

موسى عليه السلام هو المهتدي الَّذي جاءهم بالهدى من الله تعالى

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالموصولِ، في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، موسى عليه السلام[3]، حيثُ جعلَهُ اللّهُ نبيًّا، وبعثَهُ بالهدى[4]، وهذا التَّخصيصُ مستفادٌ مِنْ دلالةِ المقامِ، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ جميعَ الرُّسُلِ، كما هو مُقتضَى لفظِ العمومِ، ويدخلُ فيهم موسى عليه السلام دخولًا أوَّليًّا قبلَ غيرِهِ من الذين جاؤوا بالهدى من عند اللّه، فهو القائمُ بخطاب فرعون وقومه، المرسَل لدعوتهم وهدايتهم[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

مجيءُ المهتدي بهُدًى لم يكن معروفًا مِن قبل أمر الله ومشيئته

عُبِّرَ عن المُهتدي في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ بفعلِ المجيءِ ﴿جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُهتديَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 377..

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 237.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 14، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 287.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411.

(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 519.

هو الَّذي جاءَ بهُدًى لم يكنْ معروفًا مِنْ قبلُ، كما يقتضيهِ قولُهم: جاءَ بكذا[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿جَآءَ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في فعل المجيء، من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ مجيءِ موسى عليه السلام بالهُدى ووقوعِه[2]، وأنَّهُ أمرٌ لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، وفي ذلكَ مزيدُ تأييدٍ للحقِّ، وشدٌّ مِنْ عَضُدِه، وفتٌّ مِنْ عَضُدِ الباطلِ؛ لِما تدلُّ عليهِ الصّيغةُ مِنْ فَرْطِ وُثوقِ موسى عليه السلام، بكونِهِ جائيًا بالهُدى مِنْ عندِ اللّهِ.

مجيءُ موسى عليه السلام بالهُدى رسالةٌ للعُتاة، وتحذيرٌ للطُّغاة

سرُّ إيثارِ المجيءِ على الإتيانِ:

عُبِّرَ بالمجيءِ دونَ الإتيانِ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ، وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، وأمّا المجيءُ؛ فيقالُ اعتبارًا بالحصولِ[3]، فتكونُ دلالةُ ﴿جَآءَ﴾ على المجيءِ أقوى مِنْ دلالةِ (أتى)[4]، وهو المناسبُ هنا لمقامِ إظهارِ الحقِّ، ودَحْضِ شُبُهاتِ المشركينَ.

المجيءُ بالهُدى فعلٌ حاصلٌ مُقترِنٌ بقصدٍ

معنى الباءِ في شبه الجملة ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ للمصاحبةِ؛ إذ المرادُ مجيءُ موسى عليه السلام إلى فرعونَ وقومِهِ مُلتبِسًا بالهُدى، مُتمسِّكًا به؛ لأنَّ بِهِ غلَبَتَهُ وظهورَهُ على عدوِّه، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ التَّأييدَ مُقارِنٌ لموسى عليه السلام، وأنَّهُ إنَّما جاءَهم بما فيهِ خيرُهم وفلاحُهم وهدايتهم.

موسى عليه السلام مناطٌ بالهُدى تكليفًا وبلاغًا

دلالةُ التعريفِ في (الهُدى):

تعريفُ الهُدى في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ للجنسِ، والمقصودُ منهُ الإشارةُ إلى كمالِ الهُدى الَّذي

هُدى موسى عليه السلام هو الهُدى الرَّبانيُّ الكاملُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 192.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 120.

(3) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(4) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 50.

جاءَهم بِهِ موسى عليه السلام، وأنَّهُ لا يَشوبُهُ شيءٌ مِنَ الضَّلالِ، فهو الحَريُّ بأنْ يُسمَّى هُدًى، كأنَّ ما سواهُ ليسَ بهُدًى.

سرُّ إيثارِ لفظِ (الهُدى):

غـرضُ مـوسى عليه السلام هو الإرشادُ بلُطْفٍ

جيءَ بلفظِ الهُدى دونَ غيرِهِ، في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، ولم يقل مثلًا: (بالحقِّ)؛ لأنَّ أصلَ هذهِ الكلمةِ يدلُّ على التَّقدُّمِ للإرشادِ[1]، يقالُ: هديتُهُ الطَّريقَ هدايةً، أي: تقدَّمتُهُ؛ لأُرشِدَهُ[2]، والهدايةُ أيضًا: دلالةٌ بلُطْفٍ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ غايةَ موسى عليه السلام هي إرشادُهم بلُطْفٍ ورِفْقٍ لِما فيهِ صلاحُ أمرِ دنياهُم وآخرتِهم، وقد أمرَ اللّهُ تعالى موسى وهارونَ عليهما السلام بالقولِ اللَّيِّنِ في مُخاطَبةِ فرعونَ.

معنى ﴿مِنْ﴾:

اللـهُ تعـالى هو المُلهم بالهُدى، وهدايتـه فلاحٌ ونجاة

حرفُ الجرِّ ﴿مِنْ﴾، في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾؛ للابتداءِ، وهو يفيدُ أنَّ ابتداءَ الهُدى مِنَ اللّهِ تعالى، فهو الَّذي تفضَّلَ بإرسالِ موسى عليه السلام، وأيَّدَهُ بأخيهِ هارونَ عليه السلام وبالآياتِ البيِّناتِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عِندِهِۦ﴾:

هـدايـةُ اللـهِ عظيمةُ الشّانِ، عميقةُ الأثـرِ في الإنسان

عُبِّرَ بالعِنْديَّةِ المُضافةِ إلى الضَّميرِ العائدِ على ﴿رَبِّيٓ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾؛ لتشريفِ الهُدى، وتعظيمِهِ بكونِهِ إلهيَّ المصدرِ، وللتَّرغيبِ في اتِّباعِهِ[3]؛ إذ هُدى اللّهِ في غايةِ الكمالِ، لا يَشوبُهُ نقصٌ ولا اختلالٌ، وفي هذا التَّعبيرِ أيضًا مزيدُ تصديقٍ لموسى عليه السلام، وإبعادٌ لهُ عن مَظانِّ التُّهَمِ، فهو لا يأتي بشيءٍ مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 293.

براعةُ الجوابِ المُنصِفِ:

قولُ موسى عليه السلام: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ يريدُ به نفسَهُ[1]، والمعنى: ما جئتُكم بهِ حقٌّ وهدًى، ليسَ بسِحْرٍ كما اتَّهمتم، فالسّاحر لا يأتي أبدًا بالهدى، وربّي عالمٌ بذلكَ، وسيُعلَم ذلك في العاقبة - لا محالة - فاللهُ يعلم من أحقَّ بالظَّفَر والانتصار، لكنَّهُ أجملَ في جوابِهم؛ تلطُّفًا في الخطابِ، وإيثارًا لأحسنِ الوجوهِ في المجادلةِ معَهم[2]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى لينِ الجدلِ وأدبِه عندَ موسى عليه السلام، فلم يَرُدَّ عليهِم بالقَسْوةِ الَّتي سمعَها منهُم، ولم يتَّهِمْهم كما اتَّهموهُ، بل ردَّ بهذا الأسلوبِ اللَّبِقِ[3]، فالآيةُ مِنْ قبيلِ الكلامِ المُنصِفِ، على نحوِ قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: 24][4].

> استـنـزالُ طائرِ كِـبْرِ المشركينَ وعـنـادِهـم بالحوارِ المُقْنِعِ الهادئ

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في أوَّلِ السّورة وخاتمتِها:

قالَ هنا: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ بزيادةِ الباءِ، وقالَ في آخِرِ السّورةِ: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [القصص: 85] بدونِها؛ تقويةً للعاملِ هنا - بحسَبِ الظّاهرِ - لضعفِهِ عن العملِ، وحذَفهُ هناكَ اكتفاءً بدلالةِ الأوَّلِ عليه[5]، وفي ذلك إبراءٌ للذِّمَّة، ورفعٌ للحرجِ عن المبلِّغِ، فهو يقول: ربّي، الَّذي خلقني، وخلقكم، أعلمُ منّي ومنكم بمَن جاء بالهدى والحقِّ من عنده، وسيحكم بيني وبينكم بحكمه العادل.

> اللهُ عليمٌ بما يُرسِل، وحكيمٌ في اصطفاء من يُرسَل

بلاغةُ العطفِ بالواو ﴿وَمَن﴾:

الواوُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ للعطفِ، فـ(مَنْ) هنا معطوفةٌ على (مَنْ) في قولِه: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، وفائدةُ هذا العطفِ بيانُ أنَّ كلًّا مِنَ المُهتدي والَّذي لهُ

> الهُدى والعاقبةُ المحمودةُ من معلومِ اللهِ دون سواه

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 200.
(2) زاده، حاشية على البيضاويّ: 6/ 415.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 18/ 10924.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 120.
(5) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 431.

عاقبةُ الدّارِ داخلٌ في حيِّزِ علمِ اللّهِ تعالى، الَّذي لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، وفي ذلك رَدٌّ على المُكذِّبينَ لموسى عليه السلام، الَّذينَ نَسَبوا ما أتاهُم بهِ مِنَ الآياتِ البيِّناتِ إلى السِّحرِ والافتراء.

توجيهُ قراءتَي ﴿تَكُونُ﴾:

اختلافُ القراءاتِ والمعنى واحدٌ مُثرٍ بالفوائد، ومُجلٍ للمراد

اختلف القرّاء في تذكير فعلِ الكَون وتأنيثه، من قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، فقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿يَكُونُ﴾ بالياءِ، وقرأ الباقونَ: ﴿تَكُونُ﴾ بالتّاءِ[1]، فأمّا قراءة التأنيث؛ فلأنَّ اسم ﴿تَكُونُ﴾ هو ﴿عَٰقِبَةُ﴾، ويكون ﴿لَهُۥ﴾ خبرَها، ويجوز أنْ يكونَ اسمُه ضميرَ القصةِ، والتأنيثُ لأجلِ ذلك، و﴿لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ جملة في موضع الخبرِ، وأمّا قراءةُ التَّذكير؛ فعلى أنْ تكونَ ﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسمَ ﴿يَكُونُ﴾، والتذكيرُ للفصل؛ لأنَّه تأنيثٌ مجازيٌّ[2]، ويجوزُ أن يكون اسمُه ضميرَ الشَّأنِ، والجملةُ خبرٌ، وعلى أنَّ فعلَ الكون ناقصٌ، يجوز كذلك أن يكونَ اسمُه ضميرَ ﴿وَمَن﴾، والجملةُ خبرَهُ[3]، ويجوزُ أيضًا أنْ يكونَ الفعل تامًّا، والجملةُ في موضعِ الحالِ، وفي هذا التَّنوُّعِ إثراءٌ للمعنى مفيدٌ لتجلية المراد.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَكُونُ﴾:

العاقبةُ المحمودةُ تكون في العادة مسبوقةً بمِحَنٍ وابتلاءاتٍ

عُبِّرَ عن فعل الكون في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ بصيغةِ المضارعِ؛ لأنَّ كونَ عاقبةِ الدّارِ للمُعبَّر عنهُ بـ(مَنْ) مَرْجوٌّ، لمّا يظهرْ بعدُ[4]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّهُ سيكونُ قبلَ هذهِ العاقبةِ المحمودةِ مِحَنٌ وابتلاءاتٌ، يُمحِّصُ اللّهُ بها الَّذينَ آمَنوا، ويمحقُ الكافرينَ، وسيكونُ صراعٌ بينَ الحقِّ والباطلِ، ولولا إرادةُ هذا المعنى؛ لقيلَ: (ومَنْ لهُ عاقبةُ الدّارِ).

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 341.
(2) زاده، حاشية على البيضاويّ: 6/ 452.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: 8/ 678.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 120.

معنى اللّامِ في شبه الجملة ﴿لَهُۥ﴾:

اللّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ من قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾؛ للمِلْكِ والاستحقاقِ، وفيها دلالةٌ على أنَّ مَنْ كانَ على الحقِّ والهدى؛ فهو حَريٌّ بفضلِ اللهِ وإحسانِه، بأنْ تكونَ لهُ العاقبةُ المحمودةُ في الدُّنيا، وبأنْ يُختمَ لهُ بما يُفضي بِهِ إلى الجنَّةِ.

عاقبةُ الدّارِ مُستحَقَّةٌ للمهتدي تفضُّلًا مِنَ اللهِ العليِّ

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

تقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ للاختصاصِ، والمعنى: (ومَنْ تكونُ لهُ - لا لغيرِهِ - عاقبةُ الدّارِ)، وفي ذلكَ مزيدُ ترغيبٍ في اتِّباعِ الحقِّ والهُدى؛ لنَيْلِ هذهِ الكرامةِ الَّتي يختصُّ بها اللهُ تعالى الصّالحينَ مِنْ عبادِهِ.

العاقبةُ المحمودةُ للمُحِقِّ لا لغيرِهِ فالحقُّ أحقُّ أن يتَّبع

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ (العاقبةِ) دونَ تقييدٍ:

العاقبةُ في الأصلِ: الحالةُ العاقبةُ، أي: الَّتي تَعْقُبُ، أي: تجيءُ عَقِبَ غيرِها، فيُؤذِنُ هذا اللَّفظُ بتبدُّلِ حالٍ إلى ما هو خيرٌ، فلذلكَ لا تُطلَقُ العاقِبةُ إلّا على العاقبةِ المحمودةِ[1]، كما في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، فالمرادُ بها هنا: أنْ يُختَمَ للعبدِ بالرَّحمةِ والرِّضوانِ، وتلقّي الملائكةِ بالبُشرى عندَ الموتِ[2]، فلذا لم يُقيَّدْ بالمحمودةِ معَ أنَّها المرادُ، فالعاقبةُ تنصرفُ إلى الفردِ الكاملِ، وهو العاقبةُ المحمودةُ، والجنَّةُ الموعودةُ[3].

مآلُ الهدايةِ إلى خيرٍ، ومناطُها الأمانُ من كلِّ ضيرٍ

نكتةُ التعريفِ في ﴿ٱلدَّارِۚ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلدَّارِۚ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ للعهدِ؛ إذِ المرادُ بها الدُّنيا[4]، وعاقبتُها الأصليَّةُ هي الجنَّةُ؛ لأنَّ الدُّنيا خُلِقَتْ جِسرًا إلى الآخرةِ، ومزرعةً لها[5].

عاقبةُ دُنيا المؤمنِ - لا محالة - إلى فلاحٍ في الجنَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 120.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 520.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 643.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 14.

وجهُ الإضافةِ في ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾:

لـلـدُّنـيـا عاقـبـةٌ تُـفـضي بـالمؤمـن إلى ثوابِ الآخرةِ

الإضافةُ في قولِهِ تعالى: ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ إضافةٌ لاميَّةٌ، أي: العاقبةُ الَّتي للدّارِ، وهي الجنَّةُ، ويحتملُ أنْ يكونَ أصلُ ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾: الدّار العاقبة، فأُضيفَتِ الصِّفةُ إلى موصوفِها(1).

بلاغةُ التَّمثيلِ في ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾:

مـآلُ المؤمنِ إلى الاستقرارِ في دارِ القرارِ

﴿عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ كلمةٌ جرَتْ مَجْرَى المَثَلِ في خاتمةِ الخيرِ بعدَ المشقَّةِ؛ تشبيهًا لعاملِ العملِ بالسّائرِ المُنتجِعِ؛ إذا صادفَ دارَ خِصْبٍ، واستقرَّ بها، وقالَ: الحمدُ للّهِ الَّذي أحلَّنا دارَ المُقامةِ مِنْ فضلِهِ(2).

بلاغةُ التَّعريضِ في الآيةِ الكريمةِ:

للمكذِّبينَ عاقبةُ الـسّـوءِ وبئسَ العاقبةُ

في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ تفويضٌ إلى ما سيظهرُ مِنْ نصرِ أحدِ الفريقينِ على الآخرِ، وهو تعريضٌ بالوعيدِ بسوءِ عاقبةِ المُكذِّبينَ(3)، فالدّارُ هي الدُّنيا، وعاقبتُها الأصليَّةُ هي الجنَّة؛ لأنَّها خُلِقَتْ مجازًا إلى الآخرةِ، والمقصودُ بالذّاتِ منها الثَّوابُ، وأمّا العقابُ؛ فمن نتائجِ أعمالِ العُصاةِ، وسيئاتِ الغواةِ(4).

بلاغةُ الفصلِ في جملةِ ﴿إِنَّهُۥ﴾:

المُكذِّبُ هو المخذولُ؛ لأنَّ الكذبَ إلى الخسارِ يؤولُ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ لتعليلِ كونِ عاقبةِ الدّارِ للمهتدي، وتأكيدِهِ ببيانِ أنَّ عادةَ اللّهِ قد جرَتْ بأنَّ المُكذِّبينَ الظّالمينَ مخذولونَ(5)، وأنَّهم لا يظفرونَ بالفوزِ والنَّجاةِ، بل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 120.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 120.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 120.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 14.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 294.

يحصُلونَ على ضدِّ ذلكَ، وفي هذا زَجْرٌ لهُم عن العنادِ الَّذي ظهرَ منهُم[1]، وفتٌّ مِنْ أعضادِهم[2].

دلالةُ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

خسارةُ الظّالمينَ سنَّةُ اللهِ في البَشَرِ، طال بهم الزَّمانُ أو قصُر

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بـ(إنَّ)؛ اعتناءً بمضمونِه[3]، وتقريرًا لهُ، ولزيادةِ تخويفِ المُكذِّبينَ، وحثِّهم على الإقلاعِ عمّا هم عليهِ مِنَ الشِّركِ والظُّلم لأنفُسِهم؛ لئلّا تكونَ عاقبتُهم البَوارَ والهلاكَ، وفي التَّأكيدِ أيضًا دلالةٌ على أنَّ موسى عليه السلام واثقٌ مِنْ كونِه على الحقِّ[4]، كأنَّه يقول لمن يكذّب بكونه رسولًا من عند اللّه: ولو كنتُ كما تزعُمون ساحرًا مفتريًا؛ لَمَا أهَّلني ربّي لذلك؛ لأنَّه غنيٌّ حكيم، لا يرسِل الكاذبين، ولا ينبِّئَ السّاحرين، ولا يفلح عنده الظّالمون[5].

دلالةُ ضميرِ ﴿إِنَّهُۥ﴾:

شأنُ عدمِ فلاحِ الظّالمينَ عظيمٌ

الضَّميرُ في: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للشَّأنِ[6]؛ لأنَّ الجملةَ بعدَهُ ذاتُ معنًى لهُ شأنٌ وخَطَرٌ[7]، أي: (إنَّ الشَّأنَ أنَّهُ لا يفلحُ الظّالمونَ)، أي: لا يفوزونَ بمطلبِ خيرٍ[8]، وفي التَّعبيرِ بهِ تفخيمٌ لشأنِ عدم فلاحِ الظّالمينَ؛ لأنَّ افتتاحَ الكلامِ بهِ فيهِ إبهامٌ وتشويقٌ لمعرفةِ ما يَعْقُبُهُ، ويُفسِّرُهُ؛ فإذا جاءَ المُفسِّرُ؛ تمكَّنَ في النَّفسِ غايةَ التَّمكُّنِ، لِما هو معروفٌ مِنْ أنَّ البيانَ بعدَ الإجمالِ، يُرسِّخُ المعنى في النُّفوسِ، ويُقرِّرُهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾:

عـدمُ فـلاحِ الظّالمينَ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ باطِّرادٍ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِه تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 598.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 121.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 294.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 121.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/ 643.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 288.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 121.
(8) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 200.

﴿يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ عدمَ فلاحِ الظّالمينَ أمرٌ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ، ولنْ يكونَ لهُم فلاحٌ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ؛ لأَنَّ صيغةَ المضارِعِ تفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، وإذا دخلَ عليها النَّفيُ؛ أفادتِ استمرارَ الانتفاءِ، وفي ذلكَ تيئيسٌ للمُكذِّبينَ مِنَ الفلاحِ، وحثٌّ لهُم على تركِ ما هم فيهِ مِنَ الظُّلمِ والمعاندةِ للحقِّ والهُدى.

دلالةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وجمعِهِ:

عدمُ الفلاحِ محكومٌ بهِ على كلِّ ظالمٍ غشومٍ

تعريفُ لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وجمعُهُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ عدمَ الفلاحِ حكمٌ عامٌّ، يشملُ كلَّ ظالمٍ مِنَ الظَّلَمةِ، لا يُستثنَى منهُ أحدٌ منهُم، وهم وإن وجدوا بعضَ مقاصِدِهم في البداية استدراجًا؛ فإنَّهم لا يفوزون بالعُقبى الحميدة، بل سوف يؤولون إلى انقطاع الأثر، وسوء الذِّكر، وقد حقَّق اللّه هذا الوعدَ، فصيَّر عاقبةَ قومِ موسى إلى سُموٍّ ورقاء، ونهاية الظَّلمة من أعدائه إلى ضَعَةٍ وفناء[1].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الظُّلمُ سببُ عدمِ الفلاحِ في الحالِ والمآلِ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ من الظُّلم في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لِمَا تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِن استقرارِ ظلمِهم وثباتِهِ، وأنَّهُ صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ الرّاسخةِ الَّتي لا ينفكّون عنها، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ اللّامَ في ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ موصولةٌ، أي: (الَّذينَ ظلموا)، فيفيدُ هذا الوصفُ التَّنبيهَ على العلَّةِ الموجبةِ لعدم فلاحِهم، وهي الظُّلمُ، كأنَّهُ قيلَ: لا يُفلِحونَ؛ لأَنَّهم ظالمونَ، حيثُ دُعوا إلى الإيمانِ باللّهِ، وأُتوا بالمُعجِزاتِ، فادَّعَوُا الإلهيَّةَ، ونَسَبوا ذلكَ المُعجِزَ إلى السِّحْرِ[2].

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 522 (بتصرّف).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 306.

سرُّ حذفِ مُتعلِّقِ الظُّلمِ:

جاءتِ الآيةُ الكريمة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بالحُكم على الظّالمين إطلاقًا، ولم يُقَيَّد نوعُ الظُّلم الذي تكون عاقبتُه عدمَ الفلاح؛ إشارةً إلى أنَّ أعمالَهم قد اصطبغَتْ بالظُّلمِ، بحيثُ لا يخلو منهُ شأنٌ مِنْ شؤونِ حياتِهم، فَهُم قد ظلموا أنفسَهم أوَّلًا بتعريضِها للعقابِ بسببِ كفرِهم وتكذيبِهم وعنادِهم، وظلموا موسى ﵇ بتكذيبِهِ ونسبةِ ما جاءَهم بِهِ مِنَ الآياتِ البيِّناتِ إلى السِّحْرِ، وظلموا أتباعَهم بتضليلِهم، وظلموا بني إسرائيل بتعذيبِهم وتَقتيل أبنائهم، ثُمَّ إنَّ الإطلاق يفيد التَّعميم، فعُمومُ لفظِ الآية يشمَلُ كُلَّ ظالم، ليَغشيَهم الحكمُ بعدم الفلاح.

خُذِلوا لأنَّ الظُّلمَ كان شامِلًا لكلِّ شؤونِهم، وكذلك يكونُ حُكمُ كلِّ ظالمٍ

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

جوابُ فرعون لموسى عليه السلام مُعلِنٌ عن عنادِ فرعونَ وسَذاجَةِ قومه

بعد أن عرضتِ الآيةُ السّابقةُ مضمونَ الخطابِ العقلانيِّ الهادئ الَّذي استدلَّ فيه موسى عليه السلام على صدْقِه بعِلم اللّه برسله، وعاقبة من يُمكَّن لهم في الأرض، ومصير من يسعى فيها ظُلمًا؛ جاء جوابُ فرعونَ لهذا التَّرغيب والتَّرهيب والإعذار، مُعلِنًا عن غَطْرَسَته وكِبريائه ومعاندته للحقِّ، وعن استخفافه بقومه المُطيعين له، بأنِ ادَّعى أنَّه لا إلهَ لهم غيرُه، ثمَّ أمر وزيرَه هامان أن يبنيَ له صرحًا شامخًا ليصعدَ عليه، فيطَّلعَ على إله موسى، وهو يقطَعُ أنَّه غيرُ موجود، وهكذا كانت عادتُه - كُلَّما أظهر موسى عليه السلام دليلًا قاطعًا وبُرهانًا ساطعًا - أن يُقابلَه بادِّعاءٍ كاذِب، وجوابٍ ساذِج، ليوقِفَ قومَه عن الإيمان إلى حينٍ، وما ذلك إلّا لأنَّهم كانوا في غاية الغباوة والعراقة في الميل إلى الباطل، والنَّفرة من الحقِّ، وترجيح المظنَّة على المئنَّة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: (ملي / ملأ) أصلٌ يدلُّ على المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيْءِ، يُقالُ: مَلَأْتُ الشَّيْءَ أَمْلَؤُهُ مَلْئًا، والمِلْءُ: الاِسْمُ لِلْمِقْدارِ الَّذي يُمْلَأُ، وسُمّيَ لأنَّه مُساوٍ لِوِعائِه في قَدْرِه[2]، ويقالُ: فلانٌ مِلْءُ العُيونِ، أي: مُعظَّمٌ عندَ مَنْ رآهُ، كأنَّه ملأ عينَه مِنْ رؤيتِه[3]، والمَلَأُ: الأشرافُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 294.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملي).
(3) الراغب، المفردات: (ملأ).

سُمّوا بذلكَ؛ لأنَّهم يملؤونَ القُلوبَ هَيْبَةً، والعُيونَ جلالةً[1]، وقيل: سمّوا ملأً؛ لأنَّهم مليؤون بما يُراد منهم[2]، وقيلَ: الملأُ جماعةٌ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العُيونَ رواءً ومنظرًا، والنُّفوسَ بَهاءً وجلالًا، ومالَأْتُه: عاونتُه وصِرْتُ مِنْ مَلَئِه، أي: جَمْعِه[3]، والمرادُ بالملأِ في خطاب فرعونَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾: أشرافُ قومِه.

2) ﴿فَأَوۡقِدۡ﴾: (وقد) أصلٌ يدلُّ على اشتعالِ نارٍ[4]، يقالُ: وقدَتِ النّارُ تَقِدُ وُقودًا ووَقْدًا[5]، والوَقودُ يقالُ للحَطَبِ المجعولِ للوُقودِ، ولِما حصلَ مِنَ اللهبِ، قالَ ﷻ: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ [البقرة: 24]، وقالَ: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾ [البروج: 5]، ويقالُ: أوقدتُ النّارَ، واستوقدتُها، قالَ تعالى: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ﴾[6].

3) ﴿ٱلطِّينِ﴾: (طين) كلمةٌ واحدةٌ معروفة[7]، فالطّينُ هو التُّرابُ والماءُ المُختلِطُ، وقد يُسمَّى بذلكَ وإنْ زالَت عنهُ قوَّةُ الماءِ، قالَ ﷻ: ﴿مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ۝١١﴾ [الصّافات: 11][8].

4) ﴿صَرۡحٗا﴾: (صرح) أصلٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُروزِه، ومِنْ ذلكَ: الشَّيءُ الصَّريحُ، ويقالُ: صرَّحَ بما في نفسِه؛ إذا أظهرَهُ[9]، ولَبَنٌ صريحٌ أي: خالصٌ، والصَّرْحُ: القَصْرُ والبناءُ المرتفعُ، فهو ظاهرٌ بارزٌ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾[10].

5) ﴿أَطَّلِعُ﴾: (طلع) أصلٌ يدلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ، يقالُ: طلعتِ الشَّمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا[11]، والمَطْلِعُ: موضعُ الطُّلوعِ، قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ﴾ [الكهف: 90]، واطَّلَعَ: طلع، ونظر، وفي التَّنْزيل العَزيز: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصّافات: 55]، واطَّلع عَلى الأمر: علِمَه، وعَلى الشَّيْء: أشرف عَلَيْهِ، وإِلَيْهِ: تطلَّع ونظر ليعرِفَهُ، وللأمر: قويَ عَلَيْهِ، وسيطر، واطَّلع الأمرَ: علمَهُ، وأدْرَكَ أسراره، وفي التَّنْزيل العَزيز:

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: (ملأ).
(2) نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (الملأ).
(3) الراغب، المفردات: (ملأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وقد).
(5) الجوهري، الصحاح: (وقد).
(6) الراغب، المفردات: (وقد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طين).
(8) الرّاغب، المفردات: (طين).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صرح).
(10) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صرح).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلع).

﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨﴾ [مريم: 78](1)، ومعنى الاطِّلاع في الآية: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: لعلّي أصعَدُ لِأنظُرَ إليه، تعالى اللّهُ عُلوًّا كبيرًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مكابرةُ فرعونَ، وفَرْطُ طُغيانِهِ، وطلبُهُ بناءَ الصّرحِ ليطَّلعَ إلى الله ﷻ

قالَ فرعونُ لأشرافِ قومِهِ وسادتِهم: ما علمتُ لكُم مِنْ إلهٍ غيري، فاعبُدوني، ولا تُصدِّقوا قولَ موسى فيما جاءَكم بهِ، مِنْ أنَّ لكُم ربًّا غيري، وأمَرَ وزيرَه هامان: أن أوقِد لي على الطِّين، واصطنع لي بالآجُرِّ بناءً عاليًا؛ لعلّي أصعدُ إلى إله موسى الَّذي يعبُدُهُ، ويدعو إلى الإيمان به وعبادتِهِ، وإنّي لأظنُّ موسى كاذبًا فيما يزعم من وجود إلهه من الأساس(2).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ الجملة:

استخفافُ فرعونَ قومَهُ بعدَ سماعِهِم حُجَجَ موسى عليه السلام

كلامُ فرعونَ المحكيُّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ واقعٌ في مقامٍ غيرِ مقام المُحاوَرةِ معَ موسى، فهو كلامٌ أقبلَ بِهِ على خطابِ أهلِ مجلسِهِ إثرَ المُحاوَرةِ معَ موسى؛ فلذلكَ حُكِيَ بحرفِ العطفِ، وهو مِنْ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، فهذه قصَّةُ مُحاوَرةٍ بينَ فرعونَ ومَلَئِهِ في شأنِ دعوةِ موسى عليه السلام، فهي حقيقةٌ بحرفِ العطفِ(3).

بلاغةُ النِّداءِ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾:

اهتمامُ فرعونَ بادِّعائِهِ الألُوهيَّةَ ضلالٌ وغرور

جيءَ بالنِّداءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، واستُعمِلَتْ فيهِ (يا) الَّتي يُنادَى بها البعيدُ،

(1) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (طلع).
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 581.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 121.

وجيءَ معَها بهاءِ التَّنبيه؛ إشارةً إلى شدَّةِ اهتمامِ فرعونَ بمُناداةِ مَلَئِه، ولَفْتِ انتباهِهم للكلامِ الَّذي سيُلقيهِ عليهِم؛ لأنَّهُ كلامٌ مُهِمٌّ يتعلَّقُ باستعبادِهِ لهُم، وادِّعائِهِ الأُلوهيَّةَ، وتكذيبِهِ لموسى عليه السلام، وقد ناداهُم بوصفِ الملأِ، أي: الأشراف؛ تعظيمًا لهُم، واستجلابًا لقلوبِهم[1].

سرُّ تخصيصِ الملأِ بالنِّداءِ:

ملأُ فرعونَ هم أشرافُ قومِهِ، وأهلُ مَشورتِهِ، وخاصَّة خاصَّته

خصَّ فرعونُ الملأَ بالنِّداءِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾؛ لأنَّ الملأَ هم أشرافُ النّاسِ الَّذينَ يَنوبونَ مَنابَ الجميعِ[2]، وهو قد نادَى أعيانَ قومِهِ الَّذينَ هم أهلُ مجلسِهِ ومُستشاروهُ[3]، وإنَّما عقَّب فرعونُ خطابَ موسى عليه السلام بهذا النِّداء؛ خشيةَ أن يتأثَّروا بدعوته، فأراد أن يُذكِّرَهم بألوهيَّتِه[4]، وأنَّ عليهم رفْضَ دعوتِه بالكليَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي المنفيِّ ﴿مَا عَلِمۡتُ﴾:

مبالغةُ فرعونَ في نفي العلم بألوهيَّةِ إلهٍ غيرِهِ؛ تسفيهًا وإضلالًا

جيءَ بصيغةِ الماضي المنفيِّ لفعلِ العلم في قولِ فرعون: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾؛ للدَّلالةِ على مبالغةِ فرعونَ في نفيِ العلم بألوهيَّةِ غيرِهِ، حيثُ جعلَ عدمَ العلم مُستغرِقًا للزَّمانِ الماضي، وذلكَ يدلُّ على تيقُّنِه ممّا يقولُ، وأنَّهُ لا يُساوِرُهُ شكٌّ في ذلكَ، ولذلكَ لم يقل: (لا أعلمُ)، وذكر النَّسفيُّ أنَّه قصد بنفي علمه بإلهٍ غيرِه: نفيَ وجودِه، أي: (ما لكم مِن إلهٍ غيري)، أو هو على ظاهره، وأنَّ إلهًا غيرَه غيرُ معلوم عنده[5].

دلالةُ اللّامِ في شبه الجملة ﴿لَكُم﴾:

ألوهيَّةُ فرعونَ المزعومةُ مختصَّةٌ بقومِهِ المعترفين له بذلك

اللّامُ في قولِهِ تعالى حكايةً عن فرعون: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ للمِلكِ والاستحقاقِ، وفيها دلالةٌ على أنَّ ألوهيَّةَ فرعونَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 294.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 258.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 258.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 926.
(5) النّسفيّ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 644.

المزعومةَ مختصَّةٌ بقومِه، ومفاد هذه العبارة قولُه لهم: (أنا وحدي إلٰهُكم ومعبودُكم، ولو كان ثَمَّ إلهٌ غيري؛ لعلمته)، وهو لم يقل: (ما لكم من إله غيري)، بل تمثَّل في صورة الورعِ، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وما ذلك إلّا لأنَّه عندهم العالِمُ الفاضل، الذي مهما قال؛ فهو الحقُّ، ومهما أمر؛ أطاعوه[1].

سرُّ تقديمِ شبه الجملة ﴿لَكُم﴾:

شِدَّةُ حرصِ فرعونَ على استعبادِ قومِهِ والاستيلاءِ على عقولهم

قُدِّمَ شبه الجملة ﴿لَكُم﴾ على ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ - مفعولِ ﴿عَلِمْتُ﴾ - في قولِ فرعون ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾؛ للتَّنبيه على فَرْطِ حرصِ فرعونَ على إثباتِ ألوهيَّتِه لقومِه، والعناية باستعبادِهِ لهُم، حيثُ جعلَ عدمَ علمِهِ بألوهيَّةِ غيرِهِ مُتعلِّقًا بهم.

معنى ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾:

انتفاءُ ألوهيَّةِ غيرِ فرعونَ مُؤكَّدٌ في زعمِهِ المتهافِت

عُبِّرَ بـ﴿مِّنْ﴾ في قولِهِ تعالى حكاية عن فرعونَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، ولم يقل: (ما علمتُ لكم إلهًا غيري)؛ لأنَّ ﴿مِّنْ﴾ صلةٌ، فتفيدُ توكيدَ النَّفيِ المستفادِ منْ ﴿مَا﴾، والإغراقَ فيه[2]، فأوهمَ فرعونُ بذلكَ أنَّهُ قد استقصَى في البحثِ والتَّنقيبِ عن إلهٍ غيرِهِ، فلم يعلمْهُ.

غرضُ تنكيرِ ﴿إِلَٰهٍ﴾ ووصفِهِ بـ﴿غَيْرِى﴾:

تثبيتُ فرعونَ قومَهُ على عقيدةِ إلهيَّتِهِ المزعومة

يدلُّ تنكيرُ ﴿إِلَٰهٍ﴾ في قول فرعونَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ على تعميم نفيِ الآلهة؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ، كما يدلُّ وصفُ ﴿إِلَٰهٍ﴾ بـ﴿غَيْرِى﴾ على إثباتِ فرعونَ الألوهيَّةَ لنفسه فيما يزعم[3]، وقد أرادَ بخطابِهِ معَ مَلَئِهِ أنْ يُثبِّتَهم على اعتقادِ إلهيَّتِهِ، والمقصودُ بنفيِ وجودِ إلهٍ غيرِهِ: نفيُ وجودِ الإلهِ الَّذي أثبتَهُ موسى، وهو اللّٰهُ تعالى، الإلهُ الحقُّ وخالقُ الجميعِ، وأمّا آلهتُهم الَّتي

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 616.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 294.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 599.

يزعمونَها؛ فإنَّها ممّا تقتضيهِ إلهيَّةُ فرعونَ؛ لأنَّ فرعونَ عندَهم هو مُظهِرُ الآلهةِ المزعومةِ عندَهم؛ لأنَّهُ في اعتقادِهم ابنُ الآلهةِ(1).

بلاغةُ الكنايةِ في الآية الكريمة:

جعَلَ فرعونُ عدمَ علمِهِ بإلهٍ غيرِهِ علامةً على عدمِ وجودِهِ

في قولِهِ ﷻ حكايةً عن فرعونَ: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ فرعونَ قد قصدَ بنفيِ علمِهِ بإلهٍ غيرِهِ نفيَ وجودِهِ؛ تنزيلًا نفسَهُ الحقيرةَ منزلةَ علّامِ الغيوب، الذي لا يعزُب عنه شيءٌ موجود، فقد عبَّر اللّه تعالى عن نفي الوجود بنفي علمه به، كما في قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 18]، فإنَّ معناهُ: (بما ليسَ فيهنَّ)، وذلكَ لأنَّ علمَهُ سبحانه تابعٌ للمعلوم، لا يتعلَّقُ بهِ إلّا على ما هو عليهِ، فإذا كانَ الشَّيءُ معدومًا؛ لم يتعلَّقْ بهِ موجودٌ(2).

وأمّا علمُ الخلق؛ فلا تلازُمَ بين نفي وجود الشَّيء ونفي العلم بوجوده، كما لا تلازُمَ في إدراكهم بَين الوجود والعلم بالموجود، لكنَّ فرعونَ فرَّع على ادِّعائه الألوهيَّةَ ادِّعاءَ شموليَّةِ علمِهِ، فأوهمَ ملأَه أنَّ علمَهُ قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ موجودٍ، فلو كانَ ثمَّةَ إلهٌ غيرُهُ؛ لَعَلِمَهُ، تدليسًا عليهم، واستخفافًا بعقولهم(3).

ويجوزُ أنْ يكونَ غيرَ معلوم عندَهُ إلهٌ لهُم، ولكنَّهُ مظنونٌ، فيكونُ النَّفيُ على ظاهرِهِ، ويدلُّ على ذلك قولُهُ آخرَ الآية: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾(4).

بلاغةُ الاستئنافِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَأَوۡقِدۡ﴾:

غرضُ الأمرِ إظهارُ فرعونَ نفسَهُ في صورةِ المتُطلِّبِ للحقِّ

لمّا بيَّن موسى ﵇ أنَّ الإلهَ الحقَّ هو ربُّ السَّموات؛ حسِبَ فرعونُ أنَّ مملكةَ هذا الرَّبِّ السَّماءُ تصوُّرًا مُختلًّا، ففرَّعَ على نفيِ وجودِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 121.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 413.

(3) ابن المنير، الانتصاف: 2/ 163، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 121.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 413، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 306.

إلهٍ غيرِه لقومه، وعلى توهُّم أنَّ الرَّبَّ المزعومَ مَقَرُّهُ السَّماءُ؛ أن أمرَ هامانَ وزيرَهُ أنْ يبنيَ لهُ صرحًا يَبْلُغُ بهِ عنانَ السَّماءِ؛ ليرَى الإلهَ الَّذي زعمَهُ موسى، حتَّى إذا لم يَجِدْهُ؛ رجعَ إلى قومِه، فأثبتَ لهُم عدمَ وجود إلهٍ في السَّماءِ إثباتَ معاينةٍ، فقال: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، وأرادَ بذلك أنْ يَظهرَ لقومِه في مظهرِ المُتطلِّبِ للحقِّ، المُستقصي للعوالم، حتَّى إذا أخبرَهم بعدَ ذلك بأنَّ نتيجةَ بحثِه أسفرَتْ عن كذبِ موسى عليه السلام؛ ازدادوا ثقةً ببطلانِ قولِ موسى عليه السلام[1].

دلالةُ الأمرِ في الفعل ﴿فَأَوۡقِدۡ﴾:

كِبْرياءُ فرعونَ يُصدِرُ الأوامرَ؛ ظنًّا أنَّه الإلهُ الآمر

صيغةُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾؛ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ فيها، ولا صارِفَ عنهُ هنا، بل مقامُ الاستعلاءِ وإظهارِ العظَمةِ والنُّفوذِ وسَعَةِ القدرةِ يقتضيه، "وفي هَذا الضِّغْثِ مِنَ الجَدَلِ السّفِسْطائيِّ مَبْلَغٌ مِنَ الدَّلالَةِ عَلى سوءِ انْتِظامِ تَفْكيرِهِ وتَفْكيرِ مَلَئِه، أوْ مَبْلَغُ تَحَيُّلِهِ وضَعْفِ آراءِ قَوْمِه"[2].

دلالةُ اللّامِ وغرَضُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿لِي﴾:

شــدَّةُ عنايةِ فرعونَ بتنفيذِ أوامرِه الغريبة

اللّامُ في ﴿لِي﴾ للمِلْكِ والاستحقاقِ، وقد أضافَ فرعونُ الإيقادَ إلى نفسِه؛ إعلامًا بأنَّهُ لا بدَّ منهُ[3]؛ لأنَّهُ أمرٌ بشيءٍ يتعلَّقُ بِه، وقدَّمَ ﴿لِي﴾ في قولِه: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ اعتنائِه بالمبادرةِ إلى تنفيذِ أمرِه بالإيقادِ على الطّينِ، بحيثُ لا يكونُ في التَّنفيذِ تأخيرٌ ولا تَوانٍ.

بلاغةُ النِّداءِ بـ ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾:

تعاظمُ فرعونَ بتجبُّرٍ، مُسفِرٌ عن طغيانه والتكبُّر

لمّا كانَ فرعونُ مُنغمسًا في مقامِ التَّجبُّرِ والكِبْرياءِ والعظَمةِ، والحَميَّةِ لألوهيَّتِه المزعومة؛ صدرَ منهُ مِنَ الكلامِ ما يدلُّ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 121.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 122.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 295.

تعظيمِهِ لنفسِهِ، وتجبُّرِهِ على قومِهِ، وذلكَ أنَّهُ أمرَ بحسَبِ الظّاهرِ هامانَ - وهو وزيرُهُ - بالإيقادِ على الطّينِ، وناداهُ باسمِهِ، فقالَ: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾[1]، ولم يقل: (يا وزيري)، أو (أيُّها الوزيرُ)، أو (يا أيُّها الوزيرُ)، أو نحوَ ذلكَ ممّا يُشعِرُ بتعظيمِ هامانَ، واختصَّهُ مِنْ بينِ الملأِ بالنِّداءِ[2]، معَ أنَّهُ كانَ حاضرًا بينَهم، وداخلًا في الخطابِ، بل هو المُخاطَبُ الأوَّلُ؛ لكونِهِ وزيرَهُ، فلم يقل: (فأوقِدوا لي)، بل قالَ: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي﴾، ثمَّ أتى بـ (يا) الدّالَّةِ على البعيدِ، وكلُّ ذلكَ إظهارٌ للكِبْرياءِ؛ لأنَّ (يا) في مِثلِ هذا المقامِ تبعيدٌ للمُنادَى، وإيذانٌ بالتَّهاونِ بهِ[3].

سرُّ تأخيرِ النِّداءِ عن صدرِ الكلامِ:

تعاظُم فرعونَ في نفسه منَعَه من تقديرِ هامانَ وزيرِه

أخَّر فرعونُ النِّداءَ إلى وسطِ الكلامِ المأمورِ بهِ[4]، في قوله: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ﴾، ولم يقل: (يا هامانُ أوقِدْ لي)، والمعهودُ في النِّداءِ أنْ يُنادَى الرَّجلُ أوَّلًا، ويُنبَّهَ، ويوقَظَ عن سَنَةِ الغفلةِ، ثمَّ يُؤمَرَ، وقد خالفَ المعهودَ بتأخيرِ نداءِ المأمورِ عن الأمرِ، اهتمامًا بالمأمورِ به واستعجالًا لتنفيذه، وتهوينًا أيضًا للمأمورِ بتأخيرِ ذكرِهِ، وتعظُّمًا عليه[5]، ولو قدَّمَ النِّداءَ؛ لزمَ أنْ يقدِّمَ ذكرَ هامانَ على ذكرِ نفسِهِ، ولم يَرْضَ بهِ تعظُّمًا[6].

دلالةُ ﴿عَلَى﴾:

بيانُ شدَّةِ النّارِ المطلوبِ إيقادُها على الطّينِ

يدلُّ حرفُ الاستعلاءِ ﴿عَلَى﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ حكايةً عن فرعونَ: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ على أنَّ المرادَ بالطّينِ: اللَّبِنُ، أي: اتَّخِذْ لَبِنًا، واصنعْ آجُرًّا؛ إذ الإيقادُ المُستعلي على الطّينِ يستلزمُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 415، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 600.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 415، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 600.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 63.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 415.
(5) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 523.
(6) زاده، حاشية على البيضاويّ: 6/ 451.

كونَهُ آجُرًّا[1]، وفي هذا الاستعلاءِ دليلٌ على شدَّةِ النّارِ المطلوبِ إيقادُها، فهي تَسْطو على الطّينِ مِنْ تحتِهِ، ومِنْ جميعِ جوانبِهِ، بل تستعلي عليهِ مِنْ فَوْقِه.

سرُّ التَّعبيرِ بالإيقادِ على الطّينِ:

لفظةُ الطّينِ أخفُّ وأفصحُ، وهي المناسِبة لهذا السّياق

إنَّما قالَ: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، ولم يقل: (اطبُخْ ليَ الآجُرَّ واتَّخِذْهُ)؛ لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ عملَ الآجُرَّ، فهو يُعلِّمُهُ الصَّنعةَ بذكرِ كيفيَّتِها؛ ولأنَّ الطّينَ أنسبُ بفصاحةِ القرآنِ[2]؛ لأنَّ كلمةَ الآجُرِّ ونحوها: كالقرمدِ والطّوبِ، كلماتٌ مُبتذَلةٌ[3]، والطّينُ أخفُّ وأفصحُ[4]، ولإظهارِ تعاظمِهِ بهذا الأمرِ؛ لأنَّ إيقادَ النّارِ على الطّينِ أمرٌ هيِّنٌ حقيرٌ يَقْدِرُ عليهِ العجائزُ والصِّبيانُ، فيكونُ الأمرُ بهِ مبنيًّا على عدمِ الاعتدادِ بهِ، ولأنَّ طَبْخَ الآجُرِّ صنعةٌ خسيسةٌ، لا يليقُ بالملوكِ وعُظَماءِ النّاسِ أنْ يأمُروا بها، ويذكُروا اسمَها على ملأِ النّاسِ[5]، وإنَّما سوَّغ التَّعبيرَ عن الآجُرِّ بالطّينِ أنَّهُ قِوامُ صنعِ الآجُرِّ، وكأنَّهُ لم يأمرْهُ ببناءٍ مِنْ حجرٍ وكِلْسٍ؛ قصدًا للتَّعجيلِ بإقامةِ هذا الصَّرحِ المرتفعِ؛ إذ ليسَ مطلوبًا طولُ بقائِهِ بإحكامِ بنائِهِ على مرِّ العصورِ، بل المرادُ سرعةُ الوصولِ إلى ارتفاعِهِ، كي يشهدَهُ النّاسُ، ثمَّ يُنقَضُ مِنَ الأساسِ[6].

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلطِّينِ﴾:

جنسُ الطّينِ قِوامُ صنعِ الآجُرِّ المعروفِ منذُ زمن فرعون

جاءَ تعريفُ لفظ ﴿ٱلطِّينِ﴾ بـ(أل)، في قولِهِ سبحانَهُ حكايةً عن فرعون: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، وهو للجنسِ، أي: (أوقِدْ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 521.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 414.
(3) ابن الأثير، المثل السائر: 1/ 200.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 122.
(5) زاده، حاشية على البيضاويّ: 6/ 451.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 122.

لي على هذا الجنسِ المُسمَّى بالطّينِ)[1]، الَّذي يُصنَعُ لَبِنًا، ثُمَّ يُطبَخ آجُرًّا[2]، قال مقاتل: وكان فرعون أوَّل من طبخ الآجرَّ، وبنَى به، وبذلك قال: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾، أي: قصرًا طويلًا مشرفًا كالمنارة[3]، ولكنَّ بنيانَهُ ذاك كان عَبَثًا، فذهب أدراجَ الرّياحِ.

بلاغةُ إسنادِ الإيقادِ إلى هامانَ:

الـوزيـرُ مـنـفِّـذٌ لأوامـــرِ فـرعـون بواسطةِ أعوانِهِ، لا بعمل يده

إسنادُ الإيقادِ على الطّينِ إلى هامانَ في قولِ فرعون: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ مجازٌ عقليٌّ، باعتبارِ أنَّهُ الَّذي يأمرُ بذلكَ، كقولِهم: بنَى المنصورُ بغدادَ، وكانَتْ أوامرُ الملوكِ في العصورِ الماضيةِ تَصدُرُ بواسطةِ الوزيرِ، فكانَ الوزيرُ هو المُنفِّذَ لأوامرِ المَلِكِ بواسطةِ أعوانِهِ، مِنْ كُتّابٍ وأُمَراءَ ووُكَلاءَ ونحوِهم، كلٌّ فيما يليقُ بهِ[4].

بلاغةُ الكنايةِ في الإيقادِ على الطّينِ:

الأمـرُ بتحضير مُـقَـدِّمـات بناء الـصَّـرح يــدُلُّ عـلـى الـعـنـايـة بالشُّروع فيه

أرادَ فرعونُ بقولِه: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أنْ يأمرَ هامانُ العَمَلَةَ أنْ يَطْبُخوا الطّينَ؛ ليكونَ آجُرًّا، ويَبْنوا به، وقد كانوا يَبْنونَ بالآجُرِّ بيوتَهم، فكانوا يجعلونَ قوالبَ مِنْ طينٍ يتصلَّبُ؛ إذا طُبِخَ، وكانوا يخلطونَهُ بالتِّبْنِ ليتماسكَ قبلَ إدخالِه التَّنّورَ، فكنَّى فرعونُ عن البناءِ بمُقدِّماتِه، وهي إيقادُ الأفرانِ لتجفيفِ الطّينِ المُتَّخَذِ آجُرًّا؛ لِلدَّلالَةِ عَلى الاستعجالِ والعِنايَةِ بِالشُّروعِ من أوَّلِ أَوْقاتِ الأَمْرِ؛ لِأَنَّ ابْتِداءَ البناءِ يَتَأَخَّرُ إلى ما بَعْدَ إِحْضارِ مَوادِّهِ الأوَّلِيَّة؛ فَلِذَلِك أَمَرَ فرعونُ بِالأَخْذِ في إِحْضارِ تِلْكَ المَوادِّ، الَّتي أوَّلُ تحضيرِها الإيقادُ، أَيْ: إِشْعالُ التَّنانيرِ لِطَبْخِ الآجُرِّ[5]، وهو يريد تحقيقَ نفيِ الإله الحقِّ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 62، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 6/ 451.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 122.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 608.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 123.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 122.

وإثباتَ ألوهيَّته هو في هذا الكون البديع، وفعلَ الأسباب؛ ليتوصَّل إلى إله موسى، تزويرًا منه واستخفافًا بقومه[1].

دلالةُ فاءِ ﴿فَأَجۡعَل﴾:

الفاءُ في قولِ الباري ﷻ حكايةً عن خطاب فرعونَ لهامانَ: ﴿فَأَجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾ للسَّببيَّة، وهي تفيدُ أنَّهُ قد تسبَّبَ عن الأمرِ بالإيقادِ على الطّينِ الأمرُ ببناءِ الصَّرْحِ[2]، وفي التَّعبيرِ بالفاءِ إشارةٌ إلى ضرورةِ المسارعةِ في العملِ، وعدمِ التَّواني فيه، وهي تفيدُ شدَّةَ حَميَّةِ فرعونَ، وفَرْطَ حرصِه على إظهارِ كذبِ موسى ﵇ بحسَبِ زعمِه.

تسبُّبُ بناءِ الصَّرْحِ عن الإيقادِ؛ إذ لا بدَّ لكلِّ مُنجَز من أسباب

سرُّ التَّعبيرِ بالجعلِ:

عُبِّرَ بالجعلِ دونَ غيرِه في قولِ فرعونَ: ﴿فَأَجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾؛ لأنَّ مِنْ معاني الجعلِ في اللُّغَةِ: إيجادَ شيءٍ مِنْ شيءٍ، وتكوينَهُ منهُ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النّحل: 72][3]، والصَّرْحُ الَّذي أمرَ فرعونُ ببنائِه مجعولٌ مِنَ الطّينِ المطبوخِ.

الصَّرْحُ مُتَّخَذٌ مِنَ الطّينِ المطبوخِ، وهو مادَّة البناء آنئذٍ

دلالةُ اللّامِ، وغرَضُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿لِّي﴾:

اللّامُ في ﴿فَأَجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾ للمِلْك والاستحقاق، وقد أضافَ فرعونُ الجعلَ إلى نفسِه إعلامًا بأنَّهُ لا بدَّ منهُ[4]؛ لكونِه يتعلَّقُ به، ولهُ فيهِ منفعةٌ ظاهرةٌ، وقدَّمَ ﴿لِّي﴾ على ﴿صَرۡحٗا﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ اعتنائِه بالمبادرةِ إلى تنفيذِ أمرِه ببناءِ الصَّرْحِ ورفعِه، بحيثُ لا يكونُ في بنائِه تأخيرٌ ولا تقصيرٌ؛ إذ مِنْ عادةِ النّاسِ المسارعةُ في تنفيذِ مطالبِ الحُكّامِ والمُلوك.

شدَّةُ عنايةِ فرعونَ بتنفيذِ أوامرِه، دليلٌ على صلابته في كفره

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الصَّرْحِ):

قولُه تعالى حكايةً عن فرعون: ﴿فَأَجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾، معناهُ:

بيانُ أنَّ ارتفاعَ البناءِ يكون أقربَ لتحقيقِ مقصودِ فرعونَ المزعوم

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 616 (بتصرّف).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 295.
(3) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 295.

(فاجعلْ لي بناءً عاليًا يُتاخِمُ السَّماءَ)[1]، وقد عبَّرَ فرعونُ بلفظِ الصَّرْحِ دونَ غيرِه؛ لأنَّ ارتفاعَ البناءِ أقربُ لتحقيقِ مقصودِهِ مِنَ الاطِّلاعِ، بحسَبِ زعمِهِ واعتقادِهِ الفاسدِ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿صَرۡحًا﴾:

مطلوبُ فرعونَ بناءُ صَرْحٍ مِنَ الصُّروحِ، يحقِّق به غروره وغطرسته

نُكِّرَ لفظُ ﴿صَرۡحًا﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ حكايةً عن فرعون: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مطلوبَ فرعونَ هو بناءُ صَرْحٍ مِنَ الصُّروحِ، فيكونُ التَّنكيرُ للإفرادِ، وغاية فرعون أن يبنيَ صرحًا لم يُرَ في الدُّنيا بناءٌ أعلى منه؛ ليُظهِر لرعيَّته تكذيبَ موسى فيما زعمه، من دعوى إلهٍ غير فرعون[2].

دلالةُ الأداة (لعلَّ) في السّياق المحكم:

الاطِّلاعُ على إله موسى مأمولُ فرعونَ اللَّعين

(لعلَّ) في الأصلِ للتَّوقُّعِ، وهو ترجّي المحبوب والإشفاقُ مِنَ المكروهِ، وهي تختصُّ بالشَّيءِ المُمكِنِ[3]، واستعمالُها في قولِ فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّ فرعونَ رَجا أنْ يصلَ بهذا الصَّرْحِ إلى السَّماءِ، حيثُ مَقَرُّ إلهِ موسى بحسَبِ زعمِهِ، وهذا مِنْ جهلِهِ وفسادِ تفكيرِهِ؛ إذ حَسِبَ أنَّ السَّماءَ يوصَلُ إليها بمثلِ هذا الصَّرْحِ[4]، ويحتملُ أنَّهُ قد أوهمَ قومَهُ أنَّ إلهَ موسى يمكنُ الوصولُ إليه، والقدرةُ عليهِ، وهو عالِمٌ مُتيقِّنٌ أنَّ ذلكَ لا يمكنُ لهُ، وقومُهُ - لغَباوتِهم وجهلِهِم وإفراطِ عَمايتِهم - يمكنُ ذلكَ عندَهم، ولا شكَّ أنَّهُ كانَ مِنْ قومِ فرعونَ مَنْ يعتقدُ أنَّهُ مُبطِلٌ في دعواهُ، ولكنْ يوافقُهُ مَخافةَ سَطْوِهِ واعتدائِهِ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 295.
(2) مختصر تفسير ابن كثير: 2/ 14.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 302.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 123.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 306.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿أَطَّلِعُ﴾:

بيانُ أنَّ أمل فرعون كان رجاء الاطِّلاع المذكور على لسانه

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تقدَّسَ ذكرُهُ حكايةً عن كلام فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّ الاطِّلاعَ أمرٌ مستقبليٌّ بالنِّسبةِ لزمنِ كلامِ فرعونَ، وهو يرجو حصولَهُ جهلًا ومكابرةً، أو يُظهِر هذا الرجاءَ؛ تلبيسًا على قومه وإضلالًا لهم عن الحقِّ الذي جاء به موسى، فجيء بصيغةِ المضارعِ لدلالته على الاستقبالِ.

دلالةُ صيغةِ الافتعالِ في ﴿أَطَّلِعُ﴾:

مقاساةُ شدائدِ الطُّلوعِ دليلٌ على تكلُّف المشقَّة في معاندة القدرة

عُبِّرَ بصيغةِ الافتعالِ في قولِ فرعون الكاذب: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّكلُّفِ، أي: (أتكلَّفُ الطُّلوعَ)، وهو الصُّعودُ[1]؛ لأنَّ الاطِّلاعَ: الطُّلوعُ القويُّ المُتكلَّفُ لصعوبتِهِ[2]، فهو ليسَ كغيرِهِ لعُلوِّهِ[3]، وهذا التَّعبيرُ يومِئُ إلى شدَّةِ مكابرةِ فرعونَ وعنادِهِ وتجبُّرِهِ؛ إذ يُعِدُّ نفسَهُ لتجشُّمِ متاعبِ هذا الصُّعودِ المزعومِ.

دلالةُ الحرفِ ﴿إِلَىٰٓ﴾:

غايةُ فرعونَ الصُّعودُ إلى إلهِ موسى؛ للوصول إلى الغاية المرتجاة

حرفُ الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قولِ فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ المكانيَّةِ، وهو واردٌ هنا على وفْقِ زعم فرعونَ واعتقادِهِ؛ إذ غايتُهُ الوصولُ إلى مكانِ إلهِ موسى تعالى اللّٰه عمّا يقول عُلوًّا كبيرًا.

بلاغةُ جناسِ ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ﴾:

بينَ ﴿إِلَىٰٓ﴾ و﴿إِلَٰهِ﴾ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ حكايةً عن فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ جناسٌ ناقصٌ؛ لأنَّ الاختلافَ بينَهما بحرفٍ، وهو الحرفُ الأخيرُ[4].

سرُّ إضافةِ ﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾:

إلهُ موسى خاصٌّ بهِ بحسَبِ زعمِ فرعونَ في ادِّعائه

تدلُّ إضافةُ ﴿إِلَٰهِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ في قولِ فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 295.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 123.

(3) أطفيّش، تفسير أطفيّش: 7/ 385.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.

﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ على شدَّةِ تكذيبِه لموسى عليه السلام في دَعوتِه إلى اللّه تعالى، أي: لعلّي أطَّلعُ إلى إلهِ موسى الَّذي يدعو إليه، فإنَّهُ ليسَ في الأرضِ أحدٌ بهذا الوصفِ الَّذي ذكرَهُ، فأنا أطلبُهُ في السَّماءِ[1]، وقد قابلَ فرعونُ بينَ كونِه هو إلهًا لعمومِ قومِه، وبينَ كونِ إلهِ موسى خاصًّا به.

توجيهُ إثباتِ ﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾:

التَّناقضُ سِمَةُ المحجوجِ المخذولِ

تناقضَ فرعونُ المخذولُ بحسَبِ الظّاهرِ، فإنَّهُ قالَ أوَّلًا: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، ثمَّ أظهرَ حاجتَهُ إلى هامانَ، فقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ﴾، وأثبتَ لموسى إلهًا في قولِه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، وأخبرَ أنَّهُ غيرُ مُتيقّنٍ بكذبِه، فقالَ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ مِنْ بابِ مُجاراةِ الخَصْمِ[3]، وإرخاءِ العِنانِ لهُ.

بلاغةُ التَّوكيدِ في جملة: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾:

اتِّهامُ أهلِ الباطلِ لأهلِ الحقِّ شديدٌ وعنيدٌ

أكَّدَ فرعونُ قولَهُ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بحرفِ التَّوكيدِ المُعزَّزِ بلامِ الابتداءِ، لدفعِ ما استقرَّ في الأنفُسِ مِنْ صِدْقِ موسى عليه السلام[4]، أو لتعليلِ الأمرِ ببناءِ الصَّرْحِ[5]، أو لينفيَ عن نفسِه اتِّهامَ وزيرِه إيّاهُ بتزلزلِ اعتقادِه في دينِه، والمعنى: أنّي أفعلُ ذلكَ ليظهرَ كذبُ موسى[6].

سرُّ التَّعبيرِ بفعل الظَّنِّ:

عقائدُ أهلِ الضَّلالةِ قائمةٌ على التَّمويهِ والمغالطة

استُعمِلَ الظَّنُّ في قولِ فرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، بمعنى: القطعِ، فكانَتْ محاولتُهُ الوصولَ إلى السَّماءِ لزيادةِ تحقيقِ ظنِّه، أو

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 295.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 644.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 521.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 296.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 521.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.

لأنَّه أرادَ أنْ يُقنِعَ قومَهُ بذلكَ، أو أرادَ بهذا تمويهَ الأمرِ على قومِه؛ ليُلقيَ في اعتقادِهم أنَّ موسى ادَّعى أنَّ اللّهَ في مكانٍ مُعيَّنٍ يَبْلُغُ إليهِ ارتفاعُ صَرْحِه، ثمَّ يجعلَ عدمَ العُثورِ على الإلهِ في ذلكَ الارتفاعِ دليلًا على عدمِ وجودِه أصلًا، وعقائدُ أهلِ الضَّلالِ قائمةٌ على التخيُّلاتِ الفاسدةِ، ودلائلُها مبنيَّةٌ على تمويهِ الدَّجّالينَ مِنْ زُعَمائِهم[1].

دلالةُ حرفِ ﴿مِنَ﴾:

موسى - في زعمِ فرعونَ - مُنخرِطٌ في زُمْرةِ الكاذبينَ

﴿مِنَ﴾ في قولِه ﷻ حكايةً عن فرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ للتَّبعيضِ[2]، والمعنى: (وإنّي لأظنُّهُ بعضَ الكاذبينَ، وجزءًا منهُم، ومُنتظِمًا في سِلْكِهم)، وكان فرعون يرمي من هذا القول إلى تخفيف أثَرِ الآياتِ الَّتي جاء بها موسى عليه السلام في نفوس رعيَّته[3].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ مجموعًا:

فرعونُ يرى موسى منَ الكاذبين وهو المتألِّهُ الكذوب

قولُه ﷻ حكايةً عن فرعون الكاذب: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، أبلغُ مِنْ أن يُقال: (وإنّي لأظُنُّه يكذبُ)، أو (وإنّي لأظُنُّه كاذبًا)؛ فإنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ تعريفُ الجنسِ، فإخبارُ فرعونَ عن موسى عليه السلام بأنَّهُ: ﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ يفيدُ أنَّهُ واحدٌ مِنَ الفئةِ الَّتي تُعرَفُ عندَ النّاسِ بفئةِ الكاذبينَ[4]، الَّذينَ مِنْ دَيْدَنِهم الكذبُ[5]، فيفيدُ أنَّهُ كاذبٌ إفادةً بطريقةٍ تُشبِهُ طريقةَ الاستدلالِ، فهو مِنْ قبيلِ الكنايةِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ[6].

سرُّ حذفِ مُتعلِّقِ الكذبِ:

الكذبُ شاملٌ لكلِّ قولٍ وبلاغٍ ووحيٍ

جاءتِ الآيةُ الكريمةُ عندَ حكايةِ قولِ فرعونَ: ﴿لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ بإطلاقِ الكذبِ، ولم يقلِ: (الكاذبينَ في دعوتهم)، أو

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 196.
(3) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 3172.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 123.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 296.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 263، وكذلك طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/ 84.

(الكاذبين في ادِّعائهم الرِّسالةَ)؛ للإشارة إلى أنَّ أقوالَ الذين نُسب إليهم موسى ودعاويهم قد اصطبغَتْ بالكذبِ - في زعم فرعونَ الكذوبِ - بحيثُ لا يخلو منهُ واحدٌ منها، وحاشا أنبياء اللّه من هذا الوصف القبيح.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

ذِكرُ الأسبابِ وحذفُها متناسِبٌ مع متطلَّبات السّياق في كلِّ آيةٍ من السّورتَين

قالَ اللّه تعالى في سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، وقالَ في سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾ [غافر: 37].

ويُلحَظُ أنَّهُ حذفَ هنا: ﴿أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: 36 - 37]، وذكرَهُ في غافرٍ؛ لأنَّ الذي هنا تقدَّمَهُ قولُهُ: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ مِنْ غيرِ ذكرِ أرضٍ، فناسبَهُ الحذفُ، والذي هناكَ تقدَّمَهُ قولُهُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾ [غافر: 26]، فناسبَهُ مقابلتُهُ بالسَّماءِ[1].

وقالَ هنا: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، وقالَ في سورة غافرٍ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: 37]؛ لأنَّ التَّقديرَ في هذهِ السّورةِ: (وإنِّي لأظنُّهُ كاذبًا مِنَ الكاذبينَ)، فزيدَت ﴿مِنَ﴾؛ لمراعاةِ رؤوسِ الآياتِ، ثمَّ أُضمِرَ (كاذبًا)؛ لدَلالةِ ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ عليهِ؛ وفي سورةِ غافرٍ جاءَ على الأصلِ، ولم يكنْ فيهِ موجِبُ تغييرٍ[2].

(1) الكرمانيّ، البرهان، ص: 195، وزكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 431.
(2) الكرمانيّ، البرهان، ص: 195، وزكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 431.

﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩﴾ [القصص: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين غطرسة فرعون وكفره، وبين استكباره وجنوده بغير الحقّ

مناسبةُ قولِه تعالى عن فرعونَ: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ لقول اللّه قبلها حكايةً عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾: أنَّهُ لّما قالَ فرعونُ ما حُكيَ عنهُ في الآيةِ السّابقةِ، مُريدًا بهِ إيقافَ قومِهِ عن اتِّباعِ الحقِّ؛ أتبعَهُ سبحانَهُ الإشارةَ إلى أنَّهم فعلوا ما أرادَ فرعونُ[1]، فعاثوا في الأرض فسادًا، وظنّوا أنَّهم لا يرجعون إلى اللّه، حيثُ الحسابُ والعقاب، وسوء المآب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الصِّغرِ[2]، والكِبْرُ: إعجابُ الإنسانِ بنفسِهِ، وذلكَ أنْ يَرَى نفسَهُ أكبرَ مِنْ غيرِهِ[3]، وأعظمُ التَّكبُّرِ التَّكبُّرُ على اللّهِ بالامتناعِ مِنْ قَبولِ الحقِّ والإذعانِ لهُ بالعبادةِ، والتَّكبُّرُ يوصف به من يَظهر عليه فعلُه من النّاس، وقد ذمَّه القرآن، فقال تعالى: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾ [الزّمر: 72]، والكِبْرياء: العظمة والتَّجبُّر والتَّرفُّع عَن الانقياد، وفي التَّنْزيل العَزيز: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 78][4]، والاستكبارُ أنْ يُظهِرَ مِنْ نفسِهِ ما ليسَ لهُ، وهذا مذمومٌ، وعلى هذا ما وردَ في القرآنِ[5]، فمعنى ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ في الآيةِ: (وتعظَّمَ)[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 296.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (كبر).
(4) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (كبر).
(5) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 289.

2) ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾: (جند) أصلٌ يدلُّ على التَّجمُّعِ والنُّصرةِ[1]، يقالُ: هم جُنْدُهُ، أي: أنصارُهُ[2]، ويقالُ: جنَّدَ الجُنودَ، أي: جمعَها، وتجنَّدَ فلانٌ؛ إذا اتَّخذَ جُنْدًا[3]، والجَنَدُ: الأرضُ الغليظةُ[4]، وكلُّ صنف من الخلق يقال لهم: جُند على حِدَة، ويُقال: هذا جندٌ قد أقبل، وهؤلاء جندٌ قد أقبلوا، يخرج على الواحد والجميع، وكذلك العسكر والجيش[5]، وقولُهُ: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾، أي: هو وأتباعُهُ المجتمعون، المناصِرون له[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

طُغيانُ فرعونَ وجُنودِهِ في الأرض استخفافٌ بحساب الله يومَ العرض

لقد طغَى فرعونُ وجُنودُهُ في الأرضِ، واستكبروا في معاملتهمُ الخلق، وتجافيهم عن الحقِّ، وذلك بعدم تصديق موسى ﵇، ونُكرانِ رسالته، والصُّدود عمّا دعاهُم إليهِ مِنْ توحيدِ اللّهِ تعالى، والتزامِ أحكامه وشرعه المُنزَّل، وعليه فقد أكثروا في الأرضِ الفسادَ، واعتقدوا أنَّهُ لا قيامةَ ولا حسابَ ولا مَعاد[7].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ جملة ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾:

بيانُ أنَّ فرعونَ قد جمعَ بينَ التَّكذيبِ والاستكبارِ

الواوُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ للعطفِ، والجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾[8]، وفي هذا العطفِ تقبيحٌ لشأنِ فرعونَ، ببيانِ أنَّهُ قد جمعَ بينَ خصلتينِ قبيحتينِ، وهما التَّكذيبُ بالحقِّ، والاستكبارُ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جند).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (جند).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (جند).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (جند).
(5) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (جند).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 124.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 582، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 238.
(8) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 330.

بلوغُ فرعونَ وقومِهِ أقصى غاياتِ الكِبْرِ مبينٌ عن مدى طغيانهم

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الاستفعال ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ (استفعلَ) في قولِ اللّه ﷻ عن فرعون: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنَ المبالغةِ في كِبْرِه؛ لأنَّ الاستكبارَ أشدُّ مِنَ الكِبْرِ، أي: تكبَّرَ تكبُّرًا شديدًا؛ إذ طمعَ في الوصولِ إلى الرَّبِّ العظيم وصولَ الغالبِ أو القرين[1]، ولأنَّهُ لم يكنْ لهُ حُجَّةٌ يدفعُ بها ما جاءَ بِهِ موسى عليه السلام[2]، ولأنَّهُ وقومَهُ رأوا كلَّ مَنْ سواهم حقيرًا بالإضافةِ إليهم، ولم يَرَوا العظَمةَ والكِبْرياءَ إلّا لأنفُسِهم، فنَظروا إلى غيرِهم نظَرَ الملوكِ إلى العبيدِ[3].

استكبارُ فرعونَ وجنودِهِ مُتيقَّنٌ لا شكَّ فيه

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي لفعل الاستكبار، في قولِ اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ استكبارَ فرعونَ وجنودِهِ قد مضَى، وتحقَّقَ، وهو أمرٌ مُتيقَّنٌ، لا شكَّ في اتِّصافِهم به.

فرعونُ هو المُتكبِّرُ، والنّاس على دين ملوكهم

دلالةُ إعرابِ الضَّمير ﴿هُوَ﴾:

﴿هُوَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ فاعلُ الاستكبار، أو توكيدٌ للفاعلِ؛ لأنَّ استتارَ الفاعلِ في الغائبِ جائزٌ[4]، وعلى هذا الوجهِ يكونُ في الكلامِ تأكيدٌ لكونِهِ هو المُتكبِّرَ، ومفاد الآية في ذكر الضَّمير الدّالِّ عليه: أنَّه استكبر "بدعوى الألوهيَّة لنفسه، ونفيِها عن اللّه تعالى، وقَصْدِ الاطِّلاع إلى اللّه سبحانه، وادِّعاءِ العلم الكليِّ لنفسه مع جهله بربِّه"[5].

استكبارُ الأتباعِ مُلحَقٌ باستكبارِ المتبوعِ

بلاغةُ العطفِ في لفظ ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾:

عُطِفَ الجنودُ على الضَّميرِ الرّاجعِ إلى فرعونَ، في قولِ اللّه

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 124.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 200.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 290.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 330.
(5) القاسميّ، محاسن التأويل: 7/ 523.

سبحانَهُ: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ لبيانِ أنَّ حالَ فرعونَ قد سرَى إلى جنودِهِ، فاستكبروا باستكبارِهِ، فاستكبارُهُ هو الأصلُ، واستكبارُ جنودهِ تَبَعٌ لاستكبارِهِ؛ لأنَّهم يتبعونَهُ، ويتلقَّونَ ما يُمليهِ عليهِم مِنَ العقائدِ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمعِ مضافًا ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الجمعِ المضافِ إلى ضميرِ فرعونَ، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ داءَ التَّعاظُمِ والاستكبارِ قد أصابَهم جميعًا، ولم يَسْلَمْ منهُ أحدٌ منهُم، فقد استكبر جُنودُهُ في الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ، أي: بلْ بالفساد، وردِّ الحق، والصدِّ عن سبيل اللّه، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾[2].

استكبارُ جميعِ جُنودِ فرعونَ دليلٌ على سَرَيانِ لوثةِ الكِبرِ فيهم

دلالةُ الحرف ﴿فِي﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الواردُ في قولِ اللّه سبحانَهُ: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، فيفيدُ أنَّ مكانَ استكبارِ فرعونَ وجنودِهِ هو الأرضُ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالأرضِ، في قولِ اللّه تعالى شأنُهُ: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الأرضَ المعهودةَ، وهي أرضُ مِصرَ[3]، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بها الجنسَ، أي: في عالَمِ الأرضِ؛ لأنَّهم كانوا يومئذٍ أعظمَ أُمَمِ الأرضِ[4].

استكبارُهم في مِصْرَ أو في جنسِ الأرضِ على العموم

سرُّ تقييدِ الاستكبار بأنَّه ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تقييدُ استكبارِ فرعونَ وجُنودِهِ، في قولِ اللّه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، بكونِهِ في الأرضِ - سواءٌ كانَتْ

استكبارُهم في أسفلِ الأجرامِ دليلُ حِطَّةِ ما لهم من مقامٍ، وعظيمِ ما اقترفوه من إجرامٍ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 124.

(2) القاسميّ، محاسن التأويل: 7/ 523.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 296، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 290، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 124.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 124.

أرضَ مِصرَ أم جنسَ الأرضِ - تشنيعٌ عليهِم، حيثُ استكبروا فيما هو أسفلُ الأجرامِ، وكانَ اللّائقُ بهِم أنْ ينظروا إلى محلِّهم وتسفُّلِه، فلا يستكبروا[1]؛ لأنَّ مَنْ هو في الأرضِ المُحقَّرةِ الموطَّأةِ بالأقدامِ لا ينبغي له أنْ يستعليَ[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّقييدُ لإفادةِ شمولِ استكبارِهِ جميعَ الأرضِ الَّتي ملكَها[3].

سرُّ تقييدِ الاستكبار ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

منازعتُهم اللهَ في كبريائهِ تطاولٌ وجرأةٌ على جلالِه

قُيِّدَ استكبارُ فرعونَ وجنودِه في قولِ اللهِ سبحانَهُ: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ بكونِهِ بغيرِ الحقِّ؛ لأنَّ الاستكبارَ بالحقِّ إنَّما هو للهِ تعالى وحدَهُ، وهو المُتكبِّرُ على الحقيقةِ، أي: المتبالغُ في كِبْرياءِ الشَّأنِ، وكلُّ مُستكبِرٍ سواهُ؛ فاستكبارُهُ بغيرِ الحقِّ[4].

دلالة باءِ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

استكبارُهم مُتلبِّسٌ بغيرِ الحقِّ، فهو استعلاءٌ باطلٌ منبوذ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ من الآية: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ حالٌ، والباءُ للملابسةِ، أي: (استكبَروا مُتلبِّسينَ بغيرِ الحقِّ)[5]، وهو حالٌ لازِمةٌ لعاملِها؛ لأنَّ الاستكبارَ منهُم لا يكونُ إلّا بغيرِ الحقِّ[6].

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

الاستكبارُ بالحقِّ كلِّهِ للهِ، وحدَهُ في علاه، دون سواه

تعريفُ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ باللّامِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ يدلُّ على أنَّ التَّعظُّمَ بنوعٍ مِنَ الحقِّ ليسَ كِبْرًا، وإنْ كانَتْ صورتُهُ كذلكَ، وأمّا تكبُّرُهُ سبحانَهُ؛ فهو بالحقِّ كلِّهِ[7].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 290.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 269.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 524.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 415، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 600.
(5) السّمين، الدّر المصون: 8/ 679.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 124.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 296.

بلاغةُ العطفِ في جملة ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾:

قولُ اللّه جلَّ شأنُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، وهو مُتفرِّعٌ عنه، وعن الغَباوةِ أيضًا، لا عنهُ فقط، ولذا لم يُعطَفْ عليهِ بالفاءِ[1]، وفي هذا العطفِ إشعارٌ بأنَّهم قد جمعوا بينَ قُبْحِ الاستكبارِ وبيَن ظنِّ عدمِ الرُّجوعِ إلى اللّهِ، ولذلكَ أفرطوا في العُتوِّ والاستكبارِ.

المُستكبِرُ مُفرِطٌ في غَباوتِهِ وعِنادِهِ وسوءِ تقديره للأمور

مرجعُ ضميرِ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾:

ضميرُ فاعل الظَّنِّ من قولِ اللّه جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ لفرعونَ وجنودِهِ[2]، فهُم أهلُ هذا الظَّنِّ الفاسدِ القبيحِ، وهذا الظَّنُّ بأنَّهم إلى حكمِنا لا يرجعون: بَنَوا عليه اعتقادَهم في أصل الدّين، الَّذي لا يكون إلّا بقاطع، فخابوا، وخسروا حالَهم ومآلَهم[3].

الظَّنُّ منوط بفرعونَ وجنودِهِ، وهو ظنٌّ خاطئ لا يطابق الواقع

دلالةُ التَّوكيدِ بـ(أنَّ):

جيءَ بـ(أنَّ) للتَّوكيدِ في قولِ الحقِّ تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على قوَّةِ ظنِّهم أنَّهم لا يُبعَثونَ، ولا يُنشَرونَ، فظنّوا أنَّهم لا يرجعون إلى حكم اللّه، نتيجةَ استكبارهم واستعلائهم بغير الحقِّ، وحُكمُ اللّه هو الَّذي يظهر عندَه انقطاعُ الأسباب[4]، وهو محقَّقٌ - لا محالة - فما أغنى عنهم ظنُّهم ولا استكبارُهم حينَ جاء أمرُ اللّه.

قوَّةُ ظنِّهم أنَّهم لا يُبعَثون أوردَتْهم الموارد

دلالةُ الحرف (إلى):

حرفُ الجرِّ (إلى) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 297.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 297، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 200.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 297.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 297.

﴿يُرْجَعُونَ﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ المكانيَّةِ، فيفيدُ أنَّ مرجعَ الخلقِ إلى اللّهِ سبحانَهُ الَّذي لهُ الخلقُ والأمرُ.

سرُّ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿إِلَيۡنَا﴾:

قُدِّمَ ﴿إِلَيۡنَا﴾ على عاملِه ﴿لَا يُرۡجَعُونَ﴾ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾؛ للتَّعظيمِ والاعتناءِ بشأنِ الرُّجوعِ إلى اللّهِ[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّقديمُ للتَّخصيصِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يُرۡجَعُونَ﴾:

أخذُهم بالعذابِ بغتةً ما كان إلّا بعدَ استمرارِ ظنِّهمُ القبيحِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ في ظنِّهم استمرارَ عدمِ رجوعِهم إلى اللّهِ؛ لأنَّ صيغةَ المضارعِ تفيدُ الاستمرارَ، فإذا دخلَ عليها النَّفيُ؛ أفادتِ استمرارَ الانتفاءِ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى رُسوخِ هذا الظَّنِّ الباطلِ في نفوسِهم.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿لَا يُرۡجَعُونَ﴾:

اختلافُ القراءاتِ بالبناءِ للفاعلِ والمفعولِ مفيدٌ في بيانِ المطلوبِ

قرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ ويعقوبُ وخلفٌ: ﴿لَا يَرۡجِعُونَ﴾ بفتحِ الياءِ وكسرِ الجيمِ، وقرأ الباقونَ ﴿لَا يُرۡجَعُونَ﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ الجيمِ[3]، أمّا على القراءةِ الأولى؛ فالفعلُ مِنْ (رَجَعَ) اللّازمِ، أي: رَجَعَ رُجوعًا، وهو مبنيٌّ للفاعلِ ﴿يَرۡجِعُونَ﴾، وأمّا على الثّانيةِ؛ فالفعلُ مِنَ المُتعدّي، أي: رَجَعَه رَجْعًا، أو هو مِنَ الإفعالِ، أي: الإرجاعِ[4]، فهو مبنيٌّ لما لمْ يُسَمَّ فاعلُه ﴿يُرۡجَعُونَ﴾، ويفيدُ أنَّ مُرجِعًا أرجعَهم، من (أُرْجِعَ) إذا فُعِلَ به الرجوع، فاللّه سبحانه هو وحده القادر على إرجاعهم.

(1) أطفيّش، تفسير أطفيّش: 7/ 386.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 297.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/209، والقاضي، البدور الزّاهرة، ص: 241.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 74.

بلاغةُ الإطنابِ في الجملة:

التَّعريضُ بالمشركينَ المُنكِرينَ للبعثِ والنُّشورِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ معلومٌ بالفَحْوَى مِنْ كفرِهم باللّهِ، وإنَّما صُرِّحَ بهِ لأهمّيَّةِ إبطالِهِ، فلا يُكتفَى فيهِ بدلالةِ مفهومِ الفَحْوَى؛ ولأنَّ في التَّصريحِ بهِ تعريضًا بالمشركينَ في أنَّهم وإيّاهم سواءٌ، فَلْيَضَعوا أنفُسَهم في أيِّ مقامٍ مِنْ مقاماتِ أهلِ الكفرِ، ومعنى ذلكَ: (ظنّوا أنَّه لا بعثَ ولا رُجوعَ؛ لأنَّهم كفروا بالمرجوعِ إليهِ).

ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: وظنّوا أنَّهم في مَنَعَةٍ مِنْ أنْ يُرْجَعوا في قبضةِ قدرتِنا، وعلى هذا الاحتمالِ، فالتَّعريضُ بالمشركينَ باقٍ، فإنَّهم ظنّوا أنَّهم في مَنَعَةٍ مِنَ الاستئصالِ، فقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: 32][1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستكبارُ والاستنكافُ والتَّجبُّرُ:

مناسبةُ لفظ الاستكبارِ لظنِّهم الزّائفِ أنَّه لا يُقدَرَ عليهم

الفرقُ بينَ الاستكبارِ والاستنكافِ: أنَّ في الاستنكافِ معنى الأنَفةِ، وقد يكونُ الاستكبارُ طلبَ كِبَرِ النَّفسِ مِنْ غيرِ أَنَفَةٍ[2]، والتَّجبُّرُ صفةٌ يوصَفُ بها مَنْ يَجْبُرُ نقيصتَهُ بادِّعاءِ منزلةٍ مِنَ التَّعالي لا يستحقُّها، وهذا في حقِّ الإنسانِ لا يقالُ إلّا على طريقِ الذَّمِّ، كقولِهِ ﷻ: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾ [إبراهيم: 15][3]، واستُعمِلَ الاستكبارُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ لأنَّهم لمّا ظنّوا ألّا يُقدَرَ عليهِم، وأنَّه لا رجعةَ لهُم إلى اللّهِ؛ دلَّ ذلكَ على شدَّةِ تعظيمِهم لأنفُسِهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 124.

(2) زيدان، الفروق اللّغوية، ص: 130.

(3) الرّاغب، المفردات: (جبر).

الجُنودُ والأتباعُ:

غِلظةُ أتباعِ فرعونَ وقَسْوتُهم

يقالُ للعسكرِ: الجندُ؛ اعتبارًا بالغِلْظةِ مِنَ الجَنَدِ، وهي الأرضُ الغليظةُ الَّتي فيها حجارةٌ(1)، وتَبِعَهُ، واتَّبَعَهُ، فهو تابِع، أي: قَفا أثَرَهُ، وذلكَ يكونُ تارةً بالجسم، وتارةً يكونُ بالائتمارِ، واختيرَ لفظُ الجنود في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾؛ للإشارةِ إلى غِلْظتِهم وقسوتِهم، وفي التَّعبيرِ بِهِ أيضًا تنبيهٌ على أنَّهم استكبروا اغترارًا باجتماعِهم وقوَّتِهم وشِدَّتِهم.

الظَّنُّ والحِسْبانُ:

إنكارُ فرعونَ وجُنودِهِ البعثَ مبنيٌّ على السَّفَهِ والجهلِ

فُرِّقَ بينَ الحِسْبانِ والظَّنِّ بأنَّ الحِسْبانَ: أنْ يَحكُمَ لأحدِ النَّقيضين مِنْ غيرِ أنْ يُخطِرَ الآخَرَ ببالِهِ، والظَّنَّ: أنْ يُخطِرَ النَّقيضين ببالِه، فيُغلِّبَ أحدَهما على الآخرِ(2)، وقد عُبِّرَ عن اعتقادِ فرعونَ وجنودِهِ بعدمِ البعثِ والنُّشورِ بالظَّنِّ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ تسفيهًا لهُم وتجهيلًا(3)، ببيانِ أنَّ غايةَ مُعتقَدِهم ظُنونٌ لا تستندُ إلى حقائقَ، ولم يُجروا النقيضَينِ بالبالِ قبلَ الحُكم بينَهما، وذلكَ فسادٌ عقلانيٌّ ومذمومٌ ومُعاقَبٌ عليهِ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جند).

(2) الرّاغب، المفردات: (حسب).

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 524.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإخبارُ بعاقبةِ تركِ الحقِّ بالإغراقِ في اليمِّ، بعدَ الإخبارِ بالكفرِ عنادًا وطغيانًا

لمّا ذُكِر في الآياتِ السّابقة تكذيبُ فرعونَ واستكبارُه وظنُّه أنَّه لا يرجع إلى اللّه للحساب والعقاب؛ ذُكر هنا ما تسبَّب عن ذلك، من أنَّ اللّه أَخَذَهُ أَخْذَ عزيزٍ مقتدر، فلم يُغنِه ما كان فيه من تكبُّر، ولم يكُن له جمعٌ مُنتَصِر، بل لمّا اتَّبعه قومُه في التكذيب بالحقِّ؛ تبعوه في العذاب المُهلِك، فقالَ تعالى مُخبِرًا عن ذلكَ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾[1]، وجعلَهم مضربًا للمثل، وعِبرةً للمتأمِّل، وتخويفًا لمن عصى، وكان من المفسدين ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾: (أخذ) أصلٌ يدلُّ على حَوْزِ الشَّيءِ وتحصيلِه[2]، ويقالُ: أخذَتْه الحُمَّى، وقالَ سبحانَهُ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: 67]، وقد كثر استعمال الأخذ في العذاب، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 102][3]، وأخذه بذنبه: عاقبه، وفي التَّنزيل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: 40]، وقولُه ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ [الحجّ: 48]، أراد: أخذتُها بالعذاب، فاستغنى عنه لتقدُّم ذكرِه في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: 47][4]، وهو كذلك المقصودُ بالأخذ في هذه الآية: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 297.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/ 40.
(4) ابن سيده المرسيّ، المحكم والمحيط الأعظم: 5/ 232.

2) ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾: (نبذ) أصلٌ يدلُّ على طَرْح وإلقاءٍ، يقالُ: نَبَذْتُ الشَّيءَ، أي: ألقيتُهُ مِنْ يدي، والنَّبذُ: طرحُك الشَّيءَ من يدِك أمامَك أو خلفَك، والمنبوذ: ولدُ الزِّنى المطروح[1]، ومن المجاز: نبَذ أمري وراءَ ظهره؛ إذا لم يعملْ به[2]، وقيلَ: النَّبْذُ إلقاءُ الشَّيءِ وطرحُهُ لقلَّة الاعتدادِ به، قالَ تعالى: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ [البقرة: 100]، أي: طرحوهُ لقلَّةِ اعتدادِهم بِهِ[3]، ومعنى ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ في هذه الآية: فطرَحْناهم[4].

3) ﴿ٱلۡيَمِّۖ﴾: (يمّ) أصلٌ يدلُّ على تجمُّعٍ لطيفٍ متَّصلِ المادَّة متراكِمِها[5]، ومنه اليمُّ الَّذي هو البحرُ، قالَ ﷻ: ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [القصص: 7][6]، ويقالُ: يُمَّ الرَّجلُ، فهو ميمومٌ؛ إذا وقعَ في اليمِّ، فغرِقَ[7]، قال تعالى هنا: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾، أي: في البحرِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيـانُ إهـلاكِ فرعونَ وجُنودِهِ بالإغراقِ؛ تنفيذًا لـوعـيـدِ الـلـهِ للكفَرةِ الظّالمين

تُبيِّنُ الآيةُ أنَّ الله تعالى نفَّذ وعيدَه بالحقِّ، فأهلك فرعونَ وجُنودَهُ المناصرين له في غطرسته، وتألّيه على الله بادِّعائه أنَّه إلهٌ من دون الله، وذلك بإغراقهم جميعًا في البحرِ خلالَ مطاردة موسى ومن معه من قومه، الهاربين من بطش فرعون وبأسه المهين، فألقى بهم غرورهم في اليمِّ العباب، وذلك مآلُ الظّالمينَ في كلِّ عصر وحين[8].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في جملة ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾:

تفـرُّعُ الإهـلاكِ عن إنكارِ البعثِ والنُّشورِ

تفيدُ الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ تفرُّعَ

(1) الخليل بن أحمد، كتاب العين: 8/ 191.
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نبذ).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبذ).
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 289.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يمم).
(6) الرّاغب، المفردات: (اليم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يمم).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 582.

الإهلاكِ عن ظنِّهم أنَّهم لا يُرجَعونَ إلى اللّهِ ﷻ[1] وتسبُّبَهُ عنهُ[2]، وطريقة الأخذ المزلزِلة بالعقاب الاستئصاليِّ العاتي - الَّذي طواهم في تلافيفِ الموج المتلاطم - كانت جزاءً وفاقًا، لاستمرار عنادهم وبغيهم، وكان نبذُهم في اليمِّ شرَّ العواقب مآلًا، وأخسرَها عاقبةً ومصيرًا، فقد كانت العقوبة الدُّنيويَّة متَّصلةً بالعقوبة الأخرويَّة، وهي أشدُّ وأنكى[3].

نكتةُ إسنادِ فِعلِ الأخذِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

من أخـذَه الله بعدله لم يُفلِته من عذابه

قال اللّه تعالى في بيان جزاء الظّالمين بالعقاب الأليم: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾، وفي قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾ فخامةٌ وتعظيمٌ لشأنِ الآخِذِ ﷻ[4]، بإسنادِ الفعلِ إلى نونِ العظَمةِ[5]، أي: (فأخَذْناهُ وجُنودَهُ بعظَمتِنا أخْذَ قَهْرٍ ونِقْمةٍ)[6]، وأخْذُ العظيمِ عظيمٌ، وهو واقعٌ في مقابلةِ استكبارِهم وتعاظمِهم وتجبُّرِهم في الأرض بغير الحقِّ.

سرُّ الإظهار في مقامِ الإضمار ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾:

وقوعُ الأخذِ على فرعونَ وجميعِ جُنْدِهِ عدلٌ من الله وحكمة

كان الظّاهرُ في الآية أنْ يجيء ضميرُ المفعول جمعًا (فأخَذْناهم)؛ لتقدُّمِ مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى إظهارِ الجُنودِ في قولِهِ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ بلفظِ الجمعِ المضافِ إلى ضميرِ فرعونَ: لإفادةِ وقوعِ الأخذِ عليهم جميعًا، معَ كونِهم العددَ الكثيرَ، والجمعَ الغفيرَ[7]، وليقعَ التَّقابلُ والتَّناسبُ التّامُّ بينَ صورةِ تعاظمِهم واستكبارِهم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 125.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 297، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 74.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 616 (بتصرّف).
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 74.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 297.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 415، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 297.

﴿وَجُنُودَهُۥ﴾، وبينَ صورةِ استئصالِهم واستحقارِهم في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾.

معنى الفاءِ في جملة ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾:

النَّبذُ في اليمِّ تفسيرٌ للأخذِ أو حاصلٌ عَقيبَهُ

الفاءُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾؛ لتفصيلِ الأخْذِ المُجمَلِ وتفسيرِهِ؛ إذا كان المرادُ بالأخذِ الإهلاكَ[1]، والعطفُ حينئذٍ مِنْ عطفِ المُفصَّلِ على المُجمَلِ، وللتَّعقيبِ؛ إذا أُبقيَ الأخْذُ على معنى التَّناولِ، أو أُريدَ به خَلْقُ الدّاعيةِ إلى السَّيرِ في البحرِ، أو نحوُ ذلكَ[2].

نكتةُ إسنادِ فِعْلِ النَّبذِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تفخيمُ شأنِ نَبْذِهم في البحرِ دليلٌ على ضخامة العقاب

أُسنِدَ فعلُ النَّبْذِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ إلى نونِ العظَمةِ لتفخيم شأنِ النَّبْذِ بكونِهِ صادرًا عن ذي العظَمةِ والجلالِ والكِبْرياءِ ﷻ، أي: (فنبَذْناهم بما لَنا مِنَ العظَمةِ في اليَمِّ)[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأخْذِ والنَّبْذِ:

استحقارُ فرعونَ وقومِهِ، جزاء تكبُّرهم وكفرهم وظلمهم

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ مِنَ الكلامِ الفَخْمِ الَّذي دُلَّ بهِ على عظَمةِ شأنِهِ سبحانَهُ، وكِبْرياءِ سلطانِهِ، حيثُ شبَّهَهم - استحقارًا لهُم، واستقلالًا لعددِهم وإنْ كانوا الجمَّ الغفيرَ - بحَصَياتٍ أخذَهنَّ آخِذٌ في كفِّهِ، فطرحَهنَّ في البحرِ[4]، والكلامُ على ذلكَ مِنْ قبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ[5]، ويحتملُ أنْ توجَّهَ المكنيَّةُ بأنَّهم شُبِّهوا في الحقارةِ بنعالٍ باليةٍ، والنَّبْذُ قرينةٌ[6]، ويجوزُ أنْ يُجعلَ الكلامُ استعارةً تمثيليَّةً[7]، كأنَّ اللّهَ ﷻ فيما فعلَ بهِم أخذَهم مَعَ كثرتِهم في كفٍّ، وطرحَهم في البحرِ[8].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 524، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 291.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 291.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 297.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 415، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 600.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 125.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 291.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 125.
(8) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 291.

دلالة الحرف ﴿فِي﴾:

طُرِحوا في وسْط البحرِ حتّى اشتَملَ عليهم، وغشيَتهم الأمواجُ من كُلِّ مكان

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾؛ للظَّرفيَّةِ المكانيَّة، وهو يفيدُ أنَّ البحرَ ظرفٌ وقعَ فيهِ نَبْذُهم وطَرْحُهم؛ ويومِئُ إلى أنَّ البحرَ قد اشتملَ عليهم اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ، وفي ذلكَ تهويلٌ لتعذيبِهم وإهلاكِهم.

دلالةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلۡيَمِّۖ﴾:

البحرُ الأحمرُ مكانُ الإغراقِ الَّذي أشار إليه السّياق

المرادُ باليمِّ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ بحرُ القُلْزَم، وهو البحرُ الأحمرُ، فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡيَمِّۖ﴾ تعريفُ العهدِ الذِّهنيِّ عندَ علماءِ المعاني، المعروفُ بتعريفِ الجنسِ عندَ النُّحاة؛ إذ ليسَ في العِبْرةِ اهتمامٌ ببحرٍ مخصوصٍ، ولكنْ بفردٍ مِنْ هذا النَّوعِ، وقد أُغرِقَ فرعونُ وجُنْدُهُ في البحرِ الأحمرِ، حينَ لَحِقَ بني إسرائيلَ يريدُ صدَّهم عن الخروجِ مِنْ أرضِ مصرَ[1].

معنى الفاءِ في لفظ ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

تفرُّعُ الأمرِ بالنَّظرِ المعتبِرِ عن هذهِ القصَّةِ العجيبةِ

الفاءُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لتفريعِ الأمرِ بالنَّظرِ على الإخبارِ بهذهِ القصَّةِ العجيبةِ، وفي التَّعبيرِ بها حثٌّ على الإسراعِ إلى النَّظرِ، أي: لا تتريَّثْ عندَ سماعِ خبرِهم عن أنْ تُبادرَ بالنَّظرِ[2].

تعيينُ المُخاطَبِ بلفظ (النَّظرِ):

الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ أو لكلِّ أحدٍ

الخطابُ بقولِ اللّهِ سبحانَهُ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ لغيرِ مُعيَّن، بل لكلِّ مَنْ يتأتَّى منهُ النَّظرُ؛ لأنَّ المقصودَ بالخطابِ كلُّ مَنْ قُصِدَ بالموعظةِ[3]، ويجوزُ أنْ يكونَ الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ؛ تسليَةً لهُ على ما يُلاقيهِ مِنْ قومِهِ الَّذينَ كذَّبوهُ، بأنَّهُ لا ييأسُ مِنْ نصرِ اللّهِ، وأنَّ شأنَ الرُّسُلِ انتظارُ العواقبِ[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 75.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 36.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 525، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 238.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 238.

غَرَضُ الأمرِ بالنَّظرِ:

فـي قـصـص المُهلَكينَ عِـبرةٌ وموعظةٌ

غَرَضُ الأمرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هو التَّحذيرُ مِنْ سُلوكِ مَسْلَكِ الظّالمينَ[1]، والاتّعاظُ والاعتبارُ بسوءِ عاقبتِهم[2]؛ لأجلِ ظلمِهم أنفُسَهم بالكفرِ وظلمِهم الرَّسولَ بالاستكبارِ عن سماعِ دعوتِه، وهذا مَوضِعُ العِبْرةِ مِنْ سَوْقِ هذهِ القصَّةِ؛ ليعتبرَ بها المشركونَ، فيَقيسوا حالَ دعوةِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ بحالِ دعوةِ موسى عليه السلام، ويَقيسوا حالَهم بحالِ فرعونَ وقومِه، فيوقِنوا بأنَّ ما أصابَ فرعونَ وقومَهُ مِنْ عقابٍ سيُصيبُهُم لا محالةَ[3]، وفي الأمرِ أيضًا تعجيبٌ وتهويلٌ[4]، كأنَّهُ قيلَ: هذهِ قصَّةٌ عجيبةُ الشَّأنِ، فانظُرْ إليها.

نكتةُ اختيارِ فِعلِ (النَّظرِ):

تـنـزيـلُ الـخبرِ المُتيقَّنِ منزلةَ المُشاهَدِ

يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بالنَّظرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نظرَ العينِ، نُزِّلَ خبرُهم لوضوحِهِ واليقينِ بهِ منزلةَ المُشاهَدِ المحسوسِ[5]، ويحتملُ أنْ يكونَ النَّظرُ نظرَ العقلِ، وهو نظرُ التَّفكُّرِ والتَّأمُّلِ فيما قصَّ اللّهُ مِنْ أخبارِهم؛ وهو يُؤدّي إلى العِلمِ، فيكونُ مِنْ أفعالِ القلوبِ[6].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَيۡفَ﴾:

عاقـبةُ فرعـونَ وجُـنـودِهِ حـالٌ عجيبةٌ، وعِـبرَةٌ جليلة

لمّا كانَ ما آلَ إليهِ أمرُ فرعونَ وجُنودِهِ حالةً عجيبةً، وهو ممّا تتوفَّرُ الدَّواعي على السُّؤالِ عنهُ لعظَمتِهِ[7]؛ عُبِّرَ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بـ ﴿كَيۡفَ﴾ الموضوعةِ للسُّؤالِ

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 291.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 125.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 128.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 244.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 36، 25/ 191.
(7) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 297.

عن الحالِ، والاستفهامُ المستفادُ مِنْ ﴿كَيۡفَ﴾ يقتضي تقديرَ شيءٍ، أي: (انظُرْ عاقبةَ الظّالمينَ الَّتي يُسألُ عنها بـ ﴿كَيۡفَ﴾)، فعُلِّقَ فعلُ النَّظرِ عن العملِ لمجيءِ الاستفهامِ بعدَهُ، فصارَ التَّقديرُ: فانظُرْ، ثمَّ افتتحَ كلامًا بجملةِ: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والتَّقديرُ فيه وفي أمثالِهِ: (فانظُرْ جوابَ كيفَ كانَ عاقبةُ الظّالمينَ؟)[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ (العاقبةِ):

الإشارةُ إلى مآلِ فرعونَ وجُنودِهِ نموذجٌ لعاقبة الظّالمين

عُبِّرَ بالعاقبةِ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لجعلِ مآلِ فرعونَ وجُنودِهِ محلَّ الاعتبارِ والتَّعجيبِ والتَّهويلِ؛ لأنَّ العاقبةَ في الأصلِ آخِرُ الشَّيءِ ومآلُهُ، وما يَعْقُبُهُ مِنْ مُسبَّباتِهِ[2]، وفيها أيضًا إشارةٌ إلى قولِ موسى عليه السلام: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، فالعاقبةُ المحمودةُ كانت لموسى عليه السلام ومَنْ آمنَ معَهُ، وعاقبةُ السّوءِ لفرعونَ وجُنودِهِ.

سرُّ الإضافةِ في ﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الإهلاكُ مختصٌّ بالظّالمينَ، نازل بهم بأمرِ ربِّ العالمين

الإضافةُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لاميَّةٌ، أي: العاقبةُ الَّتي للظّالمينَ، وهي تفيدُ أنَّ عاقبةَ السّوءِ الَّتي هي الإهلاكُ مختصَّةٌ بالظّالمينَ، لا تتجاوزُهم إلى غيرِهم، وعاقبة الظّالمين أنّهم - وإن زاد ظلمهُم، وأعيا أمرُهم - ذهبوا في طَرفة عين كأن لم يكونوا، وغابوا عن العيون كأنّهم قط لم يَبينوا، وهذه إشارة عظيمة بأعظم بشارة: بأنَّ كلَّ ظالم تكون عاقبتُهُ هكذا، فعَلى المظلوم المُحِقِّ المصابرةُ والمرابطةُ حتّى يحكُمَ اللّهُ بينهما، وهو خير الحاكمين[3].

بلاغةُ الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

الظُّلمُ سببُ الاستئصالِ والهلاكِ في الحالِ والمآلِ

كان الأصلُ أنْ يقالَ: (فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبتُهم)؛ لرجوعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 36.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 149.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 14/ 298.

الضَّميرِ إلى فرعونَ وجُنودِهِ، لكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ، فقيلَ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ ليُدلَّ على الوصفِ الَّذي كانَ سببًا لأخذِهم بالعقوبةِ[1]، وهو ظلمُهم أنفُسَهم بالكفرِ، وظلمُهم الرَّسولَ بالاستكبارِ عن سماعِ دعوتِهِ، وفي ذلكَ ذمٌّ لهُم وتسجيلٌ عليهم بالظُّلم[2]، وتحذيرٌ لأمثالِهم[3]، ببيانِ أنَّ كلَّ ظالمٍ تكونُ عاقبتُهُ هكذا[4].

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

رُسوخُ فرعونَ وجُنودِهِ في الظُّلمِ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ من الظُّلم، في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقل مثلًا: (الَّذينَ ظلموا)؛ لأنَّ صيغةَ اسمِ الفاعلِ تدلُّ على رُسوخِهم في الظُّلم، وأنَّهُ صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلِّيَّةِ الَّتي لا تفارقُهم، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لشأنِهم وسوءِ حالِهم ومآلِهم، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في التَّعبيرِ بهذهِ الصّيغةِ مراعاةَ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

علَّةُ حذفِ مُتعلِّقِ الظُّلمِ:

اصطباغُ جميعِ أعمالِهم بالظُّلمِ حجَّةٌ عليهم على المدى

جاء الوصفُ بالظُّلم مُطلَقًا في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقل مثلًا: (الظّالمينَ أنفُسَهم)، أوِ (الظّالمين قومَهم)؛ إشارةً إلى أنَّ أعمالَهم قد اصطبغَتْ بالظُّلم، بحيثُ لا يخلو منهُ شأنٌ مِنْ شؤونِ حياتِهم، فلا يُعَدُّ ذكرُ بعضِها أولى مِنْ ذكرِ بعضِها الآخرِ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الظُّلمِ):

بيانُ أنَّ عقابَ الظَّلَمَةِ يكون بسببِ ظلمِهم وكفرِهم

عُبِّرَ بالظُّلم في قولِ اللّهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يُعبِّرْ بالكفرِ؛ للإشعارِ بأنَّ ما أصابَهم لظلمِهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 138.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 524.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 165.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 297.

وكفرِهم، لا لكفرِهم فقط، كما أُشيرَ إليهِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117][1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّبْذُ والطَّرْحُ:

فُرِّقَ بينَ النَّبْذِ والطَّرْحِ: بأنَّ النَّبْذَ اسمٌ لإلقاءِ الشَّيءِ؛ استهانةً بهِ، وإظهارًا للاستغناءِ عنهُ، وأمّا الطَّرْحُ؛ فهو اسمٌ لجنسِ الفعلِ، فهو يكونُ للاستهانةِ والاستغناءِ ويكونُ لغيرِهِ[2]، وبناءً على ذلكَ يكونُ النَّبْذُ أشدَّ منَ الطَّرْحِ وأخصَّ منهُ[3]، وقد عُبِّرَ بهِ في قولِهِ: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾؛ لأنَّهُ أنسبُ بمقامِ الاستهانةِ بهِم وتحقيرِ شأنِهم.

النَّبْذُ أنسبُ بمقامِ الاستهانةِ بهِم وتحقيرِ شأنِهم

اليَمُّ والبحرُ:

اليمُّ: النَّهرُ العظيمُ، وقد أُطلِقَ على نهرِ النّيلِ، في قولِهِ تعالى: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [طه: 39][4]، واليمُّ أيضًا: البحرُ العظيمُ الَّذي لا يُدرَكُ قَعْرُهُ، واشتقاقُهُ منَ التَّيمُّمِ؛ لأنَّ المُستنفعينَ بهِ يقصدونَهُ[5]، وفي التَّعبيرِ بهِ في قولِهِ تعالى هنا: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ إشارةٌ إلى انقلابِ هذا المَوْطِنِ - الَّذي يُقصَدُ للانتفاعِ عادةً - إلى مكانٍ يُهلَكُ فيهِ طاغيةٌ معَ جُنودِهِ، فسبحانَ مَنْ كلُّ شيءٍ مُسخَّرٌ بقُدرتِهِ!.

تحوُّلُ مكانِ الانتفاعِ إلى مكانِ الهلاكِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 524.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 530.
(3) زيدان، الفروق اللّغوية، ص: 183 - 186.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 75.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 148.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾

[القصص: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

فرعونُ وقومُهُ أئمَّةٌ في الضَّلالِ، ودعاةٌ إلى النّار، ولا خلاق لهم في الآخرة

لمّا كانَ فرعونُ وقومُهُ أوَّلَ مَنْ أصرَّ في ذلكَ الزَّمانِ على تكذيبِ الآياتِ، وإخفاءِ الحُجَجِ والدَّلالاتِ على تواليها وكثرتِها، وطولِ زمانِها وعظَمتِها؛ قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[1]، فهم أهلُ زور وفجور، وأصحابُ عناد وتكذيب؛ ولذلك فإنَّهم ومن يقتدي بهم في الضَّلال والكفر لا يجدون لهم ناصرًا يوم القيامة، وسيجتمع عليهم خزيُ الدُّنيا وهَوانُ الآخرة، وبئسَ المصيرُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَئِمَّةً﴾: (أمّ) أَصلٌ يدُلُّ على تَضامِّ شيءٍ أو أشياء متجانِسَةٍ في حيِّزٍ يُحيط بظاهِرِها بلُطْفٍ[2]، وتتَفَرَّعُ مِنْ هذا الأصل أبْوابٌ مُتَقارِبَةٌ: كالأَصْلِ، والمَرْجِعِ، والجَماعَةِ، والدّين، والقَصْدِ[3]، فالإمامُ: المُؤْتَمُّ بهِ، إنسانًا كانَ يُقتدَى بقولِهِ أو فعلِهِ، أو كتابًا، أو غيرَ ذلكَ، مُحِقًّا كانَ أو مُبطِلًا، وجمعُهُ: أئمَّةٌ، أصله: (آممَة) على وزنِ فاعِلة، مثلُ إناءٍ وآنية، وإلهٍ وآلهة، فأدغمت الميم، ونُقِلت حركتُها إلى ما قبلها، فلمّا حرّكوها بالكسر؛ جعلوها ياءً[4]، وقولُهُ ﷻ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ﴾ [الإسراء: 71]، أي: بالَّذي يقتدونَ بهِ، وقيلَ: بكتابِهِم[5]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 298.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أم).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (أمم).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أمم).

والأئمَّةُ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ جمعُ إمامٍ، وهو مَنْ يُقتدى بِهِ في الدّين أو في الدُّنيا[1].

2) ﴿يَدۡعُونَ﴾: (دعو) أصلٌ يدلُّ على إمالةِ الشَّيءِ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ[2]، والدُّعاءُ: الرَّغبةُ إلى اللهِ فيما عندَهُ مِنَ الخيرِ، والابتهالُ إليهِ بالسُّؤالِ[3]، وتقولُ: دَعَوْتُهُ؛ إذا سألتَهُ، وإذا استغثتَهُ، قالَ ﷻ: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: 68]، أي: سَلْهُ، وقالَ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ [الأنعام: 40 - 41]؛ تنبيهًا أنَّكم إذا أصابَتْكم شدَّةٌ؛ لم تَفْزَعوا إلّا إليهِ، والدَّعوى: الدُّعاءُ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: 10]، والادِّعاءُ: أنْ يدَّعيَ شيئًا أنَّهُ له[4]، والدُّعاء إلى النّار في الآية: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾، هو إمالتُهُمُ النّاسَ - بأقوالِهم وأفعالِهم - إلى العمل الموقِعِ في النّار.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

المُعرِض يتوالى عليه خذلان الدنيا وعذاب الآخرة

وجعَلْناهم أئمَّةً يدعونَ مَنْ سلكَ سبيلَهم، وأخذَ بطريقتِهم إلى أعمالِ أهلِ النّارِ، ويومَ القيامةِ لا ينصرُهم ناصرٌ؛ إذا عذَّبَهم اللّهُ، فاجتمعَ عليهم خِزْيُ الدُّنيا، موصولًا بذُلِّ الآخرةِ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ الجملة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾:

الجمعُ بينَ الاستكبارِ والإضلالِ، سببٌ لتعجيل الاستئصال

جملةُ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾، أي: (استكبَروا، فكانوا ينصرونَ الضَّلالَ،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (دعو).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (دعو).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 582، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 238.

ويبُثّونَه)[1]، وفي هذا العطفِ تنبيهٌ على جمعِهم بينَ قبيحتين، وهما الاستكبارُ والإضلالُ.

سرُّ إسنادِ الجعلِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

أُسنِدَ فعلُ ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ إلى نونِ العظَمةِ لتعظيمِ شأنِ الجعلِ وتفخيمِه، فهو جعلُ العظيمِ القادرِ على كلِّ شيءٍ.

نكتةُ اختيارِ لفظِ الجعلِ:

المبالغةُ في وصفِهم بالإضلالِ مُبَيِّنَةٌ لحالِهم في الدَّعوة للضَّلال

عُبِّرَ بالجعلِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾؛ لأنَّ مِنْ معاني الجعلِ التَّصييرَ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ اللّهَ تعالى قد صيَّرَهم دُعاةً إلى الضَّلالِ، يقتدي بهم الكفَّارُ في ضلالتِهم[2]، حتَّى كأنَّ صورَهم تمحَّضَتْ للإضلالِ، وقُلِبَتْ حقائقُهم إليه، ويحتملُ أنْ يكونَ الجعلُ بمعنى الخلقِ[3]، فيفيدُ الكلامُ المبالغةَ في كونِهم ضُلّالًا مُضِلّينَ، وكأنَّ الضَّلالَ والإضلالَ مِنْ عناصرِ تكوينِهم الَّتي خُلِقوا منها، فقد خُلِقَتْ نفوسُهم مُنصرفةً إلى الشَّرِّ، ومُعرِضةً عن الإصغاءِ للرُّشدِ، وكانَ وجودُهم بينَ ناسٍ ذلكَ شأنُهم، واللّهُ بعثَ إليهم الرُّسُلَ لإرشادِهم، فلم ينفعْ ذلكَ، وإنَّما أصرّوا على الكفرِ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَئِمَّةٗ﴾:

بيانُ بلوغِ فرعونَ وقومِهِ في الضَّلالِ أقصَى النِّهاياتِ

جيءَ بلفظِ ﴿أَئِمَّةٗ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾؛ للمبالغةِ في ضلالِ فرعونَ وجُنودِهِ وإضلالِهم؛ لأنَّ الإمامَ مَنْ يُقتدَى به في عملٍ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ[5]، وإنَّما جعلَهم اللّهُ تعالى أئمَّةً في الضَّلالِ؛ لأنَّهم بلغوا في هذا البابِ أقصَى النِّهاياتِ، ومَنْ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 126.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 307، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 14.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 74.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 126.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 126.

كانَ كذلكَ؛ استحقَّ أنْ يكونَ إمامًا يُقتدَى بهِ في ذلكَ البابِ[1]، ولأنَّ أمرَهم شهيرٌ، فلا يكادُ أحدٌ يجهلُهُ، فكلُّ مَنْ فعلَ مِثْلَ أفعالِهم - مِنْ ردِّ الحقِّ والتَّجَبُّرِ على الخلقِ - فكأنَّهُ قد اختارَ الاقتداءَ بهم، وإنْ لم يكنْ قاصدًا ذلكَ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَدۡعُونَ﴾:

دعوتُهم إلى النّارِ مُستمِرَّةٌ، فآلتْ بهم إلى المَفْسَدةِ والمَعَرَّة

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإضلالَ شأنُهم ودَيْدَنُهم، فهم يدعونَ إلى النّارِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، أي: هم قُدوةٌ لكلِّ كافرٍ وعاتٍ إلى يومِ القيامةِ[3].

بلاغةُ الإيجازِ في لفظ ﴿يَدۡعُونَ﴾:

بيانُ دَعوَةِ فرعونَ وجُنودِهِ النّاسَ إلى النّارِ

في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ إيجازٌ بحذفِ مُتعلِّقِ الفعلِ ﴿يَدۡعُونَ﴾، والمعنى: (يدعونَ النّاسَ)[4]، أو: (يدعونَ مَنِ اغترَّ بحالِهم[5]، فضلَّ ضلالَهم)؛ فإنَّ فرعونَ وجنودَه أئِمَّةٌ في الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ؛ لأنَّهم يَدْعونَ غيرَهم إلى ما يوصِلُ إلَى النّارِ، وسعيرِها، والاحتراقِ بها[6].

دلالةُ الحرف ﴿إِلَى﴾:

مُنتهَى الظَّلَمةِ الفجّارِ دعوتُهم النّاسَ إلى النّارِ

حرفُ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ المكانيَّةِ، وفي التَّعبيرِ بهِ إشارةٌ إلى أنَّ غايةَ إضلالِهم هي النّارُ، وأنَّهم لا يَقودونَ مَنِ اقتدَى بهم إلّا إلى ما يوجِبُ لهُ العذابَ المقيمَ.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾:

بيانُ أنَّ دعوتهم إلى موجِباتِ النّارِ، دعوى للكفرِ والعصيانِ

في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ، فالنّارُ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 601.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 298.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 289.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 14.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 298.
(6) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 10/ 409.

مجازٌ عن المعاصي الَّتي هي سببُها[1]، والمعنى: (يدعونَ إلى موجِباتِ النّارِ مِنَ الكفرِ والمعاصي)[2]، ونكتةُ هذا المجازِ: أنَّ السَّببَ لكمالِه في السَّببيَّةِ، كأنَّهُ عينُ المُسبَّبِ[3].

دلالةُ عطفِ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾:

الدّاعي إلى النّارِ أولى بالنّارِ، ولا ناصرَ لهم يومَ القيامة

الواو في أوَّل قول اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ للعطف، فالجملة معطوفة على جملة: ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾، أي: (جعلْناهم أئمَّةً يدعون إلى النّار، وجعلْناهم أئمَّةً لا يُنصرون يومَ القيامة)[4]، وإذا كانَ فرعونُ وجُنودُهُ يدعونَ إلى النّارِ؛ فهُم مِنْ أهلِ النّارِ بالأحرى، فلذلكَ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، أي: لا يجدونَ مَنْ ينصرُهم، فيدفعُ عنهُم عذابَ النّارِ، ومناسبةُ العطفِ أنَّ الدُّعاءَ يقتضي جُنْدًا وأتباعًا يعتزّونَ بهِم في الدُّنيا، ولكنَّهم لا يُغنونَ عنهُم يومَ القيامةِ مِنَ اللّهِ شيئًا[5].

سرُّ تقديمِ قوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

الخَيبَةُ فُقْدانُ النُّصرةِ عندَ شدَّةِ الحاجةِ إليها

قُدِّمَ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، ولم يقل: (ولا يُنصَرونَ يومَ القيامةِ)؛ للعنايةِ بكونِ عدمِ النُّصرةِ لهُم واقعًا في يومِ الأهوالِ والأفزاعِ، وفي ذلك مزيدُ تقبيحٍ لسوءِ عاقبتِهم، حيثُ يَفقِدونَ النُّصرةَ عندَ شدَّةِ احتياجِهم إليها، ولا يُغني عنهُم كِبْرياؤُهم وجَبَروتُهم الَّذي كانوا عليهِ في الدُّنيا، كما أنَّ في تأخيرِ الفعل ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ مراعاةً لِتلاؤُمِ الفواصِل.

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 75.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 415، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 179.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 526.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 262.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 126.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ اللّهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ عدمَ النُّصرةِ أمرٌ مُستمِرٌّ يومَ القيامةِ في عمومِ الأوقاتِ[1]؛ لأنَّ صيغةَ المضارعِ تفيدُ الاستمرارَ، فإذا دخلَ عليها النَّفيُ؛ أفادتِ استمرارَ الانتفاءِ، وفي ذلكَ تقنيطٌ لهُم، وقَطْعٌ لحبائلِ آمالِهم، وتربيةٌ للمَهابةِ في نفوسِهم.

التَّخويفُ بقَطعِ حَبلِ الأملِ والتَّقنيطُ مِنْ حصولِ النُّصرةِ

نكتةُ حذفِ متعلّقِ النُّصرة ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾:

جاءتِ الآيةُ الكريمة: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بحذف متعلّقِ فعلِ النُّصرة، وإطلاقِه بلا قَيد، فقال تعالى: ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾، ولم يقل: (لا يُنصَرونَ بكذا)؛ لإفادةِ انتفاءِ النُّصرةِ بجميعِ وجوهِها وأشكالِها، فالنُّصرةُ في الأصلِ دفعُ المَضَرَّةِ ودفعُ العذابِ، إمّا مجّانًا كالشَّفاعة، أو قَهْرًا، أو مكافأةً لما أحسنَهُ، والكلُّ مُنتَفٍ هنا[2]، فالمعنى: (لا يُنصَرونَ بدفعِ العذابِ عنهُم بوجهٍ مِنَ الوجوهِ)[3]، وفي ذلكَ مزيدُ تيئيسٍ وتقنيطٍ لهُم، ومزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ.

النُّصرةُ مُنتفيةٌ بجميعِ وجوهِها، قطعًا لأيِّ ظَنٍّ أو أمل

۞ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأئمَّةُ والهُداةُ:

الإمامُ هو المُؤتَمُّ به، إنسانًا كانَ يُقتدَى بقولِهِ أو فعلِه، أو كتابًا، أو غيرَ ذلكَ، مُحِقًّا كانَ أو مُبطِلًا، وجمعُهُ: أئمَّةٌ[4]، والهدايةُ: دلالةٌ بلُطْفٍ، والهدايةُ باللُّطفِ لا تناسبُ حالَ فرعونَ وجُنودِهِ الَّذينَ يَقْسِرونَ النّاسَ على طاعتِهم، ويدعونَهم إلى ما فيهِ هلاكُهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولذلكَ لم يُعبَّرْ بها في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

الدَّلالةُ بلُطْفٍ لا تناسبُ حالَ فرعونَ وجُنودِهِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 526.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 526.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 291.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أمم).

﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾ [القصص: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عاقبةُ الضّلال والإضلال لعنةٌ في الدُّنيا، وتقبيحٌ في الأخرى

لمّا أخبرَ تعالى عن كونِ فرعونَ وجنودِه أئمَّةً في الضَّلالِ والإضلالِ؛ أخبرَ عن نتيجةِ ذلكَ وثمرتِه، فقالَ: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾[1]، فكان جزاؤهم خزيًا لاحِقًا، وطردًا من رحمة اللّه سابقًا، ولعنًا في الدُّنيا ماحِقًا، مع ما يتبع ذلك من لعنة القيامة وخِزيِ الحياة الأبديَّة، ومقتضياتها من الهلاكِ والنَّدامة[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعۡنَةٗۖ﴾: (لعن) أصلٌ يدلُّ على إبعادٍ وطَرْدٍ[3]، واللَّعْنُ: الطَّرْدُ والإبعادُ على سبيلِ السُّخْطِ، ورجل لُعَنَة؛ إذا كان يُكثِر لَعْنَ النّاس، ورجلٌ لُعْنَة؛ إذا كان النّاس يلعنونه لشرارته، والأوَّل فاعل والثّاني مفعول، وكانت العرب تحيّي ملوكها في الجاهليَّة، بأن تقولَ للملِك: أبيتَ اللَّعن، ومعناه: أبيت أيُّها الملك أن تأتي أمرًا تُلعَن عليه[4]، وأثَرُ لَعنَةِ اللّه في الآخرةِ العقابُ الأليم، وفي الدُّنيا انقطاعٌ مِنَ قبولِ رحمتِه وتوفيقِه، واللَّعْنُ مِنَ الإنسانِ دعاءٌ على غيرِه بلعنةِ اللّه، وقولُ اللّه تعالى: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾، أي: طَرْدًا مِنَ الرَّحمة[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 299.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3176.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لعن).
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 59.

2) ﴿ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾: (قبح) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلاف الحُسْن، وهو القُبْح، يقال: قبَّحه الله، وهذا مقبوح وقبيح، وزعم ناس أنَّ المعنى في (قبَّحه): نحّاه وأبعده[1]، والقبيحُ: ما ينبو عنهُ البصرُ مِنَ الأعيانِ، وما تنبو عنهُ النَّفسُ مِنَ الأعمالِ والأحوالِ، وقولُه ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾، قيلَ: مِنَ الموسومينَ بحالةٍ منُكَرةٍ، وذلكَ إشارةٌ إلى ما وصفَ اللّهُ بهِ الكفّارَ مِنَ النَّجاسةِ إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الصِّفاتِ، وما وصفَهم بهِ يومَ القيامةِ مِنْ سوادِ الوجوهِ، وزُرْقَةِ العيونِ، وسَحْبِهم بالأغلالِ والسَّلاسلِ، ونحوِ ذلكَ[2]، وقيلَ: مِنَ المُبعَدينَ؛ إذ يقالُ: قَبَحَهُ اللّهُ عن الخيرِ، أي: نحّاهُ[3]، وقيلَ: مِنَ المُهلَكينَ المَمْقوتينَ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحـكـم على فرعون وقومه بالخِزْي في الدُّنيا، والقُبح في الآخرة

تؤكِّد الآيةُ أنَّ اللّه تعالى سلَّط على فرعونَ وقومه في هذهِ الدُّنيا خِزْيًا ولعنةً منه عليهم، حيث حكَمَ عليهم بالهلاكِ والبَوارِ والذِّكرِ السيِّئِ عند اللّه وعند المؤمنين، ثمَّ هم يومَ القيامةِ ماكِثون في عذابٍ مهين، تنبو الأبصارُ والعقولُ عن مشاهدتِه ورؤيَةِ آثاره[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ إسنادِ الإتباعِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

إتباعُهم اللَّعنةَ أمرٌ عظيمُ الشّان، موصولٌ بالهوان

أُسنِدَ الإتباعُ في قولِ اللّهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾ إلى نونِ العظَمةِ لتفخيمِ شأنِ هذا الإتباعِ، بكونِه صادرًا مِنْ ذي العظَمةِ والجلالِ[6]، وعقابُ العظيمِ عظيمٌ، وما أشدَّ خسارةَ مَنْ باءَ بلعنِ اللّهِ وسَخَطِه!.

(1) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة: (قبح).
(2) الرّاغب، المفردات: (قبح).
(3) الخليل، العين: (قبح).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 290.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 583.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 299.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإتباعِ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ إتباعَهم اللَّعنةَ في الدُّنيا هو جعلُ اللَّعنةِ مُلازِمةً لهُم في علمِ اللّهِ تعالى، فقدَّرَ لهُم هلاكًا لا رحمةَ فيه، فعبَّرَ عن تلكَ الملازمةِ بالإتباعِ على وجهِ الاستعارةِ؛ لأنَّ التّابعَ لا يُفارِقُ متبوعَهُ، وكانَتْ عاقبةُ تلكَ اللَّعنةِ إلقاءَهم في اليمِّ[1].

اللّعنةُ كانت ملازِمَةً لهم، لا تفارِقُهم أينَما ذهبوا، حتى ألْقَتْهم في اليمِّ

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ﴾:

جيءَ بفعلِ الإتباعِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾ بصيغةِ الماضي؛ لأنَّ اللَّعنةَ في الدُّنيا قد انتهَى أمرُها بإغراقِهم، أو لأنَّ لعْنَ المؤمنينَ إيّاهم في الدُّنيا يكونُ في أحيانٍ يذكرونَهم فيها، فكلا الاحتمالينِ لا يقتضي الدَّوامَ[2].

اللَّعنةُ الدنيويَّةُ قد تحقَّقت بهم، ثم صاروا إلى الهوان الدّائم

دلالةُ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾:

جيءَ باسمِ الإشارةِ للقريبِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾؛ لتهوينِ أمرِ الدُّنيا بالنِّسبةِ للآخرةِ[3]، وتحقيرِ أمرِها، وبيانِ أنَّها لا تُساوي في ميزانِ اللّهِ تعالى شيئًا، فلا تستحِقُّ أن يُستَعلى فيها، ولا أن يُسعى في جمعِ حُطامِها.

تهوينُ أمرِ الدُّنيا، وتحقيرُها بالنِّسبة للآخرة

سرُّ اختيارِ لفظ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ دون (الحياةِ):

عُبِّرَ بلفظِ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قولِ الحقِّ تعالى: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾، ولم يقل: (في هذه الحياةِ)؛ لأنَّ السّياقَ لتحقيرِ أمرِهم فيها، وبيانِ دناءةِ شأنِهم[4]، ولفظُ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ يناسبُ ذلكَ.

تحقيرُ شأنِ الحياةِ الدُّنيا، وما صاروا إليه فيها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 127.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 127.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 127.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 299.

نكتةُ تنكيرِ ﴿لَعۡنَةٗۖ﴾:

لعنةُ فرعونَ وجُنودِهِ عظيمةُ الشَّأنِ

تنكيرُ ﴿لَعۡنَةٗۖ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾؛ للإفرادِ، أي: وأتبَعْناهم فردًا مِنْ أفرادِ اللَّعنةِ، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: وأتبَعْناهم لعنةً عظيمةَ الشَّأنِ؛ لشدَّةِ ما لَحِقَهم مِنَ العذابِ والنَّكالِ واللَّعنِ على ألسنةِ اللّاعنينَ.

علَّةُ تقديمِ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

العنايةُ بكونِ تقبيحِهم حاصلًا يومَ القيامةِ

قُدِّمَ الظَّرفُ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على المبتدأ والخبرِ: ﴿هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾، ولم يقل: (وهم مِنَ المقبوحينَ يومَ القيامةِ) - للعنايةِ بكونِ تقبيحِهم واقعًا في يومِ الأهوالِ والأفزاعِ، وفي ذلكَ إدخالٌ للرَّوْعِ والمَهابةِ في النُّفوسِ، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في تأخيرِ ﴿هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ مراعاةً لملاءمةِ الفاصلةِ لما قبلَها، و﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إمّا متعلِّقٌ بـ﴿ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ على أنَّ اللّامَ للتَّعريفِ لا بمعنى الَّذي، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ يُفسِّره ذلك، كأنَّه قيل: (وقُبِّحوا يوم القيامة)[1].

دلالةُ ﴿مِّنَ﴾:

فرعونُ وجُنودُهُ مُنخرِطونَ في زُمرةِ المقبوحينَ يومَ المعادِ

حرفُ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ للتَّبعيضِ[2]، والمعنى: (وهم بعضُ المقبوحينَ وجزءٌ منهُم، ومُنتظِمونَ في سِلكِهم)؛ وذلك لأنَّهم مِنَ المطرودينَ المُبعَدينَ، وقيل: مِنَ الموسومين بعلامةٍ منكرةٍ كزرقةِ العُيون وسوادِ الوجه، وقيل مِنَ المقبوحين من المُهلكينَ[3].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ المفعولِ ﴿ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾:

فرعونُ وجُنودُهُ مِنَ الزُّمرةِ الموسومةِ بالقُبحِ

قولُ اللّٰه ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ في الآية: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 15.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 196.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 15.

﴿ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ أبلغُ مِنْ (يُقبَحونَ)، فإنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ تعريفُ الجنسِ، فإخبارُ اللّهِ عنهُم أنَّهم مِنَ المقبوحينَ يفيدُ أنَّهم مِنَ الفئةِ الَّتي تُعرَفُ عندَ النّاسِ بفئةِ المقبوحينَ[1]، فيفيدُ الكلامُ افتضاحَ أمرِهم، واشتهارَهم بهذا الوصفِ القبيحِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

دوامُ تقبيحِهم يومَ القيامة دلالةٌ على السَّخط بارزة

تقبيحُ حالِ فرعونَ وجنودِه يومَ القيامةِ دائمٌ معَهم، ملازمٌ لهُم، ولذلكَ جيءَ في جانبِهِ بالجملةِ الاسميَّةِ المُقتضيةِ دوامَ التَّقبيحِ وثباتَهُ لهُم يومَ القيامةِ، فقالَ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾[2].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 75، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 291.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 127.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ [القصص: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكرُ الامتنانِ على المؤمنينَ بعدَ إهلاكِ الظّالمينَ، وتعاقُب دعوتَي الحقِّ والباطِل

لمّا ذكرَ تعالى ما آلَ إليهِ فرعونُ وقومُهُ مِنْ غَضَبِ اللّهِ عليهِم وإغراقِهم؛ ذكرَ ما امتنَّ بهِ على رسولِهِ موسى ﷺ، فقالَ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآيةَ[1]؛ بيانًا للمقابلة بينَ مَن ﷺ، وأرضاه من أهل طاعته، وبين مَن عصى اللّه، واستكبر عن عبادته، فباء بغضب من اللّهِ وسخَطِه، ثُمَّ إنَّه لمّا وعدَ سبحانَهُ بإمامةِ بني إسرائيلَ، وقصَّ القَصَصَ حتَّى ختمَ بإمامةِ آلِ فرعونَ في الدُّعاءِ إلى النّارِ؛ إعلامًا بأنَّ ما كانوا عليهِ تجبُ مجانبتُهُ؛ تشوَّفَتِ النَّفوسُ إلى أساسِ إمامةِ بني إسرائيلَ، الَّتي يجبُ العُكوفُ عليها في ذلكَ الزَّمانِ؛ إذْ منَ المعلوم أنَّ لكلِّ إمامة دِعامة، فأخبرَ سبحانَهُ عن ذلكَ قائلًا: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآيةَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاتَيۡنَا﴾: (أتي) أصلٌ يدلُّ على وصولٍ بتهيئة أو قوَّةٍ تُزيل ما يَعوق، مع خفاء مصدَر المجيءِ[3]، ومنه الإيتاءُ: الإعطاءُ[4]، يقالُ: آتَى إليهِ الشَّيءَ إيتاءً، أي: ساقَهُ، وجعلَهُ يأتي إليه، وآتَى فلانًا شيئًا إيتاءً: أعطاهُ إيّاهُ[5]، وفي التَّنزيل: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النّمل: 23]، وخُصَّ دفعُ الصَّدقةِ في القرآنِ بالإيتاءِ، نحوُ قولِه: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 601، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 307.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 300.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو/ أتي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتي).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتي).

﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾ [الأنبياء: 73][1]، وقولُهُ: ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ﴾ [البقرة: 265]، أي: أعطَتْ، والمعنى: أثمرَتْ ضِعْفَيْ ما يُثمِرُ غيرُها مِنَ الجِنانِ، وقولُهُ: ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمّد: 17]، أي: أعطاهم جزاءَ اتِّقائِهم[2]، ومعنى ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾: أعطَيْناهُ إيّاهُ.

2) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: (كتب) أصلٌ يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ[3]، والكَتْبُ في العُرْفِ: ضمُّ الحروفِ بعضِها إلى بعضٍ بالخطِّ، وقد يقالُ ذلكَ للمضمومِ بعضِها إلى بعضٍ باللَّفظِ، والكِتابُ في الأصلِ مصدرٌ، ثمَّ سُمّيَ المكتوبُ فيهِ كِتابًا، فالكِتابُ في الأصلِ: اسمٌ للصَّحيفةِ معَ المكتوبِ فيها[4]، والمرادُ بالكتابِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التَّوراةُ الَّتي خاطبَ اللّهُ بها موسى عليه السلام[5].

3) ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾: (هلك) أصلٌ يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ[6]، والهلاكُ على أوجهٍ: الأوَّلُ افتقادُ الشَّيءِ عنكَ، وهو عندَ غيرِكَ موجودٌ، كقولِهِ تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقّة: 29]، والثّاني: هلاكُ الشَّيءِ باستحالةٍ وفسادٍ، كقولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ [البقرة: 205]، والثّالثُ: الموتُ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النّساء: 176]، والرّابعُ: بطلانُ الشَّيءِ مِنَ العالَمِ وعدمُهُ رأسًا، وهو المُسمّى فَناءً، المُشارُ إليهِ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88]، ويقالُ للعذابِ والخوفِ والفقرِ: الهلاكُ، والهُلْكُ: الإهلاكُ، والتَّهلُكةُ: ما يُؤدّي إلى الهلاكِ[7]، فالإهلاك في قول اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ الإماتة بالعذاب.

4) ﴿ٱلۡقُرُونَ﴾: (قرن) أصل يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيء، وعلى نتوءِ شيءٍ بقوَّة وشدَّة[8]، والقَرْنُ من النّاس: القومُ المقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، من الاقتران وهو الاجتماع، وجمعُهُ قُرونٌ، قالَ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [يونس: 13][9]، أو أصله من النُّتوء،

(1) ابن سيده المرسيّ، المحكم والمحيط الأعظم: (أتي).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أتي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).
(4) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 129.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هلك).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(9) الرّاغب، المفردات: (قرن).

فالقَرنُ: الأمَّة تأتي بعد الأمَّة، والجيل ينشأ بعد الجيل، سُمّيت قرونًا تشبيهًا بنتوء قرونِ الشاة ونحوها، كأنَّها دفعةٌ من النّاس خارجةٌ بعد دافعة[1]، ومن هذا المعنى قولُ اللّٰه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، وقيلَ في تحديدِ القَرْنِ: كلُّ طبقةٍ بُعِثَ فيها نبيٌّ، وقيلَ: القَرْنُ المُدَّةُ، واختُلِفَ في قَدْرِها، فقيلَ: ثمانونَ سنةً، وقيلَ: أربعونَ، وقيلَ: مئةٌ[2].

5) ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾: (أول) أصلٌ يدلُّ على ابتداءِ الأمرِ، فالأوَّلُ: مبتدأُ الشَّيءِ، ومؤنَّثُه: الأولى[3]، وقيلَ: الأوَّلُ: هو الَّذي يترتَّبُ عليهِ غيرُهُ، ويُستعمَلُ على أوجهٍ، منها: المُتقدِّمُ بالزَّمانِ، كقولِكَ: عبدُ الملكِ أوَّلًا ثمَّ المنصورُ، والمُتقدِّمُ بالرّياسةِ في الشَّيءِ، وكونُ غيرِهِ مُحتذيًا بهِ، نحوُ: الأميرُ أوَّلًا ثمَّ الوزيرُ، وإذا قيلَ في صفةِ اللّٰهِ: هو الأوَّلُ؛ فمعناهُ: أنَّهُ الَّذي لم يَسْبِقْهُ في الوجودِ شيءٌ[4]، والمرادُ بالقُرونِ الأولى في قولِهِ تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قومُ نوحٍ وعادٌ وثمودُ وقومُ لوطٍ[5].

6) ﴿بَصَآئِرَ﴾: (بصر) أصلٌ يدلُّ على العِلمِ بالشَّيءِ، فيقالُ: هو بصيرٌ بهِ[6]، ويقالُ لقوَّةِ القلبِ المُدرِكةِ: بصيرةٌ وبصرٌ، كقولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: 22]، وكقوله ﷻ عن السّامريّ: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: 96]، قال الأخفش: أي: (علمت ما لم يعلموا به)، من البصيرة[7]، وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: 203]، أي: هذا القرآنُ حُجَجٌ واضحةٌ، وبراهينُ بيِّنةٌ[8]، وقولُهُ هنا: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِمَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾، أي: جعَلْناها عِبْرةً لهُم[9]، أو طرائقَ هاديةً[10].

7) ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: (ذكر) أصلٌ يدلُّ على قوَّة الشَّيء وصلابةِ مادَّته، ومنه الذِّكْرُ، وهو حفظُ

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرن).
(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (قرن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أول).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 129.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: (بصر).
(8) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بصر).
(9) الرّاغب، المفردات: (بصر).
(10) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 289.

الشَّيءِ مِنَ النِّسيان، سُمّيَ ذِكرًا؛ لأنَّ به يَبقَى الشَّيء قويًّا واضِحًا في الذِّهن[1]، والذِّكر الذي به يحفَظُ الإنسانُ ما اكتسبَه من المعرفة يكون بالقلب، ويكون باللِّسان؛ وكلُّ واحدٍ منهما نوعانِ: ذِكرٌ عن نسيانٍ، وذِكرٌ لا عن نسيانٍ، بل عن إدامةِ الحفظ[2]، وتذكَّرَ الشَّيءَ يتذَكَّرُه: استحضرَه بعدَ نسيان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرّعد: 19]، وقال هنا: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـعـد هـلاك الأمم الملعونة، المَـنُّ عـلى بني إسرائيلَ بالتَّوراةِ لـهـدايـتـهـم وتـبـصـيرهـم وتذكيرهم

ولقد أعطَيْنا موسى عليه السلام التَّوراةَ مِنْ بعدِ إهلاكِ الأُمَمِ الَّتي كانَتْ قبلَهُ - كقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقوم لوطٍ وأصحاب مدينَ - وجعَلْناها ضياءً لبني إسرائيلَ فيما يحتاجونَ إليهِ مِنْ أمرِ دينِهم، وبيانًا وإرشادًا لهُم، ورحمةً لِمَنْ عملَ بها منهُم؛ ليتذكَّروا نِعَمَ اللّهِ عليهِم بذلكَ، فيَشْكُروهُ عليها، ولا يَكْفُروهُ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ الوصلِ بالواو ﴿وَلَقَدۡ﴾:

مقارنةُ رسالةِ محمَّدٍ برسالة موسى عليهما السلام، كانا بعد فترة طويلة من الرُّسُل

الواوُ قبل لامِ القسم وحرف التَّحقيق مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ استئنافيَّةٌ[4]، فالآيةُ إتمامٌ لتنظيرِ رسالةِ خاتمِ الأنبياء محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم برسالةِ موسى عليه السلام في أنَّها جاءَتْ بعدَ فترةٍ طويلةٍ لا رسالةَ فيها، وهي تخلُّصٌ مِنْ قصَّةِ بعثةِ موسى عليه السلام إلى تأييدِ بعثةِ نبيِّنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم[5]، فكما أنَّ إيتاءَ التَّوراةِ - بعد إهلاك الأمم الماضية - إنَّما كان لَمسيس حاجَة النّاس إلى تبصيرهم وهدايتهم وتذكيرِهم؛ فكذلك الحاجَةُ إلى إنزال القرآن على الرَّسول محمَّد

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذكر).
(2) الرّاغب، المفردات: (ذكر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 583.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 20/ 263.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 127.

ﷺ، فإنَّ إهلاكَ القرون الأولى من موجِبات اندراس معالِم الشَّرائع، وانطماسِ آثارها وأحكامها[1].

غرضُ التَّوكيدِ في ﴿وَلَقَدۡ﴾:

التَّمكينُ لأهلِ الإسلامِ مُتيقَّنٌ لا ريبَ فيه

جاء تأكيدُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بلامِ القَسَم وحرفِ التَّحقيقِ؛ لأنَّ العربَ، وإنْ كانوا مُصدِّقينَ بما وقعَ مِنَ المِنَّةِ على بني إسرائيلَ، بإنقاذِهم مِنْ فرعونَ وتمكينِهم بعدَهُ، وإنزالِ الكتابِ عليهم؛ إلّا أنَّ حالَهم بإنكارِ التَّمكينِ لأهلِ الإسلامِ والتَّكذيبِ بكتابِهم حالُ المُكذِّبِ بأمرِ بني إسرائيلَ؛ لأنَّهُ لا فرقَ بينَ نبيٍّ ونبيٍّ، وكتابٍ وكتابٍ، وناسٍ وناسٍ، فَرَبُّ الكلِّ واحدٌ[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّوكيدُ لتنزيلِ المُخاطَبينَ منزلةَ المُنكِرينَ لوقوعِ ذلكَ، وموقعُ التَّأكيدِ هو قولُهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾[3].

نكتةُ إسنادِ الإيتاءِ إلى نونِ العظَمةِ:

إيتـاءُ الكتابِ عظيمُ الشَّأنِ، رفيعُ المقصد

أُسنِدَ الإيتاءُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلى نونِ العظَمةِ لتفخيمِ شأنِ الإيتاءِ، بكونِ المُؤتي ذا العظَمةِ والجلالِ والكِبْرياءِ، أي: (ونحن بما لَنا مِنَ الجلالِ والجمالِ، والمجدِ والكمالِ، آتَيْنا موسى الكتابَ)[4]، وفي ذلكَ أيضًا تعظيمٌ للمُؤتَى، وهو موسى عليه السلام، وتعظيمٌ للكتابِ المُؤتَى أيضًا، ببيانِ أنَّ مصدرَهُ إلهيٌّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

مَلمَحُ المبالغة في المعنى الَّذي يشتملُ عليه

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فِعالٌ بمعنى المكتوبِ: إمّا مصدرُ (كاتَبَ) المَصوغ للمبالغةِ في الكتابةِ، فإنَّ المصدرَ يجيءُ بمعنى المفعولِ، كالخَلْقِ بمعنى المخلوقِ، وإمّا فِعالٌ بمعنى مفعولٍ، كلِباسٍ بمعنى ملبوسٍ،

(1) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 123.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 300.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 129.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 301.

واشتقاقُهُ مِنْ (كتبَ) بمعنى (جمعَ) و(ضمَّ)؛ لأنَّ الكتابَ تُجمَعُ أوراقُهُ وحروفُهُ[1].

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الكتابُ المقصود هـو الـتَّـوراةُ المعهودة

المرادُ بالكتابِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراةُ[2]، فاللّامُ للعهدِ بدلالةِ القرينةِ[3]، حيثُ أخبر اللّه ﷻ أنَّه آتى موسى كتابَ التَّوراة المنزل، وجعلها نورًا للنّاس وهدايةً، وهي بلا شكٍّ تذكرةٌ لهم من عقاب اللّه وشديدِ عذابه[4].

دلالة الحرفِ ﴿مِنۢ﴾:

بيانُ أنَّ إيتاءَ التَّوراةِ كان بعدَ إهلاكِ القرونِ الأولى

حرفُ الجرِّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِمَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ لابتداءِ الغايةِ الزَّمانيَّة، وهو يفيدُ أنَّ ابتداءَ إيتاءِ التَّوراةِ كانَ بعدَ إهلاكِ القرونِ الأولى، وفي الإتيانِ بها أيضًا تأكيدٌ للبعديَّة، ولذلكَ لم يقل: (بعدَ ما أهلَكْنا).

بلاغةُ إسنادِ الإهلاكِ إلى ضميرِ العَظَمَة:

أخْـذُ المُنـتـقِـمِ الـجـبّـارِ أليـمٌ خطير الآثار

أُسنِدَ الإهلاكُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ إلى نونِ العظمةِ لتفخيمِ شأنِ الإهلاكِ؛ إذ المُهلِكُ هو المُنتقِمُ الجبّارُ ذو العظَمةِ والجلالِ[5]، أي: (أهلَكْنا بعظَمتِنا القُرونَ الأولى)[6]، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّخويفِ والتَّهديدِ.

سرُّ ذكرِ إيتاءِ التَّوراةِ بعدَ إهلاكِ القرونِ الأولى:

تـهـديـدُ قـريـشٍ بـعـقـبـى الأمـمِ السّابقةِ المُهلكة

قولُ اللّهِ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِمَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، إخبارٌ بأنَّهُ أنزلَ التَّوراةَ على موسى بعدَ هلاكِ فرعونَ وقومِهِ، وبعدَ إهلاكِ عادٍ وثمودَ، وقومِ لوطٍ وغيرِهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 221.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 179.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 527.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 60.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 301.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 301.

والقصدُ بهذا الإخبارِ تحذيرُ قريشٍ ممّا أصابَ غيرَها مِنَ الأممِ[1]، وفيه أيضًا الإشعارُ بمَساسِ الحاجةِ الدّاعيةِ إلى إيتاءِ التَّوراةِ، تمهيدًا لِما يَعْقُبُهُ مِنْ بيانِ الحاجةِ الدّاعيةِ إلى إنزالِ القرآنِ الكريم على رسولِ اللّهِ ﷺ، فإنَّ إهلاكَ القرونِ الأولى مِنْ أسبابِ اندراسِ معالمِ الشَّرائعِ وأحكامِها، المُؤدّي إلى اختلالِ نظامِ العالَم، وفسادِ أحوالِ الأممِ، وذلكَ يستدعي التَّشريعَ الجديدَ، بتقريرِ الأصولِ الباقيةِ على مرِّ الدُّهور، وترتيبِ الفروعِ المُتبدِّلةِ بتبدُّلِ العصورِ، كأنَّهُ قيلَ: (ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ على حينِ حاجةٍ إلى إيتائِها)[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ الإشارةَ إلى أنَّهُ لا يعمُّ أمَّةً مِنَ الأممِ بالهلاكِ بعدَ إنزالِ التَّوراةِ؛ تشريفًا لها ولِمَنْ أُنزِلَتْ عليهِ[3].

دلالةُ إعرابِ لفظ ﴿بَصَآئِرَ﴾:

بيانُ شدَّةِ الاحتياجِ إلى ما يُقوّي البصيرة

قولُ اللّه تعالى: ﴿بَصَآئِرَ﴾ حالٌ مِنَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، في الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِمَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾، وسرُّ إيرادِ هذهِ الحالِ: الإيذانُ بشدَّةِ احتياجِ القومِ إلى ما تُفتَحُ به قلوبُهم العمياءُ[4]، وبصائرُهم المطموسة، فمعنى ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾، أي: حالَ كون الكتاب أنوارًا لقلوب النّاس، فإنَّه يُستبصَر به في باب الدّين، ويكون هُدًى إلى كلِّ خير؛ لأنَّ الكتاب يُستدَلُّ به لتبصُّر المسلك، والمتبصِّرُ والمتمسِّك به يفوز بمطلوبه من الثَّواب"[5]، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بَصَآئِرَ﴾ مفعولًا لهُ[6]، فيفيدُ تعليلَ إيتاءِ التَّوراة.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَصَآئِرَ﴾:

التَّوراةُ أنوارٌ للقُلوبِ، وهدايةٌ من علّام الغيوب

البصائرُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ جمعُ بصيرةٍ،

---

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 289، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 128.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 15، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 292.

(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 14/ 301.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 66.

(5) الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 2/ 198.

(6) السّمين، الدّرُّ المصون: 8/ 680.

وهي نورُ القلبِ الَّذي يُستَبصرُ بهِ، كما أنَّ البصرَ نورُ العينِ الَّذي يُبصَرُ بهِ، والمعنى: (آتَيْناهُ التَّوراةَ أنوارًا للقُلوبِ؛ لأنَّها كانَتْ عمياءَ لا تستبصرُ، ولا تعرفُ حقًّا مِنْ باطلٍ)[1]، وجعَلَ الكتابَ ﴿بَصَآئِرَ﴾ باعتبارِ عدَّةِ دلائلِهِ، وكثرةِ بيِّناتِهِ[2].

فائدةُ تعريفِ (النّاسِ):

بيانُ أنَّ التَّوراة بصائرُ لقومِ موسى عليه السلام وعامَّة مهتدي زمانه

تعريفُ (النّاسِ) بـ(أل) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ للعهدِ، والمرادُ بهِم: الَّذينَ أُرسِلَ إليهِم موسى عليه السلام، مِنْ بني إسرائيلَ وقومِ فرعونَ، ومَنْ يريدُ أنْ يهتديَ بهَدْيِهِ، كالَّذينَ تهوَّدوا مِنْ عرَبِ اليمنِ[3].

سرُّ عطفِ ﴿وَهُدَى وَرَحۡمَةٗ﴾ على ﴿بَصَآئِرَ﴾:

كثرةُ منافعِ التَّوراةِ مذكورةٌ مشهورة

عطفُ الهدى والرَّحمةِ على البصائرِ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدَى وَرَحۡمَةٗ﴾؛ للتَّنبيهِ على كثرةِ منافعِ التَّوراةِ، فهي أنوارٌ للقُلوبِ، وإرشادٌ للنّاسِ؛ لأنَّهم كانوا يَخْبِطونَ في ضلالٍ، ورحمةٌ لهُم؛ لأنَّهم لو عَمِلوا بها؛ وصَلوا إلى نَيْلِ الرَّحمةِ[4]، بمقتضَى وعدِهِ سبحانَهُ[5]، ولأنَّها مِنْ نِعَمِ اللّهِ تعالى على مَنْ تعبَّدَ بها[6].

سرُّ التَّرتيبِ في صفاتِ الكتابِ:

رُتِّبَتْ صفاتُ الكتابِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدَى وَرَحۡمَةٗ﴾ على هذا النَّحوِ؛ لأنَّ الإدراكَ مُقدَّمٌ رُتْبةً لكونِهِ مقصودًا؛ ثمَّ ذُكِرَتِ الهدايةُ؛ لأنَّها مُقدَّمةٌ على الرَّحمةِ[7].

نكتةُ التَّعبيرِ بمصدرِ الهُدى والرَّحمة:

جيءَ بصيغةِ المصدرِ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَهُدَى وَرَحۡمَةٗ﴾؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 416.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 129.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 129.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 417.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 292.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 601.
(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 527.

للمبالغةِ في اتِّصافِ الكتابِ بهذينِ الوصفينِ، حتَّى كأنَّهُ نفسُ الهدى والرَّحمةِ، قد تجسَّدَ فيهِ صورتاهُما[1].

بلاغةُ تنكيرِ الهُدى والرَّحمة:

تفخيمُ شأنِ الهدى والرَّحمةِ، لما لهما من أهمّيَّة

نُكِّرَ لفظا الهدى والرَّحمة في قولِ اللّهِ عزَّ ثناؤُهُ: ﴿وَهُدَى وَرَحۡمَةَ﴾؛ لتفخيمِ شأنِهما، أي: (وهدًى أيَّ هدًى، ورحمةً أيَّ رحمةٍ)، لكثرةِ ما في الكتابِ مِنَ الخيرِ والهدايةِ والإرشادِ إلى ما فيهِ سعادةُ الدّارينِ، فإنَّ بنزولِ التَّوراة يُبصِر بنو إسرائيلَ ما ينفعهم، وما يضرُّهم، فتقوم الحجَّةُ على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمةً في حقِّه، وهدايةً له إلى صراط اللّه المستقيم[2].

بلاغةُ التَّرجّي في ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾:

أهميَّةُ إنزالِ التَّوراةِ على حالٍ قابلةٍ للتَّذكُّرِ

التَّرجّي في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ مُحالٌ عليهِ تعالى، والمعنى: (ليكونوا على حالٍ يُرجَى منهُم التَّذكُّرُ)[3]، فهو استعارةٌ تمثيليَّةٌ، والمرادُ: أنَّها أُنزِلَتْ؛ ليكونوا على حالةٍ قابلةٍ للتَّذكُّرِ، كحالِ مَنْ يُرجَى منهُ الخيرُ[4]، ويجوزُ صرفُ التَّرجّي إلى موسى عليه السلام[5].

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾:

ضميرُ ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عائدٌ إلى النّاسِ الَّذينَ خوطِبوا بالتَّوراةِ، أي: فكذلكَ إرسالُ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بالقرآنِ إليكم، هو لكُم هدًى ورحمةٌ لعلَّكم تتذكَّرونَ[6].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾:

رجاءُ التَّذكُّرِ مُستمِرٌّ، وهو غايةٌ في البيانِ المقرَّرِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ رجاءَ التَّذكُّرِ منهُم مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ، كما هو شأنُ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 292.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، ص: 390.
(3) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 4/ 179.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 75.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 417.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 129.

مُتَّبِعي الشَّرائعِ السَّماويَّةِ، فاتِّباعُهم لها لا يكونُ في وقتٍ دونَ وقتٍ، بل هو عامٌّ لجميعِ الأوقاتِ، لا ينبغي أنْ ينفكّوا عنهُ في حالٍ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتـاءُ أنسبُ بتعظيمِ التَّوراةِ، وبيـانِ عمومِ نفعِها

فُرِّقَ بينَ الإيتاءِ والإعطاءِ مِنْ وجوهٍ، **منها:** أنَّ في الإعطاءِ دليلَ التَّملُّكِ دونَ الإيتاءِ، ويُؤيِّدُهُ قولُه سبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، فإنَّ لهُ منعَ مَنْ شاءَ منهُ كالمالكِ للملْكِ؛ وأمّا القرآنُ فحيثُ إنَّ أمَّتَهُ مُشارِكونَ لهُ في فوائدِهِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87][1]، **ومن الفروق بينهما:** أنَّ الإيتاءَ أقوى مِنَ الإعطاءِ في إثباتِ مفعولِهِ؛ لأنَّ الإعطاءَ لهُ مُطاوِعٌ، تقولُ: أعطاني فعَطَوْتُ، ولا يقالُ في الإيتاءِ: آتاني، فأتيتُ، وإنَّما يقالُ: آتاني، فأخذتُ، والفعلُ الَّذي لهُ مُطاوِعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعولِهِ مِنَ الفعلِ الَّذي لا مُطاوِعَ لهُ، **ومنها أيضًا:** أنَّ الإيتاءَ أقوى مِنَ الإعطاءِ في متعلَّقِه؛ لأنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ في الأشياءِ العظيمةِ، كالقرآنِ، والحكمةِ، والمُلْكِ[2]، **ومنها:** أنَّ الإيتاءَ فيهِ معنى الوجوبِ والإلزامِ، وأمّا الإعطاءُ؛ ففيهِ معنى التَّفضُّلِ والإكرامِ[3]، ولعلَّ ذلكَ في الأعمِّ والأغلبِ، وإلّا فقد يقترنُ الإيتاءُ بالتَّفضُّلِ أيضًا، كما في إيتاءِ المُلْكِ والقرآنِ والحكمةِ، **ومنها:** أنَّ الإعطاءَ يكونُ في الأشياءِ المادّيَّةِ، وأمّا الإيتاءُ؛ فيكونُ في الأشياءِ المادّيَّةِ والمعنويَّةِ[4]، **ومنها:** أنَّ الإيتاءَ يقالُ في وصفِ الكتابِ؛ إذا كانَ معَهُ قبولٌ مِنَ المُؤتَى لما أوتيَهُ[5]، وقد عُبِّرَ بالإيتاءِ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لما

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 86.
(2) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248.
(3) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248 - 249.
(4) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 251.
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (أتى).

فيهِ مِنْ تعظيمِ التَّوراةِ وبيانِ عمومِ نفعِها، والتَّنبيهِ على أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تلقَّى الكتابَ بالرِّضا والقبولِ والعملِ بما فيهِ، وذلكَ هو شأنُ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

الإهلاكُ والتَّدميرُ:

الإهلاكُ أبلغُ لِما فيهِ مِنَ الدَّلالةِ على الاستئصالِ

التَّدميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيءِ[1]، والإهلاكُ: الاستئصالُ والإفناءُ[2]، فيكونُ أشدَّ مِنَ التَّدميرِ، وقد عُبِّرَ بهِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ لأنَّهُ أبلغُ وأنسبُ بمقامِ التَّحذيرِ والتَّعريضِ بالعقابِ لكفّارِ قريشٍ ومَنْ هم على شاكِلَتِهم.

الأمَّةُ والقَرْنُ:

شدَّةُ الأخذِ بعدَ طولِ الإمهالِ يناسبُها القَرْنُ

الأمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كانَ ذلكَ الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أم اختيارًا[3]، والقَرْنُ في الأصلِ: الزَّمَنُ الطَّويلُ، ويُطلَقُ على القومِ المُقترِنينَ في زمنٍ واحدٍ[4]، وعلى الأمَّةِ الَّتي دامَتْ طويلًا[5]، ولفظُ القَرْنِ أخصُّ؛ لأنَّهُ خاصٌّ بالبشرِ، وأمّا لفظُ الأمَّةِ؛ فيُطلَقُ على البشرِ وعلى غيرهم، قالَ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38].

وقد عُبِّرَ بلفظِ ﴿ٱلۡقُرُونَ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ لِما فيهِ مِنَ الإشارةِ إلى طولِ الزَّمَنِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّهُ سبحانَهُ أمهلَهم طويلًا، حتَّى إذا ظنّوا أنَّهم لا يُقْدَرُ عليهم؛ أخذَهم أخْذَ عزيزٍ مُقتدِرٍ، وفي ذلكَ رَدْعٌ لكلِّ مُتكبِّرٍ مُغترٍّ بقوَّتِهِ وبَطْشِهِ.

---

(1) الراغب، المفردات: (دمر).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 113.

(3) الراغب، المفردات: (أمم).

(4) الراغب، المفردات: (قرن).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 137.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾ [القصص: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين ذِكر موسى وهدايته، وإعلام النّبيّ بما لم يكن حاضرًا فيه

لمّا بطلت شبهةُ الكافرين التي حاولوا بها إنكارَ رسالة محمّد ﷺ، جاءت هذه الآيةُ بالحجَّة الدّامغة التي تثبت رسالته؛ وذلك بما أعلمه اللّهُ به من أخبار رسالة موسى، ممّا لا قِبَل له بعلمه لولا أنَّ ذلك أوحي إليه منَ اللّه تعالى، فهذا تخلّص منَ الاعتبار بدلالة الالتزام في قصَّة موسى، إلى الصَّريح من إثبات نبوءة محمّد ﷺ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِجَانِبِ﴾: (جنب) أصلان متقاربان؛ أحدهما: النّاحية، والآخر: البُعد[2]. والجانبُ بمعنى النّاحية، مأخوذٌ منَ الجَنْب، بمعنى: القُرب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزّمر: 56] أي: في قُربِ اللّهِ وجِوارِهِ[3]. وهو المعنى المراد في الآية، أي: ما كنتَ يا مُحمَّد بناحية الجبل من قِبَل المَغرب[4].

2) ﴿ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾: (غرب) أصل صحيح، والغرب: حدُّ الشّيء. يقال: هذا غربُ السّيف. ويقولون: كففتُ من غربه، أي: أكللتُ حَدَّه، والغُربة: البُعد عنِ الوطن[5]، والغَرْبُ: غيبوبة الشّمس، يقال: غَرَبَتْ تَغْرُبُ غَرْبًا وغُروبًا[6]. وورد هنا في الآية بمعنى: مكان الجبل من جهة الغرب، أو المكانِ الغربيِّ الذي وقعَ فيه الميقاتُ[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 129.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جنب).
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 610.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرب).
(6) الرّاغب، المفردات: (غرب).
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 16.

3) ﴿قَضَيْنَآ﴾: (قضي) أصل يدلُّ على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته، وهو فصل الأمر قولًا كان ذلك أو فعلًا[1]، وكلٌّ واحد منهما على وجهين: إلهيٍّ وبشريٍّ؛ فمن القول الإلهيِّ - وهو محلُّ الآية - قوله: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] أي: أمر بذلك، وقال تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: 4]؛ فهذا قضاء بالإعلام والفصل في الحُكم؛ أي: أعلمناهم وأوحينا إليهم وحيًا جزمًا، ومن الفعل الإلهيّ قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ [غافر: 20]، وقولُه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصّلت: 12]؛ فهو إشارة إلى إيجاده الإبداعيِّ والفراغ منه. والقضاء في الآية بمعنى الفصل والإعلام، والمعنى: قضينا إلى موسى الأمر فيما ألزمناه وقومَه، وعهدنا إليه من عهد[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إخـبـاره ﷺ بغيب موسى في الماضي دليلٌ على نبوّته

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: وما كُنْتَ يا محمّد ﷺ بِجانِبِ غربيِّ الجبل وقتَ أن قضينا إلى موسى الأمرَ وألزمناه العهدَ، وأنزلنا عليه الحُكمَ، وما كنتَ منَ الحاضرين لذلك فتعلمه وتُخْبِر به، ولكنّا أوحيناه إليك، وأعلمناك بخبره ليكون معجزةً لك، وشاهدَ صدقٍ على نبوَّتك[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾:

خطاب النّبيّ الخاتَم بالغيب الدّابر، دليلٌ على صحّة رسالته

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ لاستئناف الخطاب مع النَّبيّ ﷺ؛ ليُثبت للمشكِّكين صحَّةَ رسالته ونبوَّته، لأنَّ إخباره ﷺ عمّا وقع لموسى مع ربِّه - وهو لم يشاهده - أكبرُ دليلٍ على أنَّه يوحَى إليه من ربِّه.

(1) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 584.
(3) حجازيّ، التّفسير الواضح: 20/ 50.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿وَمَا كُنتَ﴾ منفيًّا:

إثباتُ معرفةِ القصص الماضي بالوحي الإلهيّ

دلَّ النّفي في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ على انتفاء احتمالٍ من احتمالات كيفيّة معرفةِ النَّبيّ ﷺ بتفاصيل قصّة موسى؛ وذلك لأنَّ علمه ﷺ بقصّة موسى عليه السلام، قد يحصل بعدَّة أمور؛ إمّا بقراءتها من كتب أهل الكتاب، أو بحضور أحداثها ومشاهدتها، وإمّا بوحي من الله تعالى، فأمّا أمرُ القراءة فمنفيٌّ لأنَّه ﷺ أمّيٌّ، وأمّا الحضور والمشاهدة فلا محلَّ لهما لبعد الزّمان فَنُفِيَ هذا الاحتمال بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾، فلم يبق لإثبات نبوَّة محمّد ﷺ إلّا الوحيُ؛ لأنَّ من أخبر بشيء مضى إخبارًا يقينيًّا دونَ أن يراه، تَعَيَّنَ أن يكون إخبارُه من جهة الوحي[1].

دلالة الخطاب في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾:

إقامة الحُجّة على مشركي قريش في إثبات النّبوَّة الخاتمة

الخطاب للرّسول ﷺ يقول: وما كنتَ حاضرًا المكانَ الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام[2]، والمراد من توجيه هذا الخطاب إليه، إقامةُ الحُجَّة على مشركي قريش، وإقناعُهم بنبوَّة محمَّد ﷺ؛ لأنَّه أخبر بشيء لم يره ولم يشاهده، وهذا لا يكون إلّا من خلال وحيٍ سماويٍّ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِجَانِبِ﴾:

لا يصل لهذه التَّفاصيل إلّا مُلهَمٌ بوحيٍ إلهيٍّ أصيل

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالباء الّتي تفيد الظّرفيَّة المكانيّة؛ ليبالغ في نفي وجود النَّبيّ ﷺ عند الجبل، وهذه المبالغة جاءت من معنى الإلصاق الَّذي لا يفارق الباء، فيكون المعنى: وما كنت ملصقًا بالجبل لتشاهد ما دار بين الله ﷻ وموسى عليه السلام، فتعلم كلَّ تلك الأخبار، فدلَّ ذلك على صدقه في دعوته إذ لا يُعْلَمُ ذلك إلّا بوحيٍ من الله تعالى.

إيثار التَّعبير بلفظ (الجانِبِ):

الالتصاق بالجانب آثَرُ في الدّلالة على المراد

آثرَ النَّظمُ القرآني لفظَ (الجانب) دونَ النّاحية أو غيرها؛ للدَّلالة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 20/ 86.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 417.

على أنَّ موسى عليه السلام كان ملاصقًا لجانب الجبل، فكان منه جنبًا إلى جنب، وهذا لالتصاق مفهوم من مادَّة (جنب)، يقال: جانبه مجانبةً وجنابًا، صار إلى جنبه[1]. أمّا النّاحية فلا تَدُلُّ على تلك المجانبة، فكان التَّعبير بلفظ (الجانب) أدلَّ على المعنى، وأوفقَ بالسّياق.

سِرُّ إضافةِ الجانب إلى ﴿ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾:

إضافة الموصوف إلى الصِّفة إيجازٌ وإعجاز

إضافةُ الجانب إلى ﴿ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ في قوله: ﴿بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصّفة، وأصله: بالجانب الغربيِّ[2]، لأنَّ الجانب موصوف بأنَّه يقع في الجهة الغربيّة، أو المكان الواقع في شقِّ الغرب[3]، وهذه الإضافة سائغة عند الكوفيين، إلّا أنّها مرفوضة عند البصريّين؛ بحُجَّة أنَّ إضافة الموصوف إلى الصِّفة من إضافة الشّيء إلى نفسه، وهذا غير جائز، لذا يقدِّرون منعوتًا محذوفًا، والتَّقدير: (جانب المكان الغربي)[4]. وسِرُّ التَّعبير بالإضافة هنا هو تحقيق الإيجاز، فلولا تلك الإضافة لاسترسل الأسلوبُ، وكان يمكن أن يأتي التَّعبيرُ هكذا: (في جانب الجبل من الجهة الغربية)، لكنَّ الإضافة أحكمت العبارة إحكامًا أدخل في الإعجاز والإيجاز. وممّا يُذْكَر في سِرِّ التَّعبير بالإضافة كذلك إظهارُ الجهةِ، وليس تحديدَ المكان.

سِرّ العدول عن (الطّورِ الأيْمَنِ) إلى ﴿بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾:

أوثِرَ نفيُ وجودِ النّبيّ بالغربيّ، حتّى لا يُحْرَمَ يُمْنَ الأيمن

عدل القرآن الكريم عن أن يقول: (وما كُنْتَ بِجانِبِ الطّورِ الأيْمَنِ)، كما قال في سورة مريم: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: 52]، إلى قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾؛ لأنَّه سبحانه لمّا أراد أن ينفي وجود رسولِ اللّه ﷺ في المكان الَّذي قضى اللّه فيه لموسى الأمرَ؛ عرَّفه بالمكان الغربيِّ تكريمًا للنَّبيِّ ﷺ، وإعلاءً

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جنب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 130.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 417.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 602.

لمكانته، فلا ينفي عنه وجودَه بالجانب الأيمن أو يسلب عنه لفظًا مشتقًّا منَ اليُمْنِ، أي: البركة، وفي هذا تعليم للأمَّة حسنَ الأدب في الخطاب مع رسول اللّه ﷺ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿إِذۡ﴾ الظّرفيّة:

تأكيد غياب الرّسول الكريم عن وحي الله لموسى الكليم عليه السلام

﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ قَضَيۡنَآ﴾ للظّرفيّة الزّمانيّة، والمعنى: وما كنت بجانب الغربيِّ وقتَ أن أوحينا إلى موسى، وألزمناه أمرنا ونهينا. والنَّصُّ على الظّرفيَّة إشارةٌ إلى وقوع هذا الحدث وقوعًا لا يُشَكُّ فيه، وتأكيدٌ على أنَّ النَّبيّ ﷺ كان بمنأى عن هذا المكان، وذاكَ الحدث.

بلاغةُ الدّليل العقليّ في إثبات النُّبوَّة:

الاستدلال على صدق القرآن، بالإخبار عمّا لم تكن معرفتُه بالإمكان

استخدم القرآنُ الكريم الدّليلَ العقليَّ على إثبات نبوَّته ﷺ؛ وذلك في الاستدلال بطريقة المذهب الكلاميِّ، حيث بُنيَ الاستدلالُ على انتفاء كون النَّبيّ ﷺ موجودًا في المكان الّذي قضى اللّهُ فيه أمرَ الوحي إلى موسى عليه السلام، لينتقلَ منه إلى أنَّ مثله ما كان يعلم ذلك إلّا عن مشاهدة، لأنَّ طريق العِلْم بغير المشاهدة له مفقودٌ منه ومن قومه، إذ لم يكونوا أهلَ معرفة بأخبار الرّسل، كما كان أهل الكتاب، فلمّا انتفى طريقُ العِلْم المتعارف لأمثاله، تعيَّن أنَّ طريق علمِه هو إخبارُ اللّه تعالى إيّاه بخبر موسى[1].

دلالة تعديّة الفعل ﴿قَضَيۡنَآ﴾ بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

تَضمُّنُ الفعلِ أكثرَ من معنًى يثري السّياق، ويجلّي المُراد

تعدَّى الفعل (قضى) بحرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى﴾، دون غيره منَ الحروف؛ لأنَّ (إلى) تُفيد انتهاء الغاية، وهذا هو المناسب لأداء المعنى المراد في هذه الآية؛ لأنَّ الفعل (قضى) تضمَّن معنى (أوحى) الّذي يتعدّى بـ (إلى)، وبذلك يجمع الفعل ﴿قَضَيۡنَآ﴾ بين معنيين؛ **أحدهما:** أنَّ الأمر وحيٌ من عند اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 130.

تعالى إلى نبيِّه موسى عليه السلام. **والثّاني**: أنَّ ذلك الوحيَ قضاءٌ وإلزام، وعهدٌ عهدناه إليه[1].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿قَضَيۡنَآ﴾:

كلّ ما قصّه القرآنُ وقع على الحقيقة في ذلك الأوان

دلَّ التَّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿قَضَيۡنَآ﴾ على أنَّ أمر اصطفاء اللّه لموسى عليه السلام، وكتابةَ الألواح أمرٌ قَدّره اللّهُ أزلًا، وأنّه قد وقع في الزّمن الماضي الّذي سبق فترةَ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ التَّعبير بالفعل الماضي يدلُّ على تحقُّق الوقوع.

دلالة نون العظَمة في ﴿قَضَيۡنَآ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بنون العظَمة في قوله: ﴿قَضَيۡنَآ﴾ على تعظيم ما قضى اللّهُ به لموسى عليه السلام من أمر الوحي والرّسالة، فإنَّه وحيٌ منَ العظيم سبحانه، وكلامُه بما حوى من الجلال[2].

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿إِلَىٰ مُوسَى﴾:

تخصيص ذِكرِ موسى عليه السلام؛ لارتباطه بما أُرسِل به

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مُوسَى﴾؛ لإفادة تخصيصه واصطفائه بهذه الرّسالة، وفيه إشارةٌ إلى دعوة بني إسرائيل إلى رعاية حقِّ هذه الرّسالة والإيمان بما فيها؛ إذ هي رسالة مختصَّة بنبيِّهم عليه السلام.

دلالة الإظهار في ﴿مُوسَى﴾ دون الإضمار:

بيانُ رفعة قدرِ موسى عليه السلام وعُلوِّ منزلتِه عند ربّه

آثرَ البيانُ القرآنيُّ إظهارَ لفظ ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى﴾، دون أن يقول: (إذْ قَضَيْنا إليْهِ)؛ وذلك لتعيينه ودفعِ توهُّم أن يكون الحديث عن غير موسى عليه السلام لو جاء بالإضمار، ولا سيَّما وأنَّ هارون عليه السلام كان معه في شأن الرّسالة، فكان التَّعبيرُ بالإظهار دليلًا على تخصيصه وتعيينه.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 259.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 303.

اختيارُ ما يفيد العمومَ والشّمول، آثرُ في الدّلالة على المطلوب

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ دون (الرّسالة):

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾؛ لأنَّه يُطْلَق على معانٍ عديدة، فالأمر قد يُراد به: الوحي الّذي أوحيَ إلى موسى[1]، وقد يُراد به النُّبوَّةُ والحُكمُ الّذي آتاه اللّهُ لموسى، أو المقصودُ أمرُ محمّد ﷺ أن يكون من أمّته، أو المُراد بالأمر: إهلاكُ فرعونَ وقومِه[2]. لذلك كان التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ هنا أثرى دلالةً، وأوجزَ تعبيرًا ممّا لو عُبِّرَ بالرّسالة أو بأيِّ لفظ آخر.

أمْرُ اللهِ لموسى تكليمٌ ووحيٌ واصطفاء

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾:

(أل) في قوله: ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ عهديّةٌ؛ فهي تدلُّ على الأمر المعهود في قصَّة موسى عليه السلام، وما كان في الطّور منَ الوحي وتكليم اللّه إيّاه، وكتابةِ الألواح.

ليس في القرآن تكرارٌ، بل لكلّ لفظٍ غرضٌ ودلالة

سِرُّ تكرارِ النّفي بجملة: ﴿وَمَا كُنتَ﴾:

تكرَّر النَّفيُ في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، مع أنَّ النَّفي السّابق في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ ينفي كونَه شاهدًا، فظاهرُ التَّعبير أنَّ ثَمَّتَ تكرارًا حاصلًا، والحقيقةُ أنَّه ليس هناك تكرار، والمعنى: أنَّك لم تحضر ذلك الموضع، ولو حضرت ما شاهدت تلك الوقائعَ، فإنَّه يجوز أن يكون الرّسول هناك ولا يشهد ولا يرى[3]. وقد يكون التَّعبير بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مرَّةً ثانيةً للدّلالة على أنَّ الموضع الأوَّل ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ كان نفيًا لشيء خاصٍّ، وهو أنَّه لم يحضر وقتَ قضاءِ اللّه لموسى أمرَ الوحي بالرّسالة وكتابةِ الألواح، أمّا الموضعُ الثّاني فهو نفيٌ عامٌّ، والمعنى: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لجميع ما أعلمناك به؛ فهو نفي لشهادته

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 417، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 602.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 308.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 603.

جميعَ الأحداثِ والمشاهد التي قصَّها اللّهُ عن موسى ﵇، فيكون الموضع الثّاني من باب عطف العامِّ على الخاصِّ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

التّأكيد على عدم حضور النّبيّ الخاتمِ كلامَ موسى مع ربّه

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ تبعيضيَّةٌ، أي: ما كنتَ شاهدًا ضمن النّقباء الشّهودِ الّذين اختارهم موسى ﵇ حين واعدَه ربُّه، ممّا يدلُّ على صدق نبوَّة محمّد ﷺ؛ فالّذي يخبر بشيء لم يشاهده، لا شكَّ أنَّ إخباره يكون عن طريق الوحي.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للعهد؛ لأنَّ الشّاهدين الذين اختارهم موسى من قومه كانوا معروفين، وهم النّقباءُ السّبعون المذكورون، في قوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ [الأعراف: 155].

نُكْتَةُ حذفِ متعلّق ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

دلالةُ السّياق عليه مفيدٌ في تجليّة المراد منه

حَذْفُ متعلّقِ لفظِ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لدلالة السّياق عليه، والتّقدير: (وما كنتَ منَ الشّاهدين لأمر موسى ﵇ مع ربِّه، حين ألزمناه وكلَّفناه بما في التّوراة)، ومعلومٌ أنَّ الكلام البليغ والنَّظم العاليَ يُحذَفُ فيه ما تدلُّ عليه القرائنُ؛ لأنَّ ذِكره حينَئِذٍ يكون لغوًا وإطنابًا، وفي هذا الحذف إيجازٌ ملحوظٌ أدَّى إلى تماسك العبارة، واتِّساق الكلام، مع ما فيه من رعاية للفاصلة.

سِرّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ دون (الحاضِرينَ):

الشّهادة أخصُّ مِنَ الحضور، ولهذا كان نفيُها أبلغَ من نفيه

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، دونَ (وما كُنْتَ مِنَ الحاضِرينَ)؛ لوجود فرق بين الشّاهد والحاضر؛ فالشّاهدُ للشّيء يقتضي أنَّه عالمٌ به، ولهذا قيل: الشّهادةُ على الحقوق؛ لأنَّها لا تصِحُّ إلّا معَ العلم بها، وذلك أنَّ أصل الشّهادةِ الرّؤيةُ، وذهب البعضُ إلى أنَّ الشّهادة في الأصل إدراكُ الشّيء من

جهة سمعٍ أو رؤية؛ فالشّهادةُ تقتضي العِلْمَ بالمشهود؛ بخلاف الحضور، فلا يقتضي العِلْم بالمحضور. فلمّا كانت الشّهادة أخصَّ منَ الحضور؛ لاعتمادها على بعض وسائل الإدراك منَ الرّؤية أو السّماع، كان نفيُ المشاهدة في هذا المقام أبلغَ من نفي الحضور[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 96.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥﴾ [القصص: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين نفي حضور النّبيّ الخاتم لوحي الله لموسى، ولأهل مدين ومَن قبلَهم

لمّا نفتِ الآيةُ السّابقة حضورَ النّبيِّ ﷺ في المكان الغربيِّ من الجبل، حيثُ كلَّم اللّهُ تعالى موسى عليه السلام، وعَهِدَ إليه بأمر الرّسالة؛ ذكر هنا نفيَ إمكانٍ آخرَ من إمكانات معرفة النَّبي ﷺ بخبر موسى وشعيبٍ عليه السلام، فقال له: وما كنتَ مُقيمًا في مدين حتَّى تعلمَ قصَّة موسى وشعيب وما كان فيهما من أحداث، لكنَّ عِلْمَكَ بهذه الإخبار وحيٌ منّا، ولولا ذلك ما علمتَها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَطَاوَلَ﴾: (طول) أَصْل صَحيح يدلُّ على فضل وامْتداد في الشّيء، مِنْ ذَلِكَ: طالَ الشَّيْءُ يَطولُ طولًا[2]، وطالَ الشّيءُ، أي: امتدَّ، وكلُّ ما امتدَّ مِنْ زَمَن فَقَدْ طالَ[3]، والمُطاولةُ في الأَمْر هي التَّطْويل، والتَّطاوُلُ قد يستعمل في معنى الاستطالة على النّاس[4]، وهو غير مراد في الآية، والتّطاول في القيام أن يرفَعُ رأسَهُ ويَمُدُّ قَوامَهُ للنَّظَر إلى الشَّيء[5]. فمعنى الامتدادِ هو المقصودُ في الآية، ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ أي: امتدّ.

2) ﴿ٱلۡعُمُرُۚ﴾: (عمر) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ أَحَدُهُما: يدلُّ على بَقاءٍ وامْتِدادِ زَمانٍ، والآخَرُ: على شَيْءٍ يَعْلو، مِنْ صَوْتٍ أَوْ غَيْرِهِ.

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 203.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طول).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طول).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طول).
(5) الخليل، العين: (طول).

فالأوَّلُ العُمْرُ، وهو اسم لمُدّة عمارةِ البَدن بالحياة[1]، وهو المراد في الآية. والعَمْرُ: بفتح العين: ضربٌ منَ النَّخْلِ وهو السَّحوقُ الطّويلُ[2]، فالطّول مَرعيٌّ في اللّفظين: العُمُر والعَمْر.

3) ﴿ثَاوِيًا﴾: (ثوى) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ على الإقامَة. يُقالُ: ثَوَى يَثْوي فَهوَ ثاوٍ[3]، ومصدرُ الفعل الثَّواءُ، وهو: طولُ المُقام مع الاستقرار، يقال: ثَوَى يَثْوي ثواءً[4]، وسمع من (ثوى) (أثوى)، يقال: أَثْوَى به: أطالَ الإقامَةَ به[5]. وهذا هو المراد منَ اللّفظة في هذا السّياق.

المَعنى الإجْماليُّ:

إخبار النّبيّ الأُمّيّ بقصص القرون الغابرة، دليلٌ على أنّه أوحيَ إليه بها

بعد نفي حضورِ النّبيِّ ﷺ لمشهد موسى عليه السلام، وتأكيدِ عدم عِلْمِه به حضورًا، قال اللّه تعالى له في هذه الآية: ولكنّا أوحيناه إليك وأعلمناكَ بخبره ليكون معجزةً لك، وشاهدَ صدقٍ على نبوَّتك. وكانتِ الحاجةُ القصوى داعيةً إلى ذلك؛ حيثُ طال العهدُ وتطاولَ على النّاس العُمُر، فَنَسوا ذِكْر اللّهِ وقَسَت قلوبُهم، فأرسلناكَ يا محمّد مُجَدّدًا العهدَ الإلهيَّ، وداعيًا إلى اللّه بإذنه[6].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا﴾:

الجمع بينَ الحُكم وسببه منَ البيان المفيد

الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ عاطفةٌ؛ حيثُ عُطِفَتْ هذه الجملةُ على قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾، ووجهُ وصلِ هذه الجملةِ بما قبلَها ظاهر؛ للدّلالة على عدم رؤيته ﷺ، ولا مشاهدته لما كان بين موسى وربّه، كما لم يُخْبَر بالأجيال الّتي طال عليها الزّمنُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمر).
(2) الخليل، العين: (عمر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثوى).
(4) الخليل، العين: (ثوى).
(5) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (ثوى).
(6) حجازيّ، التّفسير الواضح: 20/ 50.

فَنَسوا ما أخذه عليهم منَ العهود، ولا بأهل مدين وما وقع من قصّة موسى وشُعيب عليهما السلام، إلّا أنّه أُخْبِرَ عن تلك المغيّبات بالوحي الَّذي نزل عليه بعد قرون منصرمة بينَه وبينَ زمان تلك الأحداث، وقد جاء النّبيُّ في آخِرِ الزّمان، بعد أن اندرست معالمُ الشّريعة، وعُمّيت على النّاس الأنباءُ، فأوحى اللّهُ إليه ليُجَدِّدَ للنّاس أمرَ الدّين، ويخبرَهم بما لم يكونوا يعلمون من قصص الأنبياء وأقوامهم بدقّةٍ وحَقّ.

بلاغة الاستدراك في السّياق:

توالي القرونِ وانطماسُ أثرِ الوحي، موجبٌ لإرسال النّبيِّ الخاتم

تَظْهَر بلاغةُ الاستدراك في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ في أنَّها ذكرتَ سببَ الوحي، والمعنى: ولكنّا أوحيناه إليك لأنّا أنشأنا قرونًا مختلفةً بعد موسى عليه السلام، فالآية لم تذكر وحيَ اللّه إلى نبيِّه مباشرةً، وإنَّما ذكرت سببَ هذا الوحي، وهو إطالةُ الفترة[1]، وإنشاءُ القرونِ وتطاولُ عمرِهم وأمَدِهم، فانمحت معالمُ الدّين، الأمرُ الَّذي جعلَ النّاسَ في حاجة إلى وحيٍ سماويٍّ يهديهم ويُبَصِّرُهُم، وبذلك يظهر وجهُ اتِّصالِ هذا الاستدراكِ ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا﴾ بما قبلَه.

سِرُّ اختيارِ لفظِ ﴿أَنشَأۡنَا﴾ دونَ (خلقنا):

الإنشاء إحداثٌ وإيجادٌ وتفضّل على البشر

آثرَ النَّظمُ القرآنيّ لفظَ (الإنشاء)، في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ دون (خلقنا)؛ لوجود فرق بينهما، فالإنشاءُ يختلف عنِ الخَلْق، في أنَّه يتعلّق بإيجاد الشّيء وتربيته، وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان، فهو على هذا إيجادٌ مع رعاية وتفضُّل؛ لهذا كان التَّعبير القرآنيُّ ﴿أَنشَأۡنَا﴾ لدلالته على أنَّ اللّه أحدث تلك الأجيالَ، وأوجد تلك القرونَ إيجادًا مشمولًا بتربية اللّه لهم[2]، وعظيم تفضّله عليهم، ومن عظيم هذا الفضل كذلك مجيءُ رسولٍ في آخر الزّمان، يُحْيي المعالمَ المفقودة، ويُنَمّي القيمَ الموجودة.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 182.

(2) الرّاغب، المفردات: (نشأ).

دلالة إسناد الفعل الى ضمير العظَمة:

عظَمةُ الإنشاء منوطة بعظَمة منشئ الأرض والسّماء

أسنَد النَّظمُ الكريم الفعلَ ﴿أَنشَأۡنَا﴾ إلى اللّه ﷻ؛ تعظيمًا لهذا الإنشاء الَّذي يتضمّن معنى الخَلْق والتَّربية، فإنَّ خلق القرون الكثيرة وتربيتَها ورعايتَها لا يَقْدِر عليه إلّا اللّهُ ﷻ.

سِرّ اختيارِ لفظ ﴿قُرُونٗا﴾:

القرون دالّة على جماعة النّاس الّذين جمعهم زمنٌ واحد

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿قُرُونٗا﴾ دون (الخَلْق) أو (النّاس)؛ لأنَّ القرن من معانيه الزّمان، والإنشاء واقع على النّاس في هذا الزّمان، فيكون الكلام على حذف مضاف تقديره: (ولكنّا أنشأنا أهل قرون)، والمراد بهم الخَلْق أو النّاس، وفي هذا إيجاز. وفي التَّعبير به كذلك إشارةٌ إلى أنَّ الإنشاء واقع على القرون، بما يحتويه هذا اللّفظ من الزَّمان ومن يعيشون فيه؛ لأنَّه لا يُتَصوَّر عيشُ النّاس من غير إنشاء الزّمان والمكان لهم؛ فكأنَّ التَّعبير بالقرون يحمل هذا المعنى الكلّيَّ.

وممّا يُذكَر في سِرِّ اختيار النَّظمِ لفظَ ﴿قُرُونٗا﴾ دونَ الزَّمان أو الدَّهر تَمَيُّزُه بمعنًى لا يوجد فيهما، وهو أنَّ القرون تُطْلَق على جماعة الأقوام المقترنين في زمن واحد[1]، فالتَّعبير به راعى الأجيال المتوالية منَ النّاس في نشأتهم وتربيتهم، لذلك عاد الضّمير للعقلاء ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾، ولو راعى المُدَّة الزَّمانيَّة لعاد الضَّمير على غير العقلاء، وقال: (فتطاول عليها)، فالنّاس هم المقصودون وليست المدَّة الزَّمانيَّة وحدها. أمّا ألفاظ الزّمان والدّهر وغيرُهما فليس في معانيهما اللّغويّة ما يدلُّ على معنى الاقتران المفهوم من لفظ (القرون).

سِرّ تنكير لفظ ﴿قُرُونٗا﴾:

لا يتأتّى الإخبار مع بُعْدِ الزّمن بينَ الرّسولين إلّا بالوحي

دلَّ التَّنكيرُ في لفظ ﴿قُرُونٗا﴾ على كثرتها بينَ الرّسولين الكريمين؛

(1) الرّاغب، المفردات: (قرن).

سيِّدنا موسى عليه السلام وسيِّدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم. وفيه إشارةٌ إلى صدق النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ الإخبار عن تلك الأُمم على كثرتها وبُعْدِ الزَّمن بينَ المُخبِر وبينَ المُخبَر عنه، لا يكون إلّا بوحي صادق.

نُكْتَةُ التَّعبير بالفعل ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ دون (طال):

الزِّيادة في المبنى تدلّ على الزِّيادة في المعنى

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ دون (طال)، مع أنَّ أصله (طال)، بمعنى: امتدّ[1]؛ لأنَّه يدلُّ على المبالغة في طول الزَّمن وامتدادِه، أخذًا من القاعدة الغالبة: كثرة المبنى تدلُّ على زيادة في المعنى؛ فالتَّعبير بالفعل ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ في هذا السّياق يدلُّ على عِظَم الامتداد الزّمنيِّ بين موسى عليه السلام، وبين محمّد صلى الله عليه وسلم.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

الغرضُ الاهتمام بالمُقدَّم، والتّشويقُ إلى المؤخَّر في السّياق

دلَّ تَقَدُّمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡعُمُرُۚ﴾ على أنَّ المقصود بالحديث هم القرون الماضية والأمم السّالفة، فكان تقديمُهم من باب الاهتمام بشأنهم، والاعتناءِ بأمرهم، وفي التَّقديم تشويقٌ إلى المُؤَخَّرِ، وتحفيزٌ للنّفوس إلى ترقُّبه، فإذا ما وقَفَتْ عليه استقرَّ لديها المُدَّة المديدة، والأزمنة العديدة بين موسى عليه السلام وبين سيِّدنا محمَّد صلّى اللّه عليه سلّم.

بلاغةُ التَّعبير في ﴿فَتَطَاوَلَ﴾:

امتداد الزّمان يستلزم الجفوةَ والتّواكل والنّسيان

التَّعبير بقوله تعالى: ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾، كنايةٌ عن النِّسيان، أي: إنَّ تلك الأُممَ الّتي طال امتدادُها بعد موسى عليه السلام، نسوا عهد اللّهِ وتركوا أمرَه، وتركوا تعاليمَ موسى عليه السلام، واندرست معالمُ التّوراة لَمّا طال عليهم العُمُر، فاقتضتِ الحِكْمة التّشريعَ الجديد، وقَصَّ الأنباءِ على ما هي عليه، فأوحينا إليك وقصصنا الأنباء عليك[2].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (طول).

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 294.

دلالةُ العطف بالواو في السّياق:

التّأكيد على عدم مشاهدته ﷺ لأخبار السّابقين

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، ودلالةُ العطف هنا التّأكيد على أنّ النَّبيّ ﷺ، ما شاهد الأقوامَ السّابقة، ولا سيما ما كان بين موسى عليه السلام وربِّه من أمر المناجاة وكتابة التَّوراة، ولا أقام في مدين قوم شعيب عليه السلام، فكونه ﷺ يخبر عن ذلك إخبارَ من عاين وشاهد، فهذا لا يكون إلّا بطريق الوحي، وهذا إثباتٌ لرسالة محمّد ﷺ، وإبطالٌ لزعم المشركين في إنكار نبوَّته.

بلاغةُ تكرار ﴿وَمَا كُنتَ﴾:

زيادة التّأكيد على تحقّق عِلْمِه ﷺ عن طريق الوحي

تكرَّرت صيغة ﴿وَمَا كُنتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بعد سبق ذكرها في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، والغرض من ذلك: تكرير للدَّليل بمثل آخر ليُؤكِّد نفيَ عِلْمه ﷺ بما كان من أحداث في قصَّة موسى عليه السلام، والمعنى: ما كنت مع موسى في وقت التّكليم، وما كنتَ من الشّاهدين لهذا التّكليم، ولا كنتَ في أهل مدين إذ جاءهم موسى وحدث بينَه وبين شعيب ما قصصنا عليك[1]. فالتّكرارُ جعلَ كلَّ جملةٍ بمثابة دليل مستقلٍّ، يُؤكِّد نبوّة محمّد ﷺ، وينفي كلَّ احتمالٍ من احتمالات معرفته ﷺ بهذه الأخبار غير الوحي من اللّه تعالى.

سِرُّ التَّعبير بالظّرفية ﴿فِيٓ﴾ دون (مع):

الظّرفيّة أنسب للسّياق، وأبلغ في الدّلالة على الظّروف

عُبِّرَ بالظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ دونَ التَّعبير بالمعيَّة؛ لأنَّ الظّرفيَّة تختلف دلالتُها في التّمكُّن منَ المظروف عن المعيَّة، فلمّا كان المراد المبالغةَ في نفي إقامة النَّبيّ ﷺ في أهل مدين، ونفي مشاهدته لهم؛ كان التَّعبير بالظّرفية هو الأنسب للسّياق، والمعنى: لم ترهم ولم تشاهدهم، فكيف أخبرتَ عنهم؟ فهذا دليلٌ على أنَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 131.

علمَ عن طريق الوحي. أمّا المعيَّة فلا تؤدّي هذا المعنى في المبالغة في نفي مقامه ﷺ في أهل مدين، إنّها تعني مجرَّد الحضور دونَ دلالةٍ على تمكّنٍ منَ الإقامة.

سِرُّ التّخصيص بقوله: ﴿أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾:

بيان أنّ قصّة مَدين ذاتُ مَلْمَح خاصّ في قصّة موسى عليه السلام

خَصَّ التَّعبيرُ القرآنيُّ ﴿أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ بالذِّكر دونَ غيرِها من مراحل قصَّة موسى عليه السلام، كتربيته عند فرعون وغيرِها من المشاهد؛ لأنَّها تُمثِّل مرحلة أساسيَّةً وفارقةً في حياة موسى عليه السلام، فقد خرج موسى خائفًا مترقِّبًا، واتّجه إلى ﴿أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ بعد فراره من فرعونَ مصر، ووجد الأمن والنَّجاة عند شعيبٍ، العبدِ الصّالح، حيثُ زوَّجه وأكرمه، فَكَثْرةُ ما في هذه المرحلة من تفاصيل جعلتها حقيقةً بالذِّكر؛ لتَدُلَّ على صدق النّبوَّة المُحمَّديَّة؛ إذ لا يعلم هذه التَّفاصيل إلّا مَنْ أوحى إليه ربُّ العالَمين.

سِرّ التَّعبير بلفظ ﴿أَهۡلِ﴾ دون (قَوْم):

الإخبار بالوحي على ما له من خصوصيّة دليلٌ على صدق المُخْبِر

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿أَهۡلِ﴾ دون (قوم)، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾؛ لأنَّ الأهل أخصُّ من القوم؛ فلفظُ القومِ عامٌّ، ولأنَّه يُطلَق في الأصل على جماعة الرّجال دون النّساء، وإن كان ورد استعمالُه للجميع من باب التّغليب، إلّا أنَّ السّياق هنا يقتضي التَّعبيرَ بالأهل، لما له من خصوصيَّة في شؤونهم، قد تكون في بعضها خفيَّة، فإذا أخبر بها رسولُ اللّه ﷺ، ولم يكن معهم في هذه الأمور الخاصَّة؛ فهذا دليلٌ على أنَّ ذلك بالوحي.

مرجعُ الضّمير في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

تنوّع التّقدير مفيدٌ في تعدّد المراد بالضّمير

الضّمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ يجوز أن يعود إلى أهل مدين، ويكون المعنى: وما كُنْتَ مقيمًا في أهْلِ مدين - وهم شعيب والمؤمنون به - تَتْلوا عليهم آياتِنا وتقرؤها عليهم تَعَلُّمًا منهم، يريد: الآيات الّتي فيها قِصَّةُ شعيبٍ وقومِه[1]، أي: إنَّك لم تتعلَّم من أهل مدين مشافهةً ومعاينةً حتَّى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 417.

تخبرَ بها مشركي العرب. ويحتمل أن يعود الضّمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ إلى مشركي العرب، فيكون المعنى: لم تشهد أهلَ مدين، فتقرأ على أهل مكَّة خبرَهم[1]، وهو الَّذي يستقيم به نظمُ الكلام، ولو جُعِلَ الضَّميرُ عائدًا إلى أهل مدين لكان الأولى أن يقال: تشهد فيهم آياتنا[2].

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

التّصرف في ترتيب الجملة غايتُه الاهتمامُ والتّشويق

تقدَّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول به ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾؛ للاعتناء بالمُقدَّم والاهتمام به، فالمُتَحَدَّث عنهم هم المقصودون بالحُكم، سواء كانوا أهل مدين، أو مشركي العرب.

دلالةُ الإضافة إلى نون العظَمة:

لا يضيف اللهُ العظيمُ إلى نفسه إلّا كلَّ عظيم

أُضيفت الآياتُ إلى نون العظّمة في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ للدّلالة على عظَمتها، فالمراد بها: آياتنا العظيمة التي منها قصَّةُ موسى وشعيبٍ عليهما السلام، ولعِظَم هذه الآيات أضافها اللّه سبحانه وتعالى إلى نفسه؛ لأنَّ كلَّ فعلٍ منَ العظيم عظيمٌ.

بلاغة الاستدراك في ﴿وَلَٰكِنَّآ﴾:

إخبارُ النَّبيِّ المرسل بالآيات، كان عن طريق الوحي

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾، هذا الاستدراكُ شبيهٌ بالاستدراك السّابق في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾، وبلاغتُه هنا: هو التّأكيد على نزول الوحي على النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، لأنَّه أخبرَ عن أمور غيبيّة لم يشاهدها، فلم يكن مُقيمًا في أهل مَدْين حتّى يعلم كلَّ تلك الأخبار، ولكنَّ اللّه سبحانه وتعالى أرسله وأخبره بها وأعلمه إيّاها[3].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿كُنَّا﴾:

للفعل ﴿كُنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ دلالةٌ عالية

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 603.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 132.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 182.

في هذا السّياق؛ إذ يَدُلُّ على أنَّ أمرَ إرسالِ الرُّسل - ومنهم النّبيُّ ﷺ - أمرٌ أزليٌّ، وأنَّ من سُنّة اللّه تعالى في خَلْقه أن يُرسِل إليهم في كلِّ زمن نبيًّا يهديهم إلى الطَّريق المستقيم، خاصَّةً مع اندراس الشَّرائع وطولِ العهد، وذلك من فضل اللّه تعالى بعباده، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ﴾ [المؤمنون: 44].

إرسالُ رسولنا ﷺ أمرٌ أزليٌّ قديم، برز في زمانه بتقدير الله الحكيم

دلالة التَّعبير بالاسميّة في ﴿مُرۡسِلِينَ﴾:

التَّعبيرُ بالاسميَّة في لفظ ﴿مُرۡسِلِينَ﴾، دون الفعليَّة (أرسلنا)، دالٌّ على ثبوت صفة الإرسال للّه تعالى، فذلك من سُنّته ﷻ في خلقه، كما تقدّم في دلالة لفظ ﴿كُنَّا﴾، فقد أرسل سبحانه إلى كلّ نَبيٍّ في وقته، ثمَّ أرسل إلى نبيِّنا ﷺ بالوحي وأخبار الأُمم والشَّرائع، وبالأدلّة والبيِّنات لينشرَها في النّاس واضحةَ البيان، سالمةً منَ الإلباس.

إرسالُ الرُّسل من سُنَّة الله في خَلْقه ورحمتِه بهم

دلالةُ حذفِ متعلَّق قوله: ﴿مُرۡسِلِينَ﴾:

حُذِفَ متعلَّق لفظ ﴿مُرۡسِلِينَ﴾؛ لوضوحه ودلالةِ السّياق عليه، والتّقدير: (مُرسلين إيّاك إلى أهل مكّة)(1)، فَحُذِفَ المتعلَّق للإيجاز، وقصدًا إلى إثبات معنى الإرسال المتحقِّق من جهة اللّه ﷻ لأنبيائه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإرسال إلى سيِّدنا محمّد ﷺ ليس بِدعًا، وفي الحذف أيضًا مراعاةٌ لفواصل الآيات.

ترتُّبُ الحذفِ لمقتضيات معنويّة، ودواعٍ لفظيّة

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

التَّطاوُلُ والتّمادي:

التَّطاول: فَضْلٌ وامْتِداد في الشَّيْءِ، وطالَ الشّيءُ، أي: امتدَّ، وكلُّ ما امتدَّ فَقَدْ طالَ(2)، والمُطاولةُ في الأمْر هي التَّطْويل(3).

أمّا الفعل (تمادَى): فهو منَ التَّمادي، بمعنى الإلحاح واللّجاجة،

التّطاولُ زيادةٌ وامتداد، والتّمادي لجاجةٌ ودوامٌ وتكرار

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 603.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طول).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طول).

يقال: تَمادَى فلانٌ في غَيِّه، إذا لَجّ فيهِ وأطال مَدَى غَيِّه أي غايَتِه[1]. وقد يكون التّمادي بمعنى الدَّوام والاستمرار، فـ (المُمادِى) الدّائِم والمستمرّ البالِغ الغايَة، يقال: تمادَى على الأمر إذا دامَ واستمرَّ[2]. والتَّمادي يُفيد معنى التَّكرار، يقال: تمادي العُمُر كأنَّه تكرار[3].

الثَّواء والإقامة:

الإقامة لُبثٌ وثباتٌ، والثَّواءُ طولُ مقامٍ واستقرار

الثَّواءُ: طولُ الإقامة، يقال: ثَوَى المكانَ، وبه يَثْوي ثَواءً وثويًّا، بالضَّم، وأثْوَى به: أطالَ الإقامَةَ به[4]. وقد يكون الثَّواءُ في المكان بمعنى النُّزول به، يقال: ثَوَى: (نَزَلَ) مَعَ الاسْتِقْرار، وبه سُمّي المَنْزِلُ مَثْوًى، وثَوَى: أقامَ في قَبْرِه؛ وأثْوَيْتُه: أضَفْتُه. يقالُ: أنْزَلَني الرَّجُلُ فأثْواني ثَواءً حَسَنًا[5].

أمّا الإقامة: فهو من أقامَ بِالَمكانِ: بِمَعْنَى الثَّباتِ، وأقامَ بِالَمكانِ إقامًا وإقامةً ومُقامًا وقامَةً: لَبِثَ[6]. وبهذا يتَّضح أنَّ الثَّواء يفترق عن الإقامة في معنى طولِ المُقام، ودوامِ الاستقرار، وحُسنِ الاستضافة.

التّلاوة والقراءة:

القراءةُ أعمّ، والتّلاوة أخصّ، وكلاهما لفظ قرآنيّ فصيح

الفرق بين التِّلاوة والقراءة: أنَّ التِّلاوة لا تكون إلّا لكلمتين فصاعدًا، والقراءة تكون للكلمة الواحدة، يقال: قرأ فلانٌ اسمَه، ولا يقال: تلا اسمه، وذلك أنَّ أصل التّلاوة إتباعُ الشَّيءِ الشَّيءَ، يقال: تلاه إذا تبِعَه، فتكون التِّلاوةُ في الكلمات يتبع بعضُها بعضًا، ولا تكون في الكلمة الواحدة، إذ لا يصِحُّ فيه التُّلُوُّ[7].

والتِّلاوةُ تختصُّ باتِّباع كتبِ الله المُنزّلة، تارةً بالقراءة، وتارةً

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مد).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (مد).
(3) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 102.
(4) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (ثوى).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (ثوى).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140.

بالارتسام؛ لما فيها من أمرٍ ونهي، وترغيبٍ وترهيب، أو ما يُتَوَهَّم فيه ذلك، وهي أخصُّ منَ القراءة، فكلُّ تلاوة قراءة، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوة، ويُراد بالتِّلاوة: الاتِّباع له بالعلم والعمل»[1]، وليس في القراءة شيء من ذلك.

(1) الرّاغب، المفردات: (تلى).

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾

[القصص: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نفيُ شهودِ النّبيِّ الخاتَمِ لما غَبَرَ والتّأكيدُ بأنّ الوحيَ به نذارة لمن لم يُنذَرْ

لمّا نفتِ الآياتُ السّابقة العلمَ بتفاصيل ما حدث لموسى ﷺ، بطريق الشّهود والحضور، وأكّدت نفيَ سببِ العِلْم بذلك، في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾؛ جاءت هذه الآيةُ لتأكيد ذلك المعنى بنفي عِلْمه ﷺ، بنداء اللّهِ تعالى لنبيِّه موسى ﷺ، وعِلْمِه بالأحكام والمواعظ، والحلال والحرام، في شريعته، فقال اللّه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطُّورِ﴾: (طور) أَصْلٌ صَحيحٌ يدلُّ على مَعْنًى واحِدٍ، وهوَ الِامْتِدادُ في شَيْءٍ مِنْ مَكانٍ أَوْ زَمانٍ. مِنْ ذَلِكَ طَوارُ الدّارِ، وهوَ الَّذي يَمْتَدُّ مَعَها مِنْ فِنائِها. ولِذَلِكَ [يُقالُ] عَدا طَوْرَهُ، أي: جازَ الحَدَّ[1]. والطّورُ: جَبَلٌ مَعروفٌ[2] واسمُ جبلٍ مخصوص، وقيل: اسمٌ لكلّ جبلٍ، وقيل: هو جبل محيط بالأرض[3]. والمراد بـ ﴿ٱلطُّورِ﴾ في الآية: الجَبَلُ الذي بمَدْيَنَ الذي كلَّم اللّه تعالى موسَى ﷺ عليه تكليمًا[4]، أو هو جبلٌ بَين مصر ومَدْين[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

بيان أنّ إرسال الرّسولِ رحمةٌ لمَن أُرسِل إليهم

يقول اللّهُ تعالى لرسوله ﷺ في هذه الآية: وما كنت يا محمَّد

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طور).
(2) الخليل، العين: (طور).
(3) الرّاغب، المفردات: (طور).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (طور).
(5) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/ 297.

بجانب الجبل حين كلَّمنا موسى، وقلنا له: (خذ التّوراة بقوّة)، وما كنتَ معه حتَّى تشاهد ما حصل له، ولكنّا أوحينا إليك ما قضيناه في هذه المناداة؛ رحمةً منّا لِتُحَذِّرَ قومَكَ الّذين لم يأتهم رسولٌ مِن قبلك؛ ليَتذكَّروا ويَتَّعظوا ويُنيبوا إلى اللّه تعالى[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة عطف قوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾:

اشـتراك الجُمَل في إثبات أنَّ علم النّبيِّ ﷺ كان وحيًا من ربِّه

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، معطوف على ما قبله، في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، وقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، وسببُ وصلِ هذه الجُمَل بعضِها ببعض، هو اشتراكها في المعنى الجامع، وهو نفيُ وجودِ الرَّسول ﷺ مع موسى على جبل الطّور، ومع قوم مَدْين ونبيِّهم شعيبٍ، وسوّغ هذا الوصلَ كذلك كونُ هذه الجُمَل اتَّفقت جميعها في الخبريَّة لفظًا ومعنًى. وتظهر بلاغةُ العطف في حشد هذه الجُمَلِ جميعِها، لتثبتَ عدمَ وجودِ أيِّ طريق من طرق معرفة النَّبيِّ ﷺ بأخبار مَن سلف من الأنبياء والأمم، غيرِ طريق الوحي من ربِّه ﷻ.

دلالة التّعريف في: ﴿ٱلطُّورِ﴾:

الطّور هو الجبل الغربيُّ المُقدّس، الّذي كلّم اللهُ علـيـه مـوسى تكليمًا

التَّعريف في قوله: ﴿ٱلطُّورِ﴾ تعريف للعهد، فالطّور جبل معروف ومعهود، وهو الجبل الغربيُّ المذكور قبل ذلك في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، وعُرّيَ عن الوصف هنا لأنَّه صار معروفًا[2]، وهو الجبل الغربيُّ المُقدّس، الّذي كلّم اللّهُ عليه موسى تكليمًا.

دلالة التَّعبير بإداة (إذْ) الظَّرفيّة:

تـحـديـد وقـتِ الـنّداء أبلـغُ في نفي وجوده ﷺ هناك

جاء التَّعبيرُ بالظّرفيّة في قوله: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾؛ للتّأكيد على نفي مشاهدة النَّبيّ ﷺ وسماعِه للحوار الّذي كان بين اللّه ﷻ وكليمِه

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 20/ 51.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 133.

موسى عليه السلام، فالتَّقييد بزمن النّداء أبلغُ في الإقناع بصدق نبوَّة محمَّد ﷺ؛ لأنّه ما حضر وقت نداء اللّه لموسى، ولا سمع أوامرَ اللّه تعالى له، فليس ذلك إلّا الوحي الصّادق.

سِرّ جمعِ هذه الأحوال الثّلاثة المنفيّة:

جمع القرآن الكريم بين الأحوال الثَّلاثة الواردة في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾؛ لأنَّ هذه الأحوالَ الثَّلاثة هي الأحوالُ العظيمة الَّتي اتَّفقت لموسى عليه السلام؛ لأنَّ المراد بقضاء الأمر إنزالُ التَّوراة حتَّى تكاملَ دينُه واستقرَّ شرعُه، والمُراد بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا﴾ أوَّلُ أمرِه، وبقوله: ﴿إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ وسطُ أمرِه، وهي ليلة المناجاة(1). والمراد من نفي هذه الأحوال الثَّلاثة التَّأكيدُ على كون سيِّدنا محمَّد ﷺ نبيًّا يوحَى إليه من اللّه تعالى، وذلك أنّه لا يمكن أن يَعْلَمَ بتفاصيل تلك الأحوال إلّا مَنْ أطلعه الوحيُ عليها.

جمع الأمور المقصودة في السّياق؛ لعِظَم أثرها، وكبر خطرها

دلالةُ حذفِ مفعول النَّداء في السّياق:

حُذِفَ مفعولُ الفعل نادى في قوله: ﴿إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ لظهوره ووضوحه، وهو نداء موسى عليه السلام، فقد ناداه ربُّه، وأنزل عليه التَّوراةَ عقبَ تلك المناجاة(2)، فطالما توفَّرت القرائنُ الدّالّة على المحذوف، يكون الحذف أليقَ بالمقام منَ الذِّكر والإطناب.

عند الظّهور والوضوح، يكون الحذفُ أليقَ منَ الذِّكْر

سِرُّ إسناد النِّداء إلى ضمير العظَمة:

إسناد فعل النِّداء إلى ضمير العظَمة في قوله: ﴿نَادَيۡنَا﴾ دالٌّ على عظَمة المُنادي سبحانه وتعالى، وإيذانٌ بأنَّ ما يُلَقى على المنادَى بلغ من جلال الشَّأن وفخامة الأمر درجةً استحقَّ بها الإسنادَ إلى ضمير العظَمة، وهي التَّكاليفُ الشَّرعيّة الّتي أُمِر بها موسى عليه السلام ليبلِّغ بها قومَه.

عظَمة المُنادي سبحانه، والمُنادَى به

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 603.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 133.

وفيه دلالةٌ على أنَّ من قام بحقِّ تلك التَّكاليف سَعِد في الدّارين؛ لأنَّ اللّه لا يُسنِد إلى نفسه إلّا الجليلَ من الأمور الّتي تَسْعَد بها البشريّة.

سِرُّ إعادة النِّداء في: ﴿إِذۡ نَادَيۡنَا﴾:

ذكر القرآنُ الكريم فعلَ النَّداء هنا، في قوله: ﴿إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ مع أنَّه تقدَّم ذكرُ النِّداء، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: 30]؛ لأنَّ النِّداء هنا غيرُ النِّداء الوارد في الآية السّابقة؛ فالنِّداءُ فيها كان لاستنبائه واصطفائه، وأمّا المذكور هنا فهو النِّداءُ لميقاته أربعين ليلةً، وإنزالِ ألواح التَّوراة عقبَ تلك المناجاة، وعليه فلا تكرارَ هنا مع قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾(1).

لكلّ ملمَحٍ في النّداء دلالةٌ مختلفة، تُعَلِّلُ التّكرار في العبارات

معنى الاستدراك في: ﴿وَلَٰكِن﴾:

الاستدراك في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ ناشئٌ عن دلالة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ على معنى: ما كان علمُكَ بذلك لحضورك، ولكن كان رحمةً من ربِّك ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾(2)، فإنَّك لم تشاهد قصصَ الأنبياء عمومًا، ومشهدَ قصَّةِ موسى عليه السلام خصوصًا في تكليم اللّه له، وإلقاءِ التّوراة إليه، ولكن أوْحيناها إليك، وقصصناها عليك؛ رحمةً من ربِّك لِتُخْبِرَهُمْ بقَصص مَنْ أُهْلِكَ بالعذاب، ومَنْ فاز بالثَّواب(3).

من رحمة الله بالعباد، إرسالُ الرّسل بالهدى والرّشاد

سِرّ التَّعبير بلفظ ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ منكَّرة:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ منكَّرةً دون غيرها؛ لاشتمالها على عِدَّةِ معانٍ تخدم السّياق القرآنيَّ، مع فخامتها وشرفها؛ فتُطلق على النُّبوَّة، وتُطلَق على القرآن، وعلى الرّسول ﷺ،

تعدّدُ دلالاتِ لفظ الرّحمة يخدم السّياق، ويوسّع الدّلالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 133.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 133.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 147.

وغيرِ ذلك من المعاني الّتي ذكرها الدّامغاني في الوجوه والنّظائر، وهذا التّعبير مناسبٌ لسياق الآية؛ لأنَّ القرآن رحمة، وإرسالُ النّبيِّ ﷺ رحمة، وكلُّ ما تعلّق بمبعثه ﷺ رحمة، كما وصفه ربُّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107].

بلاغة الحذف في: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ﴾:

تعدّد معاني الرّحمة، واختلاف دلالاتها باختلاف تقديراتها

النّاظر في إعراب لفظ ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ يدلُّ على أنَّه معمول لعامل محذوف، إمّا على تقدير (كون) محذوف يدلُّ عليه نفيُ الكونِ في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، والتّقدير: (ولكن كان علمُكَ رحمةً منّا)، وإمّا على المفعول المطلق الآتي بدلًا من فعله، والتّقدير: (ولكن رحمناكَ رحمةً بأن علّمناك ذلك بالوحي رحمةً)، بقرينة قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾. ويجوز أن يكون ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ منصوبًا على المفعول لأجله، معمولًا لفعل ﴿لِتُنذِرَ﴾، فيكون فعل ﴿لِتُنذِرَ﴾ متعلِّقًا بكون محذوف، هو مصبُّ الاستدراك[1].
وعلى هذه التّوجيهات، فإنّ الحذف حقّق بلاغةً عاليةً، وهي التّعجيل بالدُّخول في الرَّحمة، مع كثرة المعاني باختلاف كلِّ تقدير.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

رحمة الله سبحانه، أكمل الرّحمات وأتمُّها

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ ابتدائيَّةٌ، تُنبئُ بأنَّ اللّه ﷻ، هو مبدأُ الرَّحمة الّتي اقتضت إرسالَ النَّبيّ ﷺ إلى النّاس، هدايةً وإرشادًا وتبصيرًا، وكون هذه الرّحمة مبدأُها من اللّه دالًّا على أنها الرّحمةُ الكاملة التّامَّة؛ إذ هي رحمة العظيم الخالق اللّطيف سبحانه.

بلاغة الإظهار في مقام الإضمار:

الرّحمة من مقتضيات الرّبوبيّة الغامرة للبشر بما يَسّر

عدلَ النَّظمُ الكريم عن الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾، ولم يقل: (ولكن رحمة منّا) لِما يُشْعِر به معنى الرَّبِّ المضاف إلى ضمير المخاطب منَ العناية به، عناية الرَّبِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 134.

بالمربوب[1]، فمن مقتضيات الرُّبوبيَّةِ الرَّحمةُ بالعباد، ولا رحمةَ أعظمَ من رحمةٍ أخرج اللّٰهُ بها عبادَه من ظُلمات الشِّرك والجهل إلى نور الإيمان والتَّوحيد.

خطابُ النّبيّ بالإضافة إلى الرّبوبيّة، تكرمةٌ وخصوصيّة

دلالة الإضافة في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

دلَّت إضافةُ الرُّبوبيَّة إلى ضمير الخطاب العائد إلى النَّبيّ ﷺ في قوله: ﴿رَّبِّكَ﴾ على عظيم فضله سبحانه بنبيِّه ﷺ، إذ جعله نبيًّا خاتمًا، هاديًا وبشيرًا، وأنزل عليه خيرَ كتبه القرآنَ، كما قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النّساء: 113].

إنذارُ الرّسل، قطعٌ لمعاذير المُنكرين

دلالةُ اللّام في: ﴿لِتُنذِرَ﴾:

اللّام في الفعل ﴿لِتُنذِرَ﴾ للتَّعليل، فهي تكشف عنِ العلَّة الّتي من أجلها أوحى اللّٰهُ إلى النَّبيّ صلَّى اللّٰه عيه وسلَّم بالرِّسالة، فمِنْ أغراض بعثتِه صلَّى اللّٰه عيه وسلَّم إنذارُ النّاس وتخويفُهم من عقاب اللّٰه ﷻ، وتحذيرُهم من مآل إشراكهم به ﷻ، والإنذارُ دورٌ عظيم من أدوار رسل اللّٰه تعالى، كما قال سبحانه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النّساء: 165].

التّعبير بالإنذار أنسبُ لحال الكفّار

سِرّ التَّعبير بالإنذار في: ﴿لِتُنذِرَ﴾:

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالإنذار، في قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ دون غيره من وظائف الرُّسل كالبشارة مثلًا؛ لأنَّ الإنذارَ أوقعُ في القلوب، وأشدُّ تأثيرًا في النُّفوس، كما أنَّه أنسب بحال الكافرين الَّذين تمكَّن الشِّركُ في قلوبهم؛ فكان التَّعبيرُ بالإنذار هو المناسب لهذه الحالة الّتي هم عليها منَ الجُحود والكُفران.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿لِتُنذِرَ﴾:

دلَّ التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ على تجدُّد الإنذار منَ النَّبيِّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 134.

تجدّد الإنذار لطفٌ بالمُنْذَر، وأملٌ في الانزجار

ﷺ لهؤلاء القوم كي يخرجَهم من حالة الكفر الّتي هم عليها، وفيه إشارةٌ إلى رحمة الله تعالى بهؤلاء القوم بتجدُّد الإنذار، وتنوُّعِ الآيات الدّالَّة على الطّريق المستقيم، طريقِ الإيمان بالله وحدَه سبحانه.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿قَوۡمٗا﴾ دون غيره:

إيثارُ اللّفظ المُعبِّر عنِ الحال مفيدٌ في الإبانة عنِ المقصود

آثَرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿قَوۡمٗا﴾ دون غيره، للدّلالة على اجتماعهم على الكفر والجُحود، وشِدَّتهم واستعلائهم على قبول الدَّعوة، بدليل أنَّه لمّا جاءتهم الدّعوة أعرضوا عنها، واستنكفوا أن يكونوا مؤمنين بها، وجمعوا كيدَهم ومكرَهم لحرب النَّبيِّ صلَّى الله عيه وسلَّم ومَنْ معه منَ المؤمنين.

دلالةُ النَّفي بالأداة ﴿مَّآ﴾ في السّياق:

إنذارُ الجاهلين رحمةٌ من ربِّ العالَمين

القوم المقصودون بنفي النَّذير في قوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ﴾ هم قريشٌ والعرب، فهم المخاطَبون ابتداءً بالدّين، وكلُّهم لم يأتهم نذير قبل محمَّد ﷺ، وأمّا إبراهيمُ وإسماعيل عليهما السلام فكانا نذيرين حين لم تكن قبيلةُ قريشٍ موجودةً يومَئِذ، ولا قبائلُ العربِ العدنانيّة، وأمّا القحطانيَّةُ فلم يُرْسَل إليهم إبراهيمُ؛ لأنَّ اشتقاق نسبِ قريشٍ كان من عدنان، وعدنان بينه وبين إسماعيل قرونٌ كثيرة[1]. ويحتمل أن يكون المعنى: أنَّه لم يأتهم نذيرٌ في الفترة بين عيسى ومحمَّد عليهما السلام، على ما ذكره ابنُ عبّاس ومقاتل[2]. وهذا لا يتعارض مع قوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: 24]؛ لأنّه يَعُمُّ من بوشِر منَ النّذر ومن سمع به، فالعربُ من الأُمم التي خلت فيها النُّذر على هذا الوجه؛ لأنَّها علمت بإبراهيم وبنيه ودعوتِهم، وهم مِمَّنْ لم يأتهم نذيرٌ مباشرٌ لهم سوى محمَّد ﷺ[3]. أو أنَّ المراد من قوله: ﴿وَإِن مِّنۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 134.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 6/ 296.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 357.

﴿أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤﴾ [فاطر: 24] أنَّ نبوَّة محمَّد ﷺ ليست ببِدَع، فلا ينبغي أن تُنكَر، لأنَّ اللّه أرسله كما أرسل مَن قبله[1].

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾:

نفيُ مجيء الرّسول من قبل، يناسبُ المِنّة برسول الرّحمة

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ صلةٌ، جيءَ به لتأكيد نفي مجيء رسولِ إلى العرب، قبلَ النَّبيّ ﷺ، على ما تقدَّم تفصيلُه، والمبالغة في النَّفي هنا مبالغةٌ في تمام الامتنان والإنعام، من اللّه تعالى على هؤلاء المشركين، إذ لم يتركهم في ظلمات الكفر والبُعد عن وحي الأنبياء والرُّسل، بل أرسل فيهم رسولًا من أنفسهم يدلُّهم على سبيل النَّجاة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

ذِكر مرحلة ما قبل الوحي، وهي الفترة الّتي ليس فيها نذير

دلَّ التَّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ على الزَّمن القريب، وهو زمن الفترة، وأمّا ما قبل ذلك فقد كانوا فيه على دين إبراهيم عليه السلام، حتَّى غيَّره عمرو بن لُحَيٍّ، فقد أنذرهم في تلك الأزمان إبراهيمُ عليه السلام، ثمَّ إسماعيلُ عليه السلام، ثمَّ مَن بعدَهم من صالحي ذرّيَّتهم إلى زمان عمرو بنِ لُحَيّ[2].

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ دون (مِنْ بَشيرٍ):

التَّعبير بالنّذارة أوفى دلالةً في خطاب المشركين المعاندين

اكتفى التَّعبيرُ القرآنيُّ بقوله: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ دون أن يَقْرُن معه (مِنْ بَشيرٍ)، كما هي عادة القرآن في الجمع بينَ البِشارة والنِّذارة في وظائف الرُّسل، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28]، وغيرِها منَ الآيات؛ لأنَّ السّياق هنا في خطاب المشركين المُكذِّبين الجاحدين، والمعاندين بالأعذار الواهية، والحُجَج الباطلة، فكان التَّعبير بالنّذارة هو الأوقع في تخويفهم وتحذيرهم منَ الجُحود بآيات اللّه والاستهزاء برسله. وفيه أيضًا

(1) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 175.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 306.

مناسبةٌ لما سبق من ذِكْر علَّة إرسالِ النَّبيِّ ﷺ، وهي الإنذار في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾، فناسب هذا ذلك.

سِرُّ الفصل في ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾:

شِبهُ كمالِ الاتّصال، موفٍ بالإبانة عن رجاء التّذكّر

فُصِلَ قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عن قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ لما بين الجُملتين من شِبه كمال الاتِّصال؛ لأنَّ قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، فالجملة الأولى أثارت سؤالًا في النَّفس، تقديره: ما سببُ الإنذار، فجاءت الجملة الثّانية جوابًا لهذا السُّؤال، والتَّقدير: (لتنذرهم لعلهم يتذكَّرون).

سِرُّ التَّعبير بالتَّذكُّر دونَ غيره:

بيانُ أنّ التَّذكُّر نظرٌ في الأسباب الّتي أفضت إلى ضلالهم

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالتَّذكُّر في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ دون غيره؛ لأنَّ التَّذكُّر هو النَّظر العقليُّ في الأسباب الّتي دعت إلى حكمة إنذارهم، وهي تناهي ضلالِهم فوقَ جميع الأمم الضّالَّة، إذ جمعوا إلى الإدراك مفاسدَ جمَّةً؛ من قتل النُّفوس، والارتزاق بالغارات والمقامرة، واختلاطِ الأنساب، وانتهاكِ الأعراض، لذلك كلِّه وجب تذكيرُهم بما فيه صلاحُ حالِهم[1].

سِرُّ ورودِ فعلِ التَّذكُّر مضارعًا:

تَجدُّدُ التّذكُّرِ والاعتبارِ سبيلُ النّجاة

التَّعبير بالمضارع في ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ إفاد التَّجدُّدَ والاستمرارَ في الانتفاع من آيات اللّه تعالى الكثيرةِ والمتنوِّعةِ والمتجدِّدة، فاللّهُ تعالى أكثرَ من ذِكْر الأدلَّة على وحدانيَّته وصدقِ دعوة نبيِّه ﷺ، ما لو صَدقَ المتأمِّلُ في تدبِّرها لانتفع بها قلبُه، ولأسلم طوعًا لربِّه. كما أنَّ فيه حضًّا لكلِّ من أعرض وجحد، بأن يرجع إلى ربِّه ويتوب، فآياتُ اللّه كثيرة تقيم عليه الحُجة، وتقطعُ عنه العُذرَ، وفيه أيضًا تعريضٌ بالمشركين بأنَّهم لم يهتدوا بالآيات الواضحات على كثرتها وتنوُّعها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 134.

دلالة حذف متعلّق ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾:

حُذِفَ متعلَّق الفعل ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ للعِلْم به؛ إذ قد دلّ السّياقُ عليه في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾، فيكون تقديرُ الكلام: (يتذكَّرون بالآيات والنُّذر التي جاء بها سيّدنا محمّد ﷺ)، فكان في الحذف إيجازُ اختصار، وفي الحذف أيضًا اهتمامٌ بنفس الفعل وقصدٌ إليه، وهو فعل التَّذكُّر؛ لأنَّ المقام هو مقام حضٍّ على وقوع التَّأمّل والتَّدَبُّر في آيات اللّه تعالى، والتَّعريضُ بالذين غَفَلوا عن هذا التَّذَكُّر، فلم ينتفعوا بدعوة النَّبيِّ ﷺ.

في الحذف إيجازٌ وتعميم، وهو مفيد في فهم المراد

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القوم والأُمَّة:

قومُ كلِّ رجلٍ شيعتُه وعشيرتُه، ويُطلق على الرِّجال دون النِّساء[(1)]، والقوم في الأصل مصدر قام، ثمَّ غلب على الرِّجال دون النِّساء، ولذلك قابلهُنَّ به في حديث: «إنْ نَسّاني الشّيطانُ شَيْئًا مِنْ صَلاتي فلْيُسَبِّح القومُ، ولْيُصَفِّق النِّساءُ»[(2)]، وسُمّوا بذلك لأنَّهم قوّامون على النِّساء بالأمور التي ليس للنِّساء أن يقمن بها[(3)]. وقد تدخل النِّساء تحت القوم على سبيل التَّبعيَّة، لأنَّ قوم كلِّ نبيٍّ رجال ونساء[(4)]، وقومَ كلِّ نبيٍّ مَن أُرسِل إليهم من أهله وعشيرته، ومَن يسكنون معه في مكان واحد.

الأمَّةُ أوسع معنًى من القوم، وكلاهما لفظٌ قرآنيّ مُعَبِّر

أمّا الأمَّةُ: فلها معانٍ كثيرة[(5)]؛ فقد تُطلَق على المجموعة منَ النّاس، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ [القصص: 23]، وتُستَعمل الأمَّة فيمن تجتمع فيه الصِّفاتُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوم).
(2) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (2174)، وأحمد في المسند، برقم: (10977).
(3) ابن الأثير، النّهاية: 4/ 125.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أم).

الحميدة، كما في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النّحل: 120]، وتستعمل في معنى الدّينُ، قالَ اللّه تعالَى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزّخرف: 22]، وتستعمل بمعنى الحين كما في قَوْله تَعالَى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، أيْ: بَعْدَ حين. وتُطلَق الأمّةُ على جماعة العلماء، كما في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104]، وقد تُطلَق الأُمَّة على كلٍّ من آمن بالنَّبيّ ﷺ، سواء كان من قومه أو لا، كما في حديث الشّفاعة: «أُمّتي أُمّتي»[1]، فهو ﷺ يشفع لمَن آمن به؛ فهي على هذا أوسع معنًى منَ القوم.

النّذير والرّسول:

كلّ رسولٍ منذرٌ، وليس كلُّ منذرٍ رسولًا

النّذير: مشتقٌّ منَ النّذارة، و(نذر) كلمة تدلُّ على تخويفٍ أو تخوّفٍ، ومنه الإنذار: الإبلاغ، ولا يكاد يكون إلّا في التَّخويف. وتناذروا: خوَّف بعضُهم بعضًا[2].

أمّا الرَّسول: فمشتقٌّ مِنَ الرَّسْلِ، وهو الانبعاث والامتداد، تقول: جاء القوم أرسالًا، أي: يتبع بعضُهم بعضًا[3]، والرّسول: الذي يتابع أخبارَ الذي بعثَه؛ أُخِذَ من قولهم: جاءت الإبل رَسَلًا، أي: متتابعةً[4]. ثمَّ إنَّ الرّسول يستلزم أن يكون نذيرًا، بعكس النَّذير، فلا يستلزم أن يكون رسولًا؛ فكلُّ رسول نذير، وليس كلُّ نذير رسولًا.

---

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (7510)، ومسلم في حديث الشّفاعة، برقم: (193).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رسل).

﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾

[القصص: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ إنذار مَن لم يُنْذَر بالسُّنَن الإلَهيّة في عدم العقاب إلّا بعدَ الإنذار

لمّا ذكَر اللّهُ تعالى في الآية السّابقة أنّ هؤلاء المشركين المُخاطَبين لم يأتهم نذيرٌ باشرهم بالنّذارة، فكان ذلك سببًا في نفي العذاب عنهم؛ بيّن هنا أنّ إرسالَ النَّبيِّ ﷺ أمرٌ لا بُدَّ، حتَّى يقطعَ عنهم أيَّ حُجَّةٍ في تركهم الإيمان، فقال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: ولولا هذا الذي ذكرناه ما أرسلناك لتنذِرَهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُصِيبَهُم﴾: أصابَ السّهمُ: إذا وصل إلى المرمى بالصَّوابِ، والإصابة: النّزولُ بالشّيء واللّحاق به، خيرًا كان أو شَرًّا، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النّساء: 79]، ثمّ كَثُر في الشّرّ، والمُصيبَةُ أصلُها في الرَّميّة، ثمّ اختصّت بالنّائبة، نحو: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ [آل عمران: 165]، وهي المرادة في الآية[2].

2) ﴿قَدَّمَتۡ﴾: (قدم) أصلٌ صحيح يدلُّ على سبْق[3]، وهو مأخوذة منَ القَدَم، والقدَم: كلُّ ما قَدّمْتَ مِنْ خَيْرٍ أوْ شَرٍّ[4]، و﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: سبقت بفعل الذّنوب.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 307.
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صاب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدم).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (قدم).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يقول اللّهُ تعالى في هذه الآية بيانًا لإقامة الحُجّة وقطع الأعذار: لولا أن يقول هؤلاء الّذين أرسلناك إليهم يا محمّد، لتقيمَ عليهم الحُجَّة، ولتقطع عُذْرَهم، لو حلّ بهم بأسُنا، أو أتاهم عذابُنا من قبل أن نرسلك إليهم على كفرهم بربِّهم، واكتسابِهم الآثام، واجترامِهم المعاصي: (ربَّنا هلّا أرسلت إلينا رسولًا من قبل أن يَحِلَّ بنا سخطُكَ أو عذابُكَ[1]، فنتَّبعَ آياتِك، ونؤمنَ برسلِكَ، ونكونَ من عبادك المؤمنين الصّادقين).

رسالة النّبيّ ﷺ، إبطالٌ لأعذار القومِ بعدمِ العِلْم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو على الاستئناف:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ للاستئناف؛ لأنَّها دخلت على جملة الشَّرط، وجملةُ الشَّرط تكون مستأنفةً[2]، والمعنى: لولا أن يَحتجّوا لو أصابتهم مصيبةٌ، بأن يقولوا: لولا أرسلتَ رسولًا فاتَّبعناه، لَما أرسلنا الرُّسل، وقيل: عاجلناهم بالعقوبة[3].

الإنذار يكون بين يدي العذاب

دلالةُ التَّعبير بـ (لولا) في السّياق:

(لولا) في قوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ حرفُ امتناعٍ لوجود، أي: انتفاءُ جوابِها لأجل وجودِ شرطها، والتَّقدير: (ولولا إصابتُهم بمصيبة يعقبُها قولُهم: ربَّنا لولا أرسلت ....، لَما عبأنا بإرسالك إليهم، لأنَّهم أهلُ عناد وتصميم على الكفر)[4]، فقطع اللّهُ عذرَهم، وأقام عليهم الحُجَّة، بإرسال النَّبيّ ﷺ مبشرًا ونذيرًا.

إرسالُ الرّسل قطعٌ لحُجَج المُكذّبين

دلالة التَّعبير بالمصدر المؤوّل:

آثَرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالمصدر المؤوّل ﴿أَن تُصِيبَهُم﴾، دونَ

الكفر سببٌ لنزول المصائب، وحلولِ الكوارث

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 241.

(2) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/ 433، والخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 3/ 896.

(3) الباقوليّ، إعراب القرآن: 1/ 36.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 135.

المصدرِ الصّريح (إصابتهم)؛ لأنَّ المصدر المُؤوَّل يدلُّ مع الحدث على مراعاة الزَّمن؛ بخلاف المصدر الصّريح؛ فلا يدلُّ إلّا على الحدث من غير زمن، وهذا غير مُراد في هذا السّياق.

سِرُّ التَّعبير بالإصابة دون غيرها:

الإصابة أقوى تمكُّنًا في إيقاع العذاب، والإحساسِ بأثره

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالإصابة في قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبَهُم﴾، دونَ غيرها من الألفاظ الّتي تقترب من هذا المعنى كالمسِّ مثلًا؛ لأنَّ الإصابة أقوى تمكُّنًا في إيقاع العذاب منَ المَسِّ؛ فلفظُ الإصابة يحمل من صفات القوَّة والشّدَّة في التَّأثير أكثرَ ممّا يحمله لفظُ المسِّ، وهذا هو المناسب لسياق الآية، ولاقترانها بلفظ ﴿مُّصِيبَةُۢ﴾ بعدَها، فيكون التَّخويفُ أشدَّ باجتماع الفعل وفاعله الدّالَّين على شدَّة البلاء والعقاب.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿مُّصِيبَةُۢ﴾:

المصيبة ما يَحُلُّ بالمُخطِئ منَ العقوبة والأذى

اختير التَّعبيرُ بلفظ ﴿مُّصِيبَةُۢ﴾؛ لأنَّها تُطلَق على كلِّ ما يُؤذي الإنسانَ من عذاب ونُقْمَة في نفسه أو ماله، ولأنَّها تُستَعمل في الشَّرِّ. والمصيبةُ في الأصل ما يُصيب الإنسان، أي: يَحُلُّ به منَ الأحوال، وغلب اختصاصُها بما يَحُلُّ بالمَرء منَ العقوبة والأذى[1]، وهذا هو المناسب لسياق الآية؛ لأنَّها في تخويف الكافرين وإقامة الحُجَّة عليهم.

دلالة تنكير المسند إليه ﴿مُّصِيبَةُۢ﴾:

المصيبة تقتضي ضَررَ المصاب، وأعظمُها الهلاكُ بالاستئصال

دلَّ تنكير المسند إليه ﴿مُّصِيبَةُۢ﴾ على التَّفخيم والتَّهويل من شأن تلك المصيبة، وعلى إفادة العموم لتشملَ كلّ مضرَّة تُصيب الإنسان عمومًا والكافر خصوصًا، ولعظيم هذه المصيبة قيل في تفسيرها: إنَّها عذاب الاستئصال[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 136.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 297.

بلاغة المجاز في: ﴿أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾:

البُعد عن جناب الله الأعظم يستوجب نزولَ النّقم

إسنادُ الإصابة إلى المصيبة في قوله: ﴿تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ المصيبة لا يعقل أن تكون هي القائمة بفعل الإصابة، فالفاعل الحقيقيُّ هو الله ﷻ، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ أسند فعل الإصابة إلى المصيبة؛ للدَّلالة على شدَّة وقعها، وقوَّةِ أثرها، وجلالِ خطرها، فكأنَّها من شدَّتها قامت من نفسها بهذا الفعل، وكأنَّها تريد الانقضاض عليهم جزاءَ ما قدَّمت أيديهم، وفي هذا تخويفٌ وتحذير من مغبّة الشِّرك. وفيه توجيهٌ إلى التَّأدُّب مع الله تعالى في أن لا يسند لفظُ المصيبة إليه سبحانه.

دلالة الباء في: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾:

بيان أنّ نزول النّقم بسبب ذنوب البشر

تدلُّ الباء في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ على السّببيّة، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ وقوع النَّكبات على المشركين، ونزولَ النَّقم عليهم، كان بسبب ما سبق من أعمالهم من شركهم وكفرهم. ودلّتِ السّببيَّةُ هنا على أنَّ الجزاء كان وفاقًا لما اقترفوه، وفي هذا إشارةٌ إلى العدالة الإلَهيَّة قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النحل: 33].

دلالةُ التَّعبير بـ (ما) دون (الَّذي):

عمومُ ما قدّمت أيديهم، منبئٌ بكثرة الإجرام، ومحاربةِ الإسلام

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ (ما) في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ دون (الَّذي)؛ لأنَّ (ما) تُفيد العمومَ؛ فهي أعمُّ وأشمل من (الَّذي)، وفي هذا إشارةٌ إلى عموم ما قدَّمت أيديهم، وكثرةِ ما أجرموه من ارتكاب المعاصي، ومحاربةِ الدَّعوة بكلِّ الوسائلِ المتاحة لهم، وهذا العمومُ لا يتأتّى منَ التَّعبير بـ (الَّذي).

بلاغة المجاز فيما قدّمته الأيدي:

قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ فيه مجازٌ بالاستعارة في لفظ ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾، فهي مستعارة للعقول المكتسبة لعقائد الكفر، فشبَّه

الاعتقادَ القلبيَّ بفعل اليد، تشبيهَ معقولٍ بمحسوس[1]، وقد دلّت هذه الاستعارةُ على رسوخهم في الشّرك، وأنّ الشّرك الذي هو من أعمال القلب، فاضَ به الزَّمانُ والمكان، فصار محسوسًا تَقَدَّمَه الأيدي، وهذا فيه تبشيعٌ شديد، وتشنيع أكيد، على من أشرك بالله شيئًا.

إيغالُ القومِ في الشّرك، جعله في حُكم المحسوس

سِرُّ تخصيص ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ دون سواها:

خُصَّتِ الأيدي بالذِّكر في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، وإن كان المراد هنا الشِّرك، وهو عمل قلبيٌّ؛ لأنَّ أكثر الأعمال تُزاولُ بالأيدي، فغلّب الكثيرَ على القليل، وهذا منَ الاتساع في الكلام، وتصيير الأقل تابعًا للأكثر، وتغليب الأكثر على الأقلّ[2].

أكثرُ أعمال الإنسان تُباشَر باليد

بلاغةُ حذفِ جواب (لَوۡلا):

جواب (لولا) الأولى محذوف؛ لدلالة السّياق عليه، والمعنى: لولا قولُهم هذا عند إصابة عقوبةِ جناياتِهم التي قدّموها، ما أرسلناك، لكن لمّا كان قولُهم ذلكَ محقَّقًا لا محيدَ عنه أرسلناك؛ قطعًا لمعاذيرهم بالكليّة[3]، أو: لولا أن يقولوا ذلك عاجلناهم بالعقوبة[4].

دلالةُ السّياق على الجواب المحذوف، مبيِّنٌ عنِ المُراد منه

دلالة دخول (لولا) على الإصابة دون القول:

كان ظاهر الكلام دخول (لولا) على القول، لا على الإصابة والعقوبة؛ لأنَّ تقدير الكلام - والله أعلم -: ولولا أن يقولوا حين تصيبُهم مصيبةٌ ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولًا[5]، لكن ساغ هذا التّرتيب بدخول (لولا) على إصابتهم بالمصيبة؛ لأنَّ العقوبة هي سبب القول، فلو لم تنزل بهم العقوبةُ، ما احتجّوا بعدم إرسال الرَّسول، فلمّا كان القولُ مسبَّبًا عن العقوبة، وكانت العقوبة سببًا له،

دخولُ (لولا) على القول لأنّه مسبَّبٌ عنِ العقوبة، والعقوبةُ سببٌ له

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 136.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 12/ 73.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 17.
(4) الباقوليّ، إعراب القرآن: 1/ 36.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 135.

دخلت (لولا) عليه؛ للإيذان باستحكام كفرهم، ورسوخِ أقدامهم في الضّلالة، وأنَّ احتجاجهم بعدم إرسال الرَّسول، ليس نابعًا عن تأسُّف وتحسُّر على عدم إيمانهم، بل صدر منهم هذا الاحتجاجُ بسبب ما حلّ بهم من عقاب[1]. وفيه أيضًا: الاهتمامُ بتحذيرهم من إصابتهم بمصيبة جزاءً ما قدّمته أيديهم منَ الشِّرك والجُحود والطُّغيان، وأنَّها نازلةٌ بهم لا محالةَ إن لم يؤمنوا.

سِرّ ايثارِ لفظ الرّبوبيّة:

الرّبوبيّة تدبيرٌ لمصالح العباد

آثرَ النَّظمُ القرآنيّ لفظَ الرّبوبيّةِ في قوله: ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾؛ للإيذان بأنَّ الإنسان في وقت المِحَن يَثوب إلى رُشْدِه، ويَعْرِفُ ربَّه، ويَعتَرفُ بأنَّه ﷻ المُربّي لجميع الخلائق، العليم بمصالحهم، المُدبرِ لأُمورهم. وفيه إظهارُ انكسارِهم وقتَ العقوبة، وحاجتِهم إلى خالقهم سبحانه بدعائهم إيّاه بوصف الرّبوبيَّة، وما يحمله من معاني الامتنان والتَّنعم على عباده، وواسعِ رحمته بهم، طمعًا منهم في رفع العقوبة عنهم، وإمهالهم ورحمتهم.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾:

نِداءُ الرّبّ تذلّلٌ واستعطافٌ، واعترافٌ لله بربوبيّته

الإضافة في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ فيها استعطافٌ وتذلُّلٌ منَ المشركين لربِّهم ﷻ، وطلبٌ للإحسان منه سبحانه بعد فوات الأوان؛ لأنَّهم يقولون ذلك القولَ وقتَ حلولِ العذاب بهم، وفيه أيضًا اعترافٌ منهم بأنّه هو ربُّهم الحقُّ، ولا ربَّ لهم سواه.

دلالة ﴿لَوۡلَآ﴾ في قوله: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ﴾:

دلالتُه على التّحضيض، مفيدةٌ في البيان

﴿لَوۡلَآ﴾ في قوله: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ﴾ حرفُ تحضيض، وهي واقعة في سياق (لولا) الأولى الامتناعيَّة، حيثُ وقعت التّحضيضيَّة مقولًا؛ ليقولوا المعطوف على الشَّرط الواقع بعد (لولا) الأولى[2]، والمعنى:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 298.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 533.

هلّا أرسلت إلينا رسولًا فنؤمنَ به، ونتَّبعَ آياتِكَ التي أرسلتَهُ بها. وفي التَّعبير بحرف التَّحضيض ﴿لَوۡلَآ﴾، مزيدُ إظهار لتذلُّلهم، وطمعِهم في رحمة اللّٰه بهم.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡنَا﴾:

التّقديم اهتمامٌ بالمُقدَّم، والتّشويقُ إلى المؤخَّر

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡنَا﴾ في قوله: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ على المفعول؛ لإفادة أنَّهم هم المعنيون بالأمر، والمقصودون بالحُكم؛ إذ هم في لحظة عذابٍ من اللّٰه جزاءَ كفرهم وإعراضهم، فكان تقديم ﴿إِلَيۡنَا﴾ أولى.

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿رَسُولٗا﴾:

تعظيم وظيفةِ رسلِ اللّٰه في هداية البشر

التَّنكير في قوله: ﴿رَسُولٗا﴾ يدلُّ على العموم والإبهام، كأنّهم حين نزل بهم عذابُ اللّٰه تعالى تمنّوا لو أنّه قد جاءهم أيُّ رسولٍ كان، يدلُّهم على ربِّهم ويهديهم إليه. وفيه أيضًا ادِّعاءٌ منهم بأنَّه لو وصلتهم الرّسالة من أيِّ رسول كانوا سيؤمنون بها ويُذعنون لما فيها، ويدلُّ على هذا المعنى قولُهم بعد ذلك: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾، وكلُّ ذلك زعمٌ منهم، وطمعٌ في تأخير العذاب عنهم.

دلالة التَّعبير بالاتّباع ﴿فَنَتَّبِعَ﴾:

الاتّباع هو انقيادٌ واستسلام للرَّسول، دون جدالٍ ولا اعتراض

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاتّباع في قوله تعالى: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ دونَ غيرِه؛ للدَّلالة على كمال الانقياد والاستسلام لهذا الرَّسول، وما معه من آيات دونَ اعتراض أو جدال؛ لأنَّ الاتباع في اللّغة يُطلق على الارتسام والائتمار، وعلى اللَّحاق، يقال: أتبعه إذا لَحِقَه[1]؛ فهم يدَّعون أنَّه لو بُعِث فيهم رسولٌ لكانوا له متَّبعين، ولِما جاء به مُنقادين.

دلالة الفاء في: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ سببيَّةٌ، دلَّت على أنَّ ما قبلها

(1) الرّاغب، المفردات: (تبع).

ادّعاء الاتّباع كَذّبه الكُفرانُ وعدمُ الانصياع

سببٌ فيما بعدَها، وتقدير الكلام: لولا أرسلتَ إلينا رسولًا، فيتسبَّبَ عن إرساله أنْ نتبعَ ﴿ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، وقد قطع اللهُ عذرَهم، فأرسل إليهم الرَّسول، وأنزل إليهم الآيات البيِّنات، وأراهم المعجزات الدّالَّة على صدق رسوله، فلم يتّبعوه، ولم يؤمنوا بما جاء به.

سِرُّ اختيارِ الاتِّباع دونَ الايمان:

آثرَ السّياقُ الاتِّباع؛ لمناسبته مقتضى حالِ مُدَّعي الاتّباع

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاتِّباع في قوله تعالى: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾، لما فيه من معنى الموالاة، يقال: تَبِعَ الشّيءَ تَبَعًا وتَباعًا في الأفعال، وتَبِعْتُ الشّيءَ تُبوعًا: سِرْت في إثْرِه، وفي الاتّباع تُراعَى المعاني الدّقيقةُ، يقال: فلان يتتبّع مَداقَّ الأُمور[2]، وهذا يكشف عن أنّ العذاب لو نزل بهؤلاء لقالوا: لولا أرسلت إلينا رسولًا نتّبعُه متابعةً لا خللَ فيها ولا تقصير، ونؤمنُ بدِقِّها وجُلّها، ولم يَرِد التَّعبيرُ بالإيمان؛ لأنّه غيرُ مناسب للسّياق الَّذي قيل فيه قول الكافرين، فهم قالوا ذلك وهم في النّار.

سِرّ التَّعبير بقوله: ﴿ءَايَٰتِكَ﴾:

الآيات لفظ عامٌ، يشمل الآيات الكونيّة، والآيات القرآنيّة

جاء التَّعبيرُ القرآنيّ بلفظ الآيات في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ دون غيرها؛ لأنّها لفظ عامٌّ يشمل الآياتِ القرآنيَّةَ والمعجزاتِ، ولأنَّها سببٌ للاتِّباع المقصود في الآية، وهو الرّسول ﷺ؛ لذلك كان التَّعبير بها أعمَّ وأشمل.

دلالةُ الجمع والإضافة في ﴿ءَايَٰتِكَ﴾:

الدّلالة على تعدّد الآيات وتنوّع المعجزات، مفيدةٌ في الإبانة عن المراد

جاءت الآياتُ مجموعةً في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾؛ دلالةً على تعدُّد الآيات وتنوُّع المعجزات التي أيَّد اللّهُ بها النَّبيَّ ﷺ، وأُضيفت الآياتُ إلى ضمير الخطاب إلى الله ﷻ، وهذه الإضافة أفادت تعظيمَ تلك الآياتِ والتّفخيمَ من شأنها، فهي حَريَّةٌ بأن تُتَّبَع.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 307.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (تبع).

دلالةُ العطف في قوله: ﴿وَنَكُونَ﴾:

الجملتان المتعاطفتان يربطهما معنًى واحد؛ وهو الامتثالُ والخضوع

عُطِفَت جملةُ ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على جملة ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾؛ لما بينهما مِنَ التوسُّط بينَ الكماليين، فقدِ اتَّفقت الجملتان في الخبريَّة، والجملتان يربطُهما معنًى واحد؛ وهو الامتثال والخضوع، وهذا العطفُ دلَّ على عِظَم الخضوع، فلم يكتف القومُ باتِّباع الآيات، بل ذكروا اتِّباعًا مشفوعًا بإيمان ويقين، وقولُهم هذا يكون لو نزل بهم العقاب، وحلَّ بهم العذابُ.

دلالةُ التَّعبير بفعل ﴿وَنَكُونَ﴾:

إبطالُ حُجّةِ المشركين في زعمهمُ الإيمانَ

للتَّعبير بفعل الكون في قوله: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالةٌ على تأكيد زعم المشركين في دعوى الإيمان المزعومة، وفي غير القرآن يجوز أن يأتي التَّعبير: (فَنَتَّبِعَ آياتِكَ ونُؤْمِنَ بها)، بعطف المضارع على المضارع، لكنَّ النَّظم القرآنيَّ ذكرَ فعلَ الكونِ تسويغًا لمجيء اسم الفاعل المجموع ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ مبالغةً منهم في دعواهم الإيمانَ والاتِّباع، وأنَّهم لو جاءهم رسولٌ مِنَ اللّه، سيؤمنون به إيمانًا يهيِّئهم للدّخول في زمرة المؤمنين الرّاسخين في الإيمان، وكَذَبوا في زعمهم كما قال اللّهُ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28].

دلالةُ التَّعبير بالجارّ ﴿مِنَ﴾:

ادّعاء كونِهم من زمرة المؤمنين، ادّعاءٌ ظرفيٌّ عابر

دلَّ التَّعبير بـ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، على أنَّ هؤلاء القوم لو حلَّ بهم العذابُ سيزعمون أنَّه لو جاءهم رسولٌ بآيات اللّه، سيكونون من جملة المؤمنين؛ فهم بعضٌ منهم في زعمهم.

دلالةُ التَّعبير بالاسميّة في السّياق:

بيانُ بُطلان زعمِهم رسوخَ الإيمان فيهم

دلَّ التَّعبيرُ بالاسميّة في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دونَ الفعليّة (آمَنوا)، على دعواهم تحقُّقَ الإيمانِ ورسوخَه في قلوبهم، كما هو في قلوب الفئة المؤمنة، والمعنى: نكون مِنَ المؤمنين المُصدِّقين بك، في

كلِّ ما أتى به رسولُكَ ﷺ تصديقًا بليغًا[1]، وهذا زعمٌ مكذوب، ما حملهم عليه إلّا خوفُهم وقتَ حلولِ العذاب، ونزولِ العقاب.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الإيمانُ من أعظم الغايات التّي تُطلب

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تعريفُ جنس، وقد دلَّ هذا التّعريف على تمكُّن الصِّفة في الموصوف، أي: أنَّ صفة الإيمان لو جاءهم الرّسولُ سترسخُ في قلوبهم، وتتحقَّق في نفوسهم.

دلالة حذف متعلَّق لفظ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

لا يُذْكَر المحذوفُ في التّركيب، لعمومه وللعِلْم به

حُذِف متعلَّق ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في الآية للعِلْم به؛ لأنَّه قد سبق ذكره في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾، ولإرادة العموم، أي: فنتَّبع آياتك بكلِّ ما فيها، منَ الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبكلِّ آية جاء بها النَّبيُّ ﷺ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّسولُ والنّبيّ:

كلّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا

الرّسول أخصُّ منَ النَّبيّ، لأنّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ من غير عكس، والرّسولُ الّذي معه كتابُ الانبياء، والنَّبيّ الّذي يُنَبّئ عنِ اللّه وإن لم يكن معه كتابٌ. والرّسول مَن بعثَه اللّهُ بشريعة جديدة يدعو النّاس إليها، والنَّبيُّ: مَن بعثه لتقرير شريعة سابقة. وذكروا أنّ الرّسول الّذي يظهر له المَلَكُ فيُكَلّمه، والنَّبيّ: هو الّذي يرى في منامه، وربما اجتمعت النّبوّة والرّسالة في واحد[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 307.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 532.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨﴾ [القصص: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـربـطُ بين طلبهمُ الرّسولَ ليؤمنوا، وكفرِهم به لمّا جاءهم

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة حجَّةَ مشركي العرب عند حلول المصائب بهم؛ وهي قولهم: هلّا أرسلتَ إلينا رسولًا فنتبعَ آياتِكَ ونؤمنَ بها، فأرسل اللّهُ إليهم رسولًا بآياته البيِّنات؛ بيَّن في هذه الآية أنَّهم لم يجدوا منَ المعاذير بعد إرسال الرّسول إليهم إلّا ما لقَّنهم اليهودُ، بقولهم: لولا أوتيَ مثلَ ما أوتيَ موسى، أي: بأن تكون آياتُه مثلَ آياتِ موسى التي يقصُّها عليهمُ اليهودُ، وقصَّ بعضَها القرآنُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِحۡرَانِ﴾: (سحر) السّحْر: يقال على معان؛ الأوَّل: الخِداع وقَلْبُ الحقائق، وهو التَّمويه وتخيُّل الشّيء بخلاف حقيقته[2]، وقيل: هو إخراجُ الباطلِ في صورة الحقِّ. وهو المراد في الآية. والثّاني: استجلابُ معاونةِ الشّيطان بضربٍ منَ التّقرّب إليه. الثّالث: ما يذهب إليه الأغتام، والغُتْمَة: عُجْمَةٌ في المنطق، ورجلٌ أغتَم: لا يُفْصِح شيئًا، وهو اسمٌ لفعلٍ يزعمون أنّه من قوَّته يُغيّر الصّورَ والطّبائعَ، فيجعلُ الإنسانَ حمارًا، ولا حقيقة لذلك عند المُحصِّلين، وقد تُصوِّر منَ السّحر تارةً حُسْنُه، فقيل: «إنَّ منَ البيان لَسِحرًا»[3]، وتارةً دقَّةُ فعله، حتّى قالتِ الأطبّاء: الطّبيعة ساحرةٌ، وسَمَّوا الغذاءَ سحرًا من حيثُ إنّه يَدُقُّ ويَلْطُف تأثيرُه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 137.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 272.
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4851).
(4) المفردات، الرّاغب: (سحر).

2) ﴿تَظَٰهَرَا﴾: (ظهر) أصل صحيح واحد يدلُّ على قوَّة وبروز، من ذلك: ظهر الشّيءُ يظهر ظهورًا، فهو ظاهر، إذا انكشف وبرز، ولذلك سُمّي وقتُ الظّهر والظّهيرة، وهو أظهرُ أوقات النّهار وأضوؤها، والأصل فيه كلّه ظهرُ الإنسان، وهو خلافُ بطنِه، وهو يجمع البروزَ والقوّة، والظّهير: البعيرُ القَويّ، والظّهير: المُعين، كأنَّه أسند ظهرَه إلى ظهرك[1]، يقال: ظاهرتُه: عاونتُه. وهذا المعنى هو المراد هنا، أي: تعاوَنا بتصديقِ كلٌّ واحدٍ منهُما الآخَرَ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

طلب الكفّارُ منَ الرّسول معجزةً كـمـعـجـزة موسى، وهم قد كانوا بها كافرين

بيَّنت هذه الآيةُ أنَّ أهل مكَّة لمّا أُرْسِل إليهم محمّد ﷺ، قالوا تمرّدًا: هلّا أوتيَ محمّدٌ مثلَ ما أوتيَ موسى بنُ عمران منَ الكتاب والمعجزات؟ كالعصا واليد، فأمر اللّه نبيّه ﷺ بالردِّ عليهم بقوله: قل يا محمّد لقومك من قريش، أوَلَمْ يكفر الّذين علموا هذه الحُجّةَ منَ اليهود بما أوتي موسى منْ قبلك[3]، وقالوا: ساحران تظّاهرا وتعاونا، وإنّا بكلٍّ كافرون.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التَّعبير بالفاء في: ﴿فَلَمَّا﴾:

الإفـصـاح عن الكلام المحذوف، معينٌ على فهم المقصود

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾، الفاء هنا فصيحة، أي: أفصحت عن كلام محذوف، تقديره: فإن كان من معذرتهم أن يقولوا ذلك، فقد أرسلنا رسولًا بالحقّ، فلمّا جاءهم الحقُّ لفّقوا المعاذير، وقالوا: لا نؤمن به حتى نُؤْتَى مثلَ ما أوتي موسى[4]. وممّا يُذْكَر في سِرِّ التَّعبير بالفاء: أنَّها تدلُّ على المبادرة إلى إنكار الحقِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 17.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 587.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 137.

لَمّا جاءهم، بلا مُهلة ولا تأمُّل في الآيات التي جاء بها الرّسول، وهذا يُؤكِّد إصرارَهم على الكفر والعناد.

دلالة التَّعبير بـ (لمَّا):

دلَّ التَّعبير بـ (لمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ على إنكارهم للحقِّ الَّذي جاء به الرّسول حين أعلمهم به دون نظر فيه؛ كأنَّهم لمّا أرسل اللهُ الرّسولَ إليهم عمدوا على وجه السّرعة إلى الإنكار والعناد.

اللهُ ﷻ يريد لعباده الهداية، ويرسل لهم البلاغ

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿جَآءَهُمُ﴾:

ورد فعلُ المجيء ماضيًا، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق الوقوع، كما أنَّه يُؤْذِن بسرعة الحدث؛ تعجيلًا بدعوتهم، ورغبةً في تحقُّق إيمانهم، وهذا يدلُّ على رحمة الله بعباده، رغمَ كفرِهم وعنادهم.

الإيذان بتحقّق الوقوع، وسرعةِ مجيء الحقّ

بلاغة المجاز العقليّ في مجيء الحقّ:

النّاظر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ يجد إسنادَ المجيء إلى الحقِّ، وهذا الإسناد هنا على طريقة المجاز العقليّ؛ لأنَّ الحقَّ يُؤتى به ولا يأتي بنفسه، ولهذا المجاز أثرٌ بلاغيٌّ في تقويّة المعنى، حيثُ جعل الحقَّ كأنّه شخصٌ يأتي بنفسه، وفي هذا دليلٌ على قوَّة الحقِّ ووضوحه، بحيثُ لا يخفي على ذي بصر وبصيرة[1].

أثّر المجازُ في تقوية المعنى، وإبرازِه لكلّ ذي بصيرة

دلالةُ التَّعريف في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ معرَّفًا بـ (أل) الدّالَّة على الجنس؛ لإفادة العموم فيما جاء به الرّسولُ ﷺ من القرآن والسّنّة والمعجزات، ولأنَّه في نفسه جدير بأن يُقْبَل؛ لكونه في الذّروة العليا من الثّبات. وفيه إشارةٌ إلى التّعريض بمشركي العرب الّذين خالفوا الحقَّ في أقوالهم وأفعالهم[2]، ويجوز أن تكون (أل) في لفظ الحقِّ

الإيمان بالنّبيّ المرْسَلِ، والقرآنِ المُنزَل، هما سبيلا الحقِّ المذكور

(1) الخفاجيّ، حاشية الشّهاب: 5/ 50.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 496.

للعهد، ويكون المُراد به هنا محمّدٌ ﷺ[1]، المُصَدَّقُ بالكتاب المُعجِز مع سائر المعجزات[2]، وقيل: الحقُّ هو القرآن[3]، ودلالةُ تعريفِه على كلِّ الاحتمالات الإشارةُ إلى أنَّ النَّبيّ ﷺ، وما جاء به من القرآن، هو الحقُّ الّذي يأخذ إلى الطّريق القويم، وليس هناك حقٌّ آخرُ يُعْدَل إليه.

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

اتّباع النّبيّ حقّ ثابِت، والعدولُ عنهُ باطلٌ ماقِت

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ دون غيره؛ لتعدُّد المراد به، فإذا كان المراد بالحقِّ النَّبيّ ﷺ، فيكون في الكلام مجازٌ عقليّ، ويكون النَّظم عبَّر عنِ النَّبيّ بالحقِّ، لإدماج الثّناء عليه في ضمن الكلام[4]، وفي هذا حضٌّ للنّاس على اتّباعه ﷺ؛ لأنَّ العدول عنه باطل ممقوت. وإن كان المراد به القرآن، فيكون في الكلام استعارة، بتشبيه الحقِّ بشخص، وتشبيه سماعه بمجيء الشّخص[5]، وهذه الاستعارة تنبئ عن قوّة حجَّة القرآن في أوامره ونواهيه.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِنۡ﴾ في السّياق:

بيان صدق النَّبيّ ﷺ، وصدقِ ما جاء به

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ ابتدائيَّةٌ، دلَّت على أنَّ هذا الحقَّ من عند الله ﷻ، فإذا كان كذلك فهو أحقُّ بالاتِّباع والامتثال.

دلالة التَّعبير بالعنديّة ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾:

ما صدر عنِ الله فهو حقٌّ صراح، لا يجوز مخالفته

دلَّ التَّعبير بالعنديَّة في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾، على تعظيم هذا الحقّ لظهوره في نفسه، فهو يحمل دليلَ أحقّيته، وفيه إشارةٌ إلى صدوره من الله تعالى، فهو حقٌّ صادر منَ الحقِّ سبحانه.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 587.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 605.
(3) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 144.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 137.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 137.

دلالة الإضافة في: ﴿عِندِنَا﴾:

إرسال الحقّ من لدن جهة معظّمة، يعطيه صدقيّةً وقوّة

أُضيف الظّرف (عِنْدِ) إلى الضّمير العائد إلى الله ﷻ، إضافةَ تعظيم، فجِهةُ إرسالِ النَّبيّ والقرآن جهةٌ مُعَظّمة، دالَّةٌ على صدق النَّبيّ ﷺ، وصدقِ ما جاء به، يقول البقاعيّ: "وهو ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ على ما لنا منَ العظَمة، وعلى لسانك، وأنت أعظم الخَلْق"(1).

دلالةُ التَّعبير بالقول، ومرجِعُ الضَّمير فيه:

بيانُ تعنّت المشركين وعنادِهم

دلَّ التَّعبيرُ بالقول في قوله: ﴿قَالُواْ﴾ على إظهار تعنُّت المشركين وعنادِهم، يُؤكِّد هذا أنَّ الضّمير يعود إلى كفّار قريش، وأنَّهم قالوا هذا القول تعنُّتًا وعنادًا، وأنَّهم ما طلبوا من النَّبيّ ﷺ هذه الآيات بدافع الإيمان، وإنَّما بدافع اللِّجاج المكذوب. وفي التَّعبير بضمير الجمع دلالةٌ على تعنُّتهم الجماعيِّ، وأنَّه ليس موقفًا فرديًّا، بل هو صفة المجتمع الكافر في التّعنُّت والمعاندة.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿جَآءَهُمُ﴾:

قلوب الكافرين بلغت في الكفر أقصاها، وفي الجحود منتهاها

ورد القول بصيغة الماضي في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ﴾، والماضي في أصل وضعه يدلُّ على حدث انتهى وتحقَّق حصولُه، وقد كشف هنا على أنَّ قلوبهم بلغت في الكفر منتهاها، وأنَّ نفوسهم انطوت على مكر بالغ، ودهاء ممقوت، فما أن جاءهم الرّسولُ ﷺ بالحقِّ الواضح، حتّى عجّلت نفوسُهم وألسنتُهم بهذا القول.

دلالة التَّعبير بـ ﴿لَوۡلَآ﴾:

المشركون غير صادقين فيما يطلبون

﴿لَوۡلَآ﴾ في قوله: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ بمعنى (هلّا) التّحضيضيَّة، والقوم غير صادقين في هذا التّحضيض، وإنَّما دافعُهم إلى هذا اللّجاجُ والحِجاج، ولو كانت قلوبُهم منطوية على الصّدق في الطّلب، لآمنوا به ﷺ ابتداءً، حين جاءهم بالحقِّ المبين.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 496.

دلالةُ التَّعبير بالإيتاء دون الإعطاء:

عبَّر القرآنُ الكريم بالإيتاء دونَ الإعطاء في قوله: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾؛ لوجود فرق بينهما، فالإيتاء يستعمل في القرآن الكريم للشّيء العظيم والكثير، كالمُلك والحِكمة والقرآن العظيم، بخلاف الإعطاء، فلا يؤدّي هذا المعنى إلّا إذا كان مضافًا إلى لفظ (الرّبّ)، ولمّا كان الإيتاءُ يحمل هذه المعاني السّابقة، آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ به؛ لأنَّه المناسبُ في هذا السّياق لِما آتاه اللّهُ لموسى منَ التّوراة والمعجزات، ولِما يطلبونه في حقِّ الرّسول ﷺ في هذا الإطار منَ القرآن والمعجزات. وفي التَّعبير به دلالةٌ على أنّ ما يُؤْتاه النَّبيُّ منَ الآيات، ليس فيه معنى التَّملُّك والاختصاص، وإنَّما تعود فوائده على النَّبيّ ﷺ وعلى أمَّته، أمّا الإعطاء ففيه معنى التَّملُّك والاختصاص[1]، وهذا غير مناسب لهذا السّياق الَّذي يحمل الدّعوة إلى الهداية.

التّنويه بعِظَم المُـؤتى، وعُـلوّ قدرِه، مُبينٌ عنِ المراد

دلالةُ بناء الفعل ﴿أُوتِيَ﴾ للمفعول:

بُنيَ الفعلُ ﴿أُوتِيَ﴾ للمفعول؛ لأنَّ القصد مطلقُ الإيتاء الّذي يترتّب عليه مقصودُ الرّسالة، مع أنَّ المُؤتي معلوم[2]، وهو اللّهُ ﷻ.

بلاغةُ الاستفهام في الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، وفيه أنّ الاستفهام هنا أفاد معنى التّقرير لكفرهم وكفرِ آبائهم بموسى عليه السلام، ومذهبُ الأبناء مذهبُ الآباء، فما طلبَه المشركون منَ النَّبيّ منشؤه الكفرُ والعناد، لا التماسُ الهداية والرّشاد، ولذلك سجَّل القرآن عليهم هذا الكفرَ الرّاسخَ، وقرَّره لهم، وفيه معنى الإنكارِ والتّوبيخ على خُبث قصدهم، وسوء مَكْرهم.

تقرير الكفر للمشركين وتوبيخُهم عليه موضحٌ للمُراد

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 497.

دلالة التَّعبير بحرف (الواو):

الواو في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ﴾ عاطفةٌ على مقدَّر يقتضيه السّياق، والتّقدير: (أوَلَم يُؤتَ موسى ما أوتي منَ الآيات، ولم يكفر قومُه المعاندون كهؤلاء؟)[1] أي: أصَدَّقوا ولم يكفروا[2].

دلالة دخول الاستفهام على (لَمْ):

إلجاءُ المخاطَبِ إلى الإقرار بما يعرفه، من بليغ السّياق

دلَّ دخول الاستفهام على (لَمْ) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ﴾ على إثبات الكفر لهم؛ لأنّه إذا دخلت الهمزة على (لم) و(لمّا)، فهي للاستفهام على سبيل التّقرير، ومعنى التّقرير: إلجاءُ المخاطَب إلى الإقرار بأمر يعرفه[3].

اختيارُ التَّعبير بلفظ (الكفر) لا غيرِه:

أعظم الكُفرِ جحودُ الوحدانيّة أو الشّريعة أو النّبوّة

عبّر النَّظمُ الحكيم بالكفر دون غيره في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّ الكفر يكشف عن مدى الجُحود، وبالغِ النُّكران الذي وصل إليه هؤلاء، لأنَّهم عرفوا الحقَّ وتبيّنوا معالمَ الهداية، إلّا أنَّهم من شِدَّة جحودهم ستروه وكفروه، فكان الأنسبُ أن يُعبّر عنهم بلفظ الكفر، لأنَّ الكُفْر في اللّغة: السّترُ والتّغطية[4].

دلالة التَّعبير بالإضمار دونَ الإظهار:

من نسب إلى أحدٍ منَ الأنبياء ما لا يليق، فكأنّما نسبَه لجميعهم

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالإضمار في ﴿يَكۡفُرُواْ﴾ دون الإظهار؛ للدَّلالة على تعدُّد المراد به؛ فذهب البعض: إلى أنَّ الضّمير لليهود. وقيل: المُراد به مشركو العرب. والظّاهرُ عودُه على قريش؛ لأنَّ السّياق يُدلُّ على ذلك، وتناسقَ الضّمائرِ دليلٌ عليه[5]، ويكون تكذيبُ قريشٍ للرّسول ﷺ، تكذيبًا لموسى ﵇، ونسبةُ السّحرِ للرّسول، نسبةَ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 74.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 268.
(3) الرّضي، شرح الكافية: 2/ 251.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 138.

السّحر لموسى، فمَن نسب إلى أحد منَ الأنبياء ما لا يليق، كان ناسبًا ذلك إلى جميع الأنبياء.

سِرّ التَّعبير بـ (ما) دون (الَّذي):

آثَرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ (ما)، في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ دونَ (الَّذي)؛ لإفادة العموم في كفرهم، فهم كفروا بالتّوراة والمعجزات، وبكلِّ ما آتاه اللّهُ لموسى من أمر الشّريعة أو النّبوّة.

كفرُ هؤلاء كان عامًّا لكلّ ما أنزل اللهُ من معجزات ووحيٍ

دلالة تكرار ﴿بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾:

كرَّر النَّظمُ الكريم قولَه: ﴿بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، ولم يكتف بسبق ذِكْره في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾؛ لتسجيل عنادِهم والقطعِ لمعاذيرهم؛ لأنَّهم على عِلْم بما أوتيَ موسى من التّوراة ومنَ المعجزات، ومع ذلك فقد كفروا بها، فكان التّكرارُ لإقامة الحُجَّة عليهم بإثبات كفرهم لِما طالبوا به من معجزات.

بيان أنّ التّكرار لإقامة الحُجَّة عليهم بإثبات كفرهم

دلالةُ متعلّق الجارّ والمجرور: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾:

تعدَّدُ القولِ في تعلُّق الجارِّ والمجرور ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ بناءً على المراد بالضّمير في قوله: ﴿يَكۡفُرُواْ﴾؛ فمَن ذهب إلى أنَّ المراد به الكَفَرةُ في زمن موسى عليه السلام من بني إسرائيل؛ فيتعلّق ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ بـ ﴿يَكۡفُرُواْ﴾، لا بقوله: ﴿أُوتِيَ﴾؛ لأنَّ موسى عليه السلام ما أوتيَ الكتابَ من قبلهم، وإنّما وُبِّخَ الحاضرون في زمن سيّدنا محمّد صلوات اللّهِ عليه به؛ لأنّهم أبناء جنسهم في العناد. وإمّا لآباء الكفرةِ الحاضرين، ويكون توبيخُهم كما وُبِّخوا في قوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢﴾ [البقرة: 92]. وجَوّزَ بعضُهم أنّ قوله: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ متعلّقة بـ﴿أُوتِيَ﴾، فيكون المعنى: أنَّ أهل مكَّة هم الذين قالوا هذه المقالة، فكما كفروا بمحمّد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن، فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتّوراة، وقالوا في موسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام:

إيغالُ المشركين في الكفر جحودًا واستكبارًا

﴿سَٰحِرَانِ تَظَٰهَرَا﴾[1]، أو في الكتابَين: ﴿سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، وذلك حين بَعَثوا الرّهطَ إلى رؤساء اليهود بالمدينة، يسألونهم عن محمّد ﷺ، فأخبروهم أنَّ نعتَه في كتابهم، فرجع الرّهطُ إلى قريشٍ فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: (ساحِران تظاهَرا)[2].

بلاغةُ الفصل في: ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ﴾:

تقرير كفر أهل الكفر، وبيانُ كيفيّته

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئناف مسوق لتقرير كفرهمُ المستفادِ منَ الإنكار السّابق وبيانِ كيفيّته[3]، وعلى هذا يكون بينَ الجُملتين شِبهُ كمال اتِّصال، كأنَّ سائلًا لمّا سمع قولَه: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾، سأل: ما نوعُ هذا الكفرِ؟ وما كيفيّته؟ فكان الجواب: قالوا سحران تظاهرا.

ويجوز أن تكون جملة ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ﴾ مفسِّرةً[4]، أي: وقعت بيانًا لجملة ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ﴾ ففسَّرت نوعَ الكفرِ وفصَّلته، وبيَّنت حقيقتَه، وعلى هذا يكون بينَ الجُملتين كمالُ اتِّصال.

سِرُّ ورود التَّعبير بالسِّحر في ردِّهم:

التّهمة بالسّحر إبطالٌ زائف لدعوة النّبيّ ﷺ

لعلَّ ورود التَّعبير بلفظ السِّحر في رد المشركين في قولهم: ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ﴾، كان راجعًا إلى أنَّ غاية ما اتَّفقوا عليه لإبطال دعوة النَّبيّ ﷺ، هو أن يتّهموه بالسِّحر، بعد أن تحقَّق لديهم، أنَّ أسلوب القرآن الكريم بعيدٌ عن الكهانة والشّعر، فقالوا: ساحِرٌ يفرّق بين المَرء وزوجِه.

سِرُّ وصفهم موسى عليه السلام بالسّحر:

التّهمة بما ليس بحقّ، منَ السّفه والنّزق

وصف المشركون - سواء أكانوا اليهود أو مشركو مكَّة - موسى عليه السلام بالسِّحر في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ﴾، لمّا رأوا - من قصر

(1) قرأ بها نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، يُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/ 341.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 420.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 298.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 348.

نظرهم، وغباء عقولهم - شبهًا بين معجزة العصا وقَلْبِها حيَّةً، وبينَ السِّحر.

دلالة تعدّد القراءات الواردة في ﴿سِحۡرَانِ﴾:

محاربة المشركين للأنبياء وللوحي

قرأ الجمهور: ﴿سَٰحِرَانِ﴾، والمراد بهما في زعم المشركين، موسى وهارون، وقالوا: المُراد موسى وعيسى، وقالوا: موسى ومحمّد، أو عيسى ومحمّد صلّى اللّه وسلّم عليهم جميعًا. وقرأ الكوفيون ﴿سِحۡرَانِ﴾ والمراد: التّوراة والإنجيل، أو موسى وهارون، جُعلا سِحرين على سبيل المبالغة[1]، وحاشا أنبياء اللّه أن يكونوا كذلك، لكنَّ الكفر والعناد يفعلان في القلب الأفاعيل، والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى للارتباط بينَ السِّحر والسّاحر، وذلك لشدَّة الاتِّصال بين الرّسل وكتبهم.

إيثارُ التَّعبير بـ ﴿تَظَٰهَرَا﴾ دون (تعاونا):

التّظاهر أقوى اتّحادًا وأعظمُ تآزُرًا

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالتّظاهر دونَ التّعاون في قوله: ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، مع قربهما في المعنى؛ ليُبيِّن قوَّةَ الإنكار منَ المشركين، حين رَمَوا النَّبيّيْن الكريمين بقوَّة السّحر، وأنَّهما بلغا منَ التّساند والتّعاضُد والتّآزر مبلغًا كبيرًا، تكشِف عنه اشتقاقاتُ وموادُّ لفظةِ التّظاهر، فمنه: الظّهْر، خلافُ البَطْن، وهو صلب الإنسان وقوّتُه، وكَذَلِكَ الظَّهْر من الأَرْض: ما غَلُظ وارتفَع، والظّهْر: الرِّكاب الَّتي تحمِل الأثقالَ في السَّفَر، والظُّهْر: ساعةُ الزَّوال، ولِذَلِك يُقال: صَلاةُ الظُّهر، وهو أقوى وأوضحُ أوقاتِ النّهار، فلمّا كان التّظاهُر يُلَمِّحُ فيه معنى القوّة، آثرَه النَّظمُ الكريم.

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾:

ما يختلج في الجَنان، يكشفه اللّسان

عُطِفَتْ جملة ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾، على الجملة التي قبلها: ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾؛ لاشتراكهما في معنى الجحود والتّكذيب

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 420، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 312، وابن الجزري، النشر: 2/ 341.

والنُّكران، وهما جملتان خبريَّتان في اللّفظ والمعنى، فبينهما توسُّط بينَ الكمالين، وهذا العطفُ كشفَ عن منتهى الكفرِ الذي امتلأت به قلوبُهم، وماجت به نفوسُهم، فسالَ على ألسنتهم إنكارًا وتكذيبًا.

بلاغةُ التَّوكيد في الآية:

مُفادُ السّياقِ أنّ الكفرَ نابعٌ من قلوبهم

دلَّ التَّأكيد في قوله: ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَٰفِرُونَ﴾، على مبالغتهم في الجُحود والكفر المفهوم من تسميَّتهما للنَّبيَّين الكريمَين بالسّاحِرَين، ولوصفهما القرآنَ والتّوراةَ بالسِّحرَين، فكأنّهم يقولون: مهما كانت الآياتُ والأدلّةُ والبراهين والمعجزات التّي أتى بها النّبيُّ ﷺ، والّتي سيأتي بها، فلن نؤمنَ به، ولن نُذْعِنَ له.

دلالة الباء ولفظ (كلّ):

إنكار المشركين رسالاتِ جميع الأنبياء، منَ الضّلال المبين

الباء في قوله: ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَٰفِرُونَ﴾ للتّعدية، عَدّتْ فعلَ الكفرِ إلى لفظ العموم، والتّقدير: (إنّا كافِرونَ بكلٍّ منَ السّاحرَين أو السِّحرَين)[1]، أو بالتّوراة والقرآن[2]، أو كافرون بكلٍّ مَن ادَّعى رسالةً، وهو أنسب بقول قريش؛ لأنَّهم قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٍ﴾ [الأنعام: 91][3]، وقد دلَّ لفظُ العموم على أنَّ قلوب المشركين فاضت بالكفر، فأنكرت رسالاتِ الأنبياء جُحودًا وإلحادًا.

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

بيانُ أنّ الكفر في المشركين صفةٌ لازمةٌ لهم

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قولهم: ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَٰفِرُونَ﴾، دونَ التَّعبير بالجملة الفعليّة، فيقال مثلًا: (قالوا كفرنا بموسى ومحمّد، أو كفرنا بالتّوراة والقرآن)؛ دلالةً على ثبوت الكُفر ورسوخِه في قلوب المشركين، وأنَّ هذا الكفرَ صار لهم صفةً، لا تفارقهم ولا يفارقونها.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 312.
(2) الفيروزآباديّ، تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس، ص: 328.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 138.

دلالةُ تقديمِ متعلَّق قوله: ﴿كَٰفِرُونَ﴾:

النَّظم العالي يُقدّم الأهمّ؛ لبيان المعنى وجلائِه

تقدَّمَ متعلَّقُ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ عليه، وهو الجارُّ والمجرور ﴿بِكُلّٖ﴾؛ مبالغةً منَ المشركين في إثبات جحودهم وكفرهم بالأنبياء والرّسالات كلِّها، وبالآيات والمعجزات جميعها، مع ما في تقديم الجارِّ والمجرور من مراعاة فواصل الآيات.

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٩﴾ [القصص: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إبطالُ حُججِ المشركين وإثباتُ صدقِ النَّبيّ الأمين

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة اتّهامَ المشركين لموسى ومحمّدٍ عليهما الصَّلاةُ والسَّلام بأنّهما ساحِران؛ جاءت هذه الآياتُ ردًّا لشُبَهِهم، فَذَكرت الحُجَّة الدّالَّة على صِدق محمّد ﷺ، فقال: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡدَىٰ﴾: (هدى) أصلٌ يدلُّ على التّقدّم للإرشاد. وهَدَيتُه الطّريق هدايةً، أي: تقدَّمْتُه لأُرْشِدَه، والهُدَى: خِلاف الضّلالة[2]. وهذا المعنى هو المراد بتلك اللّفظة في هذا السّياق.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تعجيزُ المشركين، وتسجيلُ سفَهِهم وضلالِهم المبين

أمر اللّه نبيَّه أن يقول لكفّار مكّة: ائتوا بكتاب أهدى منَ التّوراة والقرآن، أتَّبعه إن كنتم صادقين في قولكم أنَّهما ساحِران، وهذا الأمرُ من باب التّعجيز وقطعِ الحُجج عنهم؛ لأنّهم لا يستطيعون فعلَ ذلك.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرّ فصلِ قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ﴾ عمّا سبق:

أهمّيّةُ تلقين الله الجواب للنّبيّ ﷺ

فُصِلَت هذه الجملةُ عن قوله: ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾؛ لِما بينهما من شِبه كمالِ الاتّصال، حيثُ أثارت جملة الاتّهام سؤالًا في النّفس، يمكن تقديره: بماذا ردَّ عليهم النَّبيُّ ﷺ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 606.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدى).

أو ماذا قال لهم؟ فكان الجواب: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾.

بلاغة التَّعبير بالأمر بالقول:

إلـزام المشركين بـالإتـيـان بما يؤكّد زعمهم

دلَّ التَّعبيرُ بالأمر بالقول في قوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾ على نبوَّته ﷺ، وأنَّه مبلِّغٌ عن اللّه، وفيه إعلانٌ بإلزام المشركين بإتيان ما يُؤكِّد قولَهم في أنَّ الرّسول ﷺ ساحر، وكتابَه سحرٌ[1]. وممّا يُذْكر في سِرّ التَّعبير بالأمر بالقول أنّه بُطلانٌ لتقوّلهم واتهاماتِهم الكاذبةِ للرّسول ﷺ، ولكتابه المُنزل عليه.

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَأۡتُواْ﴾:

إفحامُ المشركين وفـضـحُـهـم أمامَ أنفسِهم، تقريعًا لهم

الفاء في قوله: ﴿فَأۡتُواْ﴾ فصيحةٌ، تُفْصِح عن شرطٍ محذوف مفهوم من كلام المشركين، في رميهم محمّدًا وموسى عليهما الصّلاة والسّلام بالسّحر، وإقرارِ كفرهم بهما، وهذا الشّرط المحذوف يمكن تقديره: فإن كان الأمرُ كما تدَّعون منَ السّحر والتّكذيب بالنّبوَّة؛ فأتوا بكتاب من عند اللّه.

بلاغةُ الأمر في قوله: ﴿فَأۡتُواْ﴾:

إسـكـاتُ المـعـانـديـن وإفـحـامُـهـم، مـنـهـجٌ في الحِجاج مألوفٌ

الأمر في قوله: ﴿فَأۡتُواْ﴾ أفاد معنى التّعجيز لمشركي العرب، فليس في مقدور المشركين أن يأتوا بكتاب من عند اللّه أهدى منَ التّوراة والقرآن، ولعلَّ إسكاتَهم وإفحامَهم بهذا الأسلوب التّعجيزيِّ، يجعلهم يعودون إلى رُشدهم. وفيه أيضًا دلالةٌ على التّهوين من أمرهم؛ لأنَّهم في موضع المأمور بالإتيان، ومع ذلك لا يستطيعون، فيكون ذلك تبكيتًا على تبكيت.

دلالةُ التَّعبير بالباء في: ﴿بِكِتَٰبٖ﴾:

تعجيزُ المشركين وتفنيدُ مزاعِمِهم

دلَّتِ الباءُ في قوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ﴾ بمعانيها المتعدِّدة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 498.

منَ الملابسة واللّصوق والتّعدية، على دعوة المشركين وتحدّيهم وتعجيزهم بأن يأتوا بكتاب من عند اللّه، مستصحبين إيّاه، يكون أفضلَ منَ التّوراة والقرآن.

دلالةُ وصفِ الكتاب بكونه من عند الله:

الثّناءُ والمَدح للقرآن والتّوراة، باعتبارهما وحيَ الله

دلَّ الوصف بـ ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على مدح القرآن والتّوراة بأنَّهما كتابان من عند اللّه ﷻ[1]، وما دام مصدرُ الكتابين من عند اللّه، فلا يشكُّ عاقلٌ، أو ينكر منكرٌ، أنَّ سيّدنا محمّدًا وسيّدنا موسى صلوات اللّهِ وسلامُه عليهما نبيّان مُرسلان منَ اللّه ﷻ، وأنَّ وصفَ المشركين لهما بالسّحر ما هو إلّا محض افتراء.

دلالة الإتيان بالضّمير ﴿هُوَ﴾:

تأكيد عجز المشركين عنِ الإتيان بما يُشبه الوحيَ المبين

في الإتيان بالضّمير ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾ - وكان في الظّاهر جواز الاستغناء عنه - تحديدٌ دقيق، واهتمامٌ بهذا الكتاب الموصوف بكونه من عند اللّه، أن يكون أهدى منَ القرآن والتّوراة، فإذا استحال على المشركين الإتيانُ بهذا الكتاب، كان هذا تفنيدًا لزعمهم الفاسد، وإبطالًا لرأيهم الكاسد، وفيه تنبيهٌ على عجزهم عنِ الإتيان بمثله[2].

دلالةُ التّعبير بصيغة التّفضيل ﴿أَهۡدَىٰ﴾:

تفنيدُ مزاعم المشركين وإبطالُ حُجَجِهم

آثرَ السّياقُ صيغةَ التّفضيل ﴿أَهۡدَىٰ﴾، دونَ أن يقول مثلًا: (فَأْتوا بِكِتابٍ هادٍ)؛ لأنّ في صياغة التّفضيل إسكاتًا وإفحامًا عظيمًا للمشركين، لأنَّهم لا يستطيعون أن يأتوا بكتاب يماثل القرآنَ والتّوراةَ في الهداية، فهم عن هذا الأمر عاجزون، فلا شكَّ أنَّهم أشدُّ عجزًا عن أن يأتوا بكتابٍ أهدى منهما، وهذا ضربٌ لمزاعمهم، وردٌّ لطعونهم في النَّبيَّين الكريمين محمّدٍ وموسى عليهما الصّلاة والسّلام، وإبطالٌ لرأيهم في القرآن والتّوراة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 139.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 606.

إثبات عجز المشركين عن الإتيان بكتاب سماويّ

بلاغة التَّعبير بفعل الاتّباع:

في التَّعبير بفعل الاتِّباع إيماءٌ إلى سُرعة الانقياد والاستجابة، لأنَّ في الاتِّباع معنى: التُّلوِّ والقفْو. يُقالُ: تَبِعْتُ فُلانًا إذا تَلَوْتَهُ[1]. وهذا مبالغةٌ في التّعجيز؛ لأنَّ النَّبيّ ﷺ يعلم أنَّه ليس في مقدورهم فعل ذلك، "لأنَّه إذا وعدهم بأن يتَّبع ما يأتون به، فهو يتَّبعهم أنفسَهم، وذلك ممّا يوفّر دواعيَهم على محاولة الإتيان بكتاب أهدى من كتابه لو استطاعوه، فإن لم يفعلوا فقد حقَّ عليهم الحقُّ، ووجبت عليهم المغلوبيَّةُ، فكان ذلك أدلَّ على عجزهم عنِ الإتيان بمثله، وأثبتَ في إعجاز القرآن"[2].

تأكيد تأصّل الكذب في المشركين

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿كُنتُمۡ﴾:

دلّ التَّعبيرُ بفعل الكينونة ﴿كُنتُمۡ﴾ وهي للماضي على تأكيد وإثبات عدم صدقِ المشركين في زعمهم أنَّ هَذَين الكتابَين سِحْران، وأنَّ الحقَّ في غيرهما[3]، وأنَّهما كانا ساحِرَين[4]. وفي التَّعبير به دلالةٌ على أنَّ الكذب فيهم متأصِّل، وأنَّه وقع منهم وتحقّقَ ذلك المسلكُ في عنادهم للرّسل في دعواتهم.

الثّبوت أقوى في إظهار كذب المشركين

إيثارُ التَّعبير بالاسميّة في ﴿صَٰدِقِينَ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالاسميّة ﴿صَٰدِقِينَ﴾، دون الفعليّة (صَدَقْتُمْ)؛ لأنَّ من طبيعة الاسم الدّلالة على اللّزوم والثّبوت، وصدقُ المشركين في رمي محمّد وموسى صلواتُ اللّه وسلامُه عليهما بالسّحر غيرُ واقع، فهم في هذا الرّمي مفترون ومختلقون؛ لذلك كان التَّعبير بالاسميّة في لفظ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ أكثرَ إفحامًا لهم، وأظهرَ لكذبهم، ويكون المعنى: إن كنتم صاقين في زعمكم، وكان الصّدق

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 140.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 271.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 612.

ملازمًا لكم، وثابتًا في أقوالكم، فأتوا بكتاب من عند اللّه أهدى منَ القرآن والتّوراة، ولن يأتوا به، فكان التَّعبير بالاسميّة أكشفَ لحالهم، وأفضحَ لنفوسهم.

دلالة حذف متعلّق ﴿صَٰدِقِينَ﴾:

تنزيه النَّبيَّين عن وصفهما بالسّحر

حُذِفَ متعلّق ﴿صَٰدِقِينَ﴾، والتّقدير: (إن كنتم صادقين أنَّ موسى ومحمّدًا ساحران)[1]، وهذا التّقدير مفهوم من السّياق، وحذف للعِلْم به، وقد سبق ذِكْره في قول المشركين: ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾.

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 612.

﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القصص: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرّبـط بين تـحـدّيـهـم وعـجـزهـم عن الإتـيـان بكتاب أهدى

لّما ذكرتِ الآيةُ السّابقة أنَّ الرّسول ﷺ، قال لكفّار قريشٍ متحدّيًا: هاتوا كتابًا منزلًا من عند الله، أكثرَ هداية للخلق منهما، فأعملُ به؛ جاءت هذه الآيةُ ببيان السّبب لعجزهم عن الإتيان بهذا الكتاب، بأنَّهم يُؤثرون أهواءهم وما تستحسنه نفوسُهم، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾: (جوب) أصل واحد يدلُّ على خَرْق الشّيء، يقال: جبتُ الأرضَ جوبًا، وهو غير مراد هنا. وقد تستعمل تلك المادَّة في مراجعة الكلام[1]، ومنه الاستجابة، وهي التحرّي للجواب والتّهيُّؤ له، لكن عُبِّرَ به عن الإجابة لقلَّة انفكاكها منها، والجواب يقال في مطابقة السّؤال[2]. والإجابة والاستجابة بمعنًى واحد، يقال: استجاب اللّهُ دعاءه[3]؛ أي: حقَّق مطلوبَه. وهذا هو المعنى المقصود في الآية.

2) ﴿أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾: (هوي) أصل صحيح يدلُّ على خلوٍّ وسقوط، والهوى: ميل النّفس إلى الشّهوة، ويقال ذلك للنّفس المائلة إلى الشّهوة، وقيل: سُمّيَ بذلك لأنَّه يهوى بصاحبه في الدّنيا إلى كلِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوب).
(2) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جوب).

داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، وسمّيَ بذلك لأنَّه خالٍ من كلِّ خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي(1).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الله لرسوله ﷺ: فإن لم يأتوا بمثل التّوراة والقرآن، فاعلم أنّهم يتّبعون في عقائدهم الباطلة أهواءَهم، وأنَّ ما ركبوه من الكفر لا حُجَّة لهم فيه، وإنَّما آثروا فيه الهوى، وليس هناك أحدٌ أضلَّ ممَّن اتَّبع هواه بغير رشاد ولا بيان من الله(2).

عجزُهم عن الإتيان بمثل التّوراة والإنجيل سببُه الهوى وانعدامُ الدّليل

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة العطف بالفاء في السّياق:

جملة ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ﴾ معطوفة على ما قبلها، وهي قوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾، ودلالةُ العطف إظهارُ عجزِهم أمامَ أنفسهم، وبيانُ أنَّه ما دفعهم إلى هذا التّخرّص في حقِّ النَّبيَّين الكريمَين إلّا اتّباعُ الهوى، فيكون المعنى: فإن لم يستجيبوا لدعوتك، أي: إلى الدّين بعد قيام الحُجَّة عليهم بهذا التّحدّي، فاعلم أنَّ استمرارهم على الكفر بعد ذلك ما هو إلّا إتّباعٌ للهوى، ولا شبهةَ لهم في دينهم(3).

التّأكيد على ضلال المشركين وانقيادهم لأهوائهم

دلالة (إنْ) في ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ﴾:

(إن) في قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ﴾ شرطيّة تحتاج إلى جواب، وجوابها: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾، و﴿لَّمۡ﴾ حرف نفي وجزم وقلب، نفي: لأنّها تنفي فعلَ الاستجابة، وجزم: لأنَّها جزمت المضارعَ بعدَها، وقلبٌ: لأنّها تقلب زمنَ المضارع إلى زمنِ المضيِّ، وهذا التَّعبير يؤكِّد عدمَ استجابتِهم، وعجزَهم عن تنفيذ المطلوب في الماضي والحال والاستقبال.

عجزُ المشركين عنِ الإتيان بكتاب، دليلُ زيفِ عقيدتهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هوى).
(2) السّمرقندي، بحر العلوم: 3/ 402.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 139.

دلالة التَّعبير بنفي الاستجابة:

بيانُ أنّ عجز المشركين عن المطلوب، يُنبئ عن تهافت أباطيلهم

المقصود من نفي الاستجابة في قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ﴾ هو عدم الإتيان بما طلبه منهم النَّبيُّ ﷺ، منَ الإتيان بكتاب من عند اللّه أهدى من التّوراة والقرآن[1]؛ لأنَّه ليس في مقدورهم فعلُ ذلك، ويكونون قد ألزموا أنفسَهم الحُجَّة، ولم يبقَ لهم العذرُ إلى اتِّباع الهوى[2].

سِرُّ التَّعبير بالفعل المزيد ﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

الاستجابة خاصَّة بتحصيل المطلوب، وهي تعمُّ الجواب بتحصيله أو دونه

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل ﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾ دون (يُجيبوا)؛ لأنَّ الاستجابة خاصَّة بتحصيل المطلوب، والإجابة بمعنى إعطاء الجواب؛ فتعمُّ الجواب بتحصيله أو دونه، ويكون المعنى: فإن لم يستجيبوا في تحصيل المطلوب في الإتيان بكتاب أهدى من التّوراة والقرآن، ولأنَّ التَّعبير بالاستجابة يدلُّ على إعطاء عين المطلوب، بخلاف الإجابة فإنّها أعمُّ منها؛ لذلك اختير التَّعبير بها[3].

سِرُّ تعديةِ الاستجابة باللّام:

الاستجابة هنا بمعنى الطّاعة؛ لأنّ فاعلها غيرُ اللّه تعالى

ورد فعلُ الاستجابة متعدّيًا باللّام في مواطن عديدة من القرآن الكريم، ومنها هذا الموضع ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ﴾؛ لأنَّ هذا الفعل مرَّةً يتعدَّى بنفسه إلى الدّعاء، ومرَّةً إلى الدّاعي باللّام، ويحذف الدّعاء إذا عُدّي إلى الدّاعي في الغالب، فيقال: استجاب اللّهُ دعاءه أو استجاب له، ولا يكاد يقال استجاب له دعاءه، ويكون معنى الاستجابة إذا كان فاعلُها اللّه تعالى الإجابةَ والتّحقيق، وإذا كان فاعلُها غير اللّه كان المراد الطّاعة، وهذا هو المناسب في هذا السّياق، بأنَّ كفّار قريش لم يطيعوا أوامرَ اللّه ورسوله[4].

---

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 538.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 420.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 538.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 77.

دلالة حذف متعلّق ﴿لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

الإبانة عن كون عدم الاستجابة فيما تُحُدّوا به، كان ديدنَهم على الدّوام

حُذِفَ متعلّق الفعل ﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ﴾؛ لدلالة السّياق عليه، والتّقدير: (فإن لم يستجيبوا لك في الإتيان بكتابٍ أهدى من التّوراة والإنجيل)، وللإشارة إلى أنَّ عدم الاستجابة فيما تُحدّوا به طبيعةٌ متأصّلة فيهم، وآياتُ القرآن الّتي تحدّتهم في هذا المعنى كثيرةٌ.

دلالة التَّعبير بـ (الفاء) في السّياق:

بيان أنّ نفي الاستجابة دالٌّ على العجز واتِّباع الهوى

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ واقعة في جواب الشّرط، وفائدتها ربطُ جملة الجواب ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾، بجملة الشّرط ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ﴾[1]؛ وذلك لدلالتها على التّرتيب والسّببية، فيترتَّب على نفي الاستجابة إثباتُ عجزهم واتّباع أهوائهم.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾:

إعلامُ اللهِ نبيَّه الأمين بحقيقة المشركين

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ العِلْم دون غيره في قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾؛ لإيقاف النَّبيّ ﷺ على حقيقة هؤلاء المشركين، إيقافًا مبنيًّا على ثقة وجزم، وإدراك واعتقاد بأنَّ أهواءهم هي التي تقودهم، فالعِلْم إدراكُ الشّيء بحقيقته[2]، واعتقادُ الشّيء على ما هو به على سبيل الثّقة[3]. وفيه دلالةٌ على أنَّ حكم اللّه عليهم باتّباع الأهواء مبنيٌّ على الجزم واليقين وليس على الشَّكِّ.

بلاغة أسلوب القصر:

المشركون لا يتّبعون إلّا أهواءهم

في قوله: ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ قصرٌ، وطريقُ القصر هو التَّعبير بـ ﴿أَنَّمَا﴾ مفتوحة الهمزة، وفتحُ الهمزة وكسرُها سواء في إفادة القصر، فالنَّظم الحكيم قصرَ اتَّباعَ المشركين على أهوائهم

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 348، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 269.

(2) الرّاغب، المفردات: (علم).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 95.

قصرَ صفةٍ على موصوف. وبلاغةُ القصر هنا هي تعرية المشركين وفضحُهم، وكشفُ حقيقة قلوبِهم المنكرة، وعقولِهم المُتَحَجِّرة، وأنّهم أسلموا ذِمام عقولهم إلى أهوائهم الجامحة، وشهواتهم الطّامحة، ونكبوا عن طريق القصد والسّداد.

سِرُّ التَّعبير بالاتِّباع دونَ غيره:

الكشفُ عن رعونة المشركين وسوءِ طواياهم

آثَرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالاتّباع دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على الانقياد والموالاة والاحتذاء، يقال: تبعتُ فلانًا، إذا تلوته[1] وقفوت أثرَه، وذلك تارةً بالجسم، وتارةً بالائتمار[2]، وهو يدلُّ على الإذعان المطلق، والانقيادِ البالغ لأهوائهم الرّعناء.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَتَّبِعُونَ﴾:

إيغالُ المشركين في الضَّلال واتِّباع الهوى

آثرَ القرآن التَّعبيرَ بالمضارع في قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على استحضارٍ لتلك الصّور العجيبة، صورةِ هوًى مشخَّصٍ، يتَّبعُه صاحبُه وينقادُ له، والهوى المُتَّبَع من الثّلاثة المُهلكات، كما قال النَّبيّ ﷺ[3]، فالمضارعُ يكشف عن تفاهة عقول المشركين، وضحالةِ تفكيرهم، وتعطيلِ عقولهم.

سِرُّ التَّعبير بالجمع ﴿أَهْوَآءَهُمْۚ﴾:

بيان أنّ أهواء المشركين تتنوّع وتتجدّد بلا نهاية

آثَرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالجمع ﴿أَهْوَآءَهُمْۚ﴾ دون المفرد؛ تنبيهًا على أنَّ لكلِّ واحد من هؤلاء المشركين هوًى غيرَ هوى الآخر، وأنَّ هوى كلِّ واحدٍ منهم لا يتناهى، وللإشارة إلى أنَّ أهواءهم متفرِّقةٌ غيرُ مجتمعة، وهذا شأن أهل الباطل في كلِّ زمان ومكان.

بلاغة الاستفهام في: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾:

الاستفهام في قوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، يفيد المبالغة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).
(2) الرّاغب، المفردات: (تبع).
(3) المناويّ، فيض القدير شرح الجامع الصّغير، برقم: (5350).

في النّفي، والمعنى: ليس هناك أضلَّ من الذي يتَّبع هواه، وفي هذا الاستفهام كذلك معنى الإنكار على هؤلاء الذين يتَّخذون إلاهَهُم هواهم، فالتَّعبيرُ بالاستفهام ردعٌ وزجر وتحذير وتنفير منِ ارتكاب هذا الأمرِ.

اتّباع الهوى المُفنِّد، قمّةُ الضّلالِ المُفسِد

دلالة التَّعبير بصيغة التّفضيل:

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة التّفضيل في قوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ لأنَّها تكشف عن عِظَم جُرْم منِ اتَّبع هواه، وأنَّه لا يوجد من هو مثله في الضّلال، فقد بلغ فيه مبلغًا كبيرًا، فليس هناك مَن يساويه أو يدانيه.

الضّلالُ عدولٌ عنِ الطّريق السّويّ، ينتحيه كلُّ منحرف غويّ

بلاغة اختيار مادَّة الضَّلال دونَ سواها:

اختار النَّظمُ الكريم مادَّةَ الضّلالِ في قوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، دونَ الكفر وغيره؛ إمعانًا في شدَّة التَّحذير، وإظهارًا لشدَّة التّنفير، لأنَّ الضّلال عدولٌ عن الطّريق عمدًا أو سهوًا[1]، والضّلال ضياعُ الشّيء وذهابُه في غير حقّه[2]، فهذه المعاني أردع للإنسان وأزجر له عنِ اتّباع الهوى. وفيه إشارةٌ إلى عدولهم عنِ الفطرة السَّويّة في الإيمان باللّٰه ورسله.

في لفظ الضّلال زجرٌ شديد، وتهديدٌ ووعيد

سِرُّ تخصيص لفظ (الهَوَى) دون غيره:

آثرَ القرآنُ الكريم تخصيصَ الهوى دون غيره، في قوله: ﴿ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ لأنَّ جميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النّفوس على محبّة اللّٰه ورسوله، والالتزام بالتّكاليف الشّرعيّة.

كلّ المعاصي والمخالفات، ناشئةٌ منِ اتّباع الهوى والمشتهيات

بلاغة الاستعارة في: ﴿ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾:

تَظْهر بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ حيثُ جعلتِ المعنويَّ في صورة المحسوس، وهو مجازٌ بطريق الاستعارة، حيثُ شُبِّه

---

(1) الرّاغب، المفردات: (ضلل).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلل).

إبرازُ المعنويّات في صورة المحسوسات، مفيدٌ في البيان

عملُ الإنسانِ بالمشي وراء السّائر، ويكون الهوى مشبَّهًا بالسّائر؛ لأنَّ الاتّباع في الحقيقة لا يكون للهوى، لأنَّ الهوى أمر معنويٌّ، وإنَّما الاتّباع يكون لسائر يُقْتفى أثرُه، ويحتذَى حذوه. وفي هذه الاستعارة تخويفٌ وتحذير من ميل الإنسان إلى هواه الذي صار أشبهَ بالسّائر الذي يأمُر فيُطاع، وبذلك تكون الاستعارةُ كشفت عن قوَّة الهوى وشدَّة سطوته، وكشفت عن ضعف التّابع، وخَوَرِ عزيمتِه، وسُقوطِ هِمَّتِه.

سِرُّ التعبير في ﴿بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾:

الاهتداء بغير هدى الله تعالى ضلالٌ مبين

وردت جملة ﴿بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ في قوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ مقيّدةً لاتِّباع الهوى، بأنَّه بغير هدى من الله؛ لزيادة التّقريع، والإشباعِ في التّشنيع والتّضليل[1]، وللدّلالة على أنَّ كلَّ مخالفة لأمر الله تعالى وأمرِ رسوله ﷺ هي اتِّباعٌ للهوى بغير هدى.

سِرُّ الفصل في ختام الآية الكريمة:

كمالُ الانقطاع منبئٌ عنِ المراد المستفاد من الجملة

فُصِلَ قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عن قوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لما بين الجُملَتين من كمال الانقطاع، فالجملة الأولى ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾ استفهاميَّةٌ لفظًا، وخبريَّةٌ معنًى، والثّانية خبريّةٌ لفظًا ومعنًى، وهي تذييل لما قبلها، إذ فيه تعيينُ هذا الفريقِ المبهم الذي هو أشدُّ الضّالين ضلالًا، فإنَّه الفريقُ الذين كانوا قومًا ظالمين، أي: كان الظّلمُ شأنَهم وقوامَ قوميّتِهم، ولذلك عبّر عنهم بالقوم[2].

دلالةُ التّأكيد بالأداة ﴿إِنَّ﴾:

إبرازُ فكرة الهداية بالتّأكيد؛ لكونها ذاتَ دلالاتٍ عميقة

أُكِّدَ ختامُ الآية بقوله: ﴿إِنَّ﴾؛ تحقيقًا وتقريرًا للمعنى المقصود، وهو عدمُ هداية الله الظّالمين، ولمّا كانتِ الهداية والشّقاءُ من

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 18.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 141.

المعاني الجليلة الخطيرة، استحقَّت التّأكيد؛ إظهارًا للفكرة، وإبرازًا للعبرة.

دلالة التَّعبير بنفي الهداية:

بيانُ أنّ الهداية للمؤمنين، وأنّ الشّقاوة للمشركين

دلَّ التَّعبيرُ بنفي الهداية في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، على حرمانهم منَ الهداية بسبب ظلمهم؛ فالظّلم سببٌ للحرمان منَ الهداية والتّوفيق، ويُفْهَم من هذا التَّعبيرِ أنَّ الهداية ثابتةٌ لعباده المؤمنين، الّذين ابتعدوا عنِ الشّرك الّذي هو أعظم أنواع الظّلم، فهذا التَّعبيرُ يحمل معنى التّرهيبِ منَ التّلبّس بلَوْثة الشّرك، الجالبةِ لكلِّ أنواع الشّقاء، والتّرغيبِ في الإيمان العاصمِ منَ الشّرك، الجالبِ لكلّ مظاهر الهداية.

سِرّ اختيارِ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

لفظُ القوم أنسبُ لأتباع كلِّ نبيٍّ مرسلٍ بالهداية

اختار النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ دون غيره في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّه هو اللّفظ المناسب لأتْباع كلِّ نبي، فقومُ كلِّ رجلٍ شيعتُه وعشيرتُه[1]، والقومُ الجماعة منَ النّاس[2]. وفيه أيضًا: ذمٌّ للأقوام الذين أصبح الظّلم سِمَتَهم ووصفَهم، أي: كان الظّلم شأنَهم وقِوامَ قوميَّتِهم، ولذلك عبَّر عنهم بالقوم[3].

اختيار التَّعبير بالظّالمين دون المشركين:

الظّلم عائق عن هداية الله الرّضيّة، وطامسٌ للبصائر الغَويّة

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دون المشركين في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، مع أنَّ مقصود السّياق هو الحديث عن المشركين الّذين اتّهموا النَّبيَّين الكريمَين موسى ومحمّدًا صلوات اللّهِ وسلامُه عليهما، إلّا أنَّ القرآن الكريم عبَّر بالظّالمين لأمرين؛ **الأوّل:** التّسجيل على المشركين بأنّهم ارتكبوا أفظعَ أنواعِ الظّلم وهو الشّرك، وأنَّهم داخلون في زمرة الظّالمين. **والثّاني:** إثراءُ المعنى

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوم).

(2) ابن سيده، المخصص: (قوم).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 141.

ليتناولَ لفظُ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين وغيرَهم، ممَّن يَلِجون أبواب الظّلم دونَ الشّرك، وهذا تحذيرٌ شديد من جميع أنواع الظُّلم، فالظُّلم ظلماتٌ يومَ القيامة.

دلالة التَّعبير بالاسميّة في لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

دلالة السّياقِ على ثبوت الظّلم واستمراره

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالاسميَّة ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو جمع لاسم الفاعل (ظالم) دون الفعليّة؛ للدّلالة على ثبوت الظّلم وقيامِه بهم، ولزومِه لهم، حتَّى صار وصفًا لا ينفكّ عنهم؛ لذا استَحَقّوا بسببه عدمَ هدايةِ اللّه إيّاهم؛ لأنَّ اللّه لا يوَفِّق لاتِّباع الحقّ إلّا أهلَ الإيمان، أمّا أهلُ الظّلم فليسوا محلًّا لذلك.

دلالة حذف متعلّق ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

إفادةُ العموم مبيّنَةٌ عن المراد المستفاد في السّياق

حُذِفَ متعلَّق ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لإفادة العموم، وليشملَ كلَّ أنواعِ الظّلم، منَ الشّرك وغيرِه، ويدخل في ذلك ظُلمُهم لأنفسهم بالكفر وتكذيبِ الأنبياء، والإعراضِ عن آيات اللّه، وظلمِهم لعباد اللّه تعالى ونحوِ ذلك؛ توسيعًا لمعنى التّحذير والتّنفير من كلِّ ما يصدق عليه اسمُ ظلم، لأنَّ الظّلمَ بجميع أصنافه ظلماتٌ يومَ القيامة، وفي هذا الحذف أيضًا مراعاةٌ لفواصل الآيات.

﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾ [القصص: 51 - 52]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

قد تقَعُ الآيةُ ممَّا قبلها موقِعَ الاحتراسِ البلاغيِّ؛ فتكونُ مِن تمامها

لمّا بيَّنَ النَّظمُ الجليل أنَّ الله تعالى لا يهدي الظّالمين، وأنَّهم لا يستجيبون لدعوة النَّبيِّ ﷺ، وبيَّن إعراضَهم؛ أكَّد ﷻ أنَّهم لا عذرَ لهم على إعراضهم وعدمِ استجابتِهم، وأنَّ الحُجَّة قائمةٌ عليهم، وأتبَعَ ذلك بمدح طائفة من أهل الكتاب استقامت قلوبُهم، وخلصت نفوسُهم مِنَ العِناد، فأَتْبَعوا إيمانَهم بسابق الشَّرائع بإيمانهم بالإسلام[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَّلۡنَا﴾: (وصل) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ضَمِّ شيءٍ إلى شيءٍ حتَّى يَعْلَقَهُ[2]، ومنه الاتِّصالُ: وهو اتِّحادُ الأشياء بعضِها ببعض، كاتِّحاد طرفَي الدّائرة، ويضادُّ الانفصالَ، ويستعمل الوَصْلُ في الأعيان وفي المعاني، يُقالُ: فلان مُتَّصِلٌ بفلانٍ؛ إذا كان بينهما نسبةٌ، أو مُصاهرة[3]، ووصلتُ الشَّيء وصلًا وصِلةً، ووَصَلَ إليه وُصولًا، أي: بلَغ، وأوصله غيره[4]، وكلُّ شيءٍ اتَّصل بشَيْء، فَما بَينهما وُصْلَة[5]، والتَّوصيلُ هنا: مُبالغةٌ في الوصل[6]، وهو ضَمُّ شيءٍ لشيءٍ، ومعناه: أنزَلنا القرآنَ يَتْبَعُ بعضُه بعضًا، فاتَّصَل عندَهم.

2) ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾: (قول) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يَقِلُّ كَلِمُهُ، وهو القولُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 291، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 418.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وصل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (وصل).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وصل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 127.

منَ النُّطقِ، والمِقْوَلُ: اللِّسانُ[1]، والقَوْلُ: مصدرُ (قالَ)، ومعناهُ: الكلامُ على التَّرتيبِ، أو كُلُّ لفظٍ نَطَقَ بهِ اللِّسانُ، سواء كان مُفيدًا أم لم يَكُن، يُقالُ: قال يقولُ قَولًا، أيْ: تَكَلَّمَ كلامًا، والقولُ يَقَعُ على الكلامِ التّامِّ، وعلى الكلمةِ الواحدةِ على سبيلِ الحقيقةِ، ويُستعملُ بمعنى جَميعِ الأفعالِ، كقولهم: قالَ بيدِهِ هكذا، أيْ: أخَذَ، وقال برجْلِهِ، أيْ: مَشَى[2]، والقولُ هنا مُرادٌ به القُرآنُ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣﴾ [الطّارق: 13][3].

3) ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: (ذكر) أصلُ الذِّكْرِ: الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيانِ[4]، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ باللِّسانِ، فالذِّكْرُ ما ذَكَرْتَهُ بِلِسانِكَ وأظهرته، والذُّكْرُ - بضَمِّ الذّالِ - بِالقَلْبِ، يُقالُ: ما زالَ مِنّي عَلَى ذُكْرٍ، أي: لَمْ أَنْسَه[5]، والتَّذكِرَةُ: ما تُسْتَذْكَرُ بِه الحاجَةُ، واسْتَذْكَرَ الشَّيءَ: دَرَسَهَ للذِّكْرِ، والاسْتِذْكارُ: الدِّراسَةُ لِلحِفْظِ، والتَّذَكُّر: تَذَكُّرُ ما أُنسيتَه[6]، وحقيقة التَّذَكُّرِ في الآية: خُطورُ تَذكُّرِ ما كانَ منسيًّا بالذِّهن، والمُرادُ به: الاتِّعاظُ والتَّدبُّر.

4) ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾: (أتي) أصلُ الإيتاءِ: الإعْطاء، وآتَى يُؤاتي إيتاءً، وآتاهُ إيتاءً، أي: أعطاه، ويُقالُ: لِفُلانٍ أَتْوٌ، أي: عَطاءٌ، وآتاهُ الشَّيْءَ، أي: أعطاه إيّاه، وآتاهُ على الأمْرِ: طاوَعَه[7]، والإيتاءُ: مُسْتَعارٌ للإنعامِ بالحالَةِ النّافِعَةِ؛ لِأنَّ شَأْنَ الإعْطاءِ أن يكونَ تَمْكينًا بالمَأْخوذِ المَحْبوبِ[8]، والمرادُ بالإيتاءِ في الآيةِ: الإعْطاءُ، وهو مُشْعِرٌ بأنَّ المُعْطَى مَرْغوبٌ فيه.

5) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: (كتب) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ الكِتابُ والكِتابَةُ، يُقالُ: كَتَبْتُ الكِتابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا، والكِتابُ: الشَّريعَةُ الَّتي مِنْ شَأْنها أَنْ تُكْتَبَ لِئَلّا يَقَعَ فيها تَغْييرٌ[9]، والكِتابُ: القُرْآنُ، وغيرُه مِنَ الكتبِ السَّماويَّةِ[10]، والمُرادُ به في الآيةِ: التَّوراةُ والإنجيلُ، وهو ما كُتِبَ مِنَ الوحيِ الَّذي خاطَبَ اللهُ تعالى بهما موسى عيسى عليهما السلام.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قول).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قول)، والنّووي، تهذيب الأسماء واللّغات: 4/ 106، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 277.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 142.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(5) أبو عمرو الشّيبانيّ، الجيم، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أتي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 179.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 98.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والفيروزابادي، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (كتب).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

الحِكمةُ مِنَ الوَحيِ التَّذكُّرُ والاتِّعاظُ

يقولُ الحقُّ سبحانه مؤكِّدًا على قطعِ أعذارِ المشركينَ وحُجَجِهم: ولقد أتبَعْنا القُرآنَ بَعضَه بَعضًا، وشَيئًا فشَيئًا، لكُفّارِ العَربِ وأهلِ الكِتابِ، وبَيَّنّا فيه الوَعدَ والوَعيدَ، والتَّرغيبَ والتَّرهيبَ، والمواعِظَ، وأخبارَ الماضينَ؛ ليَعتبِروا، ويتَّعِظوا بالَّذين آمنوا بالتَّوراة والإنجيل مِن أهل الكتاب، ثمّ أدركوا محمَّدًا ﷺ، فآمنوا بالقرآن؛ لأنَّهم وجدوا في كُتُبِهم البشرى به، وانطباق الأوصاف عليه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا﴾:

إقامةُ الحُجَّة على المعرضين إنصافٌ للنَّبيِّ الكريم

الواو في قوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ عاطفةٌ ما بعدَها على محذوفٍ يُقدَّرُ في نورِ مضمون المعطوفِ، وفي نورِ السِّباق القريب، مِن ذكر كتابِ نبيّنا محمّدٍ ﷺ، وبعضِ الكتب السّابقة عليه، ومِن عدم استجابة قومِه له بعدم إيمانهم بالكتاب الذي جاءهم به مِن عند اللّه، والتَّقديرُ - مَثَلًا كما ذكَر البقاعيُّ -: (فلقد آتيناكَ في هذه الآيات بأعظم البيّنات)؛ منبّهًا بحرف التَّوقُّع المقترنِ بأداة القَسَم على أنَّه مِمَّا يُتوقَّعُ هنا أن يقال: ﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾[2]، أو أن تكون الواو في قوله جلَّ شأنه: ﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا﴾ استئنافيَّةً[3]؛ وذلك للشُّروع بإقامة الحُجَّة على المعرضين، وبيانِ أنَّ إعراضَهم لم يكن إلّا جهلًا وكِبرًا منهم على الحقِّ.

دلالةُ التَّأكيد بـ (اللّام وقد):

في مراعاة إنكارِهم ومواجهتهم بعيبهم إبقاءٌ عليهم؛ إحسانًا إليهم

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملةَ الفعليَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ باللّام الموطِّئة للقَسَم، و(قد)

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 273، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 295، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 71.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 499.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 271.

الدّالِّ على التَّحقيق[1]، وداعي التَّأكيد: أنَّ القرآن في السّباق القريب أبلغُ في إظهار الخفايا، وأكثرُ من نصب الأدلَّة على الحقِّ، وإقامةِ الوجوب على اتِّباع نبيِّنا محمَّد ﷺ، وذكرَ رفضَهم للقرآن في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ [القصص: 48]، وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ﴾ [القصص: 50]، فكانوا بإعراضهم عن ذلك كلِّه كأنَّهم منكرون؛ لأن يكون جاءهم شيء مِن ذلك، فاقتضى حالُهم التَّوكيدَ القويَّ؛ فعُبِّر باللّام وقد[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل (وصَّل) مادَّةً وصيغةً:

في التَّوصيل المَذكور امتنانٌ عظيم؛ فهو طريق جَعْلِهم أئمَّة الخيرِ والهدى

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ التَّوصيل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾؛ للدَّلالة على تتابُع نزول القرآن، فتوالى نزولُ قَصَصِه ووعظِه، ووعدِه ووعيده، وجعلَه تعالى موصَّلًا بعضَه ببعض[3]، وإنَّما عبَّر القرآنُ بما يفيد تواصلَ بعضِ القرآن إثرَ بعض في النُّزول، حسبَ الحِكمة والمصلحة، أو يفيد التَّتابُع في النُّزول وعدًا ووعيدًا، ونصائحَ وعِبرًا، ومواعِظَ وقَصَصًا، إلى آخر ذلك، فيَستعينون بذلك على الإتقان في الفهم والتَّدبُّر والانتفاع؛ نظرًا إلى لفت أهل المعصية عمومًا، والذين لم يستجيبوا للرَّسول محمَّد ﷺ مِن قومه وفي زمانه خصوصًا - إلى عظيم رحمة اللّه بهم، وإحسانه إليهم، ولطفه بهم؛ لأنَّ هذا يُراعي أحوالَهم مِن حيثُ هم بشر يفتقرون إلى ذلك.

نُكْتَةُ إسنادِ الفعل لنون العَظَمة:

تتابُعُ الوحي مِنَّةٌ عظيمة منَ الله تعالى

أسند النَّظمُ الجليلُ لفظَ التَّوصيل إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾، أي: بما لنا منَ العظمة؛ لكونه

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 271.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 499.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 421، وابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 115.

مِنَ اللّه تعالى ذي الجلال والإكرام، عظيمِ الشَّأن[1]، ففي أسلوب التَّعظيم إنكارٌ لطيفٌ عليهم، يتعلَّق بأحوالهم التي مِن شأن توصيلِ القولِ أن يُباعِد بينَهم وبينَها.

معنى (اللّام) في القيد ﴿لَهُمُ﴾:

اللهُ لا يرضى ولا يُحِبُّ لعباده إلّا الخير

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجَرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾؛ للدَّلالة على علَّة التَّوصيل، وهي الانتفاعُ حِسًّا ومعنًى بذلك القرآن، فهو كائنٌ لأجل المُخاطَبين بهذا القرآن في كلِّ عصر ومِصر وجنس، وقريشٌ في المقام الأوَّل؛ لأنَّهم أوَّلُ مَن خوطِب به، ووراءَ ذلك مِنَ المعنى: بيانُ أنَّ التَّوصيل قد بلغهم، وتحقَّق وصولُه إليهم، والمُراد بالضَّمير الغائب قريش[2].

نُكْتَةُ تقديمِ القيد ﴿لَهُمُ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾:

الإبلاغُ في التَّذكير بالامتنان؛ إبلاغٌ في مواصلة الإحسان

قَدَّم النَّظمُ الجليل شِبهَ الجملة مِنَ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمُ﴾، على المفعول به ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه توصيلٌ خاصٌّ لهم، وذلك لتعظيم المِنَّة عليهم بهذا الوحي، وأنَّها تقتضي الشُّكرَ لا الإعراضَ[3]، ففي التَّقديم عتابٌ مشوبٌ بإنكارٍ عليهم، وتَعجُّبٍ منهم.

دلالةُ التَّعبيرِ عنِ القرآن الكريم بـ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾:

القولُ الفصلُ الذي لا قولَ غيره هو القرآنُ الكريم

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عنِ القرآن الكريم بالقول في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾؛ للدَّلالة على خِفَّته وسهولته على عقولهم وقلوبهم وأنفسهم وفِطَرِهم؛ ليبنيَ على ذلك إمكانَ الانتفاعِ به، فيكونَ بذلك متناسقًا مَعَ الفعل: (وصَّل) مادَّةً وصيغةً، في نورِ ما سبقَ ذكرُه في ذلك، و(أل) في قوله: ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ إمّا أن

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 313.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 291.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 313.

تكون اللّام للعهد، أي: القول المعهود؛ للدَّلالة على أنَّه قول فصل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣﴾ [الطّارق: 13]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠﴾ [الحاقّة: 40][1]، أو أن تكون اللّام للجنس؛ للدَّلالة على الكمال، فهو القول الكامل، والمُراد: جنس القول الذي يعتدُّ به، فلا قول على وجه الحقيقة إلّا هو[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ (لعلَّ):

الدَّلالةُ على الغايةِ من توصيل القول، فالتَّذكيرُ يُرجَى من مُداومة التَّوصيل

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف التَّرجّي (لعلَّ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿۞وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ للدَّلالة على الغاية من توصيل القول، وهي التَّذكُّر؛ وذلك لأنَّ الاستماعَ للقرآن كلَّ يوم، أو بين حينٍ وحين إلى جديد منه، أدعى إلى تذكُّرِهم واعتبارهم[3]، فالتَّذكيرُ أمرٌ يُرجَى وقوعُه من مداومة التَّوصيل، وفي ذلك أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ الأصل أن يكون حالُهم مع توصيل القول الإلهيِّ إليهم، حالَ الذين يُرجَى لهم أن يرجعوا إلى عقولِهم، فيجدوا فيها ما يُعينُهم على التَّذكُّر بالحَقِّ، والانتفاعِ به، وفي التَّعبير بـ: (لعل) - الدّالَّة على الرَّجاء، دون اللّام التي هي للتَّعليل - إشارةٌ إلى أنَّ اللّه يُحِبُّ لهم أن يتذكّروا، ففيه تقريبٌ لهم.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالتَّذكُّر، مادّة وصيغة:

التَّذكُّرُ الدّائم لتعاليم الوحي ينفي الغفلةَ عن النّاس

عبَّر القرآنُ بالتَّذكُّر - وهو السّابقُ على حصولِ الإيمان - للإبلاغ في ترغيبهم في سماع القرآن، وتلقّيه، وهم في حالِ تأهُّلِهم للفهم والتَّدبُّر والتَّذكُّر، وقد ترتَّب على هذا أن يُنظَم معنى التَّذكُّر فعلًا مضارعًا؛ تنبيهًا على طلب تَجدُّدِ التَّذكُّر منهم ودوامه؛ كلَّما رَأوا مِن أنفسهم وعقولهم رغبةً في ذلك، حتّى تظهرَ لهم حقائقُ القرآن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 142.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 313.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 418.

واضحةً جليَّةً، على ما يُفْهِمُه إظهارُ التّاء في الفعل: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ دون الإدغام: (يذَّكَّرون)، فالمرادُ انتفاءُ الغفلةِ عنِ النّاس، وأن يكونوا على ذِكْر دائم للوعظ والنُّصح واتِّباع الحَقِّ.

عِلَّةُ فصلِ جملة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

ليس كلُّ النّاسِ معرضين عنِ الإيمان بالكتاب

فُصِلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فلمّا أفهَمَ قولُه تعالى في ختام الآية السّابقة: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّهم لم يفعلوا، ولم يكونوا عند رجاء ذلك؛ كأنَّ سائلًا سألَ، فقال: هل تذكَّر غيرُهم بالقرآن، أوِ استوى النّاس في عدمِ التَّذكُّر به؟ فقيل: إنَّ الذين أوتوا الكتابَ من قبل نزولِ القرآن قد آمنوا به[1]، ويَحْسُن أن يكون السّؤال المُقَدَّرُ: إذا لم يؤمن به هؤلاء العربِ؛ فمَن يؤمن به؟ فتكون هذه الآيةُ جوابًا عن ذلك السُّؤال.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإيماءُ إلى وجه مَجيءِ الخَبرِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّه أراد به مَن آمن مِن أهل الكتاب[2]، وهم أشخاص معروفون معهودون، من بعض النَّصارى واليهود، مثل: ورقةَ بنِ نَوْفل وعبدِ الله بنِ سَلام، ومَدْحُهم بصِلة الموصول؛ لأنَّها مناطُ المعرفة والشُّهرة، وللتَّنبيه على أنَّ مِنَ النَّقل ما يُعين العقلَ على التَّذكُّر المطلوبِ مِن مُخاطَبي رسول الله ﷺ؛ لأنَّ هذا القرآنَ لا يُخالِف الكتبَ السّابقة، بل يُؤيِّدُها، وهي تُؤيِّدُه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإيتاء، وصوغُه ماضيًا في ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

للدَّلالة على المجيء السَّهل للكتاب الهادي إلى الحقِّ، وتحقُّق هذا الإيتاءِ وتأكيد وقوعه

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الإيتاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالة على المجيء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 143.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 419.

السَّهل، فاللّه تعالى آتاهم الكتاب خاليًا من المعوِّقات، هاديًا لهم إلى سبيل الحقِّ، ولذا اهتَدَوا إلى أنَّ القرآن حقٌّ، فآمنوا به، فالتَّعبيرُ به يلحظ الامتنان على قوم رسول اللّه ﷺ في المقام الأوَّل، وعلى غيرهم بالتَّوصيل وبالقول، في قوله: ﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾، وجاء التَّعبيرُ عنه بالفعل الماضي للدَّلالة على تحقُّق هذا الإيتاءِ وتأكيدِ وقوعه.

لطيفةُ إسنادِ الإتيان إلى ضمير العَظَمة ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

الإيـتـاءُ كـائـنٌ بـجـلال الـلـه وعظيم قُدرته

أسند النَّظمُ الجليل لفظَ الإيتاء إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لتعظيم هذا الإيتاء، فهو واقع بعَظَمة اللّه تعالى[1]، وفي ذلك تفخيمٌ لشأنه، وبيانٌ لعُلوِّ مكانته؛ لمشاكلةِ إسناد التَّوصيل إلى أسلوب العَظَمة في قوله: ﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا﴾، فلماذا آمنَ هؤلاء، ولم يؤمن أولئك، مع التقائهم في ذلك الامتنانِ والمُمتَنِّ به؟.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ومعنى (أل) فيه:

تـمـامُ الـنِّـعـمـةِ عليهم بإيتائهم العِلْمَ الكائنَ في الكتاب

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالة على المكتوب مِنَ العِلْم في التَّوراة والإنجيل وغيرهما من كُتُبِ الأنبياء[2]، وبهذا تكون (أل) لتعريف العهد، أي: الكُتب المعهودة لديهم.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾:

زمن إنزال الكتب الـسـمـاويـة متصل ومتتابع

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بحرف الجَرِّ ﴿مِن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الزَّمان الذي جاءهم بِهِ الكتاب، هو بعض الزَّمان الكائن قبلَ القرآن[3]، فهو ليس زمانًا مطلقًا غيرَ مُحَدَّدٍ، وحضورُ هذا الحرف مِن قَبْلِ قوله: ﴿قَبۡلِهِۦ﴾،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 314.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 314.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 314.

هو ما تأسَّسَ عليه القول بأنَّ الكتاب هو التَّوراة والإنجيل، وتفسيرُ (أل) فيه.

دلالةُ التَّقييد بقوله: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾:

الكتبُ السّابقةُ تُصَدِّق القرآنَ، وحالُ نبيّنا محمَّدٍ ﷺ يُصَدِّقُهُ كذلك

قولُه: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ جارٌّ ومجرور، ومضاف ومضاف إليه، وهو متعلِّق بحال محذوف، أي: آتيناهم الكتاب كائنًا مِن قبل مجيء القرآن، والحالُ قيدٌ، وهو تابع للحال، وفائدتُه: التَّنبيهُ على أنَّ الكتابَ الَّذي أوتوه مِن قبل نزول القرآن يُصدِّقُ هذا القرآن، ففيه ذكرُه وذكرُ نبيّنا محمَّد ﷺ، ويلتقي معَه في غير قليل مِن مضامين أصول الدّين الإسلامي، ووراء ذلك مِنَ المعنى: أنَّ هذا القرآن فيه ذِكْرُ نبيِّكم محمَّدٍ ﷺ ووصفه، وهو قرآن يمشي على الأرض، فلماذا لا تستدلّون بلسان حاله فيكم - وقد لبث فيكم عُمُرًا من قبله - على صدق ما جاءكم به؟.

دلالةُ التعبير بالجملة مركبة:

إيمانُهم ثابتٌ قطعيٌّ راسخٌ لا يُغَيِّره الزَّمان

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن إيمان أهل الكتاب بالجملة الاسميَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ خبرًا عنِ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وجملةُ الخبر اسميَّةُ الصَّدر، فعليَّةُ العَجُز، فأمَّا الاسم: ﴿هُم﴾؛ فيدُلُّ على ثبات أصل الإيمان ورسوخه في أنفسهم وضمائرهم.

وأمّا الفعل: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ فيدُلُّ على أنَّهم يوقِعون الإيمانَ بالقرآن في حال وصولِه إليهم إيمانًا لا يزال يتجدَّد[1].

معنى (الباء) في القيد ﴿بِهِۦ﴾:

الدَّلالةُ على قَصْر إيمانهم على القرآن، وكمالِ تحقُّق الإيمان به

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾، وهو هنا دالٌّ على الإلصاق، أي: التصق إيمانُهم به؛ تعبيرًا عن كمال تحقُّق الإيمان به، ومرجعُ الضَّميرِ في قوله: ﴿بِهِۦ﴾، هو مرجعه في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾، أي: القرآن.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 499.

وتقديمُ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للاهتمام به؛ لأنَّه المُحدَّثُ عنه المُحْتَفَلُ به في السّياق، وفيه دلالةٌ على قَصْر إيمانِهم عليه، أي: إنَّهم يؤمنون به خاصَّة، لا بشيء ممّا يُخالفه[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّوصيل والمتابعة:

التَّـوصـيـلُ ارتباطُ الأجزاء وتتابعها، والمتابعة إلحاق

الاتِّصالُ: اتِّحادُ الأشياء بعضِها ببعض، كاتِّحاد طرفَي الدّائرة، ويُضادُّ الانفصالَ، ويُستعمل الوَصْلُ في الأعيان وفي المعاني، يقال: فلانٌ مُتَّصِلٌ بفلان؛ إذا كان بينهما نسبةٌ، أو مصاهرة، وقولُه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾، أي: أكثرنا لهم القولَ مَوْصولًا بعضُه ببعض[2].

أمّا المتابعة؛ فهي من قولهم: أَتْبَعَهُ؛ إذا لحقه، قال تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠﴾ [الشّعراء: 60]، ﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾ [المؤمنون: 44][3]، فعُبِّر في الآية الكريمة بالتَّوصيل: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّه اتِّصالُ آياتِ الكتاب بعضِها ببعض.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 314.
(2) الرّاغب، المفردات: (وصل).
(3) الرّاغب، المفردات: (تبع).

﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾ [القصص: 53 - 54]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعد الإخبار عنِ الإيمان أكَّد وقوعَه وأتبعَه بالجزاء الحَسَن عليه

لمّا أخبر النَّظمُ الجليل عن كون طائفة من أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن قبلَ نزوله، وأنَّ إيمانهم متجدِّدٌ؛ أتبعه ذلك بتأكيد المعنى في هاتين الآيتين، فهم إذا تجدَّدت تلاوتُه عليهم؛ فإنَّهم يبادرون بإعلان الإيمان به، ثمَّ أعقب ذلك ببيان عظيم جزائهم على إيمانهم بالقرآن بعد إيمانهم بالكُتُبِ قبلَه، بأنَّهم يؤتون أجرهم مضاعفًا[1]، مُعْتَرِضًا بذلك بينَ الحديث عن إسلامهم وبعضِ أعمالهم المنبثقة مِن ذلك الإسلام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾: (درأ) الدَّرْءُ: الدَّفْعُ، يُقالُ: دَرَأَ عنه الظُّلْمَ، يَدْرَؤُهُ دَرْءًا ودَرْأَةً؛ إذا دَفَعَهُ وأبْعَدَهُ[2]، وتَدارَأَ القومُ، أي: تَدافَعوا في الخُصومَةِ ونَحْوِها، واخْتَلَفوا، وكلُّ مَن دَفَعْتَهُ عنك؛ فقد دَرَأْتَهُ[3]، والمرادُ بالدَّرْءِ في الآية: الدَّفعُ بقوَّةٍ، ومعناه: لا يقابلون السَّيئة بمثلها، وإنَّما يعفون، ويصفحون، ويقابلون الكلمةَ الخبيثة بالكلمة الحسَنة[4].

2) ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾: (حسن) أَصْلٌ واحِدٌ، فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ وامْرَأةٌ حَسْناءُ وحُسّانَةٌ[5]، والحَسَنُ: نعتٌ لما حَسُنَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 315، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 71.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (درأ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن سيده، المحكم: (درأ).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 420.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).

تَقول: حَسُنَ الشَّيءُ حُسْنًا[1]، والحَسَنَةُ: الفَعْلَةُ ذاتُ الحُسْنِ، صفةٌ مُشبَّهةٌ غلَبت في استعمالِ القُرآنِ والسُّنَّةِ على الطّاعةِ والقُربةِ، فَصارَتْ بمنزلةِ الجَوامدِ عَلَمًا بالغَلَبةِ، وهي مُشتقَّةٌ منَ الحُسْنِ وهو جمالُ الصّورةِ، ويُعبَّر بها عن كلِّ ما يَسُرُّ من نِعمةٍ تَنالُ الإنسانَ في نَفْسِه وبَدَنِه وأحوالِه، والسَّيِّئةُ تُضادُّها[2]، والمَحاسِنُ: خِلافُ المَساوِئ، والحُسنى: خِلافُ السَّوْءَى[3]، والمقصود بالحَسنةِ في الآيةِ: اسمُ جنسٍ يشمل جميعَ ما أمر اللّهُ به ورسولُه مِنَ الأقوال والأعمال الظّاهرة والباطنة، المُتعلِّقة بحقِّ اللّه تعالى وحقِّ عباده[4]، يشمل جميعَ الأفعالِ والأقوالِ الحسنة.

3) ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾: (سوء) أَصلُ السّوءِ: القُبْحُ، وضِدُّه: الحُسْنُ[5]، والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَمِلَ سوءًا، أي: شَرًّا وفَسادًا[6]، والإساءَةُ: فِعْلُ الشَّرِّ وما يُكْرَهُ، والسيِّئُ والسَّيِّئةُ: عَمَلان قبيحان، يصير السَّيِّئُ نَعْتًا للذّكر مِنَ الأعْمال، والسَّيِّئة للأُنثى، واللّه يَعْفو عَنِ السَّيِّئات، والسَّيِّئة: اسْمٌ كالخَطيئة[7]، والمُرادُ بالسَّيِّئة في الآية: الفعلَةُ القبيحة المَنهيُّ عنها، وأمّا المأمور به، فلا يكون سيّئًا.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

مِن حَقِّ المُقْتَدَى بـه زيـادةُ التَّفصيلِ في شأنه

يقول اللّه تعالى: وإذا قُرِئَ هذا القرآنُ عليهم؛ قالوا: آمَنّا به بالقُرآنِ؛ لأنَّه حَقٌّ نزَل من عند رَبِّنا بالخَبرِ الصّادِقِ، والحُكم العادِلِ، إنّا كنّا من قبْلِ نُزولِ القُرآنِ على محمَّدٍ ﷺ موحِّدينَ للّهِ تعالى، مُنقادينَ لطاعته، مُؤمِنينَ بنُبوَّةِ رسوله ﷺ؛ فلهذا بادَرْنا

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسن).
(2) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 625.
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (سوأ).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوأ).

إلى الإذعانِ للحَقِّ، وآمَنّا بهذا القُرآنِ، أولئك الَّذين تقدَّمَت صِفتُهم - الَّذين يُؤمِنونَ بكِتابِهم وبالقُرآنِ - يُؤتيهمُ اللّهُ ثوابَهم مُضاعَفًا؛ بسبَبِ صَبرِهم على العَمَلِ بهما، وعلى ما يَلْقَونَه مِنَ الأذَى، ومِن صِفاتِهم أنَّهم يَدفَعونَ السَّيِّئةَ بالحَسَنةِ، وممّا رَزَقْناهم مِنَ الأموالِ يُنفِقونَ في أوجُهِ البِرِّ والخَيرِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ﴾:

مِـــن عـظـيـم الإحسان تفصيلُ شأن المحسنين للمُسيئين

عطفَ النَّظمُ الجليل قولَه جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ بالواو العاطفة[2]، على الجملة الواقعة صلةً للموصول في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ وذلك لجمع صفاتهم التي استحقّوا المدحَ بها، تقريعًا وتعريضًا بالمعرِضين عنِ القرآن، والأحسنُ أن تكون هذه الجملة: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ معطوفةً على خبر الموصول، وهو قوله تعالى: ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّها في حُكم الخبر عنهم أيضًا؛ بقرينة أنَّ الجملة المعطوفة معلَّلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾، وهذا التَّعليل مِن تمام قولِه تعالى في الآية السابقة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾، والثّاني مُؤكِّد للأوَّل، معَ اشتمال الثّاني على جديد من المعنى - لا محالة - وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ فهو تفصيل في بيان إيمانهم، فهو مِن تمام قوله تعالى: ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾، وهو مؤسَّسٌ على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾، فبين المعطوفِ والمعطوف عليه توسُّطٌ بيَن الكمالَين؛ للالتقاء في أكثر مِن عنصر، كما هو ظاهرٌ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 278، والواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 821، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 297، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 244.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 272.

نُكْتَةُ تقييدِ التِّلاوة بـ (إذا):

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بأداة الشَّرط (إذا) دون غيرها في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ وذلك لتَحَقُّقِ الشَّرطِ ووقوعه، فوقوعُ التِّلاوةِ وما يتبعها مِنَ الإيمان بالقرآن أمرٌ قد وقع على وجه الحقيقة، وليس أمرًا احتماليًّا، ولا ممتنعًا، وفي (إذا) إشارةٌ لطيفة إلى معنى كمالِ رغبة المُحَدَّث عنهم في سماع تلاوة القرآن، فمِن شأن مِثْلِهم أن يُتْلَى عليهم القرآنُ - لا محالةَ - بقرينة بناء الفعل ﴿يُتۡلَىٰ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه.

لسبق عِلمِهم بالقرآن يَسْعَون إلى سماعه من أيِّ تالٍ

دلالةُ بناء الفعل ﴿يُتۡلَىٰ﴾ للمفعول:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المبنيِّ للمفعول في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ إعلان إيمانهم يتحقَّق بمطلق التِّلاوة لا بكونها من تالٍ معيَّن؛ ولأنَّ التِّلاوة لا تضيف إليهم شيئًا في أصل الإيمان؛ لأنَّهم قد آمنوا بالقرآن وبمَن جاءَ به مِن عند الله، وهو نبيُّنا محمَّد ﷺ؛ لأنَّهم علموا بهما مِن خلال التَّوراة أو الإنجيل، أو مِن خلالهما جميعًا، وللتَّنبيه على أنَّ القرآن يدلُّ بنفسه على صدقه، وعلى مصدره؛ مِن خلال معانيه، وصور معانيه؛ مِمَّا لا يكون في مقدور بشر.

المؤمنون لا يزيدهم سماعُ القرآنِ إلّا إيمانًا ويقينًا

نُكْتَةُ تقييد التِّلاوة بقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

قيّد النَّظمُ الجليل التِّلاوةَ بقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم عند سماع تلاوته يُنزِّلون أنفسهم منزلةَ أنَّهم المقصودون بما يُتلى عليهم في المقام الأوَّل، وهذا يعني عظيم رغبتهم في سماع التِّلاوة، وكمالَ إقبالهم عليها.

أهلُ الإيمان يُنزِّلون أنفسَهم منزلةَ المقصود عند تلاوة القرآن عليهم

لطيفةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿ءَامَنَّا﴾:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل الماضي عنِ الإيمان في قوله جلَّ

شأنه: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ دون أن يقولوا: (نؤمن به)؛ للدَّلالة على تحقُّق إيمانهم الآن، أو أنَّ إيمانهم به قد وقع سابقًا، وأنَّه مُتحقَّقٌ قبلَ التِّلاوة الآن، وإنَّما قولُهم ذلك الآن إنَّما هو إعلانٌ لما كان راسخًا في القلوب، ووراءَ صيغةِ المُضي إيماءَةٌ لطيفة إلى فرحهم وسعادتهم بتحَقُّق إيمانِهم مِن قَبْلِ سماعِ هذه التِّلاوة؛ فهي فرحةُ السَّبْقِ وسعادتُها.

استقرَّ الإيمانُ في قلوبهم وتحقَّق قبلَ نزولِه وتلاوته عليهم

نُكْتَةُ تقييد بالجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦٓ﴾:

قيَّد النَّظمُ الجليل فعلَ الإيمان بشِبه الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ سياق ذِكْر الإيمان جاء لبيان الإيمان بالمَتلوِّ، لا مطلقِ الإيمانِ، فلو قال: (آمنّا)، بلا قيد (به)؛ لدلَّ على الإيمان العامِّ، ولم يكن منسجمًا مع سياق الآية وما قبلَها، والمُراد بيانُ أنَّهم آمنوا بالقرآن المَتلوِّ عليهم.

الإيمانُ بالقرآن شرفٌ، وأيُّ شرفٍ هو!

معنى (الباء) في القيد ﴿بِهِۦٓ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجَرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، وهو يدلُّ على الإلصاق، أي: إنَّ إيماننا التصق به، وفي ذلك تقويةٌ لوقوع الإيمان به، وفي التَّعبير بالباء معنى: أنَّ إيمانهم يتعلَّق بالقرآن جملةً وتفصيلًا؛ فهُم آمنوا بمُحْكَمِه، وبمُتشابهِه، وبمَكّيِّهِ ومَدَنيّه، وبغَيْبِه، وبكلِّ شيء فيه، ولو قالوا نحو: (آمنا له)؛ لما كان ذلك.

آمنوا بالله على مُراد الله في كمال انقيادٍ له تعالى

عِلَّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾:

فصلَ النَّظمُ الجليل قولَه جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّه تعليلٌ لما قبلَه على جهة الاستئناف البيانيِّ، على تقدير أنَّ سائلًا قال: ولماذا آمنتم به؟ فكان قولُه: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ ملاحظًا السُّؤال عنِ الإيمان به.

حسموا موقفَهم مِنَ القرآن بتقرير الإيمان به؛ لأنَّه الحقُّ

غرضُ التَّوكيد في ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾:

بيانُ أنَّ إيمانهم كان عن علمٍ ودراية لا عن تقليدٍ وهوى

أكَّد النَّظمُ الجليل مضمونَ الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾؛ لبيان أنَّ إيمانَهم به إنَّما وقع؛ لتأكُّدهم من كونهِ حقًّا، وهذا يُبيِّن أنَّ إيمانهم لم يكن إلّا عن علم ودراية، لا عن تقليد وهوًى، ولأنَّ الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ قال اللّهُ فيهم من قبلُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾، ومَن كان على دينٍ لا يَكادُ يُصدَّق رجوعُه عنه، فكيف إذا كان أصلُه حَقًّا من عند اللّه[1]، ويصِحُّ أن يكون التَّوكيدُ ناظرًا إلى ذات معنى الجملة؛ لِلَفت المُعْرِضين عن القرآن إلى عظيم قيمته وأهمّيَّته في نفسه.

دلالةُ تعريف الكتاب بـ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

وصْفُهم القرآنَ بأنَّه الحَقُّ، حَسمٌ وفصلٌ في البيان عن إيمانهم

أخبر النَّظمُ الجليلُ عن القرآن بأنَّه حقٌّ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم لن يرجعوا إلى غيره، فكونُه حقًّا يدلُّ على شِدَّة التزامهم به؛ وللدَّلالة على أن مِثْله من شأنه أن يُقْبَلَ عليه، ويُتَمسَّكَ به، وإنَّما عرَّفه بالألف واللّام؛ للدَّلالة على كماله، فهو الحقُّ كلُّه، ولا حَقَّ وراءَه، وهو الحقُّ الكامل، وما سواه باطل[2].

الموقع الإعرابيُّ لقوله: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾:

كلُّ ما جاء مِنَ الله تعالى فهو واجبُ الاتِّباع

قولُه: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ جارٌّ ومجرور، ومضافٌ ومضافٌ إليه، وهو متعلِّق بمحذوف، هو وصفٌ للحَقِّ، أي: إنَّه الحَقُّ الكائنُ من ربِّنا، وفائدتُه: الدَّلالة على مبدأ ورودِه وصُدوره، وفي ذلك دلالةٌ على وجوب التَّصديق به واتِّباعِه، كما أنَّ فيه تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا له.

دلالةُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾:

القرآنُ محضُ إحسانٍ من المَلك المَنّان

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾، دونَ أن يقال: (من اللّه)؛ للإشارة إلى تضمُّنه

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 500.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 314.

الخيرَ للعباد، وأنَّه قائمٌ لرعايتهم وإقامة حياتهم على أحسن الوجوه، فهو امتدادٌ للإحسان المتأتّي منَ الرَّبِّ الكريم، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى خصوص إحسانه تعالى إليهم؛ بأن بيَّن لهم كونَه حقًّا كائنًا مِن ربِّهم، فتلك نعمةٌ جليلة.

دلالةُ الإضافة في ﴿رَّبِّنَآ﴾:

المُحْسِنُ بإنزال التَّوراة والإنجيل هـو المُـحْسِـن بإنزال القرآن

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الرَّبِّ إلى ضمير المتكلِّمين في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾؛ للإشارة إلى سابق الإحسان من إنزال الكتب التي اختصَّها بهم، فهو ذاتُ الإله الذي أكرمنا بإنزال الكتب سابقًا، فإنَّه يُتِمُّ علينا إحسانَه بهذا الحقِّ، وفي الإضافة تشريفٌ لأنفسهم بهذا الاتِّباع والانتساب.

عِلَّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ عمّا قبلَها:

هـؤلاءِ في غاية البصيرة من أمره

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فلمّا وقع الاستئنافُ التَّعليليُّ البيانيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾؛ أتبعَهُ بالاستئناف البيانيِّ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ لأنَّهم أرادوا بيانَ زمانِ إيمانِهم به، فلمّا كان يحتمل أن يكون إيمانًا قريبَ العهدِ وبعيدَه؛ أخبروا أنَّ إيمانَهم به قديمٌ؛ لما قرَؤوا في كُتبهم من أوصافه[1]، فقولُه: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ جوابٌ عن سؤال مُقَدّر، هو: لماذا آمنوا به؟ وقولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ جوابٌ عن سؤال مقدَّرٍ، هو: لماذا آمنوا به عند سماع تلاوتِه؟.

غرضُ التَّوكيد في جملة ﴿إِنَّا كُنَّا﴾:

مِـــن كـــمـال النِّعمة عليك أنْ تُحِسَّ بكونها نعمةً لك

أكَّد النَّظمُ الجليل الخبرَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾؛ لتأكيد سَبْقِ إيمانهم به، وأنَّ رسوخَهم في الإيمان والإسلام غيرُ قابلٍ للشَّكِّ، وفي ذلك تزكيةٌ لمورد إيمانِهم بهذا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 421.

الكتاب الجديد، وفيه أيضًا: دلالةٌ على اغتباطِهم بالقرآن اغتباطًا يوجب شكرَ مُنَزِّله ﷻ[1].

دلالةُ التَّعبير بالكون، وكونُه ماضيًا:

لتأكيد قِدَمِ إسلامهم وسَبْقِه ورُسوخِه

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل الكون في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على رسوخ الإسلام في قلوبهم، وأنَّ إسلامَهم الرّاسخ قديمٌ، ليس حادثًا بسماع التِّلاوة[2]، والتَّعبيرُ عن ذلك بالفعل الماضي لتأكيد قِدَمِه وسَبْقِه ورُسوخِه.

دلالةُ التَّقييد بقوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾، وتقديمِه، وبلاغةُ الإيجاز بالحذف في ﴿قَبْلِهِۦ﴾:

ذِكْرُ الابتداء تأكيدٌ على حدوث الإيمان قبلَهُ، وأنَّه مُتقادم العهد

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِن﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على زمان ابتداء إيمانِهم، أي: بدأ إيمانُنا به قبلَ نزولِه بزمان يسير، فَذِكْرُ الابتداء تأكيدٌ على حدوث الإيمان قبلَهُ، وفي ﴿مِن﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مَن صَحَّ إسلامُه - ولو في زمن يسير - أذعنَ لهذا الكتاب[3]، ولمّا كان غرضُهم بيانَ كونِ إيمانِهم بالقرآن أمرًا متقادِمَ العهد؛ لما شاهدوا ذِكْرَه في الكتب المُتقدِّمَة، وأنَّهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن[4]؛ كان مِنَ البلاغة والإبلاغ في تحقيق ذلك ذِكْرُ هذا القيدِ: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾، وتقديمُه على خبر الكون: ﴿مُسْلِمِينَ﴾، وقولُه: ﴿قَبْلِهِۦ﴾ على تقدير مضاف محذوف، أي: مِن قبل نزوله[5]، وفي ذلك إيجازٌ في التَّعبير؛ اكتفاءً بظهور المعنى من السّياق، أو يكون التَّقدير: (مِن قبل سماعه)، أو (مِن قبل تلاوته).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 500.
(2) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 115.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 500.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 300.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 18.

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿مُسۡلِمِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إعلانُهم خضوعَهم ومتابعتَهم للدّين الذي جاء به الرُّسل جميعًا

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الإسلام دون الإيمان في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الخضوع وسبقِ الاتِّباع، والإشارة إلى كونهم مسلمين متَّبعين للدّين الذي جاء به الرُّسلُ جميعًا، فإنَّ التَّوحيد هو الإسلام، كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132](1)، ودلَّت صيغةُ اسم الفاعل: ﴿مُسۡلِمِينَ﴾ على ثبوت الإسلام فيهم ورسوخِه، وأنَّه لا يتغيَّر بمرِّ الزَّمان، وفي إطلاقِ هذه اللَّفظة ﴿مُسۡلِمِينَ﴾ دون تقييدها بشيء إشارةٌ إلى أنَّهم منقادون غايةَ الانقيادِ لما جاءَهم مِن عند اللّه، وافقَ هواهم وما ألفوه أو خالَفَهم(2)، وهذا ترَقٍّ في بيان إسلامهم، فصيغةُ اللَّفظة مترتِّبةٌ على مادَّتها.

عِلَّةُ فصل جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ﴾، وسِرُّ التَّعبير باسم الإشارة:

مِن عادات القرآن شَفْعُ العملِ بذِكرِ جزائِه

فصلَ النَّظمُ الجليل جملةَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ لأنَّها مستأنَفَة؛ لبيان جزائهم بعد بيان إيمانِهم بكُتُبهم السّابقة وإيمانهم بالقرآن، وفي التَّعبير بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ استحضارٌ للصِّفات السّابقِ ذِكْرُها، أي: أولئك الموصوفون بما سبق(3)؛ للإشارة إلى أنَّهم جديرون بما بعدَ الإشارة؛ بسبب اتِّصافهم بما قبلَها، فما قبلَها عِلَّةٌ في المعنى لما بعدَها، وكونُ الإشارة للبعيد: يدلُّ على بُعْد مكانتهم، وعُلوِّ رتبتِهم؛ تمهيدًا لذِكْر عُلوِّ جزائهم وسَعَتِه.

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿يُؤۡتَوۡنَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

لا يستوي المحسنون والمُسيئون

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بـ (الإيتاء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الجزاء يأتيهم سهلًا بلا معوِّقات، ووراءَ السُّهولةِ معنى الكثرة، وهو المقصودُ بقرينة قوله:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 144.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 500.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 18.

﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾، وإنَّما بنى ﴿يُؤۡتَوۡنَ﴾ للمفعول دون الفاعل؛ لأنَّ المقصود الاهتمامُ بالإيتاء، لا بكونه من معيَّن، كما أنَّ المُؤتي معروفٌ، وهو اللّهُ تعالى، فعَدَمُ إيرادِ ذِكْره إيجازٌ بالتَّعويل على ظهور معرفته[1]، وقد نبَّه تعالى بإيراد الفعل مضارعًا على كثرة هذا الأجرِ وغزارتِه وتَعَدُّدِه وتَنَوُّعِه؛ حيثُ يَتجَدَّد لهم إيتاءُ أجرٍ مستمرٍّ.

نُكْتَةُ إفراد لفظ ﴿أَجۡرَهُم﴾ وإضافته إلى الضمير:

سبحانَ مَن وفَّق للإيمان والعملِ بـه، وجـازَى المـوَفَّـقَ وأثـابَـه عليه

أفرد النَّظمُ الجليل لفظَ الأجر في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾، مع كون المُحدَّث عنهم جماعةً؛ للدَّلالة على أنَّ كلَّ واحد يأتيه أجرُه وافيًا، أو لكون المُراد به المصدرَ، أي: يُؤْتَون الأجرَ المستحقَّ لهم، وهذه عِلَّةٌ مُصَحِّحَة لا مُرَجِّحَة، وفي الإفراد أيضًا: إشارةٌ إلى خصوصيَّةِ هؤلاء المُحَدَّث عنهم، فهم طائفةٌ خاصَّةٌ مِنَ الخواصِّ، لهم أجرُهُم الخاصُّ بهم، فهو وإن كان مِن جنس أجر أهل الإيمان، إلّا أنَّ فيه خصوصيَّةً لهم، جعلَتْهُ فردًا وحده، وفيه أيضًا: إشارةٌ إلى استواء أجرِ هؤلاء، أو تقاربِهم في الأجر إلى حَدٍّ يُقارِب التَّساويَ فيه، وهذه الدَّلالة مبنيَّةٌ على الدَّلالة السّابقة، ومِمّا يُقَوّي ذلك الفَهْمَ إضافةُ الأجر إلى ضميرهم، فهو أجرٌ يشاكِلُ أحوالَهم وأعمالَهم وإيمانَهم، إذًا فهو أجرٌ خاصٌّ بهم، وإذا كان لفظُ الأجر يُراد به أنَّ الجزاء مكافأةٌ للعمل؛ ففي التَّعبير بِه اعتدادٌ بالعمل؛ لفتًا إلى قيمته، وترغيبًا في الاستمرار والتَّرقّي فيه، فإنَّ في إضافته إليهم إبلاغًا في الاعتداد به؛ وإبلاغًا في الإحسان إليهم والامتنان عليهم، فيَقْوَى لفتُهم إلى نعمة الإيمان والعمل به، وترغيبُهم في ديمومة ذلك منهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 500.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة المَرَّة مثنّاةً في ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾:

إنَّ الله لا يُضيع أجرَ مَن أحْسَنَ، ولو مثقالَ ذرَّة

عبَّر النَّظمُ الجليل بتثنية المَرَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾؛ للدَّلالة على مضاعفة الأجر، فيُضاعَفُ، ويُؤتون أجرَين: مَرَّةً على إيمانهم السّابقِ بكُتبهم، ومَرَّةً على إيمانهم بالقرآن، أو لإيمانهم بالقرآن مَرَّةً غيبًا، ومَرَّةً شهادةً، أو بسبب صبرهم على أذى مَن هاجرَهم مِن أهل دينهم ومِنَ المشركين، فعَبَّرَ عن مضاعفة الأجر ضِعْفَين بالمَرَّتين، فكلُّ إيتاءٍ مرَّة[1]. وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ إتيانهمُ الأجرَ مَرَّتين استعارةٌ لمضاعفة الثَّواب لهم؛ لأجل أنَّهم آمنوا بكتابهم من قبل، ثمَّ آمنوا بالقرآن، وبغير ذلك منَ الأسباب، فقد شُبِّهتِ المضاعفةُ بتكرير الإيتاء؛ وإنَّما هو إيتاء واحد، وهذه استعارةٌ تمثيليَّةٌ، وفائدتها: إظهارُ العناية، حتّى كأنَّ المُثيب يُعطي، ثمَّ يُكَرِّر عطاءَه[2].

معنى (الباء) في جملة القيد: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾:

نالوا ذلك الجزاءَ المضاعفَ بسبب صبرهم على تكاليف الإيمان

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على السَّببيَّة، فسببُ مضاعفةِ الأجر صبرُهم وثباتُهم على الإيمان، وعلى أذى مَن نابذهم، وعاداهم؛ بسبب الإيمان بالقرآن[3]، والباء لا تخلو من معنى الإلصاق، فتدلُّ على كمال صبرهم؛ لاستمرار أخذهم وتلبُّسِهم به.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالمصدر المُؤَوَّل: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾:

زاوَلــوا الـصَّبرَ أنــواعًــا عـلى حسب ما لاقَوهُ من أذًى وشدائد

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالمصدر المُؤَوَّل من (ما والفعل) في قوله جلَّ شأنه: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على بلوغ الأذى بهم كلَّ مبلغٍ؛

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 500، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 300، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 144.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 144 - 145.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 527.

فقد أحدثوا الصَّبرَ، وزاوَلوه، والتَّعبيرُ بالحرف المَصدريِّ يُشير إلى عموم ما صبروا عليه على وجه الإفراد، فصبرُهم أنواعٌ، كصبرهم على الأذى الذي يلقونه منَ الكفّار، وغيره من أنواع الصَّبر[1].

نُكْتَةُ حذفِ متعلّقِ الصَّبر في قولِه: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾:

الأصلُ في الكمال الاتِّساعُ والشُّمول

أورد النَّظمُ الجليل فعلَ الصَّبر خاليًا عن متعلّقٍ في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾، فلم يُبيِّن ما صبروا عليه، وذلك ليكون شاملًا لكلِّ أنواع الصَّبر، كصبرهم على مقتضَى الإيمان بالتَّوراة والقرآن، وصَبرِهم على مقتضَى الإيمان بالقرآن قبلَ نزولِه وبعدَ نزوله، وصبرِهم على أذى المشركين وقومِهم ممَّن لم يُؤمِن من أهل الكتاب[2]، فغيابُ المتعلّقِ يُحقِّقُ كونَه كاملًا عليًّا في بابِه.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾، ودلالةُ المضارعة:

الصَّبرُ مِن أمَّهات الأخلاق والأعمال الصّالحات

عطف النَّظمُ الجليلُ درءَ السَّيِّئةِ بالحسنة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ على جملة: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للاتّساق في الأفعال المضارعة، فيكون ما بينهما اعتراضًا، وإنَّما وقع قولُه: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ مجاورًا لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ لأنَّ الصَّبر لا يتمُّ إلّا بالاتِّصاف بالمحاسِن، والانخلاع مِنَ المساوئ[3]، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ حالًا مِنَ الفاعل في قوله: ﴿صَبَرُواْ﴾، فيكون الحالُ تحقيقًا وتفصيلًا لصبرهم المذكور، وأن يكون معطوفًا بالواو على قوله: ﴿يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾؛ لأنَّ السّياق لذِكر بعضِ أوصاف كمالِهم في الدُّنيا والآخرة، وقد نبَّه تعالى بمضارعيَّة الفعل: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾ على استمرارهم على ذلك الفعل، فهو خُلقٌ كريمٌ يتجدَّدُ فيهم؛ كلَّما عرَضَت لهم سيِّئةٌ مِن أحد.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 292.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 421.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 500.

معنى (الباء) في القيد ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾:

دفعُ السَّيِّئةِ بالحسنة مقامٌ جليلٌ وجميل

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ للدَّلالة على الواسطة، أي: هم يدفعون ما لَقوا منَ الأذى، وما سمعوا منَ الشَّتمِ بواسطة الصَّفح والعفو عنه[1]، وتدلُّ الباءُ التي لا يبرحها معنى الإلصاق على أهليَّتِهم للإحسان، فهم متلبِّسون بالحسنة، ولذلك درَؤوا بها السَّيِّئة؛ فلم يُفكِّروا، ولم يتردَّدوا.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾، ومعنى (أل) فيهما:

مَن صار حالُه دفْعَ السَّيِّئة بالحسنة؛ فهو مِنَ المحسنين لا محالةَ

جاء النَّظمُ الجليل بلفظ ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ تعبيرًا عمّا يسمعونه منَ الأذى والشَّتم، وغيرِ ذلك ممّا يندرج تحت كلمة: ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾، وجاء بلفظ ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾؛ تعبيرًا عنِ الصَّفح والعفو عن ذلك الأذى، وغيرِ ذلك ممّا يصدق عليه لفظ: ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾، فوصفَ كلَّ عملٍ من تلك الأعمال بوصفه الحَسَن والسَّيِّئ، و(أل) في لفظتي: ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ للجنس، فيشملُ لفظُهما عمومَ الأفعال الحسنة والسَّيِّئة، وإنَّما أفردَ ذكرَهما للدَّلالة على أنَّهم يقابلون كلَّ سيئة بحسنة، فدلَّ بالإفراد على أنَّهم لا ينقطعون عن هذا الوصف، فهم يوقِعونه على كلِّ فعل يأتيهم مِنَ الأذى وغيره، ففي إفرادِهما تفصيلٌ باستحضار كلِّ حسنة يدفعون بها كلَّ سيِّئة؛ إبلاغًا في مدحهم، وترغيبَ المُتلَقّين في الاهتداء بهم.

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ على المفعول ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾:

تشريفُ الفعلِ الحَسَنِ والاهتمام به؛ لأنَّه مورد التَّكريم والثَّناء

قدَّم النَّظمُ الجليل شِبهَ الجملة مِنَ الجارِّ والمجرور على المفعول به، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، فلم يقل: (ويدرؤون السَّيئة بالحسنة)؛ وذلك لتشريف الفعل الحَسَن والاهتمام به؛ لأنَّه هو مورد تكريمِهم والثَّناءِ عليهم، وإنَّما يثنى

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 72.

عليهم بفعلهم لا فعل غيرهم، وكان فعلُهم هو الدَّرْءُ بالفعل الحَسَن، ما يَرِدُهم من أفعال قبيحة من غيرهم، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى امتلاء نفوسِهم وقلوبهم بمعاني الإحسان، حتّى لا مكانَ للإساءة فيها، فكانوا مُبغضين للإساءة بُغضًا عظيمًا؛ فذلك الذي كان يحرِّكهم بسرعة وبقوَّة.

معنى (الواو) و(مِن) و(ما) في جملة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾:

في إنفاقهم معَ الإساءة إليهم دلالةٌ على عُلوِّ صبرِهم وكماله

عطف النَّظمُ الجليلُ الإنفاقَ على دَرْءِ السَّيِّئة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ بعضَ الصَّبرِ ودَرْءِ السّيّئات لا يتمُّ إلّا بالجود[1]، فجمعَ بينَ الفعلين؛ للدَّلالة على كمالهم، وأنَّهم يأتون بكلِّ ذلك الإحسان والصَّبر والإنفاق، وفي التَّعبير بـ (مِن) إشارةٌ إلى أنَّهم ينفقون بلا إسراف، فإنفاقُهم هو بعضٌ ممّا رزقهم اللّٰه تعالى، وهذا منَ الاعتدال المحمود، و(مِن) على هذا تبعيضيَّة، ويجوز أن تكون ابتدائيَّةً، والمعنى: أنَّهم يبتدئون الإنفاقَ ممّا رزقَهم اللّٰه العظيم، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّهم - وهم ينفقون - يستحضرون معنى أنَّ النَّفقة مِن رزق اللّٰه، وأنَّ اللّٰه هو الرَّزّاق ذو القوَّة المتين، سواء أنفقوا قليلًا أم كثيرًا، و(ما) اسم موصول؛ يدلُّ على أنَّهم ينفقون من عموم ما رزقهم اللّٰه، ومدُّ الألف في (ما) يمكِّن هذا المعنى، فكلُّ شيء رُزِقوه؛ فإنَّهم ينفقون منه، قليلًا كان أو كثيرًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالرِّزق، وصيغته، وإضافتِه إلى ضمير العَظَمة:

الإنفاقُ مقامٌ عظيم، كان المُحدَّثُ عنهم أهلًا له

عبَّر القرآنُ عنِ الرِّزق بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ رزقهم جارٍ؛ لأنَّ الرِّزقَ هو العطاء الجاري[2]، وفي ذلك توافقٌ بينَ إنفاقهم الدّائم، ورزقِهمُ الجاري، فما دامَ رَزَقَهم؛ فإنَّ إنفاقهم دائمٌ، ونُظِمَ الرِّزقُ فعلًا ماضيًا؛ للإشارة إلى أنَّهم مرزوقون

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 316.

(2) الرّاغب، المفردات: (رزق).

كغيرهم مِنَ النّاس، وأنَّهم يُرزقون رزقًا خاصًّا بهم لا ينقطع؛ لأنَّهم أهلُ صبرٍ وإحسانٍ وكمالٍ، وأُسْنِد الرِّزق إلى أسلوب العَظَمة؛ للتَّنبيه على أنَّهم كانوا على ذُكْرٍ مِن أنَّ الرِّزقَ بيد اللّه وحدَه.

بَراعَةُ تقديمِ متعلِّق الفعل في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾:

اللهُ طيِّبٌ لا يُحبُّ إلّا الطَّيِّب

قَدَّم النَّظمُ الجليلُ شِبهَ الجملة مِنَ الجارِّ والمجرور، وما تعلَّقت به في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ على الفعل: ﴿يُنفِقُونَ﴾، فلم يقل على الأصل: (وينفقون ممّا رزقناهم)؛ وذلك للدَّلالة على خصوص الإنفاق بالحلال الطَّيِّب، أي: لا ينفقون إلّا ممّا رزقناهم؛ تزكيةً لإنفاقهم، وتحرّيهم الحلالَ في النَّفقةِ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يُنفِقُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عَمَّ إنفاقُهم كلَّ الأوقات، وكلَّ الحاجات

عبَّرَ القرآنُ بلفظ الإنفاق دون تقييد في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾؛ للدَّلالة على تنوُّع نفقاتهم، فالإنفاق يكون في المالِ وغَيْرِهِ، وقد يكون واجبًا وتطوُّعًا[1]، فدَلَّ ذلك على كثرة إنفاقهم، وجاء فعلُ الإنفاق مضارعًا؛ لتَجَدُّد الإنفاق منهم، وتنوُّعِ المُنفَق، فإنَّ هذا وذاك يكون في وقت بعدَ وقت، وإلى استمراره منهم أيضًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدَّرْءُ والدَّفْع:

الدَّرْءُ دَفْعٌ بقوَّة واقتدار، فهو أخَصُّ مِنَ الدَّفع

الدَّرْءُ: دَفعٌ أوِ اندفاعٌ بقوَّة عظيمة، بلا صَدٍّ أو تَدَرُّج[2]، وفلانٌ ذو تَدَرُّؤٍ، أي: قَوِيٌّ على دَفْعِ أعدائه[3]، أمّا الدَّفْعُ؛ فيَدُلُّ على تَنْحِيَةِ الشَّيْءِ[4]، وقد استُعْمِل الدَّرْءُ في الآية الكريمة للإشارة إلى دَفْع السَّيِّئة بقوَّة، وذلك من خلال مُكافأتِها بحسنة طَيِّبةٍ.

(1) الرّاغب، المفردات: (نفق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (درأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (درأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دفع).

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾ [القصص: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تزكيةُ العقولِ تحقيقٌ لتزكية النُّفوس

بعد أن ذَكَر النَّظمُ الجليلُ من صفاتهمُ الحسنةِ أنَّهم ينفقون ممّا رزقهمُ اللّهُ تعالى؛ دليلًا على إيمانهم بما تجود به أيديهم ممّا تَضنُّ به النُّفوس مِن فضول الأموال؛ أَتْبَعَه ببيان صفة الإعراض عنِ اللَّغو؛ دليلًا على عُلوِّ همَّتِهم، وصِحَّة عزمِهم، وجليلِ عِرفانِهم بربِّهم، فبَعْدَ أن زكّوا أنفسَهم بالإنفاق؛ زكّوا عقولَهم بالإعراض عنِ اللَّغو[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱللَّغۡوَ﴾: أصلُ (لغو) يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[2]، واللَّغْو واللَّغا: السَّقط مِنْ كَلامٍ وغَيْرِهِ، ولا يُحصَل مِنْهُ على فائِدَةٍ ولا نَفْعٍ[3]، وقد يُسمَّى كلُّ كلامٍ قبيحٍ لَغْوًا، ويُستعمل اللَّغْوُ فيما لا يُعْتَدُّ به، ومنه: اللَّغْوُ في الأيمان، أي: ما لا عقد عليه، وذلك ما يجري وصلًا للكلام بضَرْبٍ منَ العادة[4]، واللَّغْوُ: الباطِلُ، وألْغَى هَذِه الكَلِمَةَ: رَآها باطِلًا وفضْلًا، وألغاهُ: أبْطَلَه، وأسْقَطَه، وألقاهُ[5]، والمُراد باللَّغو في الآية: ما حَقُّه أن يُلْغَى، ويُتْرك منَ العَبث وسُخفِ القَول[6].

2) ﴿أَعۡرَضُواْ﴾: (عرض) أصلُ كلمةِ الإعراضِ منَ العَرْضِ وهو الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عرضَ الشَّيءُ يَعرِضُ ويَعرَضُ عَرْضًا، أي:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 316.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لغو).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (لغا).
(4) الرّاغب، المفردات: (لغا).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (لغو).
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 70.

ظَهَرَ وبَرَزَ[1]، وقيلَ: أصلُها منَ العَرْضِ، وهو خِلافُ الطّولِ، يُقالُ: اعترضَ الطَّريقَ؛ إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّيَ الرَّفْضُ إعْراضًا؛ لأنَّ الرَّافِضَ أظهرَ خِلافَ الشَّيءِ، أو لأنَّهُ كالواقِفِ عَرْضًا في وجهِ الشَّيءِ[2]، والإعراض أيضًا: الصَّدُّ والتَّولّي والرَّفْضُ، تَقولُ: أعرضَ عنه، أي: صَدَّ، وتَوَلَّى عنه، والمُعْرِضُ: المُتَولّي، ويُطلَقُ الإعراضُ بمعنى: الانصراف عنِ الشَّيءِ بالقَلْبِ، وضِدُّ الإعراضِ: الإقبالُ والانقيادُ والطَّاعةُ[3]، والمقصود بالإعراضِ في الآية: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفضُ.

3) ﴿نَبۡتَغِي﴾: أصلُ (بغي) طلَبُ الشَّيءِ، تقول: ابتغيتُ الشَّيءَ، وبغيتُه، أبغيهِ بُغيةً وابتغاءً، أي: طلَبتُه[4]، والباغي: الَّذي يَطلُبُ الشَّيءَ الضّالَّ، وأبغاهُ الشَّيءَ: طَلَبَهُ له، وأعانه على طلَبه[5]، وقيل: الابتغاءُ: هو الاجتهادُ في الطَّلَبِ[6]، وهو أيضًا: الإرادةُ والقَصْدُ، يُقالُ: ابتغيتُ الأجرَ في عملي، أي: قصدتُه، ويأتي بِمعنى الاتِّخاذ، تقول: ابتغيتُ البيتَ سكنًا لي، أي: اتَّخَذْتُهُ[7]، والمقصودُ بالابتغاءِ في الآيةِ: الرَّغبةُ والطَّلَبُ.

4) ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: أصلُ (جهل) خِلافُ العِلْمِ والمَعْرِفَةِ، قالَ الرّاغِبُ: والجَهْلُ على ثلاثة أضْرُبٍ، الأوَّل: هو خُلوُّ النَّفْسِ مِنَ العِلْمِ، وهذا هو الأصلُ. والثّاني: اعتقادُ الشَّيْءِ بخِلافِ ما هو عليه. والثّالِث: فِعْلُ الشَّيءِ بِخِلافِ ما حَقُّه أن يُفْعَلَ، سواءٌ اعتُقِدَ فيهِ اعتِقادًا صَحيحًا أم فاسِدًا، كتارِكِ الصَّلاةِ عَمدًا[8]، والتَّجْهيل: أن تَنْسُبَهُ إلى الجَهْلِ[9]، والمرادُ بالجهل في الآية: ضِدُّ العِلْمِ وضِدُّ الحِلْمِ[10].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

وإذا سَمِعوا الكَلامَ الباطِلَ؛ أعرَضوا عنِ الاستِماعِ والإصغاءِ له، ولم يَلتَفِتوا إليه، منَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عرض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغي، بغا).
(6) الرّاغب، المفردات: (بغي)، والمناوي، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 35.
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (بغا، بغي).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (جهل).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (جهل).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 146.

السَّبِّ والشَّتائمِ وتكذيبِ الرَّسول ﷺ، وأعرضوا عن قائليه، ولم يخالطوهم، وإذا سَفه عليهم سفيهٌ، وكلَّمهم بما لا ينبغي رَدُّهُ منَ القول؛ لم يقابلوه بمثله؛ إذ لا يَصْدُر منهم إلّا طيبُ الكلام، وقالوا: لنا دينُنا الَّذي رَضينا به لأنفُسِنا، ولكم دينُكمُ الَّذي رَضيتُم به لأنفُسِكم، وسيُجازي اللّهُ كُلًّا مِنّا على عَمَلِه ثَوابًا أو عِقابًا، لا على عَمَلِ غيرِه، سلامٌ عليكم سلامَ متاركةٍ وتوديع، فإنّا لا نُريد طريقَ الجاهلين(1).

لا ينبغي للإنسانِ أن يُمضيَ وقتَهُ في أفعالٍ لا خيرَ فيها

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَإِذَا﴾:

من مظاهر الحكمة الإعراضُ عن اللَّغو

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ معطوفٌ بالواو على قوله تعالى: ﴿يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾، والمعنى: وأولئك إذا سمعوا اللَّغو؛ أعرضوا عنه، والسّياقُ لتَعداد خصالِهم التي هي خصالُ أهلِ الكمال، والتي منها ما يتعلَّق بالدُّنيا، ومنها ما يتعلَّق بالآخرة، وإنَّما عُطِفَت على المَذكور؛ لأنَّه أوَّلُ وصفٍ لهم مِن أوصاف أهلِ الكمال، في سياق التَّعريف بهم، ويجوز أن يكون معطوفًا على قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾؛ لأنَّه أقربُ وصفٍ مَذكور قبلَهُ.

نُكْتَةُ تقييد سماعِهم بـ (إذا) دون (إن):

تحقُّقُ إيذاءِ أهلِ الإيمان بسماع الكلام العبث الذي لا فائدة منه

نبَّهَ القرآنُ الكريم بالتَّعبير بـ: (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ﴾ على تَحَقُّقِ إيذائِهم بسماع الكلام العبثِ الذي لا فائدة منه، ممّا لا ينفع في دينٍ ولا دُنيا، مِن غيرهم عمومًا، ومن أهل المعصية خصوصًا، وتَحَقُّقِ صبرِهم تبعًا لذلك، فالتَّعبيرُ بها مُؤسَّسٌ على ذِكر صبرِهم ودَرْئِهم السَّيِّئة بالحسنة، في قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 282، والواحديّ، التّفسير البسيط: 17/ 419، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 72، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 620.

دلالةُ التَّعبيرِ بالسَّماعِ دونَ الاستماع:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالسَّماع في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾؛ لأنَّهم يسمعون ذلك عَرَضًا لا قَصدًا ولا إصغاءً؛ لأنَّ قلوبَهم مشغولةٌ بالحَقِّ والجِدِّ، ولو قال: (يستمعون)؛ لدَلَّ على تَكلُّفِهم سماعَهُ قَصدًا، ولتعاندَ معه قولُه تعالى: ﴿أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾.

قلوبُ أهلِ الصَّلاحِ مشغولةٌ بالحَقِّ مُعرِضةٌ عنِ اللَّغو

دلالة التَّعبيرِ بالماضي ﴿سَمِعُواْ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ﴾؛ تحقيقًا لحصول الفعل، وهو مناسبٌ لـ (إذا)؛ لما فيها من دلالة على وقوع الشَّرطِ وتحقُّقِه، فالتَّعبيرُ بالفعل الماضي معها يزيد ذلك تأكيدًا وتحقيقًا.

تحقُّقُ وقوعِ السَّماعِ منهم

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱللَّغۡوَ﴾:

استعمل النَّظمُ الجليل لفظَ ﴿ٱللَّغۡوَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾: تعبيرًا عن فضول الكلام، وهو يشمل كلَّ ما انتفت فائدتُه في الدِّين والدُّنيا، من شَتْمٍ وتكذيبٍ وتعييرٍ ونحوِه[1]، فذلك يجبُ أن يُتْرَكَ، ويُصَدَّ عنه، وتعريف ﴿ٱللَّغۡوَ﴾ للجنس، فهو يدُلُّ على جنس اللَّغو، فيشملُ كلَّ ما دخل تحتَه منَ العبث والفضول الخالي منَ الفائدة والغايات النَّبيلة، والإعراضُ عن ذلك صِفةٌ ساميةٌ في النُّفوس الشَّريفة.

الإعراضُ عنِ العَبث وما لا فائدةَ فيه، من صفاتِ أهلِ الكياسَة والعِرفان

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أَعۡرَضُواْ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن صَدِّ أهل الكمال وعزوفهم عنِ اللَّغو بـ (الإعراض) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾؛ طلبًا لتكريم أنفسِهم بالبُعد عن مظاهر الدَّناءَة والباطل[2]، وجاء التَّعبيرُ عنه ماضيًا؛ للدَّلالة على تحقُّقِ وقوعِه، ونَظمُ سماعِ اللَّغوِ

مِن شأنِ أهلِ الكمال تكريمُ أنفسِهم بالصَّدِّ عنِ اللَّغو

(1) الخطيب، السّراج المنير: 3/ 107.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 527.

والإعراضِ عنه شرطًا وجوابًا تأكيدٌ لحال تَنَزُّهِهم، وفيه مِنَ الحَسْم والفَصْل والقَطْع ما فيه، فيكون مُتَّسِقًا مع دَرْءِ السَّيِّئَةِ بالحَسَنة، فهو دَرْءٌ، وليس مُطْلَق دَفْعٍ وردٍّ.

معنى (عن) في القيد ﴿عَنۡهُ﴾:

هم يبعدون عنِ اللَّغو، لا عن النّاس ودعوتِهم

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (عن) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾؛ للدَّلالة على المجاوزة والابتعاد عن مظاهر اللَّغو، وإنَّما علَّق الإعراضَ به دون أن يكون إعراضًا مُطلقًا في اللَّفظ، خاصًّا في المعنى؛ لدلالة السّياق على أنَّ الإعراضَ إنَّما هو عنِ اللَّغو؛ وللدَّلالة على أنَّهم إنَّما يُعرِضون بسببه، فهم لا يتركون دعوةَ النّاس والتَّعرُّضَ لهم لتعليمهم وهدايتهم، فالإعراضُ ليس عنِ النّاس، بل عنِ اللَّغو، وفي ذِكْره أيضًا: توكيدٌ وتحقيقٌ لبُغْضِهم للَّغْو مِن داخل نفوسِهم، وإعراضِهم عنه بسبب ذلك.

دلالةُ عطفِ القول على الإعراض:

معَ الإعراضِ عنِ اللَّغو، يتوجَّهُ الوعظُ للغافلين

عطفَ النَّظمُ الجليل قولَه جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ على قوله: ﴿أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾[1]، فهو مُرتَّب على سماع اللَّغو؛ لأنَّ المعطوفَ على جواب الشَّرط مِن جواب الشَّرط، فبعدَ أن أعرضوا عنِ اللَّغو والاستهزاء والفُحْش قصدوا مَن قال ذلك بإسماعه الوعظ[2]، وإنَّما قُدّم الإعراضُ عنِ اللَّغو على قولهم هذا؛ لأنَّ هذا الإعراضَ هو الذي يُهيِّئُهم لأن يقولوا: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

دلالةُ تقديمِ شبه الجملة على المُسنَد إليه:

الكلام الفَصْلُ مِن أحسن ما يُجاب به السُّفهاءُ

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجَرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾؛ للدّلالة على المِلك، أي: لنا أعمالُنا

(1) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1720.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 3/ 107.

خاصَّةً بنا، لن يصلَكم منها شيءٌ، وكذلك أعمالُكم هي لكم خاصَّةً لا يصلُنا منها شيء[1]، وتقديمُ شِبهِ الجملة منَ الجارِّ والمجرور على المسند إليه في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على تخصيص هذه الأعمالِ بأصحابها، أي: أعمالُنا خاصَّةٌ بنا ليس لأحد آخر، لا يتعلَّق بكم شيءٌ منها، فلا تُثابون، ولا تُعاقبون عليها، وكذلك أعمالُكم خاصَّةٌ بكم، ليس لأحد سواكم، فلا نُطالبكم بشيء منها، فنحن لا نشتغل بالرَّدِّ عليكم؛ لأنَّ ذَمَّكُم لنا لا يُنقصنا شيئًا مِن أجرنا، ولا الاشتغال بِرَدِّه ينقصنا[2]، وجملة: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا﴾ - مع ضمير ما فيها من قصر - كنايةٌ عن مُلازمتهم إيّاها، وأمّا قولُهم: ﴿وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾؛ فهو تتميمٌ، على حَدِّ قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون: 6][3].

عِلَّةُ فصل جملة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ عمّا قبلها:

التَّرْكُ بسلامٍ من منهج أهل الإسلام

فصلَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها سيقت لبيان المعنى المُراد مِنَ الكلام السّابق والتَّصريح به، وهو أنَّهم سالمون منهم[4]، فمَضمونُ هذه الجملة يلزم مضمونَ الجملتين قبلَها: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، فبينَهما كمالُ اتِّصال، مِن نوع التَّوكيدِ المعنويِّ.

دلالةُ تنكير مفردة ﴿سَلَٰمٌ﴾:

الإعراضُ عنِ الكافرين وتَرْكُهم مِن كَياسَةِ أهلِ الصَّلاح

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ ﴿سَلَٰمٌ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ لبيان إبلاغِهم في تحقيق سلامةِ صدورهم في هذا الموقف، وهذا السَّلام سلامُ المُتاركةِ، المُكَنّى بها عنِ المَوادعة، بألّا نعودَ لمخاطبتكم، وليس هو سلامُ تحيَّةٍ، أي:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 316.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 501، والخطيب، السّراج المنير: 3/ 107.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 146.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 316.

نتركُكُم، ونُعْرِضُ عن سفاهتكم[1]، والتَّنكير في لفظ ﴿سَلَٰمٌ﴾ يدلُّ على عموم المسالمة والتَّرك والإعراض.

معنى (على) في جملة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾:

التَّعهُّد بتمكُّن السَّلام والمُتاركة

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (على) الذي يُفيد الاستعلاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على تمكُّن المُتاركةِ الكائنة منّا عليكم، ففيه تقويةٌ لمضمون السَّلام والتَّرك والإعراض عنهم، وفيه إبلاغٌ في تحقيق ذلك، فيصيرُ به قولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ كناية عن سلامة صدورِهم، ونزاهةِ نفوسِهم من كلِّ شَرٍّ وقُبْحٍ وسوءٍ.

عِلَّةُ فصل جملة ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ عمّا قبلَها:

الصَّالحون لا يُحبّون مجالسة المُفسِدين

فَصَلَ النَّظمُ الجليل جملةَ: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا تعليليًّا، سيقت لتعليل المُتاركة في الجملة السّابقة، أي: كأنَّ سائلًا قال: ولماذا قلتُم ما قلتُم، مُؤْثِرينَ السَّلامة على الخصومة؟ فكان الجوابُ: نحنُ نتركُكُم، ونُعْرِض عنكم؛ لأنَّنا لا نَطلبُ الاختلاطَ بأهل الجهل والعَبث، ولا مخالطةَ أهلِ الجهالةِ باللّه وبدينه[2].

دلالةُ نفي المضارع بـ ﴿لَا﴾:

لا يختلطُ أهلُ الخيرِ بالجهالة وأهلِها على مَرِّ الزَّمان ودوامِه

نفيُ النَّظم الجليل الفعلَ المضارعَ بـ ﴿لَا﴾ الدّالَّة على الاستقبال في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ للدَّلالة على دوام النَّفي واستمراره، لا نفي الاستمرار، أي: إنّا دائمون على ترك مخالطةِ أهلِ الجهل، وفيه إشارةٌ إلى دأبهم على الحَقِّ المفيد، والغاياتِ النَّبيلة.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿نَبۡتَغِي﴾ مادَّةً وصيغة:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ (الابتغاء) دون غيره في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ لأنَّ الابتغاء يدلُّ على طلب تجاوز

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 146، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 421.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 146.

الاقتصاد فيما يُتحرّى، والمراد به هنا ما يدلُّ على تجاوز الحقِّ إلى الباطل[1]، فعَبَّروا به عن امتناعهم عن ترك الحَقِّ الذي هم فيه، والتَّجاوزِ إلى لَغْوهم وعَبَثِهم، أي: نحن لا نُطلبُ صحبتَكم، ولا نُريدُ مخالطتَكم[2]، وإنَّما جاء التَّعبيرُ بصيغة الافتعال؛ للدَّلالة على أنَّهم لا يطلبون من أنفسهم أن يتكلَّفوا ذلك.

لا يتجاوز أهلُ الحَقِّ مبادِئَهم للوصول إلى الباطل

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ اسم الفاعل، ومعنى (أل) فيه:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن أهل الجهالة باسم الفاعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قد دأبوا على الجهالة حتّى صارت وصفًا ثابتًا فيهم، وفي ذلك تأكيدٌ لوصفهم بالجهالةِ، و(أل) في قوله: ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ للدَّلالة على جنس الجهل، أي: لا نبتغي أهلَ الجهل أينما كانوا، وفي أيِّ زمانٍ.

صفةُ الجهلِ راسخةٌ في المُعْرِضِينَ المُسْتَكبرين

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الابتغاء والطَّلب:

الطَّلَبُ: الفحص عن وجود الشَّيء[3]، أي: السَّعيُ لتحصيله، ومُحاوَلَةُ وِجْدانِ الشَّيءِ وأَخْذِه[4]، أمّا الابتغاء؛ فهو طلبُ تجاوزِ الاقتصاد فيما يُتَحرّى، والابتغاء خاصٌّ بالاجتهاد في الطَّلب، قال تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: 28][5]، فعبَّر في الآية عن نفي اجتهادهم لطلب الجاهلين؛ مبالغةً في خُلوِّ ذلك الفعل منهم.

الطَّلبُ محاولةُ تحصيل الشَّيء، والابتغاء الاجتهادُ في الطَّلب

(1) الرّاغب، المفردات: (بغي).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 19.
(3) الرّاغب، المفردات: (طلب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (طلب).
(5) الرّاغب، المفردات: (بغي).

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكرَ ما يُحزِنُ النَّبيَّ ﷺ من إعراض قومِه، سلّاه بأنَّ الهداية لله تعالى وحدَه

بعد أن أوردَ النَّظمُ الجليل أعذارَ المشركين، وكُفْرَهم بالقرآن، وإعراضَهم عنه، وأثنى على فريق من أهل الكتاب لإيمانهم بالقرآن، وكان إعراضُ قريش عنِ الإيمان به يُحْزِن النَّبيَّ ﷺ، وهم قومُه وأخصُّ النّاسِ به؛ أقبلَ النَّظمُ على مخاطبتِه ﷺ؛ تسليةً له، وإزالةً لكَمَدِه وغَمِّه، بأن ذكَّرَه بأنَّ الهُدى بيد الله[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَهۡدِي﴾: أصلُ (هدي) الرَّشادُ والبَيانُ والدَّلالةُ بلُطْفٍ إلى ما يوصِلُ إلى المَطْلوبِ، يُؤَنَّثُ، ويُذَكَّرُ، وهو لازِمٌ ومُتَعَدٍّ، يُقالُ: هَداهُ هُدًى وهَدْيًا، وهِدايَةً، وهِدْيَةً، وهَداهُ للدّين وإلى الدّين، أي: أرْشَدَهُ إليه، وبَيَّنَهُ له، وعَرَّفَهُ به، وضِدُّه: الضَّلالُ، ومِن معانيه أيضًا: الطّاعَةُ، والوَرَعُ، وطَريقُ الحَقِّ، وإخراجُ شَيءٍ إلى شَيْءٍ، والنَّهارُ[2]، والمقصود بالهُدَى في الآية: بيانُ الحَقِّ المُنقذِ مِنَ الضَّلال.

2) ﴿أَحۡبَبۡتَ﴾: أصلُ (حَبَّ) يدلُّ على اللُّزوم والثَّباتِ، فالحُبُّ والمَحَبَّةُ، اشْتِقاقُهُ مِنْ: أَحَبَّهُ؛ إذا لَزِمَه، والمَحَبَّةُ: المَيْلُ إلى الشَّيْءِ السّارِّ، وهي اسْمٌ للحُبِّ، والحُبُّ كذلك: الوِدادُ، ونَقيضُه: البُغضُ، يُقالُ: تَحَبَّبَ إليه، أيْ: تَوَدَّدَ إليه[3]، وحَبَّةُ القلبِ تشبيهًا بالحَبَّة في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 147.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (هدي)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 277، والمناوي، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 343.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حبب).

الهيئة، وحَبَبْتُ فلانًا، بمعنى: أصبت حَبَّة قلبِه، نحو: شغفتُه وكبدتُه وفأدتُه، وأحْبَبْتُ فلانًا: جعلتُ قلبي مُعرَّضًا لحُبِّه[1]، والمقصودُ بالمحبَّة في الآيةِ: تعلُّقُ القلبِ ووِدُّه للنّاس، أو ميلُ القَلْب إلى محبوب.

3) ﴿يَشَآءُۚ﴾: (شيء) أصلُ المَشيئَة: الإيجادُ، مَأْخوذة من الشَّيْء، وهو: كُلُّ مَوجودٍ إمّا حِسًّا أو مَعْنًى[2]، والمَشيئَةُ: الإرادَةُ والقَصْدُ، يُقال: شاءَ الرَّجُلُ، يَشاءُ شَيْئًا ومَشيئَةً ومَشاءَةً، فهو شاء، أيْ: أرادَهُ، وقَصَدَهُ[3]، والمَشيءُ: المُرادُ الذي يَتَعَلَّقُ بِهِ القَصْدُ، والمُرادُ بالمشيئة في الآية: الإرادةُ، وتُعرفُ بحصولِ الاهتداءِ، وتتوقَّفُ على ما سبقَ من عِلمه تعالى وتقديره[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الحقُّ سبحانه: إنَّك أيُّها الرَّسول ﷺ لا تقدِر على هداية قلوبِ مَن أحببتَهم إلى الحَقِّ، بأن تُدخلَهم في الإسلام، وإن بَذَلتَ في ذلك غايةَ المجهود، وجاوزتَ في السَّعي إليه كلَّ حَدٍّ معهود، ولكنَّ اللّه تعالى وحْدَه هو الَّذي يملك هدايةَ مَن يشاء هدايتَه إلى الإيمان، فهو سبحانَه الخالق لكلِّ شيءٍ، وقلوب العبادِ تحتَ تصرُّفه تعالى، يهدي مَن يشاء منها، ويُضلُّ مَن يشاء، على حسب مشيئته وحكمته الَّتي تخفى على النّاس، وهو سبحانه أعلمُ بالمُهتدينَ، أي: بالقابلين للهداية، المُستعدّين لها[5].

لا يتعلَّق حصولُ الهداية بالدّاعيَة، فاللهُ أعلمُ بالضّالين وبالمُهتدين

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي﴾ عمّا قبلها:

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي

تسليةُ اللهِ لنبيِّه بعد إيراد إعراض قومِه عنه

(1) الرّاغب، المفردات: (حبّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (شيء).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شيء).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 148.
(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1789، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 422.

مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا[1]، سيقت لتسلية النَّبيِّ ﷺ، بعد إيراد إعراض قومه عنه وكفرِهم بدعوته.

غرضُ توكيدِ الخبر في ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي﴾:

تقويةُ الخبرِ، وبيانُ انتفاءِ أسبابِ حُزنِ النَّبيِّ ﷺ

أكَّد النَّظمُ الجليل الخبرَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ مع أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يشكُّ في ذلك، فجاء التَّأكيدُ لتقوية الخبرِ، ولبيان انتفاء أسبابِ حُزنِه؛ تسليةً له ودفعًا لما يكرُبه.

دلالةُ صيغةِ المضارعة في ﴿لَا تَهۡدِي﴾:

عدمُ القُدرة على الهداية دائمٌ مُتجدِّدٌ

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع المنفيِّ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾؛ للدَّلالة على تَجدُّد النَّفي ودوامِه، أي: إنَّك ليس بمقدورك ذلك في كلِّ الأزمان، فانتفاءُ القُدرة عن ذلك دائمٌ[2].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته دون الاسم الصريح:

انتفاءُ القدرة على الهداية متعلِّقٌ بجميع النّاس

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿مَنۡ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، دون التَّعبيرِ بالاسم الصَّريح، فلم يقل: (إنَّك لا تهدي أحبابَكَ)؛ وذلك لما في الاسم الموصول من دلالةٍ على العموم، فالنَّبيُّ ﷺ يُحبُّ جميع مَن دعاهم إلى الإسلام، كما عبَّر بـ (المَحبَّة) في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾؛ لأنَّها دالَّةٌ على الإرادة التي ينبني منها خيرٌ، فالمحبَّة هي: إرادة ما تراه خيرًا، وهي أبلغُ مِنَ الإرادة، فكلُّ محبَّةٍ إرادةٌ، وليس كلُّ إرادةٍ محبَّةً[3]، وذلك لما في المحبَّة من شرط الخيرِ، وعموم الإرادة.

نُكْتَةُ حذفِ المفعول به في ﴿أَحۡبَبۡتَ﴾:

حبُّ النَّبيِّ ﷺ لأُمَّتِهِ أمرٌ مُسلَّمٌ به معلومٌ

حَذَفَ النَّظمُ الجليل المفعولَ به، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ لَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 147.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 74.

(3) الرّاغب، المفردات: (حبّ).

﴿تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، والتَّقدير: (أحببتَه)، أو: (أحببت نفسه)؛ وذلك للإيجاز في التَّعبير، ولظهور المعنى، وفي الحذف إبلاغٌ في إثبات حُبِّهِ ومحبَّتِهِ ﷺ لنفوس العباد مِن أُمَّته أُمَّةِ الدَّعوة، وهو يعني: أنَّ حبَّه إيَّاهم أمرٌ مُسَلَّم به معلومٌ، لا يحتاج إلى تصريح.

معنى (الواو) في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

استحقاقُ الهداية والقدرة عليها لله تعالى وحده

عطفَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾[1]، فعَطَف إثبات الهداية للّه تعالى على الهداية المنفيَّة عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ للدَّلالة على استحقاق الهداية والقدرة عليها للّه تعالى، ونفي قدرة النَّبيِّ ﷺ عليها.

معنى (لكنَّ) في جملة: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

إنَّما هدايةُ التَّوفيق بيد الله وحدَه

عبَّر النَّظمُ الجليل بالحرف (لكنّ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾؛ للدَّلالة على الاستدراك[2]، فلمّا تقدَّم نفيُ اللّهِ تعالى قدرةَ النَّبيِّ ﷺ على الهداية، استدرك؛ ليُبيِّن أنَّ الذين لا يقدر النَّبيُّ ﷺ على هدايتهم لا يعني أنَّهم لن يهتدوا مطلقًا، بل إنَّ شأن الهداية بيد اللّه يهدي مَن يشاء منهم، وأنَّ هدايتهم ليست مِن شأن مخلوق؛ إنَّما مِن شأن الخالق سبحانه وتعالى.

دلالةُ التَّعبير بعَلَم الذّات المُقدَّسة ﴿ٱللَّهَ﴾:

ما يختصُّ به اللهُ تعالى لا يكون لأحد من عباده مطلقًا

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الجلالة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾؛ للدّلالة على أنَّ هداية التَّوفيق حقٌّ للّه تعالى، وأنَّ القدرة عليها بيده وحدَه، فإنَّ اللّه تعالى الذي له الكمال والجلال، وله الأمرُ كلُّه، هو الذي يهدي مَن يشاء من عباده[3].

---

(1) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1721.

(2) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1721.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 317.

بلاغةُ طباقِ السَّلب في الآية:

تمكينُ الدَّلالةِ على ثبوت القُدرة في الإثبات وانتفائها في النَّفي

جمع النَّظمُ الجليل بين فعل مثبتٍ ﴿يَهۡدِى﴾ وآخر منفي ﴿لَا تَهۡدِى﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ﴾، وهذا طباق السَّلب؛ فالتَّناقضُ حاصل بالنَّفي لا بالضِّدِّ، والجمعُ بينَ الفعلين المُتناقِضَين بالنَّفي والإثبات يُمكِّنُ الدَّلالة على ثبوت القدرة في الإثبات وانتفائها في النَّفي.

دلالةُ تقديمِ اسم الجلالة على الخبر الفعليِّ:

الهدايةُ فعلٌ مختصٌّ به ﷻ

قَدَّم النَّظمُ الجليل المسندَ إليه على المسند الفعليِّ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى﴾؛ للدَّلالة على حصر شأن الهداية بيد اللّه تعالى وحده، فاللّهُ تعالى وحدَه الذي يملك هدايةَ مَن يشاء هدايتَه إلى الإيمان[1]، وفي التَّقديم - أيضًا - تقويةُ معنى الجملة وتحقيقها؛ بإسناد الهداية مَرَّتين إلى اللّه ﷻ: مَرَّةً إلى اسمه الظّاهر، ومَرَّةً إلى ضميره؛ لأنَّ هذه الجملة هي مناط التَّسلية والتَّسرية عنه ﷺ.

دلالةُ المضارعَةِ في ﴿يَهۡدِى﴾:

هدايةُ الله تعالى لعباده مُتجدِّدةٌ دائمةٌ

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع؛ تعبيرًا عنِ الهداية في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ﴾؛ لأنَّ هداية اللّه تعالى لعباده مُتجدِّدةٌ دائمةٌ؛ نظرًا إلى أفراد العباد في كل عصر ومِصر وجِنس.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَن﴾ في ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾:

هدايةُ الله تعالى عامَّةٌ لكلِّ مَن شاء مِنَ العباد

عبَّر النَّظمُ الجليل باسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ﴾؛ للدَّلالة على العموم، فهدايةُ اللّه تعالى لا تختصُّ بأحد دون سواه، فبابُ التَّوبة والقَبولِ مفتوحٌ لجميع العباد، وهذا دالٌّ على الأُلوهيَّة، وناطقٌ بها.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 422.

دلالةُ التَّعبير بالمشيئة دونَ الإرادة:

حصولُ الهداية دليلُ المشيئة

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ المشيئة دون الإرادة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾؛ لأنَّ المشيئة تقتضي وجودَ الشَّيء المُراد، أمّا الإرادة منه تعالى؛ فلا تقتضي وجودَ المُراد - لا محالة[1] - فالتَّعبيرُ بالمشيئة يقتضي وقوعَ الهداية، والهدايةُ حاصلةٌ، فدلَّ على أنَّها مشيئة لا إرادة، قال ابن عاشور: "والمشيئةُ تُعرَف بحصول الاهتداء، وتتوقَّف على ما سبق مِن عِلْمه وتقديره"[2]، وقد نظم القرآنُ الكريم المشيئةَ فعلًا مضارعًا؛ لأنَّ مشيئته تعالى دائمةٌ مُتجدِّدةٌ مُستمرَّة؛ نظرًا إلى تَجَدُّد الأفراد المتعلِّقة بالمشيئة.

معنى (الواو) في ﴿وَهُوَ﴾:

مَن يشاء اللهُ تعالى هدايتَه؛ هيَّأه لذلك

عطف النَّظمُ الجليل عِلْمَهُ بالمُهتدين في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ على هدايته مَن يشاء في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾[3]، فجمع بين هدايته مَن يشاء وكونه يعلم المهتدين؛ للدَّلالة على أنَّه إنَّما يهدي مَن يستحقُّ الاهتداءَ ممَّن هيَّأهم لطلب الهدى، واجتهادهم في تحصيله[4]، فهذه الجملة تتمَّة لما قبلَها.

دلالةُ التَّعبير بجملة ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾:

هدايةُ اللهِ تعالى لعبادِه قائمةٌ على العِلْم باستحقاقهم لها

لمّا ذكر النَّظمُ الجليل أنَّ الهداية تتعلَّق بمشيئته تعالى؛ أَتبَعَ ذلك بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هدايته مَن يشاء ليست اختيارًا، فهي لا تتعلَّق بالأسباب، بل إنَّ اللّٰه تعالى يعلم مَن يستحقُّ الهدايةَ، فيشاء له أن يهتدي[5]، فاللّٰهُ تعالى "هو أعلم من كلِّ أحدٍ بالمُهتدين في أحوالهم، ومقاديرِ استعدادهم على حسب ما

(1) الرّاغب، المفردات: (شيء).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 148.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 275.
(4) الخطيب، السّراج المنير: 3/ 108.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 318.

تهيَّأت إليه فطرُهم من صحيح النَّظر، وقبولِ الخير واتِّقاءِ العاقبة، والانفعال لما يُلْقَى إليها منَ الدَّعوة ودلائلها، ولكلٍّ ذلك حالٌ ومدًى، ولكليهما أسبابٌ تكوينيَّةٌ في الشَّخص وأسلافه"[1].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿أَعۡلَمُ﴾ مادة وصيغة:

عِـلْـمُ الـلـه تـعالى متعلِّقٌ باستحقاقهم الهدى

عبَّر النَّظمُ الجليل بالعِلْم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة على عِلْمه تعالى باستحقاقهمُ الهدى وما يتبعُه مِن استحقاق الأجر المضاعف، فكأنَّه قيل: وهو تعالى أعلم بالمُهتدين، كمَنِ اهتدى مِن أهل الكتاب، فيُجازيهم على اهتدائِهم بأجْرَين[2]، وقد جاء التَّعبير عنِ العِلْم بصيغة (أفعل)، وليس المرادُ المفاضلة، فليس مع علم اللّه تعالى علمٌ بحيث يصحُّ أن تقع المقارنةُ بينهما، فذَكَر أئمَّةُ التَّفسير أنَّ المُراد به هنا أنَّه عالم[3]، وإنَّما عبَّر بصيغة (أفعل) للمبالغة في عِلْمه تعالى، أي: لبيان قوَّة عِلْمِه وعَظَمَته في ذاته.

معنى (الباء) في القيد ﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾:

عِلْمُ الله تعالى لا يَـنـفـكُّ عن عباده وأحوالِهم

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة على التصاق عِلْمه تعالى بالمُهتدين، وفي ذلك دلالةٌ على قوَّة العِلْم بهم وكمالِه، فكأنَّ عِلْمَه بهم قد حصل، وتحقَّق حتّى صارَ مُلْتَصِقًا بهم لا يفارقُهم، وذلك يُبيِّن قوَّة عِلْمه تعالى بحالهم.

دلالةُ إسناد الهداية لهم ﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾:

قابليَّةُ الهداية في العبد، هي بابُ الإنعام عليه بالهُدى

عبَّر النَّظمُ الجليل عن هداية اللّه مَن عَلِمَ هدايتَه، بكونهم هم مَنِ اهتدَوا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، مع أنَّ اللّه تعالى هو مَن يهديهم؛ وذلك للدَّلالة على أنَّهم قابلون للهداية،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 148.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 303.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 10/ 134.

مُسْتَعِدّونَ لها[1]، فاللّهُ تعالى لا يظلم أحدًا، ولا يُفضِّل أحدًا مِن عباده بلا استحقاقٍ متأتٍّ مِن عبده.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحُبُّ والهَوَى:

الـحـبُّ تـعـلُّق القلبِ بمَن فيه خـير، والـهـوى ميلٌ لشهوة

الحُبُّ: اشتُقَّ مِن حَبَّة القلب، وحَبَبْتُ فُلانًا، بمعنى: أصبتُ حَبَّة قلبِه، نحو: شغفتُه وكبدتُه وفَأدتُه، وأحْبَبْتُ فلانًا: جعلت قلبي معرَّضًا لحُبِّهِ، والمَحبَّة: إرادةُ ما تراه، أو تظنُّه خيرًا[2].

أمّا الهَوَى؛ فهو ميلُ النَّفس إلى الشَّهوة، ويقال ذلك للنَّفس المائلة إلى الشَّهوة، وقيل: سُمّي بذلك؛ لأنَّه يَهْوي بصاحبه في الدُّنيا إلى كلِّ داهية، والهويُّ: سقوطٌ من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ[3].

فكان الحُبُّ أدلَّ على سُموِّ تعلُّق القلبِ بمَن له صلة قُرْبَى أو مكانة في النَّفس، وقد آثَرَ النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بالحبِّ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ خالٍ عن ميل النَّفس إلى الشَّهوة.

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 206.
(2) الرّاغب، المفردات: (حبّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (هوى).

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد ذِكْرِ الهداية ذُكِرَ مَن حُرِمَ التَّوفيق إليها

لمّا ذَكَر النَّظمُ الجليلُ أنَّ اللّه تعالى هو يهدي مَن يشاء من عباده، وأنَّه أعلمُ بمَن له استعدادٌ وقبولٌ للهداية؛ أورد في هذه الآية عُذْرَ مَن طُمِست بصيرتُهم ونَأوا بأنفسهم عنِ الهُدَى، مُحتجّين بأنَّهم لو تَبِعوا الإسلامَ؛ فإنَّهم سيُلاقون الضَّرر، والواقعُ أنَّهم إنَّما فقدوا الاستعدادَ على قَبول الهُدى، فأخبر النَّظمُ الجليل عنِ اعتذارهم في عدم اتِّباعهم للهُدى، وأتبعَه بالرَّدِّ على هذه الشُّبهة؛ مبيِّنًا أنَّ ما اعتذرتُم به لا يصلح أن يكون عذرًا[1]؛ لأنَّ اللّه تعالى قد حفظكم مِنَ التَّخطُّف حالَ كفرِكم، أفلا يحفظُكم حالَ إيمانكم؟.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَتَّبِعِ﴾: أصلُ (تبع) التُّلوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا؛ إذا تَلوتَهُ، واتَّبَعْتَهُ، وأَتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ[2]، كأنَّما لَحِق، أو التصق به، وتَطَلَّبه مُتَّبِعًا له[3]، قال أبو عُبيد: "ويُقال: أَتْبَعْتُ القَومَ؛ إذا كانوا قد سبقوكَ، فَلَحِقتَهم، قالَ: واتَّبعتُهم؛ إذا مرّوا بكَ، فمضيت مَعَهم، وتبِعتَهم تَبَعًا مثله"[4]، وأَتْبَع فلانٌ فلانًا؛ إذا تَبِعَه يُريد بِهِ شَرًّا، كما أتبعَ فِرْعَوْنُ موسَى، وأمّا التَّتبُّع؛ فأنْ يَتتبَّع في مُهْلة شَيئًا بعد شَيْءٍ[5]، والمراد بالاتِّباع في الآية: اقتفاءُ أثرِ الشَّيء بحيثُ لا يفوته.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 75.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).

2) ﴿نُتَخَطَّفْ﴾: أصلُ (خطف) يدُلُّ على استِلابٍ في خِفَّةٍ[1]، والخَطْفُ: الاستلابُ، وقيلَ: الخَطْفُ والأخْذُ في سُرعةٍ واستلابٍ، خَطِفَه بالكسرِ، يَخْطَفُه خَطْفًا، بالفتح، وهيَ اللُّغَةُ الجَيِّدَةُ، وفيهِ لُغَةٌ أُخرى حَكاها الأخفش: وخَطَفَ، بالفَتْح، يَخْطِفُ بالكَسْرِ، وهيَ قَليلَةٌ رَديئَة لا تَكادُ تُعْرَفُ: اجْتَذَبَه بسُرْعة[2]، يُقال: خَطِفْتُ الشَّيءَ، واخْتَطَفْتُهُ؛ إذا اجتَذَبْتُه بِسُرْعَة[3]، والتَّخَطُّفُ: مُبالغةٌ في الخَطْفِ، وهو في الآية: انتزاعُ شيءٍ بسُرعةٍ[4].

3) ﴿حَرَمًا﴾: (حرم) أصلٌ واحدٌ، وهو المَنْعُ والتَّشديدُ[5]، يُقالُ: حَرَّمَ الشَّيءَ يُحَرِّمُهُ تحريمًا، أيْ: مَنَعَ منه، ولم يُجِزْهُ، والحَرامُ: المَمنوعُ، والتَّحريمُ: الحَظْرُ، وشيءٌ مُحَرَّمٌ، أيْ: محظورٌ، وضِدُّه الإباحةُ، والإذنُ والجَوازُ، ومكانٌ حَرامٌ، أي: يُمنَعُ دُخولُهُ، ومنه سُمّيَ الشَّهْرُ الحَرامُ بذلكَ؛ لأنَّ العَرَبَ تَمْتَنِعُ عنِ القِتالِ فيهِ[6]، والمقصود بالحَرَمِ في الآية: المكانُ المَحدودُ المُحيطُ بمكَّةَ من جهاتها على حُدودٍ معروفةٍ، حَدَّدها إبراهيمُ عليه السلام ونَصَبَ أنصابًا تُعرفُ بها، فاحترمها العَرَبُ[7].

4) ﴿يُجْبَىٰٓ﴾: أصلُ (جبي) يدُلُّ على جمعِ الشَّيءِ والتَّجَمُّعِ، يُقالُ: جبيتُ المالَ أجبيهِ جبايةً: جمعتُه، ومِنْهُ اسْتُعير جَبَيْتُ الخَراجَ جبايَةً[8]، والاجْتِباءُ: افْتِعالٌ مِنَ الجِبايَةِ، وهو استخراجُ المالِ من مظانِّه[9]، والمراد بالجَبْيِ هنا: الجمعُ والجَلْبُ.

5) ﴿لَّدُنَّا﴾: أصلُ (لدن) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، يُقالُ لِلَّيِّنِ مِنَ القُضْبانِ: لَدْنٌ[10]، ولَدُن: ظَرْفٌ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ بِمَنْزِلَةِ (عِنْدَ)، وهو أخصُّ منها؛ لأنَّه يدلُّ على ابتداء نهاية، نحو: أقمتُ عنده من لَدُن طلوعِ الشَّمس إلى غروبها، فيوضع (لَدُنْ) موضعَ نهايةِ الفعل، وقَدْ أدخلوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خطف).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خطف).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خطف).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرم).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (حرم).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 79.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (جبي).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (جبي).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لدن).

عَلَيْهِ (مِنْ) وحْدَها مِنْ حُروفِ الجَرِّ، قالَ تَعالَى: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ [النِّساء: 67][1]، والمُراد بقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ في الآية: مِنْ قِبَلِنا، أو مِنْ عِنْدِنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَعِلّاتُ المشركين شهادةٌ عليهم بألسنتهم أنّهم أهلُ سَفَهٍ وضَلالٍ

يخبر تعالى أنَّ المُكَذِّبين من قريشٍ وأهلِ مكَّة يقولون للرَّسول ﷺ: إنْ نُؤمِنْ بكَ - يا مُحمَّدُ - فنَعبُدِ اللّهَ وحْدَهُ؛ ينتزِعْنا مُشرِكو العَرَبِ سَريعًا مِن مكَّةَ، فيُخرِجونا منها، أو يَأْسِرونا، أو يَقتُلونا؛ لِمُخالَفتِنا دينَهم، فَقَرَّعهمُ اللّهُ تعالى، وأنكرَ عليهم مقالتَهم، بتذكيرهم بأنَّه قد جعلَ لأهلِ مكَّةَ بلدًا آمِنًا مِن انتهاكِ حُرمته بقِتالٍ وغَيرِه، تُجْلَبُ إليه الثَّمَراتُ المتنوِّعةُ من مختَلِفِ البلادِ، عطاءً من عِندِ اللّه تعالى، ولكِنَّ أكثَرَ كُفّارِ مكَّةَ لا يَعلمونَ، ويَكفُرون، ولا يَشكُرونَ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾:

مِن كمال تسليته ﷺ بيانُ حُجَجِ المُعْرِضين عنِ الإيمان، والرَّدِّ عليها

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ [القصص: 48]، فكلٌّ منهما بيانٌ لحالهم بعد عرض القرآن الحَقَّ عليهم، وهذه الآيةُ دليلٌ على أنَّ مَن لم يؤمن برسول اللّه محمَّد ﷺ من قومه، إنَّما يَتَّبِعون أهواءَهُم؛ لأنَّ حُجَّتَهم التي أوردوها، وذكرَتْها هذه الآية، واهيةٌ - لا محالة - ومردودٌ عليها بما يُبيِّن ذلك أبلغ بيانٍ وأحسنه.

نُكْتَةُ تقييد اتِّباعِ الهدى بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

للدَّلالة على أنَّ اتِّباعَهمُ للنَّبيِّ ﷺ غيرُ وارد، ولو على سبيل الاحتمال

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بحرف الشَّرط ﴿إِن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اتِّباعَهمُ النَّبيَّ ﷺ غيرُ وارد، ولو على سبيل الاحتمال، وهذا مِن بلاغتهم؛ لأنَّهم في

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لدن).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 287، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 247، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 320، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 621.

سياق الاحتجاج لكفرهم، فالتَّعبيرُ بـ: ﴿إِن﴾ توطئةٌ للحُجَّة الواردة في جواب الشَّرط، التي هي في أبصارهم وبصائرهم قويَّةٌ بحيثُ يتأسَّس عليها عدمُ اتِّباع الهُدى معه ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿نَّتَّبِعِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إلْفُ الباطلِ مفسدةٌ للحقِّ

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الاتِّباع في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾؛ للدَّلالة على موافقتهم ومتابعتِهم أوامرَه وتعاليمَ دينِه، واقتفاءَ ما يأتي به منَ الوحي والشَّريعة، وهو أضعفُ في الدُّخول في الدّين منَ الطّاعة؛ فإن كان منهم دخولٌ افتراضًا، فهو اتِّباعٌ لا طاعةٌ، فهذا عنصر مبنيٌّ على التَّعبير بـ ﴿إِن﴾، ثمَّ ينبني عليه هو صيغةُ الافتعال، فقولُه: ﴿نَّتَّبِعِ﴾ على وزن (نفتعل)، وفيه معنى التَّكلُّف؛ لأنَّه اتِّباعٌ صادرٌ عن غير طواعيَةٍ ورضًا ومحبَّةٍ وقَبول، والحاصلُ: أنَّ مُطلقَ الاتِّباع يكون منَّا؛ وإن لم يكن عن رغبةٍ، يترتَّبُ عليه التَّخطُّف المَذكور في جواب الشَّرط، ويجوز أن تكون هذه الصّيغةُ دالَّةً على المبالغة في الاتِّباع[1]، أي: إنَّهم يتَّبعونَه غايةَ الاتِّباع؛ ليَبْنوا على ذلك أنَّ مشكلتَهم ليست في الاتِّباع، وإنَّما هي الخوفُ مِنَ الضَّرر الذي سيكون بسبب إيمانهم، وهذا ليس بحَقٍّ؛ وإنَّما هي حُجَّةُ مَن أَلِفَ الباطلَ، فغلبَ إِلْفُهُ ذلك على الاعتراف بالحَقِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾:

في تسميتهم القرآنَ هدًى دليلٌ على مَكرهم وخُبثِهم

أوثرَ التَّعبيرُ بالهدى في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ﴾ دون أن يقولوا: الإسلام أو القرآن وغيره؛ للدَّلالة على كونهم علموا أنَّه سبيلُ الحقِّ، وأنَّه يهدي إلى الخير، لما فيه مِنَ التَّوحيد والتَّعاليم السّامية، وإنَّما عَبَّروا بذلك؛ ليُمكِّنوا حُجَّتَهم في النُّفوس، ويُقنعوها بها، فإنَّ الهُدى تحصل بهِ استقامةُ الحياة، وبهِ يكون الأمن والأمان، والسِّلْمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 319.

والسَّلام، لكنَّ هذا الهدى بهِ يُتخطَّفون مِن أرضهم، أفيكون هدًى؟ كأنَّهم يَتهكَّمون به بتسميته هُدًى، وهَيْهات هَيْهات ما يريدون! وقد ذهب بعضُ أئمَّةِ التَّفسير إلى أنَّ الهُدى هنا بمعنى الإسلام بتوحيد الله تعالى وتركِ الشِّرك[1]، فَذِكْرُ الهُدى ليبيِّن أنَّ الإسلام هو الهدى نفسُه.

براعةُ تقييد اتِّباع ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ بـ ﴿مَعَكَ﴾:

قيَّد النَّظمُ الجليل اتِّباعَ الهدى بمَعيَّة النَّبيِّ ﷺ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾؛ إيماءً لحاله مع النّاس، أي: إن نتَّبعْكَ وأنتَ على ما أنتَ عليه من مخالفة النّاس[2]، وقلَّةِ الأتباعِ؛ فإنَّنا هالكون، وفائدةُ التَّقييدِ به: الإبلاغُ في بيان كون المُترتِّب على إيمانهم ضررَهُم - لا محالة - فحصولُ الجواب: ﴿نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ مع القيد: ﴿مَعَكَ﴾ أقوى وآكَدُ وأشَدُّ في أبصارهم وبصائرهم، وقد دحضَ القرآنُ ذلك في الاستفهام اللّاحق لجملة الجواب.

من سمات أهل الباطل والعناد الاحتشادُ لحُجَجِهم

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿نُتَخَطَّفۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المبني للمفعول في قوله جلَّ شأنه: ﴿نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾؛ للدَّلالة على شمول مَن يستطيع أن يَخْطِفَهم، أي: مِن أيِّ خاطفٍ أرادَنا؛ لأنَّنا إذا اتَّبعناكَ؛ سنَصيرُ قليلًا في كثير من غير نصير؛ لمخالفة كافَّة العرب لنا حينَئِذٍ، والقرآنُ استعار الاختطاف للأَسْر؛ لأنَّ الأصل: نُؤْسَرْ من أرضنا، والتَّخَطُّف للطَّير يقع منها على العصافير ونحوِها، وإنَّما عبَّر بالاختطاف دونَ غيرِه؛ لدلالتِه على سُرعة الانتزاع والأخذ[3]؛ إبلاغًا في رفض الإيمان، ببيان عظيم الضَّرر المُتَرتِّب عليه، وجاء التَّعبير بصيغة (تفعَّل)؛ للدَّلالة على المبالغة في الخطف وسُرعته.

ضعيفُ الحالِ يخشى الاختطافَ من كلِّ أحد

(1) الخطيب، السّراج المنير: 3/ 108.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 319.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 319.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في القيد ﴿مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾؛ للدَّلالة على الابتداء، أي: (يبتدِئ خَطۡفُنا من أرضنا)، فيكون تعدّي الأعداءِ بالِغًا إلى أرضنا، وهذا يعني: عِظَمَ هذا التَّخطُّف، وقوَّةَ الخاطِفين.

بدايةُ الاختطاف كائنةٌ مِن أرضنا

دلالةُ تقييد التَّخطُّف بكونه ﴿مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾:

قيَّد النَّظمُ الجليل التَّخطُّفَ بشِبهِ الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾؛ للدَّلالة على شِدَّة التَّخطُّف والمبالغة فيه، فهو تَخطُّفٌ يبلغُنا، ونحنُ في أرضنا التي يجب أن نكون فيها آمنين، فإذا وقع التَّخطُّفُ منها؛ فإنَّ ذلك يدلُّ على ضَعف القائلين بإزاء قوَّة الخاطفين، والغَرضُ من ذلك: الإبلاغُ في تسويغ هذا الاعتذارِ.

اختطافُ المَرءِ من أرضه يَدلُّ على شِدَّة الضَّعْفِ وقوَّة الخَطر

دلالةُ الإضافة في ﴿أَرۡضِنَآۚ﴾:

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الأرضِ إلى ضمير المتكلِّمين في قوله جلَّ شأنه: ﴿نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾، والإضافةُ هنا بمعنى التَّمليك، أي: الأرضِ التي هي لنا، ونحن أصحابُها، أي: إنَّ التَّخطُّفَ إذا كان حاصلًا - ونحن في الأرض التي هي لنا - فإنَّه سيقع في سائر الأراضي من باب أولى، وهذا يدلُّ على المبالغة في الخوف من هذا المحذور المذكور.

بالغوا في خوفهم حتّى إنَّ الخاطفَ يَجْرُؤ على دَوْسِ أرضهم

دلالةُ الواو في ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ﴾:

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ بالواو في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ على جملةٍ استئنافيَّة مقدَّرةٍ، أي: أتركْناهُم، ولم نُمَكِّن لهم؟ أو: ألم نَعۡصِمۡهُم، ونجعلۡ مكانَهم حرمًا ذا أمنٍ لحُرمَةِ البيت الحرام الذي تتناحَرُ العربُ حولَه، وهم آمِنون؟ أو: ألم نَحۡمِكَ، ومَنِ اتَّبعَكَ منهم، وقد جئتُموهم مِنَ الخلاف بمِثۡل ما يُخالفون هم بهِ العربَ أو أشَدَّ، ولا نِسۡبَةَ لكم إلى عددهم ولا

قد ثبت حفظُ اللهِ لبلدهم حالَ شركِهم، فأنَّى يتركُهم حالَ إيمانِهم؟!

جَلَدِهم؟[1] والمعنى: ألم نَكُفَّ عنكم أيديَ النّاسِ بما يَسَّرْنا لكم مِن حُرمَةِ البلد، فكيف لو أسلمتُم، هل سنترككُم؟[2].

غرضُ الاستفهامِ في: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن﴾:

تقريعُ المُعذِّرين بذَريعة الخوفِ بسابقِ الأمنِ والإكرامِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاستفهام في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا﴾؛ تقريعًا لهم على مقولتهم التي تُخالف الحقيقةَ، أي: كيف يقولون ذلك؟ ونحن قد آمنّاهم في الحَرَمِ الذي تأتيه الخيراتُ من كلِّ حَدَبٍ وصَوْب، وهم مشركون، فكيف نَسلبُهم الأمنَ، وهم مؤمنون[3]، ففي الهمزة - بضميمة ما في حَيّزها من معنًى - إنكارُ أن يكون اللّهُ لم يُمَكِّن لهم حَرمًا، ووجه الإنكارِ: أنَّهم نُزِّلوا منزلةَ مَن ينفي أن ذلك الحَرَمَ مِن تمكين اللّه، فاستُفْهِموا على هذا النَّفي استفهامَ إنكارٍ، وهذا الإنكارُ يقتضي توبيخًا على هذه الحالة التي نُزِّلوا لأجلها منزلةَ مَن ينفي أنَّ اللّه مكَّنَ لهم حرَمًا[4]، وفيها مع ذلك معنى الزَّجر والرَّدع والتَّعجُّب، وما جرى في هذا الطَّريق مِنَ المعنى، ولا تخلو الهمزةُ مِن معنى الاستفهام الأساس، وهو محضُ التَّنبيه؛ ليَتنبَّهَ السّامِعُ، فيرجعَ إلى نفسه بعد سماع المعنى، فيَخْجَلَ، ويَرتدِعَ، ويعيا بالجواب.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿نُمَكِّن﴾:

أعدَّ اللهُ البلدَ الحرامَ مُستقرًّا ومَلاذًا للخائفين

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل التَّمكين في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا﴾؛ للدَّلالة على الاستقرار في المكان، وهو هنا مستعملٌ مجازًا؛ للدَّلالة على الإعداد والتَّيسير[5]، والظّاهر أنَّه مجازٌ مرسل علاقتُه السَّببيَّةُ، فالتَّمكينُ - وهو الجَعْلُ في مكانٍ - هو سببُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 502، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 301، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 276.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 293.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 149.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 423.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 149.

التَّيسير المَذكور، وهو الأبلغ في سياق الرَّدِّ على التَّخطُّف، وجيءَ به بصيغة المضارع للدَّلالة على التَّجديد والاستمرار في ذلك التَّمكين، وهذا يُفصِح عن عظيم ذلك الإنعام والامتنان.

نُكْتَةُ إسنادِ ﴿نُمَكِّن﴾ إلى نون العَظَمة:

تعظيم النعم الحسية والمعنوية في عيون أهل الحرم

أسند النَّظمُ الكريم فعلَ التَّمكين إلى ضمير التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ للدَّلالة على عِظم التَّمكين، أي: مَكَّنا لهم غايةَ التَّمكين[1]، وتعظيمُ التمكينِ مِن شأنه أن يَستحْضِر في أبصارهم وأذهانهم النِّعمَ الحِسّيَّةَ والمَعنويَّة التي تجيئُهم مِن طريق ذلك الحَرمِ الآمِن؛ لعلهم يرجعون إلى أنفسهم، فإذا رجعوا إليها؛ راجعوها، وإذا راجعوها؛ نطقت نفوسُهم بأنَّ ما قالوه إنَّما هو الهوى والباطل.

معنى (اللّام) في ﴿لَّهُمْ﴾، ونُكتة تقديمه:

التَّمكين لأجلهم على وجه الخصوص لسَكَنِهم بالحَرَم

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ للدَّلالة على التَّعليل، أي: فعلنا ذلك لأجلهم؛ لأنَّهم سكّان الحَرَم، فهو وطنُهم ومَحَلُّ سكناهم، فكان التَّمكينُ لأجلهم، وتقديم ﴿لَّهُمْ﴾ على المفعول به؛ للدَّلالة على اختصاصهم بذلك التَّمكين، فنالوا منَ النِّعم - وهم في بلد غيرِ ذي زرع - ما لم ينَلْهُ سواهم مِن سائر البلاد؛ ولأنَّهم المقصودون بالرَّدِّ على شُبهة التَّخطُّف، والتَّرغيبِ في الإيمان.

دلالةُ التَّعبير بمفردة الحُرْمَة في ﴿حَرَمًا﴾:

الحَرَمُ عِصْمَةٌ للخائفين وأمانٌ لِلّائِذين

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الحرم في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ بلدهم محفوظٌ آمنٌ، بسبب تحريمه وتحريم القتل فيه، وكان العرب يقدِّسونه، فلا تُنْتَهكُ الحُرُماتُ فيه،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 320.

والنّاس من حولهم في خَطَر مُحْدِق، فالإخبارُ بكونه حَرَمًا يَدُلُّ على عصمتهم وأَمْنِهم دونَ سواهم[1].

دلالةُ وصفِ الحَرَم بـ ﴿ءَامِنًا﴾، وكونُه اسمَ فاعلٍ:

صفةُ الأمان ثابتةٌ دائمة في الحَرَم

وُصِفَ الحَرَم بكونه آمنًا في قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ إبلاغًا في إحاطة الأمن به، واستقرارِ الأمان فيه لكلِّ داخلٍ فيه، وأنَّ الخائفَ يقصِدُه للأَمْن، حتّى إنَّ الطَّيرَ تأمَنُ من كواسِرها، والوحشَ من جوارِحها، وحتّى إنَّ سيلَ الحِلِّ لا يَدخلُ الحَرَم، بل إذا وصل إليه؛ عدلَ عنه[2]، فهو مجازٌ عقليٌّ، ومجيءُ الوصفِ بصيغة اسم الفاعل ﴿ءَامِنًا﴾؛ للدَّلالة على ثبوت هذا الوصف، فهو متَّصف بالأمن أبدَ الدُّهور.

الموقعُ البيانيُّ لجملة: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾:

البيتُ الحرام مقصِدٌ دائم بِجَبْي الثِّمار

وصف النَّظمُ الجليل الحرمَ بصفة ثانية، فقال جلَّ شأنه: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾، فبعد أن وصفَه بالأمن؛ أتبعَه بما يحتاج إليه النّاس بعد الأمن والحفظ، وهو وفْرةُ الزّاد والمآكل، وفائدةُ هذه الصِّفة: أنَّها تدفع ما يوحي اعتذارهم به من انقطاع الميرة عنهم حالَ إيمانِهم واتِّباعِهمُ النَّبيَّ ﷺ[3]، ولن يستمتعَ النّاسُ بالمأكل والمشرب في الحَرَم وما حولَه، وهم غيرُ آمنين، فلمَّا وصفَه القرآنُ بالأمن؛ أَتْبَعَهُ ما تطلبُه النَّفسُ بعدَها[4].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يُجْبَىٰٓ﴾:

تُجمَعُ الثِّمارُ من كلِّ حَدَب وصَوْب إلى البلد الحَرام

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الجباية في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الثِّمار تُجمَعُ وتُحمَلُ إليه مِن كلِّ جانب من جوانب الأرض[5]، كما أنَّ الجباية تُشْعِر بدوام

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 19.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 320.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 19.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 504.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 19.

حَمْلِ الثِّمار إليه دونَ انقطاع؛ لأنَّ (جبى) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على جمع الشَّيء والتَّجمُّع، فالجِبا (بكسر الجيم): ما جُمِع منَ الماء في الحوض أو غيره[1]، فما يُجمع إليه يتَجَمَّع فيه، فالزّادُ فيه دائم، وتأكَّدَ ذلك الدَّوامُ بالتَّعبير عنه بصيغة المضارع، فهو جبيٌ دائمٌ مستمِرٌّ.

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي قوله: ﴿يُجۡبَىٰٓ﴾:

التَّـفـصـيـلُ في الامتنان أدلُّ على الإحسان

في قوله تعالى: ﴿يُجۡبَىٰٓ﴾ قراءتان متواترتان؛ فقد قرأ نافعٌ وأبو جعفر ورويس عن يعقوب ﴿تُجۡبَىٰٓ﴾ بالمُثناة الفَوقيَّة، وقرأ الباقون: ﴿يُجۡبَىٰٓ﴾ بالياء التَّحتيَّة؛ مراعاةً للمضاف إليه، وهو: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾[2]، ولعلَّ قراءةَ التَّأنيث تُشير إلى قسم مِنَ الثَّمرات؛ وهو الفاكهةُ؛ فإنَّها أخَفُّ على النَّفس مِن غيرِها، وقراءةُ التَّذكير تُشير إلى قسم آخر، وهو الأطعمةُ.

فمن قرأ بالتاء فلتأنيث الثمرات. ومن قرأ بالياء فلثلاث علل: إحداهن: أنه فعل مقدم فشبه بمقام النسوة. والعلّة الثانية: الحجز بين الاسم والفعل بحاجز. والعلة الثالثة: إن كان عَلَم التّأنيث في الثمرات التاء فإنّ تأنيثها غير حقيقي[3]. وهذه هي الحقيقة: فمن يرى الأرزاق في يومنا هذا في الأسواق في مكة المكرمة يعلم علم اليقين أنّ الثمرات تجبى إليه طريَّة طازجة، فهي ترد من أقطار الدّنيا بواسطة الشاحنات والطائرات والبواخر المزودة بالمبردات من أقطار بعيدة، لم نكن نحلم بالوصول إليها، وفي هذا كرامة مكة وأهلها على اللّه جل في علاه.

فمَجموعُ القراءتَيْن يُمَكِّن معنى الامتنانِ والإحسانِ بتلك النِّعم، التي عُبِّر عنها بقوله: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾، ويكون في ذلك إبلاغٌ في الرَّدِّ على شُبْهَة التَّخَطُّف المَذكورة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 503 - 504.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/342، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 150.
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع: 2/ 178.

نهايةُ حَملِ الثِّمارِ مُستَقرُّه في مَكَّةَ

معنى (إلى) في القيد ﴿إِلَيۡهِ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (إلى) في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ للدِّلالة على انتهاء الغاية، ببلوغ جَبي الثَّمراتِ إلى البلد الحرام، فتُحمَل الثِّمارُ حتّى تصلَ إليه، وهذا يُشعِر بأنَّ قَصْدَ التُّجّارِ أن يبلغوا إليه بتجارتهم؛ تعبيرًا عن دوام وفْرة المَأكل فيه.

جَبيُ الثَّمرات خاصٌّ بالبلد الحرام

نُكْتَةُ تقديمِ القيد ﴿إِلَيۡهِ﴾ على المسنَد إليه:

قَدَّم النَّظمُ الجليل شِبهَ الجملة على نائب الفاعل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاص، أي: تُجْبَى إليه تلك الثِّمارُ خاصَّةً دونَ غيرِه منَ البلاد في جزيرة العرب[1]، ولأنَّ الحرَمَ هو المُحَدَّث عنه، والمُحْتَفلُ به.

كثْرتِ الثِّمارُ وتعدَّدت أنواعُها في البلد الحَرام إكرامًا وتفضُّلًا

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ثَمَرَٰتُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الثَّمرات في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المحمولَ إلى البلد الحرام هو ثمار النَّبات؛ تعبيرًا عن جودة المأكل، وقد أوثِرَ المَجيء بصيغة الجمع؛ للدَّلالة على تنوُّع الثِّمار المحمولة إلى البلد الحرام وكثرتها.

كلُّ الثِّمار في بلاد العرب ومحيطِها محمولةٌ إلى مكَّة

لطيفةُ إضافةِ ﴿ثَمَرَٰتُ﴾ إلى صيغة العموم:

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الثِّمارِ إلى صيغة عموم، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ للدَّلالة على تكثير الثِّمار والخيرات المَحمولة إليه، فإنَّ دلالةَ العموم في ﴿كُلِّ﴾ هنا ليست على إطلاقها، بل هو عموم نسبيٌّ، أي: كلُّ شيء يُصلِح حالَهم، ويقوم عليه أمرُهم، ممّا هو وافرٌ في بلاد العرب وما جاورَها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿شَيۡءٖ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بـ: ﴿شَيۡءٖ﴾، في قوله جلَّ شأنه:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 325.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 293.

تنوّعت وكَثُرت أصناف النَّباتِ والشَّجر الذي تُجبى ثمارُه إلى البلد الحرام

﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾؛ للإبلاغ في بيان عموم ما يُجبى إلى الحرم منَ الثَّمرات - وهو عموم عُرفيٌّ - فإنَّ كلمة: ﴿شَيۡءٖ﴾ أعمُّ النَّكرات؛ ففي تنكيرها دلالةٌ على التَّكثير في الأنواع منَ النَّباتات والأشجار التي تُجنى، وتُحمَل ثمارُها إلى مَكَّة، والمعنى: أنَّ الحرَم يأتي إليه بعدَ ذلك مِن كلِّ ما في الأرض مِنَ المال ما لم يخطر لأحد منهم في بالٍ، وقد صدق اللّٰهُ فيما قال، ومَن أصدقُ مِن اللّٰه قيلًا؟[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالرِّزق، وسرّ تنكيرُه:

عَظُمَ الرِّزقُ الكائنُ لأهل البلد الحَرام

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الرِّزق في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾؛ للدَّلالة على دَوامه، فالرِّزقُ يُشْعِر بالدَّوام، دونَ العطاءِ والهِبَة، وفي نظمه حالًا مِن ﴿ثَمَرَٰتُ﴾ بمعنى المفعول، بيانٌ لعِظَم هذه الثِّمرات؛ فهي رزقُهم، ومَجيء ﴿رِّزۡقٗا﴾ بصيغة التَّنكير؛ للدَّلالة على كثرته وعَظَمتِه.

معنى ﴿مِّن﴾ في ﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾:

الرزق وأسبابه من الله تعالى

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾؛ للدَّلالة على بداية صدور هذا الرِّزق، فهو صادر من لَدُنِ اللّٰهِ تعالى، وفي ذلك غاية التَّكريم والتَّشريف[2].

دلالة التَّعبير بـ ﴿لَّدُنَّا﴾ وإضافتِه إلى ضمير العَظَمة:

الرِّزقُ الكريم للبلد الحرام رزقٌ خاصٌّ من أبطَنِ رزقِ الله تعالى وأغربه

التَّعبيرُ بلفظ (لدن)؛ للدَّلالة على غاية عَظَمة هذا الرِّزق؛ لأنَّ (لدن) تُستعمَل فيما هو عجيب غريب؛ فلمّا كان مجموع ما رَزَقَهمُ اللّٰهُ في هذا الحرَم - مِنَ الأمنِ وجبايةِ هذه الثَّمراتِ في غاية الغَرابة في تلك الأراضي اليابسةِ الشَّديدةِ الحَرِّ، المَحفوفةِ مِنَ النّاس بمَن لا يَدين دينًا، ولا يخشى عاقبةً، ولا له مَلِكٌ قاهِرٌ مِنَ النّاس يَردُّه، ولا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 505.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 149.

نِظامٌ من سياسة للعباد يَمنعُه - عبَّر عنه سبحانه مع مظهر العَظَمة بـ (لَدُن)، فقال: ﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾، أي: مِن أبطن ما عندنا وأغربه، لا صنعَ لأحدٍ فيه[1]، وفي إضافة (لدن) إلى ضمير العَظَمة تفخيمٌ لشأن هذا الرِّزق، وبيانٌ بأنَّه من جهة الله تعالى، لا مِن أحدٍ ممَّن تَعَذَّرتُم بخوفِكم منه أن يَخطِفَكم[2].

دلالة العطف والاستدراك في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

خشيةُ التَّخطُّفِ صادرةٌ عن جهل ونسيان لنعمة الله تعالى عليهم

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ على قوله: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾؛ لأنَّه متعلِّق به على معنى: أنَّ المعطوف عليه يُقرِّر أنَّ ذلك الحرمَ نعمةٌ ربانيَّةٌ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ لا عِلْمَ لهم؛ فلذلك لم يتفطَّنوا إلى كُنْهِ هذه النِّعمة، فحَسِبوا أنَّ الإسلام مُفْضٍ إلى اعتداء العرب عليهم؛ ظنًّا بأنَّ حُرمتَهم بينَ العرب مَزيَّةٌ ونعمةٌ أسداها إليهم قبائلُ العرب[3]، ففائدةُ هذا العطف: بيانُ أنَّ مقولتَهم تلك إنَّما صدرت عن جهلٍ ونسيانٍ لنعمة الله تعالى عليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالأكثرية في ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

بعضُ المعاندين يعلمون، ومع ذلك يُصِرّون على الكُفر

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الكثرة بصيغة المفاضلة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، فنفى العِلْمَ عن الأكثريَّة، ولم ينفِه عن كلِّهم؛ لأنَّ بعضَهم أصحابُ رأيٍ وفَهْمٍ، فلو نظروا، وتَدَبَّروا؛ لما قالوا مقالتَهم تلك[4]، وهذا من براعة القرآن وإنصافِه؛ حيثُ لم يُعَمِّم الحُكم؛ نظرًا لانتقاضِه ببعضٍ منهم.

دلالةُ النفي وحَذفِ متعلِّق الفعل في ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

نفى النَّظمُ الجليل العِلْمَ عن أكثرهم بصيغة الفعل المضارع،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 325.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 424.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 150 - 151.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 150.

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على تَجَدُّد النَّفي واستمراره، فهم جاهلون على الدَّوام، لا ينقطع جَهْلُهم وانتفاءُ علمِهم في زمانٍ ما، وفي ذلك دلالةٌ على إصرارهم على الكُفر تبعًا لانتفاء عِلْمهم، ويُحقِّق ذلك: تنزيلُ فِعْل العِلْم منزلةَ اللّازم، فلا يُقدَّرُ له مفعول، أي: ليسوا ذوي عِلْم ونَظَرٍ، بل هم جَهَلَةٌ لا يتدبَّرون الأحوالَ؛ لأنَّهم ليس عندهم قابليَّةٌ للعِلْم حتّى يعلموا أنَّا نحن الفاعلون لذلك بترتيب أسبابِه، حتّى تمكَّن ذلك، وتَمَّ، فلا قُدْرَةَ لأحدٍ على تغييره[1].

جَهْلُ المُعانِد الكافِرِ دائمٌ مُستمِرٌّ لا ينقطع

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأمنُ والسَّلامةُ:

أصلُ الأمْنِ: طمأنينة النَّفس وزوالُ الخوفِ[2]، فهو يُقال بإزاء الخوف.

أمّا السَّلامة؛ فهي مِنَ الصِّحَّةِ والعافيَةِ، وأنْ يَسْلَمَ الإنْسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى[3]، والسِّلْمُ والسَّلامَةُ: التَّعرّي مِنَ الآفات الظّاهرة والباطنة[4].

الأمنُ الاطمئنانُ مِنَ الخوف، والسَّلامة صِحَّةٌ وعافيةٌ عنِ الأذى

وقد عبَّر النَّظمُ الجليل في الآية بالأمن؛ لأنَّ السّياق في الخوف من التَّخطُّف، فَذَكَّرهم تعالى بِنِعْمَةِ زوالِ الخوف مِنَ الحَرَم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 505، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 150.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(4) الرّاغب، المفردات: (سلم).

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ [القصص: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد إيراد قدرة الله تعالى على الحفظ والتّمكين؛ أورد قدرتَه على الإهلاك

لمّا ذكر النَّظمُ الجليل أنَّ الله تعالى قادرٌ على "التأمين والإنجاء، والتَّمكين معَ الضَّعفة؛ أتبعَه الإعلامَ بقُدرته على الإخافة والإهلاك مع القوَّة؛ ترغيبًا لهم - إن آمنوا - بإهلاك أضدادِهم، وترهيبًا - إن أصَرّوا - منَ المعاملة بعَكْسِ مُرادِهم"[1].

ومن المناسبة أيضًا: أنَّه تعالى لمّا ردَّ على شبهتهم بالرَّدِّ الأوَّل مبيِّنًا ما خَصَّ به أهلَ مَكَّة منَ النِّعم؛ أتْبَعَه بردٍّ آخر، مَفادُه: أنَّه تعالى قد أنزل على الأمم الماضية ما شاء مِنَ العذاب، فأزال عنهم النِّعمَ، وأحلَّ بهم النِّقمَ، ثمَّ أتْبَع ذلك ببيان أنَّ من سُنَّته تعالى أنَّه لا يُهلِكَ قومًا إلّا في حالة إرسال رسولٍ مبشِّرٍ ومنذِر[2]، أي: فإذا أصرُّوا على حُجَّة التَّخطُّف مِن أرضهم، أريناهم ما هو أسوأُ مِن ذلك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَطِرَتۡ﴾: أصلُ (بطر) يَدُلُّ على الطُّغيانِ في النِّعمةِ[3]، والبَطَرُ: الأشَرُ، وهو شِدَّةُ المَرح[4]، يقال: بَطِرَ فلانٌ نِعْمةَ الله، أي: كأنَّه مَرِحَ حتّى جاوزَ الشُّكْرَ، فتركَهُ وراءَه[5]، والبَطَرُ كذلك: دَهَشٌ يعتري الإنسانَ من سوء احتمالِ النِّعمة، وقِلَّة القيام بحقِّها، وصرفِها إلى غير وجهها، والمراد بالبَطَر في الآية: الطُّغيان بالنِّعمة[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 326.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 76.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بطر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (بطر).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بطر).
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 424.

2) ﴿مَعِيشَتَهَاۖ﴾: (عيش) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على حَياةٍ وبَقاءٍ، قالَ الخَليلُ: العَيْشُ: الحَياةُ، والمَعيشَةُ: الَّذي يَعيشُ بها الإنسانُ؛ من مَطْعَمٍ ومَشْرَبٍ وما تَكونُ بِهِ الحَياةُ، والمَعيْشَةُ والمَعيْشُ: اسْمٌ لِما يُعاشُ به[1]، والعَيْشُ: المَصْدَرُ الجامِعُ، والمَعاشُ يَجْري مَجْرَى العَيْشِ، تَقولُ: عاشَ يَعيشُ عَيْشًا ومَعاشًا، وكُلُّ شَيْءٍ يُعاشُ بِهِ أوْ فيه؛ فَهوَ مُعاشٌ[2]، وقولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124]، سُمّيَ بِهِ الشَّيءُ الَّذي يَحْصُلُ بِهِ العَيْشُ، تَسْميَةً لِلشَّيْءِ باسْمِ سَبَبِهِ، على طَريقَةِ المجازِ الَّذي غلبَ حتَّى صارَ مُساويًا للحَقيقَةِ، فالمَعيشَةُ في الآية اسْمُ مَصْدَرٍ بِمَعْنَى العَيْشِ والمُرادُ حالَتُهُ، فَهوَ عَلَى حَذْفِ مُضافٍ دَلَّ عَلَيْهِ المَقامُ، ويُعْلَمُ أنَّها حالَةٌ حَسَنَةٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَطِرَتْ﴾، وهيَ حالَةُ الأَمْنِ والرِّزْقِ[3].

3) ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: أصلُ (ورث) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هيَ الوِرْثُ، والميراثُ أَصْلُهُ الواوُ، وهوَ أنْ يكونَ الشَّيءُ لِقَوْمٍ، ثُمَّ يَصيرَ إلى آخرينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ[4]، يُقالُ: ورِثَ أباهُ، يَرِثُه، إِرْثًا، فهو وريثٌ، أي: صارَ إِلَيْهِ مُلْكُهُ بعد مَوْتِه، واللهُ ﷻ يَرِث الأرْض ومَن عليها، وهو خيرُ الوارِثين، أي: يَبقى، ويَفْنى مَن سِواهُ، فَيرجع ما كانَ مُلك العِباد إليه وحْدَه لا شريك لَهُ[5]، والمقصود بالإرْثِ في الآية: البَقاءُ بعدَ الموجودات تَشْبيهًا للبقاء بالإرْث.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإصرارُ على الكفر يُزيلُ النِّعَم

يقول الله تعالى: وكثيرٌ من أهل القُرى كانت حالُهم كحال هؤلاء في الأمن وخفض العيش، والدَّعةِ والاطمئنان، حتّى بَطِروا، واغتَرّوا،

(1) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عيش).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عيش).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 34، و20/ 150.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ورث).

ولم يقوموا بحقِّ النِّعمة منَ الشُّكر عليها بالإيمان، فأهلَكَهم، وأزالها عنهم، فتلك بُيوتُ القَوم الَّذين أهلَكْناهم، لم يَسكُنْها أحَدٌ مِن بعْدِ هلاكِهم إلّا قَليلًا مِن السُّكْنى حينَ يَنزِلُ بعضُ المارَّةِ فيما بَقيَ منها، وكُنّا نحنُ الوارِثينَ لِمَساكِنِهم، ولم يَملِكْها أحدٌ مِن بَعْدِهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَكَمْ﴾:

مَن لم يأتِ بالتَّرغيب؛ يأتِ بالتَّرهيب

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ الآية، ولمّا دَلَّ الاستفهامُ على الإنكار والتَّوبيخ والتَّقريع؛ اقتضى ذلك تذكيرَ قريشٍ بما وقع من إهلاكٍ للأقوام الذين كفروا بنِعَم اللّه تعالى، والمُراد تخويفُهم من غمط النِّعْمة وجَحْدِها[2]، ويجوز أن تكون الواوُ في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ واوَ الحال، فتكون هذه الآيةُ حالًا من ضمير: ﴿نُمَكِّن﴾، والمعنى: فعَلْنا بهم ما ذكرنا مِنَ النِّعمة مع ضعفهم وعَجْزِهم، والحالُ أنّا كثيرًا ما أهلكنا الأقوياء[3]، فتكون هذه الآيةُ من تمام ما قبلَها، وتقريرًا وتحقيقًا للامتنان فيها، ومِن جديد المعنى فيها: التَّهديد بالتَّعرُّض لقريشٍ، ومن لم يؤمن منهم بالانتقام والهلاك؛ شأنُهم شأنُ الأُمم التي كفرت بأنعُم اللّه، فأذاقها اللّهُ لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

دلالةُ ﴿وَكَم﴾:

كثرةُ الأُمم التي أُهلِكَت بسبب كُفرها وجُحودها النِّعم

عبَّر النَّظمُ الجليل بـ (كم) الخبريَّةِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ للدِّلالة على تكثير تلك الأُمم التي

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 540، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 301، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 328، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1793.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 150.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 505.

أُهْلِكَت بسبب كُفرها وجُحودها النِّعم[1]، وكان من الممكن أن يقال: (وقد أهلكنا من قرية) إلخ، لكن عُبِّر بـ (كم)؛ زيادةً في التَّخويف والتَّهديد، وتحقيقًا للامتنان بما هم فيه مِن نعمة الحَرَم الآمِن.

إهلاكُ القُرى كائنٌ بإفساد العيش فيها، وتخريبِها، وجَعْلِها خَواء

دلالةُ التَّعبير بالإهلاك:

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الإهلاك في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ﴾؛ للدِّلالة على إفساد عيشتهم؛ فإنَّ هَلاك الشَّيء يكون باستحالةٍ وفسادٍ، كقوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَۚ﴾ [البقرة: 205][2]، فأُخْبِرَ بالإهلاك عن تخريب ديارهم، واستحالتِها خاويةً خَرِبَةً، وهذا غايةُ التَّهديد بالانتقام؛ إن أصَرُّوا على شُبْهة التَّخطُّف مِن أرضهم.

إهلاكُ اللهِ تعالى الأُمَمَ يتَّصفُ بالعَظَمة والقوَّة

نُكْتَةُ إسنادِ الإهلاك إلى نون العَظَمة:

أسند النَّظمُ الجليل فعلَ الإهلاك إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ﴾؛ للدِّلالة على تعظيم الإهلاك، أي: أهلكناها بما لنا منَ العَظَمة، والتَّخويفُ والتَّهديدُ على ذلك قويٌّ، وهذا الإسنادُ يُشاكِلُ الإسنادَ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾، وقولِه تعالى: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾، ووراءَ ذلك مِنَ المعنى: أنَّكم إذا تجاهلتُم عَظَمةَ اللّهِ جلالًا وجمالًا في الإنعام، فلم تنقادوا له سبحانه؛ شاهدتم عَظَمةَ جَلالِه في الانتقام، وتمنَّيتُم ساعتَها أن ترجعوا إلى ما كنتُم فيه، وهَيْهات هَيْهات!

كَثرتِ الأُمَمُ الهالكة كَثْرةً مُؤكَّدة

معنى ﴿مِن﴾، ودلالة التَّعبير بالقرية:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ﴾ للدِّلالة على تأكيد التَّكثير الذي دلَّت عليه (كم) الخبريَّة، فإنَّ ﴿مِن﴾ عند دخولها على نكرة تفيد

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 20.

(2) الرّاغب، المفردات: (هلك).

التَّكثيرَ[1]، والأصل: (وكم قرية بطرت معيشتها)، وهذا إمعانٌ في إرعابهم وإيقاظهم مِن غفلة العناد والإصرار على المخالفة بالشِّرك والكفر، وأمّا التَّعبيرُ بالقرية؛ فمجازٌ مرسل عن أهلها، فإذا كان الإهلاك متسلِّطًا على القرية؛ كان شاملًا أهلَها - لا محالة - فهو هلاك الاستئصال، وهذا الإهلاكُ حاصلٌ مع قوَّة أهل القرية؛ لتجمُّعهم واتِّحادهم، فأين قوَّتُهم وبأسُهم مِن قوَّة الله وقُدْرته؟.

بلاغةُ إسناد البطر إلى القرية في ﴿بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ﴾:

بَطَرُ النِّعمة صفةٌ جامعة بين القرى المُهلكة وقريش

وصَفَ النَّظمُ الجليل القرى التي أهلكها بالجملة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ﴾، وفائدة هذا الوصف الإشارةُ إلى عِلَّة إهلاكها، وذلك أنَّ أهلها بَطِروا في زمان عيشهم الرَّخي الواسع، وفي ذلك إيماءٌ وتعريض للمخاطَبين من قريش، بأنَّ حالَهم كان كحالكم في الأمن وإدرار الرِّزق، فأهلكهمُ اللهُ؛ لمّا بَطِروا معيشتَهم[2]، وقد أسند النَّظمُ الجليل البطر إلى القرية في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ﴾ على طريقة المجاز العقلي، فإنَّ البطر إنَّما هو من فعل أهلها، فذكر المكان، وأراد السّاكن فيه وأهله، أو على تقدير مضاف محذوف، أي: بطِرتْ أيامَ معيشتها، وحالةَ عيشها الحسنة[3].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿بَطِرَتۡ﴾:

تكبَّروا عن شكرِ المُنعِّم مع تنعُّمهم بنِعمه الكثيرة

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل البَطَر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ﴾؛ للدِّلالة على تكبُّرهم عن شُكر النِّعمة، وهو هنا يتضمَّن معنى الكُفر؛ لأنَّ التَّكبُّرَ عن شُكر النِّعمة يقتضي عدمَ الاعتراف بها[4]. فالمُراد: تركُ شُكرِ النِّعمة ومُداراتِها بالنَّظر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 327.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 327.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 423.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 150.

إلى المُنعم وشكُرِه وتوحيده، فإنَّه مأخوذٌ مِنَ البَطَر، وهو الأشَرُ، وقِلَّةُ احتمالِ النِّعمة، والدَّهَشُ والحَيْرةُ والطُّغيان بالنِّعمة، والفعلُ مِن كلِّ هذه المعاني كـ (فرح)، وبَطَرُ الحَقُّ: أن يتكبَّر عنه، فلا يقبلَه، وبطَرَه كـ (نَصَرَهُ وضَرَبَهُ): شَقَّه، والبَطور: الصّخّابُ الطَّويلُ اللِّسان، والمُتمادي في الغَيّ[1]، فهذه الكلمة إنَّما توجز حالَ مِثْلِ قريش؛ مِمَّا يستوجب إهلاكَهم، وإسنادُ الفعل إلى ضمير القرية - التي هي مؤنَّثٌ لفظيٌّ - تحقيقٌ للمجاز المُرسل في قوله: ﴿قَرۡيَةِۭ﴾، فهذا الإسناد مؤسَّسٌ على هذا المجاز المُرسل، فلا يجوز القولُ بأنَّ هذا الإسنادَ قرينةٌ على الاستعارة المكنيَّة في: ﴿قَرۡيَةِۭ﴾، التي شُبِّهت بمَن يكون منه البطرُ، وامتدادُ المجازِ الجُزئيّ أيًّا كان نوعُه مِن وجوه حُسْنِه؛ فإنَّه بسببه يقترب مِنَ المجاز المُركَّب، والمجازُ المركَّبُ أبلغُ في ذاته مِنَ المَجاز الجُزئيّ.

دلالةُ الإضافة في ﴿مَعِيشَتَهَاۖ﴾:

تـنـعَّـمـوا بـمـعـيـشـتـهـم الـتـي عـلـمـوا اقتضاءَ شُكرِها، فـجَـحَـدوا أبـلـغَ جحود

أضاف النَّظمُ الجليلُ المعيشة إلى ضمير القريةِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ﴾، وهذا استمرارٌ للمجاز المُرسل في ﴿قَرۡيَةِۭ﴾ وتحقيقٌ له؛ للدَّلالة على أنَّ البطر وقع على المعيشة التي عاشوها، ويعرفونها، ويعرفون أنَّها تقتضي الشُّكرَ، فعَيشُ الحياةِ يستلزم معرفةَ النِّعَم وإدراكَ أهمّيَّتِها، واقتضاءَ شُكرِ المُنعِم، وهذا يعني أنَّ هذا الهلاكَ هلاكُ الاستئصال؛ لشموله كلَّ النِّعَم التي مُكِّنت لهم في القرية، ويَدُلُّ أيضًا على شِدَّة الإنكار عليهم، فهُم نَكَروا ما علموا، وتنعَّموا به، وقوله: ﴿مَعِيشَتَهَاۖ﴾: هو على تقدير مضاف محذوف، أي: بَطِرت أيامَ معيشتها، وحالةَ عيشها الحسنة[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 506.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 423.

معنى (الفاء) في: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ﴾:

تفصيلُ البيانِ عن شيءٍ، يُحَرّك لمعرفة ما غاب عنه أكثر

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ بالفاء الدّالَّة على السَّببيَّة؛ لأنَّه لمّا أخبر عن إهلاك الأُمم، تطلَّعتِ النَّفسُ إلى رؤيةِ آثار تلك الدّيار ومعرفتِها[1]، ففاءُ السُّرعةِ هي صورة معنى تشوُّف المُتلَقّين إلى آثارهم، فأشار إلى مساكنهم الباقية للتَّدليل على فناء أهلها.

مرجعُ الإشارة في (تلك)، ودلالةُ البُعْد فيها:

مساكنُهم التي نالت إهلاكًا عظيمًا حاضرةٌ شاخصة بحيث يُشارُ إليها

عبَّر النَّظمُ الجليل باسم الإشارة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؛ للإشارة إلى مساكنهم، وفائدةُ الإشارة: بيانُ أنَّ تلك المساكنَ حاضرةٌ بحيثُ إنَّها يُشار إليها، فهي حاضرةٌ في الذِّهن، فأنزلها منزلةَ ما يشاهِدُه السّامِعُ[2]، وقد جاء التَّعبير بصيغة البُعد؛ للدَّلالة على بُعد رتبتِها في الهلاك.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مَسَٰكِنُهُمۡ﴾، دون غيرها:

كان عذابُ أهلِ القرية حسّيًّا ومعنويًّا

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ (المساكن)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾؛ لأنَّ السُّكنى تدلُّ على الحلول في المكان المُتَّخَذ للسَّكن في الأوقات المعروفة، بقصد الاستمرار زمنًا طويلًا[3]، فعبَّر بالمساكن؛ لأنَّهم اتَّخذوها للسَّكن والإقامة الطَّويلة لوفرة النِّعم، فكانت متناسقةً بهذا مع التَّعبير بالمعيشة في قوله: ﴿مَعِيشَتَهَاۖ﴾، ومع قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنٗا﴾، ولكنَّهم فقدوا ذلك بالإهلاك بسبب إعراضهم وجحودهم، وفي التَّعبير بها إيماءٌ إلى أنَّ هلاكَها قد صاحَبَهُ عذابُهُم النَّفسيُّ؛ لأنَّها كانت مَحَلًّا لسَكَنِهم وهدوئِهم وراحتِهم وأمانِهم.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 328.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.

لطيفةُ الإضافة في ﴿مَسَٰكِنُهُمۡ﴾:

في الإضافة تحقيقٌ لكَوْن هلاكِهم استئصالًا

أضاف النَّظمُ الجليل المساكنَ إلى ضمير الغائب في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ تلك المساكن التي لم تُسْكَن من بعدهم لانقراض أهلها[1]، بما في الإضافة مِن معنى: أنَّها هي مساكنهم هم دون غيرِهم، فكأنَّهم اختصّوا بميزة بقاء مساكنهم خاويةً خاليةً مِنَ السُّكّان.

عِلَّةُ فصل جملة ﴿لَمۡ تُسۡكَن﴾ عمّا قبلَها:

التَّفصيلُ في مقام التَّرهيب يشتدُّ به التَّرهيبُ

فصَلَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾؛ لأنَّها مستأنفة استئنافًا بيانيًّا[2]، فكأنَّه قيل: لأيِّ اعتبار أُشير إلى مساكنهم؟ فقيل: أُشير إليها لِخُلوِّها من أهلها وانقراضِهم، ومعنى قوله: ﴿لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: لم يتركوا فيها خَلَفًا لهم، وذلك للكناية عنِ انقراضهم عن بكرة أبيهم[3]، وهذا المعنى تفصيلٌ لدلالة إضافةِ المساكن إليهم بالإفصاح بها، وهو أيضًا لازمٌ عنِ الجملة السّابقة: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ في نور قوله: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ﴾؛ مع ضميمة استحضار المجاز المرسل، فكان بين هذه الجملة وجملة: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ كمالُ اتِّصالٍ مِن نوع التَّوكيد المعنويِّ.

دلالةُ بناء المضارع ﴿تُسۡكَن﴾ للمفعول:

هُجِرت ديارُهم حتّى صارت أطلالًا

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المبني للمفعول في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مساكنهم لم يسكنها أحدٌ ممَّن احتاج للسَّكن فيها، مختارًا أو مضطرًّا[4]، وصيغةُ المُضارعة أضافت على هذا معنًى زائدًا، وهو استمرارُ عدم سَكَنِها مِن أحد، فكلَّما تجدَّدت رؤيتُها لأحد؛ لم يُقْبِل عليها للسُّكْنَى.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 277.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 328.

دلالةُ الظَّرفيَّةِ والإضافة في: ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾:

بعدَ النِّعَمِ الوفيرة استحالت ديارُهم خَربةً شاحبة

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف الزَّمانيِّ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ انتفاء السَّكن وقع بعدَ الإهلاك لا قبلَه، فإنَّ نِعمَهم كانت قبلَ ذلك وفيرةً، وحياتَهم رغيدة، ولكن بطروا؛ فأُهلكوا، ولمَّا كان المُرادُ إفهامَ نفي قليل الزَّمان وكثيره؛ أثبت الجارَّ ﴿مِّنۢ﴾ فقال: ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾[1]، وإضافةُ البعديَّةِ إلى ضمير ذواتهم قرينةٌ مِنَ القرائن التي في الآية على المجاز المُرسل في قوله: ﴿قَرۡيَةِۭ﴾، وفي إضافتها على ظاهر اللَّفظ تحقيقٌ لكون هلاكهم هلاكَ استئصال، وإبلاغٌ في هلاك معيشتِهم وقريتِهم؛ إذِ اللَّفظ على تقدير مضاف، والتَّقدير: (بعد أن طال ما تغالَوا فيها، ونمَّقوها، وزَخْرَفوها، وزَوَّقوها، وزَفُّوا فيها الأبكار، وفرحوا بالأعمال الكِبار)[2].

دلالةُ الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾:

في الاستثناء دعوةٌ إلى الاعتبار والاتِّعاظ

استثنى النَّظمُ الجليل من السَّكن في تلك الدّيار بالسَّكن القليل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾، وفائدة الاستثناء هنا الاحتراسُ من تعميم النَّفي، أي: إلّا إقامةَ المارّين بها، المُعْتَبرين بهلاك أهلها[3]، والاستثناء على هذا منقطعٌ؛ لأنَّ السَّكن في المستثنى منه إنَّما هو للعيش والإقامة والرّاحة، وأمّا السَّكن في المُستثنى؛ فلِلاتِّعاظ والاعتبار.

دلالةُ القِلَّة في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾:

في القِلَّة تحقيقٌ لخراب الدّيار، وأنَّها لم تسكن من بعدهم

أخبر النَّظمُ الجليل أنَّ السُّكنى في القرية بعد الإهلاك قد وقع قليلًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾، أي: إلّا سُكونًا قليلًا؛ للدَّلالة على قِلَّة السّاكنين الذي يَأوون إليها أثناء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 50.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 50.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.

مرورهم بالطَّريق[1]، فالقليلُ هنا أفاد الاحتراسَ مِن انتقاض النَّفي بهذا القليل المارِّ بالدّيار، فالكثيرُ الغالب الدّائم هو عدمُ سكنِها مِن أحد، والسَّكَنُ المُقَدَّر قبلَ قوله: ﴿قَلِيلٗاۖ﴾، هو مطلقُ الحلول بغير نيَّة إطالةٍ، فهو إلمامٌ لا سُكنى، فإطلاقُ السُّكنى على ذلك مشاكَلةٌ؛ ليتأتّى الاستثناء، أي: لم تُسكن إلّا حلولَ المسافرين، أو إناخةَ المُنتجعين، مثلَ نزولِ جيشِ غزوةِ تبوكٍ بحِجْرِ ثمود، واستقائِهم من بئر النّاقة، والمعنى: فتلك مساكنُهم خاوية خلاء، لا يعمرُها عامرٌ، أي: إنَّ اللّه قدَّر بقاءَها خاليةً؛ لتبقى عِبرةً وموعظةً بعذاب اللّه في الدُّنيا[2].

معنى (الواو) في: ﴿وَكُنَّا﴾:

خَلَتِ القُرى مِن سكّانها واستحالت وِرثًا لخالقها

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾، فلمّا نُفيَ حلولُ السّاكنين فيها، عُطِفَ عليه أنَّها باتت إرثًا للّه تعالى؛ تأكيدًا لانتفاء حلول الأقوام فيها[3].

دلالةُ التَّعبير بالكون الماضي:

الأرض للّه يورثُها مَن يشاء، ويسلبها ممَّن يشاء

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل الكونِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾؛ للدَّلالة على كون وراثته مقرَّرةً أزلًا وأبدًا[4]، فهو دالٌّ على الألُوهيَّة، أي: إنَّ مِن شأننا أن نَرِثَ تلك المساكنَ، وليس ذلك إلّا للّه، وفيه إشارة إلى أنَّ حلول الأقوام في تلك القرى أمرٌ طارئٌ لمدَّة قصيرة منَ الزَّمان - وإن طالت إلى ألف سنة - بالنِّسبة إلى إرث اللّه إيّاها.

نكتة التَّعبيرِ بضمير العَظَمة في (كنّا) و﴿نَحۡنُ﴾:

بعَظَمةِ الله تعالى وجَلالِهِ صارت القُرى إرثًا خاليَةً من أهلها

عبَّر النَّظمُ الجليل بضمير العَظَمة (كنّا) و﴿نَحۡنُ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾؛ للدِّلالة على تعظيم مضمون الخطاب،

---

(1) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 116، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 506.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 330.

فَوراثتُه تعالى لما له مِن عَظَمة، وفي ذلك تفخيمٌ للسّياق؛ ولأنَّ التَّصرُّف في هذه الأماكن وغيرِها مِن أماكن الأرض يَدلُّ المُتَلَقّي على كمال عَظَمة اللّه تعالى؛ إذْ لا متصرِّفَ فيها ظاهرًا إلّا اللّه، ولا حاكمَ عليها فيما تنظرُه العيونُ سواه، وذلك أمرٌ عظيم، وخطبٌ جسيم؛ لأنَّه لا فرقَ فيه بين جليلٍ وحقير، وصغيرٍ وكبير، وسُلطانٍ ووزير، وتعدادُ صيغةِ العَظَمة بيانٌ لضخامتها وضخامةِ هذا الإرث، فسبحانَ المالكِ لكلِّ شيء، وهو على كلِّ شيءٍ قدير[1]، كما أفاد التَّصريحُ بضمير التَّعظيم المنفصل، إلى اقتصار ذلك الإرثِ على اللّه تعالى، وهو قصرٌ حقيقيٌّ، أي: لا يَرِثُ تلك القُرى غيرُ اللّهِ تعالى[2].

دلالةُ التَّعبير بلفظ الوراثة:

لا مُتصرِّف في القُرى بعد إهلاكها إلّا الله

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الوراثةِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾؛ لأنَّها لمّا استحالت خاليةً مِنَ السّاكنين؛ عبَّر بالإرث عن كونها لم تسكن بعدَهم، أي: تركناها على حالٍ بحيثُ لا يسكنُها أحدٌ، وأشار بالوراثة إلى انتقالها من أصحابها، وأنَّها قد أُلحِقت إلى ما خلقَهُ اللّهُ تعالى على أصله الأوَّل، فرجع إلى أصله ودخل في عِداد مِلك اللّهِ تعالى على وضعه الأوَّل، وهذا معنى الإرث[3]، "وكونُ اللّهِ تعالى هو الوارث كنايةٌ عن حِرمان تلك المساكن منَ الساكن، وتلكَ الكنايةُ رَمزٌ إلى شِدَّة غضبِ اللّه تعالى على أهلها الأوَّلين، بحيثُ تجاوزَ غضبُهُ السّاكنين إلى نفس المساكن، فعاقبَها بالحِرمان من بهجة المساكِن؛ لأنَّ بهجةَ المساكن سُكّانُها"[4]، والتَّعريف بـ (أل) دالٌّ على الجِنس، وإنَّما عرَّفه بالألف واللّام؛ ليتأتّى القصرُ بالتَّعريف، أي: لا وارثَ من جنس الوارثين يَرِث أرضَ تلك الأقوامِ غيرُ ربِّها وموجِدِها.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 506.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 305.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151 - 152.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾

[القصص: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانٌ لعناية الله تعالى بعباده، إثرَ بيانِ إهلاكِ القُرى المذكورة

بعد أن أخبرَ النَّظمُ الجليل أنَّ اللّه تعالى أهلكَ كثيرًا منَ الأقوام الذين كفروا بنعمته تعالى، أتبع ذلك ببيان عدله، وأنَّه لا يُهلك أحدًا إلّا بعدَ الإنذار، وقيام الحُجَّةِ بإرسال الرُّسلِ مُبشِّرين ومُنذرين، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾، ثمَّ أتْبَع ذلك ببيان أنَّ من سُنَّته تعالى أنَّه لا يُهْلِك القُرى بعد تلك الرِّسالات إلّا في حالة ظُلم النّاسِ لأنفسهم؛ بتكذيبهم وكفرهم، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡعَثَ﴾: (بعث) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ إثارةُ الشَّيء وتوجيهُهُ[2]، والبَعْثُ في كلامِ العَرَبِ على وجهَين، **أحدُهما:** الإرْسال، كقولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]، مَعْناهُ: أرسلنا، **والآخر:** إثارةُ باركٍ أو قاعدٍ، تَقولُ: بَعَثْتُ البَعيرَ، فانبَعَثَ، أي: أثَرْتُه، فَثار، والبَعْثُ أيضًا: الإحياءُ مِنَ اللّه للمَوْتى، ومنهُ قَولُهُ تعالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ [البقرة: 56]، أي: أحييناكم، وبَعَثَ اللّهُ الخَلْقَ يَبْعَثُهُم بَعْثًا: نَشَرهم، والبَعْثُ: الرَّسولُ، والجَمْعُ بُعْثانٌ، والبُعوثُ: الجُيوش، وبَعَثَه على الشَّيْءِ: حَمَلَهُ على فِعْله، وبَعَثَ عليهِمُ البلاءَ: أحَلَّهُ، وانْبَعَثَ الشَّيءُ، وتَبَعَّثَ: انْدَفع، وبَعَثَه

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 76 - 77.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).

مِنْ نَوْمه بَعَثًا، فانْبَعَثَ: أيْقَظَه، وأهَبَّه[1]، والمقصود بالبَعْثِ في الآية: الإرسال.

2) ﴿أُمِّهَا﴾: (أمم) الأصلُ والمَرجِعُ، يُقالُ لكلِّ ما كان أصلًا لوجودِ شيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أُمٌّ[2]، والمَقصودُ بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾ على وجهين؛ **أحدهما:** أنَّه أرادَ أعظمَها وأكثرَها أهْلًا، **والآخر:** أرادَ مَكَّة، وقيل: سُمّيت أُمًّا؛ لأنَّها أقْدَمُ القُرى الَّتي في جزيرة العَرَب وأعظمُها خطرًا، فجُعِلت لها أُمًّا لِاجتماع أهْلِ تلكَ القُرى كُلَّ سَنَةٍ، وانكِفائهم إليها، وتعويلِهم على الاعتصام بها؛ لما يَرجونَه من رحمة الله تعالى[3]، وعليه فالمُراد بـ﴿أُمِّهَا﴾ في الآية: أصلُها وأعظُمها على العموم، أو على الخصوص، وهي مَكَّة أمُّ القُرَى.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الحقُّ سبحانه: ولم يكُنْ ربُّك يا محمَّدُ ﷺ ليُهلِكَ القُرى حتَّى يَبعَثَ في أعظَمِها وأصْلِها الَّذي تَتْبَعُه القُرى رَسولًا يَتْلو على أهلِها آياتِ اللهِ الدّالَّة على صِدقِ رِسالته، فيُقيمَ الحُجَّةَ عليهم، وما كُنّا لِنُهلِكَ القُرى إلّا وأهلُها مُستَحِقّون للهَلاكِ؛ بسبَبِ اتِّصافِهم بالظُّلم - بالكُفرِ وغيرِه - وذلك مِن بَعْدِ الإعذارِ إليهم[4].

اللهُ تعالى لا يُعَذِّب أحدًا إلّا بِظُلمه، وإقامة الحُجَّة عليه

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

بعد ذِكْرِ الإهلاك؛ شرعَ ببيان العدلِ فيه

لمّا ذكر تعالى إهلاكَهُ القُرى واستئصالَ أهلِها، فكأنَّه قيل: هل يهلكُهم

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 334، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أمم).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أمم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 291، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 293، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 330، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 621.

بلا إنذارٍ؟ وهل يُهلِكُهم، وهم عادِلون في حالة كفرهم؟ فقيل: إنَّ اللّه لا يُهلِك قومًا إلّا بعدَ بَعْثِ رسولٍ فيهم، ولا يهلِكُهم إلّا وهم ظالمون؛ فكان الظّاهرُ على هذا غيابَ الواو، ولكن جاءت الواو على خلاف الأصل؛ لأنَّ الواو لا يبرحها معنى المغايرة، فتدلُّ على استقلال ما بعدَها نوعَ استقلال؛ لتنبيهِ الكافرين على أنَّ فرصة ديمومة النِّعَم لا زالت بين أيديهم وفي مُكنتهم؛ إذا هم استجابوا لرسولهم، وآمنوا بالآيات التي يتلوها عليهم، وعلى أنَّ الحُجَّة قائمةٌ عليهم، فلَهُ تعالى أن يُقيم عدلَه فيهم بإهلاكهم، وإنَّما أحسن تعالى إليهم بالإبلاغ في تنبيههم على ذلك.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الكون منفيًّا في ﴿وَمَا كَانَ﴾:

رســـوخُ سُـنَّـة العدلِ الإلهيِّ

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بنفي فعل الكون في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ لتأكيد النَّفي للدَّلالة على رسوخ هذه السُّنَّة واطِّرادها، أي: وما صَحَّ، وما استقام، بل استحالَ هذا الإهلاك المقيَّد في سُنَّته المَبنيَّةِ على الحِكَم البالغة[1]، وجيءَ بالفعل بصيغة الماضي للدَّلالة على الحُكم السّابق، أي: "ما كان في حُكمه الماضي وقضائه السّابق أن يُهْلِكَ القُرى قبلَ الإنذار"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّةِ وإضافته:

ربُّكَ الذي سبق إحسانُه إليكَ ربٌّ عادِلٌ حكيم

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ المُحْسِنَ إليكَ بالرِّسالة، هو القادِرُ على إهلاك الأُمم، وأنَّه قد أحسنَ إلى قومِكَ ببعثتك فيهم، وأنتَ حُجَّةُ اللّهِ ورحمتُه فيهم، والتَّعبيرُ بالرَّبِّ هو المناسبُ لسياق الرَّحمة بالإرسال، وقد أضافَه إلى ضمير المخاطَب إيماءً إلى أنَّ المُراد بهذا الإنذار قومُ النَّبيِّ ﷺ الذين كذَّبوه[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 302، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 152.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 305.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 507، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 153.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإهلاك مادة وصيغة:

هلاكُ القرية بإفساد مُقوِّمات الحياةِ فيها

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الإهلاك في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ لما في الإهلاك من دلالةٍ على إفساد العيش، فإنَّ هَلاكَ الشَّيءِ يكون باستحالة الحياة فيه؛ لإفساد مقوِّماتِها فيها، فأخبر تعالى بالإهلاك عن تخريب ديارهم، واستحالتِها خاويةً خَرِبةً، والعذابُ المقصود في الآية هو عذابُ الاستئصال، وهو المقصودُ المُستَدَلُّ على كونه كذلك في الآية السّابقة، ويُؤيِّد ذلك صياغةُ الإهلاك في قوله: ﴿مُهۡلِكَ﴾ مِن الفعل الرُّباعيِّ: (أهلك)، لا مِنَ الثُّلاثي: (هلك)، وهو يُعبَّر عنه بالإهلاك، لا بالتَّدمير.

دلالةُ الجمع في ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ وتعريفها:

إهلاكُ القُرى حتّى كأنْ لم تَغْنَ بالأمس عِبرةٌ لكلِّ مَن يشاهدُ آثارها

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ القرية مجموعةً مُعرَّفةً بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ للدّلالة على جنس القُرى، أي: إنَّ الله تعالى يُهْلِكُ أيَّة قريةٍ كائنةٍ من هذا الجِنس[1]، والتَّعبير بلفظ القرية يُطلَق على مَنزل النّاسِ الذي يتجمَّعون للعيش فيه، في بيوتٍ مَبنيَّةٍ، وإنَّما خَصَّ القرية بالذِّكر هنا؛ لأنَّ الاعتبار والاتِّعاظَ بإهلاكها أبلغُ؛ وذلك لأنَّ آثارَ البيوت تبقى، فيشاهدُها سائرُ النّاس[2]، وعبَّر النَّظمُ بصيغة الجمع للدَّلالة على عموم الحُكم ونفاذِه في سائر القُرى، فيتناسَبُ مع التَّعريف بالجنس، كما أنَّه يَدُلُّ على أنَّ إهلاكَه القُرى قد ينالُها في حالة الجَمْع، أي: يُهْلِكُها جميعًا دفعةً واحدةً.

بلاغةُ المجازِ في ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾:

اشتدَّ الإهلاكُ حتّى شَمِلَ المنازلَ وسُكّانَها

سلَّط النَّظمُ الجليل الهلاكَ على القرية، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾، وإنَّما المُهلَكُ أهلُها؛ إشارةً إلى شِدَّة

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 330.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 152.

الإهلاكِ، فهو بحيثُ إنَّهُ قد أتى على النّاس والدّيار، وهو الإهلاكُ بالحوادث التي لا تستَقِرُّ معها الدّيارُ، بخلاف إهلاكِ الأُمَّة، فقد يكون بطاعون ونحوِه، فلا يتركُ أثرًا في القُرى[1].

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ﴾:

لا يقعُ الإهلاكُ إلى أن يقعَ إرسالٌ، ثمَّ تكذيبٌ وظُلمٌ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالحرف الدّالِّ على الغاية ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾؛ للدِّلالة على أنَّ تحقُّق البعثِ هو غايةٌ لعدمِ وقوعِ الإهلاك، فلا يقعُ إهلاكٌ حتّى يقعَ بعثٌ، وذلك للتعبير عن رحمته تعالى وعدلِه، وإنَّما كان ذلك لإقامةِ الحُجَّة عليهم، وقطعِ أعذارهم بأن يقولوا: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [القصص: 47][2].

دلالةُ التَّعبير بالبَعْث دونَ الإرسال:

توجيهُ الرَّسول المُحَمَّلِ برسالةٍ يتضمَّن إحياءَ النّاس

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ البعث في قوله جلَّ شأنه: ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾، مع أنَّ المفعول به جاء بلفظ الرِّسالة، فلم يقل: (حتّى يرسل رسولًا)؛ لأنَّ البعث يَدُلُّ على إثارة الشَّيءِ وتوجيهِه، ومنه: بعثَ الإنسانَ في حاجة[3]، فهو أعَمُّ منَ الإرسال؛ لأنَّ الإرسالَ هو بَعْثُهُ في رسالة، أمّا البعثُ؛ فهو عامٌّ، ولعلَّ فيه إشارةً إلى أنَّ البعثَ يدلُّ على بعث الحياة بعدَ الموت، فكأنَّ الرَّسولَ يُعيدُ القرية إلى الحياة بالإيمان، بعد موتِها بالكُفر والشِّرك.

دلالةُ المضارعة في ﴿يَبۡعَثَ﴾ بعد المُضِيِّ:

سُنَّةُ اللهِ تعالى في إقامةِ الحُجَّة وتحقيقِ العَدْلِ دائمةٌ مستمرَّةٌ

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالمضارع بعد التَّعبير بالكون الماضي في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾؛ للدِّلالة على استمرار تلك السُّنَّةِ الرّاسخةِ، فلا يَصِحُّ على الدَّوام في سُنَّة اللّه تعالى إيقاعُ الإهلاكِ بلا بَعثِ رسالةٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 153.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 305.

(3) الرّاغب، المفردات: (بعث).

وأمّا فعلُ الكون؛ فهو متعلِّقٌ باللّه رأسًا، على معنى أنَّ ذلك صفةً له أزليَّةً.

بلاغةُ التَّعبيرِ عن كُبرى القُرى بالأُمِّ:

لكلِّ مجموعة منَ القُرى بلدةٌ هي أصلُها ومَرجِعُها؛ لأنَّها أعظمُها

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ (أمٍّ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾؛ للدِّلالة على أنَّها القريةُ العظيمة من تلك القرى، كمكَّةَ التي هي أعظمُ بلادِ العرب شُهرةً، وأكثرُها زوّارًا؛ وذلك لتعظيمهمُ الكعبةَ، وحَجِّهم إليها[1]، ولأنَّ أهل هذه القرية الأمِّ أكثرُ فطنةً وكياسةً، وأقربُ لقبول الدَّعوة[2]، وفي التَّعبير بها إبلاغٌ في إقامة الحُجَّة على أهل القُرى الأُخرى؛ لأنَّ أصلَ القُرى وأساسَها قد لا يكون أعظَمها، و"لأنَّ القريةَ الكُبرى هي مَهْبِط أهلِ القُرى والبوادي المُجاورةِ لها، فلا تخفَى دعوةُ الرَّسول فيها، ولأنَّ أهلَها قدوةٌ لغيرهم في الخير والشَّرِّ، فهُم أكثرُ استعدادًا لإدراك الأمور على وجهها"[3].

موقعُ جملة ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾:

من صفات الرَّسولِ أنَّه يتلو الآياتِ ويوضِّحها للعباد

وصف النَّظمُ الجليل الرَّسولَ المبعوثَ بالجملة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾، فهو متَّصفٌ بكونه يتلو عليهم الآيات[4]، وإنَّما وصفه بذلك؛ تعبيرًا عن قيام الحُجَّة عليهم، وإلزامِهم به، وتحقيقًا للغاية من بعث الرَّسول، وهي تلاوة الآياتِ والتَّذكيرِ بها، وقطعًا للمَعذرة بأن يقولوا: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [القصص: 47][5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتِّلاوة دونَ القراءة:

تلاوةُ القرآنِ واتِّباع هديه صفةٌ للرَّسول

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ التِّلاوة دون القراءة في قوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 152.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 305.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 152.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 278.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 302.

جلَّ شأنه: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾؛ لأنَّ التِّلاوة أخصُّ مِنَ القراءة؛ لدلالتها على الاتِّباع بعد القراءة، وهي مختصَّة باتِّباع كُتُبِ اللّهِ المُنزَّلة، بقراءتها ومتابعةِ ما فيها من أمر ونهي وترغيبٍ وترهيب، وإنَّما يُقال في القرآن في شيءٍ؛ إذا قرأتَه: وجبَ عليكَ اتِّباعه[1]، فهو يتلوها عليهم تلاوةً تُفْصِح عمّا في الآيات مِنَ الحِكمة؛ بما لها مِنَ الجَري على مناهج العقول، وبما لها مِنَ الإعجاز، على تَفرُّدِ الكلمة، باهرِ العظمة؛ إلزامًا للحُجَّة، وقطعًا للمَعْذِرة[2].

نُكْتَةُ تقييدِ التِّلاوة بالجارِّ والمجرور:

رسـلُ الـلـهِ لا يألـون جهدًا في توصيل الرِّسالة على أكمل وجهٍ وأتمِّه

الضَّميرُ في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائدٌ إلى المعلوم مِنَ القُرى، وهو أهلُها، وقد قَيَّد النَّظمُ الجليل فعلَ التِّلاوة بحرف الاستعلاء (على)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾؛ للدِّلالة على تمكُّن تلاوةِ الرَّسول من قومه؛ إبلاغًا في إقامة الحُجَّة عليهم، فهو يتلو عليهم الآياتِ، ويُبلِّغهم الحُجَجَ تبليغًا يُقيمُ عليهم الحُجَّة، بحيث لا يبقى لهم نوعُ عذرٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالآيات في ﴿ءَايَٰتِنَاۚ﴾:

الآيـاتُ الـدّالَّـةُ على الحَقِّ كثيرةٌ شاخصة

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالآيات بصيغة الجمع، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾؛ للدِّلالة على كثرتها وتَعَدُّدِها وتَنَوُّعِها؛ بحيثُ يكون لكلِّ فَردٍ مِن أفراد القُرى نصيبٌ قويٌّ مِنَ الفهم في الآيات، وفي ذلك تأكيدٌ على إقامة الحُجَّة وإسقاطِ الأعذار، وفي كون الآيات جمعَ قِلَّةٍ إشارةٌ إلى كمال ظهورِ الأُلوهيَّة فيها؛ ممَّا ميَّزَها وجعل لها خصوصيَّةً في نفسها، شأنُ كلِّ قليلٍ، فتلك الآيات تنطق بأنَّها مِن عند اللّه ربِّ العالَمين.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (تلو).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 507.

نُكْتَةُ إضافةِ (آيات) إلى ضمير العَظَمة:

آيات الله تعالى جديرةٌ بالإفهام والاتِّعاظ

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الآيات إلى ضمير التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾؛ للدِّلالة على أنَّها آياتٌ عظيمة، بحيثُ إنَّها تُقيم الحُجَّة، وتَدُلُّ على المُراد منها أبلغَ دلالةٍ، وفي التَّعبير بضمير المُتكلِّم التفاتٌ مِنَ الغَيبة إلى الخطاب؛ تربيةً للمَهابة، وإدخالًا للرَّوعة[1].

معنى (الواو) في: ﴿وَمَا كُنَّا﴾:

انتفاءُ الإهلاكِ بلا أسبابه أمرٌ مؤكَّد

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾، على الجملة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾، وفائدة هذا العطف: تأكيدُ المعنى في الجملة المعطوف عليها، أي: وما كنّا مهلكي القرى إلّا بتكذيبهم وإعراضهم[2]، ومعنى هذه الجملةِ يَلۡزَمُ معنى ما قبلَها، فإذا بعثَ اللّه في أُمِّ القُرى رسولًا يتلو على أهلِها آياتِ اللّه، ووصل ذلك أهلَ القُرى الأُخرى، بحيثُ قد قامت حُجَّة اللّه عليهم، كما قامت على أهل أُمِّ القُرى، فإذا أهلك اللّه تلك القُرى وأهلَها؛ فلأنَّهم لم ينتفعوا بتلك الآيات، بأن ظلموها، وظلموا أنفسَهم، وأصرّوا على الكفر والشِّرك والعِناد؛ فكان الظّاهرُ غيابَ الواو؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال، مِن نوع التَّوكيد المعنويِّ، والعطفُ لا يبرح الواوَ، فلما جاءت على خلاف الأصل مشعرةً باستقلال ما بعدَها نوعَ استقلالٍ؛ نبَّهت بقوَّة على معنى إهلاك القرى، وأنَّ هذا الإهلاكَ مؤسَّسٌ على ظُلم أهلِها، أي: نبَّهت على معنى ظُلم أهلِها، وهو شِركُهم؛ إيقاظًا لهم من غفلتهم، وإحسانًا إليهم مِن أجل نبيِّهم محمَّد ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي في: ﴿وَمَا كُنَّا﴾:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بفعل الكون بصيغة الماضي في قوله

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 306.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 425.

حُكم العدالةِ راسخٌ في سُنن اللهِ تعالى

جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ للدِّلالة على رسوخ الحُكم في سابق قضائه، بأنَّه لا يهلك القُرى إلّا في حالة ظُلمهم[1]، وهذه الكلمة تنطِق بالأُلوهيَّة؛ لأنَّ الذي مِن شأنه أن يُهْلِك هو الله، سواء كان ذلك بسبب أم بغير سبب، وكذلك الذي مِن شأنه أن يُرتِّبَ الجزاءَ على السَّبب؛ إبرازًا للعَدل والحِكمة هو الله، فمادَّةُ الكونِ تُمَكُّن الدَّلالة على الأُلوهيَّة، بزيادة الإفصاح عنها.

دلالةُ إسنادِ الفعل إلى ضمير العَظَمة في ﴿كُنَّا﴾:

جرى إسنادُ الكون إلى ضمير العَظَمة في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا﴾ على نسق إسناد الآيات إليه في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ والعدولُ هنا في الإسناد إنَّما هو عنِ الرَّبِّ؛ إذ قال تعالى في صدر الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ نظرًا إلى رحمته وإحسانه بإرسال الرُّسل والآيات، وهنا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ﴾؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾، أي: ظالمون بعد ما أرسلنا إليهم الرُّسلَ والآياتِ، وبعدَ ما ذَكَّرناهم بالنِّعم والنِّقم، فقد أصَرّوا على الشِّرك مُتَجَرِّئين على مقام الأُلوهيَّة، فعوقبوا بأن كان إهلاكُهم مشتملًا على شيء مِن عظمة الأُلوهية، فلمّا لم يُؤمنوا بها، ولم ينقادوا لها؛ ليدومَ لهم النَّعيمُ؛ عُذِّبوا بها، وذلك آلَمُ وأفظعُ عندهم.

دلالةُ التَّعريف في ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ وجمعها:

كلُّ قريةٍ آمنة حتّى تكفر بدعوة ربِّها

عرَّف النَّظمُ الجليل ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ بالألف واللّام، وجاء بها بصيغة الجمع في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه حُكم عامٌّ في كلِّ القرى، وتعريفُها تعريفُ الجِنس، أي: كلُّ قريةٍ مِنَ القُرى فهي مُضَمَّنة في هذا الحُكم، وإنَّما قال تعالى: ﴿مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ مع أنَّ الظّاهر أن يقال: (مهلكيها)؛ لأنَّه قال مِن قبلُ: ﴿وَمَا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 424.

﴿كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ اللهَ يُمْهِل، ولا يُهْمِل، فهو رقيبٌ عليهم، ولا تخفى عليه خافيةٌ مِن خفاياهم وأحوالِهم، وهذا أبلغُ في التَّهديد والوعيد.

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾:

عدمُ إهلاكِ القُرى مشروطٌ بانتفاء وقوعِ الظُّلم

عبَّر النَّظمُ الجليل بأداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ للدِّلالة على استثناء الأحوال، أي: وما كنا في حال مِنَ الأحوال مُهلكي هذه القرى، إلّا في حال ظُلم أنفسِهم، بتكذيبهم وإشراكِهم بالله تعالى[1].

معنى (الواو) في ﴿وَأَهۡلُهَا﴾:

الظُّلمُ هلاكٌ في الدُّنيا، وظُلماتٌ يومَ القيامة

صَدَّر النَّظمُ الجليل الجملةَ بالواو الحاليَّة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾، أي: ما كنّا مُهلكي هذه القُرى في حالٍ إلّا حالَ ظلمِهم، وفائدةُ هذه الحالِ تنزيهُ اللهِ تعالى أن يُهْلِكَ عبادَه، وهم غيرُ ظالمين[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردة ﴿وَأَهۡلُهَا﴾:

تأكيدُ وقوعِ الظُّلم من أهل القُرى

صرَّح النَّظمُ الجليل بأهل القرى، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾، دون أن يقول: (وهي ظالمة)، فعبَّر بطريق الحقيقة لا المجاز؛ للدَّلالة على تأكيد وقوعِ الظُّلم من أهلها.

دلالةُ الإضافة في ﴿وَأَهۡلُهَا﴾:

قد لا يصيبُ عقابُ الظُّلم الظّالمَ وحدَه

أضافَ النَّظمُ الجليل لفظَ الأهلِ إلى ضمير القرية في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الظُّلمَ المُعْتَبر هو ظُلْمُ أهلِ القرية، فهم لا يُؤاخَذون بظُلم مَن مَرَّ بهم، أو سكنَ عندهم، حتّى يكونَ من أهل القرية، وفي الإضافة

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 425.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 424.

في نور سياق المعنى: أنَّ أهلَ القريةِ سببٌ في هَلاكها، فلم يَظْلِموا أنفسَهم فقط، وإنَّما ظلموا القريةَ أيضًا.

دلالةُ التَّعبير بالظُّلم مادة وصيغة:

إذا صار الشِّرك صفةً راسخة في النّاس، فقد دنا إهلاكُهم

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الظُّلم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ للدِّلالة على وضعهمُ الأشياءَ في غير موضعها، كعبادتهمُ الأصنامَ وتركِهم عبادةَ اللّهِ تعالى وتوحيدَه؛ ولهذا لم يُذْكَر له متعلّق؛ إذ ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ معناه: مشركون، وجاء التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل للدَّلالة على أنَّهم عريقون في الظُّلم بتخلّيهم عن داعي الإيمان[1]، وأنَّ صفة الظُّلمِ قائمةٌ بهم لا تُفارِقُهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإهلاكُ والتَّدمير:

الهَلاكُ الفسادُ وإعدامُ الشَّيء، والتَّدمير دخولُ الهلاكِ لمكان ما

الهَلاكُ يَدُلُّ عَلَى كَسْرٍ وسُقوطٍ، ولِذَلِكَ يُقالُ لِلمَيِّتِ: هَلَكَ[2]، والهلاك: بُطْلانُ الشَّيء منَ العالَم وعَدَمُه رأسًا، وذلك المُسَمّى فناءً المُشارُ إليه بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88]، ويقال للعذاب والخَوف والفقر: الهَلاكُ، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم: 74]، ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعراف: 4]، وهلاكُ الشَّيءِ باستحالةٍ وفسادٍ، كقوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: 205][3].

وأمّا التَّدميرُ؛ فهو يَدُلُّ عَلَى الدُّخولِ في البَيْتِ وغَيْرِه[4]، أي: إدخالُ الهَلاكِ على الشَّيء[5]، وعَبَّر في الآية الكريمة بالهلاك؛ لأنَّه أراد إزالةَ تلك القُرى وإفناءَ وجودِها، والهَلاكُ الذي في هذه الآية هو هلاكُ الاستئصال، وهو الهلاكُ المَذكورُ في الآية السّابقة في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 330.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(3) الرّاغب، المفردات: (هلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دمر).
(5) الرّاغب، المفردات: (دمر).

قوله: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ﴾، وفي تفسير هذه الآية بان، واتَّضحَ أنَّه هلاكُ الاستئصال، فكذلك الهلاكُ الذي في هذه الآية، فيُقال في حَقِّه: هلاكٌ، ولا يقال: تدميرٌ.

الظُّلمُ والطُّغيان:

الظُّلم هضمُ الحقِّ، والطُّغيان المجاوزة والمغالاة بالكفر والعصيان

أصلُ الظُّلم: نُقْصانُ الحَقِّ، ونقيضُه الإنصاف، وهوَ إعْطاء الحقِّ على التَّمامِ[1]، أمّا الطُّغيان: فهو مُجاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ[2]، أو جاوَزَ القَدْرَ، وارْتَفَعَ، وغَلا في الكُفْرِ[3]، فالظُّلمُ هضمٌ للحَقِّ، أمّا الطُّغيان؛ فمجاوزةُ الحَدِّ والمُغالاةُ في العِصيان والكُفران.

وقد آثَرَ النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بالظُّلم؛ لأنَّه بمعنى الشِّرك، وهو وضعُ الشَّيء في غير مكانه، ونقصانُ الحَقِّ، وهذا يُعَبَّر عنه بالظُّلم لا بالطُّغيان، ولأنَّ المقصود مِن المُخاطَبين الكافرين الرَّغبةُ في الإيمان، والإعراضُ عنِ الكُفران؛ ولهذا وصَّلَ تعالى القولَ إليهم؛ لعلَّهم يتذكَّرون، فيؤمنون به.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 231 - 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طغي).

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ [القصص: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الدُّنيا ومتاعها شيءٌ زهيدٌ وضئيلٌ باعتبار ما ادّخره الله لعباده من خيرات

لَمّا ذَكَّرهم اللّهُ بِنِعَمِه عليهم تذكيرًا أُدْمِجَ في خلالِ الرَّدِّ على قولِهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ [القصص: 57] بقوله: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: 57]، أَعْقَبه بأنَّ كلَّ ما أوتوه مِن نعمةٍ هو من متاعِ الحياةِ الدُّنيا وزينَتِها؛ لئلّا يَحْسَبوا أنَّ ما هم فيه مِنَ الأمنِ والرِّزْقِ هو الغايةُ المطلوبةُ فلا يَتَطَلَّبوا ما به تحصيلُ النَّعيمِ العظيمِ الأبَديِّ، وتحصيلُه بالإيمانِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾: (بقي) أصلٌ واحِدٌ، وهو الدَّوامُ؛ وهو ضِدُّ الفَناءِ[2]، والباقي ضربان: باقٍ بنَفسِه لا إلى مُدَّة، وهو الباري تعالى، ولا يصحُّ عليه الفَناء، وباقٍ بغيره، وهو ما عداه ويصحُّ عليه الفَناء. والباقي باللّه ضربان: باقٍ بشَخصِه إلى أن يشاءَ اللّه أن يفنيه، كبَقاءِ الأجرام السَّماويَّة، وباقٍ بنَوعِه وجِنْسِه دونَ شخصِه وجزئِه، كالإنسان والحيوان. وكذا في الآخرة: باقٍ بشَخصِه كأهلِ الجنَّة، فإنَّهم يَبْقَون على التَّأبيد لا إلى مدَّةٍ. والآخر بنوعه وجِنْسِه. ولكون ما في الآخرة دائمًا، قال اللّه ﷻ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾[3]. وعليه فالمقصود بالأبقى في الآية: هو الخالد الدائم الذي لا نفادَ له، ولا ينتهي ولا يزول[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 154.

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بقي).

(3) البزار، مسند البزار، الحديث رقم: (4187)، والرّاغب، المفردات: (بقي).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 292، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 426.

2) ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: أصلُ (عقل) يدلُّ على حُبْسَةٍ في الشَّيْءِ أو ما يُقارِبُها، ومِنْ ذلك العَقْلُ؛ وهو الحابِسُ عَنْ ذَميمِ القَوْلِ والفِعْلِ[1]، وهو ضِدُّ الحُمق والجَهل[2]، والمعقولُ: ما تَعْقِلُه في فؤادك. ويأتي العَقْلُ بمعنى: الفَهْم والتَّمييز، والعَقْلُ أيضًا: الشَّدُّ والرَّبطُ[3]، والجَمع: عُقولٌ. ومعنى التَّعقُّل في الآية: التَّدبُّر والتَّفكر، أي: أفلا عقولَ لكم تتدبَّرونَ بها فتعرفون بها الخير والشّرّ، وتُؤْثِرونَ الدّائِمَ عَلَى الفاني[4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

ما آثَرَ أحَدٌ الدُّنيا إلّا لِنَقْصٍ في عقْلِه

يُبيِّنُ اللّه تعالى حقارةَ الدُّنيا وما فيها مِن متاعٍ بالنِّسبةِ لِما أعَدَّه للمؤمنينَ في الآخرةِ مِنَ النَّعيم العظيم، فيقولُ: وما آتاكم اللّهُ مِن الأموالِ والأولادِ وغَيرِها مِنَ النِّعَمِ واللَّذّاتِ، فإنَّما هو مَتاعٌ تَتَمَتَّعونَ به في حياتِكم الدُّنيا، وتتزيَّنونَ به فيها، ثمَّ يَزولُ عنكم سريعًا، ولا يَنفَعُكم بشَيءٍ، وما عند اللّه في الجنَّة من الثَّواب خير في نفسه من ذلك؛ لأنَّه لذَّة خالصة عن شوائب الألم، وبهجة كاملة عارية عن سمات الهمِّ، وأبقى؛ لأنه أبَديٌّ، أفلا تَتدَبَّرونَ - أيُّها النّاسُ - بعُقولِكم، فتَعرِفونَ بها أنَّ ثوابَ الآخِرةِ الباقيةِ خَيرٌ مِن نَعيمِ الدُّنيا الفانيةِ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قولِه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾:

في العطفِ تذكيرٌ بمزيدٍ من عطاءِ اللهِ الأبقى لمَنْ آمنَ وعمِلَ صالحًا

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (عقل).
(2) الخليل، العين: (عقل).
(3) الرّاغب، المفردات: (عقل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 292.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 292، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 302، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 621، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1795.

﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ عاطفةٌ[1]، والمعطوفُ عليه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: 57]، بجامع أنّ كليهما حديثٌ عن المشركين الذين قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ [القصص: 57]؛ لئلّا يَحْسَبوا أنَّ ما أعطاهم اللّهُ من هذا الأمنِ والرِّزْقِ هو الغايةُ المطلوبةُ، فلا يَتَطَلَّبوا ما به تحصيلُ النَّعيمِ الأَبَديِّ بالإيمانِ[2].

دلالة (ما) في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾:

ما عند الله خيرٌ وأبقى من كلّ ما أوتيه أهلُ الدنيا

(ما) تَحْتَمِلُ أنْ تكون اسمَ شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ، وقوله: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديره (هو) أي فهو متاع، والجملةُ جوابُ الشّرط، واسمُ الشّرط نكرةٌ موصوفة تفيدُ العموم، والمعنى: أيُّ شيءٍ أوتيتموه فهو متاعُ الحياة الدّنيا الذي تحقّقَ لكم قِصَرُهُ وزواله. ويحتملُ أنْ تكون (ما) اسمَ موصول في محل رفع مبتدأ، و﴿أُوتِيتُم﴾ صلته، وقوله: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ خبره، وقُرِنَ بالفاء لِما في المبتدأ من معنى العموم[3]، على طريقِ الإخبارِ والتّنبيه، كما في قولِه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: 53][4].

دلالة التّعبير بالإيتاء:

مبالغةٌ في بيانِ انحطاطِ كلّ ما يُؤتاه الإنسانُ من متاعِ الدّنيا

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالإيتاء دون الإعطاء في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ لكونها أنسبَ لمقصودِ الآية وسياقها اللذَيْن يقرّران أنَّ ما يُؤتاه الإنسان في الدّنيا من كلِّ شيء - سواءٌ من الأمورِ الماديّة أو المعنوية - هو متاعٌ قاصرٌ زائلٌ لا خلودَ فيه ولا بقاء له؛ إذ الإيتاءُ هو عطاءٌ من دون تملّكٍ، ويمكن أنْ يُنزعَ، أو يُستردَ، ويشملُ الأمورَ المعنوية والماديّة، بخلافِ العطاء فهو تمليكٌ لا يُنزعُ

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 356.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 154.

(3) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1417.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 86.

ولا يُستردُ، ويقتصرُ على الأمور الماديّة، والحسيّة، والمالية، إذن في التّعبير بالإيتاء مبالغةٌ في بيانِ عدم قيمةِ كلّ ما يُؤتاه الإنسانُ في الدّنيا من الأمور المادية أو المعنوية في مقابل ما عند اللّهِ من ثواب.

نكتة بناء الفعل ﴿أُوتِيتُم﴾ لغير فاعله:

عدمُ التّصريحِ بالفاعل تحقيرٌ لمتُعِ الدّنيا

آثرَ البيانُ الإلهيّ التّعبيرَ بالمبني للمفعول ﴿أُوتِيتُم﴾؛ للتّركيزِ على الحدثِ وحصرِ الوعي فيه، والمعنى: وما أوتيتم من أيِّ مؤتٍ كان[1]، ولتحقيرِ مُتَعِ الدّنيا[2]، ولبيانِ جلالة المعطي، فهذا الذي أوتيتموه من كلّ متاعِ الدّنيا وزينتها لا يساوي عند اللّه شيئًا، ولذا لم ينسبه لذاته العليّة.

دلالة جمع المسند إليه في ﴿أُوتِيتُم﴾:

شأنُ الكافرين اجتماعُ قلوبِهم على حبّ الدّنيا الفانية

جمعَ البيانُ القرآنيُّ المسند إليه؛ وهو نائبُ الفاعل في ﴿أُوتِيتُم﴾، والمخاطبون جماعةُ كفارِ مكّة، وليس شخصًا بعينه[3]؛ للدّلالة على الاستخفافِ بكلّ ما أوتوه جميعهم؛ من مُتَعِ الدّنيا وحُطامها التي يحرصون عليها، وللإشارةِ إلى اتّفاقهم واجتماعهم على التعلّق بالدّنيا وزينتها.

لطيفة الالتفات من الغَيْبَة إلى الخطاب:

الـتَّـوبـيـخ بالمواجهةِ أشدُّ على النّفوس

التفتَ الكلامُ من الغيبة في قوله: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا﴾ [القَصَص: 57] إلى الخطابِ في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّ ما تقدّم من الكلام في الرّد على المشركين وإبطالِ أعذارهم، وبيانِ تفاهةِ حججهم بعد تعدادِ نعمهِ عليهم؛ أوجبَ توجيهَ التّوبيخِ مواجهةً إليهم[4]، وللإيماءِ بأنّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه.

معنى ﴿مِّن﴾ في القيد ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾:

الدّنـيـا مـتـاعٌ قليلٌ وإن تكثّرت منافعُها

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ بيانيّة؛ أي بيانٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 331.
(2) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 204.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 209.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 153.

لـ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾[1]، والمرادُ: من أشياءِ المنافع، كما دلَّ عليه المقامُ؛ لأنَّ الإيتاءَ شائعٌ في إعطاءِ ما ينفع[2]، ويمكن أنْ تكون لتوكيدِ عموم ﴿شَيۡءٖ﴾؛ فإنّها نكرةٌ في سياقِ النَّفي، ودخولُ ﴿مِّن﴾ عليها يزيدها في التَّعميم، أي "استغراقِ أفرادِ المتاعِ العاجلِ"[3].

دلالة التّعبير بـ ﴿شَيۡءٖ﴾:

عمـومٌ وإبـهـامٌ يشيرانِ إلى القلّة والتّحقيرِ لمتاعِ الدّنيا وزينتها

أفادتْ مفردة ﴿شَيۡءٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ الشمولَ التّامّ، والاستقصاءَ الشاملَ لكلِّ ما يصحُّ أنْ يُطلقَ عليه لفظُ شيء ممّا أوتيه أهلُ الدّنيا؛ لأنّها في أصلِ مادّتها هي عبارةٌ عن كلّ موجود، إمّا حسًّا كالأجسام أو معنًى كالأقوال[4]، فهي أعمُّ العام[5]، ولأنّها سُبقتْ بـ (ما) وهي من ألفاظ العموم. كما أنّ الإبهامَ الذي في مفردة ﴿شَيۡءٖ﴾ يومئُ بالقلّة والتّحقيرِ لمتاعِ الدّنيا وزينتها.

دلالة تنكير ﴿شَيۡءٖ﴾:

تـهـوينٌ لـشـأنِ مـا في أيـدي الـكـافـريـن من مالٍ ومتاعٍ مهما بلغَ كثْرةً

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿شَيۡءٖ﴾ في قولِه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾؛ لإفادةِ المبالغة في الشّموليّة والعموم، حيث يشيرُ إلى كلّ ما يمكن أنْ يمتلكه الإنسانُ من متاعٍ وزينةٍ في هذه الحياة مهما كان نوعه أو قيمته؛ سواءٌ من هذه الأشياءِ التي بأيدكم مِن الأموالِ والأولادِ وغَيرِها مِنَ النِّعَم واللَّذّات[6]، فكلُّ ذلك لا قيمةَ له في الحقيقةِ؛ لكونه قاصرًا زائلًا ومؤقَّتًا ولا يمكنُ أنْ يدوم.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَتَٰعُ﴾:

في اقـترانِ فناءِ مـتَـعِ الـدُّنـيـا بوجودها إشارةٌ إلى سرعةِ زوالها وانحطاطِ شأنها

(الفاء) في قوله ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾ رابطةٌ لجواب

(1) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1417.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 153.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 620.
(4) الرّاغب، المفردات: (شيأ).
(5) الزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شيأ).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 292، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 331.

الشّرط وجوبًا، إذا كانت (ما) في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ شرطيَّةً، والتّقدير: (وما أوتيتم من شيء فهو متاعُ الحياة الدّنيا)[1]، وهي بذلك تدلّ على اقترانِ معنى النَّفادِ والاستهلاكِ والزّوالِ بإيتاءِ هذا المتاع، ممّا يدل على سرعة زواله؛ فكأنّ فناءه مقترنٌ بوجوده!

وأمّا إنْ كانت (ما) موصولةً، فالفاءُ حرف عطفٍ اقترنَ بالخبر (متاع) لِما في المبتدأ من معنى العموم[2].

دلالة التّعبير بالمتاع:

منافعُ الدّنيا كالمتاعِ الذي من شأنه الفناءُ والزوالُ

سمّى البيانُ الإلهيُّ منافعَ الدُّنيا متاعًا في قوله تعالى: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾؛ لأنّها تفنى ولا تبقى، إذ أصلُ المتاع في اللغة يدلّ عَلَى مَنْفَعَةٍ وامْتِدادِ مُدَّةٍ في خَيْرٍ[3]، والمتاعُ هو كُلُّ شَيْءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ويُتَبَلَّغُ بِهِ ويُتَزَوَّدُ والفَناءُ يأْتي عَلَيْهِ في الدُّنْيا[4]، وفي هذا إشارةٌ إلى نفادِهِ واستهلاكه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾ [الأعراف: 24]، أي: فهو شيءٌ شأنه أنْ يُتمتّع ويُتلذّذ به أيامًا قلائل، ثم أنتم وهو إلى فناءٍ وزوال[5].

نكتة تعريف (متاع) بالإضافة:

متاعٌ قاصرٌ وقتُه قصيرٌ محشوٌّ بالمنغّصات ممزوجٌ بالغصص

عرّف النّظمُ الحكيم (متاع) في قوله تعالى: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالإضافة إلى الحياة؛ ليبيِّن أنّ هذا المتاعَ لا يعودُ نفعُه إلى غيرها، فهو إلى نفادٍ وإنْ طالَ زمنُ التّمتّع به[6]، فهو متاعٌ قاصرٌ محشوّ بالمنغّصات وممزوجٌ بالغصص[7]، ولا يغني عنهم عند الله

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 42.
(2) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1417.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والريحان: 21/ 244.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 331.
(7) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 621.

شيئًا[1]، وذلك لأنّهم لم يجعلوا الدّنيا وما فيها من مُشتَهيات وزينة وصلةً إلى تحصيلِ الثّواب في الدّار الآخرة.

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

الحياةُ الدّنيا دارُ اختبارٍ لا دار قرار

التّعبيرُ بـ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يحملُ دلالاتٍ عميقةً ومتعدّدةً ضمن السّياق القرآني، منها دلالةُ المؤقتيّة والزّوال، ومنها دلالةُ الشّموليّة؛ فلامُ التّعريف فيها للجنس، أي تشملُ جميعَ جوانبِ الحياة؛ من مالٍ ومنصب وجاهٍ وعلاقاتٍ، وغيرها من متاعِ الدّنيا الذي يجبُ على الإنسان ألّا يجعله محورَ حياته. كما أنّ الحياةَ ترمزُ للاختباراتِ والتّجارب والفرص التي يُعطيها اللّهُ للإنسان في الدنيا، بما يتضمّن تحذيرًا وتذكيرًا بأنّها دارُ اختبارٍ لا دار قرارٍ.

دلالة وصف ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

غايةُ ما يعيشه طلابُ الدّنيا حطامٌ قليلٌ خسيسٌ سريعُ الانقضاء

وصفَ النّظم الحكيم ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ المضافة إلى ﴿فَمَتَٰعُ﴾ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ ليحدّد الحياة في الآية بأنّها الحياةُ الدُّنيا، أي الحياة الأولى والقريبة من النّاس بوقتها المضروب، وأحوالها المقدّرة بقدرِ اللّهِ وقدرته مُقابل الحياة الآخرة التي لم تُذكر هنا لكنّها مفهومة من السّياق. ولكي يشير كذلك إلى قِصرِ التّمتّع في هذه الحياة، وقلّته وسرعةِ زواله وانقضائه، وكأنّه لم يكن؛ لأنّ الدُّنيا إنّما سُمّيتْ بهذا الاسم لدنوّها، أو لدناءتها[2]، ويكفي هذا لبيانِ نقصها، فهي مشتقةٌ من الدُنوّ، والأصل في الدُنوّ أن يكون إلى سُفْل، ومن هنا استُعْمل الدُنوّ في الهبوط المعنوي، ومن هذا قالوا للخسيس السّاقط: إنّه لدَنيٌّ، من أدنياء[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 604.

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/ 120.

(3) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دنو).

وقد أفادَ التَّعبير بصيغة فعلى في ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ المبالغةَ في الوصف،؛ إذ صيغةُ فُعلى تدلّ على قوّةِ الوصف؛ لأنّها مؤنثُ أفعل[1]، أي المبالغة في وصفِ الدُّنيا، سواءٌ في دنوّها وزوالها، أو في دناءتها وخسّتها، وليس هناك وصْفٌ أدنى من هذا الوصف[2].

معنى (الواو) في ﴿وَزِينَتُهَاۚ﴾:

الحياةُ الدنيا كلّها بمتاعها وزينتها إلى نفادٍ وفناءٍ وإنْ طالَ زمنهما

(الواو) في قوله: ﴿وَزِينَتُهَاۚ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ إذ كلاهما وصفٌ لِما ينتفعُ ويتلذّذُ به الإنسانُ في الحياة الدُّنيا، سواءٌ أكان ضروريًّا من ضرورياتِ الحياةِ ولا غنى عنه أم شيئًا زائدًا عنها لزيادةِ حُسْنِها؛ وكلاهما مقصورٌ على الحياةِ الدُّنيا، لا يعودُ إلى غيرها، وهو إلى نفادٍ وإنْ طالَ زمنُ التّمتّعِ والتّلذّذ به[3]، ومن ثَمَّ فهي وزينتها خسيسةٌ لا تساوي عند اللّهِ جناحَ بعوضة[4].

دلالة التّعبير بمفردة الزينة:

مبالغةٌ في بيانِ حقارةِ الدُّنيا ونَزارةِ منافعها وملذّاتها

عبّر البيانُ الحكيمُ بلفظ الزّينة في قوله ﴿وَزِينَتُهَاۚ﴾، والتي تعني كلّ شيءٍ يُتزّين به[5]، وكلّ ما فيه حُسْنُ الشيء وتحسينه، وهو زائدٌ عن أصل الشَّيء ومُجتَلَبٌ إليه لتجميله[6]؛ مبالغةً في بيانِ حقارة الحياةِ الدُّنيا؛ وأنّ النَّقصَ في الدُّنيا لا يقتصرُ على متاعها فقط، وإنّما يشملُ زينتَها أيضًا.

دلالة الإضافة في ﴿وَزِينَتُهَاۚ﴾:

زينةُ الحياةِ الدنيا قليلةٌ قصيرةٌ زائلةٌ تقتضي من العاقل أنْ لا يركَنَ إليها

إضافةُ الزّينة إلى الضميرِ العائد على الحياة الدّنيا في قوله تعالى: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾، أي: وزينة الحياة الدُّنيا؛

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 282.
(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 13/ 8237.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 331.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 604.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (زين).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (زين).

للتّحقيرِ والتّقليل بهذه الزّينة، وأنّها قصيرةٌ قليلةٌ بقصرِ عمر الإنسان المحدود المليء بالأكدارِ والمنغّصات، بخلافِ نعيم الآخرة، وهذا يقتضي بالعاقل أنْ لا يركَنَ إلى زينةِ الحياة الدُّنيا وزُخْرُفِها، وإنّما يتعلّق بالآخرة.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾:

(الواو) في قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ حاليّةٌ[1]، والمعنى: أنّ كلّ ما أُعطيه طلابُ الدّنيا وأبناؤها في الحياةِ الدُّنيا فهو متاعٌ وزينةٌ قاصران زائلان بزوالها، والحالُ أنّ ما عند اللّه خيرٌ وأبقى[2].

علة التّعبير بـ (ما) في قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾:

كلُّ ما عند الله من نعيمِ الآخرة هو خيرٌ وأبقى

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾ موصولةٌ؛ أي: والجزاءُ الذي ادُّخِر ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ﷻ، وهو الثّوابُ، ﴿خَيۡرٞ﴾ لكم في نفسِهِ من متاعِ الدُّنيا وزينتها[3]، وهي تفيدُ العموم، إذ إنّها تُستعملُ للشّيء غير المحدّد من الرّضوان ورؤيةِ وجههِ الكريم، وما عنده من جناتِ النّعيم، وما فيها من الطّعام والشّراب وغير ذلك من نعيم الجنة، أي كلُّ ما عند اللّه من نعيم الآخرة لا يُحَدُّ حدُّه سواءٌ الخالدُ بخلوده، أو الخالدُ بإخلاده هو خيرٌ وأبقى.

دلالة إضافة الظّرف ﴿عِندَ﴾:

النّعيمُ من العظيمِ سبحانه نعيمٌ عظيمٌ دائمٌ بدوامه

إضافةُ الظّرف ﴿عِندَ﴾ إلى الذّاتِ المقدّسة الجامعةِ لكلّ صفاتِ الجلالِ والجمال ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾؛ للدّلالة على عظمةِ ما ادّخره اللّهُ لعباده من النّعيم العظيم الدّائم بدوام اللّه، والمعنى: ما عند الملكِ الأعلى ممّا تُثَمِّرُهُ لكم المتابعةُ من الثّواب - الذي وعَدَكُموه في الدّار الآخرة التي دلّ عليها دلالةً

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 356.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 604.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والريحان: 21/ 244.

واضحةً إطباقُكم على وصفِ هذه بالدُّنيا - خيرٌ، فهو أكثرُ وأطيبُ وأظهرُ، وأحسنُ وأشهى، وأبهجُ وأزهى، وهو مع ذلك كلّه أبقى[1].

دلالة التّعبير بمفردة ﴿خَيۡرٌ﴾ وتنكيرها:

أجناسُ الآخرة خيرٌ وأكمل

التّعبيرُ بلفظ ﴿خَيۡرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ﴾ على تقدير مشاركة ما في الدُّنيا له في الخيريّة في ظنّكم[2]، يدلُّ على أنّ أجناسَ الآخرةِ خيرٌ ممّا أوتوه من متاعِ الدُّنيا في كمالِ أجناسها[3]، فخيراتُ الدُّنيا منقرضةٌ منقضيةٌ وخيراتُ الآخرة دائمةٌ باقيةٌ بالضرورة[4]، ومع التّفضيل على الدُّنيا فإنَّ ﴿خَيۡرٌ﴾ تدلُّ على عموم الخيرية في كلِّ شيءٍ يُستلذُّ ويُستطاب، مع الدّوامِ وعدم الانقطاع، وأمّا التَّنكيرُ لها فيدلُّ على تعظيمِ هذا الكمالِ وتفخيمه؛ أي وما عندَ اللّهِ في الجنَّةِ أفضَلُ في وصفه وكميّته[5].

وفي وصف ما عند اللّه من نعيم الآخرة بالخيريّة وتعظيمه حثٌّ على طلبه والرّغبةِ فيه، ليقابلَ التّزهيدَ في متاعِ الحياة الدُّنيا، وتهوينَ شأنه.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾:

الجمعُ بين صفتي الخيريّة والأبديّة لِما عندَ الله كمالٌ مع كمالٍ

(الواو) في قوله: ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ﴿خَيۡرٌ﴾[6]؛ إذ كلاهما وصفٌ لكمالِ ما عندَ اللّهِ سبحانه من النّعيم، إلا أنّ أحدهما صفةٌ للخيرية في ذاتِ النّعيم؛ لأنَّه لذَّةٌ خالصةٌ عن شوائبِ الألم وبهجةٌ كاملة عارية عن سِمةِ الهمِّ، والآخر صفةُ الأبديّة لهذا النّعيم، وذلك في مقابل متاعٍ دنيويّ مشوبٍ بالألم متّصفٍ بالزوال[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 331.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 331.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 154.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/ 213.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 292.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 356.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 20.

دلالة التّعبير بمفردة البقاء في ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾:

﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ صفة تدلُّ على كمالٍ بعد كمال؛ إذ البقاءُ في اللغة هو دوامُ الشّيءِ وثباتُه على حاله الأولى[1]، أي من كمالِ الخيريّة الذي تميّز بها ما عند اللّه من نعيم الآخرة أنّه يتّصفُ بصفةِ البقاءِ وعدم الزَّوال، فهو كمالٌ أبديٌّ لا يَلحقُ أصحابَها تنغيصٌ بألمٍ أو نقصانٍ أو انقطاعٍ وفقدانٍ، وهو كمالٌ لا ينقطع ولا يزول ولا يفنى، فهو دائمٌ أبدًا[2].

أبـديّـة نعيم الآخـرة زيـادةُ كـمـالٍ في خيريتها

وهي صيغةُ تفضيلٍ، أي ما عند اللّه من نعيم أبقى من متاع الدُّنيا الزائل الفاني؛ لأنّه وإنْ شارك متاعَ الدُّنيا في أنّه لم يكنْ أزليًا فهو أبديٌّ[3]، فمتاعُ الدُّنيا منقطعٌ منقرض، ونعيمُ الآخرة باقٍ أبديّ، والدّائمُ الباقي خيرٌ من المنقرضِ المنقضي.

نكتة حذف متعلّق ﴿خَيۡرٞ﴾، ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾:

حُذفَ متعلّق ﴿خَيۡرٞ﴾ و﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ أي المفضّلُ عليه؛ إذ التّقدير: خيرٌ من متاع الدُّنيا وزينتها وأبقى؛ اختصارًا؛ للعلم به؛ لأنّه قد دلّت عليه المقابلة والمفاضلة مع متاع الدُّنيا وزينتها، وذلك باعتبار أنّ ما في الدُّنيا متاعٌ عاجلٌ زائلٌ يلحقُ مُعظَمَه مؤاخذةٌ وعذابٌ[4]، وتحقيرًا لشأن هذا المتاع الدّنيويّ القاصر الزّائل من أن يُذكر.

أفضليّةُ الآخرة عـلى الـدُّنـيا بخيريّة نعيمها وأبـديّـتـه أمـرٌ معلومٌ لا يجهلهُ عاقل

معنى (الفاء) في قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه محذوفٌ يقتضيه السّياق[5]، والتّقدير: (ألا تتفكّرون فلا تعقلون أنَّ

الإخبارُ بخيريّة مـا عـنـد الـلـه وخلوده ودونيّة وفناء ما يؤثره الـكـفـار إعـلامٌ بفسادِ عقولهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بقي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 292.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 331.
(4) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 4/ 601.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 356.

الدُّنيا فانيةٌ، والآخرةَ باقيةٌ؛ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير)[1]، وذلك على مذهب الزمخشري القاضي بجواز أنْ تكون الهمزة في موضعها ومدخولُها محذوف، أو أنْ يكون المعطوف قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ وذلك على مذهب الجمهور القاضي بأنّ الهمزة مقدّمةٌ من تأخير؛ لأنّ الاستفهام له الصّدارة في الكلام، وأنّ الأصل: (فألا تعقلون)[2].

وهي تفريعيّةٌ؛ فرَّعت على الإخبار بخيريّة ما عند اللّه وخلوده ودونيّة ما يؤثرونه وفنائه باستفهامٍ توبيخيٍّ وتقريريٍّ على عدم عقل المخاطبين؛ لأنّهم لّما لم يستدلّوا بعقولهم على طريق الخير نزلوا منزلةَ من أفسد عقله، فَسُئِلوا: أهُمْ كذلك؟[3]. أو لأنّ من شأنِ العقلاء أنْ يُؤْثِروا الباقي على الفاني، والذي هو خيرٌ على الذي هو أدنى[4]. وتحملُ كذلك معنى السببيّة؛ أي: فلمّا بانَ أنّه لا يُقْدِمُ على خطر المخالفة المذكور خوفًا من خطرِ المتابعة الموصوف عاقلٌ؛ توجّه الإنكار عليهم[5]. أو أنّ الفاء جاءت للتّوكيد، أي توكيد إنكارِ عدم تعقّلهم، والتّعجّب من تركهم التّفكيرَ وتوبيخهم على ذلك، وتوكيدٌ لحثّهم على إعمالِ العقل.

معنى همزة الاستفهام وغرضه في ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

نخسةٌ للضالّين الذين حرصوا على أموالهم وزهدوا في عقولهم

الهمزةُ هنا للاستفهام، وهو في صورته اللفظية المذهبان المتقدمان: فعلى مذهبِ الجمهور يكون الاستفهامُ لتقريرهم بعدمِ التّعقّل، ثمَّ توبيخهم عليه مع الحثّ على إعمالِ العقل، أي قرّرهم على الحقيقة وفزّعهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ وإنّما يجيءُ هذا

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 245.
(2) المطعني، التَّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 203.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 154.
(4) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 426.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 331.

الخطاب في المخاطِب عند تعامي المخاطَب عن تحقّق البيانِ وتبالهه عن الأمرِ الواضح، فلا أوضحَ من عِظَم الآخرةِ إلى جنبِ الدُّنيا، ومتى ذكرَ فضلَ الآخرة على الدُّنيا فزّع وقرّر، كقوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام: 32][1].

وعلى مذهب الزّمخشري يكون الاستفهامُ للإنكار، أي أتَغْفُلون عن هذه الفروق الواضحة بين المتاعَيْن فلا تعقلون؟!

وفي الاستفهام كذلك - مع المعنيين السّابقين، وهما التّقرير أو الإنكار - معنى التّوبيخ، والتّهييج في الحثّ على إعمالِ العقل، وحسن النَّظر المُفْضيان إلى التّمييز بين متاعَيِ الحياتين الدُّنيا والآخرة[2]. وفي هذا كلّه نخسةٌ لهؤلاء الضّالين الذين حَرَصوا على أموالهم، وزَهِدوا في عقولهم، فلم ينظروا بها إلى أكثرَ ممّا وراءَ المال والمتاع![3].

مرجع ضمير الخطاب في ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

الخطابُ للكافرين بمكّة ويصلحُ عظةً لجميعِ النّاس

ضميرُ الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ يرجعُ إلى كفّار مكّة؛ لأنّ السّياق يتحدّثُ عنهم؛ فقد تَقَدَّمَ الآيةَ ذِكْرُ الكفار، وهم المغترّون بزينةِ الدُّنيا من مساكن وأموالٍ وخدم، والدَّليلُ على أنّ الخطابَ لهم - وإنْ صلحَ عظةً لجميعِ النّاس - التّفصيلُ الذي جاء بعده في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾[4].

دلالة جمع الفاعل في ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

اجتماعُ الكافرين على تعطيلِ عقولهم دليلٌ على شدّة غفلتهم وفسادِ فطرتهم

في التّعبير بالجمع في فاعل ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ إشارةٌ إلى شدّة غفلة الكافرين وفسادِ فطرتهم؛ إذ اجتمعوا على تعطيلِ عقولهم وعدم

(1) ابن برجان، تنبيه الأفهام: 4/ 278.
(2) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 204.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 10/ 371.
(4) الخطيب الإسكافي، درّة التّنزيل وغرّة التّأويل: 1/ 988.

تفكّرهم، وكان المفترض أنْ يكون الاجتماع منهم سببًا في عدم غفلتهم؛ لأنّ العقولَ باجتماعها تتكامل.

نكتة إطلاق ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ عن التَّعبير بمعقولٍ معين:

كلُّ ما حول الغافلين من فروقٍ واضحاتٍ بين متاع الدّنيا وثوابِ الآخرة يستدعي تعقّلهم

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ تعقلون؛ اختصارًا؛ لدلالةِ ما قبله عليه؛ أي أفَلا تَعۡقِلونَ هذه التوجيهات الحكيمة، وتعملون بمقتضاها، فإنّ من شأنِ العقلاء أنْ يُؤثروا الباقي على الفاني، والذي هو خيرٌ على الذي هو أدنى[1]. ولإفادةِ العموم كذلك، أي: أفلا تعقلون كلّ توجيهٍ، وكلَّ فرقٍ، وكلّ أمرٍ واضحٍ يشهدُ بزوالِ وفناءِ الحياة الدنيا، ونعيم الآخرة الباقي، ففي حذفه إيماءٌ إلى غفلتهم عن الأمورِ الواضحات والتّوجيهات البيّنات.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

ما آثَرَ أحَدٌ الدُّنيا إلّا لِنَقصٍ في عقْلِه

عبّر النصّ القرآنيُّ بلفظ العقل؛ لأهميّة العقلِ في الإسلام؛ فهو الأداةُ التي يستطيعُ بها الإنسانُ تمييزَ الحقّ من الباطل، والخير من الشّر، والهدى من الضّلال؛ إذ العَقْلُ هو العِلمُ بصفاتِ الأشياءِ من حُسنِها وقُبحِها، وكمالِها ونُقصانِها[2]، والعاقِلُ هو الَّذي يَحۡبِس نَفۡسَهُ ويَرُدُّها عَنۡ هَواها[3]. وفي هذا التّعبير دعوةٌ للمخاطبين إلى إعمالِ عقولهم وعدم تعطيلها؛ وفيه أيضًا تعريضٌ بهم؛ إذ الأمرُ واضحٌ جليٌّ لا يحتاجُ في معرفته لمزيدِ تعمّقٍ وإدراكٍ لدقائقه وخفاياه، ولهذا لم يُعبّر بالفقه، بل يكفي منه مجرّد معرفةِ صفات الأشياء من حُسنِها وقُبحِها، وكمالِها ونُقصانِها، ليستنبطَ عن طريق قوّةِ العقل أنّ ما عند اللّه خيرٌ وأبقى[4]، ولا يُقْدِمُ على مخالفة ذلك إلا غير عاقل[5].

(1) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 426.
(2) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (عقل).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 367، وابن منظور، لسان العرب: (عقل).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 93.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 331.

دلالة المضارعة في ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

عبّر النّظم الحكيم بصيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ لإفادة إنكارِ عدمِ تجدّد تعقّلهم وتفكّرهم لهذا الأمر الواضحِ؛ من أنّ الدّنيا فانيةٌ وأنّ متاعها تشوبهُ الأكدارُ المتكرّرة.

توجيه القراءات في الفعل ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

في الغَيبةِ إعراضٌ عن مخاطبتهم لسوءِ صنيعِهم وفي الخطابِ توبيخٌ لهم بالمواجهة

قرأ أبو عمرو بخُلْف عن السوسي ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ بياء الغَيبة[1]، إمّا لمناسبةِ الغَيبة في قوله تعالى قبلُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: 57][2]، أو على الالتفاتِ عن خطابِ المشركين؛ لتعجّب المؤمنين من حالهم، أو لأنّهم لمّا كانوا لا يعقلون نُزّلوا منزلةَ الغائب؛ لبعدهم عن مقامِ الخطاب[3]، أو إعراضًا عن خطابهم إلى خطابِ غيرهم، وهو النبيّ ﷺ توبيخًا لهم[4]، فقد اقتضى سوءُ صنيعهم الإعراضَ عن مخاطبتِهم[5].

وقرأ الجمهور بالتّاء الفوقانية ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ على خطابهم؛ تناسبًا مع قوله تعالى في صدر الآية: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ التي هي خطابٌ لهم[6]، وفي ذلك توبيخٌ لهم بالمواجهة في كونهم أهملوا العقل في العاقبة.

توجيه المتشابه اللفظيّ في الآية:

من بلاغةِ القرآن مراعاةُ السّياقِ لحال المخاطبين

الاختلافُ بين الآيتين: إنّ في آيةِ القصص عطفَ البيانُ القرآنيُّ بالواو، وذكر فيها الزّينةَ إضافةً إلى المتاع، وختمها بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾. بينما في آية الشّورى عطفَ

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 342.
(2) محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر: 4/ 123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 154.
(4) محمد مطني، سورة القصص دراسة تحليلية: 2/ 1.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 20.
(6) أبو علي الفارسي، الحجّة للقراء السّبعة: 3/ 298، ومحيسن، المغني في توجيه القراءات العشر: 4/ 123.

بالفاء، ولم يذكرِ الزّينة، وإنّما اكتفى بذكرِ المتاع، وختمها بقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾ [الشورى: 36] قال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾ [الشورى: 36]. وتوجيهُ ذلك: أنّ الكلامَ في آية القصص لم يتعلّق بما قبله كبيرَ تعلّقٍ، فناسبَ مجيء الواو المقتضية لمطلقِ الجمع، وأمّا في آية الشّورى فالكلامُ متعلّقٌ بما قبله أشدّ تعلّق؛ لأنّه عقّبَ ما لهم من المخافة بما لهم من الأمنة، فناسبَ مجيء الفاء المقتضية للتّعقيب[1]. وذِكرُ الزّينة في آيةَ القصص؛ لأنّ السّياق في ذكر الكفار، وهم المغترّون بالدُّنيا وزينتها من مساكن وأموال وخدم؛ وقد جاءت بعد قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص: 59]، فخاطبَ الذين أوعدهم بمثل ما أهلكَ به مَن قَبۡلَهم، وأنّه ليس لكم فيما تؤتونه في الدُّنيا عوضٌ مّما يفوتكم في الأخرى؛ فجميعُ أغراضِ الدُّنيا مستوعَبٌ بهذين اللفظين، ومن ثمّ ناسبَ ختمها بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾. وأمّا آية الشّورى فقد تقدّمها آياتُ نعمةٍ على عباده، في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الشورى: 32] إنۡ شاء أنجى أهلها، وإنۡ شاء أهلكهم بذنوبهم، والمؤمنون بالآخرة لا يغترّون بزينةِ الدُّنيا؛ فناسبَ عدمُ ذكرِ الزّينة؛ ولأنّه ليسَ القصد في هذا المكان استيعابُ جميع ما يؤتون في دنياهم، بل هو مطلوبهم في تلك الحال من النّجاة والأمن في الحياة، فلم يحتجۡ إلى ذكرِ الزّينة، ومن ثمّ ناسب ختمها بقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾ [الشورى: 36][2].

الفُروقُ المُعۡجَميَّةُ:

المتاع والمنفعة:

المتاعُ عامٌّ في كلّ ما يُتمتّع به؛ إذ أصلُه يدلّ عَلَى مَنۡفَعَةٍ وامۡتِدادِ مُدَّةٍ في خَيۡرٍ، وتمتّعتَ بالشّيء إذا طالَ تلذّذك به، والمتاعُ: ما يَستمتعُ به الإنسانُ في حوائجه من أمتعةِ البيت ونحوه من كلّ شيء[3]، وكُلُّ شَيۡءٍ يُنۡتَفَعُ بِهِ ويُتَبَلَّغُ بِهِ ويُتَزَوَّدُ والفَناءُ يأۡتي عَلَيۡهِ في الدُّنۡيا فهو متاع[4]، فأصل المَتاع ما يُنۡتَفع بِهِ انتفاعًا قَليلًا غير باقٍ، بل يَنۡقَضي عَن قريب[5]،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والريحان: 21/ 246.

(2) الخطيب الإسكافي، درّة التنزيل وغرّة التّأويل، ص: 987 - 988، وابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من الثاني، ص: 286.

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (متع)، والعسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 454.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (متع).

(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 804.

وأمّا المنفعة: فهي خلاف الضّرّ، والنَفْعُ: ما يُستعانُ به في الوُصول إلى الخيرات، وما يُتوصّل به إلى الخَيْر فهو خير[1]، إذن: المتاعُ هو النّفعُ الذي تكون معه لذّة، بينما المنفعة لا يُشترط أنْ تصاحبها لذّة؛ فقد تكون المنفعة بما تتأجّل به اللذة[2]، فكلُّ متعةٍ منفعةٌ، وليس كلُّ منفعةٍ متعةً؛ فإنّه قد يُنتفع بألمٍ يؤدّي إلى لذّةٍ في العاقبة[3]، ومن هنا ناسبَ التّعبير بالمتاع مضافًا إلى الدّنيا؛ ليشملَ كلَّ ما يَستمتعُ به الإنسانُ ويتلذّذ به في الدّنيا.

كلّ ما يَستمتعُ ويتلذّذُ به الإنسانُ في الدّنيا فانٍ مهما طالت مدّته

الزّينة والجمال:

الزَّينُ خلافُ الشَّين، والزّينةُ في أصلها تدلّ على حُسْن الشّيء وتحسينه[4]، وهي تحسينُ الشّيءِ بغيرِهِ من لِبسة، أو حِلية، أو هَيئة، فهي اسمٌ جامعٌ لكلّ شيء يُتَزَيَّنُ به[5]، والتّزيّنُ: التّحلّي بحليةٍ مُجتلبةٍ تقليدًا لِما هو ناشئٌ من البدن، كالتّجمّل بالأصباغ ونحوها، فالزّينةُ هي الحلية الظّاهرة[6]، والزّينةُ الحقيقيّة: ما لا يَشينُ الإنسان في شيءٍ من أحوالهِ لا في الدُّنيا ولا في الآخرة[7]. وأمّا الجمالُ فهو البهاءُ والحُسْنُ والتّمامُ، ويَكونُ في الفِعْلِ والخَلْق، وفي الصّوَر والمَعاني، ومِنْهُ الحَديثُ: «إن اللّه جَميل يُحِبُّ الجَمال»[8]، أي حَسَنَ الأفعالِ كامِلُ الأوصاف، مِنْهُ تَفيضُ الخَيراتُ الكَثيرَةُ فيُحِبّ مَنْ يَخْتَصُّ بذلك[9]، والجَمالُ: الحُسْنُ الكَثير، وذَلِكَ ضَرْبان: **أحدهما:** جمالٌ يُخْتَصُّ الإنسانُ بِهِ في نَفْسِه أو بَدَنِه أو فِعله، **والثّاني:**

الـزّيـنـةُ هـي الحِلْيةُ المُجْتَلَبةُ الـخـارجـةُ عن أصـلِ المُـزيّـن بـهـا والـجـمـالُ الحُسنُ الذّاتيّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نفع).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 196.
(3) تفسير ابن فورك، ص: 360.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (زين).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (زين).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).
(8) مسلم، صحيح مسلم، رقم 91.
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جمل).

ما يَصِلُ مِنْهُ إلَى غَيْرِه[1]. إذن الفرقُ بين الزينة والجمال: هو أنّ الزّينةَ تحسينُ الشّيء بغيره، والتّحلّي بحِلْيَةٍ مجتَلَبةٍ، فهي الأشياءُ الخارجةُ عن أصل المزيّن بها، والتي تُضاف للتّحسين. بينما الجمالُ هو شدّةُ الحُسن ويكون ذاتيًا وليس مُجْتَلَبًا، ويتعلّقُ بصفات جوهرِ الشّيء الحسيّة والمعنويّة. وقد أتى التّعبيرُ بالزّينة معطوفًا على متاعِ الحياة الدُّنيا؛ ليشمل كلّ أعراض الحياة الدُّنيا.

العقل والفقه:

العقلُ مسلكٌ من مسالكِ الكَشْفِ عن الخَيرِ الأبقى

العَقْل: هو القوّة المتهيّئة لقبولِ العلم، أو هوَ العِلمُ بصفاتِ الأشياءِ من حُسنِها وقُبحِها، وكمالِها ونُقصانِها[2]. فالعَقْلُ: نَقيضُ الجَهْلِ، يُقال: عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا، إذا عَرَفَ ما كان يجهله قبل، أو انْزَجَرَ عمّا كانَ يفعله، ورجلٌ عَقولٌ، إذا كان حَسَنَ الفَهْم وافِرَ العَقْلِ[3]. والعَقْلُ: الحِجْر والنُّهى والحفظ، والحصر والحبس، وضِدُّ الحُمْق، والعاقِلُ الَّذي يَحْبِس نَفْسَهُ ويَرُدُّها عَنْ هَواها[4]. وأمّا الفقهُ: فهو الفطنةُ وإدراكُ الشيء والعلمُ به، ثمّ اختصَّ بذلك علمُ الشريعةِ؛ فقيلَ لكلِّ عالم بالحلالِ والحرام: فقيهٌ[5]. والفقهُ هو العلم بمقتضى الكلام على تأمّله[6]، وفسَّره الرّاغب: بالتَّوصُّلِ إلى علم غائبٍ بعلم شاهدٍ، فهو أخصّ من العلم[7]. وأوثرَ استعمال العقل هنا دون الفقه؛ لأنّه يكفي من الإنسان أنْ يعرفَ صفات الأشياء من حُسنِها وقُبحِها، وكمالِها ونُقصانِها، ليستنبطَ عن طريق قوّةِ العقل أنّ ما عند اللّه خير وأبقى ممّا أوتيه من متاع الدُّنيا الزائل، فيحبسَ نفسه ويحفظها من الانغماسِ في المهالك.

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جمل).
(2) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (عقل).
(3) العين، الخليل، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقل).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 367، وابن منظور، لسان العرب: (عقل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيدي، تاج العروس: (فقه).
(6) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 412.
(7) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فقه).

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ٦١﴾ [القصص: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّفاوُتُ الظّاهِرُ بين متاعٍ زائلٍ ونعيمٍ باقٍ يقتضي عدمَ التّسوية بين طالبيهما

بعد أنْ أومأ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما كان المشركون من التّبجح به على المسلمين الفقراء من وفرةِ الأموال ونعيم التّرفِ، وأنبأهم بأنَّه مَتاعٌ قليلٌ زائل؛ قابَلَ ذلك بذكر النَّعيمِ الفائقِ الخالدِ الَّذي أعَدَّ للمُؤمنينَ، فقال: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مع تحقيقٍ لمعنى الآية السّابقة بأنْ زادتها بيانًا؛ بأنّ ما أوتوه زائلٌ زوالًا مُعوّضًا بضدّ المتاع والزينة وذلك قوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعَدْنَٰهُ﴾: أصلُ (وعد) كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجيَةٍ بِقَوْلٍ؛ يُقالُ: وعَدْتُه أعِدُهُ وعْدًا؛ ويكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ، فأمّا الوَعيدُ فَلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ[2]. والوَعْدُ: مَعْروف، وعدتُ الرجلَ أعِده وعْدًا حسنًا من مال وغيره، وفُلان وفيُّ الوَعْد والموعود[3]، والموعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ[4]. والمقصودُ بالوعد في الآية: بشارة بخير[5]، والإخبارُ بأمرٍ مُستَقبلٍ.

2) ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: أصلُ (حضر) يدلُّ على إيرادِ الشَّيءِ، ووُرودِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 154، وينظر أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 317، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 426.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وعد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (وعد).
(5) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 10978.

ومُشاهدتِه[1]، والحُضورُ نَقيضُ المَغيب والغَيْبةِ، وأحضَرَ الشَّيءَ، وأحضَرَه إيّاه[2]، والإحضارُ: جَعْلُ الشَّيءِ حاضرًا. والمُحضَرُ في الآية مُراد به: الَّذي جيءَ به ليحضُرَ مَشهَدًا، ومعنى ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: من المبعوثين والمحشورين والمحمولين إلى الجزاء والنّار، أي من الذين يُحضرون مُرْغَمين للعذاب[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

نفي التّسوية بين أهلِ الجنة وأهل النّارِ بأبلغِ أسلوبٍ

ينفي البيان الإلهيُّ التّسوية بين أهل الجنة وأهل النّار؛ فيقول: أفمنْ وعدناه - ممّن خلقنا - على طاعته إيّانا بالجنَّة وجزيل نعيمها، فآمن بما وعدناه فاستحَّقَ أنْ ننجز له وعْدَنا، كمَن هو كافرٌ مُكَذِّبٌ بلقاءِ اللّه، مُؤْثِرٌ اللَّذَّةَ العاجلةَ على الآجِلةِ، فهو مُمَتَّعٌ في الحياةِ الدُّنيا فحَسْبُ، ثمَّ هو يومَ القيامةِ إذا ورَدَ على اللّهِ مِنَ المُحضَرينَ للجَزاءِ؟![4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الهمزة) في ﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ﴾:

إنكارٌ لأيّ شَبَهٍ ومساواةٍ بين طلّابِ الآخرة وطلّاب الدّنيا

الاستفهامُ بالهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ﴾؛ للإنكارِ ونَفْيِ المشابهةِ والمماثلةِ والمساواةِ بين الفريقين - أهلِ الجنة وأهلِ النّار - التي أفادها كافُ التّشبيه[5]، أي إنكارٌ بمعنى النّفي[6]، فلا يستوي في عرفِ أيِّ عاقلٍ حالُ المؤمنين الذين وعدهم اللّهُ وعدًا حسنًا بالجنّة ونعيمها، وحالُ أولئك الكافرين والفاسقين الذين

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حضر).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حضر).
(3) الماوردي، النّكت والعيون: 4/ 261، ودروزة، التّفسير الحديث: 3/ 333، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1792.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 293، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 249، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 426.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 155.
(6) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1418.

متّعناهم إلى حينٍ بمتاعِ الدّنيا الزّائلةِ[1]، وليس المقصودُ إنكارَ مجرّد المساواة، بل إنكارَ أنْ يكون بين الفريقين أيّ شبهٍ كان[2].

معنى (الفاء) في ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ﴾:

تَرْتيبُ إنكارِ التَّشابُهِ بينَ أهلِ الدُّنيا والآخرةِ على التَّفاوُتِ بيْنَ مَتاعِ الدنيا ونعيمِ الآخرة

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ﴾ عاطفةٌ، تفيدُ معنى التّرتيب والتّعقيب والسّببيّة؛ لترتيبِ وتعقيب إنكارِ التّساوي بين أهل الدّنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهورِ التّفاوت بين الجانبين[3]، أي أفَبَعْدَ هذا التَّفاوُتِ الظّاهرِ يُسوّى بيْنَ أبناءِ الآخرةِ وأبناءِ الدُّنيا![4].

وأمّا تقديرُ السّببيّة فيها فيتمثّل في أنّه لّما كان ما قرّره البيانُ الحكيم - من تعطيل المشركين لعقولهم؛ ووبّخهم على ذلك -؛ سببًا لأنْ ظَهرَ كالشّمس بونٌ عظيمٌ بين حالِ المخالفِ والمؤالفِ، سبّبَ عنه وأنتجَ قوله، مقرّرًا لِما ذكرَ من الأمرين موضّحًا لِما لهما من المباينة، مُنْكِرًا على من سوّى بينهما، فكيف بمن ظنّ أنّ حالَ المخالف أولى: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ﴾[5].

ويحتملُ أنْ تكون للتّوكيد، أي أُلحقتْ لزيادةِ التّقرير والتّأكيد[6].

علة التّعبير بـ (مَنْ):

عمومٌ يشيرُ إلى سعةِ رحمة الله وعظيم عطائه وإبهامٌ يشوّقُ لمعرفة المستحقّين له

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ﴾ اسمُ موصول في محلّ رفع مبتدأ، وجملة ﴿وَعَدۡنَٰهُ﴾ صلة، وهو وإنْ كان مفردًا في اللفظ إلا أنّه عامٌّ في المعنى، فهو كنايةٌ عن كلّ المؤمنين بالله الطّائعين له[7]. والآيةُ وإنْ نزلتْ في النّبيّ ﷺ أو في حمزة وعلي رضي الله عنهما[8]، إلا أنّ العبرةَ بعمومِ

(1) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 426.
(2) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 206.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 14/ 359.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 317.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 332.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 127، والفيرزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 47.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 604.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 604.

اللفظ لا بخصوصِ السّبب، والصيغةُ عامة، وهي من قبيل ضربِ المثل[1]، وفي العمومِ إشارةٌ إلى سعةِ رحمته سبحانه وعظيم عطائه.

وفي الموصوليّة كذلك تشويقٌ لمعرفةِ المستحقّين للتّشريف والتّكريم بوعدِ اللّه، بما تحمله من إبهام.

دلالة التّعبير بالوعد والمضيّ في ﴿وَعَدۡنَٰهُ﴾:

وعدُ الله لعباده بنعيمِ الآخرة وعدٌ محقّقٌ لا خُلْفَ فيه

عبّر البيانُ القرآني بلفظ الوعد في الفعل والمصدر في قوله تعالى: ﴿وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا﴾؛ تبشيرًا بالخير؛ لأنّ الوعدَ إذا أُطلق يُستعملُ في الخير[2]، وقد جاء الفعل ﴿وَعَدۡنَٰهُ﴾ بصيغة الماضي؛ لإفادة تحقّق وعدِ اللّه لعباده المؤمنين، وأنّه لا خُلْفَ فيه. وجاء ﴿وَعۡدًا﴾ مصدرًا للفعل ﴿وَعَدۡنَٰهُ﴾، ولم يقل: (وعدناه موعودًا حسنًا)؛ لإفادة توكيد الوعدِ الحسنِ من اللّه، وليجمعَ بين تحصيلِ التّصديق بالوعد والموعود به؛ إذ إنّ تحقيقَ الوعدِ يستلزمُ تحقيقَ الموعودِ به[3].

دلالة إسناد الوعد إلى ضمير العظمة في ﴿وَعَدۡنَٰهُ﴾:

العظيمُ لا يكون وعْدُه إلا ثابتًا محقّقًا عظيمًا

ما يزالُ النّظم الحكيم يرفعُ من شأن الحياة الآخرة ويعظّمها، ويرغّبُ فيها ويحطُّ من شأنِ الحياة الدّنيا ويزهّدُ فيها، ولهذا الغرض أُسندَ الوعْدُ الحَسَن إلى ضمير العظمة (نا)، أي: وعدناه بعظمتنا وعدًا حسنًا، وفيه تأكيدٌ كذلك لإثباتِ تحقّقِ الموعودِ وهو نعيمُ الجنة وعظمته، وعظمةُ المؤمن المستحقّ له، وتربيةُ المهابة في نفوسِ المخاطبين.

دلالة تنكير ﴿وَعۡدًا﴾:

تعظيمُ وتفخيمُ شأنِ الحياةِ الآخرة ترغيبًا في نعيمها

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَي ﴿وَعۡدًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا﴾، لإفادةِ التّعظيم والتّفخيم والتّشريف لهذا الوعد الحسن؛

(1) عبد القادر بن ملّا حويش، بيان المعاني: 2/ 389.
(2) الجوهريّ، الصحاح، والرّازي الحنفيّ، مختار الصّحاح: (وعد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.

لأنّه من العظيمِ سبحانه، والعظيمُ لا يكون وعدُه إلا عظيمًا، وفي هذا حثٌّ على طلبهِ والحرصِ عليه، والزّهدِ بالمتاعِ القاصر الزّائل.

نكتة وصف الوعد بـ﴿حَسَنًا﴾:

حُسنُ نعيمِ الآخرة في عظمته ودوامِ نفعه

وصفَ اللّهُ وعده بـالحَسن في قوله تعالى: ﴿وَعۡدًا حَسَنًا﴾؛ ترغيبًا به؛ إذ الحُسنُ في اللغةِ هو كلُّ مبهجٍ مرغوبٍ فيه، مُسْتَحْسَنٍ من جهةِ العقل أو الشّرع أو الهوى أو الحسّ[1]، فَوَصْفُ وعْدِ اللّه بالحسن دليلٌ على أنّه نعيمٌ دائمٌ على وجهِ التّعظيم والاستحقاقِ، ولا شيءَ أحسنَ منها، ولذلك سمَّى اللّهُ الجنَّةَ بالحسنى[2].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾:

حتميّةُ لقاءِ الموعودِ به متسبّبٌ عن وعدِ الله الذي لا يُخلَف

(الفاء) في ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ عاطفةٌ، فيها معنى التّرتيب؛ لأنّ هذه الآية كالنّتيجةِ للتي قبلها، وفيها معنى السّببيّة[3]؛ لأنَّ لقاءَ الموعودِ به - وهو الجنّةُ ونعيمُها - مُتَسَبَّبٌ عن الوعدِ الذي هو الضمانُ في الخبر[4]، والخُلفُ ممتنعٌ على اللّه، فتحتّمَ لقاء الموعود به؛ فَهوَ لاقيهِ ومدركه لا محالة[5]. قال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الروم: 6].

موقع جملة ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾:

الوعدُ الحسن من اللهِ للمؤمنين وعدٌ محقّقٌ

جملة ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ﴾ معترضةٌ بين المبتدأ (مَن) والخبر ﴿كَمَن﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ أنّ ما وعدَ اللّه به المؤمنين من الوعدِ الحسن هو وعدٌ محقّقٌ[6].

دلالة بناء الجملة على تقديم ضميره ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾:

ثبوتُ الوفاءِ بوعدِ اللهِ للمؤمنينَ وتأكيدُ تحقّقِهِ البتّة

بنى البيانُ القرآني هذه الجملة وهي: ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ على تقديمِ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حسن).
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 425.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 155.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 317.
(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 182.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 155.

المُسْنَد إليه (هو) على المسند الفعلي - وهو الخبر الذي جاء بصيغة اسم الفاعل ﴿لَاقِيهِ﴾؛ لتكون جملةً اسميّةً تفيدُ ثبوتَ الوفاء بوعدِ اللّه للمؤمنين وتحقّقه البتّة؛ أي مُدْرِكُه لا مَحالةَ لاستحالةِ الخُلفِ في وعدِه تعالى[1]، ولو عبّر بقوله: (فلاقاه) لَمَا أفادَ معنى الثّبوتِ والتّحقّق للوعد. ولتفيدَ كذلك تقويةَ الحكم وتوكيد تحقّقه، وهو إدراكُ المؤمنِ للوعدِ الحسنِ الذي وعدَه إيّاه اللّهُ سبحانه. وسببُ تقويةِ الحكم وتوكيده تكرارُ الإسناد؛ فقد وقع اسم الفاعل خبرًا عن المسند إليه (هو)، واسمُ الفاعل في الوقت نفسه مسندٌ إلى الضّمير في ﴿لَاقِيهِ﴾ العائدِ على المبتدأ (هو)، فكأنّ الحكمَ هنا ذُكر مرّتين؛ مرّةً حين أُسندَ اسمُ الفاعل إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسندَ إلى ضميره العائدِ إلى المبتدأ، بخلافِ إنْ تأخّر المسندُ إليه (لاقيه هو) فلا يحدثُ هذا التّكرار، بل يحدثُ الإسنادُ مرّةً واحدة فقط.

دلالة التّعبير باللقاء ﴿لَاقِيهِ﴾ مادة وصيغة:

تصويرٌ للوعدِ الحسن بكائنٍ حيّ يستقبلهم بإقبالٍ ورغبةٍ بما يدلُّ على عظمته

عبّر النّظم الحكيم بلفظ اللقاء في قوله: ﴿وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ دون غيره، فلم يقلْ مثلًا: (واجده)؛ لأنّ لفظ اللقاء وما يحمله من معانٍ أنسبُ للسّياق الذي يعظّم وعدَ اللّه؛ بالإضافة إليه سبحانه أو بالتّنكير أو بالوصف بالحسن، إذ إنَّ أصلُ (لَقيَ) يدلُّ على تَوافي شَيْئَيْن وتقابلهما[2]، واللقاءُ: وصولُ أحد الجسمين إلى الآخر بحيث يماسّه شخصه فيكون قريبًا منه[3]، فكلّ هذه المعاني تتناسبُ مع تحقّقِ الوعد لا محالة؛ فكأنّه مشخّص في صورةِ كائنٍ حيّ مرغوبٍ في لقائه؛ استقبلهم وقابلهم وجهًا لوجهٍ وصادفهم فاجتمعوا به بإقبالٍ ورغبةٍ، وكان قريبًا منهم إلى درجةِ التّماسِّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).

(3) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعنى الاشتقاقي المؤصّل: (لقي).

والاتّصالِ. والنّفوسُ المؤمنة ترغبُ في لقاءِ وعدِ اللّه، وتحبّ موعدَ اللقاءِ في اليوم الآخر، فيتناسب هذا مع الصّورة المقابلة للنّفوس الكافرة، التي لا ترغب هذا اللقاء في اليوم الآخر، فهي تُحضرُ إحضارًا في ذلك اليوم، بقوله ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[1]، والتّعبير بصيغةِ اسم الفاعل ﴿لَٰقِيهِ﴾ أعطتْ هذه الصّورة صفةَ الاستمرارِ والدّوام؛ فهو لقاءٌ مستمرٌّ لا ينقطع، وفي هذا من النّعيم ما فيه.

معنى (الكاف) في ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ﴾:

لا تشابهَ بينَ أهلِ الدُّنيا وأهلِ الآخرةِ

كاف ﴿كَمَن﴾ في قوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ للتّشبيه، وهو تشبيهٌ سلبيٌّ؛ المشبّهُ هو أهلُ الآخرة، والمشبّهُ به هو أهلُ الدّنيا، ووجهُ الشّبه المنفيّ هو المساواة بينهما، والمقصودُ في الآية إبطالُ ذلك التّشبيه، ونفيُ أنْ يكون بين الطرفين صلةٌ ما[2]، وإبرازُ الفارق الكبير والبونِ الشّاسع بين الحياة الدّنيا والحياة الآخرة، وبين أهل الجنّة وأهل النّار.

علة التّعبير بـ(مَن) في ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ﴾:

رحمةُ الله وامتحانه تشملُ كلَّ طلابِ الدُّنيا

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ﴾ اسم موصول بمعنى الّذي، وتستعمل مع العاقل، في محلّ رفع خبر للمبتدأ (أفَمَنْ)، وجملة ﴿مَّتَّعْنَٰهُ﴾ صلة، وهو وإنْ كان مفردًا في اللفظِ إلا أنّه عامٌّ في المعنى، فهو كنايةٌ عن كلّ الكافرين طلّابِ الدّنيا[3]، لأنّ العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوصِ السّبب، والصّيغةُ عامّة، وهي من قبيلِ ضربِ المثل[4].

ومع هذا العموم فإنّ الموصوليّة تفيدُ التّشويقَ لمعرفةِ الجهة المقابلةِ لطلّابِ الآخرة؛ الذين وعدهم اللّهُ الوعدَ الحسنَ، وذلك من خلالِ الإبهامِ الذي تتضمّنه.

(1) عبد السّلام أحمد الرّاغب، وظيفة الصّورة الفنّيّة في القرآن، ص: 151.
(2) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 206.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 606.
(4) عبد القادر بن ملّا حويش، بيان المعاني: 2/ 389.

دلالة التّعبير بمفردة التّمتّع ﴿مَّتَّعۡنَٰهُ﴾:

حلالُ مُتعِ الدّنيا حِسابٌ وحرامُها عِقابٌ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿مَّتَّعۡنَٰهُ﴾ دون غيرها كالمنفعة؛ فلم يقلْ: كمن نفعناه؛ لأنّها الأنسبُ مع المقام، وهو الحديثُ عن التّلذّذ في متعِ الدّنيا الزّائلة الفانية؛ إذ المتعةُ كلُّ شيءٍ يُنتفعُ به ويأتي الفناءُ عليه[1]، وهي منفعةٌ توجبُ الالتذاذ في الحال، بخلافِ المنفعةِ فقد تكونُ بألمٍ تؤدّي عاقبته إلى نفعٍ ولذّة، فكلُّ متعةٍ منفعةٌ، ولا ينعكس[2]، أي اللذّةُ في المنفعةِ قد تتأجّل[3].

شأنُ مُتعِ الدّنيا المضيُّ والزّوالُ لا البقاء والاستمرار

وقد أتى التّعبير بالتّمتّع بصيغة الفعل الماضي ﴿مَّتَّعۡنَٰهُ﴾ الذي يدلّ على التحقّق والوقوع، فلا يخلو أحدٌ من التّمتّع بمتعِ الحياة الدّنيا بأيّ وجه من وجوه التّمتّع، وللإشارة إلى سرعة انقضاءِ هذه المتع وسرعةِ زوالِها رغم تحقّق وقوعها، فتناسبَ مع حالِ هذه المتع التي لا تدوم، ومع ما يقابله ﴿وَعَدۡنَٰهُ﴾؛ إذ جاء بصيغة الماضي.

نكتة إسناد التّمتيع إلى ضمير العظمة:

من رحمةِ الله أنْ جعلَ مُتعَ الدّنيا طريقًا للإيمانِ به لا سببًا للإعراض عنه

أسندَ البيانُ القرآنيُّ التّمتيع إلى ضمير العظمة (نا) في قوله تعالى ﴿مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ﴾؛ للدّلالة على العلاقة بين اللّه وعباده، وأنّ اللّهَ هو المصدرُ للنّعم والبركات في حياةِ الإنسان، بما يدلُّ على الرّحمةِ والكرم اللامحدودين للّه تعالى. ويدعو العبادَ إلى الثّقة والاعتماد على اللّه في جميع جوانب حياتهم، وأنّهم يجب أنْ يكونوا مُمْتَنّين وشاكرين له على كلّ شيء، وأنْ يستحضروا رحمته وعظمته فيما منّ به على جميعِ الخلق من مُتعِ الحياة؛ لتكون طريقًا للإيمانِ به سبحانه، لا سببًا للتّعلّق بها والإعراضِ عنه، والكفر به سبحانه.

الموقع الإعرابي لـ﴿مَتَٰعَ﴾:

جاء لفظ ﴿مَتَٰعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أتى).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 518.

(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 196، وتفسير ابن فورك، ص: 360.

﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ مفعولًا مطلقًا؛ لإفادةِ توكيد تحقّق التّمتّع في حياةِ الإنسان من قِبَلِ خالقِ كلّ شيء، وأنّه تمتّعٌ دنيويّ قاصرٌ زائلٌ؛ بما يُسلّطُ الضّوء على الفارقِ الكبير بين الوعدِ الحسنِ والمتاعِ الدّنيويّ، ويكون دعوةً للإنسان بألّا تصرفه مُتع الدّنيا عن نعيمِ الآخرة.

في تأكيدِ كون مُتعِ الدّنيا من الله وأنّها مؤقتةٌ دعوةٌ للإنسان بألّا تصرفه عن نعيمِ الآخرة

نكتة الإضافة في ﴿مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

إضافةُ ﴿مَتَٰعَ﴾ إلى ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ في قوله: ﴿مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ للتّحقيرِ والتّقليلِ بدلالة المقام؛ أي تسليطًا على المدّةِ القصيرةِ، وذكرَ الحياة مضافةً للمتاع وموصوفًا للدّنيا، فالمتاعُ يُطلق على ما لا بقاءَ له[1]، وعمرُ الإنسانِ في الدّنيا مظنونٌ وعمره في الآخرة متيقّنٌ، والدّنيا محدودةٌ، والآخرة خلود، ونعيمكُ في الدّنيا منوطٌ بقدرتك على تصوّر النّعمة وإمكاناتها، ولكن نعيمكَ في الآخرة على قدرِ عظمةِ رَبّك وعطائه العميم؛ لذلك وصفها بقوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185]، ولم يأتِ الله لها باسم أقلّ من اسم الدنيا[2].

لم يأتِ الله لبيانِ حقارة وقلّة المتاع الدّنيويّ باسم أقلّ من اسمِ الحياة الدّنيا

وبالمقابل لم يذكرِ الحياة موصوفًا للآخرة، وإنّما اكتفى بالوعدِ الحسن من اللّه؛ إشارةً إلى عدم ارتباطِ الآخرةِ بالزمن، وأنّها دار الخلود، ونعيمُها لا يُحصى لكثرته، ولأنّ الإيمان بها والتعلّق بها في ذاته سعادةٌ غير محصورة، فهي علوّ في إدراكِ النِّعيم المقيم الثّابت الدائم[3].

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

ألِ التَّعريف في ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ عهديّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيّ؛ فالحياةُ في الآية هي المعهودة، وهي التي تبدأُ بالولادة وتنتهي بالموت، والتي يتمتّع فيها الإنسانُ بالمتع التي لا

في العهديّة إبرازٌ لمحدوديّة الحياةِ الدّنيا مقابلَ الآخرة

---

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 18.
(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 4/ 1968.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/ 3306.

تخلو عن أكدارٍ ومنغّصات، والعهديّة في هذه الآية تُعزّز الفكرةَ العامّة للحياة الدّنيا كمرحلةٍ مؤقّتة ومحدودةٍ في مقابلِ الحياة الأبديّة.

نكتة المقابلة في الآية:

التّناقضُ بين النّعيم الأبديّ والمتاعِ الزّائل يُظهرُ القيمةَ الحقيقيّة للحياة الآخرة

المقابلةُ والتّباين بين الوعد الحسن الذي أعدّه اللّهُ للمؤمنين في الآخرة بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا﴾، وبين المتاعِ الزائل في الدّنيا بقوله: ﴿كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يساعدُ في بيان قلّةِ متاع الدّنيا، ويناصرُ النّهي عن الإخلاد إليها، وذلك بما تُظهره هذه المقابلة من تناقضٍ بين الثّواب الجميل والنّعيم الأبدي الذي أعدّه اللّهُ للمؤمنين، والمتاعِ المؤقّت والزّائل الذي يُمكن للإنسان الاستمتاع به في الدّنيا. وخلاصةُ هذه النّكتة أنّ التّباين بين المتقابلَيْن المذكورَيْن؛ يُظهرُ القيمةَ الحقيقية للحياة الآخرة على حسابِ الحياة الدّنيا، والفارقَ الكبير والبَوْنَ الشّاسعَ بينهما، وخاصةً مع أسلوبِ التّأكيد بالمصدر في المتقابلَيْن ﴿وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا﴾ و﴿مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ﴾.

سرّ التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ دون الواو والفاء في ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

حثٌّ على الاتّعاظ وبيانٌ للبعدِ بين الوعدين

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ حرفُ عطف، والجملةُ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿مَّتَّعۡنَٰهُ﴾ فهيَ مِن تَمام صِلَةِ المَوصول، داخلٌ معه في حَيِّزِ الصِّلة[1]، مؤكِّدٌ لإنكارِ المساواة والتَّشابُه بين أهلِ الجنّة وأهلِ النّار[2]، ومُقرِّرٌ له؛ كأنَّه قيلَ: كمَنْ متَّعْناهُ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا، ثم نُحْضِرُه أو أَحْضَرْناه يومَ القيامةِ النّارَ أوِ العذابَ[3].

والتّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ دون الواو أو الفاء؛ لكونها تُفيدُ التّرتيبَ والتّراخي في الزّمان، أي لتراخي حال الإحضار يوم القيامة لهؤلاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 155.
(2) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 426.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.

الكافرين عن حالِ التّمتّع في الدّنيا بتراخي وقته عن وقته[1]، والمعنى: متّعناهُ زمانًا وهوَ زمانُ حياتِه، ثُمّ أُحضِرَ يومَ القيامة. وفي التّراخي الزّمني حثٌّ للمخاطبين من طلاب الدّنيا لأنْ يتداركوا أمرهم زمن حياتهم قبل الإحضار يومَ لا ينفعهم الندم.

أو تفيدُ التراخي في الرّتبة[2]؛ لبيانِ أنَّ رُتبةَ مَضْمونِها في الخَسارةِ أعظَمُ مِن مضمونِ الَّتي قبْلَها، أيْ: لم تَقْتَصِرْ خَسارتُهم على حِرْمانِهم مِن نعيمِ الآخرةِ، بل تَجاوَزَتْ إلى التَّعويضِ بالعَذابِ الأليمِ[3]؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ لتَراخي حالِ الإحْضارِ عن حالِ التَّمْتيعِ؛ فحالُ الإحضار أنزلُ وأحَطُّ من حالِ التّمتّع؛ لأنّها عذابٌ دائمٌ بينما كانوا في الدّنيا يروحون ويغدون في الملذّات والشّهوات[4]، لا لِتَراخي وقتِه عن وقتِه[5]؛ وذلك لأنَّه أبلَغُ وأكثرُ إفادةً؛ لأنَّ تأخُّرَ زمانِ الإحْضارِ عن زمانِ التَّمْتيعِ ظاهرٌ بَيِّنٌ، لا يَحتاجُ إلى التَّنْبيهِ عليه[6]، أو للإشارةِ إلى البُعد بين الوعدين؛ الزّائل الفاني والباقي الدّائم.

نكتة المغايرة إلى الاسمية ﴿هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بعد الفعلية ﴿مَتَّعۡنَٰهُ﴾:

في ثبوتِ وقوعِ يومِ القيامةِ تخويفٌ للكافرين للإيمان به

إيثارُ الجُملةِ الاسْميَّةِ ﴿هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ رغم أنّها عُطفت على الجملة الفعلية ﴿مَتَّعۡنَٰهُ﴾، ولم يقل: (أحضرناه)؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ كونه من المحضرين يوم القيامة حَتْمًا[7]؛ إثارةً لخوفهم من هذا اليوم وتحذيرًا منه، ودفعًا لهم للإيمانِ به، والعملِ استعدادًا له.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 317.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 182، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 155.
(4) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 206.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 425.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 88.
(7) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 80، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.

دلالة البناء على تقديم ضمير ﴿هُوَ﴾:

بنى البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ على تقديمِ المُسْنَدِ إليه ﴿هُوَ﴾ على المُسْنَدِ وهو الخبر ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾؛ لتكون جملةً اسميةً، تفيدُ ثبوتَ إحضارِ الكافرين وتحقُّقَه البتّة، ولو عبّر بقوله: (وأحضرناه) لَما أفادَ معنى الثّبوت والتّحقق المؤكّد. ولتفيد كذلك تقويةَ الحكم وتوكيد تحقّقه بتكرار الإسناد؛ فقد وقع اسم المفعول وهو المُحضَر خبرًا عن المسند إليه ﴿هُوَ﴾، والمُحضرُ في الوقت نفسه مسندٌ إلى الضمير في ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ العائد على المبتدأ ﴿هُوَ﴾، فكأنّ الحكمَ هنا ذُكر مرّتين؛ مرّة حين أُسندَ اسم المحضر إلى المبتدأ، ومرّة حين أُسند إلى ضميره العائدِ إلى المبتدأ، بخلاف إنْ تأخّر المسند إليه فقال: (المحضر هو)، فلا يحدثُ هذا التّكرار، بل يحدثُ الإسنادُ مرّة واحدة فقط.

ثبوتُ إحضارِ الكافرين للجزاء وتأكيدُ تحقّق الإحضار البتّة

علة تقديم الظّرف ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على الخبر:

تقديمُ الظّرف وهو ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على الخبر وهو ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾؛ مراعاةً للفاصلة القرآنية التي تنتهي بياء ونون أو واو ونون[1]؛ واهتمامًا بيوم القيامة، وتعظيمًا له وتخويفًا منه، وتأخيرًا لهؤلاء المحضرين، وإبعادًا لهم؛ استخفافًا بهم وإهانةً لهم، وفي تخصيص هذا الإحضار للحساب بيوم القيامة.

من العلل الاهتمام بيوم القيامة ولفتُ الانتباه إليه تحذيرًا وتخويفًا منه

دلالة الإضافة في ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

إضافة ﴿يَوۡمَ﴾ إلى ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بيانيّة؛ بيّنَتْ أنّ إحضارَ الكافرين مُكرهين خائفين إلى النّار أو العذاب هو في يوم مقيّد ومختصّ بقيام النّاس للحساب، أي أنّه في الآخرة لا في الدّنيا، وهذه الإضافةُ تفيدُ تفخيمَ هذا اليوم وتعظيمه

تفخيمُ يوم القيامة وتعظيمه والتّخويف بما يكون دافعًا للاستعداد

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 80.

والتّخويف منه، بما يكون دافعًا للاستعداد له، فهو يوم التّغابن "من خسرَ فيه لا يربحُ أصلًا، ومن هلكَ لا يمكن عيشه بوجه"[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾:

في التّبعيضِ إشارةٌ إلى تهويلِ موقفِ إحضارِ الكافرين

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ تبعيضيّة، أي هو بعض المُحضرين، وفي جَعْلِه مِن جُملةِ المُحْضَرينَ مِن التَّهويلِ ما لا يَخْفى[2]، لدلالةِ ذلك على أنّه موقفٌ كلّه قهرٌ وخوفٌ لجميعِ الكافرين، وذلٌّ وهوانٌ وافتضاحٌ لهم.

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ مادة وصيغة:

في الإحضار تصويرٌ لإذلالِ النّفوسِ الكافرة

التّعبير بالإحضار وصياغته اسمَ مفعولٍ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ يُشعر بإحضارِ الكافرين إلى النّار، وهم مكرهون مقهورون على الحضور خائفون من العذاب المهين الذي أُعدّ لهم[3]، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق: 21]، بخلاف المؤمنين الذين تتلقّاهم الملائكة وتبشّرهم، قال تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء: 103][4]. وفي هذا تصويرٌ للنّفوس الكافرة، التي تكرهُ الحساب، لذلك فهي تُحضر إحضارًا في ذلك اليوم، بخلاف المؤمنين الرّاغبين في لقاء الله، كما صورهم قوله تعالى: ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾، كما مرّ[5]. كما أنّ في التّعبيرِ بالإحضارِ إشارةً إلى إهانتهم أمامَ الخلائق؛ لأنّه من معاني الإحضار إيجادُ ما يكون من الشّيء بحيث يُشاهد، فلمّا كان هؤلاء القوم يشاهدهم الخلائق كانوا محضرين[6]، وفيها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 332.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.
(3) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 426.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 10/ 371.
(5) عبد السّلام أحمد الرّاغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ص: 151.
(6) تفسير ابن فورك، ص: 360.

إشارةٌ إلى أنهم لا يستطيعون الهروب، ولهذا كلّه غلبَ استعمال لفظ المُحْضَر في القرآن في المُعَذَّبِ[1].

نكتة حذف متعلّق ﴿ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾:

إحضارُ طلابِ الدّنيا يومَ القيامة إحضارُ عذابٍ دلَّ عليه السّياق

حُذفَ متعلِّق ﴿ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾؛ اختصارًا؛ لأنّه قد دَلَّ عليه التَّوبيخُ في ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ والتّقدير: (إنّه كان من المُحْضَرينَ للعقاب أو للجزاء أو للنّار). والمقابلةُ في قوله ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا﴾ المقتَضيةُ أنَّ الفريقَ المُعَيَّنَ مَوْعودونَ بضدِّ الحَسنْ[2]، وكون الغالبِ في فعل الإحضار أنْ يُراد به إحضارُ سوءٍ، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٢٧﴾ [الصافات: 127]، فأمّا إذا أريدَ الإتيانُ بأحدٍ لإكرامه فيُطلقُ عليه المجيء[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحُسن والجمال:

الـحُـسـنُ أمـرٌ مـرغـوبٌ فيه مُـسـتـحـسَـنٌ يـتـنـاسـبُ مع وعدِ اللهِ لعباده بالإنعام عليهم

الحُسْنُ: نَعْتٌ لما حَسُن، وهو ضدّ القُبْحِ[4]، وهو كلُّ مبهجٍ مرغوبٍ فيه، مستحسنٍ من جهةِ العقل أو الشّرع أو الهوى أو الحسّ، وأكثر ما جاء في القرآن من الحسن فللمستحسنِ من جهةِ البصيرة[5]، والحَسَنَةُ يعبّر بها عن كلّ ما يَسُرّ من نعمةٍ تنالُ الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله[6]. وأمّا الجمال فهو البهاءُ والحُسْنُ والتّمامُ، ويَكونُ في الفِعْلِ والخَلْق، وفي الصّوَر والمَعاني، ومِنْهُ الحَديثُ: «إن اللّه جَميل يُحِبُّ الجَمال»، أي حَسَنَ الأفعال كامِلُ الأوصاف، مِنْهُ تَفيضُ الخَيراتُ الكَثيرَةُ فيُحِب مَنْ يَخْتَصُّ بذلك[7]. والجَمالُ: الحُسْنُ

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 80، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 155.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 187.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(5) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حسن).
(6) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 464.
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جمل).

الكَثير[1]، والجمالُ هو ما يشتهرُ ويرتفعُ به الإنسان من الأفعال والأخلاق، ومن كثرة المال والجسم، وليس هو من الحُسن في شيء. والحُسن في الأصل للصّورة ثم استُعمل في الأفعال والأخلاق، بينما الجمالُ في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة ثم استُعمل في الصّور[2]، وقد ناسبَ التّعبير بالحُسن في الآية ﴿وَعۡدًا حَسَنًا﴾؛ إذ جاء وصفًا للوعد الذي وعده اللّه لعباده، من الإنعام عليهم، وهو أمرٌ مرغوبٌ به مستحسنٌ من جهة البصيرة.

اللقاء والإدراك:

توكيدُ تحقّقِ الوعدِ الحسن للمؤمن يناسبه اللقاءُ الذي هو تقابلٌ قويّ وتماسٌّ قريبٌ

اللقاءُ تَوافي شَيْئَيْنِ وتقابلهما،[3] واللقاءُ: الرّؤية، واجتماعُ بإقبالٍ، واللقاءُ: وصولُ أحد الجسمين إلى الآخر بحيث يماسّه شخصه، واللقاءُ: هوَ مُقابلَةُ الشّيءِ، ويُعبَّر بِهِ عَن كلٍّ مِنْهُما، ويُقالُ ذلك بالحسّ، وبالبصرِ، وبالبصيرة[4]، وكلُّ لَقيَ والتَقى هي بمعنى المقابلة والوجود القويّ، أي يستقبله ويلقاه ويجده[5]، والمعنى المحوري للقاء: تحصيلُ المقابلةِ مواجهةً أو تماسًّا أي بقوّة، ففيه معنى القرب[6]. وأمّا الإدراكُ فهو لحوقُ الشّيء بالشّيء ووصوله إليه[7]، وبلوغُ أقصى الشّيء وغايته[8]، وأدركَ الشّيء إدراكًا: بَلَغَ وقْتَه وانْتَهى، وأَدْرَكَتِ الثِّمارُ: إذا بَلَغَت إناها وانْتَهى نُضْجُها[9].

وإيثار التّعبير باللقاء دون الإدراك؛ لإفادة أنّ ما وعد اللّه من الوعد الحسن للمؤمن فإنّه يقابله لا محالة ويراه ويجتمع معه

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جمل).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 166.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(4) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (لقي).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لقى).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لقى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (درك).
(8) الرّاغب، المفردات: (درك).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (درك).

بتماسٍ قريبٍ وقويّ، وفي هذا مزيد اطمئنان وتوكيد لتحقّق الوعد الحسن للمؤمن.

الحضور والمجيء:

مشهدُ إحضارِ الكافرِ وهو يُجَرُّ بقوّةٍ إلى النّار أبلغُ في التّخويف

الحضورُ أقوى من المجيء؛ إذ أصلُ الحضور يدلّ على إيرادِ الشَّيْءِ، وورُودِهِ ومُشاهَدَتِه، والحضورُ: ضدُّ الغَيْبَة، وحَضْرَةُ الرَّجُلِ: قُرْبُهُ وفِناؤه، والحَضْرَة: قُرْبُ الشَّيْءِ، والحاضِرُ: المُقيمُ[1]. والمعنى المحوري للحضور هو الانتقالُ بقوّة إلى مجمعٍ يدوم[2]. وأمّا المجيء: فهو الإتيان؛ إذ هو حضورُ الجائي من حيث كان إلى مكانٍ حيّزٍ للقاءِ أو لأمرٍ[3]، والمجيءُ يُقال في الأعيانِ والمعاني، ولِما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولمن قصدَ مكانًا أو عملًا أو زمانًا[4].

إذن: فالحضورُ هو نقيضُ الغياب، ويعني الوجود والمشاهدة، فالتركيزُ فيه على الوجودِ الفعلي في اللحظة الرّاهنة، بينما المجيءُ هو الإتيانُ والانتقالُ من مكانٍ إلى مكان، ولا يلزمُ منه الوجود والمشاهدة، فالتركيزُ فيه على الحركةِ التي تؤدّي إلى الوصولِ إلى المكان.

ومن هنا ناسب التّعبير بلفظ المحضرين في الآية؛ لأنّه أبلغُ وأنسبُ لسياق التّخويف؛ فالمحضرُ هو الموجود الذي تشاهده الخلائق وهو يُجرُّ بقوّةٍ إلى النّار التي لا خروجَ له منها.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حضر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حضر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جيأ).
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣﴾

[القصص: 62 - 63]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

التّوبيخ والتّعجيز والتّحسير بعد ظهورِ بطلان ما كان عليه الكافرون

لَمّا ثَبَتَ أنَّ الكُفّارَ يومَ القيامةِ قد عَرَفوا بُطْلانَ ما كانوا عليه، وعَرَفوا صِحَّةَ التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ بالضَّرورةِ؛ قال لهم توبيخًا وتبكيتًا وتحسيرًا وتنديمًا يوم لا ينفعهم النّدم: أينَ ما كنتُم تعبُدونَه وتَجعَلونَه شَريكًا في العبادةِ، وتَزعُمونَ أنَّه يَشفَعُ؟ أين هو ليَنصُرَكم ويُخَلِّصَكم مِن هذا الَّذي نزَلَ بكم[1]، ففي الآية حُسْنُ انتقالٍ مِن إثباتِ بَعثةِ الرُّسُلِ وبَعْثةِ محمَّدٍ ﷺ إلى إبْطالِ الشُّركاءِ للّه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُرَكَآءِيَ﴾: أصلُ (شرك) يَدُلُّ على مُقارَنةٍ وخِلافِ انفِرادٍ، والشِّرْكَةُ: هو أنْ يكونَ الشَّيءُ بين اثْنَيْنِ لا يَنفرِدُ به أحدُهُما، يُقالُ: شارَكْتُ فُلانًا في الشَّيءِ، إذا صِرْتَ شَريكَه، وأشْرَكْتُ فُلانًا، إذا جَعَلْتَهُ شَريكًا لَكَ[3]، والشِّرْكُ: يأتي بمعنى المُشارَكةِ، وهي الانْضِمامُ والمُخالَطةُ بين الشَّريكَيْنِ، يُقالُ: شَرِكْتُهُ في الأمْرِ وشارَكْتُهُ: إذا انْضَمَمْتَ إليْهِ وخالَطْتَهُ، وصِرْتَ شَريكًا لَهُ[4]. والمقصود بالشُّركاء في الآية: النُّظراء المزعومون يومئذٍ، وهم المشركون باللّه تعالى.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 9.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 813، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).

2) ﴿تَزۡعُمُونَ﴾: (زعم) أصلُ الزَّعم: القَوْلُ مِنْ غيرِ صِحَّةٍ ولا يَقين[1]، والزَّعْمُ، والزُّعْمُ، والزِّعْمُ، ثَلاثُ لُغاتٍ: القَوْلُ، وقيلَ: الزَّعْمُ الظَّنُّ[2]، قالَ شُرَيْح: لكلِّ شَيْءٍ كُنية، وكُنية الكَذِب: زَعَمَ. والزَّعم ادِّعاء العِلْم بالشَّيْء؛ ولِهذا يتَعَدَّى إلى مفعولين، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن: 7][3]. والمراد بالزَّعم في الآية: الكذب، أي: تكذِبون في دار الدّنيا بأنَّهم شركائي[4].

3) ﴿حَقَّ﴾: أصلُ (حقّ) يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّته[5]، يُقال: حَقَّ الشَّيْءُ، يَحَقُّ، حَقًّا: إذا ثَبَتَ ولزِمَ[6]، ويأتي الحَقُّ بمعنى الصَّحيح، وضِدُّهُ: الباطِلُ[7]، والحَقيقَةُ: الشَّيْءُ الصَّحيحُ يَقينًا[8]، وتحقَّقَ الأمرُ: إذا صَحَّ. والمُرادُ بـ ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾ في الآية: وجَبَ عليهم مقتضاه وثبت، وهو قوله: لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّة والنّاس أجمعين[9]، أي: وجبتْ عليهم كلمةُ العذاب[10].

4) ﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾: أصلُ (غوي) يَدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ وإظْلام الأَمْر[11]، والغَواية - بفتح الغين: الضَّلال واتِّباع الهوى والانهماك في الباطل، ورجلٌ غاوٍ: ضالٌّ، وأغْواه هوَ، وغوى غيًّا: انهمك في الجَهل[12]، والغَيُّ: جهلٌ من اعتقادٍ فاسد[13]، ومن معانيها أيضًا: الخيبة، فيقال: غوى الرَّجُل: إذا خاب[14]، والمقصود بالإغواءِ في الآية: جَعْلُ الشَّخصِ ذا غِوايةٍ، وهي الضَّلالُ عن الحقِّ والرُّشدِ[15].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (زعم).
(3) الكفويّ، الكليات، ص: 488.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 17/ 445.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (حق).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(8) إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: (حق).
(9) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 652.
(10) الواحديّ، التّفسير البسيط: 17/ 434.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوي).
(12) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(13) الراغب، المفردات: (غوي).
(14) ابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(15) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 63.

5) ﴿تَبَرَّأۡنَآ﴾: أصلُ (برأ) التَّباعُدُ مِنَ الشَّيْءِ ومُزايَلَتُه، مِنْ ذلكَ: البُرْءُ وهو السَّلامَةُ مِنَ السُّقْمِ، يُقالُ: بَرِئْتُ وبَرَأْتُ[1]، وقيل: أصله القَطْعُ[2]، والبَراءَةُ: التَّخَلُّصُ مِنَ الشَّيْءِ، والخُروجُ منه والمفارَقَةُ له، يُقال: بَرِئَ من الدَّيْنِ، يَبْرَأ، بَراءَةً: إذا تَخَلَّصَ منه[3]، والتَّبرُّؤ هنا: تَفَعُّلٌ من البراءةِ وهي انتفاءُ ما يَصِمُ، وهي أيضًا: مُعالجةُ إثباتِ البراءةِ وتحقيقها، والمقصود: أنَّهم يتبرّؤون من كونهم شُركاءَ للّه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دُعاءُ الشُّركاءِ تيئيسٌ لهم، وتنديمٌ لما كانوا فيه من ضلالٍ

واذكر أيُّها الرَّسول ﷺ لقومك يوم ينادي ربّ العزّة هؤلاء الذين يضلّون النّاس ويصدّون عن سبيل اللّه، فيقول لهم: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ، وأنَّهم يَنفَعونَكم ويَنصُرونَكم ويَشفَعونَ لكم؟ قال الَّذين وجَبَ عليهم عذابُ اللّهِ وغَضَبُه مِنَ الدُّعاةِ إلى الكُفرِ والضَّلالِ: يا ربَّنا، هؤلاءِ التّابِعونَ لنا الَّذينَ دعَوْناهم إلى الباطِلِ فأطاعونا، أضْلَلْناهم مثلَما كنّا ضالّينَ، تبَرَّأْنا إليك مِنَ الَّذينَ أطاعونا وممّا اختاروه مِنَ الكُفرِ؛ هَوًى منهم للباطِلِ، ومَقْتًا للحَقِّ، فما كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَنا، إنَّما كانوا يَتَّبِعونَ أهواءَهم وشَهَواتِهم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في جملة ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾:

يومٌ عظيمٌ واحدٌ في ذاته متعدّدٌ بتعدّدِ أوصافه

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ عاطفةٌ؛ والمعطوفُ عليه قوله: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا﴾، لتفيدَ بذلك سببَ كَونِهم مِنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (برأ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (برأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 159.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 296، والزّمخشريّ، تفسير الكشّاف: 3/ 426، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 81، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 622.

المُحْضَرينَ، أيْ: لأنَّهم اتَّخَذوا مِن دونِ اللّهِ شُركاءَ، وزَعَموا أنَّهم يَشْفَعونَ لهم، فإذا هم لا يَجِدونَهم يومَ يُحضَرونَ للعذابِ.

وهذا العطف إمّا عطفٌ على جملة ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ بحيث يكون مبدأ الجملة المعطوفة ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾ أيْ: يُحْضَرونَ ويُناديهم فيقولُ: أينَ شُركائي، أو عطفُ مفرداتٍ بحيث يكون مبدأ الجملة المعطوفة (يَوْمَ يُناديهمْ) ويكون (يومَ) عَطْفًا على ﴿يَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾؛ فيَكونُ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ عَيْنَ يوم القيامةِ، وكان حقُّه أنْ يأتيَ بدَلًا مِن يوم القيامةِ، لكنَّه عدَلَ عن الإبْدالِ إلى العَطْفِ؛ لاخْتِلافِ حالِ ذلكَ اليوم باخْتِلافِ العُنوانِ، فنُزِّلَ مَنزِلةَ يومٍ مُغايِرٍ؛ زيادةً في تَهْويلِ ذلكَ اليومِ[1].

موقع الظّرف ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾:

يومٌ مهولٌ أمره، عظيمٌ خطره، كأنّه خُصص لحسابِ الذين أشركوا

(يَوْمَ) في قوله سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ إمّا منصوبٌ بالعطفِ على يوم القيامةِ لاختلافهما عُنوانًا وإنِ اتّحدا ذاتًا؛ زيادةً في تهويلِ أمرِ ذلك اليوم وتعظيم خطره[2]، أو بإضمارِ اذكُر، والتّقدير: (واذكر أيّها المخاطب - لتتّعظ وتعتبر - حالَ أولئك الظّالمين، يوم يناديهم اللّه)[3]، وإضافةُ (يوم) إلى جملة ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾ فيها تهويلٌ وتقريعٌ؛ إذ تفيدُ هذه الإضافة كأنّ هذا اليوم الذي يَفْصِلُ اللّهُ فيه في كلّ شؤون الخلق، كأنّه كان خصيصًا لحسابِ الذين أشركوا، وكأنّه لا شأنَ ينظره اللّهُ فيه إلا شأنهم هذا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 332، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.
(3) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 427.
(4) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 207.

سرّ التّعبير بالنّداء في ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾:

نــداءُ إهــانــةٍ وتحقيرٍ وتوبيخٍ للذين أشركوا بالله

النداءُ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ صادرٌ عن اللّه تعالى للذين أشركوا به الأندادَ والأوثان في الدُّنيا[1]، بقرينة قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾، أو صادرٌ عن ملائكة العذاب، فيكون قوله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ حكايةً من اللّه تَعالَى، وعلى التّقديرين النّداءُ هنا للإهانةِ والتّحقير[2] والتّوبيخ، ولذا أجابَ الشّركاءُ مع أنّهم غير مسؤولين[3].

ولا تعارضَ بين مناداةِ اللّه لهم وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: 174]؛ لأنّ المقصود منها كلامُ الرّضا والرّحمة، فلا ينافي أنّه يكلمهم كلامَ غضبٍ وسخط[4].

دلالة التّعبير بالمضارعة ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾:

تـصـويـرٌ لـحـدثٍ عـظـيـم يُـعـزّزُ التّأثيرَ النّفسي بما يدفعُ لنبذِ الشّركِ

التّعبيرُ بالمضارعة في قوله: ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾ يُعزّز الشّعورَ بالواقعيّة والقربِ من الحدث، ويجعل السّامعَ يتخيّلُ ويتصوّرُ لحظةَ الخزي وذلِّ المَشْهدِ يوم القيامة الذي سيُنادى فيه المشركون، ويُطلب منهم الاعترافُ بأفعالهم، بتوجيه السّؤال التّوبيخيّ التّقريعي التّنديديّ: "أين شركائي؟"، ممّا يُعزّزُ القوّةَ والتأثيرَ البلاغيّ والنّفسيّ لهذه الآية، بهدفِ التّحذيرِ من هذا الموقف والتّخويف منه، بما يدفعهم للإيمانِ ونبذِ الشّركِ قبل فواتِ الأوان.

مرجع ضمير الفاعل والمفعول في ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾:

الأمـرُ في ذلكم اليـوم العظيم لا يكون إلا لله والمشركون أحقرُ من أنْ يُذكروا

ضمير الفاعل في ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾ عائدٌ إلى اللّهِ تعالى[5]، أو إلى ملائكةِ العذاب، ويكون قوله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ حكايةً من اللّه تَعالَى[6]، وقد

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 606.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 552، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 427.

(3) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 80.

(4) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1418.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.

(6) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 552، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 427.

أضمره البيانُ القرآنيُّ، ولم يقل: (ويوم ينادي اللّهُ)؛ لكونه معلومًا، إذ الفعلُ في ذلك اليوم العظيم - الذي لا ملكَ ولا أمرَ فيه إلا للّه - لا يكونُ ولا يصلحُ إلا منه سبحانه، بشكلٍ مباشر أو عن طريقِ ملائكته. وأيضًا استخفافًا بالمشركين وتحقيرًا لهم، فهم أدنى من أنْ يُصرّح بمن يناديهم، سواءٌ كان اللّه سبحانه أو ملائكته.

وأمّا ضمير الجمع المنصوب (هم) فعائدٌ إلى المُتَحَدَّثِ عنهم في الآيات السّابقةِ، ابتداءً من قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ [القَصَص: 57] وهم جميعُ المشركينَ من التّابعين والمتبوعين، كما اقتضاه قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾[1]، وقد أضمره البيانُ الحكيم اختصارًا لدلالةِ ما قبله عليه، وإشارةً إلى تحقيرهم بعدمِ التّصريح بأسمائهم، فهم أحقرُ من أنْ يُذكروا.

معنى (الفاء) في ﴿فَيَقُولُ﴾:

تـفـصـيـلٌ وتـفـسـيرٌ بعدَ إجـمـالٍ بـنـداءٍ يـنـبّـهُ الـنّـفـسَ ويشوّقُها لمعرفةِ بيانه

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ﴾ حرفُ عطفٍ وتفسير[2]، والجملةُ بعدها تفصيلٌ وتفسيرٌ بعدَ إجمال؛ فقد أجملَ النّداء، ثمّ فصّله بما بعده بقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، تنبيهًا على أهميّة ما يُنادون به، وتشويقًا لمعرفةِ بيانه.

نكتة النّص على القول في ﴿فَيَقُولُ﴾:

تأكيدُ أهميّةِ النّداء العظيم والانـتـبـاهِ إلـيـه وأهـمـيّة مـضـمـونـه من نـفـي الـشّـركـاء المزعومين

نصّ البيانُ القرآنيُّ على القولِ ﴿فَيَقُولُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ﴾، فلم يقل: (ويوم يناديهم أين شركائي)؛ زيادةً في التّوبيخ والتّفضح[3]، وتأكيدًا على أهميّةِ الحدثِ وهو النّداء من العظيم ﷻ، وتسليطًا للضوءِ عليه بقوّةٍ تجعلُ القارئَ ينتبه ويتأمّل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.
(2) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 94.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 108.

فيه، وتأكيدًا على أهميّة المقولِ، والذي هو استفهامٌ توبيخ وتقريع وتأنيبٍ لنفي الشُّركاء المزعومين؛ لأنّ ﴿فَيَقُولُ﴾ تكرارٌ قُصد به تفسير النّداء.

بلاغة الكناية في الاستفهام بـ ﴿أَيْنَ﴾:

المبالغة في إثباتِ انْتِفاءِ وُجودِ الشُّركاءِ المَزْعومينَ يومَ القيامة

الاستِفْهامُ بكلمةِ ﴿أَيْنَ﴾ ظاهِرُه استِفْهامٌ عنِ المكانِ الَّذي يوجَدُ فيه الشُّركاءُ، ولكنَّه مُستَعْمَلٌ كنايةً عن انْتِفاءِ وُجودِ الشُّركاءِ المَزْعومينَ يَومَئذٍ، فالاستِفْهامُ مُستَعْمَلٌ في الانْتِفاءِ[1]، وهذا لا يعني غَيْبَتَهم حقيقةً، بل يكفي في ذلك عدمُ حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعُمون أنّهم متّصفون به من عنوان الإلهيّة[2].

واستخدامُ الكناية في الاستفهام يضيفُ قوّةً وتأثيرًا له في إثباتِ انْتِفاءِ وُجودِ الشُّركاءِ المَزْعومينَ يوم القيامة؛ إذ يعطي لمسةً من الغموضِ والتّأمّل، ويجعلُ القارئَ يتأمّلُ في معنى السّؤال والإجابة المحتملة عنه، ويُعزّزُ البحث والتّساؤل عن مكان هؤلاء الشّركاء، وانعدام وجودهم في الواقع، أي يُشيرُ إلى الاستفهامِ العميق حول الحقيقةِ والواقع الذي سيُكشفُ في يوم القيامة.

براعة التّعبير بمفردة الشّركاء:

تسويةُ الخالقِ بالمخلوق دليلٌ على حُمقِ المشركين

أطلقَ اللّهُ على الأصنام اسمَ الشّركاء؛ لأمرين: أحدهما أنَّ المشركين يشركونها مع اللّهِ في العبادة، والتّعظيم، والتّقديس، وثانيهما: أنّهم يشركونها معه في الأموال، والأنعام، والزروع[3]. وقد عبّر بمفردة الشّركاء؛ للدّلالة على شدّة حمقِ المشركين؛ إذ يسوّون الخالقَ بالمخلوق، والقادرَ بالعاجز؛ ولإيقافهم على مدى ضلالهم؛ إذ يظهرُ لهم عَجْزُ ما عبدوه من دون اللّه عن نصرةِ أنفسهم فضلًا عن نصرتهم؛ إذ الشّركةُ في اللغة تعني التّسوية، أي أنْ يكون الشّيءُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 108.
(3) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 94.

بين اثْنَيْنِ لا يَنْفَرِدُ بِهِ أَحَدُهُما[1]، والمشاركةُ: خلطُ المِلْكَيْنِ[2]؛ وهذا قد تبيّن لهم يوم القيامة بطلانه بشكلٍ قطعيٍّ.

لطيفة الإضافة في ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ وجَمْعِهم:

توبيخُ اللهِ للمشركين؛ إذ لا شيءَ أجلبُ لغضبِ الله من نسبةِ الشّريك له

أضاف البيانُ القرآنيُّ لفظ (شركاء) إلى ضميرِ اسم الجلالة ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ حكايةً لإضافتهم الكاذبة، "فإنّهم لمّا أطاعوهم فقد صيّروهم لمكانِ الطّاعة بمنزلةِ الشّريك للّه تعالى[3]"، وهذا فيه توبيخٌ إثرَ توبيخٍ مع الاستهزاء بمن ادّعوا للّه شركاء[4]، وتهكُّمٌ بهم[5]؛ لأنّ مظهرَ عظمةِ اللّه تعالى يومئذٍ للعَيانِ ينافي أنْ يكون له شريكٌ، فالمخاطبون عالمون حينئذ بتعذّرِ المشاركة[6]، وإيذانٌ بأن لا شيءَ أجلبُ لغضبِ اللّه من نسبةِ الشّريك له.

وفي الجمعِ مبالغةٌ في بيانِ حمقِ الكافرين وشدّة ضلالهم؛ لكونه يشيرُ إلى كثرةِ الذين اتّخذوهم شركاء للّه في العبادة والأموال في زعمهم وتعدّدهم، وكذلك بيانُ عجزِ مَنْ زعموهم شركاءَ حالَ اجتماعهم، فعجزُهم حالَ فرقتهم آكد، ويلفتُ الانتباه إلى ذلك.

غرض الاستفهام، ولطيفته بـ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾:

تعجيزُ الكافرين وتوبيخهم

المرادُ من الاستفهام التّهكّم؛ لأنّ المقامَ مقامُ تهكّم؛ ليظهرَ لهم طمعهم في البحث عن آلهتهم، وهم قد علموا ألّا وجودَ لها، ولا مكان لحلولها بصفة الألوهيّة[7]. والغرضُ أيضًا من الاستفهام التعجيزُ والإفحامُ والتّنديم[8]، والتّوبيخُ والتّقريع[9]، والخزيُ والفضيحةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 313.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 9.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 108.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 425.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(8) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 552.
(9) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 318.

للمشركين؛ إذ من المعلوم أنّه لا شركاء للّه تعالى لا في ذاته ولا في صفاته[1]، حيث لم تنفعهم معبوداتهم في هذا الوقت العصيب، "وحيثُ يتبرّأُ بعضهم من بعض"[2]. وكذلك يفيدُ الاستفهامُ التّهويلَ وإبطالَ كيدِ أهلِ التّضليل[3].

عِلَّة التّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآية:

في الاستفهامِ عن كلّ الشّركاء المزعومين لله نعيٌّ على المشركين

إيثارُ استعمالِ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلته ﴿كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ لإفادة العموم، فيكون الاستفهامُ عن كلّ الشّركاء المزعومين للّه، وللتّوصّل إلى النّعي على الزعمِ الذي كانوا يزعمونه في الحياةِ الدّنيا، أمّا في ذلك اليوم فقد أيقنوا أنّهم كانوا كاذبين[4]، وللتّنبيه على ضلالهم وخطئهم في ادّعاء مشاركة هذه الأصنام للّه[5].

نكتة تقييد زعمهم بالكون الماضي ﴿كُنتُمۡ﴾:

زعْمُ الكفارِ أنّ لله شركاء أمرٌ تحقّقَ منهم واستمرّ زمنًا طويلًا

قيّد البيان الإلهي زعمهم بفعل كان الماضي في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، ولم يقل: (أين شركائي الذين تزعمون)، للإعلام بأنّ سؤال الكافرين هو عن الشّركاء الذين جعلوهم شركاء للّه في الدّنيا، وللتّنبيه على استمرارهم زمنًا طويلًا في هذا الشّرك.

دلالة التّعبير بالزّعم في ﴿تَزۡعُمُونَ﴾:

تصويرُ قولهم الباطل بأنّ لله شركاءَ واستمرارهم عليه يدلّ على شدّةِ شناعته

عبّر القرآنُ بلفظ الزّعم في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾؛ للتّناسب بين معاني الزّعم وبين السّياق والمقام؛ إذ أصلُ الزّعم في اللغة هو القولُ من غير صحّةٍ ولا يقين، وهو

(1) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 428.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 10/ 372.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 76.
(4) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 208.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.

التّكفّل بالشّيء أيضًا. والزّعم هو حكايةُ قولٍ يكون مظنّة الكذب[1]، وأكثر ما يُستعمل الزّعم فيما يُشكّ فيه أو يكون باطلًا، وقد استعمله القرآن في مواضع ذمٍّ القائلين[2]، وهذه المعاني كلّها تتناسب مع حال المشركين الذين زعموا بأنّ للّه شركاء؛ وقولُهم هذا باطلٌ كذبٌ لا صحّة له ولا دليلَ عليه، ويتناسب مع السّياق الذي يذمّهم ويُنكر عليهم هذا القول ويحمّلهم تبعة قولهم، فهم متكفّلون ومسؤولون عن هذا الشّرك المزعوم.

وقد جاء لفظ الزّعم بصيغة الفعل المضارع ﴿تَزۡعُمُونَ﴾ الذي يدلّ على التجدّد والحدوث والاستمرار، ويؤكّد هذا الاستمرار أنّه سُبق بفعل الكون الماضي ﴿كُنتُمۡ﴾ الذي دلّ على استمرارهم على هذا الزّعم زمنًا طويلًا في الماضي، وكذلك يصوّر شناعة زعمهم وقولهم وافترائهم على اللّه ونسبة الشّركاء له.

لطيفة إسناد الزّعم إلى جماعتهم في ﴿تَزۡعُمُونَ﴾:

الـذمُّ يشمل جميعَ المشركين، وتحمّل تبعة قولهم تطالُهم لاتّفاقهم عليه

أسندَ البيانُ القرآنيّ فعلَ ﴿تَزۡعُمُونَ﴾ إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾؛ للإشارة إلى اتّفاق المشركين على هذا الزّعم، وأنّه صدر من الجميع، دون أنْ يبحثوا عن دليلٍ أو يقينٍ لزعمهم هذا، ومن ثمّ فالذمُّ يشملهم جميعًا، وتحمّل مسؤولية وتبعة قولهم تطالهم جميعًا.

بلاغة حذف مفعولي ﴿تَزۡعُمُونَ﴾:

استخفافُ اللهِ بشأنِ الشّركاء؛ فهي أوهامٌ وظنونٌ يتخيّلها المشركون

مَفْعولا ﴿تَزۡعُمُونَ﴾ مَحْذوفانِ؛ دَلَّ عليهما قوله تعالى: ﴿شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، أيْ: تَزْعُمونَهم شُركاءَ لي كذبًا وافتراءً[3]، وهذا الحَذْفُ اختِصارٌ؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليهما[4]، وفي الحذفِ إيماءٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).
(2) الكفوي، الكلّيّات، ص: 488.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 425، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 295.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.

باستخفافِ اللّه سبحانه بشأنِ الشّركاء وتحقيرًا لهم، فهم أوهامٌ وظنونٌ يتخيّلها الكفرة والمشركون لاعتقادهم الضّال.

علة فصل جملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ عمّا قبلها:

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ عن التي قبلها، ولم يربطهما بعاطف: إمّا لأنّها وقعتْ في موقع المحاورة؛ فهي جوابٌ عن الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، والذين تصدّوا للجوابِ هم بعض المنادى عليهم، الذين علموا أنّهم الأحرياءُ بالجواب، وهؤلاء هم أئمةُ أهلِ الشّركِ من أهلِ مكّة[1]. أو لأنَّ بينهما شبهَ كمالِ اتّصال؛ إذ إنّ قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ استِئْنافٌ مَبنيٌّ على حكايةِ السُّؤالِ؛ واقع في جواب سؤال مقدّر، تقديره كأنّه قيلَ: فماذا صدَرَ عنهُم حينَئذٍ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾[2].

حوارٌ قرآنيٌّ جاءَ فيهِ قولُ أئمةِ أهلِ الشّرك جوابًا على سؤالِ الله سبحانه

غرض تعريف المسند إليه بالموصولية ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾:

المراد ممّن حقّ عليه القولُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بعضهم وهم الشّركاء، أو رؤساؤهم في الكفر، ودعاتهم إليه كالشّياطين[3]، ومن يشبهونهم في التّحريض على الضّلال، الذين ثبت عليهم العذاب بسبب إصرارهم على الفسوق والجحود[4]. وفائدةُ الصّلة إخراجُ مثل عيسى وعزير والملائكة لشمول الشّركاء له[5].

إنّ القرين بالمقارن يقتدي

دلالة التّعبير بمفردة ﴿حَقَّ﴾ دون (وَجَبَ):

عبّر البيانُ الإلهيّ بمفردة ﴿حَقَّ﴾ دون (وَجَبَ)؛ للدّلالة على

استحقاقُ أئمّة الكفرِ للعذاب حكمٌ ثابتٌ من الله عدلٌ وصدقٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 157.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21، وحاشية الصّاوي على الجلالين، ص: 1419.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 426، ويؤيّد كون المراد الشّيطان قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ [إبراهيم: 22]، ينظر: القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 555.

(4) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 428.

(5) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 81.

استحقاقِ رؤساءِ الكفرِ وأئمّته والدّعاةِ إلى الضّلال حكمَ اللّهِ عليهم بالعذاب وثبوته عليهم، وأنّه حُكمٌ صحيحٌ صادقٌ عدلٌ مطابقٌ لواقعهم؛ إذ إنّ الحقّ يدلُّ في أصله على إحكام الشّيء وثبوته وصحّته[1]، والمطابقةِ والموافقة، ومن معانيه الصّدقَ والعدلُ والثّبات[2]، ولو عبّر بلفظ (وجب) لَما أفادَ هذه المعاني ولاقتصرَ على معاني الاستقرار واللّزوم للحكم التي يدلُّ عليها معنى (وجب)[3].

وقد جاء التّعبير بمفردة ﴿حَقَّ﴾ بصيغة المضي؛ لتحقّق وقوعِ حكمِ اللّه عليهم[4]، بثبوتِ مُقتضاه وتحقُّقِ مؤدّاه[5].

معنى حرف الجر (على) في ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

تمكّن العذاب من أئمّة الكفر، بشكلٍ مؤكّد لا يمكن الفكاك منه

عُدّيَ الفعل ﴿حَقَّ﴾ بحرف الجر (على) في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ لإفادة معنى الوجوب والإلزام والاستحقاق، أي وجَبَ العذاب على أئمة الكفر لاستحقاقهم له بسبب أفعالهم وأقوالهم ومواقفهم، فهم مُلۡزَمون بتحمّل تبعاته. وكذلك الحرف (على) يفيد الاستعلاء والتّمكُّنَ، أي تمكّن القول والعذاب من أئمة الكفر، وثبوته ووجوبه عليهم، فقد وقع عليهم بشكلٍ مؤكّد لا يمكن الفكاك منه.

نكتة تقديم ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

التّنبيهُ على تحقّقِ القول على أئمّة الكفر واختصاصه بهم

قدّم القرآنُ الجارَّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾؛ للتّركيز على المفعول به، أي بمن حقّ عليهم القول - وهم أئمّة الكفر -؛ وللتّشويق إلى الفاعل ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾، وهو ما الذي حقّ عليهم، فالسّياقُ في سؤال هؤلاء عن

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقّ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وجب).
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 552.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.

الشّركاء، وعن شركهم، فناسب تقديم ﴿عَلَيۡهِمُ﴾؛ ليُخصّص القولَ لهؤلاء الأشخاص دون غيرهم؛ وليتنبّه السّامع إلى أنّ القول قد تحقّق عليهم بشكلٍ لا لبسَ فيه، ممّا يُعزِّزُ من وضوحِ المعنى وتأكيده.

دلالة التّعبير بالقول، وتعريفه بـ (أل):

القولُ الذي حقّ على الكافرين هو كلمةُ العذاب

عبّر البيانُ الإلهي بلفظ القول دون العذاب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾، فلم يقل: (الذين حقّ عليهم العذاب)؛ وذلك لاتّساع دلالة لفظ القول؛ إذ أصله يدلّ على النّطق والكلام[1]، ويُستعملُ على أوجهٍ؛ منها: للمنطوق من الأحرف، وللمتصوَّر في النّفس قبل التلفّظ، وللاعتقاد، وللدّلالة على الشّيء، وللعناية الصّادقة بالشّيء، وللإلهام[2]، واستعمله القرآن بمعنى السّابق في علمِ اللّه، وبمعنى العذاب[3] - فالقولُ الذي حقّ على الكافرين وحكمَ اللّه به عليهم هو كلمةُ العذاب التي أوجبها اللّه عليهم، فصدقتْ عليهم، وسبقَ في علمه سبحانه استحقاقهم لها. ومعنى (أل) التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ عهديّةٌ، معهودُها ذهنيّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾ [السجدة: 13] وغيره من آياتِ الوعيد[4].

موقع جملة ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾:

منـاداةُ أئمّة الكفر لربّهم بدلًا من إجابته عن مكانِ الشّركاء

جملة النّداء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ في محلّ نصب مقول القول ﴿قَالَ﴾ في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾[5]، وقولهم هذا هو جوابٌ عن سؤال اللّه لهم عن شركائه ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، وكان المفروض أنّ يأتي الجواب من أئمّة الكفر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيدي، تاج العروس: (قول).
(2) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (قول).
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النّواظر، ص: 488.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 270، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 20/ 283.

بتعيين مكان الشّركاء حسب مقتضى السّؤال، ولكنّهم سارعوا إلى مناداتهم لربّهم والاستغاثة به طلبًا لرحمته، وتبريرًا لموقفهم ونفيًا للتّهمة عنهم، لأنّ ذلك أهمّ عندهم من الإجابة بتعيين مكان الشركاء.

دلالة التّعبير بالرّبوبية في ﴿رَبَّنَا﴾:

اعتراف أئمّة الكفر بالله ربًّا ينبئ عن حالتهم من التذلّل وطلب الرّحمة منه سبحانه

أتى البيانُ القرآنيُّ بالتّعبير بالربوبيّة على لسان أئمّة الكفر يوم القيامة من خلال قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ للدّلالة على اعترافهم بالله ربًّا ومولىً لهم، وهو الذي يملك أمورهم وتدبير شؤونهم. كما أشار التّعبير بوصف الإحسان ﴿رَبَّنَا﴾ إلى حال أئمّة الكفر وقادة الجهل من التذلّل والانكسار[1]، ويعكس الاعتراف بذنوبهم والتّوبة إليه واستغاثتهم به وطلب الرّحمة منه.

غرض النّداء وحذف أداته في ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

استغاثة أئمّة الكفر بالله محاولةٌ للتّواصل معه طلبًا للرّحمة

في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ نادى أئمّةُ الكفر اللّهَ تعالى، وغرضُ هذا النّداء هو الدُّعاءُ والاستغاثة بعد أنْ رأوا العذاب، مشيرين إلى أتباعهم، ومعترفين بإغوائهم، ليبرّروا موقفهم، وليطلبوا الرّحمة من ربّهم. وهذا النّداءُ يعبّر عن حالةٍ من النّدم والاعتراف بالذّنب، ويُظهرُ محاولتهم للتّواصلِ مع اللّه في موقفهم الصّعب، وهذه المعاني يؤكّدها إسقاطُ أداةِ النّداء (يا)؛ إذ يشيرُ إسقاطها إلى أنّ أئمة الكفر، وقادة الجهل وصلوا بعد السّماجة والكِبْر إلى غايةِ الترقّق والذّلّ[2].

موقع جملة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾:

ثبوت وتحقّق اعتراف أئمّة الكفر بإغواء أتباعهم

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ يحتملُ ثلاثةَ أوجه؛ **أحدها**: أنّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ صفته،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.

والعائدُ محذوف، أي أغويناهم، والخبر ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾، و﴿كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ نعت لمصدرٍ محذوف، ذلك المصدر مطاوعٌ لهذا الفعل، والتّقدير: (أغويناهم فغووا غَيًّا مثل ما غوينا)[1]. **والثّاني**: أنّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ خبره[2]، و﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ مستأنفٌ؛ لتقريرِ ما قبله[3]، والمعنى: هؤلاء الذين دعوناهم إلى الغيّ وهم الأتباعُ ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ أضللناهم كما ضللنا ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ منهم[4]. **والثّالث**: أنّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ خبرُ مبتدأ آخر، والتّقدير: (هؤلاء هم الذين أغويناهُم)[5].

وعلى الأوجه الثّلاثة فالجملةُ اسميّة تفيدُ ثبوتَ وتحقّقَ اعترافِ أئمّة الكفر بإغواءِ أتباعهم؛ ظَنًّا منهم أنّه قد ينفعهم.

مرجع الإشارة وغرضها في ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

زيــادةُ حرصِ أئمّةِ الكفرِ على تقويةِ حجّتهم مــن خــلالِ إشارتـهـم إلى أتباعهم

الإشارةُ بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من قبلِ أئمّة الكفرِ والضّلال في قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ ترجعُ إلى إلى بقيَّةِ المُنادَينَ، وهم أتباعهم[6]؛ وذلك قَصْدًا منهم لأنْ يَتَمَيَّزوا عمَّنْ سِواهُمْ من أهلِ المَوقِفِ؛ تخويفًا لهم، وحرصًا من أئمّة الكفر في أنْ يكونَ لهم مَطْمَعٌ في التَّخلّصِ بالتّبرؤ من الأتباع[7]، بأنَّهم يقولون ما يقولون بمحضرٍ منهم، وأنَّهم غيرُ قادرينَ على إنكارِه وردِّه[8].

علة التّعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله ﴿ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾:

اعــترافُ أئـمّـةِ الـكـفـرِ بإضلالِ الأتباعِ وبكثرتهم مع استخفافٍ بهم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى:

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 426.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 158.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 210.
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 15/ 279.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 92، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 185.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 21.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ دون الاسم الظّاهر فلم يقلْ: (هؤلاء الغاوون)؛ للإيذانِ بأنّ معنى الصّلة معروفٌ لدى المخاطبين؛ فأغنى عن التّصريحِ به اسمًا، كما أنّ التّعبيرَ بالاسم الموصول يفيدُ اعترافَ أئمّة الكفرِ بأنّهم هم من أضلوا الأتباعَ بتزيينِ الباطلِ لهم. ويدلُّ على عمومٍ وكثرةٍ من أغواهم أئمّةُ الكفر، ويشيرُ إلى استخفافِ أئمّةِ الكفر بأتباعهم، بما يتضمّنه الاسم الموصول من إبهامٍ.

دلالة التّعبير بالإغواء في ﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾:

الغوايةُ مبالغةٌ في إضلالِ المُضِلّ مع جهلٍ وخيبةٍ وانـهـمـاكٍ في الباطل

التَّعبيرُ بلفظ الإغواء في الآيةِ دون الإضلالِ يدلُّ على مبالغةٍ وشدّةٍ في الإضلالِ الذي قام به رؤساء الكفر؛ من إظلامِ الأمر على أتباعهم، واستغلالِ جهلهم، ونشرِ اعتقاداتٍ فاسدةٍ بينهم، والتّعاون والتّجمّع على إضلالهم، وهذا في الدّين خاصّة، وذلك بقصد صرفهم عن الرّشد، وهذا ما تدلُّ عليه المعاني اللغوية للغواية[1]، ويتوافق مع حال رؤساء الكفر مع أتباعهم. كما أنّه يناسبُ السّياق الذي فيه احتباكٌ يدلُّ على تَبَرُّؤِ رؤساءِ الكفر من كاملِ المسؤوليّة في الضّلال، وتحميلِ الأتباعِ قسطًا كبيرًا منها بسبب فسادهم وانهماكهم في الجهل والباطل؛ رغم أنّهم يملكون عقولًا وجاءتهم الرّسل، وأنّ رؤوسَ الكفر لم يُكرهوهم أو يجبروهم على الضّلال، وإنَّما غايةُ أمرهم الوسوسة والتّزيين. ولو عبّر البيان القرآنيُّ بالضّلال لما دلّ على هذه السّعةِ في المعنى، والمبالغةِ في الضّلال لما ناسبَ السّياق والمقام؛ إذ الضّلال في اللغة هو ضدّ الهدى، وهو كلُّ عدولٍ عن الحق عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا[2].

نكتة حذف مفعول ﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾ وذِكْرِ مَفعولِ ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾:

حُذِفَ مَفعولُ فِعْلِ ﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾ الأوَّلِ - وهو العائِدُ مِنَ الصِّلةِ إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 394، والزّبيدي، تاج العروس: (ضلل).

المَوصولِ -؛ لِكَثرةِ حَذْفِ أمْثاله؛ لأنَّ اسمَ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُغْنٍ عن ذِكْرِه ودالٌّ عليه؛ فكان حَذْفُ العائدِ اختصارًا، وذِكْرُ مَفعولِ فِعْلِ ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ الثّاني اهتِمامًا بذِكْرِه؛ لعدَمِ الاستِغْناءِ عنه في الاستِعْمالِ[1].

حـذفٌ وذكـرٌ لمفعولٍ واحدٍ في آيةٍ واحدةٍ يدلُّ على كمالِ الإعجاز

نكتة إسناد الإغواء إلى ضمير الجماعة في الآية:

أسندَ البيانُ الإلهيُّ الإغواءَ إلى ضمير الجماعة في الآية في المفردات الظّاهرة الآتية، وهي: ﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾ و﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ و﴿غَوَيۡنَاۖ﴾؛ إذ التّقديرُ: هؤلاء الذين أغويناهم، أغويناهم فغوَوا كما غوَينا لَمّا أغْوانا مَن قَبْلَنا[2]؛ وذلك للدّلالة على كثرةِ الغاوين والمغوين، بما يتضمّن تحذيرًا للمخاطبين من الغوايةِ وأهلها، ودعوةً لهم للحذرِ منها، والإيمان باللّه ورسوله.

في التنبيهِ على كثرةِ الغاوين والمُغْوين تحذيرٌ من الغوايةِ وأهلها

دلالة تكرار مادة الإغواء في الآية:

تكرّرت مادة الإغواء في الآية ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ خمسَ مرّات في عدّة مفردات مُظْهَرةً ومقدَّرة، ولم يَقْتَصِرْ مثلًا على جُملة: ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ بحيث يكون التّقدير: (الذين أغويناهم كما غوينا)؛ لقَصْدِ الاهتِمام بذِكْرِ هذا الإغْواءِ بتأكيدِه اللَّفظيِّ، أي أنّهم أكّدوا إقرارهم بإغواءِ الأتباع، ولقصدِ الإجْمالِ في المرَّةِ الأولى، وتَفْصيلِه في المرَّةِ الثانيةِ[3].

وهذا التَّكرارُ بذكرِ مادّة الإغواء يُسلّطُ الضّوء على الإضلالِ الشّديد الذي تعرّضوا له من قِبَل رؤسائهم، وفعلوه مع أتباعهم، ويُبرزُ التّأثيرَ السّلبيّ لهذا الإغواءِ على الأشخاص، ويؤكّد خطورته، وينفّرُ منه. ويتضمّن التّوجيهَ للمخاطبين للتّوبةِ إلى اللّهِ، والابتعادِ عن الغوايةِ وأسبابها وأهلها، والحذرَ منها قبل فوات الأوان.

إبـرازُ التّأثيرِ السّلبيّ للإغواءِ على الأشخاص، وتأكيدُ خطورته، والتّنفيرُ منه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 185.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 185.

عِلَّةُ فَصل جملة ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾:

استئنافٌ يبيّنُ ما ظنّه أئمّةُ الكفر سببًا لتخفيف العذابِ

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ عن التي قبلها، ولم يربطهما بعاطفٍ؛ لأنَّ بينهما شبهَ كمالِ اتّصال؛ إذ جُملةُ ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ استِئْنافٌ بَيانيٌّ لجُملة ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾؛ لأنَّ اعترافَهم بأنَّهم أغْوَوْهُم يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ مُتعَجِّبٍ: كيفَ يَعْتَرِفونَ بمِثْلِ هذا الجُرْمِ؟ فأرادوا بَيانَ الباعثِ لهم على إغْواءِ إخْوانِهم، وهو أنَّهم بَثّوا في عامَّةِ أتْباعِهم الغَوايةَ المُستقِرَّةَ في نُفوسِهم، وظَنّوا أنَّ ذلكَ الاعتِرافَ يُخفِّفُ عنهم مِن العذابِ؛ بقَرينةِ قولِهم: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾[1].

غرض الخبر في ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾:

تبرّؤُ أئمّةِ الكفر من أتباعهم بحجّة عدمِ إجبارهم على الضّلال واشتراكِهم فيه

أفادتِ الجملةُ الخبرية ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ الإخبارَ بأنّ أئمة الكفر ما أكرهوا الأتباعَ على الغيِّ، وإنّما أوقعوا عليهم الإغواءَ والإضلالَ بما زينّوا لهم من الأقوال بالوسوسةِ والتَّسويل، فغَووا باختيارِهم ورضاهم دون إكراهٍ منهم ولا إجبارَ مع ما آتى اللّهُ الأتباعَ من الرّسل وما لهم من العقول، وهذا كما حصل معهم مع من أغواهم ممّن فوقهم. ومرادهم بهذا الإخبار التبرّؤُ من أمرِ الأتباع، وأنّه لا لومَ عليهم في الحقيقة بسببهم، ولا يلزمهم عقوبةٌ بسببهم[2].

معنى الكاف وغرضها في قوله: ﴿كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾:

لا فرقَ بين غيِّ أئمّة الكفرِ وغيِّ الأتباعِ فكلٌّ منهما كان باختياره

الكاف في ﴿كَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ صفةُ مصدرِ محذوف، تقديره: أغويناهم، فغوَوا غيًّا مثل ما غوينا باختيارنا وباختيارهم، فقد اختاروا الكفر بأنفسهم، هوى منهم للباطل ومَقْتًا للحقّ، لا بقوّة منّا على استكراههم ولا سلطان[3]، فلم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 185.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 426.

نخيِّرهم عن أنفسنا، بل اخترنا لهم ما اخترناه لأنفسنا، فاتّبعونا بهواهم[1]. وبالتّالي فغرضُ الكاف هو التّسويةُ بين الغَيَّيْن، يريدون بذلك التبرُّؤَ من الغاوين، وألا يتحمّلوا العقوبةَ بسببهم.

فنّ الاحتباك في قوله تعالى: ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾:

تركيزُ أئمّة الكفرِ على حالهم طلبًا لتخفيفِ العذابِ عنهم

في قوله تعالى: ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ احتباكٌ[2]؛ حيثُ حُذِفَ أوَّلًا (فغوَوا)؛ لدَلالةِ ﴿غَوَيۡنَاۖ﴾ عليه، وثانيًا (لمّا أغْوانا مَن قبْلَنا)؛ لدَلالةِ ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ عليه[3]، وفيه إشارةٌ إلى تركيزِ أئمّة الكفرِ على حالهم؛ طلبًا لتخفيفِ العذاب عنهم؛ ببَيانِ أنّهم جمعوا بين أنْ يكونوا غاوين ومغوين، وأنّ الباعثَ لهم على إغْواءِ إخْوانِهم، بأنَّهم بَثّوا في عامَّةِ أتْباعِهم الغَوايةَ المُستقِرَّةَ في نُفوسِهم[4]، وأنّ أتباعهم يتحمّلون المسؤوليّة في الغواية؛ إذ إنّهم لم يجبروهم عليها، وإنّما كان منهم الوسوسةُ والتّزيين فقط، فلا لومَ عليهم في الحقيقة، ولا تلزمهم عقوبة بسببهم[5].

علة فصل جملة ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ عمّا قبلها:

تصريحُ وتقريرُ أئمّة الكفر بالتبرّؤ من المسؤوليّة دلالةٌ على عظيمِ خوفهم من العذاب

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ عن التي قبلها، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينَ الجملتين من كمالِ اتّصال، أي اتّحادٍ تامّ في المعنى؛ بسببِ كون قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ مقرِّرةً لَمعنى الجملةِ الأولى ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾[6]، ومصرِّحةً بمضمونها[7]. وفي هذا التّصريحِ والتّقرير من أئمّة الكفر بالتبرّؤ من المسؤوليّة بحجّة عدم

(1) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1419.

(2) الحذفُ مِنَ الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِنَ الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ إذا اجتمَعَ الحذفانِ معًا، السيوطي، الإتقان: 3/ 204.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 185.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 426، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 182، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 334.

إجبارِ الأتباعِ؛ دلالةٌ على عظيمِ خوفهم من العذابِ الذي لا يستطيع لفظُ التّعبيرَ عن شدّته.

دلالة التّعبير بالتبرّؤ مادةً وصيغة في ﴿تَبَرَّأۡنَآ﴾:

حــرصُ أئـمّـة الكفرِ على تَبرُّؤِ مـحـقَّـقٍ من أتباعهم يُظهرُ لـلـمـخـاطـبين شـدّةَ عداوتهم لهم

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ التّبرّؤ في قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾؛ لكونه أنسبَ مع حالِ المتبرّئين - وهم أئمّةُ الكفرِ والضّلال - في الآخرة؛ إذ كانوا حريصين كلَّ الحرصِ على التّخلّص من تبعةِ المسؤوليّة عن إضلالِ الأتباعِ بأعلى درجات التخلّص؛ إذ أصلُ التّبرّؤ في اللغة التّباعُدُ من الشّيءِ ومُزايَلَتُهُ[1]. ومن معانيه: التّقصّي ممّا يُكرهُ مجاورته، وخُلوصُ الشّيء من غيره[2]. ومجيء الفعل بصيغة التّفعُّل يدلُّ على الاجتهادِ في طلبِ البراءة، مما يؤدّي إلى قطعِ العلاقاتِ والتّباعد والانفصالِ الكامل عن الذّاتِ أو عن الفكرة[3]. ومنْ ثمَّ فالتّبرّؤ أقوى وأعمُّ من التّنصّلِ أو التّخلّص مثلًا؛ الذي يعني التهرّبَ من المسؤوليّة[4]؛ لأنّ التّبرؤ رفضٌ واضحٌ صريحٌ للعلاقةِ مع الأتباعِ بكافة أشكالها.

ومجيءُ لفظ التّبرّؤ بصيغة المضيّ، دون المضارع، فلم يقولوا: (نَبَرَأُ إليك منهم)، رغم أنّ أئمّةَ الكفر يتبرّؤون من أتباعهم يوم القيامة؛ وذلك للإشارة إلى حرصهم على تحقّق هذا التّبرؤ ووقوعه، وأنّه منهم أمرٌ محقّقٌ مؤكّدٌ لا رجوعَ فيه. وكذلك لتناسب صيغة الماضي مع الأفعال الماضية الواردة في السّياق، مثل: ﴿قَالَ﴾ و﴿حَقَّ﴾ و﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾ و﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ و﴿غَوَيۡنَاۖ﴾ و﴿كَانُوٓاْ﴾.

وفي إظهارِ هذا الحرص من قبل أئمّة الكفر دلالةٌ على خذلانهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(2) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (برأ).
(3) المناوي، التّوقيف على مهمات التّعريف، ص: 90.
(4) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ومعجم المغني: (نصل).

لأتباعهم، بما يكون فيه تنبيهٌ للمخاطبين على عداوةِ هؤلاء لهم، وضرورة الحذر من إغوائهم في الدّنيا.

دلالة حذف متعلّق ﴿تَبَرَّأۡنَآ﴾:

حُذِفَ متعلّق ﴿تَبَرَّأۡنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾؛ إذ التّقدير: تبرّأنا إليك من الأتباع[1]؛ اختصارًا؛ للعلم به؛ لأنّه قد دلّ ما سبق من الحديث عن الأتباع؛ والجملة تقريرٌ لِما قبلها[2]، وأيضًا لإفادة العموم[3]، وتَبرَّؤوا مما اختاروه من الكفر[4]، ومن عقائدهم وأعمالهم[5]، ومن ولايتهم ونصرتهم[6]، ومن تحمّل وزر شركهم ومعاصيهم[7]، ومن انفرادهم بإضلالهم[8]، وعبادتهم لهم[9]، وهذا العمومُ يتناسبُ مع المعنى اللغوي للتّبرّؤ، ومع حالِ المتبرّئين وهم أئمة الكفر.

تبرّؤ أئمّة الكفر مـن كـلِّ ما يتعلّق بأتباعهم ينبئُ عن شدّةِ خذلانهم لهم

معنى (إلى) في القيد ﴿إِلَيۡكَۖ﴾:

أتى فعل التّبرّؤ معدًّى بالحرف (إلى) في قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ وهو حرفُ انتهاءِ الغاية، فأفاد تحديدَ الغاية في طلبِ أئمّة الكفر التّبرّؤَ من أتباعهم؛ إذ عبّر بحرف الانتهاء؛ ليدلّ على جدّهم واجتهادهم في طلب التّباعد والتخلّص والانفصال عن أتباعهم، حتى تتحقّق الغاية من تَبَرُّئِهم منهم.

بلوغُ أئمّةِ الكفر الغايةَ من التّبرّؤ من أتباعهم

دلالة التّقييد بالجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَۖ﴾:

قيَّد البيانُ القرآنيُّ التبرّؤ بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَۖ﴾ في قوله

تبرّؤ أئمّة الكفر كـان إلى اللـهِ خـاصّـةً حين أيقنوا بأنّه وحده المستحقّ للعبادة

(1) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1419.
(2) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1419.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 20/ 481.
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 653.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 9.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 606.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 426.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 335.
(9) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 187، والسَّمَرقَنْديّ، بحر العلوم: 2/ 615، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 250.

تعالى: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾، للدّلالة على أنّ تبرّؤ أئمة الكفر من أتباعهم كان إلى الله خاصّة دون غيره، لكونهم في موقف الحساب والسّؤال أمام الله، فأدركوا حينها أنّ الله محاسبهم على إغوائهم لأتباعهم، فحاولوا التخلّص من هذه التّبعة وقطع علاقاتهم بالأتباع.

علّة فصل جملة ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ عمّا قبلها:

وجهُ براءةِ أئمّة الكفر من أتباعهم عدم عبادتهم لهم

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ عن التي قبلها ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ إمّا لكون الجملتين مُقرِّرتَين لَمعنى الجملةِ الأولى ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾[1]، أو لِما بينهما من شبه كمالِ اتّصال؛ إذ جاءتِ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنّ تَبَرُّؤَهُم يثيرُ سؤالًا، وهو: ما وجهُ براءتكم وقد أقررتم بإغوائهم؟ فيقولون، كما حكى القرآن ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾[2].

معنى ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا كَانُوٓاْ﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ نافية، والمعنى: أي ما كانوا يعبدوننا، وإنَّما كانوا يعبدون أهواءَهم. ويحتملُ أنْ تكون مَصْدرية متّصلة بـ﴿تَبَرَّأۡنَآ﴾ أي تبرّأنا من عبادتهم إيّانا[3].

دلالة التّعبير بالكون الماضي ﴿كَانُوٓاْ﴾:

المبالغةُ في نفي عبادةِ الأتباعِ لأئمةِ الكفر تأكيدٌ على التّبرّؤ منهم

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ آثرَ البيانُ القرآني فعلَ الكينونة الماضية على غيره؛ للدّلالة على المضيِّ والانقضاء. كما أنّ التّعبير بفعل ﴿كَانُوٓاْ﴾ الذي يدلّ على الدّوام والاستمرار؛ يشيرُ إلى المبالغةِ في نفي عبادةِ الأتباعِ لأئمةِ الكفر طيلة حياتهم في الدّنيا، وفيها التّأكيد على تَبَرُّئِهم من أتباعهم، ومن تحمّل تبعة شركهم ومعاصيهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 426، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 182، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 335.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 183، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 8/ 689، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

نكتة تقديم المفعول ﴿إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾:

حرصُ أئمّة الكفر على التبرّؤ من انفرادهم بإضلالِ الأتباع

قدّم النّظم الحكيم المفعول ﴿إِيَّانَا﴾ على الفعل والفاعل ﴿يَعْبُدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: (ما كانوا يَعْبُدونَنا)؛ للاهْتِمام بهذا التَّبَرُّؤِ، مع رعايةِ الفاصِلة[1]. ولإفادة الاختصاص، أي: ما كانوا يعبدوننا خاصّةً، بل كانوا يعبدون أهواءَهم[2]، والأوثانَ بما زينّتْ لهم أهواؤهم، وإن كان لنا فيه نوعُ دعاءٍ لهم إليه وحثٌّ عليه، فأقلّ ما نريد أنْ يوزَّع العذاب على كلّ من كان سببًا في ذلك كما في الآية الأخرى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [إبراهيم: 21]. وضلَّ عن الجهلة أنَّ هذا لا يغنيهم عن الله شيئًا، فإنَّ الكلّ في العذاب، وليس يغني أحد منهم عن أحد شيئًا، قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: 38][3].

دلالة التّعبير بالعبادة في ﴿يَعْبُدُونَ﴾:

العبادةُ طاعةٌ مع خضوعٍ وتذلّل ولا يستحقّها إلّا من له غايةُ الإفضال سبحانه

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بالعبادة في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ دون لفظ الطّاعة مثلًا، فلم يقل: (ما كانوا إيانا يطيعون)؛ لكون العبادة أبلغَ، وأنسبَ للسّياق من لفظ الطّاعة؛ فالعبادةُ هي الطاعةُ مع الخُضوعِ والتذلّل[4]، فلا يستحقّها إلّا من له غايةُ الإفضال وهو ﷻ[5]، فكان التّعبيرُ بها أنسبَ مع السّياق الذي هو تبرّؤ رؤساء الكفر من عبادة أتباعهم لهم، لعدمِ استحقاقهم للعبادة. وقد أتى الفعل ﴿يَعْبُدُونَ﴾ بصيغة المضارع التي تدلّ على التجدّد والاستمرار، للدّلالة على تأكيد نفي استمرار عبادة الأتباع في عبادتهم لرؤساء الكفر، وذلك مبالغة منهم في التبرّؤ، وكذلك في مجيء الفعل مضارعًا مراعاة للفاصلة القرآنية.

---

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 8/ 689، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 159.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 335.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).

(5) الرّاغب، المفردات، ص: 542.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزّعم والادّعاء:

الزّعمُ قولٌ من غير صحّة ولا يقين، كقول المشركين بأنّ لله شركاء

الزَّعْمُ في اللغة له أصلان: الأول القَوْلُ مِنْ غَيْرِ صِحَّةٍ ولا يَقينٍ، والثّاني: التَّكَفُّلُ بالشَّيْءِ، والزّعم حكايةُ قولٍ يكون مظنّة الكذب[1]، وأكْثَرُ ما يَكونُ الزَّعْمُ فيما يُشَكُّ فيهِ ولا يَتَحَقَّقُ، أو فيما كانَ باطِلًا أَوْ فيهِ ارْتيابٌ، والزَّعْمُ ادّعاءُ العلم بالشّيء، وقد جاء في القرآن في مَوضِعِ ذمٍّ لِلْقائِلين؛[2] ومن ثَمَّ فالقولُ عندما يكونُ بلا دليلٍ، فإنّ صاحبه ضامنٌ له ومتكفّلٌ بصدقِ ما قاله. وأمّا الادِّعاءُ: أَنْ تَدَّعيَ حَقًّا لَكَ أَوْ لِغَيْرِكَ، وادّعى كَذا: زعم أنّه لَهُ حَقًّا أو باطلًا، وادَّعَيْتُ الشَّيْءَ تَمَنَّيْتُهُ، وادَّعَيْتُهُ طَلَبْتُهُ لِنَفْسي[3]، وقد يتَضمَّنُ الادّعاءُ مَعْنى الإخْبار فتَدْخلُ الباء جَوازًا، يُقال: فلانٌ يَدَّعي بكَرَم فِعاله، أي يُخْبِرُ بذلكَ عَن نَفْسِه[4] ويدّعي أنّ له حقًّا أو لغيره، ويطالبُ به، وقد ناسبَ التّعبير بالزّعم؛ إذ جاء في معرض ذمِّ المشركين، الذين زعموا أنّ للّهِ شركاء.

الغواية والضّلال:

الغوايةُ أشدُّ وأخصُّ من الضّلال وتتناسبُ مع إغواءِ أئمّة الكفر لأتباعهم

الغوايةُ أشدُّ من الضّلال، فهي إمعانٌ في الضّلال؛ إذ الغوايةُ: الانهماكُ في الباطل، والغَيُّ جَهْلٌ مِن اعْتِقادٍ فاسِدٍ[5]، والتَّغاوي: التَّجَمُّعُ والتَّعاوُن عَلَى الشَّرِّ، والغوايةُ تدلّ في أصلِ مادّتها على إظْلام الأمْرِ، وعلى فَسادٍ في شَيْءٍ، وهي خِلافُ الرُّشْدِ[6]. وأمّا الضّلالُ فهو فقدانُ ما يوصل إلى المطلوب، أو سلوكُ طريقٍ لا يوصل إلى المطلوب[7]؛ إذ أصله يدلُّ على ضياعِ الشّيءِ وذهابه في غيرِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).
(2) الكفوي، الكلّيّات، ص: 488.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيّومي، المصباح المنير: (دعو)، والكفوي الكلّيّات، ص: 67.
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (دعو).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غوى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(7) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 138.

حقّهِ[1]، وهلاكه، يُقال: ضلّت النّاقة إذا هلكت[2]. والضّلالُ: ضدّ الهدى، إذ يُقال لِكُلِّ عُدولٍ عَن الحَقِّ، عَمْدًا كانَ أو سَهوًا، يَسيرًا كانَ أو كثيرًا[3]، ويُستعمل بمعنى الخطأ[4]. والغوايةُ أخصُّ من الضّلال؛ فالضّلالُ أنْ لا يجدَ السّالكُ في مقصده طريقًا أصلًا، والغوايةُ أنْ لا يكون له إلى المقصد طريقٌ مستقيمٌ. وأيضًا الضّلالُ يُستعملُ في الطريق كما يُستعملُ في الدّين؛ فيقال: ضلّ عن الطريق إذا فارقه، والغيُّ لا يُستعمل إلا في الدّين خاصّة[5]، والضلالُ عامٌّ يكون للعاقل وغيره، يُقال ضلّت النّاقة، ولا يُقال غوتْ، فالغوايةُ خاصّةٌ بالعاقلِ المكلّف. ومن هنا كان اصطفاءُ لفظِ الغواية أنسبَ؛ لكون السّياق هنا في غوايةِ الدّين خاصّة؛ وكون الإغواء من أئمةِ الكفر لأتباعهم، فهي أشدُّ من الضّلال؛ إذ هي ضلالٌ مع فسادٍ وجهلٍ وإظلامٍ للأمر، وانهماكٍ في الباطل، وتجمّعٍ وتعاونٍ على الشرّ.

التّبرُّؤ والتّنصّل:

التّبرّؤ: طلبُ البراءة وإيقاعها بجدٍّ واجتهادٍ، وقيل إظهارُ التّخلّص من وصلةٍ أو اشتباك[6]، وأصلُ التّبرّؤ من (برأ) وهو التَّباعُدُ مِنَ الشَّيْءِ ومُزايَلَتُهُ ومفارقته، مِنْ ذَلِك البُرْءُ؛ وهوَ السَّلامَةُ مِنَ السُّقْم[7]، والتَبَرّي: التّقصّي ممّا يُكره مجاورته، وخُلوصُ الشّيء من غيره[8]، وتبرَّأ من الشَّخصِ: تباعَدَ وتخلّى عنه، وتخلّص منه وقطعَ صلته به[9]. وأما التّنصّل فأصله يَدُلُّ عَلَى بُروزِ الشَّيْءِ مِنْ كِنٍّ وسِترٍ

التّبرّؤ أقوى من التّنصّل؛ فالتّبرّؤ رفضٌ واضحٌ صريحٌ للعلاقةِ مع التّباعد وقطعِ الصّلة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 214.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 394، والزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(4) الراغب، المفردات: (ضلّ).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 292، 394، والنّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 199.
(6) المناوي، التوقيف على مهمات التعريف، ص: 90.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (برأ).
(8) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (برأ).
(9) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (برأ).

أَوْ مَرْكَبٍ، وتَنَصَّلَ مِنْ ذَنْبِهِ: تَبَرَّأ، كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهُ[1]، والتَّنَصُّلُ: شِبْهُ التّبرُّؤ مِنْ جِنايَةٍ أو ذَنْبٍ، وتنصَّل من المسؤوليَّة أو الذَّنْب: أنكرها، وتبرَّأ وتخلّص وتملّص منها[2].

إذن: التّبرّؤ طلبٌ بجدٍ يؤدّي إلى قطعِ العلاقاتِ والتّباعد والانفصالِ الكامل عن الذّاتِ أو عن الفكرة، بينما التّنصّل هو التّهرّب من المسؤولية والالتزامات والتّملّص منها، فالتبرّؤ أقوى وأعمّ من التّنصّل؛ إذ التبرّؤ رفضٌ صريحٌ للعلاقةِ مع قطعِ الصلةِ بها، وإظهارٌ واضحٌ لهذا الانفصال والمفارقة والتخلّص والتخلّي، ومن هنا كان استعمالُ لفظ التبرّؤ أنسبَ لحالِ قادةِ الكفر، ورفضهم الصّريح لعلاقتهم بأتباعهم، وإعلانهم الانفصالَ والمفارقةَ والتخلّي عنهم، والتخلّصَ الواضح لِما كان منهم من الكفر والشرك والمعاصي.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصل).

(2) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ومعجم المغني: (نصل).

﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤﴾ [القصص: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إبطالُ الشّركاء بالتّطبيق العملي بعد النّظرِ الذّهني

بعد سؤال المشركين عن آلهةٍ مزعومةٍ معدومةِ الوجود توبيخًا لهم بقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾؛ أتبعَ ذلك بأمرٍ يتضمّن إبطال شركهم - الذي توهّموا فيه النّفعَ والضّرّ - ببيان تلاشيه عنهم يوم القيامة، بقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾[1]، أي فينادونهم فلا يجيبُ عليهم مجيبٌ، وهل العدمُ يجيبُ من ناداه؟!، وفي هذا انتقالٌ بهم من النّظرِ الذهنيّ إلى التطبيقِ العمليّ؛ تبكيتًا لهم بعد تبكيت[2].

ولّما لم يُلتفتْ إلى جواب أئمّة الكفر، المتضمن محاولةَ تبرّئهم من أتباعهم، بل عُدَّ عدمًا؛ لأنَّه لا طائلَ تحته، أُشير إلى الإعراض عنه؛ - لأنّه لا يستحقُّ جوابًا - بقوله للأتباع: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾: أَصْلُ (جوب) يَدُلُّ على مُراجَعَةِ الكلامِ، يُقالُ: كلَّمَهُ فأجابهُ جَوابًا، وقد تَجاوبا مُجاوبةً[4]، والفِعْلُ: أجابَ يُجيبُ، والمَصْدَرُ الإجابة[5]، وجَوابُ الكلامِ هو ما يَقطَعُ الجَوْبَ فيَصِل مِن فَمِ القائلِ إلى سَمْعِ المُستمع، لكنْ خُصَّ بما يَعودُ مِن الكلامِ دون المبتدأ مِن الخِطاب، والجوابُ يُقالُ في مُقابلة السُّؤال[6]، والاستجابةُ:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 160.

(2) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 208.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 335.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جوب).

(5) ابن منظور، لسان العرب: (جوب).

(6) الرّاغب، المفردات: (جوب).

هي قبولُ الدّعاء لِما دُعي إِلَيْهِ، وإيتاءُ السؤْلِ إمدادًا بالمطلوب[1]، والاستجابةُ قيل: هي الإجابة، وتحقيقه ما قاله الرّاغب: هو تحرّي الجواب وتهيّؤه له[2]، والمُراد بالاستجابة في الآية: إجابةُ نداءِ المُنادي ودعوةِ الدّاعي، والسّينُ والتّاءُ لقوَّة الفعل.

2) ﴿وَرَأَوُاْ﴾: أصلُ (رأى) يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعَيْنٍ أو بصيرةٍ[3]، والرُّؤيةُ: إدراكُ المَرْئيِّ، وذلك أضْرُبٌ بحسب قِوى النَّفس: الأوَّلُ: بالحاسَّة وما يجري مجراها، نحو: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التكاثر: 6 - 7]. والثّاني: بالوَهْمِ والتَّخيُّل، نحو قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 50]. والثّالث: بالتَّفكُّر، نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ [الأنفال: 48]. والرّابع: بالعَقل، وعلى ذلك قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النجم: 11][4]. والرُّؤيةُ بالعَيْنِ تتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبمعنى العِلْم تتعدَّى إلى مفعولين. والمقصود بالإراءة في الآية: إمّا إراءةٌ بصريَّةٌ، أو عِلْميَّةٌ لعذابِ الآخرة، ويحتملُ أنْ تكون بصرية لآثارِ عذابِ الأمم التي كذّبت في الدنيا[5].

3) ﴿يَهۡتَدُونَ﴾: أصلُ (هَدَيَ) التّقدّمُ للإرشاد، والهدى خلافُ الضّلالة[6]، والهُدَى: البَيانُ، وإخْراج شَيْء إِلَى شَيْء، وهو أَيْضًا: الطّاعَةُ والوَرَع[7]، والدَّلالةُ بلُطْفٍ إلى ما يوصِلُ إلى المَطْلوبِ[8]. والهُدَى والهِدايَةُ في موضوع اللّغة واحد، لكن قد خصَّ اللّه ﷻ لفظة الهدى بما تولّاه وأعطاه، واختصَّ هو به دون ما هو إلى الإنسان، والاهتداءُ يختصُّ بما يتحرّاه الإنسان على طريقِ الاختيار، إمّا في الأمور الدُّنيويَّة، أو الأخرويَّة[9]. والهدى إذا أُطلقَ فهو بَيان طَريق الرّشد ليُسلك دون طَريق الغيّ[10]. ومعنى ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي، أي سلوكُ طريق الرّشاد، أو الاتّعاظ، وذلك

---

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 44، والكفوي، الكلّيّات، ص: 51، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جوب).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جوب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (رأى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 161.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (هدى).
(8) الزّبيدي، تاج العروس: (هدي).
(9) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(10) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 209.

بالاستدلالِ بحُلولِ العذابِ في الدُّنيا على حلول عذاب أعظم منه في الآخرة[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إبطالُ الشّرك بحكاية تلاشيه عن أهل ملّته يوم القيامة

وقيلَ لهؤلاءِ الكافرين على سبيل الفضيحةِ والتَّقريعِ: اطلبوا من شركائكم الَّذين توهمتم فيهمُ النَّفعَ والضُّر أنْ يشفعوا لكم، أو أنْ ينقذوكم ممّا أنتُم فيه من عذابٍ، فطلبوا ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ ولم يلتفتوا إليهم، ورأى هؤلاء المشركون بأعيُنِهم - التّابعُ منهم والمَتبوعُ - العذابَ الَّذي سيَحُلُّ بهم، فودّوا أنْ لو كانوا ممنْ هداهم اللّهُ إلى الصّراطِ المستقيم في الدنيا.

أو: لو أنَّهم كانوا في الدُّنيا مُهتَدينَ للحَقِّ؛ لَما اتَّبَعوا شُرَكاءَ مِن دونِ اللّهِ سبحانه، ولَما أصابهم هذا العذاب المهين[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في جملة ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ﴾:

في العطفِ زيادةُ تهكّمٍ بالمشركين وتبكيتٍ وتوبيخٍ لهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ عاطفة[3]، عطفتْ قولًا على قول؛ لَمّا سُئلوا في الآية السّابقة: أين شركاؤكم؟ وتصدّى كُبراؤهم للاعتذار عن اتّخاذهم، أي أجابوا بغيرِ جواب، قيل لهم ثانيًا: ادعوا شركاءكم[4]، وفي هذا العطف زيادةُ تهكّمٍ بهم وتبكيتٍ وتوبيخٍ لهم.

دلالة بناء الفعل ﴿وَقِيلَ﴾ لغير فاعله:

المشركون أهونُ على اللهِ من أنْ يصرّح باسمه سبحانه عند خطابهم

أسند النّظمُ الحكيم فعلَ القول ﴿وَقِيلَ﴾ إلى المفعول في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ﴾؛ لأنَّ الفاعلَ مَعلومٌ ممّا تَقَدَّمَ، أيْ: وقالَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 161.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/ 250، والشّوكاني، فتح القدير: 4/ 210، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 622، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 429.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والريحان: 21/ 271، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 361.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 123، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 160.

اللّه[1]، وإظهارًا للاستهانةِ بهم، وأنّهم من الذلّ والصَّغار بحيث يجيبون كلّ أمرٍ كائنًا من كان صاحبه[2]، لا يستطيعون التّخلّف عنه، وكذلك للتّركيز والاهتمام بالقول الذي قيل لهم.

تبكيتُ اللهِ للمشركين بسببِ شركهم أمرٌ محقّقُ الوقوع وغايته ردعُ المخاطبين

وأُتي بالفعل ﴿وَقِيلَ﴾ بصيغة الماضي - مع أنّ هذا الموقف سيكون يوم القيامة -؛ وذلك لإفادة تحقّق وقوعِ هذا الأمر من اللّه سبحانه لا محالة، وهذا فيه من الرّدعِ ما فيه للمخاطبين.

دلالة التّعبير بالدّعاء وغرضه في فعل الأمر ﴿ٱدۡعُواْ﴾:

أمرٌ إلهيٌّ للمشركين يتضمّنُ تعريضًا بهم ومبالغةً في فضحهم وتبكيتهم

المراد بالدّعاء هو دعاءُ الاستغاثة وطلبُ النّصرة حسب زعمهم أنّهم شفعاؤهم عند اللّه في الدّنيا[3]، أي لتستغيثوا بآلهتكم التي عبدتموها في الدّنيا لتنصركم وتدفعَ عنكم وتمنعكم من عذابي[4]، وقد آثره القرآن دون غيره كالنّداء؛ تعريضًا بالمشركين بأمرهم بأنْ يفعلوا ما كانوا يفعلونه مع آلهتهم المزعومة في الدّنيا؛ من حرصٍ على استمالةِ رضاها[5]، وجذبِ رحمتها والابتهالِ إليها بالسّؤال[6]، سواءٌ برفعِ الصّوت أو خفضه[7]، بخلاف النّداء الذي لا يكون إلا برفعِ الصّوتِ صياحًا[8].

والأمرُ للمشركين بأنْ يدعوا شركاءهم في الآخرة في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ ليس من بابِ التّكليف، وإنمّا الغرضُ من الأمر التحدّي والتّعجيز والتّبكيت والتّوبيخ والتّهكم والاسْتِهْزاء بهم، فطَلَبَ الدُّعاءَ منهم؛ لإظهارِ عجزِ هذه الأصنام؛ لأنّه يعلم أنّه لا

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/ 284، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 160.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 335.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 160.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 304.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(6) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دعو).
(7) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 38.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ندى).

فائدةَ في دعائهم[1]، وإنمّا أراد أنْ يُخزيهم بإراءَتِهِم أنّ شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم[2]، أو "مستعملٌ في الإطماعِ؛ لتعقّب الإطماع باليأس"[3]، فالأمرُ بدعائهم تيئيسٌ لهم، وتنديمٌ لما كانوا فيه من ضلال[4]، وبما يشبه الشّماتةَ بهم من استغاثتهم آلهتهم، وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم[5].

نكتة إسناد فعل الدّعاء إلى جماعتهم ﴿ٱدۡعُواْ﴾:

أسندَ النّظم الحكيم فعلَ الدّعاء إلى جماعتهم في قوله: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ﴾؛ للإشارة إلى أنّ الخطاب لهم كلّهم، أي ليَدْعُ كلُّ واحدٍ منكم الذين ادّعيتم جهلًا شِركَتَهم؛ ليدفعوا عنكم[6]، وفي الدّعاء من جميعهم مبالغةٌ في تحدّيهم، وبيانِ عجز ما يدعونه من دون اللّه، وزيادةٌ إياسهم من النّجاة وتبكيتهم.

مبالغةٌ في تحدّي اللهِ للمشركين وبيانِ عجزِ شركائهم وزيادةٌ في تيئيسهم وتبكيتهم

دلالة التّعبير بالشّركاء مجموعًا في ﴿شُرَكَآءَكُمۡ﴾:

عبّر البيانُ الحكيم بلفظ ﴿شُرَكَآءَكُمۡ﴾ بصيغةِ الجمع في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ مبالغةً في هذا التّقريع والتّوبيخ؛ إذ يُشير إلى كثرةِ الشّركاء الذين اتّخذوهم، كما يشيرُ إلى أنّهم قومٌ اتّفقوا على الشّرك ومقتضياته قولًا وفعلًا، بما يدلُّ على شدّة غفلتهم وضلالهم[7].

مبالغةٌ في تقريعِ المشركين وتوبيخهم فهم قومٌ اتّفقوا على الشّرك ومقتضياته

نكتة إضافة الشّركاء إليهم ﴿شُرَكَآءَكُمۡ﴾ بعد إضافتهم إلى ضميره تعالى ﴿شُرَكَآءِيَ﴾:

أضافَ البيانُ الحكيم لفظَ (شركاء) في هذا الموضع ﴿وَقِيلَ

الإشراكُ لم ينفعِ المشركين بشيءٍ بل جرّ عليهم الخسرانَ المبين

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 319، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 429، وابن عثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 292.
(2) ابن القيم، تفسير ابن القيم، ص: 253، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 429.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 160.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 10/ 373.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 427.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 335.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 313.

﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ إلى الأتباع المخاطبين؛ لأنَّهمُ الَّذينَ ادَّعَوْا لهمُ الشِّرْكَةَ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾ [الأنعام: 94](1)، وقد جاءت هذه الإضافة بعد أنْ أضافهم اللّهُ إلى ذاته العليّة حكايةً لإضافتهم الكاذبة في آية سبقتْ ﴿فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾؛ إشارةً إلى أنّهم لم يستفيدوا من زعمهم أنّهم شركاء اللّه - تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا - إلا أنْ أشركوهم فيما صرفوا إليهم من أموالهم وأقوالهم، وأزمانهم وأحوالهم، وهم لا يُغنون عنهم شيئًا(2). فإضافةُ الشُّركاء في الموضعين للتّوبيخ والتّقريع والتّهكم بهم؛ أي هم شركائي على زعمكم وضلالكم - وإلا لم يكن للّه شركاء -، وهم شركاؤكم؛ أي أشركتموهم في دعوى الإلهيّة، وأنّهم شفعاؤكم ليمنعوكم ويخلّصوكم من عذابي(3).

لطيفة حذف متعلّق دعائهم شركاءهم:

مهما تعدّدت أغراضُ المشركين من شركائهم لم يستفيدوا منها بشيء

حُذفَ متعلّق قوله: ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي لم يُذكرْ إلى ماذا يدعونهم؛ للاختصار؛ إذ هو معلومٌ من حالهم الذي يحتاجون فيه إلى النّصرة أو الشّفاعة، ولإفادة العموم؛ إذ لو قُدّر فردٌ واحدٌ من المتعلّقات لاقتصر عليه، ولذا اختلفتْ عبارات المفسّرين في تقدير المتعلّق، ومنها: ادعوا شركاءكم ليشفعوا لكم، ويقرّبوكم إلى اللّه على ما زعمتم في الدّنيا(4)، أو ليخلّصوكم من العذاب(5)، أو لينصروكم ويدفعوا عنكم(6).

والعموم هنا يشيرُ إلى أنّه مهما تعدّدت أغراضكم وتنوّعت من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 160.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 336.
(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 12/ 106.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 8/ 187.
(5) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 541.
(6) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 210.

دعاءِ هؤلاء الشّركاء المزعومين يوم القيامة، فإنّكم لن تستفيدوا شيئًا؛ لعجزها عن إنقاذكم، وتخليصكم من العذاب، والشّفاعة لكم، أو غير ذلك، وذلك مبالغةً في بيانِ عجزِ هؤلاء المزعومين، وهذا فيه مزيدٌ من التّحسير والتّيئيس للمشركين.

معنى (الفاء) في جملتي ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾، ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾:

سرعةُ دعاءِ المشركين لفرطِ حيرتهم وخوفهم يقابلها عجزُ آلهتهم المزعومة

(الفاء) في الموضعين الآتيين ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ و﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾، للتّفريع على الطلب في قوله: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾، لأنّ السّامع ينتظرُ ما يحصلُ بعد أنْ طُلب منهم أنْ يدعوا شركاءهم، وتفيدُ التّعقيب، أي السّرعة؛ أمّا سرعةُ تنفيذ ما أُمروا به في ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ فذلك لفرطِ الحيرةِ، واستيلاءِ الدّهشة التي كانوا فيها، في موقف يبحثون فيه عن أيّ مخرجٍ للنّجاة[1]، مع عدمِ قدرةٍ على المخالفة في هذا الموقفِ المهولِ المخيف، وأمّا السّرعة في عدمِ الاستجابة من قِبَل ما زعموه شريكًا للّه؛ فبما لهم من وصفِ عدم الإدراك، والعجزِ عن الاستجابةِ والنُّصرة والهلاك، فهم عدمٌ، فكيف يستجيب العدم؟![2].

بلاغة الكناية في استجابتهم للأمر ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾:

استجابةُ الكفّار للأمر كنايةٌ عن فرطِ تحيُّرهم أو تَبَجُّحِهم وسوءِ أدبهم مع الله

في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ استجابَ الكافرون للأمر بدعوة شركائهم، وهذه الاستجابة كنايةٌ عن تعلّقهم بما لا يغني، وتمسّكهم بما يتحقّق أنّه لا يجدي، وذلك لفرطِ حيرتهم وشدّة ذلّتهم وغلبتهم واستيلاءِ الدّهشة عليهم[3]، ولسخافةِ عقولهم؛ إذ لم يعلموا أنّ من كان موجودًا منهم في ذلك

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 336، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 336، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 184، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 336، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 429.

الموطن لا يجيبهم[1]. ويمكن أنْ يكون كنايةً عن سماجتهم وتبجُّحهم وسوءِ أدبهم مع الحقّ سبحانه، فكان عليهم أنْ يخجلوا من اللّه، ويعودوا إلى الحقّ، ويعترفوا بما كذَّبوه، لكنّهم تمادَوْا ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾[2].

معنى (لم) في قوله ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾:

نفيُ استجابةِ الشّركاء دليلٌ على عجزِهم وتفاهةِ المشركين

(لم) في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ حرفُ نفيٍ وجزمٍ وقلب؛ أفادَ نفي استجابة الشّركاء للكافرين على سبيلِ القطع، وجزم الفعل المضارع ﴿يَسْتَجِيبُواْ﴾ وقلبه من المضارع إلى الزمن الماضي، فنفى وقوعَ الاستجابة لهم في الزّمن الماضي، مما يدلّ على عجزِ الشّركاء وعدم قدرتهم على الإجابة والنّصرة، أو تقديم أي نفعٍ أو ضررٍ لعابديهم. كما يبرزُ تفاهةَ الاعتمادِ عليهم بدلًا من الاعتماد على اللّهِ سبحانه.

دلالة التّعبير بالاستجابة دون الإجابة:

نفيُ استجابة الشّركاء لعابديهم بيانٌ لخيبتهم وعدمِ حصول مأمولهم ومتوقّعهم

آثرَ البيانُ الإلهي التّعبير بالاستجابة على الإجابة في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾، ولم يقل: (فلم يجيبوهم) - وقدِ استعملتِ الاستجابةُ بمعنى الإجابة -؛ لأنّ الاستجابة هي طلبُ الإجابة؛ إذْ أصلُ الاستفعال لطلب الفِعْل[3]، فزيادةُ السّين تدلّ على أنّ الاستجابة هي طلبُ الجوابِ بحصول المراد، والمطلوب ما يوافق المراد لا ما يخالفه[4]. إذن: الاستجابةُ أوكدُ من الإجابة، فهي خاصّةٌ بتحصيلِ المطلوب؛ إذ فيها قبولٌ وموافقة لِما دعا إليه[5]، فنفيُ استجابة الشّركاء لهم بيانٌ لخيبتهم وعدمِ حصول مأمولهم ومتوقّعهم من قبولِ الشّركاء دعاءهم وشفاعتهم عند اللّه. بينما

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 319.
(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8937.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 419.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/ 377.
(5) الواحدي، التّفسير البسيط: 13/ 362.

الإجابةُ هي بمعنى إعطاء الجواب، فلا يدلّ على تحصيل المطلوب، فقد يجيب بالمخالفة[1]، وقد يكون الجوابُ ضدَّ مطلوبه.

لطيفة حذف متعلِّق الاستجابة:

عدمُ استجابةِ الشّركاء لأيِّ شيءٍ ممّا دُعوا به ينبئُ عن كمالِ عجزهم

في قوله تعالى: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ حَذفَ القرآنُ متعلِّقَ يستجيبوا، ولم يبيّن ما الشّيء الذي لم يستجيبوا فيه؛ وهذا الحذفُ: إمّا للإيجاز؛ لكونه مفهومًا من السّياق؛ إذ السّياقُ في موقفِ الحساب يوم القيامة وسؤالِ الكافرين عن شركهم، وعن زعمهم أنّ هؤلاء الشّركاء شفعاءُ لهم عند اللّه، وسوف يخلّصونهم من العذاب، وإمّا لإرادةِ العموم، أي لم يستجيبوا لهم في أيّ شيء دعوهم به، ممّا يؤكّد كمالَ عجزهم، وشدّة خذلانهم لهم.

نكتة تقييد الاستجابة بالجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

عدمُ استجابةِ الشّركاء كانت للدّعوة التي وُجّهت لهم من قِبَل عابديهم

قُيّد فعل الاستجابة بالجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ على الرغم من أنّ فعلَ استجاب يمكن أنْ يُعدى بنفسه، إلا أنّ التّقييد هنا؛ للتّأكيد على أنّ عدمَ استجابة الشّركاء كانت للدّعوة التي وُجّهت لهم من قبل عابديهم، فهم لم يتجاوبوا معهم بأيّ شكلٍ، مما يدلّ على كمالِ عجزِ الشّركاء، وعلى خيبةِ العابدين المشركين، وشدّة خذلانهم.

معنى (الواو) في جملة ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾:

في العطف ما يضاعفُ من بلائهم وحسرتهم وفي الحالِ ما يدلّ على ارتباكهم

الواو في قولِه: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ يَحۡتَمِلُ أنۡ تكونَ عاطفةً، والمعطوفُ عليه جملةُ: ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾، والرُّؤيةُ بَصَريَّةٌ، والعذابُ عذابُ الآخرةِ، أيۡ: أَحۡضَرَ لهم آلةَ العذابِ؛ ليَعۡلَموا أنَّ شُركاءَهم لا يُغۡنونَ عنهم شيئًا[2]، فجمعَ بين عدم استجابةِ الشّركاء لهم وبين رؤيتهم للعذاب، وفي هذا العطف ما

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 45.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 160.

يُضاعف من بلائهم ويزيدُ في حسرتهم[1]. ويَحْتَمِلُ أنْ تكون الواو للحالِ، والرُّؤيةُ أيضًا بصَريَّةً، والعذابُ عذابَ الآخرةِ، أيِّ: وقد رأَوُا العذابَ فارْتَبَكوا في الاهْتِداءِ إلى سبيلِ النّجاة، فقيلَ لهم: ادْعوا شُركاءَكُم لنجاتكم[2].

رؤيةُ الكافرين للعذاب رؤيةٌ بصرية يقينيّة واقعةٌ ومتحقّقة لا محالة

دلالة الرّؤية وصياغتها في ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾:

استعملَ البيانُ القرآني لفظَ الرّؤية ﴿وَرَأَوُاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾، ولم يقلْ مثلًا: (وشاهدوا العذاب)؛ لكون لفظِ الرّؤية أنسبَ للسّياق؛ إذ السّياقُ هنا سياقُ تحقّقِ العذاب عليهم، واستحقاقهم له، فالرّؤيةُ تدلّ في أصلها على نَظَرٍ وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أو بصيرَةٍ[3]، والمرادُ هنا الرّؤية البصرية؛ لأنّها تعدّتْ إلى مفعول واحد[4]، فناسبَ استعمال لفظ الرّؤية، وهي الرّؤيةُ البصرية التي تفيدُ اليقين.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ عِلْميَّةً، وحُذِفَ المفعولُ الثّاني اختِصارًا، والعذابُ عذابُ الآخرةِ، والمَعنى: وعَلِموا العذابَ حائقًا بهم[5].

وأمّا استعمالُ فعل ﴿وَرَأَوُاْ﴾ بصيغة الماضي الذي يدلّ على الوقوع والتحقّق؛ فلإفادةِ تحقّقِ رؤية الكفار للعذاب، وأنّها واقعٌ لا محالةَ، فيعلموا أنّه لا منجى لهم من هذا العذاب.

العذابُ معهودٌ عند الكافرين وهو النّار التي أعدّها الله لعقابهم

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡعَذَابَۚ﴾:

ألْ التّعريف في ﴿ٱلۡعَذَابَۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ عهديَّةٌ والعهد فيها ذِهْنيٌّ، فالعذابُ معهودٌ عند المخاطبين، وهو العذابُ الذي أعدّه اللّه عقابًا للكافرين على كفرهم، وقد ذكره

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 10/ 374.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 160.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (رأى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 160.

تعالى في آياتٍ عديدةٍ مُحذِّرًا منه، ومهدِّدًا به، فالعذابُ الذي يراهُ الكافرون هو النّار، لقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١﴾ [الشعراء: 91].

عِلَّةُ فصْلِ جملة ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾:

الجملةُ بين الاستئنافِ البيانيِّ والاستئنافِ الابتدائيِّ

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ عمّا قبلها؛ لكونها مُستَأۡنَفَةً استِئۡنافًا بيانيًّا، كأنَّ سائلًا سألَ: ماذا صَنَعوا حينَ تَحَقَّقوا أنَّهمۡ مُعَذَّبونَ؟ فأُجيبَ: بأنَّهم لو كانوا يَهۡتَدونَ سبيلًا لَسَلَكوه، ولكنَّهم لا سَبيلَ لهم إلى النَّجاةِ، أو لكونها مستأنفةً استئنافًا ابتدائيًّا مستقلّةً عن غيرها(1).

توجيه معاني ﴿لَوۡ﴾ في قوله ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ﴾:

شرطُ نجاتهم في الآخرة مرهونٌ بهدايتهم في الدّنيا

تَحۡتَمِلُ ﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ أن تكونَ شرطيَّةً، وجوابُها مَحذوف، دَلَّ عليه حَذۡفُ مفعولِ ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ أيۡ: يَهتَدونَ نَجاةً أو سبيلًا، والتَّقديرُ: (لو أنّهم كانوا في الدُّنيا مهتدين إلى طريق الحقّ؛ لَتَخَلَّصوا من العذاب المهين الذي رأوه). أو (لو أنّهم كانوا يهتدون بالاتّعاظ وبالاستدلال بحلولِ العذاب في الدّنيا على أنّ وراءه عذابًا أعظمُ منه؛ لاهتَدَوا فأقلعوا عن الشّرك، وصدّقوا النّبيَّ ﷺ). أو للتَّمَنّي المُستَعۡمَلِ في التَّحسُّرِ عليهم، فلا تحتاجُ إلى جواب، ويكون المعنى: (ورأوا العذابَ فتمنّوا أنۡ لو كانوا ممّن هداهم اللّهُ في حياتِهمُ الدُّنيا إلى الصّراط المستقيم)؛ كَيۡلا يقَعوا في هذا العذاب(2).

دلالة التّوكيد في ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ﴾:

توكيدُ امتناعِ حصولِ الهداية منهم لدلالةِ تحقّقِ رؤيتهم للعذاب

أفادَ أسلوبُ الشّرط بـ﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ امتناعَ حصولِ المشروط، أي امتناعَ حصولِ الهداية

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 160.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 160، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 429.

منهم؛ لأنّهم لم يهتدوا، والمعنى: لو أنّهم كانوا يهتدون في الدُّنيا لَمَا حلّ بهم ذلك العذاب، وأفادتْ (أنّ) في ﴿أَنَّهُمْ﴾ التّوكيدَ؛ أي تأكيدَ الشّرطِ وتقريره، ولَمَا كان الشّرط ممتنعًا عليهم، دلّ على أنّهم لم يهتدوا، كما دلّ عليه تأكيدُ رؤيتهم للعذاب، وتحقّقِ وقوعه منهم، لأنّ من يرى العذابَ يكون ضالًّا لا مهتديًا.

دلالة التّعبير بالكون الماضي في ﴿كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾:

تحقيقُ عدم اهتداءِ الكافرين في الدُّنيا وثباتهم على ذلك

عبّر البيانُ الإلهي بفعل الكون الماضي ﴿كَانُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾، للدّلالة على المضي والانقضاء، أي لو كانوا مؤمنين في الدُّنيا ما رأوا العذابَ في الآخرة. وكذلك للدّلالة على تأكيدِ عدم اهتدائهم في حياتهم الدُّنيا، وثباتهم ودَوامهم على ذلك؛ ففي استعمال فعل الكون أصبحتِ الجملةُ اسميّة.

دلالة التّعبير بالاهتداء وصياغته مضارعًا بعد الكون الماضي:

في انتفاءِ تجدّد الهدى واستمراره من الكافرين انتفاءً لتحقّقِ الغايةِ المرجوّة منه

عبّر البيانُ القرآني بلفظ ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ دون يرشدون في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾؛ لكونها أنسبَ للمقام، وهو حرصُ أهل النّار على تحقيق بغيتهم، وهي النّجاة من العذاب الذي يرونه في يوم الحساب في الآخرة؛ إذِ الهدايةُ أخصُّ من الرّشادِ من جهة؛ فهي تمكّنٌ من الوصول إلى البغيةِ، وإلى الغايةِ المرجوّة، والإرشادُ لا يلزمُ منه ذلك[1]، والمعنى: أنّهم تمنّوا لو كانوا يهتدون في حياتهم الدّنيا لَمَا وقعوا في العذاب، وعلى هذا المعنى يكون التّعبير بصيغة المضارع بعد فعل الكون الماضي؛ لقصدِ استمرارِ وتجدّد الهدى المتحسَّر على فواته عنهم، فإنّ الهدى لا ينفعُ صاحبه إلا إذا استمرّ إلى آخر حياته.

وأمّا إذا كان المعنى: لو كانوا يهتدون في الدّنيا لتَخَلَّصوا من العذاب المهين، فيكون التّعبيرُ بصيغة المضارع بعد فعل الكون الماضي

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 209.

دالًّا على التجدّد مع الدّوام والاستمرار، فالاهتداءُ منقطعٌ عنهم، وهو كنايةٌ عن عدم الاهتداء من أصله، وأمّا إذا كان التّقدير: لو أنّهم كانوا يهتدون بالاتّعاظ وبالاستدلال بحلول العذاب في الدّنيا على أنّ وراءه عذابًا أعظمَ منه لاهتدوا، فيكون التّعبير بصيغة المضارع دالًّا على عدمِ تجدّد الهداية منهم بالاتّعاظ بحلول عذاب الدّنيا[1].

نكتة إضافة الهداية إلى ضمير جماعتهم في ﴿يَهۡتَدُونَ﴾:

اجتماعهم على تعطيل عقولهم دليلٌ على شدّة غفلتهم وفسادِ فطرتهم

في إضافة الهداية إلى ضمير جماعةِ أهلِ النار في قوله: ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ إشارةٌ إلى شدّةِ غفلتهم وضلالهم وفسادِ فطرتهم؛ إذ اجتمعوا على عدمِ الاهتداء رغمَ العقولِ التي خلقها اللّهُ لهم، وكان المفترضُ أنْ يكونَ الاجتماعُ منهم سببًا في اهتدائهم للحقّ؛ لأنّ العقولَ باجتماعها تتكاملُ. أو أنْ يكون إشارةً إلى زيادةِ تبكيتهم بأنّهم لن يهتدوا إلى سبيلٍ من النّجاة من عذاب اللّه ولو اجتمعوا على ذلك.

وفيه تناسبٌ للسّياق الذي جاء فيه الكلام بصيغةِ الجمع ﴿ٱدۡعُواْ﴾ و﴿شُرَكَآءَكُمۡ﴾ ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ و﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾ و﴿وَرَأَوُاْ﴾ و﴿كَانُواْ﴾.

دلالة حذف متعلّق الهداية:

لــو اهــتــدى الـكـافـرون لأيِّ وجهٍ من وجوه الهدى في الدّنيا لمّا رأوا العذاب

حُذفَ متعلّقُ الهداية في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾؛ لإفادةِ العموم؛ فلا يقتصرُ على متعلّقٍ واحدٍ لو ذكر، إذ التقديرُ: لو كانوا يهتدون إلى الحقّ، أو إلى الطريق المستقيم، لَما رأوا العذاب، ولما لقوا ما لقوا[2]. أو لو كانوا يهتدون بهديِ اللّه، وهدي رسوله[3]، أو لو أنّهم كانوا مهتدين بوجهٍ من وجوهِ الحيلِ؛ لدفعوا به العذابَ، أو لعلموا أنّ العذاب حقّ[4]. وكذلك في حذف المتعلق مراعاةٌ للفاصلةِ القرآنية في الآيات.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 161.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.
(3) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 10989.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 319.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النّداء والدّعاء:

زجرُ أهلِ النّار يناسبه مناداتهم بصوتٍ مرتفعٍ والصّياحِ عليهم

النّداءُ: رفعُ الصّوتِ صياحًا، ونادى فلانًا: دعاه وصاحَ بأرفعِ الأصوات ليلتفتَ أو ليحضرَ عند المنادي، وفيه إشارةٌ إلى بُعدِ المسافة بينهما، والتّنادي: نداءُ بعضهم بعضًا؛ إذ أصلُ النّداء يدلُّ على التّجمّع، والنّداءُ: الظهور، ونادَى الشَّيءَ: رَآهُ وعَلِمَهُ[1]. وأمّا الدُّعاءُ فأصله أنْ تُميلَ الشَّيْءَ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ[2]، ومعناه المحوري: جذبُ الشّيءِ أو محاولةُ ضمّه إلى حيزٍ أو أمرٍ، كجذبِ النّاس إلى الوليمةِ والاجتماع، والسَّوق إلى الأمير، ومنه الدّعاءُ بمعنى التّضرّع إلى الله ﷻ في طلبِ أمرٍ، والرَّغْبَةُ إلَى اللّه تَعالَى فيما عنْدَه مِن الخيْرِ والابْتِهال إلَيْهِ بالسُّؤالِ[3]. إذن: الفرقُ بينهما هو أنّ: النّداءُ يكونُ برفعِ الصّوت صياحًا ليحضر أو ليلتفتَ، بينما الدُّعاءُ يكون برفع الصّوتِ وخفضه، يُقال: دعوته من بعيد، ودعوتُ اللّه بنفسي، ولا يُقال ناديته في نَفسي[4]، وأيضًا: النّداءُ قد يُقال بـ(يا) أو (أيا) ونحو ذلك من غير أنْ يضمّ إليه الاسم. وأمّا الدّعاء لا يكادُ يُقال إلا إذا كان معه الاسم[5]، وإيثارُ التّعبير بالنّداء هنا يتناسبُ مع حالِ أهلِ النّار؛ إذ رفعُ الصّوتِ صياحًا أبلغُ في زجرهم وتخويفهم وتبكيتهم.

الاستجابة والتّلبية:

الاستجابةُ قبولُ الدّعاء وإيتاءُ السؤل، وفي نفيها نفيٌ للتّلبيةِ من باب أولى

التلبيةُ أبلغُ من الاستجابة؛ إذ الاستجابةُ هي الردُّ أو التّفاعلُ مع طلبٍ أو دعوةٍ، وقد تكون ماديّةً وقد تكون معنويّة، وقد تكون فوريّةً،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ندى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(3) الزّبيدي، تاج العروس، ومحمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دعو).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 38.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 315، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 600.

وقد تتطلّب وقتًا؛ فالاستجابةُ في اللغة هي قبولُ الدّعاء لِما دُعي إلَيْهِ، وإيتاءُ السُّؤْلِ إمدادًا بالمطلوب[1]. وأمّا التلبيةُ فهي تنفيذُ طلبٍ أو رغبةٍ بشكلٍ كاملٍ وفعّالٍ وفوري، وصولًا إلى الهدفِ المطلوب، فالتّلبيةُ في اللغة الإجابةُ والإقبالُ على الأمرِ مع المحبّة، ولزوم الطّاعةِ، والإقامةِ عليها مع الإخلاص[2]، والتّعبيرُ بلفظِ الاستجابة يتناسبُ مع حالِ الكافرين وشركائهم؛ إذ لَمّا قيلَ لهمُ: ادعوا شركاءكم؛ لم يحصلِ الردّ على دعوتهم، ولم يتفاعلوا مع طلبهم لا عاجلًا ولا آجلًا، فكان التّعبير بنفي الاستجابة هو نفيٌ للتّلبية من باب أولى، وفي هذا مزيدُ تيئيسٍ للكافرين وتبكيتٌ لهم.

الهداية والرّشاد:

الهدايةُ هي الدّلالةُ الموصلةُ إلى الجنّة وهو ما يتمنّاه الكفّار حين يرون العذاب

الهدايةُ أعمُّ من الرّشاد؛ من جهة أنّ الهدايةَ تُطلق على الدّلالةِ المطلقة سواءٌ في المحبوب أو المكروه[3]، بينما الرّشادُ هو إصابةُ الخير، ولا يكون إلا إلى الشّيءِ المحبوب. والهدايةُ أخصُّ من الرّشادِ من جهة أنّها تمكّن من الوصول إلى البغيةِ، وإلى الغاية المرجوّة، والإرشادُ لا يلزم منه ذلك[4]، فالهدايةُ في اللغة: الدّلالةُ بلطفٍ إلى ما يوصلُ إلى المطلوب[5]، وهي خِلافُ الضَّلالَة، وأصلها: التَّقَدُّمُ لِلْإِرْشادِ[6]. وأمّا الرّشاد في اللغة فهو خلافُ الغَيِّ، ويدلّ على استقامةِ الطّريق[7]، والرُشْدُ هو صلاحُ الأمرِ وكونه على الوجهِ الصّحيح الحقّ مع تصلّبٍ فيه[8]، فهو إصابةُ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 44، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 51، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جوب).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (لبّ).

(3) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رشد).

(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 209.

(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (هدى).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).

(8) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (رشد).

الصّواب[1]. وقد ناسب التّعبير بالهداية؛ لأنّ المقام هنا في الآخرة عند رؤيةِ أهل النّار للعذاب، وتمنّيهم لو كانوا مهتدين لوصلوا إلى الغايةِ المرجوّة من الهداية؛ وهي دخولُ الجنة، والفوز برضوان اللّه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رشد).

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾ [القصص: 65 - 67]

مُناسَبةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

توبيخُ المشركين على تكذيبهم لرسلهم بعد توبيخهم على إشراكهم

لما كان النِّداءُ الأوَّلُ عن سؤالِ التَّوحيدِ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾؛ أتبعه بالنّداء الثّاني وفيه إثباتُ النُّبوّاتِ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[1]، فالنّاسُ يُسألونَ عن إيمانِهم بالرُّسلِ، كما يُسألونَ عن التَّوحيدِ[2].

سؤالُ الله للمشركين عن حالهم مع رسلهم تفضيحًا لهم

لَمّا أشارَ إلى أنَّه لا نَجاةَ مِن الرَّدَى يوم القيامة إلّا بالهُدى بقوله ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾؛ أتْبَعَه الإعلامَ بأنَّ اللّه لا يُمَكِّنُ أحدًا يوم القيامة أن يَفعَلَ ما قد يَروجُ على سائلِه، كما يُفعَلُ في هذه الدّارِ من إظهارِ ما لم يكُنْ، فقال: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[3].

في التّصريح بحال المؤمنين وحال الكافرين ترغيبٌ في التَّوبةِ، وزجرٌ عن الكفر

لَمّا عُلِمَ بما سبق من آيات حالُ مَن أصَرَّ على كُفْرِه وعَمِلَ سَيِّئًا وما يَجري عليهم مِنَ التَّوبيخِ بطَريقِ العِبارةِ، وأُشيرَ بها إلى حالِ مَن تاب فوُعِدَ الوعدَ الحسَنَ بألطَفِ إشارة؛ تَسَبَّبَ عن ذلك: التشَوُّفُ إلى التَّصريحِ بحالِهم فذكرهم ترغيبًا في التَّوبةِ، وزجرًا عن الثَّباتِ على الكفرِ فقال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَمِيَتۡ﴾: (عمي) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى سَتْرٍ وتَغْطِيَةٍ[5]،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 250.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 294.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 336.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/ 25، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 338.
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).

والعَمى: ذهابُ البصرِ، ويُطلَق على فَقْدِ البَصيرَة، يُقال: عَمِيَ فُلانٌ، أيْ: ضَلَّ عن رُشْدِه، وعَمِيَ عليه الأمر، إذا التبس، وعَمِيَ عليه طريقُهُ أيْ: خَفيَ، ورجلٌ عَمي القلْب، أي جاهلٌ[1]. والمقصود بالعمى في الآية: الخفاءُ والسّتر، والمعنى: خَفيَتْ عليهم الحُجَجُ خفاءَ المرئيّ على الأعمى[2]، فعمى الحججِ عنهم هو فقدانها وعدم وجودها.

2) ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾: أصلُ (نبأ) الإتيانُ من مكانٍ إلى مَكانٍ، ومنه النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّهُ يأتي مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ[3]، والنَّبأ: خبرٌ ذو فائدة عظيمة يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنّ، ولا يُقال للخبر في الأصل نَبَأٌ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثّلاثة[4]. ومعنى ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ في الآية: الحُجَجُ أو الأخبار المنجية في الجواب[5].

3) ﴿تَابَ﴾: أصلُ (توب) يدلُّ على الرُّجوعِ، يُقال: تابَ إلى اللّهِ، يَتوبُ، تَوْبًا وتَوْبةً ومَتابًا، أيْ: أنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إلى الطَّاعَةِ[6]. ومن معاني التَّوبة: الإسْلامُ، يُقال: أدْرَكَ فلانٌ زَمَنَ التَّوْبَةِ[7]، والاستِحياءُ، يُقال: ما طعامُكَ بطَعامِ تَوْبةٍ، أي لا يُستَحيى منه ولا يُحْتَشَمُ[8]. ومعنى ﴿تَابَ﴾ في الآية: أنابَ وراجع الحقّ وأقلع عن الشِّركِ مع النَّدم على تقلُّده[9].

4) ﴿ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾: أصلُ (فلح): يَدُلُّ على فَوْزٍ وبَقاءٍ، والفَلاحُ: الفوز، والنَّجاة، والبَقاء، والسَّحورُ، وسُمّيَ السحور فَلاحًا؛ لِأَنَّ الإنْسانَ تَبْقَى مَعَهُ قوَّتُهُ عَلَى الصَّوْمِ[10]. والفَلاحُ: نَيْلُ الخَيْرِ والنّفع الباقي أثَره، وهو أيضًا: النَّجاحُ بِحُصولِ المَطْلوبِ، والخَيْبَةُ ضِدُّهُ، يُقال: أفْلَحَ وأنْجَحَ إذا أدْرَك مَطْلوبَه، ومِنْه حَيَّ على الفلاح[11]. والمقصود بالفَلاحِ في الآيةِ: الفَوْزُ والنَّجاةُ بالمطلوب وصلاحُ الحالِ[12].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عمي).
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1797.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيدي، تاج العروس: (نبأ).
(4) الراغب، المفردات: (نبأ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 607، وابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 268، والجلالين، تفسير الجلالين، ص: 517.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/ 530، وابن فارس، مقاييس اللغة: (توب)، والسجستاني، غريب القرآن، ص: 419.
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة: (توب).
(8) الخليل، العين: (توب).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 608، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.
(10) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة: (فلح)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 211.
(12) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 608.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

التَّوبةُ والإيمانُ والعملُ الصّالحُ أسبابٌ للنّجاة من الكَرب الشّديد

واذكُرْ يومَ يُنادي اللّهُ تعالى المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: ماذا أَجَبْتُمُ المُرسَلينَ الَّذين أرسَلْتُهم إليكم؟ هل آمَنْتُم بهم واتَّبَعْتُموهم، أو كفَرْتُم بهم وكذَّبْتُموهم ولم تُطيعوهم؟ فخَفيَت الحُجَجُ على المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، ولم يَهتَدوا إلى جوابٍ؛ لأنّ اللّهَ قد كانَ أبلغَ إليهم في المعذرةِ، فلم تكن لهم حجةٌ يحتجّون بها، ولا خبرٌ يُخبِرون به، مما تكون لهم به نجاة، فيَسكُتون حَيارَى لا يَقدِرونَ على الإجابةِ بشَيءٍ، فلا يَسألونَ أحدًا عمّا يُجيبونَ به.

وفي الوقتِ الذي يبلغُ الكرْبُ ذروتَه بالمشركين يتحدثُ القرآنُ بما يكون فيه سبيلٌ للنّجاة في الحياة الدّنيا، فيقول: فأمّا مَن تاب مِنَ الشِّركِ، وآمَنَ باللّهِ ورُسُلِه، وعَمِلَ عَمَلًا صالحًا بإخلاصٍ للّه تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فإنَّه يكونُ في الآخرةِ مِنَ الفائزينَ النّاجينَ مِن العَذابِ، الخالدينَ في الجنَّةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾:

في الجمع بين سؤالِ الكفّار عن حقّ الله وحقِّ رسله بلوغُ الغايةِ في الحجّة عليهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ﴾ عاطفة، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾[2]، وفي هذا العطف جمعٌ بين سؤالِ الكفار عن حقّ اللّه في توحيده، وبين سؤالهم عن حقِّ رُسلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ في إجابة دعوتهم؛ إقامةً للحجّة عليهم.

موقع الظرف (يوم):

(يَوۡمَ) في قوله سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ إمّا منصوبٌ بالعطف على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 607، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 304، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 250.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 183، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 309.

يومٌ عظيمٌ مهولٌ يُنادى فيه على الكافرين لسؤالهم وحسابهم

(يوم) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ أو بإضمارِ: اذكُر[1]، والتَّقديرُ: (واذكرْ أيّها العاقل حالَ هؤلاء الكافرين يوم يناديهم المنادي من قِبَل اللّه، فيقول لهم: ما الذي أجبتم به رسلَكم عند ما أمروكم بإخلاصِ العبادة للّه، ونَهَوْكم عن الإشراك والكفر؟)[2].

وإضافة (يوم) إلى جملة ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾ فيه تهويلٌ وتفظيعٌ وتقريعٌ؛ إذ اليومُ هو يومُ الحسابِ والفصلِ بين العباد، والسؤالِ عن التّوحيد وإجابة.

سرّ التعبير بالنّداء ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾:

نداءٌ ينبئُ عن البعدِ ويحملُ التّبكيت والتّخويف

عبّر البيانُ القرآني بلفظ النّداء في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لكونه أنسبَ مع السّياق الذي هو إقامةُ الحجّة عليهم تقريعًا وتبكيتًا وتخويفًا؛ إذ النّداءُ هو رفعُ الصوتِ صياحًا؛ ليلتفتَ أو ليحضرَ عند المنادي، فلا يكون النّداءُ إلا برفع الصّوت، وهذا يزيدُ من خوفهم وفزعهم. كما يشيرُ إلى بُعدِ منزلتهم في النّار حتى احتاجوا إلى النّداء بصوتٍ عالٍ ليتجمّعوا ويُسَألوا[3].

تصويرٌ لمشهدٍ مهيبٍ مخيفٍ يسجّل على الكافرين ذلّهم

وقد أتى فعل النّداء بصيغة المضارع ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾ لإفادة التّصوير، أي تصوير لحظة مناداتهم بصوتٍ عالٍ يقرِّعهم ويبعثُ الخوفَ في قلوبهم، ليتخيّلَ السّامعُ هذا المشهد المهيب، حين يوجَّهُ إليهم السّؤال، ويُطلبُ منهم الإجابة، وهم في قِمَّة الذلّ والخزي.

مرجع ضمير الفاعل والمفعول في ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾:

في إضمار الفاعل والمفعول تحقيرٌ لشأنِ المشركين

هذا النّداء كالنّداء الأوّل ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ في كونه من اللّه، أو في احتماله الواسطة من الملائكة[4]، والمنادَوْنَ

(1) تفسير الجلالين، ص: 517.
(2) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 429.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ندى).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 319.

هم الكفارُ جميعًا من الأتباع والمتبوعين، يوقِفُهم على ما أجابوا به المرسلين الذين دعوهم إلى اللّه تعالى، فتعمى عليهم الأنباء[1]. وقد أضمرَ النّظم الحكيم الفاعلَ والمفعولَ تحقيرًا لشأن المشركين، فهم أدنى من أنْ يُصرّح بمن يناديهم، سواءٌ كان اللّه سبحانه أو ملائكته، وهم أحقرُ من أنْ يُذكروا.

دلالة تكرار ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾:

تكرارٌ يقتضيه مقامُ تقريعِ الكافرين وتخويفهم يوم القيامة

جملةُ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ كنايةٌ عن موصوف، وهو يوم القيامة، وهو ذاته ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ وقد كُرِّرَ الحديث عنه باعتبارِ تعدُّدِ ما يَقَعُ فيه؛ لأنَّ مَقامَ المَوعظةِ يَقتَضي الإطْنابَ في تَعْدادِ ما يُستحَقُّ به التَّوبيخُ، وقد كُرِّرَت جملةُ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ لأنَّ التَّكرارَ من مقتضيات مقامِ الموعظة والتّخويفِ، والتّهويلِ لهذا اليوم العظيم. والغرضُ من كلّ هذه النّداءات تقريعُهم والسّخريةُ منهم، وممَّنْ عبدوهم واتّبعوهم من دون اللّه[2]، وتَوبيخُهم على تَكذيبِهم الرُّسُلَ بعدَ انقِضاءِ تَوبيخِهم على الإشْراكِ باللّه[3].

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ﴾:

التّشوّف إلى تفصيل بعد الإجمال يحملُ التّبكيت والتّنديم

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ﴾ حرفُ عطفٍ وتفسيرٍ، والجملةُ بعدها تفصيلٌ وتفسيرٌ بعدَ إجمالٍ؛ تبكيتًا لهم وتنديمًا؛ فقد أجملَ النّداءَ، ثمّ فَصَّلَهُ بما بعده بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

دلالة القول والمضارعة في الفعل ﴿فَيَقُولُ﴾:

في التّعبير بالقول ﴿فَيَقُولُ﴾ زيادةٌ في التّوبيخ والتّفضيح

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 295.
(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 10989.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 162.

للكافرين[1] على عدمِ إجابتهم الرّسلَ بحقٍّ، بل أسلفوا من التّكذيب والإساءة ما يودّون لو أنّ بينهم وبينه أمدًا بعيدًا[2]. وفيه كذلك تأكيدٌ على أهميّة مقول القول، والذي هو استفهام توبيخٍ وتقريع وتأنيبٍ لتكذيبهم الرّسل؛ لأنّ ﴿فَيَقُولُ﴾ تكرارٌ قُصد به تفسيرُ النّداء.

في التّعبير بالقول زيادةُ توبيخٍ وتفضيحٍ للكافرين

ومجيء فعل القول بصيغة المضارعة تناسبًا مع فعل ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾ الذي هو تفسير له، وتصويرًا لهذا الحدث الذي يُنادي فيه المشركين ويخاطبهم بسؤالٍ توبيخيّ وتقريعيّ وتنديديٍّ ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ﴾ "؟! مما يُعزّز الأثرَ النّفسيَّ في نفوس المخاطبين دفعًا لهم للإيمان.

تصويرٌ لحدث عظيم يُعزّز الأثر النّفسي في قلوب المخاطبين دفعًا لهم على الإيمان

معنى (ما) و(ذا) في قوله ﴿مَاذَآ﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ﴾ استفهاميَّةٌ في محلّ مفعول، والمعنى: أيَّ اجابةٍ أجبتم المرسلين، و(ذا) بعد (ما) الاستفهامية في قوله ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ﴾ تعاملُ معاملةَ الموصول، أي ما الذي أجبتم المرسلين، أي ما جوابكم[3]؟.

في الاستفهام عن كلّ الذي أجابوا به المرسلين مزيدُ تبكيتٍ لهم

و﴿مَاذَآ﴾ أفادتْ عموم السّؤال، فبدلًا من أنْ يقول: أي إجابةٍ أجبتم المرسلين؟ أإجابةُ إيمانٍ وإقرار أم إجابةُ كفرٍ واستكبار؟ أإجابةُ طاعةٍ أم إجابةُ معصيةٍ؟ وهكذا، فأوجز هذا الكلام كلّه في لفظ ﴿مَاذَآ﴾، وهو استفهامُ تقريرٍ وتوبيخٍ وتبكيتٍ للكافرين، وإقامةُ الحجة عليهم.

سرّ التعبير بالإجابة في ﴿أَجَبۡتُمُ﴾:

التّعبيرُ بالإجابة دون الطّاعة في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لكونها أنسبَ لحالِ المخاطبين، وهم الكافرون من أهلِ الموقف؛ وأنسبَ للسّياق الذي هو توبيخٌ وتقريعٌ لهؤلاء الكافرين

السؤالُ عن إجابةِ المرسلين أنسبُ لحالِ الكافرين يوم القيامة

(1) أبو السّعود إرشاد العقل السّليم: 5/ 108.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 162.

بسؤالهم عن إجابتهم للمرسلين يوم القيامة، وهل كانت بالموافقة أم بالمخالفة؛ لأنّ الإجابة قد تكون بالموافقة وقد تكون بالمخالفة[1]، وأمّا الطّاعة والانقياد فلا تكون إلا بعد الموافقة، أي فلا يصحّ أنْ يسألهم عن طاعتهم؛ لأنّهم ليسوا بمؤمنين.

غرض الاستفهام ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ﴾:

الاستفهامُ في الآية مثلٌ للإيجاز في اللفظ والوفاء في المعنى

الاستِفهامُ بـ﴿مَاذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ﴾ صوريٌّ؛ لأنّ اللّهَ يعلمُ ماذا أجابوا المرسلين، مَقْصودٌ منه إظْهارُ بَلْبَلَتِهم واضطرابهم[2]. وهو استفهامُ تقريرٍ لهم بموقفهم من دعواتِ الرّسل، أي بكفرهم وذنوبهم؛ تحسيرًا لهم بعد تحسيرٍ. واستفهامُ هيبةٍ؛ فلا يَبْقَى لهم تمييزٌ، ولا قوةُ عقلٍ، ولا مُكْنَةُ جوابٍ، قال جلّ ذكره: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾[3]. واستفهامُ تبكيتٍ بالاحتجاجِ عليهم بإرسالِ الرّسل، وإزاحة العلل[4]. واستفهامُ تعجيزٍ لهم؛ لأنهّم إنْ حاولوا الإجابة فلن يجدوا إجابةً فيُخزون ويخجلون[5].

دلالة جمع ضمير الفاعل في ﴿أَجَبۡتُمُ﴾:

المبالغةُ في بيانِ عجزِ المشركين وتبكيتِهم وإقامةِ الحجّةِ عليهم

التَّعبير بضمير الجمع في ﴿أَجَبۡتُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ ليشملَ السّؤالُ جميع المشركين؛ إذ المقامُ مقامُ حسابٍ وجزاء، ولقصدِ المبالغة في بيان عجزهم وتبكيتهم وإقامةِ الحجّة عليهم، وأنّ العجزَ يشملهم كلّهم، وخاصّةً أنّ السّياق جاء بخطابِ الجمع على سبيلِ التّوبيخ والتّقريع.

نكتة حذف متعلّق ﴿أَجَبۡتُمُ﴾:

في الحذفِ إيجازٌ واختصارٌ للعلم بالمحذوف

حُذفَ متعلّق ﴿أَجَبۡتُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 51.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 162.
(3) القشيْريّ، لطائف الإشارات: 3/ 76.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 427.
(5) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 10989.

اختصارًا؛ للعلم به؛ لأنّه قد دلّ عليه ما سبق في قوله ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، وقوله ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾، والتّقدير: (ماذا أجبتم المرسلين في الدّعوةِ إلى توحيد اللّه وإخلاصِ العبادة له، وإبطالِ الشّركاء)[1].

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

التّكذيبُ برسولٍ تكذيبٌ بجميع الرُّسل لاتّحادِ المرسِل

المرادُ بالمرسلين في قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ محمدٌ ﷺ، وله نظائر في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ [سبأ: 45] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشعراء: 105]، وإنّما كذَّب كلُّ فريقٍ من أولئك رسولًا واحدًا، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ عبّر بصيغة الجمع؛ لأنّ جميع المكذِّبين إنّما كَذَّبوا رُسلَهم بعلّةِ استحالةِ رسالةِ البشرِ إلى البشرِ، فهم إنّما كَذّبوا في الحقيقة بجنسِ المرسلين[2].

دلالة التّعبير بالإرسال دون النبوّة في ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

النّعيُ على تكذيبِ المشركين للرّسول ورسالته مبالغةٌ في التّشنيع عليهم

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالإرسال ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دون النّبوة، فلم يقل: (ماذا أجبتم النّبيين)؛ لكون لفظ المرسلين أبلغَ في الدّلالة على إقامةِ الحُجَّة على المخاطبين من المشركين؛ لأنّه أرسلَ مع المرسلين رسالات، قد بَلّغها الرّسلُ، وبقيت بعد موتهم، بخلافِ لفظ النّبيين، فإنّه لا يدلّ على حملِ رسالة، ومن ثَمَّ فهو أبلغُ في تبكيتهم والتّشنيع عليهم؛ إذ إنّهم لم يكتفوا بتكذيب المرسلين، وإنّما كذّبوا رسالاتهم، فماذا سيكون جوابهم؟!.

التّكذيبُ بالمرسَل تكذيبٌ بمن أرسله

وأما إيثار صيغة المفعول في ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ فللدّلالة على أنّهم مجرّدُ رسلٍ يبلّغون عن اللّه ما أمرهم به لا من عند أنفسهم، ولا مندوحةَ لهم عن إبلاغِ ما أُمروا به[3]، أي إعلانٌ بأهليّة دعوتِهم ومصدرها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 162.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 162.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 62.

بأنّهم من عند الله[1]؛ إذ لفظُ المُرسَل يقتضي إطلاقَ غيره له، فكأنّه يسألهم - زيادةً في تبكيتهم - ماذا أجبتم دعوة الله؟.

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَعَمِيَتۡ﴾:

سرعةُ عمائهم عن الحُجَجِ والأعذارِ تُظهرُ شدّةَ تحيّرهم ودهشتهم

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وقد أفادَ العطفُ التّعقيبَ والسّرعةَ في عمائهم عن الحججِ والأعذار، وإظلامها عليهم؛ لشدّة تحيّرهم ودهشتهم واضطرابهم وذهولهم في هذا الموقف المهول، فلا نُطْقَ ولا عقلَ ولا تمييز ولا فهم لهم، فلم يملكوا إلا السّكوت.

دلالة التّعبير بالعَمَى في الفعل ﴿فَعَمِيَتۡ﴾:

عمى الحُجَجِ والأعذار عن المشركين هو فُقدانها لعدمِ وجودها

معنى لفظ ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾ خفيتْ عليهم واشتبهتْ عليهم، وقد آثر البيانُ القرآنيّ لفظ العمى دون الخفاء مثلًا؛ لكونه أنسبَ لحالِ المشركين يوم القيامة، وما يصيبهم من الحيرة، والعجز عن الجواب؛ إذ لم يجدوا مغالطةً كما في السّؤال السّابق؛ أي فُقدتْ حُجَجُهم وأعذارُهم، فإنّ العمى أشدّ وأبلغ من الخفاء؛ إذ هو مأخوذٌ من عمى البصر، أي فقدان القدرة على الرّؤية في العينين معًا، بما يجعل صاحبه لا يتبيّن الأشياء، وهو في أصله وصفٌ لحالةِ الشخص[2]، وهو كذلك يُستعملُ في افتقادِ البصرِ والبَصيرة[3].

والتّعبير به يلقي ظِلَّ العمى على المشهدِ والحركة، وكأنّما الأنباءُ عمياءُ لا تصلُ إليهم، وهم لا يعلمون شيئًا عن أيّ شيءٍ!، ولا يملكون سؤالًا ولا جوابًا، وهم في ذهولهم صامتون ساكتون.

نكتة التّعبير بالماضي في ﴿فَعَمِيَتۡ﴾:

عماءُ الحجج عن المشركين أمرٌ متيقّنٌ لا شكَّ فيه

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿فَعَمِيَتۡ﴾ بصيغة الماضي - برغم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).
(3) الرّاغب، المفردات: (عمى).

أنه فعلٌ لَمّا يقع بعد -؛ للدّلالة على تحقّق وقوعه، وأنّه يقينٌ لا شكَّ فيه، والماضي من الأفعال متيقنٌ؛ فلذلك توضعُ صيغته بدل المستقبل المُتَيَقّنِ وقوعه وصحّته[1]، فقد استولتْ عليهم الحَيْرَةُ، واستمكن منهم الدّهشُ؛ فلا نُطْقَ ولا عقلَ ولا تمييز ولا فهم[2]. وفي تأكيد تحقّق الوقوع مزيدُ تخويفٍ وتحذيرٍ لهم؛ ليتّعظوا ويستدركوا قبل فوات الأوان.

دلالة إسناد الفعل (عمي) إلى ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾:

في نسبةِ العمى إلـى الأنباءِ مبالغةٌ في بيانِ ضلال المشركين عن أيّ جواب

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعل (عمي) إلى الأنباء، فقال: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾، ولم يقل: (فعَموا عن الأنباءِ)، رغم أنّه أصلُ الكلام، أي لم يهتدوا إليها، وفيه استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ؛ حيث استُعير العمى لعدم الاهتداء ثم قُلِب؛ للمبالغةِ في بيان ذهولهم وصَمْتِهم المُطْبِق في ذلك اليوم العسير، حتى لكأنّما الأنباءُ والأخبارُ عمياءُ لا تصلُ إليهم، ولا تعرفُ شيئًا عنهم[3]! وبيانُ ذلك أنّه لمّا جعلَ الأنباءَ الواردة عليهم من الخارج عُميًا لا تهتدي، دلّ على أنّهم عميٌ لا يهتدون بالطّريق الأولى؛ لأنّ اهتداءهم بها، فإذا كانت هي في نفسها لا تهتدي فما بالك بمن يهتدي بها؟![4]، وللتَّنبيهِ على أنَّ ما يَحْضُرُ الذِّهْنَ يفيضُ عليه، ويَصِلُ إليه مِنْ خارجٍ، فإذا أَخْطَأه لم يَكُنْ له حيلةٌ إلى اسْتِحضارِه[5].

سرّ تعديةِ الفعل (عمي) بـ (على):

تـمـكّـنُ عمى الأنـبـاءِ من المـشـركـين جـعـلـهـم لا يـهـتـدون إلى جواب

عُدّيَ الفعلُ (عمي) بحرف (على) في قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾؛ لتضمُّنِ فعل (عمي) معنى الخفاء والاشْتِباهِ،

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 295، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 320.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 76.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 429.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 309.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

ولولاه لتعدّى بـ(عن)[1]، والمعنى: خفيتْ عليهم الأنباءُ ولم يهتدوا إلى جواب، وذلك من الحيرة والهول[2]. أو أنّ في التّعبير بهذا الحرف - الذي يفيد الاستعلاء - بدل (عن) إشارةً إلى أنَّ عمى الأنباء وقعَ عليهم، فعمَّ الكلَّ العمى، فصاروا بحيث لا تهتدي الأنباء لعماها إليهم لتجدّدها، ولا يهتدون إليها لانتشار عماها إليهم، وهذا كلّه إشارةٌ إلى أنّهم لم يقدّموا عملًا في إجابة الرّسل يحقّ أنْ يذكر في ذلك اليوم، بل أسلفوا من التّكذيب والإساءة ما يودّون لو أنّ بينهم وبينه أمدًا بعيدًا[3].

نكتة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾:

لفتُ انتباه السّامعين إلى اختصاصِ العمى بالمشركين

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ اختصاصَهم بهذا العماء، أي عميتْ عليهم الأنباءُ دون غيرهم، فهُمُ الذين أصيبوا بالعمى عن إدراكها وفهمها. كما أفادَ التّقديم لفتَ انتباه السامعين إليهم، والتّشويقَ لمعرفة المؤخَّر، وهو ما الذي عمي عليهم.

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ دون (الأخبار):

الحُجَجُ التي يكون بها الخلاص يوم القيامة لا تكون إلا عظيمة وقد عميت عليهم

عبّرَ النَّظمُ الحكيمُ بلفظِ بـ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ دون (الأخبار) في قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾؛ لكونها أخبارًا عن أمرٍ مهمّ، وهي "الأخبار التي هي من العظمة بحيث يحقّ لها في ذلك اليوم أنْ تُذكر، وهي التي يمكن أنْ تقع بها النّجاة"[4] - حسب زعمهم -، وهي الجوابُ عن سؤال ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، أي عمّا وقع من المشركين مع رسلهم في الدّنيا، وهم لا يستطيعون في هذا المقام أنْ يكذبوا فيه؛ إذ لم يعدْ هناك مغالطةٌ في الحجج والأعذار، في الموقف المهول

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 309.
(2) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 429.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.

يوم القيامة. فالنبأُ في اللغة هو "خَبَرٌ ذو فائدة عظيمةٍ يحصلُ به علم أو غلبة ظنّ، ولا يُقال للخبر في الأصل نبأٌ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثلاثة" ويكون صادقا[1].

لطيفة جمع ﴿ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾:

في مقام تَعْمِيَةِ الأنباء على المشركين مزيدُ تيئيسٍ وتحسيرٍ لهم

المرادُ بالأنباءِ إمّا ما طُلِب منهم ممّا أجابوا به الرُّسلَ، أو جميعُ الأنباءِ، وهي داخلةٌ فيه دخولًا أوّليًّا[2]، وفي جمعها إشارةٌ إلى تعظيم أمرها وشأنها، وإلى بيانِ شدّةِ دهشتهم وحيرتهم وعجزهم، فقد خفيتْ والتبستْ عليهم جميعُ الأنباء، ولم يذكروا أيًّا منها، وفي هذا مزيدُ تيئيسٍ وتحسيرٍ لهم.

نكتة الإطناب بذكر ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

في التّخويف من اليوم المهول العظيم ردعٌ للمشركين عن شركهم وتكذيبهم

أطنب البيانُ القرآنيُّ بذكر ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾، مع أنّه مفهومٌ من السّياق أنّ عماءَ الأنباء عليهم يكون يوم القيامة؛ إذ التّقدير: فعميتْ عليهم الأنباءُ يوم إذ نودوا وقيل لهم ماذا أجبتم المرسلين[3]، ولكنّه كرّره تخويفًا من ذلك اليوم، وتقريرًا لتهويله وتعظيمه وتبجيله[4]، بهدفِ ردع المخاطبين عن كفرهم، ليستدركوا قبل فوات الأوان.

غرض إضافة (يوم) إلى (إذٍ) والتعبير به:

إضافةٌ تنبئُ عن تخويفٍ وتحذيرٍ للمشركين من اليوم العظيم والموقف المهول

(يوم) في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ ظرفٌ أضيف إلى مثله (إذٍ)، والتّنوين فيه ينبئُ عن مضافٍ إليه يدلُّ عليه السّياق، والتّقديرُ: (فعَميَت عليهم الأنباء يومئذ نودوا وقيل لهم ماذا أجبتم المرسلين)، وغرضُ هذه الإضافة بيانُ أنّ العماء عن الحجج والأعذار وفقدانها

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 364.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.

والتزام السّكوت المطبق - يكون يوم يناديهم اللّه، ويسألهم سؤالَ التّبكيت والتّوبيخ بقوله: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾. وفي ذلك تخويفٌ وإنذارٌ شديدانِ من هذا اليوم العظيم والموقف المهول، بما يكون رادعًا لهم عن شركهم باللّه.

معنى (الفاء) في قوله ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾:

لا يسألُ أحدٌ منهم أحدًا عن الخلاص، لعلمهم بأنّ الهلاك قد عمّهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ تفريعيّةٌ[1]، والجملة بعدها تفريعٌ على ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي لا يسألُ بعضهم بعضًا لاستخراج الآراء والحجج، وذلك من شدة البَهْتِ والبَغْتِ على الجميع أنّهم لا مُتَنَصَّلَ لهم من هذا السّؤال عن دعوة الرّسول ﷺ كما تنصّلوا من السّؤال عن إشراكهم باللّه؛ إذ لم يجدوا مغالطة، لأنّهم لم يكونوا مسبوقين من سلفهم بتكذيب الرّسول، فإنّ الرّسولَ بُعثَ إليهم أنفسهم فوَجَموا[2]. وتفيدُ السببيّةَ كذلك؛ إذ تسبّبَ عن هذا السّؤال السّكوتُ؛ علمًا منهم بأنّه ليس عند أحدٍ منهم ما يغني في جوابه من حسن القول وصوابه، وأنّهم لا يذكرون شيئًا من المقال إلا عاد عليهم بالوبال، فقال مُتَرجِمًا عن ذلك: ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[3]. أو تسبّبَ عن عمى الأنباء عنهم، أي فهم لانسدادِ الأنباء عليهم لم يجيبوا عمّا سُئلوا عنه: فيما أجبتم المرسلين؟ ولا يسألُ بعضهم بعضًا عنه؛ لانقطاعهم عن الحجّة فيه[4].

علّة تقديم المسند إليه (هم) على الخبر الفعلي ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾:

نفيُ حصول التّساؤل خاصٌّ بالمشركين وهو ثابتٌ مؤكّدٌ واقعٌ لا محالة

في تقديمِ المسنَدِ إليه (هم) على خبره الفعلي ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ إبرازُ المسند إليه (هم) باعتبارهم محورَ الإخبار عنهم، وفيه دلالةٌ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 309.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.

(4) تفسير ابن فورك، ص: 362.

على تخصيصِ الخبر بالمشركين دون غيرهم، وعلى تحقّقِ الخبر وأنّه حاصلٌ لا محالة، وعلى تقويةِ الحُكم، وهو نفيُ حصول التّساؤل من أي أحدٍ منهم؛ وذلك لتكرارِ الإسناد؛ فكأنَّ الحكمَ هنا ذُكر مرّتين؛ مرّةً حين أُسند الفعلُ ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسند إلى ضميره العائد إلى المبتدأ (هم)، ولو تأخَّرَ المسنَدُ إليه فقال: (لا يتساءلون هم) لَما تحقّق هذا التّكرار. وكذلك في التّقديم تحوّلت الجملة إلى اسميّة فأفادتْ الثّبات والدّوام والتّأكيد.

معنى ﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾:

نفيُ التّساؤل بين المشركين يوم القيامة للبغض بينهم ولتيقّنهم بالهلاك

﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ نافيةٌ؛ نَفَتْ حصولَ التّساؤلِ من أيّ أحدٍ منهم؛ أي لا يسأل أحدٌ منهم أحدًا عن شيءٍ تحصلُ به نجاة؛ لعلمهم أنّه قد عمّهم الهلاك، ولات حين مناص، ولأنَّ كلًّا منهم أبغضُ النّاس في الآخر[1]. وإذا كانت الأنبياء لهولِ ذلك اليوم يتتعتعون في الجواب عن مثل هذا السّؤال، ويفوّضون الأمر إلى علم الله، وذلك قوله تعالى: ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: 109] فما ظَنُّك بالضّلّالِ من أممهم؟![2]. وقد آثرَ البيانُ القرآنيّ النفيَ بـ﴿لَا﴾ دون (ما)؛ لأنّ ﴿لَا﴾ تخلّصُ المضارع للمستقبل، بينما (ما) تخلّص المضارع للحال، والحديثُ في الآية عن يوم القيامة، وهذا يناسبه استعمال ﴿لَا﴾ دون (ما).

دلالة التّعبير بالتّساؤل مادّةً وصيغةً:

تصويرُ حالةِ عدم التّساؤل بين المشركين النّاشئة عن حيرتهم وعجزهم

التّعبير بالتّساؤل وهو من صيغ المفاعلة في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ يُشعرُ بزيادة حيرتهم وفَرْطِ دهشتهم، فهم جميعًا قد صاروا في حالةٍ من الإبلاس والحيرة، جعلتهم يتساوون في العجز

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 337.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 427.

والجهل[1]، والمعنى: لا يسألُ بعضهم بعضًا كما يتساءل النّاس في المُشْكِلات؛ لأنّهم يتساوون جميعًا في عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب[2]؛ لأنّ اللّهَ أدحضَ حُجَّتَهم، وكلّل ألسنتهم[3]، أو ليقينهم جميعًا أنّه لا حجّة لهم، أو لا يسألُ بعضُهم بعضًا بالأنساب والأرحام؛ ليقينهم بألّا حيلةَ لكلّ واحدٍ منهم ولا مكانة[4].

وفي مجيء الفعل بصيغة المضارع المنفي تصويرٌ لحالةِ عدم التّساؤل بينهم النّاشئة عن حيرتهم ودهشتهم، التي جعلتهم يتساوون في العجزِ والجهل، وبيانٌ لاستمرارِ هذا العجز والجهل منهم باستمرارِ عدم التّساؤل من جميعهم.

غرض حذف متعلّق ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

في الحذف اختصارٌ وإفادةٌ للعموم

لم يذكرِ البيانُ الإلهيّ ما الذي لا يتساءلُ المشركون عنه في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ اختصارًا؛ لدلالة المقام عليه، والتّقدير: (لا يتساءلون عن شيءٍ تحصل به نجاتهم)[5]. أو أنْ يكون المتعلّقُ هو بالأنساب؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون: 101][6]، أي لا يتساءلون بالأنساب؛ لأنّهم قد أيقنوا أنّ كلّهم لا حيلةَ له ولا مكانة[7].

أو أنْ يكونَ غرضُ الحذفِ إفادةَ عموم المتعلّق، ولهذا تعدّدتْ أقوالُ المفسّرين فيه؛ أي: لا يسألُ بعضهم بعضًا عن الحجج[8]، أو عن العذرِ الذي يعتذرُ به في الجواب[9]، أو لا يسألُ بعضهم بعضًا أنْ

(1) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 430.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 427.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 17/ 436.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 295.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 188.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 295.
(8) الواحدي، التّفسير البسيط: 17/ 436.
(9) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 653، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

يحملَ ذنوبه عنه[1]، أو لا يسألُ بعضهم بعضًا عن الأخبار، أو لا يسأله عن حاله؛ لشغله بنفسه[2]، أو لا يتساءلون عن شيءٍ، فقد سكتوا[3].

معنى (الفاء) في قوله ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾، وموقع الجملة:

تفريعٌ للتَّرغيبِ على التَّوبيخِ فما زالَ في الوقتِ فسحةٌ للتَّوبةِ

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ للتّفريعِ على ما أفادَه قولُه: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ مِنْ أنَّهم حَقَّ عليهم العذابُ؛ أي فرَّعَ بذكرِ حالِ الفريق المقابلِ لفريقِ الكافرين، وهو فريقُ من آمن منهم وتاب وعملَ صالحًا؛ زيادةً في بيانِ حالِ الكافرين؛ لأنَّ الأحوال تزدادُ تميّزًا بذكرِ أضدادِها[4]، وترغيبًا لهم بالإيمان والإقلاع عن شركهم. والحاصل أنّ التّفريع للتَّرغيبِ على التّوبيخ؛ ففي الوقتِ الذي يبلغُ الكربُ ذروتَه بالمشركين، يتحدّثُ القرآنُ عمن تابَ وآمنَ وعملَ صالحًا، وما ينتظرُه مِنَ الرّجاءِ في الفلاحِ، ولِمَنْ شاءَ أنْ يختارَ، وفي الوقتِ فسحةٌ للاختيارِ.

معنى (أمّا) في الآية:

شرطٌ يُعلّقُ الفلاحَ على التَّوبة وتفصيلٌ يومئُ بعدمِ فلاحِ غير المؤمنين

(أمّا) في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ حرفُ شرطٍ وتفصيلٍ[5]، أمّا الشَّرط فيفيد تعليقَ وقوعِ الفلاح على التَّوبةِ والإيمانِ والعملِ الصالحِ، وأمّا التَّفصيل - وهو: التَّفكيكُ والفَصْلُ بيْنَ شَيئَين أو أشياءَ في حُكم - فإنّه يفيدُ هنا أنَّ غيرَ المُؤمنينَ خاسِرونَ في الآخرةِ، وذلكَ ما وقَعَ الإيماءُ إليه في الآيةِ التي قبلها بقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ فإنّه يَكتَفي بتَفْصيلِ أحدِ الشَّيئَينِ عن ذِكْرِ مُقابِلِه[6]، أي: وأمّا من لم يتبْ ويؤمنْ ويعملْ صالحًا فلنْ يكونَ من المفلحين.

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 290.
(2) الماوردي، النّكت والعيون: 4/ 262.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 607.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 365.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 163.

دلالةُ التَّعبير بالتَّوبة وصياغتها ماضيةً في ﴿تَابَ﴾:

رحمةُ اللهِ سبقتْ غضبَه والتّوبةُ تجبُّ ما قبلَها مِنَ الذّنوب

عبّر النّظمُ الحكيمُ بلفظِ التَّوبة دون غيرها كالأوبةِ والإنابةِ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾؛ لكونِه أنسبَ للسّياق؛ إذِ الحديثُ عن الشِّرك، وعنْ تحسّرِهم وندمِهم بسببِ كفرهم يومَ لا ينفعُهم ذلك، والتّوبةُ في اللغةِ لا تكونُ إلا مِنْ ذنبٍ[1]، أمّا الأوبةُ والإنابةُ فلا يشترطُ أنْ تكونان بعْدَ ذنبٍ، وقد مُدح بهما الأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾ [هود: 75] وقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ [ص: 17]، ومن ثَمّ فذِكْرُ التوبة دون غيرها شرطًا للفلاح، وهي التي سُبقتْ بذنبٍ هو هنا الشرك، دليلٌ على رحمةِ الله تعالى وفضله؛ فهو يُبدّل السيئات حسنات، فرحمته سبقتْ غضبه، وفي هذا ترغيبٌ للكافرين بالتّوبة أيّما ترغيب.

الفلاحُ متوقّفٌ على تحقّقِ التوبةِ من التائب

والتّعبيرُ بصيغة الماضي؛ لبيانِ تحقّقِ التَّوبة مِن التّائبين بالإقلاعِ عن الشِّرك والنّدم على تقلّده والعزم على عدمِ العَودِ لمثله، أيْ تحقّقتْ بجميعِ شرائطها، فصيغةُ المُضيّ تنبئُ عن كون تحقّقِ التّوبة من التّائب شرطًا ليكون من المفلحين، وهي بمنزلةِ التّأكيدِ لسببِ كونهم مِن المفلحين.

نكتة حذف متعلِّق التّوبة:

التَّوبةُ لا تكونُ إلا عن ذنبٍ وذنبُهُمُ الشّرك

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ متعلِّق ﴿تَابَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾؛ اختصارًا؛ للعلم به؛ إذ السّياقُ كلّه حديثٌ عنه، والتّقديرُ: (فأمّا من تابَ عن الشّرك والكفر، ورجعَ عمّا كان عليه، وندمَ على تقلّده، فهو من المفلحين)[2].

معنى (الواو) في قوله ﴿وَءَامَنَ﴾:

جمعٌ بين الإقلاعِ عن عقائدِ الشِّركِ وبين التزامِ عَقائدِ الإسلامِ

الواو في ﴿وَءَامَنَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله: ﴿فَأَمَّا مَن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (توب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.

تَابَ﴾؛ إذْ عطَف الإيمانَ على التَّوبةِ وهي الإقْلاعُ عن الشِّركِ، والنَّدَمُ على تقلُّدِه؛ لأنَّ المَقصودَ حُصولُ إقْلاعٍ عن عقائدِ الشِّرْكِ، وإحْلالِ عَقائدِ الإسلامِ مَحلَّها بالإيمان[1].

تـصـريـحٌ بما التزمَ به التّائبُ من الإقـلاعِ عن عقيدةِ الشّرك

أو ليكون العطفُ بالإيمانِ تصريحًا بما عَلِمَ التزامًا، فإنَّ الكفرَ والإيمان ضدّان، لا يمكنُ ترك أحدهما إلا بأخذِ الآخر[2].

دلالة التَّعبير بالإيمان في ﴿وَءَامَنَ﴾ مادةً وصيغةً:

لا بـدّ للتّائبين حتى يكونوا من الـمـفـلـحـين من الـتـحـقّـق بـكـلّ معاني الإيمان

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿وَءَامَنَ﴾ دون غيره كالتّصديق أو الإسلام؛ لكونِه أنسبَ مع السّياق؛ وهو حديثٌ عَن كافرين أشركوا مع الله آلهةً مزعومة، وعَن مؤمنين أقلعوا عن الشّرك وآمنوا بالله اعتقادًا وقولًا وسلوكًا، وأخلصوا لله الألوهيّة، وأفردوا له العبادة[3]؛ إذِ الإيمانُ أخصُّ من التّصديق؛ فالإيمانُ يقابله الكفر[4]، ولا يُستعملُ إلا في الخبرِ عن غائب[5]، ويتضمّن مع التّصديق معنى الأمن والأمانة[6] والسّكونِ والطّمأنينة[7]، وهو في الشّرعِ إقرارٌ باللِّسانِ، واعتقادٌ بالقَلْبِ، وعملٌ بالأركان[8]. والإيمانُ كذلك أخصُّ من الإسلامِ، وأرفعُ منه بدرجة؛ فالإيمانُ يشاركُ الإسلام في الظّاهر، والإسلام لا يشاركُ الإيمان في الباطن[9]، أي لا بدّ للتّائبين حتى يكونوا من المفلحين أنْ تتحقّق فيهم المعاني السّابقة للإيمان.

إخبارٌ عن إيمانٍ متحقّقٍ ممن أقلعَ عن الشّرك يؤكّد فلاحه

وآثرَ التَّعبير بصيغة الماضي دون المضارع، فلم يقل: ويؤمنُ؛ لبيانِ تحقّقِ معاني الإيمان لدى المؤمنين، فهي إخبارٌ عن إيمانٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 608.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أمن)، (صدق).
(5) ابن تيّميّة، مجموع الفتاوى: 7/ 291.
(6) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمن)، والعسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 53.
(8) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 418، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).
(9) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 317 - 320.

متحقّقٍ ممن أقلعَ عن الشّرك، لا إخبارٌ عن تجدّدِ ذلك منهم، فهي بمنزلةِ التَّأكيد لسببِ كونهم من المفلحين.

نكتة حذف متعلّق ﴿وَءَامَنَ﴾:

التّعبير عن المتحقّق الموجود أبلغُ من الإنشاء لطلبِ المقصود

حُذفَ متعلّق الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَءَامَنَ﴾، فلم يذكرْ بماذا آمن؛ للعلم به؛ فإنّ متعلّق الإيمان كان معروفًا عند المخاطبين، أي جرى متعلّق الإيمان مجرى الاصطلاح العُرفيّ، فإنْ قيل: وآمن؛ عُلم المقصود من المحذوف، وهو جميع أركان الإيمان دون تخلف أيٍّ منها، وهذا أبلغُ من ذكرها.

معنى (الواو) في ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾:

تنبيهٌ على فضيلة العمل الصالح والعناية به عبارةً وإشارةً

الواو في ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله: ﴿وَءَامَنَ﴾؛ إذ عطَفَ العملَ الصالح على الإيمان؛ من باب عطفِ الخاص على العام؛ تنبيهًا على فضيلةِ العملِ الصالح، وتحذيرًا من التّهاون فيه، بذكره مرّتين عبارةً وإشارةً، وللتّأكيدِ على أنّ "مَنْ جَمَعَ بين الإيمانِ والعملِ الصّالحِ فليطمعْ في الفلاح"[1]؛ ولأنَّ بعضَ أهْلِ الشِّرْكِ كانوا شاعِرينَ بفَسادِ دينِهم، وكان يصدّهم عن تقلّد شعائر الإسلام أسبابٌ مغريةٌ من الأعراض الزّائلة التي فُتِنوا بها[2]، فعَطَفه تأكيدًا لأهميّة العمل الصّالح، ولكونِ العملِ الصّالحِ تصديقًا لدعوى الإيمان باللسان[3].

دلالة التّعبير بالعمل في ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾:

العملُ أوسعُ دلالةً من الفعل وأنسبُ لما يتطلّبه الإيمانِ والتّوبة والفلاح

آثر البيانُ القرآنيّ التَّعبير بلفظِ العمل دون الفعل فقال: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، ولم يقل: وفعل صالحًا؛ لكونِ العملِ أوسعَ دلالةً من الفعل؛ فهو يشملُ القول والفعل والنيّة، أي يشملُ كلّ ما يصدر من الإنسان

(1) الإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن: 3/ 260.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 163.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.

من عمل اللسان والجوارح والقلب، ولو عبّر بالفعل لم يشملِ العملَ المطلوب من المؤمن إلا ما قامتْ به جوارحه فقط. وهذا لا يصحّ، إضافةً إلى مناسبةِ لفظِ العمل للسّياق؛ فقد عُطِفَ على إيمانٍ وتوبةٍ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾، وهما يقومان على قَصْدٍ ورويّةٍ وعقلٍ وتفكيرٍ واستمرارٍ وطولِ زمانٍ، وهذه المعاني يدلُّ عليها معنى العمل في اللغة؛ فالعملُ يكون من عاقل وعن قصدٍ[1]، فلا يُقال إلا في ما كان عن فكرٍ ورويّةٍ، ولِما تكَرَّرَ وطالَ زمَنُه واستَمَرَّ[2].

نكتة الاكتفاء بالوصف ﴿صَٰلِحًا﴾ عن الموصوف (عملًا):

المقـصـودُ من الـعـمـلِ هـو صلاحُه لا مجرّد العمل

حُذِفَ الموصوفُ (عملًا) ونُزِّلتِ الصّفةُ ﴿صَٰلِحًا﴾ منزلتَه في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ إذِ التّقديرُ: وعمل عملًا صالحًا، والقرينةُ على تعيينِ المحذوف هي فعل ﴿وَعَمِلَ﴾، ونكتةُ الحذف الإيجاز، والتَّنبيهُ على أهميةِ الصّلاحِ والعنايةِ به نيةً وعملًا، وأنّ الصّلاحَ هو المقصودُ من العمل، لا مجرّد العمل.

نكتة الجمع والتّرتيب بين الأفعال ﴿تَابَ﴾، ﴿وَءَامَنَ﴾، ﴿وَعَمِلَ﴾:

لا سبيلَ للفلاح إلا لمن جمع بين التّوبة والإيمان والعمل الصالح

جمَعَ البيانُ القرآنيُّ بين الأفعالِ الثّلاثة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لكونها سبيلًا للنّجاةِ بمجموعها؛ إذ لا نجاةَ إلا لمن اتّصفَ بالتّوبة من الشّرك والمعاصي، وآمنَ باللّه فعبدَه، وآمنَ برسله فصَدَّقَهم، وبجميع أركان الإيمان، وعَمِلَ عملًا صالحًا خالصًا للّه متّبعًا فيه للرّسل، فَعَسَى أنْ يكونَ مَن جمعَ هذه الخصال مِنَ النّاجحين بالمطلوب، النّاجينَ من المرهوب، فلا سبيلَ إلى الفلاح بدون هذه الأمور[3].

تقديمُ التّخلية على التّحلية من أهمِ قواعد تربية النّفس

وأمّا نُكتةُ ترتيب هذه الأفعال بتقديمِ التوبةِ على الإيمانِ والإيمان على العملِ الصالح؛ فتكمُنُ في تقديمِ التّخليةِ على التّحليةِ؛ فالتّوبةُ

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 666، والزّبيدي، تاج العروس: (فعل).
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 622.

هي إقلاعٌ عن الشّرك، وهذا يكون أولًا، ويعقبهُ الإيمانُ مباشرةً، وهو إحلالُ عقائدِ الإسلام محلّ عقائدِ الشّرك، ومن ثمّ يعقبهم العملُ الصّالح الذي يؤكّد صدْقَ التّوبةِ ويصدّقُ دعوى الإيمان، ويكون سببًا في الحفاظِ على التّوبة وعلى العمل الصالح.

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾:

التّوبةُ والإيمانُ والعملُ الصّالحُ سببٌ في الفوزِ بوعدِ اللهِ

(الفاء) في قولِه ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ حرفُ عطْفٍ، يتضمّنُ معنى السّببيّة، إذ إنّ حالَ ﴿مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ سببٌ في أنْ يفوزَ بوعدِ اللهِ، بأنْ يتحقّقَ له الفلاح، باعتبار (عسى) للتّحقيقِ، أو أنْ يكون حالهُ المذكور - مع ما يعتري النّفسَ من النّزوعِ إلى النّقائص ممّا يستدعي عظيمَ المجاهدة - سببًا في أنْ يكون مِنَ المفلحين[1].

دلالةُ التّعبير بالفعل (عسى):

في التّحقيقِ يكمُنُ الفلاح للتّائبين من أكرمِ الأكرمين

(عَسَى) في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ إمّا للتَّحقيقِ على عادةِ الكرام واللّه أكرمُ الأكرمين، قال الفرّاء: "وكلُّ شيءٍ في القرآنِ من (عَسَى) فذُكِرَ لنا أنّها واجبةٌ"[2]، وفي هذا بشارةٌ للمسلمينَ على الإسلام وترغيبٌ للكافرين على الإيمان[3]، وزجرُهم عن الثّباتِ على الكفر[4]، وإنّما لمْ يقطع له بالفلاح؛ إيذانًا بأنّه لا يجب عليه لأحدٍ شيء، وأنّ كلَّ إحسانٍ يفعلُه، فإنّما هو على سبيلِ الفضلِ[5]، وليدومَ حَذَرُ هذا المؤمنِ التّائب، ويتّقي قضاءَ اللّهِ وقدرَه[6].

في التّرجي إشارةٌ إلى صعوبةِ الاستمرارِ على طريقِ الهدى إلا بعظيمِ المجاهدة

أو أنْ تكونَ للتَّرجّي مِنْ قِبَلِ التّائبِ، بمعنى: فَلْيَتَوَقَّعِ الفلاح، وليترجاهُ وليطمعْ به؛ فهي تَرَجٍّ لتَمْثيلِ حالِهم بحالِ مَنْ يُرجى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.
(2) الفراء، معاني القرآن: 2/ 309.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 654، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 320.
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 15/ 281.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/ 11.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.

منه الفَلاحُ[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى صعوبةِ الاستمرارِ على طريقِ الهدى إلا بعظيمِ المجاهدة؛ لأنّ النّفسَ نزّاعةٌ إلى النّقائص، مسرعةٌ إلى الدّنايا[2]. وفيه تعليمٌ للمؤمنين الأدبَ في القول حتى لا يجزموا في أمرٍ يتعلّقُ بالمستقبل، ولا سيما ما يتعلّقُ بالمصير يومَ القيامة، وخاصّة أنّه قدْ ورد أنّ المؤمنَ لا يدخلُ الجنَّة بعمله، وإنّما برحمةِ اللّه وفضلِه، قال ﷺ: «ما مِنْكُمْ أحَدٌ داخِلٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قيلَ: ولا أنْتَ يا رَسولَ اللّه؟ قالَ: «وَلا أنا، إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللّه بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ»[3].

أو أنْ يكون المعنى: عسى أنْ يكونوا كذلك إنْ داموا على التّوبة والإيمان؛ لجوازِ أنْ لا يدوموا[4].

زيادةُ توكيدِ لفلاحِ من تابَ وآمنَ وعملَ صالحًا

معنى ﴿أَن﴾ في جملة ﴿أَن يَكُونَ﴾:

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ حرفُ مصدرٍ ونصب، وهي والفعل بعدها مصدر مُؤَوَّلٌ في محلّ رفع خبر (عسى) عند من عدّها فعْلَ ماضٍ جامدًا[5]، والتّقدير: (فعسى هو كونَه من المفلحين)، وفي محلِّ رفعِ فاعل عند من عدّها فعلًا تامًّا[6]، والتّقدير: (فعسى كونُه من المفلحين).

وقد آثرَ البيانُ القرآني التّعبير بالمصدر المؤوَّل دون المصدر الصّريح (كونه)؛ ليُتيحَ صلاحيةَ الكلام لإفادةِ اعتبارٍ من شأنهِ أنْ يقوّيَ المعنى، ويزيدَ توكيده، وهو فلاحُ من تابَ وآمنَ وعملَ صالحًا بجعله متجدّدًا، فالمصدرُ المؤوَّلُ هنا جعلَ الكلامَ صالحًا لدخولِ

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 427، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 164.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.
(3) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، رقم: 10123.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 10.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 365، ودعاس، إعراب القرآن: 2/ 439.
(6) أحمد الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 3/ 902.

الفعل المضارع ﴿يَكُونَ﴾ على الجملةِ بما أعطاها من التجدّدِ والحدوث والاستمرار المستفادِ من الفعل، ولو وُضِع الاسم (كونه) بدلَ الفعلِ لفاتَ هذا الاعتبار.

دلالة التّعبير بالكون المضارع ﴿يَكُونَ﴾:

دلّ التّعبيرُ بالكونِ المضارع في قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ على التّأكيدِ على ثبوتِ فلاحِ من تابَ وآمنَ وعمِلَ صالحًا، ودوامِ هذا الفلاح، والمعنى: يتحقّقُ لمَنْ أقلعَ عن الشّرك وصرّح بالإيمان والعملِ الصّالح أنْ يَكونَ من المفلحين كونًا هو في غايةِ الثّبات والاستمرار[1]، وفي هذا تبشيرٌ للمؤمنين بتحقّق الفلاح من اللّهِ سبحانه.

مَنْ تحقّقَ بالتّوبةِ والإيمانِ والعملِ الصّالح تحقَّقَ له فلاحٌ في غايةِ الثّباتِ والاستمرار

معنى ﴿مِنَ﴾، ودلالة (أل) في ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ حرفُ جرّ، يفيدُ التّبعيض، ودخولُها على لفظ ﴿ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ أشَدُّ في إثباتِ الفَلاحِ مِن قوله: (أنْ يُفْلِحَ) أو يكون مفلحًا؛ لأنَّه يُفيدُ أنّهم مِن جُملةِ المفلحينَ وزُمَرَتِهم[2]؛ لأنّ التّعريفَ في ﴿ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ تعريفُ الجنس، فالإخبارُ عن التّائبين بأنّهم من المفلحين يفيدُ أنّهم من أفرادِ هذه الفئة التي تُعرفُ بفئةِ المفلحين؛ ولأنّ هذه الصّيغةَ ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ من قِبَلِ الكنايةِ التي هي إثباتُ الشّيء بإثباتِ ملزومه، وهي أبلغُ من التّصريح؛ لأنّ فيها شهادةً على أنْ يكون معدودًا في زمرتهم، معروفًا بأنّه منهم.

المبالغةُ في إثباتِ الفلاحِ للمؤمنين بعدِّهم من زمرة من عُرِفوا بالفلاح

دلالة التّعبير بمفردة الفلاح:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الفَلاحَ دونَ غيرِه في قوله: ﴿ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾؛ مناسبةً للسّياق، ومبالغةً في التّرغيب في التّوبةِ، والنّدمِ والإقلاعِ

مَن اتّصفَ بالتّوبةِ والإيمانِ والعملِ الصالح حريٌّ به أنْ يجمعَ خيري الدّنيا والآخرة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 338.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 164.

عن الكفرِ، والاتّصافِ بصفاتِ الكمالِ من التّوبةِ وصدقِ الإيمان والعملِ الصالح؛ لأنّ لفظَ الفلاح أجمعُ وأبلغُ من غيره؛ فلا يوجد كلمةٌ أجمعُ من لفظةِ الفلاحِ لخيرَي الدُّنيا والآخِرَة[1]، فالفلاحُ هو نيلُ الخَيْرِ والنّفعِ الباقي أثَره، ويُقال لمَنْ تكاملتْ فيهِ خلالُ الخَيْر: قد أفْلَح[2].

سِرُّ التعبير باسم الفاعل المجموع في قوله ﴿ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾:

من كمالِ نعيمِ الفلاحِ الثّبوتُ عليه والتمكّن فيه

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ باسم الفاعل ﴿ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾، ولم يقلْ: (أنْ يكون من الذين أفلحوا)؛ لِما تفيده صيغةُ اسم الفاعل من الدَّلالةِ على الثّبوت على الفلاح والتمكّن فيه، حتى صارَ وصفُ الفلاح لَهم شِعارًا يُعرفون به، وخاصّةً أنّه جاء في سياقِ جملةٍ اسميّةٍ تدلّ كذلك على الثّبوتِ والاستقرار، وهذا بخلافِ التّعبير بالفعل الماضي (أفلحوا) فإنّه لا يدلّ على ذلك، وإنّما يدلّ على الوقوع والتحقّق.

السّعيُ في تحصيل مقام الفلاح يُؤذِنُ بأفضليّته

وآثر كونه مجموعًا للدّلالة على كثرةِ المفلحين، وبيانِ فضيلةِ الفلاح حتى سعى الكثيرون إليه، بما يكون ترغيبًا للكافرين في الانضمام إليهم. وفي الجمع كذلك تناسبٌ مع السّياق الذي وردَ بصيغة الجمع: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ و﴿عَلَيۡهِمُ﴾، و﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ و﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾. وفيه أيضًا مراعاةٌ للفاصلةِ الغالبةِ التي تنتهي بالياء والنّون أو الواو والنّون.

دلالة حذف المقابل التّفصيليّ:

الاهتمام بفريق المؤمنين المفلحين والتّرغيب بأسبابِ فلاحهم

مقابلُ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ محذوفٌ، ويمكن أنْ يُقدَّرَ بعْدَ لفظةِ المفلحين، والتّقديرُ: (وأمّا منْ لم يتبْ ويؤمنْ ويعملْ صالحًا فهم في النّار خالدون)، أو أنْ يُقدّر قبله، والتّقديرُ: (هذا حالُ هؤلاء، فأمّا من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصّحاح، والزبيدي، تاج العروس: (فلح).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 211.

تابَ وآمنَ وعملَ صالحًا فعسى أنْ يكون من المفلحين)، وذلك لأنّ قوله ﴿فَأَمَّا﴾ أداةُ تفصيلٍ تَفْصِلُ بين شيئين في حكم، فلمّا ذكر أحدهما فُهم الآخر، وهو أنَّ غيرَ المؤمنين خاسرون في الآخرة. وفي هذا اختصارٌ يومئُ إلى الاهتمام بفريقِ المؤمنين المفلحين، والتّرغيبِ بالتّوبة والإيمان والعملِ الصّالح، والاستخفافِ والإبعادِ لفريقِ الخاسرين والتّحقير والتّنفير من الشّرك والكفرِ وفسادِ الأعمال.

الفروقُ المُعْجَميَّة:

الإجابة والطاعة:

الإجابةُ مراجعةُ الكلامِ موافقةً أو مخالفةً، والطاعةُ موافقةٌ وانقيادٌ وامتثال

الإجابةُ: مُراجَعَةُ الكَلامِ، تَقولُ: أجابَه عَنْ سُؤاله، والتّجاوب: التّحاوُرُ[1]، وقد تكون الإجابةُ بالموافقة، وقد تكون بالمخالفة، فالإجابةُ: أعَمُّ من القبول؛ لِأَنَّهُ عبارَة عَن قطع سُؤال السّائِل؛ والقطعُ قد يكون بترتيب المَقْصود بالسّؤال، وقد يكون بِمثل: (سَمِعت سؤالك وأنا أَقْضي حاجَتك)[2]. والإجابة تكون مع الأدعيةِ، يُقالُ: أجابَ دعاءه[3]، والإجابةُ من العبدِ للّه الطّاعةُ، فإذا كانت إجابةً بالقلب واللسان؛ فذاك هو الإيمانُ، وإجابةُ اللّهِ لعبده إعطاؤه إيّاه مطلوبه، لأنّ إجابةَ كلّ شيء على وفْقِ ما يليقُ به[4]. وأمّا الطّاعَة: فهيَ الموافقَة لِلْأَمْرِ، وهي الانقيادُ والامتثالُ، وأكثرُ ما تُقال في الائتمار فيما أمر، والارتسام فيما رسم[5]، والطّاعةُ تكون من الأدنى للأعلى. وناسبَ التّعبير هنا بالإجابة دون الطّاعة؛ لكونِ السّياقِ في توبيخِ الكفّار وتقريعهم يومَ القيامة، وذلك من خلال سؤالهم: ماذا كان جوابكم لمن أُرسلَ إليكم من المرسلين الذين دعوكم إلى عبادةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (جوب).
(2) الكفوي، الكلّيّات، ص: 51.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 419.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 226.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 583.

اللّه تعالى، وهل وافقتم أو خالفتم؟ وليس السّؤالُ عن طاعتهم لهم، فهم لم يؤمنوا بهم أصلًا.

التّوبة والأوبة والإنابة:

المغفرةُ من الشّرك تستدعي تركَ الذّنبِ لقبحهِ مع النّدمِ والعزمِ على عدمِ المعاودة

التوبةُ: تختصُّ بالرّجوعِ إلى اللّهِ بعد ارتكابِ ذنبٍ، وبالرّجوعِ عَنِ المَعْصيةِ إِلَى الطاعةِ[1]، والتَّوْبَةُ في الشّرعِ تكونُ مع شروطٍ معيّنة؛ وهي تركُ الذّنبِ لقبحه، والنّدمُ على ما فرّط، والاستغفارُ، والعزيمةُ على تركِ المعاودة، وتداركِ ما أمكنه أنْ يتداركَ من الأعمال[2]. والتَّوْبُ: تركُ الذّنبِ على أجملِ الوجوه، وهو أبلغُ وجوه الاعتذار. وأمّا الأوبة: فدلالتها أوسعُ؛ إذ هي رجوعٌ إلى اللّه، ولا يُشترطُ أنْ يكونَ الرجوعُ بعد ذنبٍ، ورجلٌ أوّابٌ: كَثيرُ الرُّجوعِ إلى حضرةِ اللّه تَعالَى، وتدلّ أيضًا على العودةِ إلى الأصلِ والحالة الأولى؛ فكلُّ شيءٍ رَجَع إلى مَكانِه فقد آبَ. ومن معاني الأَوْبُ: رجوعُ الشّيءِ إلى مستقرّه، والقَصْدُ والعادَةُ والاسْتِقامَةُ[3]. وأمّا الإنابةُ: فهي أبلغُ من التّوبةِ ومن الأوبةِ؛ إذ تختصُّ بالقربِ من اللّه تعالى، والرّجوعِ إليه مرّة بعد أخرى، ودوامِ الإقبالِ عليه، وعدمِ الخروج عن شيءٍ من أمره، وإخلاصِ العمل له[4]. وقد عبّر هنا بالتّوبة؛ لكونِ السّياقِ في سؤالِ المشركين عن شركهم يومَ القيامة، وهذا من أعظمِ وأقبحِ الذّنوب، ويُشترطُ للمغفرة منه النّدمُ والاستغفارُ والعزمُ على عدمِ الرّجوع لهذا الذّنب، وتداركِ ما أمكنه من أعمالٍ، وهذه هي معاني التّوبة.

الفلاح والفوز:

الفلاحُ فوزٌ ونجاةٌ مع بقاءٍ في النّعيم وهو ما يستحقّه المؤمنون في الآخرة

الفلاحُ أجمعُ وأوعبُ وأبلغُ من الفوز؛ إذ الفلاحُ هو الفوزُ والنّجاةُ والبقاءُ في النّعيم والخير، وليس في كَلامِ العَرَب كلِّه أجمعُ من لفظَةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (توب).
(2) الراغب، المفردات: (توب).
(3) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أوب).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نوب).

الفلاحِ لخيرَيِ الدُّنيا والآخِرَة[1]، فالفلاحُ هو نيلُ الخَيْر والنّفع الباقي أَثَره، ويُقال لمَنْ تكاملتْ فيهِ خلالُ الخَيْر قد أفْلح[2]. بينما الفوزُ: هو الظَّفَرُ بالخَيْر والأُمنية، والنّجاةُ من الشّرّ، يُقالُ: فازَ بِالخَيْرِ وفازَ مِنَ العَذابِ[3]، فالفوزُ هو حصولُ السّلامة والنّجاة من الشّرّ مع الظّفر بالخير[4]، فهو فكّ القيود للوصولِ إلى المحبوب[5]. وإيثارُ التّعبير بالفلاح في الآية دون الفوز؛ لأنّ من تابَ وآمن وعملَ عملًا صالحًا فقد تكاملتْ فيه خلالُ الخير، فاستحقَّ أنْ يكونَ مفلحًا، وأنْ يفوزَ بالنّعيمِ الأبديّ وهو الجنّة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (فلح).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 211.
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فوز).
(4) الرّاغب، المفردات: (فوز).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 210.

﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٨ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٦٩﴾ [القصص: 68 - 69]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

اللهُ هو صاحبُ الاختيارِ المطلقِ في تعيين الشّفعاء واصطفاءِ الأنبياء

بعد توبيخِ اللّهِ المشركينَ على اتّخاذ الشّركاء، ودعوتهم للشّفاعةِ والنّصرة؛ أبانَ تعالى أنّه هو صاحبُ الاختيارِ المطلق في تعيينِ الشّفعاء لا المشركون، وكذا في اصطفاءِ بعض العبادِ للرّسالة والنّبوّة، وتمييزهم عن غيرهم؛ لأنّه العالم بالخفايا والظّواهر، لا اختيارِ المشركين جهلًا وغباءً وضلالًا.

الأمرُ آيلٌ إلى حِكْمَةِ الله تعالى في خَلْقِ قُلوبٍ مُنْفَتِحَةٍ لِلاهْتِداءِ وقُلوبٍ قاسيَةٍ صَمّاء

بعد أنْ حَلَّ البيانُ القرآنيُّ حالَ المشركين بذكرِ حالِ الفريق المقابل؛ وهو فريقُ المؤمنين على طريقةِ الاعتراض؛ تمييزًا للأحوالِ بذكرِ أضدادها بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾؛ تمّمَ هذا الاعتراض بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ ببيانِ أنّ الأمرَ آيلٌ إلى التّفويضِ إلَى حِكْمَةِ اللّه تعالَى في خَلْقِ قُلوبٍ مُنْفَتِحَةٍ لِلاهْتِداءِ وقُلوبٍ غَيْرِ مُنْفَتِحَةٍ لَهُ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعۡلِنُونَ﴾: أصلُ (علن) يدُلُّ على إظهارِ الشَّيءِ والإشارةِ إليه وظُهوره[2]، يُقال: عَلَنَ الأمر يعلُنُ عُلونًا وعلانيةً، أي: شاعَ وظَهَرَ[3]، ولا يُقال أعْلَنَ إلّا للأمْرِ والكلام؛ واستَعْلَنَ يجوز في كلِّ شَيْءٍ، ومَعْناهما: أظْهَرَ[4]، والعَلانيَةُ: خلاف السرّ[5]، وأكثر ما يُقال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علن).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (علن).
(4) ابن عباد، المحيط: (علن).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (علن).

ذلك في المعاني دون الأعيان[1]. والمرادُ بالإعلان في الآية: الإظهار، أي: ما يظهرونه من الأفعال الخبيثة والطَّعن في الإسلام.

المَعْنى الإجْماليّ:

انفرادُ الله سبحانه بالإرادةِ المُطْلَقةِ؛ فلا مُعقِّبَ لحُكْمِه، ولا رادَّ لقضائه

يُبيِّنُ الله تعالى أنَّ مَرَدَّ الأمورِ جميعِها إليه، وأنَّه هو صاحبُ الخَلقِ والأمرِ، فيقولُ: وربُّك - يا مُحمَّدُ ﷺ - يخلقُ ما يشاء من خلقه بقدرته، ويختارُ منهم من يشاء بحكمته لطاعتِه وحملِ رسالته، على مقتضى عِلمه باستعدادهم لذلك، فليس للنّاسِ أن يَختاروا على اللّهِ أن يَفعَلَ ما يَشاؤون، بل اللّهُ يختارُ وحْدَه ما يَشاءُ، تَنزَّهَ اللّهُ وتقدَّسَ وارتفَعَ عن شِركِ المُشرِكينَ وكَذِبهم عليه؛ فهو وحْدَه المتفَرِّدُ بالخَلقِ والاختيارِ دونَ آلهتِهم الَّتي لا تَخلُقُ ولا تختارُ شَيئًا[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في جملة ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ﴾:

في العطفِ تفويضٌ إلى حكمةِ الله في خلقِ قلوبٍ منفتحةٍ للاهتداء وأخرى قاسيةٍ صمّاء

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ما قبله، أي لمّا كان كأنَّه قيل: ما لأهلِ القِسْمِ الأولِ - وهم المشركون - لا يَتَوَخَّوْنَ النَّجا من ضيقِ ذلك البَلا، كانَ الجواب: ربُّك منعهم من ذلك. أو: لِمَا لم يقطعْ سبحانه لأهلِ القِسْمِ الثاني - وهم المؤمنون - بالفلاح، كما قطعَ لأهل القسم الأول بالشّقاء؟ وكانَ الجواب: إنّ ربَّك لا يجبُ عليه شيء؛ عَطَفَ عليهِ - إشارةً إلى هذا الجواب - قولَه: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾[3]. أو أنْ يكون ظاهرُ عطفِ الآية على ما قبلها؛ كونَها من تمامِ الاعتراض الذي هو جملة ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، أي أنّ الأمرَ آيلٌ إلى التّفويض

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 582.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 303، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 307، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1800.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 339.

إلى حكمةِ اللّه تعالى في خلقِ قلوبٍ مُنفتحةٍ للاهتداء ولو بمراحل، وقلوبٍ غيرِ منفتحةٍ له، فهي قاسيةٌ صمّاء، وأنّه الذي اختارَ فريقًا على فريق[1].

دلالة التّعبير بالرّبوبيّة دون الأُلوهيّة:

للمُحسنِ في خلقه وللقادرِ في مُلكه أنْ يخصَّ مَن شاءَ بما شاءَ

في تعبيرِ البيانِ القرآنيّ بلفظِ الرّبوبيّةِ في قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ﴾ لفتةٌ مهمّة؛ إذْ في الرّبوبيّة ما لا يخفى من: معنى الرَّحمة والتَّربية والإشعارِ باللُّطفِ[2]، ومعنى الإحسان والعطاء؛ فهو مُحسنٌ بهذا الخَلْق سبحانه، ومعنى الملك، فهو المالكُ المطلقُ المنزّهُ عن النّفعِ والضّرِّ - فله أنْ يخصَّ من شاءَ بما شاء[3]. وهذه المعاني للرّبوبيّة تناسبُ المقصودَ من الآية، وهو أنّ الاختيارَ له وحده سبحانه، وأنَّه لا يختارُ لعباده إلا ما فيه الخير لهم، فهو أعلمُ بهم وبما يُصلحهم، إضافةً إلى أنّ عطاءَ الرُّبوبيّة - وهو هنا اختيارُ ما ينفعهم - يشملُ كلّ النّاس مؤمنهم وكافرهم، أمّا عطاءُ الألوهيّة فهو خاصٌّ بالمؤمنين الذين يتّبعون منهجَه سبحانه[4].

دلالة الإضافة في ﴿وَرَبُّكَ﴾:

عنايةُ اللهِ وإحسانُه إلى النّبيّ ﷺ اقتضتْ اختيارَه وتشريفَه بالرّسالة

في ذِكرِ اللّه تعالى بعنوانِ كونِه ربًّا للنَّبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾؛ دلالةٌ على عنايةِ اللّه ورعايتِه وإحسانِه بالنَّبيّ ﷺ على كلّ حالٍ، آمنَ مَنْ آمنَ وكفرَ مَنْ كفرَ، أي هو المحسنُ إليك، بموافقةِ من وافقكَ، ومخالفةِ من خالفك؛ لحِكَمٍ كِبارٍ، دقّتْ عن فَهْمِ أكثرِ الأفكارِ[5]. وللإشارةِ إلى تشريفه، وأنَّ اللّهَ اختارَه؛ لأنّه ربُّه وخالقُه فهو قدْ علم استعدادَه لقَبولِ رسالتِه[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 164.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/ 136.
(3) النّيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 355.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الراضي: 2/ 218.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 339.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.

كما أنّ في هذه الإضافة إظهارَ اللُّطفِ بالنّبيّ ﷺ والشَّفقةِ عليه، وخاصّة أنَّ سببَ نزول الآية هو رفضُ المشركين لرسالته، وطَلَبُهم رجلًا من القريتين؛ مكّة والطّائف.

نكتة تقديم الاسم على الخبر الفعلي:

انفرادُه تعالى بالخلقِ والتّقدير والاختيار؛ فلا نَظيرَ لَهُ فِي ذَلِكَ

تقديمُ المسند إليه (ربّك) على خبره الفعلي ﴿يَخۡلُقُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ﴾ يفيدُ القَصْرَ والحَصْرَ إنْ لوحظ سببُ النّزول، وهو أنّ المشركين أجابوا المرسلين بقولهم فيما حكاه اللّهُ عنهم ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31] يقصدون الوليدَ بن المغيرة من أهل مكّة، وعروةَ بن مسعود الثَّقفي من أهل الطّائف، فأنزل اللّه الآية، والمعنى: وربُّك وحده الذي يخلق، وربُّك وحده الذي يختارُ الرُّسلَ لا أنتم الذين تختارون من يُرسَلُ إليكم[1].

كما أنَّ التّقديم يحقّق الخبرَ، ويقوّي الحُكمَ، ويؤكّدُ المعنى في بيانِ ألّا عجبَ مع قدرةِ القادر، فهو لا يفتقرُ لأسباب؛ وذلك لتكرارِ الإسناد؛ فكأنَّ الحُكمَ هنا ذُكر مرّتين؛ مرّةً حين أُسندَ الفعلُ ﴿يَخۡلُقُ﴾ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسندَ إلى ضميره العائد إلى المبتدأ (ربّك)، ولو تأخّرَ المسندُ إليه فقال: (ويخلق ربك) لما تحقّق هذا التكرار.

دلالة التّعبير بالخلق وصياغته مضارِعًا:

الإبداعُ من العدمِ إلى الوجودِ يتفرّدُ اللهُ بالقدرة عليه

في استعمالِ لفظ الخَلْق في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ﴾ دلالةٌ على أنّه لا عجبَ مع قدرةِ القادر، فهو لا يفتقرُ في خلقٍ لأسبابٍ؛ لأنّ الخلقَ إبداعُ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، وليس هذا إلا للّه تعالى[2]، وهذا دليلٌ على كمالِ قدرته. وقد جاء الفعلُ بصيغةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 164.

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (خلق)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 566.

المضارعة التي تدلّ على التّجدّدِ والحدوث؛ لإفادةِ تجدّد الخلقِ، فهو خَلْقٌ لا ينقطعُ، فهو خالقُ كلِّ شيءٍ سبحانه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر: 62].

معنى ﴿مَا﴾ في جملة ﴿مَا يَشَآءُ﴾:

من كمالِ قدرةِ الله كونُه خالقَ كلّ شيء

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ اسمٌ موصولٌ في محلِّ نصْبِ مفعولٍ به[1]، يفيد العموم[2]، وصلتُه جملةُ ﴿يَشَآءُ﴾، والضّميرُ في ﴿يَشَآءُ﴾ عائدٌ إلى اللّه، والمعنى: وربُّك يخلقُ كلّ شيء يشاءُ اللّهُ أن يخلقه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ [الأنعام: 102]. وتَحْتَمِلُ أنْ تكون بمعنى (مَنْ)، والمعنى: يخلقُ مَنْ يشاء، أو بمعنى (كيف) فتكون معمول ﴿يَشَآءُ﴾، والمعنى: يخلقُ كيف يشاء[3].

نكتةُ حذف مفعول المشيئة:

وجودُ المشيئةِ يلزمُ منه وجودَ المُشاء

حذفَ البيانُ القرآنيّ مفعولَ المشيئة في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ للإيجاز، وإنّما كَثُر حذْفُ مفعول المشيئة دون سائر الأفعال؛ لأنّه يلزمُ من وجودِ المشيئة وجودَ المُشاء، والتّقدير: (وربُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاء أنْ يخلقَه).

نكتة التّعبير بالمشيئة دون الإرادة:

مشيئةُ اللهِ في الخلقِ تقتضي وجوده

عبر البيانُ القرآنيُّ بلفظ المشيئة دون الإرادة في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾؛ لكون المشيئةِ أنسبَ للسّياق الذي ورد فيه لفظُ الخلق والاختيار؛ إذ المشيئةُ مِن اللهِ تقتضي وجودَ الشّيء، وأمّا الإرادة منه لا تقتضي وجود المُراد[4].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 365.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 147.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (شيأ).

دلالة المضارعة في ﴿يَشَآءُ﴾:

خلق الله مستمرٌّ ومتجدّدٌ يعكسُ قدرةَ اللهِ المطلقة على الخلقِ في أيّ وقتٍ يشاء

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في ﴿يَشَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يدلُّ على أنَّ خلقَ اللّه مستمرٌّ ومتجدّدٌ، وليس محصورًا في زمنٍ معين؛ فاللّهُ يخلقُ في كلّ لحظةٍ ما يشاءُ من مخلوقاتٍ وأحداث، وهذا يعكسُ قدرةَ اللّهِ المطلقة على الخلقِ في أيّ وقتٍ يشاء، ممّا يعزّزُ مفهومَ القدرةِ الإلهيّة غير المحدودة. كما أنّ التَّعبير بالمضارعة يجعلُ النّص القرآني متفاعلًا مع الزّمن، حيث يشعرُ القارئ بأنَّ هذه القدرة الإلهيّة حاضرةٌ ومستمرةٌ في كلِّ لحظة.

معنى (الواو) في قوله ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾:

من يملكُ الخَلْقَ يملكُ الاختيار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ بجامعِ كون اللّه تعالى المنفردَ بالخلقِ والاختيارِ دون منازعٍ ولا معقّبٍ، وكونه هو الخالقُ، فهو أعلمُ بمخلوقاته، وبما يُصلحهم ويصلحُ منهم لأداء ما يكلّفهم به من تبليغِ الرِّسالة، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14].

نكتة تقديم الخلق على الاختيار:

مَنْ ليس إليه شيءٌ من الخَلْقِ فما له وللاختيار

الابْتِداءُ بقولِه: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تَمهيدٌ للمَقصودِ، وهو قولُه: ﴿وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ أيْ: كما أنَّ الخَلْقَ مِنْ خَصائصِه، فكذلكَ الاخْتيار، فهو أعلمُ بمخلوقاتِه، وأعلمُ بما ينفعُهم، وأعلمُ حيث يجعلُ رسالاتِه(1).

دلالة التّعبير بمفردة الاختيار وصياغته مضارعًا:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الاختيارِ دون غيره كالانتقاءِ والاصطفاء والاجتباء؛ لِما يتضمّنُه هذا اللفظُ من الإشارة إلى أنّ ما انتقاهُ اللّهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.

ما انتقاهُ اللهُ واجتباهُ هو الخيرُ كلّه لحكمتِه المطلقةِ وعلمِه المحيط

واجتباه هو الخيرُ والصّلاح، وهو الأفضلُ من غيره؛ لأنَّ الاختيارَ في اللغة طلبُ ما هو خيرٌ وفعله[1]، ويأتي بمعنى التّفضيل[2]، وهذا فيه مزيدُ تطمينٍ وتسليةٍ للنّبيِّ ﷺ، وتعريضٍ وتبكيتٍ للمشركين؛ إذ يُعرِضون عن الخير الذي اختاره اللّه لهم مِنَ الإيمانِ وإرسالِ الرّسل. كما أنَّ التّعبير بالاختيار يتناسبُ مع السّياق الذي ورد فيه لفظُ ﴿ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ سواء كان بمعنى الاختيار أو الخير، والذي يتحدث كذلك عن كمالِ قدرةِ اللّهِ وحكمتِه المطلقةِ، واتصافِه بالعطاء والإنعام والتّربية في ﴿وَرَبُّكَ﴾، وبصفات الجلال والجمال والكمال وتنزّهه عن كلّ نقص في خلقه واختياره في ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ﴾، فهو يختارُ سبحانَه الأفضلَ والأصلحَ في كلّ شيءٍ.

الخيرُ مستمرٌّ ومتجدّدٌ مِن الله سبحانه

وقد صاغَ فعْلَ الاختيارِ بصيغة المضارع؛ للدّلالةِ على أنّ الخيرَ من اللّه سبحانه مستمرٌّ ومتجدّدٌ، لا ينفكُّ عن كلِّ ما يختارُه لعبادِه.

نكتة حذف مفعول ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾:

إذا تساوى الذِّكْرُ والحذفُ فالحذفُ أبلغ

حُذفَ مفعول ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾؛ اختصارًا؛ لدلالةِ ما قبله عليه، والتّقدير: (وربُّك يخلقُ ما يشاء أنْ يخلقه، ويختارُ ما يشاءُ اختياره من غير إيجابٍ عليه، ولا منعٍ له أصلًا)[3]، وهذا على الوقف على ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾ وعَدِّ ﴿مَا﴾ نافيةً، لا موصولةً في محلِّ مفعول به للفعل ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾.

معاني ﴿مَا﴾ في جملة ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾:

تحتمل ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ وجهين:

نفيُ اختيارِ الخلقِ تقريرٌ لاختيارِ الحقِّ سبحانَه

الأول: أنْ تكون نافيةً، والخيَرةُ من التَّخَيّر، وهي بمعنى الاختيار،

(1) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خير).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خير).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 22.

والمعنى: ليس لأحدٍ من خلقه أنْ يختارَ عليه[1]، فنفيُ اختيارِ الخلقِ تقريرٌ لاختيارِ الحقّ[2]، ويكون تمامُ الوقف على قوله: ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾، وهو الأرجح[3]؛ لأنّ المقامَ في بيانِ انفراده تعالى بالخلق والتّقدير والاختيار، وأنَّه لا نظيرَ له في ذلك[4].

اختيارُ اللهِ للعبادِ لا يكونُ إلا لِما فيه الخيرُ لهم

الثّاني: أنْ تكونَ موصولةً؛ مفعولًا لفعلِ ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾[5]، وعائدُ الموصول مجرور بـ(في)، وهما محذوفان، وأصلُ الكلام: ما كان لهم فيه الخيَرة، فحُذف (فيه)؛ لأنَّه مفهومٌ،"ومعنى الخيَرَةِ على هذا: الخيرُ والمصلحةُ"[6]، والتّقديرُ: (ويختارُ الذي لهم فيه الخيَرة)، أي: يختارُ للعبادِ ما هو خيرٌ لهم وأصلح، وهو أعلمُ بمصالحهم من أنفسهم، فيختارُ لهم من الرّسلِ ما يعلمُ أنّه صالحٌ لهم لا ما يريدونه من رجالهم[7]. وفي الآية إشارةٌ إلى صلاة الاستخارة؛ إذ لا ينبغي لأحدٍ أنْ يُقدمَ على أمرٍ من أمورِ الدّنيا حتى يسألَ اللّهَ الخيرةَ في ذلك.

عِلّة فَصْل ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾:

تأكيدُ قصْرِ الاختيارِ على الله وحده فليس لأحدٍ أنْ يختارَ على الله

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ قوله ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ عمّا قبله - على احتمال أنّ ﴿مَا﴾ نافية -، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينهما من كمالِ اتّصالٍ؛ إذ جاء قوله ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ بيانًا لقوله ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾؛ لأنّ معناه أنّ الخيرةَ للّه تعالى في أفعاله، وهو أعلمُ بوجوه الحكمةِ فيها، ليس لأحدٍ من خلقه أنْ يختارَ عليه[8]. أو أنّه تأكيدٌ لمعنَى القَصْرِ؛

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 427.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 654.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 11.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 251.
(5) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 430.
(6) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 118.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 427، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.
(8) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 427.

لِئَلّا يُتَوَهَّمَ أنَّ الجُملةَ قَبْلَه تفيدُ تقوّي الحكم فقط[1]، بل تؤكّدُ قصْرَ الاختيار للّه وحدَه، وأنّه ليس لأحدٍ أن يختارَ على اللّه، أو أنْ يعترضَ على اختيارِه وحكمه.

دلالة التّعبير بالكون الماضي ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾:

دلّ التَّعبيرُ بصيغةِ الكون الماضي ﴿مَا كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ على المبالغةِ في نَفْي أنْ يكون لأحدٍ الخيَرَةُ على اللّهِ، أو أنْ يعترضَ على اختياره؛ لأنّ النّفيَ بهذه الصيغة أشدُّ ممّا لو قيلَ: ما لهمُ الخيرَةُ[2]؛ لأنَّ فعْلَ الكونِ يفيدُ الدّوامَ والاستمرارَ، والماضي يدلُّ على التّحقّقِ والوقوع.

المبالغةُ في نفي الخيَرَةِ عن واحدٍ من الخلق تأكيدٌ لكونها للحقّ سبحانه

نكتة تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُمُ﴾:

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم، بتسليطِ الضّوءِ على الفكرة الرّئيسيّة؛ وهي نفيُ ملكهم للاختيارِ على اللّهِ، أي أنَّ الخيَرَةَ ليستْ لهم، أي نفيُ ما يريدونه ويُصِرّون عليه من أنْ تكون لهم الخيَرَةُ في الرّسول المرْسَلِ إليهم من قِبَلِ اللّهِ سبحانه.

الاهتمامُ بتأكيدِ نفي ملكِ المشركين الاختيار على الله

معنى اللام في ﴿لَهُمُ﴾:

لام ﴿لَهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ للمِلْكِ، أي: ما كانوا يَمْلِكونَ اختيارًا في المَخلوقاتِ حتَّى يقولوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، ونَفْيُ المِلْك عنهم مُقابِلٌ لقولِه: ﴿مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنّ ﴿مَا يَشَآءُ﴾ يُفيدُ مَعنى مِلْكِ الاخْتيار[3].

نفيُ المِلْكِ عَن المخلوقين يسلبُهُمُ القدرةَ على الاختيارِ على الله

دلالة التّعبير بمفردة ﴿ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾:

الخيَرَةُ اسمٌ لمصدرِ الاختيار، مثل الطّيَرَةِ اسم لمصدر التَّطَيُّرِ[4]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 430.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 165.

وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ هذا اللفظ للدّلالة على سوءِ حالِ المشركين؛ إذ بالغَ في نفيِ الخيرِ والصّلاح عمّا يطلبونه من أنْ يكونَ الرّسولُ أحدَ رجلين من مكة والطّائف، أو أيّ شيءٍ آخرَ ليس من صلاحياتهم كمخلوقين؛ لأنّ الاختيارَ في اللغة من الخير[1]، والاختيارُ انتقاءُ الأفضل[2]، وهذا لا يستطيعُه إلا من له الملكُ المطلقُ والعلمُ المحيطُ لا مخلوقٌ ضعيفٌ غارقٌ في الضَّعف والجهل، فاختيارُ اللّهِ تعالى للأفضلِ والأصلحِ لخلقه يتوافقُ مع حكمتِهِ المطلقةِ وعلمه الواسع.

في نفيِ الخيَرَةِ عن المشركين منطوقًا إثباتها لمن له الملك المطلق والعلمُ المحيط مفهومًا

دلالة تعريف ﴿ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾:

لامُ تعريف ﴿ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ إمّا أنْ تكون عهديّةً، باعتبار أنّ الخيَرَةَ اسمٌ لمصدر الاختيار، و﴿مَا﴾ نافية، والمعنى: ما كان لهم الاختيارُ المعهودُ بأنّه للّه وحده، كالاختيار في المخلوقات أو الاختيار على اللّه سبحانه؛ لأنّ للعقلاء اختيارًا يُحاسبون بسببه. أو أنْ تكون جنسيّةً تَدُلُّ على العموم، باعتبار أنّ الخيرَة هي الخيُر والمصلحةُ، وأنّ ﴿مَا﴾ موصولية، والمعنى: ويختارُ الذي لهم فيه كلّ خيرٍ وصلاحٍ.

لامُ التّعريف جنسيّةٌ تعمُّ كلَّ خيرٍ وصلاحٍ أو عهديّةٌ تختصّ باختيارٍ ليس للمخلوقِ

علة فصل جملة ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ﴾:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعه استِئنافًا ابتِدائيًّا؛ لإنْشاءِ تَنزيهِ اللّهِ وعُلوِّه على طريقةِ الثّناءِ عليه بتَنَزُّهِه عن كلِّ نَقْصٍ، فهي منقطعةٌ عن التي قبلها في التّركيب والمعنى، وهي مُعترضةٌ بينَ المُتعاطفَيْن[3]، تفيدُ مع الثّناءِ على اللّه، وتشنيعِ فعْلِ المشركين - من منازعةِ اللّه بإسناد الخلق إلى غيره، أو في اختيار أنبيائه - توكيدَ كمالِ قدرته في الخَلقِ والاختيار، والتّصريحَ بأنّ صنيعَهم هو عينُ الشّركِ المناقضِ للتّوحيد.

منازعةُ الله بإسنادِ الخلقِ إلى غيرِه أو في اختيارِ أنبيائه هو عينُ الشّرك

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير).
(2) الزّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خير).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.

غرض التّسبيح في قوله ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾:

تتمثّل غايةُ تسبيح اللّهِ لذاته العليّة في ختام هذه الآية السَّنيَّةِ بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ في أمرين:

تنزيهُ اللهِ عن أنْ ينازعَه أحدٌ أو يزاحمَ اختيارَه اختيارٌ

الأول: التّنزيهُ؛ أي: تنزَّهَ الجامعُ لصفاتِ الكمالِ عن أنْ يختارَ أحدٌ شيئًا لا يريده فيصِلَ إليه، أو يقعَ بوجه عليه[1]، أو تنزَّهَ من أنْ يُشْرَكَ به من الأصنام أو الأنْدادِ التي لا تَخلُقُ ولا تختارُ شيئًا؛ بناءً على أنّ المقامَ في بيان انفرادِ اللّه بالخلقِ والتّقدير والاختيار، وأنّه لا نظيرَ له في ذلك؛ إذ المشاركةُ توجبُ المساواةَ، ولا مساواةَ بين مَن خَلَقَ وقدّر واختارَ وبين من لا يستطيعُ خلقًا ولا يملكُ تقديرًا ولا اختيارًا[2]. أو تنزَّهَ عن شركهم باللّه؛ بناءً على أنّ الدافعَ لهؤلاء المشركين في اقتراحهم واختيارهم وإعراضهم عن اختيار اللّه هو شركُهم به.

وهذا التَّنَزُّهُ يدلُّ على أنّ غايةَ أمرِهم في ذلك إنّما هو ما امتزجتْ به نفوسُهم من ضلالاتِ شركهم وأهوائِهم وجهلِهم بقدَرِ اللّهِ وحقيقته[3].

إشراكُهم من يضرُّهم بمن يُريدُ لهم كلَّ خيرٍ أمرٌ يستدعي العَجَبَ

والثّاني: التّعجّب مِن إشْراكِهِمْ مَن يضُرُّهم بِمَن يُريدُ لهم كلَّ خيرٍ، ﷻ عن ذلك، وهو علَى احْتِمالِ كَوْنِ ﴿مَا﴾ فيما تقدّم موصولةً مفعولَ ﴿وَيَخۡتَارُۗ﴾، والمَعْنَى: ويختارُ ما كان لهم فيه الخير والصّلاح. أو التّعجّب من اخْتيارِهِمْ شُرَكاءَهُمُ الّذينَ أعَدّوهم لِلشّفاعَةِ، وإقْدامِهِمْ على ما لَمْ يكنْ لهم[4].

نوع الأسلوب في جملة ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ﴾ وغرضه:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 341.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 251.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 13/ 112.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 312.

نائبُ مفعولٍ مطلق للفعل (أُسبّحُ)، وأصلُ الكلام: أُسبّحُ اللّه تسبيحًا، ولكنْ حُذفَ عاملُ المفعولِ المطلق؛ لأنّ المصدرَ وهو المفعول المطلق جاءَ بدلًا عنه، ولا يجوزُ الجمعُ بين البدلِ والمُبْدَلِ عنه.

الاحتباكُ حُسْنُ إيجازٍ في التَّعبير وغايةٌ في التّأكيدِ على تنزيهِ الله وعلوّه

فالقرآنُ أتى في الجملة الأولى ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بالمصدر ﴿سُبۡحَٰنَ﴾؛ ليدلَّ على الفعل، وأتى في الثّانية ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ بالفعل ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ ليدلَّ على المصدر، أي: تعالى علوًّا، وهذا احتباكٌ يدلُّ على حُسْنِ وجمالِ الإيجازِ في التَّعبير، ويحقّقُ تكاملَ المعنى ويعزّزُه، وهو تنزيهُ اللّه وعلوّه.

موقع جملة ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ﴾ الإعرابيُّ:

اعتراضٌ مؤكِّدٌ لكمال القدرة والاختيار على طريقةِ الثّناء أو التّعجّب

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ بين جملتين؛ بينَ ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ و﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾، جاءت تنزيهًا للّه سبحانه؛ أي: تنَزَّهَ بذاتِه تنزُّهًا خاصًّا به من أنْ ينازعَه أحدٌ في الخلق، أي ألا يستحي هؤلاء الذين يُسندِون الخلق لغيره؟ سبحان اللّه!. أو من أنْ يزاحمَ اختيارَه اختيارٌ[1]، أي ألا يستحي هؤلاء الذين يريدون أنْ تكون لهم الخيَرَةُ دون اللّه؟ سبحان اللّه!، وألا يستحي هؤلاء الذين يبغضون رسولَ اللّه ﷺ؟ سبحان اللّه!

سرُّ إضافةِ التّسبيح لاسم الله:

إبرازُ استحقاقِ الله التّنزيهَ بذاته التي لها صفاتُ الجلال والجمال والكمال

أُضيفَ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ إلى اسمِه العَلَمِ بَعْدَ أنْ قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ﴾ دون الإضافة إلى الضّمير، فلم يقل: (سبحانه)؛ لأنَّ اسمَ الجلالةِ مُخْتَصٌّ به تعالى، وهو مُستَحِقٌّ للتَّنْزيهِ بذاتِه؛ لأنَّ استِحْقاقَ جَميعِ المَحامِدِ ممّا تَضمَّنَه اسمُ الجلالةِ في أصلِ معناهُ قبْلَ نَقْلِه إلى العَلَميَّةِ[2]، فكان العدولُ عن التّعبير بالضمير الذي يعودُ إلى لفظ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 23.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.

الرّبوبيّة الذي هو أكثرُ تعلّقًا بالعطاء والإنعام والتّربية إلى الاسم الجليل (اللّه)؛ لإبرازِ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، ولاستحقاق اللّه التّنزيه بذاته.

معنى (الواو) في قوله ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾:

في العطفِ تأكيدٌ على تنزيهِ اللهِ بجميعِ الألفاظِ التي تفيدُ ذلك

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بجامع أنّ كليهما بيانٌ لعلوِّ مقام اللّهِ ﷻ، ولكنّ الأوّلَ تنزيهٌ للّه تعالى عمّا يقولون ويفعلون ممّا لا يليق به، وهو مصدرٌ لفعلٍ محذوف، والثّاني تقديسُ اللّه عمّا أضافَ إليه المشركون من الشّرك، وما تخرّصوه من الكذب والباطل عليه، وهو فعلٌ لمصدرٍ محذوف، أي تقاربُ مَدْلولَيْهما يجعلُ في العطف تأكيدًا على تنزيه اللّه الجامعِ لصفات الكمال بجميع الألفاظ التي تفيدُ ذلك.

دلالة التّعبير بالعلوّ والمُضيّ في قوله ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾:

المتّعالي سبحانه لا يضرُّه شركُ المشركين

﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ فعلٌ ماضٍ، ومعنى العلوّ: الارتفاع، ويُرادُ به هنا: (التّعالي عَنْ كلِّ نقصان)، والشّرك نقصٌ لا يليقُ باللّه تعالى؛ لكونه الخالقَ لهذا الكون المدبّر لأمره، والمعنى: سَما وتقدّس وتعاظمَ سبحانَه عن شركِ المشركين، وأنْ يكونَ له شريكٌ؛ بما له من الإحاطة بأوصاف الكمالِ التي ليستْ لغيره، أي فَعَلَ فِعْلَ المبالِغ في التّنزُّه، بما يشيرُ إلى أنّ اللّه لا يضرُّه شِرْكُ المشركين، وإنّما يضرّون أنفسهم.

تحقّقُ تعالي الله وتَعاظُمِهِ عن شِرْكِ المشركين

والتّعبير بالماضي يؤكّدُ تحقّقَ تعالي اللّهِ وتعاظمِه عن شِرْك المشركين؛ فهو لا يضرّه شركُهم مهما أوْغَلوا فيه واستمرّوا عليه، ويَجعلُ القارئَ والسّامعَ يتأمّلُ في عظمةِ اللّه وعلوِّه على كلِّ ما يشركون به.

معنى (عن) في قوله ﴿عَمَّا﴾:

مجاوزةُ بُعْدٍ تعزّزُ توحيدَ اللهِ سبحانه

حرف الجرّ (عن) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يفيدُ المجاوزةَ، وهي أشهر معانيه، أي ارتفعَ عن إشراكهم، أو عن مشاركة الذي يشركونهم، بمعنى البُعد والتّنزيه بما يُعزّز معنى التّوحيد.

معنى (ما) في قوله ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾:

تنزيهُ الله عن الشّركِ أو الشّركاء

(ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ مصدريةٌ أي: تعالى عن إشراكهم[1]، أو موصوليّة بتقدير مضاف، أي: عن مشاركةِ الذي يشركونَه به[2]، أو تعالى عن الذي يشركون به[3] من الأصنام والأنداد، التي لا تخلقُ ولا تختارُ شيئًا[4]، والموصوليةُ تفيدُ العمومَ، أي تنزّهَ اللّهُ عن كلِّ الذي يشركون به.

دلالة التّعبير بالإشراك وصياغته مضارعًا في ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

ذمُّ الله المشركين وتقريعُهم وبيانُ علّة تنزيهه سبحانه

وَصَمَ اللّه مَنْ نازَعَه بإسناد الخلق إلى غيره أو في اختيار أنبيائه بالشّرك في قوله ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، ولم يقل: (عمّا يفعلون أو يقولون)؛ ذمًّا لهم وتقريعًا على شركهم؛ لأنّ الشّرك أصلُ كلّ شرٍ ومنكرٍ، كما أنّ التّوحيد أصلُ كلِّ خيرٍ ومعروفٍ، وعليه تُبنى الأعمال الصّالحة، فإنْ هُدم التَّوحيد بالشّرك هُدِمَ البناءُ كلّه، ولا خيرَ في عملٍ بعدَه. كما أنّ في التّعبير بالشّرك كذلك إشارةً إلى علّة تنزيه اللّه، والحكم بعلوّه، وكذلك تناسبًا مع السّياق الذي ورد فيه إنكارُ اللّه على المشركين في قوله ﴿فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ و﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ﴾.

المبالغةُ في تنزيه اللهِ عن كلّ نقصٍ تلازمُ إيغالَ المشركين في شركهم حالًا بعد حال

وعبّرَ بصيغة المضارع التي تفيدُ التّجدّد والحدوث؛ للدّلالةِ على استمرارهم في هذا الشّرك، وإيغالِهم في إحداثِ أصنافٍ منه حالًا بعد حال، واقترانُ هذه الصّيغة مع التّسبيح والتّقديس يدلُّ على عموم التّنزيه لجلالِ اللّه من كلّ ما يُشركون من الأصنام والأنداد في الحال والاستقبال، أي في كلِّ وقتٍ ظهرَ منهم الإشراكُ وسوءُ الاعتقاد.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 23، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 23.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 611.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 251.

لطيفة حذفِ مفعول ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

تنزيهُ الله تعالى عن كلّ مظاهر الشّرك

حَذَفَ البيانُ القرآنيّ المفعولَ في قوله: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ لإفادةِ العموم، أي تنزَّه اللّه وتعالى عن كلّ نوعٍ ومظهرٍ من مظاهرِ الشّرك، وتعالى عن كلِّ الذين يشركونهم في العبادة من الأصنام والأنداد، التي لا تخلقُ ولا تختارُ.

بلاغة تقييد التّنزيهِ والتّرفيعِ بـ (ما يُشْرِكونَ):

لم يَجترِئْ أحَدٌ أنْ يَصِفَ اللهَ بما لا يَليقُ به إلّا أهْلُ الشِّرْكِ

قيّدَ البيانُ القرآنيُّ التّنزيهَ والتّرفيعَ بـ (ما يُشْرِكونَ)؛ للإشارةِ إلى قُبْحِ الشّرك والمشركين؛ بأنّه لم يَجتَرِئْ أحَدٌ أنْ يَصِفَ اللّهَ تعالى بما لا يَليقُ به ويَسْتحيلُ عليه إلّا أهْلُ الشِّرْكِ - بزَعْمِهم أنَّ ما نسَبوه إلى اللّهِ إنَّما هو كَمالٌ، مِثْلُ اتِّخاذِ الوَلَدِ، أو زعمهم أنَّ الآلهةَ شُفَعاؤُهمْ عندَ اللّهِ، أو قولهم في تلبيتهم، كما روى ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "كان المشركون يقولون: (لَبَّيْكَ لا شَريكَ لَكَ)، فيقول رسولُ اللّهِ ﷺ: «وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ»، فَيقولونَ: إلّا شَريكًا هوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ)، يَقولونَ هَذا، وهُمْ يَطوفونَ بِالبَيْتِ"[1]، ولأنّ السّياقَ هو حديثٌ عن بطلانِ الشِّرك وما اتّخذوه من شركاء.

معنى (الواو) في جملة ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ﴾:

كمالُ قدرةِ الله لكمالِ علمه المحيط

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾، أيْ هو خالِقُهُم ومُرَكِّبُهُم على النِّظامِ الَّذي تَصْدُرُ عنه الأفعالُ والاعتِقاداتُ فيكونون مستعدّين لقَبولِ الخير والشّرّ، وتغليبِ أحدهما على الآخر اعتقادًا وعملًا، وهو يعلمُ ما تُخفيه نفوسهم وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم، فبِحَسَبِ ما يَعْلَمُ منهم يختارُهم ويُجازيهم؛ فحَصَل بهذا إيماءٌ إلى عِلَّةِ الاخْتيارِ، وإلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، حديث رقم: (1185).

الوَعْدِ والوَعيدِ، وهذا مُنتَهَى الإيجازِ[1]، أيَ أنَّ اختيارَ من يختارُ منهم للإيمانِ به على عِلْمٍ منه بسرائرِ أمورهم وبواديها، وأنّه يختارُ للخيرِ أهلَه، فيوفّقهم له، ويولي الشّر أهله، ويخلّيهم وإيّاه[2].

فائدة مجيء لفظ الرّبوبيّة وإضافته إلى ضميره النبيّ:

في إحْضارِ الجلالةِ بعنوان ﴿وَرَبُّكَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ممّا تُكِنُّهُ صُدورُهُم بُغْضَ محمَّدٍ ﷺ[3]، ولذلك عبّرَ البيان القرآنيّ بلفظِ الرّبوبيّة (رَبُّكَ) الذي يدلُّ على الملكِ والتّربيةِ والرّعايةِ والعنايةِ، وأضافَهُ إلى ضميرِ النبيّ ﷺ؛ تسليةً له، وتخفيفًا عنه، وأنّه في عنايةِ اللّهِ وحمايتِه وإحسانِه، فهو "المحسِنُ إليك المتولّي لتربيتك"[4]؛ بحمايتِك مِنْ كيدِ الكافرين الذين كفروا بنهجك وشريعتك[5]، بما يومئُ بتوبيخِهم؛ لكفرِهم بنهجٍ أتى به رسولُ اللّهِ مِنْ عنْدِ ربّه.

إعلانُ اللهِ عنايته برسولِ اللهِ تطمئنُّ له ممّا يلاقيه من عداوةٍ خفيةٍ أو ظاهرة

دلالة خطاب المفرد في ﴿وَرَبُّكَ﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بخطابِ المفردِ في ﴿وَرَبُّكَ﴾، ولم يقلْ: (وربُّكم)؛ ليكونَ الخطابُ للنَّبي ﷺ لا للمشركين؛ تكريمًا للنبّيّ ﷺ، وتشريفًا له، وتعريضًا بالمشركين.

خطابُ تكريم للنّبيّ ﷺ وتشريفٍ له وتعريضٍ بالمشركين

نكتة تقديم الاسم على الخبر الفعلي في ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ﴾:

في تقديمِ المسند إليه (رَبُّكَ) على خبرِه الفعلي ﴿يَعۡلَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ﴾ قصرٌ وحصرٌ، أي هذا العلم الذي يجتهدون في إخفائه - مستمرّين على ذلك أو يعلنونه - مقصورٌ على اللّه ولا يستطيعه أحدٌ غيرُه، بما يدلُّ على كمالِ قدرةِ اللّه في الخلق والاختيار، لأنَّ "القدرةَ لا تتمُّ إلا بالعلم"[6]، كما أنّ التَّقديم يحقّقُ

عِلْمُ اللهِ لمكنوناتِ النَّفسِ وما تُعلنُه مقصورٌ على اللهِ لا يستطيعُه أحدٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 612.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 341.
(5) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 10993.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 341.

الخبرَ، ويقويّ الحكمَ ويؤكّدُ المعنى، وذلك لتكرارِ الإسناد؛ ولو قال: (ويعلَمُ ربّك) لما تحقّق هذا التّكرار، فكأنّ الحكْمَ هنا ذُكر مرّتين.

دلالة التّعبير بالعِلْم وصياغته مضارعًا في ﴿يَعْلَمُ﴾:

إحاطتُه سبحانه بكلِّ شيءٍ دليلٌ على حقيّةِ اختيارِه لكلِّ شيءٍ

وَصْفُ اللّهِ سبحانه بعلمه للأسرارِ والظّواهر، ووصْفُ هذا العِلْم بأنّه علْمٌ تامٌّ متجددٌ مستمرٌ لا يعزُبُ عنه، ومعلومٌ من الظّواهر والبواطن والبدايات والنّهايات قبل البَدْءِ والمُنْتَهى؛ يدلُّ على أنّ صاحبَ هذا العِلْم هو الذي يختارُ لا غيره؛ فإحاطتُه بكلِّ شيءٍ دليلٌ على اختيارِه لكلِّ شيءٍ، أمّا الذي لا يعلمُ ما يُكنُّه أخوه في صدره، بل ولا عاقبةَ ما يُظهره آخرُ إلى جنبه، فكيف يَصِحُّ منه الاختيار، أو تكون له خيَرَةٌ في شَيءٍ؟![1]، وفيه كذلك وعيدٌ للمشركين وتنبيهٌ لهم؛ ليكونوا على حَذَرٍ في ما يُسرّون وما يعلنون[2]، وفيه تطمينٌ للنبيّ ﷺ[3].

معنى ﴿مَا﴾ في جملة ﴿مَا تُكِنُّ﴾:

عِلْمُهُ بكلِّ ما تُكنُّهُ الصّدور دليلٌ على صحّةِ اختيارِه

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ موصوليّةٌ بمعنى الذي، تفيدُ العمومَ، أي: ربُّك المحسنُ لك بالرّعاية والحفظ يعلمُ كلَّ ما تضمره صدورُ المشركين، بما يُعدُّ من الأدلّة على صحّة اختياره، ويؤمئُ بتخويفهم؛ فاللّهُ يعلمُ كلَّ ما اجتهدوا في إخفائه، وبالمقابل يومئُ بتطمينِ النبيّ ﷺ والمؤمنين.

سرُّ التّعبير بالكِنِّ وصياغتُه مضارعًا في ﴿تُكِنُّ﴾:

عِلْمُ اللهِ عظيمٌ في شموله وإحاطته فلا يخفى عليه شيءٌ مهما بولغ في إخفائه

عبّر النّظمُ الحكيمُ بالكِنِّ دونَ الإخفاءِ في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ للدّلالةِ على عظيم عِلْم اللّه وسعته وشموله، فلا يخفى عليه شيءٌ مهما حاول الإنسانُ أنْ يبالغَ في إخفاءِ ما في نفسه؛ لأنَّ الكنَّ ليس مجردَ إخفاءِ الشّيء، وإنّما يزيدُ على الإخفاءِ بدلالاتٍ

(1) أبو بكر الجزائري، أيسر التّفاسير: 4/ 93.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 8/ 191.
(3) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 10997.

أخرى؛ فهو إخفاءُ الشّيءِ مع صيانةٍ ووقايةٍ وحفظٍ وسترٍ؛ لكي لا يَظْهر[1]، يقال: "كننتُ الشّيءَ: إذا صُنْتَهُ"[2]، فاللّهُ سبحانه يعلمُ ما تخفي صدورهم مهما اجتهدوا في عدمِ إظهاره، واستمروا على هذا الاجتهادِ، وجدّدوا حدوثَه، وهذا سرُّ التَّعبير بصيغةِ المضارعِ الذي يفيدُ الحدوثَ والتَّجدّدَ.

نكتة الإطناب بذكر الصّدور في الآية:

التّركيزُ على ما تكنّهُ صدورُ المشركين مِنْ عداوةٍ وبغضاءَ للنّبيّ ﷺ

أصلُ الكلام: واللّهُ يعلمُ ما تُكنّون وما تعلنون؛ ولكنْ لمّا كان السّياقُ والمقامُ حولَ عداوتهم للنّبي ﷺ، وقولهم الذي حكاه اللّه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، عبّرَ بقولِه ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ أي من عداوةٍ ومن بغضاءَ، ولو عبر بقوله (ما تُكنّون) لشملَ المعنى ما يكنّون في أذهانهم وعقولهم أو وجدانهم، أي قصدَ البيانُ القرآنيُّ التركيزَ على عداوتهم للنّبي ﷺ بإسنادِ الكنِّ إلى الصّدورِ.

دلالة المجاز المرسل في لفظ ﴿صُدُورُهُمۡ﴾:

ترهيبٌ للمشركين أنْ يحملوا في صدورهم ما يكون وبالًا عليهم وترغيبُهُم بتطهيرها

معنى قوله تعالى ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾: يُكنّون في صدورِهم عداوتهم للنّبيّ ﷺ ونحو ذلك[3]، أي ذَكَرَ صدورَ المشركين وأرادَ بواطنها من الحقدِ والكراهيةِ وغير ذلك، وهذا مجازٌ مرسلٌ، علاقتُه الحاليّة؛ إذْ ذكرَ المحلَّ وأرادَ الحالَّ فيه، وإضافةُ الأمورِ النّفسيّة إلى الصّدر أو القلب معروفةٌ في اللغة، والغرضُ من ذلك زيادةُ التّرهيب، لنزع ما في صدورهم من الشّرك حتى لا يكون وبالًا عليهم، ومضاعفةُ التّرغيبِ في تطهيرِ الباطن؛ ليكونَ محلًّا صالحًا للتّوحيد، ودافعًا لصالحِ الأعمال.

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كنّ).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 611.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 83.

دلالة التّعبير بالصدور دون القلوب في ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾:

شدّةُ العداوةِ التي يُكنّها الكافرون للنبيّ ﷺ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالصّدور دون القلوب من حيثُ كونُها محتويةً عليها[1]؛ للإشارة إلى شدّةِ عداوة الكافرين للنبيّ ﷺ، التي كأنّها لم تَعُدْ مستقرّةً في قلوبهم، وإنَّما خرجتْ منه حتى وصلتْ صدورَهم، وظهرتْ عليها آثارُ هذه العداوةِ من اضطرابٍ وخلجاتٍ؛ لأنّ الصّدرَ هو أعلى مقدَّم كلِّ شيءٍ وأولُه[2]، ولأنَّ الانفعالاتِ النّفسانيّة وتردّدات التّفكير، ونيّاتِ النّفوس - كلّها يُشْعَرُ لها بحركاتٍ في الصّدور.

مرجع الضمير (هم) في ﴿صُدُورُهُمۡ﴾:

تخويفُ المشركين وتطمينُ النّبيّ والمؤمنين بعِلْمِ اللهِ لمكنونات الصّدورِ

مرجعُ الضميرِ (هم) في قوله ﴿صُدُورُهُمۡ﴾ إمّا عائدٌ إلى ﴿مَا﴾ مِنْ قوله ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ باعتبارِ معناها، أيْ: ما تُكِنُّ صُدورُ خلقه وما يُعلِنونَ[3]، وحيثُ أُجريَتْ عليهمْ ضَمائرُ العُقلاءِ، فَقَدْ تَعيَّنَ أنَّ المَقصودَ البَشَرُ مِنَ المَخلوقاتِ، وهمُ المَقصودُ مِنَ العُموم في ما يَشاءُ؛ فبِحَسَبِ ما يَعْلَمُ منهم يختارُهم ويُجازيهم[4]. أو عائدٌ إلى المشركين، والمعنى: ما تُكِنُّ صُدورُهُمْ من عداوةِ رسولِ اللّه وحسدِه وما يُعْلِنونَ من مطاعنهم فيه[5]، ويؤيّده كون السّياق والمقام حولَ عداوتهم للنّبي ﷺ، وقولهم الذي حكاه اللّه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31].

وفائدةُ الإضافة في الحالين تخويفُ المشركين، وتطمينُ النبيّ ﷺ والمؤمنين بأنّ اللّهَ لا تخفى عليه خافيةٌ؛ ممّا تضمرهُ صدورُ الخلق جميعًا، وخصوصًا صدور المشركين من عداوةٍ وكيدٍ للحقِّ وأهله.

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 296.
(2) الزّمخشري، أساس البلاغة: (صدر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 611.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 428.

في الترقّي من الإخفاء إلى الإعلان تطمينٌ للنّبي ﷺ وتخويفٌ للمشركين

نكتة تقديم ما تكنّه صدورهم على ما يعلنون:

قدَّمَ النّظمُ الحكيمُ علمَ اللّهِ لِما تكنّهُ صدورُ الخلقِ أو صدورُ المشركين على ما يعلنونه؛ لكونِ العلم به والإخْبارِ به أهمَّ[1]، مراعاةً لشدّةِ خطورته على النّبي ﷺ، ولكونِه أدلَّ على قدرةِ اللّه وعلمه المحيط، ولكونِ المبدأ هو ما تكنّه الصّدور قبْلَ أنْ تُعلنه، بما يومئُ بعلمِهِ المحيط الذي يعلمُ الشّيء قبْل ظهوره، وفي ذلك كلّه زيادةٌ في تطمينِ النّبي ﷺ من قِبَلِ المحسنِ له، المتولّي تربيتَه وحمايتَه، وترهيبٌ للمشركين. كما أنّ في التّقديمِ مراعاةً للفاصلةِ القرآنيّة في الآياتِ.

من كمالِ عِلْمِ اللهِ جمعُه بين العلمِ بسرائرِ عباده وظواهرِهم

معنى (الواو) في قوله ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ﴿يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على أنّه سبحانه يعلمُ من عبادِه السّرائرَ والظّواهرَ، ويصطفي لنفسه، ويختارُ لطاعته مَنْ قَدْ عَلِمَ منْه السّريرةَ الصّالحةَ، والعلانيةَ الرّضيَّةَ[2]، وفي هذا دلالةٌ على كمالِ عِلْمِ اللّه وكمالِ قدرته.

تأكيدُ شمولِ وإحاطةِ علمِ اللهِ دليلٌ على عظمةِ هذا العلم

دلالة تكرار (ما) في قوله ﴿مَا تُكِنُّ﴾ و﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾:

كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ كلمة (ما) في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ ولم يقل: (يعلم ما تكن صدورهم ويعلنون)؛ تأكيدًا وتقريرًا لشمولِ إحاطةِ علم اللّه لكلِّ ما تكنّه صدورُهم، ولكلِّ ما يعلنونه، بما يدلُّ على عظمةِ هذا العلم الشّامل، ولإظهارِ فَضْلِ كلا الأمرين المتقابلين - الكِنّ والإعلان - عن بعضهما، بما يؤكّد كذلك شمولَ عِلْمِه سبحانه.

التّنبيهُ على أنّ عِلْمَ اللهِ بما خَفي وما أُعْلن سيّان

نكتة التّصريح بذكر علم الإعلان:

لم يكتفِ البيانُ القرآنيُّ بذكرِ عِلْمِ اللّه لِما تُخفي صدورهم، وإنّما

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 562.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 611.

صرَّح بذكر علمه سبحانه لِما يعلنون؛ للتّنبيه على أنّ علمه تَعالَى بما خَفي وما أُعْلِنَ سيّان؛ لأنَّ الإخفاءَ والإعلانَ بالنسبةِ إلى المخلوق، أما الخالق: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥﴾ [آل عمران: 5][1]، ولأنّ عِلْمَ الخَفيّ ربما لا يستلزمُ عِلْمَ الجَليّ؛ إمّا لبُعدٍ أو لِلَغَطٍ أو اختلاطِ أصواتٍ يمنعُ تمييزَ بعضِه عن بعض أو غير ذلك[2]، وتحقيقًا لبلاغةِ الطّباق في الآيةِ التي تدلُّ على كمالِ عِلْمِ اللّه تعالى.

دلالة التّعبير بالإعلان وصياغته مضارعًا في ﴿يُعۡلِنُونَ﴾:

مبالغةٌ في بيانِ عظيمِ علمِ اللهِ في شمولِه وإحاطتِه لما يعلنونَه بألسنتهم وجوارحهم

عبّر النّظمُ الحكيمُ بالإعلانِ دون الجهرِ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾؛ للدّلالةِ على عظيمِ علمِ اللّه وسعته وشموله؛ فعلمُه لا يقتصرُ على ما جُهر به، أي رفُع فيه الصّوتُ، وإنّما يشملُ كلَّ ما كان خلافَ الكتمان والإسرار، سواءٌ رفُع فيه الصّوت أم لم يُرفع، أو كان بصوتٍ أو بغير صوتٍ، أو كان بالأفعال أو الأقوال، أو كان في المعاني أو الأعيان، وإنْ كانَ أكثرَ ما يُقال في المعاني[3]، ولذا ناسبَ السّياقَ الذي يتحدّث عن معاني ومعتقداتٍ يجتهدونَ ويبالغون في إخفائها، فاللّهُ سبحانه يعلمُ ما يعلنون به من معانٍ وأفعالٍ وأقوالٍ جهروا بها أم لم يجهروا، ومهما تجدّد منهم هذا الإعلان واستمرّ، بما يؤكّدُ عظيمَ سعةِ علمه ﷻ، ولذا أتى بصيغةِ المضارع التي تفيدُ الحدوث والتجدّد.

بلاغة الطّباق بين ﴿تُكِنُّ﴾، ﴿يُعۡلِنُونَ﴾:

كمالُ علمِ اللهِ المحيطِ الذي يشملُ كلَّ شيءٍ ممّا أكنّوه أو أعلنوه

استعمالُ بلاغة الطّباق بالجمع بين لفظين متقابلين في المعنى، هما: ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ و﴿يُعۡلِنُونَ﴾ يزيدُ الكلامَ حُسْنًا، ويدلُّ على كمالِ علمِ اللّهِ المحيط الذي يشملُ كلّ شيءٍ، سواءٌ مكنوناتِ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 562.
(2) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 114.
(3) الرّاغب، المفردات: (علن).

صدورهم أو ما أعلنوه، تعليمًا لهم بسعةِ علم اللّه، وردعًا لهم عن شركهم، وتطمينًا للنبيّ ﷺ، وتثبيتًا له؛ فاللّهُ يعلمُ كلَّ شيءٍ من خلقه؛ يعلمُ أحوالَهم كلّها وأسرارَهم كلّها، وخبايا صدورهم، وما يسرّون وما يعلنون سواءٌ بسواء.

حذف مفعول ﴿يُعۡلِنُونَ﴾:

عِلْمُ اللهِ الشّاملِ أحاطَ بكلِّ ما يُعلنونه من مطاعنَ في النّبيّ ﷺ

حُذفَ مفعولُ ﴿يُعۡلِنُونَ﴾؛ لأنَّه مفهومٌ من حالهم، وقد ذكرَ القرآن ما كانوا يقولون في رسول اللّه ﷺ من شاعرٍ أو كاهنٍ أو ساحرٍ. أو مفهومٌ من السّياق، والمعنى: وما يعلنون من مطاعنهم فيه بقولهم: هلا اختيرَ عليه غيرُه في النّبوّة. أو حُذِفَ لإفادةِ عموم ذلك كلِّه، بما يكون فيه تسليةٌ لرسول اللّه ﷺ.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المشيئة والإرادة:

المشيئةُ من الله مقتضيةٌ وجودَ الشّيء والإرادةُ منه لا تقتضي وجودَ المُراد لا محالة

وإنْ كان أكثرُ أهلِ اللغة والمتكلّمين لم يفرّقوا بين المشيئة والإرادة[1]؛ إلا أنّ بعضهم ذكر فروقًا بينهما على النحو الآتي:

المشيئةُ في اللغة الإيجادُ، والإرادةُ: طَلبٌ[2]، وأصلُ المشيئةِ: إيجادُ الشّيء وإصابتُه، فالمشيئةُ من اللّه تعالى إيجاده، ومن النّاس الإصابة، فالمشيئةُ من اللّه مقتضية وجودَ الشّيء، والإرادةُ منه لا تقتضي وجودَ المرادِ لا محالة[3]، وأيضًا الإرادَة تكون لِما تراخى وقته ولِما لا يتراخى، والمشيئةُ لِما لم يتراخَ وقته، فالإرادةُ أعمُّ من المشيئة من هذا الوجه. وقيل: المشيئةُ قبل الإرادة، فالإرادةُ هي العزمُ على الفعل، أو التركُ بعد تصوّرِ الغايةِ المترتّبةِ عليه من خيرٍ، أو نفعٍ، أو لذّةٍ ونحو ذلك، والمشيئةُ ابتداءُ العزمِ على الفعل، فإنّك ربّما شئتَ

(1) الجوهريّ، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (شيء).
(2) الزّبيدي، تاج العروس: (شيأ).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شيأ).

شيئًا ولا تريده، لمانعٍ عقلي أو شرعي، وأمّا الارادةُ فمتى حصلتْ صدرَ الفعلُ لا محالة، وإرادةُ اللّهِ الفعلَ لا غير، بقول: كنْ فيكون[1].

الاختيارُ والاصطفاء:

اختـيـارُ اللـهِ تعالى للأفضلِ والأصلحِ لخلقه يتوافقُ مع حكمتِهِ المطلقةِ وعلمه الواسع

الاختيارُ من الخير، ويدلّ في أصلهِ على العطفِ والميل، وخلافِ الشرّ[2]، واختاره: انْتَقاهُ، واختارَ الشّيءَ على غيرهِ فضّلَهُ عليه[3]، والاختيارُ: أخذُ ما يراه خيرًا، وطلبُ ما هو خيرٌ فعله، وفي عُرف الفقهاءِ والمتكلّمين هو ضدّ الإكراه، والمختارُ هو ضدّ المكروه[4]. وأمّا الاصطفاءُ: فهو من الصّفوِ، ويدلُّ في أصله على خُلوصٍ من كلّ شَوْبٍ[5]، وصَفوةُ الشّيء ما صفا منه وخلص، ومحمدٌ ﷺ صفوةُ اللّهِ من خلقهِ ومصطفاه، أي: خالصهُ ومختاره، واصطفاهُ: استخلصه[6]، وكأنّه أخذه؛ لأنّه أصفَى جِنْسه أو أجوده[7]. إذن: الاختيارُ هو أخذُ ما يراه خيرًا وانتقاؤه وتفضيله على غيره، والاصطفاءُ هو تخليصُ من اختاره من كلّ شائبة.

وإيثارُ التّعبير بلفظ الاختيار في الآية؛ للتّناسبِ مع الخلق والمشيئة والعموم في الآية؛ فهو سبحانه بعلمه الواسع وحكمته المطلقة يختارُ الأفضلَ والأصلحَ من خلقه؛ من الأمورِ والأشخاص والأماكن؛ أي يختارُ ما يراهُ خيرًا لخلقه في كلّ شيء، ومن يراه خيرًا لحملِ رسالته ولتبليغِ دعوته.

الكِنُّ والإخفاء:

الـكِـنُّ أبـلـغُ وأوسـعُ دلالـةً مـن الإخـفـاءِ ويـتـنـاسـبُ مع علمِ اللهِ الواسع

يشتركُ الكنُّ والإخفاءُ بمعنى السَّترِ والتّغطية؛ فالإخفاءُ هو سترُ

---

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 35.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير).

(3) الزّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خير).

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خير).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفو).

(6) الرّازي، مختار الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (صفا).

(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صفو).

الشّيء وتغطيتُه، ويُقابَلُ به الإبداءُ والإعلان[1]، وأَخْفَيْتُ الشّيءَ: سَتَرْتُه وكتَمْتُه[2]، وأمّا الكنّ: ففيه معانٍ إضافيّة على الإخفاء؛ فالكنُّ: ما يُحفظ فيه الشّيء، والكنُّ: وِقاءُ كُلِّ شيءٍ وسِتْرُه، وكَنَنْتُ الشّيءَ: سترتُه وصُنْتُه، وأَكْنَنْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتُهُ، وأكنَنْتُه في نَفْسي: أسْرَرْتُه. وقيل: خُصَّ كَنَنْتُ بما يُسترُ ببيتٍ أو ثوبٍ، وغير ذلك من الأجسام، قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ [الصافات: 49]، وأَكْنَنْتُ: بما يُستَر في النّفس، قال تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 235]. وقيل: كنَنْتُه وأكنَنْتُه بمَعْنًى في الكِنِّ. والكِنانُ: الغطاءُ الذي يُكنُّ فيه الشّيءُ، قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: 25][3]. وقد ناسبَ التّعبيرُ بالكنّ في الآية؛ كونه أبلغَ من الإخفاء وأوسعَ دلالةً؛ إذ فيه معنى الإخفاءِ وزيادة، فاللّهُ سبحانه يعلمُ ما تُخفي صدورهم، وما تحفظهُ داخلها، وما تبالغُ في سَتْرِه وكتمانه.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 290، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 518.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خفي).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كنّ).

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٧٠﴾ [القصص: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إلهٌ عَلِمَ وخَلَقَ واختارَ فلَهُ الحكمُ وله الحَمدُ وإليه المَرجِعُ والمصير

بعدَ بيانِ فسادِ طريقِ المشركين وتوبيخهم، وبيان أنّه سبحانه صاحبُ الاختيارِ المطلق؛ لأنّه العالمُ بالخفايا والظّواهر، جاء النّصُّ القرآنيُّ ليؤكّدَ سببَ كونِ الاختيار للّه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، فخَتَم الكلامَ في ذلك بإظهارِ هذا التَّوحيدِ، وبيانِ أنَّ الحَمدَ والثَّناءَ لا يَليقُ إلّا به فقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾: (أخر) أَصْلٌ واحِدٌ إليهِ تَرْجِعُ فُروعُهُ، وهو خِلافُ التَّقَدُّم، والآخِرُ نَقيضُ المُتَقَدِّم[2]، والآخِرُ هو الذي يبقَى بعدَ هلاكِ كلِّ شيءٍ، فهو موضعٌ للنِّهاية، وهو تالٍ لِلأَوَّلِ، وتأنيثُهُ: الآخرةُ وهي مقابلةُ الأولى[3]، وسُمِّيَتِ الآخِرَةُ آخِرَةً؛ لِأنَّها بعد الدُّنْيا[4]، والمرادُ بالآخرة في الآية: يومُ القيامة، أمّا الأولى: فهيَ الدُّنْيا[5].

2) ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾: أصلُ (حكم) المَنْعُ، وأوَّلُ ذلكَ الحُكْمُ: المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْتَهُ من الفسادِ فقد حَكَمْتَهُ[6]، والحُكمُ أيضًا: القَضاءُ والفَصْلُ، تقولُ: حَكَمْتُ بَيْنَهُما إذا قَضَيْتَ. ومن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 25.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أخر)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 89.
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 149.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 612.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).

معانيه أيضًا: العِلْمُ والفِقْهُ والقَضاءُ بِالعَدْلِ والقوّة[1]. والمراد بالحُكم في الآية: القَضاءُ بالعدل والفَصْلُ، وهو تَعْيينُ نَفْعٍ أو ضُرٍّ للغَيْرِ على أساسٍ من الحقِّ والصَّوابِ[2].

3) ﴿تُرۡجَعُونَ﴾: (رجع) أصلٌ كبيرٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، يدُلُّ على رَدٍّ وتَكْرارٍ، والرُّجوعُ: العَوْدُ إلى مكانٍ منه البَدْءُ، وسواءٌ كان مكانًا أو قولًا أو فعلًا، وسواء كان العَود بذاته أو بجزءٍ من أجزائه أو بفعلٍ من أفعاله[3]. ومعنى الرُّجوعِ إلى اللهِ: الرُّجوعُ إلى وقْتِ نَفاذِ حُكْمِه المُباشِرِ في عباده[4]، وهو المراد به هنا، والمعنى: وإليه تُردّون من بعد مماتكم، فيقضي بينكم بالحق[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ظُهورُ كَمالِ صفاتِ اللهِ ﷻ في الدُّنيا والآخرة

يقولُ الحقُّ تعالى: وهو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وحْدَه، لا مَعبودَ بحقٍّ إلّا هو دونَ ما سِواه، وهو وحْدَه المُستَحِقُّ للحَمدِ في الدُّنيا والآخِرةِ على أفعالِه وإحسانِه، وأسمائِه وصِفاتِه، وله وحْدَه الحُكمُ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ ففي الدُّنيا يَحكُمُ بينَ عِبادِه بشَرْعِه وقَدَرِه، وفي الآخرةِ يَقضي بيْنَهم بعَدْلِه، وإليه وحْدَه تُرَدّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُحاسِبُكم في الآخرةِ، ويُجازي كُلًّا منكم بعمَلِه من خيرٍ أو شَرٍّ[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾:

في العطفِ جمعٌ لصفاتِ عظمة اللهِ الذّاتيّة المقتضية افتقارَ الكلِّ إليهِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ عاطفة[7]، والمعطوف عليه قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾، والمعنى المشترك بينهما تعريفُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (حكم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 168.
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رجع).
(4) الواحدي، التّفسير البسيط: 11/ 257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 223.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 612.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 304، والسّمرقندي، بحر العلوم: 2/ 617، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 251.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 166.

المشركين الّذين اتّخذوا شركاءَ من دون اللّه بكمالِ صفاتِ اللّهِ ﷻ في الدُّنيا والآخرةِ، فهو الّذي يخلقُ ويختارُ، ويعلمُ الظّواهر والأسرار، وهو المستأثر بالإلهية المختصّ بها، وهو وحْدَه المُستَحِقُّ للحَمدِ، وله وحده الحكمُ والأمرُ، وإليه المرجعُ والمآبُ للحساب والجزاء، وفي هذا العطفِ جمعٌ بين صفات اللّه المقتضية افتقارَ الكلِّ إليه.

لطيفة ابتداء جملة ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ بضمير الغائب:

المعروف حقّا لا يُعرّف

ابتدأ النَّصُّ القرآنيُّ بضمير الغائب (هوَ) ليعودَ إلى المُتَحدَّث عنه بجميعِ ما تقدَّم من قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: 58] إلى هنا، وهو اللّهُ سبحانه، أيِّ الموصوفُ بتلك الصّفاتِ العظيمة، والفاعلُ لتلك الأفعال الجليلة، والمَذكورُ في سياقِ الآيات بعُنوانِ ﴿وَرَبُّكَ﴾، هو المُسمَّى ﴿ٱللَّهُ﴾ اسمًا جامِعًا لجَميعِ معاني الكَمال[1]، أي صارَ للسّامع معلومًا، فناسبَ أنْ يأتيَ بالضّمير، وإذا كان الضّمير عند أكثرِ النّحاة أعرفَ المعارف بعد اسم اللّه، ويليه اسم العَلَم[2]؛ لأنّه لا اشتراكَ في الضّمير؛ لتعيُّنِه بما يعودُ إليه، فكيف إذا كان الضّميرُ يعودُ إلى الاسم الجليل؟!، والضّميرُ (هو) مبتدأ، واسم الجلالة خبره[3].

سرّ التّعبير بالألوهية في قوله ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾:

اللهُ منفردٌ بهذا الاسم الجامعِ لكلّ معاني الكمالِ والجلالِ والجمالِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ دون (ربّك)؛ لأنّ الجملة ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ إخبارٌ عن المذكور بعنوان (ربّك) فيما سبق من آيات؛ باسمه الدالّ الجامع لكلّ معاني الكمالِ والجلالِ والجمالِ[4]، فإنّ اسم الذّات طريقٌ في الدِّلالة على المسمّى المنفرِدِ بهذا الاسم[5]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 167.
(2) ابن عثيمين، شرح ألفية ابن مالك: 12/ 3.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 167.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 167.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 17.

والمعنى: لا يلتبسوا فيه ولا يُخطئوا بادّعاء ما لا يليقُ باسمه، كقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [يونس: 32][1]. كما أنّ السّياق هنا هو التّفرّد بالألوهية، فناسبه التّعبير باسم اللّه دون الرّب، ولأنّ الاسمَ الجليل يزرعُ الهيبةَ والجلالِ والإجلال في قلوب المؤمنين، ويُدخِلُ الرَّوعَ والخوفَ في ضمير السّامعِ من المشركين.

سرُّ التّعبير بأسلوب القصر؛ بتعريف الطّرفين:

لا أحدَ يستحقُّ العبادةَ إلا هوَ سبحانه فهو المستأثرُ بالإلهيّة

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وهو من قصرِ الصّفةِ على الموصوف، وطريقهُ تعريفُ جزأي الإسناد: المسندُ إليه: الضمير (هو) والمسند: ﴿ٱللَّهُ﴾، ففيه قصرُ استحقاقِ العبادة للّه، أي لا أحدَ يستحقّها إلا هوَ سبحانه، ومعنى استحقاقِ اللّهِ للعبادةِ جاء من اشتقاق لفظة (اللّه)؛ فإنّه من (إله) بمعنى عبد، ومُسْتَفاد من طريقِ القصر في: هوَ اللّه[2].

موقع جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ وعلّة فصلها عما قبلها:

في تكرارِ الخبرِ تقريرٌ وتأكيدُ استئثارِ اللهِ بالإلهيّة واختصاصه بها

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ عمّا قبلها، وهي جملة ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لما بينهما من كمالِ اتّصالٍ؛ لأنّ جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ جاءتْ خبرًا ثانيًا لضمير اسم الجلالة (هوَ)[3]؛ زيادةَ تقريرٍ وتأكيدٍ لمدلولِ الخبر الأوّل[4]؛ لأنّ المشركين حرّفوا أو أثبتوا الإلهيّةَ للأصنام مع اعترافهم بأنّها إلهيّةٌ دون إلهيّةِ اللّه تعالى، فكان من حقّ العقل أنْ يعلم أنْ لا إله إلا هو، فأتى هذا الخبر إبطالًا للشّرك بعد إبطالهِ بحكايةِ تلاشيه عن أهلِ ملّته يوم القيامة بقوله: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 167.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 563.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 167، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 287.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 562.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 167، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 287.

معنى ﴿لَآ﴾ في جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

إبطالٌ ونفيٌ لجنسِ الإلهيّة إلا للهِ تعالى

﴿لَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ نافيةٌ للجنس؛ لأنّ ﴿لَآ﴾ النّافية إذا نفتِ النّكرة - وهي هنا لفظة ﴿إِلَٰهَ﴾ - فقد دلّت على نفي الجنس، أي نفي تحقّق الحقيقة[1]، فمعنى (لا إله إلا اللّه) انتفاءُ جنسِ الإله المستحقّ للعبادة غير اللّه تعالَى، لا نفي إله غيره مُطْلَقًا؛ لوجود المعبودات الباطلة[2]، أي كلُّ ما سواه منفيٌّ عنهم معنى الإلهيّة؛ لأنَّهم مزيَّفون، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا يستطيعون أنْ يتصرَّفوا في هذا الكون، فلا قرارَ لهم ولا حكمَ لهم ولا حمدَ لهم.

سرُّ القصر بالنَّفي والاستثناء في جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

توحّد بعزّ هيبته وتفرّد بجلال ربوبيّته لا شبيهَ يساويه

القصْرُ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ هو قصرٌ بالنّفي والاستثناء، أي قَصْرُ الإلهيّة على اللّهِ قصرًا حقيقيًّا، وهو قصْرُ قلبٍ؛ أي: قلبُ معتقدِ المشركين الذين أثبتوا الإلهيّة للأصنام مع اعترافهم بأنّها إلهيّةٌ دون إلهيَّةِ اللّه تعالى، وبيّن أنّ الإلهيّةَ بأيّ شكلٍ من الأشكال ليستْ لأحدٍ ممّن اتّخذوهم شركاء، إنّما هي للّهِ وحده. وفي هذا القصرِ تنبيهٌ وتأكيدٌ على إبطالِ اللّه للشّركِ بعد إبطاله بحكاية تلاشيه عن أهلِ ملّته يوم القيامة بقوله: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾[3].

براعة بدء جملتَي القصر وختمهما بـ ﴿وَهُوَ﴾:

هو الأوّلُ فلا شيءَ قبله والآخرُ فلا شيءَ بعده

بدأ النّظم الحكيم جملتَي القصر وختمهما بضميرِ الجلالة (هوَ) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، إشارةً منه لتأكيدِ معنى القصر في الآيتين وهو وحدانيَّتُه سبحانه، أي استئثارُهُ سبحانه بالإلهيّة واختصاصه بها، وأنّه الأوّلُ فلا شيءَ قبله، والآخرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 75.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 563.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 167.

فلا شيءَ بعده، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: 3]. كما أنّ في هذا التعبير تطابقًا بين المطلعِ والختام، ممّا يعطي جمالًا في اللفظ، وتقريرًا في النّفس لوحدانية اللّه التي لا يجهلها صاحبُ فطرةٍ سليمةٍ وعقلٍ صحيح، فهو أعرفُ من أنْ يُعرّف، لا إله غيره، وتقريرًا بأنّ المبدأ منه وإليه المرجع.

وهذه المبالغة في التّأكيد في هاتين الجملتين - اللتين كأنّهما جملةٌ واحدة؛ إذ الثّانيةُ خبرٌ لمبتدأ الأولى - يُعدُّ تمهيدًا لتقريرِ ما سيأتي بعده من صفاتٍ ينفردُ بها هو سبحانه من انفرادهِ بالحمد والحكم والرّجوعِ إليه.

معنى (اللّام) في قوله ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾:

لا يستحقُّ الحمدَ على الحقيقةِ إلا اللهِ

اللّام في قوله سبحانه: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ حرفُ جرٍّ يفيدُ الملكَ والاستحقاقَ، أي لا يملكُ الحمدَ غيرُ اللّه، ولا يستحقُّه أحدٌ سواه[1]، وكلُّ محمودٍ سوى اللّهِ إنّما يكون حمدُه من غيرِ استحقاقٍ على وجهِ الحقيقة؛ لأنَّ المنعمَ الحقيقيَّ هو اللّهُ، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: 53]، والمعنى: للّه الحمدُ استحقاقًا على عطيّته، وله الشّكر استيجابًا على نعمته[2].

نكتة تقديم الخبر في ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾:

الحمدُ مقصورٌ على الاتّصاف بكونه له تعالى

في تقديمِ المسند الجارِّ والمجرور ﴿لَهُ﴾ على المسندِ إليه ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ إفادةُ اختصاصِ جنسِ الحمد باللّه سبحانه، وهذا الاختصاصُ حقيقيٌّ[3]، أي قَصَرَ سبحانه المَوصوفَ على الصّفةِ، أي الحمدُ مقصورٌ على الاتّصاف بكونه له تعالى[4]؛ لأنّ حمدَه هو الحمدُ الكاملُ، ويمكن أنْ يكونَ التّقديم للاهتمام بضمير الجلالة[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 167.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 78.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 167.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 563.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 67.

الحمدُ تعظيمٌ للإله المنعم على جميعِ خلقه في الدّنيا والآخرة

دلالة التّعبير بالحمد في جملة ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾:

عبّر النَّصُّ القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ دون غيره كلفظ الشّكر؛ لأنّ الحمدَ أعمُّ من الشّكر؛ إذ الحمدُ يكون في مقابلة نعمةٍ مسداة، وعلى صفةٍ في المحمود قاصرةٍ عليه[1]، كما أنّ الحمدَ عبارة عن تعظيم الفاعلِ لأجلِ ما صدرَ عنه من الإنعام، سواءٌ أكان ذلك الإنعامُ واصلًا إلى الحامد أم إلى غيره[2]، وهذا أنسبُ للسّياق المقرّرِ لانفراد اللّه واختصاصه واستئثاره بالإلهيّة ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، أي فله الحمدُ على كونه إلهًا لا يشاركه أحدٌ في ألوهيّته، وله الحمدُ في السّراء والضّراء، حمدًا مستغرِقًا لكلِّ الأزمانِ في الدّنيا والآخرة، بما أنْعَمَه على جميع خلقه.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

(أل) التّعريفِ في قوله سبحانه: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ جنسيّةٌ تفيد الاسْتِغراقَ، أيْ: لَهُ كلُّ حَمْدٍ في الدّنيا والآخرة، بما يحقّق إحاطته سبحانه بأوصافِ الكمال[3].

استحقاقُ الله للحمد في جميع الأزمنة والأحوال في الأولى والآخرةِ

معنى ﴿فِي﴾ في القيد ﴿فِي ٱلۡأُولَىٰ﴾:

عبّر النَّصُّ القرآنيُّ بحرفِ الجرّ ﴿فِي﴾ الّذي يفيدُ معنى الظّرفيّة؛ للدّلالة على استيعابِ الظروفِ كاملًا بزمانه ومكانه، أي الحمدُ مستحقٌّ للّه في جميعِ الأحوالِ والأزمان في الأولى والآخرة، ممّا يدلّ على عظمة اللّه سبحانه واستحقاقه للحمدِ في جميعِ الأزمنة.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

عبّر البيان القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ دون لفظ الدُّنيا في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾؛ لكون لفظِ الأولى أنسبَ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (حمد)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 450.
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (حمد)، وسيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 1/ 19.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 342.

للسّياق؛ إذ معنى الأوّل في اللغة هو ضدّ الآخر، فالأوّلُ هو ابتداءُ الأمر، وهو الأسبق، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ [الحديد: 3] معناه الذي لم يسبقه في الوجودِ شيء(1)، وهذه المعاني تتناسبُ مع السّياق؛ إذ بذكرِ الأولى مع الآخرة يتحقّق كمالُ المقابلةِ بين الضّدين ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، ويتحقّقُ استغراقُ الحمد اللّه ﷻ للزمن كلّه. ولأنّ التّعبير بالدّنيا - التي فيها مبالغة في دناءتها وخسّتها - لا يليقُ بالمقام الذي هو مقامُ المدحِ للّه سبحانه بأنّه وحده المستحقُّ للحمدِ في الزمن كلّه.

كمالُ استغراقِ الحمد لله وتحقّق المقابلةِ بين الأولى والآخرة

وقد عبّر عن ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ بصيغة فُعلى؛ مبالغةً في وصفها الذي سبقّ ذِكره؛ لأنّ صيغةَ فُعلى تدلُّ على قوّةِ الوصف؛ فهي مؤنّثُ أفعل.

معنى (الواو) في قوله ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ حرفُ عطفٍ، والمعطوفُ عليه ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾(2)؛ بما يفيدُ معنى المشاركة في المتعلَّق به، وهو الحمد للّه، فكما أنّ الحمدَ في الدُّنيا هو للّه، فكذلك هو في الآخرة للّه؛ وفي الجمعِ بين الدّارين تحقّقُ كمالِ الحمد للّه باستغراقه لكلِّ الأزمنة، فلا أحدَ يستحقّ الحمد على الحقيقة سواه.

في الجمع بين الدّارين تحقّقُ كمالِ الحمدِ لله باستغراقه الزمنَ كلّه

سرّ التّعبير بـ ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ مادةً وصيغةً:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ دون لفظ (الثّانية) في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾؛ لكون لفظِ الآخرة أنسبَ للسّياقِ والمقام؛ إذ معنى الآخر في اللغة هو المقابلُ للأوّل، ونقيضُ المتقدّم، فهو موضعٌ للنّهاية، والذي يبقَى بعدَ هلاكِ كلِّ شيءٍ(3)،

الآخرةُ دارُ البقاءِ بعد الموت؛ فليس بعدها دارٌ ثالثة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (أول).
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 366.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أخر)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 89.

والدّارُ الآخِرة: هي دارُ البقاءِ بعد الموت[1]، فليس بعدها دارٌ ثالثة، وهذه المعاني تتناسبُ مع المقامِ الذي هو يومُ القيامة، التي لا دارَ ثالثة بعدها، وتتناسبُ مع السّياق؛ إذ بذكرِ الآخرة مع الأولى يتحقّقُ الطّباقُ بين المتقابلَيْن (الآخرة والأولى)، ويتحقّق استغراق الحمد للّه في الزمنِ كلّه.

وقد عبّر عن ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ بصيغة فُعلى؛ مبالغةً في وصفها الذي سبقّ ذِكره؛ إذ لا دارَ بعدها؛ لأنّ صيغةَ فُعلى تدلّ على قوّةِ الوصف؛ فهي مؤنثُ أفعل.

بلاغة الطِّباق بين ﴿ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

استحقاقُ اللهِ للحمدِ في الزّمنِ كلِّه ليس لأحدٍ سواه

جَمعَ النَّصُّ القرآنيُّ لفظين متقابلين في المعنى في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ على سبيلِ الطِّباق، ممّا زادَ الكلامَ حُسْنًا، ودَلَّ على أنّ الحمدَ يستوعبُ الزَّمنَ كلَّه من أوّلِه إلى آخره؛ "وليس ذلك لشيءٍ سواه"[2]؛ لأنَّه مولي النِّعم كلِّها - عاجلِها وآجلِها - على الخلق كافّةً يحمَده المؤمنون في الآخرةِ كما حمِدوه في الدُّنيا بقولهم: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: 34] و﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [الزمر: 74]؛ ابتهاجًا بفضلِه والتذاذًا بحمدِه[3]، فجاء النَّصُّ مُعجِزًا في مبناه ومعناه.

بلاغة الإدماج:

المبالغةُ في بيان تَفرُّدِه تعالى بوصفِ الحمدِ

في قولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ إدْماجٌ؛ أُدْمِجَ فيها بديعُ المُبالَغة في بديعِ المُطابَقة؛ لأنَّ انْفِرادَه سُبحانَه بالحَمدِ في الآخِرةِ مُبالَغةٌ في وصْفِ ذاتِه بالانْفِرادِ بالحمدِ، والكلامُ وإنْ خَرَجَ فيهما مَخْرَجَ المُبالَغةِ في الظّاهِرِ فالأمرُ فيه حَقيقةٌ في الباطنِ؛ فَإنَّهُ

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أخر).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 342.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 428، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 23.

ربُّ الحمدِ والمنفردُ به في الدّارين[1]. أو أُدْمِجَ فيها غرضٌ في غرضٍ؛ أي أُدمجَ غرضُ الإشارَةِ إلى البعث والجزاء في غرضِ تَفَرُّدِه تعالى بوصفِ الحمدِ[2].

معنى (الواو) في قوله ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾:

صفاتٌ عظيمةٌ للّه تشتركُ في تقريرِ انفراده بالحكم سبحانه

جاءت الواو في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ عاطفةً لهذه الجملة على الجُملِ السّابقةِ؛ لتُشاركَ ما قبلها في ذكر صفاتِ عظمته الذّاتيّة المقتضية افتقارَ جميعِ الخلق للّه سبحانه[3]، ولكنّ كونه المنفردَ بالحكم والفصلِ والحساب يوم القيامة هو المقصودُ الأولُ في الآيات، وما ذُكر من صفاتٍ للّه قبلها هو دليلٌ عليها، أي ما ذُكر من صفاتِ للّه تعالى من كونه سبحانه مستأثرًا بالإلهيّة مختصًّا بها، وكونه مستحقًّا للحمدِ على عطيّته، والشّكرُ على نعمته في الدُّنيا والآخرة، هو دليلٌ على انفراده بالحكم سبحانه[4].

معنى (اللام) في (له):

لا يملكُ الحكمَ إلا اللّهُ ولا يستحقّه أحدٌ سواه

جاءت اللّام في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ حرفَ جرٍّ، أفادتِ الملكَ والاستحقاقَ، أي لا يملكُ الحكمَ غيرُ اللّه، ولا يكون لأحدٍ غيره[5]، وفي هذا الاستحقاق نهايةُ الزّجرِ والرّدعِ للعصاة، ونهايةُ تقويةِ القلبِ للمطيعين[6].

نكتة تقديم الخبر في جملة ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾:

الحكمُ في الآخرة مقصورٌ على الله

قدّم النّصُّ القرآنيُّ (لَهُ) في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾؛ لإفادةِ قصرِ حكم الآخرة للّه وحده واختصاصه به، أي له وحدهُ

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنّثر، ص: 451.
(2) السّيوطي، الإتقان: 3/ 298.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 287، والدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 634.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 167.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 168.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 11.

الحكم دون غيره[1]، والاختصاصُ مستعملٌ في حقيقته ومجازه؛ لأنّ الحكمَ في الدُّنيا يثبتُ لغيرِ اللّه على المجاز، وأمّا الحكم في الآخرة فمقصورٌ على اللّه، وفي هذا إبطالٌ لتصرّفِ آلهة المشركين فيما يزعمونه من تصرّفاتها، وإبطالٌ لشفاعتها التي يزعمونها في قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18]، أي في الآخرة إنْ كان ما زعمتم من البعث[2]، ويمكن أنْ يكون التّقديمُ للاهتمام بضمير الجلالة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾ دون القضاء، ونكتة تعريفه بـ (أل):

الإلـهُ المستحقُّ لـكـلِّ حـمـدٍ هـو مَـنْ يمنعُ ويقضي بالعدل عن عِلمٍ وقوّة

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ الحكم دون القضاء في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾؛ لاتّساع دلالته؛ فمن معانيه: المنعُ من الظلم ومن الفسادِ[3]، والمنعُ عن الخصومة[4]، ومن معانيه أيضًا: العِلْمُ والفقهُ والقَضاءُ بالعدلِ والقوّة[5]، وهذه المعاني تتناسبُ مع السّياق الذي يتحدّثُ عن أحقّيّةِ اللّهِ للإلهيّة، والحمدِ في الدّنيا والآخرة، والرّجوعِ إليه للحساب والجزاء، و"تعيين نفع أو ضر للغير"[6]، وليس عن الانتهاءِ من إنفاذِ الأمر أو إتمامه أو قطعه. كما أنّ اتّساع دلالة لفظ الحكم تتناسبُ مع استحقاقِ اللّه لجنسِ الحمد، أي لكلِّ حمدٍ في الدّنيا والآخرة، وتتناسبُ هذه المعاني أيضًا كذلك مع المقام، وهو مقامُ الفصلِ بين العباد في الآخرة، والقضاءِ بينهم بالعدلِ عن علمٍ وقوّة.

كـلُّ حكـمٍ على الحقيقة لله لا أحدٍ سواه

وقد جاء لفظ ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾ معرَّفًا بأل الجنسيّة الَّتي أفادتِ الاستغراق، أي: للّه كلُّ حكمٍ في الدُّنيا والآخرة على الحقيقة، لا لأحدٍ سواه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 342.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 168.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 190.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (حكم).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 168.

نكتة حذف متعلّق ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾:

لله الحمدُ والحكمُ في الأولى والآخرة

حُذفَ متعلّق ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾؛ اختصارًا؛ لدَلالةِ السّياق عليه، أي قولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، والتّقدير: (وله الحُكْمُ في الدّارين في الأولى والآخرة)[1].

معنى (الواو) في قوله ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

ما كانت الآخرةُ إلا للحكمِ وللفصلِ في الخصومات

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عاطفةٌ؛ والمعطوفُ عليه ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾[2]، والَّذي يجمعُ المعطوفَ والمعطوفَ عليه: أنّ الآخرة ما كانت إلا للحكمِ وللفصلِ في الخصومات[3]، أي إلى حُكمه تُرجعون[4]، وإليه تُرَدّون من بعد مماتكم، فيقضي بينكم بالحقّ[5].

معنى (إلى) في ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

غايةُ نهايةِ الخلقِ العودةُ والرَّجْعةُ إلى اللهِ

حرف الجرِّ (إلى) في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يُعطي معنى انتهاءِ الغاية الزَّمانيّة والمكانيّة، فالكلّ؛ من آلهةٍ جُعلتْ شركاءَ مع اللّه، ومن مشركين عبدوها، ومن مؤمنين اتَّبعوا الرُّسل - ستكونُ غايتُهم ونهايتُهم ورجعتُهم إلى اللّه تعالى، لا يَتخلَّف عن ذلك أحدٌ.

نكتة تقديم القيد (إليه):

الرُّجوعُ إليه وحده لا إلى غيرِه سبحانه

قدّم البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرور على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ للاهتمام بالانتهاء إليه، أي إلى حُكمه[6]، ولإفادةِ القصر؛ أي إليه الرّجوع بالبعثِ لا إلى غيرِه[7]، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ، فيه تأييسٌ للمشركين من نفع أصنامهم إيّاهم[8]، وتطمينٌ للمؤمنين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 168.
(2) دعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/ 440.
(3) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 10999.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 168.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 612.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 168.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 342، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 23.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 377.

بأنّه لا حُكم يوم القيامة إلا له سبحانه. وكذلك في التّقديم مراعاةٌ للفاصلةِ القرآنية مثل: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾.

دلالة التّعبير بالإرجاع في ﴿تُرْجَعُونَ﴾:

منه البّدءُ سبحانه وإليه المرجعُ ليقضي قضاءه الأخير

عبَّر النَّصُّ القرآنيُّ بالرّجوع دون العودة في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لكونه أنسبَ للسّياق الذي هو الحديث عن انفرادِ اللّه بالإلهيّة، والحكم في الآخرة، واختصاصه بالرّجوع إليه وحده لا إلى أحدٍ غيره، فهو الخالقُ سبحانه؛ إذ الرجوعُ هو العَوْدُ إلى ما كان منه البدء، ورجع عَوْدَه على بَدْئِه: أي رَجَعَ في الطَّريق الَّذي جاءَ مِنْهُ[1]، والرجوعُ هو المصيرُ إلى الموضعِ الذي قد كان فيه قبل[2]، فالرجوعُ إلى اللّه هو المصير والانتقال إلى المكان الأصلي الذي كان فيه أولًا. وقد شُبّه الحضورُ للحساب برجوعِ السّائر إلى منزله باعتبار أنّ اللّهَ خلقَ الخلقَ فكأنَّهم صدروا من حضرته، فإذا أحياهم بعد الموت فكأنّهم أرجَعهم إليه، وهذا فيه إثباتٌ للحشرِ والجزاء[3].

بينما العودة فيها معنى التّثنية في الأمر، والتّكرار والرّجوع إلى الحالة الأولى التي كان عليها[4]، وهذه المعاني لا تتناسبُ مع السّياق هنا.

نكتة بناء ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لغير فاعله:

الإلهُ الحقُّ من بيده الأمرُ والحكمُ والرجوعُ يوم القيامة فلا فاعلَ غيره سبحانه

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التعبيرَ بالمبني للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لظهورِ فاعله ومعرفته بالنِّسبة للمخاطَب من خلال السّياق الذي يتحدّث عن اللّهِ سبحانه وأحقيّته في الإلهيّة، وأنّ الأمرَ والحكمَ بيده ﷻ، وليس للإنسان أدنى إرادةٍ في ذلك، وللتّركيز على الحدثِ وهو قضيةُ الرجوع إلى اللّه تعالى، وحصرِ الوعي فيه.

(1) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 249.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 377.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عود).

براعة الالتفات من خطاب الواحد إلى الجماعة في ﴿تُرۡجَعُونَ﴾:

تَطمينٌ وتقويةٌ للمؤمنين وزجرٌ وردعٌ للمشركين

عَدَلَ النَّصُّ القرآنيُّ في صيغة الخطاب في هذه الآيات عن خطابِ المفرد إلى خطاب الجماعَةِ، فبعدَ أن كان يخاطِبُ نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ﴾، ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ﴾ التفتَ سبحانه مخاطبًا جميعَ خلقه فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ بهذا الكلام ليس النَّبيَّ ﷺ وحدَهُ، بل كلُّ الخلقِ؛ فالمؤمنون بالرُّجوع إلى اللّه ينالون الأجرَ والثّوابَ، والمشركون ينالون العقاب، وفي هذا غايةُ التّقوية لقلوبِ المطيعين، ونهايةُ الزّجر والرّدع للمتمرّدين. كما أنَّ الالتفاتَ من محاسنِ الكلام، ووجهُ حُسْنِه تطريةٌ لنشاطِ السّامع، وأكثرُ إيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوبٍ واحدٍ[1].

توجيه القراءات في الفعل ﴿تُرۡجَعُونَ﴾:

الرّجوعُ إلى الله واقعٌ لا محالة اختيارًا أو قَسْرًا

في قوله تعالى: ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ قراءتان؛ قراءةُ الجمهور بضمِّ التّاء وفَتْحِ الجيم مَبْنيًّا للمفعول ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، وقراءةُ يعقوب بفتح التّاء وكسرِ الجيم، مبنيًّا للفاعل ﴿تَرۡجِعُونَ﴾[2]، فالحجّةُ لمن ضمَّ: أنّه أراد: تُردّون، والحجّة لمن فتح: أنّه أراد: تَصيرون[3]. والمعنى على المبني للفاعل: (سَترجِعون إلينا وتأتوننا بأنفسكم، كأنّكم مضبوطون على ذلك، فإذا جاء موعدكم رجعتم إلينا من تلقاء أنفسكم). وعلى قراءة المبني للمفعول على اعتبارِ أنّ اللّه أرجعكم قَسْرًا فلا تستطيعون فكاكًا[4]، أي: (سواءٌ أردتم الرجوعَ إلى اللّه أم لم تريدوه فإنّكم إليه راجعون).

---

(1) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 91.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 655، والبنا، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، ص: 437.

(3) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السبع، ص: 249.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11000.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الحكمُ والقضاء:

الحكمُ هو المنعُ والقضاءُ والعلمُ والأمرُ والقوّة، والقضاءُ فصلُ الأمرِ والفراغُ منه

الحكمُ: هو المنعُ، وأوّلُ ذلك الحُكْم هو المنعُ من الظلم ومن الفسادِ[1]، والحكم يَقْتَضِي المَنْعَ عَن الخُصومَة؛ من قَوْلك: أحكمتُه إذا مَنَعْتَه[2]، وحَكَمَ: منعَ منعًا لإصلاح، والحُكْمُ بالشّيء: أنْ تقضي بأنّه كذا، أو ليس بكذا، سواء ألزمتَ ذلك غيرَك أو لم تُلْزِمْه[3]. ومن معاني الحُكْم: العِلْمُ والفِقْهُ والقَضاءُ بِالعَدْلِ والقوّة[4]. وأمّا القضاءُ فيَقْتَضي فصلَ الأمر على التَّمام؛ من قَوْلك قَضاهُ إذا أتّمه وقطعَ عمله، فأصلُ القضاء في اللغة: يَدُلُّ عَلَى إِحْكامِ أَمْرٍ وإِتْقانِهِ وإِنْفاذِهِ لِجِهَتِهِ[5]، والقضاءُ: إحكامُ الشّيء والفراغُ منه، وفصلُ الأمر قولًا كان أو فعلًا[6]. وقد ناسب هنا التّعبير بالحكم؛ لكونه أنسبَ للسّياق؛ إذ الحكمُ أشملُ من القضاء، فله سبحانه الحكمُ والمنعُ والقضاءُ بالعدل عن علمٍ وقوّةٍ.

الرّجوع والعودة:

الرجوعُ إلى الله بعد الحياة الدّنيا هو المصيرُ والانتقالُ إلى المكان الأصلي

الرجوعُ: هو العَوْدُ إلى ما كان منه البدء، ورَجَع عَوْدَهُ على بَدْئِه: أي رَجَعَ في الطَّريق الَّذي جاءَ مِنْهُ، أو: تقديرُ البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله[7]. والرُّجوع: المصيرُ إلى الموضعِ الذي قد كان فيه قبل[8]، وهو نقيضُ الذّهاب، ورَجَعَ الشّيءُ عن الشّيءِ ورجعَ إليه: صَرَفَه وردّه[9].

وأمّا العودة: فتدلّ في أصلها على تثنيةٍ في الأمر، والعودُ: تقول:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 190.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 248.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (حكم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قضي).
(7) الراغب، المفردات: (رجع)، والكفوي، الكليات، ص: 479.
(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 249.
(9) الفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رجع).

بَدَأ ثمّ عاد[1]، والعودةُ: الرّجوعُ إلى الشّيء بعد الانصرافِ عنه، إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة[2]. وعاد عَودًا: رَجَعَ وارتدّ، يُقال: رَجَعَ عَودًا على بَدْء: أي لم يقطعْ ذَهابه حَتَّى وصله بِرُجوعِه. والمعاودةُ: الرّجوع إلى الأمر الأوّل، والمُعاوِد: المواظبُ على أمرٍ، وفيه معنى التجدّد والتكرّر[3].

إذن: يتميّزُ الرّجوع: بأنّ فيه معنى المصير والانتقال إلى المكان الأصلي، بينما تتميّز العَودة: بأنّ فيها معنى تكرار الفعل والقيام بالعمل مرّة ثانية، والرّجوع إلى سابق عهده، وإلى الحالة التي كان عليها. والتّعبير بلفظ الرّجوع؛ لإفادةِ المصير والانتقال إلى المكان الأصلي؛ أي كنّا عند الله قبل أنْ يخلقنا ثمّ انتقلنا إلى الدّنيا، ثم نرجعُ إليه بعد موتنا وبعثنا، وهذا ليس فيه معنى تكرار الفعل.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).

(2) الراغب، المفردات: (عود).

(3) ابن منظور، لسان العرب، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عود).

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢﴾ [القصص: 71 - 72]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تعاقب اللّيل والنّهار ناطق بتجدُّد النِّعم، وشاهد على ما في صَنْعَةِ الباري من عِظَم

لَمّا بَيَّنَ الربُّ سبحانه مِنْ قَبْلُ اسْتِحْقاقَهُ لِلْحَمْدِ عَلَى وجْهِ الإجْمالِ[1]، وأنه الإله وحده إنْ وحَّدوا أو أَلْحَدوا، أقامَ دليلًا دالًّا على نظامِ خَلْقِهِ وبديعِ صُنْعِهِ، بما اجتمع فيه سبحانه من العلمِ والحكمةِ وتمامِ القدرة، منبهًا على وجوب حَمْدِه، مُفَصِّلًا لبعضِ ما يُحْمَدَ عليه، فذكر سبحانه من آياته ما يَبْعَثُ على العِظَةِ والاعتبار؛ في آيتِي اللّيلِ والنَّهار، وقدّم اللّيل لأنَّ آيتَه عَدَميَّةٌ، وهي أسبقُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَرۡمَدًا﴾: أصل (سرمد) يدلُّ على الدَّوام، واشتقاقه من السَّرد، وهو التَّتابُع والتَّعاقُب والاستمرار، ولمّا كان الزَّمان إنَّما يبقى بتعاقُب أجزائه، وكان هذا التَّعاقب يُسمَّى سردًا، فمن هنا جاء اشتقاق السَّرْمَد[3]. والسَّرْمَد: دوام الزَّمان واتِّصاله من ليل أو نهار. والسَّرْمَد أيضا: الدّائم الّذي لا ينقطع. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وقوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/ 12.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 342.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرمد).

﴿عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾. وليل سرمد؛ أي: طويل[1]. والجمع: سَرامِد، نحو: جَعْفَر وجَعافِر[2].

2) ﴿بِضِيَآءٍۚ﴾: أصل (ضوء) يدلُّ على نور[3]. ومنه الضَّوء والضّياء: ما أضاء لك، وهو ما انتشر من الأجسام النَّيِّرة، وجمع الضّياء: أضواء. ويقال: ضاءت النّار تضوء (ضَوءًا) و(ضوءًا)، وأضاءت، وأضاءها غيرُها، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾. والتَّضوُّؤ: أن يقوم الإنسان في الظُّلمة حيث يَرى بضوء النّار أهلَها ولا يرونه. وسمى اللّهُ كُتبَه المهتَدى بها ضياءً من حيث إنها تُنير وتُبَصِّر مَنِ اهتدى بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءً وَذِكۡرًا لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء: 48][4].

3) ﴿تَسۡكُنُونَ﴾: أصل (سكن) يدلُّ على الاستقرار، وخلاف الاضطراب والحركة، من هدوء أو ثبات[5]. ومنه السُّكون: ضِدُّ الحَرَكة. وسَكَن الشَّيء سُكونًا: استقرَّ وثبت. وكلُّ ما هدأ، فقد سكن، كالرّيح والحَرِّ والبرد والغضب. ومنه سكن دارَه، بمعنى: أقام بها، ويستعمل بمعنى الاستيطان كذلك. والسَّكَن: أهل البيت والدّار، وكذلك العيال. والسَّكن: كلُّ ما يُسْكَنُ إليه ويُطْمَأنُّ به من أهلٍ وغيره. والمسكن: المنزل والدّار والبيت، وجمعه مساكن[6]. ومنه قوله تعالى: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ أي: تستَقِرّون به من النَّصَبِ[7].

المَعنى الإجْماليُّ:

في هاتين الآيتين الكريمتين بيانٌ لامتنان اللّه سبحانه على عباده بما سخَّر لهم مِنَ اللّيل والنَّهار؛ حيث يوجّه الذِّكرُ الحكيمُ خطابَه للنّبيّ ﷺ بقوله: قل يا محمّد لهؤلاء

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سرمد).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (سرمد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضوء).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (ضوء).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سكن).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سكن).
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 308.

اللّيل والنَّهار آيتان عظيمتان من تسخير الكريم الرَّحمن ذي القدرة والامتنان

المشركين باللّه من قومك على سبيل التَّفضُّل والامتنان والتَّبكيت والإلزام: أخبروني أيُّها القوم المشركون باللّه الجاحدون لنِعَمِه وفضائله سبحانه!: جعل اللّه عليكم اللّيل دائمًا لا نهارَ يعقُبُه إلى يوم القيامة مَنْ معبودٌ غيرُ الإلهِ المعبودِ وحده بحقٍّ، وهو اللّه سبحانه يأتيكم بنهار تُبصرون فيه؟ أفلا تسمعون سماعَ تَدَبُّرٍ واستبصارٍ! ثُمَّ قل لهم أيُّها الرَّسولُ الكريمُ أيضًا: أخبروني أيُّها القوم إنْ جعل اللّه عليكم النَّهار مستمرًّا متتابعًا لا ليلَ يعقبُهُ إلى يوم القيامة مَنْ إلهٌ غيرُ اللّه المعبودِ بحقٍّ يأتيكم كذلك بليل تستقِرّون فيه وتستريحون من عناء التَّعب والمشقَّة؟ أفلا ترون هذه الظّاهرة الدّالَّة على قدرة اللّه ووحدانيَّته فتؤمنوا به وتخضعوا له سبحانه؟!.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة فصل الآية عن سابقتها:

الاستدلال ببديع مصنوعات الله على تفرُّده بالألوهيَّة

لمّا بيَّن سبحانه حقيقةَ أُلوهيَّته واستحقاقَه للحمد المطلق، وأنَّ مرجعَ الكلِّ إلى حكمته وقضائه، أتبعَه بعضَ ما يجبُ أن يُحمدَ عليه ممّا لا يقدرُ عليه أحدٌ سواه، وهو تبديلُ ظلام اللّيل بضياءِ النَّهار، وبالعكس[1]؛ فانتقل الكلامُ من الاستدلال على انفرادِه تعالى بالإلهيَّة بصفات ذاتِه إلى الاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته[2]، فناسَب ذلكَ أن تُفْصَلَ هذه الآيةُ عن سابقتها مستأنِفًا بها.

غرضُ الأمرِ في: ﴿قُلۡ﴾:

الأمرُ للتَّقريرِ بما هو يقين، والاستدلالُ بالتَّلقين

الغرض من الأمر في قوله: ﴿قُلۡ﴾ هو التَّقرير لما سبق ذكره من التَّوحيد واستحقاق اللّه تعالى للحمد وتفرُّدِه بذلك، فكأنَّ سائلًا سأل عن آية استحقاقِه للحمد وانفراده به وحدَه سبحانه وبحمدِه؛ فسيقَ إليهم هذا الاستدلالُ بأسلوب تلقينِ النَّبيِّ ﷺ بأنْ يقوله

(1) النِّيسابوريّ، تفسير القرآن: 5/ 359.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 168.

لهم اهتمامًا بهذا التَّذكير لهذا الاستدلال ولاشتماله على ضدَّين متعاقبين، حتَّى لو كانت عقولهم قاصرةً عن إدراك دلالة أحد الضِّدَّين لكان في الضِّدِّ الآخرِ تنبيهٌ لهم، ولو قَصَّروا عن حكمةِ كلِّ واحدٍ منهما كان في تعاقُبِهما ما يكفي للاستدلال(1).

معنى الاستفهامِ وغرضُه في: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾:

الرُّؤية في قولِه: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ رؤية قلبيَّة، والاستفهام في ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ تقريريٌّ مسوق للتَّبكيت والإنكار(2)، فكأنَّه قيل: أخبروني إن جعل اللّٰه عليكم اللّيل سرمدًا إلى يوم القيامة؛ مَن إله غير اللّٰه يأتيكم بضياء؛ أفلا تسمعون مثل هذه الدَّلائل الباهرة والنُّصوص المتظاهرة لتعرفوا أنَّ غير اللّٰه لا يقدر على شيء من ذلك؟ وأخبروني إن جعل اللّٰه عليكم النَّهار سرمدًا إلى يوم القيامة؛ مَن إله غير اللّٰه يأتيكم بليل تسكنون فيه؟ أفلا تبصرون الشَّواهد المنصوبة الدّالَّة على القدرة الكاملة لتقفوا على أنَّ غير اللّٰه لا قدرة له على ذلك(3)؟!.

الرؤيةُ قلبيَّةٌ للتَّدبُّر والاعتبار، والاستفهامُ تقريريٌّ للتَّبكيت والإنكار

تعيينُ المخاطَب في: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾:

الخطاب في الآية بقوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ موجَّهٌ إلى الكافرين من أهل مكَّة - حرسها اللّٰه - أي: قلْ يا أكمل الرُّسل لأهلِ مكَّة: أخبروني إن جعلَ اللّٰه عليكم اللّيل دائمًا إلى يوم القيامة لا نهارَ فيه مَن إلهٌ غيرُ اللّٰه يأتيكم بضياءٍ أي: بنَهارٍ تطلبونَ فيه المعيشةَ؛ أفلا تسمعونَ سماعَ فَهْمٍ وقَبولٍ؟.

الخطابُ لأهلِ مكَّة الكافرين، الّذين عميَتْ بصائرُهم عن نور اليقين

وقل لهم أيضًا: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: لا ليلَ فيه؛ مَن إلهٌ غيرُ اللّٰه يأتيكم بليلٍ تسكنونَ فيه أفلا تبصرونَ ما أنتم عليه مِن الخطأ(4)؟!.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 169.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 313، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 169.

(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 103.

(4) الخازن، لُباب التّأويل: 3/ 370.

وممّا يُعزِّز الرّأي القائلَ بأنَّ الخطاب لكفّار مكَّة كونُ السّورةِ مكّيَّةً، وكان كُفْرُ أهل مكَّة مُتَمَثِّلًا في توحيد الأُلوهيَّة، فقُصد من توجيه الخطاب لهم إقامةُ الحجَّة عليهم. ثمَّ هو - بعد ذا - يصلح لكلِّ مَن يصلح توجيه الخطاب إليه ممَّن سارت على خطى الأوَّلين أقدامُهم، وضلَّت عن الحقيقة أوهامُهم.

دلالة التَّعبير بالشَّرط الافتراضي: ﴿إِن جَعَلَ﴾:

تنبيه الأبصار، وإيقاظ البصائر للتَّدبُّر والاعتبار

جيء في الشَّرطين في قوله تعالى: ﴿إِن جَعَلَ﴾ بحرف ﴿إِن﴾ الّذي يفيد الشَّكَّ؛ "لأنَّ الشَّرط مفروضٌ فرضًا مخالفًا للواقع"[1]، فلن يقع ذلكَ وهو من تمام رحمةِ اللّه وواسعِ فضلِه، غير أنَّه افتراضٌ غرضُه تنبيه الأبصار، وإيقاظ البصائر لرؤيةِ نِعَم اللّه تعالى الّتي قَصُرَتْ عقولُ الكافرين عن إدراكها.

دلالةُ التَّعبير بفعل التحويل ﴿جَعَلَ﴾:

تدبُّر نعم المنعم الجليل

(الجَعْل) مِنْ فِعْلِ ﴿جَعَلَ﴾ لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ مِنْ (فَعَلَ وصَنَعَ) وسائر أفعال القلوب والتّحويل، ويَرِدُ تارةً بمعنى الخَلْقِ والإنشاء نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، وتارة بمعنى التّحويل والتّصيير نحو قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: 23]، وتارة بمعنى إيجادِ شيء من شيء وتكوينه منه نحو: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل: 72]، وتارةً بمعنى الظنّ المخالف للواقع نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: 19]؛ أي ظنّوهم واعتقدوهم[2]. والمعنى المحوريُّ للجعل هو تحويل الشَّيء إلى وضعٍ أو هيئةٍ معيَّنة[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 169.
(2) الراغب، المفردات: (جعل)، والسّامُرّائِيّ، معاني النّحو: 2/ 29.
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جعل).

وهو في هذا الموضع: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يحتمل اللَّفظُ معنى (صيَّره وحوَّله)، وفي التَّعبير بهذا اللَّفظ إشارةٌ إلى زوال النِّعمة بعد ثبوتها، وتحوُّلها عنهم بعد أن عرفوها، ممّا يزيد من التَّبكيتِ والتَّوبيخ على كفرهم بِنِعَمِ اللّه عليهم. وممّا يؤكِّده مجيء الفعل ماضيًا لإفادة التَّحقيق.

ويحتملُ اللَّفظُ معنى الإنشاء والخلق، وفيه إعمالٌ للذِّهن بالتَّفكُّر في نعم اللّه ﷻ، أنْ: ماذا لو خلق اللّه تعالى اللّيل بظلمته الدائمة لا ينسخُه نهارٌ، أو النَّهارَ بضيائه الدائم لا يُغَيِّرُه ليلٌ؟.

نكتة التَّعبير بلفظ الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة:

الغاية من التَّعبير بالرُّبوبيَّة الاستدلالُ على انفرادِ اللّه سبحانَه بالألوهيَّة

في غالب الاستعمال القرآنيِّ يجيء التَّعبير بالرُّبوبيَّة في مواضع تصرُّفِ اللّهِ تُجاهَ عِبادِه مِن خلقٍ ورزقٍ وتدبيرٍ وهدايةٍ، بينما يُعبَّر بالألوهيَّة في مواضعِ التَّكليفِ والتَّشريعِ والأمرِ والنَّهي؛ وقد يظنُّ النّاظرُ إلى هذه المعاني أنَّ الموضع هنا يقتضي التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبية لأنَّه موضعُ ذِكرِ تصرُّفِ اللّه تجاهَ عبادِه من تدبيرٍ وحفظٍ بتتابع اللّيل والنَّهار، بيدَ أنَّ النُّكتةَ من ذكر لفظِ الألوهيَّة هنا ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ هو أنَّه إنَّما ساق ذِكرَ تلكَ النِّعم في سياقِ الاستدلالِ على توحيدِ ألوهيَّته واستحقاقِه للعبادَةِ والحمدِ وحدَه لا شريكَ له، وهو - أي: توحيد الألوهيَّة - المسلك الّذي ضلَّت فيه قريش مع اعترافهم بربوبيَّته سبحانَه.

ففي التَّعبير بالألوهيَّة تبكيت لقريش إذِ اتَّخذوا من دون اللّه تعالى أوثانًا آلهةً لا تقدر على شيء، ولا تستطيع الإتيان باللّيل بعد النَّهار ولا العكس، وتركوا عبادة اللّه تعالى الّذي سخَّر لهم ما في السَّماوات والأرض.

وثمَّة ملمحٌ آخرُ، وهو أنَّ الامتنان بنعمة تسخير اللّيل والنَّهار في هذه الآية قد أُلبس ثوب التَّهديد بإذهابها، وهذا لا يقدر عليه إلّا إله قويٌّ متين؛ فلذلك كان التَّعبير بالألوهيَّة في هذا السِّياق أنسب.

معنى (على) ودلالتها في ﴿عَلَيۡكُمُ﴾:

استعلاءٌ حقيقي دالٌّ على القدرة ومجازيٌّ مُؤْذِنٌ بالعقاب

الأصل في معنى (على) أنّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوّ[1]. وهذا المعنى جليٌّ هنا من حيث إنَّ اللّيل والنَّهار آيتان سماويَّتان، والسَّماء اسم لكلِّ ما علا، ففي التَّعبير بـ(على) إيماءٌ مجازيٌّ إلى العقاب بسرمديّة اللّيل أو النّهار على الكافرين، فإذا جَعَلَ اللّهُ ﷻ اللّيل أو النَّهار سرمدًا، فإنَّ معنى ذلك أنّه عاقبةُ سوءٍ تعودُ على المخاطَبين بالآية المنكِرين لنِعَم اللّه ﷻ، ثم إن التعبير بـ(على) فيه دلالةُ استعلاءٍ حقيقيٍّ وذلك بتصوير اللّيل والنَّهار كأنَّ كُلًّا منهما كساءٌ سابغٌ يُجَلِّل ما تحته، بقدرة عظيمة، وتصرّف محكم؛ ليس لأحد منه مناصٌّ ولا مفرَّ، كما قال النّابغة:

فإنَّك كاللّيل الّذي هو مُدْرِكي *** وإن خِلْتَ أنَّ المُنْتَأى عنكَ واسعُ[2]

نكتة تقديم شبه الجملة على المفعول به:

الأهمُّ كون الضَّرر واقعًا على الكفّار، لا مجرَّد جعل اللّيل سرمدًا أو النَّهار

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ للعنايةِ والاهتمام بالمقدَّم، ولإلقاء المهابة في نفوس المخاطبين أنَّ هذا الجعل - الّذي سيفسَّر بعدُ - إنّما سيكون عليهم هم، وربَّما خُصّوا به عقوبةً لهم على كفرهم وإعراضهم.

سِرُّ تقديم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ في الآيتين:

اللّيل مقدَّمٌ عُرفًا وشرعًا، ونسخُه بآية النَّهار أعظمُ نفعًا

لتقديم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ أكثرُ مِن علَّة؛ منها:

أوّلًا: أنَّ تقديمَ ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ جارٍ على ما بَنَت العَربُ عليه حسابَ شهورِها مِن تقديم اللّيل وجعلِ النَّهار تابعًا له، ولم يرد في كتابِ اللّه تعالى على كثرة ترداده إلّا ذلك[3].

(1) سِيبَوَيْه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 497، والسّامُرّائيّ، معاني النّحْو: 3/ 47.
(2) النّابغة، الديوان، ص: 30.
(3) الغِرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 386.

ثانيًا: وأنَّه قدَّم اللّيل على النَّهار لأنَّ ذهاب اللّيل بطُلوع الشَّمس أكثر فائدةً مِن ذهاب النَّهار بدُخول اللّيل[1]؛ ذلك أنَّ اللّيل ظرفٌ للسُّكون، والسُّكونُ واحدٌ، أمّا النَّهار فظرفٌ للابتغاء مِن فضل الله تعالى، والسَّعيُ مختلف المشارب، متنوّعِ الأسباب، متعدِّد الطَّرائق، فقُدِّم اللّيل باعتبار أنَّ دوامَه فيه إذهابٌ لمنافع النَّهار المتعدِّدة، في مقابل منفعته الواحدة.

ثالثًا: وأنَّ نسخَ اللّيل بالنَّيّرِ الأعظمِ أبلغُ في المنافعِ وأضمنُ للمصالِح مِن نسخ النَّهار باللّيل فتقديم ذكر اللّيل لانكشافِه عن النَّهار الّذي يمكن من التَّصرُّف في المعايش بالسَّعي في المصالح إلى ما لا يُحصى كثرةً من المنافع المتعلّقة بالشَّمس أحقُّ وأولى[2].

رابعًا: وأنَّ نسخَ اللّيل بالنَّيّرِ الأعظمِ أبلغُ في المنافعِ وأضمنُ للمصالِح مِن نسخ النَّهار باللّيل؛ فتقديم ذكر اللّيل لانكشافِه عن النَّهار الّذي يمكن من التَّصرُّف في المعايش بالسَّعي في المصالح إلى ما لا يُحصى كثرةً من المنافع المتعلّقة بالشَّمس أحقُّ وأولى[3].

خامسًا: ومنها: أنَّ اللّيل مقدَّمٌ على النَّهار شرعًا وعُرفًا[4].

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لكلمة ﴿سَرۡمَدًا﴾:

هو مفعول على معنى التَّصيير، وحالٌ على معنى الخلق والتَّصوير

قوله تعالى: ﴿سَرۡمَدًا﴾ مفعولٌ ثانٍ، إنْ كان الجَعْلُ تصييرًا؛ والتقديرُ: (أرأيتم إن صيَّر الله اللّيل ليلًا دائمًا)، أو هو حالٌ إن كان الجعل بمعنى الخَلْق والإنشاء؛ والتَّقدير: (أرأيتم إن خلق الله اللّيل حال كونه دائمًا سرمدًا)[5].

---

(1) الكِرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 197.
(2) الإسْكافيّ، درّة التّنزيل: 1/ 993.
(3) الإسْكافيّ، درّة التّنزيل: 1/ 993.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 314.
(5) السّمين، الدُّرُّ المصون: 8/ 692.

السَّرمد الدّائم المتتابِعُ الوَصْلِ، بلا انقطاع فيه ولا فصل

دلالة التَّعبير بـ﴿سَرۡمَدًا﴾ مادةً وصيغةً:

اتّفق أهل اللغةِ على أنَّ ﴿سَرۡمَدًا﴾ بمعنى (دائمًا) إلّا أنَّ ﴿سَرۡمَدًا﴾ تزيد على معنى الدَّوام معنى الاتِّصال والتَّتابع وعدم الانقطاع، فالفرق بين السَّرمد والدّائم: أنَّ السَّرمدَ هو الّذي لا فصل يقع فيه، وهو اتّباع الشيءِ الشيءَ[1].

فدلَّت كلمة ﴿سَرۡمَدًا﴾ من حيث المادَّةُ والصِّياغة أنَّ فَرْضيَّة استمرارِ اللّيل وعدم نسخه بنهارٍ يكون بلا انقطاعٍ، فيكون اللّيل ظلامًا لا يتخلَّله ضوءٌ ولو قليلًا، ولا يُفهم هذا المعنى من خلال لفظةٍ غيرِ لفظةِ سَرْمدًا؛ فسبحان مَن هذا كلامُه.

انتهاء غاية أزمنة الدُّنيا دلالة على معنى الدَّوام

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتها:

الأصل في معنى ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على انتهاء الغاية[2]؛ كقولِك: سِرتُ مِنَ البصرة إلى بغدادَ. وجائزٌ أن تقول: سرتُ إلى الكوفةِ، وقد دخلتَ الكوفةَ، وجائزٌ أن تكون قد بلغتَها، ولم تدخلْها؛ لأنَّ ﴿إِلَىٰ﴾ نهايةٌ، فجائزٌ أن تقع على أوَّل الحدِّ. وجائزٌ أن تتوغَّل في المكان، ولكن تُمْنَع من مجاوَزته؛ لأنَّ النِّهايةَ غايةٌ، وكلُّ ما كان بعدَه شيءٌ لا يُسَمَّى غايةً.

و﴿إِلَىٰ﴾ في الآية الكريمة متعلِّقٌ بـ﴿جَعَلَ﴾ أو بـ﴿سَرۡمَدًا﴾ ومعناها انتهاء الغاية، والمراد بالغاية في قوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إحاطةُ أزمنة الدُّنيا وليس المرادُ انتهاءَ جعْلِه سَرْمَدًا[3].

نكتة التَّعبير بالغاية مع دلالة السَّرمد على الدَّوام:

المراد بالغاية في قولِه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إحاطة أزمنة الدُّنيا

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 276.
(2) سِيبَوَيْهِ، الكتاب: 4/ 230، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 463، والسّامُرّائِيّ، معاني النّحْو: 3/ 16.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 169.

ما كانت الآخرةُ غايةَ انتهائه فلا انتهاء معه

وليس المرادُ انتهاءَ جعْلِه سَرۡمَدًا[1]، وكلُّ ما كان بعدَه شيءٌ لا يُسَمَّى غايةً، فإذا كانت الغايةُ يومَ القيامةِ الّذي تتغيَّر فيه قوانينُ الدُّنيا ولا يخضع فيه اللّيل ولا النَّهار لقانونِ التَّعاقبِ، ولا يحتاج فيه النّاس إلى ذلكَ فلا يكون تتابعُ اللّيل والنَّهار يومَ القيامة نعمةً؛ إذ لا نفعَ وراءه؛ لأنَّ المرءَ في الدُّنيا وفي حال التَّكليف مدفوعٌ إلى أن يتعبَ لتحصيل ما يحتاج إليه، ولا يتمُّ له ذلكَ لولا ضوءُ النَّهار، ولأجله يحصل الاجتماع فتتمُّ المعاملات، ومعلومٌ أنَّ ذلك لا يتمُّ لولا الراحةُ والسُّكونُ باللّيل فلا بدَّ منهما والحالةُ هذه، فأمّا في الجنَّة فلا نصبَ ولا تعبَ فلا حاجة لهم إلى اللّيل؛ فلذلك يدوم لهم الضياء واللَّذات[2]. وهذا مناسب للتَّعبير بـ﴿سَرۡمَدًا﴾ الّتي دلَّت على الدَّوام والتَّتابع في الدُّنيا دون انقطاع حتى تكون القيامة.

نكتة حذف جواب ﴿إِن﴾:

من البلاغة أنَّ ما يُلْحَظ لا يُلْفَظ، وحذفُه تنشيطٌ للذِّهن وإعمالٌ للفكر

جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن جَعَلَ﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه، والتَّقدير: (فمن يأتيكم بضياء تطلبون فيه معايشكم، وتستعينون فيه على قضاء حوائجكم؟)، وفي حذف الجواب - مع وجود ما يدلُّ عليه في سياق الكلام مما يَلْحَظُه أصحابُ الإحساس اللُّغويِّ كالعربِ إبّانَ نزول القرآن - تنشيطٌ لذهن المتلقّي، وإعمالٌ لنظرِه في الكلام لاكتشافِ ما وراءَ حذفِه مِن أسرار؛ فإذا تدبَّر وجدَ في الكلام القرينةَ المقاليَّةَ الّتي تسعفُه في استنباطِ المحذوف والاهتداءِ إليه[3]، فلا يكونُ وراءَ الحذفِ غموضٌ أو إلغازٌ، بل عمقٌ في التَّعبير، وبلاغةٌ في الإيجاز.

معنى الاستفهام وغرضه:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 169.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/ 12.

(3) حسن طبل، عِلْمُ المَعاني، ص: 107.

إلزام الكفار بمعرفتهم أنَّ الله وحدَه هو القادر على الخلق

إنكاريٌّ، وهُم معترفون بهذا الانتفاءِ وأنَّ خالقَ اللّيل والنَّهار هو اللّه تعالى لا غيره[1]، فألزمهم لمعرفتهم واعترافهم بأنَّ اللّه وحدَه هو القادر على ذلك بأنْ يوحِّدوه لأنَّه هو المستحقُّ للعبادة وحدَه، وهذا هو محلُّ الإنكارِ، فكأنَّه قال: تعترفون أنَّ اللّه وحده هو القادر وهو الخالق وأنَّ تلك الآلهة عاجزة عن نفعكم وعن دَفْعِ الضُّرِّ عنكم إذا أراده اللّه عليكم ثمَّ تشركون به غيره؟!

علَّة الاستفهام بـ﴿مَنۡ﴾ بدلًا من (هَلْ):

الغاية تبكيت المعرضين وبيان ضلالهم المبين

قال تعالى: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾ وكان حقُّه - على ما يظهر - أن يسأل بـ(هل) لا بـ﴿مَنۡ﴾ فإنَّ (هل) لطلب التَّصديق، وهو المناسب للمقام بحسب الظّاهر، وأمّا ﴿مَنۡ﴾ فلطلب التَّعيين المقتضي لأصلِ الوجود؛ كأنَّه قال: هذه الآلهة الموجودة مَن منهم يقدر على الإتيان بضياءٍ يشقُّ ظلمةَ اللّيل أو ليلٍ يغطّي ضوء النَّهار إذا أراد اللّه جَعْلَ أحدِهما سَرْمَدًا؟ وكأنَّه سأل بـ﴿مَنۡ﴾ جَرْيًا على زعمهم أنَّ آلهتهم موجودة تبكيتًا وتضليلًا وهو أبلغ لمناسبة المقام لهذا المعنى الشَّريف[2].

نكتة التنكير في لفظ ﴿إِلَٰهٌ﴾:

نفي صفة العظمة عن الآلهة المدَّعاة، وإثباتها لله سبحانه

تنكير الاسم ﴿إِلَٰهٌ﴾ لغرض التَّعظيم والتَّفخيم، فإنَّ قوله تعالى: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ كأنَّه قال: مَن إلهٌ عظيمٌ قادرٌ يستطيع أن يأتيَ بضياءٍ أو ليلٍ حبسَه اللّهُ عنكم؟ وفي هذا التَّعظيم المفهوم من تنكيرِ الاسم نفيٌ لصفة العظمة والقدرة على التَّصرُّف عن الآلهة المُدَّعاة؛ ممّا عُلم سابقًا من معنى الاستفهامِ في الآية، واعترافِ الكفّار بالانتفاء؛ فإذا كان ذلك كذلك وانتفت صفة العظمة والقدرة عن تلك الآلهة المزعومة الباطلة؛ فإنَّها تَثْبُتُ للّه ﷻ وحدَه؛ إذْ عُلِم من الكلام أنَّ الإتيانَ بضياءِ النَّهار وظلمةِ اللّيل والتَّعاقب بينهما لا يقدر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 169.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 184، والشّهاب، عناية القاضي: 7/ 83.

عليه إلّا عظيمٌ متصرِّفٌ بهذا الكون وأنَّ آلهتهم لا تقدرُ على ذلك لانتفاءِ صفة الألوهيَّة وصفة العظمةِ والقدرة، وأنَّ اللّه يفعل ذلك وحدَه بقدرته وعظمته سبحانَه.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ:

انتفاءُ الموصوف بانتفاءِ الصِّفة

قوله تعالى: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله سبحانه: ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿إِلَٰهٌ﴾. والجملة في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾ في محلِّ رفعٍ صفةٌ أخرى له، عليها يدور أمر التَّبكيت والإلزام كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 31]، وقوله سبحانه: ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠﴾ [الملك: 30] ونظائرهما خلا إنَّه قصد بيانَ انتفاء الموصوف بانتفاء الصِّفة[1].

نكتة الإظهار في موضع الإضمار:

الإظهـار لبيان العِلِّيَّة، وتعظيم الذّات العليَّة

في قول اللّه تعالى: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ إذِ السِّياق أن يقال: (مَن إلهٌ غيرُه) بعد تقدُّمه مُظهَرًا في قوله سبحانه: ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ﴾ وذلك لبيان العِلَّة في الحكم، وأنَّ تسخير اللّيل والنَّهار لا يقدر عليه إلّا إله عظيم قادرٌ. فلمّا لم تقدر آلهتهم الّتي يدعون من دون اللّه على شيءٍ من ذلك فتبيَّن أنَّه لا إله إلّا اللّه؛ إضافة إلى ما في التَّعبير بلفظ الجلال من إلقاء المهابة والإجلال في نفوس المتلقّين ممَّن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد.

بلاغة الاستعارة:

الإتيان باللّيل والنّور مستعار للإيجاد بجامع المثول والظُّهور

في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾، و﴿يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ﴾ استعارة بديعة؛ إذِ الإتيانُ بالضِّياء وباللّيل مستعارٌ للإيجادِ، حيث شبَّه إيجادَ الشَّيء الّذي لم يكن موجودًا بِجَلْبِ شيءٍ من مكان إلى مكانٍ، ووجه الشَّبه المُثول والظُّهور[2].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 313.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 169.

دلالة التَّعبير بالمضارع:

تعاقب اللّيل والنَّهار يدل على التَّجدُّد والاستمرار

التَّعبير بالفعل المضارع يفيد التجدُّد والاستمرار فكأنَّه قال: من إله غيرُ اللّه قادر على الإتيان بالضّياء واللّيل متعاقبَيْن متجدّدَيْن على الدَّوام؟ وفي هذا المعنى أيضًا مقابلة للتعبير بكلمة ﴿سَرۡمَدًا﴾؛ أي: إذا أراد اللّه تعالى ثبوتَ الظُّلمة أو الضَّوء دائمًا لا يتغيَّر، فمن إلهٌ مِن آلهتكم المزعومة قادرٌ على تغيير هذا الدَّوام بما يقابله مِن دوام التَّعاقب بين اللّيل والنَّهار؟.

نكتة تعدية فعل الإتيان إلى ضمير المخاطَبين:

إيصال النِّعمة إلى المخاطَبين، وإسباغها عليهم

في تعدية فعل يأتيكم في الموضعين إلى ضمير المخاطَبين إيماءٌ إلى أنَّ إيجادَ الضّياءِ وإيجادَ اللّيل نعمةٌ عظيمة للنّاس، وليكون ذلك حجَّة على كلِّ قارئ لهذه الآيات أو مستمع لها، فهي تخاطبه هو؛ فتعاقُبُ اللّيل والنَّهار نعمةٌ لا يتفاضل فيها النّاس، إذ إنَّهم جميعًا يعاينونها ويلمسون أثرها. وهذا إدْماجٌ للامتنانِ في أثناءِ الاستدلالِ على الانفرادِ بالإلهيَّة[1].

معنى (الباء) ودلالتها:

بيان شدَّة تعلُّق الإتيان باللّيل والضِّياء متعاقبَين

في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾، و﴿يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ﴾ الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق؛ كقولك: به داء؛ أي التصقَ به وخامرَه. ومررت به، والمعنى: التصق مروري بموضع يقرب منه. والإلصاق حقيقيٌّ ومجازيٌّ، فمن الإلصاق الحقيقِي: قولك: (أمسكت بزيدٍ) إذا قبضتَ على شيء مِن جسمه، أو على ما يحبسه مِن يدٍ أو ثوبٍ أو نحوه. ومن الإلصاق المجازيّ قولك: (بخل به)؛ أي: التصق بخله به، وتعلَّق به إذا كان التَّعلُّق معنويًّا[2]. والإلصاق أو التَّعلُّق في هذه الآية هو اتِّصالُ الإتيان بالضِّياء لتأكيد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 170.

(2) سِيبَوَيْهِ، الكتاب: 4/ 217، والزَّمَخْشَرِيّ، المُفَصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 474، والسَّامُرّائِيّ، معاني النّحْو: 3/ 19.

معنى قدرة اللّه تعالى على الإتيان بالضّياء أو الظُّلمة فلِقوَّة إعلامه بالقدرة وتعريفه باللّه عُبِّر بهذا دون (يُؤْتيكم ضياءً)[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بالضِّياء دون النّور أو النَّهار:

يلزم من وجود الضِّياء شروق الشمس وطلوع النَّهار

تدور معاني (نَهَرَ) حول التَّفتُّح والإرسال مِن شقٍّ، ومنه: (النَّهار)؛ لأنَّه انفتاح الظُّلمة عن الضِّياء؛ ولذلك سُمّي أوَّلُه فَجرًا. أمّا (ضَوَأ) فهو أصل صحيح يدلُّ على نورٍ، وأشعَّةٍ تنفذ من شيء وتنتشر فتزيل كثافة الظَّلام والإعتام[2]. وممّا سبق يظهر سرُّ إيثار التَّعبير بالضِّياء دون النَّهار في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾، فالأوَّل نورٌ وأشعَّةٌ منتشران، أمّا الثّاني فهو انفتاحُ الظُّلمة عن الأوَّل، فمَلْحَظُ الانتشار والإنارة وانقشاعِ الظُّلمة أظْهَرُ وأبْيَنُ في الضِّياء. إضافةً إلى أنَّ النَّهار يسبق الشَّمس في الظُّهور وتسبقُه في المغيب، أمّا الضِّياء فهو نورُ النَّهار وحرارة الشَّمس، فتزول بهما ظلمة اللّيل وبرودته؛ فلذلك عُبِّر به دون النَّهار.

أمّا النّور فلأنَّ ظلمة اللّيل قد تَخِفُّ قليلًا بنورِ القَمر فكان ذكرُ الضِّياءِ إيماءً إلى ذلك[3]، فقال: ﴿بِضِيَآءٍۚ﴾ ولم يقل: بنور؛ لأنَّ النّور قد يأتي مِن النُّجوم، وقد يأتي من القمر، أمّا الضياءُ - وهو نورٌ وأشعَّة وحرارة - فلا يأتي إلى الأرض إلا من الشَّمس؛ لذلك يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5][4].

معنى الاستفهام وغرضه:

تنزيل غير المنتفع بما يسمع ويرى منـزلةَ الأصمِّ الأعمى

لمّا استمرَّ المشركون على عبادة الأصنام بعد سطوع هذا الدَّليل وقد علموا أنَّ الأصنام لا تقدر على إيجاد الضِّياء ولا اللّيل - جُعِلوا كأنَّهم لا يسمعون هذه الآيات الّتي أقامت الحجَّة الواضحة على فسادِ

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 343.

(2) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نهر) و(ضوأ).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 170.

(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11001.

معتقدِهم، ففرَّع على تلك الحجَّة الاستفهامَ الإنكاريَّ عن انتفاءِ سماعِهم بقولِه ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾؛ أي: أفلا تسمعون الكلامَ المشتمل على التَّذكير بأنَّ اللّه هو خالق اللّيل والضِّياء ومنه هذه الآية[1]، وأيضًا عن انتفاء إبصارهم بقوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ أي: أفلا ترون بأبصاركم اختلاف اللّيل والنَّهار عليكم؛ رحمةً من اللّه لكم، وحجَّةً منه عليكم، فتعلموا بذلك أنَّ العبادة لا تصلح إلا لِمَن أنعم عليكم بذلك دون غيره، ولِمَن له القدرة الّتي خالف بها بين ذلك[2]، وإنَّما قال: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾، و﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ لأنَّ الغرض من ذلك الانتفاعُ بما يسمعون ويبصرون من جهةِ التدبُّر، فلمّا لم ينتفعوا نُزِّلوا منزلةَ مَن لا يسمع ولا يُبصر أصلًا[3]. وقد أحسن المتنبيّ إذْ قال:

وما انتفاع أخي الدُّنيا بناظِرِهِ *** إذا استوت عندَه الأنوارُ والظُّلَمُ[4]

فيكون الاستفهام إنكاريًّا لتوبيخ الكفّار وتبكيتهم، وتقدير الكلام: أفلا تسمعون سماع مَن يتدبَّر المسموع ليستدركَ منه قصد القائل، ويحيطَ بأكثر ما جعل اللّه في النَّهار من المنافع، أم أنتم صمٌّ عن سماع ما ينفعكم؟ وهل عميتم فما عدتم ترون ما أنتم فيه من الخطأ في عبادة غير اللّه سبحانه؟ فإذا أقررتم بأنَّه لا يقدر على إيتاء اللّيل والنَّهار غيرُه فلِمَ تشركون به[5]؟.

معنى (الفاء) ودلالتها:

نَفْيُ السَّمع والإبصار تفريعٌ على الكفر مع الإقرار

الفاء في قوله: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾، و﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عاطفة على محذوف مقدَّر[6]، وجملة: (لا تَسْمَعونَ) لا محل لها، معطوفةٌ على

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 170.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 613.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/ 12.

(4) المتنبيّ، ديوانه، ص: 331، والبيت من قصيدة له في معاتبة سيف الدولة الحمداني، مطلعها:

واحرَّ قلباهُ ممَّن قَلبُه شَبِمُ *** ومَن بجسمِي وحالِي عندَه سَقَمُ

(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 308.

(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 368.

استئنافٍ مقدَّر؛ أي أصممتم آذانكم فلا تسمعون؟! ومثلها جملة: (لا تُبْصِرونَ)[1]. وقد أفادت هذه الفاءُ التَّفريعَ؛ أي يتفرَّعُ على اعترافِكُم وإقراركم بأنَّه وحده سبحانه القادر على ذلك إنكارُ عدم السَّماع والبصر إذ لم ينفعكم السَّماع ولا البصر[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع:

الحجج المتجدِّدة آنًا بعد آنٍ يلزمها سمع وبصر متجدِّدان

التَّعبير بالمضارَعَة يفيد التَّجدُّد والاستمرار، وهو مناسب لبيان كثرة الحجج وتتابع البيِّنات الدَّالَّة على قدرته تعالى وعظمته وانفراده بذلك؛ والتَّقدير: (أفلا تُجَدِّدون السَّمع والبصر لتلك الحجج المتجدِّدة المتتابعة تتابُعَ اللَّيل والنَّهار؟!).

نكتة حذف المفعول:

تنزيل المتعدِّي منزلة اللّازم

حُذف المفعول به في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ لتنزيل الفعل المتعدِّي منزلة الفعل اللّازم، وذلك لعدم تعلُّق الغرض بذكر المفعول؛ لأنَّ المراد في مثل هذه الحالة هو إفادة مجرَّد ثبوت الفعل للفاعل أو نفيه، نحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: 9]؟.

فالمعنى: هل يستوي مَن لهم علم ومَن لا علم لهم؟ بغض النَّظر عن المعلوم أيًّا كان نوعه[3]، وكذلك الأمر في هذا الموضع فالمعنى: نَفْيُ السَّمع عنهم مطلقًا لا نَفْيُ سماعِ حجَّةٍ بعينها، ونَفْيُ البصر مطلقًا دون نَفْيِ مرئيٍّ بعينه. وفي ذلك تأكيد لمعنى تنزيلهم منزلة الأعمى الأصمّ. وفيه - مع ما تقدَّم - إيجاز بليغ.

بلاغة الإدماج في الآية:

الامتنان بالنِّعم المتناثرة في الاستدلال على الألوهيَّة بالبيِّنات المتكاثرة

في الآية انتقال من الاستدلال على انفراد الله تعالى بالألوهيَّة بصفات ذاته إلى الاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته، وفي ضمن

(1) محمود صافي، الجدول: 10/ 289.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 157.
(3) عبد العزيز عتيق، عِلْم المَعاني، ص: 130.

هذا الاستدلال إدماج الامتنان على النّاس وتعريضٌ بكفر المشركين لجلائل نِعَمِهِ ﷻ[1]. ففي وصف اللّيل بقوله: ﴿تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ﴾ إدماج للمِنَّة في أثناء الاستدلال للتّذكير بالنِّعمة المشتملة على نِعَم كثيرة، وتلك هي نعمة السُّكون فيه؛ فإنَّها تشمل لذَّة الرّاحة، ولذَّة الخلاص مِنَ الحرِّ، ولذَّة استعادة نشاط المجموع العصبيِّ الّذي به التَّفكير والعمل، ولذَّة الأمن مِن العدوّ[2].

وقد فُهِم مِن ذِكر السُّكون هنا مقابلُهُ المحذوفُ من قوله تعالى: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾؛ أي: تستضيئون به[3]، وتبصرون فيه معايشكم، وتصلح فيه الثِّمار والنَّبات[4]، وتبتغون فيه من فضل ربِّكم ﷻ. فكُلُّ ما ذُكِر - مع كونه من دلائل الألوهيَّة - هو امتنان على النّاس بعظيم منَّة اللّه تعالى عليهم بتتابع اللّيل والنَّهار وما فيهما من آلاء متكاثرة ودلائل متناثرة.

نكتة تكرار الأمر:

التَّقرير يناسبه التَّكرير

كُرِّر الأمر بالقول: ﴿قُلۡ﴾ في مقام التَّقرير؛ لأنَّ التَّقرير يناسبه التَّكرير مثل مقام التَّوبيخ ومقام التَّهويل[5]، ولأنَّ اللّيل والنَّهار نعمتان مختلفتان، فناسب تكرار الأمر مع كلِّ نعمة منهما لتكون مستقلَّة في التَّذكير بها عن أختها.

بلاغة التَّكرار في الآية الثّانية:

التَّكرار أنسب لمقام التَّقريع، وآكد في التَّوبيخ والتَّشنيع

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 168.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 170.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 612.
(4) البَغَوِيّ، معالم التّنزيل: 6/ 219، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 308.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 168.

﴿ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ تكرار لبعض الجمل، وذلك في قوله ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ﴾، وقوله: ﴿سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وقوله: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم﴾

وقد أوثِرَ الإطنابُ بالتَّكرار دون الاكتفاء بالعطف؛ إذ الغرض منه التَّوكيد وتقرير المعنى في نفوس أقوام متردِّدين في التَّصديق، معرضين عن التَّوحيد مع توافر أدِلَّتِهما.

ولمّا كان المقام هنا مقام توبيخ وتقريع ووعيد ناسَبَ أن تُذكَر الحُجَّةُ مكرَّرةً لأنَّها ساعتئذ تكون في الآذان أَصْدَعَ، وفي القلوب أَوْقَعَ[1]. ثمَّ إنَّ فيها مناسبة لما سيقت له من تكرار تعاقب اللّيل والنَّهار.

دلالة تقييد اللّيل بالوصف، وترك وصف الضِّياء:

منافع النَّهار متكاثرة منتشرة، غير مقصورة ولا منحصرة

لم يجئ التَّركيب (بنهار تَسْعَون فيه وتتصرَّفون فيه)، كما جاء ﴿بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ﴾؛ لأنَّ منافع الضِّياء متكاثرة، ليس التَّصرُّف في المعاش وحده، والظَّلام ليس بتلك المنزلة، وأيضًا لأنَّ الضَّوء نعمةٌ في ذاته مقصود بنفسه وليس اللّيل كذلك[2]. ولمّا كان النّور نعمةً في نفسه، وبه يُعْرَفُ خالقُه، صرَّح به وطوى أثره فقال: ﴿يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾؛ أي: يولِّد نهارًا تنتشرون فيه[3]؛ ليُؤْذِنَ بأنَّ منافع النَّهار ليست مقصورة على التَّصرُّف؛ فإنَّ منافعه متكاثرة، ولهذا لا يطَّلع عليه كلُّ أحد. كأنَّه قيل: أتيناكم بضياءِ الشَّمس؛ ليتسهَّل لكم جميع ما تفتقرون إليه من التَّصرُّف في المعاش وغيره[4].

ولو قيل: بضياء تتصرَّفون فيه لفُهِم أنَّه إنَّما يُقصد لما يتوصَّل إليه ولا يُقصَد لنفسه، ولأنَّه لو وصف الضِّياء بما يقابل ما وُصِفَ

(1) أحمد شعيب، علوم البلاغة العربيَّة، ص: 336.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 321، والبَيْضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 184.
(3) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف 3/ 429، والبِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 343.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 102.

به اللّيل لفُهِم أنَّ منفعته منحصرة فيما وُصِف به وليس بمنحصرة فيه، بل له منافع كثيرة؛ ولذلك أُطلق الإيذان بذلك والاحتراز عن توهُّم الانحصار[1]، فتجريد الضِّياء عن ذكر منافعه لكونه مقصودًا بذاته ظاهرَ الاستتباع لِما نيط به من المنافع[2].

بلاغة الاحتباك في الآية:

من بديع الإيجاز تأدية كثير المعاني بقليل المباني في فصاحة ووضوح

في الآية احتباك بديع، وتقديره: ﴿يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ﴾ مظلم ﴿تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ﴾، و: ﴿يَأۡتِيكُم﴾ بنهار ذي (ضياءٍ) تبتغون فيه من فضله، فَذَكَرَ الضِّياءَ أوَّلًا دليلًا على حذف الظَّلام ثانيًا، وذَكَرَ اللّيل والسُّكون ثانيًا دليلًا على حذف النَّهار والانتشار أوَّلًا[3]. والمعنى: ألم يروا أنّا جعلنا اللّيل مظلمًا ليسكنوا فيه، والنَّهار مبصرًا ليبتغوا فيه من فضله، فحذف من الأوَّل نقيض ما ذكر في الثّاني، ومن الثّاني نقيض ما ذكر في الأوَّل[4]. وهذا من بديع الإيجاز، حيث يؤدَّى كثيرُ المعاني بقليل المباني بلا غموض ولا إيغال.

عِلَّة اختلاف التَّذييل:

السَّماع لظلمة اللّيل أنسب، والبصر مع ضوء النَّهار أقرب

قُرِن بالضِّياء قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾؛ لأنَّ السَّمع يدرِك ما لا يدركه البصر مِن ذِكر منافعه ووصف فوائده، وقُرِن باللّيل قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ لأنَّ غيرك يبصر من منفعة الظَّلام ما تبصره أنت من السُّكون ونحوه[5]. فقوله تعالى في الآية الأولى: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ مناسب للمدرَك ليلًا من ضربَيّ ما يُعتَبَر به مِن المسموعات والمبصَرات، إذ اللّيل حائل دون المبصَرات، وإنَّما تُدرَك فيه المسموعات؛ لأنَّ ظلمة اللّيل غير مانعة من إدراكها، فجيء معه بما يناسبه، فلو اللّيل كان دائمًا لم تكن للنّاس رؤية، لأنَّ رؤية الأشياء

(1) محيي الدين زاده، حاشية على البَيْضاوِي: 6/ 470.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 23.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 344.
(4) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 262.
(5) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف 3/ 429.

مشروطة بانتشار شيء من النّور على سطح الجسم المرئيّ، فالظُّلمة الخالصة لا تُرى فيها المرئيّات؛ ولذلك جيء في جانب فرض دوام اللّيل بالإنكار على عدم سماعهم فقيل: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾. وجيء مع ذكر النَّهار بما يناسب أيضًا، فقيل: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ لأنَّ المبصَرات تدرَك نهارًا ولا تدرَك في ظلمة اللّيل، فجيء مع كلٍّ بما يناسب[1].

سرُّ تقديم السَّمع على البصر:

الدَّلائل النَّصِّيَّة المدرَكة بالسَّمع أسبق وأولى من الدَّلائل العقليَّة المدرَكة بالنَّظر

تقديم ﴿تَسۡمَعُونَ﴾ وتأخير ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ لأنَّه يأتي عَقيبَ السَّماع استدراكُ المرءِ المرادَ بالمسموع إذا كان هناك تدبُّرٌ له وتفكُّرٌ فيه[2]، ولأنَّ مدرَك السَّمع أكثر من مدرَك البصر، واستفادة العقل من السَّمع أجلُّ من استفادته من البصر، وفي ذلك دلالة على أنَّ دلالة النَّصِّ أولى وأقدم من دلالة العقل[3].

وثمَّ ملمح آخر، وهو أنَّه لاعتبار الأوَّليَّة والآخريَّة ذُيّلت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ بناء على أنَّ المعنى أفلا تسمعون ممَّن سلف من آبائكم أو ممّا سلف منّا أنَّ آلهتكم لا تقدر على مثل ذلك؟ بينما ذُيِّلتِ الثّانية بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ بناءً على أنَّ المعنى أفلا تبصرون أنتم عجزَها عن مثل ذلك[4]؟!

۞ الفروقُ المُعجَميَّة:

النَّظر والبصر والرُّؤية:

النَّـظَـرُ توجيهُ البَصَرِ إلى شيءٍ لرؤيته، والبَصَرُ إبصارٌ بالحاسّة، والـرؤيـةُ إدراكُ المرئيّ

الفرق بينها أنَّ النَّظر تقليبُ العين حيال مكان المرئيّ والإقبالُ بالبَصَرِ نحوه طلبًا لرؤيته؛ ولذلك قد يَنظر الإنسانُ إلى شيءٍ ولا يراه، والرؤيةُ هي إدراكُ المرئيّ[5]، وذلك أضرب بحسب قوى

(1) ابن الزُّبير الغِرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/ 386، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 171.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 104.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 102 - 103.
(4) الآلوسيّ روح المعاني: 10/ 314.
(5) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغَوِيّة، ص: 543، 544.

النَّفْس، ومن هذه الأضرب ضربٌ بالحاسّة وما يجري مجراها، نحو قول الله ﷻ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: 6 - 7]، وقوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 60]، وضربٌ بالوهم والتَّخيُّل، نحو: أرى أنَّ زيدًا منطلقٌ[1]. والبَصَرُ في الإنسان حِسُّ العين وحاسَّةُ الرؤية، ويُقال: للجارحة النّاظرة[2]. وبصر الشَّيء يعني إبصار صورته وشكله بالحاسَّة؛ فلا يكون بالوهم والتَّخيُّل كما في أضرب الرؤية. ولمّا كانت الرؤيةُ هي إدراكُ المرئيّ، كان الإبصارُ أسبقَ منها؛ لأنَّ إدراكَ الشَّيء يكون بعد إبصاره[3].

الجَعل والخَلق:

في الجَعل معنى التَّصيير، وفي الخَلق معنى التَّقدير والتَّسوية

الفرق بينهما أنَّ الخَلْقَ فيه معنى التّقدير والتّسوية[4]. والمعنى المحوريّ لجذره: تهيئةِ مادَّة لتكون شيئًا معيَّنًا مرادًا[5]، أما الجَعلُ ففيه معنى تصيير الشَّيء على حالة دون حالة[6]، والمعنى المحوريّ لجذره: تحويل الشَّيء إلى وضع أو هيئة معيَّنة[7].

السَّرمد والأبد:

السَّرمد لدوام اللّيل أو النَّهار وهو دوامٌ له حدٌّ زمنيّ، والأبد لدوامٍ بلا حدٍّ زمنيّ

الأبَد: عبارة عن مُدَّة الزَّمان الممتدّ الّذي لا يتجزَّأ كما يتجزَّأ الزَّمان؛ ولذلك يقال: زمان كذا، ولا يقال أبد كذا[8]. ويدور المعنى المحوريّ لجذره حول البقاء الدّائم أو الإقامة الدّائمة بلا حدّ. ومن

---

(1) الراغب، المفردات: (رأى).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (بصر).
(3) عبد الجبّار فتحي زيدان، الفروق اللُّغَويّة في القرآن الكريم، ص: 285.
(4) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف: 2/ 3، والبَيْضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 2/ 153، وأبو البقاء الكَفَوِيّ، الكُلِّيّات، ص: 430.
(5) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلق).
(6) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(7) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جعل).
(8) الرّاغب، المفردات: (أبد).

انتفاء الحدّ الزمنيّ: الأبَد، فهو ظرفٌ زمنيّ للدَّوام بلا حدود[1]. أمّا السَّرمد: فهو دوام الزّمان واتصاله من ليل أو نهار[2]. والسَّرمد: الدّائم الّذي لا ينقطع[3]. ومعناه المحوريّ: الدّوام الزمنيّ. ورأى ابن فارس أنَّ الميم زائدة فأعادها إلى السّرد، أي إنَّ فيه معنى الامتداد والتّوالي. وهذا امتدادٌ وتوالٍ زمنيّ لا ينقطع[4].

وممّا سبق يتبيَّن أنَّ السَّرمدَ يفترق عن الأبَد بأنَّ السَّرمدَ يُعبَّر به عن دوامِ اللّيل واتصالِه، أو دوامِ النَّهار واتصالِه، ولا يُعبَّر بالأبَدِ عن ذلك، ويتبيَّن أنَّ الأبدَ يُستعمل في التعبير عن دوام زمنيٍّ بلا حدود، أمّا السَّرمدُ فهو دوامٌ له حدٌّ؛ لذا قال اللّه تعالى في الآيتين: ﴿سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾. ولمّا كان الأبدُ يدلُّ على الدَّوام المكانيّ والزَّمانيّ بلا حدود، عُبِّر به عن إقامة أهل الجَنَّة الدائمة بلا حدّ، ولم يُعبَّر عنها بلفظ السَّرمد.

الضِّياء والنّور:

الضياءُ تَصحبه الحرارةُ والدِّفء، والنّورُ ضَوءٌ ليس فيه حرارةٌ ولا دفءٌ

الفرق بينهما يتمثَّل في أنَّ الضّياءَ تَصحبه الحرارةُ والدِّفء، والنّور إنارةٌ حليمة، ولذلك يُسَمَّى نورُ القمر النّور الحليم؛ فلا تحتاج إلى الظِّل لتستظلَّ من حرارته، ولكنَّك تحت الشمس تحتاج إلى مظلَّة لتقيك حرارتَها[5].

الفرق بينهما يتمثَّل في أنَّ الضّياءَ تَصحبه الحرارةُ والدِّفء، والنّور ليس كذلك فلا تحتاج إلى الظِّل لتستظلَّ من حرارته، ولكنَّك تحت الشَّمس تحتاج إلى مظلَّة لتقيَك حرارتَها، فتبيَّنَ ممّا سبقَ أنَّ النّورَ هو ضوء ليس فيه حرارة، والحرارة لا تنشأ إلا حين

(1) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (أبد).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، التهذيب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سرمد).
(3) ابن منظور، اللّسان: (سرمد).
(4) ابن فارس، المقاييس: 3/ 160، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سرمد).
(5) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراوي: 9/ 5738.

يكون الضَّوء ذاتيًّا من المضيء مثل الشَّمس. أمّا القمر فضوؤه غير ذاتيّ، ويكتسب ضوءَه من أشعّة الشَّمس حين تنعكس عليه، فهو مثل المرآة حين تسلّط عليها بعضًا من الضَّوء فتعكسه، فالشَّمسُ تعطي ضياءً، والقمرُ يعطي نورًا؛ لذا قال اللّه ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5](1).

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراوي: 9/ 5738.

﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [القصص: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في تَصَرُّم اللّيل والنَّهار العِبَر، وفي تعاقبهما الذِّكرى والمدَّكَر

لمّا بيَّن سبحانه أنَّ اللّيل والنَّهار وما يحدث بينهما من تعاقب من دلائل القدرة العظمى، ومن أجلِّ مظاهر الرُّحْمَى؛ بيَّن سبحانه أنَّهما يشتملان كذلك على مظاهرَ عظيمةٍ كبرى؛ فقد دبَّر سبحانه فيهما وبهما مصالح العباد؛ ورتَّب سبحانه لهم طرق العيش المراد؛ فجعل اللّيل سكنًا لهم ولباسًا، وقرارًا وإيناسًا؛ تسكن فيه الحركات، وتأوي فيه الكائنات، وجعل النَّهار للسَّعي والعمل، وباعثًا في النفوس الأمل؛ فـ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٧٠﴾ [القصص: 70][1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾: أصل (بغي) يدلُّ على طلب الشَّيء[2]. والبَغْي: التَّعدّي، وطلب تجاوُزِ الاقتصادِ فيما يُتَحرَّى، تجاوَزَه أَمْ لَمْ يُجاوِزْه[3]. وأكثر استعمال البَغْي في الأشياء المذمومة، لا سيما إذا أطلق، نحو: زيد بَغَى[4]. والبُغْيَة: الحاجة وكلُّ ما يطلبه الإنسان من خير أو شرٍّ، يقال: لي في بني فلان بُغيةٌ؛ أي: حاجة. وبغى الشَّيءَ خيرًا كان أو شرًّا، يَبغيه: طَلَبَه[5]. وابتغى افتعالٌ من البَغْي بمعنى الطَّلب[6]، فالابتغاء: الاجتهاد في الطَّلَبِ، ثم يكون هذا الابتغاء محمودًا، إن

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 344، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 171.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (بغي).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (بغي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بغي).
(6) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (بغي).

كان الطَّلب لشيء محمود، ويكون مذمومًا إن كان الطَّلَبُ لشيءٍ مَذْموم[1]. وقوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ أي: لتطلبوا من رزقه في النَّهار[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من آثار رحمة ربّنا المنّان أنْ خلق لنا اللّيل والنَّهار بحُسْبان

يُبيِّن السِّياق القرآنيُّ في هذه الآية الكريمة مدى منَّةِ اللّه ورحمته بالنّاس جميعًا؛ حيث يقول: ومِنْ مظاهر رحمة اللّه بكم أيُّها النّاس أنْ خلق لكم اللّيل للاستقرار والرّاحة لأبدانكم مِنْ تعبِ التَّصرُّف نهارًا في شؤونكم المختلفة، وخلق النَّهار للسَّعي على أرزاقكم ومنافعكم المتعدِّدة؛ وذلك لحكمة عظيمة؛ هي أن تعرفوا نعمة اللّه وفضلَه عليكم في ذلك، فتشكروه بالطّاعة والتَّقرُّب إليه سبحانه بكلِّ أنواعِ العباداتِ في اللّيل وفي النَّهار[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾:

من جَعَلَ لكم السَّمع والأبصار بحكمته جَعَلَ لكم اللّيل والنَّهار برحمته

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ حرف استئناف[4]، وجوِّز أن تكون عاطفة[5]، فتكون جملة ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ الآية معطوفةً على جملة: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا﴾[6].

والحاصل أنَّه لمّا بيَّن سبحانه وبحمده حكمته في الآيتين السّابقتين مِنْ جَعْلِ السَّمع والأبصار، لنتدبَّر آياته، ونتبصَّر في مصنوعاته، قال ﷻ: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ أي: الّتي وسعت كلَّ شيء لا مِن غيرها من خوفٍ أو رجاءٍ أو تعلُّقِ غرضٍ من الأغراض ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بغى).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 308.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 227، والهرريّ، الحدائق: 21/ 262.
(4) الدرّة، تفسير القرآن وإعرابه: 7/ 107، ومحمود صافي، الجدول: 10/ 289.
(5) بهجت صالح، الإعراب المُفَصَّل: 8/ 442.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 171.

﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ آيتين عظيمتين دَبَّرَ فيهما وبهما جميعَ مصالحكم، وادَّخر معظم رحمته إلى الآخرة ومحا آية اللّيل ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾؛ أي: فلا تسعَوا في معاشكم، وجعل آية النَّهار مبصرةً (لِتَبۡتَغوا مِنۡ فَضۡلِهِ) بأن تسعَوا في معاشكم بجهدكم[1].

فهذا تصريح بنعمة تعاقب اللّيل والنَّهار على النّاس بقوله سبحانه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، وذلك ممّا دلَّت عليه الآية السّابقة بطريق الإدماج بقوله تعالى: ﴿يَأۡتِيكُم﴾، وبقوله ﷻ: ﴿تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ﴾[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بالرَّحمة:

الرَّحمة أعمُّ من الفضل وأرحب

عُبِّر بالرَّحمة في مَعرِضِ النِّعم ولم يُعَبَّرْ بالفضل أو غيرِه؛ لما في الآية من رفع العَنَتِ والعَذابِ الّذي كانَ سيقعُ على النّاس بجعل اللّيل سرمدًا أو النَّهار، فناسب هذا ذكر رحمة اللّه، ولأنَّ الرَّحمة أعمُّ من الفضل فتشمل النِّعم الظّاهرة والباطنة، وأيضًا لعدم تكرار كلمة الفضل المذكورة في قوله: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

معنى (مِن) ودلالتها في ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾:

تعاقب اللّيل والنَّهار لتحقيق السُّكون في الأوَّل والابتغاء في الثاني

(مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ تبعيضيَّة فإنَّ رحمة اللّه بالنّاس حقيقة كلّيَّة لها تحقُّقٌ في وجود أنواعها وآحادها العديدة، والمجرور بـ(مِن) يتعلَّق بالفعل ﴿جَعَلَ﴾، وكذلك يتعلَّق به ﴿لَكُمُ﴾، والمقصود إظهار أنَّ هذا رحمة مِن اللّه تعالى، وأنَّه بعضٌ مِن رحمته الّتي وسعت كلَّ شيء ليتذكَّروا بهما نعمًا أخرى[3].

ويجوز أن تكون (مِن) سببيَّة[4]؛ أي: بسببِ رحمته جلَّ شأنُه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 345.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 171.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 171.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 54، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 315.

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾؛ أي: في اللّيل ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ أي: في النَّهار بالسَّعي بأنواع المكاسب[1].

والأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداء الغاية[2]، فإنَّ تعاقبَ اللّيل والنَّهار لتحقيق السُّكون في الأوَّل والابتغاء مِن فضل اللّه تعالى في الثّاني إنَّما هي نعمة مبتدَأةً من رحمة اللّه تعالى.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾:

من رحمة الله جعْلُ النّهار للسَّعي واللّيل للسَّكَن

قوله تعالى: (مِن رَّحۡمَتِهِ) شبه جملة في محلِّ رفع خبر مقدَّم، وقوله سبحانه: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ مؤوَّلٌ بمصدرٍ بتقدير: (أنْ) مبتدأٌ مؤخَّرٌ، وهو كثير في كلامهم، ومنه المثل: (تسمعَ بالمعيديّ خيرٌ مِن أنْ تراه)[3]؛ أي: أن تسمع بالمعيديّ. فتقدير الكلام: جعلُ اللّهِ سبحانه اللّيلَ لكم لتسكنوا فيه والنَّهارَ لكم لتبتغوا فيه من فضله؛ كائنٌ من رحمته.

نكتة تقديم شبه الجملة على عامله:

ما قُدِّم هو الأهمّ، والعناية بإظهاره أتمّ

قُدِّم الجارُّ والمجرور (مِن رَّحۡمَتِهِ) على عامله ﴿جَعَلَ﴾ للاهتمام بمنَّة الرَّحمة[4]، فما قُدِّم في الكلام أوَّلًا هو الأهمُّ، والعناية بإظهاره أتمُّ، فتقديم الرَّحمة في جعله سبحانَه اللّيلَ والنَّهارَ أهمُّ من الجعل نفسِه إذ هو الدّاعي إلى الشُّكر المشار إليه في آخر الآية. وقد أدَّى هذا التَّقديمُ أيضًا إلى التَّشويق إلى المتأخِّر، ليتمكَّن من النَّفس كلَّ تمكُّنٍ، فكأنَّه أُريد أن تلتفت الأنظار إلى تعظيم نعمةِ تعاقبِ اللّيلِ والنَّهار، وإدراكِ أنَّها من آثار رحمة اللّه تعالى، ولا يكون اعتيادُها عليها، وإلفُها إيّاها، صارفًا لها عن تدبُّرها والتَّفكُّر فيها. ولمّا كان السِّياق سياقَ امتنانٍ وتذكيرٍ ناسبَ تقديمَ الرَّحمة على الجعل.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 315.

(2) سِيبَوَيْهِ، الكتاب: 4/ 224، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 459، والسّامُرّائِيّ، معاني النّحْو: 3/ 75.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 368.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 171.

معنى اللّام ودلالتُها في لفظ ﴿لَكُمُ﴾:

إفـــادة تبليغ نعمة الله تعالى للنّاس

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[1]. وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: خلقهما لأجلكم[2]؛ فإنَّما تعود منفعة تعاقب اللّيل والنَّهار على النّاس. فإن قيل: بل هو كذلك للدَّوابِّ والأنعام والشَّجر والثَّمر، قيل: إنَّ الدَّوابَّ والأنعام... إلخ، مُسَخَّرَةٌ للبشر كما قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: 13]، وقوله سبحانه - بعد ذِكر جملة من النِّعم المُسَخَّرة -: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾ [النازعات: 33].

بلاغة اللَّف والنَّشر:

الإيجاز اعتمادًا على المقابلة

سُلِك في قوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ طريقةُ اللَّفِّ والنَّشر، فيعود قوله تعالى: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ إلى اللّيل، ويعود قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ إلى النَّهار، وهو لَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّبٌ[3]. والتَّقدير: (جعل لكم اللّيل لتسكنوا فيه، وجعل لكم النَّهار لتبتغوا من فضله فيه)، فحذف الضَّمير وجارَّه إيجازًا؛ اعتمادًا على المقابلة[4]. "مع الإشارة بهذا الجمع إلى احتمال أن يسكن بعض النّاس في النَّهار، ويبتغي كسبَ رزقِه من فضل الله في اللّيل، لكنَّ هذا خلافُ ما هو الأصلح للنّاس بمقتضى تكوينهم الفِطْريّ"[5].

وقد أدَّى استخدام هذا الأسلوب البديعيّ إلى عطف النَّهار على اللّيل من دون أن يفصل بينهما فاصل كلاميٌّ، فجاء النَّظم: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ إشارة إلى صورة تعاقبهما في الواقع دون أن يفصل بين ذهاب النَّهار وحلول اللّيل فاصلٌ.

---

(1) سِيبَوَيْهِ، الكتاب: 4/ 217، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 479، والسّامُرّائِيّ، معاني النَّحْو: 3/ 64.

(2) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 8/ 54.

(3) الشَّعراويّ، تفسير الشعراوي: 18/ 11003.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 171.

(5) الميداني، البلاغة العربيَّة: 2/ 404.

ظهور النعم سبب لشكر المنعِم الجليل

معنى اللّام ودلالتُها:

اللّام في ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾ وفي ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ كلاهما للتَّعليل، ومدخولاهما علّتان لجعل اللّيل والنَّهار المستفاد من الفعل ﴿جَعَلَ﴾[1]، وللتَّنبيهِ على انفرادِ كلٍّ من المَنْفَعَتَينِ في عِلِّيَّة كلِّ واحد منهما على التَّوزيع؛ أُعيد اللّامُ في قوله: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[2]. أي: ومن رحمته أنه سبحانه زاوَجَ بين اللّيل والنَّهار لتسكنوا في أحدهما وهو اللّيل، ولتبتغوا من فضله في الآخَر وهو النَّهار، ولأداء الشُّكر منكم على المَنْفَعَتَينِ معًا[3].

الزَّمَن كالوعاءِ المحيط بما فيه حقيقيَّة

معنى (في) ودلالتُها، وتوجيه عود ضمير الغائب:

الأصل في معنى (في) أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً أو زمانيَّةً، حقيقيَّةً أو مجازيَّةً[4]. وقوله تعالى: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾؛ أي: لتسكنوا في وقتِ اللّيل وزَمَنِه، ويجوز أن تعود الظَّرفيَّة على الزَّمن عامَّةً فيكون المعنى: جعل لكم الزمان ليلًا ونهارًا لتسكنوا فيه، ولتبتغوا مِنْ فَضْلِه[5]، فرَجعتِ الهاء في ﴿فِيهِ﴾ عليهما جميعًا، كما تقول: إقبالك وإدبارك يؤذيني؛ لأنَّهما فعل، والفعل يُرَدُّ كثيرُه وتثنيتُه إلى الإفراد، فيكون ذلك صوابًا[6]. والحاصل أنَّ (في) جَعَلَتِ الزَّمَنَ كالوعاءِ المحيط بما فيه.

علة السُّكون في اللّيل مغايرة لعِلَّة الابتغاء من فضل الله في النَّهار

دلالة العطف:

جاء العطف بين الجملتين في ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ للمغايرة بين العِلَّتَيْن، فعِلَّةُ السُّكون في اللّيل مغايرةٌ لعِلَّة الابتغاء من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 171.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 54.
(3) الفخر الرّازيّ، تفسير الرّازي: 25/ 12.
(4) سِيبَوَيْه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمَخْشَرِيّ، المُفَصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل، 4/ 471، والسّامُرّائِيّ، معاني النّحْو: 3/ 57.
(5) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 153.
(6) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 310.

فضل اللّه في النَّهار، وقُدِّم السَّكن في اللّيل على الابتغاء من فضل اللّه بالنَّهار لأنَّ السَّكن لازم للابتغاء، فبه يتقوَّى المرء على السَّعي. ومع حصول المغايَرَة فإنَّ بين المعنيين تكاملًا واتِّصالًا وتلاؤمًا فكريًّا حسَّنَ الجمع بينهما في نسَقٍ واحد. فلا معنى للسَّكن بدون سعيٍ يسبقُه، ولا معنى للسَّعي إلّا بسكنٍ يلحقُه.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

إظهار الفضل والعناية

الأصل في معنى ﴿مِن﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية(1). وهو بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي أنَّ مبتدأ الابتغاءِ هو فضلُ اللّه تعالى، فيكون الابتغاء نفسه فضلًا من اللّه تعالى، وبَدْءُ الابتغاء كائنٌ هو أيضًا من فضل اللّه تعالى، فالّذي أقدَرَ عباده على السَّعي هو اللّه سبحانه، فهذا فضل منه تعالى عظيم، والّذي دبَّر لهم ما يسعون فيه لابتغاء الرّزق هو اللّه تعالى، فهذا خير منه أيضًا سبحانه جلّ وعزّ. فكلُّ هذه النِّعم العظام والمِنَن الجِسام بَعضُ رحمةِ اللّه وفضلِه على عباده. وفيه من التَّبكيت للكفّار ما فيه؛ إذ لم يشكروا بعضَ ما ظهر من نعمه سبحانه عليهم. وفي الآية نفي للإيجاب منه أو الوجوبِ عليه تعالى(2).

توجيه عَوْدِ الضَّمير في ﴿فِيهِ﴾ و﴿فَضْلِهِۦ﴾:

تكثير المعاني بتوجيه المراد من المباني

الضَّمير في ﴿فِيهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ يجوز أن يرجع على اللّيل خاصَّة على إضمار هاء أخرى للابتغاء تكون للنَّهار؛ ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ فيه ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾. ويجوز جَعْلُ اللّيل والنَّهار كالفعلين لأنَّهما ظُلمةٌ وضوءٌ، فترجع الهاء في ﴿فِيهِ﴾ عليهما جميعًا، كما يقال: إقبالك وإدبارك يؤذيني؛ لأنَّهما فعلٌ، والفعل يُرَدُّ كثيرُه وتثنيتُه إلى التَّوحيد(3).

(1) سِيبَوَيْه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 459، والسّامُرّائِيّ، معاني النَّحْو: 3/ 75.
(2) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 8/ 54.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 309.

وأمّا الضَّمير في ﴿فَضۡلِهِۦ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فيجوز أن يكون الضَّمير عائدًا على اللّه تعالى، والتَّقدير: (لِتَبتغوا من فضل اللّه فيه)، أي في النَّهار. وحُذفَ لدلالة المعنى عليه، ولدلالة لفظ ﴿فِيهِ﴾ السّابق عليه. وهذا هو الأقرب الأظهر. ويُحتمَل أن يعودَ الضَّمير على النَّهار؛ أي: من فضل النَّهار، وتكون إضافته إلى ضمير النَّهار على سبيل المجاز؛ إذ لمّا كان الفضل حاصلًا فيه، أُضيفَ إليه، كقوله: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: 33] على الإسناد المجازيّ[1]. وفيه إشارة إلى مدح السَّعي في طلب الرِّزق[2].

بلاغة الكناية في الآية:

لا مزيد للعبد على معنى الطَّلب، والرِّزق محضُ فضلٍ من الله

الأصل في معنى الابتغاء في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّه الطَّلَب، والأصل في معنى الفضل أنَّه الزِّيادة. والابتغاء من فضل اللّه تركيبٌ يُقصد به طلب المال عن طريق التِّجارة ونحوها ممّا أباحه الشَّرع الحنيف، ومِنْ ثَمَّ جُعِلَ كنايةً عن العمل والطَّلب لتحصيل الرِّزق. نحو قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: 20]. والرِّزقُ: فضلٌ مِن اللّهِ[3]. وفي التَّعبير بالابتغاء عن كسب العبدِ إشارةٌ إلى أنَّه لا مزيدَ له على معنى الطَّلب، ففيه نفيٌ للتَّأثير مِن جهته، كما أنَّ في قوله تعالى: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ نفيًا للإيجاب أو الوجوبِ عليه تعالى[4].

نكتة إسقاط الظَّرفيَّة في آية النَّهار:

ابتغاء فضل الله الواسعِ الفضل المنّان لا يُقيَّد بظرف ولا زمان

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يعود إلى لفظ الجلال؛

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 322.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 315.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 171.
(4) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 8/ 54.

أي: من فضل الله. والابتغاء من فضل الله يكون في كل وقت: في النَّهار، وفي اللّيل؛ ولهذا لم يُقيَّد بظرفٍ كما قُيِّد السَّكَن[1].

بلاغة المقابلة في الآية:

صِحَّةُ المقابَلات من فنون البلاغة الظّاهرة والفصاحة المتظاهرة

"جاء اللّيل والنَّهار في صدر الكلام وهما ضدّان، وجاء السُّكون والحركة في عَجُزِه وهما ضدّان، وجاءت مقابلة كلِّ طرفٍ منه بالطَّرف الآخر على التَّرتيب، وعبَّر سبحانه عن الحركةِ بلفظِ الإرداف، فاستلزم الكلام ضربًا من المحاسن زائدًا على المقابلة، والّذي أوجب العدولَ عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل؛ كون الحركة تكون لمصلحةٍ ولمفسدةٍ، وابتغاءُ الفضل حركةٌ للمصلحةِ دونَ المفسدَة وهي اشتراكُ الإعانة بالقوَّة وحسنِ الاختيار الدّالِّ على رجاحةِ العقل، وسلامة الحسِّ، ويستلزم إضاءة الطَّرف الّذي تلك الحركةُ المخصوصة واقعةٌ فيه ليهتديَ المتحرّك إلى بلوغ المآرب ووجوه المصالح، ويتقيَ أسبابَ المعاطب، والآية سيقت للاعتداد بالنّعم فوجب العدولُ عن لفظِ الحركة إلى لفظٍ هو ردفُه وتابعه ليتمَّ حسنُ البيان، فتضمَّنت هذه الكلمات - الّتي هي بعضُ آية - عدَّةً من المنافع والمصالح الّتي لو عُدِّدت بألفاظها الموضوعة لها لاحتاجت في العبارة عنها إلى ألفاظٍ كثيرة، فحصل بهذا الكلام بهذا السَّبب عدَّة ضروب من المحاسن! ألا تراه سبحانه جعل العلَّة في وجود اللّيل والنَّهار حصول منافع الإنسان حيث قال: ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾، و﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ بلام التَّعليل فجمعت هذه الكلماتُ المقابلةَ والتَّعليلَ والإشارةَ والإردافَ والائتلافَ وحُسنَ النَّسقِ وحُسنَ البيان لمجيء الكلام فيها متلاحمًا آخذةً أعناقُ بعضِه بأعناق بعضٍ، ثمَّ أخبر بالخبر الصّادق أنَّ جميعَ ما عدَّده من النِّعم الّتي هي من لفظَيِ الإشارة والإرداف بعضُ رحمته حيث قال بحرف التَّبعيض: ﴿وَمِن

(1) عبد الكريم يونس الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 379.

﴿رَّحۡمَتِهِۦ﴾ وكلُّ هذا في بعض آية عِدَّتُها إحدى عشرة لفظةً! فالحظْ هذه البلاغةَ الظّاهرة والفصاحةَ المتظاهرة"[1].

بلاغة الإيجاز في الآية:

الاحتباك من فنون الإيجاز الفصيحة، وفيه تنشيط للأذهان الصّحيحة

في الآية احتباك بديع، تقديره: جعل اللّه تعالى لكم اللّيل ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، فلا تسعوا في طلب الرِّزق، وجعل لكم النَّهار ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فلا تسكنوا فيه. فذَكَر السُّكونَ أوَّلًا دليلًا على حذف السَّعي في المعاش ثانيًا، وذكر الابتغاءَ ثانيًا دليلًا على حذف عدم السَّعي في المعاش أوَّلًا[2].

وإن كان السُّكونُ في النَّهار ممكنًا، وطلبُ الرِّزق في اللّيل ممكنًا، وذلك عند طلوع القمر على الأرض، أو عند الاستضاءة بشيء له نورٌ كالسِّراج، فإنَّ ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد، فلا اعتبار به[3].

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَلَعَلَّكُمۡ﴾:

تعريفهم بنعمة اللّهِ في ذلك فيشكروه عليها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ حرف عطف، حيث عطف على العِلَّتَين السّابقتين، أي: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، رجاءَ شكرهم على هاتَيْن النِّعمتَيْن اللَّتَين هما من جملة رحمة اللّه سبحانه بالنّاس، فالشَّأن أن يتذكَّروا بذلكَ مظاهرَ الرَّحمة الرَّبانيَّة وجلائلَ النِّعم فيشكروه بإفرادِه تعالى بالعبادَة. وهذا تعريضٌ بأنَّهم كفروا فلم يشكروا[4].

والتقدير في ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾: ولكي تعرفوا نعمةَ اللّهِ في ذلك فتشكروه عليها، وهو تعليلٌ آخرُ للجعل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ ولذلك صُدِّر بأداة العطف[5].

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 370.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 345.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 171.
(5) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 8/ 54.

معنى (لعلَّ) ودلالتُها في لفظ ﴿وَلَعَلَّكُمۡ﴾:

شُكر المنعِم الجليل على فضله العظيم الجزيل

(لعلَّ) في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ على حقيقتها في إفادة معنى التَّعليل؛ أي: علَّة تعريف اللّه سبحانه نعمَه عليكم مِن تعاقب اللّيل والنَّهار وسكونِكم في اللّيل وابتغائِكم من فضله في النَّهار هي رجاءَ الشُّكر على نعمه، ومَن شَكَر فإنَّما يشكر لنفسه. فحاصل المعنى: أنَّ من رحمة اللّه سبحانه أنَّه زاوَجَ وراوَحَ بين اللّيل والنَّهار لأغراضٍ ثلاثةٍ: لتسكنوا في أحدهما وهو اللّيل، ولتبتغوا من فضل اللّه في الآخَر وهو النَّهار، ولتكونوا شاكرين[1].

دلالة التَّعبير بالمضارع:

شكر النِّعم على النعم المتجدِّدة ليلَ نهار

التَّجدُّد والاستمرار الّذي دلَّ عليه المضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ يفيد وجوبَ تجدُّدِ الشُّكر ليناسبَ تجدُّدَ النِّعم المتتالية المتعاقبة تعاقب اللّيل والنَّهار.

نكتة حذف مفعول:

حُذِفَ المنصوب على التعظيم للفعل: ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ للعلم به، وهو الرَّبُّ المُنعِم الجليل، والتَّقدير: (تشكروه) ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ﴾ الآية.

بلاغة المحسِّن البديعيّ المعنويّ (التَّفسير):

تنبيه العقل على موضعِ المِنَّة بإرسال النعم ومنعها

في قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ محسِّن بديعيٌّ معنويٌّ يُسمَّى (التَّفسير)، وهو يعني تَفصيلَ المُجمَلِ، فها هنا بدأت الآية الكريمة بذكر الرّحمة بالإجمال ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ثمّ فَصَّلَتَ هذا الإجمالَ في ثلاث عبارات، **الأولى:** ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ وهي بيانُ عِلَّةِ الأوَّل الّذي هو (جَعْلُ اللّيل)، **والثّانية:** ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن

(1) الزَّمَخشَريّ، الكشّاف 3/ 429.

﴿فَضۡلِهِۦ﴾ وهي بيانُ عِلَّةِ الثّاني الّذي هو (جَعْلُ النّهار)، **والثّالثة**: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ وهي بيانُ عِلَّةِ الأوَّل والثّاني معًا، أيْ (جَعْلُ اللَّيلِ والنَّهار). ثُمَّ يأتي التَّوجيهُ والتَّذكيرُ مِنْ فِعْلِ ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ نحو المقصود الأصليّ، لأنّه يعني تَشْكُرونَ هذه الرَّحمةَ الَّتي ذُكِرَتْ مُجْمَلَةً ثُمَّ فُصِّلَتْ لكم هذا التَّفصيل.

وفي هذه الآيات، تنبيه إلى أنَّ العبد ينبغي له أن يتدبَّر نعم اللّه عليه، ويستبصرَ فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنَّه إذا وازَنَ بين حالةِ وجودِها، وبين حالة عَدَمِها، تنبَّه عقلُه لموضعِ المِنَّة، بخلاف مَن جرى مع العوائد، ورأى أنَّ هذا أمرٌ لم يَزَلْ مستمرًّا، ولا يزال. وعمي قلبُه عن الثَّناء على اللّه تعالى بنعمِه، ورؤية افتقار نفسِه إليها في كلِّ وقت، فإنَّ هذا لا يحدث له فكرةُ شكرٍ ولا ذكرٍ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الابتغاء والطَّلب:

الابتغاءُ هو الاجتهادُ في الطَّلَب

الفرق بينهما أنَّ الابتغاءَ قد خُصَّ بالاجتهادِ في الطَّلَب[2]، فمتى كان الطَّلَبُ لشيءٍ محمودٍ فالابتغاء فيه محمود، نحو قول اللّه سبحانه: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: 28].

والمعنى المحوريّ لجذر الابتغاء: تزايدُ الشَّيء نموًّا وقوَّةً توصُّلًا لاكتمال حاله؛ ومن التَّزايد اتجاهًا وتهيؤًا لاكتمال الحال جاء معنى الاجتهاد في الطَّلب الموجود في الابتغاء[3].

أمّا المعنى المحوريّ لجذر الطَّلَب: فهو استجلابُ الشَّيء من بعيد[4]؛ فيقال: بئرٌ طَلوب: بعيدة الماء، وأطلبَ الماءُ إذا بعُد فلَم

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 623.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزآبادي، البصائر: (بغي).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بغي).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (طلب).

يُنَل إلا بطلَب؛ ومن هذا جاء طَلَبُ الشيء، وهو سَعيٌ إلى وجدان الشَّيء وأخذه[1].

الحمد والشُّكر:

الحمدُ باللِّسان، والشُّكرُ باللِّسان والجوارح والجَنان

الحمد: هو الثَّناءُ باللِّسان على الجميل، والشُّكر: فعلٌ ينبئُ عن تعظيم المنعِم لأجل النِّعمة، ويكون باللِّسان والجوارح والجَنان؛ فالحمد أعَمُّ من الشُّكر من جهةِ أنَّه يعمّ النِّعمةَ وغيرَها[2]، أمّا الشُّكرُ فإنّه لا يكون إلا على نعمة مُسداة[3]، والحمدُ أخَصُّ منه مَوردًا؛ إذ هو باللسان فقط، أمّا الشُّكرُ فمَوردُه اللسانُ وغيرُه؛ فدلَّ ما سبق على أنَّ بينهما عمومًا وخصوصًا[4].

وممّا يَلْفِتُ النَّظرَ أنَّ الحمدَ في القرآن يأتي ابتداءً، أمّا الشُّكر فيأتي بعد ذِكر النِّعم مختتَمًا به الآيات الكريمة، وذلك ممّا يدلُّ على أنَّ الحمدَ يقع لمطلَق الثَّناء، وأنَّ الشُّكرَ يكون لمَن أولاك معروفًا، ويدلُّ أيضًا على تصدُّر الحمد للثَّناء على اللّه ﷻ بأسمائه وصفاته الحسنى، فكان افتتاح القرآن الكريم بالحمد في قول اللّه ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: 2]، وقال ﷻ في سورة فاطر: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: 1]، وغيرهما من السّوَر الّتي افتُتِحَت بالحمد كالأنعام والكهف وسبأ[5].

أمّا الشُّكرُ فيرِد في أواخر الآيات؛ لأنَّه ثناء على اللّه تعالى بنِعمه، ولا يتمّ ذلك إلا بذِكرها مقدَّمة على الشُّكر، قال اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٢﴾ [البقرة: 52]، وقال جلَّ شأنه:

(1) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، اللّسان: (طلب).
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 201، 202.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (حمد).
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 201، 202.
(5) محمد ياسين خضر، دقائق الفروق اللُّغويّة، ص: 227.

﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: 6]، وقال تعالى: ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال: 26]، وغير ذلك من الآيات الكريمة، ولَم تُختَم آيةٌ بالحمد كتلك الآيات، فلَمْ يَرِد في القرآن الكريم لعلكم تحمدون[1].

(1) محمد ياسين خضر، دقائق الفروق اللُّغَوِيّة، ص: 227.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ٧٤ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٧٥﴾ [القصص: 74 - 75]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تكرار التذكير بيوم الوعيد؛ زيادة في البلاغ وإثبات للجُرم الشَّديد

لمّا ذكر تعالى أنَّه الخالق، واستدلَّ على ذلك ببديع صنعه في خَلْق اللّيل والنَّهار، وبيَّن ما فيهما من آيات تبعث على الذِّكرى والاعتبار؛ كرَّر سبحانه ذكر يوم الوعيد؛ على جهة الإبلاغ والتَّأكيد، والتَّقريع على الإشراك مع ظهور الدَّلائل العظيمة على التَّوحيد، وعدم شبهة قائمة على الشِّرك غير محض التَّقليد، ثم ذكر سبحانه شهادة نبيِّ كلِّ أمَّة على أعمالهم في الدُّنيا، زيادةً في الغمِّ وإثباتًا للجُرم الشَّديد(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنَادِيهِمْ﴾: أصل (ندي) يدلُّ على التَّجمُّع، ومنه النّادي والنَّديّ: المجلس؛ لأنَّهم كانوا يَنْدون فيه؛ أي: يجتمعون فيه(2). والنِّداء: رفع الصَّوت وظهوره بطلبِ مَنْ يُنادَى، ويقال: ناداه يناديه منادة ونداء، ونادى به؛ أي: صاح به(3).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 58]؛ أي: دعوتم، ونداء الصَّلاة مخصوص في الشَّرع بالألفاظ المعروفة، وهو الأذان(4).

وفلان أَنْدى صوتًا من فلان؛ أي: أَبْعدُ مذهبًا وأرفعُ صوتًا(5).

---

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 344، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 172.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ندي).

(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ندي).

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (ندي).

(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ندي).

2) ﴿تَزۡعُمُونَ﴾: أصل (زعم) يدلُّ على القول من غير صِحَّة ولا يقين[1]. الزَّعْم: حكاية قولٍ يكون مَظِنَّةً للكذب، فلم يُدْرَ لعلَّه كذب أو باطل، ولهذا جاء في القرآن في كل موضع بمعنى الذَّم[2]. والزَّعم والزُّعم والزِّعم: القول، يقال: زعم زَعمًا وزُعمًا وزِعمًا؛ أي: قال[3]. ثم قد يكون حقًّا وقد يكون باطلًا، ولكنَّ الأكثرَ بمعنى الباطل[4]. والزَّعم أيضًا: الكذب[5].

3) ﴿وَنَزَعۡنَا﴾: أصل (نزع) يدلُّ على قَلْعِ الشَّيء وجَذْبه من مَقَرِّه بقوَّة[6]. نزع الشَّيء: جَذَبه من مقرّه كنَزْع القوس عن كَبِده، ونزعْتُ الشَّيء من مكانه أنزِعُه نَزْعًا: قلعته، وانتزعه فانتزع: اقتلعه. ويُستعمَل كذلك في الأعراض والمعاني، كما يقال: نزع العداوة والمحبَّة من القلب[7]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾؛ أي: أخرجنا[8].

4) ﴿بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾: أصل كلمة (برهان) في أحد قولي أهل اللغة من (بَرِهَ) بغير نون، يقال: بَرِهَ الرجلُ: إذا ثاب جِسْمُه بعد تغيُّرٍ من عِلَّة. ويُقال: أَبْرَهَ الرَّجُلُ: غَلَبَ الناسَ، وأتى بالعجائب[9]. و(أَبْرَهَ) الرَّجُلُ: إذا أتَى بالبُرْهانِ، أي ببيانِ الحجّةِ وإيضاحِها[10]، والبُرْهانُ، بالضَّمّ: الحُجَّةُ الفاصِلَةُ البَيِّنَةُ[11]. وبرهان بوزن فُعلان، مثل: الرُّجحان. والبرهان: أوْكَد الأدلَّة، وهو ما يقتضي الصِّدق أبدًا لا محالة[12]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾؛ أي: حُجَّتكم بأنَّ مَعَيَ شَريكًا[13].

5) ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾: (ضلل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى واحِدٍ، وهوَ ضَياعُ الشَّيْءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زعم).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (زعم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (زعم).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (زعم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (زعم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(7) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(8) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 6/ 219، والبَيْضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 184.
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 6/ 157.
(10) الزَّبِيديّ، تاج العروس: 36/ 341.
(11) الزَّبِيديّ، تاج العروس: 34/ 250.
(12) الرّاغب، المفردات: (بره)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (برهن).
(13) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 6/ 219، والقُرطبيّ، أحكام القرآن: 13/ 308.

وذَهابُهُ في غَيْرِ حَقِّهِ. والضَّلال: ضدُّ الهدى والرَّشاد، وهو العدول عن الطَّريق المستقيم. والفعل منه: ضَلَّ يضِلُّ ضلالًا وضلالةً، ويقال أيضًا: ضلَّ الشَّيءُ إذا ضاع وهلك. فيكون الضَّلال بمعنى الضَّياع والتَّلف والفوات[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ يعني: ذهب عنهم وبطل، وغاب عنهم غيبة الضّائع[2].

6) ﴿يَفْتَرُونَ﴾: أصل (فري) يدلُّ على قَطْع الشَّيء مع تهيئته لإصلاح أو غيره كإفسادٍ ونحوه[3]. والفَرْيُ: الإصلاح. فَرَيْتُ الشَّيء أفْريه فَرْيًا: قَطَعته لأصلحَه. وفرَّى الشَّيء: شَقَّه وأفسده، وأفْراه: كذلك بمعناه. يقال: أفراه يُفْريه إفراءً: أفسدَه. وفَرَى فلانٌ الكذبَ يَفْريه فَرْيًا، وافتراه يفتريه افْتراءً: خَلَقَه واختلقه. و"استُعمِل في القرآن في الكذب، والشِّرك والظُّلم"[4]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: "ما كانوا يختلقونه من الكذب على اللّه تعالى أنَّ معه آلهةٌ تُعبَد"[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إذا كــان يــومُ القـيامة بَـطَـلَ كلُّ كذبٍ وقولٍ، ولم يبقَ إلّا قولُ الحقِّ والصِّدقِ

يصوِّر السِّياق القرآنيُّ في هاتين الآيتين موقفًا من المواقف الصَّعبة في يوم القيامة لهؤلاء المشركين باللّه؛ حيث يناديهم الحقُّ ﷻ على رؤوس الأشهاد قائلًا لهم على سبيل التَّقريع والتَّوبيخ: أيُّها المشركون أينَ شركائيَ الّذين اتَّخذتموهم في الدُّنيا شركاءَ لي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ، والجوهريّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).

(2) القرطبيّ، أحكام القرآن: 13/ 309، والبَيْضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 184.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشقاقي: (فرى).

(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس، والرّاغب، المفردات: (فرى).

(5) القرطبيّ، أحكام القرآن: 13/ 309.

فعبدتُّموهم من دوني؛ ليُخَلِّصوكم الآنَ ممّا أنتم فيه من العذاب والمهانة؟ إنَّهم لا وجود لهم؛ لأنَّه لا شريكَ لأحدٍ مع اللّه تعالى في الملك أو العبادة، ثُمَّ يؤكِّدُ السِّياقُ القرآنيُّ ويَتَوَجَّهُ إليهم بالقول: لقد أخرجنا مِنْ كلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأمم المُكذِّبة رسولَهم الّذي أُرسِلَ إليهم؛ ليكون شاهدًا على أعمالهم، ثُمَّ قلنا لهم: هاتوا حجَّتكم أيُّها المشركون على ادّعائكم أنَّ للّه شريكًا في الألوهيَّة والملك؟ فلم ينطقوا ولم يُحيروا جوابًا، وإنَّما أيقنوا حينئذٍ بأنَّ الحُجَّة البالغةَ، والتَّوحيدَ الخالصَ ليس إلّا للّه الواحد، وغاب عنهم ما كانوا يختلقون من الإفك والكذب على اللّه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في لفظ ﴿وَيَوۡمَ﴾:

التَّـهـويـل بـالتَّـكـريـر، ليعقب النَّذيرَ النَّذير

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾: الواو استئنافيَّة[2]. فما بعدها انتقال من الاستدلال بالآيات الكونيَّة كاللّيل والنَّهار على انفراد اللّه تعالى بالألوهيَّة إلى الكلام عمّا يكون يومَ القيامة من تقريع الكافرين الّذين اتَّخذوا من دون اللّه سبحانه شركاء ﴿ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾ [الفرقان: 3].

وقيل: الواو عاطفة[3]، والمعطوف (يَوۡمَ) أو المعطوف فعل محذوف و(يَوۡمَ) مفعوله، والتَّقدير: (واذكر يا خير الرُّسل لقومك يومَ يناديهم)، والعطف يفيد التَّغاير بين النِّداءين ممّا يفيد عِظَم الخطب وشدَّة التَّقريع والتَّوبيخ للمشركين.

نكتة التكرار في الآية:

عظم الجرم باتِّخاذ الشُّركاء

سُلِكَت بهذه الآية طريقةُ اللَّفِّ في تكرير التَّوبيخ؛ باتّخاذ

(1) البَغويّ، معالم التّنزيل: 6/ 219، والمَراغيّ، التّفسير: 20/ 90 - 91.
(2) بَهْجَتْ صالح، الإعراب المُفَصَّل: 8/ 431.
(3) محمود صافي، الجدول: 10/ 281.

الشُّركاء: إيذانًا بأنَّه لا شيءَ أجْلَبُ لغضب اللّٰه تعالى من الإشراك به، كما أنَّه لا شيءَ أدْخَلُ في مرضاته من توحيده سبحانه[1].

فتكرارُ ذِكر النِّداء للمشركين لزيادة التَّقريع والتَّوبيخ[2]؛ لأنَّ التَّكرير من مقتضيات مقام التَّوبيخ؛ فلذلك لم يقل: ويوم ننزع مِن كلِّ أمَّة شهيدًا، بل أُعيْدَ ذِكْرُ أنَّ اللّٰه سبحانه يناديهم بهذا الاستفهام التَّقريعيِّ وينزع مِن كلِّ أمَّة شهيدًا، فظاهر الآية أنَّ ذلك النِّداء يُكَرَّر يوم القيامة. ويحتمل أنَّه إنَّما كُرِّرت حكايته وأنَّه نداء واحد يقع عقبَه جوابُ الّذين حقَّ عليهم القول مِن مشركي العرب، ويقع نزع شهيدٍ مِن كلِّ أمَّة عليهم، فهو شامل لمشركي العرب وغيرهم مِن الأمم[3]؛ لتوكيد المعنى المقصود وتقريره؛ ومن ثَمَّ جُعِلَ التكرارُ خاتمةً للآيات وتخلُّصًا إلى قصَّة قارون[4].

وقيل: إنَّما تكرَّر النِّداء لاختلاف الحالتين؛ لأنَّهم يُنادَوْن مرَّة فَيَدْعون الأصنامَ، ويُنادَوْن أخرى فيسكتون[5]، فالنِّداء الأوَّل لبيان فسادِ رأيهم كما يشير إليه قوله تعالى هناك: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [القصص: 63]، والثّاني لبيان أنَّ إشراكهم لم يكن عن سندٍ بل عن محض هوىً كما يشير إليه قوله تعالى بعدُ ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾.

أو الأوَّل إحضارٌ للشُّركاء بعدم الصُّلوح لقوله سبحانه بعده: ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ﴾ [القصص: 64] والثّاني تحسيرٌ لهم بأنَّهم لم يكونوا في شيءٍ مِن اتِّخاذهمُ الأصنامَ شركاءَ للّه. ألا ترى قولَه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[6]؟.

معنى الظَّرفيَّة في لفظ ﴿وَيَوۡمَ﴾:

في التَّصريح بذِكر اليوم الّذي كذَّب به المشركون وأنكروه توبيخ لهم وتقريع، كأنَّه كلَّما ذُكِرَ يومُ القيامة وما يكون فيه من أحداث يقول لهم: هذا اليوم الّذي كنتم به تكذِّبون ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥﴾ [الطور: 15]، لقد مُتُّم، ثمَّ بُعِثتم من مرقدكم فإذا أنتم

(1) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف 3/ 429.
(2) البَغَوِيّ، معالم التّنزيل: 6/ 219.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 172.
(4) الطِّيبيّ، حاشية الطِّيبيّ على الكشّاف: 12/ 105.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 213.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 315.

تذكير بأهوال يوم الحساب، ومنها سؤال المشركين عن زعمهم أن لله شركاء

جميعًا مُحضَرون، وبين يدي ربِّكم موقوفون، وعمّا قدَّمتم مسؤولون. فذِكرُ يومِ القيامة هنا لم يكن لغرض إثبات وقوعه من عدمه، بل لِذكر ما يكون فيه من أحداث وأهوال ومنها سؤال الكافرين عمّا قدَّمت أيديهم مِن أعمال، فكأنَّ وقوعه أمر حتميٌّ ومحلُّ اتِّفاق بين العقلاء، فلا يُنظَر لتكذيب الكفّار، ولا يُعتبر خلافهم في وقوعه!.

دلالة التَّعبير بالنِّداء مادةً وصيغةً:

تكرار النِّداء إشارة إلى زيادة تقريعهم لبُعدهم عن سواء السَّبيل

النِّداء: هو إحضار الغائب، وتنبيه الحاضر، وتوجيه المُعرِض، وتفريغ المشغول، وتهييج الفارغ[1]. وهو في الأصل: رفع الصَّوت وظهوره[2].

ويُستعمَل مع الكافرين تنبيهًا على بُعدهم عن الحقّ[3]، ففي النِّداء معنى كونهم محضَرين وقد أُبعِدوا عن ساحة الرَّحمة، وفي النِّداء معنى الجَلْب والإحضار الّذي فيه إذلال وقهر.

وهذا النِّداء يكون عند ظهور كلِّ ما وعد الرَّحمن على ألسنة المرسلين عليهم السلام من وجوب الرَّحمة لقوم، والعذاب لآخرين، ومن خضوع كلِّ جبّار، وذِلَّة كلِّ متكبِّر لعزَّة ربِّ العالمين. فيتوجَّه حينئذ توبيخ الكفّار فيقول الله تعالى لهم: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ على معنى التَّقريع[4].

وقد أوثِرَتْ فيه صيغة المضارع لإفادة تكرار النِّداء لزيادة التَّقريع والتَّبكيت والتَّوبيخ، أو لأنَّ لكلّ أمَّة نداءً.

معنى الفاء ودلالتها في لفظ ﴿فَيَقُولُ﴾:

الفاء: حرف عطف وتفسير[5]، تفسِّر ما قبلها، وهو سبب النِّداء يوم القيامة، فإنَّ الجبّار جل جلاله يناديهم يوم القيامة ليقول لهم موبِّخًا ومنكرًا: أين الّذين جعلتموهم لي شركاء؟.

(1) أبو البقاء الكَفَويّ، الكُلّيّات، ص: 906.
(2) الرّاغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ندا).
(3) الرّاغب، المفردات: (ندا).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 297، والعُلَيْميّ، فتح الرّحمن: 5/ 216.
(5) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 94.

دلالة التَّعبير بالمضارع في لفظ ﴿فَيَقُولُ﴾:

عُبِّر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ﴾ المُتَضَمِّن لسؤالِهم عن الشُّركاء توبيخًا وتقريعًا وتبكيتًا لزيادة التَّخذيل والتَّحسير والتَّقريع، أو لبيان أنَّ كلَّ أمَّة تُنادَى فتُسأل، أو لتكرار هذا النداء وهذا السُّؤال بحسب تكرار الأمم وتعدُّدِها، والأولى حَمْلُ ألفاظِ القرآن على جميع هذه المعاني طالما أنَّ السّياقَ يَحْتَمِلُها جميعًا.

زيادة التَّبكيت تحسيرًا وخذلانًا؛ لمَن أشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطانًا

معنى الاستفهام وغرضه:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ تقريعيٌّ توبيخيٌّ[1]؛ إذ لم يناقشهم في استحقاقهم للشِّرك مع الله جلَّ وعزَّ، وإنَّما يسألهم عنهم: أين هم؟ وفي هذا زيادةُ توبيخٍ لهم. وهو أيضًا سؤالُ تعجيزٍ يُرادُ به وضعُهم موضعَ الاتّهام، ليكون ذلك استحقاقًا لما يَلْقَونَ فيه من تعنيفٍ وتأنيب. وفي تصدير الآيات بهذا السُّؤال التَّعجيزيّ، ثمَّ ختامُها بأنَّه زَعْمٌ لا دليلَ عليه، إشارةٌ واضحةٌ إلى أهمّيَّة هذه القضيَّة الّتي جاءت الآياتُ للفصل فيها، وهي قَضيَّة توحيد الله تعالى[2].

تقريع وتوبيخ من يشركون، وتبكيت وتعنيف لما يزعمون

بلاغة الكناية في السُّؤال بـ﴿أَيْنَ﴾:

الاستفهام بكلمة ﴿أَيْنَ﴾ ظاهرُهُ استفهام عن المكان الّذي يوجد فيه الشُّركاء، ولكنَّه مستعمَل هاهنا كنايةً عن انتفاء وجود الشُّركاء المزعومين يومئذ[3].

بلاغة الالتفات من ضمير الغَيْبَة إلى ضمير التَّكلُّم:

في الغَيْبة إشارةٌ إلى معنى البُعد عن مقام الرَّحمة والأُنس، وهذا البُعد يتناسب والتَّعبيرَ بالنِّداء؛ فلمّا ناداهم وأُحضِروا إحضارَ ذِلَّةٍ وخضوعٍ وقهْرٍ التُفِتَ في الأسلوب مِنَ الغَيْبة إلى الخِطاب الّذي

في الالتفات من الغَيْبَة إلى التَّكلُّم إظهارٌ لعظَمته، وإبرازٌ لمكانته

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 172.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 380.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 156.

يناسبُ مقامَ إحضارِهم، وفي الالتفات منَ الغَيْبَة في عبارَتَيْ: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾، و﴿فَيَقُولُ﴾، إلى التَّكلُّم في عبارةِ: ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ إظهارٌ لعظمة المُتكلِّم سبحانه، وبيانٌ لعظيم جناياتهم بأنهم أشركوا[1]، ثُمَّ يكون في التَّوبيخ والتَّخذيل عند القُرب زيادةٌ في التَّقريع والتَّهويل.

نكتة التَّعبير بالموصول وصلته:

إقامة الحجة على المعرضين بإبطال ما يدَّعون

أوثِرَ التَّعبير بالموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ لإرادة الوصف الّذي تضمَّنَتْه جملة الصِّلة، فبيَّنت أنَّ المشركين إنَّما زعموا ذلك افتراءً على اللّه تعالى، فكان ذلك في زعمهم هم، لا في نفس الأمر. وفي هذا التعبير أيضًا تقريعٌ لهم بإقامة الحجَّة عليهم.

دلالة التَّعبير بفعل الكون الماضي:

المداومة على الفعل حتَّى يصير كالسَّجيَّة

عُدِل عن التَّعبير بـ(الّذين زعمتم)، إلى التَّعبير بفعل الكون الماضي في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ لبيان تأصُّلِ زَعْمِهم الباطلِ ووِراثَتِهم إيّاه كابرًا عن كابر، وفي بيان بطلان زعمهم يوم القيامة مزيدٌ من الحسرة والنَّدامة. فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾؛ أي: بغاية جهدكم حتى صار لكم ذلك مَلَكَةً[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع:

الدَّلالة على ما كان من العِناد والإصرار لدى المشركين

التَّعبير بالمضارع يفيد التَّجدُّد والاستمرارَ، ومعناه هنا أنَّ زَعْمَهُمُ الباطلَ باستحقاقِ اللّهَ العزيزَ الشُّركاءَ كان زَعْمًا مُتَجَدِّدًا مع كلِّ عملٍ يَصْرفونَهُ إليهم ممّا لا يَنْبَغي أن يُصْرَفَ إلّا للّهِ الواحدِ سُبْحانَه، من دُعاءٍ وعِبادةٍ ومحبَّة واستغاثةٍ... إلخ. فكان زَعْمُهم زَعْمًا مُتجدّدًا مع كلِّ عمل شِرْكيٍّ.

نكتة حذف عائد الصِّلة:

إسقاطُ بعض الكلام؛ جائزٌ إذا فُهِم مِنَ المَقام

مفعولا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 173.

(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 346.

محذوفان. والتَّقدير: (الّذين كنتم تزعمونهم)؛ أي تَدَّعون أنَّهم شُركائي[1]، فحُذِف المفعولان لدلالة ما قبلَهما عليهما[2].

والمعنى: (أين الّذين ادَّعيتم إلهيَّتهم[3]، وأنَّهم ينصرونكم ويشفعون لكم ليُخلِّصوكم)[4]؟ فالحذف هنا أفاد تعميمَ كلِّ زَعْمٍ زعموه في شركائهم.

معنى الواو ودلالتها في لفظ ﴿وَنَزَعۡنَا﴾:

إظهار جراءة الكافرين وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم لأنفسهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ يجوز أن تكون عاطفةً، تَعْطِفُ جملتَها الّتي هي (نَزَعْنا) على جملة ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾ ليتساوَقَ الكلامُ[5]. والمعنى: أنَّه إذا كان يومُ القيامة، أراد اللّه أن يُظهِر جراءة الكافرين وكذبَهم في زعمهم وتكذيبهم لأنفسهم فـ﴿يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، فإذا حضروا وإيّاهم، نزع ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٖ﴾ مِن الأُمم المكذِّبة ﴿شَهِيدٗا﴾ يشهد على ما جرى في الدُّنيا مِن شركهم واعتقادهم[6].

ويجوز أن تكون الواوُ واوَ الحال، وهي الّتي يعقبُها الماضي بـ(قد) وبدون (قد)؛ أي: واذكر يومَ يكون ذلك النِّداء وقد أخرجنا مِن كلِّ أُمَّة شهيدًا عليهم، وأخرجنا من هؤلاء شهيدًا[7].

دلالة التَّعبير بالنَّزع مادةً وصيغةً:

النَّزع قلعُ جزءٍ مِن كلٍّ بقوَّة، وفي التَّعبير بالمضيّ إفادةٌ للتَّحقيق أو الحاليَّة

أصل النَّزع: قلع الشَّيء وجذبه بقوَّة من مقرِّه الّذي يلتحم به أو ينغمس فيه[8]، واسْتُعير هنا لإخراج بعضٍ مِن جماعةٍ كما في قوله

(1) بهجت صالح، الإعراب المُفَصَّل: 8/ 432.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 362.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/ 13.
(4) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 94.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 368.
(6) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن ص، 623.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 172.
(8) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نزع).

تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ٦٩﴾ [مريم: 69][1].

فقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ أي: أخرجنا وأحضرنا وأفردنا بقوَّة وسطوة وبسرعة، كما يقال: فلان نَزَعَ إلى وطنه؛ أي: حنَّ إليه حنينًا يطالبُه بالخروج إليه[2]. وفي المراد به هنا وجهان: **أحدهما**: أخرَجْنا مِن كلِّ أمَّة رسولًا مبعوثًا إليها. **والثّاني**: أحضرنا من كلِّ أمَّة رسولًا يشهد عليها أنْ قد بلَّغ رسالة ربّه إليها[3].

والتَّعبير بصيغة الماضي في الفعل الّذي سيحصل في المستقبل (أي: يوم القيامة) إمّا للدّلالة على تحقُّق وقوعه حتى كأنَّه قد وقع، وإمّا لأنَّ الواو للحال وهي الّتي يعقبُها الماضي بـ(قد) وبدون (قد)؛ أي: يوم يكون ذلك النّداء وقد أخْرَجْنا مِن كلِّ أمَّة شهيدًا عليهم[4].

بلاغة الاستعارة في الآية:

الدَّلالة على قوَّة الإخراج وسرعته

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: ميَّزنا واحدًا ليشهد عليهم[5]. والنَّزع: جذبُ شيءٍ مِن بين ما هو مختلِطٌ به، واستُعير هنا لإخراج بعضٍ مِن جماعة[6]؛ للدَّلالة على قوَّة الإخراج وسرعته، وكذا اختلاط الشُّهداء بالمشهود عليهم؛ بما يقوّي شهادتهم إذ هي شهادة خبير.

سرُّ تنوُّع الضَّمائر بين الإفراد والعظمة:

المفارقة بين ما كانوا يُدعَون إليه في الدُّنيا وما تدنَّسوا به من اتِّخاذ الأنداد

في إسناد الفعل ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ للفاعل بلفظ الإفرادِ مناسبةٌ لمعنى النّداء وللمراد منه، فالمنادي واحد، وهو الله ربُّ العالمين، والمنادَون

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 172.
(2) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 8/ 55.
(3) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 4/ 263.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 24، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 315، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 172.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/ 13.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 172.

كثيرون، وهم الّذين اتَّخذوا من دون اللّه شركاء، فحصلت المفارقة بين ما كانوا يُدعَون إليه في الدُّنيا من طهر التَّوحيد، وبين ما تدنَّسوا به من نجس الكفر واتِّخاذ الأنداد، واللّهُ تعالى (وحده) يناديهم ويأمرهم أمرَ تعجيزٍ بإحضار (الشُّركاء)، فسُقِطَ في أيديهم وعلموا أنَّ الألوهية لا تنبغي إلّا للّه تعالى وحده.

أمّا في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ فقد أُسنِد الفعل لضمير العظَمَة (نا) لبيان جلال الموقف، وهول المشهد، فإخراج رسول كلّ أمَّة من الأمم ليشهد على أمَّته أمرٌ عظيم، فلا يقدر عليه إلّا عظيم.

وثَمَّ وجهٌ آخرُ، وهو أنَّ هذا النَّزع قد يأمر اللّه تعالى به ملائكته الكرام، فيذهب كلُّ مَلَك إلى رسول كلِّ أمَّة لإحضاره - بما يليق بمقام الرُّسل - للشَّهادة على قومه. وهذان الوجهان يناسبهما التَّعبير بضمير العظَمَة.

بلاغة الالتفات من الغَيبة إلى التَّكلُّم:

إبراز كمال الاعتناء بشأن نزع الرُّسل الشُّهداء

في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ بعد قوله: ﴿يُنَادِيهِمۡ﴾ التفات من ضمير الغَيبة إلى ضمير التَّكلُّم إظهارٌ لعظَمَته رب العزة، إذ هو المتكلِّم ﷻ[1]، ولإبراز شدّة الاعتناء بشأن النَّزع وتهويله[2].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾:

دلالةُ نزعِ الجزءِ الشهيد مِنَ الكلِّ الأمم

الأصل في معنى ﴿مِن﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ جُعِلت كلُّ أمَّة مبتدأً للنَّزع، فقد أُتي إلى كلِّ أمَّة بعينها، فانتُزِع منها شهيدُها. فالأمَّة ابتداءُ غاية ما نُزِع، وبهذا المعنى دلَّ التَّركيب على التَّبعيض من حيث صار ما بقي انتهاءً له، والأصل واحد. فإنَّه لمّا قيل: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 173.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 24، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 315.

(3) سِيبَوَيْهِ، الكتاب: 4/ 224، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 459، والسّامُرّائِيّ، معاني النّحو: 3/ 75.

﴿كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، فإنَّه ابتُدِئ بالأمَّة، ولم يُنتَهَ إلى آخرها، فالشَّهيد المنتَزَع بعضُ أمَّته، ففي كلِّ تبعيضٍ معنى الابتداء، وبعد الابتداء في أيِّ بعضٍ؛ يكون في الكلُّ الانتهاء.

نكتة تنكير ﴿أُمَّةٍ﴾:

تعميم المشهود عليهم بالبلاغ والإرسال، فلا تخرج منه أمَّة بحال

التَّنكير في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ للتَّعميم؛ بدلالة ﴿كُلِّ﴾، وشهيدُ كلِّ أمَّةٍ رسولُها الّذي يشهد عليها. والشَّهيد الحاضر؛ أي أحْضَرْنا رسولَهم المبعوثَ إليهم[1]. كما في قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء: 41]. والمتقرّر أنَّه ما ﴿مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر: 24] وأنَّ اللّٰه تعالى قد بعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36]. ولا يشكل على ذلك قوله تعالى هنا: ﴿فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾؛ أي: حجَّتكم على كفركم وإشراككم باللّٰه؛ لأنَّ هذا موجَّه للكافرين - دون المؤمنين - من أمَّة كلِّ نبيٍّ منهم، وهم الّذين ردّوا نصيحته، وكذَّبوا بما جاءهم به من عند ربِّهم، فيشهد نبيُّهم عليهم بإبلاغه إيّاهم رسالةَ اللّٰه تعالى إليهم[2]. فلا يقال إنَّ قوله تعالى: ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾؛ أي: من الأمم الضّالَّة بدليل سياقِ الكلام ولَحاقِه[3].

نكتة تنكير ﴿شَهِيدًا﴾:

تنكير الشَّهيد لتخصيصه بأمَّته، ومواجهته إيّاهم بشهادته

الشَّهيد في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ هو رسولُهم المبعوث إليهم، فيشهد عليهم بأعمالهم وما كانوا فيه من الارتياب في أشراك الإشراك[4]. فالتَّنكير فيه للتَّخصيص، فالشَّهيد على كلِّ أمَّة هو نبيُّ تلك الأُمَّة كما روي عن مجاهد وقتادة، ويؤيّده قولُه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء: 41][5].

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 309.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 614.
(3) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 8/ 55.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 347.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 315.

دلالة التَّعبير عن النَّبيِّ بالشَّهيد:

دعــوةٌ وتبليغٌ حضورًا وشهودًا بالبصر والبصيرة

أصل الشَّهادة: الحضور والعلم والإعلام مع المشاهَدَة، إمّا بالبصر وإمّا بالبصيرة[1]. والشَّهيد: الشّاهد العادل العدل السَّويُّ، وهو النَّبيُّ المبعوث إلى أُمَّته حين انحرافها عن طريق السَّلامة وسبل الاستقامة[2]. وعُبِّر عن النَّبيِّ بالشَّهيد؛ لأنَّ أنبياء الأمم شهداءُ عليهم، يشهدون بما كانت عليه أُمَمُهم[3]، وبما صدر منهم، وبما أجابوا به لمّا دُعوا إلى التَّوحيد[4]، فيشهدون أنَّهم بلَّغوا أمَّتهم الدَّلائل، وبَلَغوا في إيضاحها كلَّ غاية، ليُعلَم أنَّ التَّقصير إنَّما كان من الكافرين، فيكون ذلك زيادةً في غَمِّهم أيضًا[5]. ففي التَّعبير بالشَّهادة معنى الحضور والعِلم مع المشاهَدَة، فلم يكن الرُّسل عن أقوامهم غائبين، وما غاب عنهم أحدٌ من أقوامهم المَدْعوِّين، بل قد أبلغوا رسالات ربِّهم، وأعذروا إلى أُممهم.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَقُلۡنَا﴾:

الأمــر للتَّعجيز والتَّأنيب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا﴾ للتَّرتيب والتَّعقيب[6]، حيث عطفت ﴿فَقُلۡنَا﴾ على ﴿وَنَزَعۡنَا﴾؛ لأنَّه المقصود[7]. وفي هذا الموضع حذفٌ يدلُّ عليه ظاهر النَّظم، وتقديره: يشهد كلُّ نبيٍّ على أمَّته بخيرها وشرِّها، فيحقُّ العذاب على مَن شهد عليه بالكفر، ويقال لهم - على جهة استبراء الحُجَّة والإعذار في المحاورة -: ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ على حقٍّ بأيديكم إن كان لكم، فسُقِط حينئذ في أيديهم، ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ﴾ متوجِّهٌ ﴿لِلَّهِ﴾ عليهم في تعذيبهم، ويضمحلُّ لهم - حينئذ

(1) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات: (شهد).
(2) النَّخْجَوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 90.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 429.
(4) الواحدي، التّفسير البسيط: 17/ 445، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 323.
(5) النِّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 360.
(6) الهلال، الثّريّ الجامع: 8/ 374.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 173.

- ما كانوا بسبيله في الدُّنيا مِن كَذِبٍ مختَلَقٍ وزورٍ، وفي تكذيبهم للرُّسُل وغير ذلك[1].

الإسناد إلى العظيم يفيد الإجلال والتَّعظيم

نكتة إسناد فعل القول إلى ضمير العَظَمَة:

أُسند فعل القول ﴿فَقُلْنَا﴾ للضّمير (نا) الدّالّ على الجمع لإفادة التَّعظيم[2]. ذلك أنَّ توجيه هذا الخطاب للأمم الكافرة المكذِّبة على جهة استبراء الحُجَّة والإعذار في المحاورة، مع أمْرِ اللّه لهم بأن يُدلوا بحجَّتهم بأنَّ للّه شريكًا[3] لَهو عَينُ إحقاقِ الحقِّ في إقامة العدل على منتهى الغاية، فحتَّى هؤلاء المشركون المعرضون الكافرون المعاندون قد أذِنَ اللّه العظيم لهم أن يجادلوا عن أنفسهم، وأن يُحضِروا حُجَّتهم، وما كانوا ليستطيعوا إلى ذلك سبيلًا، وهل تُبنَى في الهواء القصور؟!

الأمر للتَّعجيز والإفضاح، لبيان أنَّ دعواهم كذبٌ صراح

معنى الأمر وغرضه في ﴿هَاتُواْ﴾:

الأمر في قوله تعالى: ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ مستعمل في التَّعجيز، فهو يقتضي أنَّهم على الباطل فيما زعموه من الشُّركاء، ولمّا علموا عجزَهم مِن إظهار برهانٍ لهم في جعل الشُّركاء للّه أيقنوا أنَّ الحقّ مستحَقٌّ للّه تعالى؛ أي: علموا عِلم اليقين أنَّهم لا حقَّ لهم ولا دليل في إثبات الشُّركاء، وأنَّ الحقَّ للّه إذ كان ينهاهم عن الشِّرك على لسان الرَّسول في الدُّنيا[4]، فالأمر هنا للتَّعجيز والإفضاح[5].

ترتيب العلم بأحقيَّة اللّه بالألوهيَّة، على القول الآمر بإحضار البراهين على الشِّركيَّة

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ عاطفة[6]، وجملة: (عَلِموا...)

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 297، والعُلَيْميّ، فتح الرَّحمن: 5/ 216.
(2) الهلال، الثّريّ الجامع: 8/ 374.
(3) العُلَيْميّ، فتح الرَّحمن: 5/ 216.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 173.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 434.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 369، والدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 108.

في محلِّ جرٍّ معطوفة على جملة (قُلْنا)[1]. والمعنى: (قُلْنا) لهؤلاء المشركين المكذِّبين: ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾؛ أي: حجَّتكم ودليلكم بأنَّ مع اللّه تعالى شركاء، فعند ذلك اعترفوا، وخرسوا عن إقامة البرهان؛ ولذا قال: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الأُلوهيَّة وأنَّه وحده لا شريك له[2]. فترتيب علمهم أنَّ الحقَّ في الأُلوهيَّة للّه سبحانه وحده بعد قول اللّه لهم آمرًا إيّاهم بإحضار حُججِهم يدلُّ على تحيُّرِ القوم وبُهتِهم، ووجومِهم وتنكيسِ رؤوسهم.

دلالة التَّعبير بالعِلم مادةً وصيغةً:

العِلم إدراك الشَّيء على حقيقته، والمضيُّ لتحقيق وقوعه وكينونته

أصل العِلم: أثرٌ بالشَّيء يتميَّز به عن غيره، فيسهل الاهتداء به والاستدلال عليه. وهو أيضًا: إدراك الشَّيء على حقيقته[3].

واستخدام العِلم هنا دون غيره لما أحدثه أمر اللّه تعالى للكافرين بأن يُحضِروا براهينهم وحُججهم على ما ادَّعوه أنَّ للّه تعالى شركاء، فلمّا سُقِط في أيديهم، ورأوا العذاب أدركوا ساعتئذٍ الأمر على حقيقته بعد أن كانوا عنه غافلين أو متغافلين، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: 22].

فلمّا كُشِفت عن أعينهم غشاوتها ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء: 97]، وعلموا أنَّ الحقَّ في الألوهيّة للّه تعالى وحده، فلا معبود بحقٍّ إلّا اللّه الواحد الأحد.

والتَّعبير بالماضي ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ - مع أنَّ هذا سيحصل يوم القيامة - لإفادة التَّحقيق، وأنَّه بقوَّة الفعل الّذي قد وقع وانتهى، حتَّى كأنَّ

---

(1) محمود صافي، الجدول: 10/ 291.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 214.

(3) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (علم).

القوم قد عاينوه، فإنَّ اللّه تعالى ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾ [آل عمران: 47].

نكتة تأكيد الجملة بـ﴿أَنَّ﴾:

أُكِّد قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾ للاهتمام بالخبر، ولأنَّ القوم كانوا منكرين، فحصل لهم يومَ القيامة العلمُ اليقين، فأبصروا من بعد العمى، وأدركوا قيمة الإخلاص، ولاتَ حينَ مناص!

معنى (أل) ودلالتها في ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

(أل) في (الحَقّ) عهديَّة، والمراد الحقُّ في الألوهيّة

قوله تعالى: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾؛ أي: في الألوهيَّة؛ أي أنَّ حقيقة الألوهيَّة للّه تعالى وحده، لا يشاركه فيها أحد[1]، وأنَّ عبادة اللّه تعالى هي الحقُّ، وأنَّ ما دعا إليه اللّه تعالى من التَّوحيد، وما أتت به رسلُه الكرام من التَّشريع هو الحقُّ لا مراء فيه[2]. فعليه تكون (أل) في ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ للعهد، لأنَّه قد تقدَّمه قولُه تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾، و﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾؛ أي: حجَّتكم على أنَّ للّه شركاء. تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا. فلمّا كان الكلام عن الشُّركاء - وهو باطل - كان الحقُّ هو ما يقابل ذلك الباطل من التَّوحيد.

معنى اللّام ودلالتها في لفظ الجلال ﴿لِلَّهِ﴾:

بيان استحقاق اللّه تعالى للألوهيّة

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[3]، وهذا هو المقصود هنا: الدَّلالة على اختصاص اللّه ﷻ بالألوهيَّة الحقَّة، فاللّه سبحانه هو وحده الحقيق بالحقّيَّة، الجدير بالألوهيَّة، اللّائق بالرُّبوبيَّة، ليس كمثله شيء يُعبَد له ويُرجَع إليه[4]. فاللّام للاختصاص والملكيَّة والاستحقاق[5].

(1) الهرريّ، الحدائق: 21/ 265، ونووي الجاويّ، مَراحُ لَبيد: 2/ 205.
(2) السَّمَرْقَنديّ، بحر العلوم: 2/ 617.
(3) سِيبَوَيْه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 479، والسّامُرّائيّ، معاني النّحْو: 3/ 64.
(4) النَّخْجَوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 90.
(5) الهلال، الثّريّ الجامع: 8/ 374.

بلاغة الالتفات من التَّكلُّم إلى الغَيْبة:

في الالتفات تعظيم للمُلتَفَت إليه، وقصرٌ للأوصاف المستحَقَّة عليه

في قوله تعالى: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿فَقُلۡنَا﴾ التفاتٌ من التَّكلُّم إلى الغيبة، وكان ظاهر السِّياق أن يقال: (فعلموا أنَّ الحقَّ لنا)، لكنَّه عُدِلَ عنه إلى: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾؛ أي: الّذي كانوا يُدعَون إليه في الدُّنيا فيعرضون، وإذا تُليَت عليهم آياته يشمئزّون! فقد سوَّغ هذا الالتفاتُ التَّعبيرَ بالاسم العلَم الأسمى الأجَلِّ الأعلى: (اللّه) لما يتضمَّنه لفظُه من معاني الألوهيَّة الحقَّة الّتي لم يُذعن له بها المشركون، وكانوا فيها يجادلون، ولما يحويه معناه من ظلال المهابة والجلال، والكبرياء والعظمة والجمال.

فلمّا أُبطِلت دعاوى المشركين الّذين لم يستطيعوا أن يقيموا عليها برهانًا، ثبت أنَّ الحقَّ في الألوهيَّة للّه تعالى وحده، فجيء بالاسم الجليل الدّالِّ على ذلك ملتَفَتًا إليه تعظيمًا وإكبارًا. وهو نظم بليغ بديع يصحُّ أن يُرسَل مثلًا.

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَضَلَّ﴾:

جمع الحسرات والنَّدامات

الواو في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ هي العاطفة[1]، وجملة: (ضَلَّ عَنۡهُم...) في محلِّ جرٍّ معطوفة على جملة (عَلِموا)[2]. فدلَّ العطف على الجمع بين عِلْمِهم أنَّ الحقَّ للّه تعالى وحده، وغياب ما كانوا يختلقونه ويزوِّرونه عنهم في أمَسِّ أوقات احتياجهم إليه!

وهذا التَّرتيب في الآية قد أدَّى إلى معنى لطيف، وهو أنَّهم بمجرَّد أن أيقنوا أنَّ الحقَّ في الألوهيَّة للّه تعالى ضلَّ عنهم ما كانوا يفترونه، فدلَّ ذلك على أنَّها كانت مجرَّد أوهام قائمة على سراب في أنفسهم هم، وإنَّما كانوا يكابرون ويجاهدون لإخفائها، فلمّا جاء الحقُّ زهق الباطل وذهب جفاءً.

(1) بهجت صالح، الإعراب المُفَصَّل: 8/ 444، والدرّة، تفسير القرآن وإعرابه: 7/ 109.
(2) محمود صافي، الجدول: 10/ 291.

معنى (عن) ودلالتها في ﴿عَنۡهُم﴾:

الحُجَجُ الواهيَةُ في الدُّنيا حَرَفَتْ طَريقَهُم، فَتَجاوَزَتْ في الآخِرَةِ عُقولَهُم

الأصل في معنى (عن) أنَّه موضوع للدَّلالة على البُعد والمجاوَزَة[1].

وقوله: ﴿عَنۡهُم﴾ متعلّق بفعل ﴿وَضَلَّ﴾. والمراد: ضلَّ عن عقولهم وعن مقامهم. مُثّلوا بالمقصود للسّائر في طريق حين يخطئ الطَّريق فيتجاوزه مبتعدًا عنه، فلا يبلغ المكان المقصود[2].

بلاغة الاستعارة في ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾:

غابت عنهم افتراءاتُهم، وتبرَّأت منهم انتماءاتُهم

أَكْثَرُ استعمالِ (ضَلَّ) في القرآن الكريم بمعنى: كفر، وخرج عن جادَّة الحقِّ والصَّواب، وهو ضدُّ: اهتدى، واستقام. وضلَّ الشَّيءُ: ضاع وهلك، وضلَّ: أخطأ في رأيه. وضلَّ: تحيَّر[3]. والضَّلال: أصلُه عدم الاهتداء إلى الطَّريق. واستُعير في هذا الموضع لانعدام القدرة على فعل أمرين: الأول أن يخطر البرهان في بالهم، والثاني أن يستطيعوا إحضاره في المحضَر الذي يحاسبون فيه، هذا إن خطر في بالهم، وأنّى لهم ذلك! وهذا كله مِن استعمال اللَّفظ في مَجازيّه، والمراد: ضلَّ عن عقولهم وعن مقامهم الذي هم فيه يوم الحساب. حيث مُثِّلوا بالغاية المقصودة للسّائر في طريقٍ حين يخطئ الطَّريقَ فلا يبلُغ المكانَ المقصودَ الّذي أراد، وعلّق بالضَّلال ضميرَ ذواتِهم ليشمل ضلالَ الأمرَيْن، فيفيد أنَّهم لم يجدوا حُجَّة يروِّجون بها زعمَهم ألوهيّة الأصنام، ولم يجدوا الأصنامَ حاضرةً للشَّفاعة فيهم، فوَجَموا عن الجواب، وأيقنوا بالمؤاخذة[4].

والحاصل أنَّ قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾؛ أي: غاب عنهم غيبة

(1) سِيبَوَيْه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 385، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 500، والسّامُرّائِيّ، معاني النّحْو: 3/ 54.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 173.
(3) محمد علي الدرّة، تفسير القرآن وإعرابه: 7/ 108.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 173.

الشَّيءِ الضّائع[1]، فـ(ضَلَّ) مستعارٌ لمعنى (غاب) استعارة تبعيَّة[2]، ولمّا كانت تلك الغَيبة بحيث لا يمكن إحضار ما غاب وأنَّه كالشَّيء الضّائع؛ قيل: ضَلَّ[3].

دلالة التَّعبير بالماضي عن المستقبل:

ليس مراد الله تعالى بمدفوع

التَّعبير بالماضي عن المستقبل في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا﴾، و:﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ لإفادة تحقُّق وقوعِه، حتَّى كأنَّه قد وقع، فلا يماري فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عَنْزان. وهو فنٌّ من فنون البلاغة معروف[4].

معنى ﴿مَّا﴾ ودلالتها في ﴿مَّا كَانُواْ﴾:

ثراء الدَّلالات بتعدُّد التَّوجيهات

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ تحتمل الموصوليّة، والوصفيّة، والمصدريَّة، فعلى الأوَّلَين مَبنيَّةٌ على السُّكون في محلِّ رفع فاعلٌ، والجملة الفعليَّة بعدها صِلَتُها، أو صِفَتُها، والعائد أو الرّابط محذوف؛ إذ التَّقدير: ضلَّ عنهم الّذي كانوا يفترونه، أو ضلَّ عنهم شيءٌ كانوا يفترونه، وعلى اعتبارها مصدريَّةً تُؤَوَّل مع ما بعدها بمصدرٍ في محلِّ رفعٍ فاعلٌ، والتَّقدير: (ضلَّ عنهم افتراؤُهم)[5].

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَانُواْ﴾:

الدَّلالةُ على رُسوخِهم في افْتراءِ الكُفْر، مع الإصْرار على مَبْدَأهِم في عَقيدَةِ الشِّرْك

أفاد التَّعبير بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ معنى استمرارِهم على هذا الفعل في الدُّنيا وعدمَ انفكاكِهم عنه حتَّى صار كالجِبِلَّة لهم[6]. وهذا يدلُّ على رُسوخِهم في افْتراءِ الكُفْر، معَ الإصْرارِ على مَبْدَأهِم في عَقيدَةِ الشِّرْك؛ فاستحقّوا الخلود في النّار بما كانوا يفترون، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: 40].

---

(1) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف: 3/ 429، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/ 13.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 315.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 105.
(4) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 108.
(5) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 109.
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 347.

دلالة التَّعبير بالمضارع: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

تجدُّدُ افتراءات الكافرين بتجدُّد دعوة النَّبيّين

دلَّ التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ على التَّجدُّد والتَّكرار[1]؛ أي: تجدُّد الافتراء مرَّة بعد مرَّة، فكانوا كلَّما ظهر لهم دليلُ صِحَّة التَّوحيد على بُطْلان مُعتقَدِهم طلبوا له التَّأويلات، وصرفوه عن ظاهره وحقيقته بالتَّخرُّصات، مُصِرّين على كفرهم، سادرين في غيّهم، فكانوا قد عملوا على تجديد افتراءاتِهم كلما تجدَّدَتْ لهم دعوةُ أنبيائِهم.

نكتة حذف مفعول: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

تعميم الحكم على كلِّ أنواع الافتراءات

حُذِف مفعول الفعل ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ للدَّلالة على العموم، فيشمل ذلك كلَّ افتراء كان من القوم، فيدخل فيه ما كانوا يَكْذِبونَه مِن المزاعم في ألوهيَّة الأصنام، وما كانوا يفترون له الألوهيَّة والنفع والضر من الأوثان... إلخ[2].

توجيه المتشابِه اللَّفظيّ:

تقدَّمت المناداة قبل هذه الآية مرَّتين في السّورة:

إحداهما: في الآية (الثّانية والسِّتّين): ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾ [القصص: 62].

والأخرى: في الآية (الخامسة والسِّتّين): ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص: 65]. ثمَّ في هذه الآية الّتي بين أيدينا [القصص: 74].

وكلُّ نداء مِن هذه النِّداءات له مقصوده الخاصُّ[3]. فالنِّداء في الآية (الثّانية والسِّتّين) للذين أشركوا بإحضار شركائهم، فكان الرَّدُّ على النِّداء: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ [القصص: 64]، والنِّداء في الآية

(1) الهلال، التّريّ الجامع: 8/ 374.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 173.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشعراوي: 18/ 11005.

(الخامسة والسِّتِّين) لسؤال المشركين: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص: 65]؟ فكان الرَّدُّ: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾ [القصص: 66]، وأمّا النِّداء في الآية (الرّابعة والسَّبعين) فلأمر الّذين أشركوا: ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ على صِدقِكم، فكان الرَّدُّ: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ أي: كان كلُّ ذلك كذبًا وافتراءً على اللّه تعالى[1].

فأُعيدَ النِّداء لاختلاف الأحوال، ذلك أنَّهم ينادَوْنَ مرَّة فيقال لهم: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾ [القصص: 62] فيَدْعون الأصنامَ فلا يستجيبون، فتظهر حَيرتُهم، ويقرّون على أنفسهم بِالغَيِّ الّذي كانوا عليه، وهو قولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ [القصص: 63] الآية. ثمَّ يُنادَوْن مرَّة ثانية فيقال لهم: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص: 65]؟ فيسكتون. ثمَّ ينادَون مرَّة ثالثة كالنِّداء الأوَّل تعجيزًا عن إقامة البرهان لمّا طولبوا به بحضرة الأشهاد، وهو: قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾، فيعلم الكافرون المفترون حينئذٍ أنَّ الحقَّ للّه تعالى. فهذا توبيخ وزيادة خِزْيٍ[2].

فالنِّداء الأوَّل لبيان فساد رأيهم كما يشير إليه قوله تعالى هناك: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [القصص: 63]، والنِّداء الأخير لبيان أنَّ إشراكهم لم يكن عن سندٍ بل عن محض هوىً كما يشير إليه قوله تعالى بعدُ: ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾[3].

۞ الفروقُ المُعجَميَّة:

الزَّعم والادِّعاء:

في الزَّعم شَكٌّ، وفي الادِّعاء اسْتِمالةٌ وجَذْبٌ

الزَّعم: هو القولُ من غير صحَّة ولا يقين[4]. جذر الادِّعاء أصلٌ

(1) الهلال، التّريّ الجامع: 8/ 373.
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 17/ 445، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 309.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 315.
(4) ابن فارس، المقاييس: (زعم).

واحدٌ، وهو أن تُميل الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلام يكون منك[1]، والمعنى المحوريّ للجذر: جَذْبُ الشَّيء أو محاولةُ ضَمِّه إلى حيِّزٍ أو أمرٍ[2]، ويدلُّ ما سبقَ على أنَّ المدَّعي يريد بادِّعائه أن يُميلَ النّاسَ إليه، وليس في أصل الزَّعم معنى الجَذْب والاستمالة.

الآية والبرهان والدَّليل:

الآيةُ إشارةٌ إلى الدَّليل، والبرهانُ أوْكَدُ الأدِلَّة

الآية مشتقَّة من التَّأيّي الّذي هو التَّثَبُّت والإقامة على الشَّيء. وهي العلامة الظّاهرة، يقال: ائتني بآيةِ كذا، أي: بعلامة. والآيات إشارةٌ إلى الأدِلَّة[3]. أمّا البرهان: فهو الحُجَّة القاطعة المفيدة للعلم، ولا يكون إلا قولًا يشهد بصحَّة الشَّيء[4]، وهو أوْكَدُ الأدِلَّة، وهو الّذي يقتضي الصِّدق أبدًا لا محالة[5]. وأمّا الدَّليل فهو ما يفيد الظنّ؛ ولذا أفحمَ اللّهُ ﷻ الكفّارَ بطلب البرهان منهم، فقال ﷻ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: 111][6].

النَّزْع والقَلْع:

النَّزْعُ مِنَ المَقَرّ، والقَـلْـعُ مِـنَ الأصْلِ

الفرق بينهما أنَّ في القَلْعِ صعوبةً في إخراج الشَّيء من أصله؛ لأنَّه جَذبُ الرّاسخ من أصله. ويُلاحَظ معنى الصُّعوبة في بعض ألفاظ جذره؛ فالقَلْعة: الحِصن الممتنع في جبل، والقِلَعة: صخرة تتقلَّع عن جبلٍ منفردةً يصعب مرامُها[7]. ولأنّ إخراجَ نبيٍّ من بين جماعة كافرين أو مشركين أمرٌ يسيرٌ على اللّه سبحانه؛ أوْثِر في الآية النَّزْعُ دونَ القَلع. والفرق الآخر أنَّ النَّزعَ يكون من المَقَرّ[8]، والقَلْعَ يكون من

(1) ابن فارس، المقاييس: (دعو).
(2) محمّد جبل المعجم الاشتقاقي: (دعو).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (أيي).
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغَويّة 97.
(5) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات، ص: 121.
(6) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغَويّة، ص: 97.
(7) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ، وابن منظور، اللّسان، وابن فارس، المقاييس اللّغة: (قلع).
(8) الراغب، المفردات: (نزع).

الأصل[1]. وممّا يُبيِّن هذا الفرق قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾ [النازعات: 1]؛ فاللّهُ ﷻ أعطى الملائكةَ المذكورين في الآية القدرةَ على إخراج الأرواح من الأجساد[2]، فكان ذلك سهلًا عليهم، ومَقَرُّ الأرواح في الحياة الدُّنيا هو الأجساد؛ لذا أوثِر في الآية السابقة النَّزع دون القلع.

ولمّا كان إخراج اليد من الجَيب[3] سهلًا على موسى ﵇، وكان الجَيبُ مَقَرًّا مؤقَّتًا، أوثِر النَّزع دون القلع في قول اللّه ﷻ: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ [الأعراف: 108].

والرّيحُ الّتي أرسلَها اللّهُ ﷻ على عادٍ كانت شديدةً، وكانت الأرضُ مقرَّهم، فكان في ذلك سهولةُ الجَذب من المقرّ؛ لذا أوثِر النَّزع دون القلع في قول اللّه ﷻ: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: 20]. وقال اللّهُ ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، وقال ﷻ: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ [الأعراف: 43]؛ ونَزعُ المُلكِ ونَزعُ ما في الصدور من غِلٍّ أمرٌ هيِّنٌ يسيرٌ.

(1) ابن منظور، اللّسان: (قلع).
(2) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف: 4/ 692، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 95.
(3) البَغَوِيّ، معالم التّنزيل: 6/ 147.

﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القصص: 76 - 77]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

قصّة قارون عبرةٌ للبغاة، ولمَنْ سار في طريقهم

بعد أن بيّن سبحانه عجزَ أهلِ الضّلالة يومَ القيامة، وما يَلقَونه من الإهانة والاحتقار، ومناداتهم على رؤوس الأشهاد بما يفضحهم، ويُبيّن لهم سوء مَغَبَّتِهم. أعْقبَه بقصّةِ قارونَ لبيانِ عاقبةِ الكافرين والمُتَجَبّرين في الدنيا والآخرة، فقد أهلكه الله بالخسف والزَّلْزَلَة، حتّى أصبح مَثَلًا يُضرَب للنّاس في ظلمه وعُتوِّه، ويَسْتَبِينُ لهم به سوءُ عاقبةِ البُغاة، وما يكون لهم منَ النَّكال والوَبال في الدّنيا والآخرة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾: أصل (بغي) يدلُّ على طلب الشَّيء. والبغي: التَّعدّي، وطلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتَحرَّى، سواءٌ جاوَزَه أم لم يجاوِزْه وأكثر استعمال البَغْي في الأشياء المذمومة، لا سيَّما إذا أُطْلِقَ، نحو: زيد بغى. وبغى: تكبَّر، وذلك لتجاوزه منزلتَه إلى ما ليس له، ويستعمل ذلك في أيِّ أمرٍ كان. وكلُّ مجاوزةٍ في الحدِّ وإفراطٍ على المقدار الّذي هو حدُّ الشَّيء، فهو بغي[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ

(1) المَراغِيّ، تفسير القرآن: 20/ 92.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (بغي).

﴿قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾؛ أي: فطلب الفضل عليهم، وأن يكونوا تحت أمره، أو تكبَّر عليهم أو ظلمهم[1].

2) ﴿ٱلۡكُنُوزِ﴾: أصل (كنز) يدلُّ على تجمُّع في شيء. والكَنْز: جَعْلُ المالِ بعضِه على بعضٍ وحفظُه، كالمال المدفون وغيرِه إذا أُحرِز في وعاءٍ، وقد كَنَز الإنسانُ مالًا يَكْنِزه وأكْنَزْتُه. وأصله من كنَزت التَّمر في الوعاء. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: 34]؛ يَدَّخِرونها. واكتنز الشَّيءُ: اجتمع وامتلأ[2]. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾؛ أي: الأموال المُدَّخَرة[3].

3) ﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾: أصل (فتح) يدلُّ على خلاف الإغلاق[4]. فالفتح: نقيض الإغلاق، وإزالة الإشكال، وفَتَحْتُ الباب أفتحُه فتحًا فانْفَتَحَ. وافْتَتَحَه وفَتَّحه، فانْفَتَحَ وتَفَتَّح. وفاتحة كلِّ شيء: أوَّلُه ومَبدؤه الّذي يُفتَح به ما بعده، يقال: افتتحَ فلانٌ كذا: إذا ابتدأ به. وفتح عليه كذا: إذا أعْلَمَه ووقَّفَه عليه. والمِفتَح والمفتاح: مفتاح الباب، وكلُّ ما يُفتَح به الشَّيءُ وكلُّ مُسْتَغْلَق، وجمعه: مفاتيح ومَفاتِح. وجمع المفتاح الّذي يُفتح به المِغلاق: مفاتيح، وجمع المَفتَح الّذي هو الخِزانة: المفاتح. وقال الله ﷻ: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾؛ أي: الآلة الّتي يُفتح بها، وقيل: خزائنه وما فيها من مال تنوء به العصبة؛ أي: تُميلُهم من ثِقَلِها. والأوَّل أبلغ؛ لأنَّه إذا كثُرت المفاتيح، كثر المفتوح، فهو أبلغ[5].

4) ﴿لَتَنُوٓأُ﴾: أصل (نوء) يدلُّ على انجذاب الشَّيء إلى أسفلَ بضغطٍ من ثِقَله[6]. ناء بجانبه ينوء نوءًا؛ أي: نهض بجهد ومشقَّة. وناء: سقط، فهو من الأضداد. يقال: ناء بالحِمْل، إذا نهض به مُثْقَلًا؛ وناء به الحِمَل، إذا أثقله. وأناءه الحِمْل: أثقله. وأنأتُه:

---

(1) البَيْضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 185.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كنز).

(3) البَيْضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 185.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتح).

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فتح).

(6) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نوء).

أنهضته. قال تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾؛ نَوْءُها بالعصبة أنْ تُثْقِلهم. والمعنى: إنَّ مفاتحه لتنوء بالعُصْبة؛ أي تُميلُهم من ثِقَلِها[1].

5) ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾: أصل (عصب) يدلُّ على ربط شيء بشيء مستطيلًا أو مستديرًا. العَصَبة: واحد العَصَب والأعصاب، وهي أطناب المفاصل الّتي تلائم بينها وتشدُّها، تقول: عَصِب اللَّحمُ؛ أي: كثُر عصبه. وانعصب: اشتدَّ، وعصَب الشَّيءَ يعصِبه عَصبًا: شدَّه. والمعصوب: الشَّديد اكتناز اللَّحم، وكذا المربوط بالعَصَب المنزوع من الحيوان، ثم يقال لكلِّ شدٍّ: عَصْب. وعَصَبَ رأسَه، وعصَّبه تعصيبًا: شدَّه، واسم ما شُدَّ به: العِصابة، وتعصَّب: شدَّ العِصابة. والعِصابة: الجماعة من النّاس والخيل والطَّير. والعُصْبَة: جماعة مُتَعَصِّبة متعاضدة، وهم ما بين العشرة إلى الأربعين[2].

ورد في القرآن الكريم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: 14]؛ أي: مجتمعة أقوياء متعاضِدَة[3]. وقوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾؛ والمراد بالعُصبة: الجماعة الّتي يَتعَصَّب بعضُها لبعض[4].

6) ﴿لَا تَفْرَحْ﴾: أصل (فرح) يدلُّ على خلاف الحزن[5]. فالفرح: نقيض الحزن، وهو أن يجد في القلب خِفَّة، وانشراحَ صدرٍ بلذَّة عاجلة، يقال: فرح به فرحًا؛ أي سُرَّ، ورجل فَرِحٌ وفرحانٌ من قوم فَراحَى وفَرْحَى، وامرأة فرِحة وفَرْحَى وفرحانة. وأكثر ما يكون ذلك في اللَّذات البدنيَّة الدُّنيويَّة. والفرح أيضا: البَطَر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾؛ أي: لا تفرح ولا تأشر بكثرة المال في الدُّنيا؛ لأنَّ الّذي يفرح بالمال يصرفه في غير أمر الآخرة، ولأنَّه إذا سُرَّ به ربما أشِر. والمِفْراح: الّذي يفرح كلَّما سرَّه الدَّهر، وهو الكثير الفرح. وقد أفرحه وفرَّحه: سَرَّه[6].

(1) الجوهريّ، الصحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نوء).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (عصب).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (عصب).
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 215.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرح).
(6) الجوهريّ، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب والراغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فرح).

7) ﴿ٱلدَّارَ﴾: أصل (دور) يدلُّ على إحداق الشَّيء بالشَّيء من حواليه[1]. ومنه الدّار: وهي اسم جامع للعَرْصة والبناء والمَحِلَّة، وكلُّ موضع حلَّ به قوم فهو دار، والدار أيضا المَنزِل اعتبارًا بدورانها الّذي لها بالحائط، ثم تُسمَّى البلدة دارًا، والصِّقع دارًا، والدُّنيا كما هي دارًا، والدّار الدُّنيا والدّار الآخرة. وجمع القلة: أَدْوُر وأَدْؤر وديران، وجمع الكثرة ديار ودور. يقال: دارَ الشَّيء يدور دورًا ودَوَرانًا، واستدار، وأداره غيرُه ودوَّره، وتدويرُ الشَّيء جعله مُدَوَّرًا[2].

8) ﴿نَصِيبَكَ﴾: أصل (نصب) يَدُلُّ عَلَى إِقَامَةِ شَيْءٍ وإِهْدافٍ في اسْتِواءٍ[3]. ونَصْبُ الشَّيءِ: مصدر نَصَبْتُ الشَّيءَ، إذا أقمتُه ووضعتُه وضْعًا ناتئًا قائمًا منتصبًا، كنَصْبِ الرُّمح. والنَّصيب: الحجارة تُنصَب على الشَّيء، فتُعبَد من دون الله، وجمعه نصائب ونُصُب، وكان للعرب حجارةٌ تعبدُها وتذبح عليها، وقد يقال في جمعها أيضا: الأنصاب. والنَّصيب: الحظُّ المنصوب من كلِّ شيء؛ أي: المعين، والجمع: أَنْصِبَةٌ وأَنْصِباءُ[4]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: "لا تُضَيِّع حظَّك من دنياك في تمَتُّعِك بالحلال وطلبِك إيّاه"[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الغنى وعز السُّلطان يصيبان الإنسان بالطُّغيان إلا مَنْ عصمه الرَّحمن

يخبرنا البيان القرآنيّ في هاتين الآيتين عن حال قارون الّذي علا وتكبَّر على قومه بالمال والثَّراء الكثير الّذي أعطاه الله إيّاه، وعن موقف قومه في بني إسرائيل منه، وعن نصحهم له فيقول: إنَّ قارون كان من عشيرة قوم موسى ﵇ حيث كان ابنَ عمِّه لأبيه وأُمِّه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصحاح، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (دور).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصب).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصب).
(5) القرطبيّ، أحكام القرآن: 13/ 314.

لكنَّه قد تجاوز حدَّه في الكِبْر والتَّجبُّر عليهم؛ لِما أعطيناه من الأموال الوفيرة، والكنوز الكثيرة ما يَثْقُلُ على الجماعة أصحاب القوَّة مِنَ الرِّجال الأشدّاء حَمْلُ مفاتحها فضلًا عَنْ حمل الخزائن والأموال، لكنَّه لم يشكر اللّه تعالى على هذه النِّعمة، فقال له الصّالحون مِنْ قومه: لا تبطُرْ ولا تأشَرْ بكثرة المال والأولاد، وكن من الشّاكرين اللّه على إنعامه وإحسانه؛ لأنَّه سبحانه لا يحب البَطِرين الأشِرين الّذين لا يشكرونه على ما أعطاهم من الفضل والنِّعم، واطلب فيما أعطاك اللّه من الأموال والخيرات رضى اللّه وثوابه في الدّار الآخرة، وذلك بفعل الطّاعات وترك المنكرات، ولا تضيِّعْ حظَّك كذلك من الدُّنيا في تمتُّعك بالحلال وطلبك إيّاه، وأحسن إلى عباد اللّه بالصَّدقة وحسن اللِّقاء وطلاقة الوجه كما أحسن اللّه إليك بنعمته وفضله عليك، ولا تطلب بهذا الفضل من المال والثَّراء البغيَ والتطاولَ على النّاس متجاوزًا بذلك حدود اللّه، إنَّ اللّه لا يرضى عن المجرمين الباغين في الأرض لسوء أفعالهم وشدَّة طغيانهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

بيان أوصاف المشركين المتكبّرين

فُصِل قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئناف ابتدائيٌّ جاء لذكر قصَّةٍ ضُرِبَتْ مثلًا لحال بعض كفّار مكَّة - وهُم سادتهم - مثل: الوليدِ بنِ المغيرةِ، وأبي جهلِ بنِ هشام، ولها مزيد تعلُّق بجملة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾ [القصص: 60] إلى قوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾ [القصص: 61] ولهذه القصَّة اتِّصالٌ بقصَّة جند فرعون المنتهية عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ [القصص: 46]، كما أنَّها معالِجَةٌ

(1) البَيْضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 185.

كذلك لفتنة طغيانِ المالِ وسَكْرة الثَّراء والّتي هي بقَصِّ قصّة مفتونٍ أعمتْهُ ثروتُه، واغترَّ بِبَهْرَجِها، وحملتْهُ على البغي، وأصَمَّتْ سمعَه عن نصح أهلِ العِلم، حتَّى قادتْهُ إلى حَتْفِ الهلكة؛ فكان مضربَ المَثَل لمَن أخْسَرَهُ مالُه الخسرانَ المبينَ[1].

نكتة تصدير الجملة بالتَّوكيد:

افتتاح الجملة بحرف التَّوكيد يجوز أن يكون لإفادة تأكيد خبر ﴿إِنَّ﴾، ويجوز أن تكون ﴿إِنَّ﴾ لمجرَّد الاهتمام بالخبر، ومناط الاهتمام هو مجموع ما تضمَّنته القصَّة مِن العِبَر الّتي منها أنَّه من قوم موسى عليه السلام، فصار عدوًّا له ولأتباعه، فَأمْرُ قارون أغْرَبُ مِن أمر فرعون نفسِه[2].

اهتمامٌ بتوكيد قصّة متكبّر جعله الله عبرةً عبر الزَّمن

نكتة التَّعريف بالعَلَميَّة:

أوْثِرَ التَّعريفُ بالعَلَميَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ﴾ لإحضاره في الذِّهن بشخصه وذاته، فالعَلَم يدلُّ على الذّات الموضوع لها الاسم، فإذا قيل: جاء زيد. فقد أُحضِر زيدٌ بصورته الدالِّ عليها العَلَمُ في الذِّهن[3].

استحضار الصّورة، وبيان الأهمّيّة

نكتة الإخبار عن انتساب قارون لقوم موسى:

أخبر سبحانه عن قارون بأنَّه: ﴿كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ وعُدِل عن أن يقال: (كان من بني إسرائيل)؛ لما في إضافة كلمة ﴿قَوۡمِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ مِن الإيماء إلى أنَّ لقارون اتصالًا خاصًّا بموسى عليه السلام فهو اتِّصال القرابة؛ إذ إنَّه كان ابنَ عمِّه؛ وعداوتُه لموسى عليه السلام ليست كعدواة غيره من النّاس[4].

أُضيف قارون لموسى؛ لبيان ما بينهما من قرابة

ففي حين أنَّه كان متوقَّعًا مِن قريب موسى عليه السلام أن يكون من أوَّل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 174، 175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 175 - 176.
(3) القَزْوِينيّ، بُغيةُ الإيضاح: 1/ 78.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 176.

المؤمنين به، والموالين له حصل ما هو نقيض ذلك، وفي هذا إيماءٌ لما حصل مع النَّبيِّ ﷺ من ذوي قُرْباه؛ كعمِّه أبي لهب لعنه اللّه. فلم تنفع قارونَ قرابتُه لنبيِّ اللّه موسى عليه السلام إذ كفر قارونُ باللّه وعادى رسوله عليه السلام.

وفي هذا تهديد لِمَن كفر بالنَّبيِّ ﷺ من أقاربه. وفيه كذلك تسلية للنَّبيِّ ﷺ لئلّا يحزن لكفر عمٍّ أو قريب، فإنَّ ﴿قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ وكفر به، فإنَّك ﴿لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾:

بيان أصل نسبة قارون ذي الغواية

الأصل في معنى ﴿مِن﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[1]. وفي قوله تعالى عن قارون إنَّه كان ﴿مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ فيعنى أنَّ ابتداء نَسَبِ قارونَ كان قومَ موسى، فلم يكن منتسبًا إليهم، بل كان واحدًا منهم، ففي ﴿مِن﴾ هنا معنى التَّبعيض؛ أي: أنَّ قارون كان بعضَ قوم موسى عليه السلام، ولهذا قيل: إنَّ "في كلِّ تبعيض معنى الابتداء"[2].

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾:

إفادة التّعريف والتّشريف

الإضافة في قوله تعالى: ﴿قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ إضافة محضة على تقدير اللّام؛ أي: (قوم لموسى) وقد أفادت المضافَ التَّعريفَ، وفيها دلالة على أنَّ قوم النَّبيِّ يُنسَبون له.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾:

بيان عظيم الجرم، وإثارة التَّعجيب

جاءت الفاء في قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ اعتراضيَّة؛ لإفادة التَّرتيب والتَّعقيب؛ حيث لم يَلْبَثْ قارونُ أنْ بَطَرَ النِّعمة، واجترأ على ذوي قرابته، فالجملة جاءت للتَّعجيب من بغي أحد على قومه[3]

(1) سِيبَوَيْه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 459، والسّامُرّائِيّ، معاني النّحْو: 3/ 75.
(2) ابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 459.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 176.

والأصل أن يُؤازِر الإنسان قرابته لا سيَّما إن كانوا على الجادَّة، أو كان لهم شأنٌ رفيعٌ، ولا شرفَ أرفعُ ولا أعظمُ مِن شرف النُّبوة؛ فالظُّلم حين يأتي مِن ذوي القربى يكون أشدَّ وقعًا في النَّفس كما قال طَرَفَةُ:

وظلم ذوي القربى أشدُّ مَضاضَةً *** على المرء من وقْعِ الحُسام المهنَّد[1]

دلالة التَّعبير بالبَغْيِ مادةً وصيغةً:

البَغْيُ مجاوَزَةُ الحدّ، والتَّرقي في الذُّنوب إلى ما هو أشدّ

البَغْيُ: طَلَبُ تجاوُزِ الاقتصادِ فيما يُتحرَّى، سواءٌ تَجاوَزَهُ أمْ لم يَتَجاوَزْهُ، فتارة يعتبر في القَدْرِ الّذي هو الكمِّيَّة، وتارة يعتبر في الوصف الّذي هو الكيفيَّة، يقال: بَغَيتُ الشَّيءَ: إذا طَلَبْتُ أكثرَ ما يجب[2]. والبَغْيُ على أمَّةٍ من النّاس: الاعتداء والاستخفاف بحقوقها، وأوَّل ذلك خَرْقُ شريعتِها، وهو ما قام به قارون مع قومه؛ حيث جاوز الحدَّ في التَّجبُّر عليهم والتَّكبُّر في التَّعامل معه، كما أنَّه طلب التَّفضُّل عليهم كذلك، وسعى لأن يكونوا تحت أمره، وحسد موسى عليه السلام على رسالته، وهارونَ على إمامته، وفي الإخبار عنه بأنَّه مِن قوم موسى عليه السلام تمهيد للكناية بهذا الخبر عن إرادة التَّلميح بالنَّظير فيما تعرَّض له سيِّدُنا رسول اللّه ﷺ من بَغْيِ بعضِ قرابته المشركين عليه[3].

معنى (على) ودلالتها في ﴿عَلَيۡهِمۡۖ﴾:

بيان تمادي قارونَ في الغيّ

الأصل في معنى (على) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوِّ[4]. وقد جاءت هنا؛ لتفيد الاستعلاء المجازيّ؛ حيث إنَّ قارون كان

(1) طَرَفَةُ بنُ العبد، ديوانه، ص: 27.
(2) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص: 136.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 176.
(4) سِيبَوَيْهِ، الكتاب: 4/ 230، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 497، والسّامُرّائِيّ، معاني النّحْو: 3/ 47.

يطلب العلوَّ على قومه؛ فاستطال عليهم بكثرة ماله وولده، وحقَّر من شأنهم، وزاد عليهم في الثِّياب شبرًا، وطلب زوال نعمهم؛ ليكونوا دائمًا دونه في المكانة، وليبقى هو الأعلى شأنًا، والأرفعَ منزلةً.

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

الواو استئنافيَّة؛ لإفادة المغايرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾ استئنافيَّة؛ وقد أفاد الاستئناف المغايرة؛ حيث انتقل من الحديث عن قارون وقرابته من موسى عليه السلام إلى الحديث عن ما أوتي من الكنوز العظيمة والأموال الطّائلة؛ فهالَتْهُ تلك الثَّروة، واغترَّ ببريق تمكينها، وتملَّكت قلبَه وفكرَه وهمَّه؛ إذْ كانت منتهى علمِه ومحلَّ فرحه؛ فقاده ذلك التعلُّقُ إلى نسيانِ حقيقة الدُّنيا وغياب حساب الآخرة عن تفكيره.

دلالة إسناد فعل الإيتاء لضمير العظَمَة:

الــدّلالــة على ذي الـقـدرة في العطاء

أُسند فعل الإيتاء لنون العظَمَة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾؛ لتعظيم معنى الإيتاء. فالمال في الأصل للّٰه سبحانه، وقد آتى اللّٰهُ سبحانه قارونَ هذه الكنوزَ بعلم وحكمة، وللدَّلالة على أنَّه ما كان ليقدر أحدٌ على منحِ قارون هذا المالَ العظيمَ سوى اللّٰهِ تعالى[1]. وهذا تمهيد للرَّدِّ على ما ادَّعاه قارونُ بعدُ عندما قال لناصحيه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78]، ولبيان شناعة ما تكلَّم به.

سرُّ تسمية أموال قارون بالكنوز:

المال المكنوز هو الّذي لم يُعرف حقُّ الله فيه؛ ولـم يـؤدَّ إلى مستحقّيه

جاء التَّعبير بالكنوز في قوله سبحانه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾؛ لبيان أنَّ أموال قارون كانت ممّا لم يُرعَ حقُّ اللّٰه سبحانه فيه، إذ كان ممتنعًا عن أداء الزَّكاة، ولم تكن أموالُه مسخَّرة في الخير، بل سخَّرها في الصَّدِّ عن سبيل اللّٰه، ومَنْعِ وصول دعوة الحقِّ إلى النّاس، فقد كَنَزَ الذَّهبَ والفضَّة ولم ينفقهما في سبيل اللّٰه، فله

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 323.

العذاب الأليم. فالكنوز هي الأموال المدَّخرة، فهو مجاز بجعل المدَّخر كالمدفون إن كان الكنز مخصوصًا به[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾:

إنَّ الكنوز هي مبتدأ الإيتاء

الأصل في معنى ﴿مِنَ﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[2]؛ وقوله سبحانه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾؛ أي: أنَّ ابتداءَ الإيتاءِ هو الكنوزُ. وقد دلَّ ذلك على كثرة ما أوتي قارون من المال ووَفْرَته، حتَّى كأنَّه لم يَكُنْ فقيرًا يومًا، ويؤيِّد هذا قوله تعالى بعده: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾.

معنى (أل) ودلالتها في: ﴿ٱلۡكُنُوزِ﴾:

(أل) جنسيَّة تفيد الاستغراق، وقد دلَّت على فظاعة البخل عن الإنفاق

جاءت (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكُنُوزِ﴾ جنسيَّةً لإفادة الاستغراق؛ أي أنَّ اللّه سبحانه أعطى قارون من كلِّ صنوف المال؛ فكان لزامًا عليه شكر المنعِم الجليل الّذي تفضَّل عليه بهذه النِّعم الكثيرة، وإنفاقها في وجوه البِرِّ والإحسان؛ ليكونَ له زادًا ينعم بخيره يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى اللّهَ بقلبٍ سليم، دون أنْ يكونَ هذا البِرُّ مانعًا من الاستمتاع بما أحلَّ اللّه مِن طيِّباتِ الدُّنيا الّتي تَغدو باحتسابِها عند اللّهِ حسناتٍ يُثابُ عليها، لكنَّه آثر الكفران والجحود والبطر والإفساد.

سرّ ذكر الكنوز والمفاتح بلفظ الجمع:

بيان العطاء الإلهيّ العظيم الّذي لا يُحَدُّ ولا يُعَدّ

جاء لفظ ﴿ٱلۡكُنُوزِ﴾، وكذلك لفظ ﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾ بصيغة الجمع مبالغةً في الكثرة التي يحملهما هذان اللفظان[3]، وهذه المبالغة في القرآن من أحسن المبالغات وأعجبها عند الحذّاق وهي أن يُتَقَصَّى جميعُ ما يدلُّ على الكثرة (كالكنوز والمفاتح والعُصْبة)، ووصف ما

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 323، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 316.

(2) سِيبَوَيْهِ، الكتاب: 4/ 224، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 459، والسّامُرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 75.

(3) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف 10/ 430.

يتعلَّق بما يملكه بالنَّوء أي ثِقَل المفاتح التي لا تنهض بها الجماعة إلا في جَهْدٍ ومشقّة[1].

معنى ﴿مَآ﴾ ودلالتها في ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾:

عِظَم العطاء الإلهي الّذي كان لقارون

﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ موصولة في موضع المفعول الثّاني لـ(آتَيْناه)، و﴿إِنَّ﴾ وما في حيّزها إلى قوله: ﴿أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ صِلتُها، وإنّما وُصِلت بـ﴿إِنَّ﴾ وكُسِرت؛ لأنَّ ﴿مَآ﴾ الموصولة توصَل بالجملتين المبتدأ والخبر، والفعل والفاعل، ولا اختصاص لها بأحدهما[2]. و﴿مَآ﴾ وصِلتُها صفة للكنوز؛ أي إنَّ الله ﷻ أعطى قارون مِن الأموالِ المدَّخَرةِ الشَّيءَ الكثيرَ الّذي يثقل حَمْلُ مفاتيحِ خزائنِه على العددِ الكثيرِ من أقْوياءِ النّاس[3]. وإنَّما وُصِفت الكنوز بهذا الوصف للمبالغة في عِظَمها، ولتذهب النُّفوس في تصوُّرِها كلَّ مذهب.

نكتة توكيد الجملة:

بيان ضخامة ثروة قارون

جاءت ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ﴾ مؤكّدة لنفي الشَّكِّ في الخبر المستَغرَب؛ ففي المبالغة بالتَّعبير بالكنوز والمفاتح والعُصبة الموصوفة ما يدلُّ على أنَّ قارون أوتي مِن ذلك ما لم يؤتَه أحدٌ ممَّن هو في عداده، وكلُّ ذلك ممّا تستبعده العقول؛ فلذلك وقع التَّأكيد للدَّلالة على أنَّ خزائن قارون كانت بهذه الضَّخامة المذكورة في الآية حتَّى إنَّه لَيَصعب حملُ مفاتح هذه الخزائن على جماعة مِن الأقوياء؛ ممّا يدلُّ على عِظَمِها وعِظَمِ ما تحويه؛ فجاء التَّوكيد لنفي الشَّكِّ أو التَّردُّد الّذي قد يُثار في نفس السّامع[4].

فائدة ذِكر المفاتح دون الخزائن:

في ذِكر المفاتح دون الخزائن في قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ

---

(1) الرّازي، مختار الصّحاح، ص: 321، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 380.
(2) المنتجب الهمداني، الكتاب الفريد: 5/ 149، والسّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 8/ 692، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 176.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 384، والهرريّ، الحدائق: 21/ 287.
(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 350.

في ذكر المفاتح استدلالٌ على عِظَم الخزائن بطريق الأَوْلَى

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ مبالغة في بيان ما كانت عليه هذه الخزائن مِن الضَّخامة، وما تحويه من الأموال الطّائلة، فإذا كانت مفاتح خزائن أمواله لتُثْقِلُ الجماعةَ القويَّةَ عن حَمْلِها، فما ظنُّك بالخزائن(1)؟!.

وفي إسناد الفعل إلى المفاتح - وهي المداخل إلى هذه الأموال - وجَعْلِها تنوء بالعُصبة أولي القوّة إشارةٌ إلى من قام على هذه الكنوز مِن قوىً شديدةٍ ذاتِ بأسٍ مِنَ الخَزَنَة والحَرّاس الأقوياء، حتى إنَّ هذه المفاتح الّتي هي المداخل الّتي يُدْخَل منها على هذا المال الكثير لَتنوءُ وتَثْقُل عن الحَمْلِ من قِبَلِ هذه المجموعات القويّة من الخَزَنَة والحرّاس(2).

دلالة مجيء المفاتح جمعًا مضافًا لضمير قارون:

إلماح لشدَّة الاتِّصال والملازَمة بين ذكر المفاتح وعظم الكنوز

جاءت المفاتح جمعًا في قوله تعالى: ﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾ لإفادة معنى الكثرة مبالغةً فيما أُوْتِيَه قارونُ من الأموال، فقوله سبحانه: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾؛ أي: مفاتح صناديقه، فهو على تقدير مضاف. أو الإضافة لأدنى ملابَسَة(3). ويُلمَح من إضافة المفاتح إلى ضمير قارون بيان شِدَّة اتِّصالها به، وملازمته إيّاها، فكأنَّه كان يصحبها معه حيثما ولَّى وجهه، مُفتخرًا على قومه بها، ضِنّينًا بما حَوَته الخزائن من الكنوز، خائفًا أن تُفتَح في غيبته!.

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَتَنُوٓأُ﴾:

نفي الشَّكِّ عن ضخامة ما آتاه الله لقارون

اللّام في قوله: ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ هي الّتي تُسَمَّى اللّامَ المزحلَقة(4)؛ وقد جاءت لزيادة تأكيدِ أنَّ خزائنَ قارونَ كانت بهذه الضَّخامة المذكورة في الآية حتى إنَّه ليصعب حملها على جماعة مِن الأقوياء الأشدّاء؛ ممّا يدلُّ على عظمتها وعظمة ما تحويه؛ وقد جاء التَّوكيد بعد

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 623.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني: 10/ 384.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 316.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 374، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 292.

التَّوكيد لنفي الشَّكِّ أو التَّردُّد الّذي قد يثار في نفس السّامع حول كيفية حدوث شيء كهذا، فكأنَّ السّامع قد نُزِّل منزلة المنكِر أو الشّاكِّ؛ نَظَرًا لغرابة الخبر المَسوق في الآية الكريمة، فَحَسُنَ عند ذلك التَّوكيد.

دلالة التَّعبير بالنَّوء مادةً وصيغةً:

بيانٌ لضخامةِ الأحمالِ، وعظيمِ ما أوتي الهالكُ من الكنوزِ والأموال

أصل النَّوء: النُّهوض بالحِمْل مُثْقَلًا في جَهْدٍ ومشقَّة. وناء به الحِمْلُ إذا أماله لِثقَله[1]. ومعناه المحوريُّ: انجذاب الشَّيء إلى أسفلَ بضغطٍ من ثِقَله[2]. وأمّا قوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ فأحسن ما قيل فيه أنَّ المعنى: أنَّ المفاتح لَتُنْيِء العصبةَ؛ أي: تُميلُهم بثِقَلِها، فلمّا انفتحت التّاء دخلت الباء. كما قالوا: هو يذهب بالبؤس ومُذهِبُ البؤسِ. فصار ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ فجعل العصبة تنوء؛ أي: تنهض متثاقلةً؛ كقولك: قُمْ بنا؛ أي: اجعلنا نقوم[3]. قال أبو عبيدة: هذا من المقلوب، والمعنى: لتنوءُ بها العصبةُ؛ أي: تنهض بها متثاقلةً، وقيل: يجوز أن لا يكون هناك قَلْبٌ لأنَّ المفاتح تنهضُ مُلابِسَةً للعُصبة إذا نهضت العُصْبةُ بها[4]. وقد جاء هذا التَّعبير؛ لبيان ضخامة ما أوتي قارون من الكنوز والأموال.

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾:

الباء للإلصاق والملابسة، لبيان شدَّة ثقل مفاتح الكنوز

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[5]. والباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ للتَّعدية[6]، وقد أفادت معنى الإلصاق والملابسة؛ أي: أنَّها تَثْقُل

---

(1) الجوهريّ، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نوأ).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نوأ).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 312.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 317.
(5) سِيبَوَيْهِ، الكتاب: 4/ 217، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 474، والسّامُرّائِيّ، معاني النّحْو: 3/ 19.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 317.

على العُصبة الّذين يحملونها، فهي لشدَّة ثِقَلها يَصْعُبُ حَمْلُها، فلا يحملونها ويَنْهَضونَ بها إلّا بِجُهدٍ ومَشَقَّةٍ مَعَ أنَّ حَمَلَتَها عُصْبةٌ أولو قوَّة[1]. وأُسْنِد ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ إلى (المفاتح) والمراد إسنادُه إلى العُصْبة، لأنَّ العُصْبةَ مُستصحِبَةٌ المفاتحَ، لا تستصحِبُها المفاتحُ، وفائدتُه المبالغة بجعْلِ المفاتح كأنَّها مَسْتَتْبَعَةٌ لِلْعُصْبةِ القَويَّة بِثِقَلِها[2].

نكتة وصف العصبة:

جاء وصف العُصبة بـ﴿أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾ وهم الجماعة القويَّة الشّابَّة المتكاثرة؛ لبيان أنَّ خزائن قارون كانت من الضَّخامة بمكان[3]؛ ممّا يتطلَّب عددًا من الرّجال الّذين يُعْرَفون بالقوَّة البدنيَّة الفائقة؛ إذْ لم يكن يَقْدِرُ على حَمْلِها العصبةُ مِنْ ذوي الشِّدَّة والبأس إلّا بالجَهد والمَشَقَّة. فما الظَّنُّ بغيرهم ممَّن هم دونهم؟!

الوصف لتخصيص الموصوف بمعناه، ودفع احتمال أيِّ معنًى سواه

معنى (أل) ودلالتها في: ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾:

(أل) في قوله: ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾ هي العهديَّة الذِّهنيَّة؛ حيث إنَّ صوَرَ القوَّة تتنوَّع؛ فهناك القوَّة العقليَّة، والقوَّة الإيمانيَّة، والقوَّة البدنيَّة، وهذه الأخيرة هي المقصودة والمعهودة هنا بدلالة قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾، والنَّوء: النُّهوض بالشَّيء مُثقلًا في مشقَّة وجَهْدٍ، والمفاتحُ ممّا يُحمَل.

المقصود بالقوة القوَّة البدنيَّة

عِلَّة الفصل عن سابقه:

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ عن سابقه؛ لأنَّ جملة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾ جاءت حائلَةً بين قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ﴾، ومُتَعَلَّقِه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾؛ فلو عُطِفَتْ لتوُهِّمَ أنَّها معطوفةٌ على ما قبلها؛ فَبَيْنَ الجُمْلَتين شِبْهُ كمالِ انْقِطاعٍ.

الفصل لإزالة التَّوهُّم والإلباس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 177.
(2) الزَّرْكَشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/ 288.
(3) الهلال، الثّريّ الجامع: 20/ 114.

معنى ﴿إِذۡ﴾ ودلالتها في ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾:

المراد بيان واقع القصة لا إيضاح وقتها وظرفها

﴿إِذۡ﴾ ظرف منصوب بفعل ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، والمقصود مِن هذا الظَّرف القصَّة، وليس القصد به توقيت البَغْي؛ ولذلك قدَّره بعضُ المفسِّرين متعلِّقًا بـ(اذكر) محذوفًا. وهو المعنيُّ في نظائره مِن القصص[1].

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَهُۥ﴾ ونكتة تعدية فعل القول بها:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص. إمّا بالملكية أو بغيرها[2]، واللّام في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾ للاختصاص الّذي يفيد الاستحقاق؛ يعني أنَّ قارون لمّا بغى على قومه بما آتاه اللّٰه من القوَّة والمال، كان مستَحِقًّا لنوع من النُّصح يُختَصُّ به؛ ليَرْتَدِعَ ويَزْدَجِر. وأمّا تعدية فعل القول باللّام فَلإفادة إيصال هذا القول إلى مسامع قارون، وتبليغ هذا القول إيّاه، فلم تكن هذه المقالة بين القوم سرًّا، بل أعلنوا بها، وبلَّغوها لقارون؛ أمرًا له بالمعروف ونهيًا له عن المنكر حسبةً للّٰه تعالى.

نكتةُ مجيءِ الفاعلِ اسمَ جَمْعٍ مُضافًا إلى ضميرِ قارونَ:

شِدَّة بغي قارون حَتَّى اضطَرَّ أقارِبُهُ لِنَهْيِهِ ونُصْحِهِ وذَمِّهِ

جاء الفاعل اسمَ جمعٍ مضافًا إلى ضمير قارون في قوله: ﴿قَوۡمُهُۥ﴾؛ إشارةً إلى تناهي بغيه بافتخاره وكبره على أقاربه الّذين جرت العادة ألّا يُغْضِبَ كلامُهم ولا يُحمَلَ إلّا على النُّصْح والشَّفقة، وقد ساغَتْ نسبة القول للكلِّ وإن كان القائلُ بعضَهم - بدليل ما يأتي بَعْدُ من تمنِّي الجاهلين مكانَه - إمّا لأنَّ السّاكِتَ معدودٌ في القائلين، إذْ إنَّ السُّكوتَ علامةُ الرِّضا، وهو أمرٌ معروفٌ لا يُنْكِرُه أحدٌ، وإمّا لأنَّ أهلَ الخير همُ النّاس، ومَن عداهم عَدَم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 177، والبِقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 351.
(2) سِيبَوَيْهِ، الكتاب: 4/ 217، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 479، والسّامَرّائِيّ، معاني النّحو: 3/ 64.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 351.

معنى ﴿لَا﴾ ودلالتها في ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾:

﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾ ناهيةٌ؛ والنَّهي هنا عن الفرح الّذي يكون مصحوبًا بما يُغْضِبُ اللّه سبحانه، فالغَرَضُ مِنْ هذا النَّهْي النُّصحُ والإرشاد؛ فالفرح: انبساطُ النَّفس لأمرٍ يَسُرُّ الإنسانَ، وفَرْقٌ بين أمرٍ يَسُرُّك؛ لأنَّه يُمَتِّعُك، وأمرٍ يَسُرُّك لأنَّه يَنْفَعُك، فالمتعةُ غيرُ المنفعةِ أيْ: لا تَبْطَر! والفرح بالدُّنيا مذموم مطلقًا لأنَّه نتيجة حبّها والرِّضا بها والذُّهول عن ذهابها، فإنَّ العِلْم بأنَّ ما فيها مِن اللَّذة مُفارَقٌ لا محالة يوجِب التَّرحَ لا الفرحَ، كما قيل:

أشدُّ الغَمّ عِندي في سُرورٍ *** تَيَقَّنَ عنه صاحبُه انتقالا[1]

الفرح بالدُّنيا مذموم مطلقًا؛ لأنَّه نتيجة حبِّها والرِّضا بها والذُّهول عن ذهابها

نكتة فصل تذييل الآية:

فُصِلَ قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه تعليل لما قبله؛ فَبَيْنَ الجملتين شِبهُ كمالِ اتِّصال على طريقة الاستئناف الابتدائيِّ، فكأنَّ سائلًا سأل: لماذا نُهي قارون عن أن يفرح؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾؛ أي: الأشِرين البَطِرين، فعُلِّل النَّهي ها هنا بكونه مانعًا من محبَّة اللّه تعالى. وكفى بها من عقوبة ومغبَّة[2]! فإنّما يَفْرَحُ بإقبال الدُّنيا عليه مَنِ اطْمأنَّ إليها وغَفَلَ عن أمر الآخرة، وأمّا مَنْ عَلِمَ أنَّه مُفارِقٌ زَهْرةَ الدُّنيا عن قريبٍ فإنَّه لا يفرح بها[3].

مِن شأن الاستئناف البيانيّ أن يُفصَل عن سابقه، وأن يمهِّد للاحقه

نكتة توكيد الجملة:

جاء توكيد الجملة بـ﴿إِنَّ﴾ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾؛ اهتمامًا بالخبر، وتنزيلًا لقارون منزلة الشّاكِّ أو المنكِر، وتأكيدًا أنَّ فرحه بما أوتي من حُطام الدُّنيا يدلُّ على سُفولِ هِمَّتِه؛ فإنَّ الفرح بالعَرَض الزّائل يدلُّ على الرُّكون إليه، وذلك يدلُّ على

التَّوكيد لإزالة الشَّكِّ والإنكار مِمَّنْ سَفَلَتْ هِمَّتُهُ، وجَهِلَ عَواقِبَ طَيْشِهِ

(1) المتنبي، ديوانه، ص: 140.
(2) البَيْضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 185.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 324.

نسيان الآخرة، وعلى غاية الجهل والطَّيش وقلَّة التَّأمُّل للعواقب، فيجرُّ إلى المرح، ويُسرع إلى الهلاك[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بلفظ الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة:

إنَّ التَّعبيرَ بالألوهيَّة لأمرٍ متعلِّقٍ بأفعال العباد لا بأفعال الرَّبِّ

جاء التَّعبير بلفظ الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة هنا لأجل معنًى دقيق، وهو أنَّ الألوهيَّة متعلقةٌ بأفعال العباد الّتي يجب إفرادُه سبحانَه بها، كالتَّوحيد والإخلاص والصَّلاة والدُّعاء والخوف والرَّجاء والتَّوكُّل والاستعانة... إلخ، أما الرُّبوبيَّة فهي مُتَعَلِّقَةٌ بأفعالِ الرَّبِّ في الأمور الكونيَّة؛ كالخَلْقِ، والرِّزْقِ، والإحْياء، والإماتة... إلخ.

وقارونُ إذْ لمْ يُصَرِّحْ عَمَّنْ أعطاه هذا الخيرَ؛ الّذي لم يُنْكِرْ أنَّه أوْتيَه، إنَّما نَسَبَهُ لاستحقاقٍ يَدَّعيه، بسببِ عِلْمٍ عنده، فَضَيَّعَ حَقَّ اللّه فيه غيرَ عابئٍ بعقابِه؛ فإنَّه لمّا كان كلُّ ذلك منه كان كَمَنْ كَفَرَ بعبادة اللّه تعالى، فنُصِحَ بضرورةِ الالتفاتِ إلى معاني العبوديَّة للّه بالبدن والمال، فقيل له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: الّذي خَلَقَنا لأجْلِ أنْ نعبدَه ونطيعَه ونَنْسِبَ الفضلَ إليه بصريح اللَّفظ وواضِح الاعترافِ ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ الّذين يُلْهيهمُ الفَرَحُ بالعطاءِ عن المُعْطي، ويَشْغَلُهُم حُبُّ النِّعْمَةِ عنِ المُنْعِم.

معنى ﴿لَا﴾ ودلالتها في ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾:

نفي المحبَّة عن الفرحين تعاليًا وكِبْرًا وأشَرًا وبَطَرًا

﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ نافيةٌ؛ لا تنفي محبَّة اللّه لكلِّ أنواعِ الفرحين، فسياقُ الآية وحديثُها عن نوع الفرحين الّذين تَنْتَفي عنهم محبَّةُ اللّه يَدُلّانِ دلالةً واضحةً على ذلك، فَنَفْيُ محبّةِ اللّه هنا يَخُصُّ الفرحين تعاليًا وكِبْرًا وأشَرًا وبَطَرًا، وهُمُ الّذين تعلَّقَتْ قلوبُهم بالدُّنيا، واطمأنّوا بها؛ ونَسوا حَقَّ اللّه فيما آتاهم، ونَسَبوا الفضلَ لِأنْفُسِهم.

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 351.

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليِّ:

جاء التَّعبير بالمسند الفعليّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾؛ ليُفيدَ التَّقديمُ تقويةَ الحكم عن طريق تكرار الإسناد، فإنَّ جملة الخبر ﴿لَا يُحِبُّ﴾ مُسندَةٌ إلى لفظ الجلال ﴿ٱللَّهَ﴾، وفي الفعل ﴿يُحِبُّ﴾ ضميرٌ يعود أيضًا على لفظ الجلال ﴿ٱللَّهَ﴾، وإعادة الإسناد تقويةٌ للخبر وتوكيدٌ له بعد توكيده بـ﴿إِنَّ﴾[1].

تقوية الحكم ومزيدُ توكيده

بلاغة التَّعبير بالفرح عن التَّكبُّر في الآية الكريمة:

أوثِرَ التَّعبير بالفرح عن التَّكبُّر في الآية الكريمة من حيثُ إنَّ الفرح بمتاع الدُّنيا وملذّاتها وشهواتها مفضٍ إلى الانشغال بها عن أمر الآخرة[2]، والتَّمادي في ذلك يُخرِج الآخرةَ بالكُلِّيَّة مِن قلب المفتون بالدُّنيا، حتى يقسو قلبُه فلا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا، فيسري التَّكبُّر إليه، وينضح من جنبيه. فكأنَّ التَّعبير بالفرح هنا تعبيرٌ بالسَّبب المُفْضي إلى التَّكبُّر، وبيانٌ لِما تنشرح به قلوب عُبّاد الدُّنيا، فيفرحون بالمِنَح، ويسخطون عند المِنَع.

ذِكر السَّبب المفضي إلى التَّكبُّر، الملهي عن الاعتبار والتَّدبُّر

معنى (أل) ودلالتها في: ﴿ٱلۡفَرِحِينَ﴾:

جاءت (أل) في قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ للدَّلالة على العهد الذِّكريّ، حيث ذكر سبحانه في الآية الكريمة نوع الفرحين الّذين يدخلون في حُكْم الله فيهم وهو نَفْيُ المحبَّةِ عنهم في قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾، وهم الّذين يفرحون بالدُّنيا، وتتعلَّق قلوبهم بها كما فعل قارون.

إشارة لقُبح فَرحِ قارون بالمتاع الدَّنيّ

دلالة مجيء لفظ ﴿ٱلۡفَرِحِينَ﴾ على بناء المبالغة:

جاءت كلمة ﴿ٱلۡفَرِحِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ على وزن (فَعِل)، وهي من صيغ المبالغة مع الإشارة

الإشارة إلى مبالغة قارون في حبِّ دنياه، والتَّكبُّر على قومه وذوي قرباه

---

(1) حسن طبل، عِلْمُ المَعاني، ص: 125.

(2) المَراغِيّ، تفسير القرآن: 20/ 93.

إلى تعليل النَّهي، فالجملة عِلَّةٌ للَّتي قبلها، والمبالغة في الفرح تقتضي شدَّة الإقبال على ما يُفْرَحُ به، وتَسْتَلْزِمُ الإعراضَ عن غيره، فصار النَّهي عن شدَّة الفرح رمزًا إلى الإعراض عن الجدِّ والواجب في ذلك[1].

نكتة حذف متعلَّق الفرح:

الفرح بلذّات الدُّنيا تسبب له بالإعراض عن رِضَى الله والعمل للآخرة

حذف المتعلّق بالفرح لدلالة المقام عليه؛ إذ المعنى: لا تفرح بلذّات الدُّنيا مُعرِضًا عن رِضَى الله والعمل للآخرة، كما أفصح عنه قوله: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾، وقد أُشير إلى بيان المقصود تعضيدًا لدلالة المقام بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾[2].

علَّة وصل الآية بسابقتها:

التَّوسُّط بين الكمالَيْن، والتَّكامل بين الموعظتَيْن

وُصِلَ قوله: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ بما قبله لما بينهما مِن التَّوسُّط بين الكمالَيْن (كمال الاتّصال وكمال الانقطاع)، فالجملتان مُتَّحدتان في الإنشائيَّة، مُتَّصلتان في المعنى؛ إذْ إنَّ الثّانية هي بقيَّة موعظة أولي العلم لقارون، فلمّا نَهَوْه عن فرح المتكبِّرين المفضي إلى نسيان الآخرة في الأولى، عطفوا على ذلك أمرَهم له بالعمل للآخرة. وهذه المغايرة مع وجود التّلاؤم الفكريِّ والتَّرابط المعنويِّ بين الجملتين ممّا حسَّن الوصل بينهما.

معنى الأمر وغرضه في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ﴾:

الأمر للنُّصح والإرشاد بالإكثار من الحسنات استعدادًا للمعاد

الغرض من الأمر في قوله: ﴿وَٱبۡتَغِ﴾ النُّصح والإرشاد، والحثُّ على استعمال ما وهبه الله من هذا المال الجزيل، والنَّعمة الطّائلة في طاعة ربِّه، والتَّقرُّب إليه بأنواع القربات الّتي يحصل له بها الثَّواب في الدُّنيا والآخرة[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 178.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 178.
(3) المَراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 94.

معنى (في) ودلالتها في ﴿فِيمَآ﴾:

الأصل في معنى (في) أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً أو زمانيَّةً، حقيقيَّةً أو مجازيَّةً[1]. وهو في قوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ﴾ للظَّرفيَّة المجازيَّة؛ للدَّلالة على أنَّ ناصحي قارونَ من قومه كانوا يريدون أن يتغلغل في قلبه ونفسه ابتغاؤه الدّارَ الآخرةَ فيما آتاه اللّه من أموال، وما حباه من كنوز، بحيث ينظر حقَّ اللّه في كلِّ درهم. فالظَّرفيَّة هنا كالّتي في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ [النساء: 5]؛ أي: منها، أي: اطلب بكنوزك أسباب حصول الثَّواب بالإنفاق منها في سبيل اللّه وما أوجبَه ورغَّبَ فيه من القربان ووجوه البرِّ[2].

بيان ما للفقراء في المـــال مـن أحقِّيَّة

معنى (ما) ودلالتها في ﴿فِيمَآ﴾:

(ما) في قوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ﴾ تحتمل المصدريَّة أو الموصوليّة أو الوصفيّة[3]، فعلى تأويل المصدريَّة يكون المعنى: اطلب في رزق اللّه تعالى لك الجنَّةَ. وعلى تأويل الموصوليَّة يكون المعنى: واطلب في المال الّذي رزقك اللّه إيّاه الجنَّةَ. وعلى تأويل الوصفيّة يكون المعنى: اطلب في شيء عظيم آتاك اللّه إيّاه من المال الجنَّةَ. فالأوَّل منظور فيه إلى عموم الرِّزق، والثّاني منظور فيه إلى خصوص المال، والثّالث منظور فيه إلى عِظَم هذا المال وكثرته ممّا يجعله أهلًا لأنْ يوسَّع على النّاس به، وأن يُنفَقَ عليهم منه.

تـنوُّع الـدَّلالات بـحسب تـعدُّد التَّوجيهات

سرُّ التَّعبير بالإيتاء دون الإعطاء:

الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاء له مطاوع، يقال: أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإيتاء: آتاني فأتوت، وإنَّما يقال: آتاني فأخذت، والفعل الّذي له مطاوع أضعف في إثبات

الإعطاء تملُّك لا يتبعه استلاب، بـخلاف الإيتـاء الّــذي تُـذهِـبه نقمة ربِّ الأرباب

---

(1) سِيبَوَيْه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 471، والسّامُرّائِيّ، معاني النَّحْو: 3/ 57.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 178.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 374، والدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 112.

مفعوله من الّذي لا مطاوع له؛ لأنَّك تقول: قطعته فانقطع، فيدلُّ على أنَّ فعل الفاعل كان موقوفًا على قبول المحلِّ، لولاه لما ثبت المفعول؛ ولهذا يصحُّ: قطعته فما انقطع، ولا يصحُّ فيما لا مطاوع له ذلك، فلا يجوز أن يقال: ضربته فانضرب، أو ما انضرب، ولا قتلته فانقتل، أو ما انقتل؛ لأنَّ هذه الأفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول في المحلِّ، والفاعل مستقلٌّ بالأفعال الّتي لا مطاوع لها، فالإيتاء - إذًا - أقوى من الإعطاء[1]. وفي الإعطاء دليل التَّملُّك دون الإيتاء[2]. فقوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ﴾ إشارة إلى أنَّ هذا المُلك العظيم قد يُسلَبُه قارون في أيِّ لحظة إن لم يرعَ حقَّ اللّه تعالى فيه؛ فلذلك أوثر التَّعبير بالإيتاء دون الإعطاء.

معنى (أل) ودلالتها في ﴿ٱلدَّارَ﴾:

(أل) عهديَّة، يُراد بها الجنَّة

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ عهديَّة، والمراد بها: الجنَّة، فالمراد بقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾؛ أي: اطلب فيما أعطاك اللّه من الدُّنيا الدّار الآخرةَ وهي الجنَّة، فإنَّ مِن واجب المؤمن أن يصرف الدُّنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التَّجبُّر والبغي[3].

نكتة ذِكر الدّار مع ما في لفظ ﴿ٱلْءَاخِرَةَ﴾ من غُنية:

في التَّعبير بالدّار معنى الإقامة والاستقرار

الدّار: المنزل، سُمِّيت دارًا لدوران أهلها بها، أو لدورانها هي على أهلها وإحاطتها بهم اعتبارًا بدورانها الّذي لها بالحائط[4]. وهذه الإحاطة والإحداق بما فيها هو أصل معناها[5]. وجاء ذِكر الدّار قبل قوله: ﴿ٱلْءَاخِرَةَ﴾؛ لبيان أنَّ الآخرة فيها مقام وقرار؛ فهي المنزل

(1) الزَّرْكَشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 85.
(2) العسكَريّ، الفروق 86.
(3) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 4/ 267، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 314.
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (دور).
(5) ابن فارس، المقاييس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دور).

الّذي لا منزل بعده، فكأنَّ القوم أرادوا أن يُنبِّهوا قارون إلى أنَّ ما فرح به من المال وبَغَى به على قومه مآلُه إلى زوال واضمحلال، وأن الآخرة هي دار القرار.

بلاغة الكناية:

الكِنايَةُ وصفٌ لِلجَنَّةِ تذكيرًا بِنَعيمِها، وتَحْذيرًا مِنْ خُسْرانِها

قوله تعالى: ﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ كناية عن موصوف؛ حيث إنَّ المقصود بالدّار الآخرة: الجنَّة كما تقدَّم، ووصف الجنَّة بأنَّها ﴿ٱلدَّارَ﴾ لما فيها من القرار والإحاطة، ووصف الدّار بأنَّها ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ للدَّلالة على أنَّه لا غاية بعدها، ذلك أنَّ المفتونين بالدُّنيا ينسون الآخرة حتَّى يجحدوها بالكُلِّيَّة، كما قال صاحب الجنَّتين: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [الكهف: 35 - 36]، فنهى أولو العِلم قارونَ عن ذلك عن طريق تذكيره بالجنَّة.

علَّة وصل بين ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾:

التَّوسُّط بين الكمالين، والتَّرابط بين المعنيين

وُصِل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ بسابقه لأنَّ بينهما توسُّطًا بين الكمالَيْن، وليس ثَمَّ ما يدعو إلى الفصل بينهما. وقد حسَّن الوصلَ هنا ما بين الجملتين الكريمتين من التَّرابط المعنويّ، فبعد أن أُمِرَ قارونُ بطلب الآخرة والعمل لها، وكان "ذلك شديد المشقَّة على النُّفوس مع ما فيه مِن شائبة الاتِّهام قالوا: ﴿وَلَا تَنسَ﴾؛ أي: تتركْ تَرْكَ النّاسي ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ الذي هو المَنْسيُّ، بل استعمِلِ المباحات مِنَ المآكل والملابس والمناكح والمساكن وما يلائمها، ولكن ليكنْ استعمالُكَ لذلك - كما دلَّ عليه السِّياق - مِن غير إسرافٍ ولا مَخيَلَةٍ توجب ترك الاتِّصاف بالإنصاف"[1]. فجملة: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ في محلِّ نصب معطوفة على جملة مقول القول ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾؛ إذ هي التي في محلِ نصب مقول القول[2]. وقيل: إنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 352.

(2) محمود صافي، الجدول: 10/ 293، والدرّة، تفسير القرآن وإعرابه: 7/ 112.

قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ جملة معترِضة بين الجملتين الحافَّتَيْن بها، والواو اعتراضيَّة[1]؛ لئلّا يُظَنَّ بالنّاصِحين أنَّهم ينهون عن المباحات، أو يُضَيِّقون الواسعات.

معنى النَّهي وغرضه في ﴿وَلَا تَنسَ﴾:

النَّهي للإباحة، لاستعمال الملذّات المباحة

النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ مستعمَلٌ في الإباحة؛ أي: لا نلومك على أن تأخذ نصيبك من الدُّنيا، بل استعمِل كل المباحات. وبذلك تكون هذه الآية مثالًا لاستعمال صيغة النَّهي لمعنى الإباحة[2].

بلاغة الكناية في قوله ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾:

النِّسيان كناية عن التَّرك والإهمال، فلا ينبغي نسيان حظِّ النَّفس من المال

النِّسيان في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ كناية عن التَّرك[3]؛ أي: لا "تترُكْ تَرْكَ النّاسي ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ تَرْكَ المنسيّ"[4]؛ "أي: خذ مع هذا من دنياك ما لا بدَّ لك منه في معاشك؛ فإنَّك غير ملوم على ذلك، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: 29]"[5].

نكتة إضافة النَّصيب إلى ضمير المخاطَب في ﴿نَصِيبَكَ﴾:

حق التصرف بالنعم بضوابط شرع الله

النَّصيب: الحظُّ والقِسط، وهو (فعيل) من النَّصْب؛ لأنَّ ما يُعطَى لأحد يُنْصَب له ويميَّز، وإضافة النَّصيب إلى ضمير قارون في ﴿نَصِيبَكَ﴾ دالَّة على أنَّه حقُّه، وأنَّ للمرء الانتفاعَ بماله في ما يلائمه في الدُّنيا بضوابط شرع الله خاصَّة ممّا ليس من القُربات ولم يكن حرامًا[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 178.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 179.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 179.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 352.
(5) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 8/ 57.
(6) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 8/ 57.

بلاغة الاحتراس في الآية:

الاحتراس لعدم النُّفور مِن الموعظة والوصيَّة

جاء الاحتراس في الموعظة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ خشية نفور الموعوظ مِن موعظة الواعظ؛ لأنَّهم لمّا قالوا لقارون: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ خافوا أن يَظُنَّ قارونُ أنَّهم أرادوا منه أن يترك حظوظ الدُّنيا فلا يَسْتَعْمِلُ مالَه إلّا في القُربات، فأفادوه - بما لهم مِن العِلم - أنَّ له استعمالَ بعضِه في ما هو متمحِّضٌ لنعيم الدُّنيا - إذا آتى حقَّ اللّه في أمواله - فيأخذ ما أحلَّ اللّه له[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

(مِن) للتَّبْعيض (تبعيض بعضِ النَّعيم)، وفيها معنى الابتداء

الأصل في معنى ﴿مِنَ﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[2]. وهو في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ للتَّبعيض. والمراد بالدُّنيا: نعيمها، فالمعنى: لا تترك نصيبَك الّذي هو بعضُ نعيم الدُّنيا[3]. ومعنى الابتداء ملحوظ فيه أيضًا، إذْ إنَّه جعل عدمَ نسيانِ النَّصيب مبتدئًا من الدُّنيا، ولم يأتِ على آخرها، فهو بعضٌ منها إذ لم يأتِ على جميعها.

بلاغة الطِّباق بين ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾، و﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

أوثِرَتِ المطابقة؛ إظهارًا للمعنى وإبرازًا لِلْمُفارَقَة

جاء طباق الإيجاب بين قوله تعالى: ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾، و﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ محسِّنًا بديعيًّا معنويًّا؛ لتوضيح المعنى وإبراز المفارقة حيث الضِّدُّ يُظهِر حُسنَه الضِّدُّ، وحصرًا لدارَيِ العملِ والجزاء.

عِلَّة وصْلِ ﴿وَأَحۡسِن﴾:

توكيد القصد في الإنفاق والاستمتاع

وُصِل قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسِن﴾ بسابقه لما بينهما من التَّوسُّط بين كمال الاتِّصال وكمال الانقطاع، مع عدم وجود داعٍ للفصل بينهما. وممّا حسَّنَ الوصلَ هنا وجودُ تغايرٍ بين الجملتين مع تكاملهما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 179.

(2) سِيبَوَيْهِ، الكتاب: 4/ 224، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 459، والسّامُرّائِيّ، معاني النَّحْو: 3/ 75.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 179.

وترابطهما وتآزرهما في أداء المعنى، حيث إنَّ الجملة الأولى فيها نَهْيٌ عن أن يَنسى العبدُ نصيبَه من الدُّنيا، والجملة الثّانية فيها أمرٌ غرضُه الحثُّ على إحسان العمل. فلا يُفرِّطُ في التَّمتُّع بالدُّنيا بدعوى عدم تَرْكِ النَّصيب، ولا يُفرِطُ في تَرْكِ حقوق ذوي الحقوق.

معنى الأمر في ﴿وَأَحۡسِن﴾:

الأمر للنُّصح والإرشاد، بالإرفاق والإحسان إلى العباد

الغرض مِن الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسِن﴾ هو النُّصح والحثُّ والإرشاد؛ أي: وأحسن إلى النّاس بالصَّدقة، كما أحسن اللّه إليك بهذه الأموال الكثيرة، ولا تلتمس ما حرَّم اللّه عليك من الفساد في الأرض والبغي على قومك.

بلاغة التَّشبيه في ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ ومعناه:

أفاد التَّشبيه أن يكون الشُّكر على كلِّ نِعمة مِن جنسها

الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ للتَّشبيه، أي: كإحسان اللّه إليك، والمشبَّه هو الإحسان المأخوذ من (أَحۡسِنۡ) أي: إحسانًا شبيهًا بإحسان اللّه إليك، وأفاد التَّشبيه هنا أن يكون الشُّكر على كلِّ نعمة مِن جنسها. فقد شاع بين النُّحاة تسمية هذه الكاف كافَ التَّعليل، ومثلُها قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 198]، والتَّحقيق أنَّ التَّعليل حاصل من معنى التَّشبيه وليس معنىً مستقلًّا من معاني الكاف[1]. وفي معنى: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ ثلاثة أقوال: **أحدها:** أَعۡطِ فضلَ مالِك كما زادكَ اللّهُ من هذا المال أكثر من قدر حاجتك، **والثّاني:** أحسِن فيما افترضَ اللّه عليك كما أحسن سبحانه في إنعامه إليك، وأما **الثّالث:** أحسِن في طلب الحلال كما أحسن اللّه إليك في الإحلال[2].

معنى ما ودلالتها في ﴿كَمَآ﴾:

الدعوة إلى التَّشبُّه بإحسان ربِّ البريَّة

(ما) في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ مصدريَّة، والفعل

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 179.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 393.

بعدها في تأويل مصدر في محلِّ جرٍّ بالكاف، والجارُّ والمجرور متعلّقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف، يقع مفعولًا مطلقًا، والتَّقدير: (أحسن إحسانًا كائنًا مثلَ إحسان اللّه تعالى إليك)[1].

دلالة التَّعبير بالماضي:

إحسان الله مؤكَّدٌ قديمُ التحقيق

أفاد التَّعبير بالماضي في قوله: ﴿أَحۡسَنَ﴾ معنى التَّحقيق، لتأكيد أنَّ إحسان اللّه تعالى لقارون سابق دائمًا لزمن التَّكلُّم، فهو إحسان دائم متَّصل، ومَن كانت هذه حاله فالأولى به أن يكون محسنًا عارفًا للّه تعالى حقَّه. وأمّا مَن لم يكن كذلك فقد استحقَّ كلَّ مذمَّة وعذاب.

نكتة تعدية فعل الإحسان بـ(إلى):

جَعْلُ قارونَ كالغاية الّتي انتهى إليها الإحسان، للدَّلالة على عظيم فضل الله عليه

الأصل في معنى (إلى) أنَّه موضوع للدَّلالة على انتهاء الغاية[2]. و(إلى) في قوله: ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ يفيد أنّ قارون جُعِلَ كالغاية الّتي انتهى إليها الإحسان الصّادر من اللّه تعالى، ممّا يدلُّ على كمال نعمة اللّه سبحانه على قارون، حيث بلَغتْه وانتهتْ إليه دون أنْ تَقْصُرَ عنه. فما له لا يوصِلُ حقوقَ الفقراءِ إليهم؛ بل بخل بها وبغى عليهم؟!!

نكتة حذف متعلَّق الإحسان الأوَّل وإثباته في الثّاني:

الحذفُ لتَعْميم عَدَمِ حُصولِ أيِّ نَوعِ إحسانٍ منْ قارون لأحد

حُذف متعلَّق الإحسان في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسِن﴾؛ لتعميم ما يحسن إليه، فيشمل ذلك نفسَه وقومَه ودوابَّه ومخلوقاتِ اللّه الدّاخلة في دائرة التَّمكُّن من الإحسان إليها. وفي الحديث: «إنَّ اللّه كتب الإحسان على كلِّ شيء»[3]. فالإحسان في كلِّ شيء بحسبه، والإحسان لكلِّ شيء بما يناسبه، حتَّى الأذى المأذونِ فيه فبقدره،

(1) الدُّرّة، تفسير القرآن وإعرابه: 7/ 113.

(2) سِيبَوَيْه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 463، والسّامُرّائِيّ، معاني النَّحْو: 3/ 16.

(3) أخرجه مسلمٌ من حديث شدّادِ بنِ أوسٍ ﵁، كتابُ الصَّيد والذَّبائح وما يؤكل من الحيوان، حديث رقم: (1955).

وفي العموم يكون الإحسان بحُسْنِ القول، وطلاقة الوجه، وحُسن اللّقاء[1]. وفي هذا الحذف الدّالّ على التَّعميم دَلالة على أنَّ عموم الإحسان من قارونَ لم يحصلْ، فلا هو أحْسَنَ إلى نَفْسِه، ولا إلى قومِه، ولا إلى ناصِحيه!

التَّوسُّط بين الكمالَين، والتَّرابط بين المعنيَين

علَّة وصل ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ﴾ بسابقه:

وُصِل قوله: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ﴾ بسابقه؛ لما بين الجملتين السّاميَتَيْنِ من التَّوسُّط بين الكمالَيْن: (كمال الاتّصال، وكمال الانقطاع)، وقد حسَّن وصلَها بسابقتها ما بينهما من المغايرة مع وجود التَّلاؤم الفكريّ، والتَّرابط المعنويّ، مع اتّحادهما في الإنشائيَّة، حيث أفاد عطف النَّهي عن الفساد على الأمر بالإحسان التَّحذيرَ من خلط الإحسان بالفساد؛ فإنَّ الفساد ضدُّ الإحسان، فالأمر بالإحسان يقتضي النَّهيَ عن الفساد، وإنَّما نصَّ عليه لأنَّه لمّا تعدَّدت موارد الإحسان والإساءة فقد يغيب عن الذّهن أنَّ الإساءة إلى شيء مع الإحسان إلى أشياءَ لا يُعَدُّ إحسانًا[2].

من عصى الله فقد طلب في الأرض الفساد

معنى النَّهي وغرضه ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ﴾:

النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ﴾ للنُّصح والإرشاد، وهو "نهيٌ عن الاستمرار على ما هو عليه من الظُّلم والبغي"[3]؛ أي: ولا تتمادَ في غيّك وظُلمك في الأرض حتى لا تعرّض نفسك للعذاب والهلاك. فقد أخبر سبحانه في مطلع الآية أنَّ قارونَ بغى على قومه بماله وبما آتاه اللّه من القوَّة، ولمّا كانت النَّفس من شأنها - إن لم تُزمَّ بزمام الشَّرع - الإسرافُ والإجحافُ، قالوا: ﴿وَلَا تَبۡغِ﴾؛ أي: لا يكن مرادك ﴿ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بتقتير أو تبذير، أو تَكَبُّرٍ على عباد اللّه أو تحقير[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 179.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 180.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 319.
(4) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 14/ 353.

بلاغة الجناس النّاقص:

تأثيرٌ في السَّمع مِنْ جَمال جَرْسِ اللَّفظَين مع اختلافِ المَعنيَين

بين قوله: ﴿وَٱبۡتَغِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَبۡغِ﴾ جناس ناقص، حيث تضمَّنت اللَّفظتان الحروفَ نفسَها، لكن لمّا تغيَّر ترتيب الباء والتّاء في ﴿وَٱبۡتَغِ﴾، و﴿وَلَا تَبۡغِ﴾ كان الجناس ناقصًا. وقد أحدث هذا الجناس جَرْسًا لا تخطئه الأُذن، وتأثيرًا في السَّمع مِنْ جَمال جَرْسِ اللَّفظَين مَعَ جَذْبِ السّامعِ وتَشْويقِهِ لمعرفَةِ اخْتلافِ المَعْنيَين، وقد أشار هذانِ المعنيانِ لهذيَنِ اللَّفظَينِ المُتشابهَينِ بتقاربِ حروفِهما إلى أنَّ الطَّلب إن لم يكن في مرضاة اللّه تعالى فهو فساد في الأرض كبير.

فائدة ترتيب المأمور به والمنهيّ عنه:

الحثّ على الإصلاح والزَّجر عن الكبائر

جاء ترتيب الأوامر والنَّواهي في نصيحة أولي العلم على هذا النَّحو: النَّهي عن عدم الفرح بَطَرًا: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾. ثم الأمر بطلب الجنَّة والعملُ للفوز بها: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾، ثم النَّهي عن ترك التَّمتُّع بالمباح ممّا أحلَّه اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، ثم الأمر بالإحسان عمومًا: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾، ثم النَّهي عن الفساد في الأرض بالبَغْي والمعاصي: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

فهذا "ممّا وصَّى به أهلُ الصَّلاح والتَّقوى مِن قوم موسى عليه السلام قارونَ، هذا الّذي استبدَّ به العُجْبُ بماله، واستغواه الغَيُّ، بما ضَمَّتْ يده عليه من سلطان بهذا المال. فهُم يدعونه إلى أن يسلك بهذا المالِ الطَّريقَ الّذي تُحمَد عواقبه، وتتمُّ به تلك النِّعمة. وقد نصحوا له ألّا يستبدَّ به الفرح بما مَلَكَ، وفي ذلك إيقاظٌ له من سَكرَة هذا المال، حتَّى إذا صحا دَعَوْه إلى ما ينبغي أن يَسوسَ به مالَه هذا، فيطلبَ به رضا اللّه، ويُقَدِّمَ منه ما ينفعُه في الآخرة، ويأخذَ منه ما يُصْلِحُ به شؤون دنياه، فيجمعَ بذلك خَيْرَي الدُّنيا والآخرة جميعًا. وأن يُحسنَ وينفقَ في وجوه الخير، مثلَ ما أَحْسَنَ اللّه إليه، فَيَلْقَى إحسانَ اللّه

بالإحسان إلى عباد الله، فذلك هو زكاة هذه النّعمة، وألّا يتّخذ من هذا المال أداةً للفساد والإفساد"[1]. "فقد جُمِع في هذا الوعظ ما لو قُبِل لم يكن عليه مزيدٌ"[2].

وقد جاء تساوُقُ النَّهي والأمر في نسق بديع بحيث يُعَقَّب كلُّ نهي بأمر، ولو قُدِّر قبل النَّهي الأوَّل أمر بضِدّه؛ أي: تواضَعْ ولا تفرحْ لكان كُلُّ أمر جاء متلوًّا بنهي يناسبه، وهو حسَنٌ أيضًا، فإنَّ الأمر المقدَّر بالتَّواضع يعقبُه النَّهي عن ضدّه وهو الفرح بَطَرًا، والأمر بطلب الدّار الآخرة يعقبُه النَّهي عن تَرْكِ حظِّ النَّفس من الدُّنيا، والأمر بالإحسان العامّ يعقبُه النَّهي عن ضِدّه وهو الإفساد في الأرض.

وثَمَّ مَلْمَحٌ آخَرُ، وهو أنَّ الفرح بالباطل بطرًا يُشغِل بالدُّنيا عن طلب الآخرة، وإنَّ نسيان الدّار الآخرة يقسّي القلب، فَيُجَرِّئُ صاحبَه على الإفساد في الأرض. فهو شرٌّ يجرُّ إلى شرٍّ منه.

وإنَّ التَّواضع والإخبات يذكّر بالآخرة، وتذكُّر الآخرة يدفع إلى العمل الصّالح استعدادًا لها، وهذا يلزم منه الإحسان العامُّ إلى النَّفس والأهل والنّاس أجمعين، فهو خَيرٌ يُرَقّي إلى خير منه. فلله دَرُّ التَّنزيل الجليل!

معنى (أل) ودلالتها في: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ﴾:

(أل) لاستغراقِ جِنْسِ الفَسادِ، والبَغْيُ أوَّلُها

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾ هي الّتي لاستغراق أفراد الجنس، فيشمل قولُه: ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾ كلَّ أنواع الفساد من المعاصي والآثام والظُّلم والبغي، ويدخل هذا الأخير فيه دُخولًا أوَّليًّا لأنَّه تقدَّم في قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾.

بلاغة الطِّباق بين الإحسان والفساد:

جاء طِباق الإيجاب بين الإحسان والفساد في قوله تعالى:

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 385.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/ 15.

﴿وَأَحۡسِن﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ﴾؛ لتوضيح المعنى عن طريق إبراز المفارقة بين الضِّدَّين، فبضِدِّها تتميَّز الأشياء.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتها في ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

كأنَّ الأرضَ كلَّها كانت وعاءً لبَغْيِ قارون

الأصل في معنى ﴿فِي﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[1]. وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ تفيد معنى الظَّرفيَّة المكانيَّة؛ فكأنَّ قارون جعل الأرضَ ظرفًا لإيقاع بغيه وفساده داخلَه.

معنى (أل) ودلالتها في ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

النهي عن التباهي بالنعم واستخدامها للإفساد في الأرض

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ هي العهديَّة، والعهد فيها عهد حضوريٌّ، والمعنى: لا تُرِد أرضَك هذه الّتي تعيش فيها، وفيها دارُك وخزائنُ كنوزك وقومُك - بأذى، ولا توْقِعْ عليهم من ظُلمِك، ولا تستفزَّهم ببَطَرِكَ وزَهْوِك. فلا تكنْ ممَّن يقال فيه: «بئس أخو العشيرة»[2]، فالمراد بالأرض "أرضُهم الّتي هُم حالّون بها، وإذ قد كانت جزءًا من الكُرَة الأرضيَّة فالإفسادُ فيها إفسادٌ مظروفٌ في عموم الأرض"[3].

علَّة فصل عبارة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عن سابقه:

من شأن الاستئناف الابتدائيّ أن يُفصَل عن سابقه، ويمهِّد للاحقه

فُصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عن سابقه كونه استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤال مقدَّر، فكأنَّ سائلًا قال: ما علَّة نهي قارون عن الفساد؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فهذه هي علَّة النَّهي عن الإفساد؛ لأنَّ العمل الّذي لا يحبُّه اللّه تعالى لا يَجوزُ لعبادِه عملُه، فقارون - وإنْ بدا أنّه كان

(1) سِيبَوَيْهِ، الكتاب: 4/ 226، والزَّمَخْشَريّ، المُفَصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 4/ 471، والسّامُرّائِيّ، معاني النَّحْو: 3/ 57.

(2) جزء من حديثٍ متَّفقٍ عليه، أخرجه البخاريُّ برقم: (6054)، ومسلمٌ برقم: (2591). من حديث أمِّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 180.

موحِّدًا على دين بني إسرائيل - إلّا أنّه كان شاكًّا في صدق مواعيد موسى عليه السلام وفي تشريعاته[1].

بلاغة تذييل الآية:

إنَّ الإفساد المحض في الدُّنيا من حيث إنّها دنيا مذموم على الإطلاق

التَّذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ حُسن تعليل؛ حيث إنَّ الإفساد المحض في الدُّنيا من حيث إنّها دنيا مذموم على الإطلاق. وفيه تنفير عن الإفساد بأبلغ صورة عن طريق النَّصّ بأنَّ اللّه جل جلاله لا يحبُّ المفسدين! وهذه جملة تَصَدَّعُ كلَّ قلبٍ حوى ذرَّةً مِن إيمانٍ! وإنَّ "العمل الّذي لا يحبُّه اللّه لا يجوز لعباده عملُه"[2].

نكتة توكيد الجملة بـ﴿إِنَّ﴾:

الاهتمام بالخبر اليقين، ونفي شكِّ المتردّدين والمنكرين

أُكِّد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ اهتمامًا بالخبر، فإنَّ "في نَفْي محبَّته تعالى إيّاهم تنبيهًا على أنَّ عدم محبَّته تعالى كافٍ في الزَّجر عمّا نهى عنه، فما بالُك بالبُغض والعقاب؟!"[3]. وأُتي بحرف التَّوكيد - أيضًا - لأنَّ قارون كان إزاءَ نُصح النّاصحين مُنكرًا، فحَسُنَ توكيدُ الخبر بأكثرِ من مؤكِّدٍ، كـ﴿إِنَّ﴾، ومجيء المسندِ بصيغة فعلٍ.

سرُّ إيثار التَّعبير بعنوان الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة:

عُبِّر بالألوهيَّة لمناسبة الحديث عن التَّكاليف الشَّرعية

من متعلَّقات الألوهيَّة التَّكاليف الشَّرعيَّة وأعمال المكلَّفين، من صلاة وصيام ومحبَّة وخوف ورجاء... إلخ[4]. فمن ثَمَّ كان من المناسب أن يُعبَّر - في سياق ذِكر محبَّة اللّه تعالى وما تتعلَّق به مِن أعمال المكلَّفين - بعنوان الألوهيَّة. ثُمَّ إنَّ التَّعبير بعنوان الألوهيَّة أيضًا جاء مُتَساوِقًا مع ما سبقه، حيث جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 180.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 180.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 318.
(4) محمد بن إبراهيم الحمد، توحيد الرُّبوبيَّة والألوهيَّة - الفروق بينهما، والتَّأليف فيهما، ص: 14.

﴿ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾، لتنبيه قارون على ما يجب عليه من العمل الّذي كلَّف اللّه به عباده في أنفسهم وأموالهم.

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليّ:

دوام نفي محبَّة اللّه تعالى للمفسدين الفُجّار

جاء التَّعبير بالمسند الفعليّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لأجل تقوية الحكم، وذلك من حيثُ تكرُّرُ الإسنادِ مرَّتين: إحداهما: بإسناد جملةِ الخبر ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ إلى المبتدأ ﴿ٱللَّهَ﴾، والأخرى بِعَوْدِ ضمير الفعل ﴿يُحِبُّ﴾ على المبتدأ ﴿ٱللَّهَ﴾. وفي تكرار الإسناد تقوية للحكم وتوكيد لمعناه.

دلالة التَّعبير بالمضارع المنفيّ: ﴿يُحِبُّ﴾:

التَّعبير بالمضارع المنفيّ: ﴿لَا يُحِبُّ﴾ يفيد استمرار نفي محبَّة اللّه ﷻ لِمَن يبغي الفساد في الأرض. وأنَّ هذه الصفةَ صفةٌ ثابتةٌ للّه سبحانه على النَّحو اللّائق به ﷻ.

معنى (أل) ودلالتها في ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

عدم المحبة يشمل كلَّ مفسد وباغ

التَّعريف في ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ للعهد الذِّكْريّ، حيث ذكر سبحانه في الآية الكريمة أنَّ الفساد المذكور هو الفساد في الأرض بالظُّلم والبغي. ويجوز أن تكون لاستغراق أفراد الجنس لتشمل كلَّ مفسد، أيًّا كان فساده. وهذا أقرب.

دلالة استعمال صيغة اسم الفاعل:

التَّعبير عن سوء الحال، وعظيم قُبحِ الفِعال

يشتقُّ اسم الفاعل من فعله المضارع المبنيّ للمعلوم، فقوله تعالى: ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ أي: الّذين يفسدون، حيث تكرَّر وقوع الفعل منهم مرَّة بعد مرَّة حتى صار سجيَّة لهم، فطوي ذِكرُ الزَّمن، وأوثر التَّعبير بالاسم للتَّعبير عن الصِّفة الثّابتة الملازمة للموصوف. وفي هذا تعريض بقارون الّذي تكرَّر منه الفساد، حتى عمَّ البلاد، ورَزَحَ تحت وطْأتِهِ العباد!

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَغْي والعُدوان:

في العُدوان تجاوزُ الحّد، وفي البَغْي تجاوزُ الحدِّ مع طلبِ الفسادِ وقصدِه

الباء والغَين والياء أصلان: أحدهما طلبُ الشيء، والثاني جنسٌ من الفساد، والأصل الثاني: قولهم: بَغَى الجُرحُ، إذا ترامَى إلى فساد، ثُمَّ يُشتَقّ من هذا ما بعده، فالبَغيّ: الفاجرة، ومنه أن يَبغيَ الإنسانُ على آخر. ومعنى البَغْي: قَصدُ الفساد، ويقال: فلانٌ يَبغي على النّاس إذا ظلمهم وطلبَ أذاهم. وكلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المِقدار الّذي هو حدُّ الشيء بَغْي. وبَغَى: تكبَّر، وذلك لتجاوزه منزلته إلى ما ليس له. ويكون البَغْيُ بمعنى الحسد أيضًا؛ لأنَّ الحاسدَ تجاوزَ ما ليس له. وبَغَى الرَّجلُ علينا بَغيًا: عدلَ عن الحقِّ واستطال، ففي البَغْي: الاستطالة على النّاس، وهذا هو المعنى المراد في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾[1].

والعَين والدّال والحرف المعتلّ أصلٌ واحدٌ ترجع إليه الفروع كلُّها، وهو يدلُّ على تجاوزٍ في الشَّيء وتقدُّم لِما ينبغي أن يُقْتَصَرَ عليه. ويقال في الظُّلم: قد عدا فلانٌ عُدوانًا، أي: ظَلمَ ظُلمًا جاوزَ فيه القَدْر[2].

وممّا سبق يتبيَّن أنَّ البَغْيَ والعُدوانَ فيهما معنى تجاوزِ الحدّ، ولكنَّ التَّجاوزَ في البَغْي معه طلبُ الفسادِ وقصدُه والتَّرامي إليه[3].

العُصبة والجماعة:

العُصبةُ من ربط شيءٍ بشيء، والجماعةُ من تضامِّ الشَّيء

العين والصّاد والباء أصلٌ صحيح واحدٌ يدلُّ على ربطِ شيءٍ بشيء، والعُصبةُ من هذا الباب، وإنّما سُمّيَت عُصبةً لأنَّها قد عُصِبَت، أي: كأنَّها رُبِط بعضُها ببعض[4].

---

(1) عبد الجبّار فتحي زيدان، الفروق اللُّغَويّة في القرآن الكريم، ص: 306.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان: (عدو).
(3) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللُّغَويّة في القرآن الكريم، ص: 305.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصب).

والجيم والميم والعين أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تضامِّ الشَّيء، والجَماعةُ من هذا[1].

والعُصبةُ أخصُّ مِن الجماعة؛ لأنَّها جماعةٌ متعصِّبةٌ متعاضِدة[2]، ومِن أهل اللغة مَن عيَّنَ للعُصبةِ مقدارًا، ولكنَّهم اختلفوا فيه[3].

الفرح والسُّرور والسَّعادة:

الفَرَح: انشراحُ الصَّدرِ بلذَّةٍ عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللَّذات البدنيَّة الدُّنيويَّة، ومِن ثَمَّ نُهي عنه في قول الله ﷻ: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾. ولم يُرخَّص في الفرح إلا بما في قوله ﷻ: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: 58]؛ لأنَّه أمرٌ أُخرَويٌّ، وقوله ﷻ: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: 4 - 5][4].

السُّرورُ ما يَنْكَتِمُ من الفرح، والسَّعادةُ ضدُّ الشَّقاوة، والفرَحُ والسُّرور ضِدُّ الحزن

وجِذْر السُّرور أصلٌ يدلُّ على إخفاءِ الشَّيء[5]؛ والسُّرور من هذا الباب؛ لأنَّه ما يَنْكَتِمُ من الفرَح[6].

والسَّعادةُ: هي معاونةُ الأمور الإلهيَّة للإنسان على نَيل الخير، وضِدُّها الشَّقاوة[7]. أمّا الفرَح والسُّرور فهُما خِلافُ الحُزن[8].

النَّصيب والحَظُّ:

الحظُّ أخَصُّ من النَّصيب

الفرق الأوَّل بين الحظِّ والنَّصيب أنَّ الحظَّ يكون في القَدْر المعلوم، واستُعمِل في قول الله ﷻ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: 11]؛ فدلَّت الآية على أنَّ الحظَّ هو النَّصيبُ المقدَّر[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمع).
(2) الراغب، المفردات: (عصب).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 317.
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (فرح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سرر).
(6) الراغب، المفردات: (سرر).
(7) الراغب، المفردات: (سعد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان: (فرح)، والجوهريّ، الصّحاح: (سرر).
(9) الراغب، المفردات: (حظظ)، وعبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللُّغَويّة في القرآن الكريم، ص: 481، ومحمد ياسين خضر، دقائق الفروق اللُّغويّة، ص: 162.

والفرق الثّاني بينهما أنَّ النَّصيبَ يكون في المحبوب والمكروه؛ يقال: وفّاه اللّهُ نصيبَه من النَّعيم أو من العذاب، ولا يقال حظّه من العذاب إلا على استعارة بعيدة؛ ذلك أنَّ أصلَ الحظِّ هو ما يحظّه اللّهُ تعالى للعبد من الخير، والنَّصيب ما نُصِب للعبد لينالَه سواءٌ كان محبوبًا أو مكروهًا[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغَوِيّة، ص: 165.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ [القصص: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

كفرانُ النِّعمة يجلبُ المساءةَ والنِّقمة

لمّا وُعظ الهالك ونُدب إلى اتِّقاء الله تعالى في المال الَّذي أعطاهُ تفضُّلًا منه عليه؛ أخذتْه العزَّة بالإثم فأُعجبَ بنفسه، وقال لهم على جهة الردِّ عليهم والرَّوغان عمّا ألزموه به: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[1]؛ وهو قولٌ يدلُّ على أنَّه مغرورٌ مطموسُ البصيرة، نسي مصدرَ النِّعمة، وتنكَّر لصاحب الفضل، وكفرَ بمَن يستحقُّ الشكر؛ فجاءه التَّوبيخ من جهة الله تعالى على اغتراره[2]، وأنَّه كان ينبغي عليه أن يعرف أنَّ الله أهلكَ من قبله أجيالًا كانت أشدَّ منه قوةً وأكثرَ مالًا، ثمَّ أخبر سبحانه بأنَّ قارون وأمثالَه من المجرمين أهونُ مِن أنْ يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم الحكمَ ولا الأشهاد!

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡلَكَ﴾: أصلُ (هلك) يدلُّ على كسرٍ وسقوط[3]. وهلكَ الشَّيءُ يهلِكُ هلاكًا وهُلوكا ومَهلَكًا ومَهلِكًا ومَهلُكًا، وتَهلُكة، والاسم منه الهُلْك[4]. وأهلَكه غيرُه، واستهلكَه بمعنًى واحد[5]. وقد يقال: هلَكَه بمعنى أهلكَه[6]. وجمعُ الهالك: الهَلْكَى والهُلّاك وهالكون[7].

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 300، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 354.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 25.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (هلك).

والهُلّاك أيضًا: الصّعاليكُ الّذين ينتابونَ النّاس طَلَبًا لمعروفهم من سوءِ الحال[1]. والهَلَك: الشَّيء الذي يهوي ويسقُطُ، والتَّهلكة: الهلاك، وكلُّ شيءٍ تصير عاقبته إلى الهلاك[2]. والاهتلاك: رميُ الإنسان بنفسه في التَّهلكة[3]. وقد يُطلَقُ الهلاك على العذاب[4]، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾؛ أي: أهلكَهم بالعذاب[5].

2) ﴿ٱلْقُرُونِ﴾: أصلُ (قرن) يدلُّ على جمعِ شيءِ إلى شيء[6]، قرنتُ الشَّيء بالشَّيء: وصلتُه به[7]. والاقترانُ كالازدواج في كونه اجتماعَ شيئَين أَوْ أشياءَ في معنى من المعاني؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ [الزخرف: 53][8]. وفلان قَرنُ فلانٍ في الولادة وفي السِّن، وقرينُه وقِرنُه في الجلادة وفي القوَّة وفي غيرها من الأحوال؛ أي: مثلُه[9]. وجمع القرين: قُرَناء[10]. والقَرنُ من النّاس: أهلُ زمان واحدٍ؛ لأنَّهم مُقترِنون في زمانٍ واحد، فاشتقاقه من الاقتران، وجمعه: قُرون[11]. والمراد بإهلاكِ القرون في الآية: أهلُ الأزمنة الّذين عاشوا وجمعَهم الزمانُ فصاروا مُقترنينَ به.

3) ﴿أَشَدُّ﴾: أصلُ (شدد) يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء[12]. والشَّدُّ: العقدُ القويُّ والإيثاق والإحكام. يقال شَدَدْتُ الشَّيءَ: قوَّيتُ عقدَه وأوثقتُه، وشدَّ عضُده: قوّاه. قال اللّه تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: 28][13]. والشِّدّةُ تُستعمَل في العَقد، وفي البدن، وفي قوى النَّفس، وفي

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (هلك).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هلك).
(5) القرطبي، أحكام القرآن: 13/ 316.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(7) الجوهري، الصحاح: (قرن).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قرن).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (قرن).
(10) الراغب، المفردات: (قرن).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قرن).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شدد).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شدد).

العذاب[1]. وتكون بمعنى: القوَّةِ والجلادةِ[2]، والصَّلابةِ - وهي نقيضُ اللّين -[3]، والنَّجدةِ، وثباتِ القلب[4]. وشيءٌ شديد: بَيِّن الشِّدَّة، وشيءٌ شديد: مُشْتَدٌّ قويّ[5]. والشَّدَّةُ: الحَملةُ الواحدة. وقد شدَّ عليه في الحرب يَشُدُّ شدًّا؛ أي: حمَلَ عليه[6]. ورجلٌ شديد: شجاعٌ، وكذلك الرَّجل القويُّ، وجمعه: أشِدّاء وشِدادٌ وشُدُد[7]. ويقال: شدَّ اللّه مُلكَه وشدَّده؛ أي: قوّاه[8]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: 152]؛ أي: قوَّته[9]. والأشُدُّ: مبلغُ الرَّجل الحِنكةَ والمعرفة[10]. والمرادُ به في الآية: الأكثرُ مالًا وذكاءً وقوّةً وصلابةً.

4) ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: أصلُ (جرم) يدلُّ على معنى القطع[11]. والجَرْم: القَطْعُ. وجَرَمَ النخلَ يجرِمُه جَرْمًا، واجْتَرَمه يجْتَرِمه اجترامًا: قطعه[12]. والجريمة والجُرم: الذَّنبُ والتَّعدّي. يقال: جرَمَ وأجرمَ جُرمًا وإجرامًا: إذا أذنبَ، وصارَ ذا جُرْم. والجارمُ: الجاني، والمجترمُ: المذنبُ[13]. واستعيرَ ذلك لكلِّ اكتسابِ مكروهٍ[14]. والمراد بهم في الآية: المذنبونَ والعصاةُ الّذين يقطعونَ ما ينبغي وصلُه ويصلونَ ما ينبغي قطعُه[15].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ السّياقُ القُرآنيُّ في هذه الآية الكريمة جوابَ قارون لقومه الّذين نصحوه وأرشدوه إلى فعل الخير، وتركِ ما هو عليه من الإثم والشَّرّ، فيقول - حكايةً عنه -: قال إنَّما أُعطيتُ هذه الأموال وهذه الكنوز لفضلِ علمٍ عندي قد اختصَّني اللّه به، وفضَّلني

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شدد).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شدد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (شدد).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(6) الجوهري، الصحاح: (شدد).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(8) الجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(9) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جرم).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).
(13) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).
(14) الراغب، المفردات: (جرم).
(15) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 355، 356.

به عليكم، فقال اللّه سبحانه رادًا عليه هذا الادِّعاء: أوَ لم يعلم هذا المغرورُ بقوَّته وكثرةِ ماله أنَّ اللّه قد أهلكَ مِنْ قبله مِنَ الأمم الخالية مَنْ هو أقوى منه بدنًا وأكثر مالًا؟ ولا يُسألُ عن ذنوبهم المجرمون عند إهلاكهم سؤالَ استعتاب واستعلام؛ لأنَّ اللّه سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم، ولوضوحِ جُرمِهم وظُهوره، وإنما يُسألونَ سؤالَ توبيخٍ وإفضاحٍ لسوءِ جُرْمهم وعظيمِ إثمهم[1].

غـرورُ المعجَبين من المتْرَفين أكبرُ جُـحـودٍ لنعمةِ ربِّ العالمين

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ عن سابقِه؛ لوقوعه جوابًا من قارون عن موعظةِ واعظيه مِن قومِه، وقد جاء على أسلوبِ حكايةِ المحاوراتِ فلم يُعطَف على سابقِه، ذلك أنَّ في المحاورات بين الطَّرفينِ ينشأُ بعد كلِّ قولٍ سؤالٌ عمّا أجاب به الطَّرفُ الآخر، تقديرُه: (فماذا قال؟) أو: (بِمَ أجاب؟)، فالاستئنافُ بيانيٌّ لشبه كمال الاتصال. وهو جوابُ متصلّفٍ حاول به إفحامَهم، وقطعَ موعظتهم؛ لأنَّها أمرتْ كبرياءه وبطَرَه وازدهاءَه[2].

مـن شـأنِ المستكبرين الصّلفُ في جوابِ الواعظين

بلاغةُ استعمالِ القصر بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ يفيدُ القَصْرَ والحَصْرَ؛ إذ عُبِّر بأداته المركَّبة مِن (إنَّ) و(ما) الكافَّة مُصيَّرتَيْن كلمةً واحدة، وهي التي حقُّها أن تُكتب موصولة النّون بميم (ما). والمعنى: ما أوتيت هذا المال إلّا على عِلم عَلِمتُه. وضميرُ ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ عائد إلى (ما) الموصولة في قولهم: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ [القصص: 77][3]. وفيه جحودٌ لفضل اللّه عليه وكفرانٌ لنِعَمِه، فكأنَّه قابلَ

دعـوى الاستحقاق جحودٌ وكفرانٌ بالرَّزّاق

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 228 - 229.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 180.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 180.

قولَ ناصحيه في موعظتهم إيّاه لمّا ذكّروه بفضل الله عليه بقولهم: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [القصص: 77]، وقولهم: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص: 77] - بإنكار ذلك فقال: لم يُحسِنِ الله إليَّ ولم يُؤتني تفضُّلًا وإنَّما هو علمٌ عَلِمتُه وحقٌّ اكتسبتُه. وأمّا عن سرِّ إيثار القَصْر بـ﴿إِنَّمَآ﴾ دون غيرها من أدوات القصر، فلأنَّ القصر بـ(إنَّما) يكون لما هو ظاهرٌ ممّا لا ينكرُهُ المخاطَب، أوْ ما نُزِّل هذه المنزلة؛ نحو: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ [البقرة: 11]، ويحسُنُ وقوعُها في التَّعريض؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد: 19][1]. فالّذين نصحوا قارون لم ينكروا أنَّه ذو حظٍّ عظيم من المال، ولم ينكروا أنَّه أوتي علمًا، فكأنَّه أراد أنْ يثبتَ ذلك لهم أوْ يذكّرهم به، أو يعرّض بهم من حيث إنَّهم ليس لديهم من العلم ما كان لقارون. وهذه النَّظرة الضِّيّق أفُقُها لا تكون إلّا ممَّن أغشتِ الدُّنيا بصرَه، وأعمتْ بصيرته، فراح يجحدُ الحقائق، ويَعمى عن الدَّقائق.

دلالة التَّعبير بالإيتاء مادّةً:

الإيتـاءُ إعـطاءٌ بـقـوّة وثـبـوتٍ واستحقاق

أصلُ (الإيتاء) يدلُّ على مجيء الشَّيء وإصحابِه، فهو وُصولٌ أوْ تقدُّمٌ وحضورٌ إلى مكانٍ أوْ شيءٍ بتهيئةٍ أوْ قوّةٍ تزيلُ ما يعوق. وآتى إليه الشَّيءَ: ساقَه ودفعَه وجعلَه يأتي إليه. وآتى فلانًا شيئًا: أعطاه إيّاه. وأصلُ ذلك إحضارُ الشَّيء ودفعُهُ إلى المؤتَى[2]. والإيتاءُ أقوى من الإعطاء في الاستعمال القرآني؛ لأنَّ الإيتاء في أكثر المواضع فيما له ثباتٌ وقرار، كالحكمة والسَّبع المثاني، والمُلك الذي لا يؤتى إلا لذي قوّة. والإعطاء: فيما ينتقلُ بعدَ قضاء الحاجة منه؛ كإعطاء كلِّ شيء خَلْقَه لتكرُّر حدوث ذلك باعتبار الموجودات، وإعطاء الكوثر للانتقال منه إلى ما هو أعظم منه، وكذا ﴿يُعۡطِيكَ رَبُّكَ

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.

(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وجبل الاشتقاقي: (أتى).

﴿فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5] للتَّكرُّر إلى أن يرضى كلَّ الرِّضا[1]. كما أنَّ إيثارَ التَّعبير بالإيتاء فيه إشارةٌ لمعنى الاستحقاق والكسب، بخلاف العطاء الذي قد يكونُ محضَ منَّة. وفيه دلالةٌ أيضًا على سهولةِ حصول ذلك المال المؤتى، حتى إنه لم يحتجْ إلى جهدٍ في تحصيله، فقد أتاه بكلّ يسرٍ وسهولة.

دلالةُ التعبير بالإيتاءِ صيغةً:

اطمأنَّ بما لديه فجحدَ نعمةَ الكريم عليه

واختار التعبيرُ بصيغة الماضي في قوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ يدلُّ على تحقُّق الحصول على المال، واستقرارِ ذلك له ممّا جعله يطمئنُّ به ويركنُ إليه ويطغى ذلك الطُّغيانَ. فهو إنَّما يتكلَّم بلسان الآمِن على المال الذي هو مستقرٌّ عندَه، لا بلسان الخائف من ضياعه المتوقّعِ عدمَ حصوله. ثمَّ اختار النظم الجليل صيغة الفعل المبنيّ للمفعول فقال: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾، ولم يُسَمّ فاعله إشارة إلى جحود فضل المنعِم عليه بهذا المال، أو عدم الاهتمام بالفاعل للإيتاء، ولتحقيق مأرب عميق يتمثل بجهله بفاعل الإيتاء إنكارًا منه لنعمة اللّه عليه واستكبارًا في الأرض، فلم يقل: (إنما آتاني اللّه الأموالَ لعلمي).

نكتةُ التَّعبير بضمير الغائب في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾:

معاملةُ بعيدِ المرامِ مُعاملةَ الغائب عن مقام الكلام

ضميرُ الغائب يستعملُ للدَّلالة على شخصٍ أوْ شيءٍ غير حاضرٍ في مشهَد الحوار، ويفيدُ الإبهامَ المناسبَ للتكثير المقصودِ من السّياق، فالإشارة إلى المال بضمير الغائب هنا للدَّلالة على إبهام المال لبيان اتّساعه وكثرتِه، حتى إنّه لا يُحصَر بالمشاهدة، ويجلُّ عن الحضور! وفيه إيحاءٌ أيضًا ببُعد حصول مثل ذلك المال للمخاطَبين، الّذين كانوا ينصحون قارون، تأكيدًا على إرادته بيانَ اختصاصِه بالمالِ واستحقاقِه له بعلمه وخبرته دونَ غيره.

---

(1) الكفوي، الكليات، ص: 212.

دلالة ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾:

رسوخ الاستحقاق عنده أعمى البصيرة في قلبه

الأصلُ في ﴿عَلَىٰ﴾ أنَّها موضوعة للدَّلالة على الاستعلاء، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، وهي في قوله: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ تدلُّ على الاستعلاء المجازيّ؛ لأن العلم ليس مكانًا يرتقى عليه، فأرادَ معنى التَّمكُّن والتَّحقُّق من العلْم حتى كأنَّه صار فوقَهُ مُهيمنًا؛ أي: ما أوتيتُ المال الذي ذكرتموه في حالٍ من الأحوال إلّا في حالِ تمكُّني مِن عِلْم راسخ[1]. وتحتمل على كونها دالة على معنى التَّعليل، فكأنَّه قال: إنما أوتيته لأجل علم عِنْدي[2]. وعلى كلا المعنيينِ فإنَّ من شأن المتكبّرين رسوخَ اعتقادٍ لديهم أنَّ ما يحصلونَ عليه من نِعَم وهِبات أنَّها مستحقّةٌ لا فضلَ لأحدٍ عليهم بها، بل وصلَ الأمر بقارون أنْ يدّعيَ أنَّ علمَه وخبرته وذكاءه كانت الأسبابَ الحقيقيّة والتامة في تحصيل تلك الأموال بلا نعمةٍ من اللّه عليه ولا تفضُّل.

نكتةُ تنكير ﴿عِلۡمٍ﴾:

جهالةُ المغرورين بأنفسهم قائدُتُهم إلى الضَّلال المبين

أفادَ التَّنكير في كلمة ﴿عِلۡمٍ﴾ من قوله: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ إلى تعظيم قارون لهذا العلْم الذي امتلكَه واختصّ به ونالَه عن جدارةٍ واستحقاق، ممّا يفسر لنا سببَ اعتدادِه به، ونسبته الفضلَ إليه مع جحود فضل اللّه عليه. فكأنَّه قال: ما أوتيت هذا المالَ العظيم إلّا لأجلِ تمكُّني من عِلمٍ عظيم، ولولا هذا العِلمُ العظيم لما كان هذا المالُ العظيم الذي ترونَ جزءًا يسيرًا منه، ففي البهمة إشارةٌ إلى كثرة ذلك العلم الذي يستحقّ التفاخرَ به، وهذا من جهلِ المغترّين الّذين يَنسبونَ العلمَ لأنفسهم، وينسَون أنّ علْمَهم وذكاءَهم منحةٌ إلهّيّة وفتنةٌ ربانيّةٌ، تستوجبُ الشكر والخضوع والأدب مع واهبِ العلوم ومُعطي النّعَم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 181.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 319.

دلالةُ الوصف بالظرف ﴿عِندِيٓ﴾:

المستكبرون يتوهّمون امتلاكَ ناصيةِ العلْم

وردَ في النّظم الجليل قوله: ﴿عِندِيٓ﴾ صفةً لـ﴿عِلۡمٍ﴾؛ تأكيدًا على تمكُّنه مِن العِلْم، وشُهرتِه به[1]؛ وفي العنديَّة معنى الثَّبات والاستقرار والقُرب؛ فكأنَّ علمًا عظيمًا قد حازه بحذافيره، ولم يكنْ نعمةً عليه وتفضُّلًا، فهو يُرجِعُ الأموالَ التي حصل عليها إلى العلْم، والعلْمُ في حدِّ ذاته لدنيٌّ فيه، ونفى بذلك أيَّ فضلٍ من اللّه تعالى عليه، وهو منتهى الجحودِ والاستكبار والنُّكْران. كما أنَّ الظرف مفيدٌ للاختصاص، فكأنَّه قال: إنَّما أوتيت هذا المال لأجلِ عِلْم قريبٍ مختصٍّ بي دونَكم[2]، وبذلك يتحوّل العلمُ إلى ذاتٍ متجسِّمةٍ جلسَتْ عنده ولم يكن للغير نصيبٌ منها.

علّة الوصل في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ﴾:

دفعُ الإيهام من محسِّنات الكلام

(الواو) في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ﴾ للعطف على جملة: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، والجملتانِ وإنِ اختلفَتا خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنى، لكنَّ القطعَ يوهِمُ خلافَ المراد؛ وهو المسمَّى عند البلاغيين بـ(كمال الانقطاع) مع الإيهام، والجملة اعتراضيةٌ بينَ أجزاء القصّة للردّ[3]، والغرضُ من العطف بيانُ أنَّ ادّعاءَه امتلاكَ المال عن علم عزيزٍ استأثَرَ به يَستدعي أنْ يكون عالمًا بما جرى للسّابقين المغترّين بقوَّتهم وأموالهم، وكيفَ دمّر اللّه عليهم واستأصلَهم! إذ العلمُ الذي اختصَّ به وجمعَ له هذه الأموالَ الطائلةَ يستلزمُ علمَه بما جرى لأهل القرون الماضية من المتكبّرين.

أو (الواو) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ للعطف على مقدَّر محذوف من النظم؛ أي: (ألم يَقرأ في التَّوراة)، أو: (ألم يَسمع مِن الحفّاظ، ولم يعلم... إلخ).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 319.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.

التعجيبُ من ادّعاء العلم وهو بمعزلٍ عن إدراك الظَّواهر

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ﴾:

(الهمزة) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ للاستفهام التَّعجيبيّ؛ مِن عدم جرْيه على موجِب علمه - إذ ادَّعى العِلمَ وتمكُّنَه منه - ولم يعلم أنَّ اللّه أهلكَ أُممًا على بَطَرِهم النِّعمةَ وإعجابِهم لقوَّتهم، ونسيانِه حتَّى صار كأنَّه لم يعلمْه؛ تعجيبًا مِن فواتِ مراعاة ذلك منه معَ سعةِ علمِه بغيره، وذلك مِن باب: (حَفِظتَ شيئًا وغابَتْ عنكَ أشياءُ)[1]. فهو ردٌّ لادِّعائه العِلم وتعظُّمه به بنفي العِلم المهمّ عنه؛ أي: أعندَه مِثلُ ذلك العِلمِ الذي ادَّعى ولم يعلم هذا حتَّى يقيَ نفسَه مصارعَ الهالكين[2]؟ ويجمل الاستفهامُ عن العلْم بعدَ ادّعائه، إذ كيف يليقُ ذلك الادّعاء مع الجهل بأبسطِ الحقائقِ وأيسرِها.

العِلْم إدراك الشَّيء بحقائقه

دلالةُ التَّعبير بالعِلم مادّةً وصيغةً:

عبّر النظم الجليل بمادّة العِلم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ للتوبيخ والتهكُّم؛ إذ ادَّعى قارونُ العِلمَ ونسبَ إليه الفضلَ في حصول المال، فكان الجواب: ألم تعلمْ على علمكَ الذي زعمتَ أنَّ اللّه قد أهلك مِن قبلك مَن كفرَ نعمتَه وطغى؟ أفعَلِمتَ العِلم الذي اكتسبتَ به المال وغابَ عنك العِلم الذي يحفظه ويحرسُه مِنَ الهلاك؟ ولمّا كان العِلم إدراكَ الشَّيء على حقيقته كان في السُّؤال عن ذلك إشارةٌ إلى أنَّ قارون قد علمَ ظاهرًا من الحياة الدُّنيا، وغابتْ عنه حقائقُ الأشياء! وقد أوثر في صياغته الفعلُ المضارع للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار في انتفاء علمه بالحقائق، لأنه الذي يحصلُ بالتَّدبُّر والتَّفكُّر مرَّة بعد مرَّة، والتَّروّي في دلائله كرَّةً بعد كرَّة.

نكتة توالي المؤكّدات:

اشتملت الجملة الواردة في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 58.

تأكيدُ الخبر مجابهةٌ لإنكاره ودحضٌ لشكِّه وتَّردُّده

﴿قَبۡلِهِۦ﴾ على عديد من المؤكّدات، هي: دخولُ ﴿أَنَّ﴾ على الجملة الاسميَّة، التي تقومُ مقامَ تكرار الجملةِ مرَّتين، ودخولُ حرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾، ومجيءُ المسند فعليًّا ﴿قَدۡ أَهۡلَكَ﴾ الدالّ على تقويةِ الخبر وتوكيدِه، ولمّا كان ردُّ قارون على الناصحينَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ مُتضمِّنًا جحدًا وإنكارًا ناسبَه توكيدُ متعلَّقِ علمِه بما جرى للسّابقين من الطُّغاة بهذه المؤّكدات المتوالية، فقد كان ظاهرُ حالِه وكلامِه مُنكِرًا عقابَ اللّه تعالى إنْ جَحَدَ فضله وكفرَ نِعمتَه؛ ولذا نُزِّل منزلةَ المنكِر الجاهلِ المنفيِّ عنه العلم بذلك، لعدم عمَلِه بمقتضى علْمِه حتى صار كأنّه غيرُ عالم به.

سرُّ إيثار التَّعبير بعنوان الألوهيَّة:

التَّعبيرُ بالألوهيَّة عندَ التذكير يورثُ الرَّهبة في النُّفوس

عبّر النظم بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ﴾ الدّالِّ على كلِّ الأسماء والصفات؛ لأنه علمٌ على الذات المستجمعِ لجميعِ صفاتِ الكمال والجلال، للدلالة على شدَّة ذلك الإهلاك، وأنَّه قد بلغ غايةً تربو على كلِّ تصوُّر. فالتَّعبير بالألوهيَّة في مقام التذكير بالعظمة وعموم القدرة يورثُ المهابةَ في النُّفوس، ويربِّي الخشية في القلوب، ولم يعبِّر بلفظ الربوبيَّة المناسبةِ لمقام النِّعمة والمنَّة والحفظ، والمقامُ مقامُ تذكير بالإهلاك والتدمير.

نكتةُ التَّعبير بالمسند الفعليِّ ماضيًا:

إنكارُ المنكرينَ جهلٌ منقطعُ النَّظير

عبّر النظمُ بالمسند الفعليِّ الماضي في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ﴾ لإفادة تقويةِ الحكم عن طريقِ تكرُّرِ الإسناد، ذلك أنَّ الفعل ﴿أَهۡلَكَ﴾ خبر مسندٌ إلى الاسم الأجلِ، وهو أيضًا متضمّنٌ ضميرًا فاعلًا قد أسند هو إليه، فكأنَّ الإسناد قد كُرِّر مرَّتين، ولذا كان مفيدًا لتقوية الحكم وتوكيده[1]. واختيرت صيغة الماضي أيضًا للدلالة

(1) حسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

على تحقق الوقوع والجزم به فلا سبيلَ لإنكارِ ما جرى والشكِّ في وقوعه، وقد ناسبتْ تقويةُ الإسنادِ إرادةَ التَّوكيد؛ لأنَّ قارون كان كالمنكِر لما وُجِّه إليه مِن نُصح وتذكير.

سرّ التعبير بالجارّ والمجرور الأوّلين:

من عادة المتكبّرين عدمُ الاتّعاظ بهلاكِ المتقدّمين

عبّر النظم الكريم بالجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ والمتكون من ﴿مِن﴾ الموضوعةِ للدَّلالة على ابتداء الغاية[1]، ولفظ (القَبل) الدالِّ على الأسبقيَّة والتقدُّم، ومعناهما هنا: أنَّ ابتداء الإهلاك كان واقعًا في زمانٍ قبل زمن قارون، أي: إنَّ هذه القبليَّة جُعِلت مبتدأً للإهلاك، فتشمل كلَّ ما سبق زمانَ قارون، وهذا هو الشَّأن منذ القديم ابتداءً من السّابقين على قارون إلى الأقدم[2]. وفي إدخالِ ﴿مِن﴾ دونَ الاكتفاء بالقبليّة تنبيهٌ على أنَّه لم يتَّعظ من مشاهدته للمهلَكين الموصوفينَ مع قرب الزَّمان منه، ولو حُذِفت ﴿مِن﴾ لاستغرقَ الإهلاك على ذلك الوصف جميعَ ما تقدَّمه مِن الزَّمان دون التنصيص على القريب منه[3]. وفي إضافةِ القبل إلى ضمير قارون تنبيهٌ له أنَّ هذه القبلية منسوبةٌ إليك ومعاينةٌ لديك ومشاهدةٌ عندك، فما بالك لا ترعوي ولا تعود؟.

سرُّ التعبير بالجارِّ والمجرور المتوسِّطين:

بيانُ المتقدّمين الهالكين زيادةٌ في التخويف للمستكبرين

عبر النظم الجليل بالجار والمجرور مرةً أخرى في قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ بعد أن عبر بهما في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ للدلالة على بيان تلك القبلية، التي تصدق ببعضٍ غير معين، فأراد النظم بيانها واستغراقها، وأنها ممتدة إلى قرون متطاولة على سبيل العموم والشمول، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ إهلاك الطغاة سنةٌ قديمة، وعادةٌ

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

(2) السامرائي، معاني النحو: 2/ 200.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 355.

للّه تعالى جارية، فليتّعظ بها المستكبرون، وينتفعْ بالتذكير بها العصاةُ والفاسقون.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾:

المناسبُ لمقامِ التحذير إرادةُ العموم والشمول

(أل) في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ هي للاستغراق، لصحَّة وضع (كلّ) محلَّها؛ أي: أهلك من قبله مِن كلِّ قرنٍ وينصرفُ إلى الظالمين دونَ غيرهم عُرفًا، ويصحُّ أن تكون للعهد الذِّهنيّ الصّادق بالبعض؛ أي: القرون التي طغت وكفرت بأنعُمِ اللّه، واستوجبتِ النِّقمةَ واستنزلتِ العذاب. ويترجّحُ المعنى الأوّل؛ لأنَّ سنة اللّه تعالى جرتْ على إهلاك المستكبرين في كلِّ قرن وعصر، كما أنَّ دخول (أل) على الجمع دالٌّ على العموم والاستغراق، ويختص بالظالمين بقرينةٍ خارجيّة.

نكتة التَّعبير بالموصول وصلته:

لا عظيمَ ولا كبيرَ أمامَ عظمةِ الله وسطوتِه

أوثر التَّعبير عن الهالكين بالموصول وصِلَته في قوله تعالى: ﴿مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ﴾ لبيانِ الوصف الذي تضمَّنته جملةُ الصِّلة، وهو تفوّقُهم على قارون في القوَّة، والزّيادة عنه في الجمع للمال؛ أي: إنَّ أهل القرون السّابقين من الهالكينَ كانوا متفوّقين على قارون في أنواع القوَّة المادِّيَّة والمعنويَّة؛ فلمْ تعصمْها مِن أمر اللّه إذْ جاءها بأسُه، أفتعصِمُ قارونَ أموالُه وكنوزُه وقوّتُه؟!

نكتة التَّصريح بالمسند إليه في جملة الصّلة:

تعيينُ الهالكين زمانًا وشخصًا رادعٌ لهم

صرّح النظم الكريم بالضَّمير المنفصل الواقع مبتدأً في جملة الصّلة من قوله تعالى: ﴿مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ﴾ لتقوية المعنى ببيان أنَّ الذي وقع عليه الإهلاك هو نفسه المتَّصف بالأشدِّ قوة وجمعًا من قارون، ولو حذفه جازَ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ﴾ [مريم: 69] أي: الذي هو أشدُّ. ولعلَّ ذِكْرَ المسنَد إليه هنا؛ لأنّ الخطاب في الدنيا وما يجري للهالكين فيها، فاحتاج إلى

تعيينٍ وبيانٍ للمحكوم عليه بالتنصيص عليه والذكر له، كما وضَّح الهالكين زمانًا بقوله: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾، فناسبَ التعيينُ التعيينَ، بخلاف آية التعذيبِ في الآخرة، فلا تحتاجُ إلى تعيينٍ وبيانٍ للمحكوم عليه؛ بل الحاجة إلى تعيين الماكثين فيها وهم الموصوفون بالأشدّية عتوًّا على الله تعالى.

دلالةُ التعبير بالجارِّ والمجرور الأخيرين:

هوانُ قارون عند مقارنته بغيره درسٌ بليغ

عبر النظم الجليل بالجار والمجرور مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ﴾ والمتكون من (مِن) الموضوعة للدَّلالة على ابتداء الغاية من حيث إنَّه قد جعل قارونَ - بماله وقوَّته وزينته... إلخ - كالموضع الذي ابتدأ منه ارتفاعُ غيره عليه، فزاد عليه في المال، واشتدَّ عنه في القوَّة، وفي ذلك درسٌ بليغ في هوان قارونَ وضعفِه؛ إذ هو مكانٌ تبتدئُ منه قوّةُ غيره عليه، فلا قيمةَ لماله وعلمِه وذكائه مقارنةً بنفوذِ غيره.

دلالةُ التمييز بـ﴿قُوَّةٗ﴾:

تحديدُ الأشدّيَّة موجبٌ للتواضع

ورد التمييز بـ﴿قُوَّةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ﴾ الدالُّ على وجود الإبهام في النّسبة، إذ يأتي التمييزُ لرفع ذلك الإبهام عنها بالبيان والتوضيح، إذ الأشديَّةُ تحتملَ التحقُّقَ بمُمَيِّزات متعدِّدة، لكنَّ النظم أفصحَ عن تلك الأشديَّة بلفظ (القوة) وما تتضمنه من دلالات المنعة والعزّة والهيبة وغيرها، ومع ذلك فإنها عاجزةٌ أمام عظمة الله تعالى وقدرته، ومن ثمَّ يجب على السّامعين لهذا الخطاب أنْ يتواضعوا أمامَ تلك القدرة، ويستشعروا دوامَ فضلها بالشُّكر الجزيل.

نكتةُ عطف الأكثريّة على الأشديَّة:

لا قـوّةَ معنويّةً ولا أكثرية ماديّةً تقفُ أمامَ عظمةِ الله

عطف النظم قولَه تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ على ﴿أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ﴾ للجمع بين العرَضَين: الكيفيِّ والكميّ؛ إذ القوَّة: ما بها يُستعان على الأعمال الصَّعبة؛ تشبيهًا لها بقوَّة الجسم التي تخوّل صاحبَها حملَ

الأثقال ونحوها، والجمعُ: الجمُّ الغفير من الرّجال والمال والعيال.
فقوله تعالى: ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾؛ أي: في الكيف من العِلْم والذكاء والتجربة والخبرة، إذ القوةُ من المعاني والأعراض التي تتفاوتُ بالأشدّيَّة والضّعف، فنقول: قوةٌ شديدةٌ وقوة ضعيفةٌ، ولا نقول: كثيرة أو قليلة؛ لأنَّ (القوة) كيفٌ وحدتُهُ الشدَّة والضّعفُ.
وأما قوله: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾؛ يعني: في المال والرِّجال، إذ الجمعُ مما تعرض عليه الكميات، التي تتفاوتُ بالأكثريَّة والأقليّة، فنقول: جمع كثير وجمع قليل؛ ولا نقول: جمعٌ شديد ولا ضعيف؛ لأنَّ (الجمع) معدود معروضٌ للكمّ، ووحدته الكثرة والقلّة. والمقصود بهذا العطف: تهديد قارون وتوبيخه على غروره وبَطَرِه[1]؛ إذِ السّابقون له كانوا متفوّقين عليه كَمًّا وكيفًا، ومع ذلك أهلَكَهم اللّه تعالى وعذَّبهم في الدنيا والآخرة.

سرُّ تكرار التمييز في الآية:

البيانُ للأكثريّة موجِبٌ للتواضُع والشُّكر

عبَّر النظم الكريم بتكرارِ التمييز في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للدلالةِ على أنَّ الأكثريّةَ المبهمةَ وُضِّحت بالجمع الوفير؛ الشّامل للرّجال والأموال والأعوان، ومع ذلك كلِّه فإن اللّه أهلكَهم وعذَّبهم لغرورهم وجحودِهم.

دلالةُ الوصل في قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ﴾:

لا سؤالَ للمجرمين عندَ الإهلاك المبين

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ استئنافيَّة، وليست عاطفةً لجملتها على جملةِ أنَّ اللّه قد أهلك من قبله من القرون[2].

وهذا الاستئنافُ جعل الجملة التي دخلت عليها (الواو) تذييلًا جاريًا مجرى المثل؛ لاستقلاله بأداء المعنى دون افتقاره إلى غيره.

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 438.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.

والغرضُ من الاستئناف إظهارُ كمالِ عظمة اللّه تعالى وانتقامِه بنفي سؤالِ المجرمينَ عن ذنوبهم قبل استئصالِهم وإهلاكِهم؛ لأنَّ الإجرام صار شأنَهم وسجيّتَهم، فلم يعُد السؤالُ مُجديًا، بل التدمير والانتقام والإهلاك هو الحلُّ الناجعُ معهم.

نكتةُ بناء الفعل ﴿يُسۡـَٔلُ﴾ للمفعول:

عدم الجدوى من السؤال مغنية عن الإظهار

أوثر بناء الفعل ﴿يُسۡـَٔلُ﴾ للمفعولِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ للاهتمام بنفي فعل السُّؤال نفسه بقطع النَّظر عن الفاعل، فقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ﴾؛ "أي: مِن سائلٍ مّا"[1]؛ توكيدًا للنَّفي بتعميمِه من جميع الفاعلين، كما يكشفُ الحذف للفاعل أنَّ العادة جاريةٌ بعدم سؤال المجرمين عن ذنوبهم؛ لكثرتها ووضوحها، حتى إنّه تنعدم الجدوى، ويضيعُ الغرضُ من السّؤال وفائدتِه.

بلاغةُ الكناية في الآية:

حرمانُ المجرمين من السُّؤال جزءٌ من العذاب

نفيُ السُّؤال عن الذُّنوب للمبالغينَ في الإجرام كنايةٌ عن الظّهور والوضوح لتلك الذنوب ظهورًا ووضوحًا مُغنيًا عن السُّؤال والاستعتاب؛ إذ صاحبُ الذنب القليل يُعاتَبُ ويُسأل عن سبب اقترافِه الذنب، وأمّا مَن اشتهر بالذنوب وأحاطتْ به الخطايا فيُحرم من السّؤال قبل نزول العقاب؛ لأنه جزءٌ من العقاب العظيم. كما أن الكنايةَ دالّةٌ على إحاطة علم اللّه تعالى بذنوبِ المجرمين، ونزولِ العقاب بهم لتفنُّنِهم بالإجرام وطرقه، مع التهديد لهم ليكونوا على حذرٍ من أن يُؤخذوا بغتةً[2].

معنى ﴿عَن﴾ في قوله: ﴿عَن ذُنُوبِهِمُ﴾:

كمالُ العقاب عدمُ الالتفات إلى المعاقبين بالسُّؤال

ورد النظم الكريم باستعمال ﴿عَن﴾ الموضوعة أصالةً للدَّلالة على البُعد والمجاوَزة[3] في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ﴾ لجعل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 355.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 500، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 54.

السُّؤال في موضع متجاوزٍ محلَّ الذُّنوب، فيكون نفيُ ذلك مُؤذنًا بنفي التَّجاوزِ عنهم، ودلالةً على أنّهم إنْ لم يُسألوا عن ذنوبهم الصّادرة منهم، فإنّهم لن يُسألوا عن أيِّ شيء ممّا عداه، وفي ذلك تهوينٌ لشأنهم وتفنيدٌ لغرورهم وتكبُّرهم على الحقّ تعالى.

نكتةُ الإضافة في: ﴿ذُنُوبِهِمُ﴾:

انفرادُ المجرمين بذنوبٍ سمةٌ بارزةٌ فيهم

أضافَ النظمُ الجليل الذنوبَ إلى ضمير المجرمين في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ العائدِ إلى المجرمينَ المتأخِّر لفظًا المتقدّم رتبة؛ للدّلالة على الاختصاص بذنوبٍ عُرفوا بها وتميّزوا عن غيرهم من المذنبين بها، وكان لجمعِ (الذنوب) تصريحٌ بشناعة ما يفعلونَ من آثام كثيرة. أوْ يكون الذنبُ الكبير قائمًا مقامَ ذنوبٍ كثيرة بناءً على إرادة التوزيع، وأفادَ التَّقييد بالإضافة إليهم أنّهم لا يُسألون عن ذنوبهم التي اقترفوها سؤالَ استعلام، وإنَّما يُحاسَبون ويُعاقَبون عليها بغتةً دون استعلام ولا استعتاب. وقيل: إنَّ ضمير ﴿ذُنُوبِهِمُ﴾ لَمَنْ هوَ أشَدُّ قوَّةً منهم، أي: ولا يُسأل عن ذنوب أولئك المُهلَكين غيرُهم ممَّن أجرمَ، ويعلمُ أنَّه لا يُسأل عن ذنوبهم مَن لم يُجرم بالأوْلى، لما بين الصِّنفين مِن العداوة. ومآل المعنى: لا يُسأل عن ذنوب المُهلَكين المعذّبين غيرُهم ممَّن أجرم وممَّن لم يُجرِمْ؛ إذ قد بالغوا في الذنوب حتى لا يكونُ للسّؤال قيمةٌ، ولا يستأهلونَ السؤالَ الدالَّ على التقدير والاحترام.

نكتة تقديم الجارّ والمجرور:

الاعتناء بالمتقدّم وتجليته، ووصمُ المتأخِّر بالذّنب بعد التّشويق لمعرفته

قُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿عَن ذُنُوبِهِمُ﴾ على نائب الفاعل ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ للاعتناء بالمسؤولِ عنه أكثرَ من المسؤول، وشأنُ تأخيرِ المسؤولِ عن المسؤول عنه فيه تشويق لمعرفته، فإذا ذُكر وقع من النَّفس موقعه، وتمكَّن منها غاية التَّمكُّن. وفيه إظهارٌ لهوانِ أمرِ المجرمين المتكبّرين

بقوّتِهم وأموالهم، حتى إنهم تأخَّروا عن المسؤول عنه، مع أنهم كانوا مغترّين بأفعالهم ظانّين أنهم بكِبْرهم وبطَرهم الحقَّ متقدِّمين على سائر الخلق، فأُخِّروا بالذكر إظهارًا لهوانهم حتى إنَّ المسؤولَ عنه كان أهمَّ منهم ذِكْرًا.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

تعليلُ عدم السّؤال بشدّة الإجرام

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ اسم موصول دالٌّ على الاستغراق والعموم لكلِّ مَن يَصْدُق عليه الوصف؛ وفيه تهديدٌ لكافَّة المجرمين حتى لا يجعل المخاطَبُ نفسَه بمنأى عن ذلك التَّهديد. كما دلَّ الموصول بصلتِه على علَّة عدمِ السُّؤال عن الذنوب، بأنهم قد دخلوا في عالم الإجرام دخولًا عظيمًا؛ فلا سؤالَ لهم عن تلك الذنوب التي اقترفوها؛ لِفَرْط إجرامهم وعتوِّهم على الحقّ تعالى.

بلاغة الإطناب في الآية:

التّذييل للتّهديد، ولتأكيد الوعيد

جملةُ: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ تذييلٌ للكلام السّابق، فهو استئناف وليس عطفًا على أنَّ اللّه قد أهلك مَن قبلَه[1]. ووجهُ اتِّصاله بما قبله هو أنَّه لمّا ذُكِّر قارونُ بمَن أُهلِك مِن قبله مِن القرون الّذين كانوا أقوى منه وأغنى، قيل له على سبيل التَّهديد والوعيد: واللّه مطَّلع على ذنوب المجرمين، لا يحتاجُ إلى سؤالهم عنها واستعلامِهم، وهو قادرٌ على أن يعاقبَهم عليها[2]. وفيه تهديدٌ ووعيدٌ بأنَّ ذلك الإهلاك كان مُباغتًا لم يسبقْه سؤالٌ ولا عتابٌ ولا نقاش، فليرتدعِ الطُّغاة بالآيات البيّنات قبل أنْ يأتيَهم العذابُ بغتةً وهم لا يَشعرون.

توجيه التَّعارض الظّاهريّ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ نفيٌ للسُّؤال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 432.

لا يُسألون سؤالَ استخبارٍ واستعلام، بل سؤالُ تقريعٍ وإيلام

للمجرمين والعصاة عن ذنوبهم، في حين أنَّ في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر 92 - 93] إثباتًا له، فنشأ عن ذلك تعارض ظاهريٌّ بين الآيتين، والإجابةُ عن هذا التَّعارض الظّاهر تكون من ثلاثةِ أوجه[1]:

الوجه الأوَّل: أنَّ السُّؤال قسمانِ: سؤال توبيخ وتقريع، وأداته غالبًا (لِمَ)، وسؤالُ استخبار واستعلام، وأداته غالبًا (هل)، فالمثبَت هو سؤال التَّوبيخ والتَّقريع، والمنفيُّ هو سؤال الاستخبار والاستعلام، ونفي ذلك بالنسبة إلى اللّه ﷻ ظاهر؛ إذ هو المحيط بكلِّ شيء علمًا، وأمّا بالنّسبة إلى الملائكة عليهم السلام فلأنَّهم مطّلعون على صحائفِ المجرمين، أوْ لأنَّهم يعرفون المجرمينَ بسيماهم، فيأخذونَهم دون أنْ يسألوهم، كما قال سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١﴾ [الرحمن: 41].

الوجه الثاني: أنَّ في القيامة مواقفَ متعدِّدةً، ففي بعضها يُسألون، كما قال سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: 24] وفي بعضها لا يُسألون، كما قال جلَّ شأنه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرحمن: 39]، ومواقفُ يوم القيامة كثيرةٌ ومتعدّدة.

الوجه الثالث: أنَّ السُّؤال المنفيَّ هو السُّؤالُ في الدُّنيا قبل نزول العذاب بهم بغتةً، والسُّؤال المثبَت هو سؤالُ الآخرة بالحسابِ والتقريعِ والفضحِ أمامَ الخلائق.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإهلاك والإفناء:

الإهلاك يكون بنقض البِنيَة بخلافِ الإفناء

الإهلاكُ: يكون بنقض البِنيَة أوْ تكسيرها، سواءٌ أُعدِم وفَني أم لا[2]. وأما الإفناء: فهو إعدامُ الشَّيء جملةً، سواءٌ بفقد النَّفع الأساسيّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 182، والشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص: 143.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104، 105، وابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).

للشَّيء، أوْ فقدِ الشَّيء نفسِه[1]. والملاحَظ في الإهلاك معنى النَّقض والتَّكسير المناسب لموقف العذاب؛ لأنَّ العذاب بالإهلاك لا يكون إفناءً وإعدامًا جملةً واحدة.

القوَّة والشِّدَّة:

القـوَّة توصفُ بـالـشـدَّة دون العكس

الشِّدة في الأصل هي مبالغةٌ في وصف الشَّيء من حيثُ الصَّلابة والقوّة، وليست من قبيلِ القُدرَة[2]. وأما القوَّة فهي من قبيل القدرة[3]، ولهذا لا يقال: اللّه شديدٌ، ولكن يقال كما في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: 58]؛ أي: العظيم الشَّأن في القوَّة[4]. فيكون الملاحَظ في الوصف بالشِّدة المبالغةُ في الشَّيء مع صلابةٍ فيه، وأصلُه من العقد القويّ[5]، من غير أن يكونَ من قبيل القدرة، كما في وصف الجمادات التي لا قدرةَ لها بالشِّدة. ويكون الملاحَظ في معنى القوَّة كونَه من قبيل القدرة، ثمَّ قد توصف القوَّة بالشِّدَّة على سبيل المبالغة في معنى القدرة، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: 5] وهو جبريل عليه السلام، فيكون بمعنى: عظيم القدرة[6]، فالقوةُ توصفُ بالشدَّة دونَ العكس.

الجمع والحشر:

الحشر جمعٌ مع سـوقٍ وإزعـاجٍ، بخلاف الجمع

الفرقُ بين (الجمع والحشر) أنَّ الحشر هو إخراجُ جماعة عن مقرِّهم مع سَوْق، وإزعاجُهم عن مقرِّهم إلى حرب ونحوها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦﴾ [الشعراء: 36]؛ أي: ابعث من يجمع السَّحَرة، ويسوقُهم إليك[7]. وأما (الجمع)

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فني).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 107، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شدد).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 107، والراغب، المفردات: (قوي).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 107.
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شدد).
(6) الراغب، المفردات: (شدد).
(7) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144، والراغب، المفردات: (حشر).

فهو ضمُّ الشَّيء بتقريب بعضه إلى بعض[1]. ولا يقال الحشرُ إلا في الجماعة، ولا يكون الحشرُ إلا بسَوْقٍ، ولا يقالُ إلا فيما يصحُّ فيه السَّوق، بخلاف الجمع[2]. ولهذا كان الأنسب استعمالَ الجمع فيما كان من جمع المال والأنصار والأعوان.

القرن والأمّة:

القرن أخصّ من الأمة مطلقًا

القرنُ: القومُ المقترنون في زمن واحد، وكلُّ جماعة مقترِنة في وقت واحد فهي قَرْن[3]. وغالب ما يقع اسم القرن على من يكون من النّاس في مُدَّة سبعين سنة[4]. والأمَّة: الجماعةُ من النّاس يجمعهم أمرٌ مّا سواء كان دينًا أو زمانًا أوْ مكانًا واحدًا، وسواء كان هذا الجمعُ اختياريًّا أم قهريًّا[5].

---

(1) الراغب، المفردات: (جمع).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144، والراغب، المفردات: (حشر).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قرن)، وعبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن: 734.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 279.
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمم).

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا
يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ [القصص: 79 - 80]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

مَن كانتِ الدُّنيا همَّه، خاب ظنُّه، وزادَ في الآخرة غمُّه

لمّا ذكرَ سبحانه ردَّ قارونَ على النّاصحينَ له من قومه، الدالَّ على تمرُّده وكِبْره؛ أخبر سبحانه أنَّه خرج على قومه وهو في كاملِ زينته وأبَّهته[1]؛ ليَكيد لمَن تجرَّأ على نُصحه وزَجره، وليستخفَّ بمشاعرهم، ويبالغَ في إيلامهم. ثمَّ ذكر سبحانه حالَ النّاس عندما رأوا عليه تلك الزّينة: فمنهم مَن تمنَّى أن يُؤتى مثلَما أوتي قارون؛ وذا لِسُفول هِمَمِهم، وقصورِ النَّظر لديهم[2]، وأمّا الذين أوتوا العلمَ والمعرفة باللّه تعالى فقد زَجروا الأغمارَ الذين تمنَّوا حالَ قارون، وحملوهم على الطَّريقة المُثلى من أنَّ النَّظر والتَّمنّي إنَّما يكون إلى ما هو أعلى من ذلك وأعظمُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زِينَتِهِۦۖ﴾: (زين) أصل يدلُّ على حُسْن الشَّيء وتحسينِه[3]. والزِّينة: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُتَزيَّن به[4]، وهو نقيضُ الشَّين، ممّا لا يُشينُ الإنسانَ في شيءٍ مِن أحواله، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، فأمّا ما يُزيّنُه في حالةٍ دونَ حالة، فهو شَيْنٌ من وجه[5]. يقال: زانَه كذا،

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 300.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 631، والبقاعي، نظم الدّرر: 14/ 356.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (زين).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).

وزيَّنه: إذا أظهرَ حُسنَه، إمّا بالفعل أوْ بالقول(1). وتزيَّن وازَّين وازدان بمعنىً، وهو افتعلَ من الزّينة(2). والمقصودُ بالزينة في قولِهِ تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾: الزّينةُ الدُّنيويَّة من المالِ والأثاث والقوَّة والجاه(3).

2) ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾: أصل (ويل) يدلُّ على الهلاك والعذاب(4). ووَيْلٌ: كلمةٌ مثلُ ويح، إلا أنّها كلمة عذابٍ وقُبح، يقال: ويْلَهُ ووَيْلَك ووَيْلي. والويلُ: كلمةٌ تقال لكلِّ مَن وقع في عذاب أوْ هَلَكَة(5). والويلُ أيضًا: وادٍ في جهنَّم(6). والمراد بالويلِ في الآية: الدّعاء بالهلاك، ثمَّ استُعمِل للزَّجر والرَّدع عمّا لا يُرْتَضى(7).

3) ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾: (لقي) أصولٌ يدلُّ أحدُها على طرح الشَّيء(8). واللِّقاء: مقابلةُ الشَّيء ومصادفتُهُ معًا، وقد يعبَّر به عن كلِّ واحد منهما(9)، يقال: لَقيَه يَلْقاه لِقاءً ولُقًى ولُقيًّا ولُقْيَةً(10). وملاقاةُ اللّه ﷻ عبارةٌ عن القيامةِ والمصير إليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ [البقرة: 223](11). واللِّقاء: الملاقاة(12). والتَّلَقّي: الاستقبالُ، يقال: لقَّيته كذا: إذا استقبلتَه به. وتلقّاه كذا: لَقيَه(13). والمراد به في الآية: الإيتاء والإعطاء؛ أي: لا يُعطى الأعمالَ الصّالحة أو الجنَّةَ في الآخرة، إلا الصّابرون(14).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُصوِّر لنا المولى ﷻ في هذا البيان القرآنيِّ مظهرًا آخرَ من مظاهر عُجْبِ قارون وغُروره؛ لأنَّه لم يعبأ بنصْحِ قومه وإرشادهم له، وإنَّما خرج على قومه في ثيابه الملوَّنة مفتخرًا بكثرة

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (زين).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (زين).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (ويل).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ويل).
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 186، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 659.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقي).
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقي).
(11) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ وابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(12) ابن فارس، المجمل والراغب، المفردات: (لقي).
(13) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(14) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 223، والقرطبي، أحكام القرآن: 13/ 317.

ثوابُ اللهِ في الآخرةِ للمتَّقين خيرٌ من زينة الدّنيا للعاصين

ماله وشدَّة ثرائه وتنوُّع مراكبه، فاغترَّ به هؤلاء الَّذين يُحِبّون الحياة الدُّنيا وما فيها من متعٍ وزخارفَ فاتنة، فقالوا على سبيل التَّمنّي والانبهار: يا ليت لنا مثل ما أُعْطِيَ قارونُ من الجاه والمنصب والمال؛ إنَّه لصاحبُ نصيبٍ وافرٍ من الدُّنيا. وأمّا هؤلاء الَّذين رُزقوا العلم باللّه، وبما جاءتْ به رُسلُه فقد قالوا على سبيل الرَّدْع والزَّجْر لهؤلاء المفتونين: كفّوا عن قولكم هذا؛ فإنَّ جزاءَ اللّه في الدّارِ الآخرة خيرٌ مِمّا أوتي قارونُ وأمثالُهُ مِنْ متعِ الدُّنيا وزخارِفها الفانية، ولَكِنْ لِمَنْ آمن باللّه وبرُسُلِهِ فعملَ عملًا صالحًا ابتغاءَ هذا الجزاء؛ لأنَّه لا يوَفَّقُ إليه إلّا الصّابرون على الطّاعاتِ واجتنابِ المحرَّماتِ طمَعًا في ثوابِ ربِّ الأرض والسَّماوات وجزائه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) وغرضها:

عاطفة لبيان التَّعقيب وانعدام المهلة للتَّفكر في نصيحة النّاصحين

يصحُّ أن تكون (الفاء) عطفًا على قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ [القصص: 76] مع ما عطفَ عليها وتعلّق بها، فدلَّت (الفاء) على أنَّ خروجه بين قومه في زينته بعد ذلك كلِّه كان من أجل أنَّه لم يقصِّر عن شيءٍ من سيرته، ولم يتَّعظ بتلك المواعظ ولا زمنًا قصيرًا، بل أعقبَها بخروجه هذه الخرجةَ المليئةَ صَلَفًا وازدهاءً، فالتَّقدير: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فَخَرَجَ؛ أي: رفضَ الموعظةَ بقوله وفعله[2].

ويصحُّ أن تكون عطفًا على محذوفٍ دلَّ عليه مساقُ الكلام من عدم انتصاحه لِما قيل له، وإظهارِ أسباب البَطَر، فـ(الفاء) فصيحة[3].

ولا يخفى أنَّ الخروج على القوم مُفتخرًا بزينته ومَصحوبًا بها قد جاءَ عقيبَ النُّصحِ ورفضِه، فكان الرفضُ قوليًّا مصحوبًا بالعمل

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 328 - 331، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، تفسير المنتخب، ص: 588.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 59.

بعده، فلم يكتفِ قارونُ بالقول: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ بل عمدَ إلى تأكيد ذلك الجحودِ بالفعل، فخرج متباهيًا بزينته، وهذا منتهى الجحودِ والغرورِ والإصرار على الكِبْر والعصيان.

دلالة التَّعبير بالماضي:

سرعة الوقوع وتحقُّق الخروج

التَّعبير بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ دون غيره مناسبٌ لمعنى (الفاء) الدالّ على سُرعة الوقوع وقِصَر الزَّمن بين وعظِ النّاصحين مِن قومه وخروجِه عليهم في زينته، فدلَّ الماضي على استحضار معنى التَّحقُّق في الخروج، وتنفيذِ العزمِ عليه بلا توانٍ. وفعلُ الخروج يدلُّ على أنه كانَ مُحتجِبًا عن القوم في قصره خلالَ مدَّة وعظِهم له بالثني عن غروره وجحوده، فعمدَ إلى الخروج والبروز أمامَ أعينِ الناس؛ ليفتنهم ويزيدهم حرقة وألمًا، والخروجُ من حيثُ هو غيرُ معصية، لكنَّ الدافع إليه والغرضَ الذي يسعى لتحقيقِه هو المعصيةُ ذاتُها.

نكتةُ التعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾:

بيانُ علّةِ إثم الخروج

ورد التعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾ عندَ تعدية فعل الخروج في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ دون (إلى)، لأنَّ الأصل في معنى ﴿عَلَىٰ﴾ أنَّها موضوعة للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا؛ وهي في هذا الموضع للاستعلاء المجازيّ، لبيان ما كان عليه قارونُ من الاعتداد بماله واستعلائه على النّاس، فخرجَ في زينة عظيمةٍ يتباهى بها وكأنَّه يمشي - لمّا خرج - فوقَ رؤوس قومه لا بينهم، وخرج عليهم لا إليهم، فتعدية ﴿فَخَرَجَ﴾ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾ دون (إلى) لتضمينه معنى النُّزول إشارةً إلى أنَّه خروجُ مُتعالٍ مترفّعٍ[1]. وهذا بيانٌ لكون الخروجِ معصيةً؛ إذ رافقَه شعورُ الزَّهْوِ والتكبُّر والخُيَلاء على اللّه تعالى وعلى خلقه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

نكتةُ التَّعبير بالقوم مضافًا:

يُنتظَر من المرء أن يُحسِن إلى قومه، ولكنَّ قارون قد زاد في غيّه وظُلمه

آثرَ النظمُ الجليل التعبيرَ عمّن خرجَ عليهم قارونُ بلفظ (القوم) مضافًا إليه في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ إشارةً إلى أنَّه خرج على قومه خاصَّة لا على عموم النّاس، بل على قومه الذين بغى عليهم، وكان المنتظَرُ منه الإحسانَ إليهم، فوقع منه خلافَ ما كان ينبغي. وفيه تعريضٌ بصناديد الكفر من مُشركي قريشٍ الذين سخَّروا قوّتهم لتعذيب المؤمنين من أقوامهم، خصوصًا أبا لهب عمَّ النَّبيّ ﷺ، وهو الذي جرَّأ النّاس على سبِّ رسول اللّه ﷺ، بأن كان في مقدِّمة مَن سبَّه وحاربه. ونلمحُ في هذه الإضافة تباينًا في تعامل المتكبِّرين والصالحين مع أقوامهم؛ إذ شانُ المتكبّر الزهوُ على جماعته واستصغارُه لهم، وشأنُ الأنبياء والصّالحين التواضعُ معهم والانتماءُ إليهم، ومحاولةُ إنقاذِهم.

موقعُ الجارّ والمجرور ودلالتُه:

التَّترُّس بالزّينة والتَّحصُّن بها دليلُ الخواء، وسبيلُ الفناء

قوله تعالى: ﴿فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ حالٌ من ضمير ﴿فَخَرَجَ﴾[1]، يدلُّ على تقييدِ خروجه بحالَةٍ معيّنةٍ، وبيانِ هيئةِ قارونَ عندَ الخروج، وجاء الحالُ بعدَ تحديدِ مَن خرج عليهم من القوم؛ ليفيدَ أنَّ هذا الخروج كان خروجَ المغترّين والمتكبِّرين عليهم، والأصلُ في معنى ﴿فِي﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً أوْ زمانيَّة، حقيقيَّةً أوْ مجازيَّة[2]؛ و﴿فِي﴾ في هذا الموضع للظَّرفيَّة المجازيَّة، كأنَّه جعل الزّينة مكانًا لخروجِه، دلالةً على كثرةِ ما تزيَّن به، فكأنَّ الزّينة ليستْ عليه، وإنَّما لكثرتها صارتْ مكانًا يحويه، وأنَّ الزّينة محيطةٌ به.

نكتةُ التَّعبير بالزِّينة مضافةً إليه:

آثرَ النظمُ الجليل استعمالَ لفظ (الزّينَةُ) في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

الزِّينة عرضيَّةٌ من غرور الحياة الدُّنيَّة، ليست ذاتيَّة، ولا حقيقيَّة

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾، وهي: ما يُتَزَيَّنُ به، ويدلُّ على حُسن الشَّيء وتحسينه، وقد تكون الزِّينة ذاتيَّةً وهْبيَّةً في أصل الخِلقة لا تنفكُّ عن صاحبها، وقد تكون زينةً إضافيَّةً خارجيَّةً مكتسَبَة، وفي هذا التَّركيب إشارةٌ إلى زينة عرضية؛ إذ كانت حالًا له حالة الخروج وليست صفةً لازمةً له، ومن شأن المغترّين والمتكبّرين تجميلُ ظواهرهم وتركُ بواطنِهم قبيحةَ الطبع سيئةَ السَّريرة والطويَّة. وثَمَّ ملمحٌ آخر في الإضافة، وهو أنَّ إضافة الزِّينة إلى ضمير قارون فيه إلماح إلى أنَّها لم تكن زينةً في حقيقة الأمر والواقع، بل زينةٌ من وجهة نظر قارون القاصرةِ، ومَن تمنَّى مكانه من الجُهلاء الّذين يريدون الحياة الدُّنيا، فما كانت علمًا نافعًا، ولا ذرّيَّة مجاهدةً في سبيل الله، ولا أيَّ شيء ممّا يتقرَّب به إلى الله فيقرِّب صاحبه إلى الجنَّة، بل كانت عرضًا دنيويًا زائلًا لم يؤدَّ حقُّ الله تعالى فيه.

نكتةُ الفصل:

شأنُ الجُهّال الرغبةُ في دنيا الأغنياءِ ورفاهيّتِهم

فُصِلَت جملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ عن سابقتها ولم تُعطَف عليها؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال؛ لأنَّها تتنزَّل منها منزلة (بدل الاشتمال) لما اشتملت عليه (الزِّينةُ) من أنَّها ممّا يتمنّاه الرّاغبون في الدُّنيا، وذلك جامعٌ لأحوال الرَّفاهيَة على أخصرِ وجه؛ لأنَّ الذين يريدونَ الحياة الدُّنيا، لهم ميولٌ مختلفة، ورغباتٌ متفاوتة، فكلٌّ يتمنَّى أمنيَّة ممّا تلبَّس به قارونُ من الزِّينة، فحصل هذا المعنى مع حصولِ الإخبار عن انقسام قومه إلى مغترّين بالزَّخارف العاجلةِ عن غير علم، وإلى علماءَ يُؤثرونَ الآجلَ على العاجل، ولو عُطِفت جملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بـ(الواو وبالفاء) لفاتت هذه الخصوصيَّة البليغة، فصارت الجملة إمّا خبرًا من

جملة الأخبار عن حال قومه، أوْ جزءَ خبرٍ مِن قصَّته[1]. وقد يكون قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ مثيرًا لسؤالٍ يتبادرُ إلى ذهن المتلقّي، وهو: فماذا كان بعد الخروج من حال الناس؟ فتأتيه الإجابة: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، فتقع الجملة الثّانية من الأولى موقع الاستئناف البيانيّ لشبهِ كمالِ الاتصال. ونلحظُ سرعةَ القول بعدَ الخروج، فما إنْ خرجَ حتى تمنَّى الراغبونَ في حُطام الدّنيا حالتَه، مُتناسينَ ما عليه من غرور واستكبار وظلم وفجور.

نكتة التَّعبير بالموصول وصلته:

تقوية المعنى وبيان العلَّة في جملة الصِّلة

آثر النظم الجليل التَّعبيرَ بالموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ استغناءً بذكر الوصف بجملة كلاميَّة عن ذكرِ الاسم الخاصِّ بهم، لتقوية معنى إرادتهم الحياة الدُّنيا وتمسُّكِهم بها واشتهارهم بذلك. وإيثار التَّعريف بالموصوليَّة كان لأجل تحقيق الوصف بما تضمَّنته جملة الصِّلة، وبيان العلَّة في الحكم، فإنَّما تمنَّوا ما تمنَّوا لأجل أنَّهم يريدون الحياة الدُّنيا، ولو كانوا من أولي العِلم لوقفوا على الحقائق دون الظَّواهر.

دلالة التَّعبير بالمضارع:

طالب الدُّنيا لا يشبع، والمغرورُ بها لا يقنع

أوردَ النصُّ الكريم جملةَ الصّلة مشتملةً على الفعل المضارع، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ لإفادته التَّجدُّدَ والاستمرار، وفي هذا الموضع دلالةٌ على تجدُّد اغترار الجاهلين من قوم قارونَ بزخرف الحياة الدُّنيا وزينتها الظّاهريَّة الزّائفة؛ فكلَّما رأوا منها صنفًا تمنَّوا مثلَه، فهم في نَهَم دائم، لا يشبعونَ ولا يقنعون! وفي إسنادِ الفعلِ إلى ضمير الجمع إشارةٌ إلى الرغبة الجماعيَّة لهؤلاء الدنيويّين بالتنافُس على حظوظ الدنيا وبهرجِها الزائل.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

معنى (أل) في الموصوف والصفة:

العهد الذِّهنيّ، لا العِلم الحقيقيّ

ورد استعمال (أل) في كلٍّ من الموصوف والصّفة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، والمراد بهما الجنس، أي: الحياة الكاملة المعلومة التي استقرَّت في أذهانهم صورتُها، لا التي يعرف أهلُ العلم حقيقتَها ومعانيها الكاملة التي خُلقت من أجلها، وأفاد التعريفُ الجنسيّ أنهم أطلقوا لأنفسهم العنانَ بالرغبة بالحياةِ كاملةً، حتى كأنها صارت علَمًا على الرغبة بحقيقةِ المباهج والبُهرج الزائف.

دلالة وصف الحياة بـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

سفول المطلوب دليلٌ على سفول الطّالب

الأصل في الدُّنوِّ الحصول في سُفل، ومن هنا استُعمِل الدُّنوُّ في الهبوط المعنويّ والقيميّ للشيء كما في قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61]. ومن هذا قالوا للخسيس السّاقط: إنّه لَدَنيٌّ من أدنياء، وفي وصف الحياة بـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ توبيخٌ لِمَن أرادها؛ إذ صرف همَّته ووجَّه إرادتَه لشيءٍ قليل القيمة خسيسِ القَدْر، ومنه يُعلم أنَّ الراغبين هم غالبيّةُ الناس وأكثريّتُهم؛ ولذا عبَّر بضمير الجمع ﴿يُرِيدُونَ﴾، ولم يخصَّهم بوصفٍ كما خصَّ في مقابلهم أهل العلمِ بالذكر كما سيأتي.

دلالةُ النّداء في الآية:

استحضارُ التَّمنِّي وبيان غايته، وبيان بُعد المطلَب واستحالته

آثرَ النظمُ الجليل استعمال (يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا﴾ ويراد بها أمران؛ **أحدُهما** - وهو قولُ الفارسيّ -: إنَّها لمجرَّدِ التَّنبيه، فلا يُقدَّر مناديً محذوفٌ، ولذلك باشَرَتِ الحرفَ، **والثّاني**: أنَّ المنادَى محذوفٌ، تقديرُه: يا هؤلاء ليت لنا[1].

وعلى التَّقديرين، فإنَّ دخول (يا) في النظم يشيرُ إلى أنَّ التَّمنّي الواقعَ من الّذين يريدون الحياة الدُّنيا إنَّما يُخبرونَ به أحدًا

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 4/ 34.

ويُعلنونه، فليس تمنِّيًا خفيًّا في نفوسهم. وثَمَّ ملمحٌ آخر، وهو أنَّ ذِكر هذا الحرف (يا) بما فيه من إطلاق الصَّوت ومدِّه مع الألِف يشير إلى بُعد المطلَب، وأنَّه ممّا يصعبُ أوْ يستحيلُ تحقيقُه، فإذا ما أُضيف إلى حرف التَّمنِّي (لَيْتَ) أفاد بُعدًا فوق بُعد.

الغرض من التَّمنِّي:

استعملَ النظمُ الكريم التمنّي بـ (ليتَ) في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ﴾، والتَّمنِّي: طَلَبُ ما لا طمعَ فيه؛ كقول أبي العتاهية:

ألا لَيْتَ الشَّبابَ يَعودُ يَومًا *** فَأُخْبِرُه بِما فَعَلَ المَشيبُ

أوْ ما فيه عسرٌ، كقول المُعْدِمِ الآيس: ليت لي قنطارًا من الذَّهب[1]. واستعمالُ هذا الأسلوب في النظم كَشَفَ عن مدى تهويل الجاهلينَ لأمر الدُّنيا وشدَّةِ اغترارهم بها، حتى إنَّهم جعلوا ما رأوهُ مُستحيلَ الحدوث أوْ صعبَ النَّوال غايةً لهم، ويكشفُ التمنّي مع ندائِه عن مدى اللهفة بتحصيل مطلوبهم، وذلك لشدّة غباوتهم وضعفِ إدراكهم.

هوَّل الجاهلونَ أمر الدُّنيا رغم سُفوله، فطمِعوا فيما رأوه مُستحيلًا في حصوله

دلالة (اللّام) في قوله: ﴿لَنَا﴾:

استعملَ النظمُ الكريم اللام في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ﴾، والأصل في معناها أنَّها موضوعةٌ للدَّلالة على الاختصاص والملك[2]؛ أي: إنَّهم تمنَّوا اختصاصَهم وتمَلُّكهم مثلَ ملك قارون الذي اختصَّ به، وفيه بيان أنَّ ما يُغري الجاهلينَ في الدُّنيا وزينتها هو معنى التَّميُّز عن غيرهم، والاختصاصِ دونهم، والشُّعورِ بالتَّملُّك وإن كان زائفًا زائلًا.

رغبةُ الامتلاك وتمنِّي التَّميُّز عن سائر النّاس

نكتةُ تقديم الخبر:

قُدِّم الخبرُ وهو شبهُ جملة على المسنَد إليه في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ لغرضِ الاهتمام به والدلالةِ على الاختصاصِ

الأهمُّ - عند الجاهلين - من الملك هو اختصاصُهم به

(1) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 7/ 115.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

والانحصار، فكأنَّهم يقولون: الأهمُّ هو كونه ﴿لَنَا﴾ لا لغيرنا، ثمَّ يأتي بيانُه بأنَّه مثلُ ما أوتي قارون. وهكذا يكون حالُ أهل الدُّنيا المتكالبينَ عليها طمَعًا في زينتها أن تكون لهم وحدَهم لا يشاركُهم فيها أحدٌ مع أنّها متاعٌ فانٍ وزائل.

سرُّ التَّعبير بلفظ (المِثْل):

المِثل أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، والتَّعبيرُ به دليل الغبطة؛ تحرُّزًا من الحسد

آثر النظمُ استعمالَ لفظ (المثل) في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ﴾ وهو عبارة عن مشابهة الشَّيء لغيره في معنىً من المعاني، أيِّ معنىً كان، وهو أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابَهَة، وذلك أنَّ النِّدَّ يقال فيما يشاركُ في الجوهر فقط، والشَّبَهَ يقال فيما يشارك في الكيفيَّة فقط، والمُساوي يقال فيما يشارك في الكمّيَّة فقط، والشَّكل يقال فيما يشاركُه في القَدْر والمساحة فقط، والمِثْل عامٌّ في جميع ذلك؛ ولهذا لمّا أراد اللّه تعالى نفي التَّشبيه مِن كلِّ وجه خصَّه بالذِّكر، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11][1]. فمن هنا أوثر التَّعبير بالمِثْل في هذه الآية دون غيره؛ بكونه أعمَّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، فكأنَّهم أرادوا أن يكونَ لهم مثلُ ما لقارونَ في حجمه ومقداره ومساحته وكمّيَّته وكيفيَّته، مبالغةً في تمنّيهم. ثمَّ إنَّهم تمنَّوا مِثْلَ ما أوتي قارون لا عينه، حذرًا من الحسد[2]، ممّا يرجِّح كونَهم من المؤمنين لكن لجهلهم غرَّتهم الدُّنيا.

نكتةُ بناءِ الفعل للمفعول:

عِظَمُ الاهتمام بالنِّعمة والانشغالِ بها عن المنعِم الجليل

بناءُ الفعل ﴿أُوتِيَ﴾ للمفعول في كلام الَّذين يريدونَ الحياة الدُّنيا من الجاهلينَ مِن قومه؛ لمشاكلة قول قارونَ نفسِه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مبالغةً في المثليَّة، كأنَّهم غرَّتهم حالُ قارون، فأرادوا مثلَ ما كان عليه قارونُ؛ فماثل قولُهم قولَه في البناء والتَّركيب، كأنَّه

(1) الراغب، المفردات: (مثل).

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 186، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 327.

الحكايةُ لقوله، وفيه تقديمُ الاهتمام بالنِّعمة والانشغال بها عن المنعِم الحقيقيّ، وفيه اعتراف ضمنيٌّ أنَّ قارون قد أوتي هذا المالَ ولم يكتسبْه بنفسِه.

علَّة فصل ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ عن سابقِه:

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ عن سابقِه؛ لما بينهما من شبه كمال الاتِّصال؛ إذ إنَّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ استئناف بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مقدَّر بعد قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾، فكأنَّ سائلًا سأل: وما سببُ تمنِّيهم ذلك؟ فجاءت الإجابة: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ أي: هو عِظَم حظِّه وبَخْتِه.

الجهلُ بالمآل مفضٍ إلى الوهم بالحال

نكتةُ توالي المؤكِّدات:

توالتِ المؤكِّدات في ذيل الآية من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وهي كما يلي: حرف التَّوكيد (إنَّ) القائمُ مقامَ تكرير الجملة مرَّتين، واللّام المزحلقة الدّاخلةُ على الخبر، واسميَّة الجملة المفيدةُ للثُّبوت.

شدّةُ الإعجابِ تقتضي كمالَ الانبهار

وهذه التَّوكيداتُ كنايةٌ عن التَّعجُّب والانبهار، حتَّى كأنَّ السّامع ينكرُ حظَّه فيؤَكِدُّه المتكلِّم(1).

نكتةُ التنكير في الموصوف والصّفة:

آثر النظمُ الجليل التعبيرَ عن الموصوف والصّفة من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ بالتنكير والمبالغة، إذ نُكِّرت كلمة ﴿حَظٍّ﴾ للدَّلالة على التَّعظيم، ثمَّ جاء توكيدُ تلك العظمة بالوصفِ بها، كأنَّه قال: (إنَّه لذو حظٍّ فخمٍ عظيم)، وكأنَّه اتَّصفَ بعظمتين: عظمةِ الملك وعظمةِ الاختصاص، أوْ عظمةِ النّوعِ وعظمةِ الكمّ.

من دواعي إعجابِ الجاهلِ بالدنيا الإبهامُ والمبالغة

علَّة الوصل في الآية:

عطفَ النظمُ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ على جملة:

مقابلةُ مقالةِ الجاهلين بموعظةِ أولي العلْم الصّابرين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، لأنها مشاركةٌ لها في معناها؛ إذ ترتبَ على خروج قارون بزينتِه موقفانِ كشف عنهما العطفُ: موقفُ الجاهلينَ بالمصير والمغرورينَ بالحال، فتمنَّوا حالَه وما هو فيه من نعمةٍ، وموقفُ العالمينَ بالحال والمآل، وأنها حالٌ زائلة ومآل مزرٍ وعقابٌ مخزٍ، فنصحوا الجاهلينَ بموعظةٍ بليغةٍ ودرسٍ محكَم متين. وممّا حسَّن الوصلَ بين الجملتين اتّحادُ الجملتين في الخبريَّة، ووجودُ المغايرة بينهما، مع التَّلاؤم الفكريِّ، فكلٌّ منهما تحكي مقالةَ فريقٍ ممَّن خرج عليهم قارونُ بزينته، ولكنْ كلتاهما نقيضٌ للأُخرى.

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

اشتملَ النظمُ الجليلُ على فنٍّ بديعيٍّ يسمَّى (الاحتباك)، تقديره كما يلي: قال (الجاهلون) ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾، و﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ (الذين يريدون الدّار الآخرة) ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾، فحذفَ (الجاهلين) من الأولى، وجاء بمقابله في الثّانية ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ ليدلَّ عليه، وحذف من الثّانية (إرادة الدّار الآخرة) وجاء بمقابله: ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ للدلالة عليه على طريقة الاحتباك - إذ لمّا قوبل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ كان المعنيُّ بهم عامَّةَ النّاس وضعفاءَ اليقين الَّذين تُلهيهم زخارفُ الدُّنيا عمّا يكونُ في مطاويها من سوءِ العواقب، فتقصُرُ بصائرهم عن التَّدبُّر إذا رأوا زينةَ الدُّنيا، فيتلهَّفونَ عليها ولا يتمنَّونَ غيرَ حصولها، فهؤلاء وإنْ كانوا مؤمنينَ إلا أنَّ إيمانَهم ضعيفٌ؛ فلذلك عَظُم في عيونهم ما عليه قارونُ من البذخ، فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾؛ أي: إنَّه لذو

الجاهلون حقيقةَ الدُّنيا اغترّوا بها، والعالمون يطلبون ما هو خيرٌ وأبقى

بختٍ وسعادة[1]. وإنَّما لم يوصفوا بإرادة ثواب الآخرة، تنبيهًا على أنَّ العِلم بأحوالِ النَّشأتين يقتضي الإعراضَ عن الأولى، والإقبالَ على الأُخرى حتمًا، وأنَّ تمنِّي المتمنِّين ليس إلّا لعدم علْمِهم بهما كما ينبغي[2]. وفي وصف المقابلِ لهم بالعلم زيادةُ توبيخ وتبكيتٍ وتهكُّم من ادِّعاء قارونَ العِلمَ في قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾؛ كأنَّما قال: هذا هو العلمُ الحقُّ، وهذا هو أثرُهُ.

نكتة التَّعبير بالموصول وصلته:

تقويةُ المعنى بتحقيق الوصف المتضمَّن في جملة الصِّلة، وبيانُ سبب الحُكم والعلَّة

في التَّعبير بالموصول وصِلَته في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ استغناءٌ بذكر الوصف بجملةٍ كلاميَّة عن ذكر الاسمِ الخاصّ، لبيان سبب نجاتهم ممّا وقع فيه الجاهلونَ من الافتتان بزينة قارونَ الزّائفة وملكه الزّائل وبيان شِدَّة اتّصافهم بالعلم ورسوخهم فيه. فإيثار التَّعريف بالموصوليَّة كان لأجل تحقيق الوصفِ بما تضمَّنته جملة الصِّلة، وبيانِ العلَّة في الحكم، فإنَّما نَجَوْا من الافتتان بزينة الحياة الدُّنيا لكونهم من أولي العِلم، فضَّلهم اللّه تعالى به على كثير ممَّن خلقَ.

نكتةُ بناء الفعل الماضي للمفعول:

الوقوعُ والتَّحقيق بتوكيد المعنى حقيق

آثر النظم التعبير عن الإيتاء بالفعل الماضي المبني للمفعول من قوله تعالى: ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ دلالةً على تحقُّق الوقوع وإشارةً إلى رسوخهم في العِلْم، أو إلى وصولهم لغايةِ العلم وثمراته الحقيقيَّة، وهي معرفةُ حقيقة الدُّنيا؛ فلم تغرَّهم، وحقيقةِ الآخرة؛ فطلبوها ورغِبوا ورغَّبوا فيها، وإنَّما بُني الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله؛ للعلْم بالفاعل، وللاهتمام بالفعل نفسه؛ لكونه علَّةَ ما بعده.

معنى تعريف ﴿ٱلۡعِلۡمَ﴾:

ورد في النظم ﴿ٱلۡعِلۡمَ﴾ معرفًا بـ(أل) للجنس من قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 327.

﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾؛ أي: العلمَ النّافع الذي ينجو به صاحبُه، أوِ العِلمَ الحقَّ لا الباطلَ الّذي ادَّعاه قارونُ مُعجَبًا ومفتخِرًا بنفسه الأمّارة بالسّوء.

التّعريف في العلم إشارةٌ إلى المعهود في أذهان العالمين، لا ما ادَّعاه قارونُ اللَّعين

توجيهُ المراد بالوَيل مضافًا:

ورد الويلُ في النظم الكريم من قوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾، وهو اسمٌ للهلاك وسوءِ الحال، ويُستعمَل لفظ (ويل) في التَّعجُّب المشوبِ بالزَّجر، فليس الّذين أوتوا العلم داعينَ بالويل على الّذين يريدونَ الحياة الدُّنيا؛ لأنَّ المناسبَ لمقام الموعظة لينُ الخطاب؛ ليكون أعونَ على الاتّعاظ، ولكنَّهم يتعجَّبونَ من تعلُّق نفوس أولئك بزينةِ الحياة الدُّنيا، واغتباطِهم بحال قارون دون اهتمامٍ بثواب اللّه الذي يستطيعونَ تحصيلَه بالإقبال على العمل بالدِّين والعمَل النّافع، وهم يعلمونَ أنَّ قارون غيرُ مُتخلّق بالفضائلِ الدّينيَّة(1). وقد وقعَ ﴿وَيْلَكُمْ﴾ مقولًا للقول؛ فهو مقولٌ جامعٌ للتنفير من هذا التمنّي الشّنيع الدالِّ على الجهل بالحال والمآل.

التَّعجُّبُ من حال الجاهلين، ومبالغةُ زجر الواعظين للظالمين

علَّة الفصل في الآية:

فُصِل قوله تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ عن القول ومقوله السّابق لكونه استئنافًا بيانيًّا. فكانَ بين الجملتينِ شبهُ كمال اتّصال، كأنَّهم لمّا قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ سألوا: لماذا؟ فقالوا بيانًا لسببِ قولِ الويلِ مستأنفينَ: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾، والمعنى: قلنا لكم هذه الكلمةَ الزّاجرة والواعظة والمنبّهة للغافلينَ من قوّتها وتأثيرها في المخاطبينَ؛ لأن قولكم السّابق استبدالُ الذي هو أدنى بالذي هو خير.

استئناف بيانيٌّ لسبب التَّعجُّب والزّجر

نكتة تقديم المسند إليه:

قُدِّم المسند إليه في قوله تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ لأنه الأصلُ، وليتمكَّن الخبرُ في ذهن السّامعين؛ لأنَّ الابتداءَ بما يدلُّ على

الابتداء بما تتشوّف إليه النَّفس، وتمكينُ الخبر من الحِسّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

الثَّواب المضاف إلى أجودِ الكرماء كرمًا هو ممّا تستشرفُ إليه النَّفس وتتشوّق[1].

دلالة الإضافة:

الإضافة إلى العظيم تفيد التَّفخيم والتَّعظيم

أُضيف (الثواب) إلى لفظ الجلالة ليدلَّ بالإضافة إليه على التَّعظيم والتَّفخيم؛ فيكتسبُ المضاف من المضاف إليه التَّعظيم. ثمَّ في الإضافة إلى لفظ الجلالة (العَلَم) على الذّات الإلهيَّة ما يدع القارئَ أو السّامعَ المخاطبَ يتفكّر في صفات اللّه ﷻ المتعلّقة بالعطاء والثَّواب، فيعظُم الثَّوابُ في نفسه، ويكون أعظمَ أثرًا في التَّرغيب فيه. كما تضمّنتِ الإضافة إلى لفظ الجلالة ردًّا على ما اقتضاه قولُ قارون السّابق من امتلاكه المالَ بعلمِه وذكائه، فأسندوا الثوابَ إلى اللّه تعالى ليُعلَم أنَّ كلَّ خيرٍ من اللّه تعالى، ولا يجوزُ إسنادُه إلى العبدِ وطاقاته وقدراته المحدودة، وأنْ لا مقارنةَ بين ما يحصل عليه العبدُ بهمه وإرادتِه وما يتحصَّل عليه بفضل اللّه وعظيمِ كرمه. وأخيرًا أفادتِ الإضافة ردًّا على ما يقتضيه تَمَنّيهُم السّابق من الحصولِ على فتاتٍ من كرم قارون بأنَّ ثوابَ اللّه خيرٌ وعطاءٌ بلا حدود، وكرم بلا منّة ونعمةٌ بلا قيود.

نكتةُ تنكيرِ المسند:

جوازُ دلالة التَّنكير على التَّعظيم والتَّكثير

التَّنكيرُ في ﴿خَيۡرٞ﴾ يدلُّ على التَّكثير، فيشمل جوانبَ كثيرةً من الخيريَّة؛ فيكون ثوابُ اللّه أكثرَ عددًا، وأعظمَ، وأنفعَ، وأبقى، وأعلى. ويجوز أنْ يدلَّ على التَّعظيم أيضًا، فكأنَّما قالوا: (ثواب اللّه أعظم خيرًا)، والنِّكاتُ البلاغيَّة تتزاحمُ ولا تتعارضُ، وبذلك يكون ثواب اللّه جامعًا للتفوّق النوعيِّ والكمّيّ، الذي دلَّ عليه سابقًا قولُه: ﴿أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

نكتةُ حذفِ المفضَّل عليه:

في حذفِ المفضَّل عليه تعظيمٌ للمفضَّل

حُذِف المفضَّل عليه في قوله تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ﴾، وتقديره (ما تتمنَّونه)؛ لاقتضاء المقام إيّاه، أي: ثواب الله خير ممّا تتمنَّونه من مِثل ما أوتي قارون. ويجوزُ أن يقدَّر عامًّا، ويدخلُ فيه ما ذُكِر دخولًا أوليًّا؛ أي: خيرٌ من الدُّنيا وما فيها[1]. وفي حذف المفضَّل عليه تعظيمٌ للمفضَّل، كما في قولنا: (اللهُ أكبرُ)[2].

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لِّمَنۡ﴾:

تخصيصُ ثواب الله وقَصْرُه على مَن عمِلَ صالحًا بعد أنْ آمن بِهِ

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الاختصاص[3]، وهذا هو معناه في قوله تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ﴾؛ أي: إنَّ ثواب الله ﷻ إنَّما هو خاصٌّ بمن آمنَ به وعمِلَ عملًا صالحًا؛ تنبيهًا أنَّ مَن لم يؤمنْ ويعملْ صالحًا فهو محرومٌ من هذا الثَّواب، وليس له شيءٌ منه ألبتَّة.

نكتةُ الإظهار في موضِع الإضمار:

عـمـومُ حـصـولِ الـثَّـواب لمَـن حـقَّـق الـشَّـرطَ واستجاب

عدلَ عن الإضمارِ إلى الإظهار بالموصوليّة في قوله: ﴿لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ﴾ دون: خيرٌ لكم، لما في الإظهار من الإشارة إلى أنَّ ثواب الله إنَّما ينالُه المؤمنونَ الَّذين يعملونَ الصّالحات، وأنَّه على حسب صِحَّة الإيمان ووفرةِ العمل، مع ما في الموصول من الشُّمول والاستيعابِ الّذي تدلُّ عليه الغَيبةُ لَمن كانَ منهم كذلك، ولغيرهم ممَّن لم يحضُرْ ذلك المقام[4].

دلالةُ التَّعبير بالماضي:

رسـوخُ الإيـمان وتـحـقُّـق حصوله، ونفيُ الشَّكِّ النّاقضِ لأُصولِه

يفيدُ التَّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿لِّمَنۡ ءَامَنَ﴾ تحقُّقَ حصولِ الإيمان وتأكُّدَه، ممّا يقوِّي معنى رسوخِ الإيمانِ وثباته، ونفيَ الشَّكِّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 327.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 59.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

النّاقضِ له، وفي الصّلة وما عُطِفَ عليها إشارةٌ إلى علّةِ تخصيصِ الثواب بالمذكورين؛ وهو أنّهم جمعوا بين الإيمانِ والعمل الصّالح.

نكتةُ حذف المتعلّق:

حُذِف متعلّق الفعل في قوله: ﴿لِّمَنۡ ءَامَنَ﴾ للعلْم به، والتَّقدير: (لِمَن آمنَ باللّه تعالى حقَّ الإيمان)، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإيمان الحقَّ إنَّما هو الإيمان بالرَّبِّ ﷻ، وأمّا ما سواه فلا اعتبارَ به، إذ هو كالعدم، فإذا أُطلِق الإيمانُ فهو الإيمانُ باللّه ﷻ.

إذا أُطلِقَ الإيمان فـهـو الإيـمـان بالله العظيم، إذ هـو الـحـقُّ وما سواه باطلٌ كالعديم

نكتةُ عطف العمل الصّالح على الإيمان:

عُطِف العمل الصّالح على الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾؛ وهو دالٌّ على المغايرة بينهما، إذ الإيمان هو التصديق، وللجمع بين ما وقرَ في القلب من تصديقٍ وعُمِل بالجوارح؛ ليتحقّقَ الإيمانُ الكامل الجامعُ بين العلْم والعمل. أوْ أنه من باب عطف الخاصّ على العامّ؛ لأنَّ العَمَل داخلٌ في مُسمَّى الإيمان الكامل، وعطف الخاصّ على العامّ لبيان الاهتمام بالمعطوف كما وقعَ الاهتمامُ بالمعطوف عليه، وإنْ كان التأخيرُ للعمل دالًّا على أنَّ العمل بلا إيمانٍ وتصديقٍ لا نفعَ فيه.

العطفُ يقتضي المغايرة

بلاغة الإيجاز بحذف المفعول به:

حُذِف المفعول به، وهو (عمَلًا) إيجازًا، واكتُفي بصفته ﴿صَٰلِحٗا﴾؛ لأنَّ الصِّفة هي المتعلِّقة بغرض السِّياق، وعليها مدارُ الحصول على ثواب اللّه الذي هو خيرٌ، وهو كون العمل صالحًا؛ فاقتُصِر على الصِّفة إبرازًا لمكانتها، وتوكيدًا لأهمِّيَّتها.

الـصَّـلاح هـو المتعلِّق بغرض الـسِّـيـاق، وفي مـيـدانـه يـكـون الاستباق

دلالةُ التنكير:

جاءت كلمةُ ﴿صَٰلِحٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ للدَّلالة على العموم؛ ليشمل التَّعبيرُ كلَّ عملٍ صالح. ويصحُّ أن يكون التَّنكير لبيان النَّوع أو الصِّنف؛ يعني: نوعًا خاصًّا من الصَّلاح، وهو ما كان خالصًا للّه تعالى، وموافقًا لسنَّة النَّبيِّ ﷺ.

جواز دلالة التَّنكير على العموم غير الـمـعـيَّن، وعـلـى إرادة الـنَّـوع أو الصِّنف المبيَّن

مَن صبرَ ظفرَ

بلاغة التَّذييل في الآية:

في تذييلِ الآيةِ بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ حصولَ الثَّواب من اللّه تعالى يحتاجُ إلى صبرٍ عن شهواتِ الدُّنيا وزينتِها، وصبرٍ على فعلِ الطّاعات ومشقَّتها، وصبرٍ على الإيمانِ والاعتقاد ومتطلّباته بمحاربةِ الشّكوك والأوهام والظّنون، وأنَّ قولَ الجاهلين وتَمَنّيهم مثلَ ما أوتي قارونُ إنَّما سببُه أنَّهم لم يحقِّقوا مقامَ الصَّبر ممّا قد يضيّع عليهم ثوابَ الآخرة؛ لذلك نبَّههم أولو العلم وصرخوا فيهم بقولهم: ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾!

الاحـتراسُ عن الإيمان والعمل المنقطعين

معنى (الواو) في ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾:

يجوز أن تكون (الواو) للعطف، فهي من كلام الّذين أوتوا العلمَ، فهُم قد أمَروا الذين فَتَنَهم حالُ قارون بأنْ يرجوا ثوابَ اللّه المعدَّ لمن آمنَ وعملَ صالحًا، ولا ينالُ الثوابَ والجنّةَ إلا الصّابرون على ما حُرموا من حالِ قارونَ، وعلى الإيمان والعمل الصالح. ويجوز أن تكون (الواو) اعتراضيَّة، والجملةُ معترضةٌ من جانب اللّه تعالى، علَّم بها عبادَه فضيلة الصَّبر، وأكَّد بها كلامَ أولي العلْم الذين يهدونَ عباده إلى سبيله[1]. وسواءٌ كانت الجملةُ من كلام أهلِ العلْم أوْ من كلام اللّه تعالى؛ فإنَّ وظيفة الجملة الاحتراسُ من عدمِ الثبات على الإيمان والعمل الصّالح بالانشغالِ عنهما بالتمنّي والتشهّي لحال الظالمين؛ فإنّه محبطٌ لهما مضيّعٌ للدين، وغفلةٌ عن الحقِّ المبين، فذكر أنَّ ذلك الثواب منحصرٌ بالصّابرين على الإيمان والعمل الصّالح.

سُنَّةُ اللهِ لا تتبدَّلُ بتغيُّر الأزمان

سرُّ إيثار النَّفي بـ(لا):

آثرَ النظمُ الجليل التعبيرَ عن النفي بـ(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ التي تُستعمَل لنفي الفعل مطلقًا دون تقييد

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

هذا النَّفي بزمن، ذلك أنَّ (لم) تنفي الحدثَ في الزَّمان الماضي، و(لن) تنفي الحدثَ فيما يُستَقبَل مِن الزَّمان، أمّا (لا) فهي لمطلَق النَّفي ماضيًا ومستقبَلًا، ممّا يدلُّ على عموم هذا الحُكم، وأنَّ سنَّة اللّه ﷻ لا تتبدَّل ولا تتغيَّر.

دلالة التَّعبير بالمضارع المجهول:

من شأنِ الصّابرين تلقّي الثوابِ والإحسان

عبَّر النظم بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ وهو من حيث الدَّلالة الزَّمنيَّة يفيدُ وقوعَ الحدثِ في الحال أوِ الاستقبال، ويدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار، ففيه تحريضٌ للنّاس على التَّحلِّي بخُلُق الصَّبر حتى يَلَقَوا هذا الثَّواب العظيم، وأنَّ الأمر ليس مجرَّد إخبارٍ عن حال أحدٍ ممَّن مضى، وإنَّما الثَّواب يتجدَّد بتجدُّد العمل، فكلَّما حقَّق أحدٌ معنى الصَّبر فإنَّه ينال الثَّوابَ الموصوفَ في الآية، وفي هذا تهييجٌ للنّاس حالًا لا مآلًا على التَّخلُّق بالصَّبر وحمل النَّفس عليه. وأمّا البناء للمفعول في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ فلِتَعَيُّنِ المسند إليه (الفاعل) لدى المخاطَب على الحقيقة، والعلمِ به، وهو اللّه تعالى، إشارةً لعِظَم العطاء، ورفعةِ الجزاء.

إيثارُ التَّعبير بالقصر نفيًا واستثناءً:

مجابهةُ إنكار المغترّينَ بحقيقة قَصْرِ الثَّواب على الصّابرين

أوثر التَّعبيرُ بالقصر نفيًا واستثناءً في قوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾؛ لأنَّ القصر بالنَّفي والاستثناء يكونُ فيما يُنكِرُهُ المخاطَب[1]. ذلك أنَّ المفتونين بالدُّنيا وزينتها لمّا تمنَّوا مثل ما أوتي قارون وأكَّدوا أنَّه ﴿لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ - مع ما علِموه مِن بغيِه على قومه، وبُخله بماله، ونسبتِه الفضلَ لنفسه، وجحْدِه نعمةَ اللّه تعالى عليه - نُزِّلوا منزلة مَن أنكر أنَّ ثواب اللّه تعالى خير ممّا أوتي قارون، وأنَّ هذا الثَّواب مقصورٌ على المؤمنين الَّذين يعملون الصّالحات، وأنَّ هذه الفضيلة جائزةٌ عظيمة ينالها الصّابرون المحتسبون، فلأجل

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.

هذا جيءَ بالقصر على طريقة النَّفي والاستثناء؛ للرَّدِّ على إنكار المفتونين بالدُّنيا لهذه الحقيقة، كما دلَّ عليه تمنِّيهم دونَ تروِّيهم. واقتضى المقام نفيَ حصول الثَّواب عن صنفٍ وإثباتَه لصنفٍ آخر.

الضّمير كاشفٌ للمفهوم وهو الفضيلة، أوِ الخصلة الجميلة

بيانُ مرجع الضَّمير في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾:

الضَّميرُ البارز المتَّصِلُ في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ عائدٌ إلى مفهوم من الكلام يجري على التَّأنيث؛ أي: الخصلة أوِ الفضيلة، وهي ثوابُ اللّه أو السِّيرة القويمة، وهي سيرةُ الإيمان والعمل الصّالح[1]، أوْ للكلمة التي قالَها العلماءُ، أوْ للإنابة؛ لأنَّها في معنى الثواب، أوْ للأعمال الصّالحة[2]. ويمكنُ أنْ يكون تفسيرًا لثواب اللّه بعد استعارته للجنة، فيكون عائدًا إليه باعتبارِ المستعارِ له وهو الجنة.

الصَّبر خيرُ وسيلةٍ لنوال الأمور الجليلة

بلاغةُ استعارة التَّلقّي:

التَّلقّي: هو جعلُ الشَّيء لاقيًا؛ أي: مُجتمعًا مع شيءٍ آخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ [الفرقان: 75]، وهو مستَعمَلٌ هنا في (الإعطاء) على طريقة الاستعارة التصريحيّة التبعيَّة. أي: لا يعطى تلك الخصلةَ أو السِّيرة القويمةَ أو الجنةَ إلّا الصّابرون؛ لأنَّ الصَّبر وسيلةٌ لنوال الأمور العظيمة، لاحتياجِ السَّعي لها إلى تجلُّد؛ لما يعرِضُ في خلاله من مصاعبَ وعقبات، فإنْ لم يكن المرء متخلِّقًا بالصَّبر خارت عزيمتُهُ فترك ذاك لذاك[3].

لا عبادةَ تعادلُ الصبر

معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾:

آثر النظم الجليل استعمال (أل) الموصولة مع الوصف في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ لإفادة العموم؛ وللإشارة إلى علة الحكم لما في الصلة من معنى الصبر الذي كان علةً لنيل ذلك الجزاء العظيم. وفي الموصول وصِلَته تعريضٌ بالمفتونين بالدُّنيا المريدين لزينتها بأيّةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 185.
(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1026.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 185.

وسيلةٍ كانت، غيرَ مبالين بحِلٍّ ولا حُرمة، فلم يَصبروا على حلالٍ قليل، ولم يَصبروا عن تمنِّي حرامٍ وبيل.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخروج والبروز:

الخروجُ نفاذٌ من شيء، والبروز لا بُدَّ فيه من ظهور قويٍّ وانكشاف

أصلُ البروز ظهورُ الشَّيء ظهورًا قويًّا وبُدوُّه وانكشافُه[1]. وأصلُ الخروج يدلُّ على النَّفاذ عن الشَّيء أو الحيِّز[2]. فيكون الخروج أعمَّ من البروز، ولذا قد يخرجُ الشَّيء ولا يكون بارزًا، بخلافِ البروزِ المستلزِم للخروج.

الزينة والزخرف:

الزِّينةُ أصلُ حُسْنِ الشَّيء، والزُّخرُف كمالُ حُسنِه

أصلُ الزّينة يدلُّ على حُسن الشَّيء وتحسينِه، وهو خلافُ الشَّين[3]، والزّينةُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّن به[4]. والملحوظُ في معنى الزّينة مطلقُ الحُسنِ سواءٌ في الشّيء، أَوْ مطلقُ التحسينِ، أَوْ مطلقُ ما يُستحسَنُ. بخلاف (الزُّخرف)، فهو شيءٌ مُستَطْرَفٌ من دقاقٍ كثيرةٍ تعلو ظاهرَ الشَّيء نافذةً منه، تُستَمْلَح لدقَّتها وانتظامِها[5]. وهو الزّينةُ المُزَوَّقة[6]. فهو أخصُّ من حيث إنَّه كمالُ حُسنِ الشَّيء[7]، فهو زينةٌ وزيادةٌ من حيث الكمّ، فيكون كمالَ حُسنِ الشَّيء، ومن حيث الكيف، فيكون زينةً مزوَّقةً.

العظَم والكِبَر:

الكِبَر زيادة في الكمِّ، والعِظَم زيادة في الكمِّ والكيف

أصلُ الكبَر نموُّ حجم الشَّيء أَوْ زيادتُه بالنِّسبة لحجمِه أَوْ لحجم غيره[8]، فيكون من الأسماء المُتضايفَة، التي تقال عند اعتبار بعضها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ وجبل، المعجم الاشتقاقي: (برز).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فرج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (زين).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (زين).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زخرف).
(6) الراغب، المفردات: (زخرف).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (زخرف).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كبر).

ببعض؛ إمّا بحسب نفسه في حالٍ سابق، يكون هو الآن كبيرًا بالنِّسبة لحاله السّابق. أوْ بحسب غيره فيكون صغيرًا في جنب شيء، ويكون كبيرًا في جنبِ شيءٍ غيره[1]. ويُستعمل في الكَمّيَّة المتَّصلة - التي بينَ أجزائها حدٌّ مشتركٌ - كما في الأجسام، وقد يتعاقبُ مع الكثير، فيُستَعْمَل في الكمّيَّة المنفصلةِ - التي لا يكونُ بين أجزائها حدٌّ مشتركٌ - أيضًا بنظرينِ مختلفينِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ [البقرة: 219][2]. ثمَّ استُعمل في معنى زيادة الرِّفعة والمنزلة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ [الأنعام: 19][3]. وأصلُ العِظَم يدلُّ على كبَر وقوَّة[4]، وغلظِ جسامةٍ أوْ صلابةٍ في الشَّيء[5]. وعظُم الشَّيء أصلُه: كَبُر عَظْمُه، من الكبَر والزيادة في الأجزاء المحسوسة، ثمَّ استعيرَ لكلِّ كبير، فأجري مجراه محسوسًا كانَ أوْ معقولًا، عينًا كان أوْ معنى[6]. والعظيم إذا استُعمل في الأعيان فأصلُه أن يقالَ في الأجزاء المتَّصلة، والكثيرُ يقال في المنفصلة، ثمَّ قد يقالُ في المنفصل عظيمٌ، نحو: جيش عظيمٌ، ومالٌ عظيم، وذلك في معنى الكثير[7]. واستُعمل في الضخامة المعنويّة كما في عظم الشَّأن والأمر[8].

والملاحظُ في الكبر معنى زيادةِ الحجم بنموٍّ، وهي زيادةٌ في الكمّ متَّصلًا كان أوْ منفصلًا من غير اعتبارٍ لكيفيّة هذه الزّيادة، وبغضّ النَّظر عن كون هذه الزِّيادة مع صلابةٍ وغلظِ جسامةٍ وقوَّةٍ أم لا. أمّا العِظَم فمع كونه زيادةً في الحجم، التي هي زيادةٌ في الكمّ متَّصلا كان أوْ منفصلًا، إلا أنَّه يلاحظ في هذه الزِّيادة كونها على كيفيّة معيّنة، وهي ما فيه قوَّة وصلابةٌ وغِلظُ جسامة.

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كبر).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كبر).
(3) الراغب، المفردات: (كبر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عظم).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عظم).
(7) الراغب، المفردات: (عظم).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عظم).

﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١﴾ [القصص: 81]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تجرّأ الهالكُ على العظيم؛ فكان جزاؤه في الدُّنيا المصرعَ الوخيم، وفي الآخرة العذابَ الأليم

لمّا ذكر تعالى اختيالَ قارونَ في زينته، وفخرَه على قومه وبغيَه؛ أعقبَ ذلك بذكر نهايته؛ حيث خسفَ به وبداره الأرض؛ فما أغنى عنه مالُه ولا أغنتْ عنه حاشيتُه، ولا دفعوا عنه نقمةَ اللّه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصرًا لها؛ فأصبح لا ناصرَ له من نفسه ولا من غيره[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَخَسَفۡنَا﴾: أصل (خسف) يدلُّ على غموض وغُؤور. والخَسْفُ: النُّقصانُ[2]. والخُسوف للقمر، والكسوفُ للشَّمس: إذا ذهبَ ضوؤُهما[3]. والخسوفُ: إذا ذهبَ كلُّه[4]. والخَسْفُ: سُؤوخ الأرضِ بما عليها[5]. ويقال: خَسَفه اللّه يخسِفه خَسْفًا، وخسفَ اللّه به الأرضَ، وخَسَفَ هو؛ أي: ذهبَ في الأرض، وغابَ فيها. قال اللّه تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾[6]. والمقصودُ به في الآية جعلُه ودارَه غائبَيْنِ في طبقاتِ الأرض.

2) ﴿فِئَةٖ﴾: أصلُ (فيأ) يدلُّ على الرُّجوع وتردُّدِ الشَّيء الممتدِّ[7]. فاءَ يفيءُ فيئًا: رجعَ، وأفاءَه غيرُه: رَجَعَه[8]. والفيءُ والفَيْئَةُ: الرُّجوعُ إلى حالة محمودة. قال اللّه تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 256.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خسف).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خسف).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خسف).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (خسف).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (خسف).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فيأ).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فيأ).

﴿ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ﴾ [الحجرات: 9]؛ أي: ترجع إلى الطّاعة[1]. والفئة: الطّائفةُ والجماعةُ المتظاهرةُ التي يرجع بعضُهم إلى بعض في التَّعاضُد. ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نهايةُ العصاةِ المـترفـين فيها كبيرُ عظةٍ وعبرةٍ لكلِّ المغرورين

في هذه الآية الكريمة بيانٌ لعاقبة هذا الطّاغية المغْرورِ قارون وأمثاله؛ حيث يقولُ سبحانه: فزلزلنا وغيَّبنا بقارونَ وبمنزله وكنوزِه وأمواله المفتخِرِ بها الأرضَ، فابتلعتْه جزاءً له على عُتوِّه وبَطَرِه، ثُمَّ لم يكن لهذا المغرورِ مِنْ جماعةٍ يمنعونَه مِنَ اللّه فيدفعونَ عنه العذاب، وما كان من المتنعينَ بأنفسهم مِمّا نزل به مِنَ العقاب[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَخَسَفۡنَا﴾:

فـاءُ التَّعقيب لبيان تعجيلِ العقاب بعد الإنذار، وحصول الاتِّعاظ والاعتبار

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ﴾ هي العاطفةُ الدّالَّة على تعقيبِ عذابِ الخسفِ لساعةِ خروجِ قارون على قومه في ازدهائِه، وما جرى فيها من تمنِّي جهلةِ القوم أن يكونوا مثلَه، وما أنكر عليهم علماؤُهم من غفلتهم عن التَّنافُس في ثواب الآخرة، بتعجيل عقابه في الدُّنيا بمرأى من الّذين تمنَّوا أن يكونوا مثله[4]. ويجوز أن تكون هي (الفاء الفصيحة)، حيث تعطف جملتَها على جملةٍ محذوفة يدلُّ عليها السِّياق؛ أي: إنْ شِئتَ أنْ تعلم مصيره، وما آلَ إليه أمره، فقد خسفْنا به وبداره الأرض[5]. وأيًّا ما كان فالتَّعبير بـ(الفاء) الدّالَّة على سرعة عقابِ قارونَ فيه ترهيبٌ وتخويفٌ لكلِّ مَن تمنَّى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فيأ).
(2) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فيأ).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 223 - 225، والهرري، الحدائق: 21/ 296 - 300.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 185.
(5) محيي الدين درويش، إعراب القرآن: 7/ 377.

أن يكونَ مثلَه في معصية، وزجرٌ لكلِّ مَن مُلِّك مالًا ولم يؤدِّ حقَّ اللّه فيه شكرًا وإنفاقًا.

دلالة التَّعبير بالماضي:

تحقُّق وقوع الخسف، ترهيبٌ لِمَن تمنَّى مشاركةَ قارون في الوصف

التَّعبيرُ بالماضي في قوله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ﴾ يدلُّ على تحقُّق وقوع الفعل، وهو مناسبٌ لحكاية ما مضى من أحداثٍ. وهذه الدَّلالة مناسبةٌ لمعنى التَّعقيب بالفاء، فكأنَّ الخسفَ حصل حصولًا محقَّقًا وسريعًا أمامَ الفريق الذين اغترّوا بزينته، وتمنَّوا مكانه، فحصل الاعتبارُ، وعلموا حقيقة الدُّنيا من سرعة زوالها.

دلالةُ الطّباق في الآية:

العقابُ من جنسِ العمَل

عبَّر النظمُ الكريم عن عقابِ قارونَ بقوله: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾، والخسفُ عبارةٌ عن تغييبٍ وطمسٍ وإدخالٍ في طبقات الأرض، حتى إنَّه لا يتحقق له وجودٌ على سطح الأرض، ولا تكون له جثّةٌ عليها، بل تصبحُ الأرض قبرًا له ولداره وما فيه من خزائنَ وأموالٍ ونفائس. وهذا العذابُ يكون بالإدخالِ في طبقات الأرض، وبينه وبينَ قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ طباقٌ خفيٌّ؛ إذ الخروج مضادٌّ للدخول؛ والغرضُ من الطباق الإشارةُ إلى أنَّ العقوبة من جنس العمل؛ فإن كان قد خرجَ على قومه من داره وبرزَ إليهم بزينته مختالًا؛ فإن عذابه قد كان بالإدخالِ في الأرض وليس في داره؛ فجعلَ الأرض قرارًا له ولممتلكاته.

نكتة الإسناد لنونِ العظَمة:

أخذُ العظيم عظيم، وعقابُه شديدٌ أليم

أُسنِد فعل الخسف لـ(نون العظَمة) في قوله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ﴾ لإفادة تعظيم الفعلِ بتعظيم فاعله، فقوله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بما لنا مِن العظمة[1]، وفيه إشارةٌ إلى شدَّة الخسف وقوَّة الأخذ، إذ وقعَ من عظيم، ولا يقعُ من العظيمِ إلا العظيم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 358.

معنى (الباء) في: ﴿بِهِۦ﴾، و﴿وَبِدَارِهِ﴾:

عدمُ فائدة مالٍ لا يُنجي صاحبَه

الأصلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على (الإلصاق)، حقيقيًّا كان هذا الإلصاق أم مجازيًّا[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ بهذا المعنى، فكأنَّ الخسفَ كان كالرِّداء الملاصقِ لقارونَ المحيطِ به من كل جانبٍ، تنبيهًا إلى عدم إمكانِ الفِكاك منه. وفيه كذلك معنى (المصاحبة)؛ أي: خسفنا الأرضَ مصاحبةً له ولدارِه، فهو ودارُه مخسوفانِ مع الأرض التي هو فيها[2]. فماذا ينفعُ مالٌ لم يدفعْ عن صاحبه العذابَ؟! وهنالك ملمحٌ آخرُ وهو أنّ قارون وداره قد ضاعا في غياهبِ الأرض المخسوفة؛ لأنَّ مَن هبطت به الأرض وببيته دخلَ إلى نفقٍ عظيم ووادٍ كبير وقبرٍ ضخم.

دلالةُ العطفِ بين المخسوفَيْنِ:

لهوانِ المالِ الّذي اعتدَّ به قارون وجمَعَهُ، جعله الله مخسوفًا به مَعَهُ

عُطِفَ على الجارّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ بالجار والمجرور ﴿وَبِدَارِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ للدَّلالة على الجمعِ والمصاحبةِ، فقارونُ ودارُه مخسوفانِ مع الأرض الَّتي هو فيها[3]، لئلّا يقول قائل: إنَّ الخسفَ به كان للرَّغبة في أخذ أمواله[4]. وفي ذلك بيانٌ لعدمِ نفع المال والدّار، وأنَّها لا تُغني عن صاحبِها شيئًا، وأنَّ صحبَتَها لا تكون دائمًا نعيمًا، بل تكونُ من العذاب، فالمصاحبةُ هنا زيادةٌ في العذاب، كما أنَّ اختياله على قومه كان بنفسه وبالدار التي زيَّنَها بكلّ نفيس وخرج منها مَزْهوًّا مختالًا وظنَّ أنها ملكٌ دائم، فزالتَ معه وغابتْ عن أعيُن الناظرين؛ لأنها لا تساوي شيئًا أمامَ فضل الله تعالى وثوابِه الدّائمِ المقيم.

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 185.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 185.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 358.

معنى تعريف ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

الــــدّلالـــة عـــلى الــعــهــد الــحــضــوريّ، والــعــقــاب الفوريّ

(أل) من ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ هي التي للعهدِ الحضوريّ؛ أي: موضعُ وقوفِ قارونَ وبناءِ داره، وفيه تقويةٌ لمعنى التَّحقُّق والتَّعقيب وسرعةِ الأخذ بالعقاب، فلم ينتقلْ من مكان المعصية إلى مكانِ العقاب. وفيه إشارةٌ إلى مصاحبة محلِّ المعصية له، حيث يكون شاهدًا عليه مع الدّار والمال والزّينة. وفيه - إضافةً إلى ما سبق - تعريضٌ بمشركي قريش؛ إذ إنَّه كان قريبًا منه جدًا، فإيّاكم يا أمَّة هذا النَّبي أن تردّوا ما آتاكم مِن الرَّحمة برسالته، فتهلكوا وإن كنتم أقربَ النّاس إليه، فإنَّ الأنبياء كما أنَّهم لا يوجِدون الهدى في قلوب العدا، فكذلك لا يمنعونهم من الرَّدَى، ولا يشفعون لهم أبدًا، إذا تحقَّقوا أنَّهم من أهل الشَّقا[1].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَا كَانَ﴾:

الفاء فصيحةٌ عن محذوفٍ مقدَّر، دلَّ عليه جوابُه المُحبَّر

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ﴾ هي الفاءُ الفصيحة، جيءَ بها للعطفِ والتَّفريع على محذوفٍ دلَّ على مفهومه الإجماليّ مساقُ الكلام[2]. فكأنَّ سائلًا قال: ماذا تسبَّب عن كُفره نعمةَ ربِّه، وإنكارِه نصحَ النّاصحين له من قومه لمّا جاءَه العقابُ بالخسف؟ فيأتي الجواب: إذا أردتَ أن تعرفَ ذلك ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ﴾.

دلالةُ التَّعبير بفعلِ الكون ماضيًا:

نفيُ أصالة النَّصر وجعلُه كالجبلَّة راسخًا، لا عارضًا ناسخًا

دلَّ التَّعبير بفعل الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ﴾ على نفيِ أصالةِ نصرِ فئتِه له، فعجزُ فئته عن نصره ليس أمرًا عارضًا في ساعة العقاب فقط، بل هو ثابتٌ فيهم كالجبلَّة لهم، ونفيُ الوجود أبلغُ من نفي النُّصرة.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 359.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 61.

دلالةُ شبهِ الجملة وتقدُّمِها:

المنفيُّ اختصاصُ قارونَ بالفئة النّاصرة له أوِ استحقاقُه إيّاها

عبّر النظم الجليل بشبهِ الجملة في قوله تعالى: ﴿كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ المتكوّنةِ من (اللام والهاء) العائدة إلى قارونَ، والأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص، إمّا بالملكيَّة أوْ بغيرها[1]؛ ودلالته في الآية أنَّ المنفيَّ هو اختصاصُ قارونَ بالفئة النّاصرة له، أوْ استحقاقه إيّاهم لا وجودهم، وشبهُ الجملة المقدّم خبرُ كان المتقدم على اسمها ﴿مِن فِئَةٍ﴾، وهو دالٌّ على الاختصاص والانحصار، بيانًا لعزلتِه التامَّة عن أنصاره وأعوانه وجمعِه الكثير وقوّتِه الشَّديدة، فالكلُّ صار عاجزًا عن نُصرته وصارَ وحيدًا في مواجهةِ عقابِ الخَسف.

معنى الجارّ والمجرور: ﴿مِن فِئَةٍ﴾:

تأكيد انعدام مَن ينصرُ قارون؛ لما استقرَّ في الأذهان أنَّ الأكابرَ منصورون

عبَّر النظم الجليل عن اسمِ كانَ بمجرورٍ لفظًا مرفوعٍ محلًا لحرفِ جرٍّ زائدٍ للتوكيد في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾، وقد جيء بـ﴿مِن﴾ في هذا الموضع لاستغراقِ الجنس توكيدًا، فلو قيل: (فما كان له فئة) فإنَّه يحتمل أنَّه لم يكن له أحدٌ من جنس الفئات، ويحتمل أنَّه لم تكن له فئةٌ واحدة، بل أكثر من ذلك، فلمّا قال اللّٰه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ﴾ فقد نفى أن يكون لقارونَ أحدٌ من جنس الفئات ألبتَّة، وصار النَّفي نصًّا في الجنس[2]. ومعنى ابتداء الغايةِ ملازمٌ لـ﴿مِن﴾ أيضًا، فإنَّ قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾، إنَّما جعل الفئةَ ابتداءَ غايةِ نفيِ الكون إلى آخر الفئات، و﴿مِن﴾ هاهنا دخلها معنى استغراق الجنس[3]. وإنَّما أُكِّد النَّفي هنا بزيادة الجارّ؛ لما استقرَّ في الأذهان أنَّ الأكابر مَنصورون[4].

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 81.
(3) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 462.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 359.

نكتةُ التنكير في: ﴿فِئَةٖ﴾:

التَّنكيرُ بعدَ النفي دالٌّ على العموم

أوثر تنكيرُ لفظة ﴿فِئَةٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن فِئَةٖ﴾ بعد النفي لإرادة العموم، فلم تنصُره فئتُه ولا فئةٌ غيرها، ولم يجد ناصرًا ألبتَّة، وفي هذا الإطلاق تعميمٌ لما دلَّ عليه زيادة ﴿مِن﴾ لنفي جنس النّاصرين، وفائدة النفي العام المؤكد إزالةُ ريبِ مَن يتوهّمُ وجودَ ناصرٍ له من المخاطبينَ.

دلالةُ التوصيفِ بالجملةِ المضارعيَّة:

استمرارُ نفي وجودِ النّاصرين مصيرُ المتكبّرينَ الخاسرين

التَّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ﴾ يدلُّ على استمرار نفي وجود الفئة النّاصرة، في أثناءِ غُؤوره في الأرض، وبعدَ ذلك، ولا بقول، ولا بفعل أو حتَّى محاولةٍ، فلقد أذهلَهم ما رأوا من خسف وإدخال في الأرض. وجملة ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ جملةٌ فعليَّةٌ في محلِّ جرِّ صفة لـ﴿فِئَةٖ﴾ - على اللَّفظ - أفادتها التَّخصيص. وفي محلِّ رفع - على المحلِّ - لأنَّ ﴿مِن﴾ مزيدةٌ فيها. ووظيفةُ الوصف تخصيصُ المنفيِّ بالنُّصرة، أمّا أنَّ له فئةً تتعجّبُ من مصيره، وأخرى تندمُ على تمنّيها حالَه فهو أمرٌ ثابتٌ له، لكنه لا يحتاج في ذلك الموقفِ إلا إلى النصير، ولا يوجدُ مَن ينصرُه ويُغيثه ويُعينه.

معنى ﴿مِن﴾ الجارّة:

عمومُ نفي الولي النّاصر، من عقاب الله القاهر

عبّر النظم الجليل بـ﴿مِن﴾ الجارّة في قوله تعالى: ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الموضوع في الأصل للدَّلالة على ابتداء الغاية[1]. ومعناه هنا جعلُ مَن دونَ الله ابتداءً لنفي النّاصر إلى آخر ذلك، ولمّا كان الله تعالى هو العليَّ الأعلى، وكان كلُّ شيء دونه سبحانه؛ كان المعنى عمومَ نفيِ النّاصر له.

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

دلالة التَّقييد بالمركّب الإضافي:

اللـه العليُّ الأعلى هو المتَّصف بصفات الكمال، المستحقُّ لنعوت الجلال

آثرَ النظمُ الجليل التعبيرَ بالمركّب الإضافيِّ في قوله: ﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾ للدلالة على أنَّ الله سبحانه هو النّاصرُ وحدَه؛ إذ كلُّ مَن يتوقَّعُ نصرتُه فهو دونَ الله وعاجزٌ عن حماية نفسِه ونصرةِ ذاته، ففي هذا التعبير استدلالٌ على انتفاءِ ناصرٍ غير الله؛ إذ كلُّ ما عداه دونه، فلا ناصر إلا الله تعالى.

نكتةُ الوصل في الآية:

الجمعُ بين نفي الانتصار بالذّات، ونفي الاستنصار بالفئات

أوثر وصلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ على سابقتها للتناسب بينهما خبرًا؛ ولأنَّ المرادَ بيانُ أنَّه لم يكن الأمرُ على ما قدَّره قارونُ مِن امتناعه بحاشيتِه وجندِه، فإنَّ ذلك هو الَّذي غرَّه حتَّى تمرَّد في طُغيانه، فلذلك أخبر أنَّه كما لم يكُنْ له مَن يَنصُره، لم يكن هو أيضًا ممَّن ينتصرُ بنفسه؛ لضعفه عن ذلك[1]. وبذلك انتفى الانتصارُ بالغير كما انتفى الانتصارُ بالنفس، وذلك تمامُ الخسرانِ والضياع، وإنَّما قدَّم نفيَ الانتصارِ بالغير على الانتصارِ الذاتيّ؛ لأنَّ أصلَ النُّصرة عند التعرُّض للمصيبة أنْ تصدُر من غير النَّفس، فإنْ لم يكن هنالك أنصارٌ فربّما يتوهَّمُ أنّه لا حاجة له إلى الأنصار فيكتفي بنفسه، ومن ثمَّ سلبَ الانتصارَ الذاتي أيضًا.

دلالة نفي الكون:

سلبُ الوجود أبلغُ من سلبِ الانتصار

عبَّر النظم الكريم عن نفيِ الانتصار الذاتيِّ بنفي فعلِ الكون؛ ليكون أبلغَ في نفي الانتصار؛ لأنَّ مَن لم يوجد له انتصارٌ فإنه لا ينتصر البتة، وفي ذلك دلالةٌ على نفي تمكُّنه واستطاعتِه الانتصار.

معنى ﴿مِنَ﴾ الجارّة:

تدورُ معاني ﴿مِنَ﴾ حول الدَّلالة على ابتداء الغاية، مهما تصرَّفت

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 61.

دلالاته فإنَّها تُردُّ إلى هذا الأصل[1]. وكونُ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ مبعِّضةً - أي: بعضهم - فهو راجعٌ إلى معنى ابتداء الغاية؛ أي: لم يكن قارونُ ضمنَ قافلةِ المنتصرين ابتداءً من أوَّلهم إلى أهلِ زمانه.

توكيدُ انتفاء النَّصر عن صاحب البغي والغواية

معنى (أل) في الوصف:

(أل) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ اسمٌ موصول دالٌّ على العموم مرتبط بصلته الوصفيَّة، أي: لم يكن قارونُ من الذين ينتصرونَ ويغلبونَ ويفوزون، وفيه معنى الحسرةِ بذكر انتصار المنتصرينَ، ونفيُ كون قارونَ منهم، ففيه زيادةُ معنى الحرمانِ مع الخِذلان. وفيه أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فكما حرمَ قومُه صِلَتَه، حُرِم هو النّاصرَ والوليَّ. وفيه أيضًا أنَّه عوقب بخلاف قصده؛ فكما قصد بخروجِه في زينته التَّحصُّنَ بالمال، كان عقابُه الافتقارَ والحِرمان.

توكيدُ نفي النَّصر بالكلِّيَّة

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفئة والجماعة:

الفرقُ بينهما أنَّ (الفئَة) هي الجماعة المتفرِّقة من غيرها، وهي مأخوذة مِن: فَأَوْتُ رأسَه، أي: فَلَقتُه[2]. والفئةُ في الحرب هي الطائفة التي تقيمُ وراءَ الجيش، فإن كان عليهم خوفٌ أوْ هزيمةٌ التجؤوا إليهم[3]، ثم قيل لجمعِ كلّ مَن كان رِدءًا لغيره وينصرُه: فئةٌ. والفئة: الأعوان[4]. وأمّا (الجماعة) فهي مأخوذةٌ من تضامِّ الشيء[5] سواءٌ كان بينهم عونٌ أم لا، ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الفئَةَ أَخصُّ من الجماعة.

الفئةُ أخَصُّ من الجماعة

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.
(2) العسكري، الفروق العسكرية، ص: 279.
(3) العسكري، الفروق العسكرية، ص: 279، وابن منظور، اللسان: (فأي).
(4) العسكري، الفروق العسكرية، ص: 279.
(5) ابن فارس، المقاييس: (جمع).

﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾ [القصص: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العاقلُ من اتَّعظ بغيره، والشقيُّ من اتَّعظ بنفسِه

لمّا أخبرَ سبحانه أنَّ فريقًا من قوم قارونَ افتتنوا ببريقِ زينته، وتمنَّوا أنْ يكونوا مثلَه؛ أخبر سبحانه أنَّهم تراجعوا عن قولهم حينَ عاينوا ما نزلَ به من الخسف، وصار ذلك زاجرًا لهم عن حبِّ الدُّنيا، ومخالفةِ موسى عليه السلام، وداعيًا إلى الرِّضا بقضاء الله تعالى وقسمتِه، وإلى إظهار الطّاعةِ والانقيادِ لأنبياءِ الله ورُسُلِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمَنَّوۡاْ﴾: أصل (مني) يدلُّ على تقديرِ شيءٍ، ونفاذِ القضاء فيه[2]. والمَنَى: القَدَر، منى لك الله ما يسرُّك؛ والمَنيَّة: الموت؛ لأنَّها مقدَّرة، والجمعُ: منايا، والمُنّية: واحدةُ المُنَى، وهي ما يتمنَّى الرَّجل. والأمنيَّة: واحدة الأمانيِّ[3]. والتَّمنّي: تشهّي حصولِ الأمر المرغوبِ فيه، وحديثُ النَّفس بما يكون وما لا يكون، وهو من تقدير الشَّيء في النَّفس، وتصويره فيها، وذلك يكونُ عن تخمينٍ وظنٍّ، ويكون عن رويّةٍ وبناءٍ على أصل، ولكن لمّا كان أكثرُه عن تخمينٍ صار الكذب له أملكَ، والأمنيَّة: الصّورة الحاصلة في النَّفس من تمنّي الشَّيء. والمرادُ بالتمنّي في الآية: تشهّي حصولِ حالِ قارونَ لهم، ونيلِ مكانته وقيمتِه الاجتماعيّة.

2) ﴿مَكَانَهُۥ﴾: أصلُ (مكن) يدلُّ على رسوخِ الشَّيء مجتمعًا[4].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 18، والمراغي، تفسير القرآن العظيم: 20/ 101.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مني).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (مني).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مكن).

والمكان: الموضعُ الحاوي للشَّيء[1]. والمكانُ في أصل تقدير الفعل (مَفْعَل) من الكون؛ لأنَّه موضوعٌ لكينونة الشَّيء فيه، غير أنَّه لكثرته في الكلام أُجري مُجرى (فَعال)[2]، والمكانُ: الموضعُ، والجمع: أمكِنَة، وأماكن. وقوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾؛ أي: منزلتَه من الدُّنيا[3].

3) ﴿وَيۡكَأَنَّ﴾: (وَيْ) كلمة تُذكَرُ للتَّحسُّر والتَّندُّم والتَّعجُّب، ويُكَنَّى بها عن الويل، وقد تدخل (وَيْ) على (كأنْ) المخففَّة والمشدَّدة، تقول: ويْ كأنْ، وويكأنَّ[4]، وهي مفصولة، تقول: وي، ثم تبتدئُ فتقول: كأن[5]. قال تعالى: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، فكأنه قال: وي، ثم استأنف (كأنَّ اللّٰه يبسط الرزق لمن يشاء)، وهو تعجُّب، وكأنْ تفيدُ معنى الظنِّ[6]، ثمَّ لمّا كثر بها الكلام، وُصِلت بما ليست منه[7]. ومعناها في الآية: ما أشبه الأمر أنَّ اللّٰه يبسط الرِّزق[8]. ثمَّ تندَّموا وقالوا: كأنَّه لا يفلح الكافرون[9].

4) ﴿مَّنَّ﴾: أصل (منن) يدلُّ على اصطناع الخير[10]. والمِنَّة: النِّعمة الثَّقيلة، يقال: مَنَّ عليه مَنًّا، إذا أنعمَ، وكذا منَّ عليه مِنَّة: امتنَّ عليه[11]. والمَنُّ: ما يَمُنُّ اللّٰه به ممّا لا تعبَ فيه ولا نصبَ[12]. والمَنُّ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]: أن تمُنَّ بما أعطيتَ وتعتدَّ به بذكر الصدقة والاستكثار عليه، كأنَّك إنَّما تقصد به الاعتداد[13]. ومن أسماء اللّٰه تعالى: المنّان، ومعناه: المعطي ابتداءً، وللّٰه المِنَّةُ على عباده، ولا مِنَّةَ لأحدٍ منهم عليه[14].

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزبيدي، تاج العروس: (مكن).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (مكن).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 186، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 186.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (وي).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (وي).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (وي).
(8) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 186.
(9) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 660.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (منن).
(11) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (منن).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (منن).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (منن).
(14) الأزهري، تهذيب اللغة: (منن).

5) ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾: أصل (فلح) يدلُّ على الفوز والبقاء[1]. والفَلَح: الشَّقُّ، ومنه فلحتُ الأرض؛ أي: شققتها للحرث. وقيل: الحديدُ بالحديد يُفلَح؛ أي: يُشَقُّ. والفَلاح: الظَّفَر وإدراك البُغية، والفوز والنَّجاة، والبقاء في النَّعيم والخير، وهو ضربان: دنيويّ وأخرويّ[2]. وقولهم في الأذان: (حيَّ على الفلاح)؛ أي: أقبِلْ على النَّجاة والظَّفَر، وأسرِع وعجِّل إلى الفوز والبقاء الدّائم الذي جعله اللّه لنا بالصَّلاة[3]. وقيل لأهل الجنَّة: مفلحون؛ لأنَّهم يفوزونَ بالبقاء الأبديِّ فيها[4]. وأفلح الرَّجل: ظفرَ وفاز بما يُغتَبَط به، وفيه صلاحُ الحال. ويقال لكلِّ من أصاب خيرا: مُفلِح[5]. وقوله تعالى: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: لا يظفر الكافرونَ بمرادِهم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

صرفُ اللهِ عن المرءِ ما يتمنّاه، غالبًا ما تكون فيه السَّلامةُ والنَّجاة

يحكي لنا المولى جلَّتْ قدرتُه في هذه الآيةِ الكريمة عن تغيُّر حالِ هؤلاء الَّذين تمنَّوا أن يكونَ لهم مثلُ قارونَ من الفضل والنِّعمة، بعدما شاهدوا ما حلَّ به من العذابِ والنِّقمة، فيقول: وصار أولئك الَّذين تمنَّوا مكانَ قارونَ وموضِعَه من الدُّنيا بالوقت القريبِ؛ يقولونَ - بعدما عاينوا ما نزلَ به من العقاب - على سبيل التَّندُّم والاعتبار: ألم تر أنَّ اللّه يوسِّع الرِّزقَ لمن يشاءُ من خلقه، ويضيِّقُه على مَنْ يشاء؛ لحكمة يعلمُها سبحانه، لا لفضلِ كرامةٍ تقتضي الوسعَ، ولا لهوانٍ يوجبُ الضّيق، وإنَّما لهذه الحكمةِ البالغة والحجَّة الواضحة، ولولا أن تَفَضَّلَ اللّه علينا بمقتضى هذه الحكمة فصرف

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فلح).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (فلح).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (فلح).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فلح).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 363.

عنّا ما كنّا نتمنّاه من الفضل والمال لخَسَفَ بنا الأرضَ كما خَسَفَ بقارون، ألم تعلمْ أنَّه لا يفوزُ الكافرونَ بالسَّعادةِ الدّائمةِ لا في الدُّنيا ولا في الآخرة؟[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ الوصل في الآية:

بيــانُ حــالِ مَـن حـلَّ عليه العقاب، ومَنِ اعتبرَ به فتابَ لربِّه وأناب

عطف النظم الجليل الجملة الفعلية في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ﴾ على الجملة الفعلية ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾[2]، للجمع بين حصولِ العقاب لقارونَ الكافرِ بنعمة ربِّه، الجاحدِ لفضله، المانع حقَّ اللّه فيما آتاه، وحصولِ الاعتبار للّذين تمنَّوا مكانَه بالأمس لمّا رأوا ما صنعَ اللّه به. والغرض من الجمع بيانُ انقلابِ موقفِ الجاهلين من حالةِ التمنّي والإعجاب إلى حالة التبرّي والشُّعور بالمِنَّة الإلهيّة عليهم فلم يُخسَفْ بهم. وممّا حسَّن الوصلَ بين الجملتين: اشتراكُهما في الخبريَّة، وكونِ فعلَيهما ماضيَين، ووجودِ المغايرةِ بينهما، مع التَّلاؤم الفكريّ والتَّجانس المعنويّ، فالأولى لبيان ما عوقب به قارون، والثّانية لبيان أثرِ هذه العقوبةِ على الآخرين، وما تكلَّم به النّاجونَ النّادمون.

دلالة التَّعبير بالماضي:

إفــادةُ تحقُّق الوقوع؛ لتأكيد الإنابة والرُّجوع

التَّعبيرُ بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ﴾ لحكاية فعلٍ قد مضى؛ إذ الآياتُ تقصُّ علينا ما حصلَ في قصَّة قارون من أحداث ومواقف. كما أنَّ التَّعبير بالماضي قد أفادَ التَّأكيدَ والدِّلالةَ على تحقُّق الوقوع؛ لإفادةِ تحقُّق قولهم، وجهرهم بالنَّدامة على ما تمنَّوه، ورجوعهم كذلك إلى التَّفويض لحكمةِ اللّه فيما يختارُه سبحانه لمن يشاءُ من عباده. ونلمحُ في دلالة الفعل (أصبحَ) أنَّ الخسفَ قد وقعَ ليلًا،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 339 - 342.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 378.

فدخلوا في وقت الصَّباح قائلينَ بالتفويض ومستشعرينَ بالحكمة الإلهيّة، لأنَّ الفعلَ الناقص (أصبح) يدلُّ على الاتّصاف بالخبر في وقت الصَّباح، ويحتملُ أن يكونَ دالًا على مطلق الصَّيرورة والتحوُّل؛ دون اقتران بوقتِ الصَّباح.

نكتة التَّعبير بالموصول وصلته:

تحقيقُ البيان الّذي يستدعيهِ الكلام

جاء التَّعبير بالاسم الموصول وصلتِه الفعليّة في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ﴾ تحقيقًا للبيانِ الذي يستدعيهِ الكلام[1]؛ فمتلقّو هذه القصَّة وتالوها لا يعرفونَ عن هؤلاء غيرَ ما جاء في سياقِ القصَّة مِن أنَّهم تمنَّوا مكانَ قارونَ بالأمس، وقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وقال لهم أولو العلم: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ﴾. كما أفادَ العدولُ عن (المتمنون) إلى الجملةِ الفعليّة لتأكيدِ حالةِ التمنّي الصّادرة منهم قولًا وإرادةً، وبيانِ علّة إنابتِهم ورجوعِهم إلى الحقِّ بعدَ أنْ غلبَتْهم أهواؤهم، وانتصرَتْ عليهم شهواتُهم.

دلالة التَّعبير بالمجاز المرسَل:

إظهار تمام نعمة الله على مَن تمنَّوا مكانًا بالأمس خُسِف به اليوم

عبّر النظمُ الكريم عن المتمنَّى بلفظ (المكان) في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ الدالِّ باعتبار أصله على المحلِّ والفراغ الذي تستقرُّ فيه الأشياءُ وتتحيّزُ، ولا يكون ذلك مقصودًا لهم؛ لأنَّ التمنّيَ لا يكون للمكانِ الّذي يجلسُ فيه المكين، بل للحالةِ والهيئة التي تحيطُه ويبدو عليها، فيكون هنالك مجازٌ مرسل بذكرِ المكان وإرادةِ حالةِ المكين فيه وهيئتِه، والعلاقةُ هي المكانية، ولذا فهو مستعمَلٌ مجازًا في الحالة المستَقِرّ فيها صاحبُها. وقد يُعبَّر عن الحالة أيضًا بالمنزلة[2]؛ إذ مكانُ قارون "هو ما كان فيه مِن النَّعيم، والزِّينة، والتَّفاخُر بالأموال، والتَّعاظُم بالذَّهب، والفضَّة، والعمارات

(1) الميداني، البلاغة العربية: 1/ 430.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 186.

الشّامخة، والفُرُش الوثيرة"[1]، وغيرها من مظاهر الرَّفاه والتَّرف. وكان في تمنّيهم أن يكونَ لهم مثلُ ما لقارون بالأمس، ورؤيتهم هذه المكانة المتلاشية اليومَ إظهارٌ للمفارَقة، وبيانُ تمام النعمةِ عليهم.

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلۡأَمۡسِ﴾:

قُربُ الزَّمان وتغيُّر الحال بعد بيانِ سوء المآل

عبّرَ النظمُ الجليلُ عن متعلِّق التمنّي بـ(الباء) الجارّة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ الموضوعة أصالةً للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]؛ وهي في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡأَمۡسِ﴾ للإلصاق المجازيّ الممزوج بالظرفيَّة؛ فكأنَّه جعلَ الأمس شيئًا التصقَتْ به أمنيَّة الجاهلينَ بأن يكونوا مكانَ قارون، والدّالَّ على قُرب الزَّمان، إبرازًا للمفارقةِ وتغيُّر الحال بعدَ وقوفِهم على حقيقةِ المآل. وقيل: هي مُتمحّضةٌ لمعنى (في)، والملاصقُ للزَّمان والمكان حاصلٌ فيهما[3].

معنى (اللّام):

الجهّالُ يتقلّبون بينَ الضَّلالِ والهُدى

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡأَمۡسِ﴾ للعهد الذِّهنيّ؛ أي: الأمس القريبِ الذي ما زالَ حاضرًا في ذهن السّامع، وهو الّذي وقع فيه التَّعالي والاستكبار مِن قارون بماله وزينته، ممّا فَتَن به الجاهلينَ بحقيقةِ الأمور وغرَّهم غرورًا.

بلاغةُ المجاز في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡأَمۡسِ﴾:

مُلكُ قارونَ قد زالَ وانقضى كالأمسِ

عبّر النظمُ الجليل باسم الزمان معرّفًا بأل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ ويرادُ به الزَّمانُ الماضي القريب، وإنْ لم يكن قبلَ يومِهم الذي هم فيه؛ أي: قد يُذكر ولا يُراد به اليومُ الذي قبلَ يومك، ولكن بمعنى الوقتِ المستقرَب على طريق الاستعارة، بتشبيهِ القريب

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 120.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/ 502.

الوقوع بالواقع أمس، وهو مجازٌ شائعٌ. وجوّز حملَه على الحقيقة، ولذا يُلغَزُ بها فيقالُ: ما كلمةٌ إذ عُرِّفت نُكِّرت وإذا نُكِّرت عُرِّفت، والعطفُ بـ(الفاء) التي تقتضي التَّعقيبَ في قوله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا﴾ يدلُّ عليه[1]. فلا يكون الخسف قد وقع عقيب التمني ليلًا مباشرةً. ولو حُمِل (الأمس) على ظاهِرِه - أي: ما قبْلَ يوم الخَسْفِ وهو يومُ التَّمنّي - يكون التَّعبيرُ بـ﴿وَأَصۡبَحَ﴾ دالًّا على أنَّ الخَسْف بقارون وبداره كانَ ليلًا، وهو أفْظَعُ العذابِ؛ إذ اللَّيلُ مَقرُّ الرّاحةِ والسُّكونِ، فيَكونُ فيه اعتِقابُ العذابِ خروجَه في زينَتِه، وفي ذلك تعجيلُ العذابِ[2].

بلاغة الطِّباق:

الطِّباقُ بيانٌ الفرقِ بين الغاياتِ الأسمى والأخسّ

آثَرَ النظمُ الجليل استعمالَ الطّباق بين ﴿وَأَصۡبَحَ﴾ و﴿بِٱلۡأَمۡسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ لإبرازِ المعنى وتوضيحِه؛ حيثُ ناسبَ ذكرُ الصَّباح الحالةَ التي تحوَّلوا لها، والتي انقشَعَتْ عنهم فيها حالةُ الإعجاب بمتاع الدُّنيا الزّائل الزّائف. وناسبَ كذلك ذكرُ المساءِ الذي يصحبُه الظَّلام حالةَ الغشاوة التي كانت على أعيُنهم، فرأوا ما كان عليه قارونُ منتهى الأمل والغاية المثلى! فكأنَّهم صاروا إلى النّور والهدى بعدما كانوا في الظَّلام والضَّلال وانطماس البصيرة. وهنالك ملمحٌ آخر يشير إليه الطِّباق، هو أنَّ الجاهلين بأقدار اللّه تعالى وعظيم حكمته يتسرَّعون في بناء الأحكام واتخاذِ القرارات، فهم بالأمس تزيغُ قلوبهم، وفي الصّباح يهتدون، بخلاف أهلِ العلْم والحكمة، الذين يسيرونَ على منهجٍ ثابت ومسار محكَمٍ.

دلالة التَّعبير بالمضارع:

تأكيد التَّوبة والاستغفار

التَّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ يفيدُ تكرُّر وقوعِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 329.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 328.

القول منهم وتجدُّدَه؛ أي: صاروا يقول بعضُهم لبعضٍ: (ألَم تعلموا أنَّ اللّه.. إلخ)[1]؛ وهذا لإظهار التَّحسُّر والنَّدامةِ على ما تمنَّوه؛ والرُّجوعِ إلى التَّفويضِ لحكمة اللّه تعالى فيما يختاره لمن يشاءُ من عباده[2]. ونلمحُ أنَّ في تمنِّيهم السابقِ عبّر النظمُ الجليلُ بالمضارع أيضًا فقال: ﴿يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ الدالّ على شدَّة الانهماك بالدنيا ومفاتنِها، وبعد أنْ رأوُا الآياتِ استعملوا ذاتَ الفعل للدلالة على تأكيدِ التوبة بالتجدُّد والاستمرار على ذلك القول.

المعاني المحتملة لـ ﴿وَيۡكَأَنَّ﴾:

تعدُّد التَّأويلات باختلاف التَّقديرات

كلمة ﴿وَيۡكَأَنَّ﴾ مركَبَّةٌ من ثلاث كلمات: (ويْ)، وكافُ الخطاب، و(أنَّ)؛ فأمّا (وي) فهي اسمُ فعلٍ، بمعنى: أعجبُ. وأمّا (الكاف) فهي لتوجيهِ الخطابِ تنبيهًا عليه، مثلُ الكافِ اللّاحقةِ لأسماءِ الإشارة. وأمّا (أنَّ) فهي (أنَّ) المفتوحةُ الهمزة - أختُ (إنَّ) المكسورةِ الهمزة - فما بعدَها في تأويلِ مصدرٍ هو المتعجَّب منه، فيُقدَّر لها حرفُ جرٍّ ملتزَم حذفُه لكثرة استعمالِه، وكان حذفُه مع (أنَّ) جائزًا، فصار في هذا التَّركيب واجبًا، وهذا الحرفُ هو اللّام أو (مِن)، والتَّقدير: (أعجبُ يا هذا مِن بَسْطِ اللّه الرِّزقَ لَمن يشاءُ). وكُلُّ كلمةٍ من هذه الكلمات الثَّلاثِ تُستَعْمَل بدون الأخرى، فيقال: (ويْ) بمعنى: أعجب، ويقال (وَيْكَ) بمعناه أيضًا.

وذهب الخليل ويونس وسيبويهِ والجوهريُّ والزَّمخشريُّ إلى أنَّها مرَكَّبة من كلمتين (وَيْ) و(كأنَّ) التي للتَّشبيه. والمعنى: التَّعجُّب مِن الأمر، وأنَّه يشبهُ أنْ يكون كذا، والتَّشبيهُ مُستعمَلٌ في الظَّنِّ واليقين. والمعنى: أما تعجبُ كأنَّ اللّه يبسطُ الرِّزق؟.

وذهب أبو عمرو بن العلاء والكِسائيُّ واللَّيث وثعلبٌ - ونَسَبه في

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 61.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 186.

(الكشاف) إلى الكوفيّين (وأبو عمرو بصريٌّ) - أنَّها مركَّبة مِن أربعِ كلمات: كلمة (ويل)، وكاف الخطاب، وفعل (اعلمْ)، و(أنَّ) مشدَّدة النّون، وأصله: (ويلَكَ اعلَمْ أنَّه كذا)، فحذفَ لامَ الويل، وحذفَ فعلَ (اعلم)، فصارَ (ويكأنَّه).

ومعنى الآية على الأقوال كلّها: أنَّ الذين كانوا يتمنَّون منزلة قارونَ ندِموا على تمنِّيهم لمّا رأوا سوءَ عاقبته، وامتلكَهم العَجَبُ الكبيرُ من تلك القصَّة حتى إنَّهم اختاروا صيغةً صوتيّةً تُظهِرُ ذلك العجبَ من مقاديرِ اللّه في الانتقامِ من المتكبّرين، ومِن خَفيّ تصرُّفاتِ اللّه تعالى في خلقه، وعلِموا وجوبَ الرِّضى بما قُدِّر للنّاس مِن الرّزق - فخاطبَ بعضُهم بعضًا بذلك وأعلنوه[1].

دلالة التَّعبير بعنوان الألوهيَّة:

الأرزاق مقسّمة بحكمةٍ ورحمة، لا يفطنُ لها إلّا مؤمنٌ موحِّد

أوثر التَّعبيرُ بعنوان الألوهيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ إشارةً إلى التَّذكير بوجوبِ عبادتِه تعالى، واستحقاقِه للعبادة مُنفردًا، وأنَّ تقسيمَ الرِّزق بين العباد إنَّما نوّع فيه بينَ بسطٍ وتوسعة، وتقديرٍ وتضييقٍ لأجل حكمةٍ بالغة، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [النحل: 71]؛ ذلك أنَّه ﴿۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ [الشورى: 27]. والتَّسليمُ بهذه الحكمة يقتضي إيمانًا بالغيب، ويقينًا بحكمة اللّه تعالى، ورضًا بقضائه، وتسليمًا لقدره، وكلُّ هذا من مقتضياتِ توحيدِ الألوهيَّة؛ فلذلك عُبّر بها.

وأفاد تقديمُ المسندِ إليه على الخبرِ الفعليّ دلالةَ الاختصاص، التي تفيدُ أنَّ أمر الرزق توسعةً وتضييقًا مختصٌّ باللّه تعالى لا يشاركُه فيه غيره.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.

دلالةُ التَّعبير بالخبرِ مُضارعًا:

بيانُ سعةِ رزق الله الذي يخلقُ ما يشاءُ ويختار

عُبِّر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ لإفادةِ معنى التَّجدُّد والاستمرار، ولبيانِ بسطِ الرِّزق من اللّه سبحانه وتكراره، وللدَّلالة من حيث الزمن على الحال والاستقبال، فتحضرُ تلك المعاني في بسطِ الرِّزق الذي هو بسطٌ مُتَجدِّد فتثيرُ انبساطًا في النفس، وزمانُ الاستقبال في المضارع لمعنى ضمانِ وصولِ الرِّزقِ لمن شاءَ اللّه له، وأنَّه حقٌّ.

معنى (أل) التعريفية:

حقيقةُ الرزق بجميعِ أفرادِه ملكٌ لله تعالى

آثر النظم الكريم تعريف الرزق بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ مرادًا به الجنسُ والحقيقة؛ والحقيقة إنما توجد في ضمن أفرادها، فيشملُ كلَّ رزقٍ مقسومٍ مضمونٍ مِنَ الرَّزاق ﷻ بجميع صورِه وأشكالِه.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لِمَن﴾:

الرزقُ اختيارٌ إلهيٌّ يسوقُه لمن يشاء

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الاختصاص[1]، وهوفي قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ للاختصاصِ الذي يفيدُ الاستحقاق؛ حيث يخصُّ اللّه تعالى بعضَ عباده ببسطِ الرِّزق لهم، بمحض مشيئتِه تعالى، لا لكرامةٍ توجبُ البسطَ كما زعمَه قارون، وصناديدُ قريش الكافرون. وفي تعليقِ البسطِ بالمشيئة إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ عبدٍ مرزوقٌ، لكنَّ الاختلاف في البسطِ وعدمِه، والبسطُ قد يكونُ كرامةً أوِ استدراجًا، والتمييزُ بينهما يتوقّفُ على اعترافِ العبد بالرزّاق، وإسنادِه الفضلَ له والقيامِ بواجباتِ ذلك المال بشكلٍ شرعيٍّ.

دلالة التَّعبير بالموصول وصلته:

تحقيقُ البيان وبيانُ علّة العطاء، نفيًا لما ادَّعاه الجُهلاء

عبّرَ النظمُ الجليل في قوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ بالاسم الموصول، وفيه إبهامٌ يُحْدِثُ في نَفْسِ المتلَقّي تشوُّفًا وتَشَوُّقًا

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

لمعرفةِ المراد به عن طريقِ صِلَته، والدّاعي للتَّعبير بالموصول هنا هو أنَّه ليس لدى مَن يتلقَّى الكلامَ عِلْمٌ بشيء مِن المعرِّفات التي تعرِّف العنصر الاسميَّ، أَوْ تميّزه في الجملة عن غيره، إلّا اتِّصافُه بالوقوع تحتَ المشيئة، كما دلَّت عليه هنا صلةُ الموصول[1]، فليس لمن يُبسَط له الرِّزقُ مِن صفةٍ أوجبتْ له بسطَ الرّزق إلّا أنَّ اللّه تعالى شاءَ أنْ يبسطَ له الرِّزق، لحكمةٍ يعلمُها ﷻ، وفيه تعريضٌ بقارونَ الذي زعم أنَّه إنَّما أوتي المالَ عن استحقاق لِعلم عنده، أَوْ لكرامةٍ له عند اللّه تعالى أوجبتْ له ذلك!

دلالة التَّعبير بالمضارع صلةً:

عدم انفكاك مشيئة ربّ العالمين عن الرِّزق المتجدِّد بتجدُّد أنفاس المرزوقين

أوثر التَّعبير عن جملةِ الصّلة بالمضارع في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾؛ لإفادةِ استمرار تعلُّق مشيئةِ اللّه تعالى ببسطِ الرِّزق؛ أي: إنَّه سبحانه يمنحُ مَن يختاره مِن عباده على الدَّوام، سواءٌ كان عنده ما يحتالُ به على الرِّزق أم لا، فلا يقطعُ أحدٌ رزقَ اللّه تعالى عن أحد، ولا يعارضُ مشيئةَ اللّه سبحانه شيءٌ كائنًا ما كان، وفي هذا دليلٌ على عدم انفكاكِ المشيئة عن الرِّزق المتجدِّد بتجدُّدِ أنفاسِ المرزوقينَ.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾:

لن يخرج عبدٌ مِن ظلّ دوحة المشيئة، ولن يُحرم أحدٌ تحت ظلّها مِن ذَوْق ثمارِها

الأصلُ في معنى ﴿مِنۡ﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداءِ الغاية[2]، وهو في قوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ بهذا المعنى؛ أي: إنَّ العباد هم مبتدأُ تعلُّقِ مشيئة اللّه تعالى ببسطِ الرِّزق أَوْ قبضِه. وقد أفاد هذا المعنى فائدةً لطيفة، وهي أنَّه لن يخرج عبدٌ من ظلِّ دوحة المشيئة، ولن يُحرمَ أحدٌ تحتَ ظلّها مِن ثمارها، فالنّاس إمّا مبسوطٌ له رزقه وإمّا مضيَّقٌ عليه؛ أي: إنَّهم جميعًا مرزوقون، فليس فيهم محرومٌ أَوْ

(1) الميداني، البلاغة العربية: 1/ 429.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

معدوم، ويُصدِّق هذا قولُه تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]. والحاصل أنَّ ﴿مِنْ﴾ - بدلالته على معنى ابتداء الغاية - قد أفاد بيانَ الجنسِ والإبهام الواقع في الموصول أيضًا؛ أي: يبسطُ اللّه الرِّزق للَّذين تعلّقتْ إرادتُه ومشيئتُه برِزقِهم من عباده، وهنالك إشارةٌ إلى أنَّ اللّه ﷻ في بسطِهِ الأرزاقَ وقدرِها مُتصرِّف تصرُّف المالكِ في مُلكِه.

نكتة الإضافة في ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾:

الإضافةُ إلى العظيم تفيدُ التَّشريف والتَّكريم

آثرَ النظمُ الكريم إضافةَ (العباد) إليه تعالى في قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ إيماءً إلى أنَّ اللّه سبحانه في تصريفِ أرزاقِ عباده بَسْطًا وقَدْرًا مُتصرِّفٌ تَصَرُّفَ المالك في مُلكه، إذ المبسوطُ لهم والمقدورُ عليهم كلُّهم عبيدُه، فحقُّهم الرِّضا بما قسمَ لهم مَوْلاهم[1]. وفي ذكر المرزوقينَ بسطًا وتضييقًا بعنوانِ العبوديّة إشارةٌ إلى أنَّ ذلك الرِّزقَ محضُ تفضُّلٍ وإكرام، من دونِ استحقاقٍ واستيجابٍ عليه تعالى. وفي التصريح بالعبوديّة أيضًا إشارةٌ إلى علّة الاختيارِ الإلهي في الرِّزق؛ إذ شأنُ السيّدِ التحكُّم بأرزاق عبيده. وأفادتِ الإضافةُ من التَّشريفِ ما لا يخفى؛ إذ الإضافةُ إلى العظيم تفيدُ التَّشريف والتَّكريم، وفيها كذلك أنوارٌ مِن الرَّحمة، وفيوضٌ من الحنوِّ، فلا يفخرُ مَن بُسط له في رزقه، ولا يضجرُ مَن قُدِر عليه فيه، فالجميعُ عبادُ الكريم، ولن يضيّع الكريمُ عبادَه!

نكتة عطف الجملة الفعلية المضارعية:

العطفُ لبيان الاستواءِ في قدرته سبحانه على السَّلب والعطاء

عَطفُ الفعلِ المضارع الدّالّ على التَّضييق على الفعل المضارع الدّالِّ على البسط والسّعة في قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ - لبيانِ استواءِ الفعلَيْن عند الحكيم ﷻ، فهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.

يقدرُ كما يبسطُ، وهو يبتلي بالتَّضييقِ كما يبتلي بالبَسْط، وأنَّ المبسوطَ له رزقُه مأمورٌ بالشُّكر قولًا وفعلًا، والمقدورَ عليه فيه مأمورٌ بالصَّبر وعدمِ التشهّي لأموالِ الظّالمين والمتكبِّرين، وكما أفاد المضارع استمرارَ البسطِ وتجدُّدَه فإنَّ التقدير للرّزق مستمرٌّ ومتجدّدٌ أيضًا، وذلك شأنُ السيّد مع عبيده، فيختارُ لهم ما يتّفقُ وحكمتَه تعالى من المصالحِ، التي لا سبيلَ للوقوف عليها وإدراكِ مقاصدها والإحاطةِ بأحوالها.

بلاغةٌ الإيجاز بالحذف:

حذفُ متعلِّقِ الفعل ﴿وَيَقۡدِرُۖ﴾ إيجازًا للعلْم به من سياق الآية، والتَّقدير: (ويقدر الرِّزق على مَن يشاءُ من عباده)، فاستُغني عن كلِّ هذا بذكر الفعل ﴿وَيَقۡدِرُۖ﴾ معطوفًا على سابقه، مجموعًا معه في حُكمه. وأوثر ذكرُ متعلّقاتِ فعلِ البَسْط، وهي المفعول به ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾، ولامُ الاختصاص وما دخلت عليه، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، مع ذِكر العبوديَّة، وحذفُ متعلّقاتِ فعلِ التَّقدير؛ تغليبًا لجانب الرَّحمة والعطاء، ولُطف ربِّ الأرض والسَّماء على جانبِ التضييقِ والتقدير.

حـذفٌ يتطلّبُه المـقـام؛ لجذب الاهــتــمــام، ولـلـتَّـفـخـيـم والإعظام

بلاغة الطِّباق في الآية:

ورد الطِّباق بين قوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ﴾، وقوله: ﴿وَيَقۡدِرُۖ﴾ لإبراز المعنى وتوضيحِه؛ ولبيانِ قدرته سبحانه على فعلِ الضِّدَّين؛ وذلك لكمالِ قدرته سبحانه وعظيمِ حِكمته، فيفعل كلَّ واحدٍ من البسط والقَدْر؛ أي: التَّضييق والقَتْر، لا لكرامةٍ توجبُ البَسْطَ، ولا لهوانٍ يوجبُ التَّضييق[1].

الطِّباق للإثبات والتَّقرير، وبيانِ قدرته سبحانه عـلى البـسـط والتَّقدير

بلاغةُ الاستعارة أو الكناية في الآية:

آثَرَ النظم الكريم إيرادَ الكناية في التعبير عن الإعطاء والتوسعة بالرزق، والمنع والتقدير على العباد فيه، وذلك في قوله

يُـعـطـي الـلـه تـعـالى لحكمة ويمنعُ لمصلحة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 329.

تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾؛ إذ أصلُ البسط: امتدادُ الشَّيء، وانفراشُه، واتّساعُه، ومنه البِساط، وهو اسمٌ لكلّ مبسوط[1]. وأصل القَدْر: ضبطُ الشَّيء القابلِ للاتّساع والانبساط وحَكْمه؛ لئلّا يَسترسلَ[2]، وتقديرُ اللّه تعالى الأشياءَ على وجهين؛ **أحدهما:** بإعطاء القدرة، **والآخر:** بأنْ يجعلَها على مقدارٍ مخصوص ووجهٍ مخصوص حسبَما اقتضتِ الحكمة[3].

فيكونُ البسْطُ في قوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ مستعمَلًا مجازًا في السَّعة والكثرة[4]، فكأنَّ الرِّزق جُعل كالبِساط يُفرَش ويوسَّع ويُمدَّد، والقَدْرُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقۡدِرُۖ﴾ مستعمَلًا مجازًا في القلَّة؛ لأنَّ التَّقديرَ يستلزم قلَّة المقدَّر لعُسر تقدير الشَّيءِ الكثير. قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق: 7][5]. فيكون المجاز استعاريًّا بتشبيه الإعطاء والتوسعة بالبسط والامتداد، وتشبيه المنع والتضييق على المرزوقين بالتقدير، ويَحْتَمِل أن التركيبين كنايتان عن الإعطاء الكثير والإعطاء القليل المحدّد.

علّة الفصل في الآية:

تـوسُّـط بين الـكـمـالـين، وفـصـلٌ بين المعنيين

آثرَ النظمُ الكريم فصلَ الجملةِ الاسميّة الخبرية من قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ - وهي جملةٌ لا محلَّ لها من الإعراب؛ استئنافيَّةٌ في حيِّز القول[6] - عن سابقتها الفعلية الإنشائية: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ لما بينهما من (كمال الانقطاع) لاختلافهما خبرًا وإنشاءً؛ إذ الأولى هي تعجُّبُ القومِ من حكمة

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وجبل، الاشتقاقي: (بسط).
(2) ابن فارس، المقاييس، وجبل، الاشتقاقي: (قدر).
(3) الراغب، المفردات: (قدر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.
(6) محمود صافي، الجدول: 10/ 298.

اللّه تعالى في بسط الرِّزق وتقديره، والثّانية إعلامُهم بامتنانهم لله تعالى أنْ لم يأخذهم بتمنِّيهم، ولذا أوثرَ لها أن تُفصَلَ لتكون باستقلالها مقصودةً لذاتها، مؤسِّسةً معنىً جديدًا بعد التَّعجُّب وهو الامتنان والإقرارُ بأنَّ النِّعمة والمنَّة عليهم إنَّما كانت في المنع لا في العطاء. بينما كانتْ نقمة قارون في العطاء والسِّعة.

نكتةُ التعبير بـ﴿لَوۡلَآ﴾:

تعليقُ الامتناع بالوجود تحديدٌ لعلّة السّلامة

آثرَ النظمُ الكريم التعبيرَ عن مدى امتنانِهم للّه تعالى بالنَّجاة مما آل إليه أمرُ قارون الّذي تمنَّوا مكانَه وحالَه ورزقَه بأسلوبِ الشّرط الدالِّ على تعليقِ مضمونِ الجواب بمضمونِ الشَّرط، ولكن بالأداة ﴿لَوۡلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾، وهي حرفُ شرطٍ دالٌّ على امتناعِ الجوابِ لوجود الشّرط، فتفيدُ تحديدَ سببِ السَّلامة والنّجاة من عذاب الخسفِ بوجود المنَّة الإلهية عليهم، فكانَ لوجودِها من حيثُ لا يشعرونَ - مع أنهم كانوا يتمنَّون حالَ قارون - سببٌ لنجاتهم، فالمنّ عليهم كان يتجسّدُ بعدم إعطائِهم رزقًا مثلَ رزق قارون، الّذين كانوا يتصوّرونه منعًا، لكنّه في الحقيقة كان عطاءً عظيمًا لصيرورته سببًا لنجاتهم من العذاب.

نكتة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾:

مـن الـرّزق العظيم الإنجاءُ من البلاء المبين

عُبِّر بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ دون الصَّريح (مَنُّه)؛ لما يفيده المصدرُ المؤوَّل مِن الدَّلالة على الزَّمن لاشتماله على الفعل، وهو مع ﴿أَن﴾ يدلُّ على مجرَّد معنى الحدثِ دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَن﴾ تحصينٌ مِن الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال. بخلاف المصدر الصَّريح، فليس فيه شيء من هذا[1].

دلالة التَّعبير بالماضي في قوله: ﴿مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾:

يدلُّ التَّعبير بالماضي في قوله: ﴿مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ على تحقُّق وقوع

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 147 - 149.

المَنّ، وحصول اليقين بذلك، أي: لولا منُّ اللّه المحقَّق الوقوع، الذي سبق به الكتابُ، لخسف بنا.

نكتة التَّعبير بالفاعل بعنوان الألوهيَّة:

شكرُ المنعمِ الحقيقيِّ عبادةٌ

أوثرَ التَّعبير بذكر الفاعل بعنوان الألوهيَّة في قوله تعالى: ﴿مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ للتعريضِ بالكفّار ومنهم قارون، الّذي نسبَ ما حصل عليه من نعمةٍ ورزقٍ ومالٍ وفيرٍ إلى علمِه وذكائِه وحسنِ تصرُّفِه، وذهل عن أنَّ ذلك كلَّه من فضل اللّه تعالى ومَنِّه على عباده. وهم لما تمنَّوا مكانه وأرادوا نيلَ ما ناله من مالٍ وحشمةٍ ووجاهة، تشبَّهوا به ساعةَ جهلهم، وتوهّموا أنَّ اللّه تعالى قد منعَهم ذلك المتمنّى، الذي حصروا عقولهم به وعدّوه النعمةَ الحقيقيّة التي لا تقابلها نعمةٌ، ولمّا سُقِط في أيديهم ورأوا ما آل إليه أمر المتمنّى؛ فهموا أنَّ تلك النعمةَ المتمنّاة ما هي إلا نقمةٌ تخلّصوا من وبالها، وأنَّ ما هم عليه من قلَّةِ رزق ما هو إلا نعمةٌ عظيمة من اللّه عليهم أدّت إلى نجاتهم، وكلُّ ذلك هو من فيض المنّ والكرم، الذي تعجزُ العقول عن إدراكه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ التمنّيَ الحقيقيَّ ينبغي أن يكونَ في مرضاةِ المنّان من العِلْم النافع والدّينِ القويم، وليس في المتاعِ الزائل والنّصيب الزائف من الدنيا الفانية.

معنى (على) في قوله: ﴿عَلَيۡنَا﴾:

الدَّلالةُ على الاستعلاء؛ لبيان فوقيَّة المنِّ ورفعةِ العطاء

الأصلُ في معنى (على) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظُها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوّ[1]، وهي في قوله: ﴿مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ للاستعلاء المجازيّ، أي: استعلاء المِنَّة علينا لكونها من اللّه تعالى. فكأنَّ نعمة المنّ ثوبٌ سابغٌ جلَّلهم جميعًا، أوْ مظلَّة كبيرة نَجَوْا تحتها من خسفِ الغضب والسُّخط الإلهيّ.

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 497، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 47.

بلاغة الإيجاز بحذف المتعلّق:

تعميمُ أوجه الامتنان، وتعظيم منَّة المنّان

حذفَ النظمُ مُتعلّق الفعل ﴿مَّنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾ لدلالة السّياق عليه؛ وأصلُ الجملة: لولا أنْ منَّ الله تعالى علينا بالتَّجاوز عن تقصيرنا في تمنّينا ذلك لخَسَفَ بنا[1]. أو: لولا أنَّ مَنَّ الله علينا بعدم إعطائه إيّانا ما تمنَّيناه، وإعطائِنا مثلَ ما أعطاه إيّاه لخسف بنا[2]. أو: لولا أن منَّ الله علينا بالإيمانِ والصّبر والرّحمة[3]، فلم يعطنا ما تمنَّينا[4]، وعصمَنا مِن مثل ما كان عليه قارونُ مِن البَغْي والبَطَر[5]، فقد كان مِن فضل الله علينا أنَّه لم يستجبْ لأمنيّاتنا، ولم يؤتِنا مثل ما أوتي قارون؛ إذ إنَّه لو فعل لكان مصيرُنا كمصير قارون، ولخَسَفَ بنا وبدورنا الأرض، كما خسفَ به وبداره الأرض[6]. وكلُّ هذه المعاني صحيحةٌ وتحتملُها الآية، وهذه نكتةٌ أخرى من نِكات الحذف، وهي إفادةُ التَّعميم، ليشمل كلَّ منَّة ممّا يضيقُ عنه المقام لو ذُكر مفصَّلًا، وفي هذا تعظيمٌ لمنَّة المنّان سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

معنى (اللّام)، و(الباء) في قوله: ﴿لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾:

الرّبطُ والإلصاق توكيدٌ للمعنى وتعميق

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾ واقعةٌ في جواب الشَّرط[7]، يفوحُ منها شذى التَّوكيد، والأصلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[8]؛ وهو هنا للإلصاق الحقيقيّ؛ أي: لخسفَ الأرضَ وهم ملتصقونَ بها. وفيه تشنيعٌ وتفظيعٌ لعقوبة الخسف وشدّته.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 330.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.
(3) أوضح التفاسير: 1/ 480.
(4) ثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 7/ 186.
(5) الدرة تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 120.
(6) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 391.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 378.
(8) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

نكتةُ حذف المتعلِّق:

الحذفُ لدلالة المقام، المفهومِ مِن الكلام

حُذِفَ متعلِّقُ الفعل ﴿لَخَسَفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾ لدلالة السّياق عليه؛ إذ أصلُ الجملة لخسفَ بنا وبدورِنا؛ لقصدِ إثبات الفعل في ذاته، وهو حدثُ الخسف لما دلَّ عليه اللَّفظ من العقوبة والعذاب والإهانة بالسُّفول، جزاءً لابتغاء العُلوِّ في الأرض بغير الحقِّ.

توجيه القراءات القرآنيَّة:

ثراءُ الدِّلالات باختلافِ القراءات

قرأ حفصٌ عن عاصم، ويعقوبُ الحرفَ ﴿لَخَسَفَ﴾ في قوله: ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾ بفتح الخاء والسِّين، أي: بالبناء للفاعل موافقةً ومشاكلةً لبناءِ ﴿مَّنَّ﴾ ودلالةً لما قبله عليه، من إسناد المنِّ إلى اللّه تعالى. وقرأ الباقون: ﴿لَخُسِفَ﴾ بضمّ الخاء وكسر السِّين[1]، أي: بالبناء للمفعول جريًا على الأصل فيه؛ للعلم بالفاعل وهو اللّه سبحانه. وفي قراءة البناء للمفعول لطيفةُ إسنادِ المنِّ للّه تعالى بالبناء للفاعل كونه نعمةً وفضلًا، وبناءُ الخسف للمفعول جريًا على عادة القرآن في إسناد الفضل للّه تعالى، وتنزيهه سبحانه عن إسناد غيره إليه، وإن كان الجميع منه على غرار: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: 10].

علّة الفصل والقطع:

كمالُ الانقطاع بين الإخبار والإنشاء

فصلَ النظم الكريم بين الجملة الإنشائية التعجبية: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ عن سابقتها وهي الجملة الخبرية: ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾؛ لما بين الجملتين من كمالِ الانقطاع لاختلافهما خبرًا وإنشاءً. وكُرّرت جملةُ ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ للتَّعجيبِ[2]، ولتأكيدِ ما قبله[3]، ولاتِّصاله بما لم يتَّصلْ به

(1) ابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 341.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 18.

سابقُه[1]. وفي هذا الفصل والقطعِ إبرازٌ لحالةِ التعجُّب الانفعاليّة، بخلاف الإخبارِ الدالِّ على الإعلام والشُّعور بالامتنان، فتكون الآيةُ قد اشتملت في جانبيها على جملتينِ انفعاليتين اكتنفَتْهما جملةٌ خبريّةٌ إعلاميّةٌ وتقريريّةٌ، لأنَّ كُلًّا من بَسْطِ الرزق وإقدارِه أمرٌ لا يحاطُ بحكمتِه، وعدمَ فلاحِ الكافرين أمرٌ يثير العجبَ مع وضوح الآيات والدلائل، بخلاف الشُّعور بالارتياح من عدمِ نزول العذاب بهم مِنَّةً وتفضُّلًا من الله تعالى عليهم.

سرُّ إيثار النَّفي بـ﴿لَا﴾:

إفادةُ النَّفي المطلق غيرِ المقيَّدِ بزمن

﴿لَا﴾ تفيد النَّفي غيرَ المقيَّدِ بزمنٍ ماضٍ أوْ مستقبل، فـ﴿لَا﴾ ليست كـ(لم) التي لنَفْيِ الماضي، ولا كـ(لن) التي لنفي المستقبل، بل تدلُّ على مطلق النَّفي، دلالةً على نفي الفلاح في الماضي والحال والاستقبال، فلا يفلحُ الكافرونَ بحالٍ، ولا يكون لهم وجهٌ من الفلاح في أيِّ وقتٍ وظرفٍ.

دلالة التَّعبير بالمضارع المنفيِّ:

إفادة تجدُّد الحرمان، لِعِظَمِ ما وقعوا فيه من الجحود والكُفران

أفاد التَّعبير بالمضارع المنفيّ في قوله تعالى: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الدَّلالةَ على التَّجدُّد والاستمرار له، ويصحُّ إطلاقُه على الزَّمان الحاضر والمستقبل، وفي نفي الفلاحِ عن الكافرين بطريق التَّعبير بالمضارع المنفيِّ دلالةٌ على استمرار هذا النَّفي ودوامِه، وعدمِ انقطاعِه بحالٍ.

معنى (أل) التعريفيّة:

لا فلاحَ للجاحدين نعمةَ ربِّ العالمين

(أل) في قوله تعالى: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ موصولةٌ للدلالة على العموم، صلتُها وصفُها للدلالة على تعليلِ الحُكم المنفيِّ، أي: لا يفلحُ كلُّ كافر بسببِ كُفره وجحوده نعمةَ ربِّه المنّانِ الكريم، فقد نفت الآيةُ

---

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 434.

الفلاحَ عن كلِّ أحد استكبرَ على الإيمان باللّه تعالى، وكفرَ بنعمائه، وكذَّبَ بآلائه.

سرُّ التَّعبير بلفظ (الكفر):

آثرَ النظمُ الجليل التعبيرَ عن المنكرينَ نعمةَ اللّه تعالى بلفظ (الكفر) في قوله تعالى: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لأنَّ أصلَ الكفر في اللُّغة: سترُ الشَّيء وتغطيتُه تغطيةً كثيفةً بحيث لا يظهرُ معها شيءٌ مِن المغطَّى، والكافرُ غطَّى في نفسه بعَماهُ شواهدَ وجودِ اللّه تعالى وعظمتِه الظّاهرة والباطنة[1]. وكُفرُ النِّعمة وكُفرانها: سترُها بترك أداءِ شُكرِها[2]. ومن هنا كان التَّعبير بلفظ (الكفر) أنسبَ؛ لكونه مُتضمّنًا - مع الكفر باللّه العظيم - كُفرَ النِّعمة، وهذا ما كان عليه قارونُ حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾. وأيضًا لتقدُّم الإشارة إلى الظُّلم في قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [القصص: 76] مع كونهم قومَه وكونِه منهم!

الـكُـفـر سـترٌ لـلـفـطـرة الـقـويـمـة، وإعـراضٌ عن شكـرِ النِّعمة العظيمة

بلاغةُ التَّذييل بجملة ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

جملةُ: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ تذييلٌ؛ لبيان أنَّ بسطَ الرِّزق وتقديرَه لا علاقةَ له بالفلاح أو الخيبةِ والخسران، بل الفلاحُ مُتعلّقٌ بالإيمان ولا يضرُّ معه فقرٌ، وعدمُ الفلاح مقارنٌ للكفر ولا ينفعُ معه غنىً، فقد تبيَّن أنَّ سببَ هلاكِ قارون هو كفرُه باللّه ورسوله ﷺ، وكفرُه نعمةَ اللّه تعالى وجحدُها[3]. "فالحكم القاطعُ الذي يمليه علينا هذا المشهَد، هو أنَّه لا فلاحَ للكافرين أبدًا، وإن كثُرت أموالهم، وملكوا الدُّنيا في أيديهم، إنَّهم هم الخاسرون خسرانًا مبينًا، في الدُّنيا والآخرة جميعًا"[4].

الـتَّـذيـيـل للتَّأكيد، وبيانِ ما ينالُ الكافرين مـن الـوعـيـد، والـعـذاب الشَّديد

---

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وجبل، الاشتقاقي: (كفر).

(2) الراغب، المفردات: (كفر).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.

(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 391.

بلاغةُ الإيجاز بحذف المتعلِّق:

تعميمُ كفر الملَّة وكفر النِّعمة

حُذِف متعلِّقُ الكفر في قوله تعالى: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، للتَّعميم، ولدلالة سياق الكلام عليه. والتَّقدير: الكافرون "لنعمة الله تعالى، أو المكذِّبون برسله وبما وُعِدوا من ثواب الآخرة"[1]. ويحتملُ أنَّ اسم الفاعل مشتقٌّ من (كفر) المتعدّي المنزّل منزلةَ اللازم، بمعنى: الّذين وُجد منهم الكفرُ وتحقَّق فيهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

أمسِ والبارحة:

أمـسِ، اليـومُ الـــذي قـبـل يومك، والبارحةُ اللّيلةُ التي قبلَ ليلتك

حقيقة (أمسِ): اليومُ الذي قبلَ يومِك، ويليه يومُك، وإذا عُرِّفَ بـ(أل) فإنه يُعبَّر به عن مطلق الزمان الماضي، كقول الله ﷻ: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس: 24]. والتعبيرُ بالأمس عن ذلك كالتعبيرِ باليوم عن الحاضر، وبالغدِ عن المستقبل[2]. وأمّا البارحة: فهي اللّيلة التي قبل ليلتك، وأصلُها من بَرِحَ، أي: زالَ عن موضعه[3]. ولا يقالُ للّيلة الماضية: البارحة إلّا بعدَ الزوال، وإلا فهي اللّيلة[4]؛ فيقال: فعلنا البارحةَ كذا وكذا للَّيلة التي قد مضتْ، ويقالُ ذلك بعد زوالِ الشّمس، ويقالُ قبل الزَّوال: فعلنا الليلةَ كذا وكذا[5].

البسط والتوسعة:

البَسطُ أشمَلُ من التَّوسِعة

الفرقُ بينهما أنَّ بَسْطَ الشَّيء: نَشْرُه وتوسيعُه[6]، وجذرُه أصلٌ واحدٌ، وهو امتدادُ الشَّيء[7]؛ فيُلاحَظ في البَسط معنى المدّ والنَّشر مع التَّوسيع، وهو بذلك أشمَلُ من التَّوسِعة. وجذر التَّوسعةِ كلمةٌ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 27.
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمس).
(3) ابن فارس، المقاييس: (برح).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (برح).
(5) ابن منظور، اللسان: (برح).
(6) الراغب، المفردات: (بسط).
(7) ابن فارس، المقاييس: (بسط).

تدلُّ على خلافِ الضّيق والعُسْر. ونَقيضُ البَسط: القَبض[1]، وأمّا نَقيض التَّوسعة: فهو التَّضييق[2]. وقد يُعبّر عن القبض بلازمه وهو التقديرُ على الناس، كما في الآية؛ إذ مقابلُ البسط القبضُ، لكنه عبّر عنه باللّازم.

الفلاح والفوز:

الفوز يكون بعبور وتجاوز، والفلاحُ يكون بشَقٍّ ونفاذ

الفرقُ بينهما أنَّ الفوز يدورُ معناه المحوريّ حول عبورِ مسافةٍ قفر جافّة بالغةِ الامتداد[3]. وأمّا الفلاح فيدورُ معناه المحوريّ حولَ الشَّقِّ والنَّفاذ[4]. فممّا سبق يتبيَّن أنَّ الملحظ في الفوز هو العبور والتَّجاوز، وأما الملحظُ في الفلاح فهو الشَّقُّ والنَّفاذ؛ لذلك يقال لمَن وصل أوَّلًا إلى نهاية المسابَقة: فاز بالمسابَقة، ولا يقال: أفلحَ بها؛ لِما في الفوز من معنى العبور، ولكنْ يلزمُ من الفلاح الفوزُ.

(1) ابن منظور، اللسان: (بسط).
(2) الجوهري، الصحاح: (وسع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فوز).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فلح).

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: 83]

تختلف في الدُّنيا التَّوجُّهات، وتكثُرُ الآراء، والآخرةُ محلُّ الفصل، وفيها يكون الجزاء

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا انتهت قصَّة قارون بما فيها من العبر؛ ذكر سبحانه محلَّ الجزاء على الخير والشرِّ، وأخبر أنَّ الفائز مَن حالُه بضدِّ حال قارون؛ حثًّا على التَّواضُع وخفضِ الجناح، وزجرًا عن الكبر والطَّلاح، وجاء ذكر الجنَّة بعنوان الدّار؛ مناسبةً لذكر الخسف بدار قارون؛ للمقابلةِ بين دارٍ زائلةٍ زائفةٍ ودارٍ باقيةٍ خالدة[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿عُلُوًّا﴾: أصل (علو) يدلُّ على ارتفاعِ الشَّيء فوقَ شيءٍ تحَته، وسُموِّه عليه[2]. والعلوُّ: ضدُّ السُّفل، وهو الارتفاع[3]. سواءٌ كان العلوُّ حقيقيًّا أوْ مجازيًّا، ومنه العلوُّ بمعنى التَّكبُّر في الأرض[4]. والمقصود به في الآية: الرِّفعةُ والاستكبارُ عن الإيمان، والاستطالةُ على المؤمنينَ، والتهاونُ بهم[5].

2) ﴿فَسَادًا﴾: أصل (فسد) يدلُّ على ذهابِ نفعِ الشَّيءِ المقصودِ منه بتلفِه وهلاكه، لحدَّةٍ ضارّةٍ تَسري في أثنائه[6]. والفسادُ: خروجُ الشَّيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج أوْ كثيرًا[7]. وهو نقيضُ الصَّلاح[8]. ويقال: فسَد يفسُد فسادًا، فهو فاسدٌ، وكذلك فَسُد

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 370، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 189.
(2) ابن فارس، المقاييس وجبل، المعجم الاشتقاقي: (علو).
(3) ابن فارس، المجمل والراغب، المفردات: (علو).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (علو).
(5) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 226، والقرطبي، أحكام القرآن: 13/ 320.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فسد).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فسد).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (فسد).

الشيءِ فُسودًا، فهو فسيدٌ، وأفسدَهُ غيرُه يُفسدُهُ إفسادًا وفَسادًا[1].
والمفسدةُ: خلافُ المصلحة[2]. والمرادُ به في الآية: الظُّلمُ والعُدوانُ على النّاس كما أرادَ فرعونُ وقارون[3].

3) ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾: أصل (عقب) يدلُّ على "تأخيرِ شيءٍ، وإتيانه بعدَ غيره"[4]. وعاقبته: آخِرُه[5]. والعَقِب: مؤخَّرُ القدم، والعاقبُ: الذي يخلفُ مَن كان قبلَه في الخير، وكلُّ شيءٍ خَلَف بعدَ شيءٍ فهو عاقبٌ له[6]. والعاقبة والعُقبَى مختصّانِ بالثّواب، والعاقبةُ إذا أُطلقَت اختصَّت بالثّواب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، وعند الإضافة قد تستعملُ في العقوبة كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠﴾ [الروم: 10][7]. وأما العقوبةُ والمعاقبةُ والعقابُ فمختصّةٌ بالعذاب[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

نعيمُ الآخرةِ لأهلِ الإيمانِ المتَّقين، وليس لأهلِ الإفسادِ المتكبِّرين

يخبرُنا المولى ﷻ في هذه الآية الكريمة مبيِّنًا أنَّه قد جعلَ ثوابَ الآخرة ونعيمَها لعباده المتَّقين، وليس للمفسدينَ المتكبِّرينَ، فيقول: تلك الدّارُ العاليةُ الرّفيعةُ الَّتي سمعتَ خبرَها، وبلغَكَ وصفُها؛ نجعلُها دارَ خيرٍ ونعيمٍ لهؤلاء الَّذين لا يريدونَ تكبُّرًا في الأرض، ولا ظلمًا للنّاس بأخذِ أموالهم بغير حقٍّ، والعاقبةُ المحمودة وهي الجنَّةُ تكون لِمَن اتَّقى عقابَ اللّهِ فأدَّى أوامرَه واجتنبَ معاصيَه[9].

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (فسد).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 186، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 27.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل: (عقب).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عقب).
(8) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عقب).
(9) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 226، والمراغي، التفسير: 20/ 102 - 103.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة الفصل في الآية:

السَّعادةُ الحقيقيّة بامتلاك الدّار الأبديَّة

أوثر فَصْلُ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾ عن قوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لكمال الانقطاع بين الجملةِ الخبرية والجملة الإنشائيّة؛ فقد أُريد أن تكونَ إخبارًا مستأنَفًا من اللّٰه تعالى لنبيِّه محمَّد ﷺ يُراد به إخبارُ جميعِ العالم أنَّ الآخرةَ أُعدَّتْ للَّذين لا يريدونَ علوًّا في الأرض ولا فسادًا، مع حضِّهم على السَّعي بحسب ما تضمَّنته الآية، وهذا الحضُّ يتضمَّن الإنحاءَ على حال قارونَ ونظرائه، والمعنى: أنَّ الآخرةَ ليست في شيءٍ من أمر قارونَ، إنَّما هي لَمن صفتُهُ كذا وكذا[1]. فلمّا انتهتْ قصَّة قارونَ بما فيها من العِبَر من خيرٍ وشرٍّ، أُعقِبتْ باستئناف كلام عن الجزاء على الخير وضدِّه في الحياةِ الأبديَّة، وأنَّها مُعَدَّة للَّذينَ حالُهم بضدِّ حالِ قارون[2].

براعة التَّخلُّص في الآية:

العاقبة بآخر الحالَيْن، وخيرِ الدّارَيْن

لمّا ذكر سبحانه فيما تقدَّم قولَ أهلِ العلم: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ ذكر محلَّ ذلك الثَّواب بقوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾[3]. وهذه الآيةُ كالتَّخلُّص من قصَّة موسى عليه السلام وقومِه مع قارونَ وقصةِ بغيِ قارونَ واستطالته عليهم، ثمَّ هلاكِه ونصرةِ أهل الحقِّ عليه، إلى قصَّة سيِّدنا ونبيِّنا محمَّد صلوات اللّٰه عليه وقصةِ أصحابه معَ قومه، واستطالةِ قومِه وإخراجهم إيّاه ﷺ من مسقطِ رأسه، ثمَّ إعزازِ اللّٰه تعالى إيّاه بالإعادة إلى مكَّةَ وفتحه لها منصورًا مكرّمًا، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨٥﴾ [القصص: 85][4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 302، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 391.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 330.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 12/ 121.

ففي قصَّة قارون تحذيرٌ للباغين المعتدين، وما كان أكثرَهم في قوم النَّبيّ ﷺ؛ وتسليةٌ للنَّبيّ ﷺ بأنَّ الله مهلِكٌ عدوَّه، وناصرٌ نبيَّه، ومتمٌّ نورَه. وفي ذِكر مقالة الّذين أوتوا العلم وقيامِهم بواجب الأمر بالمعروف والنَّهيِ عن المنكر؛ رفعةٌ لشأنِ الصَّحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم، الذين استكبرَ السّادة الأغنياءُ من كفّار قريش أنْ يجالسوهم وأمروا النَّبيَّ ﷺ أنْ يطردهم.

وفيما خُتِمَت به قصَّة قارونَ بيانٌ لحقيقة الدُّنيا، وأنَّ المال ليس مقياسًا ولا دليلًا على رضا الله تعالى، بحيث يكون الغنيُّ مرضيًّا عنه والفقيرُ مسخوطًا عليه بل المقياس بالتَّقوى؛ لذلك كانت ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾. وهذه العاقبة المحمودةُ تكون بآخر الحالَيْن، وخير الدّارَيْن، فآخر الحالَيْن أن يُرَدَّ النَّبيُّ ﷺ إلى مكَّة فاتحًا مقيمًا للدِّين، وهادمًا للشِّرك والكفر، وخير الدّارين فالوسيلة والفضيلة والدَّرجة العالية الرَّفيعة.

نكتة الابتداء باسم الإشارة:

التَّشويقُ إلى معرفة المشار إليه وجعلُه حاضرًا لكلّ ذي فهم، معظَّمًا عندَ كلّ ذي علم

ابتُدئ الكلامُ بابتداءٍ مشوّق، وهو اسمُ الإشارة إلى غير مذكورٍ مِن قبل؛ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا﴾؛ ليستشرفَ السّامعُ إلى معرفةِ المشار إليه، فيعقبُه بيانُه بالاسم المعرَّفِ باللّام الواقعِ بيانًا أوْ بدلًا من اسمِ الإشارة[1]، وهو قولُه تعالى: ﴿ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾؛ يعني: الجنَّة. وقال ذلك على جهةِ التَّعظيم لها والتَّفخيم لشأنها[2]؛ فإنَّ في الإشارةِ إلى الجنَّة بإشارةِ البعيد ﴿تِلۡكَ﴾ تعظيمًا لها وتفخيمًا؛ إذ معنى البُعدِ في الإشارة إلى الممدوح بُعدُ المنزلة وعُلوُّ القدْر[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 320.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 280.

نكتة الإشارة إلى المحتجِب عن المخاطَب:

تنزيلٌ للمشهور منزلةَ المشاهَد المحسوس

أُشير إلى الجنَّة - وهي غيرُ مرئيَّةٍ للمخاطَب - في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾؛ لشهرتها، وتنزيلًا لها منزلةَ المحسوس المشاهَد، المنظورِ بكلِّ عين، الحاضرِ في كلِّ قلب، العظيمِ الشَّأن، البعيدِ الصِّيت، العليِّ المرتبة، الّذي سُمِعت أخبارُه، وطنَّت على الآذان أوصافُه وآثارُه[1]. وفي تنزيلِ غيرِ المشاهَد المحسوس منزلةَ المحسوس ردٌّ على المنكرينَ والجاحدينَ بأنهم لو استعملوا عقولَهم لما نفَوها وأنكروها.

دلالةُ كاف الخطاب في ﴿تِلْكَ﴾:

المخاطَبُ هو كلُّ سامع أوْ هو النَّبيُّ مبلِّغًا كلَّ سامع

(كاف الخطاب) الذي في اسم الإشارة من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ غيرُ مرادٍ به مخاطَبٌ معيّنٌ، فهو موجَّهٌ إلى كلِّ سامع من قرّاء القرآن، ويجوز أن يكونَ خطابًا للنَّبيّ ﷺ، والمقصودُ تبليغه إلى الأمَّة شأنَ جميعِ آيِ القرآن[2].

إيثار التَّعبير عن الجنَّة بالدّار الآخرة:

لا يستوي دارُ الفناء بدارِ الخُلد والبقاء

عبّر النظمُ الجليل عن (الجنة) بلفظ ﴿ٱلدَّارُ﴾ الموصوف بـ﴿ٱلْآخِرَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾، وأصلُ الدّار: يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ وإحاطتِه به[3]. والدّار: محلُّ السُّكنَى، كقوله تعالى: ﴿۞لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 127]. والآخرة: مرادٌ به: الدّائمة؛ أي: التي لا دارَ بعدَها، فاللَّفظ مستعمَلٌ في صريحِ معناه وكنايتِه[4]. ولا حاجةَ إلى تقديرِ مضافٍ محذوفٍ في قوله: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾؛ أي: نعيمُ الدّار الآخرة، وهي الجنَّة، والبقاء فيها سرمدًا[5]، لأنَّ ﴿ٱلدَّارُ﴾ بتعريفِها بـ(أل الجنسية) الدالّةِ على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 371، والهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 304.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.
(3) ابن فارس، المقاييس، وجبل، الاشتقاقي: (دور).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 330.

الكمالِ صارتْ علَمًا على الجنّة، فهي الدارُ الحقيقيّةُ الكاملةُ، لأنها التي لا يُفارقها من نزَلَها، بخلاف دورِ الدنيا التي يتحوّلُ عنها وتفنى هي أيضًا، وهي التي دلائلها أكثرُ من أنْ تُحصَر، وأوضحُ من أن تبيَّن وتُذكَر، والدّار الآخرة هي التي أُمِر قارون بابتغائها فأبى إلّا علوًّا وفسادًا[1]! وأمّا مناسبةُ ذكر الجنَّة بعنوان ﴿ٱلدَّارُ﴾ فلتقدُّم ذكرِ الخسفِ بدار قارون، للمقابلةِ بين دارٍ زائلةٍ ودارٍ خالدة[2]. وأفادَ وصفُ ﴿ٱلدَّارُ﴾ الكاملة الباقية بـ﴿ٱلْأَاخِرَةُ﴾ أنها دارٌ لا يعقبُها دار، وهو كنايةٌ عن دوامِها وعدمِ فنائها.

دلالة التَّعبير بالجعل من حيث مادَّته وصيغته:

جـعـلُ الـجـنَّـة للمتَّقين خلقُها لهم، وتهيئتها من أجلهم

عبر النظم الجليل عن تخصيص الجنة والدار الآخرة بالمؤمنين بلفظ (الجعل) في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾ لأنّ (جَعَلَ): يكون للتَّحويل والتَّهيئةِ على وضعٍ بإنشاء هيئةٍ جديدة، أوْ للخَلْق. ومعنى جعْلِ الجنَّة للَّذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا أنَّها خُلِقت من أجلهم، وأُعِدَّت خصوصًا لهم، وأنَّها مُلِئت بألوان النَّعيم وصنوفِ اللَّذَّة من أجل إكرامهم، كما يشهد له قولُه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: 133]. فالمرادُ تمكينُهم منها أتمَّ تمكين، نحو قولهم: جَعَلَ السُّلطانُ بلدَ كذا لفلان، فجعلُ الجنَّة لهم باعتبار أنَّهم أهلُها الأوَّلون وملوكُها السّابقون، وغيرهم إنَّما يَرِد عليهم، وينزل بهم[3]. فهي محضرةٌ لأجلهم، ليس لهم غيرها. وأمّا مَن عداهم فلهم أحوالٌ ذاتُ مراتب، أفصحَتْ عنها آياتٌ وأخبارٌ نبويَّة أخرى[4]. واختارَ صيغةَ المضارع الدالّةَ على التجدُّد والاستمرار للدلالةِ على أنَّ الجعلَ فيها والإعدادَ لها مستمرٌّ دائمٌ لا ينقطع.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 371.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 331.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.

معنى (اللّام) الجارّة:

بيانُ عظيم ثوابِ المتواضعينَ والمصلحين

استعمل النظمُ الكريم لامَ الجرِّ صلةً للفعل الموضوعِ للدَّلالةِ على الاختصاص، إمّا بالملكيَّة أوْ بغيرها[1] في قوله تعالى: ﴿نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا﴾ لإفادة الاختصاصِ والاستحقاقِ إكرامًا وتفضُّلًا منه تعالى عليهم، إذ يخبر اللّه تعالى أنَّ الدّار الآخرة ونعيمَها المقيم الذي لا يحولُ ولا يزول، يجعلُها سبحانه لعباده المؤمنين المتواضعين، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: ترفُّعًا على خلق اللّه وتعاظمًا عليهم وتجبُّرًا بهم، ﴿وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ فيهم[2]، فهي خالصة لهم[3]. ويمكنُ أنْ تكون اللامُ دالّةً على الغرض مع التخصيص؛ وفيه مزيدُ مدحٍ للمتواضعينَ لجناب الرحمن؛ إذ جعلَها لأجلهم ولمصلحتِهم ونفعِهم.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِه:

بيان العلَّة في الحكم وإفادة التَّعميم، وما في التَّعريف من دلالات التَّفخيم والتَّعظيم

أوثر التَّعبير بالاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا﴾ لبيان أنَّ الوصف الذي تضمَّنته جملة الصِّلة، وهو عدم إرادة العلوِّ في الأرض ولا الفساد هو العلَّة في الحكم؛ أي: فوزهم بهذه الجائزة العظيمة وهي الجنَّة. كما أنَّ في التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَته إشارةً إلى العموم المستفاد من الموصول، فإنَّ الكلام وإنْ كان عن علوِّ فرعون وقارون وفسادِهما؛ فإنَّ التَّعبير بالموصول أفادَ عمومَ قصدِ هذا الموعد لكلِّ مَن لا يريدُ العلوَّ في الأرض ولا الفساد. ولا يخفى ما في التَّعريف بالموصوليَّة في سياق المدح من دلالته على التَّعظيم والتَّكريم.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المنفيّ:

التَّعبيرُ بالمضارعة يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار، ولذا آثر النظمُ

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 258.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 441.

يتجدَّد الزُّهد في العلوِّ والفساد كلَّما تجدَّدت المغريات بهما

الجليل التعبيرَ بالمضارع المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والنَّفي هنا للمضارع هو نفيٌ لهذا المعنى؛ أي: التَّجدُّد والاستمرار، فيكون التَّقدير: تُجعَل الجنَّة للَّذين لا تتجدّد منهم إرادة العلوِّ، لأنها لا تكون أصلًا، وإنْ تجدَّدتِ المغرياتُ بالدُّنيا، ولا تكون منهم إرادةُ الفساد، وإن تعدَّدت ألوانُ الفتن فيها. فكأنَّ نفيَ إرادة المتَّقين للسّوء يتجدَّد بتجدُّد الفتن التي يختبرهم اللّه تعالى بها، فهم مصرّون على عدم معصية ربِّهم، ثابتونَ على استقامتهم على الصِّراط، وحَنَفِهِم عن الشُّبهات والشَّهوات. بقي أن النظم الكريم عبر عن حال المتمنّين لحال قارون سابقًا بأنهم: ﴿يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، ثم أخبر هنا عن أنّ: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، فتكونُ إرادة الدنيا المنهيُّ عنها هي إرادتَها للعلوِّ والفساد تشبُّهًا بالمتكبّرين والفاسدين، وأمّا العملُ فيها والسّعيُ من أجل إعمارها فهو سبيلُ المؤمنين ومنهاجُ الصالحين.

بلاغة الكناية عن نفي الفعل بنفي الإرادة:

في تعليق الموعد بترك إرادة العلوِّ والفساد زيادة تحذير، ومبالغة في التَّنفير

في قوله تعالى: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لمْ يعلَّق الموعد بترك العلوِّ والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميلِ القلوب إليهما، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: 113] فعلَّق الوعيد بالرُّكون[1]. فمعنى ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ كنايةٌ عن (لا يفعلون)؛ لأنَّ مَن لا يريدُ الفعل لا يفعلُه إلا مُكرَهًا[2]. وإنَّما أوثرَ تعليقُ الموعد بترك إرادتهما لا بتركِ أنفسهما لمزيدِ التَّحذير منهما[3]، ذلك أنَّه إذا كان تعليقُ حصولِ الفوز بالدّار الآخرة على مجرَّد الإرادة، فكيف بمَن باشرَ العلوَّ والفساد[4]؟! وفي هذا أيضًا مدحٌ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 435، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 18.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 190.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 330.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 330.

للمتَّقين، فإذا كانوا لا إرادةَ لهم في العلوِّ في الأرض ولا في الإفساد، لزم من ذلك أنْ تكون إرادتُهم مصروفةً إلى الله تعالى، وأنْ يكون قصدهم الدّار الآخرة، وحالُهم التَّواضعَ لعباد الله سبحانه، والعملَ الصالح، والانقيادَ للحقِّ والإذعانَ له ولو على أنفسِهم، وهؤلاء هم المتَّقون الذين لهم العاقبة[1]. فالمقصودُ الأعظم هو طهارةُ القلب الذي عنه ينشأ عملُ الجوارح؛ تعظيمًا لضرر الفسادِ بالتَّنفير من كلِّ ما كان منه تسبُّبٌ فيه، إعلامًا بأنَّ النُّفوس ميّالةٌ إليه، نزّاعةٌ له، فمهما رتعت قريبًا منه اقتحمَتْه لا محالةَ[2].

نكتة تنكير ﴿عُلُوّٗا﴾، و﴿فَسَادٗاۚ﴾:

إرادة التقليل والعموم لكلّ قول أوْ فعل مذموم

عبّر النظمُ الكريم عن متعلَّق فعل الإرادة المنفيّ بأسلوب التنكير للفظَي ﴿عُلُوّٗا﴾ و﴿فَسَادٗاۚ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾، لإرادة التقليل؛ أي: لا يريدون شيئًا من العلوِّ ولو قليلًا[3]. وإنَّ "ذِكر الفساد والعلوِّ منكَّرَيْن في حيِّز النَّفي يدلُّ على شمولهما لكلِّ ما يطلق عليه أنَّه فساد، وأنَّه علوٌّ من غير تخصيص بنوع خاصٍّ. أمّا الفساد فظاهر أنَّه لا يجوز شيءٌ منه كائنًا ما كان، وأمّا العلوُّ فالممنوع منه ما كان على طريقة التَّكبُّر على الغير، والتَّطاول على النّاس، وليس منه طلبُ العلوِّ في الحقِّ والرِّياسة في الدِّين، ولا محبَّة اللِّباس الحَسَن، والمركوب الحَسَن، والمنزل الحَسَن"[4]. والحاصلُ أنَّ اللَّفظَيْن عامّان لكلِّ مَن علا وأفسدَ[5]، شاملانِ لجميع المعاصي[6].

دلالة التقييدِ بالجارّ والمجرور:

مهما علا الإنسانُ فالأرض وعاءٌ له

قيّد النظم الجليل بالجارّ والمجرور العلوَّ المذكور في قوله تعالى:

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 625.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 371 - 372.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 372.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 217، والقنوجي، فتح البيان: 10/ 156.
(5) السخاوي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 47.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 625.

﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والأصلُ في تعدّي العلوّ أن يكون بـ(على) الدالّة على الاستعلاء، لكنه عدل عنها إلى ﴿فِي﴾ الموضوعة للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً أَوْ زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[1]. للإشارة إلى أن العلوَّ قد انتشرَ في أنحاءِ الأرض حتى دخلَ في جميع جوانبِها وأنحائها، إذ يفيدُ الظرفُ الإحاطةَ والتمكُّنَ، كما أفادت الظَّرفيَّةُ في الآية الإشارةَ إلى أنَّ علوَّ الإنسان محدودٌ كقدرته، فمهما علا إنسانٌ فهو علوٌّ في الأرض، لا يخرج عن ظرفيَّتها. وأمّا معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ للاستغراق[2]، فتشمل عموم الأرض دون تخصيص شيء منها.

دلالة العطف والتكرار:

كلٌّ مِن العلوِّ والفساد مقصود بالنَّفي والإبعاد

عطفَ النظمُ الكريم مُكرّرًا النفيَ بـ(لا) في قوله تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾؛ أي: غلبة وتسلُّطًا، ولا ظلمًا وعدوانًا على العباد كدأب فرعون وقارون، وليس الموصول مخصوصًا بهما[3]. وقد جاء التَّركيب في الآية بـ(لا) في قوله ﷻ: ﴿وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ دالًّا على أنَّ كلَّ واحدٍ مِن العلوِّ والفساد مقصودٌ بالنَّفي، لا مجموعُهما[4]؛ لأنَّ الطّاعة والإحسان هما الوضعُ الصَّحيح الذي يقتضيه النِّظامُ الكونيُّ، وتلتزمه الفِطَرُ السَّليمة. أمّا المعصيةُ والإساءة فهُما خروجٌ عن الطّاعة، وفسادٌ للنِّظام[5]. وفي عطفِ (الفساد) على (العلوّ) عطفُ اللّازم على الملزوم؛ إذ شأنُ العلوّ والاستكبار ميلُ الإنسان إلى الظُّلم والعُدوان، فبينهما تلازمٌ، كما أنَّ العلوَّ يتحقّقُ بالتكبُّر على الله والنّاس، والأوّل كفرٌ، وأمّا الفساد فهو يتعلّقُ بالدنيا وأحوالها، ولذا أخّر الفسادَ على العلوِّ.

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 190.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 330.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 330.
(5) محمد الخطيب، أوضح التفاسير: 1/ 480.

الوصلُ بما سبق، جامعٌ له ولما لحق

دلالة الوصل في الآية:

الجملةُ الاسميّةُ الخبريّة: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ تذييلٌ معطوفٌ على الجملة الاسمية الخبريّة: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ﴾ فبينَهما كمالُ الاتّصال، وبه صارت جملةُ: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ كلُّها تذييلًا للقصة؛ لِما اشتملت عليه من إثباتِ الحكم للعامّ بالموصول مِن قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والمعرَّف بلام الاستغراق[1].

الدّلالةُ على الاستقامة والثّبات، والاستمرارِ على التّقوى لنيل العواقبِ المحمودات

نكتةُ التّعبيرِ بالاسميَّة دونَ الفعليَّة:

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ "جملة اسميَّة تدلُّ على الاستقامة والثّبات، والاستمرار على التّقوى لنيل العاقبة"[2] ورفيع الدّرجات. ذلك أنَّه لمّا تقدَّم شرحُ حال الخائفينَ من جلال اللّه تعالى، وأنَّهم لا تتحرَّك إرادتهم للعلوّ في الأرض ولا الفساد فيها فضلًا عن اقترافهما - أخبر سبحانه أنَّه دائمًا يجعلُ ظَفَرَهم آخرًا، فلذلك جاء التَّعبير بالاسميَّة دلالةً على الثَّبات والدَّوام[3].

الفوزُ والظّفر للجامعينَ بين التواضع والصّلاح مع البشر

بلاغةُ التذييل في قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ تذييل[4]، يدلُّ على أنَّ الفوزَ والظَّفَرَ كلَّه في التَّقوى. والمتَّقي هاهنا هو المتَّقي ما لا يرضاهُ اللّه تعالى عمومًا، ويدخلُ فيه دخولًا أوّليًّا اتّقاءُ علوِّ فرعون وفسادِ قارون بقرينة المقام. أوْ أنَّ المتَّقي مِن المؤمنين هو مَن لم يكن مثلَ فرعون في الاستكبار على اللّه تعالى بعدم امتثالِ أوامره، والارتداع عن زواجره، ولم يكن مثل قارونَ في إرادة الفسادِ في الأرض وإخراج كلِّ شيءٍ من كونه منتفَعًا به لا سيَّما نفسَه؛ فإنَّ غايةَ إفسادِها الامتناعُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 190.
(2) الهلال، الثري الجامع: 8/ 384.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 372.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 12/ 122، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 190.

مِن عبادةِ ربِّها لأنَّها خُلِقت للعبادة، فإذا امتنعَ عنها خرجتْ عن كونها مُنتفَعًا بها، وذلك معنى المتَّقي[1].

معنى التعريف في المسند إليه:

ما الدارُ الآخرة إلا العاقبة

عبّر النظمُ الجليل عن مصير المتقينَ بلفظِ (العاقبة)، وأنها لهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وأصلُ "العاقبة: وصفٌ عومِل معاملةَ الأسماء لكثرة الوصف به، وهي الحالة الآخِرةُ بعد حالةٍ سابقة، وغلبَ إطلاقُها على عاقبة الخير"[2]. فالتَّعريفُ فيها للعهد، إذ المرادُ بها هنا: الجنَّة[3]. وفي إيرادِ المبتدأ بلفظ ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ بعد قوله ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ بيانٌ للمراد بها، فالدارُ الآخرة المعبّر بها عن الجنةِ الدائميَّة التي لا دارَ للمرء بعدَها يسكنُها هي العاقبةُ التي تعقبُ كلَّ ما قبلها. كما أفاد التعبير بلفظ ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ أيضًا الإشارةَ إلى تطمين المتقينَ بأنَّ الظّفر والفوز لهم مهما طالَ الظُّلمُ والبغيُ عليهم من المفسدين. بقي أنَّ التسميةَ بالوصف يدلُّ على تمحُّضِ ذلك الوصف للمسمَّى به؛ فالجنة هي التي يصحُّ أنْ تكون العاقبةَ والنتيجةَ النهائية لكلِّ صبر المتقين، والجائزةَ المعتبرةَ بعد كلِّ تلك التقوى وصورها.

معنى (اللّام)، و(أل) في: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾:

العاقبة كائنةٌ على وجه الاختصاص للمتَّقين، مفضَّلين بها على العالمين

(اللّام) الجارّة حرفٌ موضوعٌ في الأصل للدَّلالة على معنى الاختصاص، وذلك إمّا بالملكيَّة أوْ بغيرها[4]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: والعاقبةُ كائنةٌ على وجه الاختصاص والاستحقاق للمُتَّقين[5]، فهي لهم دائمًا في كلا الدّارين لا عليهم، ومن اللّام يُعرف أنَّها عاقبة محمودة[6]. "وعُلِم من هذا الحصر في الآية

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 331.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 190.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 638.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(5) الهلال، الثري الجامع: 8/ 384.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 372.

الكريمة أنَّ الّذين يريدون العلوَّ في الأرض أوِ الفسادَ ليس لهم في الدّار الآخرة نصيبٌ، ولا لهم منها نصيب"[1]. و(أل) في المتقين موصولةٌ بمعنى: الّذين يتّقون؛ ويراد بالموصول العمومُ لكلّ المتقين مع الكمالِ في التقوى، وفي الصِّلة تعليلٌ لكون العاقبة مختصّةً بهم، إذ التقوى سرُّ اختصاصِهم بالجنَّة والعاقبة.

نكتةُ الإظهار في مقامِ الإضمار:

التعميم، والإعلام بالوصف الذي أثمر لهم الفوز بالنَّعيم المقيم

في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار، إذ مقتضى الظّاهر أن يقال: (والعاقبة لهم)؛ أي: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾، ولكنَّه أظهر تعميمًا وإعلامًا بالوصف الذي أثمرَ لهم ذلك[2].

وللإظهار في موضع الإضمار فوائدُ من أهمّها:

أولًا: التَّسجيل؛ أي: تحقيق اتّصاف محلِّ المضمَر بهذا الوصف، وأنَّه أهلٌ له؛ ومعنى ذلك: الحكمُ عليه به. فقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ بدل (والعاقبة لهم) فقد أفاد بأنَّهم متَّقون.

ثانيًا: التَّعميم؛ أي عدمُ تخصيصِ الحكم بمرجع الضَّمير، فيؤخذُ منه تعميمُ الحكم بعموم علَّة الوصف، فيكون مقياسًا للمذكور وغيره ممَّن شاركَه في الوصف. وعليه فإنَّ العاقبة المحمودة عامَّة لكلِّ متَّقٍ لا يريدُ علوًّا في الأرض ولا فسادًا.

ثالثًا: التَّعليل، وذلك لأنَّ الحكم إذا علِّق بوصف دلَّ على عليَّة ذلك الوصفِ فيه. فقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أفاد بأنَّهم نالوا ما نالوا من الدَّرجات الرَّفيعة بما هداهم الله تعالى إليه من التَّقوى.

رابعًا: التَّنبيه؛ أي: تنبيه المخاطَب؛ لأنَّه إذا جاء الكلام على خلاف السِّياق انتبه المخاطَب له[3].

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 625.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 372.

(3) العثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/ 201 - 202، وتفسير آل عمران: 2/ 312.

ويضاف إلى ما سبق أنَّ هذا الإظهار في قوله تعالى: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فيه رعايةٌ للفاصلة، فتكاملَ حسنُ المعنى مع حُسن اللَّفظ وبراعةِ التَّركيب.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العاقبة والمآل والمصير:

أصلُ العاقبةِ كلُّ ما يأتي في آخرِ الشَّيء، والمَآلُ من الرُّجوع، وفي المَصير انقلابٌ إلى خلافِ الحال

أصلُ العاقبة: كلُّ ما يأتي في عَقِب الشَّيء، أي: آخِره[1]، وعاقبةُ كلِّ شيء: آخِرُه[2]. ويختصّ إطلاقُ العاقبةِ معرَّفةً باللام بالثَّواب، نحوُ قول اللّه ﷻ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافة قد تُستعمَلُ في العقوبة، نحو قول اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [الروم: 10][3]. وأمّا المَآل: فهو من الرُّجوع؛ يقال: آلَ الشَّيءُ يؤول أوْلًا ومَآلًا، أي: رجعَ[4]. وأمّا المصيرُ فجذرُه أصلٌ صحيحٌ وهو المَآل والمَرجع[5]، ولكنَّ المَصيرَ يكون أيضًا بمعنى انقلاب الشيء إلى خلافِ الحال التي هو عليها[6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عقب).
(2) الخليل، العين: (عقب).
(3) الراغب، المفردات: (عقب).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (أول).
(5) ابن فارس، المقاييس: (صير).
(6) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 492.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ [القصص: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

زيادةُ إيضاحٍ وبيان؛ للتَّأكيد على عظيم اللُّطفِ والامتنان

لمّا ذكر سبحانه محلَّ الجزاء، وذكر أنَّه جعلَه لعباده الخلَّصِ الأتقياء؛ أكَّد ذلك بذكر وعدِ المحسنين، ووعيدِ المسيئين؛ فأخبرَ سبحانه أنَّ جزاءَ الحسنة عشرةُ أضعافها وتزيدُ إلى سبعمائة ضعف؛ ثمَّ يزيدُ الأجر إلى ما لا يحيط به إلّا علّام الغيوب، فضلًا من الله ورحمة، وأخبر كذا أنَّ السَّيِّئة بمثلها، لطفًا منه بعباده، وشفقةً عليهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلَا يُجۡزَى﴾: أصل (جزي) يدلُّ على قيام الشَّيء مقامَ غيره، ومكافأته إيّاه[2]. والجزاءُ: الغَناء والكفاية والمكافأة على الشَّيء[3]. والجزاء: ما فيه الكفايةُ من المقابلة، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ[4]. يقال: جزيتُه بما صنعَ، وعلى ما صنعَ جزاءً، وجازيتُهُ مجازاةً، بمعنى واحد[5]. والجزاءُ يكون ثوابًا ويكون عقابًا، والجزاء أيضًا: القضاءُ، يقال: جَزيتُ فلانا حقَّه؛ أي: قضيته. قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]؛ أي: لا تقضي ولا تنوبُ نفس في يوم القيامة عن نفس شيئًا[6]. والمقصودُ بالجزاء في الآية: العقوبة، أي: يُعاقَبُ عاملُ السيّئة بما يليقُ بعمله[7].

(1) الدرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 7/ 124، والمراغي، تفسير القرآن: 20/ 102.
(2) ابن فارس، المقاييس: (جزي).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جزي).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جزي).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جزي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (جزي).
(7) القرطبي، أحكام القرآن: 13/ 320.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يرشدُنا المولى ﷻ في هذه الآية الكريمة إلى تمام فضلِه وعدله، ومضاعفةِ ثوابه وأجره؛ حيث يقول سبحانه: مَنْ جاء اللّه يومَ القيامة بالحسنة المتمثّلة بالتّوحيد والإخلاص وجميع ما أمر اللّه به ورسوله مِنْ فعل الخيرات وترك المنكرات - فله ما هو أعظمُ منها في الثّواب والجزاء، وهو الجنّةُ والنّعيمُ الدّائمُ - ومَنْ جاء بالسّيِّئة وهي الشِّركُ وما نهى عنه الشّارع سبحانه نهيَ تحريم، فلا يثابُ الّذين عملوا السّيِّئات مِنَ الشِّرك والمعاصي إلّا مِثْلَ ما كانوا يعملون مِنَ السّوءِ والقُبْح[1].

يـجـازي الله بـالإحـسـان إحـسـانًـا، وبـالإسـاءة عقوبةً وحرمانًا

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الآية عن سابقتها:

فصلَ النظم الكريم قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ عن سابقه؛ لأنَّ جملة ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ تتنزّلُ منزلةَ بدلِ الاشتمال لجملةِ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ العاقبة ذاتُ أحوالٍ من الخير، ودرجاتٍ من النَّعيم، وهي على حسب ما يجيء به المتّقون من الحسنات، فتتفاوتُ درجاتهم بتفاوتها، وكذا الأمرُ في جانب المجرمين المسيئين، تتفاوتُ عقوباتهم[2]؛ فبينَ الجملتين كمالُ اتّصال. وقيل هي كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ لبيانِ وعدِ المحسنين، ووعيد المسيئين بعد ذكر أنَّ العاقبة للمتّقين[3]. وبناءً على التوجيه الأول تكونُ الجملةُ الأولى بدلَ اشتمال ممّا قبلها وهي المقصودة أصالةً، وعُطف عليها وعيدُ المسيئين استطرادًا واستكمالًا. وعلى التوجيه الثاني أنه بعد أنْ بيّن أنَّ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، أراد أنْ يُطمئِنَ غيرَ الكاملينَ في التقوى

الـفـصـلُ للبدليَّة، وبيانِ منـزلة المتَّقين العليَّة، وعدالةِ الـعـقـوبـات الإلهيَّة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 345، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 625.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 391.

ممَّن عمِل حسنات وسيئات معًا؛ ما بالُهُم وكيفَ التعاملُ معهم؟ فبين أنَّ مَن جاء بالحسنة فله خيرٌ منها، ومن جاء بالسئية فيعاقبُ بقَدْرِها عدلًا منه ورحمةً بالعصاة، فتركُ الوصل حينئذٍ لشبه كمال الاتصال؛ إذ هي جوابٌ أفرزه قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

نكتة بناء الآية على أسلوب الشرط:

التـعـبـيـر بـالـشـرطـيَّـة؛ لـبـيـان أسـبـابِ الـوصـول إلى المنـازل المرضيَّة والشقيّة

بنيت الآية على أسلوب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ للرَّبط بين فعل الحسنة ومضاعفةِ أجرها، وفعلِ السَّيِّئة وبيان عقابها، وبيانِ التَّلازم بين جملتي الشَّرط والجواب؛ حيثُ ينزِّلُ الشَّرط مع الجزاء بمنزِلَة العلَّة مع المعلول[1]. ويضاف إلى ذلك ما يدلُّ عليه التَّعبير باسم الشَّرط ﴿مَن﴾ من العموم، ذلك أنَّ أسماء الشَّرط وأدواته من جملة الطَّرائق التي يستفاد منها عمومُ الخطاب؛ أي: إنَّ حكمَ المجيء بالحسنة والسَّيِّئة وما يترتَّب عليهما من ثوابٍ وعقاب يشملُ جميعَ الخلائق، وليس خاصًّا بأناسٍ معيَّنين؛ فكلُّ فاعلٍ للحسنة يلقى الخيرَ العميم، ويرى أنواعًا من النَّعيم، وكلُّ فاعل للسَّيِّئة يلقى كذلك جزاءَ ما فعله دون مضاعفةٍ للسَّيِّئة لطفًا من ربِّ العالمين دون النظر إلى جنسٍ أو رتبة. واللّه ذو الفضل العظيم لا يظلمُ النّاس شيئًا.

سرُّ إيثار التَّعبير بالمجيء دون العمل مثلًا:

فـي المـجـيء بالعملِ تحتّمُ الـعَـوْد لـيـومِ العرْض

أوثر التَّعبير بالفعل ﴿جَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ دون (مَن عمل حسنة) ونحوه؛ لأنَّ المجيءَ هو حضورُ الجائي من حيثُ كانَ إلى مكانٍ لأمرٍ ما، ويقال: جاء بكذا: استحضره[2]. وفيه دلالةٌ على تحقُّق الحضور والعَوْد إلى اللّه تعالى للحساب والجزاء؛ ولم يعبِّر بالعمل للحسنات والسّيئات

(1) ابن هشام، رسالة المباحث المرضيّة، ص: 64.

(2) الراغب، المفردات، وجبل، الاشتقاقي: (جاء).

كأن يقول: (ومن عمل الحسنة فله خير منها)؛ لأنَّ ذلك الفعلَ مناسبٌ للحياة الدنيا، التي هي مكانُ العمل، في حين أنَّ السّياق بأكملِه يتحدّثُ عن الدار الآخرة والعاقبة، وذلك يستدعي المجيءَ إلى ذلك المكانِ لغرضِ الحسابِ والجزاء، فالمرادُ: مَن حضرَ بالحسنة، ومَن حضر بالسَّيّئة يومَ العَرْض على الحساب[1].

معنى (الباء)، و(أل) في قوله: ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾:

لا ظُـلْـمَ يـومَ القيامة

عبَّر النظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ بالباءِ الجارّة وأل المعرفة في ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾، والأصلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]. وهو بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾؛ أي: حضر يوم القيامة هو مع عمله كهيئةِ الملتصق به، المصاحِب له[3]، فالذي يقبضُ على الحسنة؛ فله الحسنى وزيادة، والذي يقبضُ على السيّئة يلقى يومَ الحساب جزاءَه. وأما (أل) في ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ فهي للجنس، لعموم كلِّ حسنة ممّا يحبُّه اللّٰه ويرضاه، فالاستغراق فيها استغراقٌ عرفيٌّ لكلِّ حسنةٍ استوفت شرطَي القبول من الإخلاص والمتابعة، فلا يظلمُ الجائي بأيّةِ حسنةٍ صدرَتْ منه صغيرةً كانت أوْ كبيرةً؛ لأنّه المسؤولُ عنها كما يدلُّ عليه المجيء بها. وكذا الكلامُ في جانب السيئة.

بلاغةُ الاستعارة التمثيليَّة:

مصاحبةُ الجائي لـلـحـسـنـات تشبيهٌ للمعنويِّ بالحسيّات

عبَّر النظمُ الكريم بالاستعارة التمثيلية في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾؛ إذ الحسنةُ من حيثُ هي ثوابٌ على العملِ لا يحملُها صاحبُها ويجيءُ بها؛ لأنها أمر معنويٌّ، بل أُريد تشبيهُ حال الجائي وقد أصاب ثوابًا على أعماله الصالحة بحالِ مَن يأتي حاملًا متاعًا، وفي هذا تنزيل للمعنويات بثياب الحسيات توضيحًا لاستصحاب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 195.

الإنسان ثواب أعماله يومَ العرض. ويجوز حملُ المجيء على حقيقته، أي: مجيءٌ إلى الحساب، على أنْ يكون المراد بالحسنة محلَّها، أي: يجيءُ بكتابها في صحيفةِ أعماله.

بلاغة الطِّباق في الآية:

الطباق إبراز المعنى وتوضيحُه

جاء الطباق في الآية بين لفظَي ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ و﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهو من المحسِّنات البديعيَّة، ليُضفي على الجملة جمالًا ويزيدها بهاءً وبيانًا؛ حيث إنَّ ذكر المتضادّات يساعدُ على إبراز المعنى ويزيدُه وضوحًا؛ فالعرب: تقول: (والضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَه الضِّدُّ)، وتقول كذلك: (وبضدِّها تتميَّز الأشياء)؛ فوجود السَّيِّئة مشعِر بمعنى الحسنة وقيمتِها ومكانتِها، والعكسُ بالعكس. وفي هذا بيانٌ لأقسام النّاس يوم القيامة، عن طريق هذه المقابلةِ بين الجزاءين، فالنّاس إمّا محسنٌ وإمّا مسيءٌ، وبيانٌ لفضل اللّه تعالى في مكافأة المحسِن، وعدلِه في معاقبةِ المسيء.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿فَلَهُۥ﴾:

اللّام لإفادة الاستحقاق؛ فهو الفائز يوم التَّلاق

عبَّر النظمُ الجليل عن جملةِ جوابِ الشرط بجملةٍ اسميَّةٍ جرى فيها تقديم الخبر، وهو جارٌّ ومجرور في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾ والأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص، وذلك إمّا بالملكيَّة أو بغيرها[1]. و(اللّام) في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ﴾ للاختصاص الذي يفيدُ الاستحقاقَ بعد تفضُّل اللّه سبحانه وبحمده؛ أي أنَّ الذي يجيء بالحسنة هو المخصوصُ بالأجر العظيم، المستحقُّ للخير العميم.

نكتة تقديم الخبر ﴿فَلَهُۥ﴾:

تكريمُ أهل الحسنات، وتخصيصهم بالنَّعيم في روضات الجنّات

قُدِّم شبهُ الجملة الخبر ﴿فَلَهُۥ﴾ على المسند إليه ﴿خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾؛ اهتمامًا بالمقدَّم، وتشويقًا للمؤخَّر،

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

وفي هذا تشريفٌ لِمَن يأتي يوم القيامة بالحسنات، والأعمال الصّالحات، حيث يقدَّم ويكرَّم فينال الثّواب الجزيل، والمكانة العليَّة في جنَّة ربِّ البريَّة ﷻ. ويصحُّ أن يكون التَّقديمُ للتَّخصيص حملًا على العموم في لفظ ﴿مَن﴾، فيكون المعنى تخصيص أصحاب الحسنات بالنَّعيم في روضات الجنّات.

نكتةُ تنكيرِ المبتدأ:

تنكير (خير) للتَّكثير والتَّعظيم؛ لبيان ما أُعدَّ من النَّعيم المقيم

جاءتْ كلمةُ ﴿خَيۡرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾ نكرةً؛ لإفادة التَّعظيم؛ أي: إنَّ كلَّ حسنة تحتوي على خيرٍ لا محالةَ يصلُ إلى نفس المحسِن أوْ إلى غيره، فللجائي بالحسنة خيرٌ أفضل ممّا في حسنتِه من الخير، أوْ فله من اللّه إحسانٌ عليها خيرٌ من الإحسان الَّذي في الحسنة وأكثرُ منه، وقد قال تعالى في آيات أخرى: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، أي: فله من الجزاء حسناتٌ أمثالها، وهو تقديرٌ يعلمه اللّه ﷻ[1].

معنى (مِن) في قوله: ﴿مِّنۡهَاۖ﴾:

الدَّلالةُ على ابتداء الغاية؛ لبيان فضلِ الإحسان والهداية

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداء الغاية[2]، وهو بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾؛ أي: له خيرٌ بحسب حسنتِه كائنٌ ابتداءً من فعله إيّاها إلى أن يُكافأ بها[3]. وفي هذا إعلاءٌ لشأن الحسنة وتكريمٌ لها حيثُ يشمل خيرُها صاحبَها منذ أن يهمَّ بعملِها حتَّى يلقى اللّه تعالى بها.

نكتةُ عطفِ مَن جاء بالسيّئة:

العطفُ لاستيفاءِ الأقسام، وبيانِ ما يؤولُ إليه الأنام

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ على سابقِه؛ استيفاءً لأقسامِ مجيءِ النّاس بالعمل يومَ القيامة، فإمّا جاءٍ بالحسنات، وإمّا جاءٍ السَّيِّئات، وليس ثَمَّ ما يُجاء به يوم القيامة غيرُ هذين:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 302.

الحسنات والسَّيِّئات. وهذا ما يُعرف في علم البديع بـ(التَّقسيم)[1].

وممّا حسَّن الوصلَ بين الجملتين وجودُ المغايرة بينهما؛ فليس مَن يجيء بالحسنة يوم القيامة كمَن يجيء بالسَّيِّئة؛ فلكلٍّ منهما جزاءٌ معلوم كما أوضحت الآية الكريمة. هذا مع وجود التّلاؤم الفكريِّ بين الجملتين الكريمتين، واتّفاقهما الخبريّة، وكونهما اسميَّتين.

معنى (الباء)، و(أل) في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

إفادةُ أنَّ كلَّ مسيء مجازًى بما كان يحملُه يومَ القيامة معَه

(الباء) حرف جرٍّ موضوعٌ في الأصل للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]. وهذا هو معناه في قوله تعالى: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ حيث دلَّ على الإلصاق الذي يفيد المصاحبة؛ أي: جاء ملتصقًا بسيِّئته، مرهونًا بها، مصاحبًا لها. وأمّا (أل) في ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ فهي التي لاستغراق أفراد الجنس؛ لتشمل كلَّ سيِّئة من صنوف السَّيِّئات. وفي هذا دليلٌ على كمالِ عدل اللّه سبحانه، والتركيبُ يحتملُ التمثيلَ والحقيقةَ كما سبق بيانُه قبلُ.

سرُّ إيثار النَّفي بـ(لا):

(لا) في النَّفي آكد، ولِما في لفظها مِن طول ومَدّ؛ طال النَّفي بها واشتدّ

أوثر النَّفي بـ(لا) دون (لن) في قوله: ﴿فَلَا يُجۡزَى﴾؛ لأنَّ النَّفي بـ(لا) آكدُ من النفي بـ(لن)؛ فالنَّفي بـ(لا) قد يكون جوابًا للقسم، والنَّفي بـ(لن) لا يكون جوابًا له، ونفيُ الفعل إذا أُقسم عليه آكد[3]. كما أنَّ النَّفي بـ(لا) أبلغُ من النَّفي بـ(لن)؛ حيث إنَّها أدلُّ على دوام النَّفي وطولِه من (لن)، فهذه الأخيرة لنفي الفعل فيما يُستقبَل، كما أنَّ (لم) لنفيه في الماضي، أمّا (لا) فلإطلاق نفيه، وأنَّها لِما في

---

(1) "التقسيم هو أن يذكر المتكلِّم شيئًا ذا جزأين فصاعدًا، ثمَّ يضيف إلى كلِّ واحد من أجزائه ما هو له عنده، واشترط فيه البديعيُّون أن يستوفي أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، فلا يغادر منه قسمًا، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [الرعد: 12] وهذا أحسن تقسيم، لأنَّ النّاس عند رؤية البرق بين خائف وطامع ليس فيهم ثالث". يُنظر: أحمد شعيب، بحوث منهجيَّة في علوم البلاغة العربيَّة، ص: 380.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(3) المرادي، توضيح المقاصد والمسالك: 3/ 1229.

لفظها مِن طول ومَدّ؛ طال النَّفي بها واشتدّ[1]. وهذا التَّوكيد مناسبٌ لما أُريد من الآية، فإنَّ بعض النّاس قد يتشكَّكون في أمرِ أنّ اللّٰه سبحانه لا يجازي بالسَّيّئة إلّا مثلها، ويحاولُ الشَّيطان أن يُؤيسَهم من رحمةِ ربِّهم، فيعظِّم في أعينهم ذنوبهم، فجاءَ تأكيدُ النَّفي ردًّا على ذلك.

نكتةُ التَّعبير عن جوابِ الشرط بالفعليّة:

أوثر التَّعبير بالجملة الفعليَّة؛ لبيان عظيم الرَّحمة الإلهيَّة

أوثر التَّعبير هنا بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجۡزَى﴾ بدلًا من التَّعبير بالجملة الاسميَّة، كما سبق في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾؛ لأنَّ مِن دلالات الجملة الفعليَّة التغيُّرَ وعدمَ الثُّبوت خلاف الجملة الاسميَّة، فجيء بها هنا؛ لبيان أنَّ الجزاءَ قد يتغيَّر وفقَ تقديره ولطفِه سبحانه وتعالى؛ فقد يخفِّف سبحانه عن بعضِ المسيئين هذا الجزاءَ الذي يستحقّونه يوم القيامة. وقد جيءَ بالجملة الاسميَّة مع من يجيءُ بالحسنة للدَّلالة على الثُّبوت، فالحسنة بعشر أمثالها وتزيدُ.

نكتةُ بناءِ الفعلِ للمفعول:

بُني الفعل للمفعول؛ للاهتمامِ بما إليه يؤول

حُذِف الفاعل وبُني الفعل للمفعولِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للعلْم بالفاعل وهو اللّٰه سبحانه وتعالى، وكذا لجذبِ الانتباه، وجعلِ الاهتمام منصبًّا على المفعول، وهو الجزاءُ المماثلُ لما عملَه. وثَمَّ ملمحٌ آخر، وهو أنَّ عادةَ القرآن أنَّ ما كان من خيرٍ فإنَّه يُصرَّح بنسبته إلى اللّٰه سبحانه وبحمده، وما كان من شرٍّ فإنَّه لا يُصرَّح بنسبته إليه؛ ومن أشهر الأمثلة على ذلك قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: 10]. فبُني فعل الإرادة للمفعول مع ذِكر الشَّرِّ: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجن: 10]، وأُسنِد للفاعل مع ذكر الرَّشَد: ﴿أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: 10]. وكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ

---

(1) الزّركشي، البرهان: 2/ 420، وابن القيّم، التفسير القيّم: 1/ 593.

﴿عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، فمع ذكرِ الجزاء على السَّيِّئة - وهو العقاب بالنّار - بُني الفعل للمفعول.

نكتة التَّعبير بالموصول وصِلَتِه:

التَّنبيه على العلَّة الموجبة للحُكم، والأسباب الجالبة للعقوبة بعدَ الإثم

التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلَتِه ﴿عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ للتَّسجيل عليهم من أوَّل الأمر، وللتَّنبيه على العلَّةِ الموجبةِ الجالبة للشَّقاوة والتَّعاسة لهم، وهي كونهم عاملينَ للسَّيِّئات؛ وفيه زيادةٌ في التَّقرير، وتوبيخٌ لهم وتحقير.

نكتة الإظهار بالموصوليَّة في مقام الإضمار:

تهجينُ العمل المشين، وتبغيضُ السَّيِّئة إلى قلوبِ السّامعين

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هو عين قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ فالمقامُ مقامُ إضمار؛ والأصلُ أن يقال: (ومن جاء بالسَّيِّئة فلا يُجزَون... إلخ)، لكنَّه عدلَ عن مقتضى الظّاهر لفوائدَ، منها: التَّسجيلُ عليهم بالذَّمّ بعمل السَّيِّئات، وبيانُ العلَّة في الحكم، وبيانُ أنَّهم أهلٌ لهذا الوصف، وإفادةُ العموم ليشملَ كلَّ مَن تلبَّس بهذا الفعل، وتنشيطُ ذهنِ السّامع وتنبيهُه، وتكرارُ إسنادِ عمَل السَّيِّئات إليهم؛ لقصد تهجين هذا العملِ المشين، وتبغيضِ السَّيِّئة إلى قلوب السّامعينَ من المؤمنين[1].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿عَمِلُواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

التعبير بالماضي يفيد التَّحقيق، وهو بتوكيد الفعل حقيق

وردَ الفعلُ الواقعُ في جملةِ الصِّلة ماضيًا في قوله تعالى: ﴿عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لإفادةِ تحقُّق الوقوع، وكأنَّه قد وقع تأكيدًا له، وأوثر التَّعبير بالفعل ﴿عَمِلُواْ﴾ دون (جاؤوا)؛ إشارةً إلى أن ما يُجزونَ به ما كان عن قصد[2]، وللتَّنبيه على أنَّ عملَهم هو علَّة جزائهم؛ زيادةً في التَّنبيه على عدلِ اللّه ﷻ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 330، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 332.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ونكتة جمعها:

(أل) جنسيَّة؛ لإفادة عموم السَّيِّئات الرَّديَّة

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هي (أل) الجنسيَّة؛ جاءت لإفادة العموم، واستغراقِ جميعِ أفراد الجنس[1]. وجاءت الكلمة بلفظ الجمع؛ لإفادة أنَّها تشملُ جميعَ أنواعِ السَّيِّئات[2].

علَّة إيثار القصر نفيًا واستثناءً:

بيان كمال عدله سبحانه في السَّلب ورحمتِه في العطاء

أوثر القصر بالنَّفي والاستثناء في قوله: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لأجل ما في صيغته من تقديم جانب النَّفي اهتمامًا به، وإظهارًا للعدل الإلهيِّ، فالحصرُ حقيقيٌّ، وليس في الحصر الحقيقيِّ ردُّ اعتقاد، بل هو إخبار عمّا في نفس الأمر؛ ولذلك كان يساويه أنْ يقال: (ومن جاء بالسَّيِّئة فيجزى مثلها)، لولا الاهتمام بجانب نفي الزِّيادة على المماثلة. ونظيره قول النَّبيِّ ﷺ حين سألته هند بنت عتبة رضي الله عنها فقالت: إنَّ أبا سفيان رجل مِسِّيك، فهل عليَّ حرجٌ أن أُطعِم مِن الذي له عيالَنا، فقال لها: «لا، إلّا بالمعروف»[3]، ولم يقل لها: أطعميهم بالمعروف، وقد جاء على هذا المعنى قول النَّبيِّ ﷺ: «وإنْ همَّ بسيِّئة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها اللّه سيِّئة واحدة»[4]؛ فأكَّدها بواحدة تحقيقًا لعدم الزِّيادة في جزاء السَّيِّئة[5]. وهذا التَّأكيدُ يناسبُه مجيءُ القَصْر في ثوب النَّفي والاستثناء؛ لأنَّه - أي: القصر بالنَّفي والاستثناء - يكون غالبًا فيما ينكرُه المخاطَب[6]. فكأنَّه لمّا ذُكِر أنَّ ثوابَ الحسنة خيرٌ منها، وأنَّها تُضاعَف إلى عشر أمثالها،

(1) الماوردي، النُّكت والعيون: 2/ 193.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 373.
(3) الحديث متَّفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أخرجه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (5359)، وأخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1714).
(4) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (131) من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 196.
(6) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.

إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة - ظُنَّ أنَّ السَّيِّئة كذلك، فجيءَ بالقصر نفيًا واستثناءً لتأكيدِ خلافه، فضلًا من اللّٰه ورحمةً.

دلالة التَّعبير بالموصول ﴿مَا﴾ وصلته:

التَّنبيهُ على العلَّة الموجبة، والأسبابِ الجالبة

جاء التَّعبير بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ وصلتِه في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على العلَّة الموجبة الجالبة للشَّقاوة بالإيماء دون التَّصريح؛ لاستقباح ذكره؛ وفيه زيادةٌ في التَّقرير، وإهانةٌ لهم وتحقير. وفيه أيضًا مزيدُ بيان وتأكيدٍ للعدل الإلهيّ العظيم، لأنَّه لما قال اللّٰه سبحانه: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بيَّن أنَّ جزاءهم إنَّما هو بما كسبتْه أيديهم، وأنَّهم - بعصيانهم وعدوانهم - قد أوقدوا لأنفسهم النّار التي يصلوْنها يوم القيامة، فيقال لهم توبيخًا وتبكيتًا وتحسيرًا: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: 182]. وإنَّ مجيءَ هذه الآية بعد قصَّة قارونَ فيه مزيدُ بيانٍ لمدى جُرمه مع عدل اللّٰه تعالى معه، كيلا يَستشنع أحدٌ عقوبةَ الخسف التي حلَّت به، فقد استحقَّها ببغيه وعدوانه، وفجوره وعصيانه، وما عاقبه اللّٰه تعالى على سيِّئته بأكثرَ منها، بل بمثلها، و﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46].

نكتة التَّعبير بفعل الكون ماضيًا:

تنزيلٌ للإثم منزلة السَّجيَّة، وبيانٌ هوانه على النُّفوس العصيَّة

التَّعبيرُ بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يفيد أنَّ عملهم هذا ليس طارئًا عليهم، بل قاموا به بجميع هِمَمِهم حتى خالط أنفسَهم وصار كالسجيَّة لهم؛ ففيه إصرارٌ وعنادٌ، ونسيانٌ للمعاد.

دلالة التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

جاء التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادة تجدُّد الحدوث واستمراريَّته، مع استحضار الصورة في ذهن المستمع؛ فكأنَّه يشاهدها بعينه. وفي التَّعبير بالمضارع كذلك مبالغةٌ في المثليَّة[1]؛ أي:

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 374.

إنَّه يفعل بهم في الآخرة مثل الذي فعلوه في الدُّنيا، ونلحظُ أنَّه قد جمعَ بينَ صدورِ العملِ منهم ماضيًا وصدوره منهم مُضارعًا؛ فقال: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ولم يقل: (فلا يجزى الذين عملوا السيئاتِ إلا ما عملوه) في الدنيا، بل أدخلَ فعلَ الوجود ﴿كَانُواْ﴾ وحوَّل الفعل مضارعًا لبيان أنَّ الجزاء لما وُجد منهم من عملٍ وتحقَّق على سبيل الاستمرارِ والإصرارِ عليه؛ إظهارًا لكمال العدل الإلهي وبيانًا لعظيم الرحمة والشفقة.

إفادة التَّجدُّد والاستمرار، مع إحياء للصّورة واستحضار

بلاغةُ اجتماع الإيجازات:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إيجازات متعددة، فقد دلّ الاستثناء المفرَّغ عن الفعل ﴿يُجۡزَى﴾ المنفيّ المفيد بالنَّفي عمومَ أنواعِ الجزاء، والمستثنى تشبيهٌ بليغ حذف منه المستثنى منه وما دلَّ على التشبيه من المصدر والمشابهة، والتقدير: (فلا يجزى الذين عملوا السيئاتِ وجزاءً إلا جزاءً شبهَ الذي كانوا يعملون)، والمرادُ المشابهةُ والمماثلة في عُرف الدّين؛ أي: جزاءً وفاقًا لما كانوا يعملون، وجاريًا على مقداره لا حيفَ فيه، وذلك موكولٌ إلى العلْم الإلهيّ[1]، فحُذِف المثلُ وأقيم مقامَه ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مبالغةً في المماثلة، وهذا لطفٌ منه ﷻ إذ ضاعفَ لهم الحسنة، ولم يرضَ بزيادة جزاءِ السَّيّئة مقدارَ ذرَّة. وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبارِ المضاف، فإنَّ أعمالَهم أنفسَها تظهرُ يوم القيامة في صورةِ ما يعذّبون به، ولا يخفى ما فيه[2].

الإيــجــازُ للمبالغة في المماثلة، لبيانِ لُطفه سبحانه في المعاملة

أمّا الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ فقد حُذِف منه متعلِّقاه، وهو عائد الصّلة، الضَّمير الواقع في محلّ نصبِ مفعولًا به ومبيّن الموصول، إذ التَّقدير: (يعملونه من السيئات)، وهذا حذف مطّرد، وقد حُذف لتقدُّم ما يدلُّ عليه، وهو قوله تعالى: ﴿عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. وفيه - مع ما سبق - رعايةُ الفاصلة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 436، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 19، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 332.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجزاء والثواب:

الـثَّـواب من الـرُّجـوع، والجزاءُ من قيام الـشيء مـقـامَ غـيره ومُكافأته إيّاه

(الثاء والواو والباء) قياسٌ صحيحٌ من أصلٍ واحدٍ وهو العَوْدُ والرُّجوع؛ يقال: ثاب يَثوب إذا رجعَ[1]، والمَثابةُ: الموضعُ الذي يُثاب إليه، أي: يُرجَع إليه مرة بعد أخرى[2]. والثَّوابُ: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، ويقال في الخير والشرّ، ولكنَّ الأكثرَ المتعارف في الخير[3]. والمعنى المحوريّ لجذر الثَّواب: رجوعُ الشيء المتفرِّق الذّاهِب، والثَّوابُ من هذا؛ لأنَّ العملَ ذهبَ وهذا عائدٌ مقابلٌ له، كما يقال: عائدُ العمل كذا[4]. وأمّا الجزاءُ: فهو ما فيه الكفايةُ من المقابلة، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرّ[5]. وجذرُ الجزاء يدورُ حول قيامِ الشيء مقام غيرِه ومكافأته إيّاه[6]. والجزاءُ يكون مُماثلًا للمجزَى عنه؛ لأنَّ أصلَ الجزاء في كلام العرب: القضاءُ والتعويض. يقال: جزيتُه قرضَه ودَينَه أجْزيه جَزاءً، بمعنى: قضيتُه دَينَه. ومن ذلك قيل: جزَى اللّهُ فلانًا عنّي خيرًا أو شرًّا، بمعنى: أثابه عنّي وقضاه عنّي ما لزمَني له بفعلِه الذي سلفَ منه إليّ[7].

والحاصلُ أنّ الثواب لوحظَ فيه معنى العَوْد والرّجوع إلى العامل من عمَلِه، والجزاءَ لوحظَ فيه معنى المقابلةِ والمكافأة، وإن كانا يتَّحدانِ مآلًا.

(1) ابن فارس، المقاييس: (ثوب).
(2) الجوهري، الصحاح: (ثوب).
(3) الراغب، المفردات: (ثوب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ثوب).
(5) الراغب، المفردات: (جزي).
(6) ابن فارس، المقاييس: (جزي).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 27.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨٥﴾ [القصص: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ المرجعِ القريبِ بعد ذِكْرِ المرجعِ البعيدِ

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجوهٌ، منها: أنَّهُ ﷻ لمّا شرحَ لرسولِهِ ﷺ أمرَ القيامةِ، واستقصَى في ذلكَ في قولِهِ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ﴾ [القصص: 83]، والآيات التي تلتها [القصص: 83 - 84]؛ شرحَ لهُ ما يتَّصلُ بأحوالِهِ، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ الآيةَ[1]، وقيل في مناسبتها أيضًا: إنَّه لمّا قرَّرَ ذِكْرَ الآخرةِ الَّتي هي المرجعُ، وكرَّرَهُ، وأثبتَ الجزاءَ فيها، وأنَّ العاقبةَ للمتَّقينَ؛ أتبعَهُ ما هوفي بيانِ ذلكَ كالعلَّةِ، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ الآيةَ[2].

ومنها: أنَّه لمّا ذَكَر يومَ القيامةِ، الذي هو مرجعُ الناس جميعًا إلى اللّه ﷻ، وأشار في الآية إلى دار النَّعيم، التي يدخلها الَّذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا؛ ذَكَرَ مرجع أفضل مَن لا يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا في الدُّنيا، وهو النَّبيُّ ﷺ على أرجح أقوال أهل التفسير في ذلك، وتعتبر مناسبة هذه الآية في الوجوه الثلاثة بالنظر للآياتِ التي قبلها مباشرة.

ومنها أيضًا: أنَّهُ ابتداءُ كلامٍ للتَّنويهِ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ، وتثبيتِ فؤادِهِ، ووعدِهِ بحُسْنِ العاقبةِ في الدُّنيا والآخرةِ، وبيانِ أنَّ إنكارَ أهلِ الضَّلالِ رسالتَهُ لا يَضيرُهُ؛ لأنَّ اللّهَ أعلم بأنَّهُ على هدًى، وأنَّهم على ضلالٍ، بعدَ أنْ قدَّمَ لذلكَ مِنْ أحوالِ رسالةِ موسى عليه السلام ما فيهِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 19.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 374.

عِبْرةٌ بالمقارنةِ بينَ حالَي الرَّسوليْنِ وما لَقِياهُ مِنَ المُعرِضينَ[1]، وفي هذا الوجهِ الأخير نظرٌ للآياتِ البعيدةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَضَ﴾: (فرض) أصلٌ يدلُّ على تأثيرٍ في شيءٍ مِنْ حَزٍّ أو غيرِهِ[2]، والفَرْضُ: قطعُ الشَّيءِ الصُّلْبِ والتَّأثيرُ فيه، كفَرْضِ الحديدِ والقَوْسِ، والمِفْراضُ والمِفْرَضُ: ما يُقطَعُ بِهِ الحديدُ[3]، ومعنى قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: أوجبَ عليكَ تلاوتَهُ وتبليغَهُ والعملَ بما فيهِ[4]، أو أنزله عليك.

2) ﴿لَرَآدُّكَ﴾: (ردد) أصلٌ واحد يدلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ، تقولُ: رَدَدْتُ الشَّيءَ أَرُدُّهُ رَدًّا، وسُمِّيَ المُرتدُّ بذلكَ؛ لأنَّهُ ردَّ نفسَهُ إلى الكفرِ[5]، وقيلَ: الرَّدُّ: صرفُ الشَّيءِ بذاتِهِ أو بحالةٍ مِنْ أحوالِهِ، فمِنَ الرَّدِّ بالذّاتِ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومِنَ الرَّدِّ إلى حالةٍ كانَ عليها قولُهُ سبحانَهُ: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: 149][6]، ويقالُ: استردَّ الشَّيءَ، أي: استرجعَهُ[7]، ومعنى ﴿لَرَآدُّكَ﴾: لَمُرجِعُكَ[8].

3) ﴿مَعَادٍ﴾: (عود/ عيد) أصلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلَى تَثْنِيَةٍ في الأَمْرِ، والآخَرُ جِنْسٌ مِنَ الخَشَبِ[9]. والعَود: أصلٌ يدلُّ على استمرار الشَّيء امتدادًا أو تكرُّرًا أو تجدُّدًا، ومنه أعواد الشَّجر لامتدادها أو تكرُّر شجر آخر بسببها، ومنه العَود: الرجوع، وتكرَّر لوجود الشَّيء أو لوجود الحال، ومنه: الصَّيرورة والاستمرار، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ٣٩﴾ [يس: 39]، ومعادُ الرجل: بلدُهُ؛ لأنَّه يتصرَّف، ثمَّ يعود إليه[10]، وقد اختُلِفَ في المرادِ بالمَعادِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، فقيلَ:

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 104، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فرض).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فرض).
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رد)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ردد).
(6) الراغب، المفردات: (ردد).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (ردد).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عود/ عيد).

المرادُ بِهِ الآخِرةُ، وقيلَ: الجنَّةُ، وقيلَ: الموتُ، وقيلَ: مكَّةُ[1]، وقيلَ: المقامُ المحمودُ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الوعدُ الكريمُ للنَّبيِّ ﷺ بحسن العاقبة في الدُّنيا والآخرة

إنَّ الَّذي أوجبَ عليكَ العملَ بأحكامِ القرآنِ وفرائضِهِ لرادُّك إلى محلٍّ عظيمِ القَدْرِ في الدُّنيا، اعتَدْتَهُ، وألِفْتَهُ، وهو مكَّةُ، والمرادُ بذلكَ عَوْدُهُ ﷺ إليها يومَ الفتحِ، أو لرادُّكَ إلى المقامِ المحمودِ في الآخرةِ، حيث تنالُ الكراماتِ وعاليَ الدَّرجاتِ، فقُلْ لِمَنْ خالفَكَ، وكذَّبَكَ مِنَ المشركينَ: ربّي أعلمُ بالمُهتدي والضّالِّ منّي ومنكُم، وستعلمونَ مَنْ تكونُ لهُ عاقبةُ الدّارِ، ومَنْ تكونُ لهُ الغلَبةُ والنُّصرةُ في الدُّنيا والآخرةِ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ عمّا قبلَهُ:

تثبيتُ فؤادِ النَّبيِّ ﷺ ووعدُه بحُسْنِ العاقبةِ

قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ استئنافٌ نحويٌّ أو بيانيٌ؛ للتَّنويهِ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ، وتثبيتِ فؤادِهِ، ووعدِهِ بحُسْنِ العاقبةِ في الدُّنيا والآخرةِ، وبيانِ أنَّ إنكارَ أهلِ الضَّلالِ رسالتَهُ لا يَضيرُهُ؛ لأنَّ اللّهَ أعلمُ بأنَّهُ على هدًى، وأنَّهم على ضلالٍ، بعدَ أنْ قدَّمَ لذلكَ مِنْ أحوالِ رسالةِ موسى عليه السلام ما فيهِ عِبرَةٌ بالمقارنةِ بينَ حالَيِ الرَّسوليْنِ وما لَقِياهُ مِنَ المُعرِضينَ[4]، وقيلَ: لمّا قرَّرَ سبحانَهُ ذِكرَ الآخرةِ الَّتي هي المرجعُ، وكرَّرَهُ، وأثبتَ الجزاءَ فيها، وأنَّ العاقبةَ للمتَّقينَ؛ أتبعَهُ ما هو في بيانِ ذلكَ كالعلَّةِ، فقالَ:

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 303، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 321.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 187، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 585، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 28.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 104.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 191.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾... الآيةَ[1]، وبناءً على هذا الوجهِ يكونُ الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ استئنافٌ تعليليٌّ لِما قبلَهُ.

بلاغةُ افتتاحِ الآيةِ بالتَّوكيدِ:

الاهتمامُ بمضمونِ الكلامِ ومراعاةُ للسياقِ

افتُتِحَ قولُهُ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ بحرفِ التَّوكيدِ؛ للاهتمامِ بمضمونِهِ[2] - لا سيَّما - والمقامُ مقامُ تسليةٍ للنَّبيِّ ﷺ، وتثبيتٍ لفؤادِهِ، وشدٍّ لعَضُدِهِ، وقيلَ: التَّأكيدُ لردِّ ما تقرَّرَ في أذهانِهم مِنْ إنكارِ الآخرةِ، وما يقتضيهِ حالُ خروجِهِ ﷺ مِنْ مكَّةَ المُشرَّفةِ مِن استبعادِ ردِّهِ إليها[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ دونَ لفظِ الجلالةِ:

الإيماءُ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ وتعظيمِ شأنِ النَّبيِّ ﷺ

جيءَ بالمُسندِ إليهِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ اسمَ موصولٍ دونَ لفظِ الجلالة، فلم يقل: (إنَّ اللّهَ لرادُّكَ إلى مَعادٍ)؛ لِما في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ، وأنَّهُ خبرُ الكرامةِ والتَّأييدِ، أي: إنَّ الَّذي أعطاكَ القرآنَ ما كانَ إلّا مُقدِّرًا نصرَكَ وكرامتَكَ؛ لأنَّ إعطاءَ القرآنِ شيءٌ لا نظيرَ لهُ، فهو دليلٌ على كمالِ عنايةِ اللّهِ بالمُعطَى، وفيهِ إيماءٌ إلى تعظيمِ شأنِ النَّبيِّ ﷺ[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفَرْضِ:

التَّنبيهُ على صعوبةِ هذا التَّكليفِ

﴿فَرَضَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ معناهُ: أوجبَ عليكَ تلاوتَهُ وتبليغَهُ والعملَ بما فيهِ، وقد عُبِّرَ بالفرضِ؛ إشارةً إلى صعوبةِ التَّكليفِ، يعني: إنَّ الَّذي حمَّلكَ صعوبةَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 374.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 374.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.

هذا التَّكليفِ لَمُثيبُكَ عليها ثوابًا لا يحيطُ بهِ الوصفُ[1]، أو جاء التعبير بـ﴿فَرَضَ﴾ للإشارة إلى ثبات القرآن الكريم وبقائه، ومعناهُ: أنزلَهُ عليكَ، وأثبتَهُ، والفرضُ عملُ فرضةٍ في عودٍ أو نحوِهِ، فكأنَّ الأشياءَ الَّتي تُثْبَتُ، وتبقَى، تُشبِهُ ذلكَ الفرضَ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿فَرَضَ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الفَرْضِ ووقوعِهِ، فهو أمرٌ قد حكمَ اللهُ بِهِ في الأزلِ.

نكتةُ تعديةِ الفَرْضِ بـ (على):

عُدّيَ ﴿فَرَضَ﴾ بحرفِ الجرِّ (على) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾؛ لتضمينِ فعلِ ﴿فَرَضَ﴾ معنى: (أنزلَ)؛ لأنَّ فَرْضَ القرآنِ هو إنزالُهُ[3].

بلاغةُ التعبيرِ بـ(على) في قولِهِ: ﴿عَلَيْكَ﴾:

استعلاءُ التَّكليفِ وثِقلُهُ على المُكلَّفِ

جاء حرف الجرِّ (على) في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ للاستعلاءِ المجازيِّ، وقد شاعَ التَّعبيرُ بها في مواطنِ التَّكليفِ والفَرْضِ والإيجابِ، وكأنَّ التَّكليفَ ونحوَهُ مُستعلٍ على المُكلَّفِ، وفي ذلكَ إشعارٌ بالثِّقلِ عليهِ وعِظَمِ المسؤوليَّةِ.

نكتةُ تقييدِ فَرْضِ القرآنِ بقولِهِ: ﴿عَلَيْكَ﴾:

تكليفُ النَّبيِّ ﷺ وتشريفُهُ

قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ معناهُ: أوجبَ عليكَ تلاوتَهُ وتبليغَهُ والعملَ بما فيهِ[4]، وقد قُيِّدَ الفَرْضُ بكونِهِ على النَّبيِّ ﷺ؛ للإشارةِ إلى أنَّهُ هو المُكلَّفُ بذلكَ أصالةً، وفي ذلكَ تشريفٌ لهُ وتعظيمٌ؛ لأنَّ عِظَمَ التَّكليفِ قرينُهُ عِظَمُ التَّشريفِ، والأجرُ على قَدْرِ النَّصَبِ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 303.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

الإشارةُ إلى كونِ القرآنِ متلوًّا وانفراده بذلك

عُبِّرَ بـ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾؛ للإشارةِ إلى كونِ القرآنِ متلوًّا مقروءًا، وفي ذلكَ مناسبةٌ للتَّعبيرِ بالفَرْضِ؛ لأنَّ أوَّلَ ما يجبُ على النَّبيِّ ﷺ قراءةُ القرآنِ وتبليغُهُ، وقد كانَ تبليغُ النَّبيِّ ﷺ للقرآنِ بقراءتِهِ على النّاسِ، والمعنى: إنَّ الَّذي أوجبَ عليكَ تلاوتَهُ وتبليغَهُ والعملَ بما فيهِ[1]، وللإشارة إلى أنَّه الكتاب السماوي الوحيد المُتعبَّد بتلاوته وقراءته، وأنَّه الكتاب الوحيد الذي اتَّصف أتباعه باستظهاره وكتابته، وسائرُ الكُتُبِ قبلَهُ لا يستظهرها أتباعها.

سرُّ إيقاعِ الفَرْضِ على القرآنِ:

الإيجازُ مع كثرة المعاني

كما أسلفنا، فمعنى: ﴿فَرَضَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أنزل عليك القرآن، وأوجبَ عليكَ تلاوتَهُ وتبليغَهُ والعملَ بما فيهِ[2]؛ ولاتِّساعِ معنى ﴿فَرَضَ﴾ لهذه المعاني قيلَ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ إذ لا معنى لفَرْضِ القرآنِ نفسه، لكنْ أوقِعَ الفَرْضُ عليهِ للتَّعميم، أي: إنَّ الَّذي حمَّلَكَ صعوبةَ هذا التَّكليفِ؛ ليُثيبكَ عليه ثوابًا لا يُحيطُ بهِ الوصفُ[3].

معنى اللّامِ في ﴿لَرَآدُّكَ﴾:

تثبيتُ قلب النبي ﷺ

لامُ ﴿لَرَآدُّكَ﴾ في قولِ الحقِّ عزَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ لامُ الابتداء المنتقلة إلى الخبر - مُزحلَقةٌ -، وهي هنا داخلة في خبرِ ﴿إِنَّ﴾، وغرضُها تثبيتُ قلب النبي ﷺ بتأكيدِ ردِّه إلى عتبة داره: في الدنيا إلى مكة فاتحًا ظافرًا منتصرًا، وفي الآخرة إلى المقام المحمود في الجنَّة، وكأنَّه خُلِقَ في الجنة، وكأنَّ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 187.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 585.

مولده ومنشأه فيها، وفي ذلك إشارةٌ إلى مكانته ﷺ بأنَّ موطنه ومكانه الذي ينبغي أن يردَّ إليه هو الجنة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالرَّدِّ في ﴿لَرَآدُّكَ﴾:

الإشارةُ إلى إرجاعِه ﷺ إلى مكانِهِ المناسب، أو حالِه التي ينبغي أن يكون عليها

عُبِّرَ بالرَّدِّ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾؛ لأنَّ الرَّدَّ إرجاعُ الشَّيءِ إلى حالِهِ أو مكانِه[1]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى إرجاعِ النَّبيِّ ﷺ إلى مكانِهِ وموطنِهِ الذي ينبغي أن يكون فيه، وهو مكَّةُ، أو إلى مكانته ومنزلته التي ينبغي أن يكون عليها من النَّعيم في الجنَّةِ أو غيرِ ذلكَ، على اختلافِ المُفسِّرينَ في المُرادِ بالمَعادِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في ﴿لَرَآدُّكَ﴾:

دلالةُ اسمِ الفاعلِ على الثُّبوتِ والاستقرارِ والدوام

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾، ولم يقل مثلًا: (لَيردّكَ)؛ لِما تفيدُهُ صيغةُ اسمِ الفاعلِ مِنْ ثبوتِ الرَّدِّ واستقرارِهِ ودوامه، وأنَّهُ أمرٌ واقعٌ لا شكَّ فيهِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ تثبيتِ فؤادِ النَّبيِّ ﷺ، ووعدِهِ بحُسْنِ العاقبةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

دلالةُ التعبيرِ بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

الإشارةُ إلى حسن العاقبة

يُفيدُ حرفُ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ انتهاءَ الغاية، وهو يشير إلى وعد اللّٰه المُنَجز بحُسن العاقبة في الزمان (الدنيا والآخرة) والمكان (مكَّة والجنَّة).

سرُّ التَّعبيرِ بصيغة ﴿مَعَادٍۚ﴾:

احتمالُ كلِّ صيغةٍ لمعنًى جديدٍ

﴿مَعَادٍۚ﴾ اسمُ مكانِ العود، أو اسم زمانه أو مصدره، فيكون المعنى: لرادُّك إلى مكانك الذي يُعيدك فيه، ولرادُّك في زمان علمه في الأزل، أو لرادك إلى عود حميد يناسب منزلتك ومكانتك،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.

كقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ [يونس: 4]، أي: رجوعكم، وزمان الرجوع، ومكانه.

غرضُ الإخبارِ بالرَّدِّ إلى مَعادٍ:

اتّساعُ المعاني مع اللفظِ الواحدِ

اختُلِفَ في المُرادِ بالمَعادِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ - كما تقدم - فقيلَ: الآخِرةُ، أي: باعثُكَ بعدَ الموتِ، فالمَعادُ في الأصلِ: الموضعُ الَّذي يُعادُ إليهِ، وقد اشتُهِرَ بهِ يومُ القيامةِ؛ لأنَّهُ مَعادُ الكلِّ، فمَقْصِدُ الآيةِ على هذا إثباتُ الحَشْرِ والإعلامُ بوقوعِه، وقيلَ: المَعادُ: الجنَّةُ، وعلى هذا ففي الآيةِ تسليةٌ وتثبيتٌ وتكريمٌ للنَّبيِّ ﷺ، وقيلَ: المَعادُ: الموتُ، والآيةُ على هذا واعظةٌ ومُذكِّرةٌ[1]، وقيلَ: المَعادُ: مكَّةُ، والآيةُ على هذا مُعلِمةٌ بأمرٍ غيبيٍّ قد ظهرَ للأُمَّةِ، ومُؤنِسةٌ بفتحٍ[2]، وقيلَ: المَعادُ: المقامُ المحمودُ الَّذي وُعِدَ النَّبيُّ ﷺ أنْ يُبْعَثَ فيهِ[3]، وعلى هذا ففي الآيةِ تسليةٌ وتثبيتٌ وتكريمٌ له ﷺ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمَعادِ في ﴿إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾:

الجمعُ بين الحقيقةِ والمجازِ

يجوزُ أنْ يكونَ المَعادُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ مُستعمَلًا في معنى آخِرِ أحوالِ الشَّيءِ وقرارِهِ الَّذي لا انتقالَ منهُ؛ تشبيهًا بالمكانِ العائدِ إليهِ بعدَ أنْ صدرَ منهُ، ويجوزُ أنْ يرادَ بالمَعادِ معناهُ المشهورُ القريبُ مِنَ الحقيقةِ، وهو ما يعودُ إليهِ المرءُ إنْ غابَ عنهُ، فيرادُ بهِ هنا بلدُهُ الَّذي كانَ بهِ، وهو مكَّةُ[4].

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾:

الوعدُ بالرَّدِّ كنايةٌ عن دخولِ مكَّةَ بالفتحِ بعدَ الخروجِ منها بالهجرةِ

يجوزُ - كما تقدَّمَ - أنْ يُرادَ بالمَعادِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ معناهُ المشهورُ القريبُ مِن

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 303.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 321.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 187، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 585، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 28.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.

الحقيقةِ، وهو ما يعودُ إليهِ المرءُ إنْ غابَ عنهُ؛ فيرادُ بهِ هنا بلدُهُ الَّذي كانَ بهِ، وهو مكَّةُ المكرمة.

وهذا الوجهُ يقتضي أنَّهُ كنايةٌ عن خروجِه منها ثمَّ عَوْدِهِ إليها؛ لأنَّ الرَّدَّ يستلزمُ المفارقةَ، ولمّا كانتِ السّورةُ مكّيَّةً، ورسولُ اللّهِ ﷺ في مكَّةَ؛ فالوعدُ بالرَّدِّ كنايةٌ عن الخروجِ منها قبلَ أنْ يُرَدَّ إليها.

وقيلَ: هذهِ الآيةُ نزلَتْ على النَّبيِّ ﷺ وهو في الجُحْفةِ في طريقِه إلى الهجرةِ، فيكونُ الوعدُ بالرَّدِّ كنايةً عن دخولِهِ إليها فاتحًا لها ومُتمكِّنًا منها[1]، أو يكون مُرادًا به الآخرة، فيكون الرَّدُّ إلى منزلةٍ عُليا ومكانةٍ عظمى.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَعَادٍۚ﴾:

تعظيمُ المعادِ وتفخيمُهُ

تنكيرُ ﴿مَعَادٍۚ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قدرتُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾؛ للتَّعظيمِ والتفخيمِ[2]، كما يقتضيهِ مقامُ الوعدِ والبِشارةِ[3]، فإنْ كانَ المرادُ بالمَعادِ الحياةَ الآخرةَ؛ فالمعنى: لَرادُّكَ بعدَ الموتِ إلى مَعادٍ عظيمِ الشَّأنِ، ليسَ لغيرِكَ مِنَ البشرِ[4]، أي: فأبشِرْ بما تلقَى في مَعادِكَ مِنَ الكرامةِ الَّتي لا تعادلُها كرامةٌ، والَّتي لا تُعطَى لأحدٍ غيرِكَ، وترتُّبُ المَعادِ على الصِّلةِ أفادَ أنَّهُ لا يُعطَى لغيرِهِ مِثْلُهُ، كما أنَّ القرآنَ لم يُفرَضْ على أحدٍ مِثْلِه[5].

وإنْ كانَ المُرادُ ردَّهُ ﷺ إلى مكَّةَ يومَ الفتحِ؛ فوجهُ تنكيرِ ﴿مَعَادٍۚ﴾: أنَّها كانَتْ في ذلكَ اليومِ مَعادًا لهُ شأنٌ، ومَرْجِعًا لهُ اعتدادٌ؛ لغلَبةِ رسولِ اللّهِ ﷺ عليها، وقَهْرِهِ لأهلِها، ولظهورِ عِزِّ الإسلامِ وأهلِه، وذُلِّ الشِّركِ وحِزْبِه[6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.

(2) السمين، الدر المصون: 8/ 700، والخفاجي، عناية القاضي: 7/ 88.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.

(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 19.

سِرُّ فصل قوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ عمّا قبلَهُ:

قــوَّةُ الارتـبـاط والاتــصـال بين الجـمـلـتَيْن مع تعدُّدِهِ

وجهُ اتِّصالِ قولِهِ تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بما قبلَهُ: أنَّهُ ﷻ لمّا وعدَ رسولَهُ الرَّدَّ إلى مَعادٍ؛ قالَ: قلْ للمشركينَ: ربّي أعلمُ مَنْ جاءَ بالهدى - يعني نفسَهُ - وما يستحقُّهُ مِنَ الثوابِ في مَعادِهِ، ومَنْ هو في ضلالٍ مُبينٍ - يعنيهم - وما يستحقّونَهُ مِنَ العقابِ في مَعادِهم[1].

إذا أُريدَ به مكة المكرمة

هذا إذا أُريدَ بالمَعادِ الإثابةُ والرُّجوعُ إلى مقاماتِهِ العاليةِ في الآخرةِ، وأمّا إذا أُريدَ بالمَعادِ مكَّةَ؛ فالمعنى: إنَّ الَّذي حَباكَ نعمةَ الدّينِ - لا سيَّما هذا الكتابُ الكريمُ الَّذي دونَهُ كلُّ نعمةٍ - يمنحُكَ فتحَ مكَّةَ، ويردُّكَ إلى مَسْقَطِ رأسِكَ، فقل لأعدائِكَ: موتوا كَمَدًا، ربّي أعلمُ مَنْ جاءَ بالهدى منّا ومنكُم، ومَنْ هو في ضلالٍ مُبينٍ، ينصرُ المهتديَ، ويخذلُ الضّالَّ[2]، وإنْ كانَ المرادُ به مكَّةَ؛ فالكلامُ كنايةٌ عن خروجِهِ منها، ثمَّ عَوْدِهِ إليها؛ لأنَّ الرَّدَّ يستلزمُ المفارقةَ.

إذا أُريد به الدار الآخرة

وقيلَ: إنْ كانَ المرادُ بالمَعادِ الحياةَ الآخرةَ؛ فالمعنى: أبشِرْ بما تلقَى في مَعادِكَ مِنَ الكرامةِ الَّتي لا تعادلُها كرامةٌ، والَّتي لا تُعطَى لأحدٍ غيرِكَ، وعلى الوجهِ الأوَّلِ تكونُ جملةُ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بمنزلةِ التَّفريعِ على جملةِ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾، أي: لَرادُّكَ إلى يومِ المَعادِ، فمُظهرٌ المُهتديَ والضّالَّ، وعلى الوجهِ الثّاني تكونُ الجملةُ بمنزلةِ الموادعةِ والمتاركةِ وقطعِ المجادلةِ، فالمعنى: عُدَّ عن إثباتِ هُداكَ وضلالِهم، وكِلْهُم إلى يومِ ردِّكَ إلى مَعادِكَ، حيثُ يتبيَّنُ أنَّ اللهَ نصرَكَ، وخذلَهم.

وعلى المعنيَيْنِ، فجملةُ ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 124.

عن جملةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ جوابًا لسؤالِ سائلٍ يُثيرُهُ أحدُ المعنيَيْنِ[1]، ولذلكَ فُصِلَتْ عنها.

تعيينُ المُخاطَبِ بقولِهِ: ﴿قُل﴾:

المُـخـاطَـبُ هو النَّبيُّ ﷺ وحدَهُ

المأمورُ بالقولِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هو النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّهُ هو المُكلَّفُ بتبليغِ الشَّرعِ، والمعنى: قُلْ يا محمَّدُ لهؤلاءِ المشركينَ وغيرِهم: ربّي أعلمُ مَنْ جاءَ بالهُدى ومَنْ هو في ضلالٍ مُبينٍ.

ويدلُّ على أنَّهُ هو المُخاطَبُ أيضًا سياقُ الكلامِ السّابقِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ فالخطابُ فيهِ لهُ وحدَهُ.

ولا مانع من كون الخطاب له وحدَهُ مِن أن تكونَ الأمَّة تبعًا له في ذلك، مع أنَّ الخطاب ليس لها؛ لأنَّها تبعٌ له في القرآن، مع أنَّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ مخصوصٌ بالنبي ﷺ، ويكون في ذلك إشارةٌ وبشارة بغلبة المسلمين على أعدائهم، ورجوعهم إلى الحقِّ المبني على القرآن، ووجوب تبليغهم دينَ الله إلى الناس.

غرضُ الأمرِ في ﴿قُل﴾:

الأمــــرُ يـفـيـد وجوب أنْ يُبلِّغَ الـنَّـبـيُّ ﷺ الكلامَ المذكورَ

الظّاهرُ أنَّ الأمرَ في قولِهِ ﷻ: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ في صيغةِ الأمرِ، ولا صارفَ عنهُ هنا، فيُفيدُ الكلامُ وجوبَ أنْ يُبلِّغَ النَّبيُّ ﷺ الكلامَ المذكورَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهِ: ﴿رَّبِّىٓ﴾:

جيءَ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لمناسبةِ هذا الاسمِ الجليلِ لمقامِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.

مناسبةُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ لسياقِ الوعدِ والبِشارة

الوعدِ والبِشارةِ بردِّ النَّبيِّ ﷺ إلى مَعادٍ عظيم؛ لأنَّ هذا الاسمَ يُنبِئُ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ عن التَّربيةِ والإنعامِ والإحسانِ، والمعنى: (قلْ: ربّي - أي: المُحسِنُ إليَّ - أعلمُ مَنْ جاءَ بالهُدى، إلخ)[1].

لطيفةُ الإضافةِ في ﴿رَّبِّيٓ﴾:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِ المُتكلِّمِ الرّاجعِ إلى النَّبيِّ ﷺ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ لتشريفِ النَّبيِّ ﷺ بكونِهِ مربوبًا للّهِ تعالى، فكأنَّه ربُّهُ وحده المُختصُّ به دون غيره، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى كمال عُبوديَّتِهِ ﷺ للّهِ تعالى، والعبودية أكرمُ صفةٍ يتحلَّى بها المخلوقُ، وفي هذهِ الإضافةِ أيضًا تعريضٌ بآلهةِ المشركينَ الَّتي لا تضرُّ، ولا تنفعُ، ولا تعلمُ شيئًا.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ التَّفضيلِ ﴿أَعۡلَمُ﴾:

التَّنبيهُ على سَعةِ العلمِ وشمولِهِ الغيبةَ والشهادةَ

جيءَ باسمِ التَّفضيلِ ﴿أَعۡلَمُ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، معَ أنَّهُ مسلوبُ المفاضلةِ؛ لأنَّ المقصودَ منهُ بيانُ سَعةِ علمِهِ ﷻ وشمولِه الغيبة والشهادة، وقيلَ: المعنى: أعلمُ مِنْ كلِّ أحدٍ[2]، وعلى هذا ففي الكلامِ حذفُ (مِنْ) والمُفضَّلِ عليهِ، وذلكَ ضربٌ مِنَ الإيجازِ.

سرُّ التعبيرِ بـ ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن جَآءَ﴾:

في أغلبِ الوجوهِ أنَّهُ إيجازٌ بالحذفِ دلَّ على المحذوفِ فيه سياقُ الكلامِ

﴿مَن﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ تحتمل وجوهًا، **الأول:** أنَّها في محلِّ نصبٍ بفعلٍ مُضمَرٍ، أي: أعلم من غيره، أو أعلم منكم، يعلمُ مَن جاء بالهدى. **والثاني**: أنَّ ﴿مَن﴾ منصوبة على نزعِ الخافضِ، والتقدير: (أعلم بمَن جاء بالهدى)، وقد جاءت في القرآنِ الكريمِ مصرَّحًا بها في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ [القصص: 37]. والثالث: أنَّها منصوبة

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 377.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 377.

بـ﴿أَعۡلَمُ﴾ مع نزع صفة التَّفضيل منه، فيكون بمعنى: عالِم، ويعمل عمله، أيْ: ربي عالِم مَن جاء بالهدى؛ لأنَّ أفعلَ التفضيل لا ينصبُ المفعولَ بهِ[1]، وفي هذه الوجوه عدا الأخير إيجازٌ بالحذف، دلَّ على المحذوف فيه سياق الكلام.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول المشترك ﴿مَن﴾:

الإشـــارةُ إلى مكانة الداعين إلى الهداية

في التَّعبيرِ بالاسم الموصول عمومًا دلالةٌ على عِليَّة ما منه الصِّلة، فكأنَّ تخصيص تعلُّق علم الله تعالى بهم هو مجيئهم بالهداية، مع أنَّ علمه متعلِّق بكلِّ معلوم، وفي هذا إشارة إلى مكانة النبي ﷺ فهو أفضل مَن جاء بالهدى، ثم إلى الداعين إلى الهداية من بعده، الذين جاؤوا بها من مصدرها الأصيل، وهو القرآن المُشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ ولذلك جاء بالاسم الموصول المشترك ﴿مَن﴾ الذي لفظه لفظُ المُفرد، ومعناه معنى الجمع؛ ليُشير بلفظه المفرد إلى النَّبي ﷺ أوَّل مَن جاء بالهُدى، وبمعناه؛ ليشمل كلَّ مَن جاء بالهدى من بعده سائرًا على سبيله، داعيًا إلى الله على بصيرة.

نكتةُ التَّعبيرِ عن المُهتدي بـ ﴿مَن جَآءَ﴾:

الإشـارةُ إلى أنَّ الهُدى لم يكنْ معروفًا مِنْ قبلُ

عُبِّرَ عن جانبِ المُهتدي في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بفعلِ ﴿مَن جَآءَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُهتديَ هو الَّذي جاءَ بهُدًى لم يكنْ معروفًا مِنْ قبلُ، كما يقتضيه قولُهم: جاءَ بكذا[2]؛ لأنَّ الإنسان لا يضرُّ نفسه؛ إذ كيف يأتي بهُدًى للناس، ثمَّ لا ينتفع هو به، فكأنَّه قال: قل ربّي أعلم مَنْ جاء بالهُدى، وانتفع به.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿جَآءَ﴾:

الإشـــارةُ إلى تحقُّقِ المجيءِ بالهُدى

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 88.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.

﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ المجيءِ بالهُدى ووقوعِهِ، وأنَّهُ أمرٌ لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، كالأمر الذي وقع بالفعل، وتحقَّق.

سِرُّ مجيء الفعل ﴿جَآءَ﴾ مُفردًا:

إعلاءُ شأنِ النَّبيِّ ﷺ

لمّا كان الخطابُ في سياق تثبيتِ قلب النَّبي ﷺ وتسليته؛ كان من لوازم ذلك تثبيتُ إعلاء شأنه ﷺ ورفع مكانته، ولذلك ورد الفعل ﴿جَآءَ﴾ مفردًا في صلة ﴿مَن﴾؛ مراعاةً للفظها مع جواز إتيانه جمعًا مراعاةً لمعناها، فكأنَّ الخطاب في الآية كلِّها له وحدَهُ، فأنت وحدك الذي فرض عليك القرآن، وأنت وحدك الذي تردُّ إلى معادٍ أيِّ معادٍ، وبلِّغ ذلك للناس، فقل: (ربّي الذي يعلم كلَّ شيء، يعلم أنّي على هداية، وأنّي الذي جئت بالهدى، وأنَّ مَن لم يقبل هداي؛ ففي ضلال مبين)، مع أنَّ أتباعَهُ - السائرين على دربه وتحت جناحه - مشتركون معه في الانتفاع بالقرآن، وفي الردِّ إلى معادٍ ما، وربُّهم هو ربُّه ﷺ الذي يعلم كلَّ شيء، لكن كل ذلك قد تلاشى بجوار إعلاء شأن النَّبي ﷺ وعلوِّ منزلته وبيان فضله، فصار كالعدم.

بلاغةُ الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

الإشـارةُ إلى مصاحبة النَّبي ﷺ للهُدى

تحتمل الباءُ في قوله ﷻ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ المصاحبة والإلصاق، وكلا المعنيَيْن يشير إلى قوَّة مُلازمة النبي ﷺ للهُدى منذُ مجيئِه به، ومصاحبته له والتصاقه به ومعايشته قولًا وفعلًا لكلِّ أنواع الهدى وأصنافه وأجناسه على ما سيأتي الإشارة إليه عمّا قريبٍ في دلالة تعريف الهدى.

بلاغةُ تعريفِ الهدى في قوله: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

اتِّساعُ المعنى باعتبار العهد والجنس والاستغراق

يحتمل أن يكون التعريفُ للعهد، ويرشح هذا ذِكر القرآن في صدر الآية الكريمة، وهو مصدر الهدى وأصلُهُ، ويحتمل أن يكون التعريف للجنس، كأنَّ جنسَ الهدى لا يخرج عمّا جاء به النبيُّ ﷺ، ويحتمل أن يكون لاستغراق الأفراد أو الأجزاء، أو هما معًا، أي:

جاء بكلِّ أفراد الهدى وأنواعه وأقسامه، والمقصود من كلِّ ذلك هو الإشارةُ إلى كمالِ الهُدى، وأنَّهُ لا يَشوبُهُ شيءٌ مِنَ الضَّلالِ.

بلاغةُ العطفِ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ﴾:

شمولُ علمِ الله تعالى لكلِّ مُهتدٍ وضالٍّ

الواوُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ للعطفِ، و(مَنْ) هنا معطوفةٌ على ﴿مَن﴾ في قولِهِ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، فكلٌّ مِنَ المُهتدي والضّالِّ داخلٌ في حيِّزِ علمِ اللّهِ.

دلالةُ ذِكْرِ الضَّميرِ ﴿هُوَ﴾:

معرفةُ أهلِ الضلال ووضوحهم

جيءَ بضميرِ ﴿هُوَ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، ولم يقل: (ومَنْ في ضلالٍ مُبينٍ)؛ لأنَّ الضميرَ من أعرف المعارف، وهو هنا جزءٌ من صلة الموصول (من) عائد عليه، وكأنَّ مَن هو في ضلال مبين معروفٌ، وإن لم يجرِ له ذِكْرٌ؛ لظهور صفة الضَّلال فيه.

السِّرُّ في إفراد الضمير ﴿هُوَ﴾:

أهلُ الضلال وإن كثروا لا قيمة لهم

جاء الضمير ﴿هُوَ﴾ مفردًا في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، وهو عائد على لفظ اسم الموصول (من)، ولم يقل: (ومن هم)، فيكون الضَّمير عائدًا على معنى (من)، للإشارة إلى أنَّ كلَّ مَنْ هم في ضلال مبين في علم اللّه ﷻ، وما يترتَّب على ذلك من تمكُّنه سبحانه منهم، ومجازاتهم في الدُّنيا والآخرة، كالفرد الواحد، فلا قيمة لهم؛ وإن عظم جمعُهم، وكثر سوادُهم.

بلاغةُ ﴿فِي﴾ الظرفيَّة في قوله: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

إحاطةُ الضلال بالمشركين من كل جانبٍ

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالُّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ المجازيَّةِ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يفيدُ انغماسَ المشركينَ في الضَّلالِ وإحاطتَهُ بهم[1]، وكأنَّ الضَّلالَ ظرفٌ أو وِعاءٌ يُحيطُ بهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.

مِنْ جميعِ الجوانبِ، فلا يستطيعون منه خروجًا ولا عنه حراكًا، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لحالِهم، واستجلابٍ للإنكارِ عليهم.

علَّةُ تنكيرِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

نُكِّرَ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ لتفخيمِ شأنِ الضَّلالِ وتعظيمِهِ، أي: في ضلالٍ أيِّ ضلالٍ، في ضلالٍ عظيمِ الشَّأنِ، لا تُحيطُ بِهِ العِبارةُ.

دلالةُ وصفِ الضَّلالِ بكونِهِ مُبينًا:

المبالغةُ في ظهورِ الضَّلالِ

وُصِفَ الضَّلالُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بكونِهِ مُبينًا؛ للمبالغةِ في ظهورِهِ، أي: في ضلالٍ بيِّنٍ في نفسِهِ، مُبيِّنٍ سوء حال صاحبه، فيظهرُ لكلِّ أحدٍ ما فيهِ مِنْ خَلَلٍ، وإنِ اجتهدَ صاحبُهُ في سَتْرِهِ[1]، وفي هذا مِنَ المبالغةِ في ظهورِ ضلالِ المشركينَ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ التَّشنيعِ عليهِم وتقبيحِ حالِهِم، ببيانِ أنَّهم لا يَرْجِعونَ عنهُ معَ شدَّةِ ظُهورِهِ.

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ الإبانةِ إلى الضلال:

المبالغةُ في فضيحةِ أهلِ الضَّلالِ

أُسنِدت الإبانةُ إلى الضلال في اسم الفاعل ﴿مُّبِينٖ﴾ - على طريقةِ المجاز العقلي - للدَّلالةِ على شدَّةِ وضوحِ الضلال فيهم، وكأنَّ الضَّلالَ نفسَهُ إنسانٌ عاقل يُبيِّنُ حال أهل الضَّلال، ويفضح اتِّصافهم به وانغماسهم فيه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿مَن جَآءَ﴾ و﴿وَمَنۡ هُوَ﴾:

التَّلطُّفُ في نسبةِ الضَّلالِ إلى المشركينَ

قولُهُ سبحانَهُ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ مقصودٌ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، وقولُهُ: ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ مقصودٌ بِهِ المشركونَ[2]، وقد عُبِّرَ عنِ الطَّرفَيْنِ بالموصولِ المُفيدِ للإبهامِ، ولم يُعيَّنِ المقصودُ بهما؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 377.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 20.

للتَّلطُّفِ في نسبةِ المشركينَ إلى الضَّلالِ، وإظهارِ المُساهَلةِ معَهم[1]، وإرخاءِ العنانِ لهم، لعلَّ في ذلكَ استنزالًا لطائرِ كِبْرِهم وعِنادِهم.

بلاغةُ الجمعِ بينَ الهُدى والضَّلالِ:

تـزيـينُ الـكـلام وتحسينه

جُمِعَ بينَ الهُدى والضَّلالِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ رِعايةً للطِّباقِ بينَ اللَّفظيْنِ وفي ذلك من البديعِ ما فيه؛ ليكونَ أمامَ القارئِ صورتانِ متقابلتانِ، إحداهما فيها طَرَفٌ جاءَ بالهُدى والإرشادِ لِما فيه سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ، وأخرى فيها طَرَفٌ مُنغمِسٌ في غَيِّهِ وضلالِه، لا يُرجَى له خلاصٌ منهما، فيظهرُ بذلكَ حُسْنُ الهُدى وقُبْحُ الشِّركِ؛ إذ الضِّدُّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ.

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الآيةَ:

عِـلْـمُ الـلّـهِ بالمُهتدي والضّالِّ كنايةٌ عن اتِّضاحِ الأمرِ بلا ريبٍ

إنْ كانَ المرادُ بالمَعادِ الحياةَ الآخرةَ؛ فجملةُ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بمنزلةِ التَّفريعِ على جملة: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾، أي: لَرادُّكَ إلى يومِ المَعادِ، فمُظهِرٌ المُهتديَ والضّالَّ، فيكونُ علمُ اللّهِ بالمُهتدي والضّالِّ كنايةً عن اتِّضاحِ الأمرِ بلا ريبٍ؛ لأنَّ علمَ اللّهِ سبحانَهُ لا يعتريهِ تلبيسٌ، وهذهِ الكنايةُ تعريضٌ بالمشركينَ أنَّهم الضّالّونَ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو المُهتدي[2].

سرُّ الحذفِ المتكرِّرِ في قوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾:

دلالــةُ الإيـجـازِ بـالـحـذف مع وضـوح الـدلالـة على المحذوف

أصلُ الكلامِ: (قل ربي أعلم بمَن جاء بالهدى بالبينة والبرهان، وعاش فيه، فأحاط به الهدى من كلِّ جانب، ومَن جاء بالضلال من غير بينة ولا برهان، فانغمس فيه وأحاطه من كلِّ جانب)، فحَذَفَ جملة: (ومَن هو في هدى مبين)؛ لدلالة قوله: (ومن هو في ضلال مبين عليه)، وحذف من الثانية (من جاء بالضلال من عند نفسه)، أي: بلا بيِّنة ولا برهان، لدلالة: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ عليه[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 331.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 192.

(3) هذا ما يُعبِّر عنه المتقدمون بالحذف المتكرر، أو الحذف المقابل على حد تعبير الزركشي، ويُعبِّر عنه المتأخرون كالبقاعي والسيوطي بالاحتباك.

وإنَّما حُذِفَ من الجملة الأولى ما حُذِفَ؛ لأنَّ ما قبله دالٌّ عليه، وهو سبب فيه، والمحذوف علَّةٌ ذاتية للمذكور؛ إذ كيف يدعو رجل الناس للانتفاع بهدًى جاء به، ثم هو لا ينتفع؟.

حذفُ (مَن جاء بالضلال)

حُذِفَ من الجملة الثانية (من جاء بالضلال)؛ لأنَّ الذي هو في ضلال مبين إنَّما وصل إلى هذه الدرجة من الوصف، بأنَّه جاء بالضلال المبين ليَدعوَ الناس إليه، وبالتالي يكون هو أوَّلَ من ضلَّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَرْضُ والحَتْمُ:

الفَرْضُ يكونُ في الأوامرِ، والحَتْمُ يكونُ في الأحكامِ والأقضيةِ

فُرِّقَ بينَ الحَتْمِ والفَرْضِ: بأنَّ الحَتْمَ إمضاءُ الحُكمِ على التَّوكيدِ والإحكام، وليسَ هو مِنَ الفَرْضِ والإيجابِ في شيءٍ؛ لأنَّ الفَرْضَ والإيجابَ يكونانِ في الأوامرِ، والحَتْمَ يكونُ في الأحكامِ والأقضيةِ، وإنَّما قيلَ للفَرْضِ: فَرْضٌ حَتْمٌ، على جهةِ الاستعارةِ، والمُرادُ: أنَّهُ لا يُرَدُّ، كما أنَّ الحُكمَ الحَتْمَ لا يُرَدُّ[1].

الرَّدُّ والرُّجوعُ:

الرُّجوعُ يدلُّ على التَّكرارِ

فُرِّقَ بينَ الرَّدِّ والرُّجوعِ مِنْ جهتينِ: إحداهما: أنَّ الرُّجوعَ يدلُّ على التَّكرارِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: 3 - 4]. والأخرى: أنَّ رجوعَ الشَّيءِ إلى ما كانَ عليهِ بخُطواتٍ متتاليةٍ بنحوِ انصرافِهِ عنهُ يُسمَّى رجوعًا، كقولِكَ: خرجَ فلانٌ مِنْ بيتِهِ صباحًا، ورجعَ إليهِ مساءً، أمّا رجوعُهُ إليهِ بخلافِ ذلكَ؛ فيُسمَّى ردًّا[2].

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 175.

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 236 - 239.

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ [القصص: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآيةُ تقريرٌ لردِّ النَّبيِّ ﷺ إلى مَعادٍ

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجوهٌ: **أحدُها:** أنَّ الآية ابتداءُ كلام مضمونُه تعديدُ النِّعمةِ على نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وأنَّ اللّٰه تعالى رحمَهُ رحمةً لم يحتسِبْها، ولا بلغَها أملُهُ[(1)]، **والثّاني**: أنَّ الآية تقريرٌ لقولِهِ تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾، أي: سيردُّكَ إلى مَعادٍ، كما أنزلَ إليكَ القرآنَ العظيمَ الشَّأنِ وما كنتَ ترجوهُ[(2)]، **والوجه الثّالث** أنَّها دليلٌ وبرهانٌ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُؤيَّدٌ مِنْ ربِّهِ، وأنَّهُ سبحانَهُ سَيَفي لهُ بما وعدَ، ولن يتخلَّى عنهُ، يعني: إذا كنتَ تتعجَّبُ، أو تستبعدُ أنْ نردَّكَ إلى بلدِكَ؛ لأنَّ الكفّارَ يقفونَ لكَ بالمِرْصادِ؛ فانظرْ إلى أصلِ الرِّسالةِ معكَ، هل كنتَ تفكِّرُ، أو يتسامَى طموحُكَ إلى أنْ تكونَ رسولًا؟ إنَّهُ أمرٌ لم يكنْ في بالِكَ، ومعَ ذلكَ أعطاكَ اللّٰهُ إيّاهُ، واختارَكَ لهُ[(3)]، وهذا الوجهُ مبنيٌّ على تفسيرِ المَعادِ بمكَّةَ المكرمة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَرۡجُوٓاْ﴾: (رجو) أصلٌ يدلُّ على الأملِ[(4)]، وهو طمعٌ في نيلِ خيرٍ مُشرَّب بالخوف من عدم نواله[(5)]، ومِنْ ذلكَ: الرَّجاءُ، وهو ظنٌّ يقتضي حصولَ ما فيهِ مَسَرَّةٌ، قالَ تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النّساء: 104]، وقد يُطلَقُ الرَّجاءُ على الخوفِ، وعليهِ حُمِلَ قولُهُ:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 303.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 28، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 334.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11047.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجو).

﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13]، ووجهُ ذلكَ: أنَّ الرَّجاءَ والخوفَ يتلازمانِ، فكلُّ راجٍ مُؤمِّلٌ ما يرجوهُ، خائفٌ فواتَهُ[1]، ومعنى ﴿تَرۡجُوٓاْ﴾ في الآيةِ الكريمة: تُؤمِّل.

2) ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾: أصل (لقي) تحصيل الشَّيء بالمقابلة مواجَهةً أو تماسًّا[2]، فالإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيءِ حيثُ تَلْقاهُ، أي: تراهُ، ثمَّ صارَ اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[3]، قالَ سبحانَهُ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥﴾ [الأعراف: 115]، ويقالُ: ألقيتُ إليكَ قولًا وسلامًا وكلامًا ومودَّةً، قالَ تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1]، وقالَ: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [النحل: 86][4]، والمعنى في الآية: يُنزَّل.

3) ﴿رَحۡمَةٗ﴾: (رحم) أصلٌ يدلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأفةِ[5]، أو اتِّساع مع رقة ولين[6]، والرَّحمةُ: رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المرحوم، وقد تُستعمَلُ في الرِّقَّةِ المُجرَّدةِ عنِ الإحسانِ، وقد تُستعملُ في الإحسانِ المُجرَّدِ عنِ الرِّقَّةِ، نحوُ: رحمَ اللّهُ فلانًا، وإذا وُصِفَ بها اللّهُ سبحانَهُ؛ فليسَ يُرادُ بها إلَّا الإحسانُ المُجرَّدُ، وعلى هذا يقالُ: الرَّحمةُ مِنَ اللّهِ إنعامٌ وإفضالٌ، ومِنَ الآدميّينَ رِقَّةٌ وتعطُّفٌ[7]، وقد يُعبَّرُ بالرَّحمةِ عن كلِّ خيرٍ مِنْ رِزْقٍ وغيرِهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ [الإسراء: 28][8]. والمقصود بـ ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾، أي: إنعامًا وتفضُّلًا منه سبحانه.

4) ﴿ظَهِيرٗا﴾: (ظهر) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[9]، يقالُ: ظَهَرَ عليهِ: غلبَهُ، ويقالُ: ظاهرتُهُ: عاونتُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾ [الممتحنة: 9][10]، والظَّهيرُ: المُعينُ، قالَ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾[11]، وأصلُ ذلكَ مِنَ الظَّهرِ الَّذي هو الجارحةُ؛ لأنَّ

---

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رجو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقي)، وردها ابن فارس إلى أصول ثلاثة ترجع أغلبها إلى هذا المعنى، أو إلى جزء منه، مقاييس اللغة: (لقي).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (لقي).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رحم).
(7) الراغب، المفردات: (رحم).
(8) السمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر)، وقريب منه قول جبل: "ارتفاع مع شدة وغِلَظٍ أو قوة"، ينظر: جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظهر).
(10) الراغب، المفردات: (ظهر).
(11) الراغب، المفردات: (ظهر).

المعاونَ يساعدُ صاحبَهُ بجوارحِه، وأقواها ظَهْرُهُ، ثمَّ جُعِلَ عبارةً عن كلِّ معاونةٍ وإنْ كانَتْ بغيرِ الظَّهْرِ حتَّى باللِّسانِ[1]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الجن: 26]، أي: لا يُطلِعُ عليهِ[2]، والظُّهورُ: ضدُّ الخفاءِ، قالَ تعالى: ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 48]، أي: بدا ما وعدَ اللّٰهُ بهِ رسولَهُ والمؤمنينَ مِنَ النَّصْرِ، وفشا دينُ الإسلامِ، وأصلُ ذلكَ مِنْ حُصولِ الشَّيءِ على وجهِ الأرضِ، ثمَّ صارَ مُستعمَلًا في كلِّ بارزٍ للبصرِ والبصيرةِ[3]، والمُراد بالظهير في الآية: المُعين.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الامتنانُ بإلقاءِ الكتابِ إلى النَّبيِّ ﷺ

وما كنتَ ترجو - أيُّها النبيُّ - أنْ يُنزلَ عليكَ هذا القرآنُ، إلّا أنَّ ربَّكَ اختصك به، أنزله عليك رحمةً منه بك، فاحمَدْ ربَّكَ على ما أنعمَ بِهِ عليكَ مِنْ رحمتِهِ إيّاكَ، ولا تكوننَّ عونًا لِمَنْ كفرَ بربِّكَ على كفرِهِ بهِ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ مجيءِ الواوِ في جملةِ ﴿وَمَا كُنتَ﴾:

اتِّساعُ المعاني وكثرتُها

اختُلِفَ في إعرابِ جملةِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، فقيلَ: الآيةُ ابتداءُ كلامٍ، مضمونُهُ تعديدُ النِّعمةِ على نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وأنَّ اللّٰهَ تعالى رحمَهُ رحمةً لم يحتسِبْها، ولا بلغَها أملُهُ[5]، وعليهِ فالواوُ في ﴿وَمَا كُنتَ﴾ استئنافيَّةٌ.

وقيل: يجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ حالًا مِنَ كافِ الضَّميرِ في ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وما بينَهما اعتراضٌ للاهتمامِ بالرَّدِّ على المُنكِرِ

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (ظهر).
(2) الراغب، المفردات: (ظهر).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (ظهر).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 642.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 303.

للمَعادِ، أي: (فرضَهُ عليكَ، والحالُ أنَّكَ ما كنتَ ترجو ...) إلخ[1]، وعليهِ فالواوُ حاليَّةٌ.

وقيلَ: الجملةُ عطفٌ على جملةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلخ ... باعتبارِ ما تضمَّنَتْهُ مِنَ الوعدِ بالثَّوابِ الجزيلِ أو بالنَّصرِ المُبينِ، أي: كما حمَّلكَ تبليغَ القرآنِ، فكانَ ذلكَ علامةً على أنَّهُ أعدَّ لكَ الجزاءَ بالنَّصرِ في الدُّنيا والآخرةِ، كذلكَ إعطاؤُهُ إيّاكَ الكتابَ عن غيرِ ترقُّبٍ منكَ، بل بمَحْضِ رحمةِ ربِّكَ[2]، وعليهِ فالواوُ عاطفةٌ.

دلالة (ما) في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾:

امتدادُ النَّفي وشموله لزمان الماضي

(ما) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ نافيةٌ، فتفيدُ نفيَ الرَّجاءِ في الزَّمانِ الماضي، وحرفُ المدِّ فيها يشيرُ إلى امتداد ذلك النَّفي؛ ليشمل كلَّ أجزاء الزمان الماضي.

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿كُنتَ﴾:

تأكيدُ انتفاءِ الرَّجاءِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ للدَّلالة على تأكيدِ انتفاءِ الرَّجاءِ، ببيانِ أنَّ انتفاءَهُ أمرٌ مُستغرِقٌ الزَّمنَ الماضيَ، أي: وما كنتَ ترجو في سالفِ الدَّهرِ بحالٍ مِنَ الأحوالِ[3].

بلاغةُ التَّعبير بالمضارعِ في ﴿تَرْجُوٓاْ﴾:

الإشارةُ إلى استمرارِ انتفاءِ الرَّجاءِ

جيءَ بفعلِ الرَّجاءِ مضارعًا في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، ولم يقل مثلًا: (وما كنتَ راجيًا أنْ يُلقى إليكَ الكتابُ)؛ لما تدلُّ عليه صيغةُ المضارعِ مِنَ التَّجدُّدِ والاستمرارِ، وإذا دخلَ عليها النَّفيُ؛ أفادتِ استمرارَ الانتفاءِ، فيفيدُ الكلامُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 378.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 194.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 378.

هنا استمرارَ انتفاءِ الرَّجاءِ منهُ ﷺ، ويُقوّي انتفاءَ الرَّجاءِ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في ﴿وَمَا كُنتَ﴾ كما تقدَّمَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يُلۡقَىٰٓ﴾:

الإيجازُ بالإشارة إلى دلالة الفعل والاسم معًا

﴿أَن﴾ في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ حرفٌ مصدريٌّ، والمصدرُ المُؤَوَّلُ في محلِّ نصبٍ، مفعولٌ بِهِ للفعلِ ﴿تَرۡجُوٓاْ﴾، أي: وما كنتَ ترجو إلقاءَ الكتابِ إليكَ.

وهذا التعبير من البلاغة بمكان، حيث جمع القرآن فيه بين دلالة التجدُّد والحدوث مع الاستمرار - المفهومة من صيغة الفعل المضارع في اللفظ - ودلالة الدوام مع الاستمرار المفهومة من المصدر المؤول في المعنى، وكأنَّ إلقاءَ الكتاب إليك؛ وإن تجدَّد في أزمنة متفاوتة، نحو ثلاث وعشرين سنة، فهو كذلك سيظل متجدِّدًا، مع قِدَمِهِ على امتداد الزَّمان، كأنَّه غضٌّ طريٌّ حديثُ عهدٍ بالوحي، وذلك حتى تقوم الساعة، بل وبعد قيامها.

سرُّ التَّعبيرِ بالإلقاءِ دونَ الإنزالِ:

الإشارةُ إلى قُربِ الكتاب منه ﷺ

عُبِّرَ بالإلقاءِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، ولم يقل مثلًا: (وما كنتَ ترجو أنْ يُنزلَ إليكَ الكتابُ)؛ لِما يُشيرُ إليهِ لفظُ الإلقاءِ مِنْ سهولة تحصيل الشَّيءِ لظهوره بالمواجهة بحيث تلقاه ويلقاك، كأنَّهُ مطروح أمامك في الطريق، وهذا أقوى في الدلالة على تمكُّنهِ منه على وجهٍ لا يُقدَرُ على ردِّهِ[1]، بخلاف الإنزال الذي هو هويٌّ من علوٍ، والذي يدلُّ على بُعد الجهة غالبًا.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾:

الإشـــارةُ إلى تمكُّنِ الرَّسولِ ﷺ منه لِقُربِهِ

المرادُ بإلقاءِ الكتابِ إلى النَّبيِّ ﷺ في قولِ اللّهِ تقدَّسَ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ وحْيُهُ بِهِ إليهِ، وقد أُطلقَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 378.

عليهِ اسمُ الإلقاءِ على وجهِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة[1]، والغرضُ من هذه الاستعارة الإشارةُ إلى أنَّ الكتابَ قريب من النَّبيِّ ﷺ، كأنَّه شيءٌ أُلقي أمامه، يستطيع تحصيلَهُ بسهولةٍ ويسر، والمحافظة عليه دونما بذل سبب منه ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾:

الدَّلالةُ على كونِ الإلقاءِ أمرًا مُستقبلًا بالنِّسبةِ إلى زمنِ الرَّجاءِ

جيءَ بفعلِ الإلقاءِ مضارعًا في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ لِما تفيدُهُ صيغةُ المضارعِ مِنْ كونِ الإلقاءِ أمرًا مستقبلًا بالنِّسبةِ إلى زمنِ الرَّجاءِ، متجدِّدًا حتى يكتمل الكتاب.

نكتةُ بناءِ ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ:

الإشارةُ إلى تعيُّنِ الفاعلِ

بُنِيَ فعلُ ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾ في قولِه تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ؛ إشارةً إلى تعيُّنِ الفاعلِ، وأنَّهُ لا يحتاجُ إلى بيانٍ؛ لأنَّ إلقاءَ الكتابِ لا يكونُ إلّا منهُ سبحانه وتعالى، وفي ذلكَ تفخيمٌ لشأنِ إلقاءِ الكتاب، وتفخيم شأن ملقيه، وهو اللّه تعالى.

سرُّ نفي رجاءِ الإلقاءِ لا الإلقاءِ:

نفي رجاء الفعل أبلغُ من نفي الفعل

نُفيَ رجاءُ الإلقاءِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾، ولم يُنْفَ الإلقاءُ، فلم يقل مثلًا: (وما أُلقيَ إليكَ الكتابُ إلّا رحمةً مِنْ ربِّكَ)؛ للمبالغةِ في نفي الإلقاء، فإنَّ نفيَ رجاءِ الإلقاءِ أبلغُ مِنْ نفيِ الإلقاءِ[2]؛ إذ نفي رجاء الفعل أبلغُ من نفي الفعل نفسه.

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إلى) في قوله: ﴿إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾:

المبالغةُ في تشريف النبي ﷺ

حرفُ الجرِّ (إلى) في قولِه تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ المكانيَّةِ، وهو يفيدُ أنَّ انتهاءَ غايةِ إلقاءِ الكتابِ بوصولِه إلى النَّبيِّ ﷺ، وفي ذلك مبالغةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 194.

(2) زاده، حاشية على البيضاوي: 6/ 479.

في تعظيم شأن النبي ﷺ وتشريفه، كأنَّه هو المقصودُ بإلقاء الكتاب وحدَهُ.

نكتةُ تقديم ﴿إِلَيۡكَ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾:

الحصرُ والعِنايةُ بالمُقدَّمِ

قُدِّمَ ﴿إِلَيۡكَ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ في قولِ اللّهِ تقدَّسَتْ آلاؤُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ، أي: وما كنتَ ترجو أنْ يُلقَى إليكَ لا إلى غيرِكَ الكتابُ، وللعِنايةِ بالمُقدَّم، وهو إلقاءُ شيءٍ إلى النَّبيِّ ﷺ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو كونُ المُلقَى الكتابَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالكتابِ دونَ القرآنِ:

ملاءمةُ الكتابِ لسياقِ الرَّحمةِ وزيادةُ الثقة فيه

اختيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ لفظُ الكتابِ، واختيرَ لفظُ القرآنِ في قولِهِ في الآيةِ السّابقةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾؛ لأنَّ السّياقَ هنا للرَّحمةِ الَّتي مِنْ ثمراتِها الاجتماعُ المُحكَمُ، وذلكَ مدلولُ الكتابِ[1]، وللإشارة إلى أنَّه محفوظٌ بطريقَيْن مُختلفَيْن: **الأولى**: استظهاره المدلول عليه بلفظ القرآن، **والثانية**: كتابتُهُ المدلول عليه بلفظ الكتاب، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّه في أعلى درجات التوثيق بطريقَيْن مختلفَيْن، كلُّ واحدٍ منهما كافٍ بذاته في ذلك، فكيف لو اجتمعا؟.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾:

المبالغةُ في كمالِ الكتابِ

تعريفُ ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ به كتابٌ معهودٌ، وهو القرآنُ[2]، والكتابُ اسمٌ مِنْ أسمائِهِ، أو لاستغراق الأجزاء، وفي ذلك إشارة لكماله في نفسه على أنَّها للعهد، أي: الكتاب الكامل في ذاته وصفاته، وإشارة إلى أنَّه يكتمل إلقاء كلِّ أجزائه على مرِّ السنين، فلا يعتريه نقصانٌ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 378.

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 662.

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿إِلَّا﴾ في قولِهِ: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾:

احتمالُ ذلك نوعَي الاستثناء

الاستثناءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ محمولٌ على المعنى، كأنَّهُ قيلَ: وما أُلقيَ عليكَ الكتابُ إلّا رحمةً مِنْ ربِّكَ[1]، يعني: هو استثناءٌ متَّصلٌ مِنْ أعمِّ العِلَلِ أو مِنْ أعمِّ الأحوالِ، فيكونُ المعنى: ما أُلقيَ إليكَ الكتابُ لأجلِ شيءٍ مِنَ الأشياءِ إلّا لأجلِ التَّرحُّمِ، أو في حالٍ مِنَ الأحوالِ إلّا في حالِ التَّرحُّمِ[2].

وعُبِّرَ بأداةِ الاستثناءِ المتَّصلِ؛ إشارةً إلى أنَّ حالَهُ ﷺ قبلَ النُّبوَّةِ - مِنَ التَّنزُّهِ عن عبادةِ الأوثانِ، وعن القُرْبِ منها وعن الحَلفِ بها، وعن الفواحشِ جميعًا، ومِنَ الانقطاعِ إلى اللهِ بالخَلْوةِ معَهُ والتَّعبُّدِ لهُ - كانَ حالُه حالَ مَنْ يرجو ذلكَ[3]، وإن لم يكن منه رجاء.

ويجوزُ أنْ يكونَ الاستثناءُ منقطعًا[4]، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكنْ) للاستدراكِ، أي: ولكنْ لرحمةٍ مِنْ ربِّكَ أُلقيَ إليكَ الكتابُ[5]؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يُخامِرْ نفسَهُ رجاء أنْ يبعثَهُ اللّه بكتابٍ مِنْ عندِهِ، بل كانَ ذلكَ مُجرَّدَ رحمةٍ مِنَ اللّهِ اصطفاءً لهُ[6].

نكتةُ تنكيرِ ﴿رَحۡمَةٗ﴾:

التعظيم والتفخيم

تنكيرُ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ للتَّعظيمِ والتفخيمِ، أي: أُلقيَ إليكَ الكتابُ لأجلِ رحمةٍ عظيمةٍ كبيرةٍ بالغةٍ مبلغًا لا يُتصوَّرُ كنهُهُ، ولا يُدرِكُ سعتَهُ لكَ، ثم هي رحمةٌ لجميعِ الخلائقِ بكَ من بعدكَ، لم تكنْ ترجوها[7].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 334.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 379.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 331.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 436.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 194.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 379.

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿مِّن﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِهِ تبارك شأنُهُ: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ للابتداءِ، وهو يفيدُ أنَّ ابتداءَ هذهِ الرَّحمة العظيمةِ مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيم ﷻ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في ﴿رَّبِّكَۚ﴾:

ملاءمةُ الرُّبوبيَّةِ لمقامِ الرَّحمةِ والإحسانِ

جيءَ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ لمناسبةِ هذا الاسم الجليلِ لمقامِ الرَّحمةِ والامتنانِ بإلقاءِ الكتابِ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ هذا الاسمَ يُنبئُ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ عن التَّربيةِ والإنعامِ والإحسانِ، والمعنى: إلّا رحمةً مِنْ ربِّكَ، أي: المُحسِنِ إليكَ بإلقاءِ الكتابِ إليك وبجعلِكَ مُصطفًى لذلكَ، بالدُّعاءِ إليهِ، وقصرِ الهِمَمِ عليهِ[1].

لطيفةُ الإضافةِ في ﴿رَّبِّكَۚ﴾:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِ المُخاطَبِ الرّاجعِ إلى النَّبيِّ ﷺ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ لتشريفِ النَّبيِّ ﷺ بكونِهِ مربوبًا للّهِ تعالى، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى عُبوديَّتِهِ ﷺ للّهِ تعالى الَّتي هي أكرمُ صفةٍ يتحلَّى بها المخلوقُ، وكأنَّ تلك الرحمة الملقاة إليك ما كانت إلّا لأجلك أنت، والناس تبعٌ لك في ذلك.

معنى الفاءِ في ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾:

الدلالةُ على شُكرِ النِّعمةِ بطريقٍ عمليٍّ

الفاءُ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لتفريعِ هذهِ الجملةِ على جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، وما عُطِفَ عليها وما تخلَّلَ بينَهما ممّا اقتضَى جميعُهُ الوعدَ بنصرِهِ ﷺ وظهورِ أمرِهِ وفوزِهِ في الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّهُ جاءَ مِنَ اللّهِ إلى قومٍ هم في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 379.

ضلالٍ مُبينٍ، وأنَّ الَّذي رحمَهُ، فآتاهُ الكتابَ على غيرِ ترقُّبٍ منهُ لا يجعلُ أمرَهُ سُدًى، فأعقبَ ذلكَ بتحذيرِهِ مِنْ مُظاهَرةِ الكافرين[1]، وتلك نِعَمٌ عظيمة تستدعي شُكْرَ مُنْعِمها بالعمل، على حدِّ قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: 13]، وكأنَّ كلَّ هذه النِّعَم من ذلك المنعم، تقتضي العملَ له وحده، وعدمَ مظاهرة أعدائه.

دلالةُ النَّهيِ في ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾:

النَّهيُ عن جميع أشكالِ المُعاوَنةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ تحذيرٌ للنَّبيِّ ﷺ مِنْ أدنَى مُظاهَرةٍ للمشركينَ؛ لأنَّ فعلَ الكونِ لمّا وقعَ في سياقِ النَّهي، وكانَ سياقُ النَّهيِ مِثلَ سياقِ النَّفي؛ كانَ وقوعُ فعلِ الكونِ في سياقِهِ مفيدًا تعميمَ النَّهيِ عن كلِّ كونٍ مِنْ أكوانِ المُظاهَرةِ للمشركينَ، وهي مراتبُ: أعلاها النُّصرةُ، وأدناها المصانعةُ والتَّسامحُ؛ لأنَّ في المصانعةِ على المرغوبِ إعانةً لراغبِه، فلمّا شملَ النَّهيُ جميعَ أكوانِ المُظاهَرةِ لهُم؛ اقتضَى النَّهيَ عن مصانعتِهم والتَّسامحِ معَهم.

تقويةُ داعي إبلاغه ﷺ إيّاهم بمنابذته لهم

أو النَّهيُ نهيُ تكوينٍ لا نهيَ تشريعٍ، على مثال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾، وجيءَ به للتَّهييجِ؛ لإثارةِ غضبِ النَّبيِّ ﷺ عليهِم، وتقويةِ داعي شدَّتِهِ معَهم؛ لأنَّ المنهيَّ عنهُ لا يُتصوَّرُ وقوعُهُ مِنَ الرَّسولِ ﷺ حتَّى يُنْهَى عنهُ، فكانَ ذلكَ قرينةً على أنَّهُ مُؤوَّلٌ[2]، والمعنى: دُمْ على عدمِ كونِكَ ظهيرًا لهُم[3].

دلالةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المجزومِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على طلبِ التجدُّدِ والاستمرارِ على عدمِ كونِهِ ﷺ مُعينًا للكافرينَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 194.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 195.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 588.

نكتةُ الإتيانِ بنونِ التَّوكيدِ في ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾:

جيءَ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لتأكيدِ النَّهيِ عن مُظاهَرةِ الكافرينَ ومعاوَنتِهم[1]؛ لأنَّ مُظاهَرتَهم أمرٌ خطيرٌ يقتضي المقامُ مزيدَ التَّحذيرِ منهُ.

دلالةُ صيغةِ (فعيلٍ) في ﴿ظَهِيرًا﴾:

المبالغةُ في النَّهي عن المُظاهَرة

عُبِّرَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنَ المبالغةِ في النهيِ عن المُظاهَرةِ والمعاوَنة، ممّا يستدعي توكيدَ التَّحذيرِ مِنَ التَّلبُّسِ بذلك.

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾:

الإشارةُ إلى الأمرِ بالغِلْظةِ عليهم

لمّا شملَ النَّهيُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ جميعَ أكوانِ المُظاهَرةِ لهُم؛ اقتضَى النَّهيَ عن مصانعتِهم والتَّسامحِ معَهم، وهو يستلزمُ الأمرَ بضدِّ المُظاهَرة، فيكونُ كنايةً عن الأمرِ بالغِلْظةِ عليهِم، كما هو صريحُ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 73][2].

دلالةُ (أل) التعريفِ في: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾:

النهي عن مظاهرة عموم الكافرين لا يثبت جوازَ مظاهرة بعضِهم

(أل) في قوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ موصولة، واللفظ (الكافرين) صلتها، والموصول إذا دخل على الجمع يُفيد عموم الأفراد، فيكون المعنى: فلا تكوننَّ ظهيرًا لكلِّ كافرٍ، والنهي عن مظاهرة عموم الكافرين هنا لا يثبت جوازَ مظاهرة بعضهم، إمّا لأنَّ الحكم في ذلك أغلبيٌّ، أو لوجود أدلة أخرى على ذلك.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾:

الإشارةُ إلى رُسوخِهِم في الكفرِ

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ رُسوخِهم في الكفرِ، وأنَّهُ صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ الَّتي لا ينفكّونَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 279.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 195.

عنها، فضلًا عن كونِ اللّامِ في اسمِ الفاعلِ موصولةً، فتُشيرُ إلى علَّةِ النَّهيِ عن مُظاهَرتِهم، وكأنَّ المعنى: فلا تكنْ لهُم ظهيرًا؛ لأنَّهم كافرونَ.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأمل والرَّجاء والطَّمع:

الطَّمعُ أشدُّ مِنَ الأملِ والرَّجاءِ

فُرِّقَ بينَ الأملِ والرَّجاءِ والطَّمعِ: بأنَّ الأملَ: هو الرَّجاءُ الَّذي فيهِ تثبُّتٌ وطولُ انتظارٍ، والرَّجاءَ: هو الأملُ الَّذي يكتنفُهُ خوفٌ واهتمامٌ واكتراثٌ، والطَّمعَ: هو شدَّةُ الرَّجاءِ[1].

وفُرِّقَ أيضًا بينَ الرَّجاءِ والطَّمعِ: بأنَّ الرَّجاءَ هو الظَّنُّ بوقوعِ الخيرِ الَّذي يعتري صاحبَهُ الشَّكُّ فيهِ، إلّا أنَّ ظنَّهُ فيهِ أغلبُ، ولا يكونُ الرَّجاءُ إلّا عن سببٍ يدعو إليهِ، مِنْ كرمِ المرجوِّ ونحوِهِ، ويتعدَّى بنفسِهِ، تقولُ: رَجَوْتُ زيدًا، والمُرادُ: رَجَوْتُ الخيرَ مِنْ زيدٍ؛ لأنَّ الرَّجاءَ لا يتعدَّى إلى أعيانِ الرِّجالِ.

وأمّا الطَّمعُ؛ فهو ما يكونُ مِنْ غيرِ سببٍ يدعو إليهِ، فإذا طمعتَ في الشَّيءِ؛ فكأنَّكَ حدَّثتَ نفسَكَ بهِ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ هناكَ سببٌ يدعو إليهِ، ولهذا ذُمَّ الطَّمعُ، ولم يُذَمَّ الرَّجاءُ، والطَّمعُ يتعدَّى إلى المفعولِ بحرفٍ، تقولُ: طَمِعْتُ فيهِ[2].

الإلقاءُ والرَّميُ والقَذْفُ والرَّجْمُ والطَّرْحُ والنَّبذُ:

الرَّمْيُ أعمُّ مِنَ الجميعِ

الرَّمْيُ: هو الأصلُ، ويُطلَقُ على الرَّمْيِ بالمعاني والأعيانِ، وعلى كلِّ حالاتِ الرَّمْيِ، فيدخلُ ضمنَ معناهُ العامِّ الإلقاءُ والقَذْفُ والرَّجْمُ والطَّرْحُ والنَّبْذُ؛ فالإلقاءُ يعني: طَرْحَ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي تريدُهُ، وحيثُ تراهُ، أو حيثُ تُحِبُّ.

---

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 192 - 194.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 248.

والرَّجْمُ أشدُّ معاني الرَّمْيِ؛ إذ هو في الأصلِ الرَّمْيُ بالحجارةِ، ويُستعارُ في أشدِّ حالاتِ الشَّتْمِ.

والقَذْفُ: هو رَمْيُ الشَّيءِ مِنْ بُعْدٍ، ويُستعارُ لرَمْيِ الإنسانِ بالتُّهَمِ البعيدةِ عن سُلوكِهِ وأخلاقِهِ.

والطَّرْحُ والنَّبْذُ كلاهما يعني: إلقاءَ الشَّيءِ وإبعادَهُ؛ لقلَّةِ الاعتدادِ بهِ، والفرقُ بينَهما: أنَّ النَّبْذَ أشدُّ مِنَ الطَّرْحِ[1].

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 183 - 186.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

النَّهيُ عن الإعراضِ عن الحقِّ بعدَ النَّهيِ عن مُعاوَنةِ أهلِ الباطِلِ

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجهانِ متقاربانِ: **أحدُهما:** أنَّه لمّا كانَ التَّواني في النَّهيِ عن المُنكَرِ إعراضًا عن الأوامرِ، وإنْ كانَ المُتواني مجتهدًا في العملِ؛ قالَ ﷻ تنبيهًا على شدَّةِ الأمرِ؛ لكثرةِ الأعداءِ، وتتابعِ الإيذاءِ والاعتداءِ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ﴾ الآيةَ[1]، **والوجه الثّاني**: أنَّه بعدَما نهَى اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ عن مُظاهَرةِ الكافرينَ؛ شدَّدَ عزمَهُ وقوّاهُ بألّا يأبهَ بمخالفتِهم، فقالَ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ﴾ الآيةَ[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يَصُدُّنَّكَ﴾: (صد) الصدُّ اعتراضٌ بشيءٍ قوي أو كثيف يرُدُّ المُقبِلَ أو يمنعه[3]، ومعظم بابه إعراضٌ وعدولٌ[4]، وعليه فالصُّدودُ والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عنِ الشَّيءِ وامتناعًا، كما في قولِه تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النّساء: 61]، وقد يكونُ صَرفًا ومَنْعًا، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: 24]، وقولِه: ﴿يَصُدُّنَّكَ﴾ يعني: يصرفنَّك، ويمنعنَّك.

2) ﴿وَٱدْعُ﴾: (دعو) أصلٌ يدلُّ على إمالةِ الشَّيءِ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ[5]، بجذبه أو محاولة ضمِّه أو غير ذلك[6]، والدُّعاءُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 380.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 105.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صدد - صدي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (دعو).

الرَّغبةُ إلى اللّهِ فيما عندَهُ مِنَ الخيرِ، والابتهالُ إليهِ بالسُّؤالِ[1]، وتقولُ: دَعَوْتُهُ؛ إذا سألتَهُ. والادِّعاءُ: أنْ يزعم شيئًا أنَّهُ لهُ، والدَّعوى: الدُّعاءُ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: 10][2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الدَّعوةُ إلى التَّمسُّكِ بالحقِّ واجتنابِ الباطلِ

ولا يَصرِفَنَّكَ - أيُّها النَّبيُّ - هؤلاءِ المشركونَ عن تبليغِ آياتِ اللّهِ وحُجَجِهِ بعدَ أنْ أنزلَها إليك، وادْعُ إلى سبيلِ ربِّك، وبلِّغْ رسالتَهُ إلى مَنْ أرسلكَ إليهِ بها، واعبُدْهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، ولا تتركنَّ الدُّعاءَ إليهِ وتبليغَ رسالتِهِ، فتكونَ ممَّنْ فعلَ فِعْلَ المشركينَ بمعصيتِهِ ومخالفةِ أمرِهِ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾:

التَّشريكُ في جملةِ الأوامرِ والنَّواهي

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ للعطفِ، وهذهِ الجملةُ وما بعدَها مِنَ النَّواهي والأوامرِ داخلةٌ في حيِّزِ التَّفريعِ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[4].

(لا) في ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾:

(لا) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ ناهيةٌ، فتفيدُ النَّهيَ عن الإعراضِ عن دينِ اللّهِ بسببِ المشركين.

دلالةُ صيغةِ المضارعِ ﴿يَصُدُّنَّكَ﴾:

عمومُ الاستمرارِ والدَّوامِ على عدمِ الإعراضِ عن آياتِ اللهِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المجزومِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾؛ للدَّلالةِ على طلبِ الاستمرارِ على

(1) الزبيدي، تاج العروس: (دعو).
(2) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دعو).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 643، والمراغي، تفسير المراغي: 20/ 105.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 196.

عدمِ الإعراضِ عن آياتِ اللّهِ تعالى، والفعل كالنَّكرة في إفادة العموم في سياق النهي، وهو هنا نهيٌ عن عموم الصدِّ في عموم الزمان والمكان.

نكتةُ الإتيانِ بنونِ التَّوكيدِ في ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾:

الدلالـةُ على عموم المعنى في المحذوف المقدَّر

جيءَ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾؛ لتأكيدِ النَّهيِ عن الإعراضِ عن آياتِ اللّهِ تعالى؛ لأنَّ الإعراضَ عنها مَهْلَكَةٌ يقتضي المقامُ مزيدَ التَّحذيرِ منها.

مرجعُ ضميرِ الغَيبةِ في ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾:

الدلالـة على العموم

ضميرُ الغَيبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ يحتمل أن يكون للكافرينَ[1]، أي: ولا يَصُدَّنَّك الكفّارُ بأقوالِهم وكذبِهم وأذاهم، ولا تلتفتْ نحوَهُ، وامضِ لشأنِكَ[2]، ويحتمل أن يكون لكل صادٍّ، أي: لا يصدنَّك أيُّ صادٍّ عن آيات اللّه.

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

الإشـارةُ إلى نهيه ﷺ عن أنْ يتقبَّلَ منهُم ما فيهِ صدٌّ عن آياتِ اللهِ

قولُه ﷻ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ كنايةٌ عن نهيِهِ ﷺ عن أنْ يتقبَّلَ منهُم ما يكون سببًا في الصدِّ عن آياتِ اللّهِ، كما تقولُ العربُ: لا أعرفنَّكَ تفعلُ كذا، كَنَّوا بهِ عن أنَّهُ لا يفعلُهُ، فيعرف المُتكلِّمُ النّاهي فِعْلَهُ، أو هو للتَّهييجِ أيضًا[3]، ويجوزُ أنْ يكونَ الخطابُ معَهُ ﷺ، ولكنَّ المُرادَ غيرُهُ[4]، وهم سائر أُمَّتهِ من بعده.

سرُّ تخصيصِ الخطابِ بالنَّبيِّ ﷺ:

تعظيمُ شأنِ النَّهيِ عن الإعراضِ

عدمُ الإعراضِ عن آياتِ اللّهِ واجبٌ على الكلِّ، إلّا أنَّهُ تعالى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 28.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 303.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 195.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 20.

خاطبَ بقولِه: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ﴾ النَّبيَّ ﷺ خصوصًا؛ لأجلِ تعظيم شأنِ النَّهي عن الإعراضِ[1]، ببيانِ أنَّهُ إذا خوطِبَ النَّبيُّ ﷺ بذلك؛ فغيرُهُ أولى وآكدُ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿عَنْ﴾ في قوله: ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿عَنْ﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ﴾ للمجاوزةِ، أي: لا يصدنَّك أيُّ شيء تتجاوز بسببه آيات اللّٰه، وتبتعد عنها.

نكتةُ جمعِ الآياتِ:

الإشـــارةُ إلى تـعـدُّدِ الآيـاتِ وتنوُّعها

عُبِّرَ بلفظِ الجمعِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ﴾؛ للإشارةِ إلى تعدُّدِ الآياتِ وتنوُّعها؛ لأنَّ المقصودَ بها آياتُ القرآنِ الكريم، وهي كثيرةٌ[2]، والمعنى: ولا يَصُدُّنَّك عن قراءتِها والعملِ بها[3]، أو المقصودُ بها الحججُ والبراهين العقلية والأنفسية والآفاقية، التي تدلُّ عليها الآيات القرآنية، فيكون جمع بين جملة أنواع من الآيات.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلى الاسم الجليل:

تعظيمُ الآيـاتِ والإشعارُ بعِظَمِ جُرْمِ الصَّدِّ

أُضيفَتِ الآياتُ إلى لفظِ الجلالةِ الذي يدلُّ على المهابة في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ﴾؛ لتعظيمِ الآياتِ، والإشعارِ بعِظَمِ جُرْمِ الصَّدِّ[4]؛ لأنَّ الصّادَّ عنها يصدُّ عن آياتٍ عظيمةِ الشَّأنِ منسوبةٍ لذي الجلالِ والكِبْرياءِ، ولفظ الجلالة الذي هو عنوان الألوهية، فيه زيادة تعظيم الآيات بكونها مِنَ المُتَّصفِ بصفاتِ الكمالِ[5]، ولأنَّ لفظَ الجلالةِ أنسبُ بمقامِ النَّهيِ والتَّحذيرِ مِنَ الإعراضِ عن الآياتِ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 20.

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 662.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 187.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 588.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 380.

سرُّ التَّعبيرِ بالآياتِ بعدَ التَّعبيرِ بالقرآنِ والكتابِ:

المبالغةُ في النَّهي عن الإعراض وتعظيم المُنَزَّل

عُبِّرَ بالآياتِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ بعدَ التَّعبيرِ بالقرآنِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، وبالكتابِ في قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ للمبالغةِ في النَّهي عن الإعراضِ[1]، وزيادةِ التَّعظيم للمُنزَلِ على النَّبيِّ ﷺ، وللدلالة على أنَّ هذا الملقى المنزل المُسمّى بالقرآن والكتاب فيه من العِبَر والحجج والبراهين العقلية والأنفسيَّة والآفاقية ما يستحقُّ إفراده بالذِّكر.

بلاغةُ التَّقييدِ بالبعديَّة:

بيانُ كمالِ قُبْحِ الصَّدِّ، أو لتعليلِ النَّهي

التَّقييدُ بالبعديَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾؛ لأنَّ الصَّدَّ إنَّما يكونُ بعدَهُ، ولو لم يجئ هذا القيدُ؛ لتمَّ المعنى، لكنْ جيءَ بِه لبيانِ كمالِ قُبْحِ الصَّدِّ[2]، وقيلَ: التَّقييدُ بالبعديَّة لتعليلِ النَّهي أيًّا ما كانَ المرادُ منهُ، أي: لا يجوزُ أنْ يصدّوكَ عن آياتِ اللّهِ بعدَ إذ أنزلَها إليك؛ فإنَّهُ ما أنزلَها إليكَ إلّا للأخذِ بها ودوامِ تلاوتِها، فلو فُرِضَ أنْ يصدّوكَ عنها؛ لذهبَ إنزالُها إليكَ باطلًا وعبثًا، كما في قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِمَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة: 213][3].

بلاغةُ حذفِ المضافِ في ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ﴾:

الإيجازُ بجوازِ حذفِ الكلامِ المعروف

قولُهُ: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ تقديرُهُ: بعدَ وقتِ إنزالِها، و﴿إِذْ﴾ تضافُ إليهِ أسماءُ الزَّمانِ، كقولِكَ: حينئذٍ، وليلَتئذٍ، ويومَئذٍ، ونحوَ ذلكَ[4].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 588.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 588.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 196.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 437.

لطيفةُ بناءِ ﴿أُنزِلَتْ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ:

الإشارةُ إلى تعيُّنِ الفاعلِ

بُنِيَ فعلُ ﴿أُنزِلَتْ﴾ في قولِهِ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾؛ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ؛ إشارةً إلى تعيُّنِ الفاعلِ، وأنَّهُ لا يحتاجُ إلى بيانٍ[1]؛ لأنَّ إنزالَ الآياتِ لا يكونُ إلّا منهُ ﷻ، وفي ذلكَ تفخيمٌ لشأنِ إنزالِها.

بلاغةُ التَّعبيرِ عن الآيات بالإنزالِ:

الدلالةُ على علوِّ مكانتها ورفعة منزلتها

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ مجازٌ بديعٌ، وذلكَ أنَّ الإنزالَ هو جعلُ الشَّيءِ نازلًا، والنُّزولُ الانتقالُ مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، وهو حقيقةٌ في انتقالِ الذَّواتِ مِنْ عُلْوٍ، ويُطلَقُ الإنزالُ ومادَّةُ اشتقاقِهِ بوجهِ المجازِ اللُّغويِّ على معانٍ راجعةٍ إلى تشبيهِ عملٍ بالنُّزولِ؛ لاعتبارِ شرفٍ ورِفْعةٍ معنويَّةٍ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: 26]، وقولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: 6]؛ لأنَّ خلْقَ اللّهِ وعطاءَهُ يُجعَلُ كوصولِ الشَّيءِ مِنْ جهةٍ عُليا لشرفِهِ.

وأمّا إطلاقُهُ على بُلوغِ الوصفِ مِنَ اللّهِ إلى الأنبياءِ؛ فهو إمّا مجازٌ عقليٌّ بإسنادِ النُّزولِ إلى الوحيِ تبعًا لنزولِ المَلَكِ مُبلِّغِهِ، الَّذي يتَّصلُ بهذا العالَمِ نازلًا مِنَ العالَمِ العُلْويِّ؛ فإنَّ المَلَكَ مُلابِسٌ للكلامِ المأمورِ بتبليغِهِ، وإمّا مجازٌ لغويٌّ بتشبيهِ المعاني الَّتي تُلقَى إلى النَّبيِّ ﷺ بشيءٍ وصلَ مِنْ مكانٍ عالٍ، ووجهُ الشَّبهِ هو الارتفاعُ المعنويُّ، لا سيَّما إذا كانَ الوحيُ كلامًا سمعَهُ الرَّسولُ كالقرآنِ[2].

دلالةُ تقييدِ الإنزالِ بـ ﴿إِلَيْكَ﴾:

زيادةُ تقبيحِ الصَّدِّ عن الآياتِ

قُيِّدَ إنزالُ الآياتِ بـ ﴿إِلَيْكَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾؛ لزيادةِ تقبيحِ الصَّدِّ عن آياتِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 380.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 238.

اللّهِ؛ لأنَّ الإعراضَ عنها - ممَّنْ نزلَتْ عليهِ، وعلمَ حقيقتَها - أدعَى للإنكارِ.

سرُّ الوصلِ في ﴿وَٱدۡعُ﴾:

الاشتراك في وجوب الأخذ بالأوامر والنواهي

الواوُ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على ما قبلَها، وجميعُ النَّواهي والأوامرِ المذكورةِ في الآيةِ داخلةٌ في حيِّزِ التَّفريعِ بالفاءِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]؛ ليفيد أنَّ هذا الأمر ﴿وَٱدۡعُ﴾ مشتركٌ مع ما قبله في وجوب الأخذ بالأوامر والنَّواهي.

غرضُ الأمرِ في ﴿وَٱدۡعُ﴾:

الأمرُ بدوام الدعوة والثبات عليها

الأمرُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ مُستعمَلٌ في الأمرِ بالدَّوام على الدَّعوةِ إلى اللّهِ، والثبات عليه والتمسُّك به، لا إلى إيجادِ الدَّعوةِ؛ لأنَّ ذلكَ حاصلٌ، أي: لا يَصرِفَكَ إعراضُ المشركينَ عن إعادةِ دعوتِهم؛ إعذارًا لهُم.

ويجوزُ أنْ يكونَ الدُّعاءُ مُستعمَلًا في الأكملِ مِنْ أنواعِهِ، أي: إنَّكَ بعدَ الخروجِ مِنْ مكَّةَ أشدُّ تمكُّنًا في الدَّعوةِ إلى اللّهِ ممّا كنتَ مِنْ قبلُ؛ لأنَّ تشغيبَ المشركينَ عليهِ كانَ يُؤثِّرُ في صفاءِ تفرُّغِهِ للدَّعوةِ[2].

بلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿وَٱدۡعُ﴾:

القصدُ إلى التَّعميمِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿وَٱدۡعُ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾؛ للقصدِ إلى تعميمِ المفعولِ، والمعنى: وادْعُ كلَّ النّاسِ[3]، أو: وادْعُ كلَّ أحدٍ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ مُرسَلٌ إلى الثَّقلينِ، ويجوزُ أنْ يكونَ الفعلُ قد نُزِّلَ منزلةَ اللّازمِ، أي: أوجِدِ الدَّعوةَ وأحدِثْها.

سرُّ عدمِ تأكيدِ ﴿وَٱدۡعُ﴾:

الدَّلالةُ على الاكتفاءِ بالمستطاعِ

جيءَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ خاليًا مِنَ التَّأكيدِ، ولم يقل:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 196.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 196.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 28.

(وادعونَّ) معَ تأكيدِ ما قبلَهُ، وهو قولُهُ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، وتأكيدِ ما بعدَهُ، وهو قولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ اكتفاءً بالمستطاعِ، فإنَّ الفعلَ ليسَ للمبالغةِ فيهِ جدًّا، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ جَلْبَ المصالحِ أيسرُ خَطْبًا مِنْ دَرْءِ المفاسدِ، فإنَّ المطلوبَ فيهِ بُلوغُ الغايةِ[1].

سرُّ التعبير بـ﴿إِلَىٰ﴾ في ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

الغـايـةُ من الـدعـوة تبليغ دين الله

حرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِ الحقِّ تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ مجازًا؛ لأنَّ المقصودَ أنْ تنتهيَ دعوةُ النَّبيِّ ﷺ إلى دينِ اللّٰهِ تعالى، بحيثُ يَسعَى لإيصالِ النّاسِ إلى خالقِهم.

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

اتِّساع المعاني الممكنة في تقدير المحذوف

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إيجازٌ بحذفِ مضافٍ، إذ التَّقديرُ: (وادْعُ إلى عبادةِ ربِّكَ وتوحيدِهِ)[2]، أو وادعُ إلى سبيل ربك، أو وادعُ إلى دين ربِّك، وهذا العمومُ مُستفادٌ مِنَ التَّعبيرِ بـ ﴿رَبِّكَ﴾[3]؛ لأنَّه مفرد أُضيف إلى معرفة.

دلالةُ التَّعبيرِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في ﴿رَبِّكَ﴾:

ملاءمةُ الرُّبوبيَّةِ لـمـقـامِ الأمـر بالدَّعوةِ إلى اللهِ

جيءَ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ لمناسبةِ هذا الاسمِ الجليلِ لمقامِ الأمرِ بالدَّعوةِ إلى اللّٰهِ تعالى؛ لأنَّ هذا الاسمَ يُنبئُ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ عنِ التَّربيةِ والإنعامِ والإحسانِ، وذلكَ يستوجبُ إفرادَ اللّٰهِ سبحانَهُ بالتَّوحيدِ والعبادةِ، والمعنى: وادْعُ إلى المُحسنِ إليكَ؛ لإحسانِهِ إليكَ، وإقبالِهِ دونَ الخلقِ عليكَ[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 380.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 187.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 588.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 380.

سرُّ وضعِ الظاهر موضع الضمير:

الانتقال من الاسم الدالِّ على المهابة إلى الاسم الدالِّ على الإنعام والإحسان

عدل القرآن عن الإضمار إلى الإظهار، فلم يقل: (وادع إليه)، أي: إلى اللهِ تعالى المذكورِ في قولِه: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، بل قال: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: المنعم عليك المحسن المتفضل، وفي ذلك جمع بين معاني الألوهيَّة والرُّبوبيَّة.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّكَ﴾:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ وإعلاء مكانته

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِ المُخاطَبِ الرّاجعِ إلى النَّبيِّ ﷺ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ لتشريفِ النَّبيِّ ﷺ بكونِهِ مربوبًا للّهِ تعالى، وصفةُ العُبوديَّةِ هي أكرمُ صفةٍ يتحلَّى بها المخلوقُ، وكأنَّه ربُّهُ وحدَهُ.

بلاغةُ الوصل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾:

التشريكُ في جملة الأحكام

الواوُ في قولِه جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملة على ما قبلَها، وجميعُ النَّواهي والأوامرِ المذكورةِ في الآيةِ داخلةٌ في حيِّزِ التَّفريعِ بالفاءِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ (لا) في ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾:

امتدادُ النَّهي من الزَّمان الحاضر إلى الزَّمان المستقبل

(لا) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ناهيةٌ، فتفيدُ النَّهيَ عن الانخراطِ في جملةِ المشركينَ، ومعلومٌ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يُفرَضُ في حقِّهِ الشِّركُ، فهذا النَّهيُ إمّا مِنْ قبيلِ التَّهييجِ[2]، أو المُخاطَبُ هو النَّبيُّ ﷺ والمرادُ غيرُهُ[3]، أو هو من باب نواهي التكوين الإلهيَّة النافذة في حقِّ المنهي على سبيل التمنُّن على الَّذي وقع عليه النَّهي.

دلالةُ صيغةِ المضارعِ ﴿تَكُونَنَّ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المجزوم في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على طلبِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ على عدمِ الإشراكِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 196.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 437.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 196.

نكتةُ الإتيانِ بنونِ التَّوكيدِ في ﴿تَكُونَنَّ﴾:

جيءَ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾؛ لتأكيدِ النَّهيِ عن الإشراكِ؛ لأنَّ الإشراكَ باللهِ تعالى جُرْمٌ عظيمٌ يقتضي المقامُ مزيدَ التَّحذيرِ منهُ بالتأكيد عليه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

(مِنْ) للتَّبعيضِ والنَّهي عن مشاركة المشركين ولو في عمل من أعمالهم

﴿مِنَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ للتَّبعيضِ[1]، والمعنى: ولا تكوننَّ واحدًا من المشركين أو فردًا من أفرادهم، ولو بالمشاركة في عملٍ من أعمالهم، ولا تنخرط في سِلْكِهم.

بلاغةُ التعبير بـ(أل) الموصولة في: ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

(أل) في قوله: ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ موصولةٌ، واللفظ (مشركين) صلتها، والموصول إذا دخل على الجمع؛ يفيد عموم الأفراد، فيكون المعنى: فلا تكوننَّ ظهيرًا لأيِّ مشركٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ اسم الفاعل ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

الإشارةُ إلى رُسوخِهم في الشِّركِ

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصِّيغةُ مِنْ رُسوخِهم في الشِّركِ، وأنَّهُ صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبلّيَّةِ الَّتي لا ينفكّونَ عنها، ولا تفارقُهم.

سرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ في ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

زيادةُ تقبيحِ حالِ الكفرةِ بوقوعهم في الشِّرك مع مراعاةِ الفاصلةِ

الظّاهرُ أنْ يُقالَ في الآية الكريمة: (ولا تكوننَّ منهُم)؛ لأنَّ الضَّميرَ راجعٌ إلى الكافرينَ المذكورينَ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لزيادةِ تقبيحِ حالِ الكفرةِ بذِكْرِهم بوصفِ الإشراكِ بعدَ ذكرِهم بوصفِ الكفرِ، وللتَّوصُّلِ باللّامِ الموصولةِ الَّتي في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 196.

﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ إلى بيانِ علَّةِ النَّهيِ عن كونِهِ منهُم، وهي شركُهم باللّٰهِ تعالى، كأنَّهُ قيلَ: فلا تكوننَّ ظهيرًا لهُم؛ لأنَّهم مُشرِكونَ، إضافةً إلى ما في إظهارِ ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ مِنْ مراعاةِ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّدّ والمنع:

خصوصيَّةُ الصدِّ بالقوَّة والارتداد بخلاف المنع

يتجلَّى الفرق بين الصدِّ والمنع في أنَّ الصَّدَّ إنَّما يكون بشيءٍ قوي أو سميك أو كثيف حسًّا أومعنًى، ويترتَّب عليه أمران، إمّا الردُّ إلى جهة الابتداء، أو المنع من التجاوز، وقد يعبَّر به عن الإعراض والانصراف، بينما المنع لا يشترط فيه قوة المانع، وعليه فليس فيه ردٌّ إلى جهة الابتداء، وأنَّ الصَّدَّ هو المنعُ عن قصدِ الشَّيءِ خاصَّةً، ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي: يمنعونَ النّاسَ عن قصدِهِ، وأمّا المنعُ فيكونُ في ذلكَ وغيرِهِ، تقولُ: منعَ الحائطَ عنِ المَيْلِ، ولا تقولُ: صدَّهُ عنِ المَيْلِ؛ لأنَّ الحائطَ لا قصدَ لهُ[1].

النِّداء والدُّعاء:

الـنِّـداءُ يكـونُ بـرفعِ الـصَّـوتِ، والـدُّعـاءُ يكونُ بـرفـعِ الـصَّـوتِ وغيرِهِ

فُرِّقَ بينَ النِّداءِ والدُّعاءِ مِنْ وجوهٍ، منها: أنَّ النِّداء يكون برفع الصوت غالبًا، والدُّعاء يكون بخفضه غالبًا، بل قد يكون بغير صوت، وقد يكون بالإشارة والكتابة، وأنَّ الأصل في النِّداء العمومُ، والأصل في الدُّعاء الخصوصُ، وفي الدُّعاء اهتمامٌ وأدب وحفاوة، ولذلك دائمًا ما يكون بدعوات خاصة بالنسبة للداعي أو بالنسبة للمدعوِّ، وقيل غير ذلك من الوجوه المعتبرة[2].

(1) العسكري، الفروق، ص: 311.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 534، زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 524، والراغب، المفردات: (دعو).

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾ [القصص: 88]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَما نهَى اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ عن أنْ يكونَ مِنَ المشركينَ - بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ - جاءت الآيات شارحةً لِما يقع عليه النَّهي في باب الأفعال وتوجيه العبادة، فقالَ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ الآيةَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَالِكٌ﴾: (هلك) أصل الهلاك فراغُ جوف الشَّيء ممّا هو حقيقته وجوهره[2]، ممّا يؤدّي إلى كسره وسقوطه[3]، ففراغ الجسد من الروح هلاكٌ: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النِّساء: 176]، وفراغ الإنسان من السُّلطان والملك هلاكٌ؛ لأنَّ ترْكَ المُلك أشدُّ من الموت: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة: 29].

2) ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾: (حكم) أصلٌ يدلُّ على المَنْعِ[4]، أو ضبط يمنع التسيُّب بحيث يجري الشيء على ما ينبغي، ويُراد[5]، يقالُ: حَكَمْتُ الدّابَّةَ، أي: منعتُها بالحَكَمةِ، وهي اللِّجامُ، وأحكمتُها، أي: جعلتُ لها حَكَمةً، والحُكمُ بالشَّيءِ: أنْ تقضيَ بأنَّهُ كذا، أو ليسَ بكذا، سواءٌ ألزمتَ ذلكَ غيرَهُ أم لم تُلزِمْهُ، والحِكْمَةُ: إصابةُ الحقِّ بالعلمِ والعقلِ[6]، أو بالعلم والعمل.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا تَعْبُدْ - أيُّها النبي - معَ معبودِكَ الَّذي لهُ عبادةُ كلِّ شيءٍ معبودًا آخرَ سواهُ؛ إذ لا معبودَ تَصلُحُ لهُ العبادةُ إلّا اللّهُ الَّذي كلُّ شيءٍ هالكٌ إلّا وجهه، ولهُ الحُكْمُ بينَ خلقِهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 381.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (هلك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم).
(6) الراغب، المفردات: (حكم).

دونَ غيرِه، وإليهِ تُرَدّونَ مِنْ بعدِ مماتِكم، فيقضي بينَكم بالعدلِ، فيُجازي مؤمنيكُم جزاءَهم، وكفّارَكم ما وعدَهم[1].

وجوبُ إخلاصِ العبادةِ للهِ الّذي لا معبودَ سواهُ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في قولِه: ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾:

التشريك في النّهي عن الإشراك وتأكيده

الواوُ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ عاطفةٌ هذهِ الجملةَ على ما قبلَها، وفائدةُ هذا العطفِ تأكيدُ النَّهيِ عن الإشراكِ، وكأنَّه قال: لا تكونن من المشركين بذاتك، ولا تفعل فعلًا من أفعالهم، ولا تدعُ مع اللّه إلهًا آخرَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(لا) الناهية في: ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾:

امتدادُ النّهي في الزمان الحاضر والمستقبل تهييجٌ لك وامتثالٌ لأمّتك

(لا) في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ ناهيةٌ، وهي تفيدُ النَّهيَ عن أنْ يُدْعَى معَ اللّهِ إلهٌ آخرُ، ويشير امتداد (لا) إلى امتداد النَّهيِ في الزمان الحاضر والمستقبل.

ولمّا كانَ الشِّركُ لا يُتصوَّرُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ؛ فالنَّهيُ: إمّا للتَّهييج وقطعِ أطماعِ المشركينَ عن مساعدتِهِ لهُم[2]، وإظهارِ أنَّ المنهيَّ عنهُ في القُبْحِ والشَّرّيَّةِ بحيثُ يُنهَى عنهُ مَنْ لا يمكنُ صدورُهُ منهُ أصلًا[3]، وفي ذلك تحريضٌ على الثَّباتِ والدَّوامِ على عدمِ الإشراكِ[4].

ربّما كان المُرادُ نهيَ أُمَّتِهِ لا نهيه ﷺ

ويحتمل أنْ يكونَ المُرادُ نهيَ أمَّتِه، وإنْ كانَ الخطابُ لهُ ﷺ[5]، ونكتةُ توجيهِ الخطابِ إلى النَّبيِّ ﷺ تعظيمُ شأنِ الإشراكِ[6]؛ لأنَّ أمرَ الرَّئيسِ أدعَى لأتباعِهِ إلى القبولِ[7].

ويحتمل أن يكون النَّهيُ موجَّهًا إلى النَّبيِّ ﷺ في الظّاهرِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 643.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 187.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 28، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 335.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 589.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 89.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 20.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 382.

والمقصودُ بِهِ إبطالُ الشِّركِ وإظهارُ ضلالِ أهلِه؛ إذ يزعمونَ أنَّهم معترفونَ بإلهيَّةِ اللهِ تعالى، وأنَّهم إنَّما اتَّخذوا لهُ شُركاءَ وشُفعاءَ، فبيَّنَ لهُم أنَّ اللهَ لا إلهَ غيرُهُ، وأنَّ انفرادَهُ بالإلهيَّةِ في نفسِ الأمرِ يقضي ببطلانِ الإشراكِ في الاعتقادِ، ولو أضعفَ إشراكٍ[1].

احتماليَّةُ كونِ المقصودِ إبطالَ الشِّركِ وإظهارَ ضلالِ أهلِهِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالدُّعاءِ في ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾:

الجمعُ بين دعاءِ العبادةِ ودعاءِ المسألةِ

المرادُ بالدُّعاءِ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ العبادةُ[2]، فيكونُ مجازًا مُرسَلًا عنها، وقد عُبِّرَ بهِ؛ لأنَّهُ أهمُّ صورةٍ مِنْ صوَرِها، وقد كانَ المشركونَ يدعونَ معَ اللهِ آلهتَهم الَّتي لا تضرُّ، ولا تنفعُ، فوردَ النَّهيُ عن فعلِ ذلكَ؛ ليكونَ الدُّعاءُ خالصًا للهِ تعالى وحدَهُ، ولا مانع من أن يُراد به دعاء المسألة؛ لأنَّه أبرز عبادة من العبادات.

دلالةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾:

الاستمرارُ على عدمِ الدُّعاءِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المجزومِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾؛ للدَّلالةِ على طلبِ الاستمرارِ على عدمِ الدُّعاءِ مع اللهِ إلهًا آخرَ، بكلِّ أنواعِ الدُّعاءِ وأشكالِه في سائرِ الأزمنةِ والأمكنةِ.

سرُّ تركِ توكيدِ ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾:

مشاركةُ المشركينَ في أفعالِهم أبعدُ مِنْ مشاركتِهم بالسُّكوتِ عن باطلِهم

نهَى اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ عن أنْ يكونَ مِنَ المشركينَ، فقالَ مُؤكِّدًا: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ثمَّ نهاهُ عن مشاركتِهم في الدُّعاءِ، فقالَ دونَ تأكيدٍ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾؛ لأنَّ الكائنَ مِنْ قومٍ موصوفٌ بما اتَّصفَ بِهِ كلُّ منهُم، ومشاركتُهم بالفعلِ أبعدُ مِنْ مشاركتِهم بالسُّكوتِ[3].

بلاغةُ حرفِ الجر ﴿مَعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾:

الدَّلالةُ على الجمعِ والمعيَّةِ

﴿مَعَ﴾ المضافةُ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 196.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 335.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 381.

﴿ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ تفيدُ معنى الجمعِ والمعيَّةِ، والمعنى: ولا تجمَعْ في الدُّعاءِ بينَ اللّهِ وأيِّ إلهٍ آخرَ؛ بل أفردِ اللّهَ تعالى بالدُّعاءِ والعبادةِ.

بلاغةُ وضع الظاهر موضع المُضمر:

الجمعُ بين الربوبيَّة والألوهيَّة مع تربية المهابة في القلوب

لمّا كان المقام مقامَ تحذيرٍ من الشِّرك؛ ناسبَ أن يُذكرَ لفظ الجلالة لامتلاء القلوب مهابة منه سبحانه، ولو وُضِعَ الضَّميرُ على أصله، فقيل: (ولا تجعل معه إلهًا آخرَ)؛ لعاد الضمير إلى لفظ الرب المُشعِر بالإنعام والإحسان، وهذا المعنى لا يتناسب مع التَّحذير من الشِّرك؛ فجاء الظاهر موضعَ المُضمَر مع مخالفة الألوهيَّة للرُّبوبيَّة؛ ليُناسب ذلك المقام.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ في ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لمقامِ النَّهيِ عن الشِّركِ

جيءَ بلفظِ الجلالةِ دونَ غيرِه في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾؛ لِما يدلُّ عليه هذا اللَّفظُ مِن اتِّصافِه جلَّ ذِكرُهُ بصفاتِ الجلالِ والكمالِ الَّتي بها يستحقُّ الإفرادَ بالألوهيَّةِ والعبادةِ، أي: ولا تجعَلْ معَ اللّهِ الجامعِ لجميعِ صفاتِ الكمالِ إلهًا آخرَ[1].

وفيهِ أيضًا إدخالٌ للمَهابةِ في النُّفوسِ يناسبُ مقامَ التَّحذيرِ مِنَ الشِّركِ، وذلكَ أيضًا هو سرُّ العدولِ عن الإضمارِ، فلم يقل: (ولا تجعلْ معَهُ إلهًا آخرَ)، أي: معَ ربِّكَ المذكورِ في قولِه: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾.

دلالةُ تنكيرِ ﴿إِلَٰهًا﴾:

تنكيرُ ﴿إِلَٰهًا﴾ في قولِه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ للعُمومِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّهيِ تعمُّ[2]، أي: ولا تدْعُ معَ اللّهِ أيَّ فردٍ مِنْ أفرادِ الآلهةِ.

نكتةُ وصفِ ﴿إِلَٰهًا﴾ بـ ﴿ءَاخَرَۘ﴾:

المبالغةُ في الإنذارِ

النَّكرةُ في سياقِ النَّهيِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 381.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 381.

تعمُّ كما لو كانَتْ في سياقِ النَّفي، وكانَ المشركونَ قد تعنَّتوا؛ لمّا رأَوُا النَّبيَّ ﷺ يدعو باسم اللّهِ واسم الرَّحمنِ، فقالَ: ﴿ءَاخَرَ﴾، أي: غيرَ اللّهِ حقيقةً دونَ أنْ يغايرَ في الاسم دونَ الذّاتِ، والمرادُ بهذا كلِّه المبالغةُ في الإنذارِ؛ إعلامًا بأنَّ تاركَ النَّهيِ عن المُنكَرِ معَ القدرةِ شريكٌ للفاعلِ، وإنْ لم يُباشِرْهُ، والنَّبيُّ ﷺ قادرٌ على ألّا يدعو مع اللّه إلهًا آخر لحراسةِ اللّهِ تعالى له[1].

بلاغةُ الجمعِ بينَ ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾ و﴿وَٱدۡعُ﴾:

جمالُ التَّقابلِ اللفظي بين الفعلين

في ذِكْرِ قولِه سبحانَهُ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ مراعاةٌ للتَّقابلِ بينَ الفعلَيْن، وإنْ كانَ النَّهيُ الأوَّلُ مِنَ الدُّعاءِ، والأمر الثّاني مِنَ الدَّعوةِ، والجملةُ الثّانيةُ بمنزلةِ التَّأكيدِ للجملةِ الأولى.

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ عمّا قبلَها:

تأكيدُ النَّهي بذكر عِلَّته بعده

فُصِلَ قولُهُ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ عن قولِه: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ لأنَّهُ مُؤكِّدٌ له[2]، فيكونُ الفصلُ بينَهما؛ لِما بينَهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ، أو أنَّ جملةَ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ في معنى العلَّةِ للنَّهيِ الَّذي في الجملةِ قبلَها[3]، وكأنَّ المعنى: ولا تَدْعُ معَ اللّهِ إلهًا آخرَ؛ لأنَّهُ لا إلهَ إلّا هو، فيكونُ الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ الثّانيةَ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ اقتضَتْهُ الأولى.

بلاغةُ القَصْرِ بالنفي والاستثناء في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾:

استغراق النفي لجميع الآلهة المعبودة من دون الله

عُبِّرَ بـ ﴿لَآ﴾ النّافيةِ للجنسِ في قولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾؛ لإفادةِ استغراقِ النَّفيِ لجميعِ الآلهةِ المعبودةِ، وأُردِفَ بالاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾؛ لدفعِ توهُّمِ دخولِه جلَّ شأنُهُ في النَّفيِ العامِّ، وهذا القصرُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 381.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 589.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 381، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 196.

حقيقيٌّ، وهو مِنْ قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وفيهِ مبالغةٌ في إثباتِ وحدانيَّتِه ﷻ، حيثُ أُثبِتَتْ لهُ الأُلوهيَّةُ بعدَ نَفْيِها عن كلِّ ما سواهُ.

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾:

كثرةُ المعاني بحذف اللفظ الدال عليها

في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ إيجازٌ بديعٌ، وذلكَ أنَّ خبرَ ﴿لَآ﴾ محذوفٌ دلَّ عليهِ ما في ﴿لَآ﴾ مِنْ معنى النَّفي؛ لأنَّ كلَّ سامعٍ يعلمُ أنَّ المرادَ نفيُ هذهِ الحقيقةِ، فالتَّقديرُ: (لا إلهَ موجودٌ إلّا هو)[1]، أو لا إله معبود بحقٍّ إلّا هو.

علَّةُ فصلِ ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ عمّا قبلَهُ:

تأكيدُ الكلامِ بذكرِ علّته المفردة أو علله المتتابعة

يحتمل أن يكون قد فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ عن قولِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾؛ لِما بينَهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ كالتَّأكيدِ لهُ[2]، أو أنَّ قولَه: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ تعليلٌ لقولِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾[3]، فيكونُ الفصلُ بينهما لِما بينَهما مِنْ شبهِ كمالِ الاتِّصالِ، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ علَّةً ثانيةً للنَّهيِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾؛ لأنَّ هلاكَ الأشياءِ الَّتي منها الأصنامُ وكلُّ ما عُبِدَ مَعَ اللّهِ وأُشرِكَ بهِ دليلٌ على انتفاءِ الإلهيَّةِ عنها؛ لأنَّ الإلهيَّةَ تُنافي الهلاكَ، وهو العدمُ[4]، فيكونُ الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ أيضًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كُلُّ﴾ في ﴿كُلُّ شَيۡءٍ﴾:

لا يترك الهلاك شيئًا لا سيّما الآلهة المدَّعاة

لفظ ﴿كُلُّ﴾ أقوى الألفاظ الدالَّة على العموم، وهو هنا يشير إلى أنَّ كلَّ إلهٍ مزعوم، ومعبود بباطل سيُهلَك ويُفنى، فإلامَ يتَّجه عُبّاد تلك الآلهة إذا هلكت وفنيت؟ ولم يستثنِ من هذا العموم في الهلاك إلّا وجهَ اللّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 75.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 589.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 381.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 197.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾:

المبالغةُ في التَّعميمِ المناسبِ لمقامِ التَّوحيدِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾؛ لِما فيهِ مِنَ التَّعميمِ المناسبِ لمقامِ بيانِ علَّةِ تفرُّدِهِ جلَّ وتباركَ بالألوهيَّةِ؛ لأنَّ كلمةَ ﴿كُلُّ﴾ - كما يقالُ - جنسُ الأجناسِ[1]، ويُؤيِّدُ هذا التَّعميمَ إضافةُ لفظِ العُمومِ ﴿كُلُّ﴾ إليهِ، والمعنى: كلُّ موجودٍ مُطلَقًا هالكٌ إلّا وجهَهُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بإعمالِ اسمِ الفاعلِ ﴿هَالِكٌ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّ المرادَ الهلاكُ في المستقبلِ

ذِكْرُ صيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ يدلُّ على أنَّ المرادَ الهلاكُ في المستقبلِ[3]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّقديرُ: (ذو هلاكٍ)، فصيغةُ (فاعلٍ) للنسبِ[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِلَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾:

الوصولُ في الإيجازِ والبلاغةِ إلى درجةِ القصرِ

﴿إِلَّا﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ أداةُ استثناءٍ، وقد أفادَتْ هنا استثناءَ وجهِهِ تقدَّسَ ذكرُهُ مِنَ الحكمِ بالهلاكِ، وكأنَّه ﷻ يقول: (لا شيءَ باقٍ إلّا وجهَهُ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلّا وجهَهُ).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالوجهِ:

اتِّساعُ المعاني باحتمالِ الكلامِ للحقيقةِ والمجازِ

اختُلِفَ في بيانِ المرادِ بالوجهِ في قولِهِ تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾، فقيلَ: ﴿إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾، معناهُ: إلّا ذاتَهُ ﷻ، والمعنى: كلُّ موجودٍ هالكٌ إلّا اللّهَ تعالى[5]؛ وذلكَ لأنَّ وجودَ ما سواهُ سبحانَهُ قابلٌ للعدمِ، وعُرْضةٌ لهُ، فهو كالعدمِ؛ لكونِ وجودِه ليسَ ذاتيًّا، بل هو مُستندٌ إلى الواجبِ تعالى اللّه في كلِّ آنٍ، والوجهُ بمعنى الذّاتِ مجازٌ مُرسَلٌ، وهو مجازٌ شائعٌ جارٍ على عادةِ العربِ في التَّعبيرِ بالأشرفِ

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11051.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 335.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 589.
(4) أطفيش، تفسير أطفيش: 7/ 435.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 197.

عن الجملةِ، وهو نكتةُ العُدولِ هنا عن أنْ يقالَ: (إلّا إيّاهُ)[1]، وقيلَ: المرادُ: إلّا ذا وجهِه، أي: ما عُمِلَ لذاتِه ومِنْ طاعتِه، وتوُجِّهَ بهِ نحوَهُ[2].

يحتمل أن يكون المقصودُ بالوجه الجهةَ الَّتي تُقصَدُ ويُتوجَّهُ إليها

ويحتمل أن يكون المقصودُ بالوجه الجهةَ الَّتي تُقصَدُ، ويُتوجَّهُ إليها، والمعنى: كلُّ شيءٍ معدومٌ في حدِّ ذاتِه إلّا الجهةَ المنسوبةَ إليه تعالى، وهو الوجودُ الَّذي صارَ بهِ موجودًا، وحاصلُهُ: أنَّ كلَّ جهاتِ الموجودِ مِنْ ذاتِهِ وصفاتِهِ وأحوالِهِ هالكةٌ معدومةٌ في حدِّ ذاتِها إلّا الوجودَ الَّذي هو النّورُ الإلهيُّ[3].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَجۡهَهُۥۚ﴾:

إضافةُ الوجهِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى الحيِّ القيّومِ في قولِهِ ﷻ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾؛ لتشريفِ الوجهِ بنسبتِهِ إلى اللّهِ تعالى، وما نُسِبَ إلى العظيم عظيمٌ.

علّةُ فصلِ جملةِ: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عمّا قبلَها:

جملةُ: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ تذييلٌ، ولذلكَ كانَتْ مفصولةً عمّا قبلَها[4]، وقيلَ: قد تكون الجملةُ تعليلًا لِما قبلَها[5]، فيكونُ الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ.

بلاغةُ التعبيرِ باللّامِ في ﴿لَهُ﴾:

لامُ ﴿لَهُ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾؛ للمِلْكِ والاستحقاقِ والاختصاص، فتفيدُ أنَّ الحُكمَ مملوكٌ للّهِ تعالى، ومُستحَقٌّ لهُ، ومُختصٌّ به.

نكتةُ تقديمِ ﴿لَهُ﴾ على ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾:

إفــادةُ معنى جـمـلـتَـيْن في جـمـلـةٍ واحـدةٍ بطريق الحصر

تقديمُ الخبرِ ﴿لَهُ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾؛ لإفادةِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 335.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 304.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 335.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 197.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 382.

الحصرِ، والمحصورُ فيهِ هو الحكمُ الأتمُّ، الَّذي لا يردُّهُ رادٌّ[1]، أي: لهُ الحكمُ الأتمُّ ولا يكون لغيرِهِ أبدًا، والقصر حقيقيٌّ إن كان الكلامُ عن يوم القيامة، ويؤيِّد ذلك قوله قبلَهُ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾، وقوله بعده: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾:

اتِّساع المعاني لاحتمال العهد والجنس والاستغراق

تعريفُ ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ للعهدِ، أي: لهُ القضاءُ النّافذُ في الخلقِ[2]، أو يكونَ التَّعريفُ للجنسِ، أي: لهُ جنسُ الحكمِ؛ إذ ما مِنْ حُكْمٍ إلّا وهو بإقدارِهِ تعالى وتمكينِهِ وإرادتِهِ، أو يكون التعريفُ لاستغراق الأفراد والأنواع والأشكال وغيره ممّا يصلح له الاستغراق هنا.

بلاغةُ الوصلِ بالواوِ في ﴿وَإِلَيۡهِ﴾:

الاشتراكُ في اختصاص اللهِ تعالى لذلك

الواوُ في قولِ اللّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، وكلتا الجملتَيْنِ قُدِّم فيهما الجارُّ والمجرور على غيره؛ ليدلَّ ذلك على اختصاص اللّه تعالى بكلٍّ منهما، وقصر كلٍّ منهما عليه.

بلاغةُ الضَّميرِ في ﴿وَإِلَيۡهِ﴾:

الضَّمير في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للّهِ تعالى[3]، أي: وإلى اللّهِ تُرْجَعونَ، أو الضَّميرُ للحساب والجزاء، المستفاد من قوله: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾، أي: وإلى جزائِهِ تُرْجَعونَ[4].

بلاغةُ التعبيرِ بـ(إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ﴾:

غايةُ كلِّ الناس الرجوع إلى الله قصدًا أو قهرًا

كلمةُ (إلى) في قولِهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ مجازًا[5]، أي: كلُّ الخلقِ يرجعون إلى اللّه راغبين أو مرغمين، وتلك غاية الخلق جميعًا.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 197.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 187.

(3) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 89.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 332.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 22.

نكتةُ تقديمِ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ على ﴿تُرْجَعُونَ﴾:

الاهتمامُ بالخبرِ مع مراعاةِ الفاصلةِ

جاء تقديمُ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ على ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالخبرِ؛ لأنَّ المشركينَ نَفَوا الرُّجوعَ مِنْ أصلِه، ولم يَقولوا بالشِّركةِ في ذلكَ حتَّى يكونَ التَّقديمُ للتَّخصيصِ(1)، أو التَّقديمُ للقصر، والمعنى: وإليه ﷻ تُرْجَعونَ عندَ البعثِ للجزاءِ بالحقِّ والعدلِ، لا إلى غيرِه تعالى(2)، أو التقديم للتَّخصيص، أي: إنَّ رجوعكم مُختصٌّ به تعالى، أو إنَّ القدرة على رجوعكم إليه يختصُّ به سبحانه مسيِّركم، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في تأخيرِ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ مراعاةَ ملاءمةِ الفاصلةِ لما قبلَها.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في ﴿تُرْجَعُونَ﴾:

الدَّلالةُ على الحالِ والاستقبالِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأنَّ الإرجاعَ أمرٌ مستقبليٌّ، وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على الحال والاستقبالِ؛ لأنَّ مَن مات الآن؛ فقد رجع إلى اللّٰه في الحال، ومَن لم يَمُت؛ فسيرجع إلى اللّٰه في المستقبل، أو يكون التَّعبيرُ بهذهِ الصّيغةِ؛ لتصويرِ الحدثِ المستقبلي في الحال الحاضر؛ لعِظَمِ شأنِه وهَوْلِه.

نكتةُ بناءِ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُهُ:

التَّنبيهُ على أنَّ الفاعلَ مُتعيِّنٌ معروف

بُنِيَ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لما لم يُسَمَّ فاعلُهُ؛ للإشعارِ بأنَّ فاعلَهُ مُتعيِّنٌ معروف، وهو اللّٰهُ تعالى؛ إذ لا يُتصوَّرُ نسبةُ الفعلِ إلى غيرِه؛ لأنَّهُ أمرٌ عظيمُ الشَّأنِ، لا يَقْدِرُ عليه إلّا ذو الجلالِ والإكرام.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿تُرْجَعُونَ﴾:

خلقُ اللهِ يصيرون إليه

الرُّجوعُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مُستعمَلٌ على وجهِ الاستعارةِ في معنى آخِرِ الكونِ؛ لأنَّ حقيقتَهُ الانصرافُ إلى مكانٍ قد فارقَهُ، فاستُعمِلَ في مصيرِ الخلقِ، وهو البعثُ بعدَ الموتِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 197.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 382، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 336.

شُبِّهَ برجوعِ صاحبِ المنزلِ إلى منزلِه، ووجهُ الشَّبهِ هو الاستقرارُ والخُلودُ، فهو مرادٌ منهُ طولُ الإقامةِ(1).

سرُّ تعدُّدِ الجملِ في الآيةِ:

إثباتُ صفاتٍ جليلةٍ للهِ تعالى لتأكيد انفراده بالألوهية

المقصودُ مِنْ تعدُّدِ الجُملِ في الآيةِ إثباتُ أنَّ اللّهَ مُنفردٌ بالإلهيَّةِ في ذاتِه، وهو مدلولُ جملةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، وذلكَ أيضًا يدلُّ على صفةِ القِدَمِ؛ لأنَّهُ لمّا انتفَى جنسُ الإلهيَّةِ عن غيرِه تعالى؛ تعيَّنَ أنَّهُ لم يوجِدْهُ غيرُهُ، فثبتَ لهُ القِدَمُ الأزَليُّ، وأنَّ اللّهَ تعالى باقٍ لا يعتريهِ العدمُ؛ لاستحالةِ عدمِ القديمِ، وذلكَ مدلولُ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾، وأنَّهُ تعالى مُنفرِدٌ في أفعالِه بالتَّصرُّفِ المُطلَقِ الَّذي لا يردُّهُ غيرُهُ، فيتضمَّنُ ذلكَ إثباتَ الإرادةِ والقدرةِ، وفي كلِّ هذا ردٌّ على المشركينَ الَّذينَ جوَّزوا شركتَهُ في الإلهيَّةِ، وأشركوا معَهُ آلهتَهم في التَّصرُّفِ بالشَّفاعةِ والغَوْثِ، ثمَّ أبطلَ إنكارَهم البعثَ بقولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾(2).

بلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ:

انطباقُ آخِرِ السّورةِ على أوَّلِها

اتَّضحَ بقولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أنَّ هذا الكتابَ مُبينٌ، وبإنفاذِ إرادتِه ﷻ في تقويةِ أهلِ الضَّعفِ مِنْ بني إسرائيلَ على فرعونَ وقومِه أنَّ لهُ وحدَهُ الحكمُ على ما يريدُ، ويختارُ، فصحَّ أنَّ إليهِ الرُّجوعَ يومَ المَعادِ، فقد انطبقَ آخِرُ السّورةِ على أوَّلِها، وهو قوْلُهُ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ [القصص: 2]، وانشرحَ مُجمَلُها بمُفصَّلِها(3).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 197.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 197.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 382.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهلاك والعدم:

الهلاك أعمُّ مِنَ العدم

فُرِّقَ بينَ الهلاكِ والعدمِ: بأنَّ الهلاكَ أعمُّ مِنَ العدمِ؛ لأنَّهُ قد يكونُ بنَقْضِ البِنْيةِ وإبطالِ الحاسَّة، والعدمُ نقيضُ الوجودِ، فهو أخصُّ؛ فكلُّ عدمٍ هلاكٌ، وليسَ كلُّ هلاكٍ عدمًا[1]، وضدُّ العدم الوجودُ، بخلاف الهلاك؛ فأغلب استعمال ضدِّه في البقاء.

القضاء والحُكْم:

القضاءُ يقتضي فصلَ الأمرِ على التَّمامِ، والحُكْمُ يقتضي المنعَ عن الخصومةِ

الفرقُ بينَ القضاءِ والحُكْمِ: أنَّ القضاءَ يقتضي فصلَ الأمرِ على التَّمام، مِنْ قولِكَ: قَضاهُ؛ إذا أتمَّهُ، وقطعَ عملَهُ، ومنهُ قولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ [الأنعام: 2]، أي: فصلَ الحُكْمَ بهِ، والحُكْمُ يقتضي المنعَ عن الخصومةِ، مِنْ قولِكَ: أحكمتُهُ؛ إذا منعتَهُ[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 84.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 431، وزيدان، الفروق اللغوية، ص: 489.

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

❁ التَّعريف العامُّ بالسّورة:

سورةُ العنكبوت كلُّها مكّيّة

سورة العنكبوت مكّيَّة عند جمهور العلماء[1]، ونقل السّيوطيُّ استثناء آيات مدنيَّة منها، مِنْ أوَّلها إلى قوله: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت: 11]؛ لِما ورد في سَبَبِ نُزولِها، ويُضَمُّ إلَيْهِ قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت: 60]؛ لِما ورد أيضًا في سَبَبِ نُزولِها[2]، والحقُّ أنَّه لم تثبت تلك الرّوايات التي ذكروها في أسباب النُّزول[3]، وقد عقَّب الدكتور دروزة بقوله: "فإننا نرجِّح أنَّ السّورة مكيَّة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن المكّيِّ، وقد اشتدَّ في هذه الظروف أذى الكفار وإزعاجهم للمسلمين، ونظم الآيات والصور التي تضمَّنتها أقرب إلى النَّظم المكّيِّ، وصور العهد المكيِّ منها إلى النَّظم المدنيِّ، وصور العهد المدنيِّ، والآيات التي تلت هذه الآيات التي قالوا بمدنيَّتها والتي يوجَّه الخطاب فيها إلى الكفار معطوفةٌ عليها، ولا خلاف في مكّيَّتها، وليس لرواية مدنيَّة الآيات إسنادٌ صحيحٌ"[4].

ترتيب النزول وترتيب المصحف وعد الآي:

سورة العنكبوت هي السّورة التّاسعة والعشرون في ترتيب المصحف الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، جاءت بين سورتَيِ القصص والرّوم، وهي تسعٌ وستّونَ آيَة عند جَميع أهل العدَد[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 299، والسّيوطي، الإتقان: 1/ 39.
(2) السيوطيّ، الإتقان: 1/ 62.
(3) الوادعي، الصحيح المسند في أسباب النّزول، ص: 158.
(4) دروزة، التفسير العلمي الحديث: 5/ 468.
(5) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 203.

وأمّا ترتيبها النُّزوليُّ؛ فهي السّورَةُ الخامِسَة والثمانون في تَرْتيبِ نُزولِ سوَرِ القُرْآنِ نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ الرّوم وقَبْلَ سورَةِ المُطَفِّفينَ[1].

دلالة التوقيت الزمني لنزول السورة:

قال ابن عاشور: "نزلت في أواخر سَنَة إحدى قَبل الهجرة فتكون من أخرَياتِ السّور المكّيَّة بِحَيثُ لَم ينزل بعدها بمكَّة إلّا سورة المطفِّفين"[2]، وقال الدكتور دروزة: "وهي من أواخر ما نزل من القرآن المكّيِّ، وقد اشتدَّ في هذه الظروف أذى الكفار وإزعاجهم للمسلمين"[3].

فضائل سورة العنكبوت:

لم يرد في فضل سورة العنكبوت خبر يصح، ومقصود هذا الباب جمع ما ورد في فضائل السورة من الآثار التي تنص على فضلها بشكل خاص.

أسماءُ السورةِ الكريمةِ وسببُ التَّسميَةِ:

العنكبوت هو الاسم الوحيد للسورة

لهذه السّورة اسمٌ واحدٌ مُشتهر لم تُسمَّ بغيره هو (العنكبوت)، حيث سُمّيت بهذا؛ بسبب انفرادها بذكر العنكبوت فيها: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾ [العنكبوت: 41][4]، وهو الاسم الوحيدُ الذي اشتُهِرَت به هذه السّورة، وكُتِب في المصاحف وكُتُبِ التفسير والحديث، ولم يُثبت تسميتها باسم غيره.

وأمّا وجهُ ارتباط هذا الاسم بمحور السّورة؛ فلأنَّ السّورة الكريمة قد أخذت على عاتقها بيانَ سنَّةِ اللّه تعالى في بيان عاقبة الأمم، التي كفرت بدعوة الأنبياء، فأنكرت لقاء اللّه، وأشركت به، وحاربت الأنبياء، واستعجلت العذاب، فبيَّنت أنَّ حضاراتهم قد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 200.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 200.
(3) دروزة، التفسير العلمي الحديث: 5/ 468.
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 359.

أُزيلت وطواها الزَّمان، فضربت السّورة الكريمة المثلَ بهم بتشبيهِ حالهم بالأمَّة العنكبوتيَّة؛ لما يجمعهم من روابط حسّيَّة ومعنويَّة، فكما أنَّ خيوط العنكبوت واهية لا تقي من الحرِّ ولا من القرِّ، فكذلك أسانيدُ أهل الكفر واهية لا تغني عنهم شيئًا، وتضمَّن هذا التَّشبيه تماثل حال الأمَّة العنكبوتيَّة الممزقَّة بروابطها الأسريَّة والمجتمعيَّة المفكَّكة، بحال الأمم الكفريَّة التي لا يدوم شهودها الحضاريُّ مع وجود الكفر، وأنَّها تفنى وتبلى، يقول البقاعيُّ: "فهي سورة ضعف الكافرين وقوَّة المؤمنين، وقد ظهر سرُّ تسميتها بالعنكبوت، وأنَّه دالٌّ على مقصودها"[1].

۞ بيانُ محور السورة العام والموضوعات التي تلتفُّ حوله:

تقريرُ سنَّةِ الله في نُصرة المؤمنين وزوال الظّالمين

يتعلق محور السورة الكريمة حول الحثّ على الاجتهاد في الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والدُّعاء إلى اللّه تعالى وحمده من غير فترة، ومن غير تعريج على غيره سبحانه أصلًا؛ لئلّا يكون حالهم مِثْلَ حال العنكبوت[2]، إذ جاء فيها الحديث عن تكاليف الإيمان والفتنة، وأنَّ الإيمان يستلزم الصَّبر على المكاره[3]، وتفصيل ذلك كالآتي:

أولًا: تبيِّن السورة أثر الاستقامة على دين الله تعالى في تحقيق الشُّهود أو الاضمحلال الحضاريِّ، من خلال استعراض مشاهد قصصيَّة من دعوات بعض الأنبياء، الذين واجهوا أقوامهم بهذه الدَّعوة فما لقوا منهم سوى الجحودِ والكفران واستعجال العذاب، فأزال اللّه حضاراتهم، ودمَّر بنيانهم، وتوعَّدهم بالعذاب الأليم.

ثانيًا: تبيِّن السّورة الكريمة أهداف هذه الدَّعوة على لسان أبي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 384.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 384.
(3) شحاتة، أهداف كلّ سورة ومقاصدها، ص: 284.

الأنبياء عليهم السلام: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾ [العنكبوت: 16]، وعلى لسان شعيب: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦﴾ [العنكبوت: 36].

ثالثًا: بيَّنت السّورة الكريمة أنَّ النّاس سينقسمون أمام هذه الدَّعوة إلى أقسام ثلاثة: (مؤمنين، وكافرين، ومنافقين)، وبيَّنت جزاء كلِّ فريق: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾ [العنكبوت: 7]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾ [العنكبوت: 23]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت: 10 - 11].

رابعًا: ناقشت السّورة الكريمة أسانيدَ هذا الكفر، وأبطلتها جميعها، من خلال عرض آيات الله في الأنفس والآفاق والتي تكشف لهم انفراده سبحانه وتعالى بالضُّرِّ والنَّفع دون غيره: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [العنكبوت: 19 - 20]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾ [العنكبوت: 61 - 63]، ومن خلال تذكيرهم بنِعَم الله عليهم، وأهمُّ هذه النِّعم نعمةُ الأمن: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ٦٧﴾ [العنكبوت: 67].

خامسًا: اقتضى هذا المحور أن تُبيِّن لهم أحوال المكذِّبين من قبلهم: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾ [العنكبوت: 18]، وقوله: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: 38 - 40].

سادسًا: كشفت السورة للمؤمنين حقيقة الحياة الدُّنيا إزاء الآخرة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت: 64]، وبيَّنت لهم اضطراب أحوالهم عند وقوعهم في الشدَّة: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾ [العنكبوت: 65 - 66]، وشبهت السّورةُ الكريمة حالهم ببيتِ العنكبوت: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ [العنكبوت: 41].

سابعًا: وجهت السّورةُ الكريمة الدُّعاة والمؤمنين إلى عوامل النَّصرِ وتحقيق الشُّهود الحضاريِّ، فضلًا عن تحقُّق الإيمان والعمل الصّالح فيهم، ومن أهمِّ ما يلزمهم في مهمَّتهم تلك فقه سُنَّة الابتلاء: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وأن يدركوا أنَّ الله تعالى هو الذي يرعاهم، وينجيهم من الكافرين، فعن نوح عليه السلام قال لهم: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾ [العنكبوت: 15]، وعن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٤﴾ [العنكبوت: 24]، وعن لوط: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٣﴾ [العنكبوت: 33].

ثامنًا: بينت السّورةُ الكريمة أثرَ مجاهدة المؤمنين في تحقيق ما يصبون إليه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: 69]، واقتضى الأمرُ أن تفتحَ لهم باب الهجرة خارج وطنهم إن تعذَّر عليهم إقامةُ شعائرهم: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ [العنكبوت: 56 - 57]، وأن تدعوهم إلى

بعض ما يقرِّبهم من ناصرهم ومولاهم: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ [العنكبوت: 45].

موضوعات السورة وخصائصها:

مَدارُ السّورة حولَ بيان سُنَّةِ الله تعالى في بيان عوامل النُّهوض الحضاريِّ

جاء موضوع السورة كسائر السور المكية فافتتحت بالحُروف المُقَطَّعَةِ يُؤْذِنُ بأنَّ مِنْ أغْراضِها تَحَدّي المُشْرِكينَ بالإتْيانِ بِمِثْلِ القرآن أو سورَةٍ مِنْهُ، وجِدالُ المُشْرِكينَ في أنَّ القُرْآنَ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللّه هوَ الأصْلُ فيما حَدَثَ بَيْنَ المُسْلِمينَ والمُشْرِكينَ مِنَ الأحْداثِ المُعَبَّرِ عَنْها بِالفِتْنَةِ في قَوْلِهِ هُنا: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾، فَتَعَيَّنَ أنَّ أوَّلَ أغْراضِ هَذِهِ السّورَةِ تَثْبيتُ المُسْلِمينَ الَّذينَ فَتَنَهُمُ المُشْرِكونَ، وصَدّوهُمْ عَنِ الإسْلامِ أوْ عَنِ الهِجْرَةِ مَعَ مَنْ هاجَروا(1).

الخصائصُ الموضوعيَّةُ والأسلوبيَّة لسورة العنكبوت:

الخصائص الموضوعيَّة:

تميَّزت سورةُ العنكبوت بخصائص تتناسب مع موضوعاتها

أولًا: تميَّزت السّورة الكريمة باشتمالها على مشاهد قصصيَّة متفاوتة لبعض الأنبياء وهم: نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وهود، وصالح عليهم السلام؛ إذ شغل القصص منها نحو سبع وعشرين آية من أصل تسع وستين، أي: بنسبة تسع وثلاثين بالمئة من آيات السّورة الكريمة، وقد احتلَّت قصَّة إبراهيم عليه السلام مع قومه الجزء الأكبر منها، وكان القاسم المشترك بين هذه القصص هو بيان مضمون هذه الدَّعوات وتكذيب الأقوام واستعجالهم بالعذاب، وإنجاء اللّه تعالى لرسله الكرام، بما يتَّفق مع محورها العامِّ.

ثانيًا: تفرَّدت السّورة الكريمة في قصر مجادلة أهل الكتاب على الَّتي هي أحسن بقوله: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 200 - 201.

أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: 46].

ثالثًا: تفرَّدت السّورة الكريمة باستهلالها بالحديث عن الفتن: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

رابعًا: ركَّزت السّورة على قضيَّة المجاهدة؛ فبيَّنت أثرَ مجاهدة المؤمنين في تحقيق ما يصبون إليه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: 8]، واختُتمت السّورة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: 69].

خامسًا: ركَّزت السّورة على قضيَّة العلم، حيث وردت لفظةُ (العِلم) بمشتقّاتها المختلفة نحو خمس عشرة مرَّةً، ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ [العنكبوت: 8]، ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: 41]، ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: 49]؛ وذلك لأنَّ للعلم أثرَهُ في تحقيق النُّهوض الحضاريِّ للأمم التي دانت بدين اللّه ﷻ، فضلًا عن أثر هذا العلم في الاستقامةِ على دين اللّه تعالى.

الخصائص الأسلوبيّة:

أولًا: شاركت هذه السّورة سورَ (البقرة وآل عمران والرّوم ولقمان والسّجدة) هذه الحروف الثَّلاثة التي استهلَّت بها هذه السّور السِّتَّة ﴿الٓمٓ﴾، ولا بدَّ من وجود وشائج موضوعيَّة وأسلوبيَّة ربطت بين هذه السّور، إلّا أنَّ الملاحظ أنَّ سورتَيِ العنكبوت والرّوم المتجاورتَيْن لم يأتِ بعدهما حديثٌ مباشرٌ عن الكتاب كباقي السّور التي تبدأ بالحروف المقطَّعة ﴿الٓمٓ﴾، خلا سورتَيْن أخرتَيْن بدأتا بحروفٍ أخرى مقطَّعة، وهما: مريم ونون، لكنَّ هذه السّور الأربعةَ، وإن لم تستهلَّ بالحديث عن الكتاب وتنزيله، فإنَّها حوت من الأخبار والأحكام ما لا يمكن الوصول إليه إلّا بهذا الكتاب.

ثانيًا: تفرَّدت السّورة الكريمة بصورة بيانيَّة عجيبة في تشبيه حال الكافرين بالبيت العنكبوتيِّ، وذلك للوشائج الحسّيَّة والمعنويَّة الكثيرة بين البيتَيْن أو الحالَيْن؛ يقول الرُّمّانيُّ: "فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بالبديهة، وقد اجتمعا في ضعف المعتمدِ، ووهاء المستند، وفي ذلك التَّحذير من حمل النَّفس على الغرور بالعمل على غير يقين، مع الشُّعور بما فيه التَّوهين"[1].

ثالثًا: تفرَّدت السّورة الكريمة بضربها المثلَ بالحياة الآخرة بأنَّها الحيوان: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]، وهذا الوصفُ لم يرد في سورة أخرى ليبيِّن لهم حقيقة الحياة الدُّنيا وتصويب القيم والموازين بميزان اللّٰه ﷻ.

يقول السّامرّائيُّ: "الحيوان: مصدر على وزن (فعلان)، مثل: غَثَيان وفَيَضان ودَوَران وغَلَيان، والحيوان: صيغة في المصادر تدلُّ على الحركة المستمرة والحدوث، وهي أعلى أنواع الحياة؛ لأنَّ من أهمِّ صفات الحياة الحركة، فالحياةُ الدُّنيا عبارةٌ عن نوم وسُبات بالنسبة للآخرة، وهي ليست حياة؛ إذا ما قورِنَت بالآخرة من حيث الحركة المستمرة، والآخرة كلُّها حركة وفيها سعْيٌ وتفكُّرٌ وانتقالٌ، وليس فيها نوم، ولو استُعملت كلمةُ الحياة؛ لدلَّت على التقلُّب فقط، ولم تدلَّ على الحركة والحدوث فناسب استعمالُ كلمة الحيوان مع الحركة والحدوث الذي يكون في الآخرة"[2].

رابعًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّ أغلب فواصلها قد انتهت بجمع المذكَّر السّالم أو بالفعل المضارع المرفوع بثبوت النّون، وشابهت بهذا الأسلوب جارتَيْها (الشُّعراء والقصص)؛ لذا فأكثر فواصل سورة العنكبوت تنتهي بحرف النّون، والشّواهد على ذلك كثيرة بلغت نحو تسعٍ وخمسين فاصلة من أصل تسع وستين حوَتها السّورةُ.

خامسًا: تميَّزت السّورة الكريمة بتكرُّر بعض الألفاظ فيها بشكل لافتٍ مقارنة مع غيرها، فمن ذلك لفظةُ العلم حيث وردت ثلاثًا وعشرين مرَّةً، والفعل المضارع المفرد

(1) الرّمانيّ، النّكت في إعجاز القرآن، ص: 84.
(2) السّامرائي، لمسات بيانية، ص: 639.

﴿يَجۡحَدُ﴾ حيث ورد مرَّتَيْن من أصل ثلاث في القرآن الكريم(1)، وكذلك لفظة ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حيث جاءت في ثلاث فواصل من السّورة الكريمة(2)، وكذلك لفظة ﴿أَوۡثَٰنًا﴾ حيث وردت منكَّرة مرَّتَيْن في السّورة الكريمة، وجاءت مرَّةً واحدة معرَّفَةً في سورة الحجِّ(3)، ولم ترد في القرآن الكريم خلاف ذلك، ووردت فيها لفظة (أثقال) ثلاث مرّاتٍ من أصل خمس مرّات في القرآن الكريم(4)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾ [العنكبوت: 13].

سادسًا: تميَّزت السّورة الكريمة في أسلوبها بذِكْر بعض الأبنية والمشتقّات الصَّرفيَّة، التي لم ترد في غيرها من السّور، فمن الأفعال: ﴿تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ [العنكبوت: 21]، و﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾ [العنكبوت: 7]، و﴿يَكۡفِيهِمۡ﴾ [العنكبوت: 51]، و﴿تَنۡهَىٰ﴾ [العنكبوت: 45]، و﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ [العنكبوت: 69]، و﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ﴾ [العنكبوت: 13]، و﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ [العنكبوت: 67]، و﴿تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ [العنكبوت: 45]، و﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ﴾ [العنكبوت: 13]، وغيرها، ومن الأسماء: ﴿مُهۡلِكُوٓاْ﴾ [العنكبوت: 31]، ﴿أَوۡهَنَ﴾ [العنكبوت: 41]، ﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾ [العنكبوت: 38]، ﴿أَوۡثَٰنًا﴾ [العنكبوت: 17]، ﴿وَأَثۡقَالٗا﴾ [العنكبوت: 13]، ﴿أَثۡقَالَهُمۡ﴾ [العنكبوت: 13]، ﴿بِحَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: 12]، ﴿ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: 64]، وغيرها.

ولا شكَّ أنَّ لهذه الأبنية والاشتقاقات ارتباطًا قويًّا بمحور السّورة ومقصودها العامِّ.

سابعًا: حظيت السّورة الكريمة بلفظة تفرَّدت بها عن غيرها من السّور من جهة الجذر والمادَّة، وهي لفظة ﴿ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾، التي سُمّيت السّورة باسمها، ووجه ذلك سبق تقريره، وكذلك لفظة ﴿تَخُطُّهُۥ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت: 48]، وقد جاءت في سياق إثبات مصدريَّة القرآن الكريم، ونفي الأباطيل عنه.

ثامنًا: وردت كلمة ﴿أَوۡثَٰنًا﴾ [العنكبوت: 17، 25] مرَّتَيْن، وهما الموضعان اللَّذان وردت فيهما الكلمة مُنكَّرةً ومنصوبة، بينما سبقها الموضعُ الثالث في سورة الحج: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ

(1) الآيات: العنكبوت: 47، 49، ولقمان: 32.

(2) الآيات: 6، 10، 28.

(3) الآيات: الحج: 30، والعنكبوت: 17، 25.

(4) الموضعان الآخران: النحل: 7، والزلزلة: 2.

﴿مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: 30] والذي جاءت فيه الكلمة معرفة بـ(أل)، وكذلك انفردت السورة الوحيدة ببعض التراكيب، منها: ﴿بِحَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: 12] و﴿فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ [العنكبوت: 10] و﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: 15] و﴿ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [العنكبوت: 20]، وفيها الموضع الوحيد الذي وردت فيه صيغة الجمع ﴿خَطَٰيَٰهُم﴾ [العنكبوت: 12]، إلى غير ذلك ممّا انفردت به السورة الكريمة.

بيانُ المناسبةِ بين السورة وسابقتها ولاحقتها:

مناسبة السورة لما قبلها (سورة القصص):

العنكبوت متَّصلةٌ تمامًا بسورتَي القصص والرّوم مضمونًا وأسلوبًا

جاءت العنكبوت في التَّرتيب المصحفيِّ بعد سورة القصص، وقد تقدَّم هناك بعض وجوه الصِّلات بينهما، ومنها:

أولًا: ذُكِر في القصص استعلاءُ فرعون وجبروته، وجعْلُه أهلها شيعًا، وافتُتحت العنكبوت بذِكْر المؤمنين الذين فتنهم المشركون، وعذَّبوهم على الإيمان، دون ما عذَّب به فرعون بني إسرائيل؛ تسليةً لهم بما وقع لِمَنْ قبلهم، وحثًّا لهم على الصَّبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾.

ثانيًا: ذُكِرَت في القصص نجاةُ موسى من فرعون وهربه منه، ثمَّ عودُهُ إلى مصر رسولًا نبيًّا، ثمّ ظفره من بعدُ بغرق فرعونَ وقومه ونصره عليهم نصرًا مؤزَّرًا، وذُكِرَت في العنكبوت نجاةُ نوحٍ عليه السلام وأصحاب السَّفينة، وإغراقُ مَن كذَّبه من قومه.

ثالثًا: نعى في القصص على عبدة الأصنام والأوثان، وذَكَرَ أنَّه يفضحهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وفي العنكبوت نعى عليهم أيضًا، وبيَّن أنَّهم في ضعفهم كضعف بيت العنكبوت.

رابعًا: في القصص قصَّ عليهم نبأ قارون وفرعون، وفي العنكبوت ذكرَهما أيضًا، وبيَّن عاقبة أعمالهما.

خامسًا: ذكر في القصص في الخاتمة الإشارةَ إلى هجرة النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، وفي العنكبوت أشار إلى هجرة لوط عليه السلام: ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت: 26]، كما أشار بعدها إلى هجرة المؤمنين بقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: 56][1].

مناسبة السّورة لما بعدها (سورة الروم):

وأمّا وجه ارتباطها بسورة الرّوم؛ فتتشابه سورة الروم وسورة العنكبوت في المطلع، فإنَّ كلًّا منهما افتُتح بـ ﴿الٓمٓ﴾.

وقد أوجز الدكتور الزُّحيلي بعض وجوه اتِّصال السّورتَيْن؛ ومنها:

الأوَّل: أنَّ سورةَ العنكبوت بُدِئت بالجهاد، وخُتمت به: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وبُدِئَت سورة الرّوم بوعد المؤمنين بالغلبة والنَّصر، وهم يجاهدون في سبيل الله تعالى.

الثّاني: أنَّ الاستدلال في سورة الرّوم على أصول الاعتقادِ - وأهمُّها التَّوحيدُ - جاء مُفصِّلًا للمُجمل في سورة العنكبوت، مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ [العنكبوت: 19] ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: 20].

الثّالث: ترتَّب على التفرقة بين المشركين وأهل الكتاب في العنكبوت أنْ أبغَضَ المشركون أهلَ الكتاب، وتركوا مراجعتهم في الأمور، وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور، وسببُ البغضاء أنَّ المشركين في جدالهم نُسِبوا إلى عدم العقل: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: 63]، وطلب مجادلة أهل الكتاب بالحسنى: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]، وكان أهل الكتاب يوافقون النَّبيَّ في الإله، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ [العنكبوت: 46]، فلمّا غلب أهل الكتاب حين قاتلهم الفرسُ المجوس؛ فرح المشركون بذلك، فأنزل الله تعالى أوائل سورة الروم لبيان أنَّ الغلبة لا تدلُّ على الحقِّ، وإنَّما قد يريد الله تعالى مزيد ثواب في المحب، فيبتليه، ويسلِّط عليه الأعادي، وقد يختار للمعادي تعجيل العذاب الأدنى، دون العذاب الأكبر يوم القيامة.

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 109.

﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 1 - 3]

۞ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تتجلَّى مناسبةُ الآيةِ الثّالثةِ للثّانيةِ في أنَّهُ ﷻ بعدَما ذكرَ الفُتونَ لأجلِ الإيمانِ؛ ذكرَ ما يوجِبُ تسليةَ المؤمنين، فقالَ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ الآيةَ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحَسِبَ﴾: (حسب) أصولٌ أربعةٌ، والحساب: جمعٌ منتشرٌ في حيِّزٍ حتى يُمتلَأ، ويُكتفى به، فإذا لم يُمتلَأ؛ لم يكن كافيًا، فمن الأوَّل: العدد (الحساب)، ومن الثاني: الكفاية (الحسب)، ومن الثالث: الظن (الحِسبان)، والحِسبة في الأمر: التدبُّر والنظر فيه، وهو يتحسَّب الأخبار؛ أي: يتحسَّسها، ويطلبها، ومن ذلك حَسَبَهُ كذا، أي: ظنَّه، واستحضر ذلك في رأسه[2]، والمعنى في الآية الكريمة: أظنَّ النّاسُ.

2) ﴿يُفۡتَنُونَ﴾: (فتن) أصلٌ يدلُّ على الابتلاءِ والاختبارِ[3]، ومِنْ ذلكَ: الفَتْنُ، وهو إدخالُ الذَّهَبِ النّارَ؛ لتظهرَ جَوْدتُهُ مِنْ رداءتِهِ[4]، والفَتّانُ: الصّائغُ؛ لإذابتِهِ الذَّهَبَ والفِضَّةَ في النّارِ[5]، واستُعمِلَ الفَتْنُ في إدخالِ الإنسانِ النّارَ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13][6]، والفِتْنةُ أيضًا: اضطرابُ الحالِ وقَلَقُ البالِ مِنْ حدوثِ شرٍّ لا مَدْفَعَ لهُ[7]، والفِتْنةُ: الضَّلالُ، والإثمُ والمعصيةُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَا فِي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 26، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 203.
(2) السمين، عُمدة الحُفّاظ، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المُفردات: (حسب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).
(4) الجوهري، الصحاح: (فتن).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (فتن).
(6) الراغب، المفردات: (فتن).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 213.

ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التوبة: 49]، ويُقالُ: أعوذُ باللّهِ مِنَ الفتّانِ، وهو الشَّيطانُ[1]؛ لكونِه يَفْتِنُ النّاسَ بِخداعِه وغُرورِه وتزيينِه المَعاصيَ[2]، والمراد بقوله تعالى في الآية: ﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾: لا يُختبَرونَ، فيُميَّز خبيثُهم مِنْ طيِّبِهم.

3) ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ﴾: (علم) أصلٌ صحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على أثر بالشيء يتميَّز به عن غيره[3]، والعلم نوعان، الأوَّل: إدراك ذات الشيء، ويتعدّى لمفعول واحد، كقولِه تعالى: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 60]، والثاني: إدراك صفة الشيء إثباتًا أو نفيًا بعد إدراك ذاته، وهو يتعدّى إلى مفعولَيْن، كقولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ [الممتحنة: 10][4]، وأمّا ما اشتهر عند اللُّغويّين وغيرهم بأن العلمَ ضدُّ الجهل أو نقيضه[5]؛ فمجازٌ مُرسل علاقته السببيَّة؛ لأنَّ الجهلَ في أصل الاستعمال اللغوي ضدُّ الحلم، ولمّا كان الحلم أصلًا ووصفًا يتميَّز به العالم؛ قوبل الجهلُ بكل من الحلم والعلم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الابـتـلاءُ سنَّـةُ اللـهِ في عـبـادِهِ المؤمنينَ

أظَنَّ الَّذينَ أجرَوا كلمةَ التوحيد على ألسنتِهم، وأظهروا القولَ بالإيمانِ أنَّهم يُترَكونَ بذلكَ، ولا يمتحنون، بل يمتحنُهم اللّهُ بأنواع المِحَنِ، حتَّى يبلوَ صبرَهم، وثباتَ أقدامِهم، وصحَّةَ عقائدِهم؛ ليتميَّزَ المُخلِصُ مِنْ غيرِه[6]، ولقد اختبَرْنا أتباعَ الأنبياءِ مِنَ الأممِ السابقةِ، وأصَبْناهم بأنواعِ البأساءِ والضَّرّاءِ، فصبَروا، وعضّوا على دينِهم بالنَّواجذِ، فابتلَيْنا بني إسرائيلَ بفرعونَ وقومِه، وأصابَهم منهُ

(1) الزمخشري، أساس البلاغة: (فتن).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (فتن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(4) الراغب، المُفردات: (علم).
(5) الخليل، العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 439.

البلاءُ العظيمُ، وابتلَيْنا مَنْ آمنَ بعيسى ﵇ بمَنْ كذَّبَهُ، وتولَّى عنهُ، لا جرمَ لَيُصيبَنَّ أتباعَكَ - أيُّها النبي - أذًى شديدٌ ممَّنْ خالفَهم، وليُظهِرَنَّ اللّهُ الصّادقينَ منهُم في إيمانِهم مِنَ الكاذبينَ، ولَيُجازينَّ كلًّا بما يستحقُّ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاستهلالِ بالحروفِ المُقَطَّعةِ:

التَّنبيهُ لِما سيُذكَرُ مِنَ التَّكاليفِ والفُتونِ

الحكيمُ إذا خاطبَ مَنْ يكونُ محلَّ الغفلةِ، أو مَنْ يكونُ مشغولَ البالِ أو مَن يعارضه، فلا يؤمن بقوله، فإنَّه يُقدِّمُ على الكلام المقصودِ شيئًا غيرَهُ؛ ليلتفتَ المُخاطَبُ بسببِهِ إليه، ويُقبِلَ بقلبِه عليهِ، ويلزمه الحجة بذلك، ثمَّ يشرعُ في المقصودِ، والسّوَرُ الَّتي أوائلُها حروفُ التَّهجّي معظمُها في أوائلها ذِكْرُ الكتابِ أو التَّنزيلِ أو القرآنِ؛ لأنَّ القرآنَ عظيمٌ، والإنزالَ لهُ ثقلٌ، والكتابَ لهُ عِبْءٌ، وكلُّ سورةٍ في أوَّلِها ذكرُ القرآنِ والكتابِ والتَّنزيلِ قُدِّمَ عليها مُنبِّهٌ يوجِبُ ثباتَ المُخاطَبِ لاستماعِه.

انفرادُ الاستهلالِ في سورة العنكبوت

وأمّا هذهِ السّورةُ؛ فافتُتِحَتْ بالحروفِ المُقطَّعةِ، وليسَ فيها الابتداءُ بالكتابِ والقرآنِ؛ لأنَّ ثِقَلَ القرآنِ إنَّما يكون بما فيهِ مِنَ التَّكاليفِ والمعاني، وهذهِ السّورةُ فيها ذكرُ جميعِ التَّكاليفِ، حيثُ قالَ سبحانَهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، يعني: لا يُترَكونَ بمُجرَّدِ ذلكَ، بل يُؤمَرونَ بأنواعٍ مِنَ التَّكاليفِ(2)، وقيلَ: افتتاحُ هذهِ السّورةِ بالحروفِ المُقطَّعةِ يُؤذِنُ بأنَّ مِنْ أغراضِها تحدّيَ المشركينَ بالإتيانِ بمِثْلِ سورةٍ مِنَ القرآنِ(3).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 7.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 23.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 200.

كثرةُ المعاني تبعًا لكثرة أغراضِهِ

بلاغةُ الاستفهامِ في ﴿أَحَسِبَ﴾:

الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾، ليسَ على حقيقتِهِ؛ لصدورِهِ عن عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ الَّذي لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، وقد اختُلِفَ في غرضِهِ: فقيلَ: هو للتَّقريرِ والتَّوبيخِ(1)، وقيلَ: هو للإنكارِ(2)، وهو في كلِّ ذلك مُشرَبٌ بالتعجُّب.

ملاءمةُ الحِسْبانِ لسياقِ الإنكارِ

سرُّ التَّعبيرِ بالحِسْبانِ دونَ الظَّنِّ:

عُبِّرَ بالحِسْبانِ دونَ الظَّنِّ في قولِهِ تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾، ولم يقل: (أظنَّ النّاسُ)، لأنَّ الحِسْبانَ كما قيلَ: أنْ يحكمَ لأحدِ النَّقيضَيْنِ مِنْ غيرِ أنْ يُخطِرَ الآخرَ ببالِهِ، والظَّنَّ: أنْ يُخطِرَ النَّقيضَيْنِ ببالِهِ، فيُغلِّبَ أحدَهما على الآخرِ(3)، وسياقُ الآيةِ للإنكارِ، والحِسْبانُ أنسبُ به؛ لأنَّهُ يُفيدُ أنَّ النّاسَ حَكَموا أنَّهم لا يُفتنونَ، ولم يخطر ببالِهم أنَّهم قد يُفتَنون، فيكونُ الإنكارُ أبلغَ، ولأنَّ الحِسبان مبنيٌّ على حساب غير مكتمل الجوانب، بينما الظنُّ مبنيٌّ على مطلق الحدس والتخمين بين جهتَيْن.

تصويرُ الشَّيءِ المعنوي بشيءٍ حسيٍّ لتقريبه إلى الأذهان

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿أَحَسِبَ﴾:

(حَسِبَ) بكسرِ السِّينِ في الماضي: فعلٌ مِنْ أفعالِ القلوبِ أخواتِ (ظنَّ)، ومصدرُهُ الحِسْبانُ بكسرِ الحاءِ، وأصلُهُ مِنَ الحِسابِ بمعنى العَدِّ، فاستُعمِلَ في الظَّنِّ؛ تشبيهًا لجَوَلانِ النَّفْسِ في استخراجِ علمِ ما يقعُ بجَوَلانِ اليدِ في الأشياءِ لتعيينِ عددِها، ومثلُهُ في ذلكَ فعلُ (عدَّ) بمعنى: (ظنَّ)(4)، وهذهِ النُّكتةُ - كما لا يخفَى - مبنيَّةٌ على أنَّ الحِسْبانَ بمعنى الظَّنِّ، لا على التَّفرقةِ بينَهما.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 323، والشوكانيّ، فتح القدير: 4/ 221.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 263، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 338.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 128، وحقّي، الفروق، ص: 148.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 314، 20/ 202.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿أَحَسِبَ﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الحِسْبانِ ووقوعِه

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الحِسْبانَ أمرٌ قد تحقَّقَ، ووقعَ، ورسخَ في أذهانِهم وعقولِهم، ولذلكَ استحقّوا الإنكارَ والتَّوبيخَ عليه.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

إرادةُ عمومِ المؤمنينَ

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالنّاسِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ كلُّ الَّذينَ آمَنوا[1]، أو المُرادُ مَنْ نزلَتْ فيهم الآيةُ[2]، وباقي المؤمنين بالقياس عليهم، وقيلَ: المُرادُ: المنافقونَ[3]، والاحتمال الأخير بعيدٌ؛ لأنَّ السورة مَكيَّة، ولم يكن بمكَّة نفاقٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

الإشارةُ إلى الاضطرابِ أو النسيان

عُبِّرَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ بالناس - والنَّوسُ أصلُ اشتقاقِه كما قيلَ - إشارةً إلى أنَّ فاعلَ ذلكَ مُضطربُ العقلِ، مُنحرِفُ المزاجِ[4]، أو الإشارة إلى نسيان هؤلاء ما أصاب أصحاب الأمم السابقة من الابتلاء الشديد، على أنَّ ألفاظ (الإنسان) و(الناس) مشتقَّة من النسيان مع وجود قلبٍ مكاني في كلمة (الناس).

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّل:

الجمعُ بين دلالة الفعل والمصدر في وقتٍ واحدٍ

قال اللّه ﷻ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾، ولم يقل: (أحسب الناس تركهم غير مفتونين لأجل قولهم: آمنّا، أو أحسب الناس أن قولهم: آمنّا سيكون سببًا في تركهم غير

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 222، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 202.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 338.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 338.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 385.

مفتونين)، ليجمعَ بين دلالة الفعل والمصدر في وقت واحد، أمّا دلالةُ الفعل؛ فهي التَّجدُّد والاستمرار، وأمّا دلالةُ المصدر؛ فهي الثَّبات والتوكيد والمبالغة مع الحدث دون النظر إلى الزمان.

نكتةُ بناءِ ﴿يُتۡرَكُوٓاْ﴾ و﴿يُفۡتَنُونَ﴾ للمفعولِ:

الاستغناءُ عن ذِكرِ من لا يؤبه به

جاء بناءُ فعلَي: ﴿يُتۡرَكُوٓاْ﴾ و﴿يُفۡتَنُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ للمفعولِ دون ذِكرِ الفاعلِ؛ لإظهارِ أنَّ الفاعلَ قومٌ ليسوا بمؤمنينَ، أي: أنْ يُترَكوا خالينَ عن فُتونِ الكافرينَ إيّاهم؛ لِما هو معروفٌ مِنَ الأحداثِ قُبيلَ نزولِها، ولِما هو معلومٌ مِنْ عادةِ النّاسِ أنْ يُناصِبوا العداءَ مَنْ خالفَهم في مُعتقَداتِهم، والمعنى: (أحَسِبَ الَّذينَ قالوا: آمنّا أنْ يتركَهم أعداءُ الدّينِ دونَ أنْ يفتنوهم؟)(1).

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُتۡرَكُوٓاْ﴾:

استمرارُ التَّركِ لهُم وتجدُّدُهُ دونَ فتنةٍ واختبارٍ

جيءَ بفعلِ التَّركِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ مضارعًا؛ للدَّلالةِ على أنَّهُ في ظنِّهم وحِسبانِهم استمرارُ التَّركِ لهُم وتجدُّدُهُ دونَ فتنةٍ واختبارٍ.

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾:

الإشارةُ إلى حصولِ المَقولِ في الأمرِ نفسِه

المرادُ بالنّاسِ في قولِه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾: كلُّ الَّذينَ آمنوا، فالقولُ كنايةٌ عن حصولِ المَقولِ في الأمرِ نفسِه، أي: أَحَسِبَ النّاسُ وقوعَ تركِهم؛ لِأنْ يَقولوا: آمنّا(2).

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَقُولُوٓاْ﴾:

المؤمنُ مُعرَّضٌ للفُتونِ

جيءَ بفعلِ القولِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ مضارعًا؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ القولِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 203.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 202.

واستمرارِهِ منهُم، وفي ذلكَ مزيدُ توبيخٍ لهُم؛ لِما يفيدُهُ الكلامُ مِنْ أنَّ التَّركَ لا يكونُ، وإنْ تجدَّدَ منهُم قولُهم: آمنّا[1]، فالمؤمنُ مُعرَّضٌ للفُتونِ، ولا يُكتفَى منهُ بالتَّلفُّظِ بألفاظِ الإيمانِ.

لطيفةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿ءَامَنَّا﴾:

توبيخ مَنْ يظنُّ أنَّ المؤمنَ لا يُفتَنُ في دينِهِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإيمانِ ووقوعِهِ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ توبيخِ مَنْ يظنُّ أنَّ المؤمنَ لا يُفتَنُ في دينِهِ؛ لِما في صيغةِ الماضي مِنَ الإشعارِ بفَرْطِ وثوقِهِ بما هو عليهِ مِنَ الدّينِ.

بلاغةُ الواوِ في ﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾:

الواوُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ للحالِ، والجملةُ حالٌ من الضَّميرِ في ﴿يُتۡرَكُوٓاْ﴾، أي: لا يَحْسَبوا أنَّهم متروكون وسالمونَ مِنَ الفتنةِ؛ إذا آمَنوا[2].

دلالةُ تقديمِ ﴿وَهُمۡ﴾ على ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾:

إفـــادةُ تـقـوّي الـحـكـمِ بـعـدمِ الفتنِ

قُدِّمَ المُسنَدُ إليهِ ﴿وَهُمۡ﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ لإفادةِ تقوّي حكمِ عدمِ الفَتْنِ، ووجهُ التَّقوّي: أنَّ في قولِهِ: ﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ نسبةَ عدمِ الفَتْنِ إليهِم، وفي ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾ ضميرٌ يرجعُ إلى ﴿وَهُمۡ﴾، فيفيدُ الكلامُ نسبةَ عدمِ الفَتْنِ إليهِم مرَّتيْنِ، كأنَّهُ قيلَ: وهم لا يُفْتَنونَ، وهم لا يُفْتَنونَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفَتْنِ في ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾:

الإشـــارةُ إلى الاضـــطـــرابِ وتشتُّتِ البالِ

المرادُ بالفَتْنِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾: فسادُ حالِ النّاسِ بالعُدوانِ والأذى في الأنفُسِ والأموالِ[3]، وقد عُبِّرَ بلفظِ الفَتْنِ؛ لأنَّهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 386.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 386، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 203.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 203.

لفظٌ يجمعُ معنى اضطرابِ أحوالِ إنسانٍ وتشتُّتِ بالِهِ بالخوفِ والخطرِ على الأنفُسِ والأموالِ على غيرِ عدلٍ ولا نِظامٍ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

الدَّلالةُ على استمرارِ انتفاءِ الفَتْنِ وتجدُّدِهِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ الفَتْنِ وتجدُّده بحسَبِ ظنِّ النّاسِ؛ لأنَّ صيغةَ المضارعِ تفيدُ الاستمرارَ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ؛ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ وتجدُّدَهُ.

بلاغةُ الواوِ في ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا﴾:

كثرةُ المعاني بكثرةِ الاحتمالاتِ الإعرابيَّةِ

إن كانت الواوُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ واوَ الحال، كانت الجملةُ حاليَّةً، وهذهِ الجملةُ حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿أَحَسِبَ﴾، أو فاعلِ ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾، فإذا كانَ حالًا مِنْ فاعلِ ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ دخلَ في حيِّزِ مُتعلِّقِ الحِسْبانِ المُنكَرِ، أي: أحَسِبوا ألّا يكونوا كغيرِهم، وليسَ لهُم أُسْوةٌ بالأممِ السّالفةِ؟.

وإذا كانَ حالًا مِنْ فاعلِ ﴿أَحَسِبَ﴾؛ كانَ حالًا مُقرِّرةً لجهةِ الإنكارِ، أي: أحصلَ الحِسْبانُ، والحالةُ هذهِ؟[2].

وإن كانت الواوُ للاستئنافِ؛ فالجملةُ استئنافيَّةٌ[3]، وما بعدها كلامٌ مُستأنَف استئنافًا نحويًّا، أي: ولقد جرت سُنَّةُ اللّهِ بابتلاءِ أهلِ الإيمانِ في الأممِ السابقةِ.

وإن كانت الواوُ للعطفِ؛ جازَ أن تكونَ عاطفةً لهذهِ الجملةِ على جملةِ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾، وجازَ أنْ تكونَ عاطفةً على جملةِ: ﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾، فتكونَ بمعنى الحالِ، أي: والحالُ قد فتنّا الَّذينَ مِنْ قبلِهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 643.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 133، والخفاجي، عناية القاضي: 7/ 90.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 9.

وعلى كونها للاستئناف أو للعطف، فالجملةُ مُعترِضةٌ بينَ ما قبلَها، وما تفرَّعَ عنهُ مِنْ قولِه: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، فيجوزُ أنْ تُسمَّى تلكَ الواوُ اعتراضيَّةً(1)، فهذه خمسةُ تقديرات أو خمسةُ معانٍ تتفرَّع على ثلاث احتمالات للواو، وفي هذا من البلاغة ما فيه.

بلاغةُ اللّامِ في ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا﴾:

الإيجازُ بحذف المُقسَم به، والتأكيدُ بالقَسَم وهو من أقوى المُؤكِّدات

اللّامُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ واقعةٌ في جوابِ قَسَم محذوفٍ، والتَّقديرُ: (واللّهِ لقد فتنّا الَّذينَ مِنْ قبلِهم)، أمّا الإيجاز؛ فلأنَّه حذف المُقسَم به، ودلَّ عليه اللام و(قد)، وأمّا التَّوكيد فلأنَّ القَسَمَ من أقوى المُؤكِّدات.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ (قد) في: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا﴾:

حرف (قد) في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ حرفُ تحقيقٍ؛ لأنَّها داخلةٌ على فعلٍ ماضٍ، فتفيد التحقيقَ والتوكيد.

نكتةُ تكرار التأكيد: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾:

تنزيلُ المؤمنينَ منزلةَ المُنكِرين

تأكيدُ جملةِ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ بلامِ القَسَمِ وحرفِ التَّحقيقِ؛ لتنزيلِ المؤمنينَ - حينَ استعظموا ما نالَهم مِنَ الفتنة مِنَ المشركينَ، واستبطؤوا النَّصرَ على الظّالمينَ، وذهولهم عن سُنَّةِ الكونِ في تلكَ الحالةِ - منزلةَ مَنْ يُنكِرُ أنَّ مَنْ يخالفُ الدَّهْماءَ في ضلالِهم لا بدَّ أنْ تلحقَهُ منهُم فتنةٌ(2).

أو أنَّه لمّا كانَ التَّأسّي مِنْ سننِ الآدميّينَ؛ توقَّعَ المُخاطَبُ بهذا الأمرِ الخبرَ عن حالِهم في ذلكَ، فجيءَ بالكلامِ مُؤكَّدًا لمَنْ يظنُّ أنَّ الابتلاءَ لا يكونُ؛ لأنَّ اللّهَ غنيٌّ عنهُ، جاهلًا بما فيهِ مِنَ الحكمةِ بإقامةِ الحُجَّةِ على مقتضَى عوائدِ الخلقِ(3).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 204.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 203.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 389.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿فَتَنَّا﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الفِتَنِ ووقوعِهِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الفِتَنِ ووقوعِهِ، فهو عادةٌ جاريةٌ للهِ ﷻ في عبادِهِ المؤمنينَ في كلِّ عصرٍ ومصرٍ.

نكتةُ إسنادِ ﴿فَتَنَّا﴾ إلى نونِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ الفِتَنِ

أُسنِدَ ﴿فَتَنَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ إلى نونِ العظَمةِ؛ لتعظيمِ شأنِ الفَتْنِ وتفخيمِهِ[1]، فهو فعلُ العظيمِ القديرِ سبحانَهُ، الَّذي لَهُ المُلْكُ والأمرُ، وبيدِهِ كلُّ شيءٍ، يفعلُ ما يشاءُ، ويحكمُ ما يريدُ، وقد جعلَ الفُتونَ سُنَّةً جاريةً في خَلْقِهِ[2]؛ لِحِكَمٍ لا يعلمها إلّا هو.

علَّةُ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الدلالةُ على العموم

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾؛ للإشارةِ إلى وقوعِ الفتنِ في عمومِ المؤمنينَ في الأممِ السّابقةِ، أي: ولقد فتنّا كلَّ المؤمنين الذين قبلهم، بحيث لا ينفكُّ عن ذلك أحدٌ بأيِّ اعتبارٍ من الاعتبارات، سواء أكان الابتلاء بالشرِّ أم بالخير.

فائدةُ إثباتِ الجارِّ في ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾:

لمّا كانَ التَّأسّي بالقريبِ في الزَّمانِ أعظمَ؛ أُثبِتَ الجارُّ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾، أي: مِنْ قبلِ هؤلاءِ مِنْ أتباعِ الأنبياءِ[3].

دلالةُ الظَّرفيَّةِ في: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾:

تعميمُ الفُتونِ في الأممِ كلِّها

يدلُّ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ على أنَّ الفِتَنَ سُنَّةٌ قديمةٌ جاريةٌ في الأممِ كلِّها، فلا ينبغي أنْ يُتوقَّعَ خلافُهُ[4]، والتَّعميمُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 389.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 204.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 389.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 188.

في الأممِ كلِّها مُستفادٌ مِنْ قولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْۖ﴾؛ لإطلاقِه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ النّاسَ لم يُترَكوا سُدًى في وقتٍ وإنْ وقعتِ الفترةُ في بعضِ الأحيانِ[1].

غرضُ الإخبارِ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾:

التَّذكيرُ بما لَحِقَ صالحي الأممِ السّالفةِ مِنَ الأذى

المقصودُ بقولِه جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ التَّذكيرُ بما لَحِقَ صالحي الأممِ السّابقةِ مِنَ الأذى والاضطهادِ، كما لَقيَ صالحو النَّصارى مِنْ مشركي الرّومانَ في عصورِ المسيحيَّةِ الأولى، وقد قصَّ القرآنُ بعضَ ذلك في سورةِ البُروجِ، وحكمُها (فَتْن أهل الإيمان) سارٍ في حالِ كلِّ مَنْ يتمسَّكُ بالحقِّ بينَ قومٍ يستخفّونَ به؛ لأنَّ نُكْرانَ الحقِّ أنواعٌ كثيرةٌ[2]، وفي ذلكَ حثٌّ للمؤمنينَ على أنْ يَصْبِروا صَبْرَ السّابقينَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾:

ترتيبُ الكلامِ بعضِه على بعض

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾؛ لترتيبِ ما بعدَها على ما يُفصِحُ عنهُ معنى ما قبلَها مِنْ وقوعِ الامتحانِ[3]، أيْ: يُفتَنونَ، فيعلمُ اللّهُ الَّذينَ صدقوا منهُم والكاذبينَ[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ باللّامِ في ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾:

الإيجازُ والتأكيد

اللّامُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ واقعةٌ في جوابِ قَسَمٍ محذوفٍ[5]، والتَّقديرُ: (واللّهِ فلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذينَ صَدَقوا)، أمّا الإيجازُ؛ فلأنَّه حذف المُقسَمَ به، ودلَّ عليه اللامُ ونون التوكيد اللاحقة للفعل المضارع، وأمّا التوكيد؛ فلأنَّ القَسَمَ من أقوى المُؤكِّدات.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 204.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 30، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 341.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 204.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 30، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 341.

بلاغةُ الجملةِ في: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾:

احتمالُ الكلامِ جملةً من المعاني

ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أنَّهُ تعالى يعلمُ صِدْقَ الصّادقِ في الإيمانِ وكذبَ الكاذبِ فيهِ بعدَ الامتحانِ، وهذا يوهِمُ أنَّهُ تعالى لا يعلمُ بِهِ قبلَ الامتحانِ، والحالُ أنَّهُ تعالى عالمٌ بالأشياءِ كلِّها قبلَ وجودِها وبعدَ وجودِها[1]، وقد اختُلِفَ في توجيهِ الآيةِ، فقيلَ: إنَّ فائدة ذِكْرِ العِلم التَّنبيهُ بالسَّببِ على المُسبَّبِ، وهو الجزاءُ، أي: لَيَعْلَمَنَّهم، فلَيُجازيَنَّهم بسببِ عِلمِهِ فيهم[2]، وهو بذلك كناية عن وعدِ الصّادقينَ ووعيدِ الكاذبينَ؛ لأنَّ العِلمَ سببٌ للجزاءِ بما يقتضيهِ[3].

وقيلَ: المعنى: فلَيتعلَّقنَّ عِلمُهُ بالامتحانِ تعلُّقًا حاليًّا يتميَّزُ بهِ الَّذينَ صَدَقوا في الإيمانِ، والَّذينَ كَذَبوا فيهِ[4]، فهو مِنْ تعلُّقِ العلمِ بحصولِ أمرٍ كانَ في عِلمِ اللّهِ أنَّهُ سيكونُ، ولا مانعَ مِنْ إثباتِ تعلُّقينِ لِعلمِ اللّهِ تعالى: أحدُهما قديمٌ، والآخرُ حادثٌ، ولا يُفضي ذلكَ إلى اتِّصافِ اللّهِ تعالى بوصفٍ حادثٍ؛ لأنَّ تعلُّقَ الصِّفةِ تحقُّق مقتضاها في الخارجِ لا في ذاتِ موصوفِها[5].

وعلى كلٍّ فهو إمّا كناية عن الوعد والوعيد الذي يترتَّب عليهما الجزاءُ، ويمكن أن يكون مجازًا علاقتُه سببيَّةٌ، حيث ذكر السَّبب، وأراد المسبب، فالعلم سبب للجزاء.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ﴾:

علم اللهِ الغيبيّ الحاصل في المستقبل لا يَعزُب عنه شيء

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ على أنَّ علمَ اللّهِ الغيبيَّ الحاصل في المستقبلِ لا

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 10.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 134.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 205.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 188.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 205.

يَعزُب عنه شيء، كما يقتضيه توكيدُ فعلِ العِلم بنونِ التَّوكيدِ الَّتي لا يُؤكَّدُ بها المضارعُ إلّا مُستقبَلًا، وهو تعلُّقٌ بالمعلومِ شبيهٌ بالتَّعلُّقِ التَّنجيزيِّ لصفَّتَي الإرادةِ والقدرة[1].

نكتةُ توكيد: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ﴾ و﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ﴾:

أكثرُ النّاسِ يظنُّ الثَّباتَ عندَ الابتلاءِ

أُكِّدَ قولُه تعالى: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ بالقَسَم ونونِ التَّوكيدِ؛ إشارةً إلى أنَّ أكثرَ النّاسِ يظنُّ الثَّباتَ عندَ الابتلاءِ، وأنَّهُ إذا أخفَى عملَهُ؛ لا يطَّلعُ عليهِ أحدٌ[2].

سرُّ الالتفاتِ في ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾:

إدخالُ الرَّوعةِ وتربيةُ المَهابةِ

عُدِلَ في قولِه سبحانَهُ: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ عن طريقِ التَّكلُّمِ إلى طريقِ الغَيبةِ بإظهارِ اسمِ الجلالةِ على أسلوبِ الالتفاتِ؛ لإدخالِ الرَّوعةِ وتربيةِ المَهابةِ[3]، ولِما في هذا الإظهارِ مِنَ الجلالةِ؛ ليُعلَمَ أنَّ الجزاءَ على ذلكَ جزاءُ مالكِ المُلْك[4].

وعُبِّرَ بالاسمِ الأعظمِ الدّالِّ على جميعِ صفاتِ الكمالِ - ومنها علمُهُ الشّاملُ سبحانَهُ - التفاتًا عن مَظْهَرِ العظمةِ إلى أعظمَ منهُ؛ تنبيهًا للنّاقصينَ - وهم أكثرُ النّاسِ - على أنَّهُ تعالى مُنزَّهٌ عن كلِّ شائبةِ نَقْصٍ[5].

علّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾:

اختصاصُهم بأعلى درجاتِ الصِّدقِ وأقواها

تعريفُ المُتَّصفينَ بصِدْقِ الإيمانِ بالموصولِ في قولِه ﷻ: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم اشتهروا بصِدْقِ الإيمانِ، وأنَّ صِدْقَهم مُحقَّقٌ[6]، فالصِّلة علَّة الحُكم على الموصول، أو للدَّلالة على علّية ما منه الصِّلة كما يقول المفسِّرون.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 204.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 390.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 30، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 341.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 206.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 390.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 206.

وجاء البيان الحكيم باسم الموصول الخاص بجمع المذكَّر السالم؛ للدلالة على قوة الصِّلة التي أزيل إبهامهم بها، ولاختصاصهم بما في الصِّلة، كأنَّه قال: الذين اشتهروا، واختصوا بأعلى درجات الصِّدق وأقواها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في صلة الموصول ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾:

التَّنبيهُ على تحقُّقِ صِدْقِهم واشتهارِهم بِهِ

إن نظرنا إلى دلالة الفعل دون النَّظر إلى الزَّمان؛ دلَّ ذلك على وقوع الصِّدق منهم في كلِّ مراتبه دون النَّظر إلى شيء زائدٍ عنه، ولو كانوا في أدنى تلك المراتب أو أعلاها، وكأنَّه يقول: (فليعلمنَّ اللّه الذين صدقوا، وإن اختلفت مراتب الصِّدقِ فيهم)؛ لأنَّهم لا يمكن، ولا يُتصوَّر أن يكونوا على درجة واحدة في الصِّدق، وهم كثيرٌ.

وإن نظرنا إلى دلالة الفعل وزمانه الماضي ﴿صَدَقُواْ﴾، بعد التَّعبير بالمضارع الدال على الاستقبال ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ﴾، أفاد ذلك تحقُّقَ صدق الإيمان منهم، واشتهارهم به، كأنَّه صفة جِبِلّيَّة فيهم، وإلى هذه المعاني يشير قول المُفسِّرين: إنَّهُ عبَّر بالماضي؛ ليشملَ الَّذينَ صدقوا في دعواهم الإيمانَ، ولو كانوا في أدنى مراتبِ الصِّدقِ[1]، وقولهم لإفادةِ أنَّهم اشتهروا بصِدْقِ الإيمانِ، وأنَّ صِدْقَهم مُحقَّقٌ[2].

بلاغةُ الوصل في ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ﴾:

اشتراكُهم مع الكاذبين في شمول علمِ الله لكلٍّ منهما

الواوُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ للعطفِ، وهي عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على جملةِ: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، فتفيدُ اشتراكَها معَها في التَّفرُّعِ على الامتحانِ المذكورِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾، أي: إنَّ علم اللّه شاملٌ لكلٍّ من الفريقين.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 390.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 206.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ﴾:

الدَّلالةُ على الاستقبالِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ على أنَّ علمَ اللهِ الغيبيَّ الحاصل في المستقبلِ لا يَعزُب عنه شيء، كما يقتضيهِ توكيدُ الفعلِ بنونِ التَّوكيدِ الَّتي لا يُؤكَّدُ بها المضارعُ إلّا مستقبلًا، وهو تعلُّقٌ بالمعلومِ شبيهٌ بالتَّعلُّقِ التَّنجيزيِّ لصفتَيِ الإرادةِ والقدرةِ[1].

بلاغةُ تكرارِ فعلِ العِلمِ:

زيادةُ التَّأكيدِ والتَّقريرِ

كُرِّرَ فعلُ العِلمِ في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؛ لزيادةِ التَّأكيدِ والتَّقريرِ[2]، وبيانِ أنَّ عِلمَهُ تعالى بالكاذبينَ علمٌ مُستقِلٌّ، وليسَ تبعًا لِعلمِه بالصّادقينَ، كما قد يُتوهَّمُ لو قيلَ: (فلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذينَ صدقوا والكاذبينَ).

براعةُ المخالفةِ بينَ ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ و﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾:

زيادةُ تقبيحِ شأنِ الكاذبينَ

عُبِّرَ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ بصيغةِ الفعلِ، وفي قولِه: ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ يدلُّ في كثيرٍ مِنَ المواضعِ على ثبوتِ المصدرِ في الفاعلِ ورُسوخِهِ فيه، والفعلَ الماضيَ لا يدلُّ عليه، كما يقالُ: (فلانٌ شربَ الخمرَ)، و(فلانٌ شاربُ الخمرِ)؛ فإنَّهُ لا يُفهَمُ مِنْ صيغةِ الفعلِ التَّكرارُ والرُّسوخُ، بينما يُفهم ذلك من صيغةِ اسم الفاعل، ووقت نزول الآية كانت الحكايةُ عن قوم قريبي العهدِ بالإسلامِ في أوائلِ إيجابِ التَّكاليفِ، وعن قومٍ مستديمينَ للكفرِ مُستمرّينَ عليه، فقالَ في حقِّ المؤمنينَ الَّذينَ صدقوا بصيغةِ الفعلِ، أي: وُجِدَ منهُم الصِّدقُ، وقالَ في حقِّ الكافرينَ الكاذبينَ بالصّيغةِ المُنبئةِ عن الثَّباتِ والدَّوامِ[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 204.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 30، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 341.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 27، وزاده، حاشية على البيضاوي: 6/ 485.

وقيلَ: جاء تعريفُ المُتَّصفينَ بالكذبِ بطريقِ (أل) الموصولة وبصيغةِ اسم الفاعلِ؛ لإفادةِ أنَّهم عُهِدوا بهذا الوصفِ، وتميَّزوا بهِ، مع ما في ذلكَ مِنَ التَّفنُّنِ ومراعاةِ الفاصلة[1].

بلاغةُ الجمعِ بينَ الصِّدقِ والكذبِ:

مراعاةُ الطِّباقِ بينَ اللَّفظيْنِ

جُمِعَ بينَ الصِّدقِ والكذبِ في قولِه ﷻ: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؛ رِعايةً للطِّباقِ بينَ اللَّفظيْنِ، بحيثُ يكونُ أمامَ القارئِ والسّامعِ صورتانِ متقابلتانِ؛ لأنَّ المُرادَ بالصِّدقِ ثباتُ الشَّيءِ ورُسوخُهُ، وبالكذبِ ارتفاعُهُ وتزلزُلُهُ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحِسْبان والظَّنّ:

الظَّنُّ فيهِ تغليبٌ لأحدِ النَّقيضَيْنِ على الآخَرِ، والحِسْبانُ لا تغليبَ فيهِ

فُرِّقَ بينَ الحِسْبانِ والظَّنِّ بأنَّ الحِسْبانَ هو أنْ يحكمَ لأحدِ النَّقيضيْنِ مِنْ غيرِ أنْ يُخطِرَ الآخرَ ببالِه، والظَّنَّ أنْ يُخطرَ النَّقيضينِ ببالِه، فيُغلِّبَ أحدَهما على الآخرِ[3]، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ الحِسبان مبنيٌّ على حسابٍ غير مكتمل الجوانب، بينما الظنُّ مبنيٌّ على مُطلَق الحدس والتخمين بين جهتَيْن.

الفتنة والابتلاء:

الفتنةُ أعمُّ منَ الابتلاءِ في مصدرِها ومُتعلَّقِها

أغلبُ ما تكون الفتنة في المجتمعات، وأغلبُ ما يكون الابتلاء في الأفراد، وأغلب ما تكون الفتنةُ بالتعذيب، والأصل في الابتلاء أن يختصَّ بأهل الإيمان، وأمّا الفتنُ؛ فتستشرف كلَّ الناس، والفتنةُ تكون من اللهِ ومن الناس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [البروج: 10]، والابتلاءُ لا يكون إلّا من الله، والفتنةُ إذا كانت من الناس؛ فتكون بقصد إثارة الخلاف والشِّقاق والفساد بين الناس.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 206.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 205.
(3) الراغب، المفردات: (حسب).

الفِتْنة والاختبار:

الاختـبـارُ ليس فيه فتنة غالبًا

الفرقُ بينَ الفِتْنةِ والاختبارِ: أنَّ الاختبارَ كالامتحان لكن ليس فيه فتنةٌ، وأصلُ الفتنة عَرْضُ الذَّهَبِ على النّارِ؛ ليتبيَّنَ صلاحُهُ مِنْ فسادِهِ، وتكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: 15]، وقالَ: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجن: 16 - 17]، جُعِلَتِ النِّعمةُ فِتْنةً؛ لأنَّهُ قُصِدَ بها المبالغةُ في اختبارِ المُنعَم عليهِ بها[1]، والاختبارُ معرفةُ حال المختبر والوقوف على مخبرِهِ، أي: الحكمُ الذي يقع بكُنْهِ الشَّيءِ وحقيقته، وأغلب ما يُستعمل في العلوم والمعارف بخلاف الفتنة، وثمرة الفتنة لا تظهر للناس غالبًا بخلاف الاختبار.

العِلم والمعرفة:

العِلمُ أعمُّ مِنَ المعرفةِ

الأصل في المعرفة أنَّها تمييزُ ظواهرِ الأمور المرئية: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [البقرة: 273]، أو المسموعة: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمد: 30]، سواء بالشَّكل أم بالثياب أم بالكلام أم بغير ذلك، مأخوذة من العُرف الذي ينبتُ على رأس الحيوان أو الطائر، وهي علم بالظاهر، بينما العلمُ تمييز ذوات الأمور وظواهرها، لكن من خلال أثر يدلُّ عليها، وتتميَّز به - كما مرَّ في مادة (علم) - وعليه فيكون العلم أعمَّ من المعرفة.

ومن وجهٍ آخرَ في كون المعرفةِ أخصَّ مِنَ العِلم: أنَّ المعرفةَ عِلمٌ بعينِ الشَّيءِ مُفصَّلًا عمّا سواهُ، والعِلمَ يكونُ مُجمَلًا ومُفصَّلًا[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 396.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 500.

المحتويات

